

دار الكتب والوثائق القومية
الإدارة المركزية للمراكز العلمية
مركز تاريخ مصر المعاصر

الكافي
في
تاريخ مصر القديم والحديث

تأليف
ميخائيل بك شاروبيم

القسم الثالث

تحقيق ودراسة
الدكتور عبد الوهاب بكر

مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة
(١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م)

الكافى

في

تاريخ مصر القديم والحديث



دار الكتب والوثائق القومية
الإدارة المركزية للمراكز العلمية
مركز تاريخ مصر المعاصر

الكافى

فى

تاريخ مصر القديم والحديث

تأليف
ميخائيل بك شاروبيم

الجـزء الخامس

القسـم الثالث

تحقيق ودراسة
الدكتور عبد الوهاب بكر

مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة
(١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م)

الهيئة العامة
لدار الكتب والوثائق القومية

رئيس مجلس الإدارة
أ. د. أحمد مرسى

شاروبيم، ميخائيل.
الكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث/ تأليف ميخائيل شاروبيم؛ تحقيق ودراسة عبدالوهاب بكر. ـ [القاهرة]: دار الكتب والوثائق القومية، مركز تاريخ مصر المعاصر ، 2003.
مج 5 ؛ 28 سم.
يشتمل على إرجاعات ببليوجرافية.
تدمك x - 0314 - 18 - 977

٩٣٢

إخراج وطباعة:
مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة.

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٠٠٣/١٩٩٥٧
I.S.B.N. 977 - 18 - 0314 - x

الفهرس

عام ١٩٠١

عام ١٩٠٢

عام ١٩٠٣

عام ١٩٠٤

عام ١٩٠٥

عام ١٩٠٦

عام ١٩٠٧

عام ١٩٠٨

عام ١٩٠٩

عام ١٩١٠

مصادر الدراسة

تصدير

بسم الله الرحمن الرحيم

نشرت فى عام ١٩٩٨ بعضا من كتاب (الكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث) الجزء الخامس ، لميخائيل بك شاروبيم ، وهو كتاب لم يكن قد نشر منذ وفاته وحتى حصلت عليه مخطوطا فى التسعينات المبكرة . كان المخطوط يغطى تاريخ مصر منذ وفاة الخديو محمد توفيق باشا (١٨٩٢) وحتى فبراير ١٩١٠ ، وهو الشهر الذى وقع فيه حادث اغتيال المرحوم بطرس باشا غالى ، رئيس النظارة المصرية (١٩٠٨ - ١٩١٠) .

فى الإعداد لتحقيق هذا العمل الضخم (١٢٣٧ صفحة) عولت على تقسيمه إلى مجلدين ، فأعددت المجلد الأول الذى غطى الفترة من ١٨٩٢ وحتى آخر القرن التاسع عشر (١٩٠٠م) ، وصدر هذا العمل بالفعل عن (دار الكتب والوثائق القومية) ووقع فى (١٢٨٠ صفحة) فى شكل قسمين لظروف الحجم والتجليد وهذه الأمور الفنية .

بقى البعض الثانى من المخطوط (١٩٠١ - ١٩١٠) دون تحقيق لبعض الوقت ، وكان السبب يرجع لبعض ارتباطات والتزامات علمية ، لكن عينى وعقلى كانا دائما معلقان بإنجاز المخطوط ، إذ لم يكن هناك ثمة فائدة من تحقيق جزء وترك جزء آخر ، خاصة وأن البعض الذى لم يحقق كان يتضمن بعضا من أهم حوادث مصر فى العقد الأول من القرن العشرين .

وهكذا فإنه عندما أراد الله ، توفرت على المخطوط حتى أنجزته ، وبالتالى فإن مشروع تحقيق ونشر الجزء الخامس من (الكافى) قد تم بعناية الله وتوفيقه .

ليس عندى ما أضيفه فى هذا التقديم ، فقد قدمت للعمل بأكمله فى الأقسام التى صدرت فى عام ١٩٩٨ وتحدثت عن لغة المؤلف وأسلوبه واتجاهاته وتعليقاته ونقده ومشاعره تجاه الحوادث والأشخاص ، فإلى هذه الأقسام أحيل القارئ الكريم .

لكن هذا القسم من (الكافى) يتميز بمذاق خاص ، فقد حوى أهم حوادث مصر السياسية ، فيه وقع الوفاق الودى (١٩٠٤) ، أزمة طابا ، حادث دنشواى ، وإذلال الشعب المصرى على يد نفر من بنيه ، سقوط (كرومر) العتيد ، الوفاق المصرى البريطانى (عباس - جورست) ، نظارة بطرس غالى - قيام الأحزاب المصرية - تصاعد المد الوطنى وارتفاع

الأصوات المطالبة بالحرية والديمقراطية ـ المطالبة بالدستور وحق المشاركة فى إدارة شئون البلاد ـ مظاهرات طلبة المدارس العليا ومن بينها مدرسة الحقوق ـ التهجم على الخديو وحكومته ـ صدور قانون المطبوعات ومحاولات قمع الحركة الوطنية ـ تطور دور المجلس النيابى ـ رفض الحكم الفردى واضطهاد الشعب ـ اتساع الفجوة بين الحكومة والشعب ـ ظهور اتجاهات غير صحيحة بين المسيحيين والمسلمين ـ بدايات العنف السياسى ، انتهاءاً بوقوع أول حادث للإغتيال السياسى فى مصر والذى فتح الباب لمسلسل من العنف السياسى على مدى ٧٠ عاما تالية وصولا إلى إغتيال رئيس الدولة نفسه فى عام ١٩٨١ ، ثم وقوع البلاد تحت تأثير موجة من العنف المسلح فى التسعينات . ولابد لعقد كهذا من أن يثير الجدل وردود الأفعال ويرفع من حدة الحوار ، وقد يخرج من يرصد حركة الأحداث عن خط الحياد الذى هو أساس الكتابة التاريخية .

وهذا هو ما حدث فى العقد الأول من القرن العشرين لكاتبنا (ميخائيل بك شاروبيم) . فقد انفعل وتفاعل مع الأحداث ، واتسمت تعليقاته وتحليلاته بالحدة ، وخاصة ما اتصل منها بحركة (الحزب الوطنى) وزعيمه (مصطفى كامل) الذى كان يحمل له ودا مفقودا ، وما شابه ذلك من المظاهر التي لونت الحركة الوطنية فى ذلك العقد .

من هنا فقد جاءت كتابات (ميخائيل بك) فى العقد الأول من القرن العشرين ، والتى يحتويها هذا القسم من (الكافى ـ الجزء الخامس) ، فريدة في كافة جوانبها ، اتجاها ومذاقا ، بحيث أستطيع أن أزعم أن تحقيقها لم يكن مجرد تحليل للأحداث التى تضمنتها الفترة ، بل تعداها إلى رصد لانفعالات مؤرخها وأثر هذه الانفعالات فى كتابته ، وتتبع درجة حرارة هذه الكتابة واستكشاف نوعية الأحداث التى كانت تؤدى إلى سخونة تحليلاته ، ومحاولة إيجاد علاقة السببية بين هذه الحوادث واتجاهات التحليل والتعليق عنده .

لهذا فإننى أستطيع أن أقرر دون مبالغة ، أن ما تضمنه هذا القسم من (الكافى) يعد من أخطر وأهم ما كتبه (شاروبيم بك) فى سلسلة تاريخه الكبير (الكافى بأجزائه الخمسة) .

بقيت نقطة لا أستطيع أن أنهى هذا التقديم قبل أن أشير إليها . لقد أنهى (ميخائيل

بك شاروبيم) عمله هذا عند شهر فبراير ١٩١٠ ، وبالتحديد عند بدايات محاكمة (إبراهيم ناصف الوردانى) ، دون أن يبرر هذا المسلك ، وهو ما يثير التساؤل عن ذلك البتر المفاجئ لعمله فى وقت كان المفترض أن يقدم المزيد من النقد والتحليل مع تصاعد وتيرة الأحداث فى تاريخ مصر .

فيما يتصل بى فقد حرصت فى تحقيقى (للكافى) على التدقيق فى تصحيح الكلمات الكثيرة التي أخطأ الناسخ فى طبعها ، والتى كانت فى كثير من الأحوال تغير من المعنى الذى يقصده المؤلف ، كما قدمت فى بعض الأحوال قراءتى للحدث فى ضوء السياق التاريخى ، عندما كانت الكلمات تخرج عن أمكانية تصويبها اجتهاديا أو ترجيحيا أو تصويبيا أو لغويا . على أننى فى هذا كنت لا أخرج إطلاقا عن روح كتابة (ميخائيل بك) ، وعلى كل حال فقد كانت هذه الأحوال قليلة للغاية .

كذلك فقد شرحت الحوادث التى احتاج الأمر إلى تقديم معلومات تاريخية عن الظروف التى أدت إليها هادفا من ذلك إلى تقديم الخلفية العلمية اللازمة لفهم الواقعة التاريخية وظروف وقوعها .

ولقد توخيت فى شروحى لما قدمه (شاروبيم بك) النظر إلى النص ككل متكامل ، انطلاقا من حقيقة التسلسل التاريخى للأحداث ، هذا إذا كانت هناك ثمة صلة بينها ، وهو كثير .

وفى المجال الفيلولوجى فقد توخيت تقديم أصول الكلمات التى احتاجت إلى شرح فيلولوجى ، متتبعا (التغير الدلالى) الذى أصابها على طول الزمان حتى وصلت إلينا على الشكل الذى قدمه (ميخائيل بك شاروبيم) .

وبعد . . . فها هو الكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث مكتملا .

هذا وإننى أرجو أن يكون جهدى فى تحقيقه بتوفيق الله وعنايته مقبولا لدى القارئ الكريم .ومنى الجهد ومن المولى سبحانه وتعالى السداد .

عبدالوهاب بكر

مصر الجديدة ــ شتاء ٢٠٠٣

عام ١٩٠١

وفاة الملكة ڤكتوريا ـ ولاية الملك إدوارد السابع ـ الحرائق فى بلاد الريف المصرى ـ السيول فى مصر ـ عودة أحمد عرابى من المنفى ـ زيارة عباس حلمى للسودان ـ العلاقات بين الخديو والسلطنة ـ ابطال عوائد الدخوليات .

ثم دخلت سنة إحدى وتسعمائة وألف للميلاد

استهلت سنة إحدى وتسعمائة وألف للميلاد يوم الثلاثاء عاشر رمضان سنة ثمان عشر ومائتين وألف للهجرة وثالث عشر كيهك سنة سبع عشرة وستمائة وألف للشهداء

فصل

فى ذكر ما وقع فيها من الأحداث

استهلت السنة والحركة ساكتة وقد قلنا فى ما تقدم أن لورد كرومر أشار فى خطابه الذى ألقاه على أهل السودان فى تلك الحفلة[1] أنه تلقى من بعض الأهالى خطابا ولكنه لم يصرح لأحد بما فى ذلك الخطاب، ولكن ظهر أن الخطاب كان موقعا عليه من نيفا وثلثمائة سودانى يطلبون فيه تعويضا عما خسروه على عهد السلطة المهدوية من أرض ومال ونهب وغير ذلك . فلما اطلع لورد كرومر على ما فيه أكبره جدا ، وأعظم الأمر . وكانوا قد طبعوا من ذلك الكتاب عدة نسخ ونشروها فى الخرطوم وأرباضها ، وتفشى خبره بين الناس فأقبل القوم يبتاعون نسخه ويوقعون عليها ويرفعونها إلى قصر الحاكم العام ، وقد وقفوا على بابه يستصرخون فى الصباح وفى المساء . فخاف لورد كرومر شر العاقبة وبرز أمره بمعاقبة طابعه وموزعيه بين أهل الخرطوم .

وكان أصحاب الوظائف وأهل الخطط قد رفعوا أيضًا إلى اللورد عريضة يشكون فيها من سوء حالهم وقلة جماكيهم ، وما يقاسونه من شظف العيش فى ذلك الصقع البعيد ، فلم يسعه إلا ملاطفتهم وتطمين نفوسهم ، وقد التبس على الناس فهم الحقيقة فظنوا أن طلبات أهالى السودان وطلب أصحاب الوظائف وأهل الخطط واحدة ، وأن الهرج فاش فى السودان والفتنة بادية ، وأن ذهاب لورد كرومر ومن معه إلى الخرطوم كان ليسد هذه الفرجة المتوقعة من جلبتهم . وظل الحال علي هذا حتى قام رجل ولعله إسرائيلى المذهب يقال له (اليا براوخ) وكتب فى إحدى الصحف المحلية كتابا مفتوحا يقول : (ما

(١) تمت زيارة كرومر للسودان فى ديسمبر عام ١٩٠٠ .
راجع ص ٦٦٣ من (الكافى) الجزء الخامس ـ القسم الثانى .

بال جماعة الإنجليز يخلطون بين العريضة التى رفعها أصحاب الوظائف فى السودان وبين العريضة التى رفعها السودانيين إلى عميد الاحتلال ، على أن عريضة السودانيين هى عريضة خصوصية ، قد دعانى أهل السودان وهم أربعة آلاف نسمة ويزيد إلى وضعها ، وفيها طلب التعويض على أولئك الذين دمرت بيوتهم واجتيحت أملاكهم على عهد المهدوية ، وكلهم قد وكلوا إلى وإلى آخرين أيضًا السعى وراء حاجتهم بالطرق المألوفة ، لأن أبواب المحاكم قد قفلت فى وجوههم . فعاهدناهم على ذلك ولا نزال نبذل من أجلهم كل جهد حتى نصل بهم إلى الغاية إن شاء الله . ولقد أنفقنا الأموال علي أولئك المنكوبين وساعدناهم بكل ما وصلت إليه قدرتنا ، على أننا لم نرسل تلك العرايض لتقدم إلى لورد كرومر أو غيره من جماعة الإنجليز أصحاب الحل والعقد ، ولكننا أرسلنا إلى كل واحد ممن وقع اختيارهم علينا نسخة ليعرف ما نحن طالبون باسمه قال (فإن كان هذا التظلم قد ذهب بشيء من بهجة رحلة العميد وفخامة خطابه الذى ألقاه على أولئك السود ، وكأن الريح هبت من تحت المجداف فأقلقت السفينة وركابها ، فلا لوم علينا ولا تثريب) ، وكان النجوسى منليك ملك ملوك الحبشة لم يوافق إلى هذا الحين على تعيين التخوم بين مملكته والديار المصرية على ما أشار به جماعة الإنجليز بالسودان فكانت الطريق بين المملكتين مخيفة وقوافل التجار فى اضطراب ، وأبناء السبيل لايجسرون على الدنو من تخوم الحبشة خوفا من السلب والقتل . فلما طال الحال على هذا جعل جماعة الإنجليز يكاتبون الناجوسى ويبعثون إليه الرسل ، ومعهم بعض التحف والهدايا من الاجواخ والأقمشة المصرية ، ويستميلونه إلى التعجيل بوضع التخوم ليسهل على القوافل الوصول إلى بلاد الحبشة ، وترجع التجارة بين المملكتين إلى عهدها القديم ، وهو يطاول ويحاول . ومع ذلك فقد أجاز جماعة الإنجليز لتجار الحبشة نقل بضائعهم إلى السودان ، كما أجاز الناجوسى لقوافل السودان اجتياز القضارف إلى أرض الأحباش . وشاع خبر ذلك بين أصحاب تجارة السودان فى القاهرة والاسكندرية ، ففرحوا بذلك فرحا عظيما ، وسيروا تجارتهم إلى الخرطوم على ظهور السفن والبواخر ، وراجت التجارة رواجا عظيما . وجاء الخبر بزحف الناجوسى من أديس أبابا إلى جهات النيل بجيش جرار ، لا للغزو القتال ، بل ليكون على مواصلة بواسطة مقدمى جيوشه مع المفوضين الذين يحضرون من طرف جماعة الإنجليز لإقامة تلك الحدود ، وقد برح

هؤلاء المفوضين الخرطوم كما جاءت الأنباء بذلك إلى قصر الإمارة ووزارة الحرب قاصدين إعالى النيل ، حيث ينتظرون ورود الأخبار من (الكولونيل هارنجتون[٢]) سفيرهم لدى الناجوسى . وزاد الطلب فى هذا الحين على أصحاب البضائع بارسال بضاعتهم إلى الخرطوم وحلفا وأصوان ، وكثر توارد السفن للنقل ، وكانت الحركة مباركة . وما هى إلا أيام حتى تثاقل الانجليز فى عملهم وتشاغلوا عنه بالثورة التى هبت فى الصومال وأضرم نارها (محمد بن عبدالله[٣]) المهدى الجديد الذى تقدم الكلام على خروجه على حدود الحبشة وسد الطريق على القوافل وأبناء السبيل . فإنه لما خرجت عليه الجنود الحبشية ومزقت شمل جموعه شر ممزق ، وتحقق أن لا قبل له مقاتلة أولئك القوم ، وأن كل ربح فى غزوهم ضائع لا محالة ، وجه قومه شطر الأملاك الإنجليزية هناك ، فنزلوا على بربر[٤] نزول السيل العرم وملكوا الأرباض وزحفوا على البلاد ، فلم ير الحاكم بدا من تجنيد الأهالى لحراسة البلد وحراسة (زيلع[٥]) أيضًا مخافة أن يتمكن منها الثائرون . وكانت حكومة الهند قد وعدته بالامداد الشريعة[٦] من (بومباى) فلم تفعل ، ولم تقدر أن تستنجد إلا بجماعة من أصحاب البنادق النازلين فى (جزيرة توريس) فلم يقدروا على مقاومة العدو لبأسه ، واعتقاد الثائرين فى صحة مهدوية الرجل ، وأن رصاص الإنجليز لم يفعل فيهم ، وأنه يتناثر حولهم كالتراب . ومن غريب أمره أن إحدى سفن الحرب الإنجليزية كانت فى هذا الحين راسية فى (بربره) يوم دنوه منها ، فبرز لها الأمر بمعاونة الجنود على الثائرين ، فلما خيم الظلام جعلت تحول أنوارها الكهربائية إلى الآكام والهضاب لتقف على مواقف الثائرين ومعسكرهم ، فلما رآها القوم لاذوا إلى المهدى ، فقال لهم : (هذه آية من آياتى ومعجزة من معجزاتى حتى تصدقوا بأنى صاحب الدعوة) فصدق القوم كذبه وتفانوا فى طاعته واستماتوا فى حبه ، فكبر شره وعم تلك الأطراف

(٢) عن المباحثات البريطانية ـ الحبشية بشأن تحديد الحدود بين السودان والحبشة . راجع حاشية ٥٨١ ص ٥٥٥ و٢٣٠ ص ٦٥٦ من (الكافى) . الجزء الخامس ـ القسم الثانى .

(٣) عن محمد عبدالله هذا ـ راجع حاشية ٧٨ ص ٦٢٩ من (الكافى) ـ الجزء الخامس ـ القسم الثانى .

(٤) علميا فالمفروض أن يكون اسم البلدة (بربرة) وليس (بربر) . فالأولى هى الأقرب إلى (هرر) و(زيلع) . وعاصمة الصومال الإنجليزى فى ذلك الوقت ، أما (بربر) فهى قرية فى النوبة العليا على الشاطئ الأيمن للنيل وفى الأراضى السودانية ـ وتبعد كثيرا عن منطقة نشاط الثائر الصومالى محمد بن عبدالله

Larousse Universel - Vol. I. p., 229

الخريطة ملحق (٣) فى (الكافى) ـ الجزء الخامس ـ المجلد الأول .

(٥) عن زيلع انظر الحاشية ٤٥٧ ص ٢٦٤ من (الكافى) ـ الجزء الخامس ـ القسم الثانى .

(٦) بالامداد الشريعة : بالإمدادات السريعة قراءة ترجيحية .

خبره ، وأشفق جماعة الانجليز أن يتولاهم الهزم وتثور عليهم جميع القبائل المصافية ، فجعلوا يراسلون الناجوسى ويسألونه الزحف على ذلك الدعى أينما صار ، وتمزيق شمل لمومه قبل أن يستفحل أمره ويعظم شره ، واهتموا لجعل المخابرات البرقية ما بين التخوم والأملاك المصرية فى حذر من تعدى الخوارج وأهل الشقاوة . فعمدوا إلى مد خط تلغرافى مستقل ما بين (راس الرجاء الصالح) والأملاك المصرية حتى مدينة الاسكندرية ، وسيروا الصناع والعمال والأدوات على ظهور السفن تباعا إلى رأس الرجاء . وكان لما وصلت الاسلام[٧] إلى بلاد بعض القبائل تباطأ الصناع فى عمبهم[٨] خوفا من أهل تلك البلاد ، وجعلوا يستميلونهم بالعطايا من الخرز والأقمشة ، ويتوددون إليهم كى لا تبدو منهم معارضة أو يقلبون[٩] على الخط فيقطعونه بعد ذهاب العمال وأرباب الخفارة ، سيما وأن تلك القبائل أهل حرب وكفاح . وظلوا على هذا حتى استمالوهم وتمكنوا من تمهيد كل عقبة فى سبيلهم . وكان مما أطاع لهم أولئك القوم ، ما دسوه لهم وتسلطوا به على عقول كبارهم من أن فى سلك الخط سر عجيب وأمر مدهش غريب ، عوانه[١٠] إذا لمسه أحدهم بيده أو أراد به اتلافا مات لساعته فلم يصدقوا ذلك وأتوا بأحد العبيد فأمسك السلك بيده ، وكانت الكهرباء فيه على أشدها فاحترق العبد وسقط ميتا ، فزعر[١١] القوم وتأتل[١٢] فى نفوسهم الخوف ، وظنوا أنه من عمل الشياطسن[١٣] ، فصاروا لا يقتربون منه وجعلوا يساعدون العمال على مد الأسلاك ، فإذا اقترب أحدهم من الخط نادوا عليه وحذروه ، فكان كل ذلك من مسببات الفلاح وكان كل ما لاقوه من المتاعب إنما هو من نقل الأدوات والأحمال واجتياز الغابات الكثيفة والادغال والمستنقعات بالمنطقة الداخلة ضمن النفوذ الألمانى . وسر جماعة الانجليز بهذا الفلاح سرورا عظيما ، وقام أصحاب صحف أخبارهم ينظرون الصناع وأصحاب هذا العمل العظيم ويبشرون قومهم بمستقب[١٤] ميمون لتلك الديار على يدى صاحب سياستهم . وما هى

(٧) الإسلام : الأسلاك قراءة ترجيحية .
(٨) عمبهم : عملهم قراءة ترجيحية .
(٩) يقلبون : ينقلبون قراءة ترجيحية .
(١٠) عوانه : هو أنه قراءة ترجيحية .
(١١) فزعر : فذعر قراءة ترجيحية .
(١٢) وتأتل = وتأصل قراءة ترجيحية .
(١٣) الشياطسن : الشياطين قراءة ترجيحية .
(١٤) بمستقب : بمستقبل .

إلا أيام حتى جاء جماعة من مكتشفى المعادن وأصحاب علم المناجم ، وجعلوا يغدون ويروحون بين قنا والاقصر وأصوان ، وعلى رأسهم كبير من المهندسين . وظلوا على هذا أياما ، ثم استدلوا بعد ذلك على مركز للذهب ، فاهتموا لها اهتماما كبيرا ، وعرفوا من أمره على أنه كان معروفا من زمان بعيد ، وعلى أن عارفيه استخرجوا منه ذهبا كثيرا - ولكنهم عادوا فهجروه لقلة الماء وبعده عن النيل . وهذا المركز واقع من متوسط الطريق بين قنا والأقصر . فكان فرح جماعة الانجليز بهذا الإكتشاف مضاعفا ، وتكلم أصحاب صحفهم فى شأنه كثيرا وأهل البلاد فى سنة من النوم لايعرفون عما فى بلادهم من الخير المخبوء شيئا رغما عن حاجتهم إلى ذلك . وقد ذهب ذلك المهندس الكبير إلى بلاد الحبشة ليستخدم منها جماعة ، وقيل بأن الحكومة الانجليزية هى التى أرسلت جماعة من المفوضين ليستأجروا أولئك النفر للخدمة في جنوب أفريقية ، حيث هم فى حرب مع أهلها . فتمكنوا من استئجار بعضهم وكان الحاكم الحبشى في تجواله وهو (الرأس بادتو جوزيف) فلما عاد وعلم بما جرى ، وكان المستأجرين قد بلغوا المايتين حبشى قام من فوره فى قلة من الجند إلى الساحل ، وبرز أمره بمنع كل حبشى من السفر ، وسير كتبه إلى عامل (جيبوتى[١٥]) بمنع كل مسافر من الحبشان إلا بإذن منه وجواز بيده . يقال واسترجع أولئك النفر ، فامتعض جماعة الانجليز وهالهم أمر ذلك وأكبروه جدا وحسبوها دسيسة من الروس ، وقد وصل يومئذ إلى (جيبوتى) باخرة دانيمركيه تعمل[١٦] من (بطرسبوج[١٧]) أربعمائة سبعة وتسعين صندوقا ملأى بالبنادق ، وثلاثة آلاف وأربعمائة

---

(١٥) جيبوتى Djibouti تقع شمال القرن الأفريقى على مضيق باب المندب ، البوابة إلى البحر الأحمر . تحدها أثيوبيا وجمهورية الصومال الان . عاصمتها جيبوتى ، كانت تعرف سابقا باسم (اقليم عفار وعيسى الفرنسى (The French Territory of the AFars and the Isas) . امتلكت فرنسا جيبوتى عام ١٨٨٤ وسميت المنطقة (بالصومال الفرنسى French Somaliland) . أكملت فرنسا مع أثيوبيا بناء خط حديدى يصل بين العاصمة الأثيوبية (أديس أبابا) وميناء جيبوتى عام ١٩١٧ . حتى عام ١٩٧٧ كان الإقليم جزءا من الجمهورية الفرنسية دستوريا . استقلت جيبوتى عام ١٩٧٧ وأصبح اسمها جمهورية جيبوتى . تقع العاصمة جيبوتى على خليج تاجورا Tadjoura جنوب باب المندب . أسس الفرنسيون هذا الميناء الاستراتيجى عام ١٨٨٨ .

Lexicon Universal Encyclopedia Vol. 6 - p., 207 - 208 .

(١٦) تعمل : تحمل قراءة ترجيحية .

(١٧) بطرسبوج = بطرسبرج Saint petersbourg ـ اسم عاصمة روسيا منذ ١٧١٢- ١٧١٣ وحتى عام ١٩١٤ . فى ذلك العام تحول الاسم إلى بتروجراد Petrograd حتى عام ١٩١٨ ـ ومع قيام الجمهورية السوفيتية أصبحت العاصمة موسكو Moscou

Larousse Universel Vol. 2. pp., 557, 864

Lexicon Universal Encyclopedia Vol. 13 - pp., 597 - 598

اثنين وسبعين ملأى بالخرطوش ، ومائة صندوق من القنابل الرشاشة ، وعشرين صندوقا فيها مواد ومعدات أخرى ، وكلها مرسلة إلى مقاطعة خط الاستواء التى ولى النجوسى إدارتها الكونت (ليوتيف الروسى) . ثم وصل بعد هذه الباخرة باخرة أخرى وعليها تسعة من الضباط الروس أساتذة كتدريب[١٨] أصحاب المدافع والفرسان والمشاة ، ومنهم المعلمون الميكانيكيون ،ومع هؤلاء الضباط كبير اسمه (زانسكى) يقال أنه المساعد الحربى (للكونت ليوتيف) . ولما شاع خبر ذلك تحدث به الناس كثيرا وظهرت الحركة في وزارة الحرب بالقاهرة وفى منازل جند الاحتلال ، وكعلت[١٩] مركبات الخدمة العسكرية تغدو وتروح ما بين قلعة الجيب[٢٠] والعباسية وقصر النيل . وفيما الحال على هذا إذ جاءت الأنباء من الخرطوم بوصول الحملة التى عنى صاحب جريدة (الدايلى تلغراف) الانجليزية بانفاذها إلى أفريقية ، وقد جازت ألف ومايتين ميل على مجرى النيل ، وعلى رأسها مقدم اسمه المستر (دكله) . ومما رواه (دكله) هذا أن النتائج التي حصلت عليها (الشركة الانجليزية الافريقية) يعنى بها شركة (سسل رودس) صاحبة مناجم الماس بجنوبى أفريقية ، وموقدت[٢١] نار الحرب بين الانجليز والبوير وحكومة السودان هى فى غاية ما يرام ، ولا شبيه لها على الإطلاق . قال فإن ما فعله أصحاب الحل والعقد من الإنجليز هنالك هو الاستعمار بمعانيه ، ولكن مزاحمة الروس فى تلك الأصقاع رما[٢٢] كانت جرحا بطىء الاندمال . على أن الإمبراطورية البريطانية فى أفريقية تقوم الآن على الأسس التى وضعها المستر (سسل برودس[٢٣]) (واللورد كرومر) (واللورد كتشنر) التي وطد (الورد رويش[٢٤]) أركانها أحسن توطيد . يعنى باخضاعه البوير . قال وهذه الإمبراطورية ستكون عما قريب غرة مجد على جبين الملك الإنجليزى . ثم المح

---

(١٨) كتدريب : لتدريب قراءة تصحيحية .

(١٩) وكعلت = وجعلت قراءة تصحيحية .

(٢٠) الجيب = الجبل قراءة تصحيحية .

(٢١) وموقدت = وموقدة قراءة تصحيحية .

(٢٢) رما = ربما قراءة تصحيحية .

(٢٣) بردوس = رودس ـ عن سيسل رودس راجع حاشية ١٤ ص ٢٦٧ من (الكافى) ـ الجزء الخامس ـ المجلد الثانى .

(٢٤) الوردريش = اللورد روبرتس قراءة ترجيحية ـ فريدريك سلى روبرتس ـ Roberts, Frederick Sleigh, Ist-Earl Roberts of Kandahar (٣٠ سبتمبر ١٨٣٢ - ١٤ نوفمبر ١٩١٤)ـ فيلد مارشال بريطانى ـ آخر قائد عام Comander in Chief للجيش البريطانى ـ ساعد في قمع التمرد الهندى (١٨٥٧ - ١٨٥٨) وتميز فى حرب الأفغان الثانية (١٨٧٨ - ١٨٨٠) عندما هزم الجيش الأفغانى قرب قندهار =

إلى ظهور مناجم الذهب بين قنا والأقصر ، وتكلم عنها وعن الحبشة كثيرا ، وتمنى فشل الروس فى مهمتهم - أقول وإذا نظرنا إلى أن الذهب وإن كان هو الطريق إلى السعادة ، والوسيلة الوحيدة إلى الرقى المادى فى سائر الممالك ، ولكنه مجلبة البوار والخطوب والدمار ، فإنه ما كثر عند أولئك القوم (الترنسفاليين) حتى انهال عليهم الانجليز يزاحمونهم فى رزقهم ويدافعونهم بالأكف ، ويأتون إلى ديارهم كتائب وارسالا[٢٥] حتى ضاقت بهم البلاد علي رحبها . فلما استيقنوا من مستقبلهم بحاضرهم ، جعلوا يسومون القوم الخسف ويدعون عليهم الدعاوى الطويلة العريضة ، ويستصرخون صاحب السياسة الإنجليزية طالبين إذلال أولئك القوم وكسر شكيمتهم إذا تعذر اقصاهم[٢٦] عن ديارهم جملة . فما هى إلا فترة حتى ساقت الدولة كل قواها فى البر والبحر على تلك البقعة الهادئة المطمئنة ، وذلك الشعب الذى لم يألف الضيم ولم يذق طعم الذل ، وحاربوه فحاربهم حربا تشيب من هولها النواصى ، وهم لا يزيدون على أربعين ألفا يقاتلهم من الإنجليز ثلثمائة وستين ألفا ، وقيل بل أكثر من ذلك كثيرا ، حتى وضعت الحرب أوزارها على ما مر بك بيانه فى حينه من هذا الكتاب[٢٧] . فلولا مناجم الماس والذهب ما قامت تلك الحرب الطاحنة ، ولا أريقت تلك الدماء ، ولا ترملت تلك الأرامل ، فما أقسى الإنسان وما أوحشه .

= Kandahar . عمل قائدا عاما فى الهند (١٨٨٥ - ١٨٩٣) . أصبح فيلد مارشال Field Marshal فى ١٨٩٥ ، ومن ديسمبر حتى نوفمبر ١٩٠٠ كان القائد العام فى حرب البوير South A frican war ، وهزم قوات البوير فى معارك حاسمة عديدة . فى عام ١٩٠١ حاز لقب اللوردية (ايرل Earl) وأصبح القائد العام للجيش البريطانى . بعد ١٩٠٤ عندما ألغى المنصب ، دافع روبرتس بشجاعة من أجل الخدمة العسكرية الإجبارية . ألف (Forty- One Years in India) ١٨٩٧ .

-Lexicon Universal Encyclopedia - Vol. 16 - p., 241

(٢٥) وأرسالا = وأرتالا

(٢٦) أقصاهم = إقصاؤهم .

(٢٧) المقصود هو حرب البوير (١٨٩٩ - ١٩٠٢) .

عن هذه الحرب راجع حاشية ٣٣ ص ٦١٨ من (الكافى) الجزء الخامس - المجلد الأول .

وكان لما بسطت دولة الإنجليز نفوذها على أكثر سواحل البحر الأحمر أيضًا من القلزم[٢٨] إلى خليج فارس ، وكثرت سفنها ونقالاتها فى ذلك البحر حتى زاد عددها على عدد سفن جميع الممالك الأخرى ، تكلم صاحب سياستها مع الباب العالى فى لزوم إنشاء أربع منائر بحرية فى كل من (مواكة) (وابى هايل) (والزبياد) (وجبل الطير) ، والحل[٢٩] فى الطلب ، والسلطان يطاول ويحاول . وظل الحال على هذا حينا وصاحب سياسة الإنجليز المجاج[٣٠] وانتهاز الفرص ، حتى أبلغ الباب العالى أخيرا أنه لا يرى مندوحة من إنشاء تلك المنائر ولو من مال الإنجليز وبهم ، قيل فأكبر السلطان هذا القول ، وقد كان يخشى من تسلط الإنجليز على ذلك الشق المعمور من البلاد العربية ، ويعلم أنهم إن وضعوا حجرا واحد في أساس إحدى تلك المنائر ، أمسوا وقد ملكوا ما حوله من يابس وماء وبطوا[٣١] نفوذهم بدعوى المحافظة على مصالحهم . فسير من فوره جماعة من المهندسين إلى تلك الأماكن ، وعهد إليهم عمل الرسومات اللازمة لذلك . ثم برز الأمر بالاتفاق مع مصلحة المنائر والفنارات على أن تبنى الأربع منائر وتأخذ دخلها إلى أن تستعيد ما أنفقاه[٣٢] ، فعهدت هى بعمل ذلك إلى شركة افرنسية ، فأغضب عملها جماعة الإنجليز ، وتم البناء جميعه على رغم منهم .

واشتد البرد فى جميع أنحاء البلاد شدة لم ير لها قط مثيل فى الأيام الغابرة ، فكانت البرك والمستنقعات ثلج وتجمد سويعات بعد شروق الشمس ، وكان يشاهد على

---

(٢٨) بلدة تكونت نتيجة انفصال البحيرات المرة عن البحر الأحمر الذى كان ينسحب إلى الجنوب ـ كانت على ساحل البحر وسميت فى البداية باسم (كليسما) ، ثم سماها العرب بلدة (القلزم) ، واليها ينسب بحر القلزم (البحر الأحمر) . أصبحت ميناء لمصر والشام . ارتفع شأنها بعد الفتح العربى لمصر (٦٤٠م) عندما أمر (عمر بن الخطاب) بإصلاح القناة التى كانت تصل بين النيل والبحر الأحمر لتسهيل إرسال القمح من (الفسطاط) إلى مكة ، ويقال أن مدخل هذه القناة كان عند القلزم . وحتى نهاية القرن العاشر الميلادى كانت المدينة مركز نشاط تجارى كبير على ساحل البحر الأحمر .

فى تلك القرن بدأ الخراب ينتشر فى البلدة ، فى الوقت الذى نشأت فيه جنوبها قرية صغيرة سميت باسم (السويس) واتسعت حتى ابتلعت (القلزم) نفسها ، وأصبحت هى الميناء المصرى على البحر ، ولقد كان التقارب والارتباط شديدين بين القلزم والسويس إلى الحد الذى جعل المراجع تعتبرهما شيئا واحدا .

الهيئة العامة للاستعلامات (تاريخ وآثار مصر الإسلامية) ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ٩٦٢ ، ١١٠٦ .

(٢٩) والحل = وألح قراءة ترجيحية .

(٣٠) المجاج = يطيل المجاج أضيفت الكلمة ليستقيم النص ، والمجاج بالضم من المجج ، مَجَّ الشراب من فمه أى رمى به (بصقه) ، والمجاجة هى الريق الذى يمجه الإنسان من فمه – مختار الصحاح ـ ص ٢٥٧ .

(٣١) وبطو = وبسطوا قراءة ترجيحية .

(٣٢) انفقاه = انفقته قراءة ترجيحية .

الخضر وأوراق الشجر طبقة بيضاء من الجلد[٣٣] بسمك سنتى متر . وكثرت الأمطار وتتابعة[٣٤] أياما كثيرة ، واشتدت البروق والرعود شدة بالغة ، وتساقطت الصواعق فى كثير من البلدان ولا سيما رشيد ودمياط وبورسعيد ، وباب نفيشة وطريق الحاج القديم - وسقطت صاعقة فى صبح الثامن عشر من يناير من السنة على مدخنة الآلة الكهربائية لخطوط الترامواى بالأسكندرية فدكت قسم كبير من المدخنة ، وقتلت خمسة من العمال وبينهم رجل إيطالى سحقت فخذه . وجاءت الأخبار من ديار الروم والفرنجة منبئة باشتداد البرد وتعطيل الطرق والمسالك من تراكم الثلوج ، وحصول الموات فى الناس من شدة البرد . وجاء الخبر بهبوب العواصف الشديدة فى السويس وبور سعيد فى يومى تاسع عشرين الشهر هبوبا شديدا للغاية حتى قلب مركبة الترام ببور سعيد على طولها وضخامتها ، وقذف مياه البحيرة على الجنائن والبساتين . واجتاحت باخرة نمساوية وهى تجتاز القناة إلى الشاطئ فجنحت وأوقعت[٣٥] السفن كلها أياما . وكانت باخرة إنجليزية تحمل قمحا آتية إلى بورسعيد ، فلما دنت من الميناء أمالتها الريح إلى الشاطئ الغربى ، فجنحت أيضًا ولم يقدر أحد من البحارة ولا باخرة من البواخر الراسية هناك على الخروج لتخليصها لشدة الأمواج ، وظل بحارتها يعانون أصعب المشاق من نسف الرياح وتلاطم الأمواج وارتفاعها على مقدم الباخرة تارة ، ومؤخرها أخرى يوما كاملا ، حتى تغلبوا على الريح ودخلوا بالباخرة الميناء . وظل الحال على هذا شهرى يناير وفبراير من السنة ، حتى سكنت الرياح وخف الزمهرير ، واطمأنت قلوب الملاحة على السواحل .

وبينما الناس فى حديث ذلك البرد ، وما نجم عنه من الاضرار والتخريب والبوار ، إذ جاءت الأنباء إلى وزارة الحرب وقصر الإمارة بمبارحة منليك ناجوسى الحبشة أديس أبابا إلى جهات الصوبات ، ليقف على تخوم بلاد[٣٦] ، ويكون على كثب من قواده ورجال مملكته الذين انتدبهم ليكونوا مع مفوضى الدولة الإنجليزية فى تحديد التخوم . وكان مما رسم به أنه إذا ظلت التخوم على ما كانت عليه فى العصر[٣٧] الخوالى ، تساهل معهم

(٣٣) الجلد = الجليد قراءة ترجيحية .
(٣٤) وتتابعة = وتتابعت قراءة ترجيحية .
(٣٥) وأوقعت = وأوقفت قراءة اجتهادية .
(٣٦) بلاد = بلاده قراءة اجتهادية .
(٣٧) العصر = العصور قراءة اجتهادية .

ورضى بأن يمر الخط الحديدى المنوى على تمديده من[٣٨] تخوم السودان المصرى ورأس الرجاء الصالح فى ارباض مملكته . ووصلت كتبه فى ذلك إلى (الماجور اوستين) (والماجور بريفيت) المفوضين الإنجليزيين ، فساروا فى حملة خفيفة إلى بحيرة ودلف[٣٩] ليلتقوا هناك برسل الناجوسى . ولما بلغ الناجوسى جهات (الصوبات) جاءه وفد من الصوماليين يشكون من أعمال (محمد بن عبدالله) مدعى المهدوية ، وما يقاسونه من العذاب . فبرز الأمر إلى القائد (غبره) وهو من كبار القواد ، باعداد حملة قوية للزحف على ذلك الدعى . فأعد حملة من هرر من خمسة آلاف مقاتل ، وكلهم مسلمون[٤٠] بالبنادق كاملى العدة ، فزحفوا والدعى يخلى لهم الطريق ، ويرحل من بلد إلى آخر . وتفشى خبر ذلك بين القبائل ففرحوا ، وجعلوا يتخطفون مؤخرة الخوارج ويسدون فى وجوههم سبل النجاة ، وجنود الحبشة تتعقبهم أينما صاروا . وعادت المخابرات ثم المفاوضة ما بين الحبشان والإنجليز على تعيين التخوم الفاصلة ، وطالت أيامها . وفيما هم على هذا الأخذ والرد ومراقبة الفرص إذ جاء الخبر أيضًا بإغارة بعض تلك القبائل الصومالية على المعسكر الإنجليزى بقرب (كيسمايو[٤١]) فى شرق أفريقية . قالوا ففتكوا بجنوده وقتلوا المستر (جتر) المندوب الإنجليزى ، فمثلوا به تمثيلا فظيعا جدا ، فظن الإنجليز أنها من دسائس الحبشة وأكد الحبشان أنهم براء من ذلك ، ووقفت المخابرات بين الفريقين عند حدها أياما كثيرة كان الظن فيها أميل إلى وقوع الحرب بين الإنجليز والحبشان ، وإقامة ذلك التخوم على جثث المقاتلين من الفريقين . أقول والشىء بالشىء يذكر (وكيسمايو) التى بادت فيها تلك الجنود ومندوبها المستر (جتر) هى التى رفرفت على ربوعها الراية المصرية على عهد الخديوى إسماعيل ، وقامت حولها ضجة

(٣٨) من = بين قراءة اجتهادية .

(٣٩) ودلف = رودلف قراءة اجتهادية ـ وبحيرة رودلف Lake Rudolf أو بحيرة توركانا Turkana ، تقع فى وادى الرفت العظيم Great Rift valley فى شمالى كينيا ، شرق أفريقيا ، تمتد نهايتها الشمالية في أثيوبيا . مساحة البحيرة ٩١٠٠ كيلومتر مربع . أهم توابعها هى أنهار أومو Omo وتوركويل Turkwell . واكتشفها كونت تيليكى Count Teleki فى ١٨٨٨ وسماها باسم ولى العهد النمساوى .

Lexicon Universal Encyclopedio - Vol/ 16., 338

(٤٠) مسلمون = مسلحون قراءة تصحيحية .

(٤١) كيسمايو = Kismaya ميناء على الساحل الصومالى على المحيط الهندى ـ وعلى بعد ١٥ ميلا تقريبا جنوب مصب نهر جوبا .

ـ عبدالعليم إبراهيم خلاف (جهود مصر الكشفية فى أفريقيا فى عهد الخديو إسماعيل ١٨٦٣ - ١٨٧٩) - مرجع سابق ذكره ـ ص ٢٤٣ .

الإنجليز من الجندى الصغير إلى الوزير (دربى)[٤٢] الكبير ، وجاءت الخديوى بسببها كتب الوعيد ورسل التهديد . وتحرير الخبر أنه لما كانت في مصر يومئذ نفس كبيرة وهمة عالية لم تخلق لتحصر فى حدود ضيقة ، بل لم تكن تكفيها التخوم المصرية على سعتها ، فكانت أبدا تطلب المزيد والواسع من أرض الله لتتوع[٤٣] ما شاءت كالنسر يروح ويغدو محلقا فى فضاء الكون ، وكان صاحب تلك النفس الكبيرة هو (الخديوى إسماعيل) ، فلما تقدم[٤٤] (غردون) من ديار الإنجليز وولاه الخديوى إسماعيل الولاية العامة على السودان ثم القبلى[٤٥] ، جعل غردون هذا يشتغل بإرسال البعثات العسكرية

---

(٤٢) يحمل اسم دربى Derby من الشخصيات السياسية الإنجليزية أكثر من واحد . هناك جيمس ستانلى ، كونت دربى James Stanley, Comtede Derby . شخصية سياسية إنجليزية ـ ولد فى نوزلى Knowsley ، وأعدم فى بولتون Bolton (١٦٠٦ - ١٦٥١) . وهناك ادوارد جيفرى ، لورد دربى Edouard- Ge offry, Lord Derby زعيم حزب المحافظين (تورى) ـ ولد فى نوزلى بارك Knowsley - Park (١٧٩٩ - ١٨٦٩) ، عمل وزيرا للمستعمرات ، ورئيسا للمجلس مرات عديدة ـ كان ميالا لفرنسا ـ أما ابنه ادوارد هنرى سميث - Edouard Henris - Smith فقد كان سياسيا ، ولد فى نوزلى ـ بارك (١٨٢٦ - ١٨٩٣) ، عمل وزيرا للخارجية البريطانية ، ووزيرا للمستعمرات وضمن لبلاده حق حماية قناة السويس . ويحتمل أن يكون هذا هو الذى يقصده ميخائيل شاروبيم فى النص .

- Larousse Universel Vol. 1. p., 633

(٤٣) لتتوع = لترتع قراءة اجتهادية

(٤٤) تقدم = قدم قراءة ترجيحية .

(٤٥) أوعزت انجلترا إلى الخديو إسماعيل بتعيين الكولونيل الإنجليزى تشارلز چورج جوردون Charles George Gordon مديرا لمديرية خط الاستواء خلفا للسير صمويل بيكر Samuel Baker بسلطات تمتد على جنوبى فاشودة إلى خط الاستواء ـ وقد ظل چوردون مديرا لهذه المديرية من ١٨٧٤ وحتى عام ١٨٧٦ عندما استقال من منصبه ـ غير أنه لم يلبث أن عاد إلى السودان حاكما عاما بما فى ذلك دارفور وبحر الغزال وخط الاستواء ومصر وسواحل البحر الأحمر ومصوع وسواكن وبربره فى فبراير ١٨٧٧ ـ وفى أواخر عام ١٧٨٩ استقال من منصبه ثم أعيد إليه فى عام ١٨٨٤ لإخلاء السودان بعد الثورة المهدية ـ حتى قتل على يد الثوار المهديين فى ٢٦ يناير ١٨٨٥ بعد تحمله لحصار الخرطوم لمدة أحد عشر شهرا (مارس ١٨٨٤ - ٢٦ يناير ١٨٨٥) .

وقد ولد چوردون قرب لندن فى ٢٨ يناير ١٨٣٣ ونال رتبة الضابط (Commission) فى ١٨٥٢ ، وحارب فى القرم (١٨٥٣ - ١٨٥٦) ، وانضم إلى القوات البريطانية فى الصين أثناء حرب الأفيون الثانية (١٨٦٠) ، وشارك فى الاستيلاء على بكين Peking . فى عام ١٨٦٣ عينته الحكومة الصينية قائدا لقوات الفلاحين المعروفة باسم The ever victorious Army التى ساهمت فى إخماد ثورة تايبينج Taiping Revolution ، ثم بدأت سنة ١٨٧٣ خدماته بالحكومة المصرية . وربما كان قصد شاروبيم من كلمة القبلى هو مديرية خط الاستواء ، غير أن التسلسل الزمنى كان غير صحيح فيما ذكر ـ فغوردون تولى إدارة المديرية الاستوائية أولا ـ ثم فى عام ١٨٧٧ أصبح حاكما عاما للسودان .

عبدالرحمن الرافعى (عصر إسماعيل) - الجزء الأول ـ الطبعة الثانية ـ مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة ١٩٤٨ ـ ص ١١٦ - ١١٨ ، ١٥٢ - ١٥٥ .

Lexicon Universal Encyclopedia - Vol. 9 - p., 249

إلى الجهات الواقعة فى منطقة نفوذ مصر لافتقادها وإقامة الحاميات فيها ، وتمكين سلطة الخديوية فى أنحائها . فلما كان ثامن عشر مارس عام خمسة وسبعين وثمنمائة وألف كانت إحدى هذه البعثات قد نزلت فى بلدة (رحاب[٤٦]) الواقعة فى الدرجة الخامسة شمالى خط الاستواء على ضفاف النيل ، وكان المقدم عليها رجل اسمه شاليه[٤٧] لونغ ولعله ألمانى الجنس أو هو سويسى ، وكانت له أيضًا رئاسة أركان حرب العساكر المصرية ، ومعاونة غردون على مشروعاته فى ذلك العهد وخصيص به ، وكان قادما من بعثة فى منابع النيل وفى البلاد التى يسمونها نيام نيام . فلما بلغ (رجاف) وجد غردون فيها مجلس[٤٨] إليه (شاليه لونغ) وجعل يقص عليه أخبار بعثته وما لاقته رجال حملته . فأثنى عليه غردون واطرأ[٤٩] أعماله ، وأشار إليه بالعدوة[٥٠] إلى تلك البلاد ليقيم هيئة إدارية فيها ويكون واليا عليها أو ملكا غير مستقل . قال الراوى ثم أنه قال له أنى عايد إلى الخرطوم ولابد لى أن أشاركك في حكومة تلك البلاد البعيدة أيضًا . فشكره (شاليه لونغ) ضاحكا وأجابه أن لا مطمح لى فى الولاية على قبائل أكلة لحوم البشر . فدل هذا على أن غردون كان ينوى الاستقلال بملك الأقطار السودانية التى كانت تمتد يومئذ من الخرطوم

---

(٤٦) رحاب = رجاف - كانت حملة جوردون الكشفية التى بدأت فى ٢١ فبراير ١٨٧٤ قد بدأت من السويس إلى سواكن - بربرة - الخرطوم - فاشودة - سوباط - شانبيه - بور - الاسماعيلية - لادو - الرجاف ، وقد وصلها فى ١٣ مارس ١٨٧٥ - برن - كرى - يربورا - لابورى - دوفيليه - مرولى - راجع عبدالعليم خلاف (جهود مصر الكشفية فى أفريقيا فى عهد الخديوى إسماعيل) رسالة ماجستير غير منشورة - كلية الآداب - جامعة عين شمس ١٩٨١ - ص ١٠٤ - ١٢٠ .

(٤٧) شارلز شاييه لونج Charles Chaillé Long - القائمقام (عقيد) لونج - أمريكى من ولاية ماريلاند Maryland إحدى ولايات وسط الأطلنطى بالولايات المتحدة الأمريكية - خدم فى صفوف الجيش الشمالى خلال الحرب الأهلية الأمريكية- التحق بخدمة الحكومة المصرية في مارس سنة ١٨٧٠ برتبة عقيد فى إطار سياسة إسماعيل (١٨٦٣ - ١٨٧٩) الحربية المتمثلة فى الإستعانة بالخبراء الأجانب في الجيش المصرى عندما توترت العلاقة بين مصر والباب العالى (أواخر ١٨٦٨ - ١٨٧٠) . بزغ نجم (لونج) في خدمة الحكومة المصرية عندما اوفد فى مأمورية إلى ملك أوغنده عام ١٨٧٢ ، وسياحته فى بحيرة فكتوريا Victoria ، وقيادته لتجريدة مكراكا (نيام نيام سنة ١٨٧٥)- نال رتبة الأميرالاى (عميد) والنيشان المجيدى من الدرجة الثالثة مكافأة له على خدماته . ألف (مصر ومديرياتها المفقودة L'Egypte et Ses Provinces Perdues - و(الأنبياء الثلاثة غردون والمهدى وعرابى) و(أفريقيا الوسطى) . استغنى عن خدماته عام ١٨٧٨ عندما عجزت مالية البلاد عن مواجهة مصروفاتها . محمد محمود السروجى (الجيش المصرى فى القرن التاسع عشر) . دار المعارف - القاهرة ١٩٦٧ ص ١١٩ ، ٥١٩ .

(٤٨) مجلس = فجلس قراءة تصحيحية .

(٤٩) وأطرأ = وأطرى قراءة تصحيحية .

(٥٠) بالعدوة = بالعودة قراءة تصحيحية .

إلى البحيرات الكبرى . وقد يستغرب الكثيرون هذا القول ، ولكنى فضلا عما بسطته متعلقا بسياسة غردون فى السودان فيما تقدم ، فإنى قد وجدته مفصلا أيضًا فى كلام نشره (شاليه لونغ) فى بعض صحف الانجليز عند ظهور ثورة الصواملييين[٥١] وقتلهم الجند الذين كانوا للإنجليز فى مرصدهم (بكيسمايو) . فلما رأى غردون أن الرجل لم يبرح نفعه فى هذه المهمة أخرج حينئذ من جيبه ورقة وقال (فاذهب إذن فى حملة جديدة أرسلك فيها ، بأمر الخديوى إسماعيل) .

ثم ألقى إليه الأمر ونصه (صديقى العزيز شاليه لونغ ـ لقد دخل[٥٢] الاختبار أن الطريق بين (كوند[٥٣] وكورو) والقاهرة صعبة جدا وطويلة ، لأن مسافتها تبلغ ألفين وسبعمائة ميل ، فضلا من أن السفن التجارية لا تستطيع السفر بين (كوندو وكورو) والخرطوم غير ثلاث مرات فى العام ، والحطب على شاطئ النيل قليل وسيمسى بعد بضعة أعوام نادرا جدًا . أما الفحم فلا أبحث فى شأنه لأن ارتفاع ثمنه يجعل استعماله أمرا عسيرا ، يجب علينا والحالة هذه أن نفتح طريقا مختصرة من الأوقيانوس الهندىَ إلى المرابط المصرية فى جهات السودان .

(٥١) الصواملين = الصوماليين قراءة تصحيحية .

(٥٢) دخل = دل قراءة تصحيحية .

(٥٣) غندوكرو Gondokoro بلدة فى أعالى النيل على النيل الأبيض ـ على خط عرض ٤٢َ ٤ْ شمالا وخط طول ١٦َ ٣١ْ شرقا ـ دخلت ضمن أملاك مصر فى عهد الخديو إسماعيل فى إطار استكشافات صموئيل بيكر Samuel Bakerلاعالى النيل الأبيض . بلغها (بيكر) فى ١٥ أبريل ١٨٧١ ورفع العلم المصرى عليها فى ٢٦ مايو ١٨٧١ وأطلق عليها اسم (الإسماعيلية) تيمنا باسم الخديو إسماعيل ـ أختيرت عاصمة لمديرية خط الاستواء التى تولى بيكر إدارتها وقتئذ . فى عهد (غوردون) (١٨٧٤ - ١٨٧٦) استبدلت (لادو) عاصمة لهذه المديرية بدلا من (الإسماعيلية) . و(لادو) هذه تقع على الضفة الغربية لبحر الجبل إلى الشمال قليلا من المنطقة المواجهة للإسماعيلية بنحو ١٢ كيلو مترا . فى عام ١٨٧٦ تولى الكولونيل (بروت Prout) الأمريكى الضابط بالجيش المصرى أمور هذه المديرية . فى عهد حكمدارية غوردون للسودان (١٨٧٧ - ١٨٧٩) عين (إبراهيم بك فوزى) مديرا لهذه المديرية ، ثم فصله غوردون وعين مكانه الدكتور إدوارد شنيتزر Eduard Schnitzer (أمين باشا) حاكما لها . ظلت (خط الاستواء) كمديرية تابعة لمصر حتى اضطر (أمين باشا) إلى الجلاء عنها فى ١٨٨٩ ـ وعندما احتلت إنجلترا أوغندا عام ١٨٩٣ الحقت الجزء الجنوبى من المديرية بها . مع استرجاع السودان (١٨٩٨) أرغمت بريطانيا مصر عند اتفاقية (١٨٩٩) على أن تكون حدود السودان تنتهى عند (منجلا) شمالى غندوكرو ، ثم عند تيمولى (الابراهيمية) .

ـ عبدالرحمن الرافعى (عصر إسماعيل) جـ ١ - الطبعة الثانية - ١٩٤٨ - مطبعة النهضة المصرية ـ القاهرة ـ ص ١٢٦ - ١٢٧ .

وتوصلا إلى ذلك لا أرى أفضل من فتح طريق بين مرفاء منيسة[٥٣م] ، فإن طول هذه الطريق من منيسه[٥٤] إلى المراكز المصرية على خط مستقيم مائتا ميل فقط . وهى تمر فى الأراضى الخصيبة الواقعة شمالى كوندو[٥٥] وكوبر - وقال فحص سمو الخديوى فحصا[٥٦] دقيقا ، فاذهب لفتح هذه الطريق ، أما أنا فإنى ذاهب إلى الشاطئ لأوافيك حين وصولك ، ولكن اكتم خبر هذه الحملة أشد الكتمان لأسباب سياسية ، فإذا وافق عليها سمو الخديوى قلت أننى سيرتها بأمر الحكومة وإلا فلا ، وقد عرضت على الجناب الخديوى أن تكون أنت قائدا لهذه الحملة) أ . هـ .

(٥٣م) منيسه = ممبسا Mombasa قراءة تصحيحية - راجع حاشية ٥٨

(٥٤) منيسه - ممبسا قراءة تصحيحية - راجع حاشية رقم ٥٨ .

(٥٥) كوندوكوبر = غندوكرو قراءة ترجيحية .

(٥٦) فحص سمو الخديو فحصا دقيقا = وقد فحص سمو الخديو هذه الخطة فحصا دقيقا قراءة ترجيحية .

أقول . فمن هذا ومما تقدم بك بيانه فى هذا الكتاب يتحقق الغرض الذى كان يرمى إليه غردون منذ تولى الولاية العامة على السودان(٥٧) ، ويعلم سبب ثباته فى الخرطوم ذلك الثبات الذى أودى بحياته طعنا برماح المهدوية . ولقد كان مقصد الخديوى إسماعيل إذ ذاك تدويخ البلاد والاستيلاء عليها إلى البحيرات الكبرى ونيام نيام وبحر الغزال وفشودة وكيسمايو تلك التى على الاوقيانوس الهندى . نعم أن بقاء غردون فى الخرطوم حتى مقتله كان لغلبة الخوارج على أرباض الخرطوم وأخذهم جميع

(٥٧) كان تعيين غوردون ـ ومن قبله صمويل بيكر لقيادة الحملات الاستكشافية فى أعالى النيل جزءا من مخطط بريطانى استعمارى ـ فقد كان يعمل خلال حملاته هذه لصالح بلاده وليس لصالح مصر التى استخدمته كموظف عليه إطاعة أوامرها وتنفيذ رغباتها . وتذكر الوثائق والدراسات أن غوردون انسحب من مملكة أوغندا بعد اعتراف ملكها (امتيسا) بالسلطة المصرية عليها فى أوائل عام ١٨٧٦ دون سبب مقنع ـ تاركا أياها إلى (مرولى) فى سبتمبر ١٨٧٦ ، ثم انسحب غوردون بعد ذلك من (ماسندى) عاصمة مملكة (اونيورو) . كان (غوردون) يصدر فى هذه التصرفات عن نزعة استعمارية تهدف إلى عرقلة تقدم مصر نحو البقاع الغنية بمواردها فى أوغندا وأونيورو .
يؤكد ذلك ما جاء فى تصريحاته فى نوفمبر ١٨٧٥ بأن بريطانيا بحكمها لهذه المناطق تستطيع إفادة سكانها حضاريا على عكس الوجود المصرى الذى كان حكامه ـ من وجهة نظره ـ على قدر كبير من التأخر .
وما صرح به فى أكتوبر ١٨٧٦ بأن مصر لم تعد قادرة على حكم المناطق الأفريقية بسبب تفاقم الأحوال الداخلية والمالية فيها . وما كتب به إلى شقيقته أوجستا Augusta (ما فائدة توسيع أملاك مثل هذه الدولة فلديها تحت نفوذها من الأملاك أكثر مما تستطيع الإشراف عليه أو إداراته) .
وعندما استقال من حكم المديرية الاستوائية عام ١٨٧٦ كشف فى لندن عن نواياه عندما قال أنه لا يود العودة مرة أخرى للعمل كحاكم للمديرية الاستوائية فى ظل الحكومة المصرية طالما أن السودان لايزال غير خاضع له وتحكمه إدارة منفصله عن المديرية الاستوائية مما يترتب عليه اضطراب فى شئون الحكم واهتزاز فى أجهزة الأمن يؤدى إلى رواج تجارة الرقيق فى الأملاك المصرية بأفريقيا ، وأنه لذلك يفضل أن يعود حاكما عاما للسودان بما فيه المديرية الاستوائية .
ولم يكن ما ذكره غوردون فى هذا المقام يخدم المصالح المصرية بقدر ما كان يخدم أغراض بلاده الاستعمارية ، ذلك أن إسناد حكم السودان إليه بجانب المديرية الاستوائية ـ وهو ما حدث فى فبراير ١٨٧٧ ـ أتاح الفرصة له ، ولبلاده بالتبعية ، لامتداد النفوذ الإنجليزى في كل أملاك مصر الأفريقية . ولم تتردد الحكومة البريطانية فى دعم اقتراح غوردون بشأن الوظيفة الجديدة . ففور وصوله إلى لندن فى أواخر ١٨٧٦ اجتمع به لورد دربى Derby وزير الخارجية ، ثم اتصل بالقنصل الإنجليزى Vivian ليتدخل لدى (إسماعيل) ليقبل إسناد منصب الحاكم العام للسودان بما فيه المديرية الاستوائية إلى غوردون ـ وهكذا عاد غوردون فى فبراير ١٨٧٧ إلى السودان .
وعندما تولى غوردون منصبه هذا سعى إلى تثبيت نفوذ بلاده فى السودان ، فاستعان بأجانب بدلا من المصريين والسودانيين ، وسحب القوات المصرية من مناطق كثيرة من أعالى النيل الأبيض بدعوى الابتعاد عن مواطن الاحتكاك بالقبائل الأفريقية وتحاشيا لنفقات مواجتها ـ لكن الواقع كان استبعاد النفوذ المصرى من أفريقية .
ـ راجع عبدالعليم خلاف (جهود مصر الكشفية في أفريقيا فى عهد الخديوى إسماعيل) ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ٩٩ ـ ١٢٦ .
ـ راجع فى هذا الصدد أيضًا عبدالرحمن الرافعى (عصر إسماعيل) ـ الجزء الأول ـ مرجع سبق ذكره ص ١١٦ ـ ١٢٧ .

الدروب والمسالك . ولكن قد كان الخلاص ميسورا بعد أن تحقق له أن لورد كرومر لايريد به خيرا ولا يتمنى له فلاحا ، وقد دبت بينهما عقارب الحسد والنميمة .

سارت حملة (شاليه لونغ) فى سادس عشر سبتمبر من السنة أى سنة خمس وسبعين إلى فتح ذلك الطريق ، فاحتلت جزائر (سوكوتراس) و(براما) و(كيسمايو) فى سادس عشر أكتوبر من ذلك العام ، ورفع (شاليه لونغ) الراية المصرية عليها . وأقام على (نهر يوبا) ومعه ثلاثة ألف جندى مصرى وسودانى ينتظر وصول غردون ، وظل أياما على هذا . وفيما هو كذلك إذ وصلت إليه سفينة من السويس تحمل رسالة مؤرخة فى سادس فبراير من سنة ستة وسبعين وثمنمائة وألف من الخديوى إسماعيل ونصها (عد بجنودك حالا إلى مصر) . فتولى الرجل الدهش وأخذه العجب . وكان سبب ذلك أنه لما علم لورد دربى بأمر هذه الحملة وهو يومئذ صاحب سياسة الإنجليز يقال أنه ارعد وأزبد ، وتهدد الخديوى بالسوء إذا لم يستردها . وكانت حجته فى ذلك عزمه على جعل (الزنجبار) مستقلة ، وأن (كيسمايو) هذه تابعة للزنجبار . فلم يسع الخديوى إلا استرجاع عساكره من ذلك البلد ، وجعل يلقى تبعة هذا العمل على رجال حكومته . وعاد (شاليه لونغ) إلى مصر[٥٨] . قلت ولكن احتجاج أصحاب سياسة الإنجليز على احتلال جنود مصرية لبلد

(٥٨) كان (غوردون) حاكم المديرية الاستوائية قد اقترح على إسماعيل فى يناير ١٨٧٥ إرسال حملة عسكرية بحرية إلى مصب نهر (چوبا) شمال خليج (ممبسا) ثم تتجه إلى الغرب على أن يتقدم هو بقوة عسكرية من (لادو) عاصمة المديرية الاستوائية إلى جهة الشرق مخترقا أراضى (أوغندا) ليلتقى بالحملة المقترحة ، وبذلك يمكن فتح طريق بين هضبة البحيرات والسواحل الشرقية ، وإيجاد مخرج أو منفذ بحرى للمديرية الاستوائية على المحيط الهندى . في ١٧ سبتمبر وبعد موافقة الخديو المتحمس على الحملة ـ كلف (إسماعيل) ماكيلوب باشا Mckillop الضابط السابق بالبحرية الإنجليزية ، ومدير مصلحة الموانى والمنارات المصرية بقيادة الحملة . كان شابى لونج Chaillé Long ، والضابط (حسن واصف) و(حسين فهمى) ، و(السيد عاكف) و(فرحات منيب) من ضباط أركان حرب الجيش المصرى ، و(عبدالرازق بك نظمى) ناظر المدرسة البحرية ، و(رضوان باشا) حاكم بربرة من بين أعضاء الحملة . غادرت الحملة السويس فى ١٨ سبتمبر ١٨٧٥ وتولى (لونج) قيادتها حتى (بربرة) ثم تسلم القيادة (ماكيلوب) فى ٢٥ سبتمبر من نفس العام . غادرت الحملة (بربرة) في أول أكتوبر ١٨٧٥ـ ومنها إلى (رأس جردفون) . فى ٦ أكتوبر وصلت إلى (رأس حانون) ـ وبعدها إلى (براوة) ـ وفى ٢٨ أكتوبر ١٨٧٥ وصلت الحملة إلى مصب (نهر چوبا) . فى ٣٠ أكتوبر وصلت الحملة إلى (قسمايو) التابعة لسلطان زنجبار ، ورفع (ماكيلوب) علم مصر عليها وأسماها (بورت إسماعيل) ، وفى أواخر عام ١٨٧٥ كانت حملة (ماكيلوب) قد نجحت فى وضع معظم جهات الساحل الصومالى تحت السيادة المصرية .

من جانبه فإن (غوردون) حاكم المديرية الاستوائية ـ وصاحب اقتراح إيفاد الحملة العسكرية إلى ساحل الصومال للوصول إلى داخل القارة ـ وقف من الحملة التى يقودها (ماكيلوب) و(لونج) موقفا سلبيا ، فلم يتخذ أى إجراء للاتصال بها وفق المقرر ـ بل بعث إلى الخديو كاشفا عن رغبته فى التخلى عن فكرة افتتاح الطريق الموصل بين الساحل وهضبة البحيرات .

=

زنجبارية لا ناقة فيها للإنجليز يومئذ ولا جمل ، لم يمنعها فى عام تسعين وثمنمائة وألف من إعلان بسط حمايتها على (زنجبار) كلها بالرغم من احتجاج صاحبها (مولاى السيد برغش) ، ولم يمنعها أيضًا من أن تحتل عساكره[٥٩] هى أيضًا مرفأ كيسمايو من نهر يوبا وملحقاته . وعندى أن ما صنعه الإنجليز فى كيسمايو تلك صنعه[٦٠] مثله فى كل مكان وزمان فى قارة أفريقية ، تمهيدا لإنشاء تلك السلطنة المترامية الأطراف . وقد خالفت عهدها مع مصر وأقامت حربها من[٦١] الترنسفال ، واحتلت السودان المصرى شرقا وجنوبا ، وكادت تقع فى حرب طاحنة مع الفرنسيس فى (فشودة) ، وأفنت عظام الكثير من روادها وسياحها ومكتشفيها ، ومازالت تجهد وتسهر وتعمل حينا طويلا حتى فازت وغنمت وبسطت يدها على ما شاءت من ذلك الصقع البعيد حتى تم لها ما أرادت كله أو جله ، والله يؤتى الملك ما يشاء وهو العليم الحكيم . فكاهة . حكم الإنجليز منذ سنة سبعمائة حتى وفاة الملكة فيكتوريا أربع نساء الأولى الملكة[٦٢] مارى الملقبة بالسفاكة -

= وفى كتابه (الأنبياء الثلاثة) Les Trois Prophets عزا (لونج) تصرف (غوردون) هذا إلى احتمال وصول تعليمات إليه من الحكومة الإنجليزية بعدم التعاون مع الحملة المصرية ، وهذا أمر يضاف إلى تصرفات غوردون الأخرى التى تدل على عدم إخلاصه للحكومة التى استخدمته .

فى ذلك الوقت اعتبرت الحكومة الإنجليزية توسع الحملة المصرية فى (براوة) و(الجب) و(قمسايو) اعتداءاً على حقوق سلطان زنجبار (برغش بن سعيد ١٨٧٠ - ١٨٧٨) ، وسعت لتهديد مصر للإنسحاب من هذه الجهات . فى ديسمبر ١٨٧٥ انصاع (إسماعيل) لمطالب إنجلترا وأصدر فى ١٣ ديسمبر أمره إلى رجال الحملة بالإنسحاب من (قسمايو) و(براوة) و(ومصب الجب) وانزال الأعلام المصرية المرفوعة على تلك الجهات عدا (رأس حانون) ، وفى أوائل فبراير ١٨٧٦ عادت الحملة المصرية إلى القاهرة دون أن تحقق مشروعها الخاص بإيصال ساحل الصومال بهضبة البحيرات الاستوائية .

- راجع عبدالعليم خلاف (جهود مصر الكشفية فى عهد الخديو إسماعيل) - مرجع سبق ذكره - ص ٢٤٠ - ٢٥١ .

(٥٩) عساكره = عساكرها قراءة ترجيحية .

(٦٠) صنعه = صنعوا قراءة ترجيحية .

(٦١) من = مع قراءة ترجيحية .

(٦٢) مارى تيودور - أو مارى الأولى ملكة انجلترا Mary, Queen of England- (٨ فبراير ١٥١٦ - ١٧ نوفمبر ١٥٥٨) حكمت إنجلترا باسم الملكة مارى الأولى من ١٥٥٣ واكتسبت لقب (مارى الدموية) Bloody Mary للإعدامات التى جرت للبروتستنت فى عهدها . ابنة هنرى الثامن Henry VIII من زوجته الأولى كاترين الارجونية Cathernine of Aragon . فى ١٥٣٣ طلق هنرى كاترين لعدم إنجاب ذكر يرث العرش . رفض البابا الاعتراف بهذا الطلاق وقطعت إنجلترا علاقاتها عام مع روما ١٥٣٤ . قامت كنيسة بروتستنتسة فى انجلترا خلال السنوات الأخيرة من عهد هنرى ، وعوملت مارى بخشونة حتى أعلنت على مضض عدم شرعية ارتباط والديها وتخلت عن الكاثوليكية الرومانية Roman Catholicism ، لكنها احتفظت سرا بعقيدتها الكاثوليكية خلال عهد أخيها غير الشقيق إدوارد السادس (١٥٤٧ - ١٥٥٣) . عندما مات إدوارد جرت محاولة لتحويل ولاية العرش لابنة عمة بروتستنتية - ليدى جين جراى Jane Grey ، لكن المحاولة فشلت وارتقت مارى العرش . شرعت مارى فورا فى المحافظة على الكاثوليكية ، معيدة كل سلطات ونفوذ البابا لتقليدية . فى ١٥٥٤ تزوجت الذى أصبح فيما بعد فيليب الثانى Phillip II ملك أسبانيا ، ابن الإمبراطور الرومانى المقدس شارل الخامس

=

أو الدموية - وكانت على المذهب الكاثوليكى ، والثانية : اليصابات العذراء وكانت على المذهب البروتستنتى ، ويلقبها تاريخهم باليصابات(٦٣) الكبيرة ، والاثنتان ابنتا هنرى الثامن ، والثالثة الملكة حناء(٦٤) ابنة جاك الثانى وهى التى أرسلت الجنرال

= Charles V . حكم فيليب مشاركا مارى الفترة الباقية من حياتها . أومض الزواج ثورات عديدة ، وفسدت السنوات الثلاث الأخيرة من حكمها بإعدام حوالى ثلاثمائة بروتستانتى بسبب عقيدتهم ، وقضى مئات من البروتستانت الفترة الباقية من حكمها فى المنفى فى القارة . فى ١٥٥٧ أغرى فيليب زوجته على التحالف مع أسبانيا فى حرب غير محبوبة مع فرنسا أفقدت انجلترا كاليه Calais ، آخر ممتلكاتها القارية ، لم تعقب مارى أى أطفال ، ومع موتها انتقل العرش دون حادث إلي أختها غير الشقيقة إليزابيث الأولى Elizabeth I .

- هربرت فيشر (أصول التاريخ الأوروبى الحديث) - الطبعة الثالثة - دار المعارف - القاهرة - ١٩٧٠ - ص ١١٩ ، ١٢٦ - ١٢٩ .

- Lexicon Universal Encyclopedia. Vol. 13 - pp., 185 - 186.

(٦٣) اليزابيث الأولى ملكة انجلترا Elizabeth I. Queen of England من ١٥٥٨ إلى ١٦٠٣ . ولدت فى ٧ سبتمبر ١٥٣٣ لهنرى الثامن من زوجته الثانية آن بولين Anne Boleyn . لم يسعد هنرى بميلاد اليزابيث لرغبته فى إنجاب وريث ذكر لعرشه ، واقتنع بعد فترة بإمكانية إنجابه من آن ، وعندما فشلت فى ذلك وعندما ثبتت عليها تهمة الخيانة ، أعدمت فى ١٥٣٦ . لذلك فإن اليزابيث كبرت في غياب رعاية الأم ، رغم أن زوجة هنرى الأخيرة كاترين بار Catherine Parr كانت زوجة أم عاطفية لفترة ما . مع وفاة مارى فى ١٧ نوفمبر ١٥٥٨ تولت اليزابيث العرش وجعلت سير ويليام سيسل William Cecil (لورد بورلى Burghley فيما بعد) وزيرها الأول ، وبمساعدته أتمت تسويتها الإليزابيثية الشهيرة لكنيسة انجلترا ، فقد كان الدين فى انجلترا غير مستقر منذ عهد هنرى الثامن عندما قطع علاقات بلاده بالبابا فى ١٥٣٣ ، ومورست البروتستنتية المعتدلة فى عهده ، وطبقت برامج بروتستنتية أكثر فى عهد إدوارد السادس ، لكن مارى أحبت العقيدة الكاثوليكية الرومانية والسلطات البابوية فى انجلترا . كانت اليزابيث بروتستنتية معتدلة ، وقد استبعدت تسويتها السلطة البابوية ، وأعادت كتاب الصلوات العامة Book of Common Prayer ، وقاومت تشدد البيورتان Puritans . لكن الشئون الخارجية والديانة كانا يمثلان تهديدا مستمرا لإليزابيث ، وكان الخوف الأكبر هو التحالف الذى يمكن عقده بين القوى الكاثوليكية لإبعادها عن العرش وإعادة عاهل كاثوليكى ، كذلك فإن وضع (مارى) ملكة الاسكتلنديين كان يهدد أمن اليزابيث . كانت مارى حفيدة مارجريت تيودور Margaret Tudor شقيقة هنرى الثامن - من الملك جيمس الرابع James IV ملك سكوتلندا . بعد موت زوجها الأول فرانسيس الثانى Francis II ملك فرنسا عادت إلى سكوتلندا ، لكن رعاياها ثاروا عليها ، وهربت عام ١٥٦٨ إلى نجلترا . ولما كانت كاثوليكية رومانية فقد أصبحت مركزا لعديد من المؤامرات الكاثوليكية ، وأخيرا اضطرت اليزابيث إلى الموافقة على إعدامها .

لم تتزوج اليزابيث على الإطلاق ، ولم يكن هناك أى سلالة لهنرى الثامن ، وبالتالى فإن سلالة التيودور Tudor كانت ستنتهى عند موتها ، وبالفعل فإن جيمس السادس ملك اسكتلندا وابن مارى ملكة الاسكتلنديين والبروتستنتى العقيدة خلفها عند موتها في ٢٤ مارس ١٦٠٣ .

- Lexicon Universal Encyclopedia - Vol. 7/ pp., 141 - 142

(٦٤) آن ملكة انجلترا ، سكوتلندا ، وإيرلندا Anne' Queen of England, Scotland, and Ireland . ولدت فى ٦ فبراير ١٦٦٥ ، آخر عاهل إنجليزى يرأس الوزارات ويصوت فى البرلمان ، ابنة جيمس الثانى James II ، ظلت مخلصة لكنيسة إنجلترا رغم تحول والدها إلى الكاثوليكية الرومانية . لكى تدعم الكنيسة الانجليكانية ، فإنها شاركت دون تردد شقيق زوجها ويليام الثالث William III ، عندما غزا انجلترا (١٦٨٨) وأجبر والدها على النفى . خلال عهد ويليام أصبحت آن صديقة حميمة لسارة تشرشل Sarah Churchill (دوقة مارلبورو فيا بعد Duchess of Marlborough) التى دعتها (مسز فريمان Mrs. Freeman) . عندما تولت العرش عام ١٧٠٢ أعطت سارة أعلى وظيفة فى البلاط وجعلت زوجها دوق مارلبورو قائدا عاما في حرب الوراثة الأسبانية (Spanish war of Succession) . توفت فى أغسطس ١٧١٤ وخلفها جورج الأول George I .

- Lexicon Universal Encyclopia, Vol. 2-p., 32.

بيرلورغ(٦٥) لمحاربة الفرنسيس فلم يعد منها ، والإنجليز ينشدون لفقده أنشودة هى (ميرلبورغ راح للحرب ، وأى متى يرجع على عيد الفصح أو على المرفع) - والرابعة هى الملكة فيكتوريا فقيدة هذا الشهر .

أقول ولما كان صبح حادى عشرى يناير من السنة ، جاءت الأنباء من (لوندرة) إلى لورد كرومر باشتداد المرض على ملكة الإنجليز ، واجتماع الأسرة المالكة وإمبراطور الألمان حول سريرها ، وأنه ينتظر فى كل لحظة أن تقبض روحها وتفشى خبر ذلك بسرعة بين الناس ، فنقله أصحاب الصحف المحلية ، وجعل بعضهم يعدد محاسن أعمالها ، وبعضهم يطرئ أيامها . فلما كان ثانى يوم جاء الخبر بموتها فى الساعة السادسة ونصف من ليلة ثانى عشرى يناير ، وهى محاطة بابنائها وأحفادها . وشاع الخبر بذلك ، وبأن سيجتمع دار ندوتهم فى غد ليقسم يمين الأمانة للملك ، ثم يوافق على رسالة التعزية ، وأن الملك سيقسم اليمين عند ارتقاء العرش أمام مجلسه الخصوصى . ولما جاء هذا النبأ

(٦٥) بيرلورغ = مارلبورو John Churchill, I st Duke of Marlborough چون تشرشل ، دوق مارلبورو . رجل دولة إنجليزى (٢٦ مايو ١٦٥٠ - ١٦ يونيو ١٧٢٢) . عمل وصيفا لدوق يورك York الذى أصبح فيما بعد (١٦٨٥) چيمس الثانى James II . دخل تشرشل الجيش عام ١٦٦٧ . برز عندما نجح فى هزيمة ثورة دوق مونماوث Monmouth عام (١٦٨٥) . جعله چيمس دوقا ورقاه إلى رتبة فريق Lieutenant general . سرعان ما حول تشرشل إخلاصه وولاءه ، مع هذا ، إلى ويليام أورانچ William of Orange ، الذى عزل چيمس (١٦٨٨) وحكم كويليام الثالث . حارب تشرشل لصالح ويليام خلال الحرب ضد فرنسا (حرب الحلف الكبير War of the Grand Alliance) فى فلاندرز Flanders وإيرلندا . جعل الملك تشرشل إيرلا لمارلبورو earl of Marl-borough ، لكن مارلبورو فقد الرعاية الملكية عندما عرف أنه كان على صلات سرية مع چيمس الثانى المعزول . ومع هذا فإن أدراك ويليام الثالث بمهارات مارلبورو العسكرية والدبلوماسية جعلته يرسله عام ١٧٠١ إلى لاهاى Hauge لعقد تحالف ضد فرنسا .

تزوج مارلبورو ساره چننجز Sarah Jennigs عام ١٦٧٧ أو ١٦٧٨ . كانت سارة الصديقة الأثيرة لآن Anne ابنة چيمس الثانى ، وعندما ارتقت أن العرش (١٧٠٢) عينيت مارلبورو قائدا عاما ووزيرا أول . خلال الحرب الطويلة ضد فرنسا انتصر مارلبورو فى بلنهايم Blenheim (١٧٠٤) راميليس Ramilleis (١٧٠٦) ، اودينارد Oude-narde (١٧٠٨) ، ومالبلاكويت Malplaquet (١٧٠٩) . رقته آن إلى رتبة دوق وبنت له قصر بلنهايم فى أوكسفوردشاير Oxfordshire . ساءت علاقة سارة مع الملكة تدريجيا ، وفى ١٧١١ طرد مارلبورو من كل مناصبه . اتهم بالخداع المالى وذهب إلى المنفى فى العام التالى . عاد مارلبورو إلى إنجلترا عام ١٧١٤ عندما تولى چورچ الأول Georg I العرش . رغم أن چورچ أعاد إلى مارلبورو رتبة الجنرالية Generalship ، فإن الدوق ظل غير فعال نسبيا بقية حياته .

كان مارلبورو طموحا أكثر من اللازم ، وجشعا محبا للمال ، وغير مخلص على وجه الخصوص .ورغم عيوبه الشخصية فإنه معترف به كأستاذ فى الاستراتيجية الحربية وكأحد الشخصيات الكبيرة فى التاريخ البريطانى . حققت ذكرياته بمعرفة ويليام كوكس William Coxe في ثلاثة مجلدات عام ١٨١٨ - ١٨١٩ .

- Lexicon Universal Encyclopedia. Vol. 13 - p., 160

ركب لورد كرومر وسار إلى قصر الإمارة وأبلغه للأمير من طريقه الرسمى ، يقال فاظهر الأمير أسفه . وما هو أن عاد لورد كرومر إلى مقره حتى زاره الأمير معزيا ، وتتابع المعزيون من الأمراء والكبراء وأصحاب المناصب وأهل الخطط وكبار القواد ومقدمى الجنود وقناصل الدول والقضاة والنواب وكل ذى مقام وحيثية . وظل اللورد جالس للعزاء ثلاثة أيام جاءه فيها من الرسائل البرقية ورسائل البريد ما لا يكاد يدخل تحت الحصر - أقول تولت الملك هذه الملكة البارة العظيمة والملك مضطرب يطلب الحزب المعروف بالشاد(٦٦) ليست حقوق الانتخاب للجميع وكذا فى هياج وهرج ، والمسألة(٦٧) الشرقية

(٦٦) الشارتيست Chartists حركة إصلاحية سياسية غير ناجحة قادها عمال بريطانيا الجائعون الذين أصابتهم ضغوط الثورة الصناعية . نشطت الحركة فى ثلاثينيات وأربعينات القرن التاسع عشر محاولة تأمين دستور ديمقراطى وبالتالى مجتمع أكثر مساواة . افتتحت الحركة بواسطة اتحاد عمال لندن London Working men's Assaciation الذى أخرج ميثاقا من ستة نقاط للشعب Six-Point People's charter (١٨٣٨) يدعو إلى حق الانتخابات للرجال جميعا ، إلغاء شرط الملكية لأعضاء البرلمان ، دفع مرتبات لأعضاء البرلمان ، وإصلاحات أخرى . امتدت الحركة إلى الأقاليم ، حيث تطورت إلى مظاهرات فى نيوبورت Newport وويلز Wales بعد أن رفض البرلمان هذا الميثاق (١٨٣٩) . اجتذبت الشارتيزم Chartismبعض العمال وكانت غير قادرة على تنظيم إضراب عام كما وعدت عندما رفض ميثاقها مرة أخرى عام (١٨٤٢) . ومع هذا فإن الإضطراب كان خطيرا بما فيه الكفاية ليوحد الطبقتين الوسطى والعليا ضد الميثاقيين Chartists . انحسرت الميثاقية مع تحسن الأحوال الاقتصادية وسحب قوانين القمح Corn Laws (١٨٤٦) .

- Asurvey of European Civitzation, 4th edition - Editor Leo Gershoy- New York University - 1969 - p., 644

- Lexicon Universal Encyclopedia - Vol. V.- p., 300

(٦٧) يرمز مصطلح المسألة الشرقية Eastern Question إلى المشاكل الدبلوماسية المرتبطة بانحدار الإمبراطورية العثمانية خلال القرن التاسع عشر . كانت الإمبراطورية العثمانية قد بلغت أقصى نقطة ازدهارها وانتعاشها خلال القرن السادس عشر ، لكن مع أواخر القرن الثامن عشر كانت تتعرض لضغوط من الداخل والخارج هددت وجودها المستمر . لم تستطع الجماعات صاحبة الشأن أن تتفق على حل للمسألة الشرقية ، فقد اعتمدت القوى الأوربية خطتين رئيسيتين للعمل : الإتفاق على المحافظة على إمبراطورية عثمانية ضعيفة ، أو التآمر معا لتقسيم هذه الإمبراطورية . لكن كانت هناك خشية من تأثر التوازن الأوربى لو اتخذ الحل الأخير - إلى حد قيام منازعات دبلوماسية جديدة تهدد السلم . وكان ظهور (القومية) بين رعايا تركيا الأوروبية مشكلة معقدة أخرى ، فخلال القرن التاسع عشر ناضل الصربيون ، اليونانيون ، والرومانيون والبلغاريون ضد حكامهم الأتراك لتأسيس دولهم القومية الخاصة بهم - ليس دائما بموافقة كل القوى الأوربية . ولافتقار الإمبراطورية للجهد أو الموارد لمقاومة الضغوط على حساب الأتراك الضعاف ، فإن بريطانيا سعت لمواجهة هذه التوسعات بدعم الحكومة العثمانية فى نضالها الدبلوماسى ، بل والعسكرى أحيانا . أراد البريطانيون على وجه الخصوص منع روسيا من الحصول على السيطرة على القسطنطينية والمضايق الاستراتيجية ، فمثل هذا الاستحواذ قد يهدد روابط بريطانيا التجارية المربحة مع تركيا ، قوتها البحرية البحر متوسطية ، وضعها المتسيد فى الهند .

كانت حرب الاستقلال اليونانية (١٨٢١ - ١٨٢٩) ، أزمة محمد على الناتجة عن حروبه مع العثمانيين (١٨٣١ - ١٨٣٣) و(١٨٣٩ - ١٨٤١) ، حرب القرم (١٨٥٣ - ١٨٥٦) والحروب الروسية التركية (١٨٧٧ - ١٨٧٨) ، كانت كل هذه صراعات ارتبطت بالمسألة الشرقية المعقدة ، ولم تنحسر هذه المشاكل إلى خلفية دبلوماسية إلا بعد زوال الإمبراطورية العثمانية بنهاية الحرب العظمى ١٩١٤ - ١٩١٨ .

- Lexicon Universal Encyclopedia . Vol. 7. pp., 33 0 34

فى قيام وقعود ، ولم تمض على جلوسها على عرشها ثلاث سنوات حتى قامت حرب الأفغان(٦٨) ، ثم حرب الصين(٦٩) ، ونشبت حرب القريم(٧٠) ، وطالت أيامها من سنة أربع

(٦٨) فى عام ١٧٤٧ انتخب أحمد خان ساده زاى Ahmed Khan Sadazai زعيم قبيلة دورانى Dorani شاها shah بإجماع قبلى ، فوحد أغلب ما يعرف الآن بأفغانستان تحت حكمه . بانتهاء التسلسل الوراثى فى العائلة السادوزية Sadozai Line عام ١٨٣٥ ، وقعت أفغانستان فى سلسلة من حروب الأسر المطالبة بالسلطة dynastic Wars . فى نفس الوقت فإن البريطانيين الذين كانوا قد احتلوا الهند عن طريق شركة الهند الشرقية على مراحل منذ القرن الثامن عشر - كانوا يخافون غزوا روسيا للهند . لذلك فإنهم حاولوا التدخل في شئون أفغانستان ، وهذا أدى إلى قيام حربين بين الدولتين ، كانت أولاهما هى تلك التي قامت فى (١٨٣٩ - ١٨٤٢) والتى انتهت بهزيمة كارثة للبريطانيين ، أما الثانية فقد وقعت فى (١٨٧٨ - ١٨٨٠) .
- The Columbia History of the World - Harper and Row USA - 1987 - p.. 946
- Lexicon Universal Encyclopedia - Vol. I. pp., 132 - 135

(٦٩) كانت التجارة هى المصدر الحال للنزاع بين الصين والغرب . كانت أسرة شينج Ch`ing قد حاولت تنظيم العلاقات الدبلوماسية والتجارية مع القوى الأوروبية فى الإطار التقليدى لنظام الأتاوات Tribute System ، وقصر التجارة الأجنبية على ميناء كانتون الوحيد فى الجنوب لكن البريطانيين كانوا أكثر التجار الأوروبيين نشاطا ، كما كانوا ضالعين بشكل كبير فى عمليات تهريب الأفيون إلى الصين . عجل تدمير السلطات الصينية لكل الأفيون الأجنبى فى كانتون بحرب الأفيون Opium War (١٨٣٩ - ١٨٤٢) . بنهاية هذه الحرب أجبرت أسرة شينج الحاكمة على الاستسلام للقوة البحرية البريطانية وفقا لمعاهدة نانكنج Treaty of Nanking ، التخلى عن هونج كونج Hong Kong للبريطانيين ، فتح موانى عديدة للتجارة غير المقيدة ، والوعد منذ ذلك الوقت بتنظيم علاقات أجنبية على أسس المساواة . وقد أجبرت الصين بعد هذه الحرب على الإعتراف بمبدأ امتداد النطاق التشريعى الغربى على مواطنى الغرب فى الصين Principle of extraterritorialty الذى كان يقصر تبعية المواطنين الغربيين على النظام القضائى الخاص ببلادهم فى محاكمهم القنصلية .
- Op. cit., - pp., 938 - 940

(٧٠) حرب القرم Crimean war (١٧٥٣ - ١٨٥٦) ، واحدة من سلسلة من الحروب تعرف بالحروب الروسية - التركية Russo - Turkish wears ، لكنها اختلفت عن تلك الحروب بضلوع بريطانيا وفرنسا فيها . تسببت الاهتمامات الدبلوماسية المرتبطة (بالمسألة الشرقية) طويلة الأمد فى قيام هذه الحرب . كانت روسيا القيصرية قد استمرت فى سعيها نحو التوسع والنفوذ فى البلقان على حساب الإمبراطورية العثمانية . فى المقابل فإن بريطانيا اعتبرت أن المحافظة على الإمبراطورية العثمانية أمر حيوى للمصالح الإمبرايالية البريطانية في شرقى البحر المتوسط وآسيا . كان أسوء ما توقعته بريطانيا فيما يخص مصالحها الاستراتيجية والاقتصادية هو السيطرة الروسية على القسطنطينية والمضايق . ظهرت فرنسا تحت حكم نابليون الثالث فى صورة المساند المتحمس للمصالح الرومان - كاثوليكية Romn Catholic فى الأراضى المقدسة بفلسطين التى كانت تحت الحكم التركى وقتئذ . نظرت روسيا القيصرية راعى الشعوب الأرثوذكسية الشرقية فى الإمبراطورية العثمانية - نظرت إلى مطالب فرنسا فى القسطنطينية بامتيازات وتنازلات - وعلى وجه الخصوص الوصول إلى مزارات مسيحية معينة كخسائر للأرثوذكس .
تزايد التوتر خلال ١٨٥٣ مع سعى روسيا إلى إعاد تأكيد حمايتها للاثنى عشر مليون أرثوذكسى التابعين للإمبراطورية كما عبر عنها فى النصوص الغامضة لمعاهدة كوچك قينارچى Kuchuk Kainarji (١٧٧٤) . فشلت المباحثات المطولة التى ساند البريطانيون فيها الأتراك ، فشلت فى حل المشاكل . ساهم الرأى العام فى بريطانيا ، فرنسا ، تركيا وروسيا فى تصلب الحكومات المعنية ، وهكذا فإن روسيا احتلت فى أوائل يوليو الإمارات الدانوبية (مولداڤيا وولاشيا Moldavia and Walachia) التابعة للسيادة الشرعية التركية . احتجت تركيا وأمرت بريطانيا وفرنسا أسطوليهما بالتوجه إلى (خليج بسيكا Besika Bay) عند مدخل الدردنيل Dardanelles . =

وخمسين وثمنمائة وألف إلى سنة ستة وخمسين - وقامت الحرب مع (السبياى)[(٧١)] فى سبع وخمسين ، وفى سنة سبع وستين مع الحبشة ، وفى سنة ثمان وسبعين كانت الحرب مع الأفغانستان أيضًا ، ومع (الزولوس[(٧٢)]) فى سنة ثمانين وحرب (المتيس)[(٧٣)] فى سنة أربع وثمانين ، هذا ما عدا الثورات الصغيرة والأعمال المخزية الأخرى التى

= فشلت جهود متصلة من جانب القوى العظمى لحل الأزمة . تفجر قتال متقطع بين الروس والأتراك بعد رفض البلاط القيصرى الاستجابة لإنذار تركى (٤ أكتوبر ١٨٥٣) للانسحاب من الإمارات . قام الروس بتدمير الأسطول التركى فى سينوب Sinope فى ٣ نوفمبر . أشعلت مجزرة سينوب حمى الحرب فى بريطانيا وفرسا وأعلنتا الحرب على وسيا فى ٢٨ مارس ١٨٥٤ . أمرت النمسا روسيا بإخلاء الإمارتين لتحول الحرب عن حدودها ، وأذعنت الأخيرة لرغبتها فى مواجهة عدو آخر . حاصرت القوات البحرية الفرنسية والبريطانية ميناء سيباستيبول Sevtastopoli ، ودارت معارك طاحنة بين الأطراف المتصارعة فى بالاكلافا (٢٥ أكتوبر ١٨٥٤) ، انكرمان In-kerman (٥ نوفمبر ١٨٥٤) ، وسقط سيباستبول فى سبتمبر ١٨٥٥ . رضخت روسيا لسلام متشدد وفق شروط معاهدة باريس Trealy of Paris (٣٠ مارس ١٨٥٦) حيث قبلت نزع سلاح وحياد البحر الأسود لتؤكد استمرار السيادة البريطانية البحرية على شرقى البحر المتوسط ؛ نبذت روسيا كذلك ادعاءاتها بالحماية المنفردة لمسيحى البلقان ، وبالمثل فإن الحماية الروسية على ولايات الدانوب والصرب استبدلت بضمان جماعى Collective guarantee من القوى العظمى . أعيدت جنوبى بسارابيا Bessarabia إلى مولداڤيا ، وبذلك قطع مدخل روسيا الهام إلى نهر الدانوب .

- Op. cit., pp., 618, 816, 908, 916

(٧١) الماساى Masai أو Massaï قراءة اجتهادية - جماعة أفريقية كانت تعيش إلى جوار زنجبار Zanzibar وفكتوريا - نيانزا Victoria- Nianza فى شرقى أفريقيا - قاومت تجارة الرقيق بكفاءة مع جماعات التوركانا Tur-kana والكارامو جونج Karamojong .

- Larousse Universel - Vol. II. p., 187

(٧٢) نتيجة للنشاط الأوروبى فى القارة الأفريقية من ناحية وانتهاكاتهم من ناحية أخرى توحدت بعض عناصر جماعة النجونى Naguna فى جنوب شرقى Southeastern أفريقيا (ناتال Natal الآن) فى أمة الزولو Zulu العظيمة تحت زعامة الزعيم ذو الشخصية الكارزمية شاكا Shaka (١٧٨٧ - ١٨٢٨) . كون الزولو جبهة قوية ضد البريطانيين والبوير . انقسمت الزولو بعد ذلك إلى نديبيلى Nadebele أو ماتابيلى Matabele قرب روديسيا ، وكولولو Kololo عند نهر الزمبيزى Zambezi ، إلى جانب انقسامات أخرى . حارب الزولو المستوطنين البوير ، وفى ١٨٧٨ هزموا قوات بريطانية عديدة تحت قيادة كيتيوايو Cetewayo ودمروا طوابير كثيرة فى أيساند هلوانا Isandhlawana . ومع هذا فقد هزموا عام ١٨٧٩ فى جينجين هولوف Ginginholov وأولوندى Ulundi وضمت بلادهم إلى بريطانيا عام ١٨٨٧ .

- The Concise Columbia Encyclopedia - Columbia University press Newyork- 1983 - p., 443

(٧٣) الماتابيلى Matabele قراءة اجتهادية .

يسمون أيضًا نديبيلى Ndebele ، قوم يتكلمون لغة البانتو Bantu يقيمون فى ماتابيلاند ، غرب زيمبابوى Zim-babwe . تكونوا كقبيلة عندما هرب مازيليكازى Mazilikazi - أحد قادة ملك الزولو Chaka إلى منطقة الترنسڤال Transvaal ومعه عدد من المحاربين ؛ اتحد البوير والزولو على إبعادهم إلى مكانهم الحالى . ثاروا فى عام ١٨٩٦ ضد الإنجليز ونجح الأخيرون فى قمع ثورتهم وتحولوا منذ ذلك الوقت إلى رعاة ومزارعين .

- Op. cit., - p., 524

- The Columbia History of the World - p., 930

- Larousse Universel - Vol., p., 192.

حدثت فى بدء سلطنتها . أما تاريخ حياتها المجيدة فهى الكسندرين فيكتوريا كريمة الدوق دى كنت والبرنسيس دى ساكس كوبورغ . ورثت ولاية عهد إنجلترا عن أبيها ، وورثت عرش السلطنة عن عمها غليوم الرابع . وكانت ولايتها(٧٤) فى رابع عشرى شهر مايو عام تسعة عشر وثمنمائة وألف للميلاد ، وتربت فى حجر الملك ودلال السلطان وتغذت بالآداب والفضيلة ، وتعلمت الفنون الجميلة ، وكانت الدوقة (دى نورثمبرلند) تعلمها كل ذلك ، حتى إذا ما ترعرعت وكل عمها الملك إلى (اللورد ملبورن)(٧٥) يعلمها القوانين الإنجليزية ، فكان ذلك الوزير الحر الكبير مرشدها .

فلما كان اليوم العشرين من شهر يوليو(٧٦) عام سبعة وثلاثين وثمنمائة وألف ، مات غليوم(٧٧) الرابع عمها ، فارتقت فيكتوريا عرش تلك السلطنة العظيمة وهى فى الثامنة عشرة من عمرها . وفى ثامن عشريه توجت فى كنيسة ويستمنستر ، وافتتحت دار ندوتهم فى آخر شهر نوفمبر من تلك السنة ، وأعلنت شعبها بأنها تريد الحكم على مبادئ الأحرار . وكانت الملكة غضة الشباب جميلة الطلعة ، فلقبها الإنجليز - بوردة إنجلترا - واقترنت فى عاشر فبراير سنة أربعين وثمنمائة وألف بالبرنس (البرت دى ساكس كوبورغ) قريبها ، وكان شابا جميلا حسن الهندام ، ورجلا تام الخلق ، عاقلا رزينا أبىّ

(٧٤) ولايتها = ولادتها قراءة تصحيحية .

(٧٥) ملبورن ، ويليام لامب Melbourne, William Lamb - الفيسكونت الثانى لملبورن 2 ndviscount Melbourne (١٥ مارس ١٧٧٩ - ٢٤ نوفمبر ١٨٤٨) . رئيس وزراء بريطانى ، خدم الملكة فكتوريا كناصح خلال السنوات الأولى من حكمها (١٨٣٧ - ١٨٤١) . بدء حياته كمحام عام ١٨٠٤ - بعد عامين انتخب عضوا بالبرلمان عن الويج whigs . بعد وفاة والده ١٨٢٨ دخل مجلس اللوردات . عمل كوزير للداخلية (١٨٣٠ - ١٨٣٤) . عمل رئيسا للوزراء لفترة قصيرة عام ١٨٣٤ عندما طرده ويليام الرابع الذى كان يعارض خطط الويج whigs لإصلاح الكنيسة ، لكنه عاد فى أبريل ١٨٣٥ وظل رئيسا للوزراء حتى ١٨٤١ . كرئيس للوزراء أصر على إصلاحات حضرية . تزوج عام ١٨٠٥ من كارولين بونسونبى Caroline Ponsonby التى أدت فضيحة علاقتها بلورد بايرون Byron الشاعر الإنجليزى (١٧٨٨ - ١٨٢٤) إلى انفصالها عن ملبورن عام ١٨٢٥ .
- Lexicon Universal Encyclopedia - Vol.31- p., 286

(٧٦) يوليو = يونيو قراءة تصحيحية .
- Lexicon Universal Encyclopedis - Vol. 20 - p. 156.

(٧٧) غليوم هو التحريف العربى لاسم جويليوم Guillaume المقابل لويليام فى الإنجليزية وفيلهلم Wilhelm فى الألمانية - والاسم جويليوم Guillaume فرنسى الأصل . وغليوم الرابع هو ملك انجلترا وهانوفر ، ابن جورج الثالث . ولد فى قصر بكنجهام Buckingham - House ، وتوفى فى وندسور Windsor (١٧٦٥ - ١٨٣٧) . تولى الملك عام ١٨٣٠ - ومات دو أن يعقب ورثة شرعيين - فتولت السلطة فكتوريا ابنة أخيه .
- Larousse Universel - Vol. II- P.,1264 .
- Lexicon Universal Encyclopedia - Vol. 20 - p. 156.

النفس . فعاش معها عيشة الزوج المحبوب . وفى عام ثلاثة وأربعين زارت ملك الفرنسيس (لويز فيليب) ففرح بزيارتها فرحا لا يوصف ، وقد كان يريد أن يزوجها بابنه الديوق (دى نمور) فلم يفلح ، فأراد التقرب منها فزوج ابنته (البرنسيس كليمنستين) بالبرنس دى كوبورغ نسيبها ، ولكن الصداقة لم تدم لأن السياسة حالت دونها كما هو الحال بين الملوك والسلاطين .

وفى سنة أربعين رزقت بنتا سمتها (دلايد) وهى والدة إمبراطور الألمان . تزوجت ولى عهد بروسيا (البرنس فريدريك) عام ثمانية وخمسين وثمنمائة وألف . وهى تحب ابنتها هذه حبا جما ، وتعتقد فيها الزكاء[٧٨] والنباهة ، ولما اتصل بها أن[٧٩] مصابة بمرض القلب حزنت حزنا شديدا . وفى عام واحد وأربعين وثمنمائة وألف ولد ولى العهد البرنس (البرت إدوارد) وهو الآن الملك (ادوارد السابع) . ورزقت فى سنة ثلاث وأربعين البرنس (آنيس) ، وسنة أربع وأربعين البرنسيس (أرنست) . وفى سنة ستة وأربعين البرنسيس (أغوسطة) . وفى سنة ثمانية وأربعين (البرنسيس كارولينا) . وفى سنة خمسين البرنس (البرت) . وفى ثلاثة وخمسين البرنس (جورج) . وفى سبع وخمسين البرنسيس (باتريس) .

ولما كان رابع عشر ديسمبر عام واحد وستين وثمنمائة وألف مات زوجها ، وقد وصفه الأستاذ غيزو الفرنسوى أجمل وصف ، إذ قال أنه كان أول رعايا الملكة وأول مستشاريها ، وأول كاتم لأسرارها ، وأول شريك لها فى أعمالها ، يرشدها إلى التواصل مع وزرائها ، ولا تتظاهر بذلك للوزراء . ولما مات حزنت عليه حزنا شديدا جدا لزمها حتى وافتها[٨٠] ، وظلت معتزلة خمس سنوات لا تقيم حفلة ولا تقابل مقابلة كبرى . وطبعت فى سنة ثلاث وستين كتابا ـ بعنوان ـ التأمل فى الحياة والأبدية ـ معزوا إلى زوجها ذلك ، وطبعت فى سنة تسع وستين أيضًا رسالة بعنوان ـ أيام حياتنا فى جبال الأيكوس .

---

(٧٨) الزكاء = الذكاء قراءة تصحيحية .
(٧٩) أن = أنها قراءة ترجيحية .
(٨٠) وافتها = وافتها المنية أضيفت الكلمة ليستقيم النص .

وحاول بعض الأشقياء مرارا الفتك بها ، فأحبط الله عملهم ، حتى أنه فى سنة ثمان وثلاثين دخل رجل فى قصر بوكنفام[٨١] وآخر فى قصر وندزور[٨٢] للفتك بها ، فلم يتمكنا من ذلك ـ وفى حادى عشر يونيه من سنة أربعين وثمنمائة وألف بينما كانت عائدة مع زوجها من النزهة أطلق عليها شقيا[٨٣] عيارين ناريين ، وفى شهر ديسمبر من تلك السنة دخل غرفتها شاب فى السابعة عشرة ، واختبأ تحت مجلسها يريد اغتيالها ، فافتضح أمره وغلت يده . وكانت فى سابع عشر يونيه عام خمسين وثمنمائة وألف تتنزه مع ثلاثة من أولادها فى عربة ، فضربها رجل بعصا على أم رأسها ، ولكن الله وقاها الشر . حتى حم القضاء ونفذ القدر المقدور . أقول أيضا اشتهرت هذه الملكة الفاضلة الكريمة بالعدل والحلم ، ومحبة الرعية ، والصدق فى القول ، والعمل بدستور السلطنة ، وعدم الخروج عنه ، فإذا شكت أمة من وزير أو حكومة لهذه الملكة البارة التقية فإنه لم يشك منها أحد . وكانت عند اشتداد الأزمة وتحرج الموقف أصدق وسيطة ، تلين الصلب من

---

(٨١) بوكنفهام = بكنجهام Buckingham قراءة ترجيحية .

المقر الرسمى لملوك إنجلترا فى لندن ، يقع فى النهاية الغربية لحديقة سانت چيمس Saint James Park عند نهاية خط سكة حديد بول مول The Terminus of pall Mall . كانت الملكة ڤكتوريا هى أول حاكم بريطانى يقيم فيه (١٨٣٧) .

بنى القصر أصلا بمعرفة سير چورچ جورنج George Goring خلال عهد الملك چيمس الأول (١٦٠٣ - ١٦٢٥) . أعيد بنائه (١٦٧٤ ، ١٧٠٣) بمعرفة چون شفيلد Gohn Sheffield ، دوق بكنجهام ونورمانبى Nor-manby ، وسمى بكنجهام هاوس Buekingham House .

اشترى چورچ الثالث المبنى عام ١٦٧١ وكلف خلفه وابنه الأكبر چورچ الرابع (١٨٢٠ - ١٨٣٠) المهندس چون ناش Jhon Nash بإعادة تصميمه عام ١٨٢٥ ، عندما أعيد تسميته Buckingham Palace . لم يرق القصر لويليام الرابع William IV (١٨٣٠ - ١٨٣٧) ورفض الإقامة فيه ، وعندما تولت ڤكتوريا السلطة (١٨٣٧) أقامت فيه . أضيف الجناح الشرقى للقصر عام ١٨٤٧ ؛ أما الجناح الجنوبى وحديقة صالة الرقص Ballroom فقد أضيفا عام ١٨٥٣ - ١٨٥٥ . يضم القصر ٦٠٠ غرفة من بينها صالة الرخام Marblehall ومتحف النحت Sculpture Gallery وغرفة العرش وغرفتا الكتابة الزرقاء والبيضاء ، والمكتبة . تغطى المساحة الكلية للقصر ٤٠ أيكر acre (الأيكر يساوى ٤٠٠ متر مربع) . عندما يكون الملك أو الملكة فى القصر فإن العلم الملكى Royal standard يرفع ويجرى تغيير الحرس يوميا .

- Lexicon Universal Encyclopedia - Vol. 3 - p., 536

(٨٢) قلعة وندسور Windsor Castle ، فى وندسور ، بركشاير Berkshire بانجلترا . وهى قرية أو بلدة Town صغيرة على نهر توماس Thomas غربى لندن ، المقر الأصلى للعائلة المالكة البريطانية منذ عهد ويليام الأول (١٠٦٦ - ١٠٨٧) . تحتل القلعة المقامة على حديقة صغيرة موقع قلعة رومانية وتحاط بسلسلة من الحوائط الدفاعية . أدخلت على القصر تعديلات كثيرة ، فى فترات حكم العواهل البريطانيين .

- Lexicon Universal Encyclopedia - Vol. 20 - p., 174

(٨٣) شقيا = شقى قراءة ترجيحية .

الأمور . وكانت بصلة(٨٤) نسبها أعلا كلمة وأنفذ قولا من سائر الملوك ، فامبراطور الألمان حفيدها ، وقيصر الروس نسيبها ، وجميع أمراء أوروبا تصلهم بها صلة القربى ، فإذا حل جيشها ديارنا(٨٥) وانبسطت كلمة قومها فى مشرق البلاد ومغربها على عهدها ، وهو ما يحسبها(٨٦) أهل البلاد جميعا مصابا قد صب عليهم ، فإن ذلك فعل أصحاب مملكتها وأقطاب حكومتها ، وهم مع ذلك معزورون(٨٧) . يعرف هذا كل ملم بمجريات حوادث الثورة العرابية وأدوارها المشؤومة وأسبابها المخجلة المعيبة(٨٨) .

وأرسل الأمير تعازيه للملك إدوارد السابع على جناح البرق ، وكذلك أرسل يهنيه بارتقاء عرش أجداده الكرام . ووضعت على مدخل دار اللورد كرومر إشارات الحداد ، وسجلا في مدخل الدار ليدرج فيه المعزون أسماءهم ثلاثة أيام ، ثم بطل كل هذا ، وبرز الأمر بإبطال كثير من الحفلات الكبرى ، وقفلت بعض الملاهى وغير ذلك حدادا على تلك الفقيدة الكريمة .

وجاءت رسائل صاحب السياسة الإنجليزية على جناح البرق منبئة بارتقاء ولى عهد الدولة عرش السلطنة ، وأنهم أقاموا لذلك الحفلات بين مظاهر عز السلطان وجلال الملك . وقد توجوه فى القصر المعروف بقصر سن جيمس وسموه بادوارد السابع . قلن(٨٩)

(٨٤) بصلة = شجرة قراءة ترجيحية .

(٨٥) ديارنا = بديارنا قراءة ترجيحية .

(٨٦) يحسبها = يحسبه قراءة ترجيحية .

(٨٧) معزورون = معذورون قراءة ترجيحية .

(٨٨) يلتمس ميخائيل شاروبيم العذر لبريطانيا فى احتلالها مصر - وينحى باللائمة على الثوار العرابيين الذين رفضوا إلا أن تكون مصر للمصريين - فكانت النتيجة هى التنكيل بهم وإخضاع مصر قهرا وبقوة الجيوش لاحتلال غاشم جثم على صدور المصريين سنوات طويلة .
وشاروبيم هنا يمثل الشريحة الاجتماعية التى جاء منها . فهو يدافع فقط عن مصالح هذه الشريحة التى كان يمكن أن تضار لو أن الثورة العرابية انتصرت . وهو هنا يناصر أى قوة تضرب هذه الثورة سواء كانت إنجليزية أو فرنسية أو غيرها - والتاريخ المصرى يحوى ما يماثل حالة ميخائيل شاروبيم المناصر للاحتلال وملتمس العذر له كالمعلم يعقوب (أو الجنرال يعقوب كما يسميه د . لويس عوض) قائد الفيلق القبطى .
والحق أن هذا الموقف الذى اتخذه شاروبيم من الاحتلال - وقد سبق لنا أن ناقشناه - غريب . فالرجل مصرى صميم ، مثقف ، مستنير ، لكنه يتخذ من الاحتلال موقف الممالئ ، المسوغ - وهو موقف لايحسب له بأى حال .
عن يعقوب راجع
د . لويس عوض (تاريخ الفكر المصرى الحديث من الحملة الفرنسية إلى مصر إسماعيل) - الطبعة الرابعة مكتبة مدبولى القاهرة - ١٩٨٧ - ص١٤٩ - ١٥٥ .

(٨٩) قلن = قلت قراءة اجتهادية .

وقصر (سن جيمس) هذا بناه هنرى الثامن على انقاض مستشفى جرحا[٩٠] الحروب ، وظل على هذا حتى عام ثمانية وتسعين وستمائة وألف للميلاد ، تحول إلى مقر للملك . وفى أوائل ولاية الملكة فيكتوريا انتقلت منه هيئة الحكومة ، ولكنه بقى معدا لاستقبال السفراء . وقد شاهدت ما فيه عند زيارتى لعاصمة الإنجليز فلم أر فيه شيئا من فخامة البناء وإتقان الصناعة ، سوى أنه أثرا من آثار ملوكهم القدماء ، وفيه شيء من الهيبة والعظمة . وأما من تسمى باسم إداور من ملوكهم الأولين (فادوار الأول) كان يلقب (بطويل الأذرع) ، ولد سنة تسعة وثلاثين ومايتين وألف للميلاد ومات سنة سبع وثلثمائة وألف ، وهو الذى بدأ بافتتاح بلاد (الايكوس)[٩١] وأقصى فى أيامه عن إنجلترا سنة عشر ألف وماية وستين إسرائيليا ، (وادوار الثانى) ولد عام أربعة وثمانين ومايتين وألف ، ومات عام سبعة وعشرين وثلثمائة وألف ، وخلعه دار ندوتهم في السنة التى مات فيها ، وإدوار الثالث ولد عام اثنى عشر ومايتين وألف ومات عام سبعة وسبعين[٩٢] .

وكان بطلا مغوارا وهو الذى أنشأ نيشان ربطة الساق[٩٣] ، ولذلك حكاية مشهورة وكليمات مأثورة بين عائلة سالسبورى إلى هذا العهد . وإدوارد الرابع ولد عام واحد وأربعين وأربعمائة وألف ومات عام ثلاثة وثمانية وأربعمائة وألف[٩٤] . وعلى عهده كانت الحرب الأهلية فقاتله دروكسيك[٩٥] وخلعه ، ولكنه عاد للملك بعد سنة ومات عندما بدأ

---

(٩٠) جرحا = جرحى . قراءة تصحيحية .

(٩١) بلاد الأيكوس = Ecosse ، هى سكوتلندا فى الفرنسية .

- Larousse Universal Vol. p., 714

- Dictionary of Foreign words and phrases- Philosophical Library - Newyork - 1986 - p., 77.

(٩٢) ولد إدوارد الثالث فى ١٣ نوفمبر ١٣١٢ ، ومات فى ٢١ يونيو عام ١٣٧٧ .

- Lexicon Universal Encyclopedia Vol. 7 - p., 68

(٩٣) نيشان ربطة الساق Order of the Garter نيشان أنشأه ادوارد الثالث ملك انجلترا (١٣٢٧ - ١٣٧٧) عام ١٣٤٩ .

Lexicon Universal Encyclopedia - Vol.7 - p., 68

(٩٤) ولد ادوارد الرابع عام ١٤٤٢ (٢٨ أبريل) . ومات ٩ أبريل ١٤٨٣ .

op. cit.,

(٩٥) دروكسيك = واريك Warwick قراءة ترجيحية .

تعرف هذه الحرب بحرب الوردتين Wars of the Roses (١٤٥٥ - ١٤٨٥) نسبة إلى سلسة من المصادمات المسلحة بين بيتى لانكاستر Lancaster ويورك York المتنافسان على العرش الإنجليزى . استخدم الاسم (الوردتين) بعد فترة طويلة من قيام هذه الحرب ، وهو يرمز إلى الوردة البيضاء شعار أسرة يورك ، والوردة الحمراء شعار أسرة لانكاستر ـ نافس الملك اللانكاسترى هنرى السادس دوق يورك ريتشارد الذى ادعى أحقيته بالعرش نتيجة لانحداره من صلب ادوارد الثالث . بعد معركة سانت البان Saint Albans (١٤٥٥) أصبح يورك حاميا =

بحربه مع الأيكوس ـ وإدوارد الخامس ولد عام سبعين وأربعمائة وألف ، وقتل عام ثلاثة وثمانين وأربعمائة وألف ، وتولى الملك وهو فى الثالثة عشرة فقام عليه عمه ريشار وحبسه مع أخيه ، ثم قتلهما خنقا فى فراشيهما . وادوارد السادس ولد عام ثمان وثلاثين وخمسمائة وألف ومات عام ثلاثة وخمسين وخمسمائة وألف ، وكانت أيامه موصوفة بغيرته على المذهب البروتستنتى ، وإداورد السابع وهو المليك الجديد وسيأتيك بأخبار أيامه من لم تزود .

وما بطل حديث وفاتها من الأفواه حتى جاء إلى قصر الإمارة نعى قاضى قضاة مصر السيد جمال الدين أفندى(٩٦) . مات بعد ظهر يوم الاثنين حادى عشر يناير من السنة فى

= للملكة ـ لكن زوجة هنرى ، مارجريت أوف انجو Margaret of Anjou . وأسرة بورفورت Beaufort ، إلى جانب أخرين من أتباعها استعادوا السيطرة . استؤنفت الحرب فى ١٤٥٩ وفى يونيو ١٤٦٠ غزا يورك متحالفا مع ريتشارد نيفيل Richard Neville ايرل واريك Warwick ـ انجلترا وهزم جيشا ملكيا فى ١٠ يونيو ١٤٦٠ عند نورثامبتون Northampton . لكن يورك رغم دعواه باستحقاقه للعرش فإنه عين خليفة لهنرى . أرسلت مارجريت ـ التى أصبح ابنها محروما من الوراثة ـ جيشا ضد جماعة يورك عند ويكفيلد Wakefiled ـ وفى المعركة التى جرت هناك فى ١٤٦٠ قتل يورك . فى العام التالى حارب ابن يورك معركة فاصلة فى توتون Towton وتوج ملكا باسم ادوارد الرابع . أما هنرى وزوجته مارجريت وابنهما فقد هربوا إلى اسكتلندا . نشبت الحرب ثانية عام ١٤٦٩ عندما غزا واريك الذى أصبح خصما لادوارد ، متحالفا مع شقيق الملك چورچ ، دوق كلارنس Clarence ـ انجلترا من كاليه Calais ، وهزم جيوش الملك فى أدچكوت Edgecote ، وأخذ إدوارد أسيرا . بعد أن استعاد ادوارد سيطرته غزا واريك مرة أخرى منضما إلى هنرى السادس ، الذى أعيد إلى عرشه . هرب ادوارد إلى الأراضى المنخفضة Nether Iands لكنه عاد فى ١٤٧١ وهزم واريك وجماعة لانكاستر فى بارنت Barnet وتويكسبورى Tewks-bury . سُجِنَ هنرى فى برج لندن Tower of London حيث مات . بدأت المرحلة الثالثة من الحرب عام ١٤٨٣ عندما اغتصب ريتشارد الثالث العرش من ابن أخيه ، ادوارد الخامس ابن ادوارد الرابع . غزا المطالب اللانكاسترى بالعرش هنرى تيودور Henry Tudor بمساعدة الفرنسيين وبعض النبلاء اليوركيون الساخطين . غزا انجلترا وهزم ريتشارد فى بوسوروث Bosworth (١٤٨٥) . توج الملك الجديد باسم هنرى السابع .

- Lexicon Universal Encyclopedio - V16- p., 316

(٩٦) سماحة جمال الدين أفندى ـ قاضى قضاة مصر منذ أبريل ١٨٩١ ، أثار موقفه الرافض للتدخل الإنجليزى فى شئون القضاء الشرعى فى مصر فى أبريل ١٨٩٩ أزمة سياسية كبيرة فى مصر . عقب وفاته نعى الخديو الخبر برقيا إلى الباب العالى وطلب تعيين أحد اثنين من علماء الآستانة ـ لم يصل الرد لمدة أسبوعين ، فعاود الخديوى إرسال استعجال آخر ، لكن صحيفة (إقدام) العثمانية أعلنت فى ٢١ شوال ١٣١٨ (١٩٠١) تعيين (فضيلتلو عبدالرحمن فاضل زاده يحيى أفندى القره حصارلى من أعضاء مجلس التوفيقات الشرعية لقضاء مصر من قبل حضرة ملجأ الخلافة السنى الجوانب) ـ وفى ٢٥ فبراير ١٩٠١ استقبل الخديو قاضى قضاة مصر الجديد ، لكنه ما لبث أن نقل بأمر سلطانى وعين بدلا منه (جمال الدين أفندى) قاضى مكة المكرمة .

– راجع لطيفة محمد سالم (النظام القضائى المصرى الحديث ١٨٧٥ – ١٩١٤) ـ الأهرام ـ مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية ـ القاهرة ١٩٨٤ جـ ١ ص ٢١٥ – ٢١٦ .

– الكافى في تاريخ مصر القديم والحديث ـ الجزء الخامس ـ المجلد الأول ـ حواشى ٢١ عام ١٨٩٢ ، ١١٨ عام ١٨٩٩ .

داره بشارع الدواوين بذات الجنب . وما شاع الخبر حتى أقبل العلماء والمشائخ والكبراء وأهل المناصب على داره وخرجوا بجنازته وبينهم الغازى مختار باشا والأمير محمد على باشا ، ولورد كرومر ، ولفيف الوزراء . وصلوا عليه بمسجد السيدة زينب ومن هناك[٩٧] المشهد إلى الإمام الشافعى حيث دفن فى مدفن عثمان باشا ماهر وقد كان أوصى بذلك قبل موته ، ثم طيروا خبر موته إلى دار السلطنة العثمانية . فما هو أن بلغها حتى اختلفوا فى باب المشيخة فيمن يولونه القضاء بدله . ولما كان هذا المنصب هو البقية الباقية لعرش الخلافة فى ديار مصر ، ولحمة الاتصال بين السلطنة العثمانية والإمارة المصرية ، بعد أن ذهبت عنها حقوق السيادة أو كادت على عهد الاحتلال الإنجليزى ، وسلخ السودان وغيرها ، اهتم الباب العالى اهتماما كبيرا لصيانة هذا المنصب من عبث العابثين ، وجعل يتدبر أمرخ[٩٨] بالحكمة والتأنى ، ويختار له من هو أهل وأقدر على بقائه وحفظ كرامة الخلافة فى أعين المصريين . ووصل علم ذلك إلى الأمير ، فسير كتبه إلى الباب العالى يسأله ترك الخيار لمصر فى ولاية الأصلح من العلماء وأهل الفضل ، فلم يوافق السلطان على ذلك .

فأرسل ثانية يقول : (أنا اخترنا أربعة من علماء دار السلطنة المشهود لهم بالفضل والعالمية ، فليختر الباب العالى وباب المشيخة من يستحق الولاية فأعرض الباب العالى عن ذلك أياما كثرت فيها الظنون وترامت إلى أبعد المرامى ، وقامت حولها ضجة أصحاب الصحف المحلية ، وجعل أصحاب صحف الإنجليز يهددون السلطان ويتوعدون بآيات الإرهاب أن هو لم يرجع عن سياسة المماحكة ، ويقلع عن مقاصد السوء . وجعل بعضهم يعيد ذكرى واقعة التل الكبير وفوز الجيوش الإنجليزية على أصحاب الثورة ، ويشيرون من طرف خفى إلى أن البلاد باتت وأصبحت وهى خاضعة لكل ما يرضاه صاحب سياستهم ، ولا سيما بعد فتح السودان والقضاء على الثورة المهدوية .

---

(٩٧) هناك = هناك سار أضيفت الكلمة ليستقيم المعنى .
(٩٨) أمرخ = أمره قراءة تصحيحية .

واتفق أن قدم إلى السويس فى ليلة السابع من فبراير من السنة سلطان جزيرة[٩٩] مالديف محمد بن أحمد عماد الدين يريد (جده) (فمكة) لأداء فريضة الحج . وشاع بين العامة خير مقدمه فظنوه قاضى القضاه آتيا من الأقطار الحجازية إلى مصر بفرمان من السلطان . وجعلو يهرفون ويخلطون ويقولون أقوالا من كيفية حضوره ، وما أعطى إليه من السلطة من قبل الخلافة ، وما سيتم على يديه من خروج الإنجليز من ديار مصر ، وغير ذلك من البهت والزور ، وما تمجه الأسماع وتعافه النفوس ، حتى لقد بلغ التهوس من بعضهم أن صاروا يأتون فى كل يوم إلى محطة السكة ليروه ويحفلوا بقدومه ، والرجل لم يبرح مدينة السويس منذ أنزلوه مع حاشية[١٠٠] بها ، حيث أعد لهم (الحاج على أبو فارس) أحد أعيان البلدان[١٠١] فنزلوا بها ينتظرون قيام إحدى البواخر الإيطالية ، فتركوها إلى حيث وجهتهم . والرجل أسمر اللون ربعة القامة ، نحيف الجسم ، أسود العينين ، رقيق شعر العارضين ، لم يتجاوز الثانية والثلاثين من عمره ، ارتقى أريكة ذلك الملك المعروف (بجزر مالديف) منذ ثمانى سنوات بعد تنازل أبيه عن كرسيه . وزيه فى بلاد[١٠٢] الرداء الواسع العربى ، والعمامة المكورية[١٠٣] ، ولكنه نزل إلى السويس وهو على الزى الفرنجى ، وكذلك وزراؤه ورجال حاشيته وعددهم ثلاثة وأربعين ، ويصحبه في رحلته هذه نساؤه ووالدته وصهره (الأمير أحمد دى دى) ووزيره الثالث ، ووزيره الثانى (الأمير حسن دى دى) . وهذا الوزير هو الآن فى الخمسين من عمره . أقول ولما كان هذا الأمير ممن يتوق القراء ومحبى التاريخ للوقوف على أخبارهم ، ننقل لهم هنا ما وصلنا إلى معرفته عنه شخصيا وعن بلاد[١٠٤] جغرافيا .

(٩٩) مالديف = جزر مالديف Maldive Islands ، تقع فى شمالى المحيط الهندى على بعد حوالى ٥٠٠ كيلو متر جنوب غرب رأس Tip الهند . تتكون من أكثر من ألف جزيرة مرجانية صغيرة ، يعمر السكان حوالى ٢٠٠ منها فقط ، وتشكل سلسلة من الجزر المرجانية التي تمتد حوالى ٨٠٠ كم . دينها الرسمى هو الإسلام ، ويسكن حوالى ١٢٪ من السكان فى جزيرة مالى Male العاصمة والمركز الحضرى الرئيسى . استقر المالديف فى الجزر فى القرن الخامس الميلادى بهجرات من سرى لانكا Srilanka . ثم جاء التجار العرب فى القرن الثانى عشر وأدخلوا الإسلام فى الجزر . بدءا من القرن الثانى عشر حكمت الجزر بواسطة سلطان . من ١٨٨٧ إلى ١٩٦٥ كانت الجزر محمية بريطانية . فى ١٩٦٥ أصبحت الجزر مستقلة ، وفى ١٩٦٨ ألغيت السلطنة .

- Lexicon Universal Encyciopdia - Vol. 13 - pp., 86 - 87

(١٠٠) حاشية = حاشيته قراءة تصحيحية .

(١٠١) البلدان = البلد مضيفة أضيفت الكلمة ليستقيم المعنى .

(١٠٢) بلاد = بلاده قراءة ترجيحية .

(١٠٣) المكورية = المكورة قراءة اجتهادية

(١٠٤) بلاد = بلاده قراءة ترجيحية .

فمالديف تلك التى هى مملكته ومقر سلطانه هى اسم ارخبيل أو هى مجموعة الجزر التى يحجمها[١٠٥] ومعناه فى العربية الجزر الألف ، ويقول وزير الأمير أنها ألف ومايتين جزيرة ، وهى غنية بأشجارها وأثمارها ومرجانها وعذوبة ماءها ، وما امتازت به (شجرة الجزر) (والتين الموزى) ، وسكانها يبلغون على قول الأمير مليونا خلافا لما تقوله الكتب الأوروبية بكثير ، وليس في تلك الجزر شيئا من الصناعة ولا التجارة ولا الزراعة ، وأهلها يتجرون بالأسماك المقددة وبجوز الطيب وبالأثمار ، ودخل الجزيرة على ما يقوله الأمير خمسمائة ألف ذهبا ، وعندهم بعض الكتاتيب للصغار يعلمون فيها القرآن دون سواه . أما مذهب الأمير فالشافعى وكلهم مسلمون ، وليس فى البلاد قانون ولا شريعة مشروعة بل كل الحكم للأمير ، فما أمر به فهو النافذ ، أما الأمور الدينية فلها قاضى يفيض بها[١٠٦] ، وبه تتعلق أمور الزواج والطلاق ، والبيع والشراء والرهن ، وغير ذلك . وليس للأمير مع سكناه الجزر بالمياه من سفن أو مراكب تجارية أو عساكر بحرية ، وكل ما يملك من ذلك مراكب على شكل الذهبيات فى نيل مصر . ومن عوايدهم أنهم يعطلون يوم الجمعة لأن الصلوة تقام عامة ، فلا بيع ولا شراء ، وبعد أداء فريضة الجمعة يستعرض الأمير جنوده وهو لا يعرف من اللغان[١٠٧] غير الهندية . والرجل على ما يقال صالح ورع ، لا تخفى آثار صلاحه ودلائل ورعه على من ينظر إليه . وانحدر إلى القاهرة وأقام بها أياما ، ومعه وزيره الثانى (الأمير أحمد دى دى) وبعض الأشراف من حاشيته ، فزار المقامات والمشاهد وأضرحة آل البيت النبوى ، ثم قفل راجعا إلى السويس ، فركب مع حاشيته الباخرة (محلة) قاصدا (جده) .

وبلاد هذا الأمير واقعة غربى جزيرة سيلان إلى الجنوب ، وهى الجزيرة التى يسميها مؤرخو العرب (بسد نديب[١٠٨]) وأما عاصمة (مالديف) فهى جزيرة (مالي) ، طولها ألف وستمائة متر وعرضها ألف ومايتين ، وعدد سكانها ألف وخمسمائة نسمة ، والأمير يلقب بسلطان الأقاليم الثلاثة عشر ، والألف والمايتى جزيرة . وأول رحالة عرف جزيرة ملديف

(١٠٥) يحجمها = يحكمها قراءة ترجيحية .

(١٠٦) يفيض بها = يقضى فيها قراءة ترجيحية .

(١٠٧) اللغان = اللغات قراءة تصحيحية .

(١٠٨) سدتديب = سرنديب .

- راجع (د . يونان لبيب رزق (الأهرام - ديوان الحياة المعاصرة) - الجزء الأول ١٨٧٦ - ١٨٨٢ - مركز تاريخ الأهرام - القاهرة ١٩٩٥ - ص ٢٣٣ .

هو (ابن بطوطة[١٠٩]) ووصل إليها عام أربعين وثلثائة وألف وسماها فى كتاب رحلته بجزيرة (ذيبة المهل) وسمى عاصمتها ـ (مالى) ـ (بالمهل) . وأول رحالة أوربى[١١٠] وصل إليها أيضًا هو (بيلراد لافال) سنة اثنتين وستمائة وألف للميلاد . وفى سنة أربعة وثلاثين وثمنمائة وألف دخلها الفرنجة ، وضمها الإنجليز إلى حكومة سبنديب[١١١] وضربوا على أهلها الجزية يحملها[١١٢] فى كل سنة . ولم يدينوا بالإسلام منذ عهد بعيد ولكنهم عرفوه على يدى رجل يقال له (ابرى[١١٣] بركات) المغربى من برابرة المغرب ، وكان سناطا[١١٤] لا لحية له ، وظل هذا المغربى بينهم حينا طويلا ، وله فى بلادهم أكبر مسجد . وهم يعظمون المغاربة ويجلونهم أكراما (لابى البركات) شيخهم ذلك .

واستبطأت وزارة الحقانية قدوم قاضى القضاة الجديد ، فأرسلت وزارة الداخلية إلى الباب العالى ترجوه التعجيل ، وتشكو من العطلة الحاصلة فى قضايا الناس منذ وفاة (السيد جمال الدين) . فما هى إلا أيام بعد ذلك حتى نقل صاحب (المؤيد) عن جريدة (اقدام) التركية خبرا مفاده أن قد برز أمر السلطان بتعيين قاضى القضاة الجديد منذ أيام ، وأنه لم يعلم أحد بأمر هذا التعيين حتى أشاعته تلك الجريدة . قلت وقد انقلبت الحقيقة على (صاحب المؤيد) ، وذلك أن الخبر الذى جاء بتعيين قاضى القضاة فى جريدة (أقدام) إنما هو خبر أعطاء درجة هذا المنصب ومرتبه السنوى لصاحب الدور من جماعة

---

(١٠٩) ابن بطوطة (٢٥ فبراير ١٣٠٤ – ١٣٦٨/ ٦٩ أو ١٣٧٧) ـ رحالة عربى دؤوب ، ألف أشمل وأكمل قصة للعالم الإسلامى فى العصور الوسطى المتأخرة . سافر بين ١٣٢٥ – ١٣٥٤ عبر شمال أفريقيا ، الشرق الأوسط ، أفريقيا الشرقية ، أواسط آسيا ، الهند ، جنوب شرقى آسيا ، ويحتمل الصين أيضًا . زار جنوبى أسبانيا فى رحلات منفصلة وعبر الصحراء إلى الأراضى المسلمة فى غرب أفريقيا .

أملى ابن بطوطة رواية عن أسفاره بعد رجوعه إلى مراكش ، واكتمل هذا العمل فى ٩ ديسمبر ١٣٥٧ . وتكمن قيمة عمله هذا فى أنه يعد مصدرا رئيسيا للتاريخ الاقتصادى والاجتماعى ، وخاصة فى وصف الهند ، الأناضول ، والبلاد التى حول نهر النيجر .

– راجع (رحلات ابن بطوطة) ترجمة هـ . أ . ر . جب H. A. R. Gibb ـ ثلاثة أجزاء (١٩٥٨ – ١٩٧١) .

(١١٠) اوربى = أوروبى قراءة تصحيحية .

(١١١) سبنديب = سرنديب قراءة ترجيحية .

(١١٢) يحملها = يحملونها إليهم عدلت الكلمة ليستقيم المعنى .

(١١٣) ابرى بركات = أبو البركات .

– راجع السطر الثامن من نفس الصفحة .

(١١٤) السِّنَاطُ بالكسر (الكوسج) الذى لا لحية له أصلا .

ـ محمد بن أبى بكر بن عبدالقادر الرازى (مختار الصحاح) ـ مكتبة لبنان ـ بيروت ١٩٨٧ ـ ص ١٣٣ .

المشائخ الذين يرشحون عادة لمنصب قضاء مصر من باب المشيخة بدار السلطنة . وبيان ذلك أنه قد جرت العادة فى باب مشيخة الإسلام بدار السلطنة لعهد الخديوى إسماعيل ، أنهم يرشحون عددا من العلماء على ترتيب مخصوص يتولون منصب القضاء فى مصر سنة واحدة بمرتب فى تلك السنة قدره ألفين وخمسمائة ليرة عثمانية يقبضها من خزينة السلطنة ، فإذا انقضت السنة استبدلوه بآخر من أولئك المنتخبين حسب ترتيبه ، وهكذا الحال مع كل قاض يرسل إلى ديار مصر . فلما تاقت نفس الخديوى إسماعيل إلى الاستقلال بملك البلاد على ما مر بك بيانه مفصلا فى هذا الكتاب ، وسعى سعيه المتواصل لبلوغ هذه الأمنية ، وكان من لوازم الاستقلال إبطال كل عادة متبوعة من القدم ، أو قاعدة مشروعة ما بين دار السلطنة العثمانية والإيالة المصرية تدل على التابعية الصحيحة لعرش الخلافة ، كضرب السكة باسم السلطان ، والخطبة له على منابر المساجد ، وجعل إشارات الجند المصرى كإشارات الجنود العثمانية ، ودفع الجزية إلى الخزانة السلطانية ذهبا فى كل عام ، وتعيين قاضى قضاة العسكر من باب المشيخة الإسلامية بدار السلطنة ، وغير ذلك من القيود والعهود المقررة بالقوانين الموروثة من القدم ، فقد سعى الخديوى إسماعيل إذ ذاك مع الباب العالى أن من يتعين من باب المشيخة لقضاء (مصر) يبقى فى منصبه ما دام حيا يرزق ، فإذا مات استبدلوه بمن يبتعد[١١٥] على ترتيبهم المألوف . وظل على سعيه حتى تم له ما أراد . وبقى نظام باب المشيخة معمولا به من غير تغيير ولا تعديل ، فكان إذا مات أحد المختارين لقضاء مصر انتدبوا غيره ، وإذا مضت سنة على من يلى قاضى[١١٦] مصر فى الترتيب اعتبروه كأنه قد تقلد ذلك المنصب فى سنته ، ووجب إعطاء[١١٧] الألفين وخمسمائة ليرة عثمانية بحكم ذلك النظام المألوف عندهم . وما نقله صاحب جريدة (اقدام) فى هذا الحين إنما هو الانعام من السلطان على من جاءت نوبته من أولئك المشائخ بلقب ومرتب قاضى قضاة مصر ، وهو مع ذلك لم يتحرك فى[١١٨] مكانه فى باب المشيخة ولم ير محكمة مصر

(١١٥) يبتعد = يبعث قراءة ترجيحية .
(١١٦) قاضى = منصب قاضى أضيفت الكلمة ليستقيم المعنى .
(١١٧) اعطاء = اعطائه قراءة ترجيحية .
(١١٨) فى = من قراءة تصحيحية .

بعينه . وظل الحال على ذلك والناس يتساءلون عما سيكون من وراء قعود السلطان عن إرسال القاضى ، وهل يتأتى لحكومة مصر أن تختار لمحكمتها قاضيا من علمائه[١١٩] ، أو هى تظل على عهدها مع الباب العالى حتى إذا شاء أعطاها وإذا شاء أحرمها . وكثر تحدثهم فى ذلك . فبينما هو على هذا إذ جاء الخبر إلى قصر الإمارة والغازى مختار باشا مندوب السلطان بأن قد برز الأمر بولاية (يحيى أفندى) قاضيا لقضاة مصر ، وأنه برح القسطنطينية[١٢٠] تاسع عشر شهر فبراير من السنة . ففرح بذلك الغازى مختار باشا ، وقد كان يخشى فوز صاحب السياسة الإنجليزية ، وإبطال هذه العادة المشروعة منذ القدم بالفرمانات السلطانية ، وهى ما بقى للباب العالى من السلطة الأدبية على أيالة مصر ، بعد الذى أبطله الخديوى إسماعيل بالطرق والأسباب العجيبة التى مر بك بيانها فى حينه . وشاع خبر قدوم قاضى القضاة بين الناس فأعظموه ، وجعلت بعض الصحف المحلية تطرئ الرجل وتعدد محاسن أعماله عند ما كان قاضى الشام وبعد[١٢١] الإيالات الأخرى التى تولى قضاها[١٢٢] . وذكر صاحب الأهرام أنه حكى عنه أنه كتب إليه مرة مقرب من منصب عال يستلفته إلى مسألة صديق له رفعت إليه ، فأرجع الشيخ التذكرة وقال له لا وساطة فى الشرع الشريف . ولما وصل خبر قيامه من دار السلطنة إلى قصر الإمارة ، رسم الأمير بعقد جلسة مجلس الوزراء ، وتناجوا فى أمر ذلك طويلا وفى تعجيب[١٢٣] الباب العالى أو المابين بارسال القاضى قبل أن يتفق مع الحكومة المصرية على تعيينه . وظل مجلسهم منعقدا إلى ما بعد الزوال من ذلك اليوم ، ثم انصرفوا على أن ينتظروا ريثما يصل القاضى . يقال كان لورد كرومر[١٢٤] خير قيام القاضى من دار السلطنة

(١١٩) علمائه = علمائها قراءة تصحيحية .

(١٢٠) الأصح أن يقول شارويبم (الأستانة أو استانبول) بدلا من القسطنطينية Constantionple . فقد سقطت القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية على يد محمد الفاتح (١٤٣٢ - ١٤٨١) عام ١٤٥٣ ، وأصبحت مقر السلاطين العثمانيين ، وسميت منذ ذلك الوقت بالأستانة ، واستانبول - أما مسمى القسطنطينية ، فقد ظل يستخدم فى كتابات المؤرخين الأوروبيين بديلا عن المسمى العثمانى .

- راجع Bernard Lewis (Istanbul and the Civilization of the Ottoman Empire. London (1936)

- Michael Maclagan (the City of Constantionple) Newyork, 1968

(١٢١) وبعد = وبعض قراءة تصحيحية .

(١٢٢) قضاها = قضاؤها قراءة تصحيحية .

(١٢٣) تعجبت = تعجيل قراءة ترجيحية

(١٢٤) لورد كرومر خير = لخبر عدلت العبارة ليستقيم المعنى .

أثرا سيئا فى قصر الإمارة أكبره الأمير جدا وعده افتياتا وقصدا معيبا بعد أن كانت المخابرة بين قصر الإمارة والباب العالى قد وقفت عند حد ، وأضحى من المحتم على الباب العالى أن لا يبرم فى ذلك أمرا إلا برضاء متبادل . فلما كان يوم ثالث عشر فبراير من السنة وصل القاضى إلى الاسكندرية ، فقابلوه باحتفال ونزل ضيفا على صديقنا سيادة الشيخ محمد سليمان باشا ، وقضى سحابة يومه وليلته . وأصبح وقد سافر إلى القاهرة ومعه ولده من موظفى مجلس التدقيقات بدار السلطنة ، فودعه فى محطة السكة الحديد وكيل محافظ المدينة وجماعة من العلماء والمشائخ . فلما بلغها لم يكن في لقائه من الاحتفال [١٢٥]مع كان يظن الناس . فلما كان ثانى يوم سار فى مركبة من مركبات القصر لزيارة الأمير ، فاستقبله على الرسم المألوف بحضور سائر أعضاء المحكمة الكبرى الشرعية ، وزار الرئيس مصطفى فهمى باشا فى مقره ، وكذلك زار جميع الوزراء فى دواوينهم . وما هى إلا عشية أو ضحاها حتى شاع الخبر بعزم الحكومة المصرية على إبطال حمل الثلاثة آلاف جنيه ، المقرر حملها في كل سنة إلى الخزينة السلطانية ، بحكم الاتفاق الذى وقع ما بين الباب العالى والخديوى إسماعيل عند إبطال عادة أرسال القضاة على رأس كل سنة إلى ديار مصر كما مر بك بيانه فى حينه ، حيث أن المابين الهمايونى لم يبال بما بينه وبين مصر من العهد ، فسير هذا القاضى بغتة وعلى غير اتفاق سابق لحضوره . واهتمت وزارة الداخلية لذلك اهتماما كبيرا وتتسابقه[١٢٦] الرئيس مصطفى فهمى باشا إلى الباب العالى ، قيل وكتب الأمير في معنى ذلك أيضًا . وظل الحال بين أخذ ورد أياما كانت الظنون فيها تترامى إلى أشد المرامى ، والقاضى قد أطلقت يده وجعل يتصرف فى الأمور تصرف الحاكم المستقل ، ولم يحسب لمستشار وزارة الحقانية وهو من جماعة الإنجليز حسابا ، ولا زار لورد كرومر حسب العادة المألوفة[١٢٧] ، ولا نظر إلى شيء من الترتيبات المستحدثة التى أحدثوها بالمحاكم ،

(١٢٥) مع = ما قراءة اجتهادية .

(١٢٦) وتتسابقه = وكتب قراءة ترجيحية .

(١٢٧) فات ميخائيل شاروبيم إدراك أن زيارة قاضي القضاة العثمانى للمعتمد البريطانى وممثل دولة الاحتلال فى مصر تعنى ضمنا اعتراف الدولة العثمانية بالوجود غير الشرعى لبريطانيا فى مصر وترسيخ احتلالها لأجزاء من الدولة العثمانية . على أن القارئ يستطيع أن يلمس من بين سطور الصفحات ٦٨١ ، ٦٨٢ ، ٦٨٤ ، ٦٨٥ ، ٦٨٦ من النص روح الامتعاض عند شاروبيم من وجود علاقة ما بين مصر والدولة صاحبة السيادة ، والسخرية من تمسك الدولة العثمانية ، بالخيوط الباقية من مظاهر سيادتها على مصر ، وميله إلى الاعتراف بالسيادة الفعلية defacto لبريطانيا على مصر - ولعل هذا المسلك باد فى الكثير من صفحات النص .

تخفيفا على العامة ، وتسهيلا لتنفيذ الأحكام الشرعية ، واستبد بالحكم فلم يشرك معه فيه أحد من أعضاء مجلسه . فكانت[١٢٨] إذا راجعه وزارة الحقانية فى أمر خاشنها ورد عليها ردا غير جميل . وفيما هو على هذا إذ جاءه[١٢٩] الخبر من باب المشيخة فى دار السلطنة ، بأن قد برز أمر السلطان بالإحسان عليه بمداليتى الإمتياز الفضية والذهبية . يقولون فاندهش أصحاب الحل والعقد ، وأكبروا هذا وأعظموه ، وانقلبت الأمور انقلابة أخرى ، وجعل سفير الإنجليز فى دار السلطنة يغدو ويروح بين الباب العالى والمابين ، حتى وردت كتب باشكاتب المابين على الغزى[١٣٠] مختار باشا بما لم تصل إليه[١٣١] معرفته .

وما هى إلا أيام بعد ذلك حتى سكنت ضوضاء المحكمة الشرعية ، وثاب القاضى إلى الرشد والسكينة ، وعادت الأمور إلى سابق مجراها . وكان إلى هذا الحين لم يزر شيخ الجامع الأزهر ولا جماعة العلماء ، ولا زاره أحد منهم ، وكأنهم كانوا فى خصام مقيم ، فركب إلى زيارتهم وسار إلى الجامع الأزهر للسلام على شيخه وعلى المفتى فى مقرهما ، فقابلاه مع لفيف العلماء والمدرسين ، وطافوا معه حلقات التدريس وتعهدوا الأروقة .

وجاء الخبر إلى وزارة الداخلية بشبوب نارا[١٣٢] هائلا ببلدة (زاوية البقلى) إحدى مدن مديرية المنوفية ، خرجت النار من تنور لعجوز فى دار وسط البلد ، فدمرت البلد كلها فى مسافة لا تتجاوز الثلاثة ساعات ، ولم يبق لها أثرا ، ولم يخلص من متاع الناس شىء ، ومات بالحريق سبعة وسبعين شخصا ، وأصيب كثيرون بجراح مميتة . وزاده[١٣٣] البقلى بلدة شهيرة قديمة . قالت وزارة الداخلية احترق فى ذلك الحريق ستمائة منزلا منها أربعمائة وستين لم يبق لها عين ولا أثر ، وخرج الناس على وجوههم إلى المزارع وهم فى ولولة وصياح لا يلوون على شىء من شدة النيران حتى كانت البهايم تدوس

---

(١٢٨) فكانت إذا راجعه = فكان إذا راجعته قراءة تصحيحية .
(١٢٩) جاءه = جاء قراءة تصحيحية .
(١٣٠) الغزى = الغازى قراءة تصحيحية .
(١٣١) إليه = إلى قراءة تصحيحية .
(١٣٢) نارا هائلا = نار هائلة قراءة تصحيحية .
(١٣٣) زاده = زاوية قراءة تصحيحية .

الناس بأقدامها وهى تركد[١٣٤] هنا وهناك ، فزاد[١٣٥] من اللهيب وكتل[١٣٦] النار المتطاير من الحريق ، فكان الخطب مريعا . وبات أهل البلد يغشرشون[١٣٧] الغبراء ويلتحفون السماء . فاهتمت الحكومة لذلك وسيرت إليهم الخيام والأقوات ، ووكلت جماعة من موظفيها بالسهر على راحتهم . ومات فى هذا الحريق أيضًا كثير من البهائم والطيور والأغنام . ويقدرون الخسائر بثلاثين ألف جنيه ذهبا ، فأمدهم أهل الإحسان بما قدروا عليه من مال ومبرة وأكسية وغير ذلك ، فحسنت حالهم وهان مصابهم ، وعادوا يعمرون ما احترق من دورهم جهد الاستطاعة .

وإلى هذا الحين كانت مبادئ (مصطفى كامل) والملتفين حول دعوته قد تسربت أيضًا إلى طلبة الجامع الأزهر ، فأخذت بعقولهم وتمكنت من نفوسهم ، فكانوا كثيرى الهرج والخروج على جماعة المدرسين لأقل سبب . واتفق أن جماعة المبشرين بالإنجيل من قساوسة الإنجليز والأمريكان قد أنشأوا للخطابة والمناظرة ناديا فى حى عابدين ، كانوا يجتمعون فيه أياما معدودة في كل أسبوع ، فيحضره كثير من الشبان المتعلمين من النصارى والمسلمين . وكانوا يتناظرون فى الدين ويتبادلون الأفكار ويتحاجون . واشتهر ذلك النادى وتفشى خبره بين العامة أيضًا ، فكانوا يأتون إليه لسماع ما يلقونه جماعة القساوسة من النصائح والإرشادات ، والقصص الداعية إلى تهذيب الأخلاق ، والإقلاع عن الرزائل . فأفلحت تعاليمهم وأثمرت ، وكثر إقبال القوم على ذلك المجتمع ، وقد ظهرت على بعضهم دلايل السكينة والوقار . وتفشى خبر ذلك وتحدث به الكبراء والأمراء فى مجالسهم . يقال فكان إذا اتفق حضور مصطفى كامل في أحد تلك المجالس وسمع من حيث[١٣٨] أصحابه شيئا عن ذلك المجتمع أو اطرأ[١٣٩] لعمل قساوسته ، أو تعظيما لشأنهم امتعض وتأفف ، وقال إن الدين الحنيف يقضى على كل مسلم أن يحارب أولئك القساوسة ، ويقاوم بدعتهم ما استطاع ويلاشى محنتهم ، ولو أدى

(١٣٤) تركد = تركض قراءة تصحيحية .
(١٣٥) فزاد = وزاد قراءة ترجيحية .
(١٣٦) وكتل = كتل قراءة ترجيحية .
(١٣٧) يغشرشون = يفترشون قراءة تصحيحية .
(١٣٨) حيث = حديث قراءة ترجيحية .
(١٣٩) اطرأ = اطراء قراءة ترجيحية .

ذلك إلى امتشاق الحسام . وحمل فى جريدة اللواء على أولئك القساوسة حملة منكرة جدا ، ولم يترك لأحد غيره مقالا . فأثرت أقواله تأثيرا رديئا في نفوس الناشئة الحديثة من صبيان المدارس وغلمان الأزهر على ما بهم من طيش ورعونة . واتفق أن اجتمع جماعة المتناظرين بذلك المجتمع على عادتهم ، فما هو أن استقر بهم المقام حتى أقبلت ذائقة[١٤٠] من طلبة الأزهر وتزاحموا على باب المجتمع ، وجعل بعضهم يصيح وهو يسب ويشتم بأقبح الشتائم ، وبعضهم ينادى (إحرقوا هؤلاء القساوسة الملاعين ، أهدموا دارهم هذه النجسة ، أهدموها) . واجتمعت الغوغاء وعلت الأصوات وترامع[١٤١] الصبيان ، وسدت الطرق فى وجوه المارة ، وتسلق بعض الغوغاء جدران الدار يريدون اقتحامها ، فأقبل رجال الشرطة مسرعين ، ومزقوا تلك الجموع وفرقوهم في الشوارع بعد العناء الشديد ، وهم على ما كانوا عليه من السب والشتم وفحش القول ، ولم يخرج أحد من المجتمعين مع القساوسة إلا بعد العشاء الأخيرة فى حراسة أصحاب الشرطة .

وشكا جماعة القساوسة ما حل بهم إلى لورد كرومر ووزارة الداخلية ، وطلبوا منع مصطفى كامل أو أركان الحزب الوطنى من بث روح التفريق بين أبناء الوطن الواحد ، وعدم التعرض لحرية الأديان فنشر[١٤٢] عبارات التهديد والوعيد جهارا ، وقام لنصرة أولئك القساوسة بعض أصحاب الصحف الأجنبية ، فكانت حرب الأقلام بينهم وبين جريدة اللواء طاحنة ، والناس بين مادح وقادح . حدثنى صديق من أهل المناصب بوزارة الداخلية قال (يقولون أن هذه الحركة السمجة العقيمة من عمل أصحاب الاحتلال يريدون بها القاء البغضاء بين العنصرين المكونين للأمة المصرية ، أخذا بسياستهم في ديار الهند (فرق تسد) ، وما هى والله إلا نفسية من مصدور من أهل ذلك الحزب الوطنى الذى ابتليت به البلاد لهذا العهد ، وأمر ليس فيه شيء من الحكمة والسداد . وعهدى بالقوم الإنجليز البعد عن هذه السفاسف ، فهم إذا شاءوا أمرا كانوا فى إتيانه أبعد نظرا من الهدهد ، وأحيل من الثعلب ، وأبطش من الأسد) . قال (وعندى أن البقاء على هذا الحال من المحال ، ولابد من الحيطة ، وأن ننصح للنافخين فى هذا الضرام أن يدعو كل

(١٤٠) ذائقة = طائفة قراءة ترجيحية .

(١٤١) وترامع = وترامح قراءة ترجيحية .

(١٤٢) فنشر = بنشر قراءة ترجيحية .

إنسان حرا فى عمله ، وأن يقف كل لسان عند حده ، فلا نوافق جماعة المشرين[١٤٣] على الجدال والمناظرة العقيمة ، ولا أولئك الأزهريين على المظاهرة السمجة . وأية أهمية لوقل[١٤٤] المبشر إذا لم يسمع له أحد ، وما هى الفائدة من مظاهرات ينكرها كل عاقل محب لوطنه ، فقد كفانا ما عندنا . وما الوطنى إلا من يضرب بهذه الصغائر عرض الحائط حتى لاتكون منشأ للكبائر) ا . هـ .

ولما كان سابع عشر فبراير من السنة جاء الخبر من مدير ولاية قنا إلى ديوان الوزارة وقصر الإمارة بنزول سيل جارف من الجبل الشرقى ، بعد هطول مطر غزير جدا . فجرف ذلك السيل خط السكة الحديد الضيقة في أصوان ، ولم يبق به إلا القليل . ونزل أيضًا بناحية (قفط) بمركز قنا ، فجرف سائر الأجران التى صادفته . واشتدت الأمطار شدة بالغة بناحية (كفر جله) فدكت المنازل وجرفت الأجران ، وحملت أمتعة الناس والطيور والدواب الصغيرة إلى الترعة ، فكان فعلها أشد من فعل النيل . فبرز الأمر إلى مدير أقليم قنا ببذل العناية بأمر المنكوبين بهذا السيل ، واتخاذ التدابير الواقية . وسيرت مصلحة السكة الحديد العمال والصناع والبنائين والمهندسين لإعادة ما تهدم من خط السكة الحديد بأصوان وغيرها . وانقطعت المواصلات أياما كثيرة صعدا وهبوطا ، حتى أصلحوا ما تخرب ، وعادت المواصلات إلى سابق نجراها[١٤٥] . وإلى هذا الحين كانت قد سهلت المواصلات بين السودان المصرى كله وبين (الأوغانده الإنجليزية) ،وكثرت أسباب النقل ووسائل الراحة ، وراجت التجارة بجميع أنواعها وانتظم البريد ، فكان يقوم من الخرطوم على رأس كل شهر إلى (الأوغاندة) ويقوم من (الأوغاندة) كذلك . وقد كان إذا طلب الإنجليز المقيمين (بالأوغاندة) حاجة من السودان فلا تصل إليهم إلا بعد سنة كاملة على نفس طريق البريد ، وكانوا يدفعون الأجور الباهظة ، وكانت الرسائل لا تصل إليهم قبل أربعة شهور من إرسالها ، هذا إذا لم تفقد أو تتلف ، أما الآن فهم يبتاعون مؤنهم من الخرطوم بثمن أقل من ثمنها فى محاسبة[١٤٦] ، وما يطلبونه يصل إليهم فى مدة

---

(١٤٣) المشرين = المبشرين قراءة تصحيحية .
(١٤٤) لوقل = لقول قراءة ترجيحية .
(١٤٥) نجراها = مجراها قراءة تصحيحية .
(١٤٦) فى محاسبة = لم أستطع معرفة اسم البلدة التي يقصدها المؤلف (محاسبة) .

لاتتجاوز ستة أسابيع ، وكانت الكتب قبل اليوم ترسل إليهم من ديار الانجليز (مذكورو)[١٤٧] فلا تصل إلا بعد أربعين يوما ، ومن (مذكورو) إلى الإوغانده فى ثلاثين يوما ، فزالت كل هذه الموانع والعقبات ، واستراح الناس من ذلك العناء السقيم . وقد قرأت فى جريدة (الدالى تلغراف الإنجليزية) رسالة لمبعوثها الذى سيرته على رأس حملة كبرى إلى أفريقية واسمه (ليونل دكل) ليوافيها بما يستكشفه من أحوال تلك الأنحاء البعيدة ، غاية فى الأهمية التاريخية والمباحث العلمية . فقد قال بعد كلام (وأنا لما وصلنا إلى (شمبة) عثرنا على بحيرة كبيرة مكونة من مياه النيل ، وهى تبتلع قسما كبيرا جدا من تلك المياه ، على[١٤٨] مسيرة ثلاثة أرباع الساعة من هذه البحيرة توجد بحيرة أخرى ، طولها عشرة أميال وعرضها بين ستة أو سبعة أميال . وتحققنا أن مجرى النيل مسدودا بما يسمونه السدود ، وهذه السدود تشتغل حكومة السودان الآن بقطعها ، فإذا تم ذلك زادت مياه النيل زيادة عظيمة . وشاهدنا النيل يجرى قبل ملتقاه ببحر الغزال ، على مسافة خمسة وعشرين ميلا إلى الجنوب ، بين غابات كثيفة وأحراج ملتفة ، ومن مجرى النهر من الشرق إلى الغرب يرى السائر على بعد عشرة أميال أو خمسة عشر كثبانا من الرمال يكسوها النبات . والمقدر أن هذه الكثبان كانت تغمرها المياه . ونبات البردى ينمو هناك نموا غريبا ، حتى أن النبتة منه يبلغ علوها من اثنى عشر إلى خمسة عشر قدما ، فإذا كان فيضان النيل كبيرا غمر تلك الكثبان ، واندفعت المياه عليها تحثها الريح الشمالية التى تهب هناك مسة[١٤٩] ستة شهور ، فإذا غمرت المياه الكثبان اقتلعت النبات فطفوا[١٥٠] على وجه الماء ، ثم يندفع إلى مجرى النيل كالجزيرة العائمة إلى أن يقف فى وجهه حائل فيوقفه ، ثم يتكدس إليه ما تحمله المياه وتنقله الرمال ، فينبت جزع البردى وتمتد جذوره ، وتصبح تلك الجزر القائمة متلاصقة متشابكة ، ثم تتصلب وتقوى وتسد النيل على مسافات متفاوتة الأبعاد ، حتى أن السد يكون أحيانا خمسة عشر ميلا . وعندئذ يطلب الماء مجرى فينقسم إلى قسمين فى

---

(١٤٧) مذكورو = إلى مذكورو أضيفت الكلمة ليستقيم النص .
(١٤٨) على = وعلى قراءة ترجيحية .
(١٤٩) مسة = مدة قراءة ترجيحية .
(١٥٠) فطفوا = فيطفو قراءة ترجيحية .

جانبى السد ، وعند هذين القسمين تتكون المناقع ، ثم تجرى الفروع ، فتكون مناقع أخرى وسدودا أُخَر ، وهكذا على التوالى) . قال (فإذا لم تسهل أيدى الصناع على النيل مجراه ضاعت المنفعة ، وضاعت المياه كما حدث ذلك على عهد دولة الدراويش ، فإن البحيرات الثلاث الكبيرة التى سبق الكلام عليها لم تكن موجودة على عهد غوردون) . قلت وقد جاء فى كتاب للسير (صموئيل باكر) استاذ (غردون) عند كلامه على النيل بين بحر الغزال والصوبات ، إن النيل غاب دفعة واحدة فى موضع واحد عند طرف النيل الأبيض . قال الراوى (أما السد فيمكن أن يسير الإنسان فوقه كما يسير على اليابسة) . قال (وقد سبرت السد فوجدت تحته بين إثنى عشر وعشرين قدما ، وعمق المجرى تحته ستة عشر قدما ، فقطع السد لا يكون بفتح مجرى فى وسطه ، بل بنقله من وجه الماء بحيث أنه قبل النقل يضرمون النار فى نبت البردى ، فيحترق حتى آخر جذوره ، وبعد احتراقه تظهر فى مكان نبته فوهات يظهر منها وجه الماء) . قال (ورأيت سدا ينقطع على هذه الطريق ، وبعد ثمان وأربعين ساعة رأيت مكانه قناة عمق مياهها من اثنى عشر إلى عشرين قدما) قلت : وأذكر من تاريخ الرومان فى ديار مصر أنهم لما ملكوها أعجب رجال الدولة منهم سير النيل وارتفاعه وهبوطه فى فصوله المقررة ، فتاقت نفوسهم إلى اكتشاف ينابعه[١٥١] ، فسيروا حملة كبيرة فيها جماعة من العلماء ، وآخرون من القواد ، وآخرون من الصناع وشيئا كثيرا من المؤن والأقوات . فسارت على مهل حتى بلغت تلك السدود ، فهالها أمرها وأقعدها عن المسير ، فقفلت راجعة وحدثت بما رأت . قال : (لم ينفرد النيل بهذه السدود ، فإن انهر الأوغانده ملأى بها ، والعقدة الشديدة هى كيفية تجفيف تلك المناقع والبحيرات على طول مايتين وخمسين ميلا على مجرى النيل جنوبى بحر الغزال ، فإن عشر مياه النيل يتسرب إلى تلك المناقع . يقولون أن أعالى النيل عبارة عن مناقع لا فائدة منها ، فقولهم لانصيب له من الصحة ، فإن البلاد بين (الصوبات وغوند وكورو) كثيرة السكان والماشية ، والقطن ينبت فيها بلا حرث ، والبردى كثير وسيأتى يوم تتقدم فيه صناعة البردى للانتفاع به) .

---

(١٥١) ينابعه = منابعه قراءة تصحيحية .

قال (ولما بلغنا (فشودة) التى حفظ التاريخ ذكرها ، وجدناها قرية تعلو سطح النيل ببعضة أقدام ، وفيها على بعد خمسمائة ياردة قلعة قديمة مهدمة ، ولما وصل (مرشان) أخذ أنقاضها وبنى منها مركزه ، وحول القلعة ميدان فسيح ، وهذه القلعة كانت للجنود المصرية ، وقد كانت تصلح لنزول (مرشان) وجنوده ، ولكنها كانت كبيرة ، والآن تحتلها الجنود الإنجليزية والسودانية ، وبين القلعة والنيل الحديقة التى رتبها مارشان ، ومنها أرسل إلى لورد كتسنر البقول . ولما سار (كتشنر) فى عسكره للقاء مرشان ، صادف فى طريقه طائفة من الدراويش تبلغ الأربعة آلاف مقاتل ومعهم مدفعين زاحفين لطرد مارشان من (فشودة) ، فقاتلهم (كتشنر) ومزق شملهم ، فإنه لم يكن يظن إلى[١٥٢] مرشان يقدر على مقاومة هذا الجيش الجرار) . إلى أن قال (ولما ترك مرشان باخرته في إحدى جزر أعالى (الصوبات) وبنى فوقها مظلة تظلها ، فلم يجسر واحد من السود أن يدنو منها ، لأنهم يخافون البحار ورؤية المراكب . وفى العام الماضى أرسل (منليك) حماة[١٥٣] إلى الصوبات ووكل إليها نقل باخرة (مرشان) ، فرأى الضباط الإنجليز تلك الحملة وهى تبذل كل جهدها بأخذ السفينة سليمة ، لكنها عجزت عن ذلك ، فشطرتها بالفؤوس شطرين) .
قلت وقد سبق فتكلمنا عن هذا . قال (ولما كنت فى (فشودة) جعلت أفكر فى السبب الحقير والغنم اليسير الذى كاد يضرم نار الحرب بين الأمتين العظيمتين ، فأدهشنى أمر ذلك جدا وقلت أن في ذلك أكبر العبر لمن اعتبر ، أفهل يجوز أن يتحارب الإنجليز والفرنسيس على شيء لانفع منه لأحدهما . وبعد مغادرتنا فاشودة وصلنا إلى (جمعه) حيث نزلت الحملة الأخيرة التى ضربت المهدوية تلك الضربة القاضية . ثم بلغنا الخرطوم فى أوائل يناير من السنة يعنى سنة إحدى وتسعمائة وألف ، فتذكرت أنى عبرت النيل منذ سبع سنوات ، وخطر لى يومئذ أن السفر من (رأس الرجا الصالح) إلى (القاهرة) يسهل جدا فى أول هذا العام ، حتى أنى صرفت فى رحلتى تلك فى المسير من (رأس الرجا) إلى (الأوغاندة) ثلاث سنوات ، وفى هذه السفرة صرفت ثمانية عشر شهرا وشهرين في المسير من (بحيرة فيكتوريا) إلى (الخرطوم) ، والمسافة بينهما زهاء الألف ومايتين ميل ، وأنى أعتقد أنه لا تمضى سبع سنوات حتى نسافر من (رأس الرجا

(١٥٢) إلى = أن قراءة ترجيحية .
(١٥٣) حماة = حملة قراءة ترجيحية .

الصالح) إلى مدينة (القاهرة) بالسكة الحديد ، فلا نصرف فى رحلتنا أكثر من ثلاثين يوما . نعم أن أفريقية التى نراها اليوم كبيرة مترامية الأطراف ستكون غدا أطرافها أدنى إلى بعضها من أطراف البلد الواحد . هذه مستعمرة الألمان فى أفريقية الشرقية قد يطوفها الرجل على كبرها وترامیها بين الغذاء والعشاء ، فهكذا ستكون أفريقية من (رأس الرجا) إلى مدينة (القاهرة) ، مع وجود فارق واحد بين الإثنين ، وهو أن العلم الإنجليزى يرفرف فوق رأس المسافر من البحر المتوسط إلى الأوقيانوس الهندى) ا . هـ قلت فتأمل كيف أن العلم ذلل مصاعب الإستعمار ومتاعب الأسفار .

وانظر الفارق بين هذه البعثة العلمية التاريخية وما نفع به أصحابها العلم والتاريخ ، وبين بعثة سير بها السلطان عبدالحميد فى شهر مايو من هذه السنة إلى الصين . وهى بعثة دينية سياسية أراد بها السلطان توثيق العلايق الدينية أولا ، ثم السياسية ثانيا بين مسلمى الصين ودار الخلافة الإسلامية . فلما تفشى خبر قيامها ومعها الهدايا من المصاحف الغالية والكتب الدينية الثمينة ، وغير ذلك من التحف والآثار ورسائل السلطان وباب المشيخة ، قام أصحاب صحف دار السلطنة وصحف مصر المحلية تحبذ هذا العمل ، وتطرئ الفريق أنور باشا رئيس هذه البعثة ، ويقولون أنه من الدين والتقوى والورع بمكان عظيم ، ومن السياسة على جانب لا يباريه فيه مبار ، وتمنت لو أن بعض شيوخ الجامع الأزهر يرافقونه فى سفرته هذه خدمة للإسلام والمسلمين ، وتعزيزا لمقام الخلافة . وكانت صحيفتى اللواء والمؤيد أشدهم تحمسا وتغنيا بميح[١٥٤] أنور باشا . ذلك وما هى أن أقبلت الباخرة التى تقل رجال تلك السفينة على الأسكندرية ، حتى وردت رسالة على جناح البرق من سفارة إحدى الدول الكبرى بدار السلطنة ، بأن أنور باشا رئيس البعثة قد اختطف قبل مبارحة الآستانة فتاة أوروبية هى معتوقته ، وأنه انتهز فرصة سفرته هذه الطويلة فحملها معه ، وكان سببا فى هتك عرضها ودوس الحقوق الزوجية . فسير قنصل تلك الدولة فى الحال خبر ذلك إلى محافظ الأسكندرية ، وسير قواصه إلى الميناء يرقب وصول باخرة البعثة . فلما ألقت مرساها صد[١٥٥] القواص وبدأ[١٥٦] الأمر إلى ربانها بالقبض على الفتاة وتسليمها إليه . فطلب الربان من الباشا

(١٥٤) بميح = بمدح قراءة ترجيحية .
(١٥٥) صد = صعد قراءة ترجيحية .
(١٥٦) وبدأ = وأبرز قراءة ترجيحية .

تسليم الفتاة . قيل فجعل يطاول ويحاول ويقول أنها إنما قد تركت زوجها مرارا من قساوته ووحشيته ، وإنها لاتريد العودة إلى معاشرته . قالوا ولما لم يجد بدا من تسليمها ، سلمها وهو وهى يذرفان الدمع . وتفشى الخبر فعلت ضجة أصحاب الصحف الأجنبية ونادوا كيف يحل لهذا المغتصب أن يكون على رأس بعثة دينية سارت إلى الصين تدعو إلى مكارن[١٥٧] الأخلاق ، والنهى عن الفحشاء والمنكر ، وهذه فعاله من افساد الأخلاق ، وإتيان الفحشاء وغشياد[١٥٨] المنكر . فجعلت بعض الصحف السورية تنوب عن الرجل وتقول : أنه ليس بينه وبين تلك الفتاة علاقة ما ، وأنه لم يرها إلا بعد أن أقلعت الباخرة حيث جاءته باكية ، وسألته أن يأخذها معه إلى الشرق الأقصى . فاستوضحها أمره[١٥٩] فقصت عليه وقائع شتى من قساوة زوجها ، وأنها معه على الدوام في شقاق . فلم يحفل أصحاب الصحف بهذا القول ، وظلوا على ضجتهم تلك أياما ، والناس فى استغراب من فعال ذلك الباشا الكريم .

وكان لما كثرت حوادث وأخبار السوء عن بعض فروع شجرة بيت الإمارة من ذرارى محمد على باشا الكبير ، وكان كلهم يدعى الإمارة ، وقد لوثوها بشىء من المثالب والمعائب الشائنة ، فكثرت الشكوى وعظمت البلوى . اجتمع لذلك الأمير بجماعة الوزراء ، وتناجوا فى الأمر طويلا . فلما كان سادس عشر مايو من السنة أى سنة إحدى وتسعمائة وألف برز الأمر بالتعريف بين من يلقبون بلقب الإمارة ، ويخاطبون بها ومن لا يعطى لهم هذا اللقب . فكان الأمراء هم محمد عبدالمنعم ولى العهد ، ومحمد على باشا شقيق الأمير ، وحسين كامل باشا ، وإبراهيم حلمى باشا ، ومحمود حمدى باشا ، وأحمد فؤاد باشا ، أولاد الخديوى إسماعيل ، وعزيز حسن ابن الأمير حسن باشا ابن الخديوى إسماعيل ، وإبراهيم حسن ، ابن الأمير حسن ، ابن الخديوى إسماعيل ، ومحمد حلمى ، ابن الأمير إبراهيم حلمى باشا ، ابن الخديوى إسماعيل ، ومحمد على فاضل ، ابن الأمير فاضل ، ابن إبراهيم باشا الكبير والى مصر ، والأمير فاضل كامل ، ابن الأمير فاضل باشا الكبير ، ابن إبراهيم باشا والى مصر ، والأمير إبراهيم راشد ، ابن الأمير

(١٥٧) مكارن = مكارم قراءة تصحيحية .
(١٥٨) وغشياد = وغشيان قراءة ترجيحية .
(١٥٩) أمره = أمرها قراءة تصحيحية .

مصطفى فاضل ، ابن إبراهيم باشا الكبير والي مصر ، والأمير أحمد كمال ، ابن الأمير أحمد ابن إبراهيم باشا الكبير والى مصر ، والأمير سعيد حليم ، ومحمد عباس حليم ، ومحمد على حليم ، وإبراهيم حليم ، أولاد الأمير محمد عبدالحليم ، ابن المرحوم محمد على باشا الكبير والى مصر ، والأمير حيد سنساسى[١٦٠] ، ابن الأمير رشدى بك ، ابن الأمير مصطفى فاضل باشا ، ابن إبراهيم باشا الكبير والى مصر ، وأحمد سيف الدين ، ومحمد وصى الدين ، ابناء الأمير إبراهيم أحمد ، ابن الأمير أحمد باشا ، ابن إبراهيم باشا الكبير والى مصر ، ويوسف كمال ، ابن الأمير أحمد ، ابن أحمد باشا ، ابن إبراهيم باشا الكبير والى مصر ، وأحمد فاضل ، ابن الأمير عثمان فؤاد ، ابن الأمير مصطفى فاضل باشا ابن إبراهيم باشا الكبير والى مصر ، ومحمد داود ، ابن الأمير إسماعيل بك ، ابن الأمير محمد على الصغير ، ابن محمد على باشا الكبير والى مصر ، وعمر طوسون ، ومحمد جميل طوسون ، أبناء الأمير طوسون باشا ، ابن محمد سعيد باشا والى مصر . هؤلاء كلهم سلالة بيت الإمارة ، وقد أخرجوا ما عداهم وأقصوهم عن لقب الإمارة . فاستراح الناس وعرف الأدعياء من هذا الحين شأنهم ، فلما شاع خبر ذلك اجتمع بعض أولئك الأمراء وتناجوا طويلا فى شكل هذا النظام الجديد ، ورأوا فى إخراج بعض فروع تلك الشجرة من أصلها حيف ثقيل على من أخرجوهم . فتقررت القاعدة بينهم على إرسال وفد منهم إلى قصر الإمارة يبلغ الأمير شكوى أهله . وما هى إلا عشية أو ضحاها حتى برز الأمر بأسماء الأميرات الحائزات للقب الإمارة أيضًا ، فكانت أولادهن[١٦١] الأميرة أمينة ، وعطية الله ، وفتحية ، ولطيفة ، بنات الأمير عباس حلمى باشا ، وخديجة ونعمة الله ، شقيقاته ، وفاطمة ، وأمينة ، ونعمت بنات الخديوى إسماعيل ، وفوقية ابنة الأمير فؤاد باشا ابن الخديوى إسماعيل باشا ، وعين الحياة ابنة الأمير أحمد ابن إبراهيم باشا الكبير والى مصر ، ونازلى ، وبرقية وفاطمة ، وزهرة ، وسنية ، بنات الأمير مصطفى فاضل باشا ، ابن إبراهيم باشا الكبير والى مصر ، وألفه خديجة ، وبديعة ، ونازلى ، وزينب ، بنات الأمير عثمان فواد ، ابن الأمير مصطفى فاضل باشا ، ابن إبراهيم باشا

(١٦٠) حيد سنساسى = حيدر شناسى ـ هو الأمير على حيدر شناسى ابن الأمير رشدى ابن الأمير مصطفى فاضل باشا ابن إبراهيم باشا بن محمد على .
راجع المصور ـ عدد ٢٩ يوليو ١٩٣٧ .

(١٦١) أولادهن = أولاهن قراءة ترجيحية .

الكبير والى مصر ، وأنجو ابنة الأمير كامل فاضل ، ابن الأمير مصطفى فاضل باشا ، ابن إبراهيم باشا الكبير والى مصر ، وماهوش ، وأمينة ابنتا الأمير إبراهيم راشد ابن الأمير مصطفى فاضل باشا ، ابن إبراهيم باشا الكبير والى مصر . وزهرة ، ونازلى ، وأمينة ، ورقية ، بنات الأمير محمد عبدالحليم ، ابن محمد على باشا الكبير والى مصر ، وزبيدة ، وخديجة ، ابنتا الأمير محمد على باشا الكبير والى مصر ، وأمينة انجو ، وعصمت ، ابنتا الأمير طوسون باشا ، ابن محمد سعيد باشا ، ابن محمد على باشا والى مصر ، وزينب ابنة الأمير الهامى باشا ، ابن عباس باشا حلمى الأول ، والى مصر ، والأميرة فلك ، زوجة الأمير حسين كامل باشا ، وفاطمة زوجة الأمير إبراهيم حلمى باشا ، وعوزية زوجة الأمير محمد حمدى ، وباكيزة زوجة الأمير عثمان فواد ، ودولت زوجة إبراهيم راشد ، وبارق زوجة الأمير على فاضل ، وأمينة زوجة الأمير محمد على حليم ، ويرو زوجة الأمير حسين كامل ، وأمينة جاوران زوجة الأمير حسين كامل أيضًا . وقالت وزارة الداخلية فى نشرة نشرتها بعد إعلان هذا الجدول أنها لم تذكر بين أسماء هؤلاء الأميرات اسم والدة الأمير عباس باشا الثانى ، واسم حرمه واسم الأميرتين زوجتى الخديوى إسماعيل لعرفان ذلك ورفعة مقامهما . وقابل الأمير إبراهيم حلمى باشا الأمير عباس باشا بقصر الإمارة فكلمه طويلا فيما رأته العائلة الخديوية من التعديل فى ترتيب جدول أسماء الأمراء ، وكان معه أيضًا الأمير إبراهيم باشا حليم . فطال الحديث بينهم ، يقال وكان الأمير على غير رأى سائر الأمراء فيما كانوا يطلبونه من التعديل ، وجمع كذلك جماعة الوزراء ، فتناقشوا وطال الأخذ والرد ، وتحزب الأمراء بعضهم لبعض وبسطوا ما اختلفوا فيه إلى لورد كرومر ، فكلم الأمير فى ظل ، وشدد على الرئيس مصطفى فهمى باشا فى فض هذا النزاع بالتى هى . وذلك الحال على ذلك أياما حتى بلغ الأمراء بعض ما كانوا يرمون إليه[١٦٢] .

(١٦٢) تعرض أمر الانتساب إلى الأسرة المالكة فى مصر ، وما يترتب عليه من حمل ألقاب الإمارة والنبل إلى أكثر من تعديل على مدى النصف الأول من القرن العشرين ، من ذلك ما أشار إليه ميخائيل شارو بيم وتاريخه ١٦ مايو ١٩٠١ فى عهد الخديو عباس حلمى الثانى (١٨٩٢ - ١٩١٤) عندما صدر أمره بوضع نظام الأسرة المالكة .

فى ٢٣ نوفمبر عام ١٩١٠ تعدل هذا الأمر الذى كان كل أعضاء الأسرة يلقبون بمقتضاه بلقب الإمارة . فى عام ١٩٢٢ صدر القانون رقم ٢٥ لينة ١٩٢٢ الذى قصر لقب (أمير) على كل من :

١ - أولاد الملك وأولادهم فقط من الظهور وكل من له ولاية العهد .

٢ - إخوة الملك وأخواته ، الأشقاء أو لأب .

=

. . . .

= ٣ - أولاد ولاة مصر وخديويها وسلطانها وأولادهم فقط من الظهور .
٤ - من عدا هؤلاء من ذرية محمد على باشا ممن يمنحهم الملك لقب الإمارة .
٥ - زوجات الأمراء المتقدم بيانهم وأراملهم حتى يتزوجن .
ونص القانون المذكور على أن أولاد الملك وكل ولى عهد يلقبون بأصحاب السمو الملكى ، وأن أولاد السلطان حسين يلقبون بأصحاب السمو السلطانى ، أما غير هؤلاء فيلقبون بأصحاب السمو فقط .
نص القانون كذلك على انتقال لقب (أمير) بالوراثة من صاحبه إلى أكبر أبنائه ثم إلى أكبر ابناء ذلك الإبن وهكذا .
فإذا توفى أكبر الأبناء قبل أن ينتقل إليه اللقب ، كان انتقاله إلى أكبر أبنائه ولو كان للمتوفى إخوة ، فإذا لم يكن للأمير ذرية انتقل اللقب إلى أكبر إخوته ثم إلى أكبر أبناء ذلك الأخ وهكذا . ولا يمنع حرمان أمير من لقبه انتقال ذلك اللقب بطريق الإرث وفق القاعدة السابقة ، ما لم ينص قرار الحرمان على خلاف ذلك .
فى السنة المذكورة صدر القانون رقم ٥٥ لسنة ١٩٢٢ الذى تقرر فيه أن يلقب من عدا الأمراء والأميرات الذين نص عليهم القانون السابق (٢٥ السنة ١٩٢٢) من ذرية محمد على بلقب يدل على شرف انتسابهم إليه - وهو لقب (صاحب المجد النبيل) أو (صاحبة المجد النبيلة) وأن يشمل كذلك زوجاتهم وأراملهم حتى يتزوجن .
بمقتضى هذين القانونين حصر الملك فؤاد لقب (أمير) فى كل من :
١ - محمد على توفيق ابن الخديو توفيق .
٢ - محمد عبدالمنعم ابن الخديو عباس حلمى الثانى .
٣ ، ٤ ، ٥ - محمد عباس حليم ، محمد على حليم ، إبراهيم حليم أولاد الأمير محمد عبدالحليم باشا ابن محمد على باشا .
٦ ، ٧ - كامل فاضل ، على فاضل ، ابنا الأمير مصطفى فاضل باشا بن إبراهيم باشا والى مصر .
٨ ، ٩ - عمر طوسون ، محمد جميل طوسون ، ابنا الأمير طوسون بن سعيد باشا والى مصر .
١٠ - محمد على حسن ابن الأمير حسن باشا ابن الخديو إسماعيل .
١١ - على حيدر شناسى ابن الأمير رشدى بك ابن الأمير مصطفى فاضل باشا ابن إبراهيم باشا والى مصر .
١٢ - أحمد سيف الدين بن الأمير إبراهيم باشا أحمد ابن الأمير أحمد رفعت بن إبراهيم باشا ، والى مصر .
١٣ - يوسف كمال ابن الأمير أحمد باشا كمال ابن الأمير أحمد رفعت ابن إبراهيم باشا والى مصر .
١٤ - أحمد فاضل عثمان بن الأمير عثمان عثمان فؤاد بن الأمير مصطفى فاضل بن إبراهيم باشا .
١٥ - مصطفى كامل فاضل ابن الأمير كامل فاضل ابن الأمير مصطفى فاضل .
١٦ - محمد على إبراهيم ابن الأمير محمد وحيد ابن الأمير إبراهيم باشا أحمد بن الأمير رفعت باشا .
١٧ - محمد عبدالحليم بن الأمير محمد سعيد حليم ابن الأمير محمد عبدالحليم بن محمد على باشا .
١٨ - إسماعيل داود (وقد منح لقب الإمارة) فى عهد الملك فاروق عام ١٩٣٧) بن محمد داود باشا ابن الأمير إسماعيل بك ابن الأمير محمد على باشا بن محمد على باشا الكبير .
كما انحصر لقب (حضرة صاحب المجد النبيل) فى :
١ - عمر حليم ابن الأمير محمد سعيد حليم .
٢ - سعيد حليم ابن الأمير محمد على حليم .
٣ - عباس حليم ابن الأمير إبراهيم حليم .
٤ ، ٥ - سعيد طوسون ، حسن طوسون ابنا الأمير عمر طوسون .
٦ - عادل طوسون ابن الأمير محمد جميل طوسون .
٧ ، ٨ ، ٩ - منصور داود ، سعيد داود ، سليمان داود أولاد الأمير محمد داود باشا .
١٠ ، ١١ - إسماعيل حسين ، هاشم حسين ابنا الأمير حسين بك كامل ابن الأمير محمد على باشا بن محمد على باشا الكبير .
١٢ - عمرو إبراهيم ابن الأمير محمد وحيد الدين ، ابن الأمير إبراهيم باشا أحمد .
١٣ ، ١٤ - عز الدين حسن ، إسماعيل حسن ولدا الأمير محمد على حسن .
- المصور ٢٩ يوليو ١٩٣٧ .

ومن غرائب ما حدث أن فقيها أعمى كان يسكن فى قاعة فى أحد الرباع(١٦٣) بالصنادقية ، لا زوجة له ولا ولد له ، وقد عرف أحد الباعة فى خطة الجامع الأزهر يأوى إلى بعض دور الأصدقاء ، فدعاه ذلك الأعمى إلى قاعته يوما ، فأجاب البائع الدعوة . وجلسا يتحدثان عن السوق والبيع والشراء ، وغير ذلك من أسباب المعيشة والعيش . فأحس الأعمى أن عند البائع شيئا من النقود ، فأكثر من التلطف معه ، واستحلفه أنه يأتى كل ليلة ليبيت معه فى مخدعه على الرحب والسعة ، وأن لا يكلف نفسه مؤنة التنقل من دار إلى دار . فشكره الرجل وأثنى عليه ثناءاً كثيرا ، وجعل يأتى فى كل ليلة بعد العشاء الأولى فينام مع ذلك الضرير ، وقد تأكدت بينهما الصحبة . فلما كانت ليلة التاسع عشر من مايو من السنة صمم الأعمى على الفتك بالبائع ، فاستحضر مدية وأخفاها . فلما جاء لبائع لينام على عادته عند الأعمى ، استقبله الأعمى باشا فرحا وجعل يحادثه لحظة ، ثم أظهر الملل وجعل يتثأب ، ثم أخذ فى الغطيط ، فنام البائع وثقل عليه النوم . فلما تحقق الأعمى أنه نام قام عليه وطعنه طعنة قوية فهب الرجل من نومه وصاح ، وأمسك بالأعمى . فسقط عليه وجعل يطعنه والرجل يصيح ويستغيث ،

---

(١٦٣) الربع لغويا هو الدار ، وجمعها (رباع) و(ربوع) و(أرباع) و(أربع) ـ هندسيا هو عمارة معدة للإيجار تتكون من عدة مساكن فردية ، وتعتبر من المساكن المتواضعة ومتوسطة المستوى على أساس المستوى الاقتصادى والاجتماعى لسكانها ـ حيث كان يسكنها فى الغالب البسطاء للغاية ، الحرفيون متواضعو الحال ، والعمال والفعلة . ويمكن القول أن الربع كان نوعا من السكن أيسر من البيوت المتواضعة وإن كان فى نفس الوقت أقل شأنا من البيت متوسط المستوى . سكن أغلب سكان (الأرُبع) على شكل (أسر) تقيم فيها بشكل دائم . وكان بعض مستأجرى هذه المساكن يتعاقدون لمدة سنة أو ثلاث أو ستة سنوات ، كما كان البعض الآخر يحصل عل حقوق انتفاع دائمة كانت تسمح لهم بتجديد عقود الإيجار ـ غير أن . هذا لم يكن يمنع من أن يكون الربع مسكنا مؤقتا يلجأ إليه أناس عابرون ليس لديهم محل إقامة ثابتا فى المدينة .

والربع على الصعيد المعمارى مبنى ضخم من الحجر ، يبنى حول حوش مستطيل الشكل إذا كان يقام فوق وكالة أو خان ، لكنه كان بلا حوش عندما لا يكون قائما فوق وكالة ، وكان الوصول إلى الغرف السكنية يتم عن طريق درج يبدأ فى الشارع ويؤدى إلى مجموعة من الوحدات السكنية . وكان الربع يزود بأكثر من (بئر سلم) واحد كل منها يفضى إلى جزء من الربع ، أما الوحدة السكنية بالربع (رواق ، طبقة ، أودة) فكانت تتألف من غرفتين أو ثلاث غرف وكرسى راحة وسطح لنشر الغسيل وفسحة للأعمال المنزلية ، وكان تصميم المساكن رأسيا تعلو فيه الغرف بعضها البعض ـ وكثيرا ما كانت مقامة على ثلاثة مستويات .

وفى أواخر القرن الثامن عشر كانت توجد بالقاهرة حوالى ٣٦٠ وكالة تعلو معظمها أربع ، كما احتوت المدينة على عدد كبير من الأربع المبنية بشكل مستقل عن الوكالة ـ قدرها أندريه ريمون بستة وأربعون ربعا .

وقد ظلت الأربع موجودة فى القاهرة حتى الأربعينات من القرن العشرين ـ لكن عمليات تجديد القاهرة أدت إلى اندثار هذا النوع من المساكن فيما بعد .

ـ راجع نللى حنا (بيوت القاهرة فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ـ دراسة اجتماعية معمارية ـ العربى للنشر والتوزيع ـ القاهرة ١٩٩٣ ـ ص ٨٧ – ٩١ .

والأعمى فوق صدره يكرر طعناته . وسمع أهل الخطة صياح الرجل ، فأبلغ بعضهم الخبر إلى أحد رجال الشرطة ، ودلوه على مكان الصوت . فصعد إلى حيث المكان ، ونظر من كوة تجاور باب قاعدة[١٦٤] الأعمى ، وإذا به يرى جثة غارقة فى الدم ملقية على ظهرها ، والأعمى مضجعا بجانبها يسعل ويثأب كمن استيقظ من النوم . فظل الشرطى يرقبه ، وإذا به قدقام وألقى سكينته من الشباك إلى سطح الجار ، ثم جعل يقول أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله الذى جاء بالحق المبين . وخلع قميصه وهو ملطخ بالدم وأخفاه تحت الحصير ورقد على فراشه كما كان . فأسرع الشرطى وأتى بخفراء الدرك ووكلهم بحراسة باب الأعمى ، وسار إلى القسم وأخبر بما رأى . فجاء مأمور القسم ورجال المحكمة إلى المكان ، ورأوا من تلك الكوة الجثة هامدة والأعمى كالزق المنفوخ أو البو المسلوخ . فدقوا عليه الباب فقال من أنت يرحم[١٦٥] الله؟ فقالوا له إفتح نحن رجال الحكومة ، فقال ومالى ورجال الحكومة ، والله أنها لأول مرة سمعت هذا القول المنكر ، فقالوا إفتح فلم يرد عليهم ، فكسروا الباب ودخلوا فقبضوا عليه ورشاش الدم على وجهه وطاقيته وقميصه ومديته . وأخرجوا قميصه الذى خبأه ، وبحثوا فى جثة المقتول فإذا بها تسعة عشرة طعنة ، وكلها قاتلة نجلاء . فسألوه فقال لا أدرى شيئا ولم أسمع صياحا ولا حركة بالمكان لأنى كنت نائما تعبا . فقالوا وما هذا الدم الذى بثيابك ، والرشاش الذي على وجك وها ثيابتك[١٦٦] دامية تكاد تنفصل عن كفك . فقال سبحانه وما هذه الأسئلة الباردة أوهى مداعبة وهزار؟ والله ما شعرت قط بشىء حتى ولا بمجىء الرجل فى هذه الليلة ، لأنه يأتى فى كل ليلة على الرحب بغير مانع ، ويخرج إلى عمله كذلك . فساقوه إلى القسم ونقلوا الجثة إلى الإستبالية ، وقدموا الأعمى للقضاء . فكان رابط الجأش شديد الإنكار ، كثير الهتر والضحك عند الكلام ، وكأن جنايته التى جناها ليست من الجسامة فى شىء . وكان إذا سأله القضاة حاجج واحتج وعاتب القضاة وضاحكهم . فلما أتمو عملهم قدموه إلى المحكمة وطلبوا إعدامه شنقا . فحكموا عليه بذلك فكان إلى ساعة الحكم على أحسن ما يكون من الثبات ورباط الجأش ، وكانت[١٦٧] كذلك أيضًا فوق آلة الإعدام ، حتى أدهش الناس .

(١٦٤) قاعدة = قاعة قراءة تصحيحية .
(١٦٥) يرحم = يرحمك قراءة تصحيحية .
(١٦٦) وهاثيابتك = وها هى سبابتك قراءة تصحيحية .
(١٦٧) وكانت = وكان قراءة تصحيحية .

وبينما الناس يتحدثون بفعال هذا الأعمى الشرير ، إذ شاع الخبر بأن رجال مكتب بوسطة الاسكندرية قد عثروا على نشرة فيها كلام يمس بكرامة الأمير ، وسيروا بخبر ذلك إلى قصر الإمارة وديوان الوزارة . فبرز الأمر إلى محافظ المدينة وأصحاب الشرطة بالبحث عن فاعل تلك الفعلة الشنعاء ، ولم تكن هذه الأولى منها فقد تعددت هذه النشرات ، وكلم الأمير (الرئيس مصطفى فهمى باشا) فى ذلك ، وأغلظ فى القول ، فاهتم له الرئيس اهتماما زائدا ، وبث محافظ المدينة العيون وأزكاها . وعندى أنها بضاعة جماعة من أعوان (مصطفى باشا كامل) ، والمبتلين بحب مذهبه قصدا[١٦٨] النفع والتغرير ، فأصبحت بضاعتهم التى يعرضونها فى كل سوق ، ويتنزلون بواسطتها الأرزاق ، ويعدونها شراكا للاصطياد . ولو سد فى وجههم هذا السبيل فى أول وهلة ، وكسرت شكيمتهم لما أقدموا على شيء من ذلك ولا غيره . فقد وزعوا فى القاهرة منذ عهد ليس ببعيد نشرة فيها أن بعض كبار الأمة باعوا أمير مصر بكرسي الخلافة ، وأنهم لايرضون عن الأمير إن لم يعدل عما هو عليه . وكانت غايتهم من ذلك أن يسترضيهم بالعطاء ، أولئك الذين اتهموهم بهذه التهمة الشائنة . واليوم قد وزعوا هذه النشرة طمعا بشيء من المال ، ولو كان أولئك الأغنياء أقصوهم عن أبوابهم ، لما عادوا إلى هذا السوق يعرضون بضاعتهم تلك . ولكن البلاد ابتليت بقوم يدعون الشرف ، وهم يتخذون أولئك النمامين سلاحا يقاتلون به خصومهم ، فإذا أراد أحدهم شرا بآخر ، أومأ إلى أحد أولئك الصبية بأن يكتب عنه ، ويشير فى فصوله إليه ، أو يسبه علنا ، وينقده شيئا من الدراهم ، فيقدم ذلك المأجور على عمله غير هياب ولا خجل . وأكثر ما يقع هذا من سكان القرى والبلدان ، الذين يأتون إلى القاهرة فيستوطنوها بحكم الرتب وألقاب الشرف ، ابتاعوها بثمن عال جدا ، ربما كان ثلثا ثروته ومادة رزقة أو يزيد ، وكأن الرجل منهم يعتقد أن من لزوميات تلك الرتبة التى نالها بعد بذل النفيس ترك بلده وآله وولده ، وسكنى القاهرة ولبس الحرير والجوخ والمداس على الزى الفرنجى ، ووضع النظارات المذهبة والتوكؤ على عصاة التمدن ، والجلوس فى المجتمعات الساقطة ، ثم التروح[١٦٩] بمن يشاء من المهرجات الفاريات[١٧٠] فى طول الأسواق وعرضها . فإن لم يفعل هذا وأشباهه زالت عنه هيبة تلك الرتبة وكان سقطا مرذولا بين أمثاله من أهل الرتب فتأمل .

(١٦٨) قصدا = بقصد قراءة ترجيحية .

(١٦٩) التروح = التزوج قراءة ترجيحية .

(١٧٠) الفاره من الناس الملح الحسن .

ـ مختار الصحاح ـ مرجع سبق ذكره ص ٢١٠ .

ولما كان سادس عشرى يونيه من السنة ، جاءت الأنباء من الخرطوم إلى ديوان الوزارة وقصر الإمارة مبشرة بفلاح حملة كسر السدود فى أعالى النيل التي تقدم الكلام عليها . وأنه لم يبق من تلك السدود سوى ثلاث وعشرين ميلا . قالوا أزيلت تمكنت(١٧١) البواخر من السفر من الخرطوم إلي (رجاف) ، ويقدر المسافر وقتئذ على السفر من مدينة الاسكندرية إلى (رجاف) التى هى حافرة(١٧٢) الونغو البلجيكية فى نحو من خمسة عشر يوما ، لأنه يسافر من (الاسكندرية) إلى (الخرطوم) فى أربعة أيام ، ومن (الخرطوم) إلى (فشودة) فى خمسة أيام ، ومن (فشودة) إلى (رجاف) فى ستة أيام . وقد أنفقوا من الأموال على هذا العمل العظيم إلى هذا اليوم تسعة آلاف وتسعمائة ذهبا ، فبقى من المال المخصص لذلك العمل أربعة آلاف ومائة ذهبا ، فكان لهذا النبأ شأن عند أصحاب التجارة . فتأهب جماعة منهم للسفر وراجت الأسواق بعض الرواج .

وبينما الناس يتحدثون بمصير الأقطار السودانية ، وما سيكون لها من شأن فى السياسة والتجارة والاتعمار(١٧٣) بعد ما ملكها الإنجليز غنيمة من أصحاب المهدوية ، بعد رسوخ قدمهم فى مصر بسبب الفتنة العرابية ، ولاكت الأفواه حوادث تلك الفتنة وما حل بالبلاد بسبب (عرابي) والذين التفوا حوله فى ذلك العهد ، إذ شاع أن لورد كرومر تقدم إلى الأمير فى طلب العفو عن (عرابى) ذلك . وقال أن هذا الطلب جاء إليه من (لورد لانسدون)(١٧٤) صاحب السياسة الإنجليزية بناء على طلب جماعة من مجلس اللوردات . يقال فأكبر الأمير هذا الأمر ، وكلم فيه الرئيس مصطفى فهمى باشا وجماعة الوزراء . وطال الأخذ والرد بينهم أياما ، ولورد كرومر يكثر من الغدو والرواح بين ديوان الوزارة وقصر الإمارة ، حتى برز الأمر بالعفو عن عرابى ومن بقى معه فى منفاه من

---

(١٧١) تمكنت = وتمكنت قراءة ترجيحية .

(١٧٢) حافرة الونغو = حاضرة الكونغو قراءة ترجيحية .

(١٧٣) والاتعمار = الاعمار قراءة ترجيحية .

(١٧٤) لورد لانسدون = Henry Charles Keith Petty Fitzmaurice, 5th Marquess of Lans downe .

هنرى تشارلز كيث بيتى فيتزموريس ، المركيز الخامس للانسدون (١٤ يناير ١٨٤٥ - ٣ يونيو ١٩٢٧) ، رجل دولة بريطانى تضمنت خدمته الطويلة العمل كحاكم عام لكندا (١٨٨٣ - ١٨٨٨) ، نائب الملكة فى الهند (١٨٨٨ - ١٨٩٣) ، وزير الحرب (١٨٩٥ - ١٩٠٠) ، وزير الخارجية (١٩٠٠ - ١٩٠٥) .

من أعماله الخارجية الشهيرة إبرامه التحالف الأنجلو - يابانى (١٩٠٢) والوفاق الودى مع فرنسا Entente Cor-diale (١٩٠٤) .

- Lexicon Universal Encyclopedia - Vol 12 - p., 199

أصحاب الفتنة ، وبقى الخبر فى طى الكتمان ، ولم يعلم به أحد حتى سابع عشر يونيه من السنة ، قام لورد اسمه (نوتن) يسأل صاحب السياسة الإنجليزية عن العفو عن عرابى ومن معه من المنفيين فى سيلان الهندية ، وعما تم عليه الحال بين الأمير ووزراؤه ولورد كرومر ، وإن كانت لطلب العفو والمناقشة فيه أوراقا لدى صاحب السياسة الإنجليزية . فأجاب الوزير (لم أر رسائلا بهذا الشأن يجب عرضها على هيئة المجلس) . نعم أن هناك نص الأمر الذى برز من الأمير بالعفو عن عرابى ، ولكن نص هذا الأمر هو عبارة عن صيغة رسمية لا أظن أن اللورد السائل يود الاطلاع عليها . أما الرسائل الأخرى القليلة فإنها سرية ولا أرى من سبب يحمل على إذاعتها . أما المسائل الأصلية التى أدت إلى ما كان فليست سرا مكتوما عن أحد . وصد[١٧٥] صرف عرابى ومن معه في منفاهم فى سيلان تسة[١٧٦] عشرة سنة ، واتصل بنا أن صحة الرجل معتلة . وقد تعهد لنا واشترط على نفسه أن عودتى إلى مصر لا تضر بالراحة العمومية ، ولعل اللورد السائل يريد أن يعرف إذا كان أمير مصر ورجال حكومته ولورد كرومر راضون عن رجوع عرابى إلى وطنه ، فجوابنا أنهم راضون ، وقد أبلغونا رضاهم . وربما يريد السائل أن يعرف أيضًا إذا كان هذا الرضاء حصل بالإكراه والجبر ، فجوابى إليه أنى لا أقدر على معرفة أفكار الأمير ومستشاريه ونجى[١٧٧] نفوسهم ، ولكنى أعرف أنهم أظهروا رضاهم عن ذلك دون تردد . أما إذا كان اللورد السائل قد درس ولعله يدرس أيضًا أخلاق عرابى ذلك ، وسوابقه ومركزه فى التاريخ ، فأنا لا أتابعه فى ذلك . ولكنى لا أخاله[١٧٨] كثيرا فى قوله أن مسلك عرابى لم يكن عن خلق صادق الشرف والكرامة ، كما أنى لا أوافقه على قوله أن جنة المسلمين التى يبحث عنها عرابى إبان عصاوته وحربه قد عثر عليها فى سيلان ، لأنى لا أعرف أن كانت سيلان لعرابى جنة أو نارا ، وكل ما أعرفه أنه سر بالعفو عنه وإطلاق سراحه) ا . هـ .

وتناقل أصحاب الصحف الإنجليزية كلام الوزير ، فكانوا فى نقله بين شاك وشاكر ، ونقله عنهم أصحاب الصحف المحلية مشوها مقلوبا ، وتفشى خبر ذلك بين الناس ،

(١٧٥) وصد = وقد قراءة تصحيحية .
(١٧٦) تسة = تسعة قراءة تصحيحية .
(١٧٧) ونجى = ونجوى قراءة ترجيحية .
(١٧٨) أخاله = أخالفه قراءة ترجيحية .

فكانت العامة والمتهوسين من أذناب الحزب الوطنى أعظمهم فرحا بقرب وصول عرابى ومن معه ، وكثر تحدثهم بذلك كثيرا حتى لقد ولاه بعضهم رياسة الوزراء ، وبعضهم رياسة الجند ، وبعضهم ولاة الإمارة ، وكانوا يقولون أن الإنجليز قد أعدوا لمقدمه المواكب والركائب والجنائب ، ورسموا لأصحاب القلاع بإطلاق ألف مدفع ، وكلموا محافظ القاهرة بان يزين البلد سبع ليالى ، ويذبح الذبائح عند (باب الحديد[١٧٩]) عند وصوله . واشتد الهوس ببعضهم إلى أنهم كانوا يخرجون فى عصر كل يوم جماعات إلى محطة السكة الحديد ، ومعهم كثير من الصبية والنسوة للقائه والاحتفاء به . واهتم محافظ البلد لذلك اهتماما عظيمًا وأزكى على هؤلاء البسطاء العيون وأقعد لهم رجاله بالمراصد . وظهرت الحركة فى الأخطاط القديمة ، فلم يكن حديث أهلها فى نهارهم وسمرهم فى ليلهم إلا مقدم عرابى ، وتغلبه على الإنجليز وظهور حاجتهم إلى حسن تدبيره ، بعد أن بدا لهم عجزهم عن حكم البلاد . هكذا كانوا يقولون وبهذا كانوا يفاخرون ، وكان من وراء هذا كله أن ظهرت العصبجية فى الأطراف ، وأمست حاراتها مرسحا للتضارب والمعارك إظهارا للقوة والشجاعة التى ربما كانت لوازم الحال بعد وصول عرابى ، ثم انقلبت تلك المعارك الكلامية والمضاربة الخفيفة إلى المعارك الدموية ، ورجال الشرطة يطاردونهم فى الليل والنهار . واتفق أن كان فى صبح ثالث شهر يوليو من السنة جماعة من أذناب الحزب الوطنى جلوسا فى قهوة لرجل من المنتصرين لعرابى اسمه (البلحجى) بدرب الجماميز يمزحون ويذكرون عرابى بخير . فقال أحدهم لله ما أقدره على طرد الإنجليز من بلادنا ، وما أضعف عساكرهم أمام عساكره المنصورين . على أن الإنجليز لما ضاقت صدورهم من أفاعيله فى سيلان ، وظهر عجزهم عن ارضائه ، رأوا أن يرجعوه إلى وطنه معززا مكرما ليخلصوا منه ، فعافاه الله من بطل شجاع . فقال الثانى وإذا جاءنا هل يسلمون إليه الطوابى ، فنقول له كما كنا نقول فى الاسكندرية - (العسكر في الطوابى - الله ينصرك يا عرابي) فقال الثالث انا والله لمجانين ، ما لنا ومال عرابى والطوابى ، والإنجليز والفرنسيس ، نحن قوم نعيش يعرف[١٨٠] الجبين ، ونقول يا سيدى لمن حكم ، ففضونا من هذا الكلام . فعند ذلك امتعض بعضهم ، وعلت الضوضاء بينهم ، واشتدت

(١٧٩) أى محطة سكة حديد القاهرة بميدان باب الحديد .

- تقويم سنة ١٩٣٥ - المطبعة الأميرية - وزارة المالية - القاهرة ١٩٣٥ ص ٥٩١ .

(١٨٠) يعرف = بعرق قراءة ترجيحية .

المهاترة ، ثم الشتامة ، والنداء بفحش القول ، ثم تماسكوا بالأطواق ، وانقسموا فريقين ، وجعلوا يتضاربون بالهراوات والعصى والكراسى ، وعلا الصياح ، وترامح الناس من كل فج عميق ، وغص الشارع . وجاء أصحاب الشرطة فقبضوا على أولئك النفر ، وكلهم ملطخ بالدم ، وساقوهم إلى الحبوس . فكان هذا الحادث أول الغيث من خبر مقدم عرابى عند العامة وازناب[١٨١] الحزب الوطنى . وحدث أيضًا لهذا السبب عينه مضاربة عنيفة جدا بين مائة إنسان أو يزيد فى حارة المغاربة بالأسكندرية ، جرح فيها أحد عشر بجراح شديدة خطرة ، فأمسك أصحاب الشرطة جماعة منهم وزجوهم فى الحبوس[١٨٢] .

وبينما الناس يفكرون فيما سيكون بعد رجوع عرابى ومن بقى معه من المنفيين ، إذ جاء الخبر إلى ديوان الوزارة ووزارة الحرب ، بوقوع مشاجرة عنيفة أيضًا بين سبعة من الضباط الإنجليز وجماعة من فلاحين المجرج[١٨٣] بالمطرية . ذلك أن أولئك الضباط وكلهم من جيش الاحتلال ذهبوا للصيد بأراضى المرج ، فصاروا ينقلون من مكان إلى مكان ، وصاردوا[١٨٤] جدا ، فدخل الصيد حديقة لأحد الإنكبيز[١٨٥] واسمه المستر بلانت[١٨٦] ، المستشرق القاطن بالمرج منذ أمد بعيد جدا ، يدعو العرب إلى تأسيس خلافة عربية صحيحة بدلا من تلك الخلافة التركية التى اغتصبها السلطان سليم .

---

(١٨١) وأزناب = وأذناب قراءة تصحيحية .

(١٨٢) يلاحظ القارئ كره ميخائيل شاروبيم الشديد لرموز الحركة الوطنية فى عهده ، ومقته الشديد لأعمالهم ونقده لتصرفاتهم ونتائج أعمالهم ، وتثبيطه لهمم المناوئين للوجود البريطانى ، واستكانته لرموز الاحتلال وتصرفاته ، واستهجانه لفكرة مناوئة هذا الاحتلال . ولا يخفى أن شاروبيم يستخدم فى تعبيره عن مشاعره غير الودية تجاه رموز الحركة الوطنية (الأسلوب غير المباشر) ، فينسب هجائه ونقده لهذه الرموز إلى (من حدَّثَهُ) ، أو إلى (أحد المطلعين) ، متخفيا فى ذلك وراء هذا الأسلوب ـ لاحظ الحوار الذى ينسبه إلى متحاورين فى مقهى فى القاهرة (ص ٧٠١) وفيه يقول أحد أطراف الحوار (مالنا ومال عرابى والطوابى ، والإنجليز والفرنسيس ، نحن قوم نعيش بعرق الجبين ، ونقول يا سيدى لمن حكم ، ففضونا من هذا الكلام) .

ولايخفى ما بالحوار من دعوة انهزامية للتسليم بالاحتلال البريطانى والتدخل الأجنبى فى الشئون المصرية ، وتسفيه أى مسعى للتحرر والاستقلال .

عن اتجاهات ميخائيل شاروبيم المعادية لرموز الحركة الوطنية فى مصر راجع الحواشى ٢٣٩ ص ٢٣٢ - ٢٨١ ص ٣١٨ - ٤٠١ ص ٣٤٨ - ٣٠٢ ص ٤٣٩ - ٤٧١ ص ٥٤٢ - ١١٣ ص ٥٦٠ - ٢٠٤ ص ٥٧٨ - ٢٣ ص ٦١٧ - ١٢٠ ص ٦٣٧ - من المجلد الأول من الجزء الخامس .

(١٨٣) المجرج = المرج قراءة تصحيحية .

- محمد بك رمزى (القاموس الجغرافى) ـ المجلد الثانى - الجزء الرابع ـ القاهرة ـ ١٩٦٣ ـ ص ٢١٨ .

(١٨٤) وصاردوا جدا = وطاردوا صيدا قراءة ترجيحية .

(١٨٥) الانكبيز = الانكليز أى الإنجليز قراءة ترجيحية .

(١٨٦) عن بلنت Blunt راجع حاشية ٢٢٥ ص ٢٣١ من المجلد الأول ـ الجزء الخامس .

والرجل من متهوسى الإنجليز المبتلين بحب العرب وبغض الترك ، وقد بلغ به الهوس إلى خلع زيه وزى قومه الإنجليز ، وتزيا بالرداء الواسع ووضع على رأسه (الكوفية) والعقال البدوى ، ولبس النعال وحاكى العرب فى كلامهم والتزاماتهم ، وفى طعامهم وشرابهم ومركبهم ، وكل ما هو من عاداتهم . فكان العرب يأتونه من (العراق) و(نجد) (والعسير) ومن أطراف الجزيرة فرادى وجماعات ، فيذبح لهم النوق والبقر ، ويقرهم ويحفل بهم كثيرا . وكانت زوجته وأولاده على زى العرب أيضًا ، فكانوا يخالطوهم ويجالسونهم ويحفلون بهم ، ويقومون لهم بحق الضيافة ، فإذا عادوا إلى ديارهم جاء غيرهم ، حتى بلغت شهرة الرجل فى الجزيرة وما والاها مبلغا عظيما جدا ، وعرف بين قومه باسم (بلانت البدوى) . أقول وعرفت الرجل كريما جوادا فخورا ، يجل العرب إجلالا كبيرا ، وهو مع ذلك قداحا فى طباع الإنجليز ذاما لسياستهم وأخلاقهم وأطماعهم ، وغير ذلك مما يتميزون به عن غيرهم من أمم الفرنجة .

فلما دخل صيد أولئك الضباط حديقة بلانت ذلك ، هم الضباط بالدخول وراء جندهم ، فمنعهم الفلاحون الموكلون بحراسة الحديقة فقام بينهم الشجار ثم المضاربة بالعصى . فقفل الضباط راجعين إلى القاهرة ، ورفع الأمر إلى محافظ المدينة فقام فى الحال جماعة من أصحاب الشرطة ، وأتوا ثلاثة عشر نفر من أولئة الفلاحين ، فسجنوا جماعة منهم ، وأطلقوا سراح الآخرين . وكان (بلانت) متغيبا عند أهله ، وظل المحققون يحققون مع أولئم[١٨٧] المتهمين أياما ، حتى ثبت أن الذين اعتدوا على السبعة ضباط ثلاثة رجال فقط . فلما كان يوم ثلاثين يوليو من السنة ، قدموا الثلاثة إلى محكمة بنها ، فحكمت على أحدهم بستة شهور ، ، وعلى ثانيهم ، بأربعة شهور ، وعلى ثالثهم بثلاثة شهور . فأكبر الناس هذا الحكم وتحدثوا به كثيرا ، ورفع المتهمون ظلامتهم إلى محكمة الإستئناف العليا . وبلغ خبر ما حل بأولئك الفلاحين (المستر بلانت) وهو بين أهله ، فارسل على أرثر[١٨٨] إلى صاحب (جريدة البيراميد) المحلية بكتاب ، شرح فى بدئه موقع ملكه فى المطرية ، وما يقتضيه من النفقة ، ثم ذكر أنه رسم إلى اتباعه الفلاحين أن لا يدعوا أحدا يدخل الحديقة سوى العمال والفلاحين ، فكان من الواجب المحتم

(١٨٧) اولئم = أولئك قراءة تصحيحية .
(١٨٨) ارثر = الأثر قراءة ترجيحية .

عليهم أن يمنعوا كل من يدخلها قسرا . قال (وأن بعض الضباط الذين دخلوا الحديقة إنما هم من أصحابى ، فكان الواجب عليهم أن يحترموا دارى في غيابى ، ولكنهم فعلوا عكس ذلك ، إذ أتوا بكلابهم التى استحضروها من ديراهم[١٨٩] لادخال جيد[١٩٠] الثعالب فى مصر ، فى حين أنها لا توافق له ، وقد تؤدى إلى مشاكل بين الصيادين وأصحاب المزارع) قال (وإنى أشبه أولئك الضباط بتلامذة المكاتب الذين ينتهزون غياب رؤسائهم ، فيعبثون ويغدون ، حتى ادخلوا كلابهم فى حديقتى من أدنى جهة لسورها) إلى أن قال (ولقد علمت من جماعة العربان أن أولئك الضباط هم الذين اعتدوا على رجالى) قال (وإنى لا أنكر أن القانون فى ديار مصر يختلف عن القانون الإنجليزى ، وأن المحاكم الأهلية صالحة حسنة في القضايا التى يرفعها الوطنى على أخيه الوطنى ، أما فى القضايا التى يرفعها ضباط الإنجليز مثلا على بعض أهالى البلاد فإن الحال تختلف كل الاختلاف ، فإنك ترى تلك المحاكم فاسدة كما كانت فى سالف الأزمان) إلى أن[١٩١] قال وقد انحى باللائمة على أولئك الضباط ما استطاع . قيل ولما علم بتأييد محكمة الاستئناف لحكم المحكمة الابتدائية ، وأن رجاله أمسوا في غياهب السجن ، رفع الأمر إلى صاحب السياسية الإنجليزية ، وإلى وزارة الحرب ، ودار الندوة . فظهرت الحركة هناك ، وعلت صيحة بعض أصحاب صحفهم ولا سيما المعادين للورد كرومر المقبحين لسياسته . وجاءت كتب صاحب سياستهم إلى اللورد فى معنى ذلك . قيل فكتب يقبح ما حل بالضباط من أولئك المتهمين . ورد على (بلانت) مطاعنه ، ورماه بالعسف والخبال . واشتدت حرب الأقلام بين أنصار (بلانت) وأنصار (كرومر) ، واهتم خصوم كرومر بتشويه سمعته والحط من كرامته ، واستفزوا[١٩٢] خصومه في ديار مصر إلى الشكوى ، والتعريض بأعماله الردية فى طول البلاد وعرضها . وقام فريق من دار ندوتهم ينادى بالويل والثبور وعظائم الأمور على اللورد كرومر ، ويطلب خلعه وتنزيله عن كرسيه . فكانت هذه الحوادث مفتاحا لمغالق أسرار الحزب الوطنى ، وما يضمره رئيس الحزب وأنصاره من السوء إلى اللورد كرومر . فهبت صحفهم من رقدتها ، وجعلت تأتى في كل

---

(١٨٩) ديراهم = ديارهم قراءة ترجيحية .

(١٩٠) جيد = صيد قراءة ترجيحية .

(١٩١) إلى أن قال = استبعدت العبارة لعدم ملائمتها لسياق النص .

(١٩٢) واستفزوا = واستنفروا قراءة ترجيحية .

يوم بذكر شيء من أعمال اللورد ، وتصرفاته مع أهل الحل والعقد ، ولا سيما فى قصر الإمارة . وأخذت اللورد صيحتهم من كل جانب ، فأمسى وهو بين منتطح عنزتين . وظلوا على هذا أياما والناس يتوقعون خلعه فى كل ساعة ، حتى كان من وراء ذلك ما سيذكر من أمر خلعه وتبعيده عن مصر فى محله إن شاء الله .

وعلى أثر هذا الحادث واضطراب الأفكار بما يزيعه[١٩٣] صحف الحزب الوطنى ، ويقوله (مصطفى كامل) رئيس الحزب على منابر الخطابة ، فى مصر والإسكندرية وغيرهما ، تعريضا سياسة[١٩٤] الإنجليز عموما ، وفعال لورد كرومر خصوصا ، والإعتماد على الصيحة القائمة حوله فى مصر وديار الإنجليز على السواء ، إذ جاء الخبر من الاسكندرية إلى ديوان الوازرة وقصر الإمارة بوقوع الهرج فى مدينة الاسكندرية ، وحصول القتال بين جماعة من الإيطاليان والاسكندرانيين فى بعد ظهر الثامن من أغسطس من السنة . وبتحرير الخبر أن شقيا إيطاليا اسمه (غاناتو) وهو حامى بيوت الدعارة ومكامن الفسق الإيطالية مدينة[١٩٥] الاسكندرية ، دعا بعض أصحابه إلى بيت عاهرة لتناول الغداء ، لأنه يعيد عيد مولده ، فظلوا يأكلون ويغنون ويصيحون حتى الساعة الرابعة . فنزلت صاحبة البيت تبتاع غازوزة ، فاختلفت مع البائع ، وغاناتو ينظر اليها من نافذة البيت وكأنه استشاط غضبا ، فنزل إلى حانوت البائع وأطلق مسدسه ، فسمعه جاويشا من رجال الشرطة ، فأسرع مقبلا ورأى المسدس بيد ذلك الشقى فأراد أخذه ، فأخرج الشقى سكينا وطعن بها الشاويش طعنة نجلاء فقتله وأخذ سنكة الجاويش ، وصعد إلى منزل العاهرة وتحصن فيه . وما دوى البارود حتى تراكض العامة والسوقة وأتوا من كل فج عميق وهم يحملون العصى والنبابيت والمساوق . وعلا صياح القوم اقتلوا النصارى ، إثأروا لوطنيكم الجاويش ، فاندفع المتجمهرون على بيت الك[١٩٦] الباغية يريدون اقتحامه عنوة . وكثر الضجيج وعلت الأصوات وجلس أحد الإيطاليين فى نافذة الدار وياروودته[١٩٧] مصوبة لكل من يريد اقتحام الدار . واجتهد رجال الشرطة في إلقاء القبض على أولئك

(١٩٣) يزيعه = تذيعه قراءة تصحيحية .
(١٩٤) سياسة = بسياسة قراءة تصحيحية .
(١٩٥) مدينة = بمدينة قراءة تصحيحية .
(١٩٦) إلك = تلك قراءة تصحيحية .
(١٩٧) وياروودته = وباروودته أى بندقيته قراءة تصحيحية .

الأشقياء فلم يفلحوا . وجاء محافظ المدينة وصاحب الشرطة وجماعة من أصحاب الشرطة الإنجليزية وسيروا فى طلب قنصل دولة إيطاليا فجاء مسرعا وجاءت نجدة أيضًا من الجند فأمسكوا الأربعة الإيطاليان والمرأتان اللتان فى الدار وأركبوهم فى مركبة وساروا بهم إلى سجن محرم بك ، فترامح العامة والسوقة خلف العربة وهم فى ضجيج وجلبة وكانوا كلما صادفوا أحدا من الأجانب انهالوا عليه بالعصى والهراوى . فلما مروا بقسم محرم بك رموا جميع الحوانيت التى للأجانب بجوار القسم بالحجارة ، وكسروا زجاج البيوت وضربوا من لقيوه من الأجانب ضربا مبرحا فقفل التجار حوانيتهم ولاذوا إلى الاختفاء . وتفشى خبر ذلك فى سائر أحياء الفرنجة ، فاختفوا جميعا فى بيوتهم . وعظم خوف الناس وجاء وكيل وزارة الداخلية إلى مخفلار(١٩٨) أصحاب الشرطة ليعرف ما تم . وجاءت كوكبة من الفرسان فجعلت تفرق الجموع ، فكانت كلما فرقت جماعة اجتمع غيرهم ، وكلهم حتى(١٩٩) قدم القتال والضرب . وظلوا على هذا إلى قريب المغرب حتى نادى بينهم منادى بان قدم(٢٠٠) برز الأمر بمعاقبة الإيطاليان أشد العقاب ، وقد ألقاهم قنصلهم فى ظلمات الحبوس . فتفرق بعضهم وتسرب البض(٢٠١) الأخر فى طريق سجن الحضرة ينادون بالويل والثبور وعظائم الأمور على جماعة الفرنجة ويهددون كل مار بالطريق . ونقل أصحاب الشرطة جثة فقيدهم فى مركبة سوداء تحيطها ثلاثة(٢٠٢) من الفرسان إلى الاسبتالية الأميرية ، وأحصوا عدد الجرحى فكانوا اثنى عشر وكلهم من الفرنجة وبعضهم جراحهم خطيرة . ولم تتفرق تلك الجموع كلها إلا عند الساعة التاسعة ليلا .

حدثنى صديق ممن شاهد تلك الحادثة عيانا وأنا يومئذ بالأسكندرية مديرا للأملاك الأميرية قال (كان تأثير هذه الحادثة عظيما جدا حتى بلغ الهياج من الشعب أن حاول قتل القاتلين فلم يتمكن إلا من ضرب نجدهم(٢٠٣) ضربا مميتا حتى أسال دمه

(١٩٨) مخفلار = مخفر قراءة تصحيحية .
(١٩٩) حتى = على قراءة ترجيحية .
(٢٠٠) قدم = قد قراءة ترجيحية .
(٢٠١) البض = البعض قراءة تصحيحية .
(٢٠٢) ثلاثة = ثلة قراءة ترجيحية .
(٢٠٣) نجدهم = أحدهم قراءة ترجيحية .

وكاد ينزف دمه ، فأنقذه أحد الشرطة . واشتد الزحام وعلت الأصوات إلى عنهان(٢٠٤) السماء وحار أهل الحل والعقد وكثر توارد الجند مشاة وركبان وجعلو يلاطفون العامة الذين قاتلوهم بمرمى(٢٠٥) الحجارة والصياح المزعج (اقتلوا الفرنجة ، اقتلوا الجناة) . وخاف قنصل دولة اليونان من انقلاب الحال وتداخل الروم فى المعركة على عادة زعانفهم فى مثل هذه الحوادث ، فبرز أمره إلى سائر البدالين وأصحاب القهاوى والمجتمعات بغلق حوانيتهم ، فأغلقوها واختفوا عن عيون العامة والثائرين) قال محدثى (وعندى أنه من مواجب قناصل الدول عدم التساهل مع الأشقياء من رعاياهم ، فقد أمسى الشرير منهم يسفك دم الجندى الذى يمثل سلطة الحكومة ويحتمى بالامتياز ويعتدى على أكبر كبير وهو يأمن مرن(٢٠٦) الشر ، فإن كانت صدور العامة والخاصة متحرجة من أمر فمن هذا التساهل وعدم اكتراث القناصل بما يقع من زعانفهم فى حق أهالى البلاد) قال (ولعلك تذكر حادثة البطيخة التى قتل الإيطالى الشقى بائعها بغير ذنب جناه ، وقد برأته محكمة انكون(٢٠٧) فعاد إلى الإسكندرية يخطر بين أهلها ، وهلا

---

(٢٠٤) عنهان = عنان قراءة تصحيحية .

(٢٠٥) بمرمى = برمى قراءة تصحيحية .

(٢٠٦) مرن = من قراءة اجتهادية .

(٢٠٧) انكون = انكونا Ancona عاصمة اقليم «انكونا ومارش» Marche من إيطاليا . تقع على نتوء صخرى فى البحر الإدرياتيكى Adriatic sea بوسط إيطاليا . مركز تجارى وبحرى هام ، ولها علاقات تجارية بيوجوسلافيا السابقة عبر الأدرياتيكى . كانت مقرا لأبروشية منذ العصور الوسطى ، استولى عليها الرومان خلال القرن الثانى قبل الميلاد وأصبحت ميناء مزدهرا فى عهد الإمبراطور تراجان Trajan .ظلت تحت الحكم البابوى من ١٥٣٢ حتى ١٨٦٠ باستثناء الفترة (١٧٩٧ - ١٨٦١) . فى ١٨٦٠ أصبحت جزءا من إيطاليا .

بالنسبة لمصر كانت «أنكونا» مقرا للمحكمة الاستئنافية فيما يتعلق بالجرائم والمنازعات التى كانت تقع بين الإيطاليين المقيمين فى مصر وبعضهم البعض أو بينهم وبين المصريين خلال فترة تطبيق نظام الامتيازات Capitulations الذى كان معمولا به فى مصر منذ الفتح العثمانى وحتى الغائه عام ١٩٣٧ . كانت الامتيازات الأجنبية تمنح رعايا دول معينة من الذين يقيمون فى مصر حق التقاضى أمام المحاكم المختلطة فقط فى كل القضايا المدنية والتجارية إذا كانت بين أوروبيين ومصريين ، أوروبيين من جنسيات مختلفة ، وكل القضايا المتعلقة بالأراضى بين المصريين والأجانب ، أو بين أجانب من نفس الجنسية أو من ذوى الجنسيات المختلفة ، وحق المحاكمة فى كل التهم الجنائية ضد الأوروبيين أمام محاكم قنصلية تطبق قانون وطن المتهم . وحق حصانة مسكن الأوروبى من أى إجراءات تفتيش أو دخول من جانب البوليس دون موافقة قنصله المسبقة . وعدم خضوع الأوروبيين لأى ضريبة مباشرة دون رضاء كل «القوى» Powers الأوروبية .

وفوق هذا فإن القضية التى تحكم فيها المحكمة القنصلية يمكن أن تستأنف أحكامها كالآتى :

بالنسبة للفرنسيين	فى إكس إن بروفانس .	Aix, in Province
بالنسبة للالمان	فى ليبزج	Leipzig
بالنسبة للبلجيكيين	فى بروكسل	Brussles

=

ذكرت المعركة التى حدثت منذ أيام فى شوارع الأزبكية بالقاهرة إذ وقف الخصمان يتبادلان إطلاق النار والناس ألوف بنفر من(٢٠٨) وجهها وهما كأنهما لم يخترمان(٢٠٩) سلطة ولا قانونا ، حقا إن بعض أولئك القناصل قد غالوا فى الرأفة بالأشقياء من قومهم حتى عد أهل البلاد أنهم في أعين أولئك القناصل والدول كالذئاب يصح قتلهم وسفك دمهم والاعتداء عليهم فى كل مكان . ولا خفاك أن القناصل فى ديارنا أنما هم ليحموا

= بالنسبة للهولنديين فى أمستردام Amsterdam
بالنسبة للإيطاليين فى أنكونا Ancona
بالنسبة لليونانيين فى سيرا Syra
بالنسبة للأسبان فى بالام Palam
بالنسبة للأمريكيين فى استانبول أمام القائم بالأعمال الأمريكى هناك
بالنسبة للنمساويين محكمة المنطقة التابع لها المتهم إذا كانت موطنه الأصلى وإذا كان يقطن بالإمبراطورية ، وإلا فإن الاستئناف يتم فى تريستا Triesta

وكان للمحاكم القنصلية الإنجليزية اختصاص قضائى مطلق ، مع حق الاستئناف أمام المحكمة العليا فى القسطنطينية فقط فى نقاط معينة من القانون . وكان من حق المحاكم الأجنبية أن تقرر الدليل والتحقيق كما قدم إليها بواسطة القنصل ، لكن الحق كان مكفولا لها فى الإرسال فى طلب الشهود . وعلى هذا فإن المسجونين الأجانب كانوا يعاقبون أو يخلى سبيلهم فى بلد أجنبى . وكانوا يستطيعون أن يستأنفوا الأحكام الصادرة ضدهم فى هذا البلد ، والمثول أمام هذه المحاكم حيث الشاكى أو المجنى عليه سواء أكان مصريا أو رعية «قوى» ثالثة مستبعد بصفة عملية ، ويتم التخلص أو إلغاء الأثر الأخلاقى أو الرادع للعقوبة فى مصر فى ظل هذه الظروف التى تغيب فيها علنية التجريم فى البلد الذى وقعت فيه الجريمة .

كان من الصعب فى ظل هذا النظام من الامتيازات الممنوحة للأجانب فى مصر تخيل الأنواع المختلفة من المساوئ التى يمكن أن تثيرها (هذه الامتيازات) . فالقناصل كانوا لايملكون حق قسر رعية دولة ثالثة على إعطاء شهادته في محاكمهم ، وتبعا لذلك فقد كان صعبا أيضًا الحصول على الدليل الضرورى للإدانة .

وقد ترتكب جريمة من جانب مصريين بالاشتراك مع رعايا دول مختلفة . ويدان المصرى من جانب محكمته الوطنية ، لكن الفرنسى ، الإيطالى ، واليونانى المتورطين فى نفس القضية يرسلون إلى بلادهم ويحاكمون بقوانين هذه البلاد التى يتبعونها ، مع حق الاستئناف ، والعقاب بقدر مختلف أو يبرأون وفق نفس الدليل الذى جوزى تبعا له المصرى بعقوبة شديدة .

ويقدم «اللواء توماس رسل باشا» Sir Thomas Russell قائد بوليس القاهرة (١٩١٧ - ١٩٤٦) صورة ساخرة لموقف جهاز البوليس فى وقته من جرائم الأجانب ـ وهو موقف عاجز تماما ، بنتيجة مؤداها فشل جهاز الأمن فى السيطرة على «الجريمة» المرتكبة بمعرفة الأجنبى المحصن تماما ضد كل قوانين البلاد جنائية وغير جنائية .

- "Lexicon Universal Encyclopedia"- Lexicon Publications, Inc. N-Y - 1983 Vol. 1.p., 400
- Egypt No. (5) 1887) Report by Sir H. Drummond Wolff on the Administration of Egypt. February 2 - 1887
- Sir Thomas Russell "Egyptian Service 1902 - 1946" John Murray London - 1949 - pp., 180 - 189.

(٢٠٨) بنفر من وجهها = تفر من وجهيهما قراءة اجتهادية
(٢٠٩) يخترمان = يخترما أى يخرقا قراءة اجتهادية .

رعاياهم من الاعتداء لا ليأخذوا بيدهم إذا اعتدوا وأتوا كل منكر ، وكأن الحماية الأجنبية منبسطة على كل شاذ قبيح ، فبيوت المقامرة تحت الحماية الأجنبية ، ومكامن البغايا تحت هذه الحماية وغير ذلك كثير) قال (وعندى إذا خفف جماعة القناصل من غلوائهم فى حماية الأوغاد وأهل العبث والفساد ، أزالوا ما فى صدور العامة من الحقد والبغضاء ، وتحققوا أن كل شقى مأخوذ بعمله معاقب على إجرامه ، وإلا اتسعت الهوة بين الفريقين ، وكانت العاقبة شرا مستطيرا) قال (وقد آن لحكومة مصر أن تمنع من أرضها هؤلاء الأشرار ، وقد آن لبعض أولئك القناصل أن يبقوا على اكرامة[٢١٠] الكرام من رعاياهم بطرد أشرارهم وتبعيدهم وبالأحرى تأديبهم ا . هـ .

وظهر فى هذه الآونة اهتمام أهل الحل والعقد بأمر المعونة[٢١١] وحراسة جسور النيل ، وشاع أنهم ينوون إبطالها إذا تيسر لها المال الكافى لدفع أجور الخفراء الذيم[٢١٢]

---

(٢١٠) اكرامة = اكرام   قراءة اجتهادية .

(٢١١) المعونة = العونة قراءة تصحيحية .

والعونة هى الخدمة الإجبارية التى كانت تفرض فى مصر على الأهالى لخفارة جسور النيل . وقد نظم مسألة العونة هذه الأوامر العالية التي صدرت فى ٢٥ يناير ١٨٨١ ، ٩ سبتمبر ١٨٨٧ ، ٢٨ يناير ١٨٩٢ ، ٢٩ يونيه ١٨٩٩ بشأن خفر وحفظ جسور النيل وقرار نظارة الداخلية فى نفس التاريخ بشأن الإجراءات المقتضى اتباعها فى المخالفات المختصة بخفر جسور النسل .

وقد نص البند ٥ من الأمر العالى الصادر فى ٢٥ يناير سنة ١٨٨١ على أن (العونة واجبة على كافة أهالى القطر الذكور السليمى البنية البالغ سنهم ١٥ سنة فما فوقها إلى خمسين سنة ما عدا العلماء والفقهاء والأشخاص المختصون بالتعليم وطلبة العلم بالمسجد والمدارس ومن بالمحلات الخيرية كالتكايا والأديرة والمستشفيات ، وخدمة المساجد والمقابر والأضرحة متى كانت لديهم شهادات مستوفاة ، والقسس والرهبان والحاخامات وخدمة الكنائس والمعابد والجبانات من سائر الأديان الذين لديهم شهادات مستوفاة ، وأرباب الصنائع والحرف القائمون بأداء الويركو (أى رسوم ممارسة الحرفة) المشتغلون بحرفهم وصنائعهم ، وصيادو السمك والمراكبية ، وخفراء البلاد وأهالى المدن الشهيرة الذين لايملكون أرضا ولا يشتغلون بزراعة والأشخاص المصابون بأمراض عضالية) .

كانت (العونة) تطلب إذا وصل ارتفاع مياه النيل إلى ٢٤ ذراعا باعتبار مقياس مصر ـ وكان العمل المطلوب هو المشاركة (فى الأعمال اللازمة للتحفظ من الفيضان فى الجهة التى يخشى من حدوث خطر بها بحيث يكون طلب الأنفار من الجهات الأقرب للمحل (الذى يخشى منه) ، وكانت عقوبة الامتناع عن المساعدة في العونة هى الحبس من ٢٠ يوما إلى ثلاثة أشهر أو الغرامة من جنيه إلى عشرة جنيهات .

وقد أبقى الأمر العالى الصادر فى ٢٨ يناير ١٨٩٢ على هذا التكليف على أهالى البلاد رغم أنه ألغى فى مادته الأولى (السخرة فى كامل أنحاء القطر المصرى) . ورغم أن الأمر العالى الصادر فى ٢٩ يونيه ١٨٩٩ قد أبقى على هذا التكليف إلا أنه جعل مدة الخدمة المقررة على كل فرد خمسة عشر يوما متوالية ، وجعلت الغرامة من ٢٥ قرشا إلى ١٠٠ قرش أو ١٠٠ قرش إلى ألف قرش أو الحبس من ٥ أيام إلى ثلاثة أشهر .

(القوانين العقارية فى الديار المصرية) ـ نشر بمعرفة مراقبة الأموال المقررة ـ طبع المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق مصر المحمية ١٩٠١ بإفرنجية ص ٣٢٦ - ٣٣٣ .

(٢١٢) الذيم = الذين   قراءة تصحيحية .

يوكلون بحراسة النيل ، وقدر لتلك الأجور فى كل سنة مائتين ستة وأربعين ألفا وتسعمائة سبعة وتسعين جنيها . وبرز الأمر إلى أصحاب الرى من جماعة الإنجليز بإحصاء الرجال الذين كانوا يقومون بالعونة على حراسة الجسور فكانوا فى أقل السنين فيضانا كما يأتى :

سنة	عدد
٨٨	٥٨٧٨٨
٨٣	٢٢٧٥٣
٩٧	١١٠٢٧
٩٩	١٧٣١٨
٩٠٠	١٨١٦٩

ومدة حراسة النيل كلها مائة يوما وربما تجاوزت ذلك بحكم انحدار النيل من أعاليه . وقد كانت الحكومة لا تعرف غزارة الفيضان من قلته فى عامه فكانت تستدعى جميع الأنفار المفروضة عليهم هذه الخدمة ولكنها الآن تعرف من أخبار السودان وأصحاب الرى كيف حال الفيضان ، فلا تطلب من أنفار العونة إلا بقدر ما يلزم للحراسة . وجعل أصحاب الرى يفكرون فى أحسن الوسائل الموصلة لهذا الغرض الجليل ، واهتموا له اهتماما كبيرا وباحثوا أصحاب صندوق الدين فى أمر النفقة فوعدوهم خيرا . فجعل أصحاب الرى من جماعة الإنجليز يدبرون الأسباب ويحتاطون للأمر لعلهم ينجزونه حتى كان من وراء ذلك ما سيذكر فى محله إن شاء الله .

وجاء الخبر من رشيد فى أخريات أغسطس من السنة إلى وزارة الحرب وديوان الوزارة بوفاة ابن عبدالله التعايشى بذات الصدر . فبرز الأمر بدفنه فدفنوه باحتفال كبير ، ثم قام أحد كبار الجنود الإنجليزية إلى رشيد وزار أسرى الدراويش كلهم وهم ماية وخمسين وقد كانوا قبل الآن مايتين وعشرين أسيرا ، فأعادوا منهم إلى السودان نحو من مائة والآخرون لايزالون فى سجنهم . وقد كان أصحاب الصحف غالوا فى وصف حالتهم وقالوا أن الأمراض قد تفشت فيهم على أنه لم يمرض منهم سوى ستة منهم أربعة أطفال بالحصبة وامرأتان بالزكام ، ولم يمت سوى ابن التعايشى وهو شاب فى مقتبل العمر . وأخبرنى ممن أثق بأخباره بأن السردار عاقد النية على إرجاع أكثر[٢١٣] إلى السودان فى العاجل القريب ، ما عدا كل من الأمير محمود وعثمان دقنه والأمراء الآخرين الذين كانوا من أصحاب النفوذ فسيبقون فى رشيد خوف الفتنة . وما هى إلا أيام قلائل حتى جاء الخبر أيضا بوفاة زوجة الأمير محمود وهى إحدى الاثنتان المريضتان افحتفلوا[٢١٤] بدفنها

(٢١٣) أكثر = أكثرهم قراءة ترجيحية .

(٢١٤) افحتفلوا = فاحتفلوا قراءة اجتهادية .

احتفالا كبيرا ، قيل وجلس زوجها للعزاء ثلاثة أيام . وشاع خبر موتها فى السودان على جناح البرق قيل فحزن عليها كثير من معارفها . قيل ولما بلغ خبرها زوجة الأمير يعقوب شقيق التعايشى بكت بكاء مرا ثم جنت ، فانحدروا بها إلى القاهرة وأدخلوها مستشفى الجبل الأحمر بالعباسية[٢١٥] .

وكان إلى هذا الحين قد تفشى القول بعزم أحمد عرابى على الإتيان من سيلان إلى مصر فجعل أقاربه وبعض أهل قريته (عريه)[٢١٦] يرقبون حضوره . وفيما هم على هذا إذ جاء الخبر من محافظ مدينة السويس على ديوان الوزارة وقصر الإمارة بوصول على[٢١٧] الديب أحد رفقاء عرابى على ظهر إحدى البواخر التجارية فاستقبله أهله فى محطة القاهرة استقبالا هادئا بسيطا ، وكان أصحاب الشرطة من حوله لايدعون أحدا يخرج عن حد المجاملة ، وساروا إلى دار أعدوها له ، وذهب بعضهم للسلام عليه فلم يحادثوه ولم

(٢١٥) كان قسم الأمراض العقلية التابع لمصلحة الصحة العمومية (وزارة الصحة فيما بعد) يدير مستشفيان للأمراض العقلية فى مصر ، أحدهما بالعباسية (الجبل الأحمر) والآخر بجهة الخانكة التابعة لمحافظة القليوبية .
وفق إحصاء عام ١٩٣١ كان مستشفى العباسية يضم ١٥٢٣ سريرا ، وكان المتوسط اليومى لعدد المرضى ١٧٣٩ مريضًا ، وكانت أجور العلاج ٤٠ - ٢٠ - ١٠ قروش يوميا وفق الدرجة التى يراد إقامة المريض بها .
وقد بلغ متوسط عدد المرضى المقيمين بالمستشفيين فى سنة ١٩٣١ (العباسية والخانكة) ٣١٦٣ .
ـ تقويم الدولة المصرية لسنة ١٩٣٣ ميلادية ـ وزارة المالية ـ المطبعة الأميرية ١٩٣٢ ـ ص ٤٠٤ .

(٢١٦) عريه = هرية هرية رزنة قراءة تصحيحية .
إحدى قرى مركز الزقازيق بمحافظة الشرقية ـ تستمد شهرتها من كونها مسقط رأس (أحمد عرابى) قائد الثورة المصرية فى عام ١٨٨١ - ١٨٨٢ والتى فشلت نتيجة التدخل العسكرى البريطانى فى سبتمبر ١٨٨٢ ووقوع مصر تحت الاحتلال البريطانى . تضم القرية متحفا لمتخلفات أحمد عرابى .
ـ عبدالرحمن الرافعى (الزعيم أحمد عرابى) ـ كتاب الهلال العدد ١٠ - مارس ١٩٥٢ .

(٢١٧) اللواء على باشا فهمى الديب ـ أحد زميلى أحمد عرابى يوم واقعة قصر النيل (أول فبراير ١٨٨١) ورفيقه المخلص حتى نهاية الثورة ـ ضابط من تحت السلاح ـ شارك فى كل أحداث الثورة العرابية بما فى ذلك المعارك الحربية ضد القوات البريطانية فى ١٨٨٢ ـ قاد بالاشتراك مع الفريق راشد باشا حسنى (أبو شنب فضة) معركة القصاصين الثانية (٩ سبتمبر ١٨٨٢) ـ أصيب فى ساقه في هذه المعركة التى تعد أهم معارك الجيش المصرى فى هذه الثورة ـ نقل إلى القاهرة للعلاج من إصابته ـ حوكم بعد انتهاء المعارك وقضى بإعدامه فى ٧ ديسمبر ١٨٨٢ ثم عدل الحكم إلى النفى المؤبد ـ فى ١٤ ديسمبر أصدر الخديو توفيق أمرا بمصادرة أملاكه هو وباقى زملائه ـ وفى ٢١ ديسمبر صدر أمر خديوى آخر بتجريده من جميع الرتب والألقاب وعلامات الشرف ومحو إسمه من سجلات الجيش المصرى محوا مؤبدا . فى ١١ يونيه ١٩٠١ أصدر الخديو عباس حلمى عفوه عنه وعن الزعيم أحمد عرابى ـ وصل على فهمى إلى القاهرة فى أول سبتمبر من السنة ثم وصل عرابى فى أول أكتوبر ـ توفى فى ٢٠ نوفمبر سنة ١٩١١ وكان عرابى قد سبقه إلى ذلك فى ٢١ سبتمبر من نفس العام .
عبدالرحمن الرافعى (الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزى) ـ الطبعة الثالثة ـ دار النهضة المصرية القاهرة ـ ١٩٦٦ ـ ص ٥٦٩ - ٥٧٠ ، ٤٨٣ - ٤٨٧ .

يحادثهم بشيء من أخبار منفاه ، ثم جاءه الأمر من محافظ القاهرة بعدم الاجتماع بأحد والامتناع من جلوسه للناس فامتنع .

ولما كان سادس عشرى سبتمبر من السنة وصل أحمد عرابى من منفاه إلى السويس على ظهر الباخرة الألمانية المسماة (عدن) فسار إلى لقائه جماعة من أقاربه وأصحابه ومعهم الشيخ محمد الهسكرى[٢١٨] صاحب الحوادث المشهورة بان[٢١٩] الثورة العرابية . وجاءوا به إلى القاهرة فلازمه أصحاب الشرطة حتى أوصلوه إلى داره . وأصبح وقد وفد بعض الناس للسلام عليه ، فرووا أنهم قد أزكو العيون عليه وقعدوا له بالمراصد ، فخافوا وانكفوا عن زيارته . وكان لما قام من سيلان نزل ضيفا على إبراهيم دى دى رئيس (حزب ماليدف) قبلا فزاره أحد مكاتبى جريدة (التيمس) الإنجليزية وحادثه فى شئون كبيرة وسأله عن صحته وعن موعد سفره ، وعلم أن معه زهاء عشرين مفرا[٢٢٠] من أهله وأتباعه . ثم سأل الكاتب[٢٢١] وهل سرك أن تترك سيلان؟ فابتسم وقال أنى بالطبع سعيد برجوعى إلى وطنى ومسقط رأسى ولكنى آسف من جهة أخرى لترك سيلان حيث أقمت فألفت من الجميع أحسن معاملة . ثم مال بهما الكلام إلى العفو فقال عرابى لا أدرى والله بأى طريقة نلت هذا العفو ولكنى لا أرى مندوحة عن إبداء الإمتنان لما لقيته من تعطف الدوق دى كورنويل حين قابلته فى (كندى)[٢٢٢] وإذا كنت لم أعرب عن شكرى وامتنانى بالكتابة فإنى أحفظ جميل الملك وحكومته في صميم الفؤاد . فسأله المحرر

---

(٢١٨) يحتمل أن يكون قصد المؤلف هو الشيخ (محمد الهجرسى) ، فهذا هو أقرب إسم إلى الاسم الوارد فى النص - كما أننى لم أجد هذا الإسم بين شخصيات الثورة العرابية والمتعاونين ومن حوكموا بسبب اشتراكهم فيها . فإذا كان المقصود هو (الهجرسى) فإننا نقول أنه كان من علماء الأزهر - وقد نفى ٤ سنوات خارج القطر (مكة المكرمة) جزاء مشاركته فى الثورة . - المرجع السابق ص ٥٣١ .

(٢١٩) بان = إبان قراءة تصحيحية .

(٢٢٠) مفرا = نفرا قراءة تصحيحية .

(٢٢١) الكاتب = المكاتب قرادة ترجيحية .

(٢٢٢) كندى = كاندى Kandy عاصمة الأقليم الأوسط من سرى لانكا sri Lanka - تقع على ٤٩٠ مترا على سهل كاندى فى وسط جزيرة سرى لانكا على ضفاف نهر ماها ويلى Mahaweli . المنطقة المحيطة جبلية وتغمرها الغابات بغزارة ، وتقطعها أنهار عديدة - الأقطار غزيرة وتصل إلى ٢٠٣٠ ملليمتر فى السنة - يعتمد اقتصادها على الشاى والأرز . يرجع تاريخها إلى القرون المبكرة لما بعد الميلاد - كانت عاصمة مملكة كاندى من ١٥٩٢ - ظلت معقل المقاومة الأخير ضد البريطانيين حتى ١٨١٥ عندما سقطت فى أيديهم .

- Lexicon Universal Encyclopedia - Vol. 12 - p., 14

عن رأيه فى الاستقبال الذى يلاقيه من المصريين فقال لا أدرى وإنما أتوقع أن أرى البلاد تغيرت وربما لا أرى سوى عدد قليل ممن يعرفنى من المصريين ا . هـ .

وأقام الرجل فى عقر داره أياما لم يسمع له حس ولا خبر وكأنه مل الإنكماش وكره الاستكانه أو كان بعض المهمدسين(٢٢٣) من أذناب الحزب الوطنى قد حسنوا له مكاتبة بعض الصحف بما لقيه فى منفاه وفى الأسباب التى دعت إلى حربه مع الإنجليز والخديوى توفيق باشا ، فأرسل رسالتين في معنى ذلك إلي إحدى الصحف المحلية . فكان لظهورهما ضجة عظيمة وانقلب أصحاب الصحف عليه باللائمة ، وأوسعوه طعنا وتقريعا وسبا وتقبيحا حتى رموه فى عرضه ونسبه ، وقالوا أنه من عامة المصريين بل من زعانفهم وأدناهم طبقة وأن انتسابه إلى الشرف الحسينى وإلى فاطمة الزهراء تغرير بالناس وتضليل . فكتب هو إلى صاحب مجلة الهلال رسالة يرد على أولئك القوم قولهم ومما جاء فيها قوله :

إنى ولدت فى سابع صفر عام سبعة وخمسين ومايتين وألف للهجرة من أبوين شريفين من ذرية العارف بالله السيد صالح البلاسى البطائحى الكاين مقامه الشريف بعزبة فاقوس بولاية الشرقية . وهو أول من قدم بلاد مصر من أرض البطائح بالعراق فى أواسط القرن السابع للهجرة . وهو من ذرية الإمام على الرضى بن الإمام موسى الكاظم من سلالة الإمام الحسين بن على بن أبى طالب وابن فاطمة الزهرى(٢٢٤) البتول بنت رسول الله ﷺ . واسم والدى محمد عرابى بن السيد محمد وافى ابن السيد محمد غنيم ابن السيد إبراهيم ابن السيد عبدالله إلى آخر السلسلة الشريفة . قال واسم والدتى فاطمة بنت السيد سليمان ابن السيد زيد تجتمع مع والدى فى جدى الثالث عشر المسمى إبراهيم مقلد رحمه الله تعالى ا . هـ .

فما تفشى خبر هذا الانتساب حتى أخذت عرابى الضجة من كل جانب ، وزاد القوم فى تونيبه وتكذيب أحلامه . فاهتم أهل الحل والعقد لذلك اهتماما كبيرًا ، وبرز الأمر إلى محافظ المدينة بأن قل للرجل أن يكف عن هذا الهتر والهراء ويقعد فى عقر داره ساكتا ولا يقابل أحدا من أصحاب الصحف أو الكتاب وإلا رجع إلى منفاه بغير

---

(٢٢٣) المهمدسين = المندسين   قراءة ترجيحية .
(٢٢٤) الزهرى = الزهراء   قراءة تصحيحية .

معاودة . فكلمه محافظ المدينة وشدد فى تحذيره فانكمش وامتنع من مقابلة الناس حتى تناسوه ، ثم جعل يزور المشاهد والأضرحة وهو فى زى مشايخ الطرق ، فكان يضع عمامة خضراء على طاقية بيضاء ويرخي للعمامة عدته[٢٢٥] تتصل إلى خاصرته ، ويلبس كساء أبيض واسع الأكمام وفوقه عباءة صوف بيضاء وجوارب بيضاء ومداس من الجلد الأصفر الذى مداس أهل العلم ومشائخ الطرق ، ويحمل عكازه يتوكأ عليه وقد أرخى لحيته البيضاء حتى بلغت الشبرى أو يزيد . فكان إذا زاره العامة عند الصلاة أقبلوا عليه وقبلوا يديه وتبركوا بثيابه وهو يظهر الورع والصلاح ويدمدم بالصلاة على النبى والدعاء للناس ، وكان يطيل الركوع بعد كل صلاة . وكان إذا صلى ظهر يومه فى المشهد الحسينى صلى عصره في المشهد الزينى[٢٢٦] وعشائه في المشهد النفيسى[٢٢٧] وصبح اليوم الثانى فى الغورى وظهره فى المؤيد ، وهكذا كان حاله .

حدثنى من أهل الوظائف بالمشهد الحسينى قال : كان عرابى يأتى فى كل يوم للصلاة بالمشهد الحسينى فى زيه الذى تزيا به بعد رجوعه من منفاه ، فكانت العامة تزاحمه وتقبل يديه وتتبرك بطرف ثيابه وهو يظهر الصلاح ويكثر من التمتمة وتحريك مسبحته الطويلة ، فإذا انصرف الناس عنه جعل يمشى الهوينة حتى يصل إلى حيث صندوق المشيخة فيجلس بجواره وكان شيخ الجامع ويعده[٢٢٨] إلى تلاوة أحزابه أواعيته[٢٢٩] ، ويطيل الجلوس ما شاء وشيخ الجامع يتأذى من جلوسه بعيدا عن مكانه . ولاخفاك أن العامة كانت إذا رأت عرابى فى مكان الشيخ وأمامه الصندوق ظنوا أنه تولى الرياسة وتصرف فى صندوق المشيخة بحق نسبه إلى صاحب المشهد ، حتى كان إذا خرج من الصلاة متأخرا وجاء للجلوس مكان الشيخ ووجد الشيخ جالسا فى مكانه وقف

---

(٢٢٥) للعمامة عدته تتصل = للعمامة عذبة تصل - قراءة اجتهادية - والعذبة جزء من شال العمامة يتدلى خلف الرأس .

(٢٢٦) الزينى = الزينبى قراءة اجتهادية .

(٢٢٧) النفيسى = أى مقام السيدة نفسية ابنة الحسن بن زيد بن الحسن بن على بن أبى طالب ﷺ - يقع هذا المقام بالقاهرة عند مقابر الخلفاء العباسيين قرب القلعة .

- جوزيف ويليام مكفرسون (الموالد فى مصر) - ترجمة وتحقيق عبدالوهاب بكر - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة ١٩٩٨ - ص ١١٧ .

(٢٢٨) ويعده = يعده قراءة ترجيحية .

(٢٢٩) أواعيته = وأدعيته قراءة ترجيحية .

أمامه يتيتم[٢٣٠] بأوراده كأنه يقول للشيخ تنحى عن المجلس ، فيترك له الشيخ المكان حياء منه . وظل الرجل على هذا طويلا وتفشى خبر ذلك بين جماعة العلماء والمشايخ فلم يعجبهم ، وحسبوه تعديا وافتياتا من عرابى حتى لقد كلمه بعضهم فى ذلك فلم يحفل بقولهم . واتفق أن حضر للصلاة فى المشهد رجل من المغربة[٢٣١] يقال له (السيد محمد التونسى) فوقف فى أحد صفوف المصليين ، فكان موقعه يمين أحمد عرابي . فلما صلوا وسلموا وهم المصلون بالانصراف رأهم وقد تكوفوا[٢٣٢] حول أحمد عرابى يقبلون يديه ويتبركون بقبابه[٢٣٣] وهو يتمتم ويدمدم بدعواته وأحزابه فامتعض المغربى وأخذت منه الحدة ماخذها[٢٣٤] . فقام من ركوعه وصاح بأعلى صوته (إلى متى أيها العميان تنظرون إلى هذا الدعى الخارج عن طاعة الله وطاعة رسوله وتجلونه وتقبلون يديه . إلى متى تكرمونه وهو لا يستحق إلا الإغفال والتحقير بل اللعن والتعذير . إلى متى إلى متى لا أصلح الله حالكم . او[٢٣٥] ما كفاكم ما فعله ببلدكم وبأهلكم وأولادكم وكيف ازلكم[٢٣٦] بتحكم الأغراب فى رقابكم) قال صاحبى فبهت القوم ووقفوا وكان[٢٣٧] على رؤوسهم الطير لا ينبسون ببنت شفه . ثم التفت إلى أحمد عرابى وصاح في وجهه (من أين لك هذه الولاية[٢٣٨] يا ابن الخبيثة ومن أين وصلت إليك هذه العمامة الخضراء

---

(٢٣٠) يتيتم = يتمتم قراءة اجتهادية .

(٢٣١) المغربة = المغرب قراءة ترجيحية .

(٢٣٢) تكوفوا = التفوا أو تجمعوا .

(٢٣٣)بقبابه = بثيابه قراءة تصحيحية .

(٢٣٤) ماخذها = مأخذها

(٢٣٥) اوما = أوما

(٢٣٦) ازلكم = أذلكم

(٢٣٧) وكان = وكأن

(٢٣٨) الولاية = تقلد المنصب ـ يقال تولى العمل أى تقلده فالولاية صفة (الولى) ، وتقال هنا نسبة لمن يقال عنهم أولياء الله ، وتأتى من الوَلِى أى الحبيب ـ فأولياء الله هم أحباب الله (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولاهم يحزنون . . . .) والمقصود من العبارة الواردة فى النص هو استنكار المغربى لتقمص (أحمد عرابى) شخصية الولى) القريب إلى الله ، وهو مدخل لشارو بيم ليصب حقده على عرابى بصورة غير مباشرة باستخدام الإحالة على آخرين للتهرب من اتهامه بموقف شخصى ضد الرجل ، حيث يحرص فى هذه المواقف على أن يبدأ هجومه بقوله (حدثنى . . .) وفى حالتنا هذه يقول (حدثنى من أهل الوظائف بالمشهد الحسينى) .

ومن الواضح أن القصة مختلقة من جانب شاروبيم ، وأنها لاتعدو أن تكون وسيلة أعتادها في (تاريخه) عندما يريد النيل من خصومه .

عن الولاية والولى راجع .

ـ محمد بن أبى بكر بن عبدالقادر الرازى (مختار الصحاح) مكتبة لبنان ـ ١٩٨٧ ـ ص ٣٠٦ .

والعـدبة المـدلاة على ربدك[٢٣٩] إلا لعنة الله عليك . قل لى من أين وصل إليك هذا المداس[٢٤٠] الأصفر الذى لايضعه إلا أهل العلم والعرفان قل لى من أين اشتريته وقد مضى على الشيخ الشربينى شيخ الأزهر زهاء ربع قرن شيخا ولم يتأتى له لبس المداس الأصفر للآن . شكلتك[٢٤١] أمك يا طريد هرية[٢٤٢] يا نسل الطغام أحنساء[٢٤٣] . اخرج من هذا المقام الذى يبرأ منك صاحبه فى السماء والأرض) . قال صاحبى وقع كل هذا وعرابى لا ينطق بكلمة والناس فى دهش واستغراب حتى أقبل شيخ الجامع وأخذ بيد التونسى يتسرضاه[٢٤٤] ويستعطفه حتى خرج من المسجد . وخرج أحمد عرابى وعرق الخجل ينضح من جبينه ، ولم يزاحم فى ذلك اليوم شيخ الجامع فى مجلسه بجوار الصندوق وكنا نظن أنه لا يجى إلى المشهد بعد ذلك ، فإذا به جاء فى صلاة الظهر ثانى يوم ، ولكنه أقلع عن مزاحمة شيخ الجامع كما أقلع بعض العامة عن تقبيل يده وتكريمه ، فَقَصَّر عدبة العمامة وترك العكاز الذى كان يتوكأ عليه تغريرا بالبسطاء واستمسك بالمسبحة . وظل هذا شأنه حتى مات . قلت وكان عرابى مع انزوائه وقعوده فى داره لم يعدم زيارة بعض الطامعين فى معرفة أسراره ، فكان إذا زاره أحدهم وسأله عن أمر تجاهل وأظهر التأفف . وحادثه أحدهم يوما عما وصلت إليه مصر من الرقى والتقدم السريع على يدى الاحتلال وبعناية المحتلين فقال (الحمد لله هذا ما كنا نبغى وهذا قد وضعنا لكم الحجر الأول فعليكم أن تتموا البناء) أقول والشىء بالشىء يذكر ـ لما بكرت[٢٤٥] الفتنة العرابية وعظم شأنها وعمت حوادثها الآفاق ، شاع فى ديار الإنجليز أن أصحاب الثورة

(٢٣٩) ربدك = ظهرك قراءة ترجيحية .

(٢٤٠) المداس الأصفر = المداس هو المِدْوَسُ أى ما يداس به ـ وهو النعل أو الحذاء اصطلاحا ـ مختار الصحاح ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ٩٠ .

(٢٤١) شكلتك = ثكلتك قراءة تصحيحية .

(٢٤٢) هرية = هرية رزنة ـ القرية التى ولد فيها أحمد عرابى ـ من أعمال مركز الزقازيق ـ محافظة الشرقية .

(٢٤٣) احنساء = لم أستطع الوصول إلى معنى الكلمة ،لكنها على كل حال تأتى في إطار كيل الشتائم التى كالها شارويبم لعرابى على لسان (المغربى) المزعوم .

(٢٤٤) يتسرضاه = يسترضاه قراءة تصحيحية .

(٢٤٥) بكرت = كبرت قراءة اجتهادية

على عزم ردم قناة السويس . وكان بلانت[٢٤٦] ذلك الإنجليزى المستشرق المتهوس الذي تقدم الكلام عليه فى محله كثيرا من أكبر أنصار عرابى وألصق مشيريه به على ما فصلناه فى محله . فلما علم بخبر ذلك أشفق أن تفسد أحلامه ويذهب ريحه . فكتب إلي عرابى باسم الأحرار الإنجليز الذين يشدون ساعد عرابى يستحلفه أن لايفعل ذلك لأن فعله غاية من المضار بل مسقط لأصحاب الثورة إلى مصاف العصابات الهمجية . وشدد عليه فى ذلك تشديدا فأجابه عرابى بكتاب قال فيه (إعلم وفقك الله أنه إذا كان فى نية أحد أن يهاجم القناة فإنى ورجالى نجعل للقناة سدا من صدورنا) فترجمت العبارة فى ديار الإنجليز بما يفيد أن العرابيين إذا عز عليهم وجود ما يسدون القناة[٢٤٧] سدوه بجثثهم . فطار صواب بلانت وأخذته رجفة الجزع ، وشغل السلك البرقى بالرجاء والالتماس لحماية القناة . وقام أصحاب دار ندوتهم وقعدوا . وجاءت كتب صاحب سياستهم إلى قائد الحملة على مصر بأن عجل بدخول السفن الحربية إلى القناة قبل أن يطمرها أصحاب الثورة ، فدخلتها بارجة كبيرة ووقفت للعرابيين بالمرصاد ، وجاءت على أثر دخولها جماعة من العساكر مع أحمد عيد أحد المتطرفين من رجال الثورة ليسدوا القناة فرمتهم تلك البارجة بقنابلها رميا متتابعا وأصلتهم نارا حامية حتى أهلكتهم جميعا ولم ينج منهم أحد . واختفى خبر أحمد عيد إذ ذاك ـ فتحققوا هلاكه مع من هلك كما فصلنا

---

(٢٤٦) بلانت = ويلفريد سكاون بلنت Wilfrid Scawen Blunt (١٧ أغسطس ١٨٤٠ - ١٢ سبتمبر ١٩٢٢) شاعر ومستعرب إنجليزى . بعد الخدمة فى السلك الدبلوماسى شرع فى الكتابة بانفعال ضد الإمبريالية البريطانية فى الهند ، ومصر . تضمنت أشعاره The Love sonnets of proteus (١٨٨٠) و The Wind and the whirl-wind (١٨٨٣) ، ورواية شعرية ، وترجمات من العربية . كتب أيضًا كتبا سياسية وسياحية عن العالم العربى .
غير أن أهم أعمال (بلنت) من وجهة النظر المصرية هو تكفله بنفقات الدفاع عن (عرابى) عند محاكمته بعد الاحتلال الإنجليزى لمصر ، وكتابه الشهير (التاريخ السرى للإحتلال الإنجليزى لمصر) . و(البلنت) إلى جانب هذا الكتاب الهام ثلاثة كتب أخرى هى :
- الهند فى عهد ريبون .
- جوردون فى الخرطوم .
- بومباى : جزءان .
وترجع أهمية هذه الكتب من وجهة النظر السابقة ، إلي أنها تكشف عن علاقات (بلنت) بشخصيتين إسلاميتين مستنيرتين من شخصيات القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، وأعنى بهما (السيد جمال الدين الأفغانى) و(الإمام الشيخ محمد عبده) اللذان كانا صديقان شخصيان له .
- Lexicon Universal Encyclopedia - Lexicon Publications Inc. USA- 1983 - Vo.. 3 - p., 347.
- على شلش (الأفغانى ومحمد عبده) ـ كتاب الهلال ـ العدد ٤٢١ ـ يناير ١٩٨٦ .
(٢٤٧) يسدون القناة سدوه = يسدون به القناة سدوها قراءة اجتهادية

ذلك فى محله من الجزء الرابع من كتابنا هذا . وبرز الأمر من وزارة الحرب بالقاهرة فى سابع عشر أكتوبر من السنة إعلانا بفتح أبواب فاشودة للتجارة وإرسال البضائع بعد أن كانت مقفلة حينا طويلا ، وازاعوا[٢٤٨] شروطا معينة تشترط على كل راغب فى الاتجار ، منها : ـ أن التجار الذين يريدون الذهاب إلى تلك الأصقاع يطلبون الإذن بذلك من أركان حرب المخابرات فى الخرطوم ، فتوضع لهم الشروط التى تبيح لهم تعاطى التجارة ـ وعلى التجار عند وصولهم إلى التوفيقية أن يعلموا[٢٤٩] على تسريحاتهم من محافظ فاشودة ، وذلك يكون مباشرة الإتجار ، وأن يدفع التاجر جنيها مصريا رسما عن كل تصريح ، ويكتب المحافظ على ظهر التسريح ملحوظة تفيد وصول المبلغ . ولم يمنع قطعيا الإتجار بالأسلحة النارية والذخائر وفقط يسمح لهم بأن يكون مع كل تاجر عيارا[٢٥٠] ناريا وكمية محدودة من الذخيرة اكفى[٢٥١] لوقاية أنفسهم . وعليهم أن يأخذوا بذلك تسريحا[٢٥٢] ، ويسمح للتجار الأوروبيين دون خلافهم أن يأخذوا مشروبات روحية لأشخاصهم ، ويمنع منعا باتا ببيع[٢٥٣] هذه المشروبات للأهالى من أى نوع كانت تلك المشروبات ، ومحافظ (فشودة) مكلف بأن يعين البلاد التى يجوز لهم الإتجار مع أهلها مع تعيين الحدود التى يجوز لهم[٢٥٤] تعديلها ـ وعلى النجار[٢٥٥] قبل خروجهم من مديرية فاشودة أن يقدموا كشفا مستوفيا مبينا فيه كمية السن واللستك[٢٥٦] وغيره من الاصناف المضروب[٢٥٧] عليها عوايد ورسوم التى يريدون حملها معهم . وبعد التصديق على صحة ذلك يعطى المحافظ التاجر تسريحا[٢٥٨] يخول له نقلها إلى الخرطوم مع ذكر مقاديرها فى نفس التسريح[٢٥٩] ، وإن تدفع رسوم ذلك بمدينة الخرطوم . ويجب أحضار جميع الاصناف

(٢٤٨) وازاعوا = وأذاعوا .
(٢٤٩) يعلموا على تسريحاتهم = أى يحصلون على تأشيرة على التصاريح المعطاة لهم .
(٢٥٠) عيارا = سلاحا قراءة تصحيحية .
(٢٥١) اكفى = تكفى قراءة تصحيحية .
(٢٥٢) تسريحا = تصريحا قراءة تصحيحية .
(٢٥٣) ببيع = بيع قراءة تصحيحية .
(٢٥٤) لهم = له قراءة ترجيحية .
(٢٥٥) النجار = التجار قراءة تصحيحية .
(٢٥٦) السن واللستك = المقصود هو سن الفيل ، أما اللستك فهو المطاط على الأرجح .
(٢٥٧) المضروب = أى المقرر
(٢٥٨) تسريحا = تصريحا .
(٢٥٩) التسريح = التصريح .

التى تؤخذ عليها عوائد إلى دخوليه(٢٦٠) (الخرطوم) مع التصريح المعطى بحملها ، والتجار الذين لايحصلون على الترخيص بحمل بضائعهم ويخالفون ما ذكر تحجز بطاعتهم(٢٦١) ويؤخذ منهم التسريح(٢٦٢) الذى يكونون قد تحصلوا عليه من محافظ فاشودة(٢٦٣) ا . هـ . فلما تفشى(٢٦٤) خير ذلك اقبل التجار على وزارة الحرب بالقاهرة يطلبون درج أسماءهم بجدول المتاجرين مع أهل السودان ، وتزاحم تجار الروم(٢٦٥) على باب السردار(٢٦٦) يطلبون الإذن بالذهاب إلى الخرطوم ببضاعتهم من الأقمشة والجلود والفراوى والخرز وغير ذلك من صنوف المتاجر . فأذنوا لهم بالسفر وكثرت الحركة في (اصوان وحلفا) واتخذ بعضهم مراكزا فى (اسيوط) لتخزين البضائع ، فانحدرت الأرزاق من أعالى السودان إلى الخرطوم وجاءت القوافل تحمل الريش والسن الفيل والسنامكى(٢٦٧) واللستك على قلته ، وكأن بأصحاب الحل والعقد فى السودان شاؤا أن يعلنوا لأصحاب التجارة ما كابده رجالها من المشاق فى فتح الطريق للتجارة وسير القوافل فى تلك الأرجاء البعيدة فنشروا أقوالهم عن ذلك الفتح فى بعض الصحف الإنجليزية وبينوا للناس كيف سارت الحملة إلى (بحر الغزال) وبيان ما صادفته من المصاعب فى طريقها حيث قالت (غادرت الحملة أم درمان فى أخريات نوفمبر عام تسعمائة وألف وكانت مؤلفة من أربعة من الضباط الإنجليز وأحد عشر ضابطا مصريا ومائة جندى نظامى ومايتين وعشرين جنديا يتولى قيادة الجميع الميرالاى سبركس بك ، فوصلت فى أواسط ديسمبر إلى المكان الذى يعرف على عهد الخديوى إسماعيل بمشرع التجار والآن يعرف بمشرع الرق ، فأنشأت فى ذلك المكان مربطا(٢٦٨) عسكريا اتخذته مركزا لها ومدت من الحصن إلى الأرض العالية المجاورة جسرا طوله ميل ونصف فوق المناقع ،

---

(٢٦٠) دخولية = الدخولية هى مركز تحصيل الرسوم .

(٢٦١) بطاعتهم = بضاعتهم قراءة تصحيحية

(٢٦٢) التسريح = التصريح قراءة تصحيحية .

(٢٦٣) ا . هـ = مصطلح كتابى يقصد به (إنتهى) .

(٢٦٤) خير = خبر قراءة تصحيحية .

(٢٦٥) الروم = يقصد بهم الأجانب بصفة عامة ، لكنه كان يطلق فى أوائل القرن العشرين على أبناء الطوائف اليونانية والإيطالية فيقال لهم (الأروام) .

(٢٦٦) السردار = قائد الجيش المصرى البريطانى الجنسية .

(٢٦٧) السنامكى = نبات طبى يستخدم كملين ـ كان يطلق عليه في الغالب (سنه) senna

- Daniel Crecelius and Abd al-Wahhab Bakr (al Damurdashi's chronicel of Egypt- 1688 - 1755 Al-Durra al-Musana Fi Akhbar al-kinana) E. J. Brill - Leiden, 1991 - p., 357 n/19

(٢٦٨) مربطا = أى حصنا .

ولم تقدر الحملة على الاستعانة بالشيالين والحمالين لحمل الأمتعة والمؤن ، على أنها كانت قد أخذت معها ثلاثين حمارا وستة بغال لنقل أدواتها فسهلوا عليها أسباب النقل .

ولما كان ثانى عشرى الشهر يعنى ديسمبر قامت الحملة من مشرع الرق وسارت فى طريقها ، فكان يحمل كل جندى منها فوق لوازمه الذاتية ومعداته مؤونة عشرين يوما فبلغت فى حادى شلشية[٢٦٩] نهر تونج وهو على قيد اثنى عشر ميلا من مركز الحكومة القديم بخور غطاس بعد أن اجتازتماية وعشرين ميلا بين الأدغال والأعشاب . وفى أول يناير من السنة يعنى سنة أحد وتسعمائة وألف رفع العلم الإنجليزى والعلم المصرى على ذلك المكان وأنشأت الحملة مربطا عسكريا عاما ، ثم أرسلت الطلايع شرقا وغربا وجنوبا فى بلاد نيام نيام فنفذت مؤنهم وقل زادهم ، فعاد كثير منهم فى طلب الزاد من مشرع الرق . ولم يحل أول شهر أبريل حتى كانوا قد أنشأوا مرابط كثيرة في واو وتونج ورمبكة وشيمة ودوم زبير ومشرع الرق . وحينئذ نقل المركز العام إلى واو . وكان الأهالى لما رأوا الحملة مقبلة جزعوا وخافوا خوفا عظيما وتفرقوا أشتاتا ، ولكنهم ما لبثو أن ثاب إليهم السكون لما تحققوا حسن نية الحملة وأظهروا فرحهم بها . ومن حظ رجال الحملة أنهم لم يقاتلوا في زحفهم إلا مرة واحدة ، وذلك أن خمسة وعشرين رجلا من الجنود النظامية ومايتين من رجال القبائل التقوا بثمانمائة من جماعة الثور كانوا آتين لغزو رمبسكة فقاتلهم رجال الحملة قتالا شديدا صبر له الثور صبرا عجيبا ثم لاذوا بالفرار وقد حملوا معهم جرحاهم .

أما جو تلك البلاد فإنه جاف إبان الشتاء ، والصيد فيها كثير ، وهطل الأمطار يبتدئ فى أواخر شهر مارس وينتهى فى أوائل سبتمبر ، فإذا انتهى تفشت الأمراض بالحمة[٢٧٠] الملاريا . وقد نكبت الحملة بهذا الداء فكان فعله شديدا جدا . وفى تلك البلاد كثير من اللاستك والصمغ والأبنوس وعسل النحل ، والأهالى لايحفلون بالشمع فيطرحونه ، والبلاد كلها عبارة عن أحراج وغابات نائية الأطراف . ومن فلتات الطبيعة فيها أن البغال والحمير لا تعيش إبان الشتاء . وكان هطل الأمطار من أكبر المشاق التى عانتها الحملة حتى أن الأرض كانت على مسافة ستين أو ثمانين ميلا كالبحيرة ، فكانت الحملة تضطر أن تخوضها فتسير فى الوحول فتغرق إلى الركب ا . هـ .) .

---

(٢٦٩) حادى شلشية = حادى ثلاثيه أى اليوم الحادى والثلاثين من الشهر .

(٢٧٠) بالحمة = بالحمى .

وجاءت الأخبار في هذه الآونة أيضًا منبئة بإقامة التخوم بين السودان المصرى ومملكة الأحباش فى الشمال والشرق والغرب ، وأنه لم يبق إلا تعيين التخوم من الشق الجنوبى فقط عند بحيرة ردولف ووادى جربة .

وما شاع خبر تحديد التخوم ذلك حتى هب اقيال الحزب الوطنى من سكوتهم وعادت صحفهم إلى ضوضائها وصيحاتها المألوفة عندهم حول أصحاب الاحتلال وتقبيح أعمال صاحب السياسة الإنجليزية الذى وافق على تحديد ذلك التخوم على ما فيه من الضرر للسودان المصرى والمنفعة للأملاك الأنجليزية فى ذلك الصقع البعيد ، وأخذته[٢٧١] الحدة بعضهم إلى رمى السلطان عبدالحميد بالجمود وضعف السياسة والاستكانة التى أودت بالدين والخلافة وبيعة الإسلام حتى ذلت المملكة الإسلامية وزالت هيبتها وطمع العدو في أعز بلد لديها وأخصب صقع فى سلطنتها . واشتدت جلبتها أياما وهى لا تبقى ولا تذرى حتى قلق الغازى مختار باشا وحار فى أمره ، وسير كاتب سره إلى الرئيس مصطفى فهمى باشا يستلفت نظره إلى هذه الحركة الشائنة ، فلم ير من الرئيس استنكارا ولا من الأمير عطفا . وما هى إلا عشية أو ضحاها حتى ورد على أصحاب الصحف المحلية مع البريد وإلى بعض الكبراء والوجهاء وأهل المناصب وأصحاب الخطط من أهل البلاد منشورا كله حض على الهرج والوقيعة بكرسى الخلافة وما وصل إليه الإسلام من الغُلبُة والإنحطاط على عهد السلطان عبدالحميد ، وأنه لما كان البقاء على هذا الحال ضرب من المحال فقد وقع الاتفاق ما بين السلطان[٢٧٢] زنجبار وشريف مكة المنورة ومهدى الصومال والشيخ السنوسى الكبير وشيخ الكويت على أنهم جميعا يبايعون أمير مصر على الخلافة حتى تعود إلى ما كانت عليه من المنعة وعز السلطان . فلما تفشى خبر هذا المنشور أكبره العقلاء وتحدثوا به كثيرا وخافوا عاقبته حتى ظن بعضهم أنها دسيسة ورائها ما ورائها . وفيما الناس على هذا إذ ظهر منشور أخر فيه ما فيه من الطعن والإرجاف المخيف بقيام الفتنة وانتشار الهرج فى طول البلاد وعرضها فاشتد خوف العقلاء وأخذت صيحة أصحاب الصحف المعتدلة ديوان الوزارة من كل جانب ، وكلم الغازى مختار باشا الأمير فى ذلك وكشف له عما وراء ذلك من

(٢٧١) وأخذته = وأخذت قراءة تصحيحية .
(٢٧٢) السلطان = سلطان قراءة ترجيحية .

الشر المستطير ، ورجاه أن يوقف أصحاب تلك الحركة المشؤمة عند حد . قيل فطيب خاطره ووعده خيرا . أقول حدثني صديق من الملمين بشر هذا الحادث قال (كانت الخلافة منذ ثلاثة عشر قرنا ولاتزال كما لايخفاك سبب التفريق في العالم الإسلامي والعلة الكبرى التي لايمكن معها تأسيس جامعة إسلامية ولا يتأتى الاتحاد والترابط بين ملوكها وأمرائها ، منهم(٢٧٣) كما تعلم في تحاسد وتخاذل وتفريق أبد الدهر ، وهذه المنشورات وتلك الأراجيف والإشاعات والدسائس التي قد أحرجت الصدور إنما هي عمل شياطين الأحزاب التي ابتليت بها البلاد لهذ ا العهد ، وهو داء دفين لايظهر منه الآن إلا هذه الأوراق والمنشورات بأيدي أولئك الصبية أو الشيوخ الذين يتعابون(٢٧٤) في هذا العهد ، وأني أقول لك الحق لني(٢٧٥) رجل لا يحب المداجاة ولا ينطق عن الهواء(٢٧٦) فإن أعمال هؤلاء الزعانف تضطرب لها البلاد شرقا وغربا وشمالا وجنوبا إلا أهل الحل والعقد فإنهم لايتحركون ولايبدون أمرا . أترانا لو روينا عن ملك الإنجليز ما رواه بعض تلك الحصف(٢٧٧) المتحزبة عن السلطان وأمير البلاد ، ألا تهتز برواياتنا أسس ديوان الوزارة وقصر الإمارة . فما بال الرئيس مصطفى باشا لايتحرك وهو المسئول عن كل ما يدعو إلى الهرج والخروج لاسيما في هذه الآونة المحفوفة بكل شر مقيم ، وقد بلغت فيها قحة العامة مبلغها وجراءة الزعانف ما لايمكن الصبر عليه) ، قال (ومع هذا كله فإن الأمر هين وميسور ، ومطاردة تلك الطغمة شيء لايحتاج إلى عناء كبير لو أخلص أصحاب الإحتلال النية في العمل وكانوا براء من جريمة هذه المحنة ، فإني سمعت من كثير من أصحاب المقامات أن سياستهم في هذه الآونة ترمي إلى توتير العلايق بين الأمير وسلطانه لأمر يريدونه(٢٧٨) ا . هـ .

(٢٧٣) منهم = فهم قراءة ترجيحية .
(٢٧٤) يتعابون = يتصابون قراءة تصحيحية .
(٢٧٥) لانى = أني قراءة تصحيحية .
(٢٧٦) الهواء = الهوى قراءة تصحيحية .
(٢٧٧) الحصف = الصحف قراءة تصحيحية .
(٢٧٨) كانت العلاقات بين الخديو والسلطان عبدالحميد يشوبها عدم الاستقرار منذ بداية حكم عباس . فقد بدأت هذه العلاقات في التوتر مع قيام (أزمة الفرمان) في سنة ١٨٩٢ والتي أرادت فيها الدولة العثمانية أن تقتطع بعضا من الأراضي الداخلة في نطاق الحدود المصرية عن طريق تحوير الحد الفاصل بين سينا والعقبة وسلخ الأخيرة عن الحدود المصرية ، وهو ما تم فعلا . وقد وقعت هذه القضية نتيجة لوجود مشاعر لدى الدولة العثمانية تتعلق بتقلص سيادتها على مصر منذ صدور (تسوية لندن) في عام ١٨٤٠ ، ثم احتلال بريطانيا في عام ١٨٨٢ . كان هذا كله يخلق نوعا من التوتر بين الباب العالي الذي يحاول تأكيد سيادته على مصر من ناحية ، والولاية المصرية التي =

ولما كانت ليلة ثامن عشرى أكتوبر من السنة ليلة خامس عشر رجب من السنة خسف القمر خسوفا جزئيا ولم ننظره إلا القليل ، فظنوا خسوفه آية من آيات الاضطراب

= يسعى خديويها الشاب إلى تأكيد وضع مصر السياسى فى إطار التسوية الدولية من جهة أخرى .
كان هذا هو الشكل العام للعلاقة بين الطرفين ، لكن حسن العلاقات فى السنوات الأولى من حكم (عباس) كان يخفى حقيقة المشاعر التى لدى الدولة والسلطان حتى بدأ معارضو (السلطان عبدالحميد) من أعضاء حركة (تركيا الفتاة) يلجأون إلى مصر فرارا من تنكيل عبدالحميد بهم ، واستضافة (عباس) لهم ، وسماحه لهم بممارسة بعض أنشطتهم السياسية المعارضة للسلطان على أرض مصر التى هى أرض السلطان . أوغر هذا صدر السلطان وبدأ يطالب (عباس) بمنع معارضيه من نشر مقالات السخط على الحكومة التركية وإغلاق الصحف التركية التى كانت تصدر فى مصر .
ولقد كان وجود الإحتلال البريطانى فى مصر أحد أسباب شعور السلطان بالريبة تجاه الجالس على عرش الخديوية المصرية خشية أن ينضم الخديو إلى بريطانيا ضد الدولة .
كذلك فإن بعضا من ذوى المطامع الشخصية كانوا يدسون بين السلطان وتابعه (الخديو) ويؤولون كل تصرف للأخير على أنه إتجاه انفصالى عن الدولة .
وكانت زيارة (الخديو) إلى تركيا كل عام موسما خصبا للجواسيس الذين كان السلطان يبثهم حول (الخديو) للتعرف على حركاته وسكناته والأشخاص الذين يلتقى بهم الخديو . وهكذا وبمضى الوقت مشت (النميمة) بين التابع والمتبوع واستفحل الأمر بينهما وأصبح السلطان يشك فى نوايا الخديو تجاه الدولة ويحسب حسابا لأعمال من الخديو تعيد أيام انفصال (محمد على) عن الدولة فى ثلاثينيات القرن التاسع عشر .
وتسببت الحوادث المتتالية فى زيادة شكوك (عبدالحميد) تجاه (عباس) . فقد لجأ إلى مصر (داماد محمود باشا) زوج أخت السلطان (سنيحة سلطانه) مع ولديه ، وكانوا جميعا من معارضى السلطان ومن الداعين إلى إدخال إصلاحات على نظام الحكم الحميدى . وعبثا حاول السلطان استعادة الهاربين الذين كان (عباس) يتكفل بنفقات معيشتهم فى مصر ، واتهمه السلطان بمساعدة قوى المعارضة العثمانية فى الخارج مثال (إسماعيل كمال بك) أحد رؤساء (جمعية تركيا الفتاة) و(بدرخان باشا) أحد زعماء الأكراد المطالب بالاستقلال الذاتى للأكراد ، و(فاضل بك) و(عبدالرحمن الكواكبى) . واتهم (عباس) بحماية أصحاب الصحف التركية المعارضة فى مصر (جون تورك) (المشير) (ميزان) (القانون الأساسى) ، وحماية الأرمن وجمعياتهم فى مصر .
واتهمت والدة الخديو بدفع مساعدات مالية لجمعية (تركيا الفتاة) . وأسهمت دسائس شيخ الإسلام (الشيخ أبو الهدى الصيادى) ضد الخديو عند السلطان فى ازكاء العداوة بين الطرفين علاوة على دور (المابين) ورجاله فى نفور السلطان من الخديو أيضًا .
وكان السلطان يخشى على الولاية من قيام علاقات سياسية أو شخصية بين الخديو وقادة الدول الأوربية تؤدى إلى تشجيع الخديوى على الانفصال عن الدولة كما فعل (محمد علي) ، لذلك فإنه كان يأمره بعدم السفر إلى الخارج أو الإتصال بقادة وزعماء هذه الدول ، وكان إذا وافق على سفره فإنه كان يشترط أن لايتقابل الخديو مع الملوك والحكام هناك وأن تكون زياراته بصفة غير رسمية حتى لايبدو وكأنه حاكم مستقل .
ثم بدأ السلطان يضيق على تابعه فى بعض القضايا الخاصة كحقوقه فى (جزيرة طاشيوز) التى كانت قد منحت للعائلة العلوية كمكافأة (لمحمد على) لقضائه على (الحركة الوهابية) فى شبه الجزيرة العربية ، الأمر الذى دفع الأخير إلى اللجوء إلى الحكومة البريطانية وسلطات الإحتلال لمساعدته فى اقتضاء حقوقه هناك .
ثم نسب للخديو تهمة مساعدة ثوار اليمن بالأسلحة والذخيرة .
وفى إطار هذا كله بدأت تظهر تلك المنشورات التى أشار إليها (الكافى) والتى نسب فيها إلى (الخديو) دعوته المسلمين فى العالم الإسلامى بالخروج عن طاعة السلطان ومبايعته هو للخلافة .
ـ أحمد شفيق باشا (مذكراتى فى نصف قرن) الجزء الثانى ـ القسم الأول من يناير ١٨٩٢ إلى ١٩٠٢ ، والقسم الثانى من يناير ١٩٠٣ إلى ١٩١٤ ـ مطبعة مصر ١٩٣٦ ـ مواضع التفرقة .

المقبل والمحن التي ستحل بالبلاد بعد ظهور تلك الحركة المتفشية فى طول البلاد وعرضها بسبب إرهاصات دعاة الحزب الوطنى ، وأصبحت صحفهم وهى تكثر من الإرجاف والتشاؤم وتشير إلي أبعد المرامى وأعصاها حتى خيل للناس أن القتال على الخلافة صار على قاب ثوسين[٢٧٩] أو أدنى .

وبينما الناس على هذا مع صحف الحزب الوطنى ودعاته وتهويشه أن[٢٨٠] حضر إلى القاهرة (سسل رود[٢٨١]) الإنجليزى الغنى الكبير صاحب مناجم الماس بالترنسفال ومؤسس مدينة بروسيا[٢٨٢] بها وشرارة نار الحرب التى قامت بين البوير والمملكة الإنجليزية ، وهو من مستشارى المجلس المخصوص لمملك[٢٨٣] الإنجليز والمحرض لأحرار الإنجليز على البقاء فى ديار مصر وعدم الجلاء عنها بعد أن كان (الوزير غلاد ستون) قد صمم على إجلاء جنودهم عنها . فكان لحضوره فى هذه الآونة دهشة ، ونزل الرجل مع حاشيته فى (منزل سافوى[٢٨٤] الكبير) وجعل يطوف فى الشوارع وخانات التجار مثل خان الخليلى والصاغة والنحاسين ويزور الآثار والمساجد . فاهتم محافظ المدينة بأمره اهتماما عظيما وتسابق بعض أفراد الحزب الوطنى إلى رؤيته وبلغ التهوس من بعضهم أن حاول زيارته ليحادثه فى أمر خروج الإنجليز من البلاد ، قيل وفى شئون أخرى لها مساس بعرش الإمارة . وأول أصحاب الصحف حضوره تأويلا كثيرا وأطنب بعضهم وبالغ فى إطراء الرجل كثيرا حتى ألفت عليه الأنظار . وما هى إلا أيام حتى جاء أيضًا الدكتور (جامبزون) طبيبه ويده ورجله فى سياسة ضم الترنسفال إلى السلطنة البريطانية وهو أول من غز[٢٨٥] الترنسفال فوقع أسيرا فى يد البوير هو وجميع من كان معه من الجنور[٢٨٦] الإنجليزية ولولا رأفت جروجر[٢٨٧] صاحب الترنسفال لنفذ عليه حكم

(٢٧٩) ثوسين = قوسين قراءة تصحيحية .

(٢٨٠) ان = إذ قراءة تصحيحية .

(٢٨١) راجع ترجمته فى ص ٢٦٧ من القسم الأول من الجزء الخامس من هذا العمل ، وصحة الاسم ردوس Rhodes .

(٢٨٢) بروسيا = روديسيا قراءة تصحيحية .

(٢٨٣) لمملك = لملك قراءة تصحيحية .

(٢٨٤) منزل سافوى الكبير = نُزُل سافوى أى فندق سافوى بالقاهرة .

(٢٨٥) غز = غزا قراءة تصحيحية .

(٢٨٦) الجنور = الجنود قراءة تصحيحية ، والمقصود هو الدكتور چاميزون ، سير لياندرستار Jameson, Sir Leander Starr (1853 - 1917) صاحب غارة چاميسون) الشهيرة على مستعمرة الترنسفال (١٨٩٥) .

(٢٨٧) رأفت جروجر = رأفة كروجر قراءة تصحيحية ـ وصحة الإسم هى بول كروجر Paul kroger ـ راجع تفاصيل عنه فى ص ٢٦٧ من القسم الأول من الجزء الخامس من هذا العمل .

الإعدام رميا بالرصاص حسب قانون الحروب . وصل (جامبزون) هذا القاهرة فى ثانى عشرى نوفمبر من السنة ونزل ضيفا على رئيسه (سسل رود) بنزل سافوى) فاستلفت حضوره الأنظار ، وقامت حوله ضجة أصحاب الصحف المحلية وصحف الأحزاب ، وتشاءموا من حضوره فى هذه الأيام وتكلموا عنه كثيرا وقالوا هو ذلك الجزار الذى سلم رقاب شباب قومه إلى أسفار[٢٨٨] البوير الكرام . فإن غزوته التى سلم معها جلده قد مزقت العيال وخربت البلاد وإراقة[٢٨٩] دماء سبعين ألفا من الشبان ، وألبست إنجلترا كلها الحداد ، ووضعت للأمة الإنجليزية نقطة فى تاريخها وتاريخ حروبها سوداء أبد الدهر . قلت وقد كان (تشمبرلن[٢٩٠]) قام خطيبا عند نشوب هذه الحرب مع البوير يقول للناس (ما بالكم لا تسرون وها نحن نهدم بنيان أمة لنشيد لنا إمبراطورية عظيمة) . وعندى أن القوم الإنجليز الذين لا تغرب الشمس عن أملاكهم ما شيدوا إمبراطوريتهم العظيمة على

(٢٨٨) أسفار = لم أستطع فهم الكلمة ، وإن كانت صفة وصف بها المؤلف جماعة البوير .

(٢٨٩) واراقة = وأراقت .

(٢٩٠) تشمبرلين = چوزيف تشمبرلين Joseph, Chamberlain ـ زعيم سياسى بريطانى (٨ يوليو ١٨٣٦ - ٢ يوليو ١٩١٤ . أحد رجال الدولة الراديكاليين فى وقته . مفاوض بارع وإدارى قدير وخطيب مفوه . جمع بين كفاءة العمل والتصور معا ، ولد لأسرة من التجار في (لندن) . ذهب فى سن الثانية عشرة إلى (برمنجهام) وتولى إدارة شركة أسرته هناك ، أثبت تفوقا إلى حد أنه عندما كان فى منتصف العمر استطاع أن يتقاعد معتمدا على العائدات . دخل حلبة السياسة المحلية مدفوعا باتجاه اجتماعى قوى . وعندما كان عمدة لبرمنجهام (١٨٧٣ - ١٨٧٦) أدخل تحسينات على رفاهية المدينة فاقت حد التقدير . انتخب للبرلمان كليبرالى فى ١٨٧٦ ، عمل فى حكومة (ويليام جلادستون William Gladstone) كرئيس للجنة التجارة (١٨٨٠ - ١٨٨٥) ، لكنه عارض قانون جلادستون للحكم الذاتى لأيرلندا Home Rule Bill وانفصل عن الحكومة . دخل بوصفه زعيما للاتحاديين الليبراليين الذين أرادوا الحفاظ على الوحدة مع أيرلندا ، دخل حكومة سالزبورى Salisbury المحافظة فى ١٨٩٥ . أصبح وزيرا للمستعمرات ، ورغم أن سياساته التوسعية عملت على اندلاع الحرب الجنوب أفريقية South African War (١٨٩٩ - ١٩٠٢) ، فإن قدراته الإدارية وجاذبيته الشعبية رفعت من قدر هذا المنصب . فى ١٩٠٣ ولدى اقتناعه بأن أيام حرية التجارة Free Trade قد انتهت وأن بلاد الإمبراطورية البريطانية لابد وأن تقترب من نظام اختيار التعريفة الإمبريالى ، ترك (تشمبرلين) المنصب ليقود حملة ضد هذه القضايا . قسمت المحادثات التالية (حزب المحافظين) الذى هزم هزيمة ثقيلة فى انتخابات ١٩٠٦ . فى نفس العام أصابته سكتة دماغية منعته من القيام بأى جهد سياسى بعد ذلك .

- Lexicon Universal Encyclopedia - Lexicon Publications, Inc. New York. 1983 - Vol. 4 - . p., 274

دم يسفك وأوصال تقطع وإنما شيدها أقيال سياستهم بنيت[٢٩١] وغلادستون وديسرانلى[٢٩٢] على دعامة الحرية وسياسة التجب[٢٩٣] والتقرب والابتعاد عن كل عنف وجور . على أن سياسة الدم والحديد والنار التى بدلت فى هذه الأيام من سياسة الحرية والدهاء والمجاملة قد أفرغت خزائن الأموال ورملت العيال وأفنت الجيوش الضخمة مع

---

(٢٩١) بنيت = المرجح هو (بت) Pitt, William الأكبر ، أيرل شاتهام الأول Ist earl of Chatham (١٥ نوفمبر ١٧٠٨ - ١١ مايو ١٧٧٨) ، والذى يعد أكثر رؤساء الوزارات البريطانيين نبلا للمدح . كزعيم وطنى أثناء (حرب السنوات السبع) ١٧٥٦ - ١٧٦٣ حصد جائزة الانتصارات البحرية الرائعة المتوالية ، والتى توجت بالاستيلاء على (كويبك) Quebec فى ١٧٥٩ . انتخب للبرلمان فى ١٧٣٥ وقضى سنواته المبكرة من حياته السياسية فى مقاومة مريرة وغير مثمرة لوزارة (سير بروبرت ويلبول) Robert walepole ، ثم فى مشاركة غير ناجحة أو متميزة فى وزارة (هنرى بيلهام) Henri Pelham . أدت بعض الكوارث العسكرية في أمريكا الشمالية والبحر المتوسط ، إلى جانب بعض المناورات السياسية الماكرة إلى توافر الفرصة له لتأليف حكومته . فى ديسمبر ١٧٥٦ أصبح وزير الدولة فى وزارة (ويليام كافنديش) William Cavendish دوق ديفونشاير Devonshire ، لكن معارضة الملك جورج الثانى أدت إلى طرده من المنصب في أبريل ١٧٥٧ . إدى الضغط الشعبى إلى عودة (بت) فى يونيو من نفس العام ، وألف وزارة مع (توماس بلهام - هولز Thomas Pellham - Holles) دوق نيوكاسل . انتهت سنوات تفوقه غير المنافس فى رأسة الوزارة لمدة ثلاثة سنوات بتولى (جورج الثالث) فى ١٧٦٠ ، واستقال (بت) فى ١٧٦١ بعد نزاع مع (جون ستوارث) John stuart محسوب الملك الجديد . استجلب (بت) المحبوب - الملقب بعضو مجلس العموم العظيم (Great Commoner)- سخط الشعب عندما قبل معاشا (١٧٦١) ولقب اللوردية peerage (١٧٦٦) . عاد (بت) المتغطرس المتكلف إلى السلطة فى ١٧٦٦ بناءً على طلب الملك ، لكن انتصاره انهار بانهيار عقلى - ولو أنه مؤقت - كامل . استقال (بت) فى ١٧٦٨ وقضى بقية عمره في معارضة السلطة الملكية ، مجادلا على وجه الخصوص تسوية سلمية مع المستعمرات الأمريكية . يثبت سجل (بت) كوزير أثناء الحرب سيطرته الاستراتيجية بالإضافة إلى الشجاعة السياسية والجاذبية الشعبية الضخمة .

أما (ويليام بت) الأصغر (٢٨ مايو ١٧٥٩ - ٢٣ يناير ١٨٠٦) ابن (ويليام بت) الأكبر ، فقد ورث عن والده السلطات العظيمة لرجل الدولة وفن الخطابة . قاد كرئيس للوزارة بلاده خلال الأزمات التى نجمت عن الثورة الفرنسية ، الثورة الأيرلندية ، والحروب النابليونية ، أدخل التحديث على سياسة بريطانيا المالية لكنه عارض الكثير من الإصلاحات الاجتماعية الضرورية .

- Lexicon Universal Encyclopedia - Vol. 15 - pp., 320 - 321.

(٢٩٢) ديسرانلى = ديزرائيلى Disraeli, Bengamin (٢١ ديسمبر ١٨٠٤ - ١٩ أبريل ١٨٨١) - رئيس وزراء بريطانيا اليهودى الديانة (٨٦٨ ، ١٨٧٤ - ١٨٨٠) والمتحول إلى المسيحية فى ١٨١٧ . اشتغل بالأدب كوالده إيزاك ديزرائيلى) Isaac D'israeli ، ونشر فى العشرينات والثلاثينيات العديد من القصص القصيرة ، والتواريخ والكتابات السياسية . فى كتاباته هذه وكتابات أخرى فيما بعد كشف عن أحلام ورؤى تتعلق بعرقه و(الغموض الأسيوى) وهى أمور كانت غريبة على كل من طبقة رجال الأعمال والطبقة الحاكمة ، كما ظهر أيضًا إيمانه بقدرته على (تحريك الإمبراطوريات) . طور درزائيلى صورة مضادة للمنفعة ومضادة للإصلاح من التاريخ البريطانى منذ (حركة الإصلاح الدينى فى القرن السادس عشر) ، وجمع السياسات الداخلية للإصلاح الاجتماعى مع السياسات الخارجية المكرسة للتوسع فى الممتلكات الإمبريالية البريطانية .

- Lexicon Universal Encyclopedia - Vol. 6., 197 - 198

(٢٩٣) التجب = الحب قراءة ترجيحية ، فالكلمة التى بعدها هى التقرب .

أمة واحدة هى أمة البوير ، فكيف بها إذا استمرت على هذا فى مستقبل الأيام مع جميع الأمم والممالك الذين يكمنون الحقد ويتحفزون للأخذ بالثأر . إذا كان هذا بعض ما حل بها من أمة لاتتجاوز ثلثمائة ألف من البوير فكيف يكون حالها مع ثلثمائة مليون من العالمين . «أن النصر بيد الله يؤتيه من يشاء من عباده» .

واستأجر سيسل رود ذلك ذهابية[٢٩٤] يركبها مع أصحابه للنزهة فى النيل ، وترفع إلى الصعيد الأعلى على مهل ورتب له خيلا للبريد كانت تلاقيه على سواحل القرى والكفور التى لامراكز للبريد فيها . وظل أياما ثم قفل راجعا إلى القاهرة . فكبر تشاؤم الناس من رجوعه وتحدثوا فى أمره كثيرا . وعنده[٢٩٥] أنه يحق لهم التشاؤم . فإن الرجل من المتهوسين الذين لا يهدأ لهم بال ولا يسكن لهم بلبال إلا إذا أتمت[٢٩٦] أحلامه وربط طرفى (الكاب) (ومدينة الإسكندرية) بخط سكة حديد أى جعل ما بين هذين الطرفين وما حولهما ملكا حلالا للإنجليز وإمبراطورية لسلطنتهم ، وكم ما سعى لإلفات نظر الرأى العام الإنجليزى لذلك واستمال الأحزاب بالرشاء والبرطيل لمذهبه حتى لقد كان إذا رأى من حزب الأحرار فى دار ندوتهم نفورا أو حسابا لما سيكون من وراء هذا العمل الخطير استعان عليهم بالمأرب[٢٩٧] وإهداء التحف والإعلاق الثمينة . والرجل ذو مال كثير جدا وثروة طائلة لازوجة له ولا ولد ، وكان ينفق بغير حساب وأنشأ له مدينة صغيرة سماها روديسيا وابنى[٢٩٨] على رابية تقرب من تلك المدينة قبرا من المرمر وحجر الجرانيت ، وأوصى بدفنه هناك . يقال وكان لاحديث له فى غالب أوقاته إلا طلب الوصول إلى هذه الأمنية وبلوغه هذه الغاية قبل موته . وكان إذا رأى فى بعض صحفهم طعنا عليه أو تسفيها لرأيه بادر إلى استرضاء أصحابها وعمل على استمالتهم إلى مذهبه وأكثر من المأرب[٢٩٩] لكبارهم ، وهو مع ذلك قوى الشكيمة ثابت العزيمة لا تروعه الشدايد ولا تسنيه[٣٠٠] عن عزمه المكايد . وسبحان من أودع فى كل قلب ما أشغله .

(٢٩٤) ذهابية = ذهبية ـ مركب نيلية للإبحار والسكن House boat .
(٢٩٥) وعنده = وعندى قراءة تصحيحية .
(٢٩٦) اتمت = أتم قراءة تصحيحية .
(٢٩٧) بالمأرب = بالمأدب قراءة تصحيحية .
(٢٩٨) وأبنى = وبنى قراءة تصحيحية .
(٢٩٩) المأرب = المأدب قراءة اجتهادية .
(٣٠٠) تسنيه = تثنيه قراءة تصحيحية .

ولبث الرحل مع (جامبزون) أياما أخرى ثم رحل إلى دياره ومن ذا يعرف ما أضمره للبلاد من خير أو شر .

وما كاد ينصرف عن الأزهان[٣٠١] حديث مجيء (سسل رودس) ورفيقه (جامبزون) حتى أقفلت أكثر حوانيت الخياطين لاعتصاب الصناع وطلبهم زيادة أجورهم وتقلل[٣٠٢] ساعات عملهم . وقام طبيب فرنجى اسمه (باستيس) عميدا لعصابتهم ، فكان يشجعهم على عملهم ويدافع عن حقوقهم ويكلم أصحاب الحل والعقد فى ما فيه مصلحتهم ، فكبرت لذلك الفتنة وطالت أيام الاعتصاب وصمموا على مداومته حتى يجابون إلى ما يريدون من زيادة الأجور . واجتمعوا ليلة الأحد رابع عشرى نوفمبر من السنة فى قهوة يقال لها (ألف ليلة وليلة) فبلغ عددهم زهاء سبعمائة وخمسين أو يزيد ، وانضم اليهم أعضاء جمعية لفافى السجاير الذين قد كانوا اعتصبوا ولكن اعتصابهم لم يمض عليه إلا ساعات قلايل ولم يشعر به إلا القليل ووعدوهم أن يمدوهم بالمال حتى لا ينفشلوا بسبب الجوع . ثم اجتمعوا فى يوم الاثنين خامس عشريه أيضًا وألفوا لجنة لمساعدة الذين لا تمكنهم حالتهم من الصشب[٣٠٣] على الإعتصاب لضيق ذات اليد ، ثم قرروا زيادة الأجرة التى يطلبونها ، وجعلوا الصناع ثلاث درجات وعينوا الزيادة للدرجة الأولى والثانية والثالثة ، وعملوا بذلك محضرا مطبوعا وأرسلوا به إلى أصحاب الحوانيت ليوقعوا عليه وأخذوا منذ يوم الأحد يطوفون فى المدينة ويمنعون من لم يعتصب من الخياطين من العمل ليكرهون[٣٠٤] أصحاب المخازن على إجابة طلبهم .

وحدث فى الساعة الحادية عشرة من صباح الثلاثاء سادس عشريه أن المعتصبين أرسلوا ثلاثة منهم إلى حانوت (الأوسطى نعيم) فى بولاق القاهرة لإقناع بعض العمال بوجوب الإضراب عن العمل ، فقابلهم أصحاب الشرطة وكان محافظ المدينة قد بثهم فى انحاء (بولاق) والموسكى) (وخطة سيدنا الحسين) (والازبكية) يمنعون من تجمهر العامة وتحكك الزعانف بالمارة فى الشوارع التى كثر فيها المعتصبون ، فقبضوا على

(٣٠١) الأزهان = الأذهان قراءة تصحيحية .
(٣٠٢) تقلل = تقليل قراءة تصحيحية .
(٣٠٣) الصشب = الصبر قراءة ترجيحية .
(٣٠٤) ليكرهون = ليكرهوا قراءة ترجيحية .

أولئك الثلاثة فانتشر الخبر بين رفقاهم فترامحوا إلى بولاق وهم فى ضجيج وصياح ، وبعضهم يحمل العصى والمساوق . فوقف أصحاب الشرطة فى طريقهم وجعل يقبض على كل واصل منهم حتى بلغ عدد المقبوض عليهم أربعين أطلق سراح أربعة منهم لأنهم أجانب وأبقى الستة والثلاثون فى الحبوس . وكان لما وصل جماعة منهم إلى طريق بولاق تحكك العامة ببعضهم فوقع بينهم الضرب واللكم وعلت الأصوات بين الفريقين وكثر السب والشتم فلم يلتفت أصحاب الشرطة لذلك ولم يهتموا إلا بالقبض على المعتصبين .

واجتمع أكثر من ثمانين إنسانا من أصحاب مخازن الخياطة فى محل (كولاكوت) الخياط الإنجليزى وتناجوا فى أمر الأجور والزيادة التى يطلبها المعتصبون وفى تأليف جمعية منهم لصيانة مصالحهم فى مستقبل الأيام ، فقر رأيهم بدائيا على تشكيل الجمعية ووافق بعضهم على الفيات[٣٠٥] الجديدة للأجور وامتنع بعضهم عن قبول أى طلب من طلبات المعتصبين . وكان مما طلبه القوم المعتصبون بحروفه (لا يجوز للصنايعى أن يفصل أى حتة كانت أو يفصل مودلو[٣٠٦] ، وإن كان الأوسطى يلزمه بتفصيل أى حتة كانت أو بتفصيل مودلو فيلزم الأوسطى وقتئذ أن يعطى أربعة قروش صاغ على تفصيل الحتة ا . هـ .

وظلوا على هذا الهرج متواصل[٣٠٧] والمشاغبة بين المعتصبين من أولئك الخياطين والغير المعتصبين متتابعة ، وأصحاب الشرطة على أتم ما يكون من الرهبة[٣٠٨] حتى وقع الاتفاق بين المعتصبين وأصحاب المخازن ، وزال الخلاف فيما كانوا فيه يختلفون ، وعاد

---

(٣٠٥) الفيات = الفئات قراءة تصحيحية .

(٣٠٦) مودلو = الموديل بالإيطالية Modello ـ وهى من اللاتينية modulus

- Webster's New Universal Unabridged Dictionary- 2nd, ed.- Dorset & Baber- USA- P., 1154.

- Maxim Newmark (Dictionary of Foreign Words and Phrases - philosophical Libaray - New York, 1986 - p., 145

(٣٠٧) متواصل = المتواصل قراءة اجتهادية .

(٣٠٨) الرهبة = الأهبة قراءة ترجيحية .

الكل إلى عملهم فهدأت الخواطر وزال الخوف(٣٠٩) .

وكان لما عاد الأمير من مصيفه إلى القاهرة شاع الخبر بعزمه على السفر إلى السودان بعد تحرير ذلك العهد بين حكومته وصاحب سياسة الإنجليز على اقتسام السودان مناصفة وجعلها مشتركة بين السلطتين كما تقدم بك بيانه وذلك فى محله ، فكان السفر إلى تلك الأصقاع من لوازم الحال ليرى أهل السودان أن شريك الإنجليز فى حكم بلادهم هو الأمير القادم اليهم . فلما كان(٣١٠) الساعة السادسة والثلاثين دقيقة من اليوم الثامن والعشرين من نوفمبر من السنة سادس عشر شعبان عام تسعة عشر ومايتين وألف وتاسع عشر هاتور سنة ثمان عشرة وستمائة وألف تحرك ركابه من محطة القاهرة ، وكان فى وداعه الغازى مختار باشا المندوب السلطانى والوزراء والأمراء والوجهاء وأصحاب المناصب على أخلافها(٣١١) . فأطلقت المدافع وصدحت الموسيقى العسكرية وأديت الرسوم المعتادة ، وقد زينت جميع المحطات وأقيمت الحراس على طول الخط على طرف كل مائتى متر وأوقف أصحاب الشرطة على طرف كل خمسمائة متر ، فوصل أصوان فى الرابعة بعد الظهر ، وكان فى ركابه سائر حاشيته وبطانته وأمامه الشيخ محمد

---

(٣٠٩) نتيجة للتوسع العمرانى وبناء المشروعات الحديثة فى البلاد ، كشق قناة السويس وبناء خزان أسوان فى أواخر القرن التاسع عشر ، تدفقت أعداد كبيرة من العمال الإيطاليين وغيرهم من الجنسيات الأوروبية إلى مصر لتوافر فرص العمل الفنى فيها . كان هؤلاء متأثرين بالأيديولوجيات الاشتراكية المتطرفة وبالمذاهب الفوضوية . وقد انتشرت أفكارهم فى محيط المناطق التى يعملون بها ثم امتدت إلى باقى مناطق مصر ، فبدأت تنتشر حالات (الاعتصاب) بين هؤلاء العمال ، من ذلك ما وقع فى عام ١٨٩٤ بين عمال الكراكات فى شركة قناة السويس البحرية ، واعتصاب العمال الأجانب فى أسوان بغرض نيل امتيازات من الشركة صاحبة امتياز بناء الخزان . وما لبثت الظاهرة أن انتشرت فى باقى أنحاء البلاد ، فأضرب لفافى السجاير فى عام ١٩٠٠ وتبعهم عمال المركبات وعمال توزيع التلغراف وعمال محطات السكك الحديدية والترام وهم فى غالبيتهم من المصريين الذين تأثروا بالوعى العمالى الأجنبى المتضمن الأيديولوجيات الاشتراكية .

- عبدالوهاب بكر (أضواء على النشاط الشيوعى فى مصر ١٩٢٠ – ١٩٥١) - دار المعارف ١٩٨٣ - ص ٤٧ وما بعدها .

- عبدالوهاب بكر (البوليس المصرى ١٨٠٥ – ١٩٢٢) - رسالة ماجستير غير منشورة - كلية الآداب جامعة عين شمس - ١٩٧٧ – ص ٤٥٥ – ٤٥٧ .

- Joel Beinin & Zakhary Lockman (Workers on the Nile- Nationalism, Communism, Islam and the Egyptian working class, 1882 - 1914) Princeton Uiversity Press- Princeton- New Jersey- 1987 - passim

(٣١٠) كان = كانت قراءة تصحيحية .

(٣١١) أخلافها = اختلافها قراءة ترجيحية .

راشد والمؤذنين وطبيبه الخصوصى ، وصحب قطاره من عمال ومهندسى السكة الحديد . فلما بلغ الأقصر أعدوا له قطارا آخر ضيقا حيث الخط هناك ضيقا ، فبلغ اصوان فى الرابعة بعد ظهر اليوم الثانى ، وقام إلى الشلال ثم إلى بربر فحلفا فالخرطوم . وكان لما تم العزم على قيامه إلى الخرطوم اهتمت الحكومة بتزيين قصر الإمارة بها فزينوه بالفرش والبسط والشراشف والطنافس والأسرة والنجف والكراسى والأوانى النفيسة من الصينى والبلور ما قيمته سبعة آلاف ذهبا . وتأهبت الخزينة للنفقة ووزارة الحرب لعمل الزينات والمحرقات النارية وعرض الجيوش وغير ذلك من وسائل الحفاوة والتكريم . ولما بلغ بربر استقبله كبار مقدمى الجند وأهل الوظائف ونزل لساحة الاستقبال وفتش الأورطة الخامسة عشرة السودانية ثم مر على صفوف مشايخ القبائل السودانية وهم بملابسهم الحمراء والخضراء فحياهم ، وأطلقت المدافع فعلت أصوات القوم بالتهليل ، وقد أعدوا له فى وسط الساحة كشكا ووراءه جمع من العساكر على ظهور الهجن والجياد تخفق فوق رؤوسهم الأعلام والرايات ، ثم ركب الأمير جوادا وركبت بطانته وحاشيته وساروا خلفه فمر فى شوارع البلد ثم قابل المهنئين فى سراى المديرية . وباتوا ليلتهم وأصبحوا وقد تأهبوا للقيام إلى الخرطوم ، فركب الأمير باخرة فاجتاز النيل إلى الخرطوم فوصلها فى الثامنة ونصف ، وكان فى انتظاره أمام قصر الإمارة بعا[٣١٢] مقدمى الجند وكبار العساكر وأهل المناصب وأصحاب الخطط وفرقة من الجنود السودانية وطائفة من العساكر الإنجليزية وأطلقت عند وصول باخرته المدافع من كل صوب ، فمر الأمير بين صفوف الجند ثم صافح الضباط ودخل القصر ، فتناول طعام الصباح . وقاموا إلى الخرطوم فوصولها[٣١٣] فى رابع ديسمبر من السنة ، ونزل الأمير بقصر الإمارة فتناول الغذاء وركب الساعة الثانية بعد ظهر ذلك اليوم إلى ميدان كررى شمال أم درمان فوصلها الساعة الثالثة ، فركب برا فى موكبه إلى الميدان حيث وقف على مرتفع من جبل ضرغام يشاهد الوقعة التى وقعت فى شماله ممثلة برايات تحملها الفرسان ، ووراء الزريبة فريق المصريين وفريق الإنجليز ، وبفرقة من الأهالى ركبانا تمثل جيوش المهدوية وعلى رأسها الأمير إبراهيم برايات بيضاء ، وبقيادة الأمير يعقوب برايات سوداء ، وبقيادة شيخ الدين

(٣١٢) بعا = بعض قراءة اجتهادية .
(٣١٣) فوصولها = فوصلوها قراءة ترجيحية .

برايات خضراء . وجعلوا جيوش المهدوية فى نقط متفرقة شمال ذلك الجبل وغربيه . ولما تم وقوف المحاربين على هذا الترتيب هاجم الأمير إبراهيم الجنود المصرية والجنود الإنجليزية عند الشاطئ وراء الزريبة ، فصدوه ففر بجيوشه وانضم إلى (عثمان دقنه) فى كمين غربى ذلك الجبل . فخرجت عند ذلك الجنود المصرية من الزريبة مجتمعة فأتت لنجدتها العساكر الإنجليزية يسار الجبل ، وصعد لواء أحد مقدمى الإنجليز فوقه وسار لواء آخر إنجليزى على يمينه . فتقدم الأمير يعقوب فى لمومهم يهاجم العساكر الإنجليزية فصدوه وقد ترامت عليه النيران من الجبل على أشد ما يكون . فتساند الدراويش واشتدوا فى هجومهم على العساكر المصرية وانفعوا[٣١٤] اندفاع السيل العرم حتى صاروا على قيد ثلثمائة ياردة . وما هى إلا ساعة أو بعضها حتى انهزموا وسقطت ورائهم راية الخليفة السوداء واستولى عليها الجيش . ثم زحف شيخ الدين فى لمومه أيضًا مهاجما جناح العساكر الإنجليزية الأيمن فصدوه وأصلوه نارا حامية حتى تقهقر . فتقدم الجيش نحو أم درمان وتقدمت الفرسان الإنجليز وهجموا على الخور ، وكان عثمان دقنه قد كمن هناك مع لمومه ومن انضم إليه من الفارين فأجلوهم عن مكمنهم وشتتوا جمعهم وانتهت تلك الوقعة على هذا التمثيل الذى يقولون أنه مطابق تمام المطابقة على الوقعة الحقيقية .

وأصبح الأمير وقد ركب جواده وحوله حاشيته ورجال ديوانه وكبار الجند ، فشق من وسط المدينة وزار منازل الجند من الانجليز والمصريين مارا بالجامع الكبير ، وزار (كلية غوردون) وعاد إلى ميدان الحكمدارية حيث شاهد العاب (الشلوك) والدنكة برقص حروبهم عند القتال ، وقابله ملكهم فسلم عليه وقال له بالعربية (محسوبك يا أفندى ربنا يخليك) . وبعد ذلك عاد إلى القصر فأقبل عليه المهنئون ، وعملوا تشريفة كبرى ، فقام السردار وتلا بالإنجليزية خطابا موجها إلى مقام الأمير وتعريبه (مولاى نحن سردار الجيش المصرى وحاكم السودان العام وضباط وصف وعساكر جيش سموكم المعظم مع الموظفين العسكريين والملكيين والعلماء والعمد والمشايخ والأعيان فى السودان وعموم سكان السودان نرى بأن نقدم مع شعائر الولاء والإخلاص هذا الخطاب ـ خطاب

(٣١٤) وانفعوا = واندفعوا قراءة ترجيحية .

الترحاب بتشريف سموكم للمرة الأولى لبلاد السودان ـ لقد نلنا أعظم الشرف بأن سموكم تجشمتم هذا السفر الطويل الشاق من مصر لقضاء بضعة أيام فى الخرطوم عاصمة السودان التى خربها الأشقياء الذين شقوا عصا الطاعة على حكومة سموكم بعد أن كانت عامرة زاهرة وهى الآن تتدرج فى الحضارة والعمران على مبادئ نؤمل أن ترقى بها رويدا حتى تصير عاصمة فاخرة ومركزا مهما لتجارة السودان . وقد مضى الآن ثلاث سنين على انتشالها من يد ذلك الطاغى عبدالله التعايشى ببسالة جيش سموكم وجنود المملكة البريطانية العظمى ـ أما وجود سموكم بيننا فقد ملأ قلوبنا مسرة وابتهاجا . فبالأصالة عن نفسى وبالنيابة عن جميع الحاضرين هذا اليوم والغائبين عنا فى جهات السودان البعيدة الذين تمنعهم واجباتهم الهامة عن الحضور لتقديم واجب الترحيب والتعظيم لسموكم نتمنى لسموكم حياة مديدة مقرونة بالسعادة والفخار ونسأل الله تعالى أن يبث فى انحاء سموكم طولا وعرضا روح الفلاح والسلام فليعش أفندينا) .

فرد عليه الأمير بهذا الجواب (يا سعادة السردار وحاكم السودان العام وياحضرات الضباط والعساكر والموظفين وعلماء ومشائخ وأعيان وأهالى السودان . إنى أشكركم على الخطاب الذى حييتمونى به ، وإنى أؤكد لكم بأنى أعد من أعظم المسرات لى رؤيتى اياكم فى هذه البلاد الشاسعة التى قربتنا منها السكة الحديدية العجيبة التى ملأتنى ارتياحا وابتهاجا . الآن وقد رأيت هذه البلاد وعرفت الصعوبات والمشقات التى لاقاها من كانت لهم يد فى الحملات التى كانت نتيجتها محو سلطة عبدالله التعايشى وإعادة العدل والراحة والسكون فى جميع أنحاء السودان . العلمان الإنجليزى والمصرى اللذان يخفقان بجانب بعضهما هما إشارة إلى الحكومة المشتركة التى أخذت على عاتقها حماية الأهالى من الوقوع فى شرك أهل الظلم والفساد وابتداء عصر هناء وسعادة فى هذه الديار .

ولقد سرنى أيضًا ما أشاهده من تقدم مدينة الخرطوم فى العمران واعتقدوا أنى سأحفظ لكم أحسن ذكرى لاحتفائكم بى فى هذه الزيارة الأولى ، وإنى ليشملنى السرور كلما سمعت بتحسين أحوالكم وتقدمكم فى الرفاهية التى أرى شواهدها بدت فى كل الأرجاء . هذا وإنى أنعم الآن بكل ارتياح ببعض النيشانات على بعض كبار علماء الدين ، وسأنعم بها فيما بعد على الضباط والموظفين والأهالى الذين يعرض عنهم لى

سعادة السردار والحاكم العام بناء على التقارير السنوية التى ترد له من المديريات ، ثم أكرر لكم تشكرى على احتفائكم بى احتفاء صادرا عن حسن نية وخلوص طويه) ا . هـ .

وبعد أن أتم الأمير جوابه هتف الحاضرون بالدعاء له ثلاثا ثم أنعن[٣١٥] بالنيشان المجيدى الثالث على السيد على المرغيتى[٣١٦] شيخ طريقة المرغينية[٣١٧] ، والأستاذ الشريف باشا نور الدائم الذى كان استاذ المهدى قبل ادعائه المهدوية ، والشيخ محمد البدوى رئيس مجلس العلماء ، وبالرابع على السيد محمد الميكحد شيخ طريقة بكردفان ، وركب باخرة صغيرة فسارت به فى النيل الأزرق صعدا وهبوطا ، وزار النادى الذى أنشأه جماعة الضباط المصريين قيل فأعجبه وسر به ، وقال مخاطبا السردار أنى مرتاح لإنشاء هذا النادى الذى يدعو إلى الألفة والاتحاد وارتباط قلوب الضباط بسلامة البلاد ، وأثنى وبالغ فى شكرهم . وأصبح وقد ركب في موكبه إلى أم درمان فجال فى شوارعها حتى وقف أمام دار الخليفة عبدالله التعايشى ، ثم دخلها ووقف برهة فى المكان الذى كان يجلس فيه الخليفة للحكم مع مقدمى عكسره[٣١٨] وقواده ، وكان قد جلس فى المكان أناس يمثلون الخليفة وقواده . ثم دخل إلى بيت الحرم فتناول فيه الغذاء مع الحاشية وقفل راجعا بعد ذلك إلى الخرطوم ، وكان الزحام شديدا والمحتشدين كثيرين جدا . فلما كان مساء اليوم أقاموا الأفراح وأطلقوا الحراقات النارية .

ولما كان سابع ديسمبر من السنة أى إحدى وتسعمائة وألف قام ركب الأمير فى الساعة السابعة صباحا من الخرطوم ومعه حاشيته وبطانته ورجال ديوانه يريد حلفا ومعه السردار وحاكم السودان العام . فبلغ حلفا فى اليوم الثامن وقام منها إلى أصوان على الباخرة (ابيس) من التوفيقية إلى الشلال فوصلها فى نحو الثالثة بعد الظهر . وتأهب الرئيس وجماعة الوزراء والأمراء وأهل المناصب ومقدمى الجنود لاستقباله فى محطة السكة الحديد بالقاهرة . وجاء الخبر من السردار إلى نائب الغيبة بأخذ الأهبة لذلك . وبات الأمير وحاشيته فى ليلة وصوله فى الوابور (ابيس) وأصبحوا وقد قاموا إلى الأقصر

---

(٣١٥) انعن = أنعم .

(٣١٦) المرغيتى = الميرغنى قراءة تصحيحية .

(٣١٧) المرغينية = الميرغنية قراءة تصحيحية .

(٣١٨) عكسره = عسكره قراءة تصحيحية .

فبات فيها . وأصبح وقد قام فى قطار السكة الحديد إلى القاهرة ، وقفل السردار راجعا إلى الخرطوم . فلما كان حادى عشر ديسمبر فى الساعة التاسعة وخمسة وأربعين دقيقة وصل القطار الذى يقله إلى محطة القاهرة وكانت بانتظاره الأمراء من البيت العلوى والوزراء والكبراء وأهل المناصب والعلماء والمشائخ ومقدمى الجند . وكان مائة جندى مصطفين علي المحطة . فصدحت الموسيقى بنشيد الإمارة وأطلقت المدافع من ضفة ترعة الإسماعيلية . ونزل الأمير من القطار فصافح جميع الأمراء والوزراء ولاطفهم لحظة ثم ركب القطار إلى قصر القبة ، ولبث إلى المساء ثم انحدر إلى قصر عابدين لتشريف حلول شهر رمضان عام تسعة عشر وثلثمائة وألف .

أقول وقد كان الناس يظنون أنه إذا بلغ الأمير الخرطوم ورأى من أفراح أهلها وسرور أبناءه الضباط بمقدمه يذكر أولئك الضباط المصريين الذين اتهموا بالعصاوة وشق عصا الطاعة على جماعة الإنجليز وحكم عليهم يومئذ بالسجن على ما مر بك بيانه فى حينه ، فخاب ظنهم وضاعت آمالهم ، فإنه لم يذكر أولئك المنكوبين بكلمة ولم يصل إليهم عطفه . يقال كانت عيالهم على عزم رفع ظلامتهم إلى الأمير فلم يمكنوهم من ذلك ، وتحدث الناس فيما أصاب أولئك الضباط من الحيف والقهر وما هم عليه من مضض الحبوس ونكد العيش . وهم جماعة من ازناب[٣١٩] الحزب الوطنى برفع عريضة إلى الأمير يسألونه العفو والرحمة بأولئك القوم ، ثم عادوا فعدلوا عن ذلك لغير سبب ظاهر . حدثنى رئيس فى وزارة الحرب قال (قال الأمير فى خطابه الذى ألقاه على أهل السودان فى ذلك الجمع المحتشد أنه يسره جدا أن يرى أن سلطة المهدوية قد محيت ودولتهم زالت وقد عاد العدل واستتبت الراحة ، وأن البلاد السودانية ذاتها قد عرفت ذلك ، فإذا كان هذا ما يراه فهلا كان من وراء ذلك أن يعفو عن أولئك الضباط المحكوم عليه باسمه لأنهم كما يقول جماعة الإنجليز قد تمردوا ، فإن فى ذلك رضاء الأمة وجبر لكسر قلبها . وقد كانت العيون شاخصة إلى رحلته هذه ، فنرجو من ورائها كل خير ونفع) قال إن الإنعام بالنياشين التى أنعم بها نعمة تسر المنعم عليه ولكن العفو عن السجين وإطلاق سراحه نعمة تفرج كربته وترفع ظلامته إن كان مظلوما . على أن المنعم عليهم بتلك

---

(٣١٩) أزناب = أذناب قراءة تصحيحية .

النياشين لا يضرهم لو ظلت صدورهم غير مزينة بنياشين ، ولكن المسجونين ثقلتهم ظلمات الحبوس وأغلال السجون وروع عيالهم نكد العيش وقد كانوا يتوقعون العفو عن آبائهم فى تلك الرفصة[٣٢٠] التى هى خير للعفو وتقريب القلوب من عرش الإمارة) . قال (وعندى أن هؤلاء الضباط ما تمردوا ولا ثاروا ولكنهم أنفوا أن يظهر جماعة الإنجليز عدم الثقة بهم حتى جردوهم من سلاحهم وأزكوا عليهم العيون الشريرة حتى ألقوهم فى الحبوس) . قال (ولعل السياسة قضت بأن لا يعفو الأمير عن ابنائه إلا إذا عفى السردار ورضخ الكل لإشارته) ا . هـ .

أقول وكان لما نزل الأمير بالخرطوم أقبل السودانيين من كل فج عميق لرؤيته ، فلم يمنعهم من ذلك ، قيل وكان يبش فى وجوههم . فسروا بذلك سورا[٣٢١] عظيما وأكبر[٣٢٢] أمر رؤيته جدا وقد كانوا لايرون وجه التعايشى ، بل لايقدرون على الاقتراب من مقره . وكانت أعظم الحفلات التى أقيمت ترحيبا به حفلة رقص (الشلوك والدنكا) . فقد أقاموها أمام سراى الحكومة فى قطعة من الأرض تبلغ ثمانية آلاف مترا . وقد أتوا بمائة وخمسين رجلا من قبيلتى (الشلوك والدنكا) من مقاطعة فشودة لعمل هذه الحفلة ، وكان مع أولئك القوم ملك الملوك واسمه (كور وادندوك) . وهذا الملك تزيد مساحة مملكته عند النيل الأبيض على مساحة مملكة الفرنسيس . وعليه[٣٢٣] ملوك الشكوك[٣٢٤] يسبق تاريخهم عهد محمد على الكبير بزمان طويل ، (وكور واد ندوك) هذا خامس ملوكهم ، وقد ماتوا كلهم قتلاء ، فأحدهم (كوات خير واد كوانت) قتله مدير فشوده على عهد الخديوى إسماعيل ، وقتول[٣٢٥] (اغان واد ندوك) فى عهد الخديوى توفيق لقتله هو (يوسف بك كراده) مدير فشودة وقتل (كوى كؤ واد كوار خير) فى حرب المهدى مع العساكر المصرية ، وذبح الدراويش الملك (بور واد اكوتش) منذ سنوات قلايل .

---

(٣٢٠) الرفصة = الفرصة قراءة تصحيحية .
(٣٢١) سورا = سرورا قراءة تصحيحية .
(٣٢٢) وأكبر = وأكبروا قراءة ترجيحية .
(٣٢٣) وعليه = استبدلت الكلمة بحرف (و) لتسهيل المعنى .
(٣٢٤) الشكوك = الشلوك قراءة تصحيحية .
(٣٢٥) وقتول = وقُتِلَ قراءة ترجيحية .

وبعد ذبح الدراويش (لبور واد اكوتش) ذلك ولوا مكانه (كور واد ندوك) هذا ، فلم تكن علاقته مع الخليفة عبدالله حسنة . ففر من وجهه ، وظل مختفيا حتى زالت دولة المهدوية وقتل الخليفة . أخبرنى من كان فى تلك الحفلة من حاشية الأمير قال (دخل الرجل يعنى ذلك الملك ساحة المرقص لابسا ثوبا طويلا محلى بالذهب وعلى رأسه طربوش . ولما دخل رجاله الساحة تقدم هو وعلى جانبيه اثنان من أركان حربه يبلغ طول الواحد منهما سبعة أقدام إلى جهة السرادق الذى كان جالسا فيه الأمير ، فقام (سلاطين باشا) وقدمه للأمير وكان هو الترجمان بين الملك والأمير ، ثم تقدم رجال (الشلوك والدنكا) إلى سرادق الأمير وأظهروا له الطاعة والتعظيم كما يفعلون مع ملوكهم ، وكانوا كلهم طوال القامة جبابرة أشداء متمنطقين بجلود الفهود ومتسلحين بالرماح والتروس ومزينين رؤوسهم بريش النعام . وبعد أن أدوا واجب التعظيم للأمير نزعوا عنهم سلاحهم وانقسموا إلى فرقتين وجعلوا يرقصون رقصهم المشهور) . قال مخبرى فكان المنظر بهيجا للغاية ، وقد سر الأمير كثيرا كما تقول حاشيته ا . هـ .

قلت وقد نقلت شركة البارى الفرنسية رواية هى أنه لما قام السردار يلقى على مسامع الأمير خطاب الترحيب بمقدمه إلى السودان لم يذكر كلمة عن حكم الإنجليز للسودان أيضًا تفاديا من الاسترسال فى القيل والقال بين صحف الأحزاب والصحف المصرية ، وأن سفر الأمير إلى السودان إنما كان بعد سعى جماعة الإنجليز المتواصل فى ديوان الوزارة وقصر الإمارة حينا حتى أجابهم الأمير إلى ذلك . قال وقد فعلوا ذلك قصدا لتسكين بال قبائل السودان التى هاجها أن تكون محكومة بالإنجليز لا تحت حكم أمير البلاد . فأعجب أصحاب الحزب الوطنى هذه الرواية على ما فيها من العلل والمغامز ، ومضوا يكتبون فى أمرها كثرا[٣٢٦] وكأنها جيوش الفرنسيس قد أتت على عجل لطرد أصحاب الاحتلال الإنجليزى من مشرق البلاد ومغربها فتأمل .

وكتب الأمير إلى السردار بعد أن استقر به المقام فى قصره بالقبة على جناح البرق ما نصه (سردار - فى أبى حمد - بوصولى لسراى القبة أول ما خطر بفكرى هو أن أجدد إظهار مزيد تشكراتى لسعادتكم ولكافة أركان حربكم وللضباط وصف ضباط وعساكر

(٣٢٦) كثرا = كثيرا .

الجيش والموظفين الملكية على اختلاف درجاتهم لأجل غيرتهم ونشاطهم اللذين بذلا لجعل زيارتى للسودان مسرة ومبهجة ، وأنى محظوظ ومرتاح جدا من كافة الأشغال والاستعدادات التى عملت أفرادا وإجمالا لاتمام زيارتى حسب المرغوب . وأننى أؤكد لكم أن أعمالهم صادفت أعظم نجاح . وقد عدت إلى مصر مبتهجا ومحظوظا وراضيا عن كل أمر عمل وأيضًا عن ميد[٣٢٧] شكرى إلى العلماء والأعيان والمشائخ والتجار وأهالى السودان لأجل إظهارهم الإخلاص والترحاب وابتهاجهم القلبى باستقبالى ، فكل هذا سيبقى مخلدا ذكرهم عندى) ا . هـ .

ولم يكن الإرجاف والهرج ليبطل بعد عودة الأمير من السودان ولم ينفك أولئك الصبية أزناب[٣٢٨] الحزب الوطنى وآلاته الصماء التى يحركونها طبق أغراضهم كلما بدت لهم بارقة . فما هو أن استقر بالأمير المقام فى قصره حتى علم أصحاب الشرطة بأن جماعة من أولئك الغلمان مجتمعون في دار المطبعة التجارية يشتغلون بطبع منشور يدعون أئمة الدين الإسلامى باسم الأمير إلى مبائعة[٣٢٩] الأمير بالخلافة الإسلامية وغير ذلك من الترهات التى ما أنزل الله بها من سلطان . فلما كان سادس عشرى ديسمبر ختام السنة سار صاحب الشرطة فى طائفة من رجاله ومعه بعض المأمورين إلى (وجه البركة) حيث توجد تلك المطبعة وأحاطوا بها من كل جانب ، ثم دخلوها وأمسكوا من بها من أولئك الشبان وأخذوا الحروف المرتبة والمعبرة[٣٣٠] للطبع مع ورقة المنشور . وساروا بالجمع إلى ديوان الشرطة . ومضوا فى التحقيق معهم ، فمنهم من اعترف ومنهم من أنكر . فقامت صيحة صحف الحزب الوطنى وأخذت رجال القضاء من كل جانب . وبرز الأمر من وزارة الحقانية بالتعجيل وترك التباطئ[٣٣١] . واهتم بأمر ذلك الغازى مختار باشا على عادته فى مثل هذه الأحوال ، فمضى فى طريقه بين ديوان الوزارة وقصر الإمارة ، قيل وجاءت إليه كتب المابين الهمايونى وكتب صدر[٣٣٢] الدولة فى معنى ذلك ، فتضاعف

---

(٣٢٧) ميد = مزيد قراءة اجتهادية

(٣٢٨) اذناب = أذناب قراءة تصحيحية .

(٣٢٩) مبائعة = مبايعة قراءة تصحيحية .

(٣٣٠) والمعبرة = والمعدة قراءة ترجيحية

(٣٣١) التباطئ = التباطؤ قراءة تصحيحية

(٣٣٢) صدر الدولة = أى الصدر الأعظم رئيس الوزراء .

سعيه وعظم اهتمامه وكثر كلامه مع الرئيس (مصطفى فهمى باشا) و(بطرس غالى باشا) وزير الخارجية حتى ظن الناس أن الرجل راحل عن القاهرة غاضبا وأن الباب العالى ساخطا لا محالة .

وعندى أنها ترهات وألاعيب صبية يريد بها أصحاب الحزب الوطنى ازعاج المابين وإقلاقه حتى يسترضى رئيس الحزب بمنحه الرتب والنياشين وبسط الرزق وذر الرماد فى أعين أصحاب الاحتلال الذين يريدون استفحال الجفاء بين الأمير ومتبوعه ، وقطع دابر كل صلة بينهما . ولو أهملوا شأن أولئك الغلمان لملوا مثل هذه المضحكات وانجسوا عنها ومن مثلها من تلقاء أنفسهم ، ولكن اهتمام أهل الحل والعقد بهذه الأفاعيل ينشط فاعليها ويكبر فى الفتنة ، وهذا غير محمود العاقبة كما يعرف العقلاء . على أنى علمت أن من قُبِضَ عليهم هم (حمدى بك يكن) وقد كانت ورقة المنشور فى يده ، وأحمد أفندى شكرى صاحب (جريدة الغازي) وثالثهم صاحب (جريدة جهينة) وهو الذى خط المنشور (ومحمود أفندى طاهر) شريكه فى ذلك وغيرهم من زعانف الحزب فى بولاق القاهرة وخط السيدة وعطوف البغالة . ومن غريب ما بلغت إليه جراءات[٣٣٣] أولئك الزعانف تحدثهم بنوايا رجال الحزب جهارا ، وبأنهم سيفعلون كذا ، ويقولون فى صحفهم غدا كيت وكيت . وكلها أمور تستوجب المؤاخذة والحذر . وفيما الحال على هذا إذ قدم إلى الاسكندرية من دار السلطنة ثلاثة من المخبرين السريين ومعهم اثنين من المصريين أحدهما اسمه (محمد رشاد) والثانى اسمه (محمد فاضل) ، وجاءوا بهما إلى محافظ المدينة وأخبروه بأن الإثنين من دعاة الحزب الوطنى وأنهما سافرا إلى دار السلطنة فرارا من أحكام صدرت عليهما من المحاكم المصرية . وما[٣٣٤] استقر بهما المقام هناك حتى أخذ[٣٣٥] بالعبث وطرق كل باب من أبواب التزوير باشتراك[٣٣٦] مع قوم من أصحاب الحزب الوطنى بالقاهرة . فأزكى صاحب (شرطة القسطنطينية) عليهما العيون ، وقعدوا لهما بالمراصد حتى استكشفوا سرهما وتحققوا من أمرهما ، وأنهما جاءا إلى دار السلطنة داعيان للحزب وعاملان على بث روحه الشريرة فى تخت الخلافة . فأبلغ محافظ المدينة

(٣٣٣) جراءات = جرأة قراءة تصحيحية .
(٣٣٤) وما = وما أن قراءة تقويمية .
(٣٣٥) أخذ = أخذا قراءة تصحيحية .
(٣٣٦) باشتراك - بالاشتراك قراءة تصحيحية .

خبر ذلك إلى وزارة الداخلية وسلم الرجلان إلى صاحب شرطة القاهرة . فجعلوا يستنطقونهما وهما ينكران . وقامت صيحة أصحاب صحف الحزب من كل جانب ، وسعى رئيس الحزب سعيه المعلوم لعله يحمل أهل الحل والعقد على إخلال[٣٣٧] سبيل المتهمان فلم يفلح ، حتى أفرج عنهما بعد حين بضمان مالى . وكتب (حمدى بك يكن) أحد من ضبط من أصحاب ذلك المنشور إلى بعض الصحف المحلية ينكر ما عزى إليه حمله ، وكذلك فعل (محمود طلعت) ويقول أنه مخلص العبودية إلى كرسى الخلافة . ومقر الإمارة ، وأن كل قول أو فعل أسند إليه إنما هو من أفاعيل الأعداء وخصوم الإنسانية ، وأكثر من هذا القول وأشباهه .

ومن غريب ما حدث فى هذه الأيام أن قام (متشل إنس) الإنجليزى وكيل وزارة الخزينة المصرية يؤلف لجنة قوامها هو (ودانلوب[٣٣٨]) كاتم أسرار وزارة المعارف (والكبتن ليونس) مدير المساحة الجيولوجية لتوحيد الأعلام فى الديار المصرية بلغة الفرنجة ، وجعل (متشل انس) هذا يطرى عملهم هذا ويعظمه فى أعين المصريين فضلا عن قومه الإنجليز ، ويقول أنه من ضروريات الحال . والرجل مختال فخور لايعرف من لغة البلاد أكثر مما يعرفه صبيان الكتاتيب ، وقد ابتلى بحب الربح الكثير والكسب من سائر أوجهه ، فكان لذلك غير محمود السيرة ولا نقى السريرة ، وكان قومه يعرفون ذلك عنه ولايجلونه حتى طلبه إليه صاحب سياستهم وأخرجه من منصبه هذا . فتركه مقهورا مغلوبا وخرج من مصر ولا صاحب له فيها إلا جماعة من الروم فى (الاسكندرية) . ومضت هاته اللجنة فى عملها أياما كثيرة ، وكان مما يضحك من أمرها أن أعضاءها الثلاثة لا يعرفون العربية . وظل أهل العرفان ينتظرون ما سيكون من عملهم ومعرفة القاعدة التى سيبنون عليها إرادتهم النافذة وأُصول لغتهم البعيدة عن لغة أهل البلاد حتى

---

(٣٣٧) اخلال = إخلاء .

(٣٣٨) دانلوب = هو دوجلاس دنلوب Douglas Dunlop (١٨٦١ - ١٩٣٧) وكيل وزارة المعارف العمومية المصرية والمستشار البريطانى فيها فى الربع الأول من القرن العشرين ، اسكتلندى جاء إلى مصر كمبشر ثم عين بواسطة (كرومر) لإدارة النظام المدرسى الحكومى فى مصر . اشتهر بسمعته السيئة بين المصريين لسياساته التعليمية البخيلة والصارمة . كان يكن احتقارا للقدرات الفكرية للشعب وكره وأثار نفور الوطنيين المصريين ، لكنه لم يفصل من الخدمة المصرية - مع هذا - إلا بعد العشرينيات من القرن العشرين - أرثر جولد شميت جونيور (قاموس تراجم مصر الحديثة) - ترجمة وتحقيق عبدالوهاب بكر - المجلس الأعلى للثقافة - المشروع القومى للترجمة - القاهرة - ٢٠٠٣ .

برح الخفاء وظهر للعيان شيء من أسلوب علمهم . ذلك أن إسن[٣٣٩] شريف يجب أن يكتب بلغة الفرنجة بكسر الشين ، وأن حلوان المدينة لاتكتب من الآن بحرف H التى قد تقابل حرف ح فى العربية بل تكتب أ الذى يقابل حرف (الألف) فى العربية وأمثال ذلك كثير . فلما تفشى خبر ذلك وتناقل بعضه أصحاب الصحف المحلية أخذت هؤلاء الجماعة صيحة أهل النقد من كل جانب ، ومضوا في نقدهم وتسفيه أحلامهم حتى قال بعضهم أن عمل هؤاء الفلاسفة ميزان جديد للتصريف أو التصرف بأهل البلاد وبكل ما فى بلادنا حتى أسمائنا ، فليرحم هؤلاء الثلاثة لغتنا وليسترشدوا بالعارفين منا فإن العمل عملا لغويا لا هو مالى ولا هو حربى ولا هو سياسى والله من وراء ما يعملون ا . هـ .

ولما كان سادس عشرى ديسمبر ختام السنة أرسلت وزارة الخزينة كتبها إلى سائر المديريات والمحافظات بأنه تقرر بتاتا إبطال عوائد الدخوليات التى تؤخذ على جميع أصناف المأكل والمشرب والملبس التي تدخل إلى المدن والبلدان من القرى وغيرها اعتبارا من أول السنة المقبلة . ورسمت إلى جميع المديرين والمحافظين بإعلان ذلك للناس فى دوائر مديرياتهم ومحافظاتهم ، ففعلوا . فكان الناس بين مصدقين ومكذبين لاسيما الباعة من أهل الريف . فقد كانوا لايتوقعون الخلاص من هذه المحنة السيئة التى رسخت منذ عهد دولة المماليك الثانية ، وكانت تتطور فى كل دور بطور مخصوص وتتكيف فى كل عهد بكيفية أنهكت قوى أهل الزرع وأصحاب الضرع وكادت تميت صناعة البلاد جملة . أقول كان إذا جاء القروى إلى القاهرة مبكرا ومعه شيء من اللبن أو الجبن أو الخضر أو البقل أو قفه جماعة المكاسين ووزنوا ما معه أو كالوه أو قاسوه وفرضوا عليه قدرا حسب قانونهم ، فلا يبرح دار المكس حتى ينقدهم ما طلبوه ، ولا يحمل بضاعته حتى يرضى القواص والمخبر وكل من له كلمة من أولئك القوم ، فيدخل المدينة وهو يرجو أن تربح بضاعته ولو بقدر ما دفعه من المكوس . ويظل يومه ذلك يجول الشوارع والحارات ويدخل العطوف مناديا ومبالغا فى جودة خضره أو حلاوة فاكهته مستعطفا المارة والشارين ، فإذا جبر الله خاطره وباع ما معه ولو بنصف الثمن عاد إلى أهله حامدا ، وإلا قضى ليلته تلك بما معه بعيدا عن أهله بجانب جدران البيوت وأصبح على شأنه من التطواف والنداء والحذلقة ، فإنه إن عاد بما معه كله أو بعضه ولم يبعه لزمه

(٣٣٩) إسن = إسم قراءة اجتهادية .

الغرم بدفع المكوس ثانية وربما ثالثة . وكان إذا مضى الرجل إلى بستان بضواحى المدينة للنزهة وأتى بشىء من فاكهة إلى أهله وولده لايتجاوز الرطل أو الرطلين أوقفه أصحاب تلك المكوس وسألوه واستنطقوه ووزنوا ما معه وسلمه القواص إلى المخبر ، وجره المخبر إلى معاون النقطة ، وأوقفه هذا موقف الذليل أمام الحاكم القدير فلا يبرح ذلك المقام الرهيب حتى يكون قد فرغ كيسه وذهب صبره . أقول واتفق أنى كنت يوما مارا بشارع (باب الحديد) وهناك مرصدا من مراصد تلك المكوس وقد وقف حوله جماعة الجواسيس وبأيديهم قضبان الحديد المدببة كالحراب يطعنون بها الأرحال والأحمال والأعدال ورزم الماره وأبناء السبيل ليكشفوا سر ما فيها ، والناس والباعة فى وسطهم وكأن على رؤوسهم الطير ، وعند باب المرصد شاب من أولاد الناس يحمل سلة صغيرة لطيفة وأحد أولئك المكاسين قابض عليه باليسار وعلى السلة باليمين . وسمعت الشاب يقول خفف عنى وعنك والله إن ما فيها من الزبدة لايتجاوز الرطلين وزنا فإن أنت أحسنت خذهما ولا تضيق أنفاسى واتركنى أمضى فى سبيلى . فقال له المكاس والله ما تركتك حتى يجىء الوزان فيزنها والكاتب فيقدر ما تستحقه من العوائد ، والصراف فيقبض القدر المطلوب ، والمأمور فسيرحمك ويتركك تمضى . فوقفت باهتا ألعن هذه المحنة وأصحابها والرجل يشدد فى الطلب ويهدد . فالتفت الشاب إلى عشرة من الكلاب يبصون بين الباعة وأصحاب الإيدام والخضر وناداهم كش كش كش فأقبلوا كلهم عليه وتكوفوا حوله ، فانتزع السلة بشدة من يد المكاس وألقى ما فيها من الزبدة للكلاب فالتهموها وقام بعضهم على بعض يتناهشون ويتعاركون ويتدافعون حتى صاروا بين الشاب وذلك المكاس الثقيل ، وحالوا بينهما فابتعد الشاب عن المكاس قليلا ولطمه علي وجهه لطمة أضاعت صوابه وصاح فى وجهه خذ الآن عوايدك من أفواه الكلاب يا ابن الكلاب . فجمد المكاس مكانه وتركه الشاب وانصرف . وكان أهل قرى (الجيزه) على عهد ولاية (خلف الله باشا) لديوان المكوس لعهد الخديوى إسماعيل يعملون فى تهريب السمن والعسل والجبن والزبدة وغير ذلك من المأكول والمشروب أعمالا غريبة فى بابها . فكانوا يضعون الزبدة والبيض مثلا فى تابوت كأنه ميت ويحملون التابوت مغطى بالشيلان الصوف أو بيارق أرباب الأشاير وأهل الطرق وأمامه المشيعون وهم فى ضجة وصياح بالصلاة على النبى والجهر بكلمة التوحيد ، والنساء من خلف التابوت

يبكين ويولو[٣٤٠] ويقولن المبكيات على عادتهم فى مثل هذه الأحوال . فإذا تجاوزوا المرصد تواروا فى إحدى العطوف وحملوا ما أتوا به إلى دكاكين القبانية فيبيعونه ويرجعون إلى أهلهم .

أخبرنى أحد مفتشى تلك المكوس قال مرت بنا جنازة بمرصد كوبرى قصر النيل وأنا جالس على بابه فلم أشك فى أنها جنازة شاب وحيد لأمه لأنى سمعت صياحا عاليا وبكاء مرا وصبية يقولون يا خويا يا سندى . فلما صارت الجنازة أمام باب المرصد رأيت أن الذين يحملون النعش من الأمام يريدون الإسراع فى خطاهم ، والذين يحملونه من خلف يتباطئون وكأنهم يظهرون عدم المبالاة . فكان النعش بين الفريقين فى جذب ودفع شديدين . يقول بعضهم لبعض وحدوه صلوا على النبى ولا تخافوا . فرابنى أمرهم ولكننى لم أشك فى أنهم يحملون ميتا . وما هم أن تجاوزا[٣٤١] باب المرصد حتى تكسر النعش من أسفله وسقط ما فيه ، فأسرعنا إليه فألقى المشيعون النعش ولازوا[٣٤٢] إلى الفرار ، ففتشنا ما فى النعش وإذا[٣٤٣] هوكالة[٣٤٤] كبيرة من الزبدة والجبن الطرى ، فنلقناها[٣٤٥] إلى حيث الميزان فإذا هى ثلاثة قناطير من الزبدة ونصف قنطار من الجبن . قال وأمثال ذلك كثيرا ا . هـ .

يقال كان (خلف الله باشا) رئيس ديوان المكوس إذا جاءه خبر تأهب بعض تجار السمن على تهريب شىء فى الليالى المظلمة غير ملبسه وتزيا بزى الحمالين وسار مع القوم إلى حيث الجرار فيقضى الساعتين أو الثلاثة فى نقل جرار السمن من مكان إلى مكان حتى إذا عرف عددها ومخبئها أرسل من أعوانه من يقبض على صاحبها ووكل آخرون بحراستها فلا يخلى سبيل الرجل حتى يغرمه المكوس مضاعفة . فكان السوقة لعهده يلعنونه ويبغضونه بغضا شديدا وإذا أراد أحدهم أن يسب خصمه يقول له الله يبليك بخلف الله وشياطينه .

---

(٣٤٠) ويولو ويقولن = ويولولن ويقلن قراءة تصحيحية .
(٣٤١) تجاوزا = تجاوزوا قراءة لغوية .
(٣٤٢) ولازوا إلى الفرار = ولاذوا بالفرار
(٣٤٣) وإذا = فإذا . قراءة لغوية .
(٣٤٤) كالة = ثقلا أو وزنا ـ من كَلَّ ـ وربما كان قصد الكاتب كَمية ضخمة ـ مختار الصحاح ـ مكتبة لبنان ـ بيروت ـ ١٩٨٧ ـ ص ٢٤٠ .
(٣٤٥) فنلقناها = فنقلناها قراءة تصحيحية .

عام ١٩٠٢

الشيخ محمد عبده وخصومه - اجتماعات مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية - حادثة المنشاوى باشا - حادثة المطبعة العثمانية - الحرائق فى الريف - بناء قناطر زفتى - النزاع بين الخديوى والدولة العثمانية حول جزيرة طاشيوز - ظهور مرض الكوليرا فى مصر - معارضو السلطان عبدالحميد فى مصر - سكة حديد الحجاز - الحمى الراجعة فى مصر - افتتاح دار الآثار المصرية - حادثة ليون فهمى - افتتاح خزان أسوان .

ثم دخلت سنة اثنين وتسعمائة وألف للميلاد

افتتحت السنة بيوم الأربعاء حادى عشرى رمضان عام تسعة عشر وثلثمائة وألف للهجرة وثالث عشرى كيهك عام ثمانية عشر وستمائة وألف للشهداء .

فصل

فى ذكر ما وقع فيها من الأحداث

كان أول ما جاءت أنباؤه إلى القاهرة من مدينة (أصوان) نزول الأمطار الشديدة بمدينة أصوان وما حولها وتحويلها إلى سيل جارف قطع خط السكة الحديد ما بين الأقصر وأصوان وجرف جسوره إلى أبعاد كثيرة . فانقطعت المواصلات وتعذرت تماما واهتم مهندسو السكة الحديد بأخذ الحيطة وإخبار المسافرين وأهل التجارة بأنهم لايقبلون تصدير البضاعة ولا نقل الركاب إلا لحد (الأقصر) فقط حتى يتم ترميم الخط وإرجاعه إلى ما كان عليه . وظل الحال على هذا أياما كثيرة حتى أصلحوا ما تخرب وأعادوا كل شىء إلى حالته الأولى ، فعادت المواصلات وارتاح الناس .

حدثنى صديق كان فى مدينة أصوان ليلة سقوط تلك الأمطار بها قال (كانت ليلة الجمعة الماضية من أشد الليالى خوفا ورعبا . ذلك أن[1] ما غربت شمس ذلك اليوم حتى لمعت البروق وقصفت الرعود وتدفقت السيول وبات الناس فى قلق وخوف عظيم حتى مطلع الفجر . وأصبحوا وقد اتلف السيل مزارع أهل (الرديسيه) وجرف غلاتهم وأجرانهم وألقى بها إلى النيل ، وأتلف زراعة ألفى فدان أو يزيد ، وقطعت الأمطار خط السكة الحديدية فى ثلاثة مواقع ، وهدمت الجسر الجديد الذى أنشىء حديثا ليكون مجرى السيول من تحته فلم يبق له من عين ولا أثر) قال (وكنا نسمع دوى تدفق مياه السيل تحت ذلك الكبرى[2] على بُعد خمسة أميال أو يزيد . وخرج الناس فى الصباح من مكامنهم سكارى وما هم بسكارى ، وجعلوا يفتشون على ما عساه أن يوجد من

(١) أن ما = أنه ما أن أضيفت (أن) ليستقيم المعنى .

(٢) الكبرى = الكوبرى قراءة تصحيحية .

أجرانهم أو غلاتهم أو زرعهم فلم يعثروا على شيء من ذلك البتة . فتكوفوا حول بيوتهم يبكون وينوحون والنساء يقرعن صدورهن مولولات) قال (فكان الخطب عظيما والمصاب إليما جدا) وبرز الأمر إلى أهل الحل والعقد بإحصاء ما دمره السيل من الغلال والزروعات ففعلوا .

ومن غرائب الحوادث أن امرأة وطنية من أواسط القوم كانت تحمل ربطة على ذراعها فمرت بغلام جايع فى الطريق ودنت منه وقالت أحمل هذه الربطة وقف هنا حتى بينما أعود إليكم واحتفظ بها وخذ هذا القرش أجرتك . فحمل الغلام الربطة وأخذ القرش راضيا ووقف ينتظر عودة المرأة . فلما طال انتظاره وأتعبه حمل تلك الربطة ادخل يده فيها ليلمس ما به ، فما هو أن أحس بما فيها حتى أخذته رجة(٣) الهلع وصاح صيحة الخوف ، فسمعه أحد أصحاب الشرطة فأتى مسرعا وسأله عما دهمه فقال حكايتى كيت وكيت ، وأحس بكتلة من اللحم البارد فى هذه الربطة . فأخذ الشرطى الغلام والربطة وسار به إلى القسم وفتحوا الربطة وإذ(٤) بها صبيا حديث الولادة مربوط السر(٥) وملفوف فى قطعة من الكتان الأبيض وفى عنقه ورقة مكتوب عليها هذه الكلمات . (جف القلم وقضى الأمر وطوبى للرحماء فإنهم يرحمون) ـ فأطلقوا سراح الغلام ونقلوا الصبى إلى بيت القاضى ، ومضوا فى البحث عن والدة ذلك المولود ليحاكموها . أقول ولا أدرى إن كان أهل الحل والعقد يعلمون أن ألوفا من الأطفال يقتلون فى كل عام على أشكال مختلفة لاهتموا ككل الحكومات الراقية وأنشأوا ملجأ(٦) لأولئك النساء التعيسات يلدن فيها وير بين أولادهن ، فلا تكون الأولاد بعد ذلك عالة على الهيئة الإجتماعية كما هو الحال لهذا العهد . ولماذا لا تقتدى حكومتنا بأهل الخير والبر من أصحاب الجمعيات الخيرية وبيوت الرحمة الذين انشؤا(٧) الدور لتربية اللقطاء من كل جنس والعناية بهم أطفالا وغلمانا وشبانا وشاباتا(٨) ، بل والذود عنهم شيوخا عند الحاجة ، وهم لايسألون جزاء ولا شكورا ، فإذا فعل أهل الحل والعقد منا ما يفعله أولئك الغرباء الرحماء فى ديارنا لخلدوا لهم ذكرا دائما وثناء طيبا أبد الدهر .

(٣) رجة = رجفة قراءة تصحيحية .
(٤) وإذ = فإذا قراءة تصحيحية .
(٥) السر = السرة قراءة ترجيحية .
(٦) ملجأ = ملاجئ قراءة اجتهادية .
(٧) انشؤا = أنشأوا قراءة تصحيحية .
(٨) وشاباتا = وشابات قراءة تصحيحية .

ولما كان عشرى يناير من السنة جاءت الأخبار إلى وزارة الحرب وديوان الوزارة بالقاهرة بما فعله (على بن دينار) مع قبيلة الحمر الضاربة على حدود بلاده وعجز حكومة السودان على أخذه عنفا وقهرا وعن إكراهه على الخضوع ، والرجل خطاف نهاب متغطرس محتال مشاغب وثاب . قالوا (وهو يزعم أن قبيلة الحمر من أتباعه الخاضعين لسلطانه ، وحكومة السودان تقول أن أرض أولئك القوم من أقطاع (مديرية فشودة) بحكم التقسيم القديم قبل قيام المهدوية وتفشى الفتنة فى السودان) . فلما خاطب (ابن دينار) أولئك القوم ودعاهم إلى طاعته رأى منهم إعراضا وتمسكا بأذيال حكومة السودان ، فأرسل عليهم قومه مشاة وركبانا ، فنكلوا بهم أيما تنكيل ، ولم يدعوا منهم أثرا ولا عينا ، وسلبوا نساءهم وأنعامهم واعتقلوا شيوخهم وكبارهم ، وطاردوهم فى الفلوات والقفار ، واقتفوا آثار من بقى فى كل مهمة[٩] وبادية . ولجأ شيخا ممن خلصوا[١٠] إلى (النهود) واستجار بعاملها من موظفى الحكومة ، فتبعه رجال ابن دينار إلى (النهود) ولكنهم لم يدركوه لأن عاملها كان قد أركبه جوادا وسيره مسرعا إلى (كوردفان) . فلما وصل القوم إلى (النهود) طلبوا طريدهم فأعلمهم العامل بأنه ليس عنده ، وأقسم لهم الأيمان المغلظة بأنه سار إلى (الكردفان) ، فانثنوا راجعين . قالوا ووصلت الأخبار إلى حكومة السودان بما حل بقبيلة الحمر ، فسيروا الكتب إلى ابن دينار يؤنبونه ويعاتبونه وينكرون فعلته . فأجاب أن رجاله هم الذين ارتكبوا هذا المنكر وأنه برىء منهم ومما يفعلون ، فأجابته حكومة السودان أنها لا تقتنع باعتذاره ولا تكتمه غيظا من أعماله . وبعد أخذ ورد بين الفريقين خلع ابن دينار وزيره المسمى (أبا الذهب) وهو رجل داهية قوى الشكيمة لجأ إليه بعد سقوط (الخرطوم) فاستوزره وعمل بمشورته وخلطه بنفسه . ولما خلعه سلمه إلى حكومة السودان كفارة عما حل بأولئك القوم . فجىء به إلى (الخرطوم) وألقوه فى السجن . ومنذ هذا الحين جعل أصحاب الحل والعقد يتحفزون للوثبة على ذلك الطاغية لسل عرشه وازلال[١١] سلطانه .

وأما حال (كردفان) لهذا العهد فإنها داعية إلى الخوف والقلق . ذلك أن شيخا ممن استصفتهم الحكومة وميزتهم بألقاب الشرف ونياشين الافتخار جعل يستدين الأموال من كل صوب ويصرفها فى الملاهى والترف والظهور الكاذب . فلما حل أجل الدين لاذ

---

(٩) مهمة = مفازة بعيدة ، وجمعها (مهامه) .
- مختار الصحاح - ص ٢٦٦ .
(١٠) خلصوا = أى نجوا
(١١) وازلال = وإذلال قراءة تصحيحية

بالفرار واعتصم بمعاقل الجبال ، وجمع حوله جماعة كثيرة من شذاذ الأفاق واللصوص وقطاع الطرق ، وجعل يعيث ويفسد ويكثر من النهب والقتل وسبى النساء والأطفال . فسير السردار كتيبة لمطاردته من أصحاب الهجن[١٢] ، فمضت تطارده فى كل فج وصوب ولكنه كان فى معاقله أحرز من عقاب . فلما رأى أصحاب الهجن أن لا قبل لهم على إمساكه اثنوا[١٣] عنه وقد أنهكهم التعب وأوهنهم الضعف . وظل هو فى المغاور كالنسر إذا رأى فريسته انقض عليها ، وهو مع ذلك يسد المسالك على أبناء السبيل ، ويشن الغارة على الأطراف كل قليل .

وكان لما زالت دولة المهدوية ورسخت سلطة الدولة فى (الخرطوم) وما والاها ، ومضوا فى تنظيم المدينة وإنشاء دورها وشوارعها وطرقاتها على أسلوب المدن الكبرى ، برز الأمر من جانب السردار بتسمية جميع شوارعها بأسماء إنجليزية ونمساوية ، فسموها . فما هو أن تفشى خبر ذلك حتى قامت صيحة أصحاب الصحف المحلية تنادى بالثبور وعظائم الأمور ، وتشير من طرق[١٤] خفي إلى أن هذا من عمل (اللورد كرومر) وأنه عمل يبغض أهل البلاد فى أصحاب الاحتلال وينفرهم . وكثر الكلام بذلك فى صحف الحزب الوطنى وكأنه عندهم من الأسباب المعينة لهم على إخراج الإنجليز من أرض السود . وحق لأهل الحزب الوطنى أن يتوهمون[١٥] ذلك ويفخرون ، فإنهم بينما هم على هذا إذ برز الأمر باستبدال تلك الأسماء الإنجليزية والنمساوية بأسماء عربية من كبار المصريين . فاستبدلوا اسم (شارع كتشنر باشا) باسم (عبدالقادر باشا) وغيره باسم (شارع مصطفى) (وشارع شاهين) وغيرهم ، وكلهم من الضباط المصريين الذين ماتوا في الحروب السودانية والرجال الذين فتحوا البلاد أو تولوا حكمها من قبل . فلم يبق فى الخرطوم من أسماء إنجليزية إلا (لكلية غردون) . فسكت أصحاب الصحف وخفت صوت الصايحين من ازناب[١٦] الحزب الوطنى بعد تلك الضوضاء التى بلغت عنان السماء .

(١٢) أصحاب الهجن = راكبى الجمال من القوات - أى الهجانة .
(١٣) اثنوا = انثنوا قراءة ترجيحية .
(١٤) طرق = طرف قراءة تصحيحية .
(١٥) يتوهمون ذلك ويفخرون = يتوهموا ذلك ويفخروا قراءة تصحيحية .
(١٦) ازناب = أذناب قراءة تصحيحية ، ولقد كان المفترض أن يعكس المؤلف الأسماء فى هذه الجزئية ، لأن (الباء) تلحق المحذوف ، فيقول (إذ برز الأمر باستبدال الأسماء العربية بتلك الأسماء الإنجليزية والنمساوية . . . واستبدلوا اسم (عبدالقادر باشا) باسم (كتشنر) وهكذا .

ومن الحوادث الغريبة أن أجنبيا اسمه (ادمون) أبلغ صاحب الشرطة أن ولده المسمى (غيدو) خرج بعد ظهر الاثنين عشرى الشهر من منزله عائدا إلى المدرسة فى الفجالة وعمره أربع عشرة سنة فلم يصل إلى المدرسة ولم يعد فى المساء إلى بيت أبيه الكاين في شارع محمد على . فمضى أصحاب الشرطة فى البحث عن الغلام الى(١٧) سائر أنحاء القاهرة فلم يعثر عليه . وذكر والده أن ابنه أخبره يوما أن فاعلا يونانيا حرفته التنجيد كان يقف كل يوم فى طريقه ويقدم له شىء من الحلوى فنهاه أبوه عن أن يكلم الرجل أو يأخذ منه شىء . وظهر من أقوال رفاق الغلام أن الغلام أخبرهم يوما أن هذا اليونانى دعاه لسماع الفونغراف ، فمضى أصحاب الشرطة يبحثون عن ذلك الرجل ، فعلموا أنه يسكن وحده فى شقة على حدة ، وأنه يشتغل الآن فى تنجيد فرش فى إحدى الدور المعدة لعرس قريب ، وأنه خرج يوم ضياع الصبى فى الساعة الثانية ولم يعد داره إلا فى الساعة العاشرة ، وأنه لم يذهب يومئذ(١٨) الذى يشتغل فيه ، وأنه من أصحاب السوابق الرديئة . ثم جعلوا يتأثرون الرجل وأصحاب الصحف الأجنبية والمحلية تستصرخ أصحاب الشرطة وتستحثهم على القبض على المجرم والوصول إلى معرفة ما حل بالصبى ، وتحدث الناس فى أمر الصبى وما عسى أن يكون قد حل به . وكثر التفات الآباء لأبنائهم وتحذيرهم من أمثال ذلك اليونانى . وقبض أصحاب الشرطة على ذلك اليونانى وكبس منزله فوجد فيه رداء ظن أنه رداء الصبى ، ولما أخذوا فى استنطاقه عرف أن اسمه (فيتود ورى) وهو رجل عصبى المزاج حليق اللحية ضعيف الشاربين غائر العينين ، وأنكر ما عزى إليه . فجىء ببعض الفتيان فشهدوا أن هذا الرجل كان يعترضهم فى طريقهم ويلاطفهم ويحدثهم ، وشهدت امرأة من شارع عبدالعزيز أن الرجل هذا كان يتحكك بولدها الصغير ، وأن ولدها أخبرها بذلك فهددت الرجل تهديدا شديدا . وشهد أحد باعة الحلوى فى شارع عبدالعزيز أن هذا الرجل ابتاع منه بعد ظهر الاثنين الذى غاب فيه الغلام قطعا من الحلوى ، وأنه كان يرافق فى تلك الساعة غلاما تنطبق عليه الدلايل التى أعطاها بائع الحلوى على الغلام (غيدو) ، وأن الرجل والغلام سارا سوية إلى جهة محطة حلوان . فطيروا خبر اختفاء الغلام على جناح البرق إلى سائر المديرين

(١٧) الى = فى قراءة تصحيحية
(١٨) يومئذ = يومئذ إلى المكان ـ أضيفت الكلمات ليستقيم المعنى

والمحافظين . وجاء أحد المخبرين السريين يقول أنه رأى رجلا وولدا مسافرين ثانى يوم الحادثة . ولما فتشوا الرجل وجدوا فى جيبه كثيرا من الصحف العربية والأفرنجية التى ذكرت هذا الحادث . فلك[١٩] يشكوا فى أن للرجل يد فى الجريمة . فجعلوا يضيقون عليه ويشددون وهو ينكر الأمر بتاتا وأصحاب القضاء يأتون إليه بالدليل بعد الدليل والحجة تعلو الحجة وهو طورا يبكى وأخرى يصمت ولا يتكلم حتى أعيا المحققون أمره وأتعبهم دفاعه . وكثرت الظنون حول الرجل فمن قائل أنه قواد لأحد أولاد الأغنياء الوارثين ، ومن قائل أنه من خاطفى أولاد النصارى إلى مذابح اليهود ليستصفوا دمائهم التي يستعملها حخامينهم[٢٠] أيام عيد فصحهم ، ومن قائل أنه كيماوى يستخرج اكبار[٢١] المراهقين وكلاهم لأمر يريده . وظهرت على وجوه زعانف الإيطاليين أهل الغلام الغائب علامات البغض والتحفز للإيقاع بكل يونانى . فكان جماعة اليونان فى خوف ما عليه من مزيد . وكان أصحاب الشرطة إذا رأوا زحاما أو تجمهرا فى الشوارع فرقوه ، وشددوا على العامة والسوقة يامتناع[٢٢] عن كل ما من شأنه الضوضاء أو الجلبة . فلما كان عصر رابع عشرى يناير اتفق أن اثنان من أصدقاء والد الغلام الضائع كانا ماران بشارع محمد على فرأيا الغلام واقفا تحت إحدى بواكى الشوارع ، فتقدما إليه فإذا هو غائب الصواب قليلا خائفا زائغ البصر ، فحملاه إلى والده فاستدعى بطبيب ليفحص ما به فعلم أنه أكل مخدرا وأنه فى حالة من الشدة والألم وانتهاك القوة ما يستلزم الراحة التامة والعناية الكبرى . وعلم أصحاب القضاء بخبر العثور على الصبى فاستقدموا والده وسألوه فأتى له[٢٣] بالولد . ففحصوا علته وعرفوا ما به وتحققوا أن لذلك المجرم وآخر من أولاد الأغنياء يدا فى الجناية التى حلت بالصبى . فنفذت فيهما العدالة وأخذت منهما حقها بالكيل الوافى ، وارتاح الناس من القال والقيل عن هذا الحادث الثقيل .

(١٩) فلك = فلم قراءة ترجيحية .
(٢٠) حخامينهم = حاخاماتهم ومفردها حاخام قراءة تصحيحية .
(٢١) أكبار = أكباد قراءة ترجيحية .
(٢٢) يامتناع == بالإمتناع
(٢٣) له = لهم

ولم يكن ليسكن[٢٤] بال الناس وتطمئن قلوبهم بعد حادثة ذلك الغلام الإيطالى حتى حدث في يوم ثانى[٢٥] يناير أن أحد التراجمة الهنود جاء إلى باب نزل شيبرد المشهور بالأزبكية وهو أكبر بيوت المسافرين وأشهرها . جاء ذلك الترجمان واسمه (أحمد إمام الهندي) يريد دخول المنزل لمقابلة إحدى السيدات الإنجليزيات فمنعه (يوسف أغا خليل) قواص المنزل وهو من رعايا الجبل الأسود ، فلم يمتنع وقال لابد من مقابلة تلك السيدة حيث هى تنتظر قدومى ، فدفعه (يوسف أغا) وأخذ بتلابيبه ورده فلم يرجع ، فضربه بكرباج كان معه فضربه (أحمد إمام) بعصا كانت فى يده على رأسه فجرحه وأراد اقتحام الدرج واجتمع التراجمة حول الرجلان فأسرع (يوسف أغا) إلى السلم وأخرج مسدسه وأطلق منه رصاصة على رأس (أحمد) فمزقت دماغه وسقط لاحراك فيه . وأقبل آخر واسمه (عطوه) يريد القبض على (يوسف أغا) فأطلق عليه (يوسف) رصاصة أصابت كتفه فجرحته جرحا بالغا . ودوى صوت البارود فى قاعات المنزل فخرج المسافرون على وجوههم نساء ورجال ، وأسرع أصحاب الشرطة إلى باب المنزل . وأتى الناس من كل صوب وناحية . فهرب الجانى إلي داخل المنزل وتبعه الشرطى وصاح المسافرون إقبضوا عليه إقبضوا . فانحدر الجانى إلى سلم الجنينة واختفى فى كشك من الخشب ، فأسرع إليه الشرطى فوجده واقفا وقد غطا وجهه براحتيه ، فقبض عليه وساقه إلى المغفر والعامة من خلفه يصيحون اقتلوا النصرانى اقتلوا ذلك اللعين . ونقلوا الجثة والجريح إلى بيت القاضى . ومضوا فى استنطاق (خليل أفندى) القاتل . وشهد كثير من السياح أنهم سمعوا طلق البارود وأنهم ماكادوا ينهضون من كراسيهم حتى رأوا الرجلين مطروحين على الأرض . وشهد آخرون بما رأوه أيضًا . فلما أتموا استنطاق الجانى وثبت[٢٦] عليه الجناية أرسلوا أوراق التحقيق إلى قنصل الروس ليرسل بها مع الجاني إلى (الجبل الأسود) مسقط رأس الجانى ليحاكم هناك فى مجلسهم حسب قانونهم . فلم يرض أصحاب صحف الحزب الوطنى عن هذا العمل ، وقاموا قومتهم المعروفة عند كل حادث ونادوا بالثارات (أحمد إمام وعطوه) قتيلا (يوسف خليل) . وخلطوا بين هذا الحادث الذي كثيرا ما يقع مئات من مثله فى داخل البلاد وفى كل بلد من بلاد خلق

(٢٤) يكن ليسكن = يكد يسكن عدلت العبارة ليستقيم المعنى اللغوى .
(٢٥) ثانى = الثلاثين قراءة اجتهادية .
(٢٦) وثبت = وثبتت قراءة تصحيحية .

الله وبين السياسة الإنجليزية وأعمال أصحاب الإحتلال حتى عدوا (يوسف خليل أغا) انكليزيا (وإمام أحمد مصريا) ، والرجلان فريبان[٢٧] . القاتل مسلما من الجبل الأسود والمقتول مسلما هنديا من أهل (كلكتا) الإنجليزية . وظلوا على هذه الضوضاء أياما حتى أهاجوا العامة واستفزوا السوقة ، وكأنهم يريدون أن تقوم فى البلاد حركة لايجهلون ما ورائها . واهتمت الهيئة الحاكمة لهذه الصرخة المزعجة وبرز الأمر إلى أصحاب الصحف كلها بالكف عن هذه المشاغبة والإقلاع عن هذا الفضول الممقوت . فسكنوا ولكن بعد أيام .

وما انتهى الناس من حادث نزل شبرد هذا حتى توجهت أنظارهم إلى حادثة أخرى . وذلك أن بربريا اسمه (محمد سليم) السفرجى ادعى أن رفيقه المدعو (سليمان عبدالله ادريس) البربرى سرق قفطانه . وعمر هذا السارق خمسة عشر سنة . فأمسك برفيقه هذا فى شارع عبدالعزيز وتشاتما ثم تماسكا وتلاطما ثم انصرفا وكان ذلك عند الزوال . فلما أظلم الليل ودخلت ليلة أول فبراير من السنة صعد (محمد سليم) صاحب القفطان إلى سطح منزل مخدومهما وأخذ سكينا من المطبخ ونزل إلى حيث ينام (سليمان عبدالله) وطعنه فى صدره طعنة قضت عليه فى الحال ثم عاد إلى السطوح ونام هادئا مطمئنا . فلما طلع النهار وصلت إحدى بائعات اللبن على عادتها باكرا فرأت القتيل ملقى تحت الدرج مدرجا[٢٨] بدمه ، فصاحت ونادت أصحاب الشرطة فجاءوا مسرعين وفتشوا المنزل حتى بلغوا السطوح فرأوا محمد سليم نائب[٢٩] ويداه وملابسه ملاء[٣٠] برشاش دم القتيل . فقبضوا عليه وساقوه إلى القضاء فاعترف بجنايته ولم ينتطح بشأن[٣١] كباش الحزب الوطنى ولاذكروا عن هذا الحادث شيئا .

ولما كان يوم الجمعة سادس فبراير من السنة ثمان عشر شوال من السنة أى سنة تسع عشرة وثلثمائة وألف للهجرة نزل الأمير فى موكبه من قصر القبة إلى قلعة الجبل لوداع الكسوة بالمسطبة على الرسم المعتاد . فلما وصل المحمل بمحمله إلى ميدان

(٢٧) فريبان = غريبان قراءة اجتهادية .
(٢٨) مدرجا = مضرجا قراءة تصحيحية .
(٢٩) نائب = نائما قراءة اجتهادية .
(٣٠) ملاء = مليئة قراءة اجتهادية .
(٣١) بشأن = بشأنه قراءة اجتهادية .

قراميدان فى موكبه أطلقت المدافع ودار الجمل دورته المعتادة ، ثم رجع الموكب . وفى الليل زار المصطبة العدد العديد من السواح وكبار الأجانب . وكان أمير الحاج فى هذا العام قد استبدلوه بآخر ممن يختارهم الأمير للإمارة . ذلك لأن أميره فى العام الماضى (إسماعيل صبرى باشا) كان لما عاد بركبه رفع تقريرا إلى قصر الإمارة ضمنه كثيرا من الملاحظات على الكسوة . ومعلوم أن الكسوة ترسل فى كل عام لشريفين الكعبة ومقام الخليل إبراهيم ، فكان مما قاله (إسماعيل باشا) ذلك أن الكسوة تصنع لهذا العهد من حرير غير جيد ومن مقصب لاتمضى عليه بضعة شهور حتى يتغير لونه ويذهب رونقه . قال وأن الكسوة قصيرة فى طولها وقد اضطروا فى هذا العام الغابر لاتمامها بشىء من الكسوة القديمة حتى لقد كتب أمير مكة كتابا في شأن ذلك إلى الأمير وأرفق كتابه بقطعة من الكسوة القديمة ليثبت للأمير عدم صلاحيتها . وكان المعتاد أن يؤتى بحرير الكسوة من دمشق الشام وبالمقصب الجيد من دار السلطنة العثمانية . فلم يطل الحال على هذا . وكذلك الكساوى التى تهدى لشيوخ مكة وأمرائها فهى من الأقمشة الرديئة والمقصبات الواطئة ، وكذلك الحلوى المعتاد أرسالها فى كل عام فهى من السكر الملون الردىء . قال وقد جرت العادة أن تهدى إلى قاضى السويس فى كل عام خلعة من تلك الخلع . ففى العام الماضى لا[٣٢] يقبل تلك الخلعة لرداءة قماشها ولأن أطرافها من القماش البالى .

قال الباشا وأن من الشيوخ الذين تعطى لهم المرتبات من مال الصرة (الشيخ سليمان عفنان) شيخ عربان (بلى) فى (الوجه) وقد كان راتبه السنوى ستة وتسعين جنيها ، فلما الحقت جهة (الوجه) بأملاك السلطنة العثمانية قطع عنه الراتب ، ولكن لما قام (نادى باشا) بركب المحمل عام سبعة وتسعين وثمنمائة وألف للميلاد أعطاه ثلاثين جنيها ووعده بإعطائه ما بقى له . فلما قام (إسماعيل باشا) بركب المحمل العام الفارط وقف ذلك الشيخ فى طريق المحمل يطالب أميره بما هو فى ذمة الدولة . فلم ير مندوحة من إعطائه ذلك الباقى وشيئا من مال الصرة ، قال لأن الرجل كبير العناية براحة الحجاج وتأمين الطرق حتى لقد حفر آبارا فى محطة (الخولاتو) وأقام سوقا وفيها ما يحتاج إليه

(٣٢) لا = لم قراءة تصحيحية .

ركب المحمل من المأكل والمشرب ، ولذلك فهو يطلب أن الخزينة تعطى إليه رواتب السنوات الخمس المتأخرة . قال وقد كان لشيخ (قبيلة مطير) راتب سنوى قدره ستين ريالا وجبه[٣٣] بنش لقيامه فى خدمة ركب المحمل عند سيره بالدرب الشرقى . فلما انقطع سير الركب من ذلك الدرب منذ سنوات امتنعت الحكومة عن إعطائة مرتبه ذلك . ولما وصل ركب المحمل فى طريقه إلى ناحية منازل قبيلة الشيخ وقف فى الطريق وطالب بجميع المتأخر له من المراتب وشدد فى طلب ذلك ، فلم ير أمير الحج بدا من إعطائه النصف ، والخزينة قامت بدفع النصف الثانى . يقال لما علم الأمير بما حل بالحجاج فى ذلك العام من تهديد مشائخ القبايل ووقوفهم فى طريق الركب تكدر وأعرض عن (إسماعيل باشا) ورسم إلى ديوان الأوقاف بعمل ما لم تصل إلى معرفته إلى ديوان الوزارة ، باخط[٣٤] الحيطة ومخابرة شريف مكة ومشائخ القبائل بالكف عن إقلاق الركب وإزعاجه ، ومع ذلك فقد وردت الأنباء من جدة والنبع[٣٥] نقلا عن جماعة المطوفين بتأهب العربان ومشايخهم على طول طريق الحج إلى معاكسة الحجاج وإزعاجهم وأخذ كل ما وصلت إليه أيديهم ، وأنهم قد أكثروا من العدة والسلاح واختيار أضيق الدروب وأعلاها ليجعوا[٣٦] حزرهم ومكامنهم عند عبور الركب . وتفشى خبر ذلك بين الناس فتحدثوا به كثيرا . وجاء المطوفون على عادتهم فى كل عام يطوفون على الناس ويستنفرونهم إلى الحج . فكانوا يرون منهم تشاؤما وإعراضا . وقد زاد نفورهم من الحج ما فرضته الحكومة على كل حاج قدرا من المال على ثلاث درجات أولى وثانية وثالثة يودع بخزينة محافظ المدينة كدليل على قدرة الحاج على النفقة حتى يرجع من حجه . فإن رجع رد إليه ما له وإلا فلورثاه أو إلى بيت المال . وأكبر الناس هذا الأمر وأعظموه وردوا المطوفين إلا القليل ممن أصر على الحج فى عامه هذا .

---

(٣٣) وجبة بنش = وجِبَّة بِنِشْ - كلمة تركية مصدرها (بينمك) = الركوب - البينيش هى زى الركوب وطرزه أو الزى الخاص براكب الجواد ، ولها جِبَّةٌ واسعة .
ذكرها الجبرتى فى الجزء الرابع ص ١٢٤ (ولبس خلعته وهى فروة على بنش) .
- أحمد السعيد سليمان (تأصيل ما ورد فى تاريخ الجبرتى من الدخيل) - دار المعارف - ١٩٧٩ - ص ٤٥ - ٤٦ .

(٣٤) باخط = بأخذ قراءة تصحيحية .

(٣٥) النبع = إما أن تكون ينبع أو نويبع .

(٣٦) ليجعوا = ليجمعوا قراءة اجتهادية .

وجاء النبأ من محافظ السويس إلى قصر الإمارة وديوان الوزارة بوصول (الأنبا متأوس) مطران مملكة الحبشة ومعه أحد كبار مقدمى الجند وبعض الكهنة وثلاثين من الجنود الحبشية وبعض الخدم والأتباع . فبرز الأمر إلى محافظ السويس بالعناية بأمرهم كما يليق بأكبر الأمراء ، وأرسل بطريرك الأقباط الأورثوذكس وفدا من الكهنة وبعض الأعيان للقائهم بالسويس . وكتب من ديوان الوزارة إلى مدير السكك الحديد بإعداد عربة من عربات الركائب الخصوصية تقلهم إلى القاهرة . فلما وصلوا إلى القاهرة كان فى انتظارهم بمحطة السكة الحديد محافظ المدينة وطائفة من العسكر وبعض مأمورى الدولة ولفيف من الكهنة وكبار الأقباط . وتقدم أحد كبار ديوان التشريفات وحيا المطران ومن معه باسم الأمير عباس باشا . وركب المطران ومعه أحد كبار مأمورى الدولة عربة خصوصية ، وركب كذلك من حضر معه ، وساروا إلى دار البطريركية ، وكان بانتظارهم فى رحبة الكنيسة الكبرى جماعة القسيسين والرهبان والشمامسة بملابسهم الكهنوتية وهم يحملون الشموع والرايات ويحرقون البخور . فلما أقبلت مركبة المطران على باب الدار البطريركية دقت الأجراس دقات الفرح وهتف الشمامسة هتاف السرور ورتلوا تراتيل التهانى . فصعد المطران إلى حيث يقيم البطريرك ، فاستقبله البطريرك على رأس الدرج وقبل بعضهما بعضا وجلسوا لحظة لطيفة ثم نزلوا إلى الكنيسة ورفعوا جميعا سلوة[٣٧] الشكر لله سبحانه على بلوغهم سالمين . وكانوا قد أعدوا لهم دارا (بمهمشة الكبرى) من الضاحية ، فأنزلوهم فيها على الرحب والسعة . وقامت الدار البطريركية بالنفقة من مأكول ومشروب ومركوب . وتزاحم المسلمون على باب المطران ، وجاءت إليه كتب التهانى من كل صوب وناحية ، والرجل لم ير وطنه منذ ثلاثين عاما أو يزيد ، فكان لذلك فرحا قرير العين برؤيا عارفيه . وكان قد زوده (النجاشى منليك) بشىء من التحف والهدايا النفيسة والأعلاق الثمينة والنياشين للأمير والبطريرك والوزراء وبعض أهل المناصب . ولما أزال عنه وعث السفر سير إليه الأمير مركبة من مركبات التشريف الكبرى وأحد رجال ديوانه الخاص وكذلك لمن معه من مقدمى الجنود الحبشية وأصحاب الوظائف . فلما تمثل بين يدى الأمير فى القصر بلغه سلام الناجوسى وقدم له ما معه من الهدايا مع نيشان

(٣٧) سلوة = صلوات قراءة تصحيحية .

النجمة الحبشية من الطبقة الأولى ، فأظهر له الأمير غاية السرور والارتياح ، وجلس مع الحضرة لحظة عرف فى أثنائها جميع من حضروا مع المطران ثم انصرفوا كما حضروا . وأصبحوا ثانى يوم وقد احتفلوا بصلوة حافلة وبعد الصلوة قدم إلى البطريرك نيشان النجمة الحبشية من الرتبة الأولى ، وأهدى هذا النيشان من الرتبة الثانية إلى الرئيس (مصطفى فهمى باشا) (والوزير بطرس باشا غالى) ، ومن الدرجة الثالثة إلى كل من (قلينى باشا) وصاحب هذا الكتاب . وقد كنت لذلك العهد في مدينة الاسكندرية فى مسند مدير إدارة أملاك الميرى الحرة ، فجاءنى الطلب بالشخوص إلى القاهرة فجئتها وزرت المطران فألفيته عاقلا رزينا واسع الفكر كبير التأمل . فرحب بى كثيرا وأدنانى من مجلسه يحادثنى فى شئون كثيرة مختلفة ، وهو فى كل لحظة يظهر السرور بحديثى والعطف إلى . وبعد نحو الساعتين قال وهو يبسم إن ما يعلمه جلالة ملك ملوك الحبشة الناجوسى المعظم منليك من محاسن أعمالك وما تفردت به بين أقرانك من حسن السيرة وما تقلبت فيه من مناصب فى وطنك لكثير ما قاله بفمه ، فهو لذلك قد كلفنى بتبليغك سلام جلالته وسلام قواد جنوده ورجال بلاطه وأهدى إليك نيشان نجمة الحبشة من الدرجة الثالثة دليلا على رضائه الملوكانى ، وها هو النيشان والأمر الملوكانى وخطاب مخصوص من جلالته يشتمل على ارتياح ومسرورية جلالته بإهدائك هذا النيشان . فتناولتهم كلهم وقبلت يده وسألته أن يبلغ شكرى وإخلاصى إلى سدة جلالة الإمبراطور وأنى ما برحت داعيا بأن الله سبحانه يجعل أيام سلطانه زاهية زاهرة موفقة ميمونة بمنه وكرمه . وكان سيادة البطريرك لما علم بحضورى إلى القاهرة استدعانى إليه وركبنا معا إلى دار ضيافة المطران ، فلما أتممنا ما وجب انصرفنا .

وما هى إلا أيام حتى جاءنى الأمر من قصر الإمارة بلبس النيشان المذكور . فعنيت كثيرا بترجمة الفرمان إلى العربية ، فإذا هو يتضمن ما يأتى ـ من الأسد الخارج من سبط يهوذا ملك ملوك الحبشة إلى من يقرأ هذا الفرمان السلام ، أما بعد ، فإنه لما كان إعلاء شأن الذين يخدمون الملوك بقوتهم أو معرفتهم أو حسن تدبيرهم أمرا واجبا ، فقد بعثت إلى الشهم الكبير ميخائيل بك شاروبيم بهذا النيشان دليلا على رضائى وتقديرى خدمته وليذكر هو مكافأتنا لمن خدمونا كلما نظر إلى هذا النيشان سواء كان من على يساره أو من على يمينه انتهى بنصه .

وتوالت زيارة قناصل الدول الكبرى للمطران وأقبل بعضهم يحادثه فى بعض الشؤون والأحوال السياسية فلم ير منه[٣٨] صدقا ولا عدلا . وكان يميل بهم إلى حديث الديارات بديار الحبشة وكيف أن القوم هناك شديدو التمسك بعقيدتهم القبطية وأشباه ذلك ، حتى لقد قال له أحد كبار الإنجليز أنكم سترون عن قريب (لورد هندليب) (والمستر فيتسهوج) اللذان حضرا من ديار الإنجليز على رأس حملة ستقوم من القاهرة إلى الحبشة ثم تهبط منها إلى الخرطوم بطريق الصوبات والنيل وهما سيركبان الهجن من زيلع إلى هرر وأديس أبابا مع رجال الحملة وينزلان عند (الكولونيل هارنجتون) معتمد الإنجليز فى الحبشة مدة لبثهم . فقال المطران رافقتهم جميعا عين العناية فى الحل والترحال وما على أنا العاجز سوى الدعاء لمن يزورنا فى ديارنا . ولما كان صبح ثانى عشرى فبراير رابع عشر ذى القعدة من السنة أى سنة تسع عشرة وثلثمائة وألف للهجرة انتظم ركب المحمل فى قراميدان أمام المسطبة ، واصطفت فرقة من المشاة وأخرى من أصحاب المدافع وموسيقى الفرسان . واجتمع فى المسطبة جماعة الأمراء والعلماء ومقدمى العساكر وأهل الوظائف والعدد العديد من السياح الأجانب . وأقبل الرئيس مصطفى فهمى باشا فى ركبه بالنيابة عن الأمير لتشييع المحمل . فأطلقوا لوصوله المدافع وصدحت الموسيقى بالنشيد الأميرى ، فاستلم الرئيس خطام الجمل وقبله على الطريقة المعتادة وكذلك فعل الأمراء والعلماء وغيرهم ، ثم رده إلى أمير الحج فسار به إلى العباسية ، ولبث يومه ذلك . وأصبحوا وقد أنزلوا الركب والمحمل فى قطار السكة الحديد إلى السويس ، فلم يكن للركب فى هذ العام من الأبهة والجلالة ما كان من الأعوام الماضى[٣٩] ولا سيما عند نزوله بالباخرة التي أعدت لنقله إلى (جدة) وذلك للأسباب التي تقدم بك بيانها وخوف الحجاج مما عساه أن يصيب ركب المحمل من العربان الكامنين له فى الدروب وأعالى الجبال .

ومما وقع فى هذه الآونة ولم يسبق له مثيل أن قبطيا متزوجا كان كثيرا الخصام مع زوجته مبتلى بحب الغوانى ، يهجر زوجته الأيام والشهور وهى تعالجه لعله يتوب ويرجع عن غيه . فلما أعياها أمره شكته إلى مجلس طائفتها الملى ، فاستتابه فلم يتب ، فنهاه

(٣٨) منه = منهم قراءة ترجيحية .
(٣٩) الماضى = الماضية قراءة تصحيحية .

فلم يرجع ، فحكم عليه بالنفقة على زوجته حتى يتوب ويرجع إلى معاشرتها . فطلبت الزوجة من محافظ المدينة تنفيذ ذلك الحكم على زوجها . فبرز الأمر إلى صاحب الشرطة بإلزام الرجل بدفع ما تقرر عليه ، فجعل يحاول ويطاول والزوجة تكثر من اللجاج والتشديد فى الطلب لنفقتها وخلو يدها ، وتحقق الزوج أن لا مناص من القيام بالنفقة إلا بالمروق من دينه فاعتنق الإسلام ظنا بالخلاص من ذلك الحكم . فخاب ظنه إذ جعل صاحب الشرطة يطارده ويقبض عليه كل قليل لدفع ما للزوجة وهو يقول أن ذمتى برأت بالإسلام ولا نفقة لها عندى إلا إذا عادت إلى طباعى وأقامت فى بيتى ، والزوجة تقول أنه مارق عن دينى ولا زوجية بيننا الآن ، وأما النفقة فهى دين لى عليه يقوم بدفعه فى آجاله ما دام ودمت حية . ومضت فى منازعة[٤٠] أياما ، فرفع الرجل أمره إلى القاضى الشرعى يريد الحكم برجوعها إلى طاعته ومعاشرته وإلا الحكم بشذوذها[٤١] وإبطال حكم النفقة . فحكم القاضى برجوعها إلى طاعة الزوج وسلمه الحكم بذلك . فذهب الرجل إلى صاحب الشرطة يسأله تنفيذ ذلك الحكم بإكراه الزوجة وإلزامها بطاعة زوجها ، فأبت الزوجة وامتنعت وقالت أنى مسيحية وهو محمديا ولا زوجية بيننا . وكتب محافظ المدينة إلى ديوان الوزارة يسأل عما يفعل فى هذه المشكلة . فكتب الديوان إلى وزارة الحقانية يقول أن الزوج حاصل على حكم شرعى بإكراه المرأة على أن تظل فى عصمة زوجها بعد إسلامه ، والزوجة حاصلة على حكم نفقة محكمة البطريركية بطلاقها منه وانفصاله ، وطلب من الحقانية أن تبدى رأيها فى أى الحكمين الذى يقوم محافظ المدينة تنفيذه . فما هى إلا عشية أو ضحاها حتى برز الأمر بتنفيذ حكم المحكمة الشرعية وإهمال حكم البطريركية . فما هو أن فشى خبر ذلك حتى قام أصحاب الصحف القبطية والصحف الأجنبية تسفه رأى وزير الحقانية وترميه بالخطل وقصر النظر . فقام لنصرته أصحاب الصحف المحلية ، ومضوا فى شأنهم من السباب وفحش القول . وقال صاحب المؤيد أن ما فعله وزير الحقانية لهو الحق والصواب عملا بالقاعدة القائلة لاطلاق فى إغلاق وللان[٤٢] للمسلم زواج الكتابية مع بقاء كل منهما على دينه ، ولا[٤٣]

(٤٠) منازعة = منازعته قراءة تصحيحية .
(٤١) بشذوذها = بنشوزها قراءة ترجيحية .
(٤٢) وللان = وأن قراءة ترجيحية .
(٤٣) ولا = ولأن قراءة اجتهادية .

عقود النكاح بين الكتابيين صحية[٤٤] فى ذاتها ولا تحتاج بعد الإسلام إلى تجديد . قلت . والزواج عند المسيحيين عامة عقد ، وهذا العقد تم بين ذلك الرجل والمرأة وهما مسيحيان . ونظرا إلى أن الرجل قد أخل بشرط أساسى من العقد وهو المروق من دينه إلى دين آخر أى[٤٥] كان ، فصار العقد فاسدا وللبطريركية التي عقدته بين الرجل والمرأة وهما تابعان أن تلغيه أو تؤيده . وقد كان يجب على وزير الحقانية أن لا يتسرع فى الأمر وأن يبحث فى هذه المشكلة بحثا ضافيا بعيدا عن الميل والهوى والحدة أو التحزب ، فإن الحرية الدينية والأصول الدستورية التى تتمشى عليها الحكومة فى هذه الأيام وزيادة الاختلاط بين الطوائف المسيحية فى هذه الديار وغير ذلك من العلاقات الدولية كل ذلك معرض إلي وقوع مثل هذه الحوادث . ولدينا الفرامانات السلطانية والأوامر الخديوية ، فهى لا تخلو من قاعدة حسنة تبين لأهل الحل والعقد كيف يجب أن يمضوا فى عملهم . وحرى بأصحاب الكلمة أن يتخذوا تلك القواعد دستورا وأن يبنوا عليها حكما ثابتا تخضع له أصحاب الأديان المختلفة كما هو الحال فى بلاد الدولة العثمانية ، فإن كل أمر معروف ومقرر على أن إكراه تلك الزوجة المسيحيه[٤٦] تمسكها بدينها على أن تظل فى عصمة زوجها المسلم وهو متمسك بإسلامه أمر لا يرضاه صاحب الأديان كلها . وقد قال وهو أصدق القائلين ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ . قال صاحب الأهرام بعد كلام . وأما فى هذه الديار فإن الاختلاط والتخبط يعنى بين الحكام شديدان ، فنحن نطلب من وزير الحقانية إعلان الحقيقة الناصعة وبيان الخطة الصريحة الواجب اتباعها حتى لايكون هناك قيل وقال ، وحتى لا يبقى مجال لعد المسألة إسلامية أو مسيحية ، فإن الإسلام والنصرانية أرفع من أن يولد بينهما اختلاف على مثل هذا ، وأن الطوائف القاطنة فى هذه البلاد جديرة بأن تظل مرتاحة من بغية رجل فرد وهوس امرأة بل يجب فوق ذلك كله احترام حرية الضمير وهو ما دعا أصحاب الصحف القبطية إلى الدخول فى هذا المأزق ا . هـ .

---

(٤٤) صحية = صحيحة قراءة اجتهادية .
(٤٥) أى = ايا قراءة اجتهادية .
(٤٦) المسيحية تمسكها = المسيحية مع تمسكها ـ أضيفت كلمة (مع) ليستقيم المعنى .

أقول وقد أكبر أهل الحل والعقد ما أسنده صاحب المؤيد إلى وزير الحقانية وسير قلم المطبوعات فى طلبه ، ثم جعل يعنفه ويؤاخذه بما فرط منه . وما هى عشية أو ضحاها حتى برز أمر وزير الحقانية بحفظ حكم المحكمة الشرعية وإهماله بتاتا ، إذ لا يجوز إكراه الإمرأة علي معاشر ة ذلك الرجل ولا الرجوع . وانقضت هذه الحادثة بعد قيل وقال أياما كثيرة بعد أن تبرم صاحب المؤيد . وجاء الخبر من محافظ مدينة سواكن إلى ديوان الوزارة بظهور القرصان فى البحر الأحمر بين القلزم وسواكن وغيرها ، وأنهم نهبوا مركبا إنجليزيا وجرحوا بعض نوتيتها ، وأنهم يعيثون ويفسدون بلا خوف ولا مبالاة . ووصلت تلك السفينة إلى السويس ورجالها فى أسوأ حال مما أصابهم ووسعتها[٤٧] فاقد كله إلا القليل مما ثقل حمله . فبرز عند ذلك الأمر من دار الوكالة البريطانية أو هو من وزارة الحرب إلى السفينة الحربية (سكوت) الراسية فى مياه بورسعيد بالذهاب إلى سواحل البحر الأحمر ومطاردة القرصان . فقامت فى خامس مارس من السنة وجعلت تمخر صعدا وهبوطا أياما حتى جاء الخبر من محافظ سواكن بان (سكوت) عثرت على مكمنين للقرصان فضربتهما بمدافعها ضربا متتابعا حتى استولت على مركبين من مراكبهم وجاءت بهما إلى سواكن . وفى هذين المركبين مدافع من الطراز الحديث . قال المحافظ ويقول ربان الباخرة (سكوت) الحربية أن النخاسة فى طول البحر الأحمر وعرضه لاتزال على عهدها الأول ، وأن سفن النخاسين تختطف العبيد والإماء والسود من بلاد السودان فتبيعهم فى جهات وأنحاء مختلفة . وبلغ خبر ذلك إلى ديار الإنجليز فاهتم له أعضاء جمعيات منع بيع الرقيق وقاموا وقعدوا . وجاءت كتب صاحب سياستهم إلى لورد كرومر والسردار بأخذ الحيطة لذلك .

وكان إلى هذا الحين قد تولى منصب الإفتاء الشيخ محمد[٤٨] وقدم الكلام عليه[٤٩] كثيرا فى الأجزاء الماضية وهذا الجزء من الكتاب . وأضافوا على وظيفة الإفتاء عضوية مجلس إدارة الأزهر . فاهتم الرجل كثيرا باصلاح نظام الأزهر وترتيب مدرسته ترتيبا يناسب روح العصر ودواعى الحال . وأبطل كثيرا من البدع القديمة والعادات الرديئة

(٤٧) ووسعتها = ووسقها (أى حمولتها) قراءة اجتهادية .

(٤٨) الشيخ محمد وقدم = الشيخ محمد عبده وقد تقدم .

(٤٩) عليه = عنه قراءة ترجيحية .

وأخرج نفرا ممن قضوا حياتهم فى الجامع عالة لاهم لهم إلا تناول الجراية فى كل صباح من متعهد توريد الخبز وبيعه فى الحال فى سوق باعة العيش بخطة الأزهر وهو فى فورجيته[٥٠] وقفطانه القصير خوف[٥١] النخاسة . وهؤلاء النفر ترى أصغرهم سنا لا يقل عمره عن الستين والسبعين وربما كان الثمانين من عمره امتازوا بخف الشوارب وإطالة اللحى وتمشيطها وتكبير العمامة وتقصير الثياب وحشو جيوبهم بكراريس الورق التى ربما كانت كلها فارغة لا شىء فيها من العلم أو العمل ، وهم يدعون أنها كراريس التدريس على شيوخهم . أخبرنى صديق ممن حضر فى هذا العهد بحلقات التدريس فى الأزهر أنه عرف ثلاثة من أولئك العالة قضوا سبعة أعوام فى تعلم البسملة ، أى بسم الله الرحمن الرحيم وقواعدها وحالة رفعها ونصبها وجرها ولم ينتهوا منها وأنه انتهى من التعلم وخرج من الأزهر وتركهم به . فكان ما فعله الشيخ قزى[٥٢] فى أعين أولئك القوم وغيرهم من مشائخ ذلك العصر القديم ، فكانوا كثيرى التعريض به والتقبيح[٥٣] الأعمال والدعاء عليه عند قيام كل صلوة . وكانوا يحكون عنه حكايات غريبة فى مجالس نهارهم وسمر ليلهم حتى رموه بالزندقة والكفر والإلحاد . واتفق أنه سافر إلى ديار الفرنجة متفرجا وزار صديقا له فى ديار الإنجليز من أهل العلم المعروفين بالمستشرقين ، فسأله ذلك الصديق أن يسمح بأخذ صورته بالآلة الشمسية فأجابه إلى ذلك ، فأخذت صورته وهو بين صديقه وزوجة صديقه فى زيه وعمامته وفروجيته[٥٤] ، فأقام هناك ما شاء وعاد . وقد علم صاحب جريدة هزلية يقال لها (حمارة منيتى) بخبر تلك الصورة ، وكان بينه وبين الشيخ خصومة وعداوة شديدة ، فكان لذلك كثير الهجاء له شديد الوقعية[٥٥] به يتحكك به لأقل سبب ولغير سبب . فعمد إلى وضع تلك الصورة فى صفحة من صفحات جريدته وملأ تلك الصحائف السود ببزى[٥٦] القول وفحش الكلام ، ورماه بكل نقيصة

---

(٥٠) فوروجيته = فرجيته أى عباءته .
(٥١) خوف النخاسة = خوف النجاسة .
(٥٢) قزى = قذى قراءة تصحيحية .
(٥٣) والتقبيح الأعمال = وتقبيح أعماله قراءة اجتهادية .
(٥٤) وفروجيته = وفرجيته قراءة اجتهادية .
(٥٥) الوقعية = الوقيعة قراءة ترجيحية .
(٥٦) ببزى = ببذئ قراءة تصحيحية .

ووسمه بكل وصف قبيح وهجاه ببيتين من الشعر لم يقولهم[٥٧] أحد من قبل ومن بعد . وقام خصوم الشيخ وأعدائه يترنحون بهاتيك الأبيات ويتلونها فى كل ناحية وصوب على مسمع من العامة وزعانف خطة الأزهر . وأقبلوا على تلك الجريدة يشترونها وقد بلغ ثمن النسخة منها خمسة قروش ديوانية حتى لقد كانوا يدسونها تحت فراشه بالجامع وعلى مائدة طعامه . وأخبرنى صاحب أنه سمع بأن الشيخ وجد يوما صورته ملصوقة خلف باب بيت الأدب فأحزنه هذا الأمر جدا وتحزب له جماعة من الكبراء والعلماء ورفع بعض العامة القصة إلى محافظ البلد والنائب العمومى لدى المحاكم يطلبون فيها محاكمة صاحب (الحمارة) . وذهب الشيخ إلى قصر الإمارة ورفع ظلامته ، وطاف على دواوين الوزراء ومعه بعض العلماء وأصحاب العكاكيز يستفزهم إلى نصرته فنصروه ، وبرز الأمر من النائب العمومى باستنطاق صاحب (الحمارة) فأوقفوه موقف المتهم بتحقير الدين الحنيفى لذكره بعض الآيات القرآنية فى جريدة مقلوبة مشوهة . فلم تأخذه أخذة من الخوف ولا هو قصر فى شيء من التنكيت والتبكت[٥٨] أمام القضاء حتى أضحك القضاة وأربك المحامين . فحكموا عليه بالحبس أياما حبسا بسيطا ، وقام بعض الشعراء ينظمون القصائد فى هجاء صاحب الحمارة أخذا بثأر الشيخ وبالغوا فى ذلك وتغالوا . فكان مما نظمه صديقنا الشاعر النابغة حافظ إبراهيم أفندى أبياتا قال فيها :

إن صورتك[٥٩] فإنما قد صوروا ... تاج الفخار ومطلع الأنوار
أو نقصوك فانا[٦٠] قد نقصوا ... دين النبى محمد النختار[٦١]
سخروا من الفضل الذى أوتيته ... والله يسخر منهم فى النار
رسموا بذاتك للنواظر جنة ... محفوفة بمكاره الأشعار
لن يحجبونك عن الورى أو يحجبوا ... فلق الصباح ومشرق الأقمار

ء

(٥٧) يقولهم = يقلهما قراءة تصحيحية .
(٥٨) التبكت = التبكيت
(٥٩) صورتك = صوروك قراءة تصحيحية .
(٦٠) فانا = فإنما قراءة تصحيحية .
(٦١) النختار = المختار قراءة تصحيحية .

والقصيدة طويلة كلها من هذا الطراز الجميل . وكان لهذا[٦٢] الحادث أكبر الحوادث شغلا لأصحاب الصحف وبعض العلماء والمشائخ والمعممين وأصحاب العكاكيز ومن دفعهم الرياء والتزلف إلى إظهار التأفف والغيظ من صاحب الحمارة . ومن هذا الحين كثر تردد الشيخ على دار الوكالة البريطانية وكثرت سعاياته ، فكثر مبغضوه وقل محبوه وتحزب فريق من العلماء ضده وتألبوا عليه وسفهوا أحلامه فانشق الأزهر على ذاته ، وقام فيه الناقمون والمحرضون علي ترك المستحدث وقلب كل نظام جديد ، ورفعوا القصص تلو القصص والشكوى تلو الشكوى . وباتت الهيئة الحاكمة وأصبحت ولا عمل لها إلا مشاكل الأزهر ومشيخته ومنصب الافتاء وما يتبعه . وبرز الأمر بتشكيل اللجان من بعض العلماء وكبار المأمورين لتدارك الأمر قبل استفحاله وتحضير قانونا لذلك المعهد العلمى يحسن الوقوف[٦٣] عند حده . فمضوا فى عملهم بين إقدام وإحجام ونقض وإبرام ، والخصوم دائبة على الحض والتحريض وإثارة الخواطر ضد الشيخ ، حتى وقعت الفرقة فى سائر الأروقة واختل نظام التدريس أو كاد . واعتصب بعض الطلبة يريدون تغيير نظام التدريس الذى أحدثه الشيخ ، وتعذر على اللجان التعجيل فى عملها لتفرق المشايخ والمدرسين . وكان كلما كثر تردد الشيخ على الوكالة البريطانية وكثرت مقابلته للورد كرومر كثرت الضوضاء والجلبة حوله وقالوا أنه عين الإنجليز فى الأزهر ، ويدهم فى تنفيذ أغراضهم الضارة بهذا المعهد القديم وأهله . وقامت صحف الحزب الوطنى تنادى بالثبور وعظائم الأمور على النفتى[٦٤] وأعوانه ويدسون بين طلبة الأروقة الدسائس ، ويحضونهم على الهرج والخروج عن الطاعة . وظل الحال على هذا كثيرا حتى أتمت اللجان شيئا من عملها ولكنه لم يشف غليلا .

ولما كان ثامن مارس من السنة ثامن عشرى ذى القعدة عام تسعة عشر وثلثمائة وألف وتاسع عشرى أمشير عام ثمانية عشر وستمائة وألف ، فى نحو الساعة التاسعة اجتمع الوزراء والأمراء وأعضاء دار الشورى والجمعية العمومية ومحافظ المدينة ورئيس ديوان التشريفات ورجال الديوان الخاص وياوران وأركان حرب الإمارة فى قاعة الجمعية

---

(٦٢) لهذا = هذا قراءة ترجيحية .

(٦٣) يحسن الوقوف عند حده = استبعدت العبارة لعدم انسجامها مع باقى الرواية – كما أن استبعادها لن يخل بالسياق الروائى للموضوع الذى يناقشه المؤف .

(٦٤) النفتى – المفتى قراءة ترجيحية .

العمومية . ولما صارت التاسعة وخمسة وأربعين دقيقة أقبل الأمير فى موكبه فقابله جماعة الوزراء ورئيس الجمعية العمومية . فدخل قاعدة[٦٥] المجلس . فقدم له الرئيس أعضاء الجمعية العمومية الذين تم انتخابهم حديثا ، فأقسموا أمام الأمير اليمين الواجبة على كل عضو . فقال كل منهم (والله العظيم والله العظيم أنى صادق للحضرة الفخيمة الخديوية وخادم لهذا القطر السعيد) . وبعد قسم اليمين نهض الأمير مع الوزراء ورجال ديوانه الخاص ودخل ردهة المجلس فعرض عليه كاتب الجلسة أسماء المنتخبين حديثا ، ثم وقف وتلى خطبة الافتتاح . وبعد تلاوتها صاح الأعضاء بالدعاء ثلاثا ، فأثنى وخرج معه جماعة الوزراء وأهل المناصب العالية ورجال ديوانه الخاص . وبعد أن برح الأمير فى ركبه عاد الوزراء ورئيس المجلس إلى قاعة الجلسة فأعلن الرئيس افتتاح الجلسة . فتلى محضر الجلسة الماضية والأوراق المتعلقة بها ، ثم تلى مشروع الأمر القاضى بضرب ضرائب جديدة على الأطيان الملق ، قلت وهذا الأمر هو الآتى نصه بعد .

نحن خديوى مصر بناء على ما عرضه علينا ناظر ماليتنا وموافقة رأى مجلس النظار وبعد أخذ رأى الجمعية العمومية أمرنا بما هو آت :

المادة الأولى : تزاد قيمة الضريبة السنوية على الأطيان المفروض عليها ضرائب نهائية من التى تكون فى داخل الحياض العمومية ويترتب على إنشاء خزانات أصوان والأعمال الأخرى المرتبطة بها جعلها قابلة للرى فى الزراعة الصيفية فضلا عن الزراعة الشتوية ، وتكون هذه الزيادة باعتبار ستين قرشا عن كل فدان من الأطيان التى يتيسر ريها الصيفى بالراحة وثلاثين قرشا عن كل فدان من التى لا يتيسر الصيفى[٦٦] إلا بواسطة الآلات الرافعة .

المادة الثانية : تكون إضافة هذه الزيادة بطريقة تدريجية :

أولا : الأطيان التى من النوع الأول يضاف على الضريبة المفروضة على كل فدان منها الآن عشرين قرشا فى السنة الأولى وأربعين قرشا فى السنة الثانية وستين قرشا فى ابتداء السنة الثالثة .

---

(٦٥) قاعدة = قاعة قراءة ترجيحية .

(٦٦) الصيفى = ريها الصيفى _ أضيفت الكلمة ليستقيم النص .

ثانيا : الأطيان التى من النوع الثانى يضاف إلى الضريبة المفروضة على كل فدان منها خمسة عشر قرشا فى السنة الأولى وثلاثين قرشا من ابتداء السنة الثانية .

المادة الثالثة : لايجوز فى أى حال من الأحوال أن تتجاوز قيمة الضريبة السنوية على الفدان الواحد بما فيها الزيادة السالف ذكرها مبلغ ماية وأربعة وستين قرشا صاغا التى هى أعلى قيمة تحددت لضرائب أطيان القطر المصرى بمقتضى أمرنا الصادر فى عشرة مايو عام تسعة وتسعين وثمنمائة وألف .

المادة الرابعة : لا يسرى مفعول أمرنا هذا إلا من أول يناير من السنة التالية للسنة التى يتيسر فيها انتفاع الأطيان بالرى الصيفى ، وتعين نظارة الأشغال العمومية هذا التاريخ بطريقة نهائية لاتجوز المعارضة فيها ، وتعين كذلك الأطيان التى يجب فرض هذه الزيادة عليها والنوع الذى يجب إدخالها فيه .

المادة الخامسة : ما يخص كل بلد من بلاد المديريات التى لم تتم فيها للآن أعمال تقدير الضرائب من الزيادة المنصوص عنها فى المواد السابقة يضاف إلى جملة الضريبة المقررة لكل بلد خسبما قدرته لجان تعديل الضرايب فى سنتى خمسة وتسعين وستة وتسعين ويكون المجموع هو قيمة الضرائب النهائية المقتضى توزيعها علي جميع أطيان البلد عند تعديل الضرائب طبقا لأحكام المادة الثانية من أمرنا المشار إليه المؤرخ فى عشرة مايو سنة تسع وتسعين وثمنمائة وألف .

المادة السادسة : على ناظر المالية تنفيذ أمرنا هذا ا . هـ .

أقول وبعد تلاوة هذا الأمر قام رئيس المجلس ومعه سائر الأعضاء وساروا إلى قصر الإمارة ورفعوا إلى الأمير واجب الشكر على الرسم المعتاد وانصرفوا ثم مضوا فى عملهم ذلك .

وبينما الناس يفكرون فيما سيكون من وراء اجتماع الجمعية العمومية لمجلس الشورى وهو يؤملون أن رجالها يوفقون إلى طلب إبطال بعض المكوس والمغارم

والضرائب[٦٧] لم يبق لها محلا مثل عوائد النخيل وضريبة الأرض المزروعة فيها ، وإصلاح المصارف ووضع قانون للصحف التى يعيش أصحابها من المطاعن والمثالب ، وطلب التصريح بتركيب الآلات الرافعة على النيل شرقى أطفيح بإقليم الجيزة ، إذ جاء الخبر من أمير الحج بوقوع الوباء الأصفر بين سائر الحجاج فى جدة والمدينة ومكة واشتداده من يوم إلى يوم حتى بلغت الوفيات فى المدينة وأرباضها أربعمائة كل يوم أو يزيد . وورد على بعض أهل الحجاج المصريين أخبارا بأن الوباء متفشى تفشيا مريعا جدا ، وأن الموات بالغا أشده فى مكة وجدة ، وأن تعدى العربان على الحجاج والنهب لم يسبق له مثيل ، وأنهم يتبعون الركب فى كل مرحلة ويتخطفون مؤخرته وأن الجمالة المدركين بأثقال الركب وخدمة الحجاج يفعلون بالحجاج من القتل ونهب الأحمال ما لم تره عين قبل . قالوا كان إذا تأخر الراكب عن بعيره خطوة لقضاء حاجته انقض عليه الجمال وضربه بهراوته على أم رأسه فيسقط ميتا أو مغمى عليه فيأخذ ما معه ويتركه ويذهب . وكانوا يفعلون ذلك وأشباهه بلا خوف ولا مبالاة حتى كاد بعض الحجاج يرجعون بعد حجهم البيت الحرام ولا يحجون إلى المدينة . قالوا وأما فى مكة فرغما من الوباء المتفشى والموت المنتشر بين أهل مكة والحجاج على اختلافهم فقد كانت فعال المطوفين أشد نكرا بالحجاج وأكبر ضررا .

طفق الناس يتسالون[٦٨] عما يفعله أهل الحل والعقد بمن سيرجع من أولئك الحجاج عند طلب الأموال التى أودعوها فى خزائن الحكومة رهينة وقد ظهر الوباء بينهم ووجب وضعهم تحت الحجر الصحى فى محاجر الطور وعيون موسى وتكليفهم بالنفقة فى تلك المحاجر أيام الحجر . فكان فريق منهم يرى أن اشتغال جماعة الوزراء بما هم فيه من الخبال وزعزعت[٦٩] الأحوال ربما كان من ورائه تعبا للحجاج وإهمالا لأمرهم ، فقد كان القول متواترا بين الكبار العارفين فى هذه الآونة بعزم الرئيس مصطفى فهمى باشا على ترك منصب الرئاسة والتخلى عنه ، وأنه كلم الأمير فى ذلك فوعده . وتوجهت الأنظار إلى من يخلفه . أقول وما هى إلا أيام حتى وقعت الفرقة بين الوزراء وخائن

(٦٧) والضرائب = والضرائب التى أضيفت الكلمة ليستقيم النص

(٦٨) يتسالون = يتسائلون قراءة ترجيحية .

(٦٩) وزعزعت = وزعزعة قراءة تصحيحية .

بعضهم بعضا حتى قام وزير الحقانية يطلب الاستقالة من منصبه أيضًا بسبب ما بدا من الأمير من العفو عن جندى سودانى كان قد حكم عليه بالإعدام رميا بالرصاص قبل أن يقرر مجلس الوزراء طلب العفو . وكان أحد الوزراء ولعله وزير المعارف يريد المعارضة فى العفو وتجسيم الخلاف فلم يوافقه وزير الحقانية ، فشدد وزير المعارف وهدد وانقسم الوزراء على ذاتهم . وقامت ضجة أخرى حول طلب أهل الحل من الإنجليز استصدار قرار من الوزراء بحرمان قدماء الضباط الذين خدموا بالسودان من معاشاتهم التي يطالبون بها الخزينة . وكان الرئيس مصطفى فهمى باشا ووزيرى المعارف والخزينة يعضدون طلب جماعة الإنجليز ، فخالفهم الآخرون وسفهوا أحلامهم وهددوا بترك مناصبهم . وتكلم وزير الحقانية فى ذلك كثيرا وقال إنى لا أريد أن نكيل للناس بكيلين ولا أن تكف يد القضاء بما يبرز من جانب هذا المجلس من الأوامر . وظل الحال على هذا أياما كان الجفاء فيها بين جماعة الوزراء مستحكما ، وتخلى بعضهم عن منصبه متوقعا فى كل ساعة من الزمان حتى كان من وراء ذلك ما سيجىء فى محله .

ومن النكات المضحكة التي اشتهر بها عرابى بعد العفو عنه وقعوده فى عقر داره بخطة السيدة زينب أنه جاء إلى داره فى صبح ثانى عشر مارس جماعة من الضباط الذين كانوا معه فى ثورته تلك ليزوروه بينما هو جالس شاخص النظر لماضيه الأسود وحاضره الأرذل . فما[٧٠] سمع بأسمائهم اضطرب اضطرابا شديدا وهب من فوره يريد الاختفاء . فدخل إلى قاعة التنور (فرن) وأغلق الباب وقد أخذته آخذة من السعال يسعل والجماعة وقوف ينتظرون الأذن بالدخول ساعة وهو لا ينكف عن السعال وهم لايبرحون من الباب . فلما طال المطال وقد تعاصى عليهم معنى هذا السعال فقال أحدهم ضاحكا إن هذا الجبان فى عقر داره بين ولده ونسائه ليس بأثبت منه جنانا يوم التل الكبير بين مئات الألوف من المصريين الذين تركهم وقد استاقهم إلى الوغى بتغريره وأضاليله وأباطيله ، فامشوا بنا يا قوم واتركوه . فمشوا وظل هو فى التنور مختبئًا حتى فارقه السعال وعادت إليه قوته . فخرج من يومه يريد بلد منشاوى باشا ليقيم معه ايام[٧١] . وشاع خبر ذلك فكان حديث الناس فى نهارهم وسمرهم فى ليلهم ، ومضى أهل التنكيت والتبكيت فى

(٧٠) فما = فلما قراءة ترجيحية .

(٧١) ايام = اياما قراءة ترجيحية .

تأويل غرض عرابى من ذلك الاختفاء والتجائه إلى مزرعة منشاوى باشا إلي معانى كثيرة كلها هتر ومجون حتى لقد قال صاحب المجلة المصرية بين لطيفين يفاخر بهما بين (القائد دى ويت) قائد العساكر البويرية فى حربها العوان مع الجيوش الإنجليزية وبين عرابى وفراره حيث يقول :

دام (دى ويت) غـــانمـــا سـالمـا من محـاربه
لـيت ثيـــرانه التى هى إحـدى عجـائبه
يشـتـرى اثنان منهـما بعـرابى وصـاحبه

ومعنى ذكر الثيران هنا أن ثيران أولئك القوم البوير قد فعلت فى حربهم مع الإنجليز من الشجاعة والإقدام على دوس العساكر الإنجليزية بأظلافها وفتح الطريق للمقاتلة من أولئك البوير ما جان على[٧٢] دهشة وحيرة عند مقدمى عسكر الإنجليز . ولم يتولاهم الخوف عند إطلاقهم ولا اعتراهم الجزع من نيران مدافع الإنجليز كما وقع لعرابى . أقول وكأن ذهاب عرابى إلى بلدة المنشاوى باشا والتصاقه به شؤما على المنشاوى ، أو هو شر مقيم . ذلك أنه اتفق أن سرق[٧٣] إحدى مزارع الأمير المجاورة لبلد المنشاوى التي يقال لها (الرجدية) ثورين . ووصل خبر ذلك إلى مدير إقليم الغربية وصاحب الشرطة بها . فاهتما بالأمر كثيرا وبثا العيون وطيروا الخبر إلى الآفاق وظلوا على بحثهم أياما فلم ينالوا منالا . وعلم المنشاوى بما جرى فأرسل إلى خاصة الأمير يطلب منها الإذن بالبحث عن الثور[٧٤] فأذنت له بذلك . فما هى إلا أيام قلائل حتى شاع وملأ الأسماع خبر القبض على اللصوص الذين سرقوا الثور[٧٥] ، وأنهم قد ذبحوا الثور[٧٦] ، والسارقين لصين من بلدة (شبرا قاص) إحدى بلدان الغربية . وسلم اللصين إلى مأمور المركز فمضى المأمور فى استنطاقهما فاعترفا بالسرقة وذبح الثورين ، وأنهما ألقيا جلدهما فى النيل . فأوصلهما

(٧٢) ماجان على دهشة وحيرة = ما سبب الدهشة والحيرة ـ عدلت العبارة على هذا الشكل لتتفق والمعنى الذى يقصده المؤلف من هجاء عرابى ووصفه بالجبن .
(٧٣) سرق = أن سُرِقَ من قراءة اجتهادية .
(٧٤) الثور = الثورين قراءة تصحيحية .
(٧٥) الثور = الثورين قراءة تصحيحية .
(٧٦) الثور = الثورين قراءة تصحيحية .

المأمور بعد الاعتراف إلى مقر النيابة وهذه أرجعتهما إلى رجال الشرطة وديعة لحين طلبهما . فباتا ليلتهما تلك ببيت الشرطة وأصبحا وقد جاء المأمور فى طلبهما وأخذهما وسار بهما إلى (القرشية) حيث يقيم المنشاوى باشا . فلبثا هناك يومين ثم عاد بهما المأمور إلى طنطا فطلبهما رئيس النيابة لاستنطاقهما ، فشكيا إليه ما حل بهما من الضرب الأليم والعذاب الجسيم ، وأقسما أن اعترافهما بسرقة الثورين كان ليخلصا من التعذيب المبرح . فبرز الأمر فى الحال بالكشف عليهما طبيا فظهرت آثار الضرب فيهما وبانت للعيان علامات التعذيب وتقرر لعلاجهما خمسة عشر يوما . وطيروا الخبر بذلك إلى المراجع العالية ، وبرز الأمر باستدعاء مأمور المركز لسؤاله عما فعل ، وطلبوا حضور المنشاوى باشا أمام هيئة القضاء فلم يحضر بدعوى أنه مريض . وكثر تحدث الناس فى هذا الأمر وتضاربت الأقوال ، وقال أهل الحل والعقد أن المأمور نقل المتهمان إلى قصر المنشاوى ليعذبا وهو يعلم أنهما فى قبضة القانون وكنف العدالة . قيل وسار الشيخ محمد عبده مفتى الديار إلى طنطا لعله يحل عقدة هذه الحادثة بين مدير الغربية ورجال محكمتها . وجعل المنشاوى يسعى فى استرضاء أهل المتهمين بالرشاء والبرطيل ويتدبر فى كف النيابة عن طلبه واستحضار المحقق إلى مقره تعظيما لشأنه بين قومه الذين يعدونه سلطان الغربية . وطال سعيه وساعده على ذلك نفر ممن يتحككون بالأمراء والكبراء وأهل المناصب العالية فلم يفلحوا . واشتد أهل القضاء فى طلب الباشا ، وبرز الأمر بالقبض عليه فجاء يوم سابع عشر مارس إلى مقر النيابة ووقف موقف التحقيق ، فأنكر تعذيب المتهمان أو ضربهما وقال أنهما من ذوى السوابق وأهل الفساد . وقرر مأمور المركز أيضًا بأنه أخذهما إلى قصر المنشاوى بإذن من المدير ، ولم ينفع[٧٧] لهما شيئا البتة . وتطاولت الأعناق إلى معرفة ما سيكون من وراء هذا التهديد والوعيد . وقد أكد جماعة الإنجليز أن لبعض رجال قصر الإمارة يد فى الأمر ومشاركة فى عمل التعذيب . واهتم المستشار القضائى بالحادثة اهتماما عظيما ، وشدد على النائب العمومى بتتبع أدوار التحقيق إلى نهايته . وبرز الأمر إلى رئيس نيابة طنطا بالتعجيل والعمل بما يقتضيه القانون . يقال وكلم لورد كرومر الرئيس مصطفى فهمى باشا وبطرس غالى باشا فى ذلك

(٧٧) ينفع = يفعل قراءة اجتهادية .

وأظهر لهما شيئا من الغلظة فى القول ، ولم يكتمهما ما فى صدره من تقبيح عمل رجال قصر الإمارة وعبثهم بمهمة القضاء ومناصب القضاة . وقال لابد من سؤال الأمير فى ذلك . قيل وكان جفاء اللورد وخشونته فى هذه الآونة ناجمان عن شيء فى نفسه وعن أمور كثيرة نقمها على صاحب القصر وأصررها إليه . فترامت إذ ذاك الظنون إلى أبعد المرامى وأعصاها . وجعل الوزير بطرس باشا غالى يغدو ويروح بين القصر ومقر الوكالة البريطانية والرئيس فى قلق وحساب ، ولا حديث للناس إلا ذينك اللصين وما سيكون من وراء ذلك .

وجاء النائب العمومى ومعه المستر ويلسون أحد مفتشى الداخلية إلى مدينة طنطا وذهبا توا إلي النيابة واستدعيا مأمور المركز وسمعا أقواله ، وكذلك سمعا أقوال المنشاوى . ثم برز أمر النائب العمومى بسجن المنشاوى باشا والمأمور ، فساقهما أصحاب الشرطة إلى السجن . وشاع خبر حضور النائب العمومى ومن معه فتوافد الناس وتزاحموا على أبواب المحكمة ، وغصت الطرق بكل عظيم وحقير . فلما مر الباشا والمأمور على تلك الحالة بين الناس كانوا فى دهشة وحيرة كأن على رؤوسهم الطير . وسير النائب العمومى فى طلب طبيب الحكومة الشرعى فبحث[٧٨] المصابين وقرر أنهما ضربا ضربا مبرحا . وقبضوا على ثلاثة من أتباع المنشاوى وألقوهم فى السجن . وجاء فى أول يناير[٧٩] إسماعيل أباظة بك المحامى إلى طنطا وطلب الإذن من النيابة بالدخول إلى المنشاوى فى سجنه فأذنت له ، ولكن المنشاوى رفض مقابلته وطلب آخرا اسمه عبدالكريم أفندى فقابله فى سجنه ولبث معه لحظة . ورأى بعض أصحاب المنشاوى ونفر من أعيان طنطا أن يؤلفوا وفدا يذهب إلى القاهرة ليستعطف الأمير وجماعة الوزراء بطلب الإفراج عن الباشا بضمان مالى كبير إلى أن يتم التحقيق ويصدر الحكم فلم يفلحوا فى ذلك أيضًا لوقوف جماعة الإنجليز لهم بالمرصاد . قالوا وعلم النائب العمومى أن أحد رجال ديوان التشريفات ذهب إلى طنطا ليسعى فى تبرئة المنشاوى أو تخفيف الجرم عنه ، وأن المفتى ساعده على ذلك . فبرز الأمر فى الحال إلى مأمور السجون بأخذ الحيطة وعدم اجتماع أحد بالمسجونين . وتقرر معاقبة أحدهما المأمور بالعقوبة

---

(٧٨) فبحث = ففحص قراءة ترجيحية .

(٧٩) يناير = يفترض أن يكون الشهر هو أبريل ، فالواقعة المشار إليها وقعت فى شهر مارس عام ١٩٠٢ .

المنصوص عنها فى المادة ١١٧ من قانون العقوبات بصفته فاعلا أصليا للخيانة[٨٠] ، وعلى المنشاوى بهذه المادة أيضًا بصفته شريكا له . وتفشى خبر ذلك بين الناس ، وجاء الطلب إلى (سعد الدين باشا) مدير الغربية بالشخوص إلى القاهرة فذهب ثم عاد . وما هى إلا عشية أو ضحاها حتى جاءه الأمر بالتخلى عن عمله وحضوره إلى مجلس التأديب العالى لمحاكمته جنائيا أيضًا ـ أقول ـ وهذا المجلس يؤلف برأسة وزير الحقانية وعضوية وكلاء الوزارات الأربع الداخلية والخزينة والخارجية والأشغال العمومية ، ومن مدير الأوقاف الخيرية ورئيس محكمة الاستئناف والنائب العمومى ورئيس قلم القضايا والمستشار الخديوى . فتطير الناس وكثر تساؤلهم عما سيكون والرجل خالى البال من كل ما حدث ، ولم يكن له فى إجابة طلب المأمور أخذ أولئك المتهمين إلى قصر المنشاوى قصدا ، بل لم يكن ليعلم أن المأمور والمنشاوى يتعديان على العدالة والقانون كما يقول عارفوه وبعض أصحاب الكلمة المتوبعة[٨١] .

أقول : يقول عامتنا مثلا لا بأس به وتسنده إلى أن رجلا مر بطاحون يدير رحاه ثور فحدثته نفسه أن يدخل الطاحون ويشاغب الثور حتى يضحكه . فبينا هو على هذا إذ زلت قدمه وسقط فى حفرة الطاحون ، فظن أن الثور يقف ويستبقى عليه حتى يخلص فلم يفعل وظل يدير الرحى فاستعطفه فلم يفعل ، فجعل يستغيث ويصيح بأعلا صوته الخلاص . فسمعه بعض[٨٢] المارة وانحى عليه باللوم والتعنيف ، ويقول له ما شأنك وهذا يا رجل ، تدخل الطاحون لتداعب الثور وأنت ليس لك فى الثور ولا فى الطحين؟ فذهب هذا القول مثلا . وهكذا الحال مع المنشاوى . كان الأمير معرضا عنه لأمور نقمها عليه ، فما هو أن علم بخبر ضياع الثور حتى تقدم إلى قصر الإمارة لكى يأذنوا له بالبحث عنه قصدا ارضاء الأمير والحصول على عطفه بعد ذلك الجفاء . فلما أجابوا طلبه أفرط فى إزدهائه وتمادى فى ادعائه وجرأه تسامح الأمير بعد طول الإعراض ما فعل . يقول أهل الكلمة المتبوعة فعل ذلك بسطوته وجاهه وبأسه وقوته . والعجب أن الرجل ما دخل السجون حتى ظهر أعداؤه الكثيرون وتوارى أصدقاؤه القليلون . ولما اشتدت كربته أرسل

(٨٠) للخيانة = للجريمة قراءة ترجيحية .
(٨١) المتوبعة = المتبوعة قراءة ترجيحية .
(٨٢) بعض = أحد قراءة اجتهادية .

رسائل الإسترحام على جناح البرق إلى ديوان الأمير وجماعة الوزراء . فسير الأمير أحد رجال ديوان الخاص إلى طنطا ، فذهب الناس فى إرساله مذهبان ، الأول أنه ذهب ليتجسس مجريات تحقيق النائب العمومى ومفتش الداخلية الذى كان من ورائه القاء الرجل فى الحبوس ، والثانى ليعمله[٨٣] أنه لم يهمل شكواه بعد رجوعه إلى الطاعة والإخلاص لآل البيت العلوى . كل هذا والنائب العومى يأتى فى كل صباح من القاهرة إلى طنطا ويعود إليها مساء وهو متابع للتحقيق وسؤال الشهود وكل من له علم بهذه الحادثة كأنها فى[٨٤] فى أمهات الحوادث وأكبر الجنايات فظاعة .

وكتب المنشاوى تقريرا مطولا بالعربية يقول فيه أنه يفضل النفى المؤبد من الديار المصرية على بقائه فيها مهانا محقرا مسجونا لغير ذنب فى أيام شيخوخته . وسلم التقرير إلى المحامى عنه وطلب منه أن يترجمه إلى الإنجليزية ويرفعه إلى لورد كرومر ملتمسا السعى لاستصدار قرار وزارى أو أمر عالى بنفيه . وسار محاميه إلى القاهرة من أجل ذلك .

ولما كان يوم الاثنين رابع عشر أبريل من السنة سار أحد محضرى المحكمة إلى سجن المنشاوى باشا ومأمور المركز وبقية المتهمين وسلمهم جميعا ورقة الإتهام وإعلانهم بالحضور أمام جلسة الجنايات التى ستعقد فى يوم ٢٢ أبريل المذكور . ووصل تقرير المنشاوى إلي لورد كرومر وعلم ما فيه وقال لمحامى المنشاوى إن هذه المسألة خارجة عن اختصاصه وأنها من الأمور التى تتعلق بوزارة الداخلية مباشرة .

ولما كان حادى عشرة أبريل أعلنت وزارة الداخلية قرارها الوزارى بعزل محمد سعد الدين باشا مدير الغربية وقالت ما نصه (حكمت المحكمة العليا التأديبية المنعقدة بسراى نظارة الداخلية بتاريخ ١٣ أبريل بعزل سعادة سعد الدين باشا مدير الغربية من وظيفته مع حفظ حقوقه فى المعاش نظرا لتجاوزه حدود الوظيفة ومخالفته القواعد الأساسية المقررة فى مواد التحقيقات الجنائية في قضية سرقة ، وقد تصدق على الحكم من الجناب العالى الخدوى ا . هـ .

---

(٨٣) ليعمله = ليعلمه قراءة تصحيحية

(٨٤) فى = من قراءة تصحيحية .

وما تفشى خبر ذلك حتى تناقله أصحاب الصحف المحلية والأجنبية ، وقاسوا وفصلوا وخاطوا له أشكالا من النقد والتسفيه ، حتى لقد قال بعضهم أن يد السياسة قد تطاولت إلى حادثة الثور فصبغتها بصبغة شائنة معيبة شوهت وجه العدالة والقانون . وعاد بعضهم إلى ذكر تحقيق الحادثة وما اعتوره من الأدوار والأطوار واهتمام جماعة الإنجليز له(٨٥) ذلك الاهتمام الجارح ، وظلوا على هذا حتى جاء موعد محاكمة المنشاوى ومن معه .

اجتمعت المحكمة فى صبح ثانى عشره الشهر وجىء بالمتهمين من السجن يخفرهم أصحاب الشرطة فأدخلوهم قاعة الجلسة ، وأوقفوا المنشاوى باشا ومأمور المركز (جلبى أفندى) ناحية ، ووقف أربعون جنديا على الأبواب . فلما صارت الساعة الثامنة تماما وكانوا قد وزعوا ما يتين وخمسين تذكرة لدخول أشخاص معينين ، وكان المنشاوى باشا قد طلب من النيابة ألا تسمح لنفر بالدخول فى قاعدة(٨٦) الجلسة لأنهم أعداؤه . قال ووجودهم بين الحاضرين يقلقه ويحزنه كثيرا فأجابت طلبه . وبعد سماع شهادة شهود الأثبات وشهود النفى تكلم المحامون كل فى دوره ، وظلت المرافعة يومين ونصف يوم كان الأخذ والرد فيهما شديدين للغاية . فلما صارت الساعة الثالثة بعد ظهر اليوم الخامس والعشرين فتحو أبواب قاعة الجلسة فأقبل الناس من كل فج عميق وزاده عناية الجند بحراسة الأبواب . ولبثوا ينتظرون سماع الحكم . أما المنشاوى باشا ومن معه وأبا عليهم(٨٧) وطال(٨٨) انتظارهم حتى ملوا وضجروا . فلما صارت الساعة الثامنة خرج الرئيس والقضاة ونطق الرئيس بالحكم بحبس المنشاوى باشا ثلاثة شهور لاعتباره فاعلا أصليا للجريمة ، وعلى أفندى جلبى مأمور المركز بالحبس شهرين ونصف شهر لاعتباره شريكا فى الجرم ، وعلى بقية المتهمين بالحبس شهرين فقط لاعتبارهم منفذين لإرادة مولاهم . فلما سمع المنشاوى الحكم اضطرب اضطرابا شديدا حتى كاد يغمى عليه ، وظهرت على الوجوه علامات الأسف ، وكان الجمع المحتشد حول قاعة الجلسة ساكت باهت كأن على رؤوس الجميع الطير . وخرج المتهمون من قاعة الجلسة إلى دار السجن

(٨٥) له = به قراءة ترجيحية

(٨٦) قاعدة = قاعة قراءة ترجيحية

(٨٧) وابا عليهم – استبعدت العبارة لعدم أهميتها في توضيح النص .

(٨٨) وطال = فقد طال عدلت العبارة ليستقيم النص

بين الجنود المحافظة وشقوا من وسط المجتمعين فكان المنظر مهيبا جدا . وأصبح لا حديث للقوم بخبر هذا الحادث بعد أن كان شغلهم الشاغل .

وانقلب الناس من حيث قضية الثور وأدوارها تلك ، إلى (حادثة المطبعة العثمانية) وما كان من وراء كسر أبوابها ودخولها عنوة بارشاد عميد الإحتلال . ذلك أنه كان قد أنشيء فى القاهرة مطبعة باسم المطبعة العثمانية لشخص اسمه (صالح أفندى كمال) ، ثم ادعى آخر اسمه (بحرية لى أفندى رضى) أنه اشترى قسما فيها من صاحبها ، وصاحبها ينكر عليه ذلك . فأقيمت الدعوى بين المتنازعين أمام القضاء إلى[٨٩] حكم بصحة دعوى (بحرية لى أفندى) ذلك . فلما كان فى أحد الأيام طلب (يوسف عزة باشا) الوكيل عن (بحرية لى أفندى) تنفيذ ذلك الحكم وتسليمه المطبعة . فلما جاء المحضر للتنفيذ اعترضه رجل فرنسى بحجة أنه خصم ثالث . فعاد المحضر على أعقابه . يقال أن الذين أرادوا فتح المطبعة استرضوا بعد ذلك الفرنسوى فرضى بفتحها . فلما علم بعضهم بمنا كان رفع عريضة إلى لورد كرومر يقول فيها أن فى المطبعة أوراقا للجمعية المعروفة بجمعية (شفق) وأسرار أحرار الترك ، فإذا سلمت ذهبت بها أرواح كثيرة . فما هو أن علم اللورد بذلك حتى سير فى طلب (منزفيلد بك) صاحب شرطة القاهرة ورسم له بفتح المطبعة ونقل سائر ما فيها من الأوراق إلى دار الوكالة البريطانية . ففعل وشاع الخبر ذلك بين الناس ، ونقله أصحاب الصحف . وكان المحكوم عليه قد رفع شكواه إلى محكمة الاستئناف فأكبر الناس فعل اللورد وأعظموه وعدوه حطا من حرمة القانون ومساسا باستقلالية القضاء والقضاة . وقالوا لو حمل (منزفيلد) تلك الأوراق إلى دار الحكومة لكان هناك بعض العذر ، ولكنه سلمها إلى الوكالة البريطانية ، فكأن الحكومة المصرية قد زالت بزوال قوتها وسلطتها وقانونها وحرمته وحلت محلها السلطة الإنجليزية . وانقسم أصحاب الصحف فى نظر هذا الحادث إلى قسمين . قسم وهو المتحزب لجماعة الإنجليز يقول وينادى أن على تلك الأوراق كانت موقوفة حياة خمسمائة عائلة من بلاد الدولة العثمانية لأنهم كانوا يراسلون (حزب تركيا الفتاة) ، وكانت رسايلهم موجودة وأسماؤهم مكتوبة فى دفتر المشتركين ، والمابين الهمايونى يبذل النفيس للحصول

---

(٨٩) إلى = الذى قراءة اجتهادية .

عليها ، وأن قصر الإمارة يشتغل منذ عامين للحصول على تلك الأوراق . فخلاص[٩٠] عليه واحدة بما صنعه عميد الاحتلال هو الحسنة التى لا يضارعها حسنة ، لأن الاحتلال موكول إليه رفع راية الأمن والراحة على هذه الربوع ، ففعل ما فعله ولو خالف القضاء وأزعج القضاة ويوجهون[٩١] هذا الفعل للنكاية برجال القصر . وقسم وهو لسان حال أهل القصر يبكى على القانون الضائع والقضاء الذى زالت هيبته وانحطت سلطته وكادت أيدى الإحتلال تمزقه كل ممزق . أقول وقد أجمع رأى أهل الحل والعقد من جماعة الإنجليز على أنهم فعلوا ما فعلوه قصدا واعدا وهم يعترفون جهارا وعلانية لكل سائل من رجال القنصليات وغيرهم ، وأنهم حقيقة خالفوا بعملهم حكم القانون وأنهم لم يفعلوا ما فعلوه إلا لأنهم لم يجدوا حجة قانونية توصلهم لأخذ تلك الأوراق التى علم أنها سرية كما يقول أصحاب المطبعة ، وأن رجال القصر كانوا يسعون جهدهم لأخذ تلك الأوراق خدمة للسلطان (وما[٩٢] بينه) . قالوا ولقد أرادوا يعنى جماعة الإنجليز بفعلتهم هذه أولا خلاص أصحاب تلك الأوراق من الهلاك المقضى بوقوعهم فيه ، وثانيا تفهيم أصحاب قصر الإمارة بأن ليس لمصر أن تشتغل بالمسائل السياسية ، لأنه إذا كانت لمصر سياسة فإنما هى سياسة حفظ مقام أميرها ، وهذا المقام محفوظ بضمانة الدول الست الكبرى ، لايمكن لدولة من الدول أن تمس هذا المقام . قلت ولا انجلترا نفسها ، فإنها حاولت ثلاثا أن تفعل ذلك فلم تفلح ، إذ قامت يومئذ فى وجهها دولتى الروس والفرنسيس قياما شديدا وحاربتاها حربا سياسية عوانا حتى أقعدتاها عن كل عمل

---

(٩٠) فخلاص عليه واحدة = فخلاص عائلة واحدة قراءة اجتهادية .

(٩١) ويوجهون = ووجه

(٩٢) ما بينه = ما بين السلطان ـ والمابين كلمة عربية تعنى ما بين السلطان والناس أيا كانوا ـ أصبحت الكلمة ترمز بمضى الوقت إلى مجموعة موظفى الديوان السلطانى الذين ينقلون من وإلى السلطان أمور إدارة الدولة ـ ثم تحول المابين إلى هيئة كبرى تماثل ما يسمى الآن بديوان كبير الأمناء ، أو الديوان الملكى أو ما يسمى فى القصر الملكى البريطانى Chamberlain أى الياور أو الحاجب . فى عهد السلطان (عبدالحميد الثانى) تعاظمت سلطة (المابين) وأصبح هو الدولة وتولى صلاحيات إدارية وسياسية خطيرة بفضل ما أولاه أياه السلطان من ثقة . وهكذا فإن مصطلحات المابين الهمايونى (الديوان السلطانى) ، والباش ما بينجى (رئيس الديوان السلطانى) والمابينجى (عضو الديوان السلطانى) ، كانت هذه المصطلحات هى السائدة فى أدبيات عهد عبدالحميد . ولقد كان (باشكاتب المابين) هو صاحب المركز الرسمى الأول فى (المابين) ، وكان يستطيع أن يحرك اتجاهات السلطان تجاه الخديو فى الفترة موضوع هذه الدراسة . لذلك فقد كانت السلطات المصرية فى عهد (عباس حلمى الثانى) تسعى إلى كسب (باشكاتب المابين) إلى صفها من أجل تحسين العلاقات بين الخديو والسلطان عبدالحميد .

ـ أحمد شفيق باشا (مذكراتى فى نصف قرن) ـ الجزء الثانى ـ القسم الأول يناير ١٨٩٢ - ١٩٠٢ ـ مطبعة مصر ـ القاهرة ـ ١٩٣٦ ـ مواضع متفرقة .

وأرجعتاها عن ذلك القصد مقهورة . قالوا ولا خوف من وقوع مثل ذلك مرة ثانية فإن سياستنا اليوم يعنى سياسة الإنجليز غير سياستنا أمس ، وما نريده اليوم لا يتعذر علينا الحصول عليه جملة . ولذلك فإنا لا نتغافل عن مطاردة أحرار الترك ولا نسمح بالتجسس والمحتالة[٩٣] ، لأننا باحتلالنا مصر قد عممنا الحرية فى البلاد وبسطنا الأمن فى سائر أنحائها ، وأن الاحتلال لم يفتح المطبعة العثمانية باسمه بل باسم الحكومة المصرية نفسها التى أصدرت بذلك قرارها المستعجل ا . هـ .

أقول ولم يكن قصد اللورد كرومر على المشهور يومئذ منع الضرر عن أحرار الترك كما يقول ، ولكنه كان يقصد إيقاف أهل القصر عند حدهم وعدم تماديهم على عمل الجاسوسية ، وقطع كل صلة بينهم وبين (المابين الهمايونى) حتى إذا ما بلغ قصده انقلب على صاحب القصر وأحرجه وضيق عليه ما استطاع ، وقد تم له ذلك أو كاد وغرس فى النفوس أنه فعل ما فعل إرهابا لأهل القصر وتشهيرا بهم وتعجيزا لهم ، حتى خيل للناس أن وراء هذا الأمر ما ورائه وأن الأمير لا يطيق الصبر على هذا طويلا . وتفشى القول بعد ذلك بعزم وزيرالحقانية على التخلى عن منصبه لما بدا من جماعة الإنجليز من التحكك بالقضاء والتحرش للقضاة ودوس القانون . وكان الناس يتوقعون خلعه لنفسه كل يوم . ومن العجيب أن هذه المحنة التي قد ساء دورها وكبر بين أهل الإمارة وقصر الإمارة أمرها[٩٤] إلى هذا الحد من الإرهاب والتهديد كانت تجارة من السياسة رابحة جدا . فقد كان أهل الحل والعقد يسمحون لهؤلاء القوم الترك بالنزول بين أهل البلاد وفعل ما يشاءون اتجارا بهم فى سوق السياسة . وكان آخرون يمدونهم بالمال ويستقدمونهم من ديار الفرنجة وغيرها ليرهبوا بهم الباب العالى ويستدروا بواسطتهم عطاء (المابين) وينالوا رزقا باسمهم . وعندى أن أولئك القوم لم ينزلوا على هذه الديار الآمنة المطمئنة من أنفسهم ولا ألفوا جمعياتهم وأنشأوا جرايدهم بمالهم ولا[٩٥] يتجرأوا على سب السلطان وشتم رجال الدولة بحولهم وقوتهم ، بل إنهم فى ذلك مدفوعين مأجورين

(٩٣) المحتالة = المخاتلة قراءة اجتهادية .
(٩٤) أمرها - استبعدت الكلمة ليستقيم المعنى .
(٩٥) ولا = ولم قراءة اجتهادية .

مسمنين كما يسمن الجدى الذى يعد للوليمة أو العرس ، وكلما[٩٦] بدا من أهل القصرين ورجال الحل والعقد فى أمر أولئك الترك مخاتلة وأغراب ، وشديد على الإنسان ما لم يُعَوَّدْ[٩٧] .

وكان هذا العام موسم الحرايق . قد[٩٨] تتابعه الأخبار بوقوع الحريق فى بلدة (الطود) بإقليم البحيرة فدمرت زهاء الخمسين دارا . ومن كفور نجوم[٩٩] بإقليم الشرقية بوقوع الحريق فى بلدة الخضارية فأحرق ثلاثين دارا ، ومن ملوى بإقليم أسيوط بوقوع الحريق فيها فدمر ستين دارا منها ، ومن سمنود بإقليم الغربية بوقوع الحريق فيها فدمر خمسة عشر دارا . وكل هذا الحريق وقع فى يوم واحد هو سادس عشر أبريل من السنة . فاهتم أهل الحل والعقد لهذا الحادث اهتماما عظيما وسيروا الكتب إلى الولاة والعمال بأخذ الحيطة لذلك ودفع المضار عن أولئك المنكوبين . فأعدوا لهم الخيام ورتبوا لهم الخبز فى كل يوم حتى زالت نكبتهم وتحسنت حالهم .

وكان فى هذا الحين لم يعلم خبر ما جرى على البعثة[١٠٠] التى قامت من القاهرة إلى الخرطوم ومنها إلى (بحيرة تسامة) عند تخوم الحبشة ، وكان الناس يتوقعون من وراء هذه البعثة نفعا كثيرا وتحسينا فى العلاقات بين (النجوسى) والحكومة المصرية . وكان

(٩٦) وكلما = وكل ما قراءة اجتهادية

(٩٧) كانت المطبعة العثمانية فى القاهرة تطبع مطبوعات ضد السلطان لجماعة (تركيا الفتاة) المناوئة للسلطان ، وكان (الخديو) يسعى فى مجال محاولاته استرضاء السلطان ، للحصول على أوراق سرية سياسية تفضح سر هذه الجماعة . مع تداول القضية وانتهائها على النحو الذى ساقه المؤلف ، خشى أعضاء جماعة تركيا الفتاة من أنكشاف أمرهم لو أن أوراق المطبعة التى كانت تحوى بالطبع أسمائهم أو أنشطتهم وصلت إلى الحكومة المصرية التى ستسلمها بالطبع إلى السلطان الذى كان يسعى إلى الفتك بهم لو عرفهم . بعث أعضاء الجماعة إلى (اللورد كرومر) المعتمد البريطانى فى مصر ببرقية قالوا فيها (إن فى هذه المطبعة أوراقا سياسية لو نشرت لكانت سببا فى القضاء على حياتهم ، وأن المعية (القصر الخديوى) تبحث منذ عامين للحصول عليها إرضاءً للسلطان ، وأن هذه القضية مدبرة فقط للحصول على هذه الأوراق ، وأن الأوراق عبارة عن سجلات المشتركين في (جماعة تركيا الفتاة) ، وبعضهم يقيم فى البلاد التركية وفى متناول يد السلطان .

فى ١٩٠٢/٤/١٠ أمر (اللورد كرومر) (منسفيلد بك) حكمدار بوليس العاصمة باقتحام المطبعة وكسر الأختام القضائية وأخذ الأوراق الموجودة بها ، وبالفعل فإن الأوراق وصلت إلى الوكالة البريطانية كما ورد فى النص .

ـ أحمد شفيق باشا (مذكراتى في نصف قرن) ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ٣٩٤ - ٣٩٥ .

(٩٨) قد تتابعه = فقد تتابعت قراءة تصحيحية .

(٩٩) نجوم = نجم قراءة ترجيحية .

(١٠٠) على البعثة = للبعثة قراءة تصحيحية .

جماعة الإنجليز يقولون أن قيام (السير جارستين) صاحب الرى والأشغال العمومية بهذه المهمة خير ضامن لنجاحها . فلما بلغت الحملة الخرطوم وقد أعدوا لها المعدات وجهزوا الأحمال وصاروا على قدم الرحيل جاءهم الخبر من جانب الناجوسى بأنه لايسمح للحملة بالسفر إلى أملاكه . وتفشى خبر ذلك بين الخرطوم والقاهرة ونقله أصحاب الصحف المحلية والأجنبية ، واهتمت له صحف الإنجليز اهتماما كبيرا وأعظمته جدا . قيل وبرز الأمر إلى (السير جارستين) بتسيير (المستر بيرد) كاتم أسراره إلى (الناجوسى) ومعه بعض الهدايا والتحف ليسترضى (منليك) عن البعثة ويأذن بقيامها أو أن تضع[١٠١] الإتفاق مع (الناجوسى) على تلك البحيرة .

فلما كان ثالث عشرة أبريل سار (بيرد) إلى أديس أبابا ونزل على (الناجوسى) ضيفا ، ولبث أياما حتى أذن له (الناجوسى) بالدخول عليه ، قيل ولم يكن المستر بيرد يتوقع ذلك ولا أن يرى فى بلاط الناجوسى إعراضا . فأقام أياما ثم قفل راجعا وقد أشاعوا بعد وصوله إلى الخرطوم أنه أفلح فى بعثته واتفق مع الناجوسى على ما لم تصل إليه[١٠٢] معرفته .

وجاءت الأخبار إلى وزارة الأشغال العمومية مشيرة بوشك نهاية بناء قناطر زفتى إحدى مدن أقليم الدقهلية . وهذه القناطر من عمل أصحاب الرى من جماعة الإنجليز رأوا لزوم إنشائها فى موضعها الذى هى فيه الآن لتساعد القناطر الخيرية على مد الترع العالية بالمياه أيام التحاريق . أقول ـ ويشتغل فى بناء هذه القناطر أربعة آلاف عامل ، وهى مصنوعة على شكل خزان أسيوط فى أقليم أسيوط ، وتقدر النفقة عليها بأربعمائة وخمسين ألفا من الجنيهات أو يزيد قليلا . قالوا وسيبنون ترعة جديدة تسمى ترعة زفتى تستمد المياه من وراء القناطر وتستمد الماء أيضًا من هذه القناطر ترعة المنصورية . وتؤلف هذه القناطر من ثلاثين قنطرة وسع كل قنطرة منها خمسة أمتار . وما أن جاء خبر ذلك حتى تأهب لورد كرومر وقرينته الكونتس والمستر غروست[١٠٣] وشقيقته إلى

(١٠١) تضع = يضع قراءة ترجيحية .

(١٠٢) اليه = إلينا قراءة ترجيحية .

(١٠٣) غروست = جورست ـ السير الدون جورست Eldon Gorst (٢٥ يونيو ١٨٦١ – ١٢ يوليو ١٩١١) من رجال وزارة الخارجية البريطانية ـ خدم كقنصل بريطانيا العام فى مصر بعد انتهاء خدمة (كرومر) فى سنة ١٩٠٧ ، وظل فى منصبه هذا حتى عام ١٩١١ . ولد فى (نيوزيلند) New Zealand وتربى فى لندن . تعلم فى كلية (أيتون) Eton (وكلية ترينيتى) Trinity College بجامعة كامبردج Cambridge . فى ١٨٨٥ كان قد أصبح محاميا =

الذهاب إلى زفتى لمشاهدة ما تم بناؤه من تلك القناطر . فقاموا فى سادس عشرة أبريل من السنة فى قطار مخصوص وقد أعدوا لهم هناك ما طاب من المأكول والمشروب ، وكان فى انتظارهم نفر من أصحاب الشرطة ومأمور المركز وصاحب الشرطة وكثيرين من عمد البلاد وأعيانها ممن ابتلوا بحب الظهور ومجاملة أصحاب الاحتلال . وكان ذهاب القوم فى ذلك اليوم وليس بينهم واحد من الوزراء أو كبير من الكبراء مدعاة إلي الظنون وباعثا إلى الطيرة والقيل والقال ، حتى ظن بعضهم أن الجفاء مستحكم بين الأمير وجماعة الوزراء وأصحاب الاحتلال . ما فعل(١٠٤) ذلك ألا ليظهر للناس مبلغ نفوذه ويعلمهم بما صارت إليه سلطة الإحتلال ولا سيما بعد (حادثة المطبعة العثمانية) وأدوارها التي تقدم بيانها . وتكلم أصحاب الصحف فى ذلك كثيرا وعدوا هذا الحادث البسيط فى بابه من أعقد المسائل فى هذه الآونة وأكبرها شرا . ومن عجائب الاتفاق أنه ما قفل(١٠٥) أولئك الزائرون راجعين إلى القاهرة حتى لحقهم الخبر بوقوع الحريق في مدينة (ميت غمر) الواقعة على النيل أمام زفتى . قالوا فقد شبت النار شبوبا هائلا بعد ظهر يوم الخميس أول مايو من السنة ، وكانت الريح عاصفة فامتدت النار من دار إلى دار ومن زقاق إلى زقاق ومن شارع إلى شارع حتى عمت المدينة كلها ودمرت ثلثها أو يزيد وأحرقت مكتب التلغراف ومحل البريد وأبادت الأسلاك الكهربائية . فخرج الناس على وجوههم إلى الحقول والمزارع سكارى وما هم بسكارى ، وكثر الصياح والعويل من كل

= وعضوا فى نفس الوقت فى السلك الدبلوماسى البريطانى . فى عام ١٨٨٦ ذهب إلى مصر ليعمل مراقبا عاما للضرائب المباشرة ، ثم أصبح وكيلا لنظارة المالية (١٨٩٢) ، مستشار وزارة الداخلية (١٨٩٤) ، ومستشارا ماليا (١٨٩٨) . فى ١٩٠٤ عاد (جورست) إلى لندن ليعمل وكيلا لوزارة الخارجية البريطانية ليكون فى واقع الحال ممثلا (لكرومر) هناك . أرسل (جورست) إلى مصر فى عام ١٩٠٧ ليحل محل (كرومر) ولينفذ سياسة حكومة حزب الأحرار فى إعطاء المصريين قدرا أكبر من المشاركة فى المسئولية السياسية لبلادهم . بفضل سياسته التى عرفت بـ(Politique d'entente) (دبلوماسية الوفاق) نجح فى إقامة علاقة ودية مع الخديو (عباس حلمى الثانى) ، وعين مصريين أكثر فى مناصب الحكومة المسئولة ، وأضعف (الحزب الوطنى) . لكن سياسته هذه ، مع هذا أغضبت البريطانيين القدامى فى الإدارة المصرية . أغضب تعيينه (لبطرس غالي) رئيسا للنظارة فى سنة ١٩٠٨ الوطنيين المصريين . فشلت محاولته لمد امتياز قناة السويس فى سنة ١٩١٠ وتعرض لحملات صحفية قاسية . أصيب بالسرطان ، وعاد إلى بلاده حيث مات هناك .

- Arthur Goldschmidt Jr. Biographical Dictionary of Modern Egypt) AUC press - 2000 p., 65

(١٠٤) ما فعل = وما فعل كرومر عدل النص كذلك لينسجم مع المعنى الذى يقصده المؤلف .

(١٠٥) ما قفل = ما أن قفل عدل النص كذلك لينسجم مع المعنى الذى يقصده المؤلف .

صوب وناحية . واشتد الخوف بالناس شدة بالغة ، وسير مأمور المركز إلى المنصورة فى طلب النجدة والمطافئ فجاءت متأخرة فكان المصاب شديدا والخسارة فادحة . وبرز الأمر إلى مدير أقليم الدقهلية بأخذ التدابير اللازمة فى مثل هذه الحال . فأرسل أصحاب الشرطة بالخيام والمؤن ، وقام وكيل المديرية إلى ميت غمر ولبث بها أياما حتى أعد للمنكوبين كل ما يحتاجونه . وجاءتهم أيضًا هدايا أهل البر من كل صوب ، فتحسنت حالهم وزالت عنهم تلك الشدة التى كانوا يقاسونها . وأخرج من تحت الردم أربعين جثة أو يزيد ، وظل البحث والحفر أياما وفى كل يوم يروا من الأجسام المحترقة والهياكل الباقية شيئا غير قليل حتى أخرجوا كل ما كان تحت الردم .

وجاء، الخبر أيضًا بوقوع الحريق فى بلدة العزيزية إحدى بلاد أقليم الشرقية . فقام مدير الشرقية وحكمدارها ومعهم المطافىء والجند الكثير وجعلوا يكافحون النار ذلك اليوم كله حتى تمكنوا من إطفائها بعد أن التهمت ثلثمائة دار عامرة ، ومات أربعة من الرجال وتسع عشرة امرأة وجرح عشرة جراحا بالغة . فكان المصاب فى ذلك البلد أيضًا عظيما . واهتمت الحكومة بالأمر اهتماما كبيرا . وبرز الأمر إلى سائر المديرين بمنع أهل البلاد من وضع حطب الحريق على أسطحة الدور ، وشددوا فى ذلك تشديدا عظيما فلم يفلحوا فلاحا ظاهرا . أقول وكان لما وقع الحريق بميت غمر وخرج الناس على وجوههم إلى الحقول والمزارع ، أسرع اللصوص إلي ولوج البيوت من كل ناحية ليسرقوا ما يقدروا على حمله من متاع الناس ، ولم تمنعهم تلك النار المتأججة واللهيب المتصاعدة . واتفق أن أحدهم عثر على صندوق صغير من النتك[١٠٦] فوجده ثقيلا ، فحمله على كتفه وخرج يريد الفرار . فما هو أن بلغ باب الدار حتى صدمه آخر فألقاه على ظهره ووقع الصندوق ، فهم الآخر بحمله فقام الأول يمنعه وأمسك بتلابيبه فتضاربوا[١٠٧] وتلاكموا ، وأدركهما نفر من أصحاب الشرطة وقبضوا عليهما وساقوهما إلى المأمور ، والأول منهما يقول الصندوق الصندوق وقد ظهرت عليه علامات الخبال والذخل[١٠٨] ، فأرسلوه إلى مستشفا[١٠٩] المجانين ، وأرسلوا رفيقه إلى الحبوس . قلت والشىء بالشىء يذكر . قرأت

(١٠٦) من النتك = لم أستطع معرفة قصد المؤلف فاستبعدت العبارة ، وهى لا تؤثر فى المعنى على أى حال .
(١٠٧) فتضاربوا وتلاكموا = فتضاربا وتلاكما قراءة تصحيحية .
(١٠٨) والذخل = والخلل قراءة اجتهادية .
(١٠٩) مستشفا = مستشفى .

فى مجلة الجامعة عن آثار العلاميين التى اكتشفها العالم الأثرى (دى مورغان) فى بلاد (إيران) أنه وجد عامودا من المرمر منقوشا عليه شرائعهم ، ومن أحكامها أنه إذا اضطرمت النار فى أحد البيوت وركض أحد لإخمادها ثم خطر له أن يسرق شيئا من ذلك البيت وجب القاؤه فى تلك النار المضطرمة ، وإذا نقب أحد منزلا ليسرقه وقبض عليه فيجب قتله ودفنه أمام الجدار الذى نقبه ، ومن شرائعهم أنه إذا قطع أحد شجرة من غير إذن صاحبها وجب أن يدفع إليه مبلغا من الفضة ، وإذا استأجر أحد بقرة وماتت من سوء معاملته وجب أن يرد إلى صاحبها بقرة مثلها ، وإذا كان قد قلع عينها فقط وجب عليه أن يدفع نصف ثمن مثلها ، وإذا وهب رجل شيئا من ماله أو من حقوله أو بساتينه لزوجته فليس لأبنائه أن يستردوا منها شيئا بعد وفاته ، ولها أن توصى بالمال الموهوب إلى الولد الذى تختاره ، ومنها أنه إذا أودع رجل لدى رجل آخر وديعة ولم يكن عليها شاهد ثم وقع خلاف بينهما بشأن ذلك فلا يجوز رفع القضية إلى المحاكم فتأمل .

وعاد الناس إلى سماع أخبار الحريق ووقوعه فى مشرق البلاد ومغربها ، فقد جاء الخبر إلى ديوان الوزارة فى عاشر شهر مايو من السنة عن احتراق بلدة (اشلين) إحدى بلدان إقليم المنوفية . ومن مديرية إقليم الجزية[١١٠] بوقوع الحريق فى ذلك اليوم نفسه فى إحدى البلدان ، ومن مديرية إقليم قنا باشتعال النار فى مخازن السكر للدائرة السنية . وتتابعت الأنباء المحزنة عن فعل الحريق فى تلك البلدان وموت الكثيرين من النساء والأطفال طعمة لها ، وأن النيران ظلت تشتعل فى مخازن الدائرة السنية أسبوعا أو يزيد وهى تمتد على بعد ثلاثة آلاف مترا وخمسمائة مترا وترتفع إلى علو عشرة أمتار تقريبا فوق بيوت البلد . وأنها رغما من اشتغال المطافئ فى إخمادها ليل نهار فإنها لاتزال تتألف ولا تنطفئ . واهتم أهل الحل والعقد بمنع وصول النار إلى مساكن البلد اهتماما عظيما جدا ، وقد خرج الناس كافة إلى الحقول والمزارع وهاجر بعضهم إلى بعض القرى القريبة . وبينما هم على هذا إذ جاء الخبر من مديرية الغربية بإقليم الغربية بوقوع الحريق أيضًا فى (كفر بطينة) . وكانت الريح عاصفة فاشتد اللهيب وتطاير الشرر وعلقت النار فى لحظة من الزمان بأكثر المساكن ، واشتد الخوف بالناس فتركوا بيوتهم وخرجوا على

(١١٠) الجزية = الجيزة قراءة ترجيحية .

وجوههم لا يلوون على شيء . قالوا وبينما الناس وأصحاب المطافئ يكافحون النار فى هذا البلد إذ جاءهم الصائح من (ناحية زياد) المجاورة (لبطينة) بوقوع الحريق فيها أيضًا . فما هم أن وصلوا بالمطافئ حتى كانت النيران قد التهمت منها ستين دارا عامرة وجعلتها إخلالا[١١١] دارسة ، ومات زهاء عشرين بالحريق ، قالوا وكان المنظر ممن[١١٢] تنفطر له القلوب وتشيب من هوله النواصى .

أقول وبلغ الخوف بأهل البلاد من جراء الحرائق المتتابعة مبلغا عظيما جدا حتى لقد قام فى وهم العامة أن ذلك الحريق فى كل صوب وناحية إنما هو من انقضاض الشهب الرجوم فى السماء ، وأن الملاحم دلت على احتراق بلدة كذا فى يوم كذا . وجعل بعضهم يفصل خبر كل حريق ويشير إلى ما كان يشاهد من العلامات المتصاعدة مع اللهيب والدخان وإلى ما كان يشاهد فى السماء عند غروب الشمس . وتزايد تهوسهم وافترائهم إلى أن صاروا يغرون الناس على ترك بيوتهم قاعا صفصفا ويقولون أن من بات فى داره أحرقوه بغتة . فغادر القوم بيوتهم وجعلوا ينامون فى الأجران وفى الحقول والخوف مع ذلك ملء قلوبهم . أخبرنى أحد أعيان إقليم الغربية أن تفشى هذه الأوهام الفاسدة بين أهل البلاد كان من أشد الخطر وأكبره على الأمن العام . قال (ومن الأسف أن نبوءة أولئك المنجمين صدقت فى بلدنا ، إذ شبت النار فى بيت ملاصق لمنزل العمدة ، ولكنها لم تمتد لأن البرسيم الأخضر الذي كان موضوعا فى شباك المنزل حال دون امتداد النار . وفى مساء اليوم ذاته شبت النار فى منزل مجاور لمنزل شيخ البلد ولكنهم تداركوها) . قال (وفى نحو الساعة العاشرة ليلا علا الصياح وكثر النداء النار النار ، فتراكض الناس من كل صوب فلم يجدوا للحريق أثرا وكان ذلك أمرا مفتعلا) . قال وغير ذلك كثيرا . ا . هـ .

ولما كان حادى عشر مايو فى نحو الساعة الثامنة مساء هبت النار أيضًا فى عنابر السكك الحديد الكائنة ببولاق القاهرة . فعلت صيحة القوم من كل صوب وتراكض الناس وأصحاب المطافئ وأصحاب الشرطة فوجدوا النار عالقة بشدة عظيمة في قسم

---

(١١١) اخلالا = اطلالا قراءة اجتهادية

(١١٢) ممن = مما قراءة تصحيحية .

النجارين وقسم السروجية وقسم النقاشين . وهذه الأقسام كانوا قد اختلفوا(١١٣) بافتتاحها منذ عام ونيف بحضور الأمير والوزراء والأمراء وأصحاب الوطائف . وطول ذلك المكان ماية وخمسين مترا وعرضه نحو خمسين وكان فيه شيئا كثيرا من مركبات الركاب ومركبات البضاعة وفى جملتها المركبات الأميرية . واهتمام(١١٤) القوم اهتماما كبيرا بإنقاذ تلك المركبات ، فأنقذوا المركبات الأميرية وشيئا من مركبات الركاب ولم يقدروا على استخلاص غيرها لاشتداد النار وانتشارها فى جميع أنحاء العنابر . وقد أحرقت ما بقى من تلك المركبات وبها إحدى مراكب(١١٥) الأمير ومركبتان لأسرة النوم ، وأكلت جميع ما لحقته ولم تترك المكان إلا ترابا ورمادا حاميا . أقول ولقد كان من لطف الله وحسن الحظ أن الهواء لم يكن شديدا وإلا كان الخطب أعظم وأعم . وكانت النار علقت بما كان هناك من المخازن الملأى بالزيت والبترول والقطران والكبريت والشحم وكل الأصناف القابلة للالتهاب . وظل الناس يكافحون تلك النيران حتى مطلع الفجر ، فخدمت(١١٦) وتناقص الخوف . وأصبحوا وتلك العنابر العظيمة أكمة من الرماد الدال على هول ذلك الحريق . وجاء الخبر فى ثانى عشره إلى ديوان الوزارة من بلدة إقليم الغربية بوقوع الحريق فيها على أشده فدمر خمسين منزلا ، وأن النار ظلت مشتعلة خمسة عشر ساعة أو يزيد والناس يكافحون النار حتى أطفئت . وأصبحوا وقد جاء الخبر من إقليم البحيرة بوقوع الحريق فى بلدة (نكلا العنب) وشبوب النار فى بيوتها شبوبا مريعا جدا . قالوا وساعدتها الرياح التى هبت فى الحال وتناولت قسما كبيرا من البلد ، وعلا اللهب وجاء الصائح فى طلب النجدة من رجال الحكومة ، فقاموا لنجدتهم من كل ناحية ومعهم أربعة مطافئ وطائفة من الجنود ، وجعلوا يكافحون النار . وظلوا على هذا عشرين ساعة حتى تمكنوا من إطفائها ، وقد درمت(١١٧) مائة وعشرين بيتا ومات سبعة وأصيب ثلاثين بحروق ، وكان الخطب شديدا جدا .

(١١٣) اختلفوا = احتفلوا قراءة تصحيحية .
(١١٤) واهتمام = واهتم قراءة ترجيحية .
(١١٥) مراكب = مركبات قراءة ترجيحية .
(١١٦) فخدمت = فخبت قراءة اجتهادية .
(١١٧) درمت = دمرت قراءة تصحيحية .

وأصبحوا وقد جاء الخبر بوقوع الحريق أيضًا فى بلدة (السنبلاوين) فى[١١٨] بلدان أقليم الدقهلية ، وكانت الريح عاصفة في ذلك اليوم فكانت النيران تنتقل من درب إلى درب ومن مكان إلى مكان بأسرع من وميض البرق . فخرج الناس على وجوههم حاسرى الرؤوس وعلا الصياح من كل صوب وناحية وتراكض الرجال يكافحون النار وهى تزداد شدة وتأججا بعصف الريح . وأتى الصائح إلى المنصورة فقام جماعة الحكام وأصحاب المطافئ وطائفة من الجند إلى السنبلاوين ، وجعلوا يكافحون الحريق ويخرجون سكان كل حارة علقت بها النيران ، فكانوا يخرجون وهم فى أسوأ حال يبكون ويولولون ، وكانت الأمهات فى شاغل عن متاعهن بالبحث على أولادهن فى ذلك الأتون الملتهب . وجاءت المطافئ من القاهرة وطنطا والزقازيق وميت غمر وسمنود وطلخا فضلا عن مطافئ المنصورة . ومع كل ما اتخذوه من الوسائل والأسباب ، فقد دمرت النيران نيفا وثلثمائة دارا وجعلتها رمادا ، واشتد الجوع بالناس فسير مدير الدقهلية إلى القاهرة فى طلب الخبز فأرسلوا إليه عشرة آلاف أقة من البقسماط ففرقها بين الناس . ثم جاءهم المدد من القمح والأذرة والدقيق من البلاد المجاورة . واهتمت الهيئة الحاكمة بأمرهم اهتماما عظيما حتى ذهبت عنهم بعض تلك الشدة .

وأصبحوا وقد جاء الخبر أيضًا إلى ديوان الوزارة بوقوع الحريق فى بلدة (بهيدة) من أعمال مديرية القليوبية وأن الحريق دمر سبعة وعشرين بيتا وأحرق كثيرا من الجاموس والضأن . واشتعلت أيضًا فى نفس اليوم فى بلدة (صنافير) من أعمال تلك المديرية فدمرت سبعين دارا وأحرقت عددا من الماشية وأن الجهاد فى اطفاء النار فى البلدين كان شديدا للغاية . وجاء الخبر فى ثالث عشر مايو أيضًا من أعمال مديرية المنوفية بوقوع الحريق فى بلدة سرس[١١٩] ، فقام إليها مأمورى الحكومة وأرسلوا فى طلب المطافئ فجاءت إليهم على عجل من مركز أشمون وغيره وجعلوا يكافحون النار مكافحة شديدة حتى تمكنوا من إخمادها بعد أن دمرت مايتين سبعة وأربعين بيتا وأحرقت اثنى عشر إنسانا وظلت النار على أشدها ثلاثة أيام كاملة .

---

(١١٨) فى = من قراءة تصحيحية .

(١١٩) وجاء الخبر فى ثالث عشر مايو أيضًا من أعمال مديرية المنوفية بوقوع الحريق فى بلدة سرس = وجاء الخبر فى ثالث عشر مايو بوقوع الحريق أيضًا فى بلدة سرس من أعمال مديرية المنوفية أعدت صياغة النص على هذه الصورة لبستقيم المعنى .

وأصبحوا رابع عشر الشهر وقد جاء الخبر من مديرية الشرقية بوقوع الحريق أيضًا فى بلدة شبراخيت النخل من مركز بلبيس أحد مراكز اقليم الشرقية وأنهم تمكنوا من إخمادها بعد أن دمرت مابة وخمسة وخمسين منزلا ، وأن قد مات فى الحريق رجلان . ووقع الحريق أيضًا فى نفس اليوم فى بلدة (هرية رزنه) إحدى قرى الشرقية وهى مسقط رأس أحمد عرابى صاحب الفتنة العرابية . فقام إليها أصحاب المطافئ وغيرهم وأخذوا يكافحونها حتى تمكنوا من إطفائها بعد أن دمرت ستين بيتا . وكذلك وقع الحريق فى ذلك اليوم ببلدة (صالحجر) من أعمال الغربية فقام إليها أصحاب المطافئ وطايفة من العساكر وأخذوا فى مكافحة النيران حتى أخمدوها . ولم يفرغوا منها حتى جاءهم الخبر بوقوع الحريق فى (ميت شنشانة) من أعمال الغربية أيضًا فقاموا إليها وعالجوا إطفاء النار حينا حتى خلصوا ما بقى من الحريق وقد كانت دمرت خمسين بيتا وأهلكت عددا من الماشية .

أقول وتساند أهل البر بعضهم إلى بعض وشكلوا لجانا بالقاهرة وطنطا والمنصورة لجمع الإعانات لأولئك المنكوبين ، وأظهروا غيرة فائقة فأفادوا وخففوا عن المصابين كثيرا وهونوا عليهم . وظلت اللجان تشتغل حتى حسنت حال المكنوبين وعادوا إلى الاهتمام بشئونهم والقيام بحاجياتهم . ومن الغريب الذى لم يسبق له قياس أن شبوب النيران بتلك القرى والبلدان على تباعدها شرقا وغربا وشمالا وجنوبا كان يقع فى يوم واحد أو فى ساعة واحدة حتى ان العامة يقولون أم ملائكة الزحم[١٢٠] الموكلون بالحريق متماسكون محلقون فى السماء يرجمون البلاد فى ساعة واحدة لغضب الله تعالى وسخطه العظيم . ولو تتبعنا أخبار الحريق يوما فيوم غير ما ذكرناه لطال المقال والخبر واحد . لطف الله بعباده المساكين . وقد برز الأمر إلى سائر المديرين والمحافظين بشراء العدد الكافى من المضخات ووضعها فى المدن والبلدان الكبيرة بكل إقليم إتقاء شر الحريق .

وكان إلى هذا الحين أصحاب الرأى من جماعة الإنجليز يفكرون فيما سيربحه إقليم الفيوم من وراء عمل خزان أصوان من الأراضى الصالحة للزراعة ، وعلموا أنه سيربح من

(١٢٠) أم ملائكة الزحم = أن ملائكة الزحم قراءة اجتهادية .

ذلك مائة ألف فدان أو يزيد . فاهتموا بعمل المصارف الكافية لذلك ، وظهر لهم أن هذا العمل لا يتأتى لهم إلا بتوسيع (بركة قارون) وجعلها المصرف الوحيد لإقليم الفيوم . فسافر جماعة منهم فى تاسع عشر مايو إلى الفيوم ومعهم آخرون من المهندسين وأهل الصنائع فأقاموا هناك أياما فثبت لهم أن تلك البحيرة وهى البقية الباقية من بحيرة موريس التى أحدثها أجدادنا المصريين هى المصرف الوحيد الذى يمكن الإعتماد عليه فى تحسين ذلك القدر من الأطيان ، فصمموا على جعله صالحا لذلك وأخذوا الأهبة للعمل السريع .

أقول عنيت فراعنة العائلة الثانية عشر بإصلاح الأراضى وتوسيع نطاق الزراعة عناية يشهد بها التاريخ فأنشأت الترع ونظمت الجسور ومدت المساقى وعممت الطرق فى مشرق البلاد ومغربها . فلما رأت أن مدينة (منفيس العظمى) وغيرها من المدن الواقعة فى مصر السفلى تكاد أن تغرق إبان فيضان النيل جعلوا يفكرون فى منع هذا الضرر حينا حتى رأوا أن يفتحوا الخليج الطبيعى الموصل إلى وادى تلال ليبيا المعروف باسم (الفيوم) أو (بيوم) يعنى (الماء) وحولوا هذا الوادى إلى بحيرة عظيمة سموها (بحيرة موريس) . وكانوا إذا رأوا ارتفاع مياه الفيضان إلى درجة يخشى معها من الغرق يحولون الزيادة إلى هذه البحيرة . وبنوا الجسور الصناعية المتينة ليأمنوا عودة المياه إلى النيل ، وصنعوا لها سدودا تقفل وتفتح عن[١٢١] الحاجة . وبمرور السنين وسعت المياه مجاريها وانفسح الخليج المنصرف إلى تلك البحيرة فحفظت مياه النيل لنفسها مجارى طبيعية بحيث أمكن جماعة المهندسين لعهد (الملك أمينمحت الثالث) وهو الذى أنشأ الفيوم أن يحولوا البحيرة إلى أرض زراعية بواسطة السدود تلك ، وصارت الفيوم مع توالى الأزمان من الخصب والجودة كما تراه الآن .

فكأن تلك الحركة التى قامت فى البلاد لمد يد المساعدة لمنكوبى الحريق فى مختلف البلدان شرقا وغربا وشمالا وجنوبا قد أيقظت مصطفى كامل رأس ذلك الحزب الوطنى ، فهب من سكونه وانسل إلى الاسكندرية وأعد ليلة للخطابة . فاجتمع إليه ناس وحضر من القاهرة وبعض المدن آخرون . فوقف بينهم خطيبا ، وأتى على ذكر ما كانت

(١٢١) عن = عند قراءة تصحيحية .

عليه مصر من الفلاح على عهد محمد على باشا الكبير جد العائلة المالكة وما آلت إليه بعده ، وما كان للمصريين من القدرة على تدبير شئون بلادهم قبل الإحتلال الإنجليزى وما وقعوا فيه من الخبال والإنحطاط بعده . وذكر أمثلة كثيرة من نباهة المصرى وكفاءته ونشاطه وسعة إدراكه ، ثم أبان ما هو واجب على المصرى لبلاده وقال إن رأس الواجب هو الثقة بالنفس لا سوء الظن بها والاستسلام لحوادث الليالى . قال وإنى وأيم الحق لم أسمع قبل بأمة تتناول السم بيدها أو تجرعه لتموت به على هذه الصورة . وأطال الكلام على هذا النحو من التحريض إلى أن قال (أيها السادة أصبحنا بعد مائة عام ، يعنى من عهد محمد على باشا إلى هذا العهد قضينا جانبا منها فى الجد والعمل وبذر بذور المدنية وفتح أبواب مصر والسودان للعالم المتمدن فى آخر مصاف الأمم . تمتاز عنا الصرب والبلغار بالحرية والإستقلال والإحترام العام ، ومن البلية أن نقف فى موقف الناظرين إلى حركة الأمم نلزم مكاننا وهى ترتقى منصة السمو والإجلال . فلتكن لنا حياة محمد على درسا وعظة ووسيلة اعتبار بحيث نجمع كلمتنا بيننا ، وإنما نحن بالإتحاد والوئام أقوياء ، وتعلمنا الوطنية ، والوطنية أم المعجزات وأصل كل تقدم وارتقاء) . إلى أن[١٢٢] قال . فلما أتم مقاله قامت الضوضاء من كل صوب ، وعلا صياح الحاضرين بالدعاء له والثناء عليه . وكان جماعة كثيرة من الغوغاء والسوقة حول المكان ، فلما سمعوا الصياح فى داخل المكان طربوا وطفقوا ينادون بأعلى أصواتهم نصر الله الإسلام أهلك الله القوم الكفار ، الله ينصرك ياكامل ، فجاء للحال أصحاب الشرطة وفرقوهم . وخرج الخطيب وحوله المطرئون والمداهنون وأهل الباطل يثنون عليه الثناء الجميل . وجاء خبر ما وقع إلى ديوان الوزارة وقصر الإمارة ، فلم يلق فى القصر حطا ولا استنكارا . قيل وكلم لورد كرومر الرئيس مصطفى فهمى باشا فى ذلك لغيبة الرئيس[١٢٣] فى ديار الفرنجة كعادته فى فصل الصيف وقبح خطاب مصطفى كامل وقال أنه عمل غير محمود العاقبة لايحسن السكوت عليه .[١٢٤] وكانت إلى هذا الحين لم تخضع (قبيلة

---

(١٢٢) إلى أن قال = استعبدت العبارة لأن السطور التالية لم تقدم ما كان المفروض أن يقوله مصطفى كامل ـ لكن المؤلف بدأ العبارة التالية بقوله (فلما أتم مقاله) .

(١٢٣) الرئيس = الأمير قراءة ترجيحية .

(١٢٤) لم يستطع المؤلف على مدى صفحات عمله الكبير أن يخفى ما يكنه من كره لمصطفى كامل . ولعل ما ذكره فى السطور السابقة يكشف عن مدى الغل الذى يحمله للرجل ، فالسطور تفيد بأن مصطفى كامل قد ألقى خطبة فى الاسكندرية ذكّرَ فيها أهل البلاد بما كانوا عليه من قدر فى عهد (محمد على) ، ثم قارن بين هذا الوضع ووضعهم وقت القاء خطبته ، والفارق الكبير من الإنحدار الذي تحولوا إليه . ثم استنهض همة المصريين ليكونوا كما كانوا فى السابق أمة قوية ناهضة .

=

الدنكة) إلى (حاكم فشودة) ولم تؤد ما فرضوا عليها من الأتاوة وكانت كثيرة التعدى والإغارة على التخوم . وشكا حاكم فاشودة من ذلك إلى السردار . فبرز إليه الأمر بتسيير حملة لإخضاعها وجعلها تحت طاعة السلطة المصرية . فأخذ (بلايت بك) حاكم فشودة الأهبة لذلك وخرج فى عسكر وأحمال يريد أولا (قبيلة النوير) إحدى تلك القبائل المتمردة النازلة على نهر الصوباط وكانت هناك القبيلة مع ملكها المسمى (دنكاوى) قد امتنعوا على الحكومة ولم يحفلوا بأمرها . فلما بلغت الحملة بلادهم هربوا من وجهها . وكانوا كلما توغلت الحملة فى جوف البلاد فروا أمامها ، وقد قبضت العساكر على نفر منهم وأسرتهم فسير حاكم فشودة أربعة منهم رسلا إلى دنكور[١٢٥] رئيس القبيلة ليخبره بنيات الحكومة نحوه ونحو بلاده وقبيلته وأنها ليست إلا سلمية ، ويؤكدون له بأنه لايصيبهم[١٢٦] إذا ما خضعوا وعادوا إلى الطاعة وتعدوا[١٢٧] بحمل الجزية إلى فشودة . فعوقهم (دنكور) ولم يرد جوابا . وسارت الحملة تريد بلد (دنكور) فقاومها الأهالى وقاتلوها قتالا عنيفا . وخرج على الحملة أهالى بلدة (امورث) الصغرى فقاتلتهم قتالا حاميا وكادت تعيق سير الحملة أياما . ولما بلغت الحملة بلدة «كيك» التى هى مقر دنكور الزعيم فر دنكور من وجهها إلى الجبال فعادت الحملة أو من بقى منها إلى فشودة ولبثت تراقب الفرص وتتبين[١٢٨] انتفاعها .

وكانت قد خرجت من الخرطوم حملة أخرى تريد (الشمبى) كى تقوم منها إلى (ادار دنكا) بين (شابيه) (ورمبوك) لتعاقب قاتلى (الكباشى سكوت بربور) الإنجليزى

= لكن المؤلف يبدى استنكاره لما يقوله مصطفى كامل ، ويسمى ما يسعى إليه مصطفى كامل من بعث للحركة الوطنية بالتحريض ، وينعت الذين يثنون على أقوال الرجل بالمداهنة ، ويصفهم بأنهم أهل الباطل ، وبأن المستمعين إلى خطابه هم الغوغاء والسوقة .

ويستطع المرء أن يحصى على المؤلف مواقفه من قادة الحرية والتحرر فى زمنه ، ويلاحظ أن هذه المواقف تتسم بالاستنكار لأعمالهم والحط من مواقفهم ووصف أصحابها بالأوصاف البذيئة . ولعل ما ذكره عن (أحمد عرابي) فى صفحات سابقة (٧٥٢ - ٧٥٣) ووصفه إياه بالجبن وبأنه يساوى ثمن ثورين من ثيران القائد (دى ويت) أحد قادة (حرب البوير) ، لعل هذا يكشف عما كان المؤلف يكنه لرموز الحركة الوطنية فى زمنه .

(١٢٥) دنكور = دنكاوى قراءة تصحيحية .

(١٢٦) يصيبهم = يصيبهم أذى أضيفت الكلمة ليستقيم النص

(١٢٧) وتعدوا = وتعهدوا قراءة ترجيحية .

(١٢٨) وتتبين انتفاعها = استبعدت العبارة لعدم انسجامها مع النص .

الذى غدروا به عند (رمبوك) تلك . قالوا وكانت الحملة تريد غير ذلك أيضًا ، فلم تنال الحملة من أولئك القوم ولا قدرت على تأديبهم ، فقد كانوا إذا اقتربت منهم انسلوا من منازلهم كالثعالب .

وكان بعضهم يعلم بعضا باقتراب الحملة من منازلهم بعواء كعواء الضباع . ولم يتمكنوا من القبض على أحد منهم ، فرسم قائد الحملة بإحراق كل ما صادفوه من منازلهم ، ونهبوا ما وجدوه من غلاتهم وماشيتهم فأحرقوه وجعلوه طعمة للنار . قالوا وكاد الشيخ (ميان مترانج) شيخ تلك القبيلة يسقط فى يد رجال الحملة مرتين ولكنه أفلت منهم . واتفق أن هطلت الأمطار بشدة عظيمة وطم السيل وعم ، فتعذر تتبع الفارين ، وتعب رجال الحملة تعبا عظيما فعادوا إلى الخرطوم ولم يفلحوا فى حملتهم تلك لأسباب كثيرة . وكانت (جزيرة طشيوز) إلى هذا الحين تابعة فى كل شؤونها المالية والإدارية فى(١٢٩) الأوقاف الأميرية الخيرية من أيام محمد على باشا الكبير ، ولم يكن لرجال السلطنة العثمانية فيه(١٣٠) عملا ولا تصرفا ولا للباب العالى شؤونها(١٣١) نقضا ولا ابراما . فلما كان ثالث يونيه من السنة جاء الخبر إلى قصر الإمارة بقدوم (قائمقام قوله) التى هى مسقط رأس (محمد على باشا الكبير) إلى (سلانيك) ونزوله على واليها أياما حادثه فيها بما جاء من الباب العالى فى شأن (جزيرة طيشوز) وملحقاتها . ثم قام من (سلانيك) إلى (طشيوز) وجمع إليه كبارها وأعيانها وأعلمهم أن جزيرتهم قد تحولت بأمر السلطان إلى (قصبة)(١٣٢) وأن إدارتها أمست بيد المأمورين العثمانيين وقد خرجت من يد الأوقاف المصرية فلم يبق لها بها علاقة البتة . ثم شكل لهم مجلس إدارة من وجوه وأعيان الجزيرة . وبرز الأمر إلى الأهالى بام(١٣٣) ينتخبوا مجالس بلدية ففعلوا . قال الراوى وما هى عشية أو ضحاها حتى انبسطت كلمة أولئك المأمورين وشمل نفوذهم سائر الأمور . وطير القائمقام الخبر بذلك إلى المابين والباب العالى . وجاء إلى الجزيرة من

(١٢٩) فى = إلى قراءة تصحيحية .
(١٣٠) فيه = فيها قراءة ترجيحية .
(١٣١) شئوونها = فى شئونها أضيفت الكلمة ليستقيم النص .
(١٣٢) قصبة = مدينة ـ أو متصرفية عثمانية .
ـ مختار الصحاح ـ ص ٢٢٤ .
(١٣٣) بام = بأن قراءة تصحيحية .

سلانيك زهاء ألف جندى لحمايتها والسهر على راحة الأهلين . قالوا وقع هذا بمرأى وسمع من المأمور المصرى فلم يبد حركة ولا أظهر قصدا . وكان قد برز إليه الأمر من قصر الإمارة بأن يحتج على (أمين باشا) قائمقام (قوله) ذلك بالقلم والقرطاس لا بالنار والحديد فلم يفعل . وكلم الأمير جماعة الوزراء فى ذلك كثيرا وسير كتبه فى معنى ذلك إلى المابين الهمايونى . وظهر الأسطول الإنجليزى فى الأرخبيل وجعل يطوف حول طشيوز ويقف عندها أياما ، فلم يجد طوافه نفعا ولا رجعت السلطنة العثمانية عن قصدها ، وبالغت فى الإحتفاظ بها وتعزيزها بالجند ومعدات الحروب . وكانت كتب (المابين) إلى قصر الإمارة فيما لو[١٣٤] تصل إلينا معرفته . وقد علت صيحة أصحاب الصحف وأخذت رجال السلطنة من كل جانب وسفهوا أحلامهم وعابوا عليهم سياستهم ، وقالوا أنهم إنما يعملون لغيرهم لا لمصلحة البلد والوطن وأن الجزيرة مأخوذة فى أقرب الأيام إلى تلك الدولة الطامعة فى سياسة (المابين) ، يعنون دولة الألمان ، حتى خيل للناس أن لأهل القصر قصدا ، وفى تطواف سفن الحرب الإنجليزية فرضا واجبا ، وأنهم يرمون إلى نية معلومة . وظل الحال على هذا أياما كثر فيها الأخذ والرد على غير جدوى ، وقد عين الباب العالى لإدارة الجزيرة (فيظى أميره) قائمقام (إرث حصار) قائمقام لها .

واتفق فى هذه الأثناء ام[١٣٥] سافر الأمير إلى ديار الفرنجة على عادته فى كل صيف . فبعد أن أقام بها ما شاء شاع القول بعزمه على الإنحدار إلى دار السلطنة والمثول بين يدى السلطان والإحتجاج على احتلال العساكر العثمانية لتلك الجزيرة لأنها ملكا للبيت العلوى منذ ظهور جد ذلك البيت . قالوا فإذا رأي من السلطان إعراضا حل له الإستنجاد بالإنجليز والاستعانة بسفن حربهم على استرجاع الجزيرة . وكثر تحدث الناس فى ذلك حتى صار عندهم حقيقة راسخة ، وزادهم تحقيقا تطرف أصحاب بعض الصحف المتهوسين وحملات دعاة الحزب الوطنى المنكرة على المابين وخواص السلطان . وقد كان إلى هذا الحين لم يلتصق مصطفى كامل رئيس الحزب من رجال المابين ولا عرفه منهم الشيخ (أبو الهدى الرفاعى) ولا غيره من أصحاب الشعوذة المقربين من مجالس السلطان عبدالحميد القابضين على أعناق سائر الأمور فى داخل السلطنة وخارجها . وعندى أن لا الأمير محتج بشدة على ما برز به الأمر السلطانى ولا

(١٣٤) لو = لم قراءة ترجيحية .

(١٣٥) أم = أن قراءة تصحيحية .

الأسطول الإنجليزى قادر على اقتحام هذه الغارة الوعرة فى هذه الآونة الحرجة . وما هى إلا أيام بعد ذلك حتى سكتت هذه الضوضاء وأصبح حديث تلك الجزيرة فى خبر كان(١٣٦) .

وأبلغت الوكالة البريطانية وزارة الخارجية المصرية خبر اليوم الذى تحدد لتتويج (الملك إدوارد السابع) تاج الإمبراطورية الإنجليزية ، وكذلك أبلغته لقصر الإمارة . فاهتم الأمير وجماعة الوزراء بالأمر اختما(١٣٧) عظيما واجتمعوا للمداولة فى ذلك حتى تقررت القاعدة بينهم على انتداب الرئيس مصطفى فهمى باشا للحضور فى حفلة التتويج بالنيابة عن الحكومة ومعه الوزير مختار باشا والأمير محمد على باشا شقيق صاحب قصر الإمارة ، وتأهبوا جميعا للرحيل . وجاءت الأخبار متتابعة بذهاب الكثير من الملوك والكبراء والعظماء من كل صوب وناحية إلى عاصمة الإنجليز للاحتفال بهذا العيد الكبير الذى لم يسبق له مثيل فى يار الإنجليز منذ الستين عاما أى من اليوم الذى تتوجت فيه الملكة فيكتوريا . وكان ملوك الهند وأمراؤها يمرون بقناة السويس قاصدين لوندره وهم فى زينتهم وملابسهم المذكرشة(١٣٨) بالجواهر من الماس والياقوت والزمرد

(١٣٦) كانت جزيرة (طاشيوز) التركية قد أهديت إلى (محمد علي) والى مصر لاستخدام وارداتها للإنفاق على العمارات الموجودة فى (قوله) مسقط رأس (محمد على) . وكان هذا مقابل توفيقه فى إنهاء الحركة الوهابية فى شبه الجزيرة العربية . ومنذ ذلك الوقت تولت الإدارة المصرية إدارة أمور الجزيرة .

في مايو ١٩٠٢وقعت بعض المشاحنات بين مأمور الجزيرة التابع للخديو ، وأهالى الجزيرة ، أمر السلطان على أثرها (متصرف قوله) بالذهاب إلى الجزيرة ومعه قوة عسكرية لتولى زمام الأحكام فيها . وفى الأيام التالية أصدر (مجلس الوكلاء) وهو ما يقابل مجلس الوزراء ، أمرا بتعيين المأمورين المدنيين والعسكريين لإدارة الجزيرة . بدا واضحا أن السلطان يعتزم حرمان الخديو من الجزيرة وسلطاته عليها بحجة أن ما للخديو فيها هو (وقف) لا حق له فى الإدارة وأنها من أملاك الدولة .

فى يوليو ١٩٠٢ أصدر السلطان إرادة جديدة بضم معادن الجزيرة لخزينته الخاصة . حاول الخديو فى أكثر من مناسبة حل موضوع الجزيرة وحقوقه فيها لكن الدولة العثمانية تمسكت بموقفها . هنا لم يجد الخديو بدا من الإتصال بانجلترا فى أكتوبر ١٩٠٢ من أجل مساعدته فى استعادة الجزيرة ، وبدأ الأسطول الإنجليزى يطوف حولها .

كانت هذه الحادثة فى واقعها أحد تطورات الخلاف بين (عبدالحميد) و(عباس) طوال فترة حكم الأخير ، كما كانت إحدى الوسائل التى استخدمتها الدولة لمضايقة (عباس) الذى كانت الدولة تتهمه بمحاولة الانفصال ، أو تولى الخلافة ، أو مساعدة خصوم السلطان من أعضاء الجماعات المعارضة والمقيمة بالخارج كجماعة (تركيا الفتاة) .

- (مذكراتى فى نصف قرن - مرجع سبق ذكره ص ٣٩٥ - ٤٠٣ ، ٤٠٨ ، ٤١١ .

(١٣٧) اختما = اهتماما قراءة تصحيحية .

(١٣٨) المذكرشة = المزركشة قراءة اجتهادية .

واللؤلؤ الفاخر وبين الخدم والحشم والأتباع ، وكذلك مشائخ القبايل الصومالية وغيرهم ومعهم التحف والهدايا والتحف النفيسة . فلما كان تاسع عشر يونيه من السنة أقبلت الباخرة (حملايا)[١٣٩] على ميناء السويس تقل (الرأس ماكونين) أكبر رؤوس الحبشة والكولونيل هارنجتون[١٤٠] معتمد دولة الإنجليز (بأديس أبابا) وجماعة من القادمين من بومباى الهندية لحضور حفلة ذلك التتويج . فمرت الباخرة بالقناة إلى مدينة بورسعيد ولم يدنو منها أحد لوقوفها (بعدن) وقبول المسافرين منها والبلد موبؤة .

وكان الأنبا (متاؤس) مطران الحبشة الذى تقدم الكلام عليه ينتظر لقاء (الراس ماكونين) ذلك فى بور سعيد فلم يتمكن من الصعود إلى (حملايا) منعا للعدوى . فنزل الراس (ماكونين) إلى سلم السفينة وحادث المطران طويلا فيما لم تصل إلينا معرفته ، ثم أقلعت السفينة ومعها اثنى عشر أسدا وزرافتان هدية من (الناجوسى) إلى الملك ادوارد السابع صاحب التاج ..

أقول وعلى ذكر هذا التتويج قد علقوا فى صبح هذا اليوم على باب الوكالة البريطانية فى القاهرة وسادة من الحرير الأحمر قالوا أنها الوسادة التى جثت فوقها الملكة ڤيكتوريا يوم توجت ملكة على إنجلترا وقد أعطتها لأكبر حجابها المدعو (نورمن مكدونالد) عم (الليدى كرومر) المتوفاة من عهد ليس ببعيد ، وبموته ورثتها إبنة أخيه عنه ثم ورثتها بنتها عنها وهى معتنى بها عندهم كثيرا فتأمل . قيل وقد رأت الملكة (الكسندرا) ملكة الإنجليز أن تجمع فى حفلة التتويج بين المبرات والزينات فأوصت بصنع ردائها الملكى فى أزياء الهنود فجاء أجمل ثوب لبسته ملكة فى هذا الزمان ، ورسمت بإعداد وليمة لفقراء (لوندرة) وأن يكون عدد المدعوين إليها خمسين ألفا ، وأن يعدوا أخرى للفتيات الخدامات فى مدينة لوندره وأن يكون عدد المدعوات منهن عشرة آلاف فتاة ، فتعطى الملكة لكل واحدة منهم (بروشا) فيه صورتها . أقول وبينما كانت بريطانيا العظمى بأسرها قائمة قاعدة تستعد لتتويج ملكها والقلوب خالية من الأسى والأموال تصرف جزافا والزينات متوالية ووفود الأمراء وكبراء الممالك تصل إلى لندن الزاهرة بتلك

(١٣٩) حملايا = هيمالايا قراءة اجتهادية .
(١٤٠) هارجنتون = هارنجتون قراءة اجتهادية .

الإفراج ، والأساطيل تجتمع فى مياه إنجلترا من كل صوب وناحية إذ فجأ[١٤١] (الملك ادوارد) مرض ظن جماعة الأطباء أنه لا يمنع الملك من مقاسات التتويج . وما هى إلا عشية أو ضحاها حتى اشتدت وطأته وثقلت جدا وظهر لهم أن المرض يحتاج إلى عملية جراحية ، وأن لابد من تأجيل التتويج . فبرز الأمر بذلك إلى الكافة ، وانقلبت أفراح القوم إلى ضدها ، وكأنما قدر الزمان لهذا الملك الكبير الواسع السلطان أن لا يهنأ له بال ولا ينعم له عيش منذ جلوسه على العرش فإنه ارتقاه والقلوب تخفق من الخوف والنجدات ترسل إلى الترنسفال تباعا والسيوف تحصد الرقاب والسنابك تدفع السنابك والدماء تجرى على تلك الأراضى . فجعل يجاهد ويسعى حتى تمكن من عقد الصلح بشروط شريفة لبلاده ولخصومه أيضًا . وما نفض يديه من غبار تلك المصاعب وحمد الله على رجوع الحسام إلى غمده حتى اشتد عليه المرض قبل موعد التتويج ببضعة أيام . قالوا أصابه مرض (البريتفليت) وجعل له بعد ذلك انتكاس فجائى . أزعج الأطباء تأجيل الاحتفال إلى أجل غير محدود واجتمع جماعة الأطباء والجراحين فعملوا له عملية فى الساعة الثانية من بعد ظهر اليوم الرابع والعشرين من يونيه . وأصبحوا وقد نشر المارشال الأكبر فى بلاط الملك نشرة باسم الملك أظهر فيها أسف الملك من وقوع هذا الحادث الذى قضى بتأجيل حفلة التتويج فى العاصمة وأنه يؤمل أن يجرى الإحتفال فى المديريات وأن تؤدب مأدبة الفقراء . يقال ما تفشى خبر مرض الملك بين العامة حتى وقع الهرج واجتمعوا فى الميادين العامة وهم فى جلبة زائدة . وسقطت أسعار الورق المالية وتكلم أصحاب الصحف فى خطورة مرضه ، وأقام بعضهم يصلون أمام قصر لملك ويضرعون إلى الله تعالى بشفائه وفعلوا كذلك فى أكثر الكنائس . وبرز الأمر من رئيس الوزراء بأن لا تؤجل أعمال المجلس مخافة أن ينقلب قلق الناس رعبا ، وصرح بأن المصارف والبنوك تقفل فى الأيام المعينة ، وجعل الأمراء والكبراء ومبعوثى الملك الذين جاءوا للاحتفال بالتتويج يتفرقون بعضهم إلى باريس وألمانيا وأسبانيا وبعضهم قفلوا راجعين إلى بلادهم . وكانوا قد استحضروا طائفة كبيرة من جند مستعمرة كندا وأخرى من جنود الهند واستراليا ، فلبثوا أياما وهم على قدم الرجوع إلى ديارهم حتى أخذت

(١٤١) فجأ = فاجأ قراءة تصحيحية .

صحة الملك تتحسن واتجهت إليه العافية من يوم إلى يوم وزفت البشائر إلى جميع أرجاء السلطنة . فلما كانت ليلة الثلاثين من يونية من السنة برز من بلاط الملك[١٤٢] بإطلاق الأسهم النارية والحراقات بزوال اليأس عن الملك ، فأطلقوها فى ناحية (أول كورث) . وأصبحوا وقد استعرضوا الفين وخمسمائة من تلك الجنود بحضرة (الدوق أوف كانوت) شقيق الملك وهى تمثل كما يقولون ستة وعشرين مستعمرة وبلادا تابعة للراية البريطانية . وقد حضرت الملكة ذلك الاستعراض يحيط بها عدد من الأسرة الملكية وأمراء الهند وضيوف المستعمرات والبلدان الأجنبية . فكان الفرح بشفاء الملك شاملا جميع صنوف الرعية ، ثم شاع بأن التتويج سيقام فى أحد عشر أو خامس عشر أغسطس من السنة . قيل وما يتخذ دليلا على قرب التتويج تأجيله لسفر جنود (بورنو) (وغربى أفريقيا) وهم ممن حضر من جنود المستعمرات البريطانية ، وكانوا قد حضروا ليوكبوا يوم التتويج ويظهروا عظمة ذلك الملك العظيم والسلطان الواسع فلم يتأذن الله سبحانه بشىء من ذلك وكان ما كان من مرض الملك .

وما اطمأنت قلوب الإنجليز بشفاء ملكهم وقرب الإحتفاء بتتويجه حتى فاجأهم خبر استقالة (لورد سلسبورى) كبير وزراءهم وعظيم سياستهم وخلعه نفسه من منصب الرياسة بعد أن تجاوز الثانية والسبعين من العمر رئيسا مقداما واسع الكلمة متبوع الرأى مهابا محترما . كان الرجل يقبض على أزمة السياسة إذا جاء دور المحافظين فى الرياسة ويدعم أركانها انالبغ[١٤٣] بها الأمر وتحرجت عليها المسالك بما أوتيه من الحنكة والخبرة الواسعة بسياسات الدول . قلت كما يقول بعض أصحاب صحف الإنجليز أن تنزيل هذا الرئيس لنفسه من تخت تلك السلطنة العظيم كان منتظرا بعد أن ألقت الحرب مع أولئك (البوير) أوزارها ، لأن وزارة الرجل كانت وزارة حرب وجلاد ، ولولا محابة[١٤٤] الترنسفال لتخلى سلسبورى عن الرياسة ولكنه ألف وزارته الأخيرة ليثير الحرب على القوم البوير

(١٤٢) الملك = الملك الأمر أضيفت الكلمة ليستقيم النص .

(١٤٣) انالبغ = إذا ألم قراءة ترجيحية .

(١٤٤) محاباة = محاربة قراءة تصحيحية معتمدة على الحقائق التاريخية ، فقد كانت حرب البوير (١٨٩٩ - ١٩٠٢) بين بريطانيا من ناحية وجمهوريتى البوير (الترنسفال وأورانج) بقيادة (كروجر) - وانتهت بصلح فيرنيجن Vereenigen(١٩٠٢) .

- الكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث - الجزء الخامس - تأليف ميخائيل شاروبيم - تحقيق عبدالوهاب بكر - القسم الأول - ص ٢٦٩ .

ويسلب منهم حريتهم الطبيعية بتحريض شامبرلين ومن جرى مجراه من الحسدة أصحاب المطامع ، ولذا لم يكن فى استطاعته التخلى عن منصبه قبل عمل الصلح والخروج من ذلك المأزق الحرج . قاله[١٤٥] أصحاب صحفهم أما الآن وقد وضعت الحرب أوزارها فالبلاد فى حاجة إلى وزارة حازمة إدارته[١٤٦] قادرة على جمع المال لسد نفقة تلك الحرب الفظيعة لا وزارة حرب وتحمس كما كانت عندما هاجت وأضرمت نار الحرب جريا وراء سياسة سلسبورى ا . هـ .

قلت وكان أصحاب الحزب الوطنى جملة يعتقدون أن فى تخلى سلسبورى عن منصب الرياسة غنما وتبديلا من خطة الإحتلال فى ديار مصر وتخفيفا من شدته . فقامت صيحة صحفهم من كل جانب ، وهام مصطفى كامل فى خطبه وتغالى فى مقاله وجمع الناس على عادته لسماع دفاعه عن البلد بتشويه سمعة الإحتلال ، وهو فى كل عباراته يقول أنه إن تولى وزارة الإنجليز (جماعة الأحرار) تبدلت الأحوال وانفسحت الآمال بانفراج الأزمة . فلم تحقق الأيام آمالهم وتولى الزعامة بدله (المستر بلفور) من مقدمى المحافظين وأكبر خصوم الأحرار منذ نعومة ظفاره . ولا خفى[١٤٧] أن أولئك المحافظين إنما هم أصحاب الفتح ودعاة التوسع فى الملك والتغلب على ما يقدرون عليه من الشعوب[١٤٨] .

ولم تبطل ضوضاء رجال الحزب بما كانوا يؤملونه من وراء تخلى لورد سلسبورى عن منصبه ذلك حتى بدت لهم بارقة أخرى . ذلك أنه قدم من دار السلطنة العثمانية فتى يسمى (شكيب بك) . وهذا الفتى كان فى سوريا فى العام الماضى ثم جاء منها إلى القاهرة فاهتم به أصحاب صحف الأخبار يومئذ اهتماما كبيرا وعرفه الكبراء ورجال الحزب وبالغ مصطفى كامل فى الحفاوة به والتعظيم له . قالوا يومئذ وأسر إليه أشياء كثيرة من مطالب الحزب وكلفه بقضائها من دار السلطنة ، فسافر إلى دار السلطنة وانطفأت فيها أخباره .

---

(١٤٥) قاله = قال قراءة ترجيحية .
(١٤٦) إدارته = إدارية قراءة اجتهادية
(١٤٧) ولا خفى = ولايخفى
(١٤٨) لايستطيع المؤلف أن يخفى شماتته فى (مصطفى كامل) الذى خاب أمله في تولى وزارة من حزب الأحرار للحكم فى بريطانيا تنفرج فى ظلها أزمة الاحتلال البريطانى لمصر . وشاروبيم فى مشاعره هذه يكشف عن روح غير وطنية حاقدة تقبل بالاحتلال الذى كان يرفضه كل المصريين ، ما دام فيه شفاء لغليله من الوطنيين المصريين فى زمنه مثل (مصطفى كامل) .

حضر ذلك الفتى فى ثالث عشر يوليو من السنة وكأن[١٤٩] قد طاب له أن يتحدث به الناس أو أنه وجد تعظم[١٥٠] شأنه بالمجىء والذهاب وإنزاله منزلة العظماء والكبراء وأهل الرأى المتوبع[١٥١] والكلمة الواسعة . ونزل فى (نزل الكونتيننتال) وهو نزل الكبراء من السواح والزائرين الأجانب لهذه الديار . فزاره أصحاب الحزب وتكوفوا حوله ، وكان لهم معه ما لم تصل إليه[١٥٢] معرفته . وزاره أيضًا أحد الوزراء ولبث معه برهة متنكرا ، ثم سار إلى الإسكندرية ونزل فى النزل المعروف (بنزل سنتى) ، وغير اسمه وتسمى باسم (سالم) . وهو يزعم أنه يحمل أوراقا مهمة للغاية وأنه على عزم السفر إلى دار الفرنجة فى مهمة خطيرة ، وشاع عنه غير ذلك كثير . وعندى أنها دعوة فارغة بالغا ما بلغت من الأهمية عند من يدعونها ، ويجدر بأولئك الناس أن يتنزه كل كبير منهم وكل من أجلسته الأيام فى مجلس خطير عن هاته الألعيب[١٥٣] الصبيانية وعن عبث مثل أولئك الغلمان ، فإن البلاد فى موقف من الحياة وتنازع البقاء يستلزم صرف الهمم إلى الأمور السامية ، وصرف النفوس عن الصغاير التافهة ، ويعلم كل واحد من أصحاب الكلمة أن ليس هكذا تؤخذ الأسباب ولا بمثل هذا تتقوى العزائم فالخصوم أشداء وهم يهاجموننا بسيف حديد البظى فى[١٥٤] كسف شديد البأس والله على ما أقول شهيد .

ولما كان تاسع يوليو من السنة تحقق الخبر الشائع بين الناس بظهور (الكوليرا) ، الوباء المعروف بالهواء الأصفر فى بلدة بوشة[١٥٥] من إقليم أسيوط وهى من أكبر بلدان ذلك الأقليم يسكنها ثمانية آلاف وخمسمائة نسمه أو يزيد . واهتم أهل الحل والعقد بالأمر اهتماما عظيما جدًا وسروا[١٥٦] فى الحال جماعة الأطباء والصيدلية ، وضربوا الخيام خارج البلد . وسار مدير الأقليم فى جماعة من أصحاب الشرطة وعزلوا خارج

---

(١٤٩) وكأن – وكان قراءة ترجيحية .
(١٥٠) تعظم = تعظيم قراءة ترجيحية .
(١٥١) المتوبع = المتبوع قراءة ترجيحية .
(١٥٢) إليه = الينا قراءة ترجيحية .
(١٥٣) الألعيب = الألاعيب قراءة ترجيحية .
(١٥٤) حديد البظى في كسف شديد الباس = شديد البطش فى كف شديد البأس قراءة اجتهادية .
(١٥٥) بوشه = موشا قراءة ترجيحية .
(١٥٦) وسروا = وسيروا قراءة اجتهادية .

البلد ، وأخذوا شيئا من براز المصابين فحللوه وأثبتوا إلى[١٥٧] الإصابات وبائية لاشك فيها ، وقد كان بدء الإصابات فى خامس عشر الشهر ، فلم يأت ثامن عشر حتى سنة[١٥٨] ستة وتسعين ، والوفاة تسع وثلاثين فى المستشفى ، وإحدى عشر وفاة خارج المستشفى . فشددوا فى عمل الإحتياطات ومنعوا من خروج الناس من ذلك البلد ودخول أحد إليه ، ومنعوا من[١٥٩] الإستسقاء من صهريج فى وسط البلد لتلوثه بالمرض ، وركبوا عددا من الطلمبات الخشبية بدلا من ذلك الصهريج ، وأحاطوا البلد بنطاق من الجنود والغفراء والعسس ليلا . وظل الموت متفشيا والإصابات على أشدها وإرسال الأدواء والجند لحصر الداء فى ذلك البلد متتابعا ، حتى لقد أصيب من أولئك الجند أربعة بالداء فماتوا . واجتمع مجلس المحاجر البحرية وقرر أن يكتب على جوازات السفر المسافرة أن الهواء الأصفر قد تفشى فى حوشة[١٦٠] من إقليم أسيوط وقرر أن تتخذ فى كل سفينة مسافرة من مصر التحويطات التى اتخذت عند ظهور الطاعون . وبرز الأمر إلى مصلحة السكك الحديد على أن يراقب رجال الصحة ركاب القطورات[١٦١] فى كل محطة ممن[١٦٢] وجدوا أن دلائل المرض بادية عليه عوقوه عن السفر ونقلوه إلى النطاق الصحى . وكان قد خرج من موشة[١٦٣] قبل عمل النطاق من خرج من نساء ورجال . وجاءت إحدى النساء منهم إلى (بولاق مصر) فلم يمض عليها إلا أيام قلايل حتى تولاها الإسهال وظهرت عليها الأعراض ومات[١٦٤] . فجأة[١٦٥] فى الحال رجال الصحة وأصحاب الشرطة ونقلوا جثتها إلى حيث أرادوا . وأخذوا فى تطهير دارها بالعقاقير وغسله بالأدواء ومنعوا الناس من الدنو من تلك الدار . وتفشى خبر ذلك فى القاهرة فتولى الناس الجزع والخوف الشديد وجعل بعضهم يهاجر إلى الاسكندرية وبورسعيد ، وبعضهم إلى

---

(١٥٧) الى = أن قراءة تصحيحية .
(١٥٨) سنة = بلغت قراءة ترجيحية .
(١٥٩) من = حذفت الكلمة ليستقيم المعنى .
(١٦٠) حوشة = موشا قراءة ترجيحية وكان المؤلف قد ذكر اسم البلدة (بوشة) فى الصفحة السابقة .
(١٦١) القطورات = القطارات قراءة تصحيحية .
(١٦٢) ممن = ومن قراءة اجتهادية .
(١٦٣) موشة = صحح المؤلف اسم البلدة هذه المرة فكانت (موشة) ، وتكتب موشا أيضاً .
(١٦٤) ومات = وماتت قراءة تصحيحية .
(١٦٥) فجأة = فجاء قراءة اجتهادية .

السويس . وانبث أصحاب الشرطة فى أحياء العامة بالقاهرة ومصر القديمة وخط الخليفة وغيرهم يستحثون الناس على تنظيف مساكنهم ورش أسفلها بحمض الفنيك . وأصبحوا وقد صدرت نشرة من وزارة الداخلية بتفشى الداء فى القاهرة وتعدد الإصابات فى حى بولاق مصر وحى عابدين . فصار كل من أحس بألم خفيف فى معدته أو أصحابه(١٦٦) القيء لتخمة حسبوه مصابا بالهواء الأصفر .فكبر خوف الناس واشتد زعرهم(١٦٧) . وأكثر أصحاب الصحة من نشر التعليمات الصحية والإجراءات الواقية من الإصابة وهم فى كل يوم يفسرون للناس معنى التحوطات وكيفية تعاطى العلاج الموقت حتى(١٦٨) الطبيب المصاب واستعداد الصيدليات التى أنشأوها في كل حى وصوب لإعطاء الأدوية بلا ثمن وغير ذلك من آيات الحض والتهديد . وظل الحال على هذا والموت لا يرتفع عن الناس فى بولاق مصر والقاهرة ومصر القديمة وقد تخطى إلى الجيزة أيضًا . وبرز الأمر إلى العساكر الساكنة بقشلاق عابدين بالقيام إلى منازل الجبل الأحمر بالعباسية ، فانتقلوا إليها ، وكذلك برز أمر وزارة الداخلية بغلق جميع ميضات ومغاطس سائر الجوامع فى الجهات الملوثة . وذهب جماعة الوزراء مع رجال الصحة فى الثلاثين من يوليو إلى بولاق مصر ليتفقدوا حاراتها عطوفها ، فظهر لهم وتحققوا أن معظم الوباء واقع فى العشش المعروفة (بعشش الشيخ على) . فاستقر رأيهم إلى ضرب نطاق صحى حول تلك العشش . وفى الحال برز الأمر إلى مائة وخمسين من العساكر فساروا إلى بولاق وأحاطوا بتلك العشش ومنعوا الناس من الدخول والخرج إلى أن يتم تطهيرها .

وكان(١٦٩) الموت ينشب أظفاره فى جيش الاحتلال الإنجليزى ، فبرز الأمر بقيام سائر الجنود إلى بلبيس حيث ينصبون خيامهم ، وسيروا معهم جماعة من العمال وأهل الصنائع ليحفروا لهم الآبار فى الصحراء للاستسقاء فيحتموا فى ذلك الصقع البعيد ، ومنعوا من وصول أحد إليهم . وظلوا على هذا حتى ارتفع الموت وزال الوباء تماما وتطهرت البلد من أدرانه بعد حين .

---

(١٦٦) أصحابه = أصابه قراءة ترجيحية .
(١٦٧) زعرهم = ذعرهم قراءة تصحيحية .
(١٦٨) حتى = حتى يعالج أضيفت الكلمة ليستقيم المعنى .
(١٦٩) وكان = وكاد قراءة اجتهادية .

وكان لما وصل الأمير إلى مصيفه بدار السلطنة على ما تقدم بك ذكره أقام أياما يراقب الفرص لمكالمة أهل (المابين الهمايونى) في شؤون كبيرة[١٧٠] بعض خاص بالإمارة وبعضها خاص بشخصه على ما يقولون . فما هى أن طالت أيام مكثه حتى جاء الخبر فى الثلاثين من يوليو من السنة بعزم (جماعة تركية الفتاة) (وهم الخارجون على السلطان المقيمون[١٧١] لعمله الطاغون عليه فى السهر[١٧٢] والجهر ، ولهم معه حوادث مشهورة) على الشخوص إلى ديار مصر فى عاجل الأيام ليعقدوا بها مجتمعات ثورية كالتى كانوا يعقدونها فى ديار الفرنجة من عهد غير بعيد ، فنقله أصحاب الصحف وتكلموا عنه كثيرا حتى لقد قال أصحاب صحف الحزب الوطنى أن هذا[١٧٣] الحادث اتصال بطول مكث الأمير بدار السلطنة وأن للأمير علاقة ظاهرة مع قضية أخذ (جزيرة طشيوز) من البيت العلوى وأن[١٧٤] سيكون لأولئك القوم شأن خطير فى مصير الأمور فى مستقبل الأيام . وتفشى خبر ذلك وتناقله أصحاب الصحف الأجنبية مكبرا مبالغا فيه ، وتحدث به الناس كثيرا مشوها مقلوبا إذ هم لا يعرفون من غرض (جماعة تركيا الفتات[١٧٥]) تلك إلا الشىء التافه الضئيل كالذى مر بك بيانه من تحرش بعض أهل قصر الإمارة بإقرار[١٧٦] من دعاتهم الذين جاءوا من ديار هجرتهم إلى الاسكندرية والقاهرة فى ذلك الحين ، وكمثل ضبط ما فى دار طباعتهم التى كانوا انشاؤها[١٧٧] بالقاهرة من رسائل وأوراق وغير ذلك من مستودع أسرارهم[١٧٨] . وبرز الأمر من وزارة الداخلية إلى أصحاب تلك الصحف بالكف عن الكلام فى هذا الخبر فانكفوا وبطلت ضوضائهم أو كادت ولكن تحدث الناس لم يبطل .

---

(١٧٠) كبيرة بعض = كثيرة بعضها قراءة ترجيحية
(١٧١) المقيمون = المعارضون قراءة ترجيحية .
(١٧٢) السهر = السر قراءة ترجيحية .
(١٧٣) هذا = لهذا قراءة ترجيحية .
(١٧٤) وأن = وأنه قراءة ترجيحية .
(١٧٥) الفتات = الفتاة قراءة تصحيحية .
(١٧٦) بإقرار = بأفراد قراءة تصحيحية .
(١٧٧) إنشاؤها = انشأوها قراءة تصحيحية .
(١٧٨) راجع حاشية ٩٧ ص ٧٦٠ .

واتفق أني قابلت فى غضون هذه الحركة صديق من المقربين فى مجالس أصحاب الرياسات فسألته رأيه فى هاته الضوضاء فقال ما بال أولئك القوم اختاروا ديارنا فى هذه الآونة وأى داع دعاهم إلى وادى النيل؟ أهو ما يتمتعون به هنا من الحرية تحت السلطنة الإحتلالية أم هو مقصدهم أن يجاوروا البلاد العثمانية ليبعثوا شرر نيرانهم إلى أرجائها؟ ثم تبسم وقال (أخاف أن يكون لا هذا ولا هذا وأن يكون دورا جديدا وخطة يرجون من ورائها غنم . انظر لما رأى السلطان تجدد حركة هذه الفتنة بعد سنين كثيرة من جموده وجمود شعلته عمد إلى أساليبه السياسية فمد لدعاتها يديه ، إحداهما ملأى بالعطايا والنعم والأخرى مشيرة إلى العش الذى خرجوا منه خروج الجرزان[١٧٩] . فبعد أن هدلوا ونعقوا بالويل والثبور وعظائم الأمور حتى خيل للناس أن السلطان مخلوع لامحالة عادوا من كل صوب إلى دار السلطنة ولاذوا إلى الخنوع وملازمة الأعتاب وغلوا أيديهم وأرجلهم بقيود تلك النعم فدلوا بذلك على أن هرجهم وخروجهم على سلطانهم وخليفتهم لا للدعوى إلى إصلاح فى الدنيا أو الدين إلا[١٨٠] لاسترداد الرزق واستمطار الآلاء ولو لحق بالوطن والأمة من الضرر ما لحق . وعندى أنهم مطاميع فى سرائرهم سوقة فى ضمائرهم . وبعد هذا قل لى بحقك ما الذى تنتظره أن يكون من دعاتهم والملتفين حولهم من أهل هذه الديار . أفليس من البديهى أن ما دفعهم إلى اختيار هذه الديار كتالم[١٨١] وممكنا أنما هو قصد التهويل والإيهام والأرجاف عسى أن يكون من وراء كل ذلك رجة يهتز لها عرش السلطنة أو أثرا يذكر فسيعودون[١٨٢] وقد ضربوا مما يتوخونه بسهمين . وهل جنت أمتهم من عملهم غير القلق وسوء المصير ، أى ويعلم الله . تفرقوا فى عواصم الفرنجة وصاحوا وضجوا فلم يكن لذلك أثرا يذكر سوى شماتة الأعداء ثم فسدوا[١٨٣] الشرق بعد ذلك مرارا وفعلوا ما فعلوه فلم يكن لمسعاهم من الفلاح ما كانوا يرجون ولا هم مفلحون أينما صاروا وحيثما صاروا اللهم إلا إذا جمع الله لهم القلوب وكانت أيام السلطان عبدالحميد قد زالت وعظمته قد زالت وتأذن الله بذهاب ملكه) . فقلت وهل تصدق

---

(١٧٩) الجرزان = الجرذان قراءة تصحيحية .
(١٨٠) إلا = وإنما قراءة اجتهادية .
(١٨١) كتالم وممكنا = كمأوى ومسكنا قراءة اجتهادية .
(١٨٢) فسيعودون = فيعودون قراءة ترجيحية .
(١٨٣) فسدوا = افسدوا قراءة ترجيحية .

القائلين بأن للورد كرومر يدا فى هذه المحنة وأنه استقدمهم من دار هجرتهم ليكونوا عونا له على إيقاع الفرقة بين المابين وقصر الإمارة؟ فقال (أنى أقول لك الحق أنى لا أنكر على أولئك القائلين مقالهم ، فارن[١٨٤] الرجل لا عمل له فى هذه الآونة إلا التفريق بين التابع والمتبوع وإقامة الشحناء وتوكيد أساليب البغضاء كى لا يتم لأهل (المابين) عمل ولا يتحقق لصاحب قصر الإمارة أملا[١٨٥] . كان عنصرى الأمة المكونين لها المسلمين والمسيحيين على أتم ما يكون من الوفاق وأشد ما يمكن من التضافر والتساند ، وكان أصحاب صحفهم وأهل الكلمة المسموعة منهم إذا قالوا فعن الشعب المصرى كافته وإذا طلبوا فباسم المصريين جمعا ، وإذا تحركوا كانت حركتهم ميمونة مباركة . فقد يتماسك المسلم بيد أخيه المسيحى ، فلم يفرق بينهما وعيد ولاتهديد . وظل هذا شأنهم منذ القدم حتى وأبان الثورة العرابية التى تغلغلت في جوف البلاد شرقا وغربا وشمالا وجنوبا ، فكانت هذه ضربة موجعة لسياسة الإحتلال بل قاضية على كل أمل لهم فى إخضاع المصريين لسلطتهم واستمالتهم إلى طاعتهم ، فجعل يعمل الفكرة حينا حتى رأى أن الغلبة فى التفريق بين العنصرين وأن الغنم فى تمزيق وحدة هذا الشعب المتساند ، فقرب منه جماعة ممن لا خلاق لهم من عباد الدرهم والدينار ، وآخرون من عشاق المناصب من المعممين وأصحاب العكاكيز وكافتهم[١٨٦] بما فى نفسه وجعلهم دعاته فى السر والعلن . فاندسوا بين الأحزاب وانبثوا فى الأطراف والتصقوا بنفر من أصحاب الوظائف العالية وأهل الخطط بل والسوقة والعامة وأهل الصنائع والمهن الصغيرة يشقون[١٨٧] بهذه السموم القاتلة لمجموع الأمة ، ووافق هذا هوى بعض المعممين المتصدرين فى مجالس الخاصة وبيوت الكبراء فكانت دعوتهم إلى التفريق أوقع فى نفوس القوم وأشد مكانة ، فلولا أنه للآن لم ينفجر مرجل هذه الفتنة ولم ينفسح شرها فى أكثر البلدان ، وهى كامنة بين جدران ومكامن القاهرة والضاحية منها ، ولكنى أقول لك سيأتى يوم قريب نرى العنصران يتنازعان وقد ذهبا مع الأغراض والحقود وماجت

---

(١٨٤) فارن = فإن قراءة ترجيحية .

(١٨٥) أملا = أمل قراءة ترجيحية .

(١٨٦) وكافتهم = وكاشفهم قراءة ترجيحية - ويحتمل أن تكون كفتهم أى ضمهم إليه وإن كان الترجيح الأول أقرب . مختار الصحاح - مادة (كفت) - ص ٢٣٩ .

(١٨٧) يشقون = ينفثون قراءة اجتهادية .

بسماسرة البغى والباطل حتى يخال أن الحرب واقعة بين الدروب والمنازل وأن الجار يفتك بجاره وأن السكون قد شط مزاده والأمر يومئذ لله) ا . هـ .

وكانت أخبار زيادة النيل إلى هذا الحين غير سارة ولا محمودة . فاهتم لها أصحاب الرى من جماعة الإنجليز وجعلوا يراقبون أدوار الفيضان وأطواره ويقيسون الحاضر بالداير منها . فلما كان تاسع عشر أغسطس من السنة ظهر منهم تقريرا قالوا فيه أن حالة الفيضان فى مثل هذا التاريخ يعنى تسع عشر أغسطس عام تسعة وتسعين وثمنمائة وألف كانت بإنخفاض شديد ، وأما فى عامى تسعمائة[١٨٨] وتسعمائة وواحد فإنها كانت وافية كافية ومعدل متوسط قياس النيل فى الثلاثين سنة الغابرة أى من سنة ثلاثة وسبعين وثمنمائة وألف حتى هذا العام يعنى عام اثنين وتسعمائة وألف كلن[١٨٩] فى أسوان أربعة عشر ذراعا وثلاثة قراريط فى ثالث عشر أغسطس وأربعة عشر ذراعا وتسعة قراريط فى رابعة عشرة وأربعة عشر ذراعا وإحدى عشر قيراطا فى خامس عشرة وأربعة عشر ذراعا وأربعة عشر قيراطا فى سادس عشرة وأربعة عشر ذراعا وعشرين قيراطا فى ثامن عشرة منه وخمسة عشر ذراعا فى تاسع عشرة . قلت فإذا قابلنا بين مقياس النيل فى هذا العام فى أصوان بمقياسه فى السنين الثلاث التى كانت أشد انخفاضا فى الثلاثين سنة التى مضت واتخذها أصحاب الرى مثالا كان نيل هذا العام أوطأ نيل وذلك لأن مذكرات أصحاب الرى دلت على أن الفيضان فى سنة سبعة وسبعين وثمنمائة وألف فى أصوان كان فى تاسع عشر أغسطس ثلاثة عشر ذراعا وسبعة قراريط ، وفى سنة ثمان وثمانين كان اثنى عشر ذراعا وتسعة عشر قيراطا وفى سنة تسعة وتسعين كان اثنى عشر ذراعا وهو فى هذه السنة أعنى سنة اثنين وتسعمائة وألف عشرة أذرع وأربعة عشر قيراطا . وكانت مساحة الشراقى فى سنة سبع وسبعين وتسعمائة[١٩٠] ألف ألف فدان ، وفى سنة ثمانية وثمانين مايتين وتسعين ألف فدان ، وفى سنة اثنين وتسعين وثمنمائة وألف مايتين واحد وعشرين ألف فدان .

(١٨٨) تسعمائة = ألف قراءة ترجيحية .

(١٨٩) كلن = كان قراءة ترجيحية .

(١٩٠) وتسعمائة = وثمانمائة قراءة ترجيحية .

قال أصحاب الرى . أما حالة الرى فى الوجه البحرى فإنها حسنة ولابد من حفظ الموازنة فى تفتيش رى قسم ثانى ، ولكنه نظرا لكثرة المياه[١٩١] المتدفقة فى الترع قلما تكون خفيفة ويمكن إبطالها فى زراعة الأرز . أما فى أواسط مصر فحالة الأراضى الصيفية التى تروى من ترعة إبراهيمية والحياض الجديدة فى إقليم أسيوط كانت فى خطر لو لم تقفل قناطر أسيوط ، فسد هذه القناطر رفع منسوب الإبراهيمية إلى متر ونصف ونجت الزراعة الصيفى من كل ضرر . وما أنفق من الأموال وقدره ثمنمائة ألف جنيه وخمسين ألفا يعدو[١٩٢] كله فى هذا العام . قلت وقناطر أقليم أسيوط هذه هى أول قناطر فى العالم أقفلت ابان الفيضان والمقدر أن جوف الجيزة يكون كله شراقى ، وقد تحقق أن الفيضان شديد لا تحمد مغبته . وشاع خبر ذلك بين الناس وتحدثوا به . وجاءت الأخبار تترى إلى أصحاب الزروعات بالقاهرة ، وغيرها بتعذر أطفاء الأرض لزراعة الأذرة النيلى التى عليها حياة الفلاح وهناءه عامه[١٩٣] ذلك . واشتد الخوف بالناس شدة بالغة وعلت أسعار الحبوب وقبض أصحاب الأموال أيديهم عن العطاء وتعلقت آمال أصحاب الرى بفيضان (النيل الأزرق) لعله يدفع عن البلاد غائلة الشرق ويمد البلاد بنعمة منه .

أقول وبلغ قياس النيل فى (الروضة) اليوم الذى هو حادى عشرى أغسطس أربعة عشر ذراعا وأحد عشر قيراطا ، وقد كان فى مثل هذا اليوم من العام الغابر ثمانية عشر ذراعا ، وفى أصوان عشرة أذرع وسبعة عشر قيراطا مقابل ستة عشر ذراعا ، وفى حلفا خمسة أمتار وثمانية وأربعين سنتى مقابل ثمانية أمتار وثلاثة سنتيمتر ، نسأل الله اللطف فى المقدور .

وفيما الناس على هذا من الخوف والتطير إذ جاء الخبر وتفشى القول بأن (ملا) الصومال لم تزل سطوته ولا تلاشت سلطته كما يقول الإنجليز ، وأن الأمن لم يرجع إلى نصابه كما أذاعت صحفهم ، وأن الملاحيا[١٩٤] يرزق ، وهو مقيم على مسيرة ستة أيام من معسكر (الكولونيل سوين) مقدم الحملة المحاربة ، وأن رجال تلك الحملة فى أشد ما

---

(١٩١) ولكنه نظرا لكثرة المياه المتدفقة فى الترع قلما تكون خفيفة ويمكن إبطالها فى زراعة الأرز = استبعدت العبارة نظرا لعدم إنسجامها مع باقى السياق .

(١٩٢) يعدو = يعوض قراءة اجتهادية .

(١٩٣) عامة ذلك = استبعدت العبارة ليستقيم النص .

(١٩٤) حيا = حى قراءة تصحيحية .

يكون من الضيق والحاجة إلى الزاد والميرة ، وقد اضطرها الجوع إلى نهب مأكل أهل البلاد وسلب ماشيتهم وأنعامهم وقد كان حضورها لحمايتهم من المعتدين عليهم . وكان (الملا) قد اجتاح كل البلاد وأخذ المواشي والأنعام فلم يبق للإنجليز شيئا يقتاتون به . قالوا ومما زاد نار الفتنة اشتعالا هو اتهام الإنجليز للقبايل الضاربة حول (زيلع) بموالاة (الملا) وحمل الأسلحة إليه من كل صوب وحدب . فقاموا عليهم بخيلهم ورجالهم وكبسوا منزالهم[١٩٥] واستاقوا نوقهم ، وأتوا بها إلى معسكرهم وباعوها بثمن بخس . فوقع الهرج بين تلك القبايل وجاء صياحهم إلى (الملا) يستفزه إلى حرب الإنجليز وشن الغارة على المواليين لهم الذين قد ابتاعوا نوقهم . ووصلت عيون الملا وأحدقوا (بزيلع) وما حولها . وبرز الأمر إلى (الكولونيل سوين) بأخذ الحيطة لكل طارئ ، وإلى جماعة من ضباط جيش الاحتلال بالشخوص إلى ذلك الصعيد . أقول وقد كان الإنجليز قد تعاقدوا مع (ناجوسى) الحبشة (منليك) علي مطاردة (الملا) وأشياعه ، فسير لقتاله عسكرا كثيرا ، فقهروه ومزقوا شمل لمومه شر ممزق ، فهرب إلى الجبال ولا[١٩٦] إلى الاختفاء حينا . فلما عادت عساكر الحبشة إلى أوطانها وأمن شر مقدمها أو هو أحس بما وقع بين مقدم الإنجليز ومقدمى العساكر الحبشية من الفرقة وسوء التفاهم ، وهو يعلم من نفسه القوة والجلد على مقارعة الحملة والفتك بها ، جعل يزحف من بلد إلى بلد حتى صار على قيد بعض فراسخ من منازل الإنجليز ، وانضم إليه مشايخ القبايل المتاخمة (لزيلع) فكثرت لمومه كثرة بالغة وحسب الإنجليز لكثرتها حسابا كبيرا . وظل الفريقين على قدم الاستعداد والتحفظ ثم انقطعت أخبارهما ، وسكت أصحاب صحف الإنجليز عن ذكر شيئا منها تفاديا مما عساه أن يقع بسبب تفشيها وهم يتكتمون كل خبر عن دحر حملاتهم فى تلك الأصقاع البعيدة ، ولكنه قد علم من الأنباء الخصوصية أنهم استاؤا من الحبشان فأكثروا من الحركة على حدود الحبشة ووضعوا نقطا جديدة مؤلفة من بعض السود بأمر ضباط من الإنجليز قد أتوا من جنوب أفريقيا ، وأن الحبشان أزكوا عليهم العيون وقصدوا لهم بالمرصاد متحفزين للوثبة من يوم إلى يوم والله سر ما وراء ذلك عليهم[١٩٧] .

---

(١٩٥) منزالهم = منازلهم قراءة تصحيحية .

(١٩٦) ولا = وعمد علت الكلمة لتستقيم مع النص .

(١٩٧) سر ما وراء ذلك عليهم = بسر ما وراء ذلك عليم قراءة ترجيحية

ولما كان ثامن عشرة أغسطس أزاع[١٩٨] أصحاب الرى أنباء النيل فقالوا أن الزيادة التى ظهرت منذ أيام فى (الخرطوم) قد أحدثت شيئاً من الزيادة فى مقاسها ، ومع ذلك فقد جاءت مخيبة للآمال التى كانت ترجى منها ، وذلك لأن المناسيب هناك مازالت منخفضة انخفاضا عظيما ، وقد ابتدأت زيادة أخرى ولكن الأنباء الأخيرة لا تدل على طمان وارتياح . وأما فى أصوان فإن درجة المياه هناك لاتزال فى انحطاط زائد لامثيل له فى معددات[١٩٩] المقاييس وإن كان المنظور أن ترتفع المياه عما قليل ، ولكن المناسيب الراهنة منخفضة جدا إلى درجة لايرجى معها أن تبلغ المياه أربعة عشر ذراعا .

على أن الحالة الراهنة فى الأقاليم البحرية جيدة ، وقد دخلت المياه إلى الترع الفرعية الآخذة من النيل فى تفتيش رى القسم الثانى . أما الحالة فى مصر الوسطى فجيدة فى القسم البحرى وقد ارتفعت المياه من يوم أقفلت قناطر أسيوط ولا خوف أن يكون الرى مقصرا فى الأنحاء البحرية من أسيوط . وأما الحالة الراهنة فى الوجه القبلى فإن كانت قد دخلت المياه فى ترع الحياض ولكنها قليلة جدا يصح معها القول بأن رى الأحواض متعذر وبلوغه عسير . وعلى كل حال فإن الأمر خطير والحالة سيئة جدا ، وأنه إذا كانت الزيادة لا تظهر فى أصوان عن قريب وتستمر عدة أيام متوالية فلابد من أن تعظم مساحة الشراقى كثرة بالغة ويم[٢٠٠] ضرره الغنى والفقير .

قالوا ولا مشاحة في أن النيل الأزرق جيد الفيضان والنيل الأبيض ضعيفه وفيضان (العتبرة) فى أقصى درجة التقصير ، ولذلك فقد صار من المحقق الذى لا مراء فيه أن الشراقى فى الأقاليم القبلية وشرقى الجيزة كثير جدا وأن المياه هناك فى أحط دركات الإنحطاط الذى لم يسبق له مثيل .

وكانت إلى هذا الحين جميع المساجد معطلة موصدة الأبواب بسبب الهواء الأصفر وتفشى الموت به فى مشرق البلاد ومغربها على ما تقدم بك بيانه . فلما ارتفع الموت أو كاد اجتمع جماعة من وجوه القاهرة وهم (السيد عمر مكرم) والسيد (عبدالواحد بك

---

(١٩٨) أزاع = أذاع قراءة تصحيحية .
(١٩٩) معددات = معدلات قراءة اجتهادية
(٢٠٠) ويم = ويعم قراءة ترجيحية .

الطوبى) (وحسن بك الأفندى) (وإبراهيم بك وفا) (والشيخ محمد بكر) (وعبدالرحيم بك حجازى) (وعثمان بك رضوان) (وعبدالوهاب بك الشنوانى) وغيرهم من تجار القاهرة واختاروا (حسن بك مدكور) ليكلم (بتشنج بك) مدير الصحة فيما هو واقع من الضرر بسبب تعطيل المساجد والزوايا ومنع إقامة شعائر الدين . فأجابهم إلى فتح أبواب المساجد الآخذة مياهها من شركة المياه فى وقت قريب جدا ، وأن المفاوضة فى ذلك جارية مع ديوان الأوقاف . وأما الجوامع الغير(٢٠١) تابعة لديوان الأوقاف فلا يصح فتحها إلا إذا أخذت مياهها من شركة المياه . فراجعه (حسن بك) فى ذلك فلم يقبل وقال (أنهينا اليكم كيف تغسلون موتاكم وشرحنا لكم ما ينجم من المخالفة من انتشار الداء وتفشى الموت بين العامة والخاصة ، وقلنا أن الخوف من كمون الداء فى البلاد شديد فلك(٢٠٢) يكن منكم اهتماما ولابدت من علمائكم نصيحة إلى العامة وسكان العطوف . على أن الأمر هين والغسل واجب بالماء القراح كما تريدون ولكن يجب أن يصب أولا على الميت ماء التبخير إذا كان الموت بسبب الهيفا(٢٠٣) . ويجب الكشف على الميت كشفا تاما بمعرفة الأطباء ولا فرق بين الرجال والنساء فإن الحالة داعية إلى ذلك) . فقالوا إن ديننا يحرم إطلاع الغير على عورات النساء ولاسبيل إلى ذلك والعامة كما تعلم بحماء(٢٠٤) . فقال يكتفى بمشاهدة وجوههن وأيديهن حسب الشريعة ويُغسلن على أيدى المغسلة والطبيبة فقط ويكتفى بشهادة طبيب العائلة إذا كان لها طبيب مخصوص أو بشهادة طبيب القسم . وكان قد برز الأمر بردم سائر آبار القاهرة ومصر القديمة وبولاق مصر ومنع الناس من أخذ المياه منها . فكبر الأمر على العامة وأعظموه جدا وتألبوا على أصحاب الشرطة وقاوموهم مقاومة شديدة ، فكان لهم معهم فى كل يوم شأن . وعندى أنهم مسوقون إلى ذلك بحكم الوجدان ولا جناح عليهم فيما يفعلون ، فقد كان القوم قبل تفشى الوباء يستقون من النيل . فكانت النساء تحملن الجرار وتأتين بالماء بقدر الحاجة فى كل يوم فمنعهن أصحاب الصحة من ذلك وحالوا بينهم(٢٠٥) وبين الماء بدعوى

(٢٠١) الغير تابعة = غير التابعة قراءة تصحيحية .
(٢٠٢) فلك = فلم
(٢٠٣) الهيفا = الهواء الأصفر قراءة ترجيحية .
(٢٠٤) بحماء = جهلاء قراءة اجتهادية .
(٢٠٥) بينهم = بينهن قراءة تصحيحية .

تلويث النيل بأدران الوباء ، فعمدوا[٢٠٦] إلى الاستقاء من الآبار فهموا بمنعهم[٢٠٧] عنها أيضًا قولا أنها ملوثة وأن ماءها مملوء بجراثيم الوباء والعامة لا يعرفون شيئا من أمر الجراثيم ولا يهتمون بوقاية أنفسهم لاعتقادهم أن الموت والحياة إنما هما من الله تعالى وإذا جاء أجلهم فلا يستأخرون[٢٠٨] ساعة ولا يستقدمون[٢٠٩] . فكان منع أصحاب الشرطة لهم من الاستقاء من النيل ثم من الآبار أمرا دافعا بهم إلى شق عصا الطاعة . أقول وقد بلغ خوف أهل الحكومات الأجنبية من تسرب هذا الوباء إلى ديارهم مبلغا عظيما ، فقد كان إذا سافر المصرى فى هذه الأيام إلى ديار الفرنجة طهروا متاعه قبل أن تطىء[٢١٠] قدمه أرضهم ، ووضعوه تحت مراقبة صحية شديدة ومنعوه من دخول المجتمعات العمومية كالمراسح والتياترات قبل أن يقضى خمسة عشر يوما فى شبه عزلة عن الناس منعا لكل خوف . ووكلوا بذلك جماعة من أصحاب الشرطة ، وكان أكثر ما يقع هذا فى ديار الفرنسيس ولاسيما فى (باريز) عاصمتهم .

وكان السلطان عبدالحميد لغاية دينية أو سياسية قد رسم بإنشاء خطا حديديا يصل الشامات بالأقطار الحجازية ، واهتم لهذا الخط اهتماما عظيما للغاية ، فقام بعمله كثير من الجند والصناع وكبار المهندسين من الألمان ، وجدوا فى عمله واجتهدوا . وكانت كتب المابين تأتى الموكلين بالعمل تباعا بالحث والاستنهاض . ولما كانت فائدة إنشاء هذا الخط مأمولة ومرجوة عند حجاج بيت الله الحرام من المصريين من حيث تقليل شقة السفر عند الحج والابتعاد عن مكائد العربان وشرهم المقيم ، كان التجار فى مصر والشام يكاتبون بعضهم بأخبار ذلك الخط ويمنون بعضهم بالأمانى الكثيرة . وأقبل جماعة من المصريين على الإكتتاب وجمع قدرا من المال لإعانة الخزينة السلطانية على النفقة على حمل ذلك الخط ، وألفوا لجانا لذلك فى أكثر المدن والبلدان ، وتطوع فى هذه الخدمة نفر من المبتلين بالظهور المولعين بالتصدر فى كبار الأمور ، فجمعوا لذلك مالا كثيرا وسيروا به إلى الخزينة السلطانية . فجاءهم سلام السلطان وتبلغ إليهم محظوظيته على يد

(٢٠٦) فعمدوا = فعمدن قراءة تصحيحية .
(٢٠٧) بمنعهم = بمنعهن قراءة تصحيحية .
(٢٠٨) يستأخرون = يستأخرون عنه قراءة تصحيحية .
(٢٠٩) أو ليس الأمر كذلك؟
(٢١٠) تطىء = تطأ قراءة تصحيحية .

الغازى مختار باشا مندوب الباب العالى . ففرحوا بذلك ، ويقال وسر بعضهم سرورا عظيما لقيد اسمه بدفتر باب التشريفات الهمايونى فى دار السلطنة . وتفشى خبر ذلك بين أهل البلاد مكبرا معظما ، وظن ضعاف العقول منهم أن قد سبقهم إلى تلك النعمة كثيرون ، فجعل بعضهم يرهن عقاره حتى لقد باع بعضهم أرضه بثمن بخس وتبرع به لنفقة ذلك الخط وهو فرح . فجاءتهم تلك المحظوظية ، وتبلغ إليهم ذلك السلام السلطانى . ثم جاءهم الخبر بعد ذلك بأنهم يسألون[٢١١] عطف أمير المؤمنين ورضائه العاجل .

فلما كان يوم عيد السلطان برز الأمر إلى كاظم باشا مدير أعمال الخط بافتتاح الخط بين مظاهر الأفراح والولائم واستدعاء كل ذى حيثية من الشاميين وغيرهم من أصحاب الوظائف وأهل الخطط والعلماء والكبراء . فأعدوا للقوم قطارا خاصا وزينوه بالأعلام والشعار السلطانى وساروا فبلغوا (درعه) حيث كان فى انتظارهم خلق كثير فصدحت لهم الموسيقى وتناولوا الغذاء ، وقد وقف لهم صبيان المكاتب القروية يعجون ويدعون للخليفة أمير المونين[٢١٢] . ثم شرع كاظم باشا برسم الافتتاح من درعة فمر القطار (بقلعة المغرق) (وخربة السمرة) ووصل القطار إلى الزرقا ، فمر من تحت قوص[٢١٣] نصر قد نصبوه بين هتاف الجنود والعمال والعربان والأهالى . ولما استراح المدعوون قاموا للطعام . ولما أقبل الليل أناروا البلد بالأنوار المثيرة وأطلقوا الاسهم النارية وجعل العربان ينشدون أغانيهم المألوفة عندهم . واستدعى كاظم باشا جماعة العربان وخطب فيهم ودعا للسلطان دعاءاً حسنا فحذا حذوه المفتى وبعض العلماء . وانفض الجمع من حولهم . واشتد هوس بعض الكتاب من رجال الحزب الوطنى فاحتفلوا فى القاهرة أيضًا بهذا الافتتاح ، وصبغوه بصبغة دينهم ودعوا للخليفة دعاءاً طويلا وحضوا الناس على عدم قبض أكفهم عن العطاء بسخاء لذلك العمل العظيم الداعى إلى تعزيز الدين وحفظ عظمة الإسلام والمسلمين ، حتى ظن بعض النزلاء من الأجانب بهم السوء وتوقعوا منهم الشر . على أنه لم يكن شيء من ذلك يومئذ وإنما هى خطة رجال الحزب وأقطابه

(٢١١) يسألون = ينالون قراءة ترجيحية .
(٢١٢) المونين = المؤمنين قراءة تصحيحية .
(٢١٣) قوص = قوس قراءة تصحيحية .

لا يقولون قولا إلا مزجوه بالدين وخلطوه بالإسلام والمسلمين وأسندوه إلى مسند الخلافة عن ظن أو يقين ، وقد هم بعض هؤلاء القوم بالسفر إلى دار السلطنة تقربا وزلفى . فما هو أن شاع خبر ذلك حتى جاءتهم الكتب تترى بأن قد برز الأمر بأن المصريين الذين يقدمون إلى دار السلطنة يقضون أولا مدة الحجر الصحى ويجرى عليهم التطهير بلا فرق ولا تمييز ثم يبقون بعد ذلك كله خمسة أيام تحت مراقبة رجال الصحة نظرا إلى تفاقم أمر الوباء . وكلفوا بذلك صاحب شرطة الآستانة فأحجموا عن السفر وزالت رغبتهم فيه(٢١٤) .

---

(٢١٤) سكة حديد الحجاز كان مشروعا أوحاه إلى السلطان عبدالحميد (١٨٧٦ ـ ١٩٠٩) اعتبارات دينية بحسبانه خليفة المسلمين ، فى أول القرن العشرين ، وكان الهدف الأساسى منه وصل (دمشق) فى الشام (بمكة) فى الحجاز لتخفيف المعاناة عن الحجاج الذين يريدون أداء أحد الفروض الخمسة (أركان الإسلام) . كان هذا هو لب المشروع عندما أصدر (عبدالحميد) إرادته السلطانية فى عام ١٩٠٠ ببدء العمل فيه مستجيبا فيه لرغبات كل أتباع العقيدة المحمدية . كان المشروع فى البداية خطا حديديا طوله ١٨٠٠ كم يمتد من دمشق إلى كسوة ـ ٢٠,٨كم ـ ديرالى ٩,٧كم ـ مسميتة ١٩,٠كم ـ شيباب ١٢,٩كم ـ حباب ٨,٧كم ـ محاجه ٦,٨كم ـ شقراء ٦,٦كم ـ اسرا ١٤,٩كم ـ جربت الغزالى ١٦,٩كم ـ درعا ١٢,٧كم ـ نصيب ٢٦ كم ـ مفرق ٢٣,٦كم ـ سمرا ١٧,٤كم ـ ذرقا ١٩,٧كم ـ عمان ١١,٦كم ـ قصر ١٤,٨كم ـ لوين ١٠,٩كم ـ زيزيا ١٩كم ـ ديبا ١٦,٥كم ـ خان الزبيب ١٤,١كم ـ سوكة ١٦,٩م ـ قطرانى ٢٢,٢كم ـ منزل ١٨,٧ كم ـ فرفره ١٠,٧كم ـ الحساء ١٩,٧كم ـ جروف ٢٥,٣كم ـ عينزه ١٧,٨كم ـ وادى جادون ١٨,٣كم ـ معان ١٦,٢كم ـ بيرشدير ١٢كم ـ العقبة ٥,٥كم ـ بطن الغول ١٠,٣كم .

نتيجة للدعاية التى نالها المشروع عبر العالم الإسلامى كله انهالت التبرعات من أجل إنشائه حتى غطت أغلب رأس المال المطلوب ، وكانت الدولة تعطى بدلا من إيصالات السداد (مداليات) تتراوح قيمتها إلى المتبرعين . كانت التبرعات تقبل نقدا أو عينا ، وكانت الأخيرة تقدم فى شكل هدايا من الأرض أو المواد ، وعلى سبيل المثال فإن تبرع الإمبراطور ويليام الألمانى كان على شكل قضبان حديدية ، أما الحكومة التركية فقد خصصت ما لايقل عن ثمانية وحدات من الجيش بإجمالى قدره ٥٦٥٠ رجل للعمل فى بناء المشروع .

فى هذه الأيام كان السلطان يعانى صعوبات فى إدارة الولايات العثمانية فى شبة الجزيرة العربية واليمن بصورة مرضية ، ومن هنا فإن من المفترض أن اهتمام حكومته بهذا المشروع لم يكن يخلو من مسحة سياسية . ولقد كان الأمر الوارد للفكر فى ذلك الوقت هو أن وصلة حديدية من العاصمة إلى البحر الأحمر يمكن أن توفر أداة إدارية ثمينة ، تجعل من الممكن الاعتماد على القوى البشرية للولايات البعيدة فى زمن الحرب ناهيك عن تقليل إعداد الحاميات المقيمة إلى الحد الأدنى .

بتوفير المانيا المستشارين التقنيين ، فقد أظهرت اهتماما ضخما بالمشروع ، وفى ضوء تاريخ العالم فى نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين فقد كان هذا الاهتام يمكن فهم ما وراءه بسهولة .

كانت ألمانيا حليفا لتركيا ، وكانت تطور بانتظام المواصلات فى الخليج (الفارسى) ، وكانت تنظر بكثير من التفضيل إلى مشروع يمكن له ـ لو أن الأمور ليست فى اتجاه مخالف ـ أن يسهل تأسيس قاعدة عسكرية أو قاعدة للغواصات تدار فى موقع يصلح لتهديد قناة السويس . بناءً على ذلك فإن العمل التقنى فى بناء سكة حديد الحجاز كان تحت سيطرة المهندسين العسكريين الألمان . وفى هذا الإطار فقد قام أحد هؤلاء المهندسين بتثمين الطاقة النقلية لهذا الخط المقدس للحج إلى ما يقابله من الكتائب ، مدافع ، وأطنان ذخيرة مساويا الحجاج بأفراد الكتائب ، والحمولات المعيشية للحجاج إلى أوزان الأسلحة والذخيرة اللازمة . ورغم الشك لدى الكثيرين =

وكان إلى هذا العهد قد قلت حيلة الأطباء فى القاهرة والإسماعيلية وبور سعيد فى إزالة (الحمى الراجعة) من الإسماعيلية وأرباضها ، وقد أشغلت هذه الكارثة رجال شركة القناة منذ ستة وعشرين سنة ، ولطالما ردمت المستنقعات وخربت الحدائق والبساتين وسبرت غور الأرض ، ودققت فى فحص مياهها وأرسلت منها إلى ديار الفرنجة فلم تفلح . وكان عملها - كطعنة فى ماء - أقول لما أنشئت الإسماعيلية على عهد (الخديوى إسماعيل) بإشارة دى لسيبس فاتح القناة لم يمض عليها حولا كاملا حتى زهت وازدهرت وسموها عروس الديار المصرية ، فكان يقصدها الناس من كل صوب وناحية ويلهجون بنظافتها وحسن تنسيق بنائها وشوارعها عن كل بلد ، فيقضون فيها فصلا من فصول السنة وهو فصل الصيف والاستحمام فى البحر . وكانت الصحة فيها على ما يرام ، وكانت ترعتها الحلوة قليلة المياه غير صالحة إلا لملاحة الزوارق الصغيرة . فبرز الأمر يومئذ بتوسيعها وتطهيرها فتدفقت فيها المياه وصارت تمخر بها المراكب الكبيرة وينصرف من مياهها جانب كبير فى البحر المالح أو (بحيرة التمساح) . ولم يمض على ذلك كثير حتى ظهرت فى البلدة (الحمة) وانتشرت انتشارا مخيفا ، وكان ظهورها على هذا الوجه من الشدة فى سنة ستة وسبعين وثمنمائة وألف ميلادية ، وصارت إصاباتها

= من الذين كانوا يعتقدون فى قدرتهم على الحكم على مثل هذه الأمور ، فإن كلامن المذهب غير العادى للتمويل وصعوبة البناء فى صحراء غير مضيافة كانت مسببة لتأخير إنجاز المشروع .

فى أول سبتمبر ١٩٠٥ كان قد جمع مبلغ ٤٦,٧ مليون فرنك للصندوق المخصص للمشروع كما بلغت الهبات ٧,٥ مليون فرنك .

وتحت الإدارة القادرة للمديرين التقنيين سار المشروع قدما بسرعة غير معتادة حتى وصل الخط مع نهاية العام إلى ما وراء (معان) فى الجنوب ، وبينما كان الخط يدفع إلى ما هو أبعد إلى الجنوب إلى هدفه ، كان خط فرعى على الساحل عند (حيفا) قد تم مده .

لكن العمل الأهم فى هذا الخط كان مد فرع له من (معان) إلى (العقبة) .

وفى هذا المقام فإن الجنرال الألمانى (أولر باشا) الضابط بالجيش العثمانى كتب فى تقرير له باللغة الألمانية فى عام ١٩٠٦ ما مفاده (أن لمحة إلى الخريطة تكفى لإيضاح الفائدة والأهمية الاستراتيجية لفرع حديدى يربط بين (معان) إلى (العقبة) ، فبمثل هذا الخط يمكن لتركيا أن تنعم بخط مواصلات حديدى إلى (البحر الأحمر) ، وأن تكون مستقلة عن (قناة السويس) التى تمر منها كل حركة النقل بين تركيا والولايات العربية على البحر الأحمر . وهذا الطريق (قناة السويس) مكلف لأن الرسوم تصل إلى عشرة فرنكات للطن . أما الأهمية الاستراتيجية للطريق (معان - العقبة) فتكمن فى تسهيل النقل السريع للقوات إلى الولايات العربية للتعامل مع الثورات والعصيان . ففى صيف ١٩٠٥ دفعت القوات من (دمشق) على عجل إلى (الحديدة) فى رحلة قصيرة قدرها ١٠ - ١١ يوم ، بينما كان نقل هذه القوات عبر (قناة السويس) يحتاج إلى أسابيع)

- St. Antony's College - Oxford University - ME center (Scrivener papers)

تشبه الإصابات الوبائية ، فاهتمت شركة القناة بأمرها اهتماما عظيما جدا وجعلت تفرق على الناس المأكول والمشروب وتعطيهم الأدواء والملبوسات مجانا . وظلت على هذا حينا طويلا والداء لا يرفع ولا يزول . وظنوا يومئذ أن السبب فى اشتداد العلة راجع إلى اختلاط ماء الترعة الحلوة بماء البحر المالح عند الهويس التحتانى أعنى عند نهاية المدينة فى الجانب الشرقى . ولا خفى أن اختلاط الماء الحلو بالماء المالح يسبب (الملاريا) . فلما أعيت القوم الحيل وذهبت أعمالهم إدراج الرياح سيروا إلى دار الفرنسيس فى طلب بعثة طبية اختصاصية لتبحث فى أسباب تفشى هذه العلة واشتدادها من حين إلى حين . فجاء جماعة من نفس الأطباء وأقاموا بالإسماعيلية أياما حتى تحققوا من أعراض الداء وأسبابه ، واجتمعت كلمتهم على أن العلة هى لدغات الباعوض المتولد من بعض المستنقعات ، وأن هذا الباعوض يسمى (باعوض الملاريا) فهو ينقل العدوى بين الناس من بيت إلى بيت ومن حى إلى حى ، وأنه كثيرا فى أطراف المدينة كثرة زائدة ولابد من استئصاله وقطع شأفته بأنجح الأدواء . وكتبوا فى ذلك رسالة ضمنوها كل سبب صحيح وحجة قوية ، ثم أشاروا على رجال الصحة من موظفى شركة القناة بصب البترول فى مايوجد من المستنقعات فى أطراف المدينة وأن يداوموا على ذلك أياما معدودة فى كل شهر ففعلوا . فما هى إلا أشهر حتى هلك الباعوض وتلاشى أو كاد ، وخفت الأسباب وزالت العلة خصوصا فى أحياء الأجانب لنظافتها وعناية أهلها بتنظيف دورهم وأماكن المياه فيها . وظل الحال على هذا إلى يومنا الذى نحن فيه حتى زال الداء زوالا تاما وذهبت تلك العلة من سائر أحياء المدينة ولم يبق لها أثرا يذكر ، وعاد إلى البلد رونقها القديم فأقبل الناس عليها إقبالهم الأول والأرض تشقى ثم تسعد .

وكان إلى هذا العهد لم يصل إلى ديار الإنجليز تمثال (غوردن باشا) فقيد المهدوية الذى تقرر نصبه فى الخرطوم تذكارا لجهاده وموته ضحية السياسة الإنجليزية أو كما يقول أهل التحقيق صيحته[٢١٥] فعال اللورد كرومر وسوت[٢١٦] تدبيره لذلك العهد . فلما كان ثانى عشر نوفمبر من السنة وصلت الباخرة الإنجليزية المسامة[٢١٧] (لسبيان) وهى

(٢١٥) صيحته = سببه علت الكلمة ليستقيم النص .

(٢١٦) وسوت = وسوء قراءة تصحيحية .

(٢١٧) المسامة = المسماة قراءة تصحيحية .

تحمل التمثال وما يتبعه . فسيرت مصلحة السكة الحديد عربة من عرباتها متينة لتأتى به إلى القاهرة . ثم سير بالعربة إلى (السودان) فنصبوه هناك فى ساحة الخرطوم بين مظاهر التجلة والتكريم . وعندى أن الرجل خليق بتخليد الذكر مستحقا لكل تجلة وتكريم ، فقد كان عادلا شفوقا رحيما بالضعفاء والمساكين بارا تقيا حسن الاعتقاد فى وحدانية الله سبحانه ، شديد التمسك بآداب دينه ، محبا للمصريين معظما لأهل النبل منهم . وجاء خبر إقامة تمثاله إلى القاهرة فنقله أصحاب الصحف وعدوه من لوزام[٢١٨] المجاملة والإعتراف بفضل الرجل . ووافق تحدث أصحاب الصحف بخبر إقامة تمثال غردون باشا إنجاز بناء دار العاديات والآثار المصرية التى أنشئت على شكل مخصوص وأسلوب جمع محاسن البناء وعجائب الهندسة بجوار قصر النيل ، وقد أنفق على بنائه الأموال الكثيرة . وقد برز الأمر بافتتاحه في يوم السبت خامس عشر نوفمبر من السنة . فلما كان بعد ظهر اليوم المحدد أقبل سائر الأمراء والوزراء وأهل المناصب وأصحاب الخطط ورجال مجلس الشورى ووكلاء الدول والقناصل وقريناتهم والسردار وكبار مقدمى الجند الإنجليزى والمصرى ووكلاء الوزارات وأعضاء صندوق الدين والقضاة والأعيان والوجهاء حتى غص بهم المكان على سعته . وكانت طائفة من أصحاب الشرطة مصطفون عند مدخل الحديقة . وأقبل الأمير فى موكبه وهو فى كسوة التشريف الصغرى . فاستقبله الوزراء والأمراء ومشى وهم خلفه حتى بلغ الباب الكبير . فوقف (فخرى باشا) وزير الأشغال العمومية وتلا خطابا بالإفرنسية وتعريبه (مولاى .

فى أول أبريل من عام سبعة وتسعين وثمنمائة وألف ميلادية تفضل جنابكم الفخيم فوضعتم بمينكم[٢١٩] الكريمة الحجر الأول من دار الآثار المصرية . وفى يومنا هذا أقدم لمقامكم السامى بمزيد الإبتهاج هذه العمارة وقد كمل بناؤها وترتبت أوضاعها ، ولقد بذل المهندسون بنظارة الأشغال وعمال دار الآثار منتهى العناية والاهتمام فكان تشييد البنيان وتنسيق الآثار على غاية ما يرام

مولاى

(٢١٨) لوزام = لوازم قراءة ترجيحية .
(٢١٩) بمينكم = بيمينكم قراءة اجتهادية .

إن أرض مصر المباركة تدر على أهلها الخير الوفير ، فمحصولاتها القديمة النظير جزاء لهم على حسن قيامهم بخدمتها . وفوق ذلك ففى أحشائها كنوز أخرى تنفتح مغالقها وتنجلى غوامضها أمام العلماء الصابرين الذين يوالون البحث عليها ويواظبون فى التنقيب عنها حتى إذا انكشفت لهم غوامضها أبرزوها على رؤوس الاشهاد لتكون عجبا باقيا للناس وعبرة .

هذه الكنوز الثمينة التى تدلنا على تفنن الأقدمون فى الصنائع والمعارف وتخبرنا بحضارتهم الزاهرة على ضفاف النيل فى الزمان العتيق قد أصبحت اليوم فى هذه الدار وهى فى أمان من الضياع والدمار بل فى حرز حريز يليق بقيمتها العالية ، فكيف لاتتباهى مصر وقد صار فى وسعها أن تجلو أمام أبصار العلماء والمتفننين والسائحين والمولعين بطرائف الأقدمين ما حوته عاصمتها المحروسة فى هذه الدار من بدائع المجاميع وعجائب الآثار . تكرم يامولاى النعم بإفتتاح دار الآثار المصرية وشرفها بزيارة تكون لها طالع يمن وإقبال فيزداد بهمة مديرها العلامة (ماسبرو) ما فيها من التحائف والطرائف وتنتشر سمعتها وشهرتها فى الخافقين) ا . هـ .

فإجابه الأمير بهذا الجواب (يا سعادة الوزير

إنى أفتح دار التحف المصرية الجديدة بصدر ملؤه الإنشارح(٢٢٠) وهى الدار التى سبق أن وضعت أول حجر من أساسها وأشكر لكم ولكبار الموظفين الذين اشتركوا معكم فى العمل مسعاكم الذى اقترن بالنجاح فى إتمام هذا البناء الفخيم ، وكذلك أقدم تشكراتى (للاستاد(٢٢١) ماسبرو) مدير مصلحة الآثار ورئيسها الجليل الذى اعتقد أنه

---

(٢٢٠) الإنشارح = الإنشراح قراءة اجتهادية .

(٢٢١) ماسبرو = سير جاستون كاميل شارلز ، ماسبيرو Maspero, sir Gaston Camille charles (٢٣ يونيو ١٨٤٦ – ٣٠ يونيو ١٩١٦) . عالم مصريات فرنسى ، ابن لمهاجرين إيطاليين . ولد فى (باريس) وتعلم فيها ، التحق (بليسيه لويس لو جراند) Lycee louis Le-Grand (والإيكول نورمال) Ecole Normale . أصبح فيما بعد أستاذا للمصريات فى (أيكول دى هوت إيتيد) Ecole des Hautes Etudes ثم بعد ذلك فى (كوليج دى فرانس) College de France فى سنة ١٨٧٤ . ذهب إلى القاهرة فى ١٨٨٠ كمدير لبعثة تطورت إلى Institut Francais d'Archeologie orientale . فى ١٨٨١ خلف (ماريت) كمدير للمتحف المصرى ولمصلحة الآثار . رغم أنه عاد إلى فرنسا فى ١٨٨٦ فإنه عاد إلى مصر فى ١٨٨٩ ليستأنف عمله مديرا لمصلحة الآثار التى فعل الكثير من أجل تطويرها فى الخمسة عشر عاما التالية . تحتوى قائمة من أعماله المنشورة على ما لا يقل عن ١٢٠٠ موضوعا ، من بينها Cairo catalogue ، و Histoire ancienn ، و des peuples d'orient ، و =

تمكن هو وأعوانه العلماء من تنسيق هذه الآثار النفائس وإخراجها للناس فى أكمل نظام ، وهى مما تركت لنا تلك الأمة التى استحقت أن تعد من أمهات الحضارة فى العالم . وإن مصر لتذكر الجميل لجماعة المشتغلين بآثارها القديمة من رجال العلم أخص بالذكر منهم المأسوف عليه (ماريت)[٢٢٢] باشا ونعترف لهم باليد الطولى في اجتماع هذه الكنوز التي تزداد ظهورا وكثرة على الأيام .

فاليوم أرانى سعيدا وفخورا أن أفتح أبواب الهيكل الذى يضم هذه الكنوز والذى أقيم ليذكر الناس عصرا كبيرا ـ إلا وهو ماضى بلادى) ا . هـ .

ثم تقدم نحوالباب ففتحه ودخل وخلف[٢٢٣] المدعويين . وكان الأستاذ الأثرى الكبير (ماسبيرو)[٢٢٤] ومدير المتحف يكلمان الأمير عن كل أثر يراه . وبعد التفرج على

= Egypt: Ancient sites and Modern scenes . منح رتبة فارس Knight من الحكومة البريطانية ودرجة الدكتوراة الفخرية من جامعة أوكسفورد .

ـ ارثر جولد شميت جونيور (قاموس تراجم مصر الحديثة) ترجمة وتحقيق عبدالوهاب بكر ـ المجلس الأعلى للثقافة ـ المشروع القومى للترجمة ـ القاهرة ٢٠٠٣ – ص ٢١١ .

(٢٢٢) ماريت = مارييت ، فرانسوا أوجوست فرديناند Mariette, Francois Auguste Ferdinand (١١ فبراير ـ ١٨٢١ – ١٩ يناير ١٨٨١) . مؤسس فرنسى لمصلحة الآثار المصرية . منفذ حفريات للكثير من مواقع الآثار في مصر ، ومنظم المتحف المصرى . ولد فى (بولون ـ سير ـ مير) Boulogne - sur - Mer وتعلم فى (كلية بولون) College de Boulogne . لعدم قدرته على استكمال تعليمه ذهب إلى إنجلترا ليعمل كمعلم ومصمم نماذج ، ثم عاد إلى فرنسا ليحصل على (Baccalaureat - es - lettres) من (دواى) Douai . ليدعم نفسه كمدرس للفرنسية فقد أصبح مهتما بالهيروغليفية المصرية القديمة التى علم إياها نفسه . فى ١٨٤٩ حصل على وظيفة فى (متحف اللوفر) Louvre حيث نسخ كل النقوش التى به . ذهب إلى مصر ليحصل على مخطوطات قبطية فى عام ١٨٥٠ ، وهناك بدأ يستكشف (سرابيوم ممفيس) الذى سبب له الشهرة التى حازها ، ومع هذا فقد هَرَّب الكثير مما اكتشفه إلى خارج مصر . فى عام ١٨٥٥ أصبح (مارييت) مساعدا لأمين القسم المصرى بمتحف اللوفر . وفيما بعد استأنف عمله فى مصر كموظف فى حكومتها وتولى حملات عديدة للحفاظ على الاثار المصرية التى كانت تجرى عمليات نقلها إلى الخارج وتدميرها بشكل سريع . أنشأ (مارييت) المتحف المصرى فى (بولاق) وحافظ عليه كما لو كان مملوكا له . شارك إيضًا فى تأليف نص (أوبرا عايدة) . ضاعت أغلب أعمال (مارييت) عندما غرق منزله فى عام ١٨٧٨ ، وكان آخر إنجازاته هو إنشاء (مدرسة الدراسات الشرقية) ، التي أصبحت الآن (المعهد الفرنسى للآثار) French Aechaeological Institute . وقد وصلت لجنتها التأسيسية إلى مصر قبل وفاته مباشرة . وضع جثمانه فى تابوت موقعه أمام المتحف المصرى .

– آرثر جولد شميث جونيور (قاموس تراجم مصر الحديثة) ـ ترجمة وتحقيق عبدالوهاب بكر ـ المشروع القومى للترجمة ـ المجلس الأعلى للثقافة ـ القاهرة ـ ٢٠٠٣ ـ ص ٢١٣ .

(٢٢٣) وحلف = وخلفه قراءة ترجيحية .

(٢٢٤) انظر حاشية ٢٢١ .

جميع الدور الأول صعدوا إلى الدور الأعلا أيضًا فشاهدوا ما فيه من مدهشات أعمال أجدادنا المصريين ، ثم نزلوا إلى الجانب الأيسر من الدار حيث وضعت رفات (ماريت باشا) وقد كان أوصى بذلك قبل موته ، ثم ساروا إلى مقصف أعدوا لهم فيه شيئا من أطايب المأكول فأكلوا وشربوا وانصرفوا . وقد أنعم الأمير على كثير من المهندسين والصناع الذين اشتهروا فى عمل تلك الدار بألقاب الشرف ونياشين الاعتبار .

ولما كانت الساعة الحادية عشرة من ثامن عشر نوفمبر شعر جميع سكان القاهرة ومصر القديمة وسائر العطوف بدوى شديد جدا زلزلت منه الأرض وارتجت جميع المنازل ، وكان هذا الدوى العظيم من ناحية (معمل البارود) الذى فى سفح المقطم . ذلك أنه حصل انفجار به فتهدم معظم بنائه وتشقق المقطم فهبطت منه صخرة عظيمة فدكت جميع ما صادفته من المبانى وتكسر زجاج ساير المنازل وتحطمت الشبابيك وطارت القنابل المتفرقعة إلى (ناحية الخليفة) فدكت بعض الدور فى (حارة درب الحصر) وقتلت كثيرين من المارة وأصحاب الحوانيت وعم الرعب بتلك الخطة بأسرها ، وتحت قلعة الجبل . وقام الصياح من كل صوب وترامح أهل (خطة الخليفة) يفتشون على القتلى والجرحى والذين سقطوا تحت الردم . وجاء أصحاب الشرطة ورجال المطافئ ومعهم أدوات الإنقاذ ، وعكفوا على الحفر والتنقيب بقية ذلك اليوم فأخرجوا ثلاثين جثة مهشمة مشوهة تنفطر من رؤيتها القلوب ، وعثروا على أربعين جريحا أو يزيد وجراح بعضهم مميتة . وقام الصياح والعويل فى جميع الدروب العطوف وأقبلن[٢٢٥] النساء من كل صوب يولولن ويقرعن صدورهن ويقلن كلمات الندب والاستبكاء . ووصل محافظ المدينة وبعض أصحاب الوظائف العالية يحثون أصحاب المطافئ على نبش ما تهدم من الدور واستخراج ما يوجد تحتها من الجثث . وتقاطرت العربات تنقل تلك الجثث المشوهة والجرحى إلى (مستشفى القصر العينى) وأهلهم يتبعونهم وهم يصرخون صراخ الحزن والأسى ، فكان المنظر مما تنفطر منه القلوب . وأقاموا ينبشون وينقبون طول الليل حتى عثروا على كل من كان تحت الردم . وأصبحوا وقد تزاحم أهل الأموات على باب (قراقول المنشية) . أقول وقد استفزنى هول الحادث إلى ذهابى ناحية الجبل وراء القلعة

(٢٢٥) وأقبلن = وأقبلت قراءة تصحيحية .

فإذا بالجبل من وراء القلعة وإلى جانب (تكية المغاورى) قد اندك أسفله دكا وتهدم الجناح الشمالى من (التكية) وانشق الجبل من أعلاه إلى أسفله ثلاثا ، واحترق سائر مخازن مؤونة وذخرة الجيش . وكانت الصخور العظيمة مقزوفة(٢٢٦) من موضع الإنفجار إلى مسافة الخمسمائة متر أو يزيد . ورأيت كثيرا من الصخور قد سقطت على كثير من القبور التى تحت القلعة عند (تكية المغاورى) فدكتها أيضًا والناس ألوف يتسابقون لرؤية هذا المشهد المخيف الهائل . وقد علمت أن بعض الجرحى نقلوا إلى المستشفى الإنجليزى للجيش بالقلعة عند (عرب اليسار) . وفى اليوم الثالث من الحادث برزت مذكرة من محافظ المدينة بأسماء الذين ماتوا والجرحى الذين أدخلوا المستشفيات .

وأخبرنى أحد مأمورى سجن المنشية بأنه سقط حجرا فى وسط السجن عند الإنفجار وزنة مائة وخمسة عشر كيلو جراما ولم يصبَ أحد بضرر ممن فى ذلك السجن . وحدث أنه بينما كان (الفعلا) يشتغلون فى رفع التراب المتخلف عن الهدم أصاب(٢٢٧) أحدهم خرطوشة فانفجرت وسمع لها دوى ، فقام الصياح وخرج العمال على وجوههم وهم ينادون (البارود البارود) . وسمع الناس دوى الخرطوشة فترامحوا يريدون النجاة . وأغلق أصحاب الحوانيت حوانيتهم ، واستصرخ الفارون بعضهم بعضا ، فوقع الهرج واشتد الزحام واختلط النشالون بالشرطية بالناس فسرقوا منهم ما قدروا على سرقته . وبلغ خبر الحادث مأمور (قسم الخليفة) فخرج فى طايفة من أصحاب الشرطة يرد الناس إلى حوانيتهم وسيرجع(٢٢٨) أصحاب البيوت إلى بيوتهم . ورسم إلى مشائخ الحارات بالنداء بين الناس بأن لا خوف ولا داعى لهذا الهرج . وظلوا على هذا ساعة حتى سكن خوف الناس وأيقنوا السلامة ، ولكن أكثرهم قد ضاع ما فى جيبه . وأخبرنى بعضهم أن اللصوص كانت على قدم غشيان المنازل التى تركتها أصحابها لولا رجوع السكينة إلى نصابها بتلك السرعة .

ولما كان سادس عشره نوفمبر ذهبت طايفة من العساكر المصرية إلى قرب (تكية المغاورى) وحفروا هناك بئرا ثم جعلوا يأخذون الماء ويصبونه على الأنقاض المتراكمة

---

(٢٢٦) مقزوفة = مقذوفة قراءة تصحيحية .

(٢٢٧) أصاب = أن أصاب أضيفت الكلمة ليستقيم النص .

(٢٢٨) وسيرجع = ويسترجع قراءة ترجيحية .

على مستودع بارود الجيش ، وظلوا على هذا اليوم بطوله . ثم أصبحوا وقد جعلوا يرفعون الأحجار والأنقاض مع غاية التحفظ حتى تحققوا ما جرى فى ذلك المستودع . وثبت أن هذا الانفجار كان منشأه مخازن بارود (شركة الملح والصودا) وأن قد لحق بجامع القلعة ومقبرة المغاورى وجامع السيدة عائشة وجامع محمد بك المبدول وجامع الإمام الشافعى إضرار عظيمة . فأقام ديوان الأوقاف على الشرة(٢٢٩) قضية أمام المحكمة المختلطة يطالبها بالتعويض المالى ، وطلب من قاضى الأمور المستعجلة تعيين ثلاثة خبراء لتقدير الخسائر ، وفعلت كذلك وزارة الحربية . فاستعد كثيرون ممن لحقهم الضرر لإقامة الدعاوى على الشركة فهبطت على الأثر أسعار اسمها(٢٣٠) هبوطا فادحا .

وكان مما جعل أهل الحل والعقد يبحثون فيه بعد أن أنشأوا (مجلس بلدى مدينة الاسكندرية) أمر المكوس المعروفة (بالدخوليات) فى القاهرة والأسكندرية . وظلوا على هذا حينا . فلما كان تاسع عشر نوفمبر اجتمع الوزراء فى قصر الإمارة وبينهم الأمير وتناجوا فى الأمر طويلا ثم برز الأمر بإلغاء تلك الرسوم والعوائد فى القاهرة والأسكندرية من أول شهر يناير القادم يعنى افتتاح سنة ثلاثة وتسعمائة وألف على أن يضاف إلى دخل المجلس البلدى الحصة المخصصة للحكومة من المتحصل من عوائد الأملاك المبينة(٢٣١) فى دائرة مدينة الأسكندرية ومتحل(٢٣٢) إيجارات أملاك الميرى الحرة بعد خصم مصاريف التحصيل . وشاع خبر ذلك وتناقله أصحاب الصحف ففرح الناس فرحا عظيما فقد كانت تلك المكوس من بقايا عهد الظلم والتثقيل على الرعية .

وحدث أن ركب الأمير فى قلة من الجند والحرس يوم الجمعة تاسع عشر نوفمبر يريد جامع عزيان(٢٣٣) فى (خطة الموسكى) إذ اندفع عليه شاب أرمنى اسمه (الكسيان) ومعه آخر اسمه (بدروس أرشاك) يريدان الإمساك بعربة الأمير . فبادر إليهما بعض الحرس وصرعهما وقبض عليهما ، وقادهما الجند إلى مخفر الموسكى . وبتفتيشهما وجدوا مع أحدهما (الكسيان) ورقة تلغراف برسم الأمير فيه الفاظا تدل على الوعد

---

(٢٢٩) الشرة = الشركة قراءة اجتهادية .
(٢٣٠) إسمها = أسهمها قراءة ترجيحية .
(٢٣١) المبينة = المبنية قراءة ترجيحية .
(٢٣٢) ومتحل = ومتحصل قراءة ترجيحية .
(٢٣٣) عزيان = عزبان قراءة ترجيحية .

والوعيد . علم[٢٣٤] أن (بدروس) ذلك هو الذى يرسل الرسائل البرقية إلى (لورد كرومر) يوم ضجوا باختفاء (ليون فهمى[٢٣٥]) . وكان القبض على (بدروس) بطريق الصدفة لو لم يتعرض لأصحاب الشرطة عند القبض على شريكه (الكسيان) . وأن السبب فى وقوع هذا الحادث وتلك[٢٣٦] الضجة التى قامت عند اختفاء (ليون فهمى) . ذلك هو أنه لما قامت الفتنة فى دار السلطنة العثمانية وظهرت العصابات الأرمنية تريد الاستقلال أو عمل الإصلاح فى إيالاتهم كما يزعمون ، وإغضاء أهل (المابين) وتعسفهم وأخذهم لتلك العصابات أخذ المقتدر الجبار ، عمدت تلك العصابات إلى الفتك والقتل والتخريب فى داخل السلطنة وخارجها ، وأنشأوا لهم جمعيات سرية وأخرى علنية فى

(٢٣٤) علم = وعَلِمَ قراءة اجتهادية

(٢٣٥) ليون فهمى = خلال شهر يوليو سنة ١٩٠١ علمت الحكومة المصرية أن أرمنيا يدعى (ليون فهمى) يقيم بالأسكندرية ، يحوز أختاما مقلدة تخص رئيس كتاب (قصر يلدز) فى استانبول ، وبعض أختام أخرى تخص بعض رجال السراى السلطانية . أمر (عباس) محافظ الأسكندرية بالحصول على تلك الأختام التي كانت قد ضبطت عند ذلك الأرمنى الذى كان يستخدم هذه الأختام فى أوراق ينسبها زورا إلى أصحاب الأختام المقلدة . وعندما ظهرت هذه الأوراق المزورة قبل ذلك - أمر (عباس) (على بك شاهين) أحد رجاله بتدبير حيلة للقبض على هذا المزور . فأرسل (على بك) هذا خادمه إلى (ليون) يطلبه (لسراى رأى التين) . ففعل الخادم وأتى (بالمزور) فى عربة إلى مقر الخديوى حيث أمر الخديو بحبسه فى القصر . أبلغ (أحمد بك كمال) أحد زعماء جماعة (تركيا الفتاة) اللاجئين إلى مصر ، أبلغ (دار الاحتلال) . وجد (كرومر) فى الحادث فرصة طيبة لينال من (عباس) الذى كانت علاقاته سيئة مع المعتمد البريطانى . أمر الأخير بضبط الواقعة وتفتيش قصر الخديو . عندما أحس (عباس) بخطورة النتائج التى ستجرها القضية ، أخرج (الأرمنى) من القصر وأرسله إلى يخته (المحروسة) خوفا من تفتيش السراى ، ثم استشار الشيخ (محمد عبده) فى المسألة فإشار عليه بإخراج الرجل من السراى أو (المحروسة) إن كان فى أحداهما ثم يقوم الخديو بعد ذلك بتقديم بلاغ إلى معتمدى الدول المعترفة بوضع مصر تحت سيادة (الباب العالى) يوضح لهم فيه نية سلطة الإحتلال بتفتيش قصره والاعتداء على استقلاله وإهانته بتهمة وجريمة باطلة ، ويطلب من هذه الدول الإحتجاج على بريطانيا وتحميلها تبعة تفتيش قصر الخديو . أشار (الشيخ محمد عبده) أيضًا على الخديو أن يبلغ (لورد كرومر) بأنه سيفعل ذلك إذا اجترأ أحد على محاولة تفتيش السراى . فى نفس الوقت كلف الخديو المدعو (أحمد العريس) وهو شخص سورى الجنسية بأخذ (ليون فهمى) ، وتسفيره - لقاء مبلغ من المال - على باخرة فرنسية من بورسعيد إلى مرسيليا بعد استرضائه بمبلغ ٥٠٠ جنيه مصرى ، على أن يرسل برقية إلي محافظ الأسكندرية يبلغه فيها بسفره . فلما جاء مندوب كرومر (شابمان) لتفتيش القصر أبلغه الخديو أنه بصفته خديو مصر يقرر له أن (ليون فهمى) غير موجود فى السراى أو (المحروسة) ، وكان هذا صحيحا ، فقد كان الرجل فى طريقه لبورسعيد .

كان الحادث نموذجا من نماذج السيطرة البريطانية على مصر ، وشكلا من أشكال الإهانة والإذلال التى كان المعتمد البريطانى يتعمد توجيهها إلى (عباس) منذ تولى الأخير الخديوية ، وكان من نتائجه تقارب (عباس) من (السلطان) لاستمالته ضد الإنجليز .

- أحمد شفيق باشا (مذكراتى فى نصف قرن) - مرجع سبق ذكره - حوادث عام ١٩٠١ - ص ٣٦٨ - ٣٦٩ .

(٢٣٦) وتلك = هو تلك أضيفت الكلمة ليستقيم المعنى .

إنجلترا وسويسرا وأمريكا وصحفا تنطق بلسانهم وتنادى بمطالبهم وتستصرخ الدول الكبرى إلى نصرتهم ، وظلوا على هذا حينا . فلما طال عليهم المطال ولم تتبدل الأحوال عمد فريق منهم إلى مناهضة أصحاب الحل والعقد فى دار السلطنة وتهديد أهل (المابين) بالثبور وعظائم الأمور ، حتى لقد ألقوا على السلطان عبدالحميد قنبلة من المفرقعات عند خروجه من (مسجد يالدز) بعد صلاة الجمعة ، فقتلت كثيرين ونجى[٢٣٧] السلطان منها بأعجوبة سماوية ، وقتلوا نفرا من أصحاب الحل والعقد ، وألقوا الرعب فى قلوب الناس . فلما أن كثر شرهم وعظم أمرهم على أهل (المابين) برز الأمر بتتبعهم أينما صاروا والفتك بهم حيثما ساروا . فزحفوا عليهم وتتبعوهم بالقتل خنقا وتغريقا فى مياه البسفور والبحر الأسود ، وأحرقوا قراهم ودورهم وأباحوهم لجماعة الأكراد . فاحسوا[٢٣٨] فى ذبح نسائهم وأطفالهم وتخريب دورهم ومزارعهم وهدروا دماءهم ، فراح البرىء بذنب المجرم . وكانت شدة بالغة عليهم أينما حلوا ، حتى تفرقوا أيدى سبأ ، ونزحوا عن أوطانهم إلى ديار الروس وبلاد البلقان ، وانتشروا فى آسيا الصغرى فرارا من الموت . وجاء منهم جماعة كثيرة إلى الاسكندرية والقاهرة وتفرقوا فى الخطط والحارات يتسولون ويشتغلون فى المهن الحقيرة كتنظيف الأحزية[٢٣٩] وصنعها ، والحدادة . واهتم لهم جماعة الأرمن القاطنون بديار مصر اهتماما عظيما ففتحوا لهم الملاجئ وأدخلوا النساء والبنات فى خدمة الأكابر وأصحاب البيوت ، واستخدموا الشباب فى المصانع العمومى[٢٤٠] كالمخابز والمغاسل وورش النجارة والحدادة ، وأمدوا أصحاب المصانع منهم باليسير من المال ، فأفلحوا فى صناعتهم وعملوا معهم غير ذلك كثيرًا . فانتشروا بين العامة وتحككوا بالسوقة بحكم الصنعة فأبغضوهم ، وتفشى بغضهم بين العامة أيضًا ، فكانوا كثيرى الأيذاء لهم كثيرى التحرش بهم حتى لقد اتخذوا اسم جنسيتهم للسب والشتم المعيب . فكان إذا تخاصم اثنان من العامة وتشاتما على عاداتهم السمجة قال أحدهما للثانى (اذهب عنى يا ابن الأرمنى) (اخساء[٢٤١] يا ابن

---

(٢٣٧) ونجى = ونجا قراءة تصحيحية .

(٢٣٨) فأحسوا = فأحثوا ـ أى أسرعوا قراءة ترجيحية .
ـ مختار الصحاح ـ مادة ح ث ث ـ ص ٥٢ .

(٢٣٩) الأحزية = الأحذية قراءة تصحيحية .

(٢٤٠) العمومى = العمومية قراءة اجتهادية .

(٢٤١) إخساء = إخسأ قراءة تصحيحية .

الأرملية المعلونة) . وكان ممن لاز[٢٤٢] منهم إلى هذه الديار جماعة من العاملين فى تلك الجمعيات السرية المقيمة فى ديار الإنجليز وكان بعضهم من المتهمين بإلقاء القنابل المدمرة فى دار السلطنة العثمانية ، وقد نمى خبرهم إلى أهل (المابين) ثم إلى السلطان . فلما سافر الأمير إلى دار السلطنة على عادته فى كل صيف قيل أن السلطان كلمه فى أمر أولئك القوم عموما وفى شأن أصحاب تلك الجمعيات السرية خصوصا . فأجابه الأمير إلى ما طلب وضمن للسلطان إراحته من فعال تلك الطغمة ما استطاع . وكان فى الأسكندرية من كبار هذه الطغمة شاب اسمه (ليون فهمى) وقد كثر[٢٤٣] تكتبه وتعددت رسائله إلى تلك الجمعيات ، بعضها بصريح العبارة وبعضها بالأرقام ، والألافظ[٢٤٤] . وكان كثير الترداد على بيت عميد الاحتلال لورد كرومر . يقولون قد اتخذه اللورد عينا وجاسوسا ، فكان جريئا غير هياب ولا متحاش فيما ينقله عن أصحاب قصر الإمارة وبعض أهل المناصب وأصحاب الخطط ممن يبغضون الاحتلال ويقبحون أعماله . فما هى إلا أيام بعد عودة الأمير من مصيفه حتى اختفى (ليون فهمي) ذلك ، وتفشى خبر اختفائه فقامت ضجة أصحاب صحف الأخبار المحازبة لجماعة الإنجليز وترفوا[٢٤٥] مذاهب فى أرما[٢٤٦] اختفائه . فمن قائل أنه ملقى فى جُبٍ فى قصر الإمارة بالمنتزه قصدا إرساله إلى دار السلطنة . ومن قائل أنهم سيروا به على ظهر (اليخت محروسة) إلى السلطان ، ومن قائل أنه قتل خنقا ، ومن قائل أنه هرب إلى قبرص فارا من القبض عليه . وقام (بدروس إرشاك) الذى قبض عليه أصحاب الشرطة اليوم يرسل الرسائل البرقية إلى لورد كرومر مستنجدا به على إظهار ما خفى من سر غياب (ليون فهمى) ذلك . وطفق يجوب على أصحاب الصحف يستفرزها[٢٤٧] إلى الضجيج والتهويل والمناداة بالثبور وعظائم الأمور فتنة كبرى ومحنة خسرى تقوت بها عزائم أصحاب الاحتلال ومستشارى السوء ، حتى لقد كثر تساؤل جماعة الإنجليز عن (ليون) ذلك وأين يجدوه . فاضطرب

(٢٤٢) لاز = لاذ قراءة تصحيحية .
(٢٤٣) كثر تكتبه = أى كثرت مراسلاته وكتاباته قراءة اجتهادية .
(٢٤٤) والألافظ = الألفاظ قراءة ترجيحية .
(٢٤٥) وترفوا = وتفرقوا قراءة اجتهادية .
(٢٤٦) أرم = أمر قراءة اجتهادية .
(٢٤٧) يستفرزها = يستنفرها قراءة اجتهادية .

لذلك جماعة الوزراء وخاف الرئيس (مصطفى فهمى باشا) شر العاقبة . وقام جماعة من أصحاب الصحف المحازبين للقصر يسفهون أحلام الخصوم ويقولون أن الرجل حى يرزق فى (قبرص) ، وآخرون يقولون أنه جاء منه الخبر على جناح البرق إلى بعض أصدقائه بأنه فى طريقه إلى ديار الإنجليز . فلم يغن عنه هذا شيئا . وجاء أحد مفتشى وزارة الداخلية من جماعة الإنجليز إلى الإسكندرية ، وقد كنت يومئذ (مديرا لأملاك الحكومة) بها فدخل هذا المفتش على محافظ المدينة وسأله سؤال الملاكين[٢٤٨] عن (ليون فهمى) ذلك وتاريخ حضوره إلى الاسكندرية وساعة غيابه عنها وأسباب غيابه ، وعن قيام (اليخت محروسة) إلى دار السلطنة وسببه ، وغير ذلك كثير حتى أعياه وأحرجه . وكانت كتب الرئيس تأتى فى شأن ذلك تباعا . وظل الحال على هذا حينا اختلط فيه الحابل بالنابل وتعاصى على جماعة الوزراء إيقاف هذا الحادث عند حده أو كاد . وكثر غدو ورواح الوزير (بطرس غالى) باشا بين قصر الإمارة ودار (قصر الدبارة) حيث يسكن (لورد كرومر) ، وحرب الأقلام بين صحف الإحتلال وصحف القصر قائمة طاحنة لا تقف رحاها . ـ يقولون ـ وظل الوزير بطرس باشا يعمل بما أوتيه من الدهاء ومضاء العزيمة حتى استوقف الشر وأزال العسر فأسكت تلك الصيحة التى قد أخذت أصحاب القصر من كل جانب .

فلما كان يوم الجمعة وقد خرج الأمير فى ركبه يريد (مسجد عزبان) للصلاة وقد لحق بعربة الأمير (الكسيان) شقيق (ليون) وقبضوا عليه وعلى رفيقه (بدروس) ذلك الذى كان يرسل الرسائل البرقية إلى الوكالة الإنجليزية بموت (ليون) تارة وبتغريقه أخرى ، وبإرساله إلى دار السلطنة آونة وبسجنه في قصر المنتزه آونة أخرى على ما تقدم به بيانه ، إجتمع مجلس الوزراء فى صبيحة يوم السبت الثلاثين من نوفمبر من السنة وتناجوا فى أمر (الكسيان) (وبدروس) هذان طويلا . ثم قر رأيهم على أبعادهما إلى (البيرة) لا أن يحاكما فى ديار مصر . وبرز الأمر بإرسالهما إلى الأسكندرية . فأصبحوا وقد نقلوهما إلى الاسكندرية حيث يسجنا ليرسلا مع أول باخرة تسافر إلى (البيرة) فى بلاد اليونان وأرسلت صورهما إلى المحافظات وإلى المديريات حتى إذا ما عادا قبض عليهما فلم تنتطع فى شأنهما بعد ذلك الشاتان .

(٢٤٨) الملاكين = الملكين قراءة ترجيحية ـ أى سأله أسئلة عسيرة مثل سؤال الملكين للمتوفى فى قبره .

ولم تكد تسكن زوبعة اختفاء (ليون فهمى) وأذنابه حتى جاء الخبر على جناح البرق من بورسعيد بوصول دارعة إنجليزية تقل (المستر تشمبرلن) وزير المستعمرات الإنجليزية وزوجته . قالوا وبعد أن رست الدارعة نزل الوزير مع زوجته وأميرال الدارعة وركبوا قطارا خاصا قد أعدوه لهم إلى القاهرة . فقابلهم على المحطة أحد رجال التشريفات ولورد كرومر وزوجته ورجال الوكالة الإنجليزية وكبار الموظفين الإنجليز . فركبوا العربات إلى دار لورد كرومر ونزل الأتباع والحاشية فى فندق (سافواى) . وأصبحوا وقد استدعى (المستر تشمرلن)[٢٤٩] (السير وليم جارستن) مستشار وزارة الأشغال العمومية . قيل وحادثه فى مسائل أعالى النيل والحبشة والسودان وما ينويه من الأعمال فى تلك الأصقاع . وأصبح وقد قابل الأمير فى قصر الإمارة مقابلة طويلة وعزم على العودة فى ثانى يوم إلى السويس ليركب منها الدارعة إلى (عدن) فجنوب أفريقية ، ولكنه تأخر إذ جاءه الخبر بوصول (الدوق كانوت) شقيق ملك الإنجليز إلى الاسكندرية وأنه على عزم الذهاب إلى أصوان ، فعزم على البقاء بالقاهرة حتى يصل إليها الدوق . أقول وليست زيارة (تشمبرلن) لديار مصر بأول زياراته فإنه جاءها منذ اثنى عشر عاما وبحث فى أحوالها السياسية والاقتصادية والعمرانية وهو نائب فى مجلس أمته (والشيخ غلادستون) متربع منصب الوزارة . وعندئـ ان هـ[٢٥٠] كان صاحب اليد الطولى فى مجرى السياسة الإنجليزية وما حل بمصر والسودان من وراء تلك الزيارة ، وهو الذى أوقد نار الحرب بين البوير فى الترنسفال والإنجليز ، وفقد فيها الإنجليز من الأموال والرجال ما إذا ذكره العقلاء لانتفضوا هلعا ووجلا . وإذا لم يكن لزيارته اليوم معنى سياسى فهى لاتخول[٢٥١] من رأى يبديه لأن أعالى السودان وتخوم الحبشة من مشاغل صاحب السياسة الإنجليزية لهذا العهد . ولقد تأخر (السير غارستن) عن السفر إلى (ممباسة) والأوغندة (وبحيرة تاشانة[٢٥٢] إلى آخر هذا الشهر عمدا ليأخذ رأى ذلك الوزير فى ما يفعله وفى الغرض

---

(٢٤٩) تشمرلن = تشمبرلين قراءة تصحيحية .

(٢٥٠) وعندئـ ن هـ = وعندى أنه قراءة اجتهادية .

(٢٥١) تخول = تخلو قراءة ترجيحية .

(٢٥٢) وبحيرة تاشانه = يحتمل أن يكون المقصود هو بحيرة (تانا) أكبر بحيرة فى أثيوبيا ، والتى تبلغ مساحتها ٣٦٥٠ كم مربع وتقع في الجزء الشمالى الغربى من البلاد على ارتفاع ١٨٥٠ متر . يغذى بحيرة تانا النيل الأعلى وحوالى ٦٠ مجرى آخر ، وهى مصدر النيل الأزرق .

. - Lexicon Universal Encyclopedia - o. p. cit. - Vol. 19 - p., 20

الذى يرمون إليه بجميع أعمالهم منذ الآن كما أخبرنى صديق من موظفى الإنجليز . وقامت صيحة أصحاب الصحف المحلية والأجنبية من كل جانب يتساءلون عن داعى حضور ذلك الوزير فى هذه الآونة ويذهبون فى تأويل حضوره مذاهب شتى وكلهم مجمع على[٢٥٣] حضوره مملوء بالمقاصد الهامة والنوايا المدلهمة . وكتب أحدهم يقول ى نء ه[٢٥٤] (ن يالملأ من أعالى القنن[٢٥٥] والشرفات إن المستر تشمبرلن وزير المستعمرات الإنجليزية لم يأت مصر إلا لمقصد سياسى ولم يزرها لمأرب التنزه ، ويوحون إلى الأقلام فتردد صدى ما يقولون ، ولكن هذه الأصوات المرتفعة من أعماق صدور جماعة الإنجليز والمتنكليزين[٢٥٦] لا تضرب على البصائر حجابا ولا هى تحول عم[٢٥٧] تلك الزيارة أفكار العارفين . نعم أن هواء مصر وجوها الصافى وشمسها المنعشة جلابة جزابة[٢٥٨] لكل متنزه غنى فيأتيها من أقاصى الأقطار ومترامى الأمصارالملوك والأمراء والعيون والوزراء . ولكن وزير كالمستر تشمبرلن يعد خطواته إلى المستعمرات كل خطوة بمقدار من العمل ، ويعد أنفاسه على الزمان بدقائقه وثوانيه كل ثانيه بأمر ، لا يمر بعاصمة القطر المصرى اعتباطا ولا يشهد النيل يجرى فى أرض الكنانة اتفاقا ولا ينظر إلى القاهرة ولا يغيب عنه أن هذه القاهرة معدة أن تكون آخر محطة لسكة حديد (الكاب) تلك السكة التى تعد الشريان الأكبر فى جسد الإمبراطورية التى يريد الإنجليز إنشاءها فى أفريقية ، فهم يمهدون لها كل يوم تمهيدا جديدا . أجل أن المستر تشمبرلن ذاهب إلى الترنسفال ولكن هل غاب عنه[٢٥٩] أن الرجل الذى سحق البوير ليتم له وصل (الكاب) بالقاهرة .

---

(٢٥٣) على = على أن أضيفت الكلمة ليستقيم المعنى .

(٢٥٤) ى نء ه (ن يالملأ = يا أيها الملأ استبدلت الحروف والكلمة بهذه العبارة لاتساقها مع الكلمات التالية قراءة اجتهادية .

(٢٥٥) القنن = أعالى الجبال مع ضم القاف . القنة بالضم أعلى الجبل وتنطق مثل (القُلّة) ، والجمع (قنان) (وقُنن) و(قنات) .

ـ مختار الصحاح ـ مادة ق ن ن ـ ص ٢٣١ .

(٢٥٦) والمتنكليزين = والمتنكلزين ـ أى المتشبهين بالإنجليز ـ فقط فإن لغة العصر كانت كلمة (إنكلترة) و(الإنكليز) هى الكلمة السائدة إشارة إلى أهل انجلترا وانجلترا نفسها ـ وتنطق الكلمة (المتنكلزين) كالمتفرجين ـ قراءة اجتهادية .

(٢٥٧) عم = عن قراءة ترجيحية .

(٢٥٨) جزابة = جذابة

(٢٥٩) غاب عنه أن الرجل = غاب عنا أنه الرجل قراءة اجتهادية .

فإذا كان تشمبرلن هو صاحب ذلك المشروع فالمستر تشمبرلن يزور مصر ليعرف كيف مهدت الطريق من عاصمتها إلى أم درمان ومن أم درمان إلى أقاصى السودان . وإذا كان هو الذاهب إلى أرض البوير ليركز فيها قدم حكومته حتى تمد يدها من بريتوريا إلى الإسكندرية فهو بلاشك ينظر ورجاه على اريم(٢٦٠) القاهرة كيف تجاز حدود الحبشة وكيف يكبح جماح الصوماليين ، وكيف تطال غدا أعالى الكونغو وأطراف (لادو) بالأكف . وإلا كان هذا الوزير الكبير يرمى إلى غير ما غرض ويفعل ما يفعله اتفاقا لا عمدا وهو أمر لا يصح أن يعزى إلى رجل فى مقامه ، وإلى وزير فى مطامعه يريد تأليف الممالك لسلطته ويبغى تدويخ سائر المعمور لمملكته .

فالمستر تشمبرلن ذلك السياسى إذا وقعت إحدى عينيه على الهرم الأكبر ليشاهده أو على آثار القوم المصريين ليعرفها أو على النيل العزيز ليشرح صدره فلاشك أن العين الأخرى تنظر إلى ما وراء أم درمان وإلى بحيرة (تسانة)(٢٦١) (وبحيرة رودلف) وأعالى الكونغو وأطراف السودان حيث يقوم في وجهه إبطال الحبشة ولصوص الصومال وهم على ذلك منذ الآن . إنا لا نخطئ إذا قلنا أنه يجمع في حقيبته السياسية فى أثناء رحلته هذه أخبار مصر وسودانها وهو سيضم اليها غدا أجناد الصومال وقبائلها والحبشة (ونجوسيها)(٢٦٢) وهو سيضيف إلى كل ذلك ما يجب أن يضاف عن (زنجبار) وعن (الكاب) وعن الأورانج وروديسيا والترنسفال . وإذا كان ارضاء جماعة البوير وإثلاج صدورهم من أهم أمانيه وأكبر مساعيه وأن عرفان الطريق التى يجب أن يسير فيها لنيل بغيته فى تأليف الإمبراطورية الأفريقية من جلايل الأمور التى تستوضح مسالكها وتمهيد عقباتها ومصاعبها ، فمجيئه إذا(٢٦٣) ليس للشهرة فقط بل للنظر فى تلك المسائل الهامة أيضًا . قال ومهما يكن من أمر هذه التدابير فإن الإنجليز سائرون بقدم الجد فى طريقة أوروبا فى تسليح أبنائها لأن من زاد طمعه فى الملك قضى عليه بأن يزيد فى قوته لحفظه ، ولقد رأينا (لورد كتشنر) يهب مسرعا إلى الخرطوم كالبرق الخاطف ليسبق

---

(٢٦٠) أريم = الرِم بالكسر الثرى ـ فأريم يقصد بها هنا ثرى أو تراب القاهرة ، وربما كانت الكلمة هى (أديم) وليس (أريم) وهى هنا تعنى وجه الأرض ـ والمعنيان يتفقان مع أرض القاهرة سواء أكانت الكلمة (أريما) أو أديما) .
ـ مختار الصحاح ـ مادة (ر م م) ص ١٠٨ ـ ومادة (أدم) ص ٤ .

(٢٦١) تسانه = تانا قراءة ترجيحية ـ راجع حاشية (٢٥٢) ص ٧٩٥ .

(٢٦٢) ونجوسيها = أى ملكها (النجوسى) أو (النجاشى) .

(٢٦٣) إذا = أذن قراءة تصحيحية .

(مرشند) الفرنسى . ولقد رأيت الإنجليز يقضون على أمة البوير بغير ذنب ولا لغاية أخرى سوى تأليف هذه الإمبراطورية . وها هم الآن يحاربون الصومال ويسيرون حملاتهم إلى تخوم الحبشة وأطرافها وإلى سواها من تلك الأصقاع الأنائية[٢٦٤] . فوزير مستعمراتهم تعيد إليه ذاكرته اليوم اشلاء ستة وثلاثين ألفا من الدروايش وتعيد إليه غدا منظر أربعين ألفا من البوير ولكنه يعزى نفسه بأنه قد فعل ذلك ليكون لأمته فى أفريقية ملكا واسع الأرجاء يتدلى جنوبا إلى الأوقيانوس الهندى وشمالا إلى البحر الأبيض المتوسط ، وكفى بهذه الغاية مبررا عن تلك الواسطة والسلام) . ا . هـ . قلت ومن يمعن النظر فى هذه العجالة يرى كيف تكون مناحى السياسة الإنجليزية ومراميها فى القارة الإفريقية .

وكان إلى هذا الحين قد تم بناء الخزان ووضعت أساكفه وأبوابه الحديدية وكلما[٢٦٥] يلتحق بهذا العمل العظيم من الكماليات والتحسينات . ولما كان سادس ديسمبر من السنة وصل (الدوق دى كنوت) شقيق ملك الإنجليز إلى مدينة بورسعيد تقله إحدى المدرعات الكبرى . فأطلقت لقدومه الطوابى أحد وعشرين مدفعا ، ورفعت جميع السفن والبواخر الراسية فى الميناء أعلامها تحية للدوق وقرينته . ونزل لورد كرومر إلى الدارعة لتقديم فروض السلام وتلاه (دومرتينو باشا)[٢٦٦] وعزيز باشا موفدين من قبل الأمير للسلام عليه . وكانت طايفة من الجند مرصصة على رصيف الميناء وأخرى من أصحاب الشرطة مشاة وركبانا تحفظ النظام فى الشارع الكبير وكوكبة من فرسان الجيش واقفة لخفارة عربة الدوق وقرينته . فلما نزلا عزفت الموسيقى ، فركبا فى عربة مخصوصة وركب المقابلون ورجال الحاشية . فسار الموكب إلى المحطة وركب الدوق والدوقة القطار إلى الإسماعيلية ومنها إلى القاهرة . وكان الأمير وجماعة الوزراء والأمراء وأهل المناصب ينتظرون بمحطة القاهرة . فلما بلغ القطار المحطة نزل الدوق وقرينته ، فصافحهما الأمير وقدم اليهما جماعة الوزراء والأمراء فسلموا وأطلقت المدافع من قلعة الجبل وميدان باب الحديد ، وركبوا جميعا إلى قصر الإمارة بعابدين . وقد كانوا أعدوا للدوق وقرينته شقا[٢٦٧] مخصوصا بالقصر فنزلوا فيه . وبعد أن استراحا قليلا زار الأمير فى قاعة

(٢٦٤) ألانائية = النائية قراءة ترجيحية .

(٢٦٥) وكلما = وكل ما قراءة تصحيحية .

(٢٦٦) دومرتينو باشا = رئيس الديوان الإفرنجى الخديوى وأحد كبار حاشية عباس .

ـ أحمد شفيق باشا (مذكراتى فى نصف قرن) مرجع سبق ذكره ـ ص ١٨ .

(٢٦٧) شقا = ربما كان المقصود جناحا .

الاستقبال الكبرى ثم ركبا توا إلى دار الوكالة البريطانية فأدبوا لهما هناك مأدبة حافلة وعادا إلى قصر عابدين فباتا . وأصبحا وقد صعد الدوق إلى قلعة الجبل حيث فرق كثيرا من النياشين على الجنود الإنجليز الذين أبلوا فى حروب الترنسفال . وعند الظهر تناولا الطعام مع جماعة الضباط الإنجليز الذين بالقلعة وعادا . ولما كان اليوم الثالث من حضورة قام هو وقرينته ولورد كرومر وقرينته وقائد جيش الاحتلال وقرينته على قطار مخصوص إلى الأقصر ومنها ركبوا اليخت فيروز إلى أصوان فبلغوها فى تاسع الشهر ، ووصل الأمير إليها بعده . ثم قاموا جميعا بعد ظهر عاشره إلى الخزان وتبعهم جميع الخدم والحشم وسائر المدعوين وبينهم الغازى مختار باشا ومكاتبى الصحف ووكلاء الدول وقاضى قضاة مصر . فلما بلغوها ساروا توا إلى الخزان فشاهدوا بنائها الفخيم من الشرق إلى الغرب ، وخطب أمامهم فخرى باشا وزير الأشغال العمومية فذكر الخزان وفائدته ، وأثنى على من قاموا بعمله فإجابه الأمير يقول (أعد من سعدى أن أشرف على هذا الاحتفال الفخيم الذين تدعونى إليه وأن يحضره معى ضيوفى الأكابر الكرام وجماعة الوجوه وذوو الحيثيات لمرأى هذا العمل الكبير الذى نحن فى موقف الإعجاب بعظمته اليوم إلا وهو خزان أصوان وما يتبعه من قناطر أسيوط . وهو بلاشك من جلايل الأعمال النافعة التى تمت حتى الآن فى مصلحة مصر وخيرها ، وأنى لأرجو وأؤمل أن يعود عليها بصنوف الخيرات وأن القرن العشرين سيتجلى فى جملة مفاخره . على أن هذا الأمل يبعث في نفسى السرور ويدعونى إليه أن أقدم لكم يا سعادة الوزير عظيم تشكراتى وأن أثنى كذلك على أعوانكم الذين اقدحتم[٢٦٨] كفاءتهم بالحق ونوهتم بجليل مساعدتهم لكم على أتمام هذا العمل الخالد الذكر حتى قبل الميعاد المقرر له . وأنه يسرنى كثيرا أن أرى حكومتى تتبع أعز رغائبى وأخص أميالى فتبذل كل الجهد فى جلب الخير والسعادة للبلاد . والآن أذكر بارتياح لصاحب السمو الملكى الدوق دى كنوت أنه تفضل من قبل فوضع الحجر الأول من أساس الخزان وأتقدم اليوم إلى صاحبة السمو الملكى الدوقة قرينته راجيا أن تتكرم بوضع الحجر الأخير من بنائه ا . هـ .

(٢٦٨) اقدحتم = امتدحتم قراءة ترجيحية .

وعند ذلك تقدمت الدوقة من الحجر فناولها المستر (جون أرد) مقاول بناء الخزان ملقة[٢٦٩] من الفضة فأخذت بها قليلا من الطين ووضعته على قاعدة الحجر الذي كانوا قد علقوه بسلاسل نظيفة من الحديد . فأنزلوه ، فلما ركز ضربته الدوقة بمطرقة ، وللحال خطب الدوق موجها كلامه إلى الأمير ، ثم تقدم الأمير إلى آلة كهربائية فأدارها بمفتاح فضى قدمه إليه (السير باكر) فارتفعت من الخزان تسع بوابات تدفق منها الماء . ثم صعدوا جمعا إلى ظهر الهويس فدعا الأمير الدوق لإدارة مفتاح كهربائى فأداره فتقهقر بهم الباب إلى الوراء وارتفع الحاجز ومر مركبان وفى كل منهما جماعة يتغنون بالأغانى الريفية القديمة . ثم نزلوا وسلم الأمير بعض النياشين للمنعم عليهم من رجال هذا العمل وعادوا بعد ذلك جميعا إلى أصوان فباتوا ليلتهم تلك وأصبحوا وقد سافرا فمروا بقناطر أسيوط ثم بلغوا القاهرة فى الساعة السادسة ونصف بعد ظهر الأحد رابع عشر الشهر .

أقول وقد وضع الحجر الأول لبناء هذا الخزان الدوق دى كنوت فى اليوم الثانى عشر من أبريل عام ثمانية وتسعين وثمنمائة وألف للميلاد ، وهذا الحجر كان من الرخام الأبيض الناصع ومكتوب عليه بالإنجليزية الآتى ما تعريبه .

الخديوى عباس باشا حلمى
وضع هذا الحجر الأول من خان[٢٧٠] أصوان
الدوق دى كنوت فى ١٢ أبريل سنة ١٨٩٩
حسين فخرى باشا ناظر الأشغال العمومية

(٢٦٩) ملقة = ملعقة قراءة ترجيحية .
(٢٧٠) خان = خزان قراءة ترجيحية .

وفى عشرة ديسمبر من السنة أى سنة اثنتين وتسعمائة وألف وضعت الدوقة دى كنوت الحجر الأخير من هذا الخزان وهو حجر من الصوان مربع الزوايا من أسفل تعلوه قنة على شكل قبعة هرمية وموضعه فى آخر الجدار فى الزاوية الغربية وعلوه متر ونصف متر وقد حفرت عليه هذه العبارة بالإنجليزية .

وضعت هذا الحجر الأخير من الخزان الدوقة دى كنوت فى السنة العاشرة لتولية عباس باشا ـ ١٠ ديسمبر سنة ١٩٠٢ . قلت والصواب أنها السنة الحادية عشرة ، وقد فاتهم أيضًا أن يقولوا عباس باشا الثانى ـ أما الحجر الأول فقد وضعوه فى الجهة الشرقية فى الطرف الأول من مجرى النيل لا فى طرف الجدار وقد بلغت أكلافه أربعة مليون وثلثمائة وأربعين ألفا ذهبا وبلغت التعويضات التى أعطتها وزارة الخزانة لأصحاب المزارع التى دخلت فى حدود الخزان واحد وستين ألفا ذهبا ويقدرون الخراج الذى يضربونه على الأطيان التى ستتحول إلى صيفى بواسطة هذا الخزان ماية وخمسين ألف ذهبا فى كل عام . وعندى أنه لم يعمل فى مصر منذ القدم عملا يضارع هذا العمل الجسيم . وقد حادثت أحد المهندسين الكبار عن هذا الخزان فسألته : وهل من خطر على القاهرة إذا انهال من هذا الخزان ركنا أو نشعت عينا؟ فقال : كلا . إن القاهرة بمأمن من كل خطر وإنما الخطر يكون على إقليمى إسنا وقنا وما والاهما أما القاهرة فلا يصل إليها شىء لأنها واقعة على قيد ثمنمائة ستة وثمانين كيلو مترا من الخزان وتغفق[٢٧١] الماء مهما كان كبيرا فلا يبلغ عاصمة البلاد منه إلا اليسير القليل .

ولما كان سادس عشر الشهر سافر الدوق وقرينته ، وقد ودعه الأمير وداعا شائقا . فركبا الدارعة الحربية ومعهما سائر الخدم والحشم من السويس قاصدين الهند . وما هو أن سافر حتى شاع الخبر بعزم السير جارستين مستشار وزارة الأشغال على الرحيل مع حملة إلى بحيرة (تسامه) فيمد[٢٧٢] ببحيرة (فيكتوريا نيانزه) و(الربتة[٢٧٣] نينزه) ويزور بحيرات الأوغاندة ، وأنه سيرافقه فى هذه السفرة المستر (دنزون) من عمال المساحة العمومية والدكتور باك والكبتان (مركهام) والمستر (لندلى) وكلهم من أهل العلم . أما

(٢٧١) وتغفق = وتدفق قراءة اجتهادية .

(٢٧٢) فيمد = فيمر قراءة اجتهادية .

(٢٧٣) والربتة = وألبرت قراءة اجتهادية .

سبب هذه الرحلة الطويلة فالإختلاف فى الرأى الواقع بين (السير جارستين) والمستر (ويلكوكس) بشأن الأنفع من البحيرتين وهما (بحيرة تسامه) و(بحيرة البرتة نيانزه) . ذلك أن (السير جارستين) يقول إن بحيرة تسامة أصلح لخزن المياه وتصريفها فى النيل الأبيض ، والمستر ويلكوكس) يقول إن بحيرة (البرتة نيانزه) أصلح وأفضل لخزن المياه . ولذلك تقرر قيام المستر جارستين بحملته إلى تلك الأصقاع ، وضربوا له أجلا أربعة أشهر لا تزيد . ولما كان وصول هذه الحملة إلى تخوم الحبشة متعذر إلى هذا العهد لعدم رضاء (منليك ناجوسى الحبشة) بدخول أحد من الإنجليز إلى مملكته من ذلك الدرب ، وكان لابد من الاتفاق معه قبل أن يسيروا الحملة فجعلت أبحث عما إذا كان قد وقع الإتفاق من الحبشة على ذلك . فوقفت على عبارة مقتضبة فى كتاب السياسة الإنجليزية المعروف بالكتاب الأزرق تدل على وقوع الاتفاق مع الناجوسى وصاحب السياسة الإنجليزية بشأن تلك البحيرة أعنى (بحيرة تسامه) وأن الدولة الإنجليزية تتعهد بدفع مائة ألف جنيها ذهبا فى كل سنة تحمل إلى خزانة (الناجوسى) عن طريق مصر . وتعهد الناجوسى بأن يكرم وفادة رجال الحملة ويمدهم بمساعدته وأن لا يشيد شيئا على النيل الأزرق وبحيرة (تسامة وتارذبال) وأن لا يدع أحد يقيم على مجارى البحيرة بشياد(٢٧٤) يحول دون جرى الماء إلى النيل ، وأن يعطى للإنجليز قطعة أرض يختاروها على نهر (بارد) لا تقل مساحتها عن أربعمائة هكتار على مسافة كيلومترين ونيف ، وأن تكون حدودها على شاطئ النهر باسم الحكومة الإنجليزية والحكومة المصرية معا بحيث أن حكومة السودان تتولى إدارتها وتجعلها محطة تجارية ، ولا يجوز لها استخدامها لا لغرض سياسى ولا لغرض عسكرى . ويسمح (منليك) للحكومة الإنجليزية بإنشاءخط حديدى فى أملاك الحبشة يصل السودان بأوغاندة ولا يكون تخطيط هذا الخط إلا بعهد تتعين شروطه بين الأحباش والإنجليز . ا . هـ .

أقول وقع كل هذا وأصحاب الحل والعقد من المصريين لايعرفون من أمر هذه العهود والاتفاقات شيئا ولا أبدوا فيها رأيا ولا ذكرت فى مجالسهم إلا من طريق العرض كما يشيعون . وسارت الحملة فى طريقها آمنة منظمة . فما هى وصلت إلى تلك الفيافى حتى

(٢٧٤) بشياد = سدا قراءة اجتهادية .

جاء الخبر بحصول الحركة فى الصومال وقيام (الملا) فى جموع كثيرة يريد الوقوف فى طريق الحملة ومقاتلة رجالها . ومع احتمال كذب الرواية وبعد الشقة بين مساكن ذلك (الملا) وطريق الحملة فقد جعل الناس يتحدثون بالخبر ويعدون[٢٧٥] حقيقة راسخة لاجدال فيها . ـ أقول ـ ولما كان خبر هذا (الملا) المفتون كما يسميه جماعة الإنجليز ذو شأن لهذا العهد وقد أشغلت حملاته الإنجليز وحسبوا له حسابا كبيرا ، رأيت أن أذكر هنا تاريخ خروج هذا الرجل وأسبابه ومبلغ جرأته ونفوذه بين قومه ومريديه فى مجاهل السودان ، وكيف ناوئ الإنجليز وقاتلهم ووقف فى وجههم وعاندهم وبطش ببعض حملاتهم ومزقهم فأقول : ظهر هذا الرجل وهو يلقب نفسه (بالملا) والإنجليز يضيفون إلى هذا اللقب كلمة مفتون ، أو مجنون . فهو عندهم الملا المجنون . قال بعض الكتاب كأنهم يريدون بذلك موافقة أبى الطيب إذ مدح سيف الدولة بالجنون فقال :

وقد يلقبه المجنون حاسده إذا اجتمعن وبعض العقل عقال

ولد محمد عبدالله الملا هذا من أبوين راعيين فى (الأوغدن)ولا يى[٢٧٦] قبيلة الدناكلة حيث يكثر فن الشعوذة والسحر وعمل الطلسمات ، فتعلم هذا الفن وحذق فيه . ثم درس القرآن على بعض الشيوخ الذين يقال لهم (وداد) وبعد أن درس القرآن وجوده تعلم الكتابة العربية وصار مسلما متمسكا بدينه أشد التمسك . ثم سافر إلى مكة فحج وعاد إلى بلده ومن حج من أهل تلك البلاد ارتفعت منزلته فى أعين ذويه وعظمت مكانته فى قلوبهم حتى أن لقب حاج يعد عندهم من الألقاب التى يفاخر بها كثيرا . فلما زاد مقامه علوا انقطع للعبادة وأظهر الزهد والورع وحج خمس مرات ، وفى الخامسة نزل على (بربر) التى هى المركز التجارى الأكبر لبلاد الصومال وجعل يدعو الناس إلى الإسلام فلم يفلح ولم يستهوى إلا الفقراء . فخرج من بربر غاضبا ولحق بقبيلة (الدباكوت) وهى أقوى القبائل وأشدها بأسا مشهورة بالغزو والنهب والعراك المقيم ومنازلها فى شرقى بربر إلى جنوب وتنزل لانتجاع الغيث فى (وادى نوغال) . فما هو أن أقام على شأنه أياما حتى عظم أمره وانفسحت شهرته ولقب نفسه (بالملا) يوما وبالرسول المبعوث يوما آخر ، وكانت ظواهر الرجل وتقشفه وهيبته ورجاحة عقله وحديثه

(٢٧٥) ويعدون = ويعدونه قراءة تصحيحية .
(٢٧٦) ولايى = لم أستطع التحقق من معنى الكلمة .

المملوء بالآيات القرآنية ، كل هذا جعله محبوبا مهابا متبوع الرأى مسموع الكلمة ، حتى لقد كانوا يعتقدون أنه من المقربين من عرش الجلالة وأنه يجلس بالروح بحضرة الذات الإلهية حينا ثم يهبط إلى الجحيم فيجالس طغمة الأبالسة والشياطين حينا آخر . وتفشى خبره بين جميع القبايل وأهل الجبال فجاءته وفودهم من كل صوب وحدب وأتته الهدايا من بعيد الأمصار ، فأثرى وكثرت ماشيته من الضأن وتعددت أسرابه من الإبل وصار عنده الألوف من الخيل والبقر . والتف حوله جماعة كثيرة جدا من العبيد وأهل الجبال فكان أغنى الخلق فى تلك المجاهل ، وبلغت قحته وعجرفته أن جمع شيوخه ودعاته يوما وأخذ ما كان معهم من المصاحف وأضرم نارا وألقاها فيها وقال لهم أنا القرآن الحي للناس كافة الواجب الخضوع إلى فمن خالف فقد هلك ومن أطاع فقد نجى(٢٧٧) . فلما كانت سنة تسع وتسعين وثمنمائة وألف للميلاد خرج فى جموع كثيرة جدا وسار إلى أرباض (بربرة) فغزاها وقاتل من بالبلد قتالا شديدا ولم يكن بها من المقاتلة إلا نفرا من الإنجليز . فما هو أن كاد يفتحها حتى وصلت إلى السواحل مركبتان حربيتان فأصلته وقومه نارا حامية من أفواه مدافعها فلاذوا جميعا إلى الفرار ووجهتهم الأوغندن(٢٧٨) الحبشية . فخرج أهلها للقائه وأكرموا وفادته فنزل بينهم أياما حتى استهواهم إلى طباعه واستمال إليه جميع القبائل المعادية للحبشان واستفزهم إلى شق عصا الطاعة والخروج على سلطانهم . فقاموا على قدم الحرب وأغاروا على بلاد الحبشان فجاءهم (الراس ماكونين) البطل الحبشى فى عسكر والتقى بجيش محمد ومن معهم من الخوارج على حدود (بلاد الغلاس) ، فاقتتلوا قتالا لم تر تلك البلاد أشد منه . وكان محمد قد وعد قومه بالنصر وبأن رصاص العدو لم يؤذيهم وأنه إذا خرج من أفواه البنادق تحول إلى ماء بارد . فألقى القوم بأنفسهم على حراب الحبشان ومدافعهم واستبسلوا فحصدتهم نيران الأحباش حصدا وفتكت بهم فتكا ذريعا جدا . فهرب من بقى وبينهم محمد الملا إلى الجبال . وظل (ماكونين) وعساكره فى محلهم أياما ، ثم جاءهم الخبر بأن الملا جمع جموعا أخرى وعزز قواته ومال إلى أملاك الإنجليز فى أوائل عام إحدى وتسعمائة وألف .

(٢٧٧) نجى = نجا قراءة تصحيحية .

(٢٧٨) الأوغندن = الأوجادين قراءة ترجيحية .

فسير الإنجليز لصده عسكرا من الصواملیین[٢٧٩] والإنجليز فوقعت بين الفريقين مواقع شديدة عند (وادى نوغال) فانكسرت لموم (الملا) شر كسرة ، فنادى بالحرب الدينية . فاجتمعت إليه القبائل واحدة فواحدة ، وامتنعت عليه قبيلة واحدة ، فركب عليها وأفناها بحد السيف . وما حلت سنة اثنين وتسعمائة وألف للميلاد حتى اجتمع له نيفا وعشرة آلاف مقاتل سلحهم بالبنادق التى جاءه به ترجمان كان فى خدمة السفن الإنجليزية وتركهم لمغاضبة وقعت بينه وبين أصحاب تلك السفن ولحق بالملا لينتقم لنفسه من الإنجليز .

فلما رأى صاحب السياسة الإنجليزية أن الرجل يزداد كل يوم بأسا وبطشا ، خافوا العاقبة ودبروا تلك الحملة ، وها هم يقاتلونه وهو يهاجمهم من كل صوب وحدب وقد أعيتهم معه الحيل والله يؤتى النصر لمن يشاء من عباده .

وكان لما اشتد الوباء فى هذا العام وفشى فى مشرق البلاد ومغربها واختلف الأطباء فى أمره وهل هو آت إلى القطر من الخارج أو هو موضعى لأسباب ظاهرة أو غير ظاهرة في حالة البلاد العمرانية ، وقد خافت سار الممالك الأوروبية من انتقاله اليها من المسافرين والبضائع المنقولة إليها من الشرق القريب والشرق البعيد ولا سيما المنقولة من ديار مصر ، تناجوا فى أمر ذلك كثيرا حتى اجتمعت كلمة صحاب سياستهم على اجتماع مؤتمر من نخبة أطبائهم وكبار رجال الطبيعة عندهم ليدرسوا أدوار هذا الداء وعلله وأسبابه ويروا فى أمر الوقاية منه ، وقرروا بينهم أن يكون اجتماعهم بالقاهرة . ووردت كتبهم فى معنى ذلك إلى بطرس باشا غالى وزير الأمور الخارجية ، وظلوا بين أخذ ورد حتى تقررت القاعدة على أن يكون افتتاح ذلك المؤتمر فى ثامن عشر ديسمبر من السنة . وقبل أن يحل الأجل المضروب بدأت وفودهم بالمجيء تباعا وعددهم خمسمائة وعشرين طبيبا وأستاذا منهم اثنا عشر ألمانيا واثنين من الأمركانيين وثلاثة عشر من الإنجليز واثنين وثلاثين من النمساويين وثلاثة من البلجيكيين وثلاثة عشر من الفرنسيس وسبعة عشر من الإيطاليين وخمسة عشر من الروس وثمانية من السويسريين وواحد من الأسبانيين وغيرهم كثير من بقية الممالك الأخرى . فلما كان اليوم المضروب

(٢٧٩) الصواملیین = الصوماليين قراءة ترجيحية .

أجلا لاجتماعهم أقبلوا فى صبحه إلى (المرسح الخديوى) المعروف (بتياترو الأوبرة) وكانوا قد أعدوه لاجتماعهم . فدخلوا بين مظاهر الحفاوة والتكريم وتبعهم الأمراء والكبراء والوزراء وأهل المناصب وأصحاب الخطط وسائر قناصل الدول وعقيلاتهم حتى غص بهم المكان على سعته . وجلس الأطباء فكان المرسح يتقدمهم (اباتا باشا) الرئيس الفخرى للمؤتمر وإبراهيم باشا حسن الرئيس والدكتور بتشنج . وكان رجال الصحافة جالسين فى محل الموسيقى وورائهن[٢٨٠] سائر المدعويين . وما حلت الساعة العاشرة حتى أقبل الأمير فى ركبه ومعه الرئيس مصطفى باشا فهمى وجماعة الوزراء فوقف الحضور إجلالا . فتلا الأمير خطابا بالإفرنسية ترجمته ـ ياحضرات الأفاضل ـ إنى بادرت إلى هذا المجتمع وأنا مستبشر مسرور لأرحب بكم وأؤكد لكم سرورى من أراكم[٢٨١] مجتمعين هنا . ثم أنى من الواجل[٢٨٢] على أن أفصح عن امتنانى لبلادكم ومجامعكم العلمية التي أجابت دعوة حكومتى ، وأوفدت إلينا علماء يمثلونها فى المؤتمر المصرى . ولما كانت غاية المؤتمر أن تنظر فى شأن الأمراض التى تتفشى فى البلاد الحارة كان وادى النيل أفضل بلاد لعقد المؤتمر المشار إليه . وبالنظر إلى حالة جوها وموقعها الجغرافى وإلى كونها الصلة بين الشرق والغرب ، وإنى أنظر مع الفخر والإعجاب إلى عظم اهتمام بلادى بالتقدم نحو محجتر[٢٨٣] الفلاح ونحو كل أمر نافع للإنسانية ، وأنا أبذل ما فى وسعى لابقائها ناهجة هذا المنهج ، وأعتقد اعتقادا ثابتا أن أعمالهم ستعود عليها بالفائدة والجدوى ـ ولقد بقى على الآن أن أسدى الشكر إلى حضرات العلماء الذين تكرموا فقدموا لمساعدة المؤتمر ، وأن اشكر لجنة التنظيم التى أتمت الواجب عليها كما يرام . وفى الختام أعلن وأنا منشرح الصدر افتتاح المؤتمر المصرى الطبى منذ الان ـ فما أتم خطابه حتى دوى المكان بتصفيق الإستحسان ووقف إبراهيم باشا حسن وتلا خطابا بالعربية مفاده .

أيها الرصفاء ، لم تنل مصر بل أفريقيا من الشرف يوما مثل ما نالته اليوم بقدوم علماء أعاظم أتونا من جميع الأنحاء الأوروبية والأمريكية وغيرها ليزينوا بحضورهم أول

(٢٨٠) وورائهن = وورائهم قراءة تصحيحية .
(٢٨١) أراكم = رؤيتكم قراءة ترجيحية .
(٢٨٢) الواجل = الواجب قراءة ترجيحية .
(٢٨٣) محجتر = محتجر قراءة اجتهادية .

مؤتمر علمى يعقد فى مدينة القاهرة وينيروا بمشكاة معارفهم الحديثة بلاد الفراعنة العريقة فى القدم . فنحن المصريين نسر ونفاخر بتشريف زملائنا الأفاضل ونفرغ ما فى وسعنا لاستقبالهم بأفضل ما تبلغه مقدرتنا ، ونحتفل لهم بمودة عامة مقرونة بالصفاء والإخلاص فى أثناء إقامتهم بيننا . وإنى أفتخر بأن أكون الموكل بتأدية الشكر لحضرات الرصفاء الذين يعدون فخرا ومجدا لبلادهم بل للعالم بأسره ، وأتشرف بأن أقريكم السلام وأرحب بكم بالأصالة عن نفسى والنيابة عن أبناء وطنى .

أما بعد أيها السادة فإن المؤتمر الحاضر اقتضى منها[٢٨٤] جهدا عظيما ، على أن سمو خديوينا المعظم تكرم فشجعنا بجعل المؤتمر تحت رعايته السامية ، وحضرات النظار وجناب اللورد كرومر ومديرى مصلحة الصحة والمحاجر البحرية مدوا لنا يد المساعدة وكان لنا منهم عون ثمين . ثم إن زملائنا الذين عضدونا وسكرتير المؤتمر العام الذى لا يناله تعب ولا كلال واظبوا على العمل فتمكنا من وضع الأساس لبنيان هذا المؤتمر الأول وسيكون مبادرة حضراتكم إلى حضوره وجليل أعمالكم فيه زينا وجمالا له وسيكون نجاحه مقدمة أعمال مفيدة للعالم كله . أما غاية المؤتمر أيها السادة فإن هى إلا درس الأمراض التي تتفشى فى البلاد الحارة ، وهو لم يكن يهم الأوروبيين منذ مدة ، أما اليوم فإن أملاك الوروبيين[٢٨٥] تمتد وتتسع فى أنحاءنا كما أن نزلاءهم يزدادون يوما فيوما . فلذلك عظمت فى أوروبا أهمية الأمراض فى البلاد الحارة وأصبحت شغل اليوم ومسألة الوقت الحاضر ، فبات جميع العلماء يهتمون بها الآن أعظم اهتمام وبات أمرها موضوع دروس جديدة عديدة فى كثير من بلاد أوروبا .

وإذا نظرنا إلى القطر المصرى وحده وجدنا فيه من الأوروبيين وسائر الأجانب عددا لا يقل عن مليون وماية وعشرين ألفا من النفوس . ثم إن الزائرين سواء كانوا سياحا أو طلاب عافية يزدادون عاما فعاما وبلغ عددهم فى بعض فصول الشتاء الماضية خمسة عشر ألف نفسا - وإنا نرى فى مصر أناسا من جميع الأمم فضلا عن الأوروبيين والأميركيين حتى أنه يصح أن نلقب بلادنا بالبلاد العمومية . فبناء على ما تقدم أن كل

(٢٨٤) منها = منا قراءة ترجيحية .

(٢٨٥) الأوروبيين = الأوروبيين قراءة اجتهادية .

ما يتم لتحسين الحالة الصحية ومداواة أمراض البلاد لايعود بالفائدة على الوطنيين فقط بل يستفيد منه على نوع خاص جماعة الأوروبيين الذين يقبلون النصائح الطبية العلمية أكثر من الشرقيين .

ثم ختم خطابه ملمعا إلى ما قاسوه من أتعاب الأسفار رغبة فى تقديم ثمرة اختبارهم للمؤتمر وهو ما يجعل لهم فضلا لدى العلم ولدى زملائهم فى الديار المصرية .

ثم وقف (اباتا باشا) وتلى خطابا بالفرنسية رحب فيه بمندوبى الدول وسائر العلماء وألمح إلى اهتمام أجدادنا المصريين بالطب وما كان له من الشأن فى عهد الفراعنة .

وإذا كان المؤتمر الحالى أول مؤتمر بالمعنى الصحيح فإنه ليس بأول مجتمع طبى مصرى ، لأن (طيبه) رأت مجتمعا بل مجتمعات فى سالف العهد ـ وأسهب فى هذا الموضوع بما لا يسعه المقام هنا ـ ثم تلاه (الدكتور فورنوف) السكرتير العام للمؤتمر فأتى بتفصيل الأعمال التى قامت بها اللجنة التحضيرية وذكر عدد الأطباء الذين اشتركوا فى المؤتمر وأشار إلى ما قام فى سبيله من العقبات ، ورفع الشكر إلى الأمير الذى تكرم هو وحكومته بتعضيد المؤتمر .

وبعد ذلك خطب (الدكتور شاخت) مندوب الألمان بلغته (والأستاذ توتهناجل) مندوب النمسا ثم (الدكتور الفريد عيد) مندوب البلجيك . وخطب (الماجور كورجا) مندوب أمريكا (والأستاذ بوشار) المندوب الفرنساوى والدكتور (ريجينالد هرسيون) مندوب انجلترا (والأستاذ كارل هور) مندوب المجر والأستاذ (ماد اغلينالو) مندوب الإيطاليان (ومرزا محمد خان) مندوب العجم (والضابط بافارف) مندوب الروس والأستاذ (اترتود) مندوب سويسرا . وقد خطبوا كلهم بلغاتهم ما خلا مندوب روسيا فإنه خطب بالإفرنسية ومندوب العجم فإنه خطب بالعربية . وما كانت خطبهم كلها لتخرج عن إبلاغ مهمتهم وإقراء تحية دولهم وسلامها وسلام منتدبيهم لأمير البلاد وذكر العلائق الحسنة بين مصر وبلادهم ـ وعاد مندوب الفرنسيس إلى موقف الخطابة والتفت إلى الحاضرين وقال بعد كلام طويل أن أرض مصر هى أرض أحلامنا ونحن نتلقى منذ أوائل سنواتنا أنباء الأعمال الجميلة التى قام بها أبناء الفرنسيس فى أرض مصر المقدسة ونتلقى أيضًا أنباء الإنتصارات الحربية ولا سيما أنباء المآثر العلمية والفنية التى تكسب المجد

وتوضح لنا أن الفرنسيس قدموا أرض الفراعنة لحل رموز كتابتها ومرسوماتها وإظهار تاريخها . وأفاض فى مآثر الفرنسيس الذين جاءوا مصر حتى قال أن مصر هى الشرق فى نظرنا وأن بها السد القائم عند البحر الأحمر فى وجه الوحشية . وبعد أن ختم خطابه هذا يدلع[٢٨٦] التعبير والوصف والمشابهة تلا خطابا آخر عظيما عنوانه (الطرق الجديدة فى أساليب المعالجة) ومن عنوانه يعرف القراء موضوعه .

وظلت الحفلة إلى ما قبل الظهر بنصف ساعة ثم انصرفوا . ولما كانت الساعة الثالثة بعد الظهر اجتمعوا جميعا (بفندق الكونتيننتال) وساروا إلى قصر الإمارة بعابدين فاستقبلهم الأمير استقبالا شائقا . ثم انصرفوا وقد تقرر بينهم أن كل خطيب يكتب على خطابه خلاصة ، كما تقرر أن كل من يشاء من جماعة الأطباء أن يكتب شيئا عن مرض من الأمراض المحلية يعنى المتفشية فى البلاد فليكتب ويرفعه إلى لجنة المؤتمر . وقد تقدم القول أن عدد أعضاء المؤتمر كلهم بلغ خمسمائة وعشرين عضوا ، وأن عدد الأجانب الذين حضروا المؤتمر مائة وثمانين ، وأما عدد المصريين الوطنيين فهو مائة اثنين وعشرين ، وعدد الأعضاء الآخرين المقيمين فى القطر المصرى فهو مايتين وثمانية عشر طبيبا ، وعدد اللجان التى تألفت فى جميع البلدان عشرين لجنة وعدد المقالات التى تقرر أن الأطباء المستوطنون فى مصر يتلونها مائة وخمسين مقالة ، وكلها أو جلها فى أمراض البلاد الحارة . أقول وقد كان انعقاد هذا المؤتمر الكبير من نوعه فى ديارنا خاتمة الحوادث المهمة لسنة اثنين وتسعمائة وألف ميلادية .

---

(٢٨٦) يدلع = لم أستطع التحقق من معنى الكلمة .

عام ١٩٠٣

توصيل الخدمة التليفونية بين القاهرة والإسكندرية ـ الصراعات على السلطة فى شبه الجزيرة العربية ـ فتوى الشيخ محمد عبده بشأن ارتداء الملابس الغربية .

ثم دخلت سنة ثلاث وتسعمائة وألف للميلاد

افتتحت السنة بيوم الخميس ثانى شعبان سنة عشرين وثلثمائة وألف للهجرة وثالث عشره كيهك سنة سبع عشرة وستمائة وألف للشهداء .

فصل

فى ذكر ما وقع فيها من الأحداث

وكان إلى هذا الحين قد تم مد خط التليفون بين القاهرة والأسكندرية ولم يتم الإتفاق ما بين شركة التليفون ومصلحة التلغرافات لخلاف قام بينهما أياما . فلما كان ثالث يناير افتتاح سنة ثلاث وتسعمائة وألف تم الاتفاق بينهما على شركة[1] التليفون ، تتقاضى من الرسوم قرشا واحدا عن كل ثلاث دقائق يتكلم بها المتكلم بآلة التليفون بين القاهرة والأسكندرية أو بين الاسكندرية والقاهرة . وقد تقرر أن الرسم عن الثلاث دقائق خمسة قروش ، وعشرة قروش عن ست دقائق ، وأن هذه العشرة دقائق تكون أطول مدة يسمح للتخاطب بها ، فتأخذ الشركة عن الأول قرشا كما تقدم وعن الثانى قرشين والباقى لمصلحة التلغراف . أقول على أن المخابرة مازالت عسيرة على الناس للآن بسبب أن مركز المخاطبة الوحيد فى القاهرة هو مكتب تلغراف (الأزبكية) ويقابله بالأسكندرية مكتب تلغراف (المنشية) . فمن أراد المخاطبة لزمه الحضور بنفسه إلى أحد المكتبين ، ولا يخفى ما فى ذلك من الصعوبة . وأخبرنى من أثق بصدق أخباره أن مصلحة التلغراف ترى أيضًا هذه الصعوبة في التخاطب ولذلك قد عمدت إلى جعل المخاطبة لكل إنسان من أى تليفون أراده ، وأنها جربت هذه الطريقة فوجدتها ناجحة نجاحا تاما فعولت عليها .

وجاءت الأخبار من أقليم البحيرة وإقليم الغربية وأقليم الشرقية عن هطول الأمطار بشدة فيها متوالية ، وأنه قد سقطت صاعقة ببلدة (فوة) فدمرت بعض المساكن والحوانيت وأهلكت بعض الماشية ونفر من أصحاب المزارع . فخاف الناس خوفا ما عليه

(١) على شركة التليفون تتقاضى= على أن تتقاضى شركة التليفون – عدلت العبارة ليستقيم النص لغة ومعنى .

من مزيد وانكمشوا فى بيوتهم وجلهم يعتقدون هبوطها عليهم . على أنه مع كثرة هذه الأمطار وشدتها فقد أفادت الزرع فائدة كبرى لأنها نزلت فى أيام تطهير الترع والمساقى وحبس الماء عن الأراضى . والزرع فى أول نموه يحتاج إلى الماء لينعشه ، فكان هطول هذه الأمطار لفائدة زروع تلك الأقاليم .

وكانت الهيئة الحاكمة لما رأت تفشى الوباء في مشرق البلاد ومغربها وقد ثبت لدى جماعة الأطباء والمحققين دخول الوباء من حجاج بيت الله الحرام ، قد اهتموا بأمره كثيرا وتناجوا بينهم طويلا حتى اتفقوا على سن قانون لخروج الحج ومعاملة الحجاج عند عودتهم من الأقطار الحجازية . وضربوا على كل حاج قدرا من المال يودع فى خزائن المديريات والمحافظات يسترجعه الحاج عند عودته أو ما بقى بعد المصروف كما تقدم الكلام على ذلك في محله . فما هم أن كلفوا المديرين والمحافظين بالعمل بهذا القانون حتى أخذتهم صيحة الحجاج من كل صوب ، وقامت ضجة أصحاب الصحف المحلية ونادوا بالثبور وعظائم الأمور ، وجاءت القصص ركاما على وزارة الداخلية من سائر البلاد . وكان ما فرضه ذلك القانون على كل حاج أيضًا الخروج مع ركب المحمل وعدم التخلف عنه فى ذهابه ومجيئه ليكون موكب الحج واحدا حتى إذا ما ظهر الوباء بين الحجاج ، قام الأطباء المرافقين للمحمل وأصحاب العقايد بالخدمة اللازمة . ورفعوا هذا القانون إلى الأمير ليصادق عليه . قيل فراجعهم فى ذلك وقيل صادق عليه ، فتقدم إليه قاضى القضاة بطلب تعديله والتخفيف على الحجاج فلم يبلغ قصده ، وأصر رجال الصحة من جماعة الإنجليز على العمل به كما هو حتى قال بعض أصحاب الصحف أن هذا الأمر يمنع الحجاج من أداء الفريضة ألبسوه لباس قانون تحوطى صحى ، وأن الحكومة لما لم تقدر على منع الحج جملة عمدت إلى تصعيب الخروج على الناس بشكل اختلقته . قالوا نعم إن الحكومة تخاف على البلاد من الوباء فهى تشكر على عملها ، ولكن هذا الخوف لا يتدورك[٢] بإقامة العقبات فى سبيل الحج بل باتخاذ الحيطة الشديدة ومنع تسرب الداء إلي داخل البلاد من طرقه المعروفة ، وقالوا غير ذلك كثير . وعندى إنه إذا لم يكن الإحتياط شديدا كان ذهاب ألفى حاج بل ذهاب حاج كذهاب خمسة آلاف . لأن شخصا واحدا كاف لأن يحمل العدوى ويبث الجراثيم الوبائية فى كل صوب وناحية .

---

(٢) يتدورك = يتدارك قراءة اجتهادية .

ففى العام الذى مضى أى عام اثنين وتسعمائة وألف كان عدد الحجاج المصريين نحوا من ستة آلاف . فإذا ثبت أن العدوى انتقلت إلى مصر فإن انتقالها كان فى أمتعة شخص واحد من بلدة (موشه) كما ثبت ذلك لا بواسطة الحجاج كلهم . فالتضييق على الحجاج لايعد حيطة لدفع الوباء . أقول فإذا قالوا أن من الحيطة إرسال الحجاج موكبا واحدا فى الطلعة والرجعة قلت إن لفى ذلك الخطر الشديد ، أولا لتزاحم الخلق وشدة اختلاطهم وتكوفهم وتكديسهم فى مقعد واحد ولقلة الماء الذى يستقونه ولقلة النوق التى تحملهم ولقلة الأماكن التي تلزم لهم جميعا ولكثرة ما يتطلبه الإعتناء بشؤونهم الصحية وغير ذلك كثير . ثم إذا تيسر لوزارة الداخلية صاحبة هذا المشروع الحصول على السفن التى تكفى لنقل الحجاج فهل تيسر لها النوق لركوبهم؟ . فهى تقول أنها سيرت كتبها إلي والى الحجاز بطلب إعداد ما يحتاجه الحجاج . وعندى أن ذلك الوالى لا يمكنه فى حال من الأحوال أن يوقف للركب المصرى جمال الحج كلها ولا أن يحبس عليهم مياه الآبار كلها ولا أن يخلى لهم الطريق كله ، لأنه يستحيل عليه أن يهمل شأنماية وخمسين ألف حاج من مختلف الأقطار ينزلون على (جدة وينبع) فى طلب الجمال وغيرها ويجعل كل شيء لركب الحاج المصرى . وهب أنه قدر على إعداد الجمال فهل هو قادر على حبس الماء؟ لا ثم لا . ولما اختلط الأمر على أصحاب القانون وأخذتهم صيحة التشديد من كل جانب عادوا إلى التخفيف وأباحوا للحجاج الخروج على ما يشاءون ، إما مع ركب المحمل وأما ارالا[٣] كما كانوا يفعلون . وجعلوا ينظرون فى تشديد المراقبة الصحية عليهم عن[٤] رجوعهم ، فسكتت الخواطر واطمأنت القلوب . وكان قد ورد إلى قصر الإمارة وديوان الوزارة كتاب من (المابين) يقول أنه لايوافق على الطريق التي قررت حكومة مصر سفر ركب المحمل منها بل يجب أن يسير الركب فى الطريق المعروفة يعنى من (مكة) إلى (المدينة) لا من (ينبع) إلى (المدينة) . فسيرت وزارة الداخلية مندوبا من قبلها إلى (ينبع) ليعد الجمال اللازمة للركب ، وعدلت عن ذلك الطريق كارهة . وأعقب ذلك أن أرسل السلطان إلى الأمير مائة منديل تبركت من الخرقة النبوية المحفوظة فى دار الخلافة لتوزع على علماء مصر وكبارها ، فتقبلها الأمير ورفع إلى المقام السلطانى فرائض الشكران .

(٣) ازالا = أرتالا قراءة اجتهادية .
(٤) عن = عند قراءة ترجيحية .

ومن غرايب ما حدث بكفر المشايخ بمركز كفر الشيخ أحد مراكز اقليم الغربية أن بقرة لمزارع صغير ولدت عجلان متلاصقا الجسدين برأس واحد وثلاث أيدى وأربع أرجل ومؤخرة واحده . فلما رأه صاحب البقرة هم بدفنه حيا ، فعلم بخبره مأمور المركز فأتى مسرعا وأخذه إلى المركز وجاء حكيم المركز البيطرى وكتب محضرا بأوصافه وأرسله إلى القاهرة فتحدث الناس في أمره كثيرا ونقلت العامة خبره ، وقالوا أن ولادته من الآيات التى تسبق اليوم الآخر وأن الملاحم قد دلت على ذلك من قبل ، قلت ولله فى خلقه شؤون .

واهتم أصحاب الحل والعقد بأمر مرفأ سواكن وما يحتاجه من التحسين . فرسم مجلس الوزراء بتقدير النفقة التي تلزم للعمل فقدروها بثلاثين ألفا ذهبا . فبرز الأمر بصرفها والتعجيل فى إعداد المعدات واستحضار العمال والمهندسين . وسواكن واقعة فى منتصف الشاطئ الغربى للبحر الأحمر وفيها من السكان اثنى عشر ألفا ، وهى أهم نقط المواصلة بين نوبيا والبلاد العربية خصوصا فى موسم الحاج . ولذلك قد أقاموا فيها محجرا للحجاج ولكن مرفأها غير صالحة للسفن الكبيرة ولايمكن دخولها بسبب الصخور المرجانية التى تكتنف المرفأ من كل جانب ، ولذلك قرروا إنشاء أحواض متسعة تسهل لأكبر البواخر الدخول بها والالتصاق بالشواطئ . ويقال الآن أن سكة حديد (بربر) التى تقرر إنشاؤها يشرع فى مدها بهمة وجد . وتتميما لمشروع تحسين مرفأ (سواكن) تلك أقول (ومدينة سواكن من أرخى المدن للمعيشة ، فكل شيء فيها رخيص الثمن وهواها حار رطب ومع ذلك فطقسها جيد وموافق للصحة نظرا لتأثير هواء الصحراء الجاف على هوائها) وعندى إذا(٥) تم عمل المرفأ على النحو الذى شرعوا فيه فستكون المرفأ الوحيد للسودان وتصبح مزاحمة لمرفأ مدينة الاسكندرية وآخذة قسما كبيرا من تجارتها . وكان هذا المرفأ أعنى مرفأ الاسكندرية له فى كل عام حكاية فتارة يقولون سيصبح مهددا من مدينة (دمياط) إذا أتموا صنية(٦) إصلاحه وتارة يقول(٧) أنه لكنذلك(٨) أيضًا إذا أتموا توسيع مرفأ بورسعيد وقناتها ، وكل هذه التخمينات لم تتعد مخيلة الواهمين .

(٥) إذا = أنه إذا إضيفت الكلمة ليستقيم النص لغويا .
(٦) صنية = استبعدت الكلمة حيث أنها لا تؤثر على السياق .
(٧) يقول = يقولون قراءة ترجيحية .
(٨) لكنذلك = كذلك قراءة ترجيحية .

وجاءت الأخبار منبئة أن الهرج فى البلاد العربية قائم على قدم وساق والحرب طاحنة بين الأمير (عبدالرحمن بن فيصل) النازل من الرياض وأن الإنجليز يهتمون اهتماما عظيما جدا بالأمر ويريدون خزلان[٩] (ابن الرشيد) ونصرة (عبدالرحمن) . فسير قنصلهم فى (أبى[١٠] شهر) فى طلب وساطة أمير البحرين (عيسى بن خليفة) بينه وبين (الأمير عبدالرحمن) واستمالته إلى حملات الإنجليز ، حتى لقد عرض على الأمير عبدالرحمن امداده بالمال والسلاح وسائر معدات الحروب إن هو أقام على حربه مع ابن الرشيد حتى يكسره شر كسرة . فلم يوافقه الأمير على شىء من ذلك وأرسل يقول له إنا فى غناء عن مالكم وسلاحكم فلا تتداخلوا فى أمورنا ولا يغرنكم ما بيننا من الفرقة فالاتفاق قريبا إن شاء الله .

وجاء فى كتاب أحد الأصدقاء أن (ابن الرشيد) نازل بين قبائل شحر[١١] وهو يتخذها لنصرة على (ابن فيصل) ، وأنه قد انضم إلى ابن فيصل (ابن ثانى) أمير القطر[١٢] وأمير الشارفنه[١٣] وشيخ[١٤] صقر فلم يمدون[١٥] (ابن الرشيد) بشىء ما وخزلوه[١٦] . وشاع خبر ذلك بين الناس وتحدثوا به واهتم له جماعة الإنجليز بوزارة الحرب وهموا بإرسال بعثة عسكرية إلى (العقبة) وقيل إلى أبعد منها كثيرا . وكثرة[١٧] مناورات جندهم فى (الجبل الأحمر) وناحية (الهرم) . واتفق أن قدم من البلاد العربية إلى مدينة السويس (محمد باشا عبدالوهاب) شيخ (دارين) من لواء نجد ومعه ثلاثين من الخدم والاتباع يريد قضاء فريضة الحج فظن الناس أنه جاء يريد المفاوضة مع (لورد كرومر) فى أمر الفتنة وتعزيز كلمة الإنجليز فى تلك الديار . وتحدثوا فى ذلك كثيرا على غير هدى

(٩) خزلان = خذلان قراءة تصحيحية .
(١٠) أبى شهر = بوشهر قراءة تصحيحية .
(١١) شحر = شمر قراءة تصحيحية .
(١٢) القطر = قطر قراءة تصحيحية .
(١٣) الشارفنه = الشارقة قراءة تصحيحية .
(١٤) وشيخ صقر = الشيخ صقر قراءة تصحيحية .
(١٥) يمدون = يمدوا قراءة ترجيحية .
(١٦) وخزلوه = وخذلوه قراءة تصحيحية .
(١٧) وكثرة = وكثرت قراءة ترجيحية .

والرجل ليس من أهل السياسات لا[١٨] من أصحاب الرياسات وقد كان كاتبا لافير[١٩] (قطر بن ثانى) ما شاء الله ، ثم رحل إلى (دارين) حيث جعل يتاجر فى المرجان ، فالتف حوله جماعة من العربان فأثرى وكثر ماله . وحدث أن باخرة عثمانية جنحت على مقربة من (دارين) وهى تحمل طايفة من العساكر التركية فأضافهم وأحسن لقاءهم ، وبلغ خبر ما فعله دار السطنة فأحسن عليه السلطان برتبة (أمير امراء) . وظل حديث القوم فى شأن تلك الأطراف متواصلا أياما ثم بطل[٢٠] .

ومما لا يصح إغفاله فى هذه الآونة إبطال بعض العادات القديمة المعمول بها من عهد محمد على باشا الكبير إلى هذا العهد . ذلك أن وزارة المالية قررت بواسطة رجال لجنتها الموكلين بحراسة أموالها ومراقبة صرفها وإيرادها وأبرزت منشورها فى تاسع عشر فبراير من السنة بإبطال (المعايدة) عن بيوت مصر الكبيرة ، وهذه (المعايدة) هى عادة ورثها أمراء مصر عن جدهم الأكبر محمد على باشا وهى أنه كان إذا جاء يوم العيد يرسل (الكيخيا)[٢١] إلى زيارة أربعة أو الخمسة بيوت الممتازة فيُعَيْد على أصحابها باسمه ويعطى قصلا[٢٢] راغانى كل بيت خمسة وعشرين قرشا هدية العيد . وظلت هذه العادة

(١٨) لا = ولا قراءة اجتهادية .

(١٩) لافير = لأمير قراءة اجتهادية .

(٢٠) مع هزيمة الأسرة السعودية فى نجد فى نهايات القرن التاسع عشر ولجوئها إلى (الكويت) كانت (أسرة الرشيد) قد استقرت فى (الرياض) و(حائل) فى جبل شمر فى شمالى شبه الجزيرة العربية . بهذا الوضع كان آل الرشيد يحكمون (نجد) متخذين من (الرياض) عاصمة لملكهم . فى ١٩٠٢ انطلق (عبدالعزيز بن عبدالرحمن) من منفاه فى (الكويت) إلى (نجد) حيث استولى على (الرياض) عاصمة (آل الرشيد) واتخذها عاصمة لدولته (الدولة السعودية الثالثة) . ظلت الحروب دائرة بين (آل الرشيد) و(آل سعود) على مدى العقد الأول من القرن العشرين حتى سقطت الأسرة الرشيدية وتمكن عبدالعزيز من السيطرة على (نجد) ليتطلع بعد ذلك إلى أماكن أخرى ليضمها إلى ملكه .

- Lois Aroian & Richard Mitchell (The Modern Middle East and North AFrica) Macmilan Publishing company - USA - 1984 - pp.; 119 - 120.

(٢١) الكيخيا = أصلها (كتخدا) الفارسية (كدخدا) ـ كد بمعنى (بيت) ، و(خدا) بمعنى (الرب) أو (الصاحب) . والكلمة معا (كدخدا) أو كتخدا) بعدما حورها الأتراك تعنى (رب البيت) ـ لكن الاتراك أطلقوها على الموظف والمسئول والوكيل والأمين كأن يقال (مدرسة كتخداسى) أى وكيل المدرسة . نحت الأتراك كلمة (كيخيا) نحتا مرتجلا من (كدخدا) الفارسية السابق الإشارة إليها ، وهى تحمل نفس المعنى ـ ويجمعها (الجبرتى) (كواخى) .
ـ أحمد السعيد سليمان (تأصيل ما ورد فى تاريخ الجبرتى من الدخيل) ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ ١٩٧٩ ـ ص ١٧٦ - ١٧٧ .

(٢٢) قصلا راغانى = ربما كانت الكلمة كتبت خطأ من جانب الطابع ـ وأقرب كلمة لها هى (قزلار أغاسى) أى (أغا البنات) ، وهو خصى أسود eunoch يشرف هو ومن تحته من الأغوات السود على جناح النساء فى بيت الحاكم .

مرعية حتى هذا العام أعنى عام ثلاثة وتسعمائة وألف ميلادية حتى وقع الاتفاق بين جماعة الإنجليز من أصحاب الكلمة المسموعة فى وزارة المالية على إبطال هذه العادة وحفظ المقرر صرفه وقدره ماية قرش فى كل سنة . وكان من المعمول به فى حفلة تشييع ركب المحمل أن تلقى (بدوره[٢٣]) من الفلوس أمام المحمل حين تشييعه . وتلك (البدره) لا تتجاوز فى كل عام الخمسة وعشرين قرشا ، فقررت تلك اللجنة إبطالها . كما قررت أيضًا إبطال رفع المستحق[٢٤] الأخضر الصغير الذى كانت جند حرس المحمل تدفعه عرتد[٢٥] الموكبة فى كل بند[٢٦] وبلد فى طريق المحمل . وأبطلت قيام الخطيب يوم تاسوعة[٢٧] وأبطلت كذلك المؤذن وبعض المصابيح المقررة للتكية وغيرها (بالمدينة) والأسهم النارية التى كانت تحرق (بمكة والمدينة) أيام العيد الثلاثة . فإغضب عملها هذا أصحاب العكاكيز وجماعة المعممين وأهل الطرق وعدوه زغيا وخرقا . فاجتمع جماعة منهم وساروا إلى دار شيخ الإسلام وكلموه فى ذلك طويلا فطيب خاطرهم وهون عليهم ما استطاع . فانصرفوا وبطل حديثهم فى ذلك .

وكلم فى هذه الآونة أصحاب الحل والعقد جماعة من ممولى الإنجليز فى إعطائهم أرضا من أراضى (وردان) غربى رياح البحيرة قريبا من (الخطاطبة) فأقطعتهم أو هى وهبتهم عشرة آلاف فدان على شكل تأجير لمدة أربعين سنة على شرط أن تدفع الشركة إيجار لكل فدان قدره قرشان لا غير فى كل سنة ويحق لها متى شاءت أن تبتاع الأرض ،

= فى التركية كان يسمى (دار سعادت أغاسى) وهو أكبر موظفى القصر الهمايونى . كان (أغوات البنات) هؤلاء هدايا يقدمهم ولاة مصر إلى السلاطين ، وقد عظم نفوذهم من بداية القرن السابع عشر إلى منتصف القرن الثامن عشر . ولم يلغ هذا المنصب من القصور السلطانية إلا بعد الغاء السلطنة العثمانية ، ولكن يحتمل وجوده فى قصور ولاة مصر حتى عصر محمد على ـ والكلمة تتفق مع السياق فى النص .
ـ المصدر نفسه ـ ص ١٨ - ١٩ ، ١٦٨ .

(٢٣) بدوره = من كلمة (بدره) التى تعنى قدرا من المال قيمته عشرة آلاف درهم . لكن الكلمة تحورت مع الزمن إلى تلك النقود الذهبية أو الفضية التى تلقيها أم العروس فوق رؤوس شهود حفل الزفاف احتفالا بزفاف ابنتها .
ـ مختار الصحاح ـ مادة (ب د ر) ـ ص ١٨ .

(٢٤) رفع المستحق الأخضر الصغير = يحتمل أن تكون الكلمة الأولى (دفع) وليس رفع) ـ لكن لم أعرف ما هو المستحق الأخضر الصغير ، ويبدو أنه كان رسما أو مبلغا صغيرا من المال .

(٢٥) عرتد الموكبة = يحتمل أن تكون (عند مرور موكب المحمل) .

(٢٦) بند = بلد قراءة اجتهادية .

(٢٧) تاسوعة = التاسوعاء هى اليوم السابق لعاشوراء .
ـ مختار الصحاح ـ ص ٣٢ مادة (ت س ع) .

فإذا زرعت بعد خمس سنوات مساحة ألف فدان منها شجرا جاز لها[٢٨] تبتاع الأرض كلها أو ما يصلح منها للزرع بدفع خمسة جنيهات ثمنا لكل فدان . وقد وضعت الشركة أسهما بقيمة ستين ألف جنيها لتعمير هذه الأراضى وجعلت عدد الأسهم إثنى عشر ألف سهم وأنشأت ثمانية آلاف حصة تأسيس . فلما تفشى خبر ذلك قامت ضجة أصحاب الصحف من كل جانب وجعلوا يؤنبون أهل الحل والعقد بكل شفة ولسان وعابوا عليها فعلها وتكتمها نياتها ، وأنها تعطى الأراضى مساحات كبيرة ولا تقسمها أجزاءا ليسهل على صغار الناس شرائها . قالوا فإذا كان عذر أصحاب الكلمة المتبوعة فى ذلك أن الشركات قادرة على إصلاح الأراضى لكثرة أموالها ، ولكن الحكومة التى تنفق ستة ملايين جنيه على خزان اصوان ومليونين على مصلحة الرى سنويا قادرة على إنشاء الترع والجسور فى مثل هذه الأراضى وجر الماء إليها على نفقتها وتقسيمها إلى أجزاء وإعطائها للفلاحين حتى يتملكوا أرضهم فى أرضهم ولا يظلوا عبيدا . قالوا وهذا بيعها لأطيان الدايرة السنية يصرخ عليها كل يوم وينادى بذنبها على رؤوس الأشهاد . وهذه مأثرة (المسيو بورترن) الفرنساوى المتولى أعمال مصلحة الأراضى المرهونة المعروفة بالدومين ، كيف أنه قسَّمَ أراضى تلك المصلحة وكيف باعها أجزاءً لصغار الفلاحين فربحت وربح الفلاحون وهم يسبحون بحمد الرجل بكرة وأصيلا . وطال الأخذ والرد فى ذلك أياما وأصحاب هذا الأمر لا يلتفتون .

وبينما الناس وأصحاب الصحف فى شاغل بما نالته تلك الشركة الإنجليزية من أراضى (وردان) إذ برز الأمر فى أول مارس من السنة أى فى ثانى ذى الحجة من سنة عشرين وثلثمائة وألف بخلع الشيخ سليم[٢٩] البشرى من مشيخة الأزهر وإقامة السيد على

(٢٨) لها = لها أن أضيفت الكلمة ليستقيم المعنى .

(٢٩) الشيخ سليم البشرى (١٨٣٢ - ٢١ سبتمبر ١٩١٧) . مفتى وشيخ الأزهر . ابن (سيد أبو الفرج) . ولد فى (بشر) قرب (شبراخيت - بحيرة) . توفى والده وهو فى سن السابعة . حفظ القرآن فى قريته وذهب إلى القاهرة فى سن التاسعة وعاش مع خاله الذى علمه الكثير من العلوم الإسلامية . تعلم أثناء التحاقه بالأزهر على يد كبار علماء زمانه (كعليش) و(الباجورى) وأصبح متخصصا فى (السنة النبوية) المطهرة و(الحديث) الشريف . عين بعد تخرجه شيخا للمسجد الزينبى ، عَلَّمَ بعد ذلك فى الأزهر حيث تخرج على يديه الكثير من العلماء اللامعين .
عين مرتان شيخا للأزهر (١٨٩٩) و(١٩٠٩) . ينظر إليه بصفة عامة كمحافظ رغم أن الكثير من الإصلاحات التى شهدها الأزهر تمت فى مشيخته الثانية . توفى فى القاهرة ودفن فى مقابر المالكية قرب (السيدة نفيسة) . أصبح كل أولاده الستة من المشايخ .
- آرثر جولد شميث (قاموس تراجم مصر الحديثة) - ترجمة وتحقيق عبدالوهاب بكر - المجلس الأعلى للثقافة - المشروع القومى للترجمة - ٢٠٠٣ .

البـبلاوى نقيب الأشراف بدله . فـمـا شاع خبـر ذلك حتـى أكبره الناس وأعظموه جـدا لوقوعه عقب اجتماع جماعة الوزراء ثلاثة أيام متوالية كانت رسل الأمير تغدو فيها وتروح بين قصر الإمارة وقصر الوزارة . وظهرت الحركة فى إيوان الجامع الأزهر واجتمع العلماء والمشائخ وأصحاب العكاكيز وتناجوا فى الأمر طويلا وأظهروا الدهشة من كثرة التغيير فى منصب مشيخة الإسلام حتى صار يعد كمناصب الحكومة وهو ما لم يره جماعة العلماء والمشـائخ منذ عـهـد مـحـمـد على باشـا الكبـيـر . وأشـار بعض الوزراء بتـوليـة الشـيخ (حسونة[٣٠] النواوى) على ما به من الوعد والوعيد عَساه يرجع عما هو عليه من الأنفة والاستهتار[٣١] . وطال الحال على هذا طويلا . فلما كان سابع عشر أكتوبر من السنة جاء إلى القاهرة وفد من عنده[٣٢] يؤلف من سبعة من كبار قومه ومقدمى القبائل ومعهم كتب السلطان إلى السردار . وكان قد وصل الخبر بانحدارهم فسهلوا لهم سبل المجىء وأعدوا لهم مكانا قصيا عن القاهرة . فلما بلغوها قابلوا أولا (سلاطين باشا النمسوى) الذى هو مفتش حكومة السودان وسلموه كتب السلطان فرفعها إلى السردار ، ولم نصل يومئذ إلى معرفة ما تضمنته . وأخبرنى من لا أشك فى صدق حديثه أنها تنبئ عن ميل (ابن دينار) إلى مسالمة الحكومة المصرية وتأمره بأمرها وعدم الخروج عن طاعتها جملة ، ومع

---

(٣٠) الشيخ حسونة النوواى (١٨٣٩ - ١٩٢٥) . فقيه قضائى إسلامى ، مفتى السادة الحنفية ، وشيخ الأزهر المصلح . ولد فى (نوى) قرب (ملوى) ، حفظ القرآن فى كتاب القرية وتعلم فى الأزهر . أصبح مدرسا للشريعة الإسلامية فى دار العلوم ثم فى مدرسة الحقوق الخديوية وتولى مناصب قضائية عديدة . التمس زملائه من (الخديو عباس) أن يعينه شيخا للأزهر . أصبح مفتيا لمصر فى ١٨٩٨ وشيخا للأزهر (١٨٩٦ - ١٨٩٩) و(١٩٠٧ - ١٩٠٩) انتخب فى هيئة المحاكم الشرعية لكنه استقال فى عام ١٨٩٩ بسبب اعتراضه على خطة بريطانية لتعيين قاضيين من المحاكم الأهلية (الاستئناف) فى نظام المحاكم الشرعية . كتب رسائل عن تعليم الشريعة الإسلامية والدين . توفى فى القاهرة .

ـ المصدر نفسه ـ ص ٢٧١ .

(٣١) لم يعرف عن الشيخ حسونة النواوى الإستهتار ، فقد كان الرجل شيخا للسادة الحنفية ، وعالم متفقه فى القضاء الشرعى . أما عن الأنفة فقد عرف عنه رفضه لمشروع مالكولم ماكلريث Malcolm McIlwraith المستشار القضائى بتعديل نظام المحاكم الشرعية فى سنة ١٨٩٩ وتعيين قاضيين من محاكم الاستئناف الأهلية فى هيئة قضاة المحاكم الشرعية ، وقد كلفه هذا الاعتراض منصبى الإفتاء ومشيخة الأزهر فى ١٨٨٩/٦/٣ . فإذا كان هذا هو ما يسميه (شاروبيم) أنفة ، فهو فى حقيقته تمسك بعدم تدخل بريطانيا فى أمور تتصل بالشريعة الإسلامية وقضايا المسلمين ، أما الاستهتار فإن كل ما لدينا عن الرجل هو هذه القضية ـ وليس فى ثناياها ما يشير إلى استهتار من جانب الرجل . راجع .

ـ ميخائيل شاروبيم (الكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث) ـ الجزء الخامس ـ القسم الثانى ـ ص ٥٦١ - ٥٧٩ .

(٣٢) عنده = عند سلطان دارفور (ابن دينار) ـ عدلت العبارة لتكون هكذا حتى يمكن فهم باقى النص .

ذلك فإن الوفد لم ير من حسن الوفادة شيئا ولم ينل من كرم الضيافة قسطه وما سلم حتى ودع راجعا إلى حيث أتى .

واتفق أن قدمت إلى مدينة السويس باخرة إنجليزية تحمل شيئا كثيرا من الشاى والحرير والبضائع الهندية . فأتت وأصبحت وقد مات وقادها بالوباء الأصفر ، وكانت البلاد فى خوف ما عليه من مزيد من انتشاره بعد أن تكررت حوادثها فى (السويس) (والإسماعيلية) (وبور سعيد) على ظهور السفن التجارية القادمة من الهند والصين . فلما تفشى خبر موته تولى الناس الزعر[٣٣] وأخذتهم الطيرة . فاهتم رجال الصحة من جماعة الإنجليز بالأمر اهتماما عظيما وأوقعوا الحجر الصحى على تلك الباخرة ، وأرجعوها إلى محجر عيون موسى ، وأجروا على سائر ما فيها من البضائع والركاب الإجراءات الصحية ، وطهروها تطهيرا . وكان الناس من شدة خوفهم يراقبون العصافير التى تطير عادة فى الشوارع والبيوت فإذا رأوها كثيرة اطمنوا[٣٤] وسكنت قلوبهم ، وإذا رأوها يوما قليلة خافوا وأخذتهم الطيرة لأنهم يعتقدون أن هذا الطير الصغير لايظهر إذا ظهر الوباء وكثر الموت فى الناس ، وأن كثرته دلالة على نظافة البلاد من جميع الأوباء والأمراض . قلت والعرب يعتقدون أن ظهور (ابن آوى) فى الصحارى وصياحه ليلا دليل على زوال الوباء . وقرأت فى جريدة (لسان الحال) السورية فى معنى ذلك رسالة من دمشق جاء فيها ـ اكتب إليك وقد جاءنى فى يوم أحد أصدقائى وقال أنى أقص عليك حديثا من الغرابة بمكان وهو أنه جاءنا أحد الصحب أمس وقال أتيت قرية (جيرود) من القلمون ونزلت فى العرب نزول على ساعة من (جيرود) وذلك ليلة السبت وعند الساعة الرابعة ليلا بينما الظلام مخيم والهدوء سائد وأكثر الناس نيام سمعت ضوضاء عظمة فى النزول والنساء يزرغطن[٣٥] من كل ناحية وصوب . فنهضت لأرى ما هذا الحادث الفجائى فسألت فقالوا (ابن آوى) تصرخ فى البرية ، وما علاقة (بنات آوى) فيما تصنعون فقالوا إن صراخهم دليل زوال الوباء فإن (ابن آوى) لا يصرخ أيام الوباء ويلزم الصمت فإذا زال الوباء صرخ ، ولنا إحدى عشر شهرا يعنى منذ ظهور الوباء عندهم لم نسمع لهذا الحيوان صوتا . قال المحدث

(٣٣) الزعر = الذعر قراءة تصحيحية .
(٣٤) اطمنوا = اطمأنوا قراءة تصحيحية .
(٣٥) يزرغطن = يزغردن قراءة ترجيحية .

وقفلت فى الليلة الثانية لعرب آخرين فحدث ما حدث الليلة الأولى من صراخ ذلك الحيوان وحركة الناس . قال ثم جئت قرية من قرى (الغوطة) واسمها (زملكا) فسمعت الناس يتحدثون بأمر ذلك الحيوان وسماعهم صراخه فى الليلتين الفائتتين ويهنون بعضهم بزوال العلة بناء على هذا الدليل . ا . هـ .

قلت ولله سبحانه فى خلقه شؤون ، وقد حقق الله الآمال فلم يصب البلاد شر ذلك الوباء . ودخلت الشتاء فزال الخوف عن الناس واطمأنت القلوب الراجفة لاعتقاد الناس بأن لا وباء قط فى فصل الشتاء وهى عادة ينقلها الخلف عن السلف .

وجاء الخبر من بلدة كفر الشيخ أحد بلدان إقليم الغربية فى ثامن نوفمبر من السنة بوقوع الحريق في مخازن تجارها ، وكان ظهور النار أولا من أحد المخازن . فجاء الصايح من كل صوب ، فهب أصحاب المطافئ مسرعين إلى مكان الحريق وجعلوا يكافحون النار من كل ناحية . وما هى إلا ساعة أو بعض ساعة حتى تناولت النار جميع المخازن وعلا زفيرها واشتدت شدة بالغة لهبوب الرياح الشرقية . فكانوا إذا أخمدوها من ناحية اندلعت من أخرى . ورأى أهل البلاد المجاورة لهيب النار يرتفع إلى عنان السماء فأقبلوا مسرعين لإخمادها وجعلوا يكافحونها بشدة وعزم ، وظلوا على هذا طول الليل حتى مطلع الشمس . قالوا وبينما النار تفعل فعلها فى المخازن والدور كانت اللصوص تغشى المنازل وتنهب ما تصل إليه أيديهم وأصحابها فى دهش ما عليه من مزيد . واتفق أن مر أحد أولئك اللصوص بفتاة من أهل البلد فى بصمها[٣٦] سوار من الفضة فأمسك بعنقها يريد أخذ السوار فقلقلت[٣٧] به وصاحت فأقبل أهلها وأمسكوا باللص وقادوه إلى صاحب الشرطة وقد كان جاء لمساعدة أصحاب المطافئ فاستنطقه فاعترف ودل على بقية اللصوص ففتشوا عليهم حتى عثروا بهم وساقوهم بما معهم إلى السجن . فكانت شدة عظيمة جدا احترق فيها نيفا وسبعين بيتا وثمانين مخزنا عدا عن العشش الكثيرة .

وجاء من محافظ الأسكندرية إلى ديوان الوزارة فى رابع ديسمبر بأنهم عثروا فى تلال (الشطبي) على كنز من الذهب ليس بالشيء الكثير . بينما كانوا يشتغلون بالحفر

(٣٦) بصمها = ساقها قراءة ترجيحية .
(٣٧) فقلقلت = فتعلقت قراءة ترجيحية .

فى تلك التلال عثر أحد الشغالة على برنية من الفخار ملأى بقطع من النقود الذهبية مختلفة الحجم كأنها ليست من ضرب واحد . ولما عدوا ما بتلك البرنية بديوان محافظ المدينة فإذا هو لم يتجاوز الماية وعشرين قطعة من نقود جمهورية البندقية التى تعرف (بالبندقى) . فنقلوا البرنية بما فيها إلى دار التحف والعاديات التى فى المدينة وأقاموا الحراس على موضع الحفر ومراقبة العمال . أقول وما شاع خبر ذلك بالقاهرة ومصر القديمة وتناقله الناس حتى بالغوا فيه وأغربوا وقالوا أنه كنز لا يفنى فيه إثنى عشر دنا كبارا ملأى بالدر والياقوت والزمرد والمرجان وفيه الكثير من سبائك الذهب الخالص وشيئا من طلاسم الفراعنة . وكثر تحدثهم فى ذلك حتى كاد كذبهم يصير حقيقة . وظلوا على هذا أياما حتى أشغلهم عنه وقوع الهرج بين علماء ومشائخ الأزهر وقيامهم وقعودهم وانقسامهم فرقا واختلافهم فيما هم فيه اختلافا كبيرا . ذلك أنه جاءهم من بعض مسلمى جنوبى أفريقية سؤالا يريدون الجواب عليه وهو هلا يجوز للمسلم أن يتزيا بزى النصارى من لبس القبعة (برنيطة) . قالوا لأن تزييهم بزيهم المعتاد يعرضهم الاحتقار[٣٨] فى تلك البلاد . فلما عرض عليهم هذا السؤال اجتمعوا اجتماعات متوالية وتناجوا فى الأمر فاختلفوا ، فمنهم من لم ير في لبس القبعة نسبة ولا جرما فى الدين ومنهم من رأى غير ذلك وأن التزيى بزى القوم النصارى عار وشنار بل هو عمل معيب مذهبا لحرمة الدين وكرامة المسلمين . وطالت أيام هذه المحنة ونقل خبرها أصحاب الصحف المحلية وقاسوا فيها وخاطوا كما شاءوا . وكان ممن قال وأفتى بجواز التزييى بزى النصارى (الشيخ محمد عبده) مفتى الديار المصرية ، وقال أن الإسلام ليس بالزى واللبس ، وأسند فتواه لخير ما فعله صاحب الشريعة يوم (واقعة بدر) وقال (بسم الله الرحمن الرحيم . أما مسألة القلنسوة فحسبهم من حيث التقليد أن الفقهاء[٣٩] وما قالوا أن لبس أى شىء من ثياب الكفار موجبا للردة إلا لباس الدين حيث ينضم إليه قرائن تفيد كثرتها قطعا بأن صاحبه انسلخ عن الدين . وفرق عظيم بين نحو الزنار[٤٠] ليس[٤١] الكنيسة وبين لبس

(٣٨) الاحتقار = للإحتقار قراءة تصحيحية .
(٣٩) وما = ما استبعد حرف (و) ليستقيم المعنى .
(٤٠) الزنار = حزام النصارى .
- مختار الصحاح مادة (ز ن ر) - ص ١١٦ .
(٤١) ليس = لبس قراءة اجتهادية .

القلنسوة ونحوها من لباس الشعب والأمة التى ما كان الدين فيها إلا اتفاقيا ، وقد أنهى بعضهم حكم لبسها إلى الوجوب ، وبين الردة . فالوجوب مراتب كثيرة منها الكراهة أو الإباحة ، والذى يجب[٤٢] أن ينظر نظر المغشى عليه يمكنه مع ذلك أن يجزم بحالة الحكم فى صورة الاستغاثة . فإن كنا من أهل النظر قلنا أن (الردة والإيمان) أمران لايتعلقان إلا بالفؤاد ، والإسلام ثنى[٤٣] يتعلق بالازعان[٤٤] إلى الأحكام الشرعية . فلاعون بتصميم القلب مع تصديقها فلا يبطلان إلا حيث انتهت هذه المقومات . قال وربما كان بعض اللباس مع بعض قرائن مؤزنا[٤٥] بانسلاخ صاحبه من الإسلام ، ولكن يكون ذلك حيث يكون اللباس لباس الدين لا لباس الأمة ، وحيث ينضم فيه ترك الإعلان بكلمة الإسلام والتريد[٤٦] على شعائر الكفر ، وكل واحد من هذين كاف فى الردة وفاقا وخلافا بين العلماء . قال وأما التزام عادة من عادات الكفار احب[٤٧] فى العادة لا فى دين أهلها أو لانطباقها على حاجة الرقى فى الوجود المدنى فليس من الكفر فى شىء .

قال ليس إسلام العربى فى عمامته وإلا لكفر إذا خلعها عند وضوئه ، ولا كفر الكافر فى قبعته وإلا لأسلم إذا كشف رأسه للسلام ، وإنا ننظر أنواع الشعوب الذين اتفقوا فى الدين يختلفون فى اللباس اختلافا بعيدا ، وما يقضى ذلك باختلافهم فى الدين كاختلافهم[٤٨] أصقاع المسلمين بين حجازى وتركى وفارسى ومصرى وتونسى ، كل لباس منها يخالف الآخر خلافا بينا والكل غير لباس الصحابة ، فإذا لبس الرجل لباسا باعتبار أصالته فيه فذلك الواجب أدبا عليه ، وقد كان بعض الناس يدخلون فى دين الله أفواجا على عهد رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين فما سمعنا . ولو كان لسمعنا شيئا تتوفر دواعى العلماء على نقله ولا يقعد به شيوعه عن رسول ذكرته ، وما من أحد منهم أمر الفارسى أن يتحول إلى اللباس العربى - ثم مشاهدة المساواة اليوم بين مسلمى القطر

(٤٢) يجب = يحب قراءة ترجيحية .
(٤٣) ثنى = شىء قراءة ترجيحية .
(٤٤) بالإزعان = بالإذعان قراءة تصحيحية .
(٤٥) مؤزنا = مؤذنا قراءة تصحيحية .
(٤٦) والتريد = والتردد قراءة ترجيحية .
(٤٧) احب = حبا قراءة ترجيحية .
(٤٨) كاختلافهم = كاختلاف قراءة اجتهادية .

الواحد وكفاره فى زى واحد شاهدة على ما نقول إلا بعد أن ميز المسلمون أهل ذمتهم بعلامات حين أرادوا أن ينكثون(٤٩) أيمانهم من بعد عهدهم ولا يرقبون فيهم ذمتهم . قال : وهل كانت ثياب رسول الله ﷺ إلا كثياب مشركى الجاهلية أم علمناهم حين دخلوا فى الحنيفية استبدلوا لبوسهم - كلا - أن الدين لأكبر من أن يهتم بما يهتم له (الماشطات) وسخفاء المزينين .

قال وأما استبدال الرجل زيا بزى آخر كيف كان بلا داع يقصده العقلاء فشىء يدل على سخافة عقل واستخراف إدراك ، وكذلك يتخذ سخريا بين الناس فى كل زمان ومكان زى الرجل يلبس لبوس الإفرنج لكونه من أهل الدولة فلا يلومه أو يسخر منه أحد ، فلبوس عمامة العامة وطليسانهم(٥٠) لكان ضحكة للضاحكين ، وبالعكس زى العالم مثلا . وهذا هو دستور هاته المتشابهات التى صيرت السهل جبلا وجعلت هؤلاء القوم لايكادون يهتدون سبيلا وإليكم تحيتى وسلامى) حرر فى ثالث عشرى ذى القعدة سنة إحدى وعشرين وثلثمائة وألف للهجرة ا . هـ) .

فلما أُفتى الشيخ محمد عبده بجواز لبس القبعة لكل مسلم امتعض جماعة العلماء والمشائخ وأصحاب العمايم وسفهوا رأى الشيخ وكَفَّروه وقالوا أنه بدعة سيئة ماسة بالدين وكرامته . وقاموا يعضدهم ناس من أروقة الأزهر ، وقام آخرون فى جانب المفتى . واشتدت الأزمة وعظمت الفرقة ووقع الهرج بين المجاورين وكبار (الأروقة) . يقال وكلهم يكرهون الشيخ ويرجون سقوطه من منصب الافتاء إلى الدرك الأسفل وذلك لأنه بعيد عن تقاليدهم وعاداتهم السمجة القديمة مبغض لكل ما يخالف الكتاب والسنة ، ناقم على أصحاب العكاكيز ومشائخ الطرق والمعممين لاينكف عن زجرهم ونهيهم على(٥١) المنكر وحضهم على العمل بالكتاب والسنة .وعندى أن الرجل سُنىٌ حسن العقيدة محبا لدينه غيورا عليه عاملا على حفظ سلامته فى هذا العصر الذى تنورت فيه العقول وبارت تجارة أولئك الدجالين مدعى الكرامات . وذهب جماعة من أولئك المعاندين للشيخ إلى قصر الإمارة وشكوا إلى الأمير من عاقبة فتوى الشيخ ورموه بالزندقة ، وقال بعضهم أنه

(٤٩) ينكثون = ينكثوا
(٥٠) طليسانهم = طيلسانهم قراءة ترجيحية .
(٥١) على = عن قراءة ترجيحية .

فعل ما فعل بإغراء لورد كرومر تنفيذا لسياسته التى هى إبطال القديم فى الإسلام بالجديد من عادات النصارى . وكثر تردد أولئك المشاغبين على قصر الإمارة وديوان الوزارة وعلت جبلت[٥٢] أصحاب الصحف آونة فى جانب أولئك القوم وأخرى فى جانب الشيخ ، والعامة من ورائهم لايدرون من الحادث شيئا سوى قول بعضهم لبعض كفر الشيخ وحل حرقه .

وبرز الأمر فى قصر الإمارة باختيار ثلاثة من كبار المذاهب الثلاثة ليتناقشوا فى هذه المسألة ويقرروا فيها ما يقتضيه الشرع وتستلزم مصلحة الإسلام والمسلمين . فاجتمعوا أياما متتابعة وظلوا على هذا طويلا حتى تناسى الناس الحادث وانكف أصحاب الصحف والمعممين وأصحاب العكاكيز عما كانوا عليه من الهرج والضوضاء . وكانت هذه المحنة من أضرها فى هذه الآونة ـ أقول ولما[٥٣] كادت هذه الحادثة تصبح فى خبر كان حتى ظهرت (حكاية الغيبة المقطعة[٥٤]) وهى غيبة الزوج عن زوجته وانقطاع أخباره عنها حتى لا تعرف له مقرا .

وحكم هذه الحالة فى القضاء الشرعى على مذهب الإمام الأكبر (أبى حنيفة النعمان) عدم الإباحة للزوجة أن تتزوج من غيره أو يموت أمثال زوجها عمرا وتركيبا . يعنى إذا كان الزوج الغائب يبلغ من العمر ثلاثين عاما فليس يحكم عليه أنه معدوم وتطلق منه زوجته ما دام أمثاله فى العمر على قيد الحياة ، وكذلك إذا بلغ عمره ثمانين وكان له أنداد فى العمر . ولما كان الحكم الشرعى فى ديار مصر كله راجع إلى مذهب (الإمام أبى حنيفة) فحكم الزوجة التى يغيب عن[٥٥] زوجها وتنقطع أخباره راجع إلى مذهب الإمام أبى حنيفة ، يعنى أنه لايحكم بتطليقها ولا يباح لها التزوج من غير زوجها المتغيب ولو بقيت كذلك ما شاء الله حتى يموت أمثال زوجها عمرا ـ قلت ـ على أن مذهب (الإمام مالك) يحدد زمن الغيبة المقطعة[٥٦] بأربع سنوات فإن تعدتها جاز للزوجة

(٥٢) جبلت = جلبة قراءة اجتهادية .
(٥٣) ولما = وما قراءة اجتهادية .
(٥٤) المقطعة = المنقطعة قراءة تصحيحية حيث أن هذا هو الإسم الصحيح فى كتب الشريعة .
(٥٥) عن = عنها قراءة تصحيحية .
(٥٦) المقطعة = المنقطعة راجع حاشية (٥٤) .

أن تتزوج من غيره - قال المفسرون وفى هذا من التسهيل والرحمة بالنساء ما هو محمود العاقبة . وقد ضاق خناق جماعة القضاة الشرعيين من كثرة شكاوى النساء اللاتى يغيب عنهن أزواجهن وليس لهن من دونهم مؤمل . فرفع أحدهم قاضى الإسكندرية الأمر إلى وزارة الحقانية وسألها الموافقة على الرجوع فى نظر قضايا (الغيبة المنقطعة) إلى مذهب الإمام مالك ، قلت : ولما كان الرجوع إلى هذا المذهب يستلزم الرجوع إلى ما رسم به الخليفة صاحب مذهب الإمام الأكبر أبى حنيفة تعاصى النظر فى ذلك على رجال وزارة الحقانية ، فجمعوا جماعة من العلماء والمشائخ وأصحاب الإفتاء وجعلوا ينظرون فى الأمر من وجهه الشرعى . وظلوا على هذا طويلا فلم يتم لهم أمرا لاختلاف الآراء فتركوه إلى حين ، وقد برز الأمر بالرجوع فى تلك القضايا إلى مذهب الإمام الأكبر .

وجاءت الأخبار منبئة بهطول الأمطار بشدة زائدة فى أقليم الغربية وهبوب الرياح الشمالية يوما والشرقية يوما آخر وتساقط البرد فى حجم الجوز . قالوا وظل الحال على هذا أياما كثيرة تعطلت فيها الأعمال ووقفت حركة الأشغال وتعذر على الناس الخروج إلي زروعاتهم ومات بعض الماشية . وكان هذا الحادث من أغرب ما وقع منذ عهد بعيد ، وسقطت بيوت كثيرة فى بعض بلاد إقليم الغربية ومات بعض الخلق تحت الردم . فكانت شدة بالغة وسبحان من بيده الحركة والسكون .

أقول وقرب عهد خروج ركب المحمل على عادته فى كل عام ، فجاء جماعة المطوفين إلى القاهرة والإسكندرية وطنطا وبقية المدن فى الإقليمين القبلى والبحرى يدعون الناس إلى طلعة الحج على عادتهم فى كل عام ، وأخبروا أن مشائخ عربان الحجاز وأصحاب الدروب وطريق الحج قد رفعوا إلى أمير مكة والشريف طلبا يريدون مخابرة الحكومة المصرية بوجوب صرف المرتبات والجماكى المتأخرة لهم وإلا فلا يأتون بالجمال للحجاج ولايعنون بخفارة المسالك . وما هو أن تفشى خبر ذلك حتى جاءت كتب الشريف إلى قصر الإمارة وديوان الوزارة فى معنى ذلك . فاهتم الأمير لهذا الأمر وكلم الرئيس (مصطفى فهمى باشا) وشدد فى طلب صرف ما لأولئك القوم من المرتبات . وسيروا (إبراهيم باشا) أمير الحج إلى ينبع ليتفق مع المشائخ على ما فيه المصلحة للفريقين . فلما كلم المشائخ لم يقبلوا منه عدلا ولا صرفا وقالوا لا نأتى للحجاج بناقة ولا جمل حتى تنقدونا ما لنا عندكم ونحن تابعون إلى مولانا وسيدنا

الشريف لاخلافه . فقفل الباشا راجعا وأخبر بما جرى . وكان الرئيس وجماعة الوزراء قد قرروا مع جماعة الإنجليز أصحاب وزارة المالية والحرب على تسيير ركب المحمل من أقرب المسالك إلى (مكة والمدينة) تاركين الدروب التى تفشاها العربان أصحاب تلك المتأخرات . وطيروا الخبر بذلك إلى شريف (مكة) فلم يوافقهم على ذلك وحزرهم[٥٧] من سوء العاقبة إذا سار الركب من ذلك الطريق . وجاءت كتب (المابين) إلى قصر الإمارة فى معنى ذلك أيضًا . وقال السلطان أنه لن يرضى عن تعريض الحجاج المصريين إلى ضياع أموالهم وأرواحهم . وبرز أمر السلطان إلى والى (مكة) بأن يسير الركب فى الطريق المأمون يعنى من (ينبع) إلى (المدينة) مباشرة ، وأن يحافظ على راحة الحجاج حتى يعودوا إلى أوطانهم سالمين .

وقام ركب المحمل من القاهرة إلى السويس فينبع على الرسم المعتاد والناس يحسبون لطلعته فى هذا العام حسابا كبيرا . ولم تطمئن القلوب حتى شاع وتحقق بأن وزارة المالية أرسلت خسمائة جنيه ضمن أموال صرة المحمل لتوزع على مشائخ العربان فى ينبع حسبما أشار به شريف مكة ورجال المابين . وتفشى خبر ذلك بين الناس فأقبل الحجاج من كل ناحية وبلد إلى السويس يريدون الحج واللحاق بالمحمل . ووصل إلى السويس أيضًا شيخ ـ دارين ـ من لواء نجد يقال له (محمد باشا عبدالوهاب) وأقام فى ضيافة الأمير أياما حتى تأهب للخروج وتم له ما أراد . وركب الباخرة (بحيرة) التابعة لخاصة الأمير إلى (جدة) ومعه حاشيته لا تقل عن الثلاثين ـ أقول : وهذا الشيخ كان من عهد قريب كاتبا لأمير قطر (ابن ثانى) حناء[٥٨] ثم تركه ودخل إلى (دارين) وجعل يتاجر فى المرجان . فالتف حوله جماعة العربان فأثرى وكثر ماله وانبسطت كلمته . وحدث أن باخرة عثمانية جنحت هناك وهى تحمل عسكرا من الترك فعلم الشيخ فاستدعى العسكر الذين بها وأنزلهم ضيوفا عنده وأكرم سواهم[٥٩] . فلما عادوا إلى دار السلطنة أخبروا بما فعل الرجل بهم فأنعم عليه السلطان بلقب أمير الأمراء وسير إليه هدية فاخرة . فظهر من

(٥٧) وحزرهم = وحذرهم قراءة تصحيحية .

(٥٨) حناء = استبعدت الكلمة .

(٥٩) سواهم = مثواهم قراءة ترجيحية .

ذلك الحين شأنه وعظمت مكانته بين القبائل وهو حى يرزق إلى يومنا الذى نحن فيه .

وكان أصحاب الرى من جماعة الإنجليز قد اتفق رأيهم على أن يضعوا سدودا فى النيل إبان التحاريق عند مصبيه فى دمياط ورشيد كى لا يطفو الماء المالح على ماء النيل فيهلك الزرع والقرى . وظلوا عاكفين على هذا أعواما ، فلما حل ميعاد وضع السدود فى هذا العام أهملوا سد دمياط ولم يضعوه فقام أهل فاركسور[٦٠] وشربين والبلاد الواقعة على ذلك الفرع شرقا وغربا يشكون حالهم وما يصيبهم من إهمال ذلك السد وما يتوقعونه من التلف وهلاك الزرع . وجاءت وفودهم إلى القاهرة ووقفوا على أبواب أصحاب الرى فلم ينالوا مأربا فانقلبوا راجعين . وقام أصحاب الصحف المحلية ينصرونهم على أصحاب الرى ويطمنون خواطرهم بأنه[٦١] لايكونون فى حاجة للماء فى العام المقبل فإنه سيأتى أراضيهم بالراحة من ترعة الساحل وبحر شبين . قالوا فإن كلاهما يستمد الماء من أمام قناطر زفتى التى أنشئت حديثا وقد صارت أعمالها على وشك النهاية . أقول والحق يقال أن أصحاب الرى من جماعة الإنجليز لم يدخروا وسعا فى تعميم وسائل الرى فى الأنحاء البعيدة بإحداث الترع وتوسيع المراوى وحفر المصارف وتقوية الجسور وإكثار القناطر والسدود لتعميم المياه للأراضى حتى اتسع نطاق الزراعة وأصلح الناس الفاسد والبور من الأراضى . وكان مما أحدثوه فى هذه السنة أنهم مدوا ترعة النجايل إحد[٦٢] أقليم المنوفية حتى بلغت ترعة النعناعية ومنها إلى ترعة السرساوية وأنشأوا للسرساوية جنابات على طول اثنى عشر كيلو مترا فتحول الرى بذلك فى مركز منوف إلى نيلى تام يسقى بالراحة ، وأفسحوا المصرف المعروف بنمرة ستة فى إقليم الغربية ، وتوسيع هذا المصرف فى الأهمية بمكان . وليس ذلك فقط بل وقرروا أيضًا تمديد ترعة النجايل حتى كفر النعناعية أى إلى مسافة اثنا عشر كيلو متر ، ومنها تستمد الترعة العادية والترعة السنتورية والترعة الفرعونية والترعة السرساوية وكلها من أمهات الترع . قالوا ومن وراء كفر النعناعية يجدد فرع إلى ما وراء القريتين ، وهذه الترع كلها تصير من وراء الغنامية جنابيات للسرساوية فتروى جميع الأطيان الواقعة ما بين السرساوية والفرعونية غربا وما

(٦٠) فاركسور = فارسكور قراءة تصحيحية .

(٦١) بأنه = بأنهم قراءة تصحيحية .

(٦٢) إحدى = إحدى ترع أضيفت الكلمة ليستقيم المعنى .

بين السرساوية والباجورية شرقا إلى حد الحامول ريا مرتاحا ، وحينئذ يتم تحويل النقطة الواقعة ما بين منوف والقناطر الخيرية إلى رى نيلى مرتاح . وهذا تقرر عمله فى البر الغربى من الرياح المنوفى ، وأما البر الشرقى فقد تقرر له توسيع ترعة راضى وستمد إلى جهة القريتين فتروى جميع الأراضى الواقعة ما بين القريتين والقناطر الخيرية ريا مرتاحا أيضًا على بعد ثلاثين كيلو مترا . وسيبنى على هذه الترع أفمام وقناطر حتى يمكن أصحاب الرى من خفض المياه إلى منسوب الأراضى فى تلك المنطقة ، وعلى هذا تتوفر المياه فى الرياح المنوفى وقت الفيضان . وعلى هذه المشروعات الجسام يكون إصلاح الرى قد تم تماما فى أكثر من نصف إقليم المنوفية ولم يبق على أصحاب الرى إلا إصلاح رى (تلا) وشبين وجزء من أراضى قويسنا . وإلى هذا الحين كان قد تم بناء (قناطر زفتى) . فأعدوا لذلك زينة فاخرة وركب الأمير فى قطاره وفى ركابه جماعة الأمراء والوزراء وقناصل الدول وأصحاب الرى من جماعة الإنجليز وقد ضربوا لهم السرادق أمام تلك القناطر ، فأكلوا وشربوا وفتحوا أبوابها بين عزف الموسيقى وهتاف المدعويين . ثم قفلوا راجعين إلى القاهرة بعد ظهر ذلك اليوم . وكان (أحمد منشاوى باشا) قد أعد لضيافة الأمير فى بلدة (القرشية) زينة فاخرة جدًا ، وقد أبلغ ذلك إلى رجال القصر والتمس أن يقف قطار الأمير على محطة (القرشية) فأجابه الأمير إلى ذلك ، فبالغ الرجل فى مجالى الزينة والإكثار من معدات الأفراح وأعد الذبائح من الجاموس والبقر لإطعام الناس فرحا بمقدم الأمير . وشاع خبر ذلك فى سائر بلاد الغربية فجاءه الفرسان وأصحاب الطبول والزمور من كل ناحية وبلد . وغصت محطة القرشية بالجم الغفير من كل درجة ورتبة . فما هو أن قام الأمير بقطاره من القاهرة حتى جاء رسول الأمير إلى (المنشاوى باشا) يقول أن القطار لا يقف (بالقرشية) لأسباب خصوصية . قالوا وكان لما شاع خبر ما فعله المنشاوى باشا من معالم الزينة والأفراح لمقدم الأمير وسمع به (لورد كرومر) لم يعجبه وأكبره جدا لأنه على ما يقولون يبغض الرجل ولا يريد به فيدا[٦٣] . يقال وكلم الرئيس (مصطفى فهمى باشا) فى ذلك ، وعاب وقوف قطار الأمير بالقرشية . فبرز أمر الأمير بعدم وقوف قطاره ، وأخبروا المنشاوى باشا بذلك فأكبره وأعظمه جدا وأشار إلى قومه بإبطال الزينات وسحق معالمها من (القرشية) حتى (السنطة) وقد كانت

(٦٣) فيدا = خيرا قراءة اجتهادية .

بلغتها . قالوا وكانت من أفخر الزينات وأعظمها نفقة . فراحت أتعاب المنشاوى وأمواله هدرا وعدت هذه الفعلة سيئة من سيئات (لورد كرومر) التى يريد بها نكاية الأمير لما فى نفس كل منهما للآخر .

وكان قد بدأ الحجاج يفدون على ظهور السفن إلى محجر الطور ، فلم يرق نزولهم بالمحجر لدى دولة الروس والغازى مختار باشا لاعتقادهما أن الحج فى هذا العام نظيفا وخال من كل علة ومرض ولذلك لا يصح وضعه تحت الحجر . وسير الغازى مختار باشا كتبه في معنى ذلك إلى قصر الإمارة وديوان الوزارة ، وطلب أن تعطى الجوازات لسائر السفن التى تأتى بالحجاج عملا بحكم قوانين الصحة المصرية . وبينما هم على هذا إذ جاء النبأ من مأمور الحجر بتمردالحجاج وقيامهم على رجال المحجر بالعصى والهراوات وامتناعهم من دخول مكامن التطهير ، ثم تبعه نبأ آخر باشتداد الحال وتفاقم الشر . فجمع الأمير جماعة الوزراء وعقد مجلسه فى القصر وتناجوا طويلا ثم قر قرارهم على تسيير طائفة من الجند إلى الطور ليحافظوا على الأمن والسكينة وإكراه الحجاج على الطاعة . وفي هذه الأثناء دخلت سفينة إنجليزية قادمة من (جدة) وعليها سبعمائة خمسة وثلاثين حاجا تركيا وجهتها (أزمير) ودار السلطنة . فقال طبيبها أنه حدث بها وفاة أثناء الطريق . ودخلت أيضًا الباخرة (عبدالمنعم) المصرية وباخرة أخرى عثمانية وعلى الثانية أربعة وأربعين جنديا وستمئة وعشرة حجاج من الترك ووجهتهم (أزمير) ودار السلطنة أيضًا . فلما أرادوا إنزالهم إلى البر أبوا وامتنعوا في أماكنهم . فأنزلوهم قهرا وساقوهم إلى مكامن التبخير . ومازالوا بهم حتى أزعنوا[٦٤] للتطهير وهم مع ذلاك[٦٥] يصيحون ألا لعنة الله ورسوله على القوم الإنجليز . وظل الحال على هذه الشدة والهرج حتى تم مجيء الحجاج وخرجوا من المحجر ركبا بعد الآخر ، ولم يقع بينهم موت إلا بالأمراض العادية .

(٦٤) أزعنوا = أذعنوا قراءة تصحيحية .

(٦٥) ذلاك = ذلك قراءة تصحيحية .

واتفق أن جلس جماعة من عسكر الإنجليز فى معسكرهم بالجبل الأحمر بالعباسية يأكلون ويشربون ويطربون وهم على أتم ما يكون دواعى[٦٦] السرور . فقام أحدهم وجعل يطلق بعض السهام النارية فى الفضاء ، فما هى ساعة أو بعض ساعة حتى سقطت شرارة على كدس علف الخيل فى ميدان الفرسان فأشعلته وامتدت منه إلى مخازن زيت البترول ومخازن الأثواب ومواقف العربات . وكانت الريح شديدة جدا . فسيروا الخبر إلى أصحاب المطافئ وتكوف الجند حول الحريق وجعلوا يكافحون النار مكافحة شديدة وهى تزداد تأججا وسعيرا ، واندلع لسان اللهب إلى مزاود الخيل وعلقت بها .

حدثنى من كان يكافح النار مع أصحاب المطافى قال كانت المطافئ الضخمة التى تدفع مياهها إلى الحريق ثمانية والصغيرة عشرة وكلها تقذف الماء من كل صوب وناحية والنار تنساب من كل ناحية انسياب الأفعى وتعلق فى ما تمر به حتى دخلت اصطبلات الخيل وعلقت بمزاودها . فهرع الجند إلى فكاك الخيل وإخراجها والخيل تصهل صهيل الإستغاثة من هول ذلك الموقف . واشتدت النيران وأحدقت بالخيل من كل جانب ، وكاد يتعذر على الجند فكاكها . وإذا بنفخات متتابعة من البوق شديدة ، فما سمعها الخيل حتى هاجوا وقطعوا قيودهم فى لحظة وهجموا على نظام غريب واقتحموا الأبواب فى وسط النيران وخرجوا إلى الفضاء بعيدا عن مكان الحريق ووقفوا بنظام أغرب وكأن على ظهورهم الفرسان . فأسرع اليهم الجند وقادوهم إلى ميدان التعليم ولم يلحق بأحدهم ضرر . قال فدهش الناس من فعال الخيل ، وسألت عن معنى نفخ البوق فقيل لى أنها نداء بالهجوم على صفوف العدو فكان ما رأيته . قال وظل القوم يكافحون النار إلى مطلع الفجر فخمدت قليلا . وأصبحوا وهم على هذا حتى غروب الشمس فأتموا إطفائها . فكانت خسارتها فادحة وجرح فيها خمسة من الجند وأصيب أربعة من أصحاب المطافئ بجروح خفيفة ا . هـ .

وباتوا وأصبحوا وقد جاء الصايح إلى أصحاب المطافئ بوقوع الحريق في (سوق الزلط) فأسرعوا إلى تلك الخطة بمعداتهم وآلاتهم ، وكان الحريق قد علق فى بيت رجل

(٦٦) دواعى = من دواعى أضيفت الكلمة ليستقيم المعنى .

يقال له الأوسطى محمد المغربى من سكان تلك الخطة ، وكان الحر شديدا للغاية والريح شرقية نافخة فاشتد اللهيب بسرعة من جهة إلى جهة وعلق الحريق في أكثر البيوت ، وعجز أصحاب المطافئ عن حصر النار فى مكان واحد . وكان سكان تلك البيوت نياما عند القيلولة فهبوا من نومهم مزعورين[٦٧] وجعلوا ينقلون بعض متاعهم ، وظنوا أن النار تمهلهم فانشغلوا بالمتاع عن الفرار . فما هى إلا لحظة حتى علا صياحهم النار النار أنقذونا يا مسلمين . فترامح الناس من كل صوب وناحية وارتفعت أصواتهم بالنداء على أصحاب المطافئ بأن أنجدوا أولئك البؤساء وخلصوهم ، فاقتحم أصحاب المطافى ومعهم جماعة من الشرط النار بقلوب راسخة ونصبوا درج الخلاص وارتقوا إلى غرف تلك البيوت من شبابيكها وجعلوا يحملون النساء والأولاد ويلقونهم فى وسط ذلك الدرج فيتدهورون إلى أسفل فيتلقفهم الواقفون . وهكذا فعلوا بالرجال حتى خلصوهم إلا من خنقه الدخان أو علقت بملابسه النيران فقتلته وكلهم من الرجال . وما كادوا يخلصون من أطفائها حتى جاءهم الصايح فى (حارة العطوف) بوقوع الحريق فيها ، فترامحوا إليها ومعهم بعض المطافئ فوجدوا أن النار قد علقت ببيت عمدا . ذلك أن رجلا من سكان تلك الحارة متزوجا ثلاث نساء أغضب اثنتين منهن وأرضى الثالثة .وكأنه لم يخف إلا يعدل عندما تزوج بالثالثة ، فاتفقت المثنتان[٦٨] على إحراق البيت إضرارا بضرتهما . فأخرجا متاعهما وأشعلا النار فيه ، وما وصل أصحاب المطافئ حتى وجدوه كشعلة واحدة وقد علقت النار بما جواره من البيوت . وكان الصياح شديدا وولولة النساء بالغة فجعلوا يحصرون النار فى مكان واحد ، وظلوا على هذا حينا حتى تمكنوا من أطفائها وخلصت البيوت الأخرى وكانوا لايظنون خلاصها لشدة الريح فى ذلك اليوم .

واهتم ديوان الوزارة بحصر عدد العربان المقيمين بالأقاليم القبلية والبحرية الذين لم يتمكنوا من حصرهم عند عمل تعداد سنة أربع وتسعين وثمنمائة وألف وكأن الحالة كانت داعية إلى ذلك . فبرز الأمر إلى سائر المديرين والمحافظين بأن يكلفوا مشائخ القبائل والفرق بتقديم كشوف بأسماء العربان الذين لم تذكر أسماؤهم فى تعداد عام

(٦٧) مزعورين = مذعورين قراءة تصحيحية .

(٦٨) المثنتان = الاثنتان قراءة ترجيحية .

أربعة وتسعين وأن يشددوا فى ذلك ففعلوا . فخاف العربان وظنوا السوء بأصحاب الحل والعقد وأنهم إنما يريدون بذلك تجنيدهم وتقييد حريتهم بقيود العسكرية وإذهاب امتيازاتهم التي ورثوها من القدم . فسيروا وفدا من شيوخهم إلى دار عميد الإحتلال لورد كرومر . فبسط الوفد احتجاجه إلى اللورد وقال أن إذهاب هذا الامتياز سيئة لهم وشرا كبيرا لأنهم نالوه من السلف الصالح ليستوطنوا البلاد ويعمروا الأراضى فمنهم من مال إلى الإقامة إذ ذاك ومنهم من لم يقبل وظل على بداوته ورحلته . قال الوفد فإذا أخذتم شبانتا للخدمة العسكرية لأنهم قد استوطنوا البلاد وعمروا البور من الأرض زالت كرامتهم وقلت هيبتهم واستضعفهم أهل البداوة ، وليس ذلك فقط بل ربما كان من وراء ذلك أن يعمد أولئك الشبان إلى المهاجرة إلى حيث لاتصل إليهم يد الحكومة . قيل فطيب خواطرهم ووعدهم خيرا . فقفلوا راجعين ولم يقابلوا (الرئيس مصطفى فهمى باشا) ولا غيره من أصحاب الحل والعقد . فأكبر الرئيس الأمر وسير كتبه إلى جماعة المديرين والمحافظين ينهاهم عن الإغضاء عن قيام الوفود والإتيان إلى المقامات العالية بغير إذن من ديوان الوزارة . وكان اللورد قد كلم الرئيس فى أمر أولئك العربان وأشار بالتأنى ومنع العجلة فوقف الأمر عند هذا الحد .

ورأى صاحب السياسة الإنجليزية أنه لأمر لم نصل إلى معرفته أن يقصروا أيام سفر البريد من مملكتهم الهندية إلى ديارهم الإنجليزية أربعة أيام . ذلك أن سفنهم تأتى بالبريد من الهند إلى مدينة السويس ثم ينقل إلى الإسكندرية بطريق السكة الحديد على قطار مخصوص يجتاز الأراضى المصرية تحت قوانين الحجر الصحى . ومن الإسكندرية ينقلونه على سفنهم إلى ديارهم . وجاءت كتبه فى معنى ذلك إلى لورد كرومر ليكلم الحكومة المصرية فى شأنه . فكلم اللورد الرئيس . فجمع الرئيس جماعة الوزراء وتناجوا فى الأمر طويلا ولم يكن الأمير إذ ذاك فى تخت إمارته فقد كان سافر إلى دار السلطنة تبديلا للهواء أو هو ليرفع إلى السلطان فروض الشكر والثناء حيث أهداه قصرا جميلا فى استامبول . وظلوا هم ولورد كرومر بين أخذ ورد أياما تراكمت فيها كتب صاحب سياسة الإنجليز فى شأن ذلك حتى لقد قال فى أحدها إنا إذا لم نوفق إلى طريقة تقصر المسافة بين هندنا ودار سلطنتنا عمدنا إلى تسيير بريدنا فى سكة حديد سيبيريا . فأرسل الرئيس مصطفى فهمى باشا كتابا إلى مجلس الصحة البحرية الذى هو صاحب القول الفصل فى

مثل هذه المشكلات يقول (إن الاتفاق المعقود مع الشركات البحرية لنقل بريد الهند أو استراليا وجهات الشرق (يريد الاتفاق المعقود بين هذه الشركات والدولة الإنجليزية) ـ ينتهي حادى ثلاثين يناير سنة خمس وتسعمائة وألف ، وقد أبلغ لورد كرومر الحكومة المصرية أن حكومة جلالة الملك إدوار(٦٩) السابع تدرس الآن جملة مشاريع لتسيير البريد ، وبينها مشروع تسييره فى الأراضى المصرية كما كان فى العهد السابق . فلهذا تريد حكومة جلالة الملك أن تعرف ما هى التحويطات الصحية التى يتخذها مجلس المحتجرات البحرية عند إنفاذ المشروع فى وقت وجود الأوبئة فى الشرق الأقصى أو فى مصر . ويقول (لورد كرومر) أن هذا الاقتراح لا ينفذ فى حالة من الأحوال إلا إذا قدمت الحكومة المصرية الضمانة على أن يسير القطار المخصوص فى أراضيها ـ يعنى الذى يحمل البريد ـ لا يؤخر فى حال من الأحوال مع وجوده تحت الحجر الصحى . قال الرئيس وبما أن هذه المسألة تتعلق بشئون مجلس الصحة البحرية فالمرجو أن تطلعوا عليها مجلس الصحة بأول فرصة وأن تبعثوا إلى برأيه حتى أتمكن من الجواب السريع على ما جاء فى كتاب لورد كرومر . على أنكم تدركون من غير بيان أهمية هذه المسألة نظرا إلى انتفاع مصر . ولذا فلى الأمل أن المجلس يجد حلا يوفق بين انتفاع مصر وقوانين الصحة ا . هـ .

يقال لما عرض هذا الطلب على أعضاء مجلس المحتجرات قام الأعضاء وقعدوا وصمم بعضهم على منع هذا الأمر بتاتا ، ووافق البعض الآخر على نقل البريد دون المسافرين ، وحجة هذا البعض أن مؤتمر البندقية قضى بأن يصرف كل راكب عشرة أيام كاملة بعد سفره من الميناء الملوثة بالأوباء . وقال المعارضون أنه إذا جاز إعطاء هذا الامتياز إلى أى شركة من الشركات الشرقية حق للحجاج الأجانب أن يطلبوا أن يعاملوا معاملة تلك الشركة يعنى أنهم يركبون القطارات الحديدية تحت الحجر إلى الاسكندرية . وذكروا من الأسباب والموانع غير ذلك كثيرا . وعندى أن نقل البريد والجند فضلا عن المسافرين من السويس إلى الإسكندرية بقطارات السكة الحديد

(٦٩) الملك إدوارد السابع = حكم إنجلترا من ١٩٠١ بعد وفاة والدته الملكة فكتوريا ـ حتى وفاته فى مايو ١٩١٠ ليخلفه چورج الخامس (١٩١٠ - ١٩٣٦) .

- Lexicon Universal Encyclopedia - Vol. 7 - p., 68.

المصرية كان جاريا من عهد الأمير عباس باشا الأول إلى أواسط أيام (الخديوى إسماعيل باشا) ولم يبطل إلا بما أدخلته الشركات الشرقية من النظام فى سير سفنها بين الهند وديار الإنجليز ، وليس هو بالشيء الجديد . على أن فى الأمر مشكلة هى عدم القدرة علي منع الركاب القادمين من الموانى الملوثة من إلقاء شيئا من متاعهم من نوافذ القطارات فضلا عن أن مراحيض القطارات تكون على الدوام مباءة للأمراض . قلت كان هذا السفر قديم العهد ولكن لم يكن الطاعون فى ديار الهند يقتل عند ظهوره عشرين ألفا ويزيد كما هو منذ عام اثنتين وتسعين وثمنمائة وألف حتى اليوم . وطال الأخذ والرد فى حل هذه المشكلة أياما حتى جاء الرد من المجلس الصحى على كتاب الرئيس القاعدة على تبليغ خبر ما جرى كله إلى الدول كافة ليروا فيه . وكان هذا الحادث ختام حوادث سنة ثلاث وتسعين(٧٠) وثمنمائة وألف للميلاد .

(٧٠) ثلاثة وتسعين وثمنمائة = ثلاثة وتسعمائة .

عام ١٩٠٤

الحرب بين روسيا القيصرية واليابان ـ الخلاف بين اللورد كرومر وإلدون جورست المستشار المالى ـ مسألة بيع الرتب والنياشين ـ حملة الصحف الأجنبية على الخديو ـ ظهورالجراد ـ الوفاق الودى الأنجلو ـ فرنسى ـ النزاع بين الحكومة وقاضى القضاة العثمانى ـ افتتاح الخط الحجازى فى دمشق ـ قطع العلاقات بين مصطفى كامل وعباس .

ثم دخلت سنة أربع وتسعمائة وألف للميلاد

افتتحت سنة أربع وتسعمائة وألف للميلاد بيوم الجمعة ثالث عشر شوال سنة إحدى وعشرين وثلثمائة وألف هجرية وحادى عشرى كيهك سنة عشرين وستمائة وألف للشهداء .

فصل
فى ذكر ما وقع فيها من الأحداث

بدأت أيام هذه السنة بغيث مداد بل أمطار شديدة ورياح نافخة من الشمال والشرق جاءت أنباؤها من إقليمى الغربية والبحيرة . قالوا وقد دامت أياما متتابعة حتى غرقت الزروعات وتعطلت الطرق وتهدمت المساكن وتعذر على الناس السعى والحركة . فقالوا عسى الله أن يكون من وراء هذا المطر الكثير الخير والبركة للبلاد وأهلها .

وقدم من سواحل البلاد العربية رجل نمسوى الأصل يقال له الأمير (سليمان انجر) ونزل فى فندق الكونتننتال وكان من أمر هذا الرجل أنه[1] رجل العسكرية العثمانية قبضوا عليه لسبب لم تصل إلينا معرفته ثم أطلقوه فجاء إلى السويس وانحدر إلى القاهرة . وعلم جماعة الإنجليز بمقدمه فأزكوا عليه العيون وقعدوا له بالمراصد ، وكانوا قد قبضوا عليه فى (سواكن) على عهد المهدوية ، فقد كان زار الخليفة التعايشى عام خمسة وتسعين فى أم درمان وقفل راجعا إلى سواكن عام ثمانية[2] . وقد منحه التعايشى لقب أمير واستسلمه وسماه الأمير (سليمان انجر) . وظل الرجل فى مصر أياما شاع فيها أنه قادم من بلاد الصومال بعد أن عقد مع (ملا الصومال) معاهدة تجارية باسم دولة النمسا ، ويقول هو أن الإنجليز لما علموا بخبر ذلك عجلوا بالقضاء على (الملا) والسلطان (إبراهيم) صديقه والشيخ محمود ، ويقول أيضًا أنه قادم ليتوسط بين الإنجليز (والملا المفتون) على يد (لورد كرومر) ومعتمد دولة النمسا . وظل الرجل محجورا عليه حتى تعهد متعهد دولة النمسا إلى لورد كرومر بأنه لا يدع الرجل يذهب من القاهرة إلى أية

(١) أنه رجل = أن رجال قراءة ترجيحية .
(٢) ثمانية = ١٨٩٨م قراءة تصحيحية .

جهة أخرى من البلاد العربية والسودان . فرفع عنه الحجر ولكن عيون أصحاب الشرطة لم تغفل عنه .

وجاءت الأنباء الخصوصية من دار السلطنة العثمانية بأن قد برز أمر السلطان بمنع المسلمات من لبس بعض الأزياء التى تخالف أوامر الدين المحمدى والشريعة الغراء . قالوا لأن (الحَبَرَة) قد تحولت عن شكلها الأول وتغيرت تغييرا فصارت كالرداء المعتاد ، وصارت (الفراجيه) بدون أكمام على شكل غير لائق ، وصار (اليشمك) رقيقا يستشف الناظر إليه ما وراءه من تصفيف الشعر وسواه . قالوا وقد بلغ من تفنن بعض النساء وتبرجهن أنهن يلبسن الآن بدلا من (الفراجية) جاكته ذات أكمام ، وهذه الجاكتة تقرب بشكلها من زى ضباط الجندية الشاهانية ، وغير ذلك أن بعض البنات يبلغن العمر الذى فيه عليهن التحجب ومع ذلك يمشين مكشوفات الوجوه ، ويلبسن لباسا غير لائق . فالإرادة السلطانية تقضى بمنع ذلك منعا باتا وكل امرأة تخالف يعاقب ذووها وأصحاب الأمر عليها معاقبة رادعة . ا . هـ .

فلما تفشى خبر ذلك بين أهل القاهرة ومصر أُلِفَت نظر النساء والبنات منهن إلى تلك الأزياء التى نهوا عن لبسها نساء دار السلطنة . فأقبلن على لبسها معجبين بها وزدن عليها شيئا من الزى الفرنجى بأن ضيقوا كل منفرج من (الحبر) حتى صار ينم عما هو داخله عضوا عضوا ولبسن اليشمك غاية من الرقة حتى ظهرت الوجوه على ما بها من الطلاء ، وتمنطقن بمناطق الذهب والفضة على (الحبر) باديات الخصور كأنهم[٣] فى ردحات[٤] القصور لا بين الغازى[٥] والرائح من العامة وغيرهم . وبالجملة فقد كان نهى السلطان لنساء الأستانة إباحة مطلقة لأوانس الكنانة وهن على هذا ويزيد ومن يعش يرى .

وقامت الحرب فى هذه الأيام بين دولة الروس العظيمة ودولة اليابان الشابة القوية فى الشرق البعيد لأسباب اقتصادية وسياسية لا محل لها هنا . فاختلط الأمر على رجال الحكومة المصرية وجاءت كتب صاحب سياسية الإنجليز إلى ديوان الوزارة فى معنى (حياد قناة السويس) وما يلزم على الحكومة إتخاذه من الحيطة ما دامت تلك الحرب

(٣) كأنهم = كأنهن قراءة تصحيحية .
(٤) ردحات = ردهات قراءة ترجيحية .
(٥) الغازى = الغادى قراءة ترجيحية .

قائمة . وكثر لذلك اجتماع جماعة الوزراء وبينهم رجال القوانين وأهل الشرائع يتناجون فى حفظ سلامة القناة ومجاملة المتحاربين . وبعد أخذ ورد تقرر نهائيا على أن يسمحوا للبواخر التي تنقل الفحم باجتياز القناة سواء كانت وجهتها بلاد اليابان أو بلاد الروس . وكانت دولة الروس قد أدعت قبل هذا القرار بأنها صاحبة حق فى القناة لأن لديها كثيرا من الأسهم وأن مرور مركبا أو اثنتين أو مراكبها كلها لا يضر بالمساهمين . وعندي أن الاتفاق المبرم بين الدول فى سابع عشرى نوفمبر عام ثمانية وثمانين وثمنمائة وألف جاء فيه أن القناة على الحياد التام ولو كانت الحرب بين الدولة العثمانية صاحبة السيادة وبين دولة أخرى ، ولحكومة مصر أن تحافظ على هذا الحياد ، فإذا كانت عاجزه كان حق المحافظة عليه للدولة العلية العثمانية بحق السيادة العلية على مصر وأملاكها . ا . هـ .

وقال وكيل صاحب السياسة الإنجليزية أن الحياد المتبع الآن في قناة السويس ينطبق تماما على أحكام معاهدة سنة ثمانية وثمانين ، فرد عليه صاحب السياسة الروسية بأن هذا الحياد لايمكن مراعاته مع وجود الإحتلال الإنجليزى بديار مصر ، لأن الإنجليز إذا احتاجوا إلى القناة فإنهم لايلتفتون إلى المعاهدات ويضربون بها عرض الحايط . وكان قد وصل إلى ميناء السويس فى هذه الأثناء بعض السفن التجارية تحمل فحما وموادا مفرقعة من الديناميت وغيره بعضها إلى الروس وبعضها إلى اليابان ، وقد أوقفوها محجورا عليها حتى يتم الاتفاق على ما سيكون من أمر حياد القناة . ووصل السويس نسافات روسيه فدخلت القناة قاصدة بورسعيد ، ووصل أيضًا أسطولا أفريقيا إلى السويس وعليه كثير من اليابانيين الذين يدعون الجنسية الأفريقية . وأصبحوا وقد جاءت بقية سفن الأسطول الروسى ، فقضى اليوم بالسويس ولم ينزل أحد من جنده إلى البر سوى بعض الضباط الكبار ، ودخل فى ثانى يوم القناة قاصدا بورسعيد فلما بلغها أخذ ما شاء من الفحم وخرج يريد ثغر بيزرت[٦] فى تونس . وانقضت هذه المشكلة بسلام بعد أن كاد يعظم أمرها بين مصر والدولة الروسية بتحرش صاحب سياسة الإنجليز .

وكان قد اشتد الجفاء بين (السير غورست) مستشار وزارة الخزينة الإنجليزى ولورد (كرومر) عميد الاحتلال إلى درجة أوجبت المهاترة وسوء الظن ، وجعل كل من الإثنين يعمل على إذلال الآخر وسقوطه لأمور لايعلمها إلى[٧] المقربين من المقامات العالية .

(٦) بيزرت = بنزرت قراءة تصحيحية .
(٧) إلى = إلا قراءة تصحيحية .

وكان السير غورست شديد الأنانية معجبا مختالا فخورا على لورد كرومر ، فاتخذ له من أصحاب صحفهم عونا على التشهير بأعمال اللورد وتقبيح سياسته فى ديار مصر ، وانضم إليهم فى ذلك جماعة من أصحاب الأموال من الروم فى الإسكندرية ، وجماعة من أصحاب الصحف الأجنبية ، فكانوا يدا واحدة على إيذاء الرجل وشهرته ومنصبه بكل ما وصلت إليه قدرتهم . وظلوا على هذا حينا حتى خيل للناس أنه معزول لامحالة وأن غورست سيخلفه فى ذلك المسند الرفيع . وكان الأمير ينظر إلى ذلك من وراء الستار ، قالوا وهو راض عن استفحال الغضب . وانقسمت الأغراض بين رجال الحل والعقد فى ديار الإنجليز ، ففريق كان يشد أزر اللورد على خصمه ويغضب لشأنه وفريق كان يعيب عليه عمله ويقوم بنصرة خصمه ولكل من الفريقين حجة . وعندى أن (غورست) ذلك ليس بالرجل الخادم ولا هو مستبصر فى الأمور ولا هو من الدربة المكافئة لأهل الوقت فى شيء ، وليس له فى عمل الدولة ولا فى ما تولاه من الخطط والمناصب العالية شأنا كبيرا وكم ما أزرى[8] به الغلط فى عظائم الأمور إلا أنه كان مرموقا بعين الأمير وله أنصار كبار من خصوم اللورد كرومر يشيدون بذكره ويسبحون بحمده للتلبيس ، فكان لذلك اتفاقهما ممتنع ، حتى لقد خافه اللورد كرومر على أمره . يقال وأكثر من الدسيسة عليه وما زال حتى تم له ما أراد من الظفر به والغلبة على أنصاره . وما هى إلا أيام بعذلك حتى جاء الأمر إلى (غورست) بمبارحة مصر إلى عاصمة الإنجليز ، وأنهم قد ولوه منصبا سياسيا هناك وأدخلوه فى مصاف أهل السياسة حتى إذا ما استحكمت فيه الصبغة السياسية ولوه منصبا ساميا فى أحد الجهات . فسافر وقد ودعه كثير من موظفى الحكومة وأصحاب المناصب العالية وعلية القوم من الإنجليز نساء ورجالا وبينهم لورد كرومر .

وجاء الخبر من الخرطوم بقيام (الكولونيل جورنج) أحد الضباط من جماعة الإنجليز على راس أرجانه[9] فقاتل إلى بلاد نيرون أحد بلاد السودان الأعلا لمطاردة الشقى (إبراهيم ولد محمود) الذى خرج على الحكومة وجعل يعيث فى البلاد ويفسد فى الأرض . فسار بعسكره ومعه مدفعين مكسيم وكوكبة من الفرسان ومايتين مقاتل من

(٨) اذرى = أودى قراءة اجتهادية .
(٩) أرجانه = رجاله قراءة اجتهادية .

المتطوعين والمرتزقة لمطاردته عند حدود الحبشة حيث أكثر من خطف الأولاد وسبى النساء وسلب الأموال والمقتنيات . وكان كلما طاردته الجيوش الحبشية أو العساكر السودانية لاذ بالفرار إلى الصحراء وبلاد الحكومة الأخرى . فلما اتفقت المملكة الحبشية والإمارة المصرية على تحديد التخوم بين السلطنتين وقع مقرر[١٠] ذلك الخازجى[١١] فى جيل[١٢] جمروك ضمن التخوم السودانية . وسير إليه حاكم السودان يدعوه إلى الطاعة والعدول عن مسلكه هذا فأبى وأصر على عصيانه واعتصم فى جيل[١٣] جمروك فى حصن له وقد عبأه بالمقاتلة والعبيد والإماء ، وأنزل به نسائه وسراريه . وسير (الكولونيل جورنج) إلى نجاشى الحبشة يسأله تجهيز جنده لمشاركة العساكر السودانية على مطاردة ذلك الخازجى[١٤] والقبض عليه . ولبث الكولونيل ينتظر الجواب ثم زحف بعسكره إلى جبل جمروك وجعل يقاتل الخازجى[١٥] فقاتله الرجل قتالا عنيفا وقاومه مقاومة شديدة . وطالت أيام القتال حتى هزمه العسكر من الحصن وأسروا بعض أتباعه ونساءه وسراريه وهرب الخازجى[١٦] إلى حدود الحبشة فخرجت الجنود تطارده ، ومازالوا حتى قبضوا عليه وساقوه مكبلا بالحديد إلى الخرطوم . فاطمأنت بحبسه القلوب وزال الخوف عن أهل ذلك الصقع البعيد وقد كانوا فى شدة بالغة من فعال الرجل وشدة جبروته .

وهب فى هذه الآونة أصحاب الصحف الأجنبية يرمون رجال القصر بالتهم الشائنة والأعمال المعيبة . وكان أول من ضرب بسهم فى هذا النغم (صحيفة البروغريه) . فقد حملت على رجال القصر حملة شعواء بسبب الاحتفاء الذى جرى بالكاتبة الفرنسية الشهيرة المسماه (ما دام جوليت آدم) . انتهت من هذه الحملة إلى قولها أن قصر الإمارة جدير بلفتة من جانب (لورد كرومر) ليصلح شأنه ويقوم ما أعوج فيه ، وجرت على أثرها صحيفة (الإيجيبت) فقالت كلاما أمَرّ . ثم عادت (البروغريه) فتكلمت عن إعطاء الرتب

---

(١٠) مقرر = مقر قراءة اجتهادية .
(١١) الخازجى = الخارجى قراءة اجتهادية .
(١٢) جيل = جبل قراءة ترجيحية .
(١٣) جيل = جبل قراءة ترجيحية .
(١٤) الخازجى = الخارجى قراءة اجتهادية .
(١٥) الخازجى = الخارجى قراءة اجتهادية .
(١٦) الخازجى = الخارجى قراءة اجتهادية .

والنياشين وقالت أنها تباع بيعا ، وهكذا صحيفة (الإيجبت) . وقالت (الأمبار سيالة) أن العمال[١٧] الذين عزلوا[١٨] من خدمة الحكومة لإعوجاج سيره وسوء تصرفه نال رتبة دفع ثمنها ثمانين[١٩] جنيها ، وأن هذا الحادث أصبح موضع اهتمام أولى الحل والعقد ورجال القصر . قالوا لأن إعطاء رتبة أو نشانا لشخص تسقطه الحكومة دليل على مخالفة الأمير لرأى وزرائه . قالوا وأن دفع ثمن الرتبة أمر يعد من الأهمية بمكان عظيم . وبات الناس ولا حديث لهم بغير ذلك سواء فى الأندية والمجتمعات وفى الدور والمنازل . قلت : وحديث الرتب والنياشين حديث قديم العهد وللناس أحكام فيه ، قد تكلمنا عنها فى ما سبق من كتابنا هذا . ولم تنفرج هذه الأزمة إلا بعد أن برز الأمر بعزل نفر من رجال القصر فأقصوهم وعادت الأمور ساكنة . وتقرر إنفاذ الأمر القاضى بحفظ الحق لمجلس الوزراء بالموافقة على كل رتبة ونيشان وعلى ترشيح الأشخاص لنيل هذه الإنعامات دون سواه .

واتفق فى خامس فبراير من السنة أن خرج المستشار المالى وقرينته مع قائد جيش الاحتلال للنزهة فى أرباض الجيزة . فلما بلغوا (زنين) نزلوا من العربة وجعلوا يتمشون ناحية (زنين) . وكان غلمة من البلد يلعبون خارجها ، فلما نظروا المستشار ومن معه مقبلين ترامحوا نحوهم وجعلوا يصيحون (بقشيش يا خواجة بقشيش) على عادة أبناء الفلاحين عند رؤيتهم أحد الأجانب ، وكان المستشار فى شاغل عن الغلمة بالحديث مع قائد جيش الاحتلال فلم يلتفتوا إلى نداء أولئك الصبيان . فدنا الصبيان منهم وجعلوا يخاطبونهم بفحش القول ويسبونهم سبا قبيحا ، فانتهرهم المستشار ورفع عصاه تهديدا لهم فتراجعوا إلى البلد وجعلوا يرشقون المستشار وقائد الاحتلال بالأحجار ويصيحون بكلمات بذيئة فاحشة ، فتركوهم وركبوا عربتهم ومروا بقراقول الجيزة وأخبروه بخبر أولئك الغلمة . قيل وكان مع أولئك نفر من أهل البلد وكأنهم استحسنوا ما وقع فلم ينهوا الغلمة ولم يردوهم . وقام جماعة من الشرطة عند العشاء الأول فطوقوا (زنين) . وأصبحوا وقد جمعوا من فيها من الرجال والصبيان وساقوهم إلى المخفر وجعلوا يستنطقونهم حتى ظهر لهم المذنب من البرىء . فأطلقوا سراح البرىء وألقوا المذنبين فى الحبوس . وكان لما

---

(١٧) العمال الذين = العامل الذى قراءة اجتهادية .
(١٨) عزلوا = عزل قراءة اجتهادية .
(١٩) ثمانين = ثمانون قراءة تصحيحية .

شاع خبر ذلك فى غروب ذلك اليوم وتناقلته الأندية العالية والمجالس العامة أخذت الناس الطيرة وظنوا أن هذا الحادث من الحوادث الجسام التى يتوقعها خصوم البلاد الذين لايريدون بها إلا الشر ووقوع البلاء . وأتم صاحب الشرطة عمله وسلم المجرمين إلى المحكمة فحكمت عليهم بما يستحقونه وأصبح الحادث فى خبر كان . وقد كنا نرى الناس فى تلك الليلة إذا التقى أحدهم بالآخر قال له أعرفت ما حدث لقائد جيش الاحتلال ثم يقص عليه قصة طويلة عريضة لا يسع سامعها إلا أن يقول قتل قائد جيش الإحتلال؟ وهدر دمه أهل (زنين) ، وعندى أنه من الحزق[٢٠] فى المحافظة على الأمن العام ترك سكان الضاحية عاكفون على ما تعودوه منذ القدم من بغض الأجانب والسخرية بهم ومناداتهم بفحش القول ، ولاسيما قرى الجيزة التى صارت المنتزه الأكبر لسكان القاهرة ، وهم يؤمونها فى الليل والنهار بخيولهم وعرباتهم وسياراتهم رجالا ونساء وأطفالا ، فإذا استسهل أولئك القوم إهانةِ الناس كانت العاقبة شرا . ولقد طالما جر مثل هذا الحادث من الجهلاء المصاعب والمتاعب على أصحاب الحل والعقد ومناهم بالضجر والملل وكان من أسود ما تلطخت به سمعة البلاد وأهلها .

وجاء الخبر من محافظ مدينة الإسماعيلية فى سادس أبريل إلى ديوان الوزارة بظهور الجراد بكثرة فى ضاحية المدينة وذلك بعد هبوب ريح شرقية ظلت تنفخ أياما متتابعة فاض فيها البحر المالح على أسكلة البضائع فجرف شيئا كثيرا من البضائع وأغرق بعض الزوارق بمشحونها وقلع كثيرا من الشجر . وأصبحوا وقد عم الجراد سائر الحقول والمزارع وركب أعالى النخل وأسطحة البيوت بكثرة بالغة . فخاف الناس خوفا كبيرا وخرجوا فى طبول وزمور وصياح وجلبة وجعلوا يطوفون الحقول والمزارع وهم يطاردون ذلك العدو . وكان بعضهم يضربون على أوانى نحاسية ضربا مزعجا ويصيحون (بيا لطيف) . وقضوا يومهم ذلك على هذا والجراد يصعد فيخفى نور الشمس ويهبط فيغشى الأشجار والمزارع والفضاء ، وكان لأكله الزرع صوت كدوى الرحى . ولما أقبل الليل خرج الناس بالمشاعل والفوانيس إلى المزارع فلم يجد عملهم هذا نفعا . وأصبحوا وقد اشتد الحرشدة عظيمة . وما أقبلت الهاجرة حتى هم الجراد كله بالرحيل شرقا فحجب عن المدينة وضواحيها

(٢٠) الحزق = الخرق قراءة اجتهادية .

ضوء الشـمس . وظل فى طريقـه سـحـابة اليـوم وطرف من الليل . وأصـبـحـوا ولا أثر له فاطمأنت القلوب وارتاحت الخواطر .

وما هو أن جاء الخبر بزواله من الإسماعيلية حتى جاء الخبر بظهوره فى (الدر) إحدى بلاد إقليم أصوان ولكنه لم يلبث إلا يوما واحدا ورحل إلى الجبل الشرقى .

وكان إلى هذا الحين مازالت المشادة والمعاكسة واقعة بين دولة الفرنسيس ودولة الإنجليز فى سائر أمور مصر السياسية والإدارية والاقتصادية . وكان إذا شاء صاحب سياسة الإنجليز إنفاذ غرض من أغراضه فى مصر قام صاحب السياسة الفرنسيس فى وجهه وسد عليه طرق الوصول إليه ، وظهرت جلبة أصحاب صحف الفرنسيس تبدى وتعيد وتملأ صفحاتها بالوعد والوعيد ، وهذا شأن الدولتين منذ سبب[٢١] غلطات الرئيس مصطفى رياض باشا فى الثورة العرابية ، وكان من ورائها دخول الجيوش الإنجليزية ديار مصر . فلما كان ثامن أبريل من السنة جاء الخبر إلى (بطرس باشا غالى) وزير الخارجية بأن قد وقع الاتفاق بين الدولتين على أن الحالة السياسية فى مصر تبقى كما هى بدون تغيير ، وأن الإنجليز يعترفون للفرنسيس بأن لهم الحق بالمحافظة على الأمن فى المغرب الأقصى ، وفى مقابلة ذلك يمتنع الفرنسيس من عرقلة عمل الإنجليز فى ديار مصر والإقلاع عن المشادة والمعاكسة بين الدولتين . قلت وما دامت الحال السياسية لا تتغير كما يقولون فلم يبقى إلا المسألة الإدارية وعلاقة جماعة الفرنسيس بهذه المسألة لا تتعدى أموال (صندوق الدين) التى يطلبها جماعة الإنجليز لتوسيع نطاق الرى ولا يعطيها الفرنسيس بغير مقابل . وقد فسروا ذلك بقولهم أن صندوق الدين يبقى على شأنه ولكنه لا يأخذ من الأموال التى يجمعها غير ما يلزمه لاستهلاك الديون وفوايدها . يعنى أن الزائد الذى يبلغ ستة آلاف ألف ، والزائد الذى يكون فى المستقبل تأخذه الحكومة المصرية ولا يخزن فى صندوق الدين مال بلا نفع سوى فائدته القليلة . وقد تعهدت الدولة الإنجليزية بالتصديق على حياد قناة السويس والقناة فى يد الفرنسيس ، وعلى معاهدة عام تسع وثمانين وثمنمائة وألف المبرمة فى شأن تلك القناة ، وعلى أن تظل المدارس الفرنساوية بديار مصر على شأنها وتبقى مصلحة الآثار والعاديات فى يد

(٢١) سبب = تسببت قراءة اجتهادية .

الموظفين الفرنسيس ، وتحويل الـ و سن[٢٢] التى يحل أجلها فى العام المقبل إلى أمد بعيد . وتبقى الأعمال الكبيرة فى يد أصحاب المناصب من المصريين ، وعلى أن المعاهدة التجارية تبقى على شأنها أيضًا مدة الثلاثين سنة المتفق عليها . أقول وعلى هذا يكون جماعة الإنجليز قد ربحوا المال المتوفر فى صندوق الدين والفرنسيس ربحوا حياد قناة السويس وإطلاق أيديهم فى المغرب الأقصى[٢٣] .

وكان فريق من المصريين الذين يبغضون الإحتلال لسبب أو لغير سبب وأهل المابين الهمايونى يظنون أن بقاء المشادة والمعاكسة بين الدولتين يفضيان إلى دحر الإنجليز وفشلهم فى إدارة البلاد فيرحلون إما طوعا أو إكراها . فلما تم هذا الاتفاق على ما ذكر ساءهم وقوعه ، وقام أصحاب صحف دار السلطنة يقبحون هذا العمل ويعدونه حيفا وحطا من سيادة الباب العالى وخرقا فى حقوق الدول الكبرى الكاملة[٢٤] سلامة نظام صندوق الدين وغير ذلك كثير . وبرز الأمر إلى أعضاء صندوق الدين بترتيب العمل الذى يسدون[٢٥] بموجبه بعد وقوع ذلك الاتفاق . أقول فانطلقت يد الإنجليز فيما توفر من المال بصندوق الدين وهم أصحاب الرى بإنجاز مشروعاتهم الجسام من حفر الترع وتمديد المواصلات وعمل الجسور وإنشاء القناطر وإحداث السدود وكلما[٢٦] من شأنه توسيع نطاق الرى والانتفاع بمياه معابر النيل . فكان هذا الاتفاق حسنة من حسنات سياسة الفرنسيس على ديار مصر ونعمة لايعادلها إلا عمل خزانات أصوان . أخبرنى من

---

(٢٢) الـ و سن = الديون قراءة ترجيحية .

(٢٣) يتحدث المؤلف عن (لوفاق الودى Entente Cordiale الذى وقع بين بريطانيا وفرنسا فى أبريل ١٩٠٤ والذى أنهى تلك السلسلة من الصراعات حول استعمار أفريقيا . كانت بريطانيا قد فقدت الأمل فى تحالف مع ألمانيا التى كانت تبنى قوتها كمنافسة لقوة بريطانيا البحرية ، وكانت باقى القوى الكبرى (فرنسا - روسيا)قد دخلت في سلسلة من الاتفاقات من أجل الحفاظ على التوازن الدولى الذى كان قد بدأ مع فترة مستشارية (بسمارك) مهندس الأحلاف الأوربية . فى النهاية لم تجد بريطانيا مفرا من الدخول مع فرنسا فى اتفاق ودى ينهى نزاعاتهما ويوحدهما معا ضد الأخطار المحتملة والتى تحققت بالفعل فى الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) .

- Henry Kissinger (Diplomacy)- simon & Schuster - 1994 - USA- pp., 181, 186, 188, 189, 190, 191.

- Lexicon Universal Encycopedia - Vol. 19 - p., 302.

(٢٤) الكاملة = الكافلة قراءة ترجيحية .

(٢٥) يسدون = يسيرون قراءة ترجيحية .

(٢٦) وكلما = وكل ما قراءة ترجيحية .

أطلع على هذا الاتفاق من رجال الخزينة وصندوق الدين أنهما لم يضعا الإتفاق فى شكل معاهدة بل فى شكل إعلان ، لأن موقف مصر السياسى لايخول لإحدى الدولتين وضع اتفاقهما فى شكل معاهدة رسمية بأحكام مقررة نصا . قال ومما جاء فى ذلك الاتفاق أن الفرنسيس قد تركوا الإنجليز يتصرفون فى ديار مصر على ما فيه المصلحة ، وأنهم لايطلبون جلاءها ولاتحديد موعد للجلاء أو بوجه آخر من وجوه المناقضة ، وحفظوا لنفسهم ساير الإمتيازات التي لهم فى مصر وحق التداخل فى كل تعديل يرى الإنجليز عمله فى حالة المالية المصرية بعد التعديل الجديد الذى نزع من صندوق الدين المراقبة على مالية البلاد وحصر تلك المالية فى يد الحكومة المصرية أو السلطة الإنجليزية . قال مخبرى ومعنى ما تم الاتفاق عليه بين الدولتين هو أن يكون شرق أفريقية للإنجليز بلا معارض مع إحترام حياد قناة السويس ، وأن يكون للفرنسيس غرب أفريقيا بلا معارض مع ترك جبل طارق أمينا بيد الإنجليز . قال مخبرى وإنى أرى ما تراه أنت من أن هذا الاتفاق هو أعظم عمل سياسى افتتح به القرن العشرون لأنه لم يبق بين الفرنسيس والإنجليز خلاف على شىء فى بقعة من بقاع الأرض بعد ما شبحوا[٢٧] الإثنين من الأملاك التى دخلت تحت يدهما ولم يبق من أرض معدة للاستعمار يتسابقان فيها سوى الأملاك التي لم يحن فى عرف أصحاب سياسات الدول اقتسامها . ولقد كان (بسمارك) داهية السياسة يقول أن مصر عصا بيدى أفرق بها بين الإنجليز والفرنسيس ، وتونس عصا أفرق بها بين الفرنسيس والإيطاليان . قلت أى نعم وهذا ما اتخذه أصحاب صحف الألمان عدة لتغيير الروس من حلفاهم الفرنسيس ولكنى على ضعف منى فى معرفة أساليب سياسات الدول لهذا العهد ، أرى أن تحالف الروس والفرنسيس وطيد الدعامة قوى البنيان . فإذا أخلص الإنجليز النية فى سياستهم كان من المحتمل إذا لم أقل بل الأرجح انضمام الروس معهما قلبا وقالبا . فقال وهذا ما يراه أصحاب النظر البعيد فى مستقبل الأيام . ا . هـ .

وعاد الجراد فظهر فى عشرة أبريل من السنة فى مركزى الجيزة وإمبابة ووضع بيضه فى أراضى (أبى النمرس) و(كرداسة) . وجاء الخبر بذلك إلى ديوان الوزارة فاهتم له

(٢٧) شبحوا = شبع قراءة اجتهادية .

أصحاب الحل والعقد اهتماما كبيرا . وبرز الأمر بتسخير أهل البلاد فى جمع البيض قبل أن يفرخ ،وخرج المأمورون وأصحاب الوظائف يسوقون الناس إلى العمل ويشددون فى ذلك تشديدا . وطاف مدير الجيزة فى تلك الأطراف يستنفر الأهالى على الخروج ومعاونة جيرانهم ، فخرجوا فى عدد عظيم وجعلوا يلتقطون البيض بعناية وصبر عظيمين ، وقد أدركوا أن قتل البيض قبل فقسه أسهل من مكافحته طايرا ، وأن الجراد عدو لكل مزارع فبالغوا فى تنقيته وجمعه .

وقد اتخذ جماعة المضاربين والربويين ظهور الجراد فى البلاد حجة على قلة الموسم وأشاعوا خبر ذلك فنقله أصحاب الصحف وبالغوا فى التعقيب عليه . فبرز الأمر من ديوان الوزارة إلى أصحاب تلك الصحف بتسكين الخواطر والتفاؤل بالخير وأن البحث الذى تولاه أصحاب المناصب والمأمورين عن مكامن ذلك الجراد انتهى إلى اكتشاف كثير من مبايض الجراد ليس فى أقليم الجيزة فقط بل فى إقليمى الشرقية والقليوبية وأكثرها فى مزارع البرسيم القريبة من الأراضى السباخ حيث حصد الزرع . قالوا وجد البيض فى زراعة القطن أيضًا ولذلك ومنعا من تفاقم الضرر برز الأمر بحرث سائر الأراضى التى وضع الجراد بيضه فيها وأن تعطى مكافأة لمن يأتى بأقة من البيض قدرها قرشا صاغا وأن يعطى جنيها لمن يرشد المأمورين على محل وجود الجراد . وبرز الأمر إلى معلمى مدرسة الزراعة وتلامذتها[28] إلى الجهات التى ظهر بها الجراد للمساعدة ودرس أطواره . قلت وكانت الحالة شديدة والخطر عظيم والجراد ينتشر فى القاصية من كل بلد والناس يكافحونه بلا توانى ولا امهال . وظلوا على هذا أياما كثيرة والناس كلهم فى خوف ما عليه من مزيد حتى تأذن الله بخروج ريح شمالية نافخة فأبادت الطائر منه واكتسحته إلى الجبل الغربى فلم يبق إلا بيضه وخف على العمال يومئذ إبادته أيضًا ، وكفى الله الخلق شر القتال .

وجاء الخبر إلى ديوان الوزارة بوقوع القتال بين قبيلتى العلويان الذين هم (أولاد على) (والهمدان) أولاد همد (محمد) ، والقبيلتان من أصل واحد يعرف (بالمراداب) يعنى أولاد مراد وجميعهم من قبائل النوبة . وتحرير خبر ذلك أنه يوجد فى قبيلة (الهمداب)

---

(٢٨) وتلامذتها = وتلامذتها بالذهاب أضيفت الكلمة ليستقيم السياق .

رجل يقال له عبدالرحيم محمد عظيم بين قومه متبوع الرأى ، قد ابتنى له دارا حسنة حسبما تقتضيه شهرته . فحسداه على ذلك (أحمد عبده حسين) وولده (محمد) وهما كبار قبيلة العلويان الذين هم (أولاد على) وسيروا إليه من ينهاه عن الخروج عن حده وأن يترك بناء تلك الدار لأنهما لا يقدران على بناء دار لهما فى وسط بيوت قبيلتهما . فرد عليهما ردا غليظا وسير إليهما من يقبح عملهما ويحزرهما[٢٩] عاقبة غرورهما . فناديا فى قومهما بالخروج فخرجوا يحملون الهراوى والفؤوس والنبابيت ، وساروا لقتال (عبدالرحيم) ومن معه (وعبدالرحيم) لايظن مجيئهم ولا الإقدام على مقاتلته . وجاء الصايح بوصول القوم فخرج مسرعا ومعه من خرج من قبيلته ، فلاقاه (أحمد عبده) وولده وضرباه بفأس على أم رأسه فسقط صريعا . فرجع الصايح إلى البيوت فخرج جميع الرجال والنساء من قبيلة (عبدالرحيم) ووقع الضرب والطعن بين الرجال والنساء واشتد وارتفعت الزغاريت إشارة إلى طلب النجده ، وحمى الوطيس فهدمت المنازل وتكسرت الهراوى على الهراوى ، ولم يفترق العدوان إلا وقد انهكهما القتال . ولم يصل خبر ذلك كله إلى المركز مركز الحكومة إلا بعد ثلاثة أيام مع أن المركز فى (الدر) و(توماس) على الضفة الغربية من النيل . وجاء أصحاب الشرطة إلى مكان الحادثة وقبضوا على أصحاب الفتنة ونقلوا المصابين إلى المستشفى فى حالة تنذر بالخطر . وبرز الأمر بالتشديد على القوم وإيقافهم عند حدهم فإن لهم في كل عام فتنة يلهبون نارها ويطيرون شرارها إلى من يجاورهم من بقية القبائل وهم أصحاب أنفة وكبرياء يثأرون لأنفسهم ولايتركون دم أحدهم يروح هدرا . فزجوا بالمعتدين فى الحبوس وقد حكموا عليهم بالعقوبات الشديدة الرادعة .

وعاد الخوف من ظهور الجراد ثالثة[٣٠] فقد ثبت أن معظم البيض الذى وضعه الجراد بالإقليم شرقا وغربا وجنوبا قد نقف[٣١] وجعل الزاحف يزحف . فبرز الأمر إلى سائر المديرين والمحافظين وجماعة من الإنجليز أصحاب الوظائف بوزارة الداخلية والخزينة والمعارف بدقة العناية والاهتمام بقتل ذلك الزاحف والعمل على إبادته ما استطاعوا إلى

(٢٩) ويحزرهما = ويحذرهما قراءة تصحيحية .
(٣٠) ثالثة = مرة ثالثة أضيف الكلمة ليستقيم السياق .
(٣١) نقف = كسر الهامة عن الدماغ ـ والمعنى عامة (قد فسد) ـ أى أن البيض تلف .
ـ مختار الصحاح ـ مادة (ن ق ف) ـ ص ٢٨٢ .

ذلك سبيلا . وانتشرت الجموع فى الحقول والمزارع في أقاليم الشرقية والغربية والجيزة والبحيرة والفيوم وغيرها يجمعون من البيض ما لم ينقف وقتل الزاحف منه . واشتد المأمورون فى ذلك لشدة عظمته . وكتب الرئيس (مصطفى فهمى) باشا متواصلة[٣٢] إليهم . وفيما هم على هذا إذ وردت الأنباء بأن جيوشا ضخمة للغاية من الجراد الزاحف ظهرت فى الصحراء بين القاهرة والسويس على بعد ستين كيلو مترا من الحيضان ، وفى الجهة الشرقية من القنطرة على طريق العريش ، وأنه يزحف الآن زحفا بطيئا إلى المزارع وأنه لايستطيع الطيران قبل نهاية شهر مايو الجارى . قالوا ويقدر أن يزحف إلى المزارع قبل نهاية هذه المدة قبل طيرانه فيفعل فعله الذريع . وكثرت عناية المأمورين وبالغوا فى الحيطة وسيروا طائفة من جند غفر السواحل إلى التخوم الشرقية من القطر وإلى الصحراء للبحث عن ذلك الزاحف ، وكذلك سيروا جماعة من العربان إلى جوف الجبل الشرقى وجماعة إلى جوف الجبل الغربى لاستكشاف أمره . وترادفت الأنباء بظهور هذا الزاحف فى الضاحية من مدينة (طنطا) وشرق (المرج) (والقناطر الخيرية) وشرق السويس) (وشبرا شهاب) و(ميت كنانة) فى إقليم القليوبية وعزبة (جزيرة دير الجديد الشرقية)فى إقليم (بنى سويف) وفى (الجرابيع) (وجزيرة المنيا) (والقصاص) فى إقليم (المنيا) . وكان ما جمعوه من البيض لغاية أوائل شهر مايو من السنة زهاء ستة وثلاثين ألف أقة .

واشتد الهرج بين أهل البلاد وخرجوا رجالا ونساء وأولادا يكافحون ذلك العدو الشديد ويجمعون من بيضه ويقتلون من الزاحف ما يقدرون عليه والمأمورين والحكام من ورائهم يستنفرونهم ويستنهضون هممهم ويحزرونهم[٣٣] سوء العاقبة أن هم تهاونوا .

وكان قد قدم إلى القاهرة السيد (المنبهى المغربى) وزير (مولاى عبدالعزيز) صاحب (مراكش) فزار البيت الحرام والحرم المدنى ، وقد تصدق هناك على فقراء الحرمين بشىء من المال وعاد فجعل يزور الأضرحة والمساجد وقبور الصالحين . وتصدق على مجاورى رواق المغاربة وغيرهم . وبينما هو على هذا إذ جاءه الأمر من (مولاى عبدالعزيز) بالعودة إلى مراكش ، فأخذ الأهبة لذلك وزار الأمير فى قصره والرئيس مصطفى فهمى باشا

(٣٢) متواصلة = كتبا متواصلة أضيفت الكلمة ليستقيم المعنى .
(٣٣) ويحزرونهم = ويحذرونهم قراءة تصحيحية .

وبعض كبار العلماء وقفل راجعا إلى (مراكش) . وجدير بنا أن نذكر هنا لمحة عن مقام الوزارة فى بلاد المغرب وكيفية تشكيلها . أما الوزراء فى سلطنة مراكش فعددهم تسعة أكبرهم (سى فضول غرنيت) ومن بعده (سى عبدالكريم بن سليمان) وزير الأمور الخارجية (وسى المهدى المنبهى) وزير الحرب والحاج (المهدى لاهلو) وزير الخزينة والحاج (محمد نانوسة) أمين الحسابات (وسى أحمد الركينة) وهو أمين الخرج وحاجب السلطان (وسى المهدى غرنيت) شقيق الوزير الأول وزير الشكوى (وسى إدريس بن يعبش) (قائد المشواد) ، ولايوجد بينهم من هو ارتقى منصب الوزارة بجده وفضله بل هم تولوا المناصب بالإرث واعتلوها بكرامة الأسر . فالوزير الأكبر يقال أنه من أسرة عريقة بالنسب هاجر من غرناطة إلى (فاس) فى القرن السابع عشر وهو ظريف حسن الطلعة ، شاخ وشل جانبه ورقى إلى منصبه بسعى (المنبهى) ليخلص من سلفه وحتى تنطلق يد (المنبهى) فى كل ما يريد ، لأن جماعة الوزراء كانوا يعتبرون (المنبهى) هذا أحط منهم نسبا لا يندلس[٣٤] من أسرة كبيرة غير أن السلطان قربه منه وجعله وزيرا وهو لم يبلغ الثلاثين من عمره . وفى سنة إحدى وتسعمائة وألف ميلادية أوفده إلى عاصمة الإنجليز ، ثم عاد إلى مراكش . وقد تربت فيه ملكة المشاورة مع الفرنسيس وبمشروع جعل المغرب تحت رعاية جميع الدول حتى تخلص من نير الفرنسيس . وكان الرجل سببا فى ميل مولاه (عبدالعزيز) إلى الذوق الفرنجى ، حتى ظهر (أبو حمادة) أحد الزعماء وقاتل (عبدالعزيز) على الملك وتبعه كثيرون فكان من أمره ما كان وفشل (المنبهى) فى مطاردته وإرجاعه إلى الطاعة . فلما عاد إلى (فاس) بالخيبة اتفق جماعة الوزراء على معاكسته فاضطر إلى مهاجرة الأوطان . فما هو أن هاجر حتى فشل (أبو حمادة) وانفضت عنه لمومه . فسير السلطان فى طلبه فعاد وأدناه من مجلسه ثم ولاه منصب الوزارة وهو مقيم على هذا حتى يومنا الذى نحن فيه .

وأنشأت جمعية (العروة الوثقى الإسلامية) مدرسة للصناعة بالأسكندرية واهتمت الجمعية بها اهتماما عظيما للغاية . فلما أتمت معداتها طلبت من قصر الإمارة أن يتنازل الأمير بوضع الحجر الأساسى لبنائها . فأجاب الأمير الطلب وسار بموكبه وحاشيته

---

(٣٤) يندلس = ينحدر قراءة اجتهادية .

وبطانته إلى المكان الذى أعدوه للبناء . وكان الاحتفال شائقا للغاية والمحتفلين كثيرين من الأمراء والوزراء وأهل المناصب وأصحاب الخطط وبينهم (مصطفى رياض باشا) . فقام الأمير يطرى أعضاء الجمعية ويثنى على همتهم وعنايتهم بإنشاء هذا المعهد العلمى . فما هو أن فاه بكلمتين حتى قام (مصطفى رياض)[٣٥] زاهلا مبهوتا وقاطع عليه قوله ووجه كلامه إلى الأمير بهذا الخطاب - (مولاى - أتشرف بأن أقدم لمقامكم السامى بلسان العموم ما أنتم أهل له من واجب الشكر والإمتنان على ما تفضلتم به من تشريفكم هذا الاستقبال تنشيطا وتشجيعا على بث العلوم والمعارف وعلى ما تكرمتم به من المنح الجليلة وبذلتموه من العناية والمساعدة الجليلة على ظهور هذا المشروع من حيز الفكر والتصور إلى عالم الوجود الفعل ، وهذا هو من مقتضى سجاياكم الكريمة التى جبلت على حب فعل الخير لأهالى البلاد التى قلدكم الحق سبحانه وتعالى مقاليدها .

مولاى هذا اليوم يوم عظيم يوم مبارك نحتفل فيه تحت حمايتكم ورعايتكم العلية بوضع أول حجر لأساس مدرسة صناعية أهلية للبلاد فى أشد الاحتياج إليها وقد اتخذت علما لها اسم ذاك الرجل العظيم الذى له المآثر الجليلة على هذه البلاد ألا وهو جدكم (محمد على) .

هذا الأثر الذى هو من جلايل الأعمال التى ستعود بالمنافع العظيمة والفوايد العميمة على هذه البلاد بما ستنشرح له الصدور وترتاح إليه النفوس ويسر له ويهتم به كل غيور محب للخير محب للعلوم والفنون يبقى إن شاء الله تعالى تمثالا وتذكارا حيا باسمكم الشريف ومحاسن عهدكم المنيف على مدى الأزمان والأحقاب .

حق علينا أن نعرف ونعترف بمقدار هؤلاء الرجال الكرماء الذين تبرعوا وجادوا بالأموال ، وبالمثل هؤلاء الرجال الفضلاء أعضاء جمعية العروة الوثقى ورئيسها المقدام الذين قاموا بهذه الأعمال المهمة لخدمة الأمة بإنجاز هذا المشروع الجليل ، ونخص بالذكر أيضًا ما أتاه أعضاء هذه الجمعية من الأعمال المبرورة والمساعى المشكورة من نشر العلوم والتربية بين مواطنيهم بما أحدثوه وشادوه بالثغر من المدارس والمكاتب

(٣٥) زاهلا = ذاهلا قراءة ترجيحية .

العديدة المعدة لتربية الصبيان والبنات التي نراها نمت ونجحت نجاحا تاما فى زمن وجيز .

هذا شاهد عدل بفضل كل من تكرم بالمال وكل من جاد بالأعمال فجزاهم الله عنا خيرا ، وأخص بالذكر أيضًا على الإنفراد أحد أعضاء هذه الجمعية وهو (خليل بك حمادى) رجل الجد والنشاط لما هو قائم به من أعباء أعمال (جمعية الشيالين) وما أدراك ما هى (جمعية الشيالين) . هى جمعية صغيرة الإسم كبيرة المنافع لما تحتويه من المبرات والحسنات وما تأويه من أولاد الفقراء والمساكين الذين تعهدت بتربيتهم وإعالتهم وانتشالهم من وهدة الفقر وظلمة الجهل والشقاء إلى طريق السعادة والهناء . فحق له على ذلك منا خالص الشكر .

وفى هذا المقام يجب علينا الشكر إلى (شيتى بك) مدير عموم الجمارك والثناء عليه بما شمل هذه الجمعية الخيرية من العناية والمساعدة حبا بالإنسانية والمروءة ، والأمل وطيد بأ لا ينقطع هذا العمل المبرور . لايفوتنا ذكر الجميل الذى صدر من كرماء الأوروبيين المستوطنين بيننا وما تبرعوا من المال بسخاء وكرم وجادوا به من الخدم مساعدة لإنجاز هذا المشروع ونذكر لهم ذلك بلسان الشكر والإمتنان . ولا ننسى هذه المنحة على ممر الأيام ، ولا ننسى أيضًا ما كلف نفسه به (جونسون باشا) من الأفعال ابتغاء خدمة الإنسانية والمدنية باكتراثه بالأعمال من أعضاء الجمعية وإرشاده لهم بماله من سعة الاطلاع والإختبار حتى تقررت رسومات بناء هذا المحل وتقرر كل ما يلزم هذا المشروع الذى كان له فيه الحظ الأوفر . فله منا خالص الشكر على هذا الجميل . قال محدثى (إلى هذا[٣٦] كان السكوت سائدا والعيون شاخصة إلى وجه الأمير الذى كانت علامات الضجر والملل والتأذذ[٣٧] بادية عليه) .

قال الخطيب وهو يتمايل يمنة ويسرة وأقول جناب المحتشم (اللورد كرومر) اعتذر اليوم عن الحضور فى هذا المحفل لتغيبه عن مصر . كل يعلم ما له من المقام الأوقع والنفوذ الشامل فى هذه البلاد وبالأخص ما له من اليد الطولى في كل ما له مساس

---

(٣٦) هذا = هنا قراءة ترجيحية .
(٣٧) والتأذذ = والتأفف قراءة اجتهادية

بالمصالح والمنافع العمومية ، فهذه اليد الفعالة قد شملتنا وهى التى كانت لنا معوانا بل متمما ومكملا لهذا المشروع) . فعند ذلك بدت إشارات الاستهجان من كل جانب وكثر انشغال القوم وحركتهم . فقال الخطيب (فحق علينا أن نعترف له هذه المبرة ونقدم لجنابه واجب الشكر) . فعلت بعض الأصوات من كل جانب المكان بهيئته . قال (ونثنى عليه أطيب الثناء ولا نبرح أن نترجاه بأن لايترك هذا المولود وهو فى المهد صبيا بل يراعيه بعين عنايته ويواسيه ويواليه إلي أن يتربى ويبلغ أشده ويصير رجلا قويا يقوم بأود نفسه) . فبعد ذلك ظهر شيء من الجلبة بين الحضور وظهرت علي وجه الأمير علامات الكدر والشديد وحاد بوجهه عن المقام . فالتفت الخطيب وقال (مولاى اسمح لى بأن أتكلم بما يخالج ضميرى - إذا نظرنا وتأملنا الآن إلى مجريات الأحوال وطبقنا ماضيها على حاضرها نجد أن الأحوال والأفكار قد تغيرت كليا واتخذت لها مجرى جديدا نحو التقدم والترقى وبث العلوم والمعارف وانتشارها فى كل بقعة من بقاع البلاد ، وكل ما نراه أمام أعيننا من هذه المشروعات العلمية الأدبية والمؤسسات الخيرية الأهلية تتلو بعضها بعضا لا نشك ولا نرتاب فى أنها أثر من آثار هذ الإنقلاب ، فلا حاجة بنا الآن أن ندخل فى موضوع الشرح والتأويل ولا البحث والتدقيق فى أصل الأمور ومسبباتها بأن نكتفى الآن بأن ننظر بعين البصيرة والإعتبار إلى ما كنا عليه بالأمس وما نحن عليه اليوم) . حركته من[٣٨] كل جانب . قال (ونهنئ أنفسنا ونتهلل بشرا ونسجد لله شكرا على ما وصلنا إليه من التقدم الباهر مستبشرين بما تدلنا عليه قراين الأحوال بمستقبل زاهر ، ولا مشاحة ولاجدال أن الفضل فى هذا كله راجع إلى كبار الأمة وعقلائها وعلمائها وعظمائها الذين هم قادة أفكارها ، فنرجو لهم من الله التوفيق وزيادة الإلتئام والوفاق فى ما بينهم حتى يثابروا ويستمروا على السير فى هذا المجرى الجديد ويصرفوا كل قواهم فى إزالة كلما[٣٩] حدث أمامه ويعيقه من العقبات والموانع ، وبهذه الواسطة لا غير يمكننا أن نحفظ قوامنا فى وسط معترك هذه الحياة الدنيا ونعيش بهناء وسلام) . قال (وفى الختام نبتهل إلى الحق سبحانه وتعالى أن يؤيد عرشكم السامى وأن يزيد فى نفوذه ليكون لنا أبدا ظلا ظليلا إنه سميع مجيب) . ا . هـ .

---

(٣٨) حركته من كل جانب = استبعدت العبارة لعدم أهميتها ولبعدها عن السياق - كما أن استبعادها لايؤثر فى فهم المعنى العام .

(٣٩) كلما = كل ما قراءة تصحيحية .

فلما أتم رياض باشا كلامه هذا بين همس وغمز وتأفف من أطرائه لورد كرومر وإسناد كل عمل جسيم إليه نزلا وقربى ، وقف الأمير وإشارات التأفف بادية على محياه وقال مخاطبا المحتفلين (إننى مسرور غاية السرور بحضور هذا الاحتفال الذي لم أر مثله فى اثنى عشر سنة الماضية وجئت اليوم لوضع الحجر الأساسى فى هذه المدرسة التى سميت باسم جدى مرتاحا فرحا لأننى عالم بتأثيرها النافع وفائدتها العظمى على القطر وأبناءه) . فوقف رياض باشا وقاطع على الأمير ثانية وقال (إنى كنت أريد يا مولاى الإطالة والاطناب فى الثناء عليهم) . فقال الأمير شاخصا أنك لم تترك لى قولا فدعنى أقول شيئا . ثم التفت إلى الحاضرين وقال (أسر بصفة مخصوصة بعمل جمعية العروة الوثقى لأنى ولد(٤٠) فى الاسكندرية ويعجبنى نهضة أهلها هذه النهضة الكبرى وأعد نفسى إسكندرانيا أفرح فرحا خصوصا بكل ما يرقى هذه المدينة ويسعدها .

وأرجو أن تكون جمعية العروة الوثقى مثلا لكل الجمعيات الأخرى وأرى من التلاميذ الجيوش بدل الألوف لتحيا البلاد بهم رجالا . وإننا كما حضرنا وضع الحجر الأساسى نحضر جميعا افتتاح المدرسة ، وأسأل الله أن يكون هذا الاحتفال مقدمة لاحتفالات أخرى من قبيله ، وأن أرى مدائن القطر مقتدية بالأسكندرية فى نهضتها المشكورة) . ا . هـ .

فلما أتم الأمير كلامه جلس لحظة لطيفة ثم قام ووضع الحجر الأول بما أعدوه له من آلة البناء الفضية المموهة بالذهب ، والتفت إلى رئيس الجمعية وأثنى عليها ثناء جميلا ، وسار ركابه إلى قصر الإمارة . أقول وما انفض الزحام حتى هرع المستاءون من خطاب (رياض باشا) إلى مكاتب أصحاب الصحف على اختلافها يشكون مما سمعوه وما رأوه من مقاطعته لكلام الأمير وتزلف إلى اللورد كرومر وإطراءه والثناء عليه ، وسألوهم أن يكتبوا فى ذلك ويعيبوا على الباشا عجلته وتجرده من كل حكمة ولياقة بحضرة الأمير وفى مثل ذلك الموقف الرهيب . وطير بعضهم خبر ذلك إلى أصحاب صحف القاهرة على جناح البرق مقبحين كل قول وكل عمل بدا من الباشا فى ذلك اليوم . فكان لتفشى خبر هذا الحادث رنة دهش واستغراب فى المحافل الخصوصية والأندية العمومية ولا حديث للناس إلا هو .

(٤٠) ولد = ولدت قراءة ترجيحية .

أقول واتفق أن زارنى صديق من رجال القصر فى ذلك اليوم وعلى وجهه دلايل الغيظ فقلت يا عفاك الله ما الذى تشكو منه فقال وهو يتكلف التبسم ليخفى ما به (أو ما كنت اليوم في عداد المدعوين للاحتفال بوضع الحجر الأول لمدرسة محمد على الصناعية؟) قلت بلى قال (أو ما سمعت خطاب الوزير الخطير صاحب الرأى والتدبير وأبى الوطنية والوطنيين رياض باشا) قلت سمعته من أوله إلى آخره وسمعته يقاطع على الأمير كلامه بغير تأمل ولا التفات وكأنه فى منصب الرئاسة يقاطع أحد المديرين أو المحافظين فى كلامه ، وسمعته يبالغ فى إطراء اللورد كرومر إذ وضعه في حضرة أمير البلاد موضع صاحب البلاد وسيدها ومولاها ، ونعته إياه بصاحب المقام الأرفع والنفوذ الشامل وصاحب اليد الفعالة ، حتى ظن الناس جميعا أنه إنما يريد الحط من مقام الأمير وكرسى الإمارة ، وربما أنه لا يريد ذلك ولكن خروجه إلى المغالاة بإطراء عميد الاحتلال أدى إلى ترامى الظنون إلى ذلك المرمى البعيد . قال صاحبى (وانظر كيف أنه تطرق إلى توجيه الرجاء إلى اللورد ليواسى ذلك الطفل فى مهده يعنى المدرسة الصناعية ويواليه أن[٤١] أن يتربى ويبلغ أشده) . قال على أننا علمنا من أصدق المصادر أن اللورد علم بما سيقول الباشا الوطنى في هذه الحفلة فلم يحضرها تعمدا بعد أن تأهب لحضورها لأنه يأبى أن يسمح فى مثل هذا المقام يقال[٤٢] له فى حضرة أمير البلاد أنك صاحب المقام الأرفع . يقولون أن الرجل أشهر ما شهر[٤٣] به مناداته بالوطنية وبث روحها فى صدور أهل الوطن فأين الوطنية من كلامه ، وأين روحها من مغالاته فى التزلف من[٤٤] اللورد ليعيده إلى منصب السياسة فتتردد فى صدره تلك الروح الفاسدة وتلازم منصبه تلك الأنانية التى كانت سببا فى نزول كل هذا البلاء بالبلاد وأهلها وسقوطها تحت هذا الرزء الثقيل . رأى الرجل أن المشاددة في أدوار حياته السياسية ومعاداة عميد الاحتلال بتظاهر الوطنية قد أقعدته فى عقر داره وأبعدته على[٤٥] أبهة الرياسة وجلالة المنصب على ما به من شغف وهوس بعظمة الوزارة ، فعمد إلى الجهر بإطراء عميد الإحتلال والثناء عليه من[٤٦] حضرة مولاة وكأنه يقول للعميد ها قد رجعت وندمت على

(٤١) أن = إلى قراءة اجتهادية .
(٤٢) يقال = أن يقال أضيفت الكلمة ليستقيم السياق .
(٤٣) شهر = اشتهر قراءة ترجيحية .
(٤٤) من = إلى قراءة تصحيحية .
(٤٥) على = عن قراءة تصحيحية .
(٤٦) من = فى قراءة تصحيحية .

مناداتك[٤٧] واعترفت بفضلك فى هذا المحفل الحافل وفضلت مقامك على مقام الإمارة ، فارجعنى إلى منصب الرياسة فأكون لك أطوع من خاتمك وازل[٤٨] من خادمك فتأمل . قال وإنى أقول لك الحق أنى إلى هذا اليوم ما كنت أظن أن تترامى بالرجل وساوس الهمم إلى مرتبة الرئاسة بعد أن أنزل عنها تنزيلا لايرضاه صغير النفس كبير الطمع وبعد أن استحالت بمرور الأيام أحوالها وتسافلت معاليها وانقلبت بها الأمور إلى ما يباين حدودها ويباعدها ، وصارت إلى ما أكثره متعارف لهذا العهد . يأخذ الخلف عن السلف وإلا أبعد عن حظيرة المناصب صاغرا . فقلت ولعلك تقول هذا تخفيضا من شأنه والرجل على ما اشتهر به مجلا لمولاه محبا لوطنه غيورا على الإسلام والمسلمين . يظهر هذا كله فى حديثه مع صنائعه ونقلته أخبار الناس وعورات الهيئة الحاكمة إليه . نعم لا أنكر عليك أنه قد تبدلت أحواله وتغيرت أطواره وزال عنه تلك[٤٩] الوقار وتلك الهيبة التى كانت تعلوه وهو ذلك الشيخ القوى الشديد البأس ، فقد صار كهلا فانيا ضعيف الرأى سهل الاقتياد[٥٠] إلى قول كل ناعق ، ولعله يرى أن فى ذلك غاية الحكمة وسداد الرأى السبيل الذى سيوصله يوما إلى منصب الرئاسة بعد إقصائه عنها قسرا . ولذلك تراه خطيبا فى كل مجتمع ومحدثا فى كل احتفال وقوالا فى كل مجلس ومناديا بالوطنية وهو فى عقر داره . والله سبحانه أعلم بما سيكون من أمره بعد ذلك .

وجاء الخبر من (جيبوتى) إحدى العمالات الحبشية بوصول وفد إسلامى عثمانى على ظهر باخرة فرنسية يريد عاصمة المملكة الحبشية وهو موفد من قبل السلطان (عبدالحميد) إلى الناجوسى . قالوا وقد بلغ (جيبوتى) فى تاسع عشر الشهر أى شهر مايو من السنة . فلما ألقت السفينة مرساها نزل إلى البر (عظم زاده صادق باشا المؤيد) ياور السلطان ومعه جماعة آخرين ، فقابلهم حاكم جيبوتى وركبوا جميعا إلى دار نائب الناجوسى (آتو جوزيف) . فقابلهم النائب بالحفاوة والإكرام ، ولبثوا معا برهة لطيفة وانصرفوا إلى الفندق ، فرد النائب لهم الزيارة وعاد غروب اليوم إلى مقره . وأصبحوا وقد

(٤٧) مناداتك = معاداتك قراءة ترجيحية .
(٤٨) وازل = وأذل قراءة تصحيحية .
(٤٩) تلك = ذلك قراءة تصحيحية .
(٥٠) الإقتياد = الانقياد قراءة تصحيحية .

أخذ رجال الوفد يزورون المشاهد والمساجد وحول البلد . فلما كان صبح الحادى عشرة الشهر ركب الوفد قطارا مخصوصا إلى (دير دراى) ومنها إلى أديس أبابا .

أقول سير السلطان هذا الوفد إلى عاصمة الأحباش ومعه شيئا من الهدايا النفيسة والأعلاق الثمينة إلى الناجوسى والامبراطورة (طاطيو) قصدا توكيد ربط العلايق الودية بين الحبشة ودار السلطنة العثمانية تشبها بملوك الدول الأوروبية التى تسابقت إلى مجاملة الناجوسى والتودد إليه بالهدايا والتحف وتعيين الموظفين من كبار الجند وأصحاب الفنون العالية فى بلاطه . وكان من نال السبق فى هذا المضمار دولة الروس ، فقد سيرت إليه جماعة من مقدمى العسكر وكبار الضباط والأطباء فأنزلهم على الرحب والسعة وأكرم وفادتهم وجعل لهم المقام الأول بين رجال بلاطه وأصحاب الوظائف العالية ، ولعلهم باقون فى دولته إلى يومنا هذا . على أن بقاءهم على هذا لايرضى أصحاب سياسة الإنجليز ولا يطمئن لهم معه خاطر لأنه عقبة فى سبيل نواياهم وما يقصدون فى مستقبل الأيام والمستقبل لله سبحانه وحده .

وحدث أن ديوان الأوقاف العمومية أنشأ لائحة أو قانونا لترتيب المساجد كلها فى الداخل والخارج وهم مديره بتنفيذه وتكلم أصحاب الصحف فى شأنه ومدحوه ، فقام قاضى القضاة وسير رسله إلى الديوان يطلبون أيقاف العمل بتلك اللائحة حتى تعرض عليه ويبدى رأيه فيها ويأذن بتنفيذها إن رأى فى ذلك مصلحة للإسلام والمسلمين ، فرد عليه الديوان بأن الأمر لايحتاج إلى كل هذه العناية وأن تنفيذ اللائحة إنما هو من اختصاص الديوان ولا شأن للقضاء فيه . فرد عليه يقول لابد من إرسالها وأنك إن لم تطع وتزعن(٥١) لأمرنا اتخذت كل الاجراءات الشديدة التي تخولها لنا وظيفتنا وسلطتنا الشرعية التى أقل ما فيها خلعك وتنزيلك عن منصب النظر فى شئون الأوقاف . واشتد الخلاف وكثر الأخذ والرد ، واجتمع جماعة الوزراء وتناجوا فى هذا الأمر كثيرا وسعت الرسل بين أصحاب الحل والعقد وقاضى القضاة لعله يرجع عن تهديده فلم يزد إلا تشددا ووعيدا . ورأى أهل الحل والعقد أن يبسطوا الأمر على أعضاء مجلس الأوقاف الأعلى ليقرر بما فيه ذهاب هذه المحنة ، فلم ير المجلس بدا من رفض طلب قاضى

(٥١) وتزعن = وتذعن   قراءة تصحيحية

القضاة وقال أن الإطلاع على اللائحة والأمر بتنفيذها أو عدم[٥٢] أمر لا يعنيه ولا هو من حدود منصبه في شيء ، وأن ليس فى اللائحة شيء يخالف الشرع بحكم مفتى الديار وأن أمر الإمارة الذى برز عام واحد وتسعين ومائتين وألف هجرى يخول للمجلس الأعلى للأوقاف سن مثل هذه اللوائح . ولهذا فإن المجلس يرفض إرسال اللائحة إلى القاضى ويأمر بإنفاذها كما قررها . وشاع خبر ذلك وتناقله أصحاب الصحف فعابه من به مرض من الحسد حتى لقد أغروا بعض نظار الأوقاف على إقامة دعوى أمام قاضى القضاة على ناظر الأوقاف العمومية بحجة أنه خالف شروط الواقفين . فإذا تم ذلك حكم القاضى بعزله من النظر على الوقف المدعى ناظره ، ويكون حكم العزل بذلك شاملا عزله من النظر العام على الأوقاف . وعلم بخبر ذلك أصحاب الحل والعقد فأكبروه جدا وأرسلوا من يسترجع القاضى عن قصده ويعيده إلى رشده ويذكر له أن الإصرار على هذه المشادة مقضى إلى[٥٣] نزعته منصبه ، وليس إثبات رأيه بالذى يغنى عنه من الله شيئا في دعواه ، وأن المسألة خطيرة وغير ذلك كثيرا ، فلم يعدل ولم يرعو . على أنه ليس في تلك اللائحة إلا كل حكمة وسداد ، فقد قرأتها كلها وإذا بعض ما فيها يشترط أن يكون الإمام والخطيب ممن نالوا شهادة العالمية من الجامع الأزهر لا ممن يكورون العمائم ويوسعون الأكمام ويسبلون الذقون واللحى ورؤوسهم فارغة وصدورهم خلو من كل فضل وأدب ، وأن راتب الإمام الذي كان سبعين قرشا فى الشهر قد أبلغوه إلى سبعمائة قرش . ولما كان لديوان الأوقاف ألف وخمسمائة مسجد فقد قرروا لكل مسجد منها ثلاثة من العلماء يقومون بخدمته وهؤلاء يكونون من علماء الأزهر أو من العلماء تعطى لهم الرواتب العالية ويخدمون بمعارفهم الإسلام والمسلمين ، وسيكون عددهم أربعة آلاف وخمسمائة عالم . قالوا وعلى نظار المساجد الخصوصية أن ينحوا على هذا النحو في أوقافهم الخصوصية أيضًا ، وفى هذا من الفائدة ما فيها فتأمل .

أقول ولم يكن قاضى القضاة يجهل ما وراء هذه الضجة من الخطورة وسوء المصير ، ولكنه ذهب مع الأغراض والحقود وماج منصبه بسماسرة البغى والباطل فصار يقبل من كل قايل ويسمع لكل ناعق . ولم يزل هذا رأيه حتى أشاروا عليه بأن يرفع الأمر إلى مقام

(٥٢) عدم = عدمه قراءة تصحيحية .

(٥٣) مقضى إلى نزعته = مفضى إلى عزله من عدلت العبارة ليستقيم النص قراءة اجتهادية .

الأمير ويقول أن كل ما فى اللائحة مخالف لشروط الواقف كأن يكون بالمسجد الواحد (مبخر وسقاء وكناس) واللائحة جمعت وظائف كثيرة فى شخص واحد وغير ذلك . يقال فرسم الأمير بترجمة شكوى القاضى إلى الإنجليزية وأن ترسل إلى لورد كرومر ليبدى فيها رأيه . فما[٥٤] وصلت الشكوى إلى دار العميد حتى أرجعت وقائل يقول إن الوقت قد انقضى وأن اللورد لا يقدر الآن على درس شكوى القاضى ولائحة ديوان الأوقاف وأنه يطلب المهلة إلى ما بعد عودته من مصيفه .

أقول وقد شاع خبر إرسال شكوى القاضى ولائحة الأوقاف إلى عميد الاحتلال الإنجليزى فقامت ضجة أصحاب الصحف من كل جانب ونوقوا[٥٥] سهام التشديد برجال[٥٦] القصر ، وقال الناس كيف ساغ لرجال القصر أن يرسلوا تلك الأوراق إلى دار الوكالة ، ألا توجد فى البلاد سلطة دينية عالية تقدر على حسم الخلاف بالتى هى أحسن . أقول وسمعت كثيرين يقولون أن ذلك كله نتيجة التسابق لإرضاء أصحاب الإحتلال . فكما أن (رياض باشا) أبو الوطنية قد جعل (لورد كرومر) فى خطابه المشهور صاحب المقام الأرفع ، كذلك رجال القصر أرسلوا إليه حتى شكوى العلماء وشؤون المساجد والجوامع ، فما أكبر حظ دولة تجد مثل هذا من أمة تحكمها وبلادا تحتلها . أقول ومنذ هذا الحادث جعل الناس ينظرون إلى رياض باشا بعين ملؤها التشاؤم ويرشقونه بسهام النقد والتعيير .

واهتم كبار أصحاب الاحتلال فى هذا الحين بإنشاء مرفأ جديد ناحية سواكن تبعد عنها نحو ثلاثين كيلومترا . وجاءت كتب صاحب السياسة الإنجليزية إلى الرئيس (مصطفى فهمى باشا) فى ذلك ، وسيروا جماعة من المهندسين وأصحاب علم البحار إلى سواكن لينظروا فى الأمر وما يستلزمه ذلك العمل . فأقاموا على ذلك أياما كثيرة وشاع خبرهم فى سواكن وما والاها . فقام تجارها يشكون وسيروا كتبهم إلى حاكم السودان يبينون فيها الخسارة التى تلحق بهم إذا قر القرار على جعل (الشيخ برغوت) وهى المكان الذى يقصدون جعل الميناء الجديد به ثغرا للسودان بدلا من (سواكن) وكيف تفسد

---

(٥٤) فما = فما أن أضيفت الكلمة ليستقيم النص .

(٥٥) ونوقوا = ووجهوا قراءة اجتهادية

(٥٦) برجال = لرجال قراءة ترجيحية .

عليهم تجارتهم وتتعطل مخازنهم التى صرفوا فى بنائها المال الوفير . وتحدث الناس فى شأن ذلك كثيرا حتى لقد سمعت بعضهم يقولون أن جماعة الإنجليز وصاحب سياستهم لم يعمدوا إلى جعل (الشيخ برغوت) مينائهم بدلا من (سواكن) إلا ليخلصوا من الصبغة العثمانية التى لسواكن ، لأن الفرمان السلطانى الصادر بتولية الأمير على البلاد يميز سواكن عن غيرها ويذكر أنها قائمقامية عثمانية منوطة إدارة شؤونها بخديوى مصر ، وهم يتشبهون على ذلك بما هو متبع فى رسوم جمرك سواكن . فإن الصادر منه إلى بلاد السلطنة والوارد منها إليه يعامل بنظام (الرفيتة) . وعندى أن الحال على خلاف ما يقولون ، فإن (شيخ برغوت) تابع لسواكن وقائمقامية سواكن التى يزعمونها لاتتناول تلك المدينة فقط بل كل ما هو داخل فى دائرة أحكامها إلا إذا اتخذ جماعة الإنجليز ذلك حجة لتخلص الجمرك السودانى من نظام (الرفيتة) العثمانية فلا يفعلون ذلك اتباعا للحق بل تمحلا(٥٧) للسبب وهذا بعيد الاحتمال .

وجاءت الأخبار منبئة بنجاز خط السكة الحديدية التى أسس مشروعاتها (سسل رودس) بين مدينة الكاب الأفريقية والقاهرة . فلما كان ظهر يوم الأربعاء تاسع عشرة يونيه من السنة سار عليها أول قطار ركاب من مدينة (الكاب) قاصدا (شلالات فيكتوريا) على نهر (زمبيس) بين أصوات التهليل والفرح . أقول وهذه السكة الحديدية هى عن(٥٨) مشروعات (سسل رودس) المثرى الكبير صاحب شركة مناجم الذهب والماس بجنوب أفريقية . كان الرجل يعلل النفس بمرأى القطورات تجتاز القارة الأفريقية واصلة (الأوقيانوس) ببحر الروم ، وقد سعى سعيا متواصلا بلا فتور ولا ملل حتى أخرج مشروعه من عالم الفكر إلى عالم الظهور ، ولكنه قضى عليه قبل أن ينال أربه وقام غيره متمما للمشروع . وكان الناس لا يظنون قط نجاح هذا المشروع الجسيم وكانوا يرمون صاحبه بالتهوس والتعلق بأذيال الفخر الموهوم ، فلما سار القطار من الكاب إلى شلالات فيكتوريا زالت تلك الظنون وتحقق الأمل بوصل ذلك الخط بمدينة القاهرة . فقد بلغ لهذا العهد إلى مسافة ألف وستمائة ميل شمالى (مدينة الكاب) وإلى ألف وأربعمائة ميل جنوبى

(٥٧) تمحلا = المَحْل هو المكر والكيد ـ والمماحلة هى المماكرة والمكايدة ـ و(تمحل) احتال فهو متمحل . ـ مختار الصحاح ـ مادة (م ح ل) ـ ص ٢٥٧ .

(٥٨) عن= من قراءة ترجيحية .

مدينة القاهرة ، ولم يكن بين (زامبيسى) و(الخرطوم) سوى ألفين وسبعمائة ميل ستتفرع فيها الخطوط إلى جهات مختلفة . قالوا والذى تم من هذا الخط الجسيم للآن هو أكثر من نصفه فانظر كيف أن المال والرجال يذللان الصعاب ويدكان الجبال .

وعاد ركب الحاج فى هذا العام وقد قاصى[٥٩] من الشدايد ما لم يسبق له مثيل فى أيامه الغابرة ، فقد فعل به العربان فعلهم فى كل صوب ودرب ووقفوا له على رؤوس الجبال يتصيدون الحجاج بنار البنادق ويهاجمونهم فى الليل والنهار ولا يبالون بنيران مدافع الحرس التي كانت تحصدهم حصدا . وكان إذا تأخر فى الطريق عن الركب جناعة[٦٠] لقضاء حاجتهم انقض عليهم العربان كالذئاب الخاطفة وقتلوهم بضرب الهراوى وسلبوهم ثيابهم وما معه[٦١] حتى اختل نظام الركب بين(مكة) و(المدينة) . وعم هذا الحال سائر الحجاج بلا فرق ولا تمييز ، فبلغت شكواهم عنان السماء وكلم سفراء الروس والإنجليز وهولانده وفرنسا الصدر الأعظم فى ما أصاب رعاياهم حجاج بيت الله من الإيذاء والقتل والنهب والشر الجسيم ، وطلبوا معاقبة المعتدين من مشايخ وأفراد العربان الذين قاموا بهذه الحركة الفظيعة وأحلوا[٦٢] فى طلب ذلك وتهددوا الباب العالى بإرسال سفنهم إلى (جدة) لتأديب أولئك الأشقياء . فجعل الصدر الأعظم يطاول ويحاول والسلطان يعمل برأى أهل شوراه من المشائخ والأئمة أركان (المابين الهمايونى) . وظل الحال على هذا شهرا ويزيد وسفراء الدول لا تنكف عن التشديد والوعيد حتى برز الأمر بقيام جماعة من كبار المأمورين إلى (مكة) لتحقيق ما أصاب الحجاج من تلك الرزايا . فلبثوا هناك أياما وسفراء الدول فى تشوق لمعرفة ما كان وما سيكون . فلما كان تاسع أغسطس من السنة سابع عشرة جماد أول سنة ثلاث وعشرين وثلثمائة وألف وصل الوفد إلى (الأسكندرية) متنكرا ، ونزل فى منزل (حسن أغا الكريدلى) وهم (عبدالباقى بك عبدالسلام) رئيس الوفد وكاتبه الخصوصى (عمر بك حسن) (والسيد أبو السعود أحمد) من أشراف مكة النازلين فى دار السلطنة . واتفق أن حضر الرئيس فى ثالث يوم وصولهم إلى ديوان المحافظة فى طلب جواز السفر وأنا

(٥٩) قاصى = قاسى قراءة تصحيحية .
(٦٠) جناعة = جماعة قراءة تصحيحية .
(٦١) معه = معهم قراءة ترجيحية .
(٦٢) وأحلوا = وألحوا قراءة اجتهادية .

بالأسكندرية فى منصب مدير أملاك الحكومة بديوان المحافظة . فتعرفت بالرجل وأحسنت استقباله وحادثته طويلا فيما أصاب ركب الحجاج من الإيذاء والشر الجسيم . فقال أشهد أن ما أصاب الحجاج من القتل والنهب وقطع السبيل شىء لم يسبق له مثيل فى تاريخ الحج . ولقد أوفدنا أفندينا السلطان المعظم بمهمة تحقيق ما جرى وبرز أمره الكريم مشددا فى ذلك فظهر لنا من التحقيق إدانة واحد وأربعين من أشراف مكة والمدينة فهم أصل ذلك البلاد بتحريضهم العربان على ارتكاب ما قد ارتكبوه من قتل الأنفس وهتك الأعراض ونهب الأموال ، وعليه قد رفعنا إلى الباب العالى تقريرا بذلك وطلبنا نفى هؤلاء الأشراف إلى (الطائف) . قال ولبثنا ننتظر الجواب حتى جاءنا الأمر السلطانى بنفى أولئك الأشراف فنفيوا وأبعدوا عن مكة والمدينة . وشاع خبر ذلك بين القبائل ومشايخها فخافوا وأخذتهم الطيرة مفهم[٦٣] لا يعودون إلى مثل هذه الفعلة الشنعاء التى ربما أفضت إلى تداخل دول الفرنجة فى شؤوننا وحقوق سلطنتنا فى بلاد على[٦٤] مهد الإسلام ومهبط الوحى[٦٥] نبيه ﷺ . فانتقلنا من هذا الحديث إلى غيره ثم ودعته وانصرف . قلت ولما وصل خبر ما جرى من التحقيق إلى ديار الإنجليز قامت صحفهم تبدى وتعيد وتقول أن حكومة مصر[٦٦] لا تكتفى بعمل الوفد الذى أرسله الباب العالى عما أصاب الحجاج فى عامهم الماضى بل هى ستعمد إلى عمل آخر أشد وأقوى لاسيما وقد ثبت أن الأشراف الذين أبعدوا إلى الطائف قد هربوا منها إلى القطر المصرى وفى ذلك ما فيه من الغرض وسوء النية . ا . هـ .

واهتم أصحاب الرى من جماعة الإنجليز بما بدى[٦٧] لهم من عدم بلوغ النيل حده المعتاد فن[٦٨] الزيادة في هذا العام . فكانت كتبهم فى تواصل مع أصحاب رى السودان والرسائل البرقية تأتى فى كل يوم منبئة بانخفاضه حتى قالوا أنه سينخفض جدا عند هلول شهر سبتمبر إذا لم تحصل زيادة سريعة فى مياه النيل الأزرق والعطبرة . قالوا وهذه

(٦٣) مفهم = فهم قراءة اجتهادية .
(٦٤) على = هى قراءة اجتهادية .
(٦٥) الوحى = الوحى على أضيفت الكلمة ليستقيم المعنى .
(٦٦) مصر = بريطانيا قراءة ترجيحية .
(٦٧) بدى = بدا قراءة تصحيحية .
(٦٨) فن = فى أو من قراءة اجتهادية .

الزيادة لا دلالة تدل على حصولها ، وستبقى أراضى كثيرة فى الحياض القبلية شراقى يعنى بدون رى . قالوا ومن النظر إلى مناسيب الأقاليم القبلية يتبين أن مياه الفيضان فى النيل الأزرق والعطبرة كان فى شهر أغسطس يعنى الشهر الحالى قليلة جدا . يضاف إلى ذلك أنه قد جاء الخبر من ديار الهند من قسم (الظواهر الجوية) فى شأن الرياح الدورية أن الحال لا تبشر قط بالتحسين . فلما شاع خبر ذلك وتناقله الناس أخذتهم الطيرة وتولاهم الزعر[٦٩] وتحققوا أن النيل فى هذا العام سيكون أقل من حده المعتاد بكثير ما ظل الأمل بزيادة مياه النيل الأزرق والعطبرة بعيدا . ولما كان عصر يوم السبت خامس عشرى أغسطس ثالث عشر جماد الثانى سنة اثنتين وعشرين وثلثمائة وألف تاسع عشر مسرى سنة عشرين وستمائة وألف للشهداء طاف المبشرون بوفاء النيل فى الشوارع والحارات على عادتهم فى هذا العيد الكبير ، والتفتوا[٧٠] الناس إلى الاحتفال بجبر البحر على الرسم المعتاد وقد كانوا لايتوقعون تطواف المبشرين ، فهرعوا إلى فم الخليج أفواجا وشاهدوا إقبال (العقبة) فى زينتها وطبولها وزمورها من بولاق القاهرة تشق عباب النيل التى تحت المضبطة[٧١] بفم الخليج . وتزاحمت سفن المتفرجين عند السد ، ومخرت الذهبيات صعدا وهبوطا فى النيل . وما أقبلت العشاء الأولى حتى جاء (عدلى باشا يكن) محافظ البلد فى ركب عظيم ليتصدر الاحتفال . فأطلقت المدافع من (العقبة) والميدان ، ثم أطلقوا الألعاب النارية ، وكتب قاضى القضاة الحجة بوفاء النيل ووجوب جمع الخراج . وأصبحوا وقد قطعوا السد فجرى الماء فى (خليج) أمير المؤمنين) بين أصوات المدافع وعزف الموسيقى ثم انفض الجمع المحتشد .

أقول ـ ولقد كان هبوط النيل في أعالى السودان فى هذا العام سريعا كما كان الفيضان سريعا ، أعنى أن الفيضان الذى ابطك[٧٢] جاء دفعة واحدة فارتفع النيل ارتفاعا عظيما حتى بلغ فى الروضة عشرين ذراعا وكان فى العام الماضى أربعة عشر ذراعا ، ثم توالي الانخفاض بسرعة تحاكى سرعة الفيضان . فزعر[٧٣] أصحاب الرى من جماعة

(٦٩) الزعر = الذعر قراءة تصحيحية .
(٧٠) والتفتوا = والتفت قراءة ترجيحية .
(٧١) المضبطة = المصطبة قراءة ترجيحية .
(٧٢) ابطك = ابطأ قراءة ترجيحية .
(٧٣) فزعر = فذْعَرَ قراءة اجتهادية .

الإنجليز وحسبوا لذلك حسابا كبيرا . ولكن الله سبحانه قد غير الحال إلى أحسن منه ، فقد جاءت البشرى اليوم بعودة (النيل الأزرق) أول أمس وأمس واليوم أيضًا إلى الزيادة حتى بلغت زيادته فى الثلاثة الأيام ماية وأربعين سنتى مترا . فسكن روع أصحاب الرى وطابت نفوس الناس طر[٧٤] . والمأمول أنه بعد انخفاضه فى (حلفه) و(الروضة) و(اصوان) يعود إلى الارتفاع ويدر خيراته ونعمائه إلى مشرق البلاد ومغربها فيحييها بمنه وكرمه أنه على كل شيء قدير .

وإلى هذا الحين كان العمل فى الخط الحديدى الموصل إلى الأقطار الحجازية . وقد اهتم عمد البلاد ومشائخها فى الأقاليم القبلية والبحرية بالتبرع بالأموال المثيرة[٧٥] مساعدة لاتمامه ، وعقدوا لذلك اللجان فى أكثر المدن لجمع الإعانات والتبرعات ، وبالغوا فى ذلك جدا حتى كان من لم يكن منهم عنده شيء يرهن ويستدين بالرباء الفاحش . كان هذا الخط قد تم وصار صالحا لمرور القطارات . فجاء الخبر في أخريات أغسطس بأنه برز أمر السلطان بفتح[٧٦] . فاجتمع لذلك الوزراء والعلماء والحكام وأمراء الجند وجمهور الأهلين من دمشق وبيروت ولبنان والبلاد المجاورة ، وجماعة من أمراء العرب . قالوا فلما تم اجتماعهم أشار (طرخان باشا) باسم السلطان بفتح الخط من دمشق إلى الشامات ، فصاحت الجماهير بالدعاء للسلطان ، ووقف كبير علمائهم وألقى خطابا ضمنه الدعاء للسلطان ، وكان المكان مزدانا بالزهورات والرايات والجند صفوفا بسلاحهم . وباتوا وأصبحوا وقد أعادوا اجتماعهم وخطبا بانهم[٧٧] إلى قريب الزوال . ثم انصرفوا بعد أن أعلن (طرخان) باشا ترتيب قيام القطورات بالركاب . وبرز أمر السلطان بضرب كيداليات[٧٨] خصوصية تعطى تذكارا لفتح هذا الخط الحديدى حتى (معان) ، وأن يرسم على أحد وجهى تلك المدالية الصفراء[٧٩] الشاهانية تحتها[٨٠] لاسم قاطرة من

---

(٧٤) طر = طُرًا قراءة ترجيحية .
(٧٥) المثيرة = الكثيرة قراءة اجتهادية .
(٧٦) بفتح = بافتتاحه قراءة ترجيحية .
(٧٧) وخطبا بأنهم إلي قريب الزوال = وخطب خطبائهم إلى قريب الزوال ـ والزوال هنا تعنى الغروب قراءة اجتهادية .
(٧٨) كيداليات = ميداليات قراءة ترجيحية .
(٧٩) الصفراء = الطغراء قراءة ترجيحية .
(٨٠) تحتها لاسم = وتحتها إسم قراءة اجتهادية .

قواطر السكك الحديدية ، وعلى الوجه الاخر هذه العبارة (تذكار لفتح جزء معان من الخط الحجازى عام اثنتين وعشرين وثلثمائة وألف للهجرة النبوية) .

وكان (السير كاسل) المثرى الإنجليزى هو صاحب بناء خزان أصوان علما[٨١] تقدم بك بيانه وقد رأى من تسلط الأرماد على أنواعها ولاسيما (الرمد الصديدى) الذى كثيرا ما يذهب بالابصار على أهل قرى البلاد القبلية ما أدهشه وأثار عاطفته وحنانه على المرضى ، فأشار على أصحاب الطب من جماعة الإنجليز إنشاء مستشفى للرمد نقالى يتنقل من بلد إلى بلد لمعالجة المرضى مجانا والعناية بهم فوافقوه على ذلك . وقد وهب لهذا المستشفى من ماله أربعين الفا ذهبا لوجه الله تعالى . فقام أصحاب الطب بإنشاء ذلك المستشفى وبالغوا فى اتقانه وتنظيمه . فكان أول مستشفى أنشأوه فى بلدة (منوف) إحدى مدن أقليم المنوفية . وهذه البلد قد بلى أهله بالفاقة والرمد الشديد . وعهدوا به إلى طبيب عيون من جماعة الإنجليز حازق[٨٢] فى صنعته . أقول وشكل هذا المستشفى هو ثمانية سرادق[٨٣] مختلفى الحجم منصوبة فى متسع من الأرض قريب من البلد ، وعلى بعد قليل منها مطبخ بالآجر . وقد خص[٨٤] السرادق الأكبر للعمليات الجراحية ، ومصلح بخارى للآلات ، وفى سرادق مقابل له صناديق للأدوات والآلات والمعدات الأخرى التى تطلب للعمليات . وهذه الصناديق معدة لحفظ الأدواء والآلات وما يتبع ذلك عند الإنتقال من بلد إلى آخر .

وخصت الخيمة الثانية بصيدلية لمعالجة المرضى الذين يمرضهم مساعدون من الطبيين[٨٥] تخرجوا فى القاهرة ، والخيمة الثالثة معدة للجلوس والانتظار ، وخصت[٨٦] خيمتان أخريان بأيواء[٨٧] المصابين بأمراض شديدة والذين يتطلبون عمليات جراحية دقيقة ، فى حين أن العمليات البسيطة تجرى فى الصيدلية . والخيم الأخرى معدة

---

(٨١) علما = على ما قراءة اجتهادية .
(٨٢) حازق = حاذق قراءة تصحيحية .
(٨٣) سرادق مختلفى = سرادقات مختلفة قراءة ترجيحية .
(٨٤) خص = خصص قراءة تصحيحية .
(٨٥) الطبيين = الأطباء الذين قراءة اجتهادية .
(٨٦) وخصت = وخصصت قراءة اجتهادية .
(٨٧) بإيواء = لإيواء قراءة ترجيحية .

لسكن مدير المستشفى والمساعدين والممرضات والممرضين والموظفين والطباخ، وأصحاب الشحنة والرقباء . ويستخرج الماء من بئر ويرشح ترشيحا كاملا . وقد بلغ عدد المرضى نحو مايتين فى اليوم ويزيد، وأكثرهم إناث، ويعلقون فى عنق كل مريض قطعة من الصفيح عليها نمرته ويحفظون نمرة مقابلة لها فى الصيدلية مع شرح كل مرض على حدته . وهذه الشروح تحفظ ليعرف منها فى مستقبل الأيام مقدار انتشار الأمراض فى القطر . وقد انتقدت هذه المستشفيات النقالة فى المجلس[٨٨] الخاصة والعامة انتقادا مرا . وقالوا لماذا لايجعلونه[٨٩] ثابتة . وعندى إن إنشاء مستشفيات ثابتة فى أربع عشر مديرية يتطلب نفقة طائلة، وفوق ذلك فإن فاقة الأهلين تستلزم إيصال العلاج إلى أبواب دورهم، ولولا هذه المستشفيات النقالة لا[٩٠] يفكرون قط فى طلب المعالجة ولاسيما الأنحاء القاصية من بلاد الأقاليم والبحرية، هو عمل مبرور مشكور إذا ظل متبوعا .

ومن ألطف حكايات النصب والاحتيال أن رجلا غريب الأطوار وصل فى ثانى عشرة سبتمبر من السنة محطة القاهرة وهو لم يدفع ثمن تذكرة سفره . فطالب[٩١] المأمور بالأجرة فزعم أن خادمه قد توارى عنه بعفشه وماله وأنه يقصد فندق (الكونتيننتال الكبير) لينزل فيه، وأنه سيطلب من خادم الفندق الواقف على المحطة أن يعطيه جنيها على الحساب ليدفع ثمن التذكرة، فأجابه أنه لا يقدر على ذلك . فركب الرجل فى عربة الفندق وركب معه مندوب السكة الحديد . ولما وصلا إلى الفندق طلب ذلك النصاب من مدير الفندق جنيهين ليدفع ثمن تذكرة السفر وزعم أن اسمه (فيتزجيرالد) وأنه إنجليزى وأن خادمه قدحمل متاعه وفى ذلك المتاع ماله . فأبى مدير الفندق دفع المال . فأظهر الرجل الغضب الشديد وهدد المدير بأن يرفع الأمر إلى لورد كرومر إن هو أصر على الإمتناع . فلم يلتفت المدير إلى كلامه وأبى مستخدم السكة الحديد أن يفارقه إلا بعد أخذه ثمن التذكرة . فسار معه إلى فندق آخر فخدع صاحبه ببزته وهامته وبروز بطشه ودعواه ومزاعمه . فناوله المطلوب وأعد له مكانا رحبا، ثم أعطاه أيضًا ثانية وثالثة وهو

(٨٨) المجلس = المجالس قراءة تصحيحية .
(٨٩) يجعلونه = يجعلونها قراءة تصحيحية .
(٩٠) لايفكرون = لما فكروا قراءة تنقيحية
(٩١) فطالب = فطالبه قراءة تصحيحية .

يمنى صاحب الفندق بحسن المكافأة . ولما طال على صاحب الفندق المطال جعل يراقب الرجل مراقبة شديدة فتحقق له محتال[٩٢] نصاب وأنه لاهو فى العير ولا فى النفير . فأبلغ أمره إلى محافظ المدينة ، فبرز الأمر بالقبض عليه وزجه فى السجن . وقد علم أنه فعل فى أحد فنادق بورسعيد ما فعله فى القاهرة وأنه ليس بإنجليزى التبعة ، وراحت على صاحب فندق القاهرة دراهمه التى لم يصرفها إلا وهو يؤمل الربح الطايل مستبدلا الدرهم بدينار .

كانت ترهات أقيال الحزب الوطنى وأذنابه قد بلغت فى هذه الآونة حدا بعيدا حتى كاد أصحاب الاحتلال يلقون تبعتها على رؤوس رجال قصر الإمارة ويتهمون الأمير بمساعدة مصطفى كامل رئيى[٩٣] ذلك الحزب وتعضيده فى الخفاء ، حتى لقد كلم اللورد كرومر الرئيس مصطفى فهمى باشا فى ذلك كثيرا وعاب على الأمير اجتماعه (بمصطفى كامل) فى أوربا أثناء ذهابه إليها تبديلا للهواء . وقال أن تحكك أذناب ذلك الحزب والتصاق زعيمه بالقصر واقترابه من كرسى الإمارة أمر معنت شاق لا يليق بمنصب الإمارة تحمل تبعته . فلما عاد الأمير من رحلته وعاد مصطفى كامل أيضًا زادت رقابة أصحاب الإحتلال لقصر الإمارة وأزكوا العيون وقعدوا لزعيم الحزب بالمراصد . وتكلم الناس فى ما سيكون من وراء ذلك ، وقالوا أنها فعلة وخيمة لا تتفق مع ترفع أهل القصر عن سخافات أصحاب ذلك الحزب ولاسيما بعد أن ثبت للناس طرا أن ضرر أذناب ذلك الحزب أكثر من نفعهم أن قيل أن لهم نفعا . وجاءت صحف الإنجليز طافحة بعبارات النصح والوعيد والحض على الإقلاع عن مقاصد الشر ونوايا السوء البادية لكل ذى عينين وحذرت اللاعبين بهذه النار من شر العاقبة .

فلما كان خامس عشرة أكتوبر من السنة نشر (مصطفى كامل) فى (لوائه)[٩٤] كتبا[٩٥] يقول أنه رفعه إلى مقام الإمارة وفيه يقول أنه قد قطع كل علاقة بمعية الأمير حتى لايكون الأمير عرضة لضغط المحتلين من أجل تقربه من مسند الإمارة وحتى لايعزى ما يكتب فى (جريدة اللواء) إلى القصر . وقال فى كتابه هذا أنه لما مثل بين

(٩٢) محتال = أنه محتال أضيفت الكلمة ليستقيم المعنى .

(٩٣) رئيى = رئيس قراءة تصحيحية

(٩٤) يقصد جريدة اللواء التى كان يصدرها مصطفى كامل فى ذلك الوقت .

(٩٥) كتبا = كتابا قراءة ترجيحية .

يدى الأمير فى مدينة (ديفون) وتلا على مسامعه كل هذا وأنه لم يقصد من هذا الابتعاد عن كرسى الإمارة قال له أيضًا أن أولئك المفسدين الذين يلتصقون بالقصر يضرون بالقصر أكثر من أعدائه وما هم إلا حاشية وبطانة الأمير أنفسهم . ا . هـ .

قلت وما تفشى خبر هذا الكتاب حتى دهش الناس واستغربه العقلاء وسألوا عن سبب نشره فكانوا يقولون هكذا يجب أن يكون . وعندى أنه كان مكرها على هذا العمل ، وقد أشار عليه الأمير بما فعل تخلصا من تهمة مساندته لذلك الحزب واتهامه من أصحاب الإحتلال بمساعدة رحال الحزب ومدهم بالمال بعد أن ظهرت عليهم علامات الفشل والبوار . قيل ومع ذلك فإنه لم تكن لتحول[٩٦] جماعة الإنجليز عن ظنهم فى الأمير وحاشيته وهم يعتقدون أن اقتصار مصطفى كامل عن القصر ومنعه من الإلتصاق بحاشية الإمارة إنما هو من المعميات والألغاز التى لاتخفى من ورائها على أحد . وظل مصطفى كامل على شأنه في محاولة إقناع الناس بأنه أصبح ولا علاقة له بالقصر وأهله .

وبينما الناس فى قال وقيل وظنون تترامى إلى ما عساه أن يكون من أصحاب الإحتلال بعد الذى علموه من مقال مصطفى كامل ، إذ جاء الخبر إلى ديوان الوزارة وقصر الإمارة بأن قد حصل خسوف عظيم فى بلدة (أخميم) بإقليم (أسيوط) من صعيد مصر . ذلك أنه فى نحو الساعة الواحدة بعد ظهر خامس أكتوبر من السنة هاج البحر هياجا شديدا جدا فتلاطمت أمواجه وأزبدت فاقتلعت رصيف البحر القديم الكائن فى نقطة (المعادى) فاقتلعت ما فوقه من الأرصفة ذات الأحجار الضخمة العظيمة . فسقطت تهوى فى البحر ، فخسفت الأرض فى الجهة القبلية الشرقية وتدفقت المياه إلى بعد خمسين مترا ويزيد . فسمع لذلك دوى عظيم كالرعد القاصف وجرفت المياه الأرض والأكمة التى عليها وهى على علو مائة مترا ، وتدفقت على المساكن والبيوت فسقطت الواحد بعد الواحد بما فيه من أثاث ومتاع . وغمرت الطريق الموصل إلى ديوان المركز فصار بحرا عجاجا . وقالوا جرى كل ذلك فى مدة لاتتجاوز الساعة وغرق كثير من النساء والأطفال . وجاء الصايح من كل صوب فركب مأمور المركز فى قارب وجعل يمخر به فى شوارع البلد وقاس عمق الماء فإذا هو ثلاثة عشر مترا . وقرر مهندس القسم أن ذلك الدوى

---

(٩٦) لتحول = لتتحول قراءة ترجيحية .

الهائل المخيف كان سببا عن الخسوف . وما صارت الساعة السابعة مساء حتى انخسفت الأرض التى كانت تجاور لتلك الأكمة بما عليها من الكروم والنخيل الكثير والمزروعات فلم ير لها أثرا ولا علم إلى أين ذهبت . وخرج الناس على وجوههم إلى المزارع وهم لايصدقون النجاة . وباتوا ليلتهم تلك وهم لايدرون ما سيكون فى الصباح . واهتم أصحاب الحل والعقد بهذا الحادث إهتماما محمودا ، وسيروا إلى أولئك المنكوبين بالخيام والمؤن ، وشددوا على المأمورين بالعناية والسهر على راحة القوم حتى لا تنكشف[٩٧] هذه القصة .

وعاد الأخذ والرد بين قاضى القضاة وديوان الأوقاف على بيع دار موقوفة وقفا أهليا . واشتد النزاع بينهما بأعظم مما كان فى شأن (لائحة المساجد) التى تقدم الكلام عليها . والسسل[٩٨] القاضى فى دعواه علي الأوقاف ، وبالغ فى الحط من كرامة ناظر الأوقاف . واشتد فى قوله شدة بالغة (والغازى مختار باشا) من ورائه يزيد الطين بلة والطنبور نغمة بعبارات التهديد وآيات الوعيد ، حتى خيل للناس أن جيوش الترك صارت على الأبواب والأمر لايحتاج إلى كل هذه الحيلة ، وذلك أن لديوان الأوقاف طريقة منتهجة فى المبيعات وهى طريقة معروفة تعد[٩٩] يقولون أنها أكبر ضامن لصالح الأوقاف . وعلى هذه الطريقة سار ديوان الأوقاف فى بيع منزل التابع[١٠٠] لوقف أهلى بعد إعلان مزاده مرارا ، وبعد موافقة مجلس الأوقاف الأعلى . فقام بعد ذلك أصحاب الوقف يزيدون فى الثمن بعد البيع ويدعون أن الديوان باع وقفهم بثمن بخس ولم يقبل منهم الزيادة ، ورفعوا قصتهم بذلك إلى قاضى القضاة . فطابقت هذه الشكوى هواه وهم بمشاددة الأوقاف . فسير كتبه إلى الناظر يقول أنه لايسمح قط بتصرف ديوان الأوقاف فى أوقاف الناس على ما لا ترضاه الشريعة الغراء ، ورسم إلى أحد المحامين الشرعيين بمحاكمة ناظر الأوقاف فى هذه القضية وطلب عزله . حتى إذا ما حكمت المحكمة بخطأ الديوان جاز للقاضى الحكم بعزل ناظره جملة . وشاع خبر ذلك وتحدث الناس به واهتم له أصحاب الحل والعقد اهتماما كبيرا . وسير الأمير فى طلب قاضى القضاة وكلمه فى الأمر ونهاه فلم

(٩٧) لاتنكشف هذه القصة = تنكشف هذه الغمة قراءة اجتهادية .

(٩٨) والسبسل = واستبسل قراءة اجتهادية .

(٩٩) تعد = استبعدت الكلمة لعدم تأثيرها فى السياق .

(١٠٠) التابع = تابع .

ينته . وكثر ترداد الغازى مختار باشا على قصر الإمارة مادحا سعى القاضى ومسفها أحلام ناظر الأوقاف . قيل فذهب إلى دار الغازى يوما رسول من رسل لورد كرومر يقول له كف عن هذه المشاغبة وإلا فإنك راحل عنا ولامحالة . قالوا فأكبر الغازى هذا الكلام وأعظمه جدا وأظهر المغاضبة لأصحاب القصر وامتنع من مقابلة الأمير وجلس فى عقر داره . وقل اجتماع[١٠١] به ولا سيما بعض المشايخ[١٠٢] الأزهر والمعممين الذين يتصدرون فى مثل مجالس الغازى . واشتد الكمد بقاضى القضاة ولازمه القلق وهو بين أن يحكم بعزل ناظر الأوقاف أو أن يلقى حبلها على غاربها كى لا يسقط فى مهواة الخزى والعار ، وكأنه قد ثاب إلى رشده فعدل عن كل فعل أراده ، وجعل يتحين الفرص ويتبين انتفاعها كما يقولون .

وما هى إلا أيام حتى برز أمر القاضى إلى ناظر الأوقاف وسائر نظار الأوقاف بطلب حسابات الأوقاف جميعها وقد ضرب أجلا لذلك ، فمن لم يقدم حساب وقفه وعزل[١٠٣] بلا معاودة . وسير صورة هذا الأمر إلى جريدة الوقائع الرسمية فلم تر بدا من نشره . وتفشى خبر ذلك فدهش الناس لسماعه ولم يعجب نظار[١٠٤] الأوقاف صدوره فى هذه الآونة الملأ[١٠٥] بالدسائس والسعايات . قالوا وقد عاد القاضى إلي غطرسته وأنانيته ، وقال آخرون قد جاءه المدد من (المابين الهمايونى) فلا سبيل إلى الخنوع وإذلال النفس . ولقد شاع أن القاضى ذهب إلى دار (الوكالة البريطانية) وكلم لورد كرومر فى ذلك طويلا وقال أنه إنما يريد إقامة أحكام الشرع التي تعطلت على عهد أسلافه وأن الأمر لايحتمل التأويل ولا القال والقيل . واتفق أن عاد الأمير من مصيفه بالأسكندرية إلى القاهرة وجاء للقائه بمحطة السكة الحديد الأمراء والوزراء وأصحاب المناصب وأهل الخطط والعلماء والمشائخ ، فلم يحضر معهم القاضى . وعلم الأمير بخبر امتناعه عن المجىء فأكبر الأمر وأعظمه ، وشاع خبر ذلك فلم يرض عنه أحد . وظل الحال على هذه المشاددة والمعاكسة أياما حتى وقع الإتفاق على أن ينظموا بديوان الأوقاف إدارة جديدة

(١٠١) اجتماع = اجتماعه قراءة اجتهادية .
(١٠٢) المشايخ = مشايخ قراءة ترجيحية .
(١٠٣) وعزل = عُزِلَ قراءة ترجيحية .
(١٠٤) نظار = ناظر قراءة اجتهادية .
(١٠٥) الملأ = المليئة قراءة ترجيحية .

لمراقبة الأوقاف الخيرية ويحصرها(١٠٦) وتطلع على حساباتها وريعها ونفقتها . فإذا رأت أن فى ذلك ما يخالف الشرع دفعته إلى قاضى القضاة يرى في أمره ما يجب . يقال فلم يكتف القاضى من الديوان بهذه الوثائق ، ووقف الأمر عند هذا الحد أياما . وكان أصحاب الحل والعقد يعلمون أن اشتداد هذه الأزمة وقيام قاضى القضاة فى وجه السلطة الحاكمة واستنجاده بالغازى (مختار باشا) على ديوان الأوقاف وغير ذلك من وقائع الحال قد كانت من عمل الشيخ (محمد بخيت) عضو المحكمة الكبرى الشرعية وقدرته على التطوح بالقاضى إلى حيث يريد . فبرز الأمر بخلعه من منصبه وتعيين الشيخ (عبدالرحمن فوده) بدلا منه . ولم يكتف أهل الحل والعقد بذلك بل طلبوا من القاضى أن يسترجع منشوره الذى أعلنه إلى سائر نظار الأوقاف ، فامتنع القاضى من استرجاعه وعاد إلى نغمته الأولى وهى وجوب إطلاعه على خلاصة حسابات تلك الأوقاف لا القضايا فقط . فقالوا له أن (مشيخه الإسلام) فى دار السلطنة لا تراقب ديوان الأوقاف ولا هى تطلع على حساباته فلا يحق إذا(١٠٧) لقاضى مصر أن يراقب أموال الأوقاف ولا يطلع على حساباتها . فأجاب بأن نواب الشرع فى الولايات هم المراقبون على الأوقاف وهم الذين يطلعون على حساباتها . فمصر سياسيا وشرعا ولاية عثمانية ، فإذا هى جعلت وقفها نظارة مستقلة تكون جزءا من الحكومة كما كانت قبل الآن ، كان لتلك النظارة أن تتحمل مسئولية كل الأوقاف وتبعة كل الأعمال وإلا فهى مصلحة يحق للقاضى أن يحاسبها . وطال الأخذ والرد بين الفريقين أياما . يقال وكلم القاضى الأمير فى ذلك مرارا ، وكان إذا ذهب إلى المحكمة يوما انقطع أياما والكلام فى ذلك بين الناس كثيرا حتى أعترف القاضى بحق الهيئة الحاكمة فى تشكيل هيئة مراقبة للأوقاف الخيرية فى ديوان الأوقاف العمومية ، ووظيفة هذه الهيئة جمع حساب كل وقف وإيراد كل عين وبيان كل المصاريف وأعيان كل وقف وتقرير النظر وحجة الإيقاف ، فإذا وجد شيئا مخالفا لشروط النظر والوقف أحاله على القاضى ليحكم به بالوجه الشرعى . قالوا وعلى هذا الوجه زال الخلاف وانمحت أسبابه وبطل القيل والقال . وكان القاضى قد أرسل إلى الرئيس مصطفى فهمى باشا يقول أنه مستعد لمغادرة منصبه دون التنازل عن شىء من حقوقه وعن أحكام الشرع . يقال : سُئِلَ الأمير عن رأيه فيما لو تخلى القاضى عن منصبه

(١٠٦) ويحصرها = لتحصرها قراءة اجتهادية .

(١٠٧) إذا = إذن قراءة تصحيحية .

فقال (لو خيرت باختيار قاضى لما اخترت غيره للقضاء) . فاهتم الرئيس بالأمر اهتماما كبيرًا حتى كان ما كان من الوقوف عند ذلك الحد .

ولما كان خامس ديسمبر من السنة ثمان عشرة رمضان مات الشيخ الكبير صاحب الكرسى المعروف بكرسى الشيخوخة المنقوش عليه هذه العبارة (لا يجلس على هذا الكرسى إلا من بلغ مائة سنة من العمر) . وتحرير الخبر أنه يوجد فى إحدى غرف قلعة الجبل على جناح باب العزب كرسى مفروش بالقطيفة والمخمل ومكتوب عليه تلك الكلمات ، وقد كان يجلس على هذا الكرسى منذ سنوات عديدة شيخ جليل يقال له (الشيخ أحمد) قد صرف فى خدمة الجيش المصرى سبعين سنة وحج إلى البيت الحرام سبعة وعشرين حجة . وكان فى إدارة المهمات وصناعته تفصيل الخيام للمعسكرات . فلما أقعده الكبر وانحنى منه الظهر لم يخرج من الجيش وأجلسوه على ذلك الكرسى وجعلوا له راتب شهرى بنفقة فى داره وعلى عياله . قالوا وكان يحدث دائما عن العصور الغابرة ويروى أخبار مصر وحروبها من يوم نشأتها الأخيرة حتى يومنا الذى نحن فيه ، ويجله الضباط ومقدمى العسكر أيما إجلال . على أن الرجل كان حريصا على حياته ولا حرص الطفل على ما بيده . قالوا ورأى كبير قسم المهمات أن الكبر أقعد الرجل عن المسير فأمر أن تربط له بغلة يركبها فى مجيئه ورواحه . فأبى ركوبها مخافة أن تجمح به وفضل أن يظل على عادته إلى آخر يوم من حياته . قالوا ومن العجب أنه لم يتأخر فى يوم من الأيام عن موعد حضوره ولا خرج فى يوم ما قبل موعد خروجه ، فظل عسكريا يحفظ النظام سبعين عاما ويزيد . ويقولون أنه عمر أكثر من مائة وعشرين ولكنه كان إذا سئل يقول أنه لم يتجاوز السبعة والتسعين فإذا سئل عن سبب إنكاره قال إنى أخشى الحسد . قلت وما أحسن قول من قال :

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته   يوما على آلـة حدبـاء محمـول

فلما مات أرسلوا منعاه إلى قصر الإمارة ووزارة الحربية . فأجابوا معربين عن أسفهم لأنه كان فى قلعة الجبل ذخيرة[١٠٨] جبته أو هو تاركا حيا . وبرز أمر السردار بأن يحتفل بدفنه احتفالا كبيرا على نفقة وزارة الحرب . فكان مشهده حافلا جدا . وخلا الكرسى

(١٠٨)لأنه كان فى قلعة الجبل ذخيرة جبته أو هو تاركا حيا = لم أستطع فهم ما تعنيه العبارة ـ وقد استبعدتها لعدم أهميتها .

بعده أياما . ولكن فى القلعة للآن جنديا آخر قد أربى عمره على المائة وصناعته عداد فى إدارة المهمات يدرب نفرا على عمله فإذا تم تدريبهم لبس العمامة الزرقاء والجبة الصفراء وجلس على ذلك الكرسى خلفا لذلك الشيخ ، ولم يبق له من عمل سوى القعود والنظر إلى وجوه عظماء القواد وكبار الجند وقبول تحياتى(١٠٩) وإجلالهم له .

وجاء الخبر على جناح البرق إلى مديرى السكك الحديد وديوان الوزارة ولأشغال باصطدام قطار المفتخر عند محطة كفر عمار . وذلك أنه لما خرج القطار من القاهرة يريد الأقصر سايرا بسرعته المقررة ، وصل إلى محطة (كفر عمار) وكان قطار الركاب واقفا فيها على خط الطالع . فعندما شوهد آتيا رفعت المحطة إشارات الخطر ليقف ، فلم يلتفت السايق ولا الوقاد إلى ذلك إلا عند دخوله المحطة حيث سمع صياح العمال ونداءهم المزعج . ففتح نفس الضبط بسرعة كبيرة وألقى السايق والوقاد بنفسيهما إلى الأرض فنجيا . ولكن القطار اصطدم بقطار الركاب صدمة ما أشدها أدخلت القطارات أخدهما بالآخر ، وتحطم من قطار الركاب ثلاث عربات وانسحقت عربة رابعة ، وتحطمت من القطار المفتخر عربة الطعام وعربة العفش ، وجرح كمسارى قطار الزكاب جراحا بليغة وكسر فخذه ، وكذلك كمسارى الوسطة وقتل من ركاب المفتخر وجرح كثيرين بينهم سايق القطار وإحدى العقيلات الزوبيات(١١٠) . وكان المظر(١١١) مؤثرا جدا والعويل والصياح من كل جانب . وقام مأمور الإدارة إلى (كفر عمار) على قطار خصيص ومعهم جماعة من الأطباء والجراحين وشيئا من العقاقير والأجهزة ، وقضوا الليل كله فى نقل الجرحى والقتلى وما تحطم من العربات . وكثر تساؤل أصحاب الفنادق بالأسلاك البرقية عما أصاب المسافرين من ذلك الحادث المريع . وما زالوا على هذا حتى أصبح الصباح وقد أزالوا ما منع سير القطارات وقبضوا على سائق المفتخر وأتوا به إلى القاهرة وسلموه إلى المحاكمة . فقد ثبت خطأه وعدم التفاته إلى إشارات الخطر ونداء الموكلين بالإشارات وغير ذلك مما جناه على نفسه وعلى أولئك القتلى والجرحى .

(١٠٩) تحياتى = تحياتهم قراءة تصحيحية .
(١١٠) الزوبيات = الأوروبيات قراءة ترجيحية .
(١١١) المظر = المنظر قراءة ترجيحية .

قالوا ومن لطف الله تعالى أن عربة الطعام كانت موضوعة أمام عربات النوم ، ولو كانت بعدها لكان قضى على حياة جميع المسافرين الذين كانوا بها ، وهم لا يقلون عن المايتين بين ذكور وإناث وأطفال ولكن الله سلم . وكان هذا الحادث الكبير خاتمة حوادث عام أربعة وتسعين(١١٢) وثمنمائة وألف للميلاد .

(١١٢) أربعة وتسعين وثمنمائة وألف = أربعة وتسعمائة وألف قراءة تصحيحية .

عام ١٩٠٥

زيارة الإمبراطورة أوچينى لمصر - مؤتمر الأمراض الإستوائية فى القاهرة - وفاة الشيخ محمد عبده - محاولة اغتيال السلطان عبدالحميد فى استانبول - فيضان النيل وتطوراته - التجارة مع السودان - علاقات مصطفى كامل بألمانيا - المسألة المقدونية بين السلطان والقوى الكبرى - قاضى القضاة الجديد .

ثم دخلت سنة خمس وتسعمائة وألف للميلاد

افتتحت سنة خمس وتسعمائة وألف للميلاد بيوم الأحد خامس عشرة شوال سنة اثنين وعشرين وثلثمائة وألف للهجرة ورابع عشرى كيهك سنة إحدى وعشرين وستمائة وألف للشهداء .

فصل
فى ذكر ما وقع فيها من الحوادث

وكان بدء حوادث هذه السنة مقدم (الإمبراطورة أوچنيه) أرملة الإمبراطور نابليون إمبراطور الفرنسيس . قدمت إلى مصر سائحة متفرجة ترويحا لنفسها . قدمت إلى مدينة بورسعيد على باخرة انجليزية فاستقبلها (البرنس دار نبرغ) رئيس شركة قناة السويس (والكونت دوشوازيل) (والكونت دى سربون) وجماعة كثيرة من كبار الموظفين وأصحاب المناصب وأهل الخطط ، فنزلت ضيفة على (البرنس دار نبرغ) .

وأصبحت وقد أعدوا لها باخرة من أجمل البواخر فركبتها مع حاشيتها وبطانتها إلى مدينة الإسماعيلية ونزلت فى دار للشركة قد زينوها بالفرش والبسط وأجمل الطنافس ، وزينوا لها البلد بالرايات والأزهار . يقال فلما جلست فى ذلك المكان تذكرت عز الخديوى (اسماعيل باشا) ومجده وتلك الحفاوة والمقابلة الباهرة التى قوبلت بها عام تسعة وتسعين[1] ، فأطلت من شرفة المكان على الشارع المعروف باسمها وأطالت التفكير ساكتة وعلامات الأسى بادية على محاياها[2] الجميل . ولعلها قد ذكرت[3] عز

(١) تسعة وتسعين = تسعة وستين ، فقد كانت زيارة الإمبراطورة أوچينى إمبراطورة فرنسا لمصر فى أثناء احتفالات الخديو إسماعيل بافتتاح قناة السويس ، وكان ذلك فى ١٧ نوفمبر ١٨٦٩ .

- Jere L. Bacharach (A Near East studies Handbook, 570 - 1974. University of Washington press - 1974 - p., 123

(٢) محاياها = محياها قراءة تصحيحية

(٣) ذكرت = تذكرت قراءة ترجيحية .

زال ومجد انقضى . سنة الله قد خلت . ثم قامت من الإسماعيلية على قطار خاص ونزلت بفندق (شبرت)[٤] مع جميع حاشيتها ، فزارها الأمير ورجال الدولة واحتفل بها (لورد كرومر) احتفالا كبيرا . ولم يبق أحد من الكبراء والأمراء وأهل المناصب العالية إلا وزارها وبالغ فى تكريمها . ولما تفشى خبر وصولها كتب أصحاب الصحف المحلية فى شأنها كثيرا وقارن بعضهم بين مقدمها على عهد (الخديوى إسماعيل) وما كان له من الأبهة والجلالة وبين مقدمها اليوم كزائرة كبيرة حتى نظم أحدهم فى ذلك قصيدة عامرة الأبيات مطلعها :

أين يوم القنال بادية التـــاج يا شـمـس ذلك المـهـرجـان

وختامها

واعذرينا على القصور كلانا غـيـرته طوارىء الحـدثان

أقول وقد بلغ من ترف القوم الرحبة بالقاهرة واستعمالهم كل أساليب الخلاعة الغريبة وآيات الزهو بكامل معانيه ، أنهم أقاموا فى يوم الأحد خامس فبراير من السنة تاسع عشرى ذى القعدة سنة اثنين وعشرين وثلثمائة وألف للهجرة صورة معركة عند حديقة فندق سراى الجزيرة سموها معركة الزهور . ذلك أنهم حشدوا جيشين كبيرين من الأوانس الجميلات والعقائل وكرام القوم منهم لا يقل عددهم عن خمسة آلاف نفس . توافدوا إلى ذلك المكان رغم الجو الذى كان متلبدا بالغيوم والريح الصرمد التى كانت تنفخ من الشمال باردة ، وعين المزن تندى ولكنها لم تهطل . ولما كانت الساعة الثانية بعد الظهر غص المكان المعد للقتال بالوفود وملئوا المكان وانبثوا فى الشوارع . ثم جاءت العربات المزدانة بالزهور فمرت بالناس وموسيقى الجيش الإنجليزى تصدح . واكتمل النظام وابتدأت المعركة وأخذ الناس يرشقون بعضهم بعضا بالزهور ضاحكين وهم يترامحون بعضهم خلف بعض كأنهم فى كر وفر ، وكان المنظر جميلا جدا . وظلوا على هذا إلى أن غابت الشمس . ثم تقدم محافظ البلد وأعضاء لجنة العيد لتوزيع الجوايز على العربات التى امتازت برمايتها وزينتها . وكان عدد العربات المزينة مائة عربة . فنال

(٤) شبرت = شبرد أحد فنادق القاهرة الفخمة فى ذلك الوقت ، وقد احترق من بين ما احترق فى حريق القاهرة يوم ١٩٥٢/١/٢٦ .
- الأهرام ١٩٥٢/١/٢٧ .

الجائزة الأولى (عمر سلطان) وجائزة الشرف الخواجات (سرسق) (وجورج خياط)، والجايزة الخصوصية (المسيو يشله لزنيه) ثم انصرف الجميع . قلت وهذه أول مرة حصل فيها هذا العيد على الترتيب المذكور، ولا أدرى له معنى ولا رمز إلى شيء من عادات الشرقيين أو أعيادهم علما[٥] كان يفعله أجدادنا وهو غريب عن البلاد وأهلها . ولو كان (محمد سلطان باشا) حيا إلى هذا اليوم ورأنى[٦] (عمرا) على شأنه ذلك يكر ويفر فى عربة مغطاة بالزهور من الرأس إلى الذنب وهو فى لباس التنكر والسخرية لأقسم الأيمان المغلظة وقال أن (عمرا) ليس منى ، إنى برىء منه إلى يوم الدين . فقد عاش الرجل بدويا مقترا يحاسب على الذرة والبرة ويكره البزخ[٧] والترف ويضن بما جمعت يداه فى ذلك العهد عهد السعاية والوشاية والتزلف للأمراء والكبراء ومن بيدهم الإعطاء والمنع[٨] . يقول المثل العامى (مال تجىء به الأرياح تبدده الزوابع) فسبحان الله له فى خلقه شؤون .

وإلى هذا الحين كان أصحاب المجتمعات العلمية والوفود الطبية قد كثر ترددهم على جهات (أوغنده) (وشرق أفريقية) وما والاهما من تلك الأطراف يبحثون عن علل

(٥) علما = مما قراءة ترجيحية .
(٦) ورأنى = ورأى قراءة اجتهادية .
(٧) البزخ = البذخ قراءة تصحيحية .
(٨) يقصد عهد الخديو توفيق والاحتلال الإنجليزى لمصر، ودور محمد سلطان (١٨٢٥ - ١٨٨٤) فى الكيد للثورة العرابية وإنحيازه (لتوفيق) أثناء الثورة، ورشوته للبدو القاطنين غرب القناة بين (الإسماعيلية ورأس الوادى)، و(الصالحية) وما حولها، ومرافقته للجيش الإنجليزى نائبا عن الخديو لتقديم المساعدات لهذا الجيش تمكينا له من الزحف . وتقول المصادر أن (سلطانا) اتصل بمشايخ العربان فى هذه الجهات فاستمالهم بالمال والرشوة . وكان أول من استجاب له (سعود الطحاوى) فى (الصالحية)، و(محمد البقلى) فى وادى الطميلات .
وقد دخل الجنرال السير جارنت ولسلىGarnet Wolseley قائد الجيش الإنجليزى، القاهرة فى صحبة (سلطان) هذا بصفته نائبا عن الخديو، وصار صاحب الحول والطول فى العاصمة وسجن ما يربو على ثلاثين ألفا من المصريين بعد هزيمة عرابى ودخول القوات البريطانية إلى القاهرة . ومن أسوأ ما فعله (سلطان) أنه جمع رهطا من الأعيان والعمد وتقدمهم ليقدموا هدايا إلى (الإميرال سيمور) قائد الأسطول الإنجليزى الذى دمر الاسكندرية والجنرال (درورى لو) أول من دخل العاصمة من الضباط الإنجليز . وقد أرسل (ولسلى) فى أبريل ١٨٨٣ خطابات شكر إلى كل من (سلطان) و(محمد بك الشواربى) و(عبدالشهيد أفندى بطرس) و(عبدالسلام بك المويلحى) و(محمود بك سليمان) و(والد محمد محمود باشا رئيس الوزراء فى عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين) و(أحمد بك السيوفى) . وكافأ الخديو (سلطان) علي خيانته بالإنعام بالنيشان المجيدى من الدرجة الأولى، ومنحه عشرة آلاف من الجنيهات، كما أنعمت عليه الملكة (فكتوريا) ملكة إنجلترا بوسام (سان ميشيل وسان جورج) وحصل على لقب سير .
- عبدالرحمن الرافعى (الثورة العرابية والاحتلال (الإنجليزى) - الطبعة الثالثة - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة - ١٩٦٦ - ص ٤٧٢ - ٤٧٣ ٤٩٧ - ٥١٥ .

وأسباب انتشار (المرض النومى) الذى صار يموت به الألوف من أهل تلك الأصقاع حتى لقد خشى بعضهم انتقاله إلى ديار مصر بل وإلى ديار الفرنجة بطريق العدوى. فاعتموا له اهتماما عظيما جدا وجاء من العلماء والباحثين ونخبة الأطباء والكيماويين أناسا كثيرين فبحثوا ودققوا ورادوا الجهات وكتبوا الرسائل وألفوا وخطبوا الخطب فى مجالس العلماء فى علل وأسباب ذلك المرض الوبيل حتى اهتدوا إلى بعض أسبابه وعرفوا مكامنه فى تلك الأطراف.

واتفق فى هذه الأثناء أن عاد أحد أولئك الباحثين إلى القاهرة عن طريق السودان المصرى ويقال له (القبطان كرايج). فذهب يوما إلى (القصر العينى) الذى دار المرضى للحكومة بناء على دعوة رئيسها ليلقى خطبة عن ذلك المرض. فاجتمع لسماعه خلق كثير وجماعة من الأطباء وتلاميذ الطب. فقام بينهم ووصف المرض بأنه مرض قد فصلوه عن غيره من الأمراض عام ثلاثة وثمنمائة وألف للميلاد فى (غربى أفريقية). وفى عام ثلاثة وتسعمائة وألف اكتشفت لجنة (مرض النوم) التى عينتها الجمعية الملكية أسباب ذلك المرض ووسائل انتشاره، وقد روقبت الإصابات لأول مرة فى خلال عام واحد وتسعمائة وألف فى (الأوغندا) حيث بلغ مجموع المتوفين بالمرض زهاء مائة ألف، وتبلغ الوفيات الشهرية فى الوقت الحاضر نحو ألف. وبعد أن شرح جغرافية المقاطعات التى ينتشر فيها هذا المرض أبرز خرطة مبينا فيها تلك المقاطعات وأحوالها الصحية ثم بين تأثير المرض على السكان والبلاد واختلاف وطأته باختلاف تلك الأراضى. ثم قال إن الاسم المسمى به هذا المرض لا يفى بالمراد لأن النوم لا يستولى على المريض المصاب إلى[٩] فى درجته الأخيرة. قال والأفضل أن يعوض عن هذا الاسم باسم ذهول واعتلال القوى العقلية. قال وأهم الدلائل التى تدل على إصابة الإنسان بالمرض هى تضخم الغدد الليمفاوية خصوصا فى العنق وهذا يحدث فى أوائل الإصابة، ثم يصاب الإنسان بحمى متقطعة وهذا الدور يبدأ أولا بامتداد الأكلة إلى كريات الليمنفا[١٠] التى تتخلل تشعب الأعصاب فتحدث مرض النوم الحقيقى، وثانيا

(٩) إلى = إلا قراءة تصحيحية.

(١٠) الليمنفا = لينف Lymph (Limf)؛ سائل عديم اللون تقريبا تشتمل عليه الأوعية الليمفاوية ويتألف من بلازما الدم وكريات دم بيضاء.

— المورد ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ١٩٨٢ ـ ص ٥٤٦.

بالموت من تأثير المجرى الداخلى ، وثالثا بأن يصبح المرض مزمنا وربما ينتهى بالنقه . وقسم الخطيب خطابه إلى أربعة أقسام ، وخص القسم الثالث منه بالأسباب التى تحدث المرض وقال إن التريبا[١١]نوسوم اكتشف فى كل إصابة بمرض النوم . ثم وصف الأكلة وصفا بينا وكانت مرسومة على الورق ثم بين علاقتها بالمرض فى أدواره الأولى والأخيرة ونتائج التجارب التى برهنت على أن التلقيح بالدم والمصل المستخرج من دورى الإصابة الأول والآخر كان له تأثير واحد فى القرود . قال وهذا ما يدل على أن الأكلة فى الدورين واحدة . قال ثم أن الأكلة وجدت أخيرا فى إصابات بمرض النوم حدثت فى (الكونغو) ، وهذه الإصابة تقرر أنها من الأمراض الليمفاوية . أما القسم الثانى من خطابه فقد خصه بالعامل الذى ينشر المرض وفيه أيضا تاريخ الاكتشاف فى (الأوغندا) وإيضاح لطريقة جمع الأدلة . ثم قال أن (الهامة)[١٢] هى نوع من التيستسى . غلويسنا [١٣]ـ بالباليس . وإن قسما آخر من هذا النوع وهو غلويسنا[١٤] بلليبيدس ينشر مرض النجانا فى (النتال)[١٥] . وبعد أن شرح طبيعة هذه (الهامة) قال إنها تنقل المكروب بامتصاص الدم من المصاب ويحدث ذلك غالبا فى النهار . وأكثر الوطنيين إنما هم فى منطقة هذه الهوام فى النهار لقضاء أعمالهم . ثم بين بإسهاب اختلاف هذه الهوام باختلاف الأرض ، ثم ذكر طريقة جمع تلك الهوام وتغذيتها . وقال إن التجارب برهنت على أن الهامة يمكنها أن تنقل

---

(١١) التريبانوسوم = Trypanosome ـ المثقبية ، واحدة المثقبيات Trypanoma وهى حيوانات دنيا طفيلية تسبب داء المثقبيات Trypanosomiasis المعروف باسم مرض النوم Sleeping Sickness (النوام) المنتشر فى أصقاع كثيرة من أفريقية الاستوائية ، وأعراضه الحمى والنعاس والارتعاد والهزال ، وتنقل هذه الطفيليات ذبابة التسي تسى tsetse

. - Lexicon Universal Encyclopedia - Vol. 1 - pp., 322 - 323

(١٢) الهامة = حشرة طائرة . جمعها (هوام) ـ ويقصد بها ذبابة التسى تسى .

- المعجم الوجيز ـ مجع اللغة العربية ـ القاهرة ـ ١٩٩٦ ـ ص ٦٥٣ .

(١٣) غلويسنا بالباليس = جلوسينا بالباليس Glossina palpalis ، النوع genus الذى تنتمى إليه ذبابة التسى تسى testse المعروفة (بالشذاة) التى تسبب لدغتها مرض النوم الأفريقى .

- Lexicon Universsal Encyclopedia, op. cit.

(١٤) غلويسنا بلليبيدس = جلوسينا باللبيبيدس Glossina pallipidis ـ ضرب آخر من ذباب التسى تسى ينقل مرض الناجانا Nagana للحيوانات .

- Ibid., p., 323

(١٥) النتال = الناتال Natal ، أصغر الأقاليم الأربعة التى تتكون منها جنوب أفريقيا . ويحدها من الشرق (المحيط الهندي) ، ومن الشمال سوازيلاند وموزمبيق ، ومن الغرب ليسوتو ـ تقع مدينة (ديربان) الشهيرة Durban فى هذا الإقليم ، انضمت الناتال إلى (اتحاد جنوب أفريقيا) فى سنة ١٩١٠ .

- Lexicon Universal Encyclopedia Vol., 14- p., 26

(الأكلة)[١٦] من المصاب إلى القرد فى فترات بين ١٢ و٢٤ ساعة و٤٨ ساعة . قال من الراجح أنها لا تقوى على ذلك بعد خمسة أيام . والهوام التى امسكت وكانت قد مصت من دم المصاب قبل إمساكها بمدة قصيرة أفسدت دم القرود فى الحال ولذلك أصبح من المقرر أن الناقل فى طبيعة[١٧] المركوب مرض النوم وهو[١٨] تلك الهامة . أقول وقد أوضح هذا الخطيب خطابه برسوم وخرايط وتلا كل شيء من أبحاثه بعبارة متنسقة[١٩] مكنت الذين لا يعرفون الطب من فهم كل عبارة فيه فنال أعجاب السامعين به واستحسانهم لخطابه .

وجاء الخبر من محافظ السويس إلى ديوان الوزارة وقصر الإمارة بوصول باخرة يونانية وعليها جماعة كثيرة من العساكر والضباط الأتراك بسلاحهم ومتاعهم ، وأنهم طلبوا من البلد زادا ومالا لجماكيهم[٢٠] ورسوم مرور سفينتهم قناة السويس ، وأنهم يتهددون بنزولهم إلى البر بسلاحهم وأخذهم كلما[٢١] يصادفونه عنوة وبقوة سلاحهم . فاهتم ولاة الأمر لهذا الخبر اهتماما عظيما وتناقله أصحاب الصحف المحلية وتحدث به الناس حتى قالوا إن أولئك الجنود موفدون من بلاد اليمن إلى السويس لطرد الانجليز من البلاد واحتلالها بدلا منهم . وكثر اللفظ[٢٢] وبدت من العامة وصغار العقول دلايل الوحشة والجفاء شأنهم عند حدوث الإرجاف بالسلطان وعساكر السلطان ومراسيم السلطان حتى يجسمونها تجسيما يخرج بها عن الحقيقة إلى الإيهام . وتحرير خبر هذا الحادث أنه كان أرسل منذ سنتين طابور من رديف[٢٣] (أطنه) وآخر من رديف (أزمير) إلى (قنفذه) من أعمال

---

(١٦) الأكلة = يفهم من سياق الكلام أن المقصود بمصطلح الأكلة (العدوى) .

(١٧) الناقل فى طبيعة المركوب مرض النوم = عدلت النص ليكون (الناقل لمرض النوم) قراءة اجتهادية .

(١٨) وهو = هو قراءة اجتهادية .

(١٩) متنسقة = متسقة أو متناسقة قراءة اجتهادية .

(٢٠) جماكيهم = رواتبهم ـ من الفارسية (جامه) بمعنى اللباس ،لكن دلالتها اللغوية (مصروفات دولاب الملابس) . أما دلالتها الاصطلاحية فهى (الجراية الشهرية التى تعطى من غلة الوقف) .
ـ أحمد السعيد سليمان (تأصيل ما ورد فى تاريخ الجبرتى من الدخيل) ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ ١٩٧٩ – ص ٥٩ .

(٢١) كلما = كل ما قراءة تصحيحية .

(٢٢) اللفظ = اللغط قراءة ترجيحية .

(٢٣) رديف = من يركب خلف الراكب ـ استخدمت بعد ذلك للإشارة إلى من يسرح من الجيش العامل ليكون (مددا) فى التعبئة العامة (ردفاء) .
ـ المعجم الوجيز ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ٢٦١ .

اليمن ، فأتم الطابوران مهمتهما على ما يقولون ولم يبق إلا العودة إلى بلادهما . قالوا ومن المقرر أن الرديف إذا عاد يعود بسلاحه إلى بلاده فيسلمه إلى مخازن السلاح خلافا للجيش النظامى الذى إذا سُرحَ من مكان ترك سلاحه فى ذلك المكان . قالوا فأولئك العساكر رأوا باخرة يونانية تحمل دقيقا إلى (الحديدة) من جانب الباب العالى فأوقفوها وأكرهوا قبطانها على العودة بهم إلى (أزمير) حتى لا ينتظروا فى (قنفذة) وصول باخرة أخرى . فلما وصلت الباخرة إلى ميناء (السويس) طلبت من محافظ البلد وقد نفذ زادها إعطاء أولئك الجنود الزاد والمأكل . فسير المحافظ إلى ديوان الوزارة فى طلب ذلك فجاءه الجواب بأن الأمر لا يعنى الحكومة المصرية ولا هى تلتفت إليه . وعلم ضباط أولئك العسكر بذلك فثار ثائرهم زنادوا[٢٤] بالويل والثبور وأرسلوا يقولون إلى المحافظ أنهم ينزلون بسلاحهم ويأخذون كل شىء عنوة . وكان مأمور السواقيات[٢٥] العسكرية التركية (بالسويس) قد أرسل إلى المابين الهمايونى يخبرهم بواقعة الحال ويطلب سرعة إرسال النفقة لمأكل الجند وصرف جماكيهم ، فأرسلوا إليه شيئًا تحويلا على البنك العثمانى . ولم يتمكن ذلك المأمور من استرضاء الضابط[٢٦] والعسكر إلا بعد العناء الكبير . ومرت سفينتهم بالقناة وهم يصيحون وينادون بالويل والثبور ويكثرون من هزر الكلام وفحش القول والسباب من مثل (جاور كافر)[٢٧] (ايمان يوك)[٢٨] (مصرى قلاح)[٢٩] حيوان وغير ذلك كثيرا . وانقضى هذا الحادث على غير ما كان يتوقعه أذناب الحزب الوطنى .

---

(٢٤) زنادوا = ونادوا قراءة ترجيحية .

(٢٥) السواقيات = السوقيات من الأصل العربى (ساق) أى حثه من خلفه على السير (وساقت الريح التراب والسحاب) . استخدم المصطلح فى الجيش بمعنى الترحيل والتعبئة وقيادة مؤخرة الجيش (الساقة) . والمعنى جميعه (المسئول العسكرى عن الترحيل والتسفير) .
- المعجم الوجيز ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ٣٢٩ .

(٢٦) الضابط = الضباط قراءة تصحيحية .

(٢٧) جاور كافر = gâvur كلمة فارسية تعنى غير مسلم أو مجوسى .
- The concise Oxford Turkish Dictionary - Clarendon Press - Oxford - 1959 - p., 108

(٢٨) إيمان يوك = عبارة تركية تعنى بلا إيمان .

(٢٩) مصرى قلاح = مصرى فلاح قراءة اجتهادية . عبارة تركية للسب . ففلاح فى اللغة التركية لا تعنى فقط ذلك الذى يزرع الأرض ، وإنما يقصد بها الإنسان الفظ والجلف Boor ، والريفى الساذج ، والقروى من البلاد العربية Arab Villager ، والشخص الريفى شديد الإرتباك . فهى فى جملتها نوع من السباب . . ولايقصد بها الفلاح الذى يزرع فالأناضول كله يشتغل أهله بالزراعة .

=

وجاء الخبر من محافظ الأسكندرية إلى ديوان الوزارة بإصابة إحدى بواخر شركة (روبا تينو الإيطالية) على مقربة من العجمى عند دخولها ميناء الأسكندرية غروب يوم خامس فبراير من السنة . ذلك أنها أقبلت من إيطاليا مساء اليوم المذكور وجعلت تدنو من الميناء دون أن تشعر بقدومها رجال البوغاز وأصحاب المناير ، فاصطدمت بصخر فى جهة العجمى فانشق جنبها فاستغاثت بإشارات الخطر وكانت قد تأخرت عن ميعاد حضورها ، وأكثر قبطانها من إطلاق الصواريخ النارية مستغيثا فلم يرد أحد عليه ، فضاعف فى إرسال الإشارات . وفى هذه الأثناء أخذت الباخرة فى الجنوح على جانبها الأيمن ونفقت[٣٠] المياه إلى ظهرها ، وكان الهواء شديدا والبرد قارسا جدا . فبرز الأمر بتخفيف وسق الباخرة وألقوا فى الماء كلما[٣١] كان على ظهرها . وزعر[٣٢] الركاب فصعدوا إلى ظهر الباخرة وتمسكوا بحبالها ورأوا الموت دانيا منهم فلم يسكن روعهم وعود الضباط ولا تشجيع النوتية لأنهم كانوا يرون الباخرة فى انحناء مستمر والمياه تغمرها وتملاها[٣٣] حينا فحينا والظلام حالكا . فأنزل القبطان أحد الضباط فى زورق وأرسله إلى الميناء فى طلب النجدة . فوصل الضابط وتوافدت الزوارق إلى العجمى ولكنها لم تجسر على الدنو من الباخرة لتخلص الركاب لشدة هياج البحر . وفى الساعة الرابعة بعد منتصف الليل وصلت قاطرتان من الميناء فبذلتا كل جهد للوصول إلى الباخرة فلم تفلحا . ورأى القبطان أنه إذا أنزل الركاب فى الزوارق عرضهم للهلاك المحتم ، فلبثوا على ظهر الباخرة ينتظرون الفرج والماء يغمر بعضهم حتى صدورهم . ولما أشرقت الشمس مدوا الحبال من الباخرة إلى الزوارق وخلصوا الركاب فوصلوا الأسكندرية فى نحو الساعة السابعة ونصف صباحًا وعددهم ماية وخمسين راكبا وأكثرهم بأثواب النوم وبينهم جوق الممثل (نوفللى) وبعض

= ويذكر (أحمد عرابى) فى مذكراته أن خواص (الخديو توفيق) كانوا يزورونه فى سجنه قبل تقديمه للمحاكمة ويبصقون عليه قائلين (فلاح زنبليل) ـ أى الفلاح الذى مهنته حمل (الزنابيل) . والزنبيل لغة هو (القفة) وجمعه (زنابيل) ، أو الفلاح الذى كالزنبيل ، أى الفلاح الزنبيل (أى القفة) .

- چيمس رد حاوص الانجليزى (تركجه ـ إنكليزچه لغت كتابى) ـ استانبول ـ ١٨٩٠ – ص ٨٩٦ .

- أحمد عرابى (كشف الستار عن سر الأسرار) ـ مذكرات أحمد عرابى ـ الهلال ـ القاهرة ١٩٧٨ ـ ص ٣٤ .

- المعجم الوجيز ـ ص ٢٩٣ .

(٣٠) ونفقت = وتدفقت قراءة ترجيحية .

(٣١) كلما = كل ما قراءة تصحيحية .

(٣٢) وزعر = وذُعِر قراءة تصحيحية .

(٣٣) وتملاها = وتملؤها قراءة تصحيحية .

الجنود الإيطالية الراجعة إلى (مصوع) . ولم يتمكنوا من تخليص البريد ، وبذل مدير البوسطة جهدا عظيما فى انتشاله من اليم وتجفيفه . وانتشر خبر ذلك فى الأسكندرية ومصر فقلق الناس وخاف أصحاب البضائع والرسائل . واهتم رجال البوغاز وزوارق الميناء بخلاص الباخرة اهتماما عظيما وأقاموا الحرس لخفارتها فى البحر والبر . وظلوا على هذا أياما حتى تم لها الخلاص فادخلوها إلى الحوض لترميمها .

وتفشى الخبر بسرعة بوقوع القتال بين جماعة من العربان فى المنطقة الواقعة ما بين (صحراء ليبيا) (وطرابلس الغرب) وأن القتال بينهم كان شديدا قتل فيه خلت[٣٤] كثير ، وأن أهل الحل والعقد قاموا يهتمون بفصل التخوم بين مصر (وبنى غازى) . وكثر تحدث الناس فى ذلك أياما . وتحرير الخبر أن بعض العربان قاموا على جماعة من عربان التخوم المصرى[٣٥] لأسباب مجهولة لم يصل أحد إلى معرفتها ، فتضاربوا بالهراوى ثم تراموا بالرصاص فقتل من الفريقين اثنى عشر قتيلا وقتل بل أكثر من ذلك كثيرا . واستصرخ المهزومون عربان (أولاد على) عربان التخوم المصرى فخرجوا لنجدتهم ووقع القتال على أشده فتقهقر عربان (بنى غازى) ورجع (أولاد على) إلى بيوتهم . وعلم رجال غفر السواحل بما جرى فطيروا خبره إلى وزارة الحرب وديوان الوزارة . فجاءهم الأمر بالبقاء على الحياد وعدم التعرض لأحد بسوء . وما هى إلا عشية أو ضحاها حتى علم مقدم جند غفر السواحل بان طائفة من العساكر التركية مؤلفة من مائة جندى وأربعة ضباط قدمت ونزلت على قيد بعض فراسخ من التخوم ، وأن أولئك الجنود انشؤا[٣٦] مستودعات غرب خليج (سلوم) . أقول وقد كان الأخذ والرد فى شأن ذلك التخوم بين الحكومة المصرية والباب العالى لا ينقطعان ولا يقفان عند حد ، وهما معلقان على وقوع الحوادث بين العربان هناك ، فكان إذا طرأ حادث قامت ضجة الحكام وكثر الأخذ والرد فى فصل التخوم . وظلوا على هذا ، فإذا عادت السكينة بين العربان عاد أصحاب الحل والعقد إلى الاستكانة وترك الأمور تجرى فى أعنتها ، وهكذا كان الحال . أقول ويبعد (خليج السلوم) الذى أنشئت فيه محطة الحدود العثمانية على ما يقولون زهاء مائة ميل من (مرسى

(٣٤) خلت = خلق قراءة ترجيحية .
(٣٥) المصرى = المصرية قراءة ترجيحية .
(٣٦) أنشؤا = أنشأوا قراءة تصحيحية .

مطروح) لجهة الغرب . وعندى أنه ليس كبير أهميته[٣٧] الآن ولكنه كان فى الأزمان الماضية ممرا للغزاة الذين كانوا يغيرون على (طرابلس الغرب) وصحراء (ليبيا) بعد أن ينزلوا على (جروب) الواقعة على الجهة الشرقية من الخليج . وتمتد من (جروب) طريق يتصل إلى (سيوه) مارا بآثار (قصر العجيبة) والمنبسط من الأرض المتصل بالواحات . ولم توضع حدود لتلك الأطراف منذ القدم ولم تعمل رسوم للصحراء القريبة من خليج سلوم إلى يومنا الذى نحن فيه . وربما كان صحيحا ما يقوله أهل الحل والعقد من أن الحكومة العثمانية بنت مخافر ومرابط فى الأراضى المصرية لغرض من أغراض الباب العالى الخفية . ولذلك قد اهتموا اهتماما كبيرا بأمر ذلك البناء ، وتكلم فى شأنه سفير الإنجليز مع الباب العالى ، وكثر الأخذ والرد بين الفريقين حولا على غير جدوى .

وحدث أنه عند خروج طلعة الحج لهذا العام اعدت خزينة المالية (مال الصرة) المعتاد إرساله مع ركب المحمل فى كل عام قدرا مقررا ذهبا معدودا . وقام الخفر من الجند على حراسة[٣٨] من الخزينة إلى القطار الذى أعد لنقله إلى مدينة السويس . وباتوا حول القطار ليلتهم تلك وهم أيقظ من نعامة . وأصبحوا وقد حضر أمين الصرة يريد استلام المال حسب المعتاد فإذا بهم يرون أن يدا اغتالت صندوقان من الذهب . وطيروا الخبر بذلك إلى وزارة الخزينة ومحافظ المدينة وديوان الوزارة . فهرع المأمورين وأصحاب الحل والعقد إلى خط العباسية حيث القطار الذى يقل المال وجعلوا يفتشون وينقبون ويبثون العيون والأرصاد ويبعثون البعوث شرقا وغربا . وقبضوا على جماعة الجند الموكلون بالحراسة وألقوهم فى الحبوس وجعلوا يتخبطون فى التحقيق ، فيوما يقبضون على هذا ويوما على ذاك . وقد برز الأمر بتعويق أمين الصرة واستبداله بآخر . وأكبر الناس هذا الحادث كثيرا حتى لقد أوقعوا شبهة جرمه على عساكر جيش الاحتلال لقرب عربات السكة الحديد التى كانت تقل مال الصرة من منازل أولئك العسكر . وسافر الركب ولم يقفوا إلى ساعة قيامه على أثر للفاعل . واهتم صاحب الشرطة وأعوانه بكبس دور العامة بالعباسية البحرية ودور السودانيات بتلك المحطة وأوغلوا فى الدروب الموصلة إلى

(٣٧) أهميته = أهمية قراءة اجتهادية .

(٣٨) حراسة = حراسته قراءة ترجيحية .

المقطم والجبل الأحمر وطريق السويس القديم ، واستنجدوا بعض[٣٩] العربان المشهورين بتتبع الأثر . فجاسوا تلك الأطراف ولم يهتدوا إلى معرفة شيء من أسرار ذلك الحادث الكبير . واشتد قلق صاحب الشرطة حتى بلغت به الظنة إلى السوء بجند الاحتلال لقرب عربات ذخيرة المحمل بمنازلهم هناك . وظل الحال على هذا طويلا والظنون مترامية والشبهات متواصلة والحبوس غاصة بأرباب السوابق والشبهات . وبلغ ركب المحمل حجته وعاد يريد (ينبع) . وبينما هو فى طريقه خرج عليه عربان الدروب يعملون فيها[٤٠] ضربا وطعنا وتمزيقا ، فقابلهم حرس المحمل واشتبكوا معا فى موقعة شديدة . وجاء خبر ذلك إلى ديوان الوزارة وقصر الإمارة فى ثامن عشر أبريل من السنة ، وشاع وتناقله الناس . فعم الخوف واشتد قليل[٤١] أهل الحجاج وذويهم وتزاحموا على أبواب محافظ المدينة يسألون عما يكون قد حل بأهلهم . وظلوا على هذا إلى رابع عشرة الشهر جاءت[٤٢] الأخبار مفصلة ما وقع فى ذلك اليوم ، وهو قتل ستة وثلاثين من العرب وجرح ستين منهم ، وقتل أربعة من رجال المحمل وجرح اثنين وعشرين منهم ، وقتل ثلاثة من الحجاج وجرح أربعة عشر بجراح خفيفة . قالوا وقد نزل الركب كله فى محجر الطور لقضاء أيام الحجر الصحى . فأكثر الناس من إرسال الرسائل بالبريد وعلى جناح البرق إلى أهلهم وذويهم يسألون عن سلامتهم بعد الذى حل بهم من الزعر[٤٣] والخوف الجسيم . فجاءتهم بعض الكتب يقولون فيها (سار المحمل من ينبع إلى المدينة وبعد أن قطع صلاث[٤٤] مراحل جاءته رسل (الأحامده) بطلب العوائد ، فقابلهم أمير الحج بكل خشونة وجفاء ومزق الكتب التى كانوا يحملونها وهددهم برصاص بنادقه ، وانكفوا[٤٥] راجعين والحقد يغلى فى صدورهم . وسار الركب تخفره الجند ونفر من قبيلة (الحوازم) ولكن الخوف قد تملك من قلوب الجند حتى كانوا يجفلون الركب بصياحهم بين حين وآخر . قالوا وحدث أن المحمل كان مارا بواد ضيق فرأى العسكر العربان على رؤوس الجبال المشرفة على ذلك الوادى فظنوا أنهم ينوون الاعتداء . فاقتفوا أثرهم وقبضوا على

(٣٩) بعض = ببعض قراءة اجتهادية .
(٤٠) فيها = فيه قراءة تصحيحية .
(٤١)قليل = قلق قراءة اجتهادية .
(٤٢) جاءت = فجاءت قراءة ترجيحية .
(٤٣) الزعر = الذعر قراءة تصحيحية .
(٤٤) صلاث = ثلاث قراءة ترجيحية .
(٤٥) وانكفوا = فانكفوا قراءة تصحيحية .

نفر منهم فإذا هم من عفراء[٤٦] الركب لا من الأعداء فأطلقوا سبيلهم . ولما بلغ الركب إلى محطة (الحمراء) دفع أمير الحج قسما من المرتبات والعوائد لشيخى (الأحامده) على الرسم المعتاد . ولما وصلوا إلى (بئر درويش) ظهر بعض العرب على رؤوس الدروب ورموا الركب برصاص بنادقهم فقتلوا عسكريا ، فقابلهم العسكر بنارهم الحامية فقتلوا منهم خلقا . فعند ذلك اشتد العداء وكثر الرمى بالرصاص من كل صوب وحدب ، فكان لا يمر الركب بشقة إلا يناله من إذى العربان شيئًا كثيرا . ولما هم الركب بالرجوع من (المدينة) قام معه طائفة من العساكر العثمانية حتى (الحمراء) ثم عادت إلى المدينة . ولم يقع فى هذه الأثناء شىء .

وحدث بعد ذلك بيومين أن اختصم جندى من الجنود المصرية مع بدوى على ورقة دخان . فجاء عسكرى آخر ينتصر لرفيقه ، فصفع البدوى صفعة شديدة ، فعلت الصيحة واشتد الخصام وتارمح[٤٧] بعض الحجاج ، فزعر[٤٨] الركب كله ووقع المحذور[٤٩] وتطاير رصاص البنادق بين الفريقين . واشتد القتال وحمى الوطيس فنفرت الجمال أو أن الجمالة استنفروها وفروا بها وتركوا الأحمال . وقيل بل أخذوا منها شيئا كثيرا وتعطل سير الركب ثلاثة أيام مرابطا فى (الحمراء) حتى تمكنوا من استئناف المسير وهم على حذر والانتباه[٥٠] شديدين . ولما وصلوا (الطور) وقضوا أيام الحجر عاد الركب إلى القاهرة وخرج الناس للقاء أهلهم وذويهم ومعهم الطبول والزمور والرايات والأكسية على عادتهم عند وصول الحجاج وكلهم فرحون جزلون . فما هو أن علم كل جماعة بما حل بذويهم حتى اختلط البكاء والعويل والندب بأصوات الطبول والزمور وزغاريت النساء وصياح الغلمان . فكان المنظر مؤثرا جدا وكنت ترى أن الذين عاد ذويهم سالمين يهللون ويتزاحمون فرحين وحولهم الطبول والزمور ، والذين مات ذويهم يعولون ويندبون ويضعون التراب على رؤوسهم . فكانت ساعة من أشر الساعات وأفزعها . وتحقق أهل الحل والعقد إن الذين ماتوا كانوا كثيرين جدا لا كما جاءت به الأنباء ، وإن تبعة ما وقع ساقطة على

---

(٤٦) عفراء = خفراء قراءة ترجيحية .
(٤٧) وتارمح = وترامح قراءة اجتهادية .
(٤٨) فزعر = فذعر قراءة تصحيحية .
(٤٩) المحذور = المحظور قراءة تصحيحية .
(٥٠) والإنتباه = وانتباه قراءة ترجيحية .

رأس أمير الحج ، فإنه لم يستعمل الحكمة ولا حسن الرأى مع جماعة العربان ومشائخ الدروب . وتناسى الناس أو كادوا سرقة (مال الصرة) وعجز أهل الحل والعقد عن كشف سرها الغامض .

وفى[٥١] ما الناس على هذا ، إذا شاع الخبر وتحدثوا به من قيام الفتنة عند تخوم المغرب وأن العربان اقتتلوا عند مرسى مطروح قتالا تشيب لهوله النواصى ، وتناقل أصحاب الصحف المحلية هذا الخبر وبالغوا فى نقله مبالغة أخرجته عن حد المعقول من الحوادث حتى خيل للناس أن دماء القتلى جاءت تجرى من مرسى مطروح إلى باب العرب عند الأسكندرية ولم يمنعها من الانحدار مانع . واشتد الخوف بأهل الإسكندرية وجارتهم فى ذلك النزلاء الأجانب حتى اضطر أهل الحل والعقد إلى تكذيب هذا الخبر وتطمين الناس على أن الحادث لم يبلغ هذا الحد من التهويل والأرجاف ولا هو ممن يضغون[٥٢] فى شىء . ذلك أنه لما كان لكل فرقة من قبايل العربان أرضا تسكنها بانعامها وماشيتها ، وكان جماعة العرب فى التخوم الغربى ينقسمون إلى قسمين وهما (المرابطين) (والسعادى) ، فحدث أن قبيلة (العواقير) جاءت ونزلت على ريف من أرياف قبيلة المرابطين ، وفى تلك القبيلة تنزل إبنة (لملوم السعدى) زوجة لأحد أهلها . و(لملوم) هذا عمدة قبية العربان منية[٥٣] ابن خصيب بالإقليم[٥٤] الوسطى . وكان زوج ابنة (لملوم) طامعا فى رياسة قبيلة (العواقير) . فلما وقع ما وقع من (العواقير) سير إلى المرابطين من يستفزهم إلى استرجاع أرضهم من (العواقير) . فسار جماعة من المرابطين إلى (الشيخ أبى سيف) شيخ (العواقير) وكلموه فى الأمر وطلبوا استعادة ريفهم حقنا للدماء وحفظا لحرمة الجوار . فقال (أبو سيف) ولما[٥٥] لا تطلبوا من (عبدالقادر) ذلك

(٥١) وفى ما = وفيما قراءة تصحيحية .

(٥٢) ولا هو ممن يصغون فى شىء = استبعدت الكلمة ليستقيم النص .

(٥٣) منية = بمنية قراءة تصحيحية .

(٥٤) بالإقليم الوسطى = بالأقاليم الوسطى قراءة ترجيحية ـ فمنية ابن خصيب (المنيا حاليا) كانت تقع فى عصر محمد على ضمن تقسيم الأقاليم الوسطى ، ويبدو أن المؤلف قد استخدم التسميات الإدارية القديمة للبلاد حرصا منه علي إكساب عمله نوعا من العبق التاريخى .
– محمد رمزى (القاموس الجغرافى للبلاد المصرية من عهد قدماء المصريين إلى سنة ١٩٤٥ ـ القسم الثانى ـ الجزء الأول ـ مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ١٩٩٤ ـ ص ١ – ١٨ .

(٥٥) ولما = ولم قراءة تصحيحية .

الذى أغراكم على ما أنتم فيه ، أن يبدأ هو برد ما أخذه من أملاككم غنيمة باردة . فأثر هذا القول فى القوم ، فقفلوا راجعين إلى (عبدالقادر) وطلبوا منه أن يبدأ هو بنفسه ثم يثنى بغيره . فأكبر (عبدالقادر) قولهم وأعظمه ورد عليهم ردا خشنا جافيا فردوا عليه بالمثل وقاموا مغضبين وفى نفس كل فريق ما فيها للآخر ، وما هى إلا أيام حتى نشب القتال بين الفريقين ، وأعد كل منهما عدته ووقع الضرب والطعن والكر والفر . وانكشف عن قتل ابن (عبدالقادر) وعدد من القبيلة بقليل . واستصرخ (المرابطين) قبيلة (البراعصة) فجاءت تنصر (المرابطين) فلم تفلح تماما ، وتجازت[٥٦] المرابطين التخوم الغربية فى طلب النجده واستجارت (بأولاد على) عند مرسى مطروح ، فأنزلتهم على الرحب والسعة . وبعد ضيافة ثلاثة أيام سرحتهم فى طلب الرزق حول التخوم المصرى ، فلم تمض إلا أيام حتى غشى منازلهم بمرسى مطروح مائتا فارس من (العواقير) يطلبون الثأر ، ولم يكن من أعدائهم فى البيوت سوى ستة وثلاثين رجلا . فأقام هؤلاء المتاريس ونشب بينهم وبين الفارين القتال فقتل من هؤلاء أربع وعشرون وامرأة واحدة وجارية سوداء ، وقتل من العواقير ستة وثلاثين وأربعين حصانا . ولما رأى الأحياء أن لا قبل لهم على مقاومة عدوهم فروا من وجهه فغنم متاعهم وانعكف راجعا إلى مواطنه التى تبعد عن مرسى مطروح مسيرة عشرة أيام للسائر المجد . ونهب (العواقير) خلاف ماشيتهم عددهم[٥٧] أربعين جملا من جمال (أولاد على) . فجعل أولاد على يترقبون الفرصة حتى جاءت أول قافلة لعرب طرابلس الغرب وقطعوا الطريق . فسار (لملوم السعدى) لزيارة أصهاره وقيل بل أرسلوا إليه بخبر ما وقع . فسار إليهم مع الشيخ (كيلانى يوسف) والشيخ (إبراهيم ديهموم) فلا[٥٨] يتمكنوا من مصالحة العواقير والمرابطين ولكنهم استرجعوا جمال (أولاد على) إلى أصحابها . فرضى (أولاد على) بترك الطريق حرة للقوافل والقطعان الآتية من (طرابلس الغرب) بعد سدها أياما كثيرة . وعاد (لملوم السعدى) ومن كان معه والأمور على ما هى عليه وفى نفوس القوم ما فيها من الحقد والشر المقيم .

(٥٦) وتجازت = وتجاوزت قراءة ترجيحية .

(٥٧) عددهم = استبعدت الكلمة ليستقيم المعنى .

(٥٨) فلا = فلم قراءة ترجيحية .

وجاء الصائح فى ثانى عشر يونية من السنة من سكان (الجودارية)[٥٩] إلى أصحاب المطافىء ورجال الشحنة بعد وقوع الحريق فى دورهم . فقاموا ومعهم المطافى وما معها من المعدات . وإذا بالنيران قد علقت فى كثير من شارع (الجودارية) الواقع بين دار المحافظ وشارع الموسكى وهى تنتقل من دار إلى دار والريح الشمالية تنفخ بشدة زائدة . وكان بدء اشتعال النيران فى ورشة بخار[٦٠] كان يطبخ الغراء فسعرت واتقدت حتى علقت بمطبعة من المطابع الكبرى هناك فاحرقتها واتصلت بمخزن لتاجر من كبار التجار وامتدت منه إلى بيوت تلك الخطة وإلى سقيفة شارع الفحامين وإلى المنازل الصغيرة فى ذلك الشارع . وكان لسان اللهيب يندلع من سقف الشارع إلى نوافذ الدور وشبابيكها ويدخل البيوت فيضرم فيها السعير حتى صارت جميع المساكن الكائنة بين شارع الفحامين وشارع الجودارية شعلة من نار . وخرج سكان تلك الخطة على وجوههم لا يلوون على شىء . وكثر الصياح والعويل من كل جانب . وجاء محافظ المدينة وصاحب الشرطة وجعلوا يحثون أصحاب المطافىء على مكافحة النار وهم يكافحونها جهد المستطاع وقد أعياهم ضعف أنابيب الماء وعجزها عن الدفع . وما زالوا على هذا اليوم بطوله حتى أخمدوا تلك اللهيب وأضعفوا تسعرها عند غروب الشمس . وباتوا ليلتهم يرقبونها ويخمدون ما يستعر منها حتى مطلع الشمس . وقد أحصوا ما التهمته النيران من متاع وبضاعة فكان ما قيمته ثلاثون ألفا ذهبا . ومات بعض النساء والغلمان من سكان الفحامين فكانت شدة بالغة جدا وتم القول المشؤم (إن معظم النار من مستصغر الشرر) .

وما كاد أصحاب المطافىء يعودون بعد جهادهم ذلك الطويل حتى جاءهم الصايح بوقوع الحريق بدرب البزبوز أحد دروب شارع كلوت بك . فأسرعوا بعدتهم والنار تأكل فى ثلاثة بيوت ذلك[٦١] الدرب ، فجعلوا يكافحونها حتى أطفوها بعد العناء الشديد . وفما[٦٢] هم فى طريقهم إذ جاءهم الصائح ثانية بوقوع الحريق فى (دار زينب هانم) فى شارع القصر العالى فهرولوا إليه مسرعين وجعلوا يعملون المطافىء بضع ساعات حتى تمكنوا من إخماد النار وإطفائها . وكانت الخسائر فى هذين الحريقين فادحة أيضا والأضرار عظيمة .

---

(٥٩) الجودارية = حارة من حارات (درب سعادة) بالدرب الأحمر بالقاهرة .

– تعداد سكان القطر المصرى ـ الجزء الأول ـ وجه بحرى ـ المطبعة الأميرية ببولاق ـ ١٨٩٨ – ٣١

(٦٠) بخار = نجار قراءة ترجيحية .

(٦١) ذلك = بذلك قراءة ترجيحية .

(٦٢) وفما = وفيما قراءة تصحيحية .

وما بزغت شمس يوم الأربعاء ثانى عشر يوليو تاسع جماد الأول سنة ثلاثة وعشرين وثلثمائة وألف حتى تفشى خبر وفاة (الشيخ محمد عبده) مفتى مصر . مات فى رمل الأسكندرية بعد مرض طويل لم تنفع فيه حيل الأطباء . فنقلوا جثته إلى القاهرة على قطار مخصوص ، فسار فى مشهده جماعة الأمراء والوزراء وأصحاب المناصب العالية والعلماء والمشايخ وأرباب العكاكيز وطائفة من الشرطة حتى (قرافة المجاورين) . ولم يكن لنعيه رنة حزن وأسى إلا عند أصحابه ومعارفه وأصدقاءه من أصحاب الوظائف والخطط الديوانية ، أما جماعة العلماء والمشايخ والمعممين وأصحاب العكاكيز فقد كانوا يبغضونه ويرمونه بالزندقة والإلحاد لبعده عن ترهاتهم وبغضه لعاداتهم السمجة والنزالة[٦٣] القديمة التى ورثوها صاغر عن كابر من الأزمنة الغابرة التى لا تلائم هذا العصر . وقد تقدم بيان الفرق بين هؤلاء الجماعة وبينه عند الكلام على فتواه فى لبس المسلم لزى النصرانى وحملهم الأحوال على غير ما هى حتى كان ما كان بينهم يومئذ .
أما حياة الرجل فهى أنه ولد فى (محلة نصر) إحدى قرى إقليم البحيرة ، ودخل الأزهر لتلقى العلوم فاتبع (المالكية) وكان شيخ الإسلام إذ ذاك (الشيخ محمد عليش) وكان (إمام المالكية) أيضا ، فكان يعده نابغة حلقته ويجله . فظل المترجم فى الأزهر حتى جاء مصر رجل من علماء الأفغان يقال له (السيد جمال الدين الأفغانى) فتصدر فى التدريس بالجامع بسعى من (مصطفى رياض باشا) . وكان تدريسه فى علوم المنطق والفلسفة والعلوم العقلية . فانخرط المترجم فى سلك تلامذته مع صديقى الودود الشيخ (محمد وفاء) عليه ألف رحمة ، والشيخ (عبدالكريم سليمان) و(إبراهيم بك الهلباوى) وغيرهم كثير . فلما ظهرت مقدرة (السيد جمال الدين) ذلك وبانت كفاءته امتعض جماعة المشايخ والمعممين من مدرسى الأزهر وقاموا فى وجه (الأفغانى) ورموه بالزندقة والكفر لأنه سار على غير منهاجهم السمج القديم ورموا تلامذته بالإلحاد وخصوا بذلك المترجم ، فغضب عليه (الشيخ عليش) وأبغضه وأخرجه من الجامع وحرم عليه دخول جامع (سيدنا الحسين) . وظل المترجم مكروها مبغوضا عند القوم رغما من ابتعاده عن مجالسهم . فلما كانت سنة تسعة وسبعين وثمانمائة وألف ظهرت على المترجم ورفاقه دلايل النهضة العلمية والنشئة العصرية . وكان (مصطفى رياض باشا) إذ ذاك وزير

(٦٣) والنزالة = والنذالة قراءة اجتهادية .

المعارف . فقرب المترجم وولاه وظيفة التدريس فى (مدرسة الألسن) . فكثر من هذا الحين اجتماعه (بالشيخ جمال الدين) والتف حولهما آخرون من النشئة الحديثة . وكبرت حلقة تدريس (الشيخ جمال الدين) واتخذوا لهم دارا لندوتهم . وما هى إلا أيام حتى تركوا العلم واشتغلوا بالسياسيات وتاريخ نهضة الشعوب والأمم ضد الحكومات الجائرة . فباتوا وأصبحوا جماعة كثيرة وكلهم قوال وكلهم يعمل تحت رعاية (مصطفى رياض باشا) .

وبلغ خبرهم (الخديوى إسماعيل) فأكبره وأعظمه جدا وقد كانت تعاليم شيخهم كلها ترمى إلى خلع نير الحكام ومنع الظلم عن المظلومين . فبث حولهم العيون وأقعد لهم بالمراصد وقتا . ثم برز أمره بخلع (مصطفى رياض باشا) من منصب وزارة المعارف ، وأبعد (السيد جمال الدين) عن مصر وأقصى المترجم إلى قريته بإقليم البحيرة ، فظل مبعدا منفيا حتى خلع (إسماعيل باشا) وتولى بدله ولده (الأمير توفيق) ، وعاد (مصطفى رياض باشا) إلى منصب الوزارة فاستقدم المترجم وولاه تحرير (جريدة الوقائع المصرية) التى هى جريدة الحكومة . فضم إليه رفيقه الشيخ (عبدالكريم سليمان) و(سعد بك زغلول) و(إبراهيم بك الهلباوى) . وظل المترجم على شأنه هذا حتى سنة إحدى وثمانين وثمانمائة وألف . ظهرت (الثورة العرابية) فكان للمترجم فى أدوارها اليد الطولى وظهر عدائه للبيت المالك ظهورا كبيرا ، وولوه (رياسة المطبوعات) فاتسعت شهرته وعلت منزلته عند (زعماء العصابة[٦٤]) وأخذوا بقوله فى المهمات . وظل على شأنه حتى دخل الإنجليز الكنانة وملكوا من الأمر ما شاؤا . فقبضوا على المترجم مع من قبضوا عليهم من طغمة العرابيين وسجنوه فى المكان المعروف (بمخازن الدائرة السنية) . وكان له من جماعة الانجليز المستشرقين صديق اسمه (بلنت)[٦٥] . وهو الذى أغرى (عرابى) وأصحابه على الخروج وشق عصا الطاعة ، ثم على مقاتلة العساكر الانجليز بعد أن جاءه

---

(٦٤) زعماء العصابة = يقصد زعماء الثورة العرابية .

(٦٥) بلنت = ويلفريد سكاون بلنت (١٧ أغسطس ١٨٤٠ – ١٠ سبتمبر ١٩٢٢) Blunt, Wilfrid Scawen شاعر إنجليزى ومستشرق ومربى خيول وداعية للقضايا الإسلامية . اشتغل بالسلك الدبلوماسى البريطانى لفترة ثم تركه ليستكشف الصحراء العربية . أيد الثورة العرابية وألف عنها كتابه المعروف The Secret History of the English occupation of Egypt (١٩٠٧) . ساعد فى الدفاع عن (عرابي) أثناء محاكمته فى عام ١٨٨٢ . ونجح في تخفيض عقوبة الإعدام عليه إلى النفى . سعى من أجل تحقيق جلاء مبكر لبريطانيا عن مصر ، وألف عن ذلك كتابا بعنوان Gordon in Khartoum (١٩١٢) . ساعد (الحزب الوطنى ومصطفى كامل فى مسعاه من أجل =

الأمر من (الخديوى توفيق باشا) بالكف عن معاداة دولة الانجليز التى لم تأت جحافلها وسفن حربها إلا لإعادة السكينة والطمأنينة إلى نصابهما إشفاقا ومحبة منها للمصريين[٦٦] ، فلم يرعو ولا ثاب إلى رشده . وكان مما اتهم به المترجم أنه أفتى بخلع الخديوى فحكم عليه بالنفى والإبعاد عن ديار مصر . وظل مبعدا منفيا فى الشامات حتى قضى مدة العقوبة ثم سار إلى ديار الفرنسيس واجتمع بالسيد (جمال الدين) وأنشأ جريدة باسم (العروة الوثقى) ، فمنعت الحكومة المصرية دخلولها إلى مصر . يقال وعلم شيئا من لغة الفرنسيس ، وظل على هذا حينا حتى جاء العفو من (الخديوى توفيق) فصار إلى وطنه حوالى سنة سبع وثمانين ـ واحتسب على لورد كرومر فمال إليه وولاه القضاء بالمحاكم الأهلية . وما زال حتى دخل محكمة الاستئناف العليا حوالى سنة تسعين ثم تولى منصب الافتاء فى سنة سبع وتسعين وثمانمائة وألف وظل فيه حتى وافاه القدر المحتوم

أقول وقد نقل إلينا أحد مريديه أنه نظم وهو على فراش المرض قصيدة منها قوله :

ولست أبالى أن يقال محمدا أبل أو اكتظت عليه المآتم
ولكن دينا قد أردت صلاحه أحاذر أن تقضى عليه العمائم
وللناس آمال يرجون نيلها وإن مت ماتت واضمحلت عزائم
فيا رب إن قدرت رجعى قريبة إلى عالم الأرواح وانغص[٦٧] خاتم
فبارك على الإسلام وارزقه مرشدا رشيدا يضىء النهج والليل قاتم

انتهى

= استقلال مصر ، وفعل ذلك مع ثوار ١٩١٩ . مول مجلة شهرية باسم (Egypt) خلال الفترة ١٩١١ - ١٩١٣ وهاجم فيها الاحتلال البريطانى وساعد الحركة الوطنية المصرية .
- أرثر جولد شميت جونيور (قاموس تراجم مصر الحديثة) ترجمة وتحقيق عبدالوهاب بكر ـ المجلس الأعلى للثقافة ـ المشروع القومى للترجمة ـ القاهرة ٢٠٠٣ - ص ٥٧ .

(٦٦) يكشف ميخائيل شاروبيم فى هذه السطور عن رأيه الحقيقى فى الاحتلال البريطانى لمصر ، وهو ذلك الرأى المتفق مع رأى الجماعة المنحازة لبريطانيا فى ذلك الوقت (الخديو توفيق ومحمد باشا سلطان ومن والاهم) . وقد بلغ حسن النية ـ وهو أقصى درجات التأدب فى النقد ـ بهذه الجماعة حد تصور أن بريطانيا قد أتت (بجحافلها وسفن حربها . . . لإعادة السكينة والطمأنينة إلى نصابهما إشفاقا ومحبة للمصريين) . وليت (شاروبيم) قد عاش حتى يرى كيف أن هذه الشفقة والمحبة قد استمرت حتى عام ١٩٥٤ ، وأن مهمة إعادة السكينة قد استغرقت من بريطانيا ٧٤ عاما حتى تعود ، ثم كيف أن هؤلاء المحبين عادوا فى عام ١٩٥٦ مع الفرنسيين والإسرائيليين . . . . بجحافلهم وسفن حربهم أيضًا .

(٦٧) وانغص = وانفض قراءة اجتهادية .

أقول من غرائب الصدف أنه فى اليوم الذى مات فيه الشيخ محمد عبده مات فيه أيضا السير (ويليم موير) أحد مشاهير الكتاب الانجليز وأكثرهم انتقادا للإسلام وعداء لشيوخه كما كان يقال إن الشيخ محمد عبده أكبر مدافع عن الإسلام . ومات أيضا فى بلجيكا (الدكتور سدناى سمث) المثرى الأمريكى أصدق صديث[٦٨] للإسلام ومن أصدقاء الشيخ المترجم .

وحدثنى فاضل من أصدقائى قال (أو ما رأيت ما قاله الزرقاوى فى نتيجته التى طبعها منذ ثمانية أشهر عن موت الشيخ المترجم) فقلت لا . قال خذها وانظر فيها فنظرت فإذا فيها أقوال على شكل القصيد وفيها البيان .

إلا برا رحمة الرحمن سبى[٦٩] على قبر حوى رحوم الامام
ويا ذا الدهر اندب ليث غاب فمن يفتى إذا الأستاذ نام

قلت وما أغرب الصدف

وجاء الخبر على جناح البرق إلى قصر الإمارة وديوان الوزارة بنعى (عون الرفيق باشا) شريف مكة سليلة[٧٠] الهواشم من ولد (محمد العلوى) . وشاع خبر ذلك وتناقله أصحاب الصحف على اختلافها . وسير الأمير كتب العزاء إلى أهله وذويه مفعمة بأرق عبارات العزاء وكذلك فعل الرئيس (مصطفى فهمى) باشا باسم الحكومة المصرية .

أقول وإمارة مكة والحجاز هى من سلسلة هذا البيت منذ سنة اثنين وخمسين وأربعمائة للهجرة إلى يومنا الذى نحن فيه . وظلت هذه الإمارة لم ينقطع حبلها إلا فى السنوات العشرة التى أغار فيها الوهابيين على (مكة) والدمينة[٧١] وتملكوهما ، حتى قامت عليهم جيوش المصريين بقيادة (طوسون باشا) و(إبراهيم باشا) ولدى (محمد على) باشا وطردوهم منهما .

---

(٦٨) صديث = صديق قراءة ترجيحية .
(٦٩) سبى = صُبّى قراءة ترجيحية .
(٧٠) سليلة = سَليل قراءة ترجيحية .
(٧١) والدمينة = والمدينة قراءة تصحيحية .

بسط أول خلفاء (بنى عثمان) سلطته على الحجاز حوالى سنة سبع عشرة وخمسمائة وألف للميلاد فأبقى جماعة الشرفاء فى مناصبهم . فظلوا على مجدهم ونفوذهم حتى اليوم تغدق عليهم النعم والهبات والعطايا من كل ملك فى الإسلام وأمير . ولم يعين (الباب العالى) واليا على الحجاز إلا حوالى سنة أربعين وثمانمائة وألف حيث بدا من حيف الشرفاء واستبدادهم ما أوجب ذلك . وأخذ الوالى شيئا كثيرا من سلطة الشرفاء ولكن الإمارة ظلت على حالها بالتوارث غير أن الأمير يعين بفرمان من السلطان كما تتعين الولاة ، تتحدد فيه السلطة من (مدائن صالح) فى حدود الشامات إلى (دوقة) فى حدود اليمن . ومن التقاليد أن ولى عهد الشريف يبقى فى دار السلطنة العثمانية كرهينة . وللشريف راتب سنوى من خزينة الدولة قدره اثنى عشر ألف جنيه مجيدى يقبضه من جمرك جده شهرا فشهرا وله عدا ذلك أربعين أردبا من الحنطة وثمانين من الفول ومائة من الشعير وشيئا من القهوة والسكر والشمع والصابون وغير ذلك . أقول وكانت ولادة الشريف (عون الرفيق) المتوفى حوالى عام ستة وخمسين ومايتين[٧٢] وألف للهجرة . وحين تولى الإمارة (الشريف حسين) سنة أربع وتسعين[٧٣] ومايتين وألف وصيرورة الشريف (عون الرفيق) ولى عهد نقلوه إلى دار السلطنة وولوه عضوية شورى الدولة وزينوا صوره[٧٤] بنياشين الافتخار . و(الشريف حسين) ذلك سمى بالشهيد لأن أحد (البابيه)[٧٥] قتله فى (جده) عام سبعة[٧٦] وتسعين للهجرة ولم يعرف سبب قتله لأن (البابى) لم ينطق بعد فعلته بكلمة قط رغما من كل ما ذاقه من أشكال التعذيب حتى مات صبرا . وبعد موت (الشريف حسين) تولى الإمارة (الشريف عبدالمطلب) وكان

(٧٢) تقابل عام ١٨٤٠ ميلادية .

(٧٣) تقابل عام ١٨٧٧ ميلادية .

(٧٤) صورة = صدره قراءة ترجيحية .

(٧٥) البابية حركة دينية أسسها (ميرزا على محمد الشيرازى) الذى أعلن فى عام ١٨٤٤ أنه قد اختير من السماء ليكون (بابا) Bab . فهم الكثيرون أن هذا اللقب يتضمن تلقى (محمد الشيرازى) رسالة مقدسة تتجاوز فى أهميتها (الوحى) الذى أنزل على الرسول الكريم (محمد صلى الله عليه وسلم) ، وأن كتابه عن الوحى المسمى (البيان) يفوق القرآن .

– تسببت هذه الحركة فى ظهور التوتر والحساسيات وأعقبها إعدام (الباب) فى عام ١٨٥٠ . وعندما جرت محاولة لاغتيال الشاه فى عام ١٨٥٢ ، زادت حدة الاضطهاد ضد (البابيين) . هرب خليفة (الباب) إلى بغداد) مع أخيه غير الشقيق (ميرزا حسين على) الذى اعترف به فيما بعد (بهاء الله) من جانب أغلب أتباع الحركة . أصبحت هذه الحركة التي قادها (بهاء الله) تعرف (بالبهائية) .

- Lexicon Universal Encyclopedia - Vol. 3 - p., 7

(٧٦) تقابل عام ١٨٨٠ ميلادية .

شيخا فانيا فظل فيها سنتين ولم يحسن إدارتها . فلعبت الأيدى سلطنته(٧٧) وتولاها الخلل . فخلع وألزم البقاء فى عقر داره وأقاموا الشريف (عبدالله) مكانه حتى يولى السلطان ولى العهد . فبرز الأمر بولاية الشريف المترجم فتولاها فى عشرة القعدة سنة تسع وتسعين(٧٨) ومايتين وألف للهجرة ، وجاء من دار السلطنه إلى (جده) على ظهر (الباخرة عز الدين) . وما هى أن بلغت سواحل سيام حتى انكسر شرخها فبرز أمر السلطان بإرسال (الباخرة بابل) لنقله إلى (جده) فوصلها على تلك الباخرة ، وسار منها إلى (منى) وهناك احتفلوا بقراءة فرمان الولاية . فعلى(٧٩) تكون مدة إمارته ثلاثة وأربعين عاما ومات فى السادسة والستين من عمره . أما ولى العهد الذى سيتولاها بعده فهو الشريف (عبدالإله) المقيم الآن فى دار السلطنة وعمره على ما يقولون خمسة وخمسين سنة ويليه فى حقوق الإمارة الشريف (حسين ابن الشريف عبدالله) . وللمترجم ولد واحد اسمه محمد عبدالعزيز . يقولون وكان للمترجم فى بلاد الحجاز نفوذ عظيم وكلمة مطاعة ورأى متبوع لميل قبايل العربان إليه وحبهم له لكثرة عطاياه ، وقد أطلق لهم العنان وأباح لهم كل محظور وكانوا يخشون بأسه وجبروته وكان داهية فى سياسة عزيز(٨٠) منصبه بالبدو وعز(٨١) عليهم . فكانت(٨٢) شكوى الحجاج منه بالغة ، وكان أهل (مكة والمدينة) يتهمونه بأنه على مذهب الوهابيين فى السر واستشهدوا على ذلك بهدمه للمزارات ومقامات الأولياء والصالحين ، ونسبوا إليه قصيدة كثيرة الأبيات تتضمن أسرار جماعة الوهابيين مطلعها :

سلام على نجد ومن بات فى نجد   وإن كان تسليمى على البعد لا يجدى

قالوا فإنه مرز للعجز(٨٣) إلى انتفاء التشفع بالأولياء ، ولكن الوهابيين ينكرون ويستنكرون أعماله كغيرهم . والظاهر أن الرجل لم يرض فى حياته وأعماله غير نفسه ، ومات على ثروة طائلة جدا وله ولإخوته فى مصر أوقافا كثيرة منذ عهد قديم . فسبحان الحى الذى لا يموت سبحانه جل شأنه .

---

(٧٧) سلطنته = بسلطنته قراءة ترجيحية .

(٧٨) تقابل عام ١٨٨٢ ميلادية .

(٧٩) فعلى = فعلى ذلك أضيفت الكلمة ليستقيم النص .

(٨٠) عزيز = تعزيز قراءة اجتهادية

(٨١) وعز = فعز قراءة اجتهادية .

(٨٢) فكانت = وكانت قراءة ترجيحية .

(٨٣) مرز بالعجز = برر ما فعله عدلت العبارة ليستقيم المعنى .

وكانت أخبار السوء عن فعال السلطان عبدالحميد تأتى إلى كثيرين من سكان مصر والقاهرة والى أصحاب الصحف المحلية والأجنبية ، فلم ينفدوا[٨٤] على ازاعتها[٨٥] بين الناس إلا من طرف خفى . وكان بعضهم يقول إن بقاء هذه الحال من المحال وأن لابد لكل بداية من نهاية . وفيما الناس على هذا إذ جاء الخبر من دار السلطنة بأنهم ألقوا على السلطان وهو عائد من صلاة الجمعة قنبلة قصد اغتياله فلم تصبه . وتحرير الخبر أنه خرج السلطان إلى صلاة الجمعة تاسع عشر جمادى الأول من السنة أى سنة ثلاثة وعشرين[٨٦] فى (الجامع الحميدى) القريب من (سراى يلدز) . فلما فرغ من الصلاة وكانت الساعة الواحدة تماما نزل من سلم الجامع ليركب عربته ، وإذا بانفجار هائل عظيم ألقى الزعر[٨٧] بين الحاضرين حفلة[٨٨] السلاملك ، وخيم دخان كثيف جدا ثم انقشع . واتجهت الأنظار إلى السلطان ليروا ما جرى له فإذا هو ساكن لا يتحرك وقد هلك زهاء خمسين حصانا وثلاثين مركبة محطمة تحطيما وملقاة هنا وهناك . ولم يكن يقع النظر إلا على قطع من اللحم الدامى ونحو الثمانين رجلا أمواتا وبينهم (بها بك) أحد أساتذة أولاد السلطان وجماعة من ضباط العسكر والجند والخدم والحشم والحوزية[٨٩] وكلهم جرحى . وزعرت[٩٠] الخيل فجعلت تركو[٩١] هنا وهناك والجند يركضون خلفهم حتى ضبطوهم وعادوا إلى فناء الجامع . وبرز الأمر فطوق الجند السراى السلطانية وضبطت جميع الشوارع والمسالك المؤدية إلى السراى ومنعت من خروج أحد من تلك الحلقة أوروبيا كان أو تركيًا . وجعلوا يستنطقونهم واحد فواحدا . وسار السلطان فى وسط الجند والحرس إلى القصر ثم أقفلت جميع أبواب القصر . قالوا وقد ظهر بعد ذلك إن الذين قتلوا كانوا عشرين والذين جرحوا يناهزون السبعين وقد نقلوا جميعا إلى المستشفى . ويقولون إن الذى قذف تلك القنبلة رجل من (حزب تركيا الفتاة) وهو المعروف الآن بحزب (الاتحاد والترقى)

---

(٨٤) ينقذوا = يقدموا قراءة اجتهادية .

(٨٥) أزاعتها = أذاعتها قراءة تصحيحية .

(٨٦) ١٣٢٣ هـ تقابل ١٩٠٥م .

(٨٧) الزعر = الذعر قراءة تصحيحية .

(٨٨) يقصد (بحفلة السلاملك) فى النص الموكب العام للسلطان فى طريقه إلى المسجد ظهر يوم الجمعة لأداء الصلاة . والكلمة تكتب (سلاملق) وليس (سلاملك) .

- جيمس رد حاوص الإنكليزى (توركچة - إنكليزچه لغت كتابى) ص ١٠٧١ .

(٨٩) والحوزية = والحوذية قراءة تصحيحية .

(٩٠) وزعرت = وذعرت قراءة تصحيحية .

(٩١) تركد = تركض قراءة تصحيحية .

جاء فى عربة على مقربة من الجامع وألقاها ساعة نزول السلطان من الجامع . قالوا وأنهم قبضوا عليه ومزقوه بالحراب وقبضوا على ثلاثة من شركائه وآخرون . يعتقدون[٩٢] أن الذى وضع تلك القنبلة هو من رجال القصر وأنه يعرف المسالك جيدا والمراقب منها والغير[٩٣] المراقب ، وأن القنبلة كانت موصولة بسلك كهربائى أو هى معدة بطريقة قابلة للانفجار . وقد لاحظ بعضهم أنه سمع أحد الضباط هتف بالدعاء للسلطان قبل أن يهتف أحد ، وأن هذا الهتاف كان فى نفس الأمر إشارة للجانى لأن الانفجار حدث على أثره . وقد توارى ذلك الضابط عن العيان ولم يوقف له بعد ذلك على أثر . وقبضوا على كثيرين من رجال القصر وجماعة من الحاشية والخدم والأتباع وكثرت الأقاويل . فمن قائل أن الألبانيين هم فاعلو هذه الجريمة ، ومن قال أنهم من اللجنة المقدونية ومن قائل غير ذلك . واهتم رجال المابين والباب العالى بهذا الحادث اهتماما عظيما جدا ونشرت عيونهم وجواسيسهم وشبهاتهم فجعلوا يقبضون على الناس من كل صنف ورتبة ويزجونهم فى الحبوس . وعمت الوشيات[٩٤] ، فكان الرجل يقضى بياض نهاره فى حساب ما سيقع فى سواد ليله . وظل الحال على هذا حينا ثم أرسل الباب العالى قصته إلى دول أوروبا عن هذا الحادث يقول أن تبعته واقعة على (بلغاريا) . قال لأن القنابل والمفرقعات تصنع فى (بلاد البلغار) وترسل إلى بلاد الدولة . فلما بلغت هذه القصة حكومة البلغار عقدوا مجلسا جامعا لسائر الوزراء ورجال العسكرية وكذبوها ، وأرسلوا إلى الباب العالى يقولون أنه إذا لم ينفذ الإصلاح فى ولاية (اندرنيونل) أسوة بالولايات الأخرى فإنه[٩٥] الصلات لم[٩٦] تتحسن مع الدولة . وبرز أمر السلطان بنقل (رشاد أفندى) ولى عهد السلطنة جاغان[٩٧] الذى مات فيه السلطان مراد . لأنه ظهر شىء يدل على أن المكيدة قد لا

(٩٢) يعتقدون = ويعتقدون قراءة ترجيحية .

(٩٣) والغير = وغير قراءة تصحيحية .

(٩٤) الوشيات = الوشايات قراءة تصحيحية .

(٩٥) فإنه = فإن قراءة تصحيحية .

(٩٦) لم = لن قراءة ترجيحية .

(٩٧) جاغان = إلى قصر جاغان ـ أضيفت الكلمتان ليستقيم النص .

أما جاغان فهو قصر فى استانبول صحة إسمه (چراغان) وتنطق شيراغان .

ـ أو قطان أصلان آبا (فنون الترك وعمائرهم) ـ ترجمة أحمد محمد عيسى ـ مركز أبحاث التاريخ والفنون والثقافة الإسلامية ـ استانبول ١٩٨٧ ص ٥٨ .

ـ محمد حرب عبدالحميد (السلطان عبدالحميد الثانى ـ آخر السلاطين العثمانيين الكبار) ـ أعلام المسلمين ٣٠ ـ الطبعة الأولى ـ دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع ـ دمشق ـ ١٩٩٠ ـ ص ٦١ .

تكون[٩٨] من تدابير حاشية القصر السلطانى . وأقصوا فهيم باشا رئيس الخفية الذين هم جماعة الجواسيس إلى آسيا .

وطاف المنادون يبشرون بزيادة النيل على عادتهم فى كل عام وقد مضى من شهر مسرى يومين . ولم تكن الزيادة ظاهرة ولا اندفاع الماء يبشر بالفيض العميم . وتحقق الناس أن النيل حتى الآن منخفض انخفاضا كبيرا والناس قد اعتادوا على معرفة أطواره بحلول شهر مسرى . فأخذتهم الطيرة وتولاهم الزعر[٩٩] وأخذ بعض التجار الصغار يعملون على رفع أسعار القمح والأذرة ويشيعون الأخبار المقلقة والأنباء الملفقة . وعندى أنه وإن كان انخفاض النيل فى هذا العام حتى الآن انخفاضا كبيرا والناس قد اعتادوا الحكم على المياه حسب الطريقة القديمة ولم يلقوا النظر إلى حالة نظام الرى التى نجمت عن خزان أصوان وقناطر أسيوط ومشاريع الرى الحديثة فى الأقاليم القبلية فضلا عن تقوية القناطر الخيرية وإنشاء قناطر زفتى وغير ذلك من بقية الأعمال الجليلة التى قام بها أصحاب الرى من جماعة الانجليز وبذلوا من أجلها الأموال الوفيرة ، فهم إذا رأوا ماء النيل شحيحا فى شهر مسرى حسبوا أن قلة الماء اليوم ينجم عنها الضرر المخيف الذى كان يقع عادة قبل إحداث تلك المشاريع والأعمال العظيمة من سدود وخزانات وترع . على أنه لما بان لأصحاب الرى الذين بيدهم مفاتيح النيل ومغالقه إن شهر مسرى قد حل وأن النيل لم يرتفع إلى درجته المقرره بادروا بفتح عيون خزان أصوان فى أول مسرى فارتفع منسوب الماء واندلع[١٠٠] يجرى إلى الدلتا ، ولم يحولوا منه شيئا إلى جهة أخرى . وارتفع الماء بذلك وراء القناطر الخيرية إلى خمسة عشر مترا وسبعة وخمسين مترا[١٠١] ، وارتفع منسوب الرياح المنوفى إلى خمسة عشر مترا أيضا . وجعل أصحاب الرى كلما رأوا شدة ضغط الماء على القناطر الخيرية يخففون عنها قليلا قليلا إلى الترع التى خلف القناطر حتى ظهر وبان للناس أن انخفاض النيل فى هذا العام لا يقل كثيرا عن العام الماضى بل هو بمأمن من كل الوجوه ، فلا خوف على الزرع ولا ضرر على سائر الزروعات الواقعة تحت القناطر الخيرية لما كانت عليه تلك القناطر قبل تلك المشاريع والأعمال العظيمة .

(٩٨) لاتكون = تكون ـ حذفت كلمة (لا) لتعارضها مع السياق والمعنى .
(٩٩) الزعر = الذعر قراءة تصحيحية .
(١٠٠) واندلع = واندفع قراءة اجتهادية .
(١٠١) مترا = سنتيمترا قراءة ترجيحية .

حدثنى صديق من مهندسى الرى وقد سألته عن رأيه فى نيل هذا العام ونحن فى الأسبوع الأول من شهر مسرى فقال (يبدى الناس خوفا عظيما من تأخير الفيضان وتقصير النيل فى الزيادة للآن ، ويحق لهم أن يخافوا فإن حالة ما كانوا يعرفونه من زيادة وعجز الفيضان فى الأيام السابقة ، كانت تجعلهم إذا حل شهر مسرى ولم يعرف النيل أذرعه المقررة وتحققوا حصول الشرق وارتفاع الأسعار ونفاذ الغلال استسلموا لكل شهر[١٠٢] مقيم . أما وقد أحسن جماعة الانجليز فيما فعلوه من الخزانات والقناطر والسدود والجسور والترع والمصارف وكل مستحدث مفيد ، لم يبق من خوف ولا طيرة . وها هو الماء خلف القناطر الخيرية يخالف اليوم ما كانت عليه منذ أعوام فإن الماء الذى كان يخزن وراءها قبل الآن كان قليلا جدا لضعف الجدران وعدم متانة البنيان ، وهو يزيد اليوم عن مترين ونصف متر . وهذا القدر ليس بالشىء القليل بل هو بقدر الزيادة التى كانت تنتظر من الفيضان المعتدل أيام كانت القناطر ضعيفة وقناطر زفتى غير موجودة) . قال (فإذا حصل شراقى فى هذا العام فيكون قليل جدا فى الوجه البحرى لا يتعدى السواحل البعيدة ، وكل الضرر هو فى شىء واحد وهو تأخر زراعة الأذرة لدخول الشتاء واشتداد البرد الموجب لضعف محصولها . أما زراعة القطن فإنها لم تتأثر فى الوجه البحرى ، وقد يكون فيضان النيل كبيرا عظيما ومع ذلك ترى أن الناس يشكون ويتشاءمون) . قلت وما رأيك فى أراضى الأقاليم قال (أنى أقول لك الحق أنها لا تسلم من الشراقى ولكنه يقل فى الأراضى الواقعة تحت قناطر أسيوط بعد إقفالها فى خلال شهر سبتمبر ، فالخوف كل الخوف على ما هو واقع خلف تلك القناطر) . قلت أذكر أنه فى العام الماضى أقفل أصحاب الرى تلك القناطر وحجزوا الماء ورائها بكمية عظيمة أياما ثم عادوا ففتحوها خوفا من شدة الضغط فكان ضرر ذلك ظاهر) . قال بلى ولكنهم أثبتوا بالاختبار أنها متينة قوية تحملت الضغط الشديد الذى عد مخاطرة ولم يُظهر فيها خلل . وأصحاب الرى مع اهتمامهم الآن بحصر الماء وتوزيعه فإنهم ينظرون إلى المستقبل أى إلى أوان زراعة القطن . فمن العام الآتى إذا ظل النيل شحيحا ولم يرتفع

(١٠٢) شهر = شر قراءة ترجيحية .

من اليوم حتى شهر أكتوبر ولم يبق المنسوب مرتفعا فإنهم يأمرون بسد الخزان قبل وقته المعين ويمدون به ماء النيل لرى زراعة القطن فينتفى بذلك كل خوف) .

وبينما الناس على هذا من الزعر[١٠٣] والتطير إذ طير أصحاب الرى من جماعة الإنجليز الخبر إلى الآفاق يقولون أنه وردت الأنباء بوقوع علامات جوية كثيرة تؤثر على فيضان النيل وزيادته . وذلك أنه جاءهم الخبر الصحيح من (أديس أبابا) عاصمة الحبشان بأن الأمطار انحبست في شهر يوليو فى منطقة (شوى) وأنها كانت قليلة فى منطقة (فودجام) . قالوا وهذا يدل على أسباب انخفاض الفيضان فى (النيل الأزرق) . قالوا وانحباس الأمطار عم الآن جميع أنحاء (المملكة الحبشية) ، وأنها إن عادت فستكون أقل من المتوسط هذا العام وأن جميع الدلائل الجوية تدل على أن النيل سيكون منخفضا . ثم أشاعوا خبر زيادة المياه (بعطبره) وارتفاع (النيل الأزرق) فدل هذا على تحسن حالة النيل وارتفاع مقياسه قبلى أصوان وامتد هذا التحسن شمالا . قالوا وهذا ما يساعد على إرواء أطيان الأقاليم القبلية فى وقت الفيضان حتى ولو جاء متأخرا . وزاد الأمل بذلك ارتفاع مياه (النيل الأزرق) والعطبرة ارتفاعا يحفظ مقاييس النيل على حالها فى شهر سبتمبر المقبل . ثم نشروا للكافة جدولا بينوا فيه مقاييس النيل فى (الخرطوم) لعامنا هذا ومقارنتها بمقاييسه فى العام الماضى وفى عامى تسعة وتسعين وثمانمائة وألف وعام اثنين وتسعمائة وألف يعلم منه أن النيل لا يزال منخفضا فى (الخرطوم) وأنه لا يزيد إلا بعد أن تصل إليه زيادة (النيل الأزرق) . قالوا وعلى هذا[١٠٤] حال فلا ينتظر أن يزيد معظم مقياس الخرطوم هذا العام عما بلغه عام اثنين وتسعماية وألف .

وبذل أولئك القوم أقصى مجهودهم وأحاسن صناعتهم فى تخفيف الضرر عن البلاد وقليل[١٠٥] الشراقى ما استطاعوا بما أتوا[١٠٦] بالحكمة وسداد الرأى . فأزالوا سد رشيد وسد دمياط ودلوا بذلك على انخفاض النيل فى الدلتا وعلى مقدار فائدة القناطر

---

(١٠٣) الزعر = الذعر قراءة تصحيحية .

(١٠٤) هذا حال = أى حال قراءة اجتهادية .

(١٠٥) وقليل = وتقليل قراءة ترجيحية .

(١٠٦) اتوا = أوتوا قراءة تصحيحية .

الخيرية ، واقفوا[١٠٧] قناطر أسيوط فارتفعت مياه الفيضان فوب[١٠٨] أبوابها وبلغ الماء المحجوز قبلها مترا ونصف المتر ، وحفظوا الموازنة فى قناطر الدلتا وفتحوا أبواب قناطر زفتى وحفظوا الموازنة فيها . أقول ولما كان السواد الأعظم من سكان مصر والقاهرة لا يعرفون من كل هذه الاعتبارات والأنباء شيئا يعادل ما يعرفونه من وراء طواف المنادون والمبشرون بوفاء النيل (وليلة الجبر) المألوفة عندهم ، جعلوا يراقبونهم ويتساءلون عنهم . حتى كان يوم السبت سادس عشرى أغسطس خامس عشرى جماد الثانى وعشرة مسرى سنة إحدى وعشرين وستمائة وألف طاف المبشرون على عادتهم ينادون بوفاء النيل أذرعه . فأقبل الناس يسألونهم عن (ليلة الجبر) كما يسمونها ، وخرجت (العقبة) من ترسخانة بولاق بعد الظهر مزدانة بالبيارق والرايات تحمل جماعة الجند والضباط وجماعة من مشائخ الحرف وصغار التجار وسارت إلى فم الخليج حيث السد ، فأطلقت المدافع وارتفعت أصوات العامة بالتهليل والتكبير وقراءة الفواتح للأولياء والصالحين ووقفت تجاه السد . وجاءت السفن والذهبيات تمخر أمام السد صعدا وهبوطا وبها المتفرجين والمغنيين والمغنيات وأصحاب الطبول والزمور وأهل القصف والخلاعة . وغصت سرادقات محافظ المدينة بالمدعوين من كبار القوم وأصحاب المناصب وقاضى القضاة . فلما استوى بهم المقام كتب القاضى حجة وفاء النيل ووزعت الخلع على المشائخ وقضاة المحكمة الشرعية . وألقى (الشيخ السنباطى) خطبة اعتاد أن يقولها فى كل عام ، ثم جعلوا يطلقون الأسهم النارية إلى منتصف الليل . وأصبحوا وقد أقبل الناس أفواجا من كل درجة ورتبة ناحية السد فأجروا الماء فى الخليج على الشكل المعتاد فلم يكن اندفاعه ليحقق الآمال ببلوغ النيل الزيادة إلى حده المعتاد كما كان الحال فى العام الغابر .

وحدث أن جماعة من أهل (طوخ القراموص)[١٠٩] إحدى قرى إقليم الشرقية خرجوا بجمالهم وحميرهم إلى تل السباخ الذى يبعد عن القرية فرسخين لنقل السباخ لتسميد

---

(١٠٧) واقفوا = واقفلوا قراءة ترجيحية .

(١٠٨) فوب = فوق قراءة ترجيحية .

(١٠٩) طوخ القراموص = إحدى قرى مركز ههيا بمحافظة الشرقية ـ وردت فى (الخطط التوفيقية باسم طوخ الحرامية) وفى تاريخ ١٢٢٨هـ/ ١٨١٣م باسمها الحالى .
ـ محمد رمزى (القاموس الجغرافى للبلاد المصرية) القسم الثانى ـ الجزء الأول ـ ص ١٥٨ .

أرضهم على عادتهم المتبوعة فغرزت رجل أحد حميرهم فى الأرض عند سفح التل فتسالبوا[١١٠] حول الحمار وجعلوا يحفرون حول رجل الحمار حتى خلصوه وظهرت لهم حجرة مبنية بالطوب اللبن فنزل بعضهم إليها وإذا فيها جرار من الفخار وقد تساند بعضها إلى بعض وكلها[١١١] ملأ بالنقود واعلاق[١١٢] الثمينة من الذهب والفضة . وكان مع أولئك القوم غفير الآثار فجعل يضع الذهب والأعلاق فى سراويله ونقود الفضة فى حجره . وشاع خبر ذلك وكثر اللغط بين أهل البلد حتى وصل الخبر إلى طوخ القراموس . وكان الغفير قد رسم للقوم بردم الحفرة وتطهيرها ففعلوا . ثم نادى على زميل له وسلمه النقود الفضة وغاب ساعة بما كان معه وعاد فأخبر عمدة البلد بالخبر . فقام العمدة وسار إلى التل من[١١٣] نفر من مشايخ البلد وغفراها فضبط كل من[١١٤] وجده من أهل القرية وما وجد معهم من ذلك الكنز . وسير فى طلب مفتش الآثار فجاء ومعه مأمور الزقازيق وجعلوا يستنطقون الخفير فلم يعترف إلا بوجود مائة وعشرين قطعة من الفضة وأنكر غير ذلك من الأحجار الثمينة والأعلاق النفسية . وشهر[١١٥] شهود الحال بما جرى . وأعادوا الحفر فبانت تلك الغرفة وظهرت الجرار وعثروا علي بعض تلك النقود وشيئا من تلك الأعلاق والمصوغات فحملوها وساروا بالغفير مكبلا بالقيود إلى الديوان . قالوا وكل هذه الأثار النفيسة يرجع تاريخها إلى آلاف السنين .

وبلغ من عناية الانجليز بقارة أفريقية واستكمال كل أسباب الراحة فيها فضلا عن المدينة شأنهم فى سائر مستعمراتهم أن أوصلوا القاهرة (بالكاب) بخط تلغرافى . وتحقق خبر ذلك وعرفه الناس طرا ، وعزم أصحاب سياستهم عزما أكيدا على إيصال طرفى أفريقية بخط حديدى تقريبا للمسافة التى هى بين القاهرة (ومدينة الكاب) وهى تبلغ عشرة آلاف كليو مترا . أما مد هذا الخط التلغرافى فيبتدىء من (طانجانيكه) إلى الواحة الخارجة وفيها أى فى تلك الواحة سير ذلك الخط الحديدى . قلت لأنها أقرب من

(١١٠) فتسالبوا = فتسابقوا قراءة اجتهادية .
(١١١) ملأ = ملأى قراءة ترجيحية .
(١١٢) وأعلاق = والأعلاق قراءة ترجيحية .
(١١٣) من = فى قراءة تصحيحية .
(١١٤) من = ما قراءة ترجيحية .
(١١٥) وشهر = وشهد قراءة ترجيحية .

(الخرطوم) ولا تزيد المسافة على أربعمائة كيلو متر كما يقولون . وعندى أن هذا المشروع قديما[١١٦] ، فإنهم كانوا قد أعلنوا نيتهم قبل الآن بمد خط حديدى عن طريق الواحات إلى رأس السلوم لتقصير المسافة بين بلاد الانجليز وجنوبى أفريقيا وسواحل الهند . وحرصا على بقاء ذلك الخط التلغرافى الجديد فقد نصبوا أعمدة من الحديد المضاف إليه بعض المعادن كى لا يأكلها الصدأ ولكنهم يحسبون للقردة حسابا كبيرا إذ هى تتعلق بالأعمدة وتتسلق إلى أسلاك التلغراف وتجرى عليه بعضها خلف بعض حتى تقطعها .

أقول وإذا تم مد الخط الحديدى اجتاز المسافر المسافة بين سواحل مصر وسواحل الكاب فى أقل من ثلاثين يوما وتصبح (الخرطوم) مركزا للتجارة مهما جدا لأنها الآن محطة لفرع مصر وفرع سواكن وفرع العطبرة وفرع بحر الغزال وفرع الحبشة والفرع الذى يمتد من (خط الكاب) فتأمل .

وحدث أن مرت فى سادس سبتمبر من السنة سابع رجب الفرد باخرة انجليزية بقناة السويس قادمة من ديار الانجليز وعليهاماية طن من الديناميت متوجهة بها إلى (اليابان) . فلما بلغت محطة التينة قامت منها إلى محطة الذاهبة ، فلاقتها فى طريقها سفينة انجليزية وصدمتها صدمة شديدة وكان الوقت بعد العشاء الأولى . فسقط مصباحها والتهب النار فيها ، فأسرع ربانها وبحارتها وتركوها ونزلوا إلى البر خوفا من انفجار الديناميت . وطار الخبر إلى رجال شركة القنال ، فوقعوا فى رعب شديد وطيروا الخبر إلى الآفاق . وعلم أهل الاسماعيلية بالحادث فخرجوا على وجوههم إلى الصحراء فرارا من خطر الانفجار الهائل إذا التهب ذلك القدر الجسيم من الديناميت . ووقفت حركة الملاحة فى القناة من بورسعيد إلى السويس والكل ينتظرون الفاجعة كل لحظة والنار تعمل فى الباخرة عملها الشديد . وقدر الله سبحانه أن أكلت النار جانب الباخرة فانخرق تحت خط الماء فدخل الماء إلى جوف الباخرة حيث يوجد الدينات[١١٧] وأغرقه وحال دون وصول النار إليه . فظلت النار تأكل فى الباخرة حتى غرقت فى اليم ولم تصل

---

(١١٦) قديما = قديم قراءة ترجيحية .

(١١٧) الدنيات = الديناميت قراءة ترجيحية .

إلى مكان الدينات[١١٨] . فحسب القوم ذلك منة من الله تعالى ورحمة . وظلت القناة معطلة أياما حتى جاء الخبر بإصلاحها فعادت السفن تمخر فيها كما كانت فى النهار فقط . وسير أصحاب هندسة القناة إلى ديار الفرنسيس فى طلب أهل العلم بأسرار المفرقعات والمواد الإنفجارية ليروا فى أمر إخراج ما فى جوف تلك السفينة من الديناميت . فجاء جماعة منهم وجعلوا يخفون من حمل السفينة حتى تطوف[١١٩] على وجه الماء . وكان حزرهم[١٢٠] شديدا جدا لأن الديناميت أشد هولا من فعله خارج الماء . وظلوا على هذا أياما والناس فى خوف وقلق ما عليهما من مزيد . ثم كفوا عن العمل خوفا وزعرا[١٢١] . وقر رأى كبار رجال القناة بعد ذلك العناء على نصف[١٢٢] الباخرة بما فيها لتخلص القناة من شرها . وجاءهم الإذن بذلك من عاصمة الفرنسيس وكانوا يقدرون لتعطيل القناة وسدها شهرا من الزمان على أقل تقدير . قالوا لأن نسف مماية طنا من الدينات[١٢٣] ينتج عنه هدم البرزخ وتخريب الترعة العباسية والسكة الحديدية وينحبس الماء الحلو عن مدينة بورسعيد . وما هى إلا عشية أو ضحاها حتى برز الأمر بزيادة مياه الترعة العباسية وحجز ماءها عند الكيلو الرابع عشر . قالوا حتى إذا تخربت القناة على أثر الانفجار يكون فى تلك الترعة من الماء ما يكفى بورسعيد بضعة أيام . وكان ممن جاء من القاهرة لمعاونتهم على هذا العمل الخطير اثنين من ضباط جيش الاحتلال من أصحاب علم المفرقعات وكبارهم . فتقررت القاعدة بين الجميع على مد أسلاك يوصل بها التيار الكهربائى إلى ما فى جوف السفينة من الديناميت من مسافة ستة كيلو مترات ووضع الآلة المولدة للكهرباء فى طرف تلك الأسلاك . وبثوا الجند لخفارة الجهات ومنع الناس من بعد بعيدا جدا من المرور من محل الإنفجار ، فهجر الناس مساكنهم ونزحوا إلى القرى البعيده .

---

(١١٨) الدينات = الديناميت قراءة اجتهادية .
(١١٩) تطوف = تطفو قراءة اجتهادية .
(١٢٠) حزرهم = حذرهم قراءة تصحيحية .
(١٢١) وزعرا = وذعرا قراءة تصحيحية .
(١٢٢) نصف = نسف قراءة ترجيحية .
(١٢٣) الدينات = الديناميت قراءة ترجيحية .

وحدث أن أزاح ضغط الماء السفينة عن موقعها حتى دنت من وسط القناة فزادت الحالة خطورة وربطوها بالسلاسل حتى تظل فى مكانها . وتعذر سير السفن صعدا وهبوطا إلا بدلالة أدلاء القناة مخافة أن يكون قد سقط فى الماء شيء من الديناميت فينسف البواخر وما عليها . وأخبرنى صديق من موظفى القناة قال التقط مهندسو القناة صندوقين كانا قد سقطا من الباخرة فأخذ الضباط الانجليز هذين الصندوقين ووضعوهما فى حفرة تبعد عن القناة نحو مائتى متر وأرسلوا إليها التيار الكهربائى فانفجر أحدهما وكان لانفجاره دوى شديد جدا . وعقب الانفجار ارتفاع(١٢٤) عمود من الرمل إلى السماء لا يقل عن خمسين مترا ، فكان بعض السفن راسيا عند الكيلو متر التاسع عشر فأخذتهم رجفة شديدة جدا مع أنه لم ينفجر إلا صندوق واحد . قال وفى السفينة مايتين صندوق من مثل الذى نسفوه وفى كل صندوق منها عشرين كيلو من الديناميت فقوة إنفجارها جميعا تصل على تقدير الخبراء إلى مسافة لا تقل عن اثنى عشر كيلو مترا . قال وفى السفينة عدا الديناميت بعض صناديق أخرى من المواد المفرقعة فالخوف من تحلل تلك المواد والتهابها فى وقت غير معروف أكبر من الخوف من الديناميت الذى لا يلتهب إلا باحتكاك أ . هـ .

وجعل أصحاب كراكات الحفر يحفرون أمام تلك السفينة حتى تتمكن السفن من عبورها دون عايق ولا خطر ، ثم عادوا فمنعوا من عبور السفن حتى يتم توسيع المكان الذى أغرقت فيه تلك السفينة ووضعوا حول السفينة أكياسا ملأ(١٢٥) بالرمل متراصة حتى لا تتزحزح من مكانها إلى أن يتم تخليصها . وظل الحال على هذا حتى وصل كبار شركة القناة ومعهم لجنة من رجال المعمل الذى صنع الديناميت وهى مؤلفة من ثلاثة من كبار مهندسى المعمل ومعهم أحد كبار الكيماويين من الفرنسيين . وصعدوا إلى ظهر السفينة فرأوا على وجه الماء الذى يعلوها سائلا كالغاز فملؤا منه كأسا وعادوا إلى البر ووضعوه فى صحن وغطوه بغطاء وألهبوه فالتهب ورفع الغطاء بعنف شديد ، فعادوا إلى بور سعيد ليبحثوا فيما سيكون من وراء عملهم . وبعد أخذ ورد عادوا إلى الرأى القائل بنسف السفينة ، وجاءهم الأمر بذلك من كبار رجال الشركة . وشاع خبر ذلك وتحدث به

(١٢٤) ارتفاع = ارتفع قراءة تصحيحية .

(١٢٥) ملأ = ملأى قراءة تصحيحية .

الناس وكثر المدعون بمعرفة استخلاص السفن . فجاؤا من القاهرة والأسكندرية وغيرهما إلى رجال الشركة يتكفلون لهم باستخلاص القناة وبينهم رجل ساعاتى وكلهم لا يدرون ما هو فعل الديناميت واسمه ولا كيفية تركيبه . فما حل يوم الخميس ثامن عشرى سبتمبر من السنة ثامن عشرى رجب سنة اثنتين وعشرين وثلثمائة وألف حتى كانوا قد دبروا أمر نسف السفينة واتخذوا كل حيطة ببث الجند ومنع المارة وقطع الطرق وتمكين المواصلات بالأسلاك التلغرافية . ووضعوا حول السفينة ومن خلفها ومن أمامها عددا من صناديق الديناميت وجعلوا مركز القوة الكهربائية التى ترسل التيار على بعد عشرة كيلو مترات . فلما كان نحو الساعة العاشرة صباحًا أرسلوا التيار الكهربائى إلى السفينة فزلزلت الأرض زلزالا هائلا وماجت بما عليها وارتفع الماء والرمال والأحجار إلى عنان السماء ارتفاعا عظيما يقدرونه بستمائة متر أو يزيد ، وكان المنظر مخيفا جدا . وبعد لحظة لطيفة ظهر أن الخسائر أقل مما كانوا يقدرونه بكثير ولم ينقطع الخط الحديدى . ونزل الخبراء إلى السفينة ففحصوا ثم أباحوا لرجال الحكومة وأصحاب الصحف برؤيتها فإذا هى قد تحطمت كلها . وهنأ المهندسون وأصحاب عمل القناة بعضهم بنجاح عملهم وزوال ما كانوا يتوقعون وانقضى هذا الحادث الكبير بسلام .

وما ارتاح الناس من حادث الديناميت ونسفه بالقناة حتى جاء الخبر فى ثانى أكتوبر رابع شعبان باصطدام قطارين من قطورات السكة الحديد بين محطة نفيشه والقصاصين . وذلك أن القطار الخارج من الإسماعيلية خرج من محطة نفيشة قاصدا القصاصين وهو فى السرعة على أشدها . فقبل أن يصل إلى القصاصين التقى بقطار الركاب الذاهب إلى القاهرة فزعر(١٢٦) السايقان واختبلا ولم يتمكنا من ايقاف القطارين فاصطدما معا اصطداما هائلا جدا أزاح عربات القطارين جميعا عن الخط ، فانقلبت على كل من بها من الركاب ، فتهشمت أجسام بعضهم وجرت الدماء غزيرة وعلى(١٢٧) الصياح والأنين من كل صوب ، ومن لم يصب من الركاب جعل يصيح فى طلب الخلاص . وأقبل الناس من(١٢٨) فج عميق يهرولون لنجدة أولئك الهالكين ، وأخرجوا جثث أربعين إنسانا بين قتيل وجريح . وجاء كبار السكة الحديد بآلات الخطر ورفع الأثقال وجعلوا يشتغلون ليلا ونهارا

(١٢٦) فزعر السايقان = فذعر السائقان قراءة ترجيحية .
(١٢٧) وعلى = وعلا قراءة تصحيحية .
(١٢٨) من = من كل أضيفت الكلمة ليستقيم النص .

فى إخلاء الطريق . وقد سيروا بالمصابين بعضهم إلى الإسماعيلية وبعضهم إلى القاهرة . وخبر[١٢٩] ذلك فى القاهرة وغيرها فكان الزعر[١٣٠] شديدا والخوف بالغا ، وراحت دماء أولئك الهالكين هباءاً منثورا ولم يغن عنهم معاقبة السواقين شيئا .

ومما يدل على نشاط التجار الانجليز وميلهم الفطرى إلى المتاجرة وجوب البلاد فى طلب المزيد أنهم أنشؤا فى الخرطوم شركة كبيرة سموها (شركة كردفان) للتجارة وهى تشتغل بالصمغ والنطرون وريش النعام والعاج والحبوب ، وأكثر أشغالها مع الدارفور وأطراف بلاد الحبشان . ولهذه الشركة مدير نشيط قوى الشكيمة . فسافر هذا المدير إلى (أديس أبابا) عاصمة الحبشة بعد أن طاف أربعين يوما فى (بلاد الحبشة) وقد حمل معه شيئا من الصمغ العربى . وجاء به إلى أديس أبابا بمثابة نموذج (عينة) وعرضه على الخبيرين بهذا الصنف . يقال فدهشوا لما رأوه لأن جميع السياح الذين جاؤا أراضى الحبشة لم يعثروا على شىء من الصمغ ولا ذكروه فى رحلاتهم . وقال المدير إن فى بلاد الحبشان غابات مترامية الأطراف فيها أحسن أنواع الصمغ . ورفع أمر ذلك إلى الناجوسى فأعجبه جدا وأعطاه امتياز استخراج الصمغ العربى فى سائر أنحاء الحبشة وإعفاء سائر الآلات والعدة التى تلزم لاستخراج الصمغ من الرسوم الجمركية . فكان ذلك فوزا عظيما لجماعة الانجليز لأن إخراج الصمغ تبتدى من حدود السودان المصرى وتنتهى فى وسط بلاد الحبشان . أقول ولقد تدفقت الحضارة والمدنية على هذه المملكة الحبشية لهذا العهد من كل جانب ، فالإمتيازات والاحتكارات صارت كثيرة ، وخطوط التلغراف والتليفون قد مدت حتى البلاد التى يحكمها (الراس تسامة) و(الراس ولد جرجس) ، وأنشأوا مصرفا سموه مصرف المملكة الحبشية وهو يصك النقود ويدفع جماكى ومرتبات أهل المناصب وأصحاب الخطط ويجبى الخراج وهو الخزينة كلها بلا خلاف . وأخبرنى أحد مبعوثيهم وهو نزيل القاهرة أنهم أحدثوا الكهرباء فى المدينة فهم يستنيرون بها الآن حتى لقد أناروا قصر الناجوسى بالكهرباء ليلة عيد رأس سنتهم وظهرت المدينة فى تلك الليلة كأنها كواكب درية . قلت وهذه نعمة يستحقونها .

(١٢٩) وخبر = وجاء خبر أضيفت الكلمة ليستقيم النص .
(١٣٠) الزعر = الذعر قراءة تصحيحية .

وجاء الخبر من ديار الإنجليز بأن قد تقرر إرسال بعثة كبيرة من المرسلين الإنجليز لتسافر إلى السوادان المصرى وقد حددوا لها منطقة عملها . قالوا وهذه المنطقة تعادل أربعة أضعاف مساحة الديار الإنجليزية وتسكنها القبائل الوثنية وأكلة لحوم البشر . وحدود هذه المنطقة من (بحر الصومال) وآخر (بحر الغزال) حتى حدود (الأوغنده) (والحبشة) وولاية (الكونغو الحرة) . فلما كان سابع عشر أكتوبر من السنة ثامن عشر شعبان وصل إلى القاهرة القسم الأول من هيئة البعثة الدينية وهو مؤلف من ستة مرسلين ، ولبثوا بها أياما قلايل ثم سافروا إلى الخرطوم ومنها يقومون قادمين (مونغللا) ومعهم المرسل الانجليزى المقيم بالخرطوم . (ومونغللا) تلك هى المحطة الأخيرة لحكومة (السودان) على حدود (الأوغندا) الحرة . قالوا وستقيم البعثة هناك لأن الجهة الممكن البقاء فيها فى ذلك الصقع البعيد هى (بور) دون غيرها والقبائل الوثنية النازله هناك هى (الثوبر)[١٣١] والدنقه (والشكك)[١٣٢] (والبادى) (والنيامنيام) . وسيكون مع هذه البعثة طبيب وبناء ونجار وزراع . قالوا وأول عمل يقوم به رجال البعثة هو تعليم القوم الصناعة وضرب الطوب . قلت ولعل فى تحديد هذه المنطقة لرجال البعثة عدم اختلاطهم بالمرسلين الأمريكان الذين يشتغلون فى جهة الصوبات وابتعادهم عن المسلمين النازلين هناك . وعندى أن هذه البعثة من أعظم النعم وأجلها على النوع الإنسانى وأحراها بالمدح والثناء على الأمة الإنجليزية عموما وأصحاب هذا المشروع خصوصا لأنها من عمل الخير والرأفة بأولئك القوم الذين هم فى المنزلة الوحشية المتناهية .

وبينما (القاضى يحيى) قاضى قضاة مصر على ما تقدم بك بيانه من التنازع والمشادة والأخذ والرد مع وزارة الحقانية تارة وديوان الأوقاف تارة أخرى ، إذ جاء الأمر من المابين بقيامه إلى دار السلطنة على جناح السرعة . فلما كان رابع عشرى أكتوبر من السنة خامس عشر شعبان سنة اثنتين وعشرين وثلثمائة وألف غادر القاهرة إلى الأسكندرية يريد لقاء الأمير ومبارحة الأسكندرية من يومه . فقابل الأمير يقال وكان الحديث بينهما طويلا فيما كان بينه وبين هيئة الحكومة . ثم سافر من يومه وترك عائلته بالقاهرة ، فأول الناس ذلك أن الغاية من استدعائه ليست أخراجه من منصبه وربما كان

(١٣١) الثوير = النوير قراءة ترجيحية .
(١٣٢) الشكك = الشلك قراءة ترجيحية .

لأمر آخر يتعلق بشؤون منصبه[١٣٣] ، وقد أناب عنه (الشيخ بكرى[١٣٤] الصدفى) . وقد حادثه بعضهم عن سبب استدعائه فأقسم أنه لا يعلم لذلك من سبب . وعندى أنه لما رأت دار السلطنة العثمانية أن قد مضى[١٣٥] على نفوذ الباب العالى فى ديار مصر وزالت عنها التابعية العثمانية أو كادت منذ الاحتلال الإنجليزى ، جعل رجال (المابين) يعملون بواسطة القاضى (يحيى) على تجديد عهد التابعية بإعادة ما اندرس من أحكام الفرامانات السلطانية والعادات الشرعية القديمة التى لم تكن الهيئة الحاكمة لتخرج عن حدودها قيد شبر . فكانت تأتيه كتب (المابين) فى معنى ذلك تباعا والرجل شديد المران[١٣٦] قوى الشكيمة وله من الرئاسة الدينية والكلمة المسموعة عند جماعة المشائخ والمعممين وأصحاب العكاكيز فضلا عن العامة ما يتبجح به ويباهى . فكان لذلك كثير المشاغبة والمشادة والشرع الممقوت فى كل أمر يريده حتى لقد فاته كثير من الفرص والمناسبات وأفلتت من يده أعمال جسام ، وأفضى به الحال إلى الزلل والمظنة . ولم يخطىء ظنى إذا قلت أن الرجل غير عائد لمنصبه على كل حال بعد تلك المكائد التى كادوها له عامين أو يزيد ، ولم يغن عمل الغازى (مختار باشا) مندوب الباب عنه فتيلا .

وجاء الخبر من قصر الإمارة وديوان الرئيس مصطفى فهمى باشا بوصول يخت ولى عهد المملكة البريطانية إلى ميناء بورسعيد يريد سلطنتهم الهندية . دخل اليخت فى الساعة الثالثة والربع الميناء يقل الأمير والأميرة قرينته من[١٣٧] يوم الأربعاء سابع عشرة أكتوبر وثامن عشرى شعبان وورائه بارجة . فأطلقت البارجة واحد وعشرين مدفعا تحية

---

(١٣٣) فى ديسمبر ١٩٠٥ أصدر السلطان عبدالحميد أمرا بعزل قاضى القضاة المذكور وتعيين جمال الدين أفندى قاضى (مكة) بدلا منه . وقد عين (يحيى أفندى عبدالرحمن فاضل) بعد جمال الدين أفندى ، ثم (لبيب أفندى الأرناؤطى) ، وكان آخر قضاة الدولة العثمانية فى مصر هو (محمد نورى أفندى) إلى أن ألغيت وظيفة (قاضى مصر) فى سنة ١٩١٤ عند قيام الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ - ١٩١٨ وسلخ مصر عن الدولة العثمانية .
- أحمد شفيق باشا (مذكراتى فى نصف قرن) - مذكرات سنة ١٩٠٥ - ٧٥ - ٧٦ .

(١٣٤) الشيخ بكرى محمد عاشور الصدفى ، أحد كبار رجال الأزهر فى أوائل القرن العشرين - اختير فى نوفمبر ١٩٠٥ ليكون مفتيا لمصر بعد وفاة الشيخ (عبدالقادر الرافعى) الذى عُينَ مفتيا بعد وفاة (الشيخ محمد عبده) ، لكنه مكث يومان فى منصبه ثم توفى .
- المرجع السابق - ص ٧٥ - ٧٦ .

(١٣٥) قد مضى = قد قضى قراءة ترجيحية .

(١٣٦) المران = المراس قراءة ترجيحية .

(١٣٧) من = فى قراءة تصحيحية .

العلم المصرى فأجابت الطوابى بإطلاق واحد وعشرين مدفعا تحية للعلم الإنجليزى . وألقى اليخت مرساه أمام مكتب شركة القناة وأخذت موسيقى البارجة تصدح بالنشيد الملوكى فغصت الميناء بالزوارق والبواخر الصغيرة وانتشر أصحاب الشرطة على ساحل القناة لحفظ النظام ، وأنبث جند السفن الحربية التى جاءت تخفر اليخت حول الميناء واليخت فى[١٣٨] الزوارق وعلى الأرصفة . وكان الأمير قد سير حاجبه الخصوصى ليحيى الأميرة والأمير بسلامة الوصول ، فتقدم مع محافظ المدينة وحياهما باسم الأمير . وكان اليخت وسائر السفن الراسية بالميناء على اختلافها مزدانة بالأعلام والهتاف بالدعاء متواصلا من كل صوب وناحية . ولكا[١٣٩] كانت الساعة السادسة نزل الأمير وقرينته إلى البر وزارا مع بعض الحاشية المستشفى العسكرى الإنجليزى فى المدينة ثم قابل قناصل الدول والنزلاء الإنجليز . وبات وأصبح وقد سافر إلى السويس فقضى فيها يوما ثم برحها إلى الديار الهندية على الطائر الميمون .

وعنت الدولة الإنجليزية بشؤون السودان واهتمت اهتماما كبيرا لعمرانه وتكثير سكانه واتساع أحوال أهله وإيرادهم موارد الغنى والرزقة وبسطة العيش ورغده منذ احتلال رجالهم وأصبح من ممتلكاتهم على ما تقدم بك بيانه فى حينه ، حتى لقد ضربوا بين قوانين البلاد المعمول بها وبين ما قننوه له من القوانين سياجا من التلطف وحسن الرعاية بأولئك السود . شاؤا أن يكون المال عندهم عتيدا موفورا وأن يستغنوا عن أموال مصر بالجملة وهم يعلمون أن توفر العمران فى الأقطار وكثرة أموالهم وأمصارهم يتوقف على العناية بزرع الأرض وإصلاحها والإكثار من غلاتها ، وكان من موانع إقبال أهل البلاد على الزرع والضرع فداحة الخراج وغلظة أصحاب الجباية لعهد الحكام السابقين فضلا عما أصاب البلاد من الإضمحلال والجدب والخراب لعهد المهدوية . فكانوا لذلك مساكين محاويج جملة . فلما كانت أخريات أكتوبر من السنة وأوائل رمضان سنة ثلاثة وعشرين وثلثمائة وألف برز أمر أصحاب الحل والعقد بالسودان بإلغاء قانون ضرائب الأطيان لسنة إحدى وتسعمائة وألف والمادة الأولى من قانون سنة تسع وتسعين وثمانمائة وألف وقننوا قانونا جديدا لذلك قسموا فيه فيات الخراج إلى ستة مراتب ، الأولى ستون قرشا والثانية

---

(١٣٨) فى = و قراءة اجتهادية .

(١٣٩) ولكا = ولما قراءة ترجيحية .

خمسون والثالثة أربعون والرابعة ثلاثون والخامسة عشرون والسادسة عشرة قروش . فما هو أن شاع خبر ذلك فى القاهرة ومصر وبين أهل الإقليمين القبلى والبحرى حتى جعل بعضهم ينزعون من[١٤٠] السفر إلى تلك الأمصار ويؤملون الكسب والرخه[١٤١] إن هم نالوا شيئا من أرضها وأصحاب الحل والعقد يمدونهم ويحضونهم على العمل كى تعمر البلاد ويكثر ساكنيها .

أقول وعاد رجال الحزب الوطنى وأقطابه إلى الحركة والهرج فهبت صحفهم إلى نغمتها القديمة وأشاع[١٤٢] أن الأمير قد نشط من عقال[١٤٣] وسير كتبه إلى إمبراطور الألمان فى طلب المعاونة على إحباط عمل الإنجليز فى ديار مصر والنكاية بهم عساهم ينزحون . قالوا وسير أيضا (مصطفى كامل) رئيس ذلك الحزب إلى (برلين) عاصمة الألمان وزوده بشىء من معنى ذلك . وكثر تحدث الناس بالحركة البادية فى القصر وديوان الوزارة وهم يتوقعون حدثا من وراء ذلك . قلت وقد ثبت وصول مصطفى كامل إلى (برلين) ، فإنه ما عتم حتى كتب إلى إحدى صحف الألمان كتابا مفتوحا عن سياسة الألمان مع الإسلام والمسلمين قال فيه بعد كلام طويل (وليعلم الناس طرا أن الإسلام قوة كبيرة كم ما كان (نابوليون بونابارت) يحلم بمحالفتها كما يحلم الآن إمبراطور الألمان بذلك . أى نعم أن هذه القوة المتفرقة الآن فى المعمور من الأرض لابد وأن تجتمع وتصير يوما قوة واحدة فعالة ، غير أن المسلمين يشكون فى صدق نية الإمبراطور (غليوم) مع ابتهاجهم بمسلكه ولا سيما فى ما أصاب (جماعة الأرمن) وحوادث أرمنية إذ أراد الإنجليز دك أركان السلطنة العثمانية ومحو آثارها) . ثم أشار إلى ما كان من سياسة (غليوم) فى الشامات وإلى زيارته (طنجة) إلى أن قال (وعندى أنه يتعذر بل يستحيل جملة أن تتوطد المحبة بين الألمان والمسلمين إلا إذا حلوا المسألة المصرية وحرروا البلاد من ربقة الاحتلال الإنجليزى) قال (ولقد أضاعت ألمانيا فرصة ثمينة قد سنحت لها فى حادثة (فشودة) ، فلو أنها عضدت الفرنسيس ضد الإنكليز لاكتسبت مودة

---

(١٤٠) من = إلى قراءة ترجيحية .

(١٤١) والرخة = والرخاء قراءة ترجيحية .

(١٤٢) وأشاع = وأشاعوا قراءة ترجيحية .

(١٤٣) عقال = عقاله قراءة ترجيحية .

الفرنسيس ودعت أوروبا لحسم مشاكل وادى النيل) . قال (ولا خفى أن غرق الباخرة[١٤٤] ستهام) وهى التى كانت تحمل الديناميت وتم نسفها فى قناة السويس على ما مر بك بيانه فى حينه ، أجفل أصحاب سياسة الدول وأكد لهم أن القناة إنما هو فى يد الإنجليز وأنه ما زال الإنجليز فى ديار مصر فالخطر منهم على بلاد العرب لا يزول) قال (ولا خفى أن أولئك القوم قد اتخذوا خطة بونابارته فى معاكسة السلطنة العثمانية فى (مكة) (والمدينة) ليختل التوازن وتتدهور الأحوال ، وليس كذلك فقط بل وقد جعلوا يهدمون نفوذ الدول فى مصر . فإذا رضيت أوروبا بهدم نظام مصر الحالى فقد حكمت بقتل نفسها بنفسها) قال (وعندى أن الإسلام والمسلمين يؤملون أن تكون سياسة الألمان موافقة لمصالح مصر جملة ، ولست ممن يقولون أن الأتفاق الأخير اتفاق سنة ١٨٩٤[١٤٥] بين الإنجليز والفرنسيس قد ضرب على المسألة المصرية سياج النسيان لأنه قضى بأن لا يطالب الفرنسيس الإنجليز بالجلاء . اللهم لا ، حتى لقد فات الزمن الذى كان يرى فيه الألمان أن مسألة مصر سببا لخلاف بين أولئك القوم . على أن مصر كما لا يخفى هى روح العالم الإسلامى كما أن دار السلطنة العثمانية هى رأسه ، فمن أراد صداقة الإسلام وجب عليه العناية بخدمة تلك الرأس وتلك الروح) أ . هـ .

وشاع خبر ذلك الكتاب بين أفراد الحزب فأنشأوا منه قوة وحياة لحزبهم بدل تلك الرقدة والاستكانة الطويلة ولا سيما وقد تحققوا أن للأمير فى هذه الحركة البادية ضلعا مع جماعة الألمان وكتبا متواصلة ودعاة فى الخفاء . وعندى أنه لم تخف على جماعة الإنجليز من كل هذه الأمور خافية . على أنه لم تكن إلا عشية وضحاها حتى جاء الخبر من (عدن) إحدى مدن البلاد العربية بوصول كبير من كبراء الإنجليز من ديارهم الهندية إلى (عدن) واجتمع مرارا بمحافظ المدينة وأركان الحكومة . وبعد هذا الاجتماع تحقق أنهم يشرعون ببناء مستشفى عسكرى فى الحى الكبير للبلد الذى يقال له (الصنائع) . ثم

---

(١٤٤) راجع ص ٣٠١ وما بعدها .

(١٤٥) اتفاق سنة ١٨٩٤ = المفروض أن يكون المقصود هو ذلك الوفاق الودى Entente Cordial الذى عقد بين انجلترا وفرنسا فى أبريل سنة ١٩٠٤ والذى صفى المشاكل بينهما فى شأن وجود بريطانيا فى مصر ووجود فرنسا فى بلاد المغرب عندما اتفق الطرفان على عدم تدخل أى منهما فى وجود أى منهما فى البلدين (مصر والمغرب) .

جعل أصحاب الحل والعقد بعدن[١٤٦] يمدون طريقا عسكريا من البحر إلى (جبل الجحاف) الواقع فى المنطقة المختلف عليها بين الانجليز والسلطنة العثمانية فى النواحى التسع . قالوا ووصل خبر ذلك إلى (المابين) فاهتموا له اهتماما عظيما وكلموا سفير الإنجليز فى أمر هذا التعدى وألح (الباب العالى) بمنع كل تحكك وتحرش بالدولة فى بلاد العرب . وظن صغار الأحلام من رجال الحزب الوطنى أن كتب مصطفى كامل التى أزاعها[١٤٧] فى بعض صحف جماعة الألمان وخطبه التى صاح بها على منابر أندية (برلين) سترفع[١٤٨] بالألمان جملة إلى مناهضة الإنجليز والضرب على أيديهم خدمة لرأس الإسلام وروحه كما قال عميدهم مصطفى كامل . ولم تكن إلا أيام حتى عاد (مصطفى) ولم يعلم الناس من شأنه فى تلك البعثة إلا ما قلناه .

واحتفل فى تاسع نوفمبر من السنة ثانى عشر رمضان سنة ثلاث وعشرين بعيد ملك الانجليز وامبارطور[١٤٩] الهند . فاستعرضوا الجيش الإنجليزى المرابط فى البلاد فى رحبة عابدين إجلالا لذلك العيد الكبير عندهم . فنصبوا إلى جنوبى الميدان سار[١٥٠] رفع عليها العلم الإنجليزى وأفردوا إلى يمين العلم لجهة قصر الإمارة مكانا لوقوف قناصل الدول والأعيان والمدعويين ، وأفردوا إلى يساره مكانا للوزراء والمستأشرين[١٥١] وضباط العساكر المصرية . ولما صارت الساعة التاسعة وربع وصل (لورد كرومر) فى عربة فاخرة حولها طايفة من فرسان جيش الاحتلال ، فنشروا عند وصوله العلم وصدحت موسيقاهم بسلام الملك . وبعد تحية العلم سار اللورد كرومر بموكبه مارا على صفوف الجند والمدافع تطلق تباعا من قلعة الجبل ، ثم عاد إلى محل العلم ووقف بعربته واصطف فرسان حرس الإمارة من باب القصر الغربى إلى مكان العلم . وخرج الأمير ممتطيا جواده ووراؤه الحجاب على جيادهم . فلما بلغ مكان العلم صدحت الموسيقى بالسلام الأميرى

(١٤٦) بعدن = بعدئذ قراءة اجتهادية .
(١٤٧) أزاعها = أذاعها قراءة تصحيحية .
(١٤٨) سترفع = ستدفع قراءة ترجيحية .
(١٤٩) وامبارطور = وامبراطور قراءة تصحيحية .
(١٥٠) سار = سارية وهى ما يرفع ليه العلم .
ـ المعجم الوجيز ـ ص ٣١٠ .
(١٥١) والمستاشرين = والمستشارين قراءة ترجيحية .

ثم أعقبته بسلام الملك ، ومر الجنود طائفة طائفة أمامه . وبعد تمام الإستعراض مرت الموسيقات ودارت عدة دورات تصدح بالأنغام . ثم تقدم قائد الجنود الإنجليزية وأركان حربه ووقفوا مواجهين للعلم وجوه[١٥٢] ، ثم صدحت الموسيقى بنشيد الملك ثم نشيد الإمارة فهنأ الأمير قائد الجيوش بحسن نظامها ولورد كرومر بالعيد ، وعاد إلى القصر . وارفض الحضور وكان الجمع عظيما جدا والمشهد بالغا حد الإتقان والجلال .

وكان إلى هذ الحين لم تتخلص البلاد وأهلها من احتكار ضريبة الملح التى ضربت لعهد (إسماعيل باشا) وهو نقلها مع ما نقله من الضرائب والمكوس التى كانت لدولة المماليك الثانية ومن بعدهم إلى جماعة الغز . وهذه الضريبة كانت عند أهل البلاد من أسمج الضرائب وأشدهم[١٥٣] بغضا لها ولجباتها ، فإنها من بقايا أعمال أولئك القوم الظالمين . فلما كان سادس عشر نوفمبر من السنة تاسع عشر رمضان سنة ثلاثة وعشرين برز الأمر إلى مساهمى الشركة صاحبة الاحتكار بعزم الحكومة عزما باتا على إلغاء الاحتكار بناء علما[١٥٤] قرره رجال الخزينة من جماعة الإنجليز . فاجتمع مساهمو هذه الشركة واطلعوا على إنذار الحكومة فى شأن ذلك ورجعوا إلى شروطهم وما قضت به من إلغاء الإمتياز إذا شاءت الحكومة بشرط أن تنذر الشركة قبل إلغائه بستة شهور بحيث لا يكون للشركة عند إلغاء الامتياز الحق بالمطالبة بالتعويض ولكنه يظل لها الحق باستثمار ملاحات المكس دون غيرها وتدفع للخزينة ثمن جميع الملح الذى يوجد بسائر الأشوان باعتبار ثمن الطونلاطه[١٥٥] جنيها واحدا ، وتدفع رسما قدره أربعة قروش عن كل طن يستخرج ويصدر إلى الخارج مع رسم التصدير . فتم على ذلك الإلغاء وتنازلت أثمان الملح وعاد أهل القرى والكفور وغيرهم إلى استعمال الملح الجبلى المعروف بالبرانى رغما عن فساده وعدم صلاحيته .

(١٥٢) وجوه = وحيوه قراءة ترجيحية .

(١٥٣) وأشدهم = وأشدها قراءة ترجيحية .

(١٥٤) علما = على ما قراءة ترجيحية .

(١٥٥) الطونلاطة Tonnellata هى (الطن) باللغة الإيطالية ـ استخدمت الكلمة فى إطار تأثير اللغة الإيطالية على العامية المصرية ، ونطقها المصريون (طورناطة) وفقا (لقانون السهولة واليسر) الذى يحكم تداول الناس للغات الدخيلة .

ـ رياض جيد (القاموس الفريد (إيطالى ـ عربى) ـ دار إلياس العصرية ـ القاهرة ـ ١٩٨٠ ـ ص ٦١١ .

وجاء الخبر من محافظ الأسكندرية إلى ديوان الوزارة وقصر الإمارة بوصول بارجتين من بوارج الحرب الإنجليزية إلى الأسكندرية لسبب غير معروف وأنه لم ينزل أحد من رجالها إلى البر ولا زار ربانها محافظ المدينة على العادة المتبوعة ، وأنه لذلك كثر القيل والقال بين الناس وأصحاب الصحف المحلية والأجنبية ، حتى لقد ذهب بعضهم إلى دار قنصل جنرال الإنجليز يسأله عن سبب مجيء تلك السفن وعما إذا كان مجيئها لأمر أفسد الأمن العام . قال ورغما من تطمين الناس فإن الزعر[١٥٦] مستوليا عليهم جملة . وشاع خبر ذلك فى القاهرة ومصر فهب أزناب[١٥٧] الحزب الوطنى يهولون ويقولون أن فى البلاد حركة فكرية وربما هى ثورة فعلية بسبب تجمع أساطيل الدول الأوروبية عند جزيرة (مدللى) لإكراه السلطان على قبول قرار مؤتمرهم بوضع المراقبة الشديدة على تنفيذ الإصلاحات المتفق على تنفيذها فى مقاطعة (مقدونية)[١٥٨] . وجعلوا يرجفون بوقوع

(١٥٦) الزعر مستوليا = الذعر كان مستوليا أضيفت كلمة (كان) ليستقيم المعنى .

(١٥٧) أزناب = أذناب قراءة ترجيحية .

(١٥٨) كانت مقدونية قد دخلت تحت الحكم العثمانى فى القرن الرابع عشر وحتى عام ١٩١٢ . فى المنازعات الأوروبية ـ العثمانية والحروب الروسية ـ التركية والاضطرابات البلقانية أثناء النصف الثانى من القرن التاسع عشر (المسألة الشرقية) فقدت الدولة العثمانية الكثير من راضيها . وعندما دخلت روسيا الحرب ضد الدولة العثمانية فى عام ١٨٧٧ وهزمت الدولة العثمانية اضطرت إلى توقيع معاهدة (سان ستيفانو) مارس ١٨٧٨ وفيها تنازلت عن بعض أملاكها لروسيا ولبلغاريا التي أصبحت وفق هذه المعاهدة دولة كبرى . فى هذه المعاهدة فقدت الدولة العثمانية مقدونيا لصالح بلغاريا . لكن مؤتمر برلين المنعقد فى نفس العام تحت رعاية المستشار الألمانى (بسمارك) أعاد بلغاريا إلى أوضاعها السابقة وتم تقسيمها إلى أجزاء كان منها ما خضع للدولة وفق شروط معينة ومنها ما حصل على استقلال ذاتى . . إلخ . لكن أهم ما يعنينا كان عودة مقدونيا إلى الدولة العثمانية .

كان (مؤتمر باريس لعام ١٨٥٦) الذى أنهى (حروب القرم) قد منح الدول العظمى حق مراقبة تعهد الدولة العثمانية بحسن معاملة رعاياها المسيحيين ، وكانت (مقدونيا) من بين بلاد الدولة التى تضم أعراقا عديدة (يونانيين وصرب وبلغار) ، وكانت شأنها شأن باقى الولايات التابعة للدولة والتي تضم عناصر مسيحية تخضع للتأثير والتحريض الروسى للانتفاض ضد الدولة صاحبة السيادة . مع ازدياد الاضطرابات فى هذه الولاية اتفقت النمسا وروسيا فى عام ١٨٩٧ على المحافظة على الحالة الراهنة فى البلقان وتجنب إثارة المشاكل . وفى عام ١٩٠٣ الذى شهد تداعى تركيا وانهيارها فى أوربا ، وبلوغ الحكم التركى فى مقدونيا أسوأ حالاته ، جددت الدولتان اتفاقهما بما يعرف (بمذكرة ميرزستج/ Mürzsteg فى ١٩٠٣/١٠/٢ فى الوقت الذى كانت الثورة ضد الحكم العثمانى فى مقدونيا قد نشبت منذ عام ١٩٠٢ وتخللتها سلسلة من المذابح ضد الثوار من جانب السلطة الحاكمة العثمانية . اهتمت انجلترا بهذه الحوادث وحصلت روسيا والنمسا علي موافقة الدول العظمى على إنشاء شرطة دولية فى (مقدونيا) ، وتولت أكثر من دولة أوروبية إدارة قوات (الجندرمة) فى الولاية .

فى عام ١٩٠٥ سعت بريطانيا إلى إقامة نظام فعال لجمع الضرائب فى مقدونيا تحت إشراف دولى ، لكن (الدولة العثمانية) كانت تقاوم إلى حد ما هذه التدخلات في شئونها الداخلية رغم ظروفها وأحوالها المتداعية .

ـ أ . ج . جرانت وهارولد تمبرلى (أوربا فى القرنين التاسع عشر والعشرين ١٧٨٩ - ١٩٥٠) ترجمة محمد على أبودرة ولويس اسكندر ـ الجزء الثانى ـ وزارة التعليم العالى ـ الإدارة العامة للثقافة ـ ١٩٦٧ ـ ص ١٣٢ - ١٣٣ . =

الخطر فى سائر أنحاء البلاد من حين إلى حين ، وعلى أن وصول تينك السفينتين فى هذه الآونة إنما هو لمنع حدوث ذلك الحدث العظيم . وسمعت أحد أزناب[١٥٩] ذلك الحزب يقول قد حانت والله الفرصة وجاءتنا كتب المابين طافحة ببشائر الفوز والغلبة على أهل الصليب وغير ذلك من آيات الحقد التى لا تعصم من الفتنة ولا تنجى من الشبهة . وتحرير الخبر أنه لما انعقد مؤتمر سفراء الدول فى دار السلطنة العثمانية قرر ما قرره من وجوب مراقبة تنفيذ الإصلاحات التى أحدثوا قاعدتها لإرضاء المقدونيين وراحتهم فى شؤونهم وأحوال بلادهم الداخلية والخارجية ، ومنع كل حيف واقع عليهم بسبب العصابات المسلحة التى تعيث فى البلاد تحت ظل وجناح بعض رجال الدولة وإيعاز (المابين الهمايونى) كما يقولون . ورفع بما قرره مذكرة إلى الباب العالى طلب فيها الإعتراف من الدولة بجعل هذه المراقبة شرطا لازما من شروط الإصلاح وأمرا لا مندوحة عنه ، وألقى تبعة الممانعة فى إنفاذه على عاتق السلطنة العثمانية إن هى فعلت ذلك . فلما وقف السلطان على ما فى تلك القصة من الوعد والوعيد جعل يحاول ويطاول ويدس ما شاء من السفراء لعله يقطع ربط اتصالهم ويفكك عرى اتحادهم . وطال الحال على هذا فرأى السفراء أن يرجعوا إلى وعيدهم وسيروا فى طلب بعض سفنهم الحربية . فجاءتهم وألقت مرساها عند (بيره) ولبثت تنتظر ما سيكون ، فلم يهتم المابين بمجيئها وظل على شأنه . فأنزلت السفن جندها إلى البر واستولت على الجمارك فغضب السلطان وأعظم الأمر جدا وأرسل الباب العالى إلى السفراء جوابه على قصتهم يقول بعد كلام أن الدولة العلية قامت فى مواعيدها بكل إخلاص وصدق نية فأنفذت كل الإصلاحات التى طلبت فى بروغرام مركز[١٦٠] تسغ وإضافة[١٦١] إليها الإصلاحات الأخرى دعت[١٦٢] الحالة لإنفاذها ، فإذا كانت تلك الإصلاحات لم تنفع النفع المرموق فذلك ناشىء عن الشقاق

= ـ محمد قاسم وحسين حسنى (تاريخ القرن التاسع عشر) ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ١٩٣٨ ـ ٢٩٤ - ٢٠٥ .

- Wallace K. Ferguson & Geoffry Brunn (A Survey of European Civilization) 4th edition - Houghton Mifflin Company - Boston - 1969- pp., 703 - 705

- Lexicon Universal Encyclopedia - Vol., 13 - p., 15

(١٥٩) أزناب = أذناب قراءة تصحيحية .

(١٦٠) مركز تسغ = موورزستج قراءة ترجيحية .

(١٦١) وإضافة = واضافت قراءة اجتهادية .

(١٦٢) دعت = التى دعَت أضيفت الكلمة ليستقيم المعنى .

والنزاع القائم بين الطوائف المقدونية العديدة وعن الدسائس والتحريضات الأجنبية التى ليست خافية على سائر الدول . فالباب العالى يقوم بكل العهود والمواثيق التى أعطاها على نفسه فى (معاهدة برلين) مع أن بعض الدول الموقعه على تلك المعاهدة لا تقوم قط بعهودها . أما ما يختص (بالمراقبة المالية) فإن الباب العالى يستحيل عليه قبول مشروعها لأن هذا المشروع عبارة عن سلب حقوق السلطان وحقوق السيادة . وإن الباب العالى مستعد لإطالة مدة المندوبين الملكيين على شرط أن يستمر هؤلاء المندوبون على ملازمة حدود سلطتهم الحالية ، فإذا أصرت الدول على مطالبها وعمدت إلى القوة الضاغطة فإن الحكومة العثمانية لا تتحمل بوجه من الوجوه تبعة الحوادث ونتيجة غضب الرأى العثمانى الذى يثور بمساس كرامته ودولته أ . هـ .

فاجتمع السفراء فى مجلسهم وتلوا بينهم ما فى ذلك الجواب فتقررت القاعدة بينهم على أن يصروا على المظاهرة البحرية وأن يضربوا بذلك الجواب عرض الحائط . وفى الحال سيروا إلى أمراء الأساطيل بأوامر سرية مختومة ، وكانت كل سفارة قد أرسلت ترجمانها ليكون مع ربان سفينتها . وسافرت الأساطيل من (بيرة) إلى (مدللى) وظلت النسافات الإنجليزية والفرنسية واقفة فى مياه (بيره) لتتلقى الرسائل وتحكم المواصلات مع الأسطول . وأرسلت الدول إلى البلغار والصرب واليونان تحذرهم من أن يعدوا ظهور الأساطيل عونا لهم على نيل أغراضهم وتقول لهم (وبما أن الدول قد أخذت بيدها إنفاذ الإصلاح فى (مقدونية) فعليكم ملازمة الحياد كل أحد) . وشاع خبر قيام الأساطيل فى دار السلطنة . فرسم السلطان باجتماع مجلس الوزراء فاجتمعوا وتناجوا فى الأمر طويلا . أقول حدثنى كبير من الإنجليز قال علم السلطان بأن أول عمل سيقوم به أسطول الدول الأوروبية عند وصوله إلى المياه العثمانية هو القبض على (جزيرة مدللى) والإستيلاء على جمركها ، فأبرز أمره قبل وصول الأساطيل بأربعة أيام بعقد سلفة من البنك العثمانى قدرها سبعة وخمسين ألف ذهبا يأخذها البنك من دخل جمرك (مدللى) فى العام المقبل ، وللبنك قرض سابق قدره سبعة عشر ألفا ذهبا . فلذلك لم يدفع إلى خزينة الدولة من القرض الثانى إلا أربعين ألفا لا غير ، وفضلا عن ذلك فإن الباب العالى لا يعتمد على دخل جمرك (مدللى) فإن دخل الجزيرة من الزرع والزيتون ، فسيان عنده إن استولت الأساطيل على دخل الجمرك أو لم تستولى . قال وعندى أن الأساطيل لا تنال

من ذلك غرضا . ولذلك عادت بعض الدول وقالت إن عمل المظاهرة أمام الدردنيل أوجه وأقوى منها أمام (مدللى) وسيكون من ورائها حل كل إشكال وإكراه السلطان على إجابة مطالب الدول والإقلاع عن كل مكابرة ومشادة . قال وظل الحال على هذا بين أخذ ورد بين السفراء والسلطان أياما حتى عاد السلطان وازعن[١٦٣] أن مطالب الدول وقرار سفراها بغير نقض ولا إبرام ، فعادت الأساطيل أدراجها . قال وعادت أيضا السفن الإنجليزية التى جاءت فى[١٦٤] هذه الأزمة إلى المياه المصرية . ومع ذلك لم ينكف أذناب الحزب الوطنى عن الإرجاف والتهويل وتضليل العامة بأن الحرب الدينية واقعة بين الخليفة السلطان وبين دول النصرانية لا محالة حتى لقد راق لبعض أولئك الأذناب السامة أن ينشروا بين الناس فى القاهرة ومصر القديمة أوراقا مفعمة بالحض على الثورة والتغرير بصغار العقول . فاشتد الهرج بين العامة وظهرت دلايل الوحشة بينهم وبين النزلاء وجالية الفرنجة وكثر تعدى (زعر العطوف) على المارة وأبناء السبيل . وهب أصحاب الصحف العاقلة الرزينة يدعون الناس إلى الإعراض عن ترهات وخرقات وأكاذيب المنافقين ويقولون أن الخلاف القائم بين الباب العالى والدول إنما هو خلاف سياسى ككل خلاف يحدث بين بعض الدول وبعض ثم ينتهى بالمناقشات السياسية . قالوا وهب أنه لا ينتهى بالسياسة وهذا محال ، فمن صالح كل عثمانى وكل مسلم بل كل مصرى على نوع أخص الإنصراف عن سماع التضليل والأوهام والأكاذيب إلى ملازمة السكون والراحة والانصراف إلى الأعمال وإحكام عرى الإتفاق والأخاء مع الكافة . قال (وذلك ما يجب فعله على من أحب أمته ووطنه ونفسه ودينه إلا من أضله هواه .

ولما كانت ليلة السبت ثانى ديسمبر من السنة خامس شوال سنة ثلاث وعشرين وصل البريد من دار السلطنة بولاية (القاضى جمال الدين) قاضى مكة قاضى قضاة مصر بدلا من (القاضى يحى) المعزول ، ولم يكن قد وقع كلام بين الباب العالى وديوان الوزارة فى هذه ولايته[١٦٥] القاضى (جمال الدين) ذلك[١٦٦] قبل وصول البريد كما هى العادة

(١٦٣) وازعن أن = وأذعن إلى قراءة تصحيحية .
(١٦٤) فى = فى أثناء أضيفت الكلمة ليستقيم المعنى .
(١٦٥) هذه ولايته = شأن ولاية عدلت العبارة ليستقيم المعنى .
(١٦٦) ذلك = استبعدت الكلمة ليستقيم النص .

فى مثل ذلك . فكان لوصول هذا الخبر دهشة ، فقد كانت العادة أنه عند عزل قاضى القضاة أو إنقضاء أجل خدمته يحصل الأخذ والرد بين (المابين) وقصر الإمارة حتى يتم إختيار الأمير لمن يشاء من جماعة العلماء المرشحين فى باب مشيخة الإسلام لهذا المنصب الذى يتولوه بالمناوبة ، فإذا تم ذلك برز أمر السلطان بقيام القاضى إلى منصبه . أما فى ولاية هذا القاضى لم[١٦٧] يحصل شيء من ذلك البتة . وجاء البريد إلى القصر وإلى لورد كرومر بولايته على الوجه المسطور . وسير الأمير كتبه فى معنى ذلك إلى (المابين) وهو على أحر من الجمر ، واجمع[١٦٨] الوزراء وتناجوا فى كيف صاغ[١٦٩] للباب العالى خلع (القاضى يحيى) وإقامة بدله دون إبلاغ الحكومة خبر هذا التعيين قبل إعلانه . وعندى أنه لما كان الباب العالى لا يألو جهدا فى إعنات أصحاب الاحتلال وبذل الكثير من الأموال ، قد اراد من عمل[١٧٠] هذا إفهام الحكومة أن تعيين القاضى من شؤونه لا من شؤون أصحاب الحل والعقد فى الحكومة المصرية ، وأن ما كان قد كان وانقضى ، وأن لابد من إذهاب تلك التقاليد التى اتبعت منذ ثلاثين عاما فى تعيين القضاة الشرعيين . أقول ولم أخطيء إذا[١٧١] قلت أن ما كان من المشادة وسوء التفاهم بين الرئيس (مصطفى فهمى) باشا والغازى (أحمد مختار) باشا مندوب الباب العالى واشتداد الأزمة بينهما بسبب طلب الغازى تقديمه فى المحافل الرسمية والولائم الكبرى على جماعة الوزراء والأمراء على ما مر بك بيانه قد أدى إلى تشجيع الباب العالى ورجال (المابين) على فعل ما فعلوه من تعيين القاضى جمال الدين قاضيا لمصر على غير ما جرت به العادة منذ الثلاثين عاما ، وهو عمل ليس من الكياسة فى شيء . وطال الأخذ والرد فى شأنه أياما كثيرة حتى بات فى خبر كان .

وبينما الناس على هذا من الخوف والتطير من اشتداد الأزمة بين الحكومة والباب العالى وقد وصل القاضى جمال الدين إلى القاهرة إذ جاء الخبر على جناح البرق من

---

(١٦٧) لم = فلم قراءة اجتهادية .
(١٦٨) وأجمع = واجتمع قراءة ترجيحية .
(١٦٩) صاغ = ساغ أى طاب وهنؤ ، جاز وأبيح قراءة اجتهادية .
ـ المعجم الوحيد ـ ص ٣٢٨ .
(١٧٠) عمل = عمله قراءة اجتهادية .
(١٧١) إذا = إذ قراءة ترجيحية .

محافظ الأسكندرية بقيام ثورة كبيرة فى (شارع أسطاسى) أحد شوارع المدينة جرح فيها كثيرين . ذلك أن يونانيا تشاجر مع آخر من أبناء دولته فأخرج أحدهما مسدسا وأطلقه على خصمه فأخطأه وأصاب أحد الوطنين فوقع قتيلا . وجاء الصايح إلى أهله وسكان خطته فخرجوا على وجوههم بالهراوى والعصى ونبعه[١٧٢] السوقة وزعر العطوف . وعظم الهرج ، واجتمع كذلك بعض الأروام ووقع الضرب والطعن بين الفريقين وكثر الصياح . وجاء أصحاب الشرطة فلم يقدروا على إخماد نار هذه الفتنة واشتد الإلتحام بين الوطنيين والروم . وجاء محافظ المدينة ومعه طائفة من الفرسان فاقتحموا الزحام ومزقوا ذلك الجمع الكبير ، وكذلك جاء قنصل جنرال اليونان وقبضوا على أصحاب الفتنة وحملوا المجروحين فكانوا عشرين جريحا وقتيلان . وكان لما سمع الناس طلق المسدسات ورأوا من زحام المتشاجرين وترامح السوقة وصياح العامة وولولت[١٧٣] أهل القتيل تولاهم الذعر فترامحوا إلى بيوتهم وأقفل أصحاب الحوانيت حوانيتهم وعم الخوف سائر أحياء المدينة حتى أهل الوظائف الديوانية وظنوا أنها فتنة مدبرة وثورة مقصودة . وزادهم اعتقادا فى ذلك أعوان السوء ودعاة الحزب الوطنى وظهور مصطفى كامل عاهل ذلك الحزب فى (ميدان محمد على) بالمنشية فى ذلك الحين ، وقد نادى أحدهم (يعيش الحزب الوطنى) فظن جماعة الفرنجة أن وراء الأكمة ما وراءها وقد أساؤا بالقوم الظنون وحسبوا أنهم يكيدون لهم كيدا ويضمرون لهم شرا عظيما . ولم تطمن[١٧٤] قلوبهم ولا سكنت خواطرهم إلا بعد القبض على المتشاجرين ونقل المصابين . وطاف بعض كبار الوطنيين على أصحابهم وأصدقائهم من النزلاء يخففون عنهم ويهونون عليهم ويطمنون قلوبهم ويدفعون عنهم ما علق بأذهانهم من سوء الظن بالعامة والسوقة . وجدير بأصحاب الحل والعقد أن يروا[١٧٥] فى أمر ذلك الشارع الذى وقع فيه هذا الحادث الخطير فهو المعروف (بالهماميل) الذى قبحت سيرته وتلطخت شهرته فإن ذكر اسمه ذكرت معه الجرائم بأفظع معانيها . وهو الذى حدثت فيه منذ ثلاث سنوات الحادثة المشهورة بحادثة الهماميل التى ملأت البلاد كلها دعاء[١٧٦] . ثم أنه لم يمر يوما من الأيام عليه إلا والسكاكين مغمدة فى القلوب

(١٧٢) ونبعه = وتبعهم قراءة اجتهادية .
(١٧٣) وولولت = وولولة قراءة ترجيحية .
(١٧٤) تطمن = تطمأن قراءة ترجيحية .
(١٧٥) يروا = ينظروا قراءة ترجيحية .
(١٧٦) دعاء = استبعدت الكلمة لإخلالها بالنص .

والمسدسات مطلقة فى الصدور لاحتوائه على كل متشرد من جماعة الفرنجة وزعر الوطنيين أصحاب الجرائم فضلا عن مكامن الريب والميسر وحانات الفجور وكأنه بورة من الشر لا قرار لها . ولقد قام أصحاب الصحف الأجنبية قومة شديدة ينادون بالويل والثبور ويقولون أن دعوة (السلطان عبدالحميد) للحرب الدينية والجهاد فى النصارى بسبب مظاهرة أساطيل الدول عند (جزيرة مدللى) وإكراهه على قبول المراقبة الأجنبية على (مقدونية) قد وصل صداه إلى الأسكندرية ووجد شره ممبثا[١٧٧] صالحا فى قلوب أهلها لهمجيتهم وتعصبهم وبعدهم عن المدنية الصحيحة ، وطلبوا قوة من الجنود الأوروبية تجىء إلى البلاد لتحفظ الأمن وحياة النزلاء وحماية مصالحهم ومرافقهم . وقالوا أن فى استقلال هذه البلاد خطرا على كل المرافق والمنافع وحياة الناس جملة . أقول ولو انصفوا لعادوا عن هذا الضلال والوهم الفاسد ، ولكن فى صدور القوم معتقدا راسخا تزيده شيعة الضلال بيننا وتدفعنا إلى ركوب متنه الخشن ، ودعاة الاحتلال منهم تزيده كل يوم تمكينا حتى أمست البلاد وأصبحت وهى تنزع فى كل آن إلى الهرج والخروج لأقل سبب . وكان عدد من قبض عليهم فى هذا الحادث نيفا ومائة وخمسين من الوطنيين بينهم بعض اليونانيين من أصحاب حانات الميسر وبيع الخمور . وما هى عشية وضحاها حتى وقع شجار آخر عنيف بين وطنى ويونانى خبازا فى (شارع اللبان) بالأسكندرية ضربا[١٧٨] مبرحا أحدث به جراحا بالغة . فاجتمعت الغوغاء وجاء الصايح من كل صوب . فأقبل أصحاب الشركة[١٧٩] مسرعين ففرقوا المجتمعين بضرب الصياط[١٨٠] ، ونقلوا الجريح إلى المستشفى وقبضوا على الضارب . وتفشى خبر ذلك فى أطراف البلد فاستولى الزعر[١٨١] على الناس وظنوا أنها شرارة ثم حريقا تتأجج ناره . وترامحوا إلى دورهم وأقفل أصحاب الحوانيت فى الحال حوانيتهم . ووصل الخبر إلى ربان الدارعة الإنجليزية الواقفة فى مياه الثغر وكانت على أهبة الإقلاع فى ذلك اليوم فتأخرت وأنزل ربانها نفرا من الضباط إلى البر يتجسسون ويستطلعون الأخبار . وجاء الأمر من

---

(١٧٧) ممبثا = منبثا قراءة اجتهادية .

(١٧٨) ضربا = ضربة ضربا أضيفت الكلمة ليستقيم السياق .

(١٧٩) الشركة = الشرطة قراءة ترجيحية .

(١٨٠) الصياط = السياط قراءة تصحيحية .

(١٨١) الزعر = الذعر قراءة تصحيحية .

الرئيس (مصطفى فهمى) باشا بتفتيش بيوت العربان النازلين فى الضاحية وجمع ما عندهم من السلاح ونحوه . فانبث أصحاب الشرطة شرقا وغربا وجمعوا ما وجدوه فكان شيئا كثيرا . وأجمع[١٨٢] قناصل الدول عند محافظ المدينة وكلموه فى الأمر طويلا فطيب خاطرهم وخفف عنهم ما استطاع . فعادوا وقد سألهم التشديد على أولئك المشاغبين من قومهم بملازمة الهدوء والسكينة واجتناب التحكك بالعامة والسوقة من الوطنيين ، وتكلم فى ذلك كثيرا مع قنصل جنرال اليونان فوعدوه خيرا . وانصرف الناس عن هذا إلى اهتمام أصحاب الحل والعقد بتدبير طلعة الحج لهذا العام وترتيب الحرس على غير المعتاد وتسليم إمارة الحج إلى اللواء (إبراهيم فتحى) باشا أحد كبار مقدمى الجند العساكر المصرية . ذلك لأنه جرت العادة أنهم كانوا يؤلفون حرص[١٨٣] الركب من الجنود الذين أتموا مدة خدمتهم ومن جند الاستيداع ، فكانوا لذلك يعتقدون أنهم مسخرون فى حراسة الركب تسخيرا فلم يؤدوا للحراسة حقها ولم يحفظوا النظام العسكرى ولا الطاعة لكبارهم حتى أطمعوا فيهم العربان . فعاثوا وأفسدوا وقتلوا الحجاج وغنموا متاعهم كما مر بك بيان ذلك فى محله . ورأى أمير الحج أن يكون الحرس من العساكر النظامية فكلم فى ذلك أصحاب وزارة الحرب من كبار الأنجليز وما زال بهم[١٨٤] أقنعهم برأيه . وتقررت القاعدة بينهم على تأليف الحرس من نصف الأورطة السابعة المنشأة[١٨٥] وتم له ما أراد من تسليحهم وتكميل عدتهم .

فلما كانت الساعة الرابعة من بعد ظهر يوم الجمعة ثانى عشرى ديسمبر من السنة خامس عشرة شوال سنة ثلاث وعشرين نقلوا كسوة البيت الحرام بموكب كبير للغاية من (الخرنفش) إلى (مصطبة محمد على) حيث عرضت للناظرين . وفى المساء زينت المصطبة وضربت حولها الخيام والسرادقات وعقدوا حلقات الذكر ، وتوافد الأعيان والعلماء ومحافظ المدينة . ثم أصبحوا وقد اصطفت الجنود فى الميدان ونصبوا المدافع إلى جانبه . وجاء الأمراء والكبراء وجماعة الوزراء وازدحم الميدان بجماهير الناس على

---

(١٨٢) واجمع = واجتمع قراءة تصحيحية .

(١٨٣) حرص = حرس قراءة تصحيحية .

(١٨٤) بهم = بهم حتى قراءة اجتهادية ـ أضيفت الكلمة ليستقيم النص .

(١٨٥) المنشأة = المشاة قراءة ترجيحية .

اختلاف طبقاتهم . ثم أقبل موكب الأمير فعزفت الموسيقات بالسلام وأطلقت المدافع . وجلس الأمير على كرسيه بين رجال دولته . فدار الجمل بالكسوة دوراته الثلاث ، فتناول زمامه وقبله ثم ناوله إلى أمير الحج . وسار الركب على ترتيبه المألوف إلى (الجبل الأحمر) ليقضى أيامه المعدودة هناك ثم يقوم إلى السويس (لجده) . وجعل الحجاج يتأهبون للخروج مع الركب فى حمولهم وأثقالهم حسب عادتهم فسبحان من بيده مصير الأمور .

عام ١٩٠٦

الخطوط الحديدية فى السودان ـ أزمة طابا ـ الحكومة ونشاط طلبة المدارس ـ نادى المدارس العليا ـ حادث دنشواى ـ نشاط مصطفى كامل فى أوروبا ـ ظهور صحيفة (الجريدة) ـ سعد زغلول فى نظارة المعارف .

ثم دخلت سنة ستة وتسعمائة وألف للميلاد

استهلت سنة ستة وتسعمائة وألف للميلاد بيوم الإثنين سادس ذى القعدة سنة ثلاث وعشرين وثلثمائة وألف للهجرة وثالث عشرة كيهك سنة اثنين وعشرين وستمائة وألف للشهداء .

فصل
فى ذكر ما وقع فيها من الأحداث

وحدث أن وصل إلى محطة بولاق الدكرور قطار من قطارات البضائع وفى إحدى عرباته نحو العشرين برميلا من البنزين . فما هو أن وقف على رصيف المحطة حتى انفجر أحد تلك البراميل فانفجرت معه على الأثر سائر البراميل ودوت دويا شديدا جدا ماجت معه المحطة كلها وتطايرت النيران إلى عنان السماء تحمل شظايا حديد العربات ، ثم عادت النيران إلى الأرض كالمطر وأحرقت كل ما وصلت إليه وتعلقت ببعض البضاعة والغلال الموضوعة على بعض الأرصفة . وبلغ صوت الانفجار سكان الجزيرة والدقى والجيزة والأهرام ومصر والقاهرة ، فهب الناس مذعورين يسألون عما جرى . وجاء الصائح فى طلب إسعاف الجرحى والمصابين ، فسيرت إدارة السكة الحديد فى الحال قطارا بجماعة من أطبائها فأحصوا المصابين . فكانوا عشرين مصابا بين قتيل وجريح وبينهم أحد مهندسى قلم الإشارات من جماعة الإنجليز ، ونقلوهم إلى مستشفى القصر العينى فى أشد حالات الخطر ، وخرج خلفهم كثير من النساء يولولن ويقرعن صدورهن ، فكان الحادث مريعا والمنظر أليما للغاية . قالوا ولم يكن لذلك الإنفجار من سبب سوى إهتزاز البنزين فى مراجله فنتج عنه الإلتهاب ثم الإنفجار .

وجاء الخبر من عاصمة (بلاد السويس)[1] بأن عامهم هذا الجديد قد افتتح عندهم باكتشاف جديد فى عالم الفلك وعلم النجوم . فإن كبار الفلكيين منهم قد اكتشف نجما من المرتبة السابعة فى الكبر . قالوا وهو يختلف عن سائر السيارات بأن له ذنبين وهو أول نجم عرفه الفلكيون من هذا النوع قلت فسبحان .

(١) Swiss أى سويسرا

وحدث بعد أن وصل القاضى (جمال الدين) الجديد إلى القاهرة ما عتم فى منصبه حتى انقطع عن الذهاب إلى المحكمة وتمارض ثم ظهر أنه طلب من وزارة الحقانية بعض مطالب كعزل بعض الموظفين وتنزيل درجات البعض الآخر واستبدال بعض الأعضاء الشرعيين بآخرين وغير ذلك . فلم توافقه الوزارة على ذلك وأشارت عليه من طرف خفى أن يرجع فى سائر طلباته إلى حكم لائحة المحاكم الشرعية المعمول بها . قالوا فأغضبه كلام الوزارة ولازم بيته أياما ظهرت فى خلالها حركة مزعجة بينه وبين القضاة وكبار العلماء . وكثر الكلام بين الفريقين واشتدت الجلبة واتصلت ضوضاؤهم بأصحاب الجرايد المحلية والأجنبية ففصلوا فيها وقاسوا وخاطوا وألبسوها ثوبا من الفتنة والتقاطع الممقوت . وكان لما وصل القاضى (جمال الدين) من دار السلطنة لم يقابله شيخ علماء الأسكندرية ويرحب به كما فعل جماعة العلماء ، فأكبر القاضى ذلك وأعظمه جدا . قالوا وأشار الغازى أحمد مختار باشا على أصحاب بعض الصحف المحلية بان يتكلموا فى ذلك ويعيبوا على شيخ علماء الأسكندرية فعله ويندوا به ما استطاعوا ففعلوا . فاستنجد الشيخ بنفر من أصحاب الصحف أيضا فنصروه وعلت أصواتهم وأخذت صيحتهم القاضى (جمال الدين) من كل جانب . وكان من بين تلك الصحف صحيفة افرنجية قالت بعد كلام عن القاضى (جمال الدين) (ولسنا نشك فى أن حادثة الأسكندرية التى وقعت فى هذه الأيام الأخيرة كانت بتحريض بعض شيوخ الدين الذين فعلوا ما فعلوه بإيعاز من دار السلطنة العثمانية) . وما تفشى هذا القول بين الناس حتى ذعر منه أصحاب الحل والعقد واهتموا له اهتماما كبيرا وجعل الناس يتحدثون به فى مجالسهم الخصوصية ، حتى لقد أكد بعضهم وأقسم الإيمان الغلظة أن ما يقوله القاضى (جمال الدين) وأنصاره فى حق شيخ علماء الأسكندرية هو إفك وبهتان لأمر سياسى ينقمه عليه . قال وذلك أنه لما بدت (أزمة مقدونية) بين الباب العالى ودول أوروبا الكبرى واشتد الخلاف بين الفريقين طلب القاضى (جمال الدين) من الشيخ حض العامة على التظاهر ضد عمل دول الفرنجة والانتصار للخليفة السلطان . فلم يوافقه الشيخ على ذلك وعاب عليه قوله . فكان هذا الامتناع سببا فى مخاصمة القاضى للشيخ واشتداد الجفاء بينهما . قال وأن قاضيا هذا شأنه وهذه غايته بالحض على الهرج وإقامة المظاهرات العدائية ضد الدول التى لا قبل لنا على معاداتها لهو خليق بأن يرمى من حالك[٢] ويضرب برسالته عرض الحائط .

(٢) حالك = حالق قراءة ترجيحية .

وإلى هذا الحين كان قد تم مد خط سكة حديد البحر الأحمر وهو من الأعمال العظيمة التى استلزمها الحال بعد ذلك الاتفاق الذى استحكمت ربطه[٣] بين دولتى الإنجليز والفرنسيس ، وبعد ذلك الاهتمام وتلك العناية التى قام بها جماعة الإنجليز فى السودان المصرى وما صنعوه من آيات التعمير والتمدين . وهذا الخط يمتد من (العطيرة)[٤] إلى (الشيخ برغوت) إلى الميناء الجديدة . فلما كان سابع عشرة يناير من السنة ثانى ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين كان قد وصل إلى (سواكن) لورد (كرومر) وجماعة المدعوين من العلماء ورجال الشورى ومقدمى الجند المصرى والإنجليزى ومكاتبى الصحف المحلية والأجنبية وبعض الوجهاء والأعيان بدعوة من لورد (كرومر) وحاكم السودان المصرى ، ولم يحضر الأمير تلك الحفلة . قالوا لأنها صارت على غير ما يرضاه . وقد نصبت السرادقات ورفعت الأعلام وزينت الرحبة التى أعدوها لهذا المهرجان بزعف النخل وأغصان الشجر . وقام فى وسط الجمع (السردار[٥] ونجت باشا) وألقى خطابا فى المعنى ضمنه شيئا من الأسباب السياسية والاقتصادية التى أوجبت مد ذلك الخط وفتح (ميناء الشيخ برغوت) مخاطبا به لورد (كرومر) . فرد عليه اللورد يقول . (استهل كلامى بما تشاركوننى فيه كلكم وهو إبداء أسفنا لأن سمو الأمير لم يستطع حضور هذه الحفلة ليتولى رئاستها اليوم) . وأردف هذا الاستهلال بملاحظة أخرى وهى

(٣) ربطة = روابطه قراءة ترجيحية .

(٤) العطيرة = العطبره قراءة ترجيحية .

(٥) السردار ونجت باشا = وينجت ، سير (فرانسيس) ريجنالد ، فيرست بارونيت (١٨٦١/٦/٢٥ - ١٩٥٣/١/٢٨ Wingate, Sir (Francis) Reginald, First Baronet . ضابط برتبة جنرال فى الجيش البريطانى ومندوب سام فى مصر . ولد في بورت جلاسجو (سكوتلنده) Port Glasgo . درس فى الكلية الحربية (وولويتش) Wool-wich وتخرج ملازما بالمدفعية فى سنة ١٨٨٠ . انضم إلى الجيش المصرى بعد الاحتلال فى سنة ١٨٨٣ . شارك فى حملة إنقاذ (غوردون) فى السودان . شغل مناصب سكرتير عسكرى مساعد ، مساعد مديرا إدارة الجيش . فى سنة ١٨٨٩ أصبح (مديرا للمخابرات الحربية) بالجيش المصرى . كتب (Mahdism and the Egyptian sudan) . ترجم روايتى (الأب أوروالدر) و(سلاتين باشا) عن تجربتهما كسجينين عند (المهدية) . شارك فى حملة استرداد السودان (١٨٩٦ - ١٨٩٨) وأصبح (سردار) للجيش المصرى بعد كتشنر (١٨٩٩ - ١٩١٦) ، وعمل (حاكما عاما للسودان) . أكد (ونجت) الحكم الثنائى فى السودان . عين فى ١٩١٧ مندوبا ساميا فى مصر خلفا للسير (هنرى مكماهون) . فاجأته (ثورة ١٩١٩) كما فاجأت الحكومة البريطانية . خدم فى مجالس إدارات العديد من التنظيمات المحلية و(كلية غوردون) بالخرطوم . بتحتفظ جامعة درهام (Durhan) فى انجلترا بأوراقه .

- آرثر جولد شميت (قاموس تراجم مصر الحديثة) - ترجمة وتحقيق عبدالوهاب بكر - المشروع القومى للترجمة - وزارة الثقافة - القاهرة - ٢٠٠٣ .

(إن فخر هذا النهار أيها السادة يحق (للكولونيل ماكولى) ورجاله البالغين غاية الكفاءة والدراية ، وأخص بالذكر منهم (الكبتان مدونتر) والكبتان (لونجفيلد) من ضباط المهندسين الملكيين وأيضا (القائمقام محمود بك خير الله) فإنهم مدوا ثلاثمائه وخمسة وعشرين ميلا من خط سكة الحديد فى أربعة عشر شهرا فى أحوال الجو مثل أحوال الجو السودانية ، ففعلوا فعلا يستحق عظيم الاعتبار . فالبنيابة عن الحكومة البريطانية والحكومة المصرية أغتنم هذه الفرصة لأعرب عن مزيد الامتنان لما أبدوا من الغيرة والذكاء فى إتمام هذا الفعل[٦] العظيم الشأن ، لا سيما وأن نفقته كانت معتدلة جدا فإنها لم تزد عن مليون وأربعمائة ألف ذهبا من المال) .

قال (ثم إنى أنتقل الآن من الكلام الخصوصى إلى الكلام العمومى عن هذه السكة الحديدية ـ لا ريب أن أعمالا عظيمة عملت فى السودان هذه الأعوام ، فقد استتب النظام والسكون فى كل مكان وسن للبلاد نظام مالى يوافق حاجاتها ويطابق مقتضى حالها وأنشئت فيها مدارس ومحاكم . ولكن يصح لنا مع هذا كله أن نقول أن ارتقاء بلاد السودان لم يبتدىء بالجد إلا من هذا النهار لأنها ما دامت مفصولة عن سائر العالم بمغاور[٧] مجدبة وصحار محرقة ولا اتصال بها به إلا بخط واحد من السكك الحديدية وبواخر نهرية مسافة ألف ومائتى ميل هى بعد مصب العتبرة عن الأسكندرية ، فليس فى الإمكان نتقدم[٨] سريعا . أما الآن قد أبان الكولونيل (ماكولى) فى المذكرة التى تليت على مسامعنا أن مسافة (بربر) عن البحر قصرت نحو تسعمائة ميل بإنشاء هذه السكة الحديدية .

كان قوم يتخوفون من أن فتح هذه السكة الحديدية يضر بالقطر المصرى ويطلبون بناء على هذا الخوف أن لا يصرف مال من إيرادات الحكومة المصرية على إنشائها . ولكن يسرنى أن هذه الكشوى[٩] تزول شيئا فشيئا لما اتضح للناس أن إنشاء هذه لا يحول شيئا

---

(٦) الفعل = العمل قراءة ترجيحية .

(٧) مغاور = مفاوز قراءة ترجيحية .
والمفازة هى الصحراء .
ـ المعجم الوجيز ـ ص ٤٨٤ .

(٨) نتقدم = أن نتقدم قراءة اجتهادية .

(٩) الكشوى = الشكوى قراءة ترجيحية .

يذكر من التجارة الموجودة فى طريقها ، بل يوجد تجارة جديدة لم يكن يمكن أن توجد لولاها . وحسبى حضور جماعة من أشهر أعضاء مجلس شورى القوانين المصرى هنا الآن دليلا قاطعا على أن نواب الأمة المصرية لا يشاركون أولئك القوم فى خوفهم هذا) . قال (أما رأيى أنا فواضح ومعلون[١٠] وقد أبديته مرارا قبل اليوم . فأولا إنى لا أركن إلى كل برهان يبنى عليه وجوب بقاء مكان وربما كان الأصح أن يقال هنا بقاء قارة برمتها متأخرة حبا بتقدم مكان آخر .

وثانيا ـ أنه منذ صدر تقرير السير (وليم جارستين)[١١] الذى يعد فاتحة عصر جديد ثبت بالبرهان القاطع أن تقدم مصر المادى مرتبط بتقدم السودان المادى ، لأن نهر النيل يصل بينهما . ومؤكد أن كل الأعمال العظيمة التى تعمل لخير مصر فى المستقبل تعمل فى جهات وادى النيل الأعلى وليس فى القطر المصرى بالذات ، فتكون هذه السكة الحديدية إذا[١٢] أول خطوة فى السبيل المؤدى إلى إتمام مشروع يقصد منه عمل الأعمال[١٣] منفعتها عمومية وهى أعظم فرع من فروع المواصلة التى تفتح بلاد السودان للعالم كله . ولكن بلاد السودان لا تنتفع بها حق الانتفاع إلا بعد عمل أعمال أخرى عظيمة بعضها قد ابتدأ فعلا كالميناء الذى أخطب عليكم[١٤] فيه اليوم . فإنه ابتداء[١٥] بالوجود الآن والرجاء أنه لا تمضى شهور كثيرة قبل ما تفتح سكة الحديد من (الكرمة) إلى (أبى حمد) فيتم بها الاتصال بين (مديرية) دنقلة) الغنية والبحر . وسيبتدى عما قليل عمل أعمال للرى تخصب بها السهول المجاورة (لكسلا) بالرى من مياه نهر

(١٠) ومعلون = ومعلن قراءة تصحيحية .

(١١) وليم جارستين = جارستين ، سير ويليام ادموند Garstin, sir William Edmond (١٨٤٩/١/٢٩ - ١٩٢٥/١/٨) . مهندس رى إنجليزى ، ولد فى الهند وتعلم فى الجامعات البريطانية ، عمل مهندسا بوزارة الأشغال الهندية (١٨٧٢ - ١٨٨٥) . عين مفتشا للرى فى مصر فى عام ١٨٩٢ ، ثم أصبح وكيلا لوزارة الأشغال العمومية . خطط لبناء (سد أسوان) الأول . فى عام ١٩٠٤ أصبح مستشارا لوزارة الأشغال . عمل مديرا فى (شركة قناة السويس) بعد تقاعده فى عام ١٩٠٨ . مسح Surveyed الكثير من خرائط الوجه والقبلى والسودان ورسم خرائط لهما لاتزال تستخدم حتى الآن .

ـ آرثر جولد شميت ـ المصدر نفسه .

(١٢) إذا = إذن قراءة تصحيحية .

(١٣) عمل الأعمال منفعتها عمومية وهى = المنفعة العمومية وهو . عدلت الجملة لتستقيم مع المعنى .

(١٤) عليكم = إليكم قراءة اجتهادية .

(١٥) ابتداء = ابتدأ قراءة اجتهادية .

(الغاش) . وسيبتدئ الحفر لبناء كبرى[١٦] على البحر[١٧] الأزرق والبحر[١٨] الأبيض عند (الخرطوم) . قال والمهندسون يمسحون ويخططون الآن لإنشاء سكة حديد تصل به السكة الحديدية الحالية (بكسلا) ، ولمد سكة حديد على الضفة اليسرى من ضفتي البحر[١٩] الأزرق ، ولترويج صمغ (كورد فان) فى أسواق (أم درمان) بمد سكة حديد بينهما) . وقال (ولكن لا ينتظر أن هذه الأعمال كلها تأتى بريع فى الحال إذ[٢٠] ما يكون مثله لا يكون له إيراد يذكر فى السنين القليلة الأولى من إنشائه ، ولكن لا ريب عندى فى أن ريعها يكون وافرا فى المستقبل . ولذلك أوصى الذين يدفعون الأموال لحكومة مصر أن يصرفوا اليوم ليجنوا الخير الكثير غدا .

ولا حاجة بى أن أقول أن هذه الأعمال التى أشرت إليها والتى هى توطئة لإتمام الأعمال التى عددها (السير وليم جارستين) فى بيانه العظيم الواسع لا تتم إلا بعد أعوام طوال) قال (وأنا قد بلغت من السن مبلغا أؤمل[٢١] معه أن أعيش وأراها بعد إتمامها . بل غاية ما أرجو أن أقف على رأس فسجة[٢٢] إدارية وانظر إليها من بعيد . إذ لا أمل فى دخول بلاد الوعد[٢٣] . على أنى أروم أيها السادة أن أقرر فى أذهانكم أعظم تقرير أن إتمام تلك الأعمال وكذلك سياسة الحكومة البريطانية فى مصر والسودان خصوصية كانت أو عمومية لا تتوقف مطلقا على الأشخاص الذين يتولونها . بل هى بمعزل عن كل التغييرات الوزارية التى تحدث فى انجلترا وبمعزل عن الأشخاص الذين يتولونها فى مكانها . فهب أنى تركت مصر والواقع إنى عازم على البقاء فيها ما دامت صحتى وقوتى تسمحان لى بالبقاء فيها . أو هب أن (السير ونجت) ترك السودان بعد زمن طويل إن شاء الله فغاية ما يترتب على ذلك أن انجليزيا يذهب وآخر يأتى مكانه) .

(١٦) كبرى = كوبرى قراءة ترجيحية .
(١٧) البحر = النيل قراءة ترجيحية .
(١٨) والبحر = والنيل قراءة ترجيحية .
(١٩) البحر = النيل قراءة ترجيحية .
(٢٠) إذ = إذ أن أضيفت الكلمة ليستقيم النص .
(٢١) أؤمل = لا أؤمل عدلت الجملة بإضافة كلمة لا لأن المعنى يفهم منه ذلك ـ خاصة وأن كلمة (بل) جاءت بعد ذلك على سبيل الرجاء .
(٢٢) على رأس فسجة إدارية = استبعدت الجملة لعدم انسجامها مع السياق .
(٢٣) بلاد الموعد = بلادكم بعد الموعد عدلت العبارة لتتفق مع المعنى .

قال (ثم إنه طبقا للاتفاق الإنجليزى المصرى المبرم عام تسعة وتسعين وثمانمائة وألف وللسياسة السمحة التى تجرى الحكومة البريطانية عليها دائما فى مثل هذه المسائل بفتح هذا الميناء وهذه السكة الحديدية لتجارة العالم كله على السواء بلا فرق ولا تمييز فى الأجرة والرسوم ولا مراعاة أمة دون أخرى . ولكن لا يبرح من أذهانكم أيها السادة أنه وإن كان فتح السودان للعالم يأتى للسودان بنعم التمدن وبركاته بلا ريب فهو يقترن أيضا بخطر لابد منه ، وهو أن يدخل إلى السودان أمورا تصحب تمدن أهل الغرب على ما يظهر ، وتعد عادات[٢٤] على تمدنهم . فسكة الحديد تنقل التاجر الذى تجارته حلال والسائح والعالم ومحب الخير للبشر ، وفى نقلهم خير وبركة . ولكنها يمكن أن تنقل معهم إلى السودان بائع المسكر والمرابى والتاجر الأفاق . فهؤلاء الأخيرون لا يلزم لمنعهم من السودان اتخاذ تدابير فائقة فى الشدة أو تدابير استبدادية ، بل إننا نقابلهم بوسائط أخرى . فالبنوك الزراعية التى تنشأ على أساس صحيح خالص من الفساد تزاحم المرابين وتتكفل بمقاومتهم ، والقوانين التى تسن على مقتضى العقل والحكمة دون الإفراط فى بيع المسكرات والعناية وحسن الفطنة فى بيع أراضى الحكومة يدفع كثيرا من ضرر المتاجر بالشركات) . قال (ولا ريبة عندى أن هذه المسائل كلها تستوفى حقها من عناية (السير ونجت) الذى لا أفى خدماته حقها من المدح مهما أطنبت فى مدحها) .

قال (بقى على أمر أريد الإشارة إليه قبل ختام الكلام وهو أن منتهى سكة الحديد من (سواكن) إلى (بورت سوادن) ساء سكان (سواكن) وخيب آمالهم . ولست أنكر أن مصلحتهم تستحق عناية الحكومة واعتبارها . ولذلك سيعاملون معاملة حسنة عند تقسيم الأراضى لبناء المدينة الجديدة فى (بورت سودان) إلا الذين اشتروا الأراضى فى (سواكن) لمجرد المضاربة بالبيع والشراء فهؤلاء لا أجعل لهم أملا فى أن يعاملوا معاملة إستثنائية أيضا ، إذ من يقامر بالأراضى يجب أن يتحمل خسارة مقامرته أحيانا) . قال (والآن بالسلطة المعطاة لى من لدن جلالة الملك إدوارد السابع وسمو الخديوى أعلن فتح سكة الحديد من (بورت سودان) إلى (بربر) أ . هـ

فرد عليه (شواربى باشا) وكيل شورى البلاد بخطاب ختمه بعد كلام بهذه العبارة .

(٢٤) عادات = عادات دخيلة   أضيفت الكلمة (دخيلة) ليفهم المعنى .

(ولقد ترتب على رقى البلاد وفلاحها أن تسابقت إليها أيها الإخوان أصحاب الأموال من الأوروبيين فانفتحت أبواب الأعمال وتوفرت أسباب الاشتغال وتنوعت طرق الكسب والإرتزاق واتسعت ميادين الجد والاجتهاد ودارت دواليب الحركة . فاستفاد الزارع والمالك والتاجر والصانع وارتفعت الأسعار فى كل شىء ، وازدادت ثروة القطر العمومية وتحسنت الأحوال المالية والمعاشية لدرجة استطاع معها أهله أن يستردوا شيئا كثيرا مما كانوا قد فقدوه من ممتلكاتهم) . قال (هذه الحالة أيها الإخوان نتمنى أن نراكم فى مثلها فى أقرب الأوقات سائلين المولى جل علاه أن يوفقكم جميعا للاستفادة بفضائل تلك المدنية وطيباتها واجتناب مضارها وسياستها . كما نتمنى أن تجمعنا وإياكم احتفالات أخرى كمثل هذا المشروع الجليل فى ظل مولانا ولى النعم الجناب الخديوى المعظم أطال الله بقاءه إنه سميع قريب مجيب الدعاء أ هـ

فأطلقت الطراده (ريانه) الإنجليزية واحد وعشرون مدفعا . قلت ومن خطاب عميد الاحتلال يرى قدر عناية القوم بتمدين السودان وإبلاغه من الشهرة والوضوح مبلغ ما وصلت إليه مصر على عهد الاحتلال ، فقد عقدوا العزم على كل قصد صالح وعمل محمود ولا سيما أن مكان القوم فى السودان غير مكانهم فى مصر وحالهم على غير الظاهر من أمرهم فإنهم صاحاب[٢٥] الرأى المتبوع والقول المسموع القايمون على شأنه والله يقول الحق ويهدى السبيل .

ولما بلغ صدى ما تم فى السودان دار السلطنة وقوع[٢٦] إسماع رجال (المابين) الهمايونى أكبروا الأمر وأعظموه ، وكلم السلطان سفير الإنجليز فى ذلك وشكى[٢٧] من تحكك جماعة الإنجليز بعساكر الدولة المرابطين فى مراصد العريش والعقبة . فطلب السفير من الباب العالى أن ينتدب لجنة من رجاله لتشترك مع من تنتدبه دولة الإنجليز لتقرير التخوم بين أملاك السلطنة والأملاك المصرية فى ذلك الشق . فأنكر (الباب) على الإنجليز هذا الطلب . وبرز الأمر بأن مصر ملك للدولة العلية ولا فاصل يفصلها عنها وكل ما فى الأمر أنها منحتها الاستقلال الإدارى وبقى للدولة الملك فلها حرية التصرف بهذا

(٢٥) صاحاب = أصحاب .
(٢٦) وقوع أسماع = وأسماع عدلت الجملة لتستقيم مع السياق .
(٢٧) وشكى = وشكا قراءة تصحيحية .

الملك كما تشاء . قالوا والفاصل بين الأرض العثمانية المنوط إدارتها بالإيالة المصرية المستقلة يسمى فى عرف الدولة العلية (خط الامتياز) فهو ليس حدا . وقال الإنجليز بل هو حد فاصل . ووقع الخلاف واشتد الأخذ والرد بين الفريقين ، وصمم الباب العالى على عدم التساهل فى الأمر وسير على الأثر قوة من الجند إلى (العقبة) وأنشأت لهم مديرية وصلتها بالسلك التلغرافى وعينت المأمورين والحكام . وبرز أمر السلطان بتخطيط فرعا[٢٨] للسكة الحديد يتصل بالسكك الحديد الحجازية الممتدة من (معان) . وسيرت الحكومة المصرية على أثر ذلك رجالها فأنشأوا المراصد والمخافر فى جهات (طاى)[٢٩] التى هى على مسيرة بعض فراسخ من (العقبة) وعلى ممر الخط الحديدى الذى تنوى الدولة على إنشائه . فبرز أمر السلطان بهدم تلك المراصد والمخافر . وجاء خبر ذلك إلى لورد (كرومر) فاظمه[٣٠] جدا وسير كتبه إلى صاحب السياسة الإنجليزية وكلم الأمير ومعتمد دولة الفرنسيس فى الأمر . يقال وسير إلى العقبة بارجة حربية تتهدد ولاة الأمر الترك وتحتج على ما فعلوه وتطلب جلاءهم عن ذلك الموقع . أقول والذى أذكره من أمر التخوم المصرية إن الخط الأصلى يبتدىء من مدينة السويس وينتهى إلى (العريش) وهو ما لا نزاع فيه ، أما الحدود القريبة من (العقبة) فإنها قد ذكرت فى فرمان ولاية الأمير على وجه الاستثناء وإلى أجل مسمى . ولذلك فإن (الباب العالى) يقول الآن أنه قد عدل عن إبقاء كل ما يجاور العقبة فى حيازة الحكومة المصرية . وقد أحس أصحاب الاحتلال بذلك منذ عهد بعيد فأقاموا فى جزيرة مقابلة للعقبة ـ هى صخرة قائمة فى البحر ـ جماعة من الموظفين ليؤدوا بذلك سيادة الحكومة المصرية عليها . وظل الحال بين أخذ ورد أياما والناس فى خوف مما عساه أن يكون من وراء ذلك حتى جاء أمر صاحب السياسة الإنجليزية إلى لورد كرومر بترك الأمور إلى حين . وعادت تلك البارجة إلى ميناء السويس وعبرت القناة إلى الأسكندرية ، حتى قد شاع أن الجنود العثمانية قبضت فى العقبة على أحد كبار الجند المصرى من جماعة الإنجليز وعلى خمسة وعشرين من العساكر المصرية ونقلتهم جميعا إلى (معان) . فما هى عشية وضحاها حتى جاء الخبر

(٢٨) فرعا = فرع   قراءة ترجيحية .

(٢٩) طاى = طابا   قراءة ترجيحية .

(٣٠) فاظمة = فأعظمه   قراءة ترجيحية .

من دار السلطنة العثمانية فى رابع فبراير من السنة أول ذى الحجة سنة ثلاثة وعشرين بأن قد برز الأمر من الباب العالى إلى الجنود العثمانية التى احتلت الأراضى المصرية بتركها وسرعة الجلاء عنها . وجاء أمر (السر[٣١] عسكرية) بعزل (رشيد باشا) قومندان القوة العسكرية من وظيفته جزاء ما فعله من القبض على ذلك الضابط الإنجليزى ومن كان معه من العساكر . وأرسل (المابين) إلى سفير الإنجليز بدار السلطنة يعتذر عما فرط من (رشيد باشا) ويقول أن الأمور فى (العقبة) وما والاها قد عادت إلى ما كانت عليه ولم يبق من[٣٢] يكدر صفو المودة بين الدولتين . وقد كانت المشادة بين الدولتين على تلك التخوم بالغة جدا .

أقول وتاريخ هذا التخوم فى حينه هو أنه لما قام (الوهابيون) فى (بلاد العرب) وخرجوا عن طاعة السلطان فى مكة والمدينة وجاءت كتب السلطان إلى (محمد على باشا) بمقاتلة أولئك الخوارج وله فى مقابلة ذلك ما يرضيه ، سير (محمد على باشا) عساكره مع ولده (الأمير طوسن) ثم ولده (الأمير إبراهيم) وقاتلهم حتى أخضعهم وأزلهم[٣٣] على ما هو مذكور فى حوادث أيام (محمد على باشا) فى (الجزء الرابع من كتابنا هذا) . فعقدوا إذ ذاك اتفاق[٣٤] فى خامس عشر يوليو عام أربعين وثمنمائة وألف للميلاد بواسطة الإنجليز والنمساوين والروس والبروساويين باسم (اتفاق تسكين[٣٥] الشرق) . وكان من ورائه أن نال السلطان مساعدة الدول أربع[٣٦] المذكورة فى الوقت الذى كانت فيه المصاعب والمتاعب تكتنف السلطنة العثمانية من كل جانب عقب خروج (محمد على باشا) وشنه الغارة على بلاد الدولة وتهديد جيوشه لسلامتها واستقلالها .

---

(٣١) السر عسكرية = قيادة الجيش . فقط فإن العبارة داخلها تحريف عربى ، وصحة الكلمة هنا هى (سر عسكرى) Sar askeri أو عسكرلك ser askerlik .

ـ جيمس رد حاوص الإنكليزى ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ١٠٥٣ .

(٣٢) من = ما قراءة تصحيحية .

(٣٣) وأزلهم = وأذلهم قراءة تصحيحية .

(٣٤) اتفاق = اتفاقا قراءة تصحيحية .

(٣٥) المقصود هو (معاهدة لندن) المبرمة فى ١٨٤٠/٧/١٥ فيما بين الباب العالى من جهة ودول بريطانيا والنمسا وبروسيا وروسيا من جهة أخرى متعلقة بإعادة السلم فى الشرق .

ـ أحمد عبدالرحيم مصطفى(علاقات مصر بتركيا فى عهد الخديو إسماعيل ١٨٦٣ — ١٨٧٩) .
دار المعارف ـ القاهرة ـ ١٩٦٧ ـ ص ٢١٣ - ٢٢٠ .

(٣٦) أربع = الأربع قراءة تصحيحية .

وقد أضافوا إلى ذلك الاتفاق فضلا عن حدته وعد به[٣٧] السلطان (محمد على باشا) ومن يتولى الحكم بعده من ذريته بأن يمنحهم الاستقلال الإدارى فى حكم مصر مع لقب باشا عكا وقومندان قلعتها وإدارة القسم الجنوبى من الشامات . وقد عينوا تخومه فى ذلك الحين ، وقالوا فى (خط تحديد العقبة) أنه يبتدئ مستقيما من الشاطىء الغربى على البحر الميت حتى البحر الأحمر وينتهى على النقطة الشمالية من خليج العقبة ثم يتبع الخط الغربى للخليج والشرقى لقناة السويس حتى ينتهى إلى مدينة السويس نفسها . ولما تم الاتفاق على هذا الوجه قبل محمد على باشا أن يستدعى عساكره البرية والبحرية من (بلاد العرب ومكة والمدينة) وقام حق القيام بتنفيذ سائر تعهداته . وكان من وراء ذلك أن عادت البلاد العربية كلها إلى أملاك الدولة العثمانية وبقيت شبه جزيرة سينا وجميع الأراضى الممتدة من الإسماعيلية إلى العقبة ملكا لمصر .

ورأى أهل الحل والعقد لعهد محمد على باشا أن يقيموا المراصد والمخافر فى (الوجه) (والمويلح) (والضبا) (والعقبة) على سواحل الحجاز لتأمين السابلة وحجاج بيت الله الحرام فأقاموها . وظل الحال على هذا حينا طويلا حتى ظهر بعد ذلك أن لا فائدة من وجود الحاميات فى ذلك الشق الغير[٣٨] المعمور فاسترجعوها وعادت الأماكن المذكورة ثانية إلى أملاك الدولة . أما شبه جزيرة سينا فقد بقيت فى حيازة الإيالة المصرية وظلت على شأنها إلى سنة اثنين وتسعين وثمانمائة وألف . ولما صدر الفرمان بولاية الأمير (عباس باشا) لم يأت فيه شيء عن ملكية طور سينا لمصر خلافا لما جاء فى جميع الفرمانات السابقة له . فلحظت الحكومة المصرية ذلك وراجعت الباب العالى ، وظل الأخذ والرد بين الفريقين إثنى عشر يوما لإعلان فرمان التولية أى إلى ثامن فبراير من السنة حتى جاء القول من (صدر الدولة) صريحا بأن (الوجه والمويلح والضبه والعقبة) هم من أملاك الدولة التى لا نزاع فيها . قال وأما (شبه جزيرة سينا فتبقى على حالها وتكون تحت إدارة الخديوية المصرية على الوجه الذى كانت فيه تحت إدارة جدكم إسماعيل وأبيكم توفيق) . قلت ولم يطرأ بعد ذلك ما غير أحكام هذا الفرمان . وكان دفاع صاحب سياسة الإنجليز ومشادته فى بقاء القديم على قدمه عملا محمودا لا غبار عليه ، فلم يقو

(٣٧) وعد = ما وعد قراءة اجتهادية .
(٣٨) الغير = غير قراءة تصحيحية .

رجال (المابين) على دحضه ولا نالوا معه وطرا . وانقضى الخلاف أو كاد ، وقد كان (الغازى مختار باشا) لا يريد إرفضاضه لما فى نفسه من جانب (الرئيس مصطفى فهمى باشا) وجماعة الإنجليز للأسباب التى تقدم بك بيانها . قالوا حتى لقد كان إذا ذكروا فى مجلسه (حادث العقبة) وأدواره هاج وأرعد ، وقال إن هذا الحادث فاتحة لحوادث جسام فلا ينقضى حتى يقع بعده حادث حتى يرث الله الأرض وما عليها وهو خير الوارثين .

سنة ١٣٢٣ للهجرة انتهت فى يوم السبت رابع عشرى فبراير سنة ١٩٠٦ وسابع عشر أمشير سنة ١٦٣٢ للشهداء

وأصبح الناس وأمسوا ليلة السبت رابع عشر فبراير من السنة وأول المحرم افتتاح سنة أربع وعشرين وثلثمائة وألف للهجرة وسابع عشر أمشير سنة اثنين وعشرين وستمائة حتى رأوا على الكثير من جدران الشوارع الكبرى والحارات والأزقة صورة دعوة باللغة الفرنسية مطبوعة على ورق أحمر بحروف واضحة للناس كافة إلى تأييد السلام ومنع الحروب وذكر فظايعها وأهوالها وقد جاء فيها

(أيها الناس حسبنا ما رأينا فى الشرق الأقصى من الفظائع والكروب فهبوا هبة واحدة لمنع الحروب وقفوا فى وجوه الحكومات وقولوا لها إن الإنسانية تأبى أن يكون الإنسان وحشا يفترس أخاه .

أيها الناس إن (مؤتمر لاهاى)[٣٩] وجد لحل المعضلات وكف الخصام وإبطال العدوات والحكم بالحق والإنصاف بين الناس . فقوموا ونادوا واطلبوا أن يكون (مجلس التحكيم) فى (لاهاى) قاضيا يقضى بكل خلاف وحكما يحكم بالإنصاف لحقن الدماء ، ويبقى على راحة البشر ويوفر أموالهم ويريح أفكارهم . ثم بينوا للناس[٤٠] كاتبوا تلك الدعوة فظائع الحروب وأهوالها بإسهاب . وقالوا أنهم نشروا هذه الدعوة فى تلك الليلة بعينها فى (باريز) عاصمة الفرنسيس (وبرلين) عاصمة الألمان (ولندره) عاصمة الانجليز (ورميه)[٤١] عاصمة الإيطاليان وكل عاصمة من عواصم الديار الأوروبية وكلها بلغة الفرنسيس لتفشيها وشيوعها ، وأن لا غاية لهم من نشر هذه الدعوة غير حب السلام وإنهاض همم الأمم لمطالبة أصحاب الممالك بحقن الدماء وجعل (محكمة لاهاى) حكما لهم فى كل خلاف وخصام . قالوا وجمعيتنا مؤلفة من كل الأمم والشعوب ولها فروع فى كل المدن والعواصم أ . هـ ـ أقول ولما تفشى خبر هذه الدعوة على ما فيها من

---

(٣٩) مؤتمر دولى عقد فى عام ١٨٩٩ بناءً على دعوة القيصر نقولا الثانى ، قيصر روسيا (١٨٩٤ - ١٩١٧) . كان الغرض الرئيسى للمؤتمر هو نزع التسلح ووضع قواعد الحرب التى تمس البلاد غير المحاربة والملاحة المحايدة . ومع هذا فإن المؤتمر لم يسفر عن الوصول إلى اتفاقية ما اللهم إلا محكمة التحكيم الدولية .

- Lexicon Universal Encyclopdia - Vol. 10 - p., 11

(٤٠) ثم بينوا للناس كاتبوا تلك الدعوة = ثم بين كاتبو تلك الدعوة للناس ـ عدلت الصيغة لتتفق مع القواعد السليمة للكتابة .

(٤١) رميه = روما قراءة ترجيحية .

الحكمة والسداد حتى أجفلت[٤٢] السواد الأعظم من أهل القاهرة ومصر وتولاهم الذعر وعادوا إلى حديث (العقبة) وما ورائه من الإرجاف والتهويل ، وقالوا إن لهذه الدعوة الواضحة الصريحة إلى منع الحرب علاقة كبرى بمقدم الجيوش التركية إلى (العقبة) ورجوع (الباب العالى) عما وعد به سفير الإنجليز من استرجاع العساكر السلطانية وعزل (رشيد باشا) قائد القوة التى عادت واحتلت موقع (العقبة) . وقد زاد الناس خوفا ونذيرا مقدم اثنين من كبار الجند السلطانى إلى القاهرة لمفاوضة أهل الحل والعقد فى ذلك الحادث الخطير . أقول وانتدبت الحكومة لمفاوضة ذينك المبعوثان إثنين هما (إسماعيل سرهنك باشا) (وسعد بك رأفت) . وطال الأخذ والرد بين الطرفين أياما . حدثنى صديقى الذى لا أريد ذكر اسمه قال (طال الأخذ والرد فى (حادث العقبة) أياما وكان كل فريق يزعم أنه فى جانب الحق وأن الحق فى جانبه حتى قال المندوبان أن (الباب العالى) لا يريد أن تتعدى الجنود السلطانية (خط الامتياز) ولكنه لا يسمح بوجه من الوجوه أن تقام معاقل وحصون بين (الإمارة المصرية) (والشامات) وأن ليس له قط مطلب آخر وأنه لا يريد تغيير الحالة فى (شبه جزيرة سينا) . قال محشى[٤٣] (ولا أنكر عليك أن الغازى[٤٤] باشا له اليد الطولى فى تجسيم الأزمة وإكبارها عند رجال (المابين) حتى لقد أشار على البار العالى بأن لا تستدعى عساكر من طابيه[٤٥] حتى لا تفقد نفوذها وتسقط كرامتها من أعين المصريين ، والتزام سياسة المطل والتسويف حتى يتم لهم ما يريدون) . قال (وعندى أن هذه السياسة تضر قوما وتريح آخرين لا سيما وأن الحكومة المصرية قد عجلت بإنشاء القلاع والحصون على ذلك التخوم (والباب العالى) يلح بهدمها ، وقد أوقف الإنجليز فى (خليج العقبة) إحدى مدرعاتهم عينا على العساكر العثمانية وأوقفت الحكومة المصرية السفينة (نور البحر) إحدى سفن خفر السواحل كذلك . واعلم أن نزول الضابطان العثمانيان ضيفان على (الغازى أحمد مختار باشا) حامت حوله الظنون والتحرضات[٤٦] واكتنفته الشبهات حتى لم يبق عند عاقل شك فى أنه عمل فى هذا الحادث ما قدر على عمله حتى بلغ هذا المبلغ من الشدة .

(٤٢) أجفلت = أجفل قراءة ترجيحية .
(٤٣) محشى = محدثى قراءة تصحيحية .
(٤٤) الغازى باشا = الغازى مختار باشا قراءة تصويبية .
(٤٥) طابيه = طابا قراءة اجتهادية .
(٤٦) التحرضات = التخرصات قراءة اجتهادية .

وحدث أن وزارة المعارف اتخذت لها طريقا حديثا فى ترتيب فوف[٤٧] تلامذة المدارس العليا ونظاما شديدا فى التدريس ومذاهبه فى (مدرسة الحقوق) . فوقع الهرج بين الطلبة ، فاندس بينهم دعاة الحزب الوطنى وبث[٤٨] فى صدورهم روح النزوع إلى الإعتصاب وشق عصا الطاعة وقد كانوا لا يقرون شيء من ذلك . فتألبوا زمرا ووقفوا على أبواب وزارة المعارف يطلبون الرجوع عن هذا الحادث الجديد وبالغوا فى الشكوى . وظلوا على هذا أياما وإخوان السوء يدسون بينهم الدسائس ويحرضونهم على الفتنة ويؤكدون لهم عجز أهل الحل والعقد عن ردعهم وعدم استطاعة وزارة المعارف على إقفال كل المدارس وأنها ستضطر إلى إرضائهم وإجابة مطالبهم . وسرت هذه الروح الخبيثة بين الطلبة سريان النار فى الهشيم وتعذر على رجال وزارة المعارف سد هذه الثلمة المخيفة ، فعمدت إلى الوعد والوعيد ونشرت فى الجريدة الرسمية منشورا تقول فيه .

بعد الاطلاع على المادة ٨٧ من قانون نظام المدارس التى تقضى بأنه ممنوع منعا باتا اجتماع التلامذة اجتماعا من شأنه حصول أية مظاهرة داخل المدرسة أو خاجها .

وبعد الاطلاع على ما قررته اللجنة العلمية الإدارية بنظارة المعارف فى ثامن عشرى فبراير سنة ستة وتسعمائة وألف ، تقرر ما هو آت .

أولا ـ كل مظاهرة عمومية للتلامذة من شأنها عدم حضور الدروس أو ترك المدرسة تكون نتيجتها رفت التلامذة الذين يشتركون فى هذه المظاهرة فى الحال .

ثانيا ـ لا يقبل ثانيا فى المدارس أثناء السنة المكتبية الحالية أى تلميذ من المرفوتين . وإذا سمحت النظارة بقبول أحد منهم بناء على طلب ناظر المدرسة فى مبدأ السنة المكتبية المقبلة بصفة استثنائية فلا يقبل إلا فى نفس الفرقة التى كان بها وقت رفته من المدرسة أ . هـ

فلما علم التلاميذ بما فى ذلك المنشور اجتمعوا زمرا فى حديقة الأزبكية وجعلوا يتشاورون فى أمرهم وبينهم أصحاب الفتنة وأهل الفساد . فدخل عليهم بعض الكتاب الناقمين على وزارة المعارف فعلها مع الطلبة فنصحوا لهم أن يؤلفوا وفدا منهم يعرض

---

(٤٧) فوف = صفوف قراءة اجتهادية .

(٤٨) وبث = وبثوا قراءة تصحيحية .

شكواهم على (اللورد كرومر) . ولما كان جل أولئك التلامذة إذا لم تقل كلهم يعتقد أن هذه الحركة ضربة قاضية على أغراض الإنجليز فى وزارة المعارف عابوا على أولئك الناصحين قولهم وسفهوا رأيهم . وقالوا إنكم مرسلون إلينا بهذه المهمة تحت ستار الكتمان فلا نقبل لكم نصيحة . وظلوا على شأنهم وهم فى هرج وجلبة وصياح حتى أعيا أصحاب الشرطة إسكاتهم . حدثنى من كان حاضرا بينهم فى ذلك اليوم قال (كان بدء اجتماع أولئك الطلبة فى حديقة الأزبكية غاية فى الهدوء والسكينة والاعتدال فى القول والعمل وظلوا يتناجون وهم على هذا ساعة أو بعضها حتى تحقق السامعون لهم أنهم أتموا أمرهم على ما يشاؤن ، فلا يلبثوا أن يتفرقون . فما هى إلا لحظة بعد هذا حتى أقبل (عبدالعزيز شاويش) إمام الحزب الوطنى يجر طيلسانه واندس بين الطلبة مقطب الوجه كأن به مس . فأقبل الطلبة عليه وهللوا تهليلا ونادى بعضهم (ليحيى الشيخ شاويش) (ليحيى الحزب الوطنى) . فانتشر الصياح فى ساحة الحديقة وأقبل العامة يهرولون وينادون (يعيش الشيخ شاويش) (يعيش الغندور الصبوه) . فاشتد عند ذلك الهرج وعلا الهتاف . فأشار الشيخ بيده أن اسمعوا ، فالتفوا حوله فقال (إعلموا أنكم إن أنتم تضاعفتم أصبح حكم الوزارة فيكم نافذ وانصرف عنكم حول الأمة وقوتها فكونوا إذن كالبنيان المرصوص يشد بعضكم بعضا وجاهدوا ما استطعتم والله حواليك[٤٩] لا عليكم والسلام) . فصاحوا جميعا سمعنا وأطعنا والله مع الصابرين . قال محدثى (وخرجوا من الحديقة وقد تفرقوا شرقا وغربا وشمالا وجنوبا والعامة خلفهم يزأطون[٥٠] ويقهقهون ، وقد تولى الدهش فريق العقلاء وأخذتهم الطيرة من فعال ذلك الشيخ وقال بعضهم إنها فتنة الله يعلم بما سيكون من ورائها أ . هـ . أقول وأصبحوا وقد اجتمع سائر طلبة الصناعة والهندسة والزراعة والطب والحقوق ثانية فى حديقة الجزيرة . وسيروا وفدا منهم إلى مستشار وزارة الحقانية يطلب إجابة طلباتهم ووفدا آخر إلى المستر (إيمونس) أحد رجال الوكالة البريطانية ورئيس مدرسة الحقوق الآن ليسأله إذا كان (لورد كرومر) هو الذى كلفه بإقناعهم بالعودة إلى مدارسم والنظر فى مطالبهم . وأرسلوا إلى وزارة المعارف يطلبون منها أن تعلن إجابة طلباتهم فى صباح غد . وكان قد حضر اجتماعهم هذا جماعة من عقلاء

(٤٩) حواليك = حواليكم قراءة ترجيحية .

(٥٠) يزأطون = زاط ـ زيطا ، وزياطا أى صاح وجَلّبَ . زائط أى صاح ـ فالكلمة إذن تعنى يصيحون . المعجم الوجيز ـ ص ٢٩٨ .

القوم وأصحاب الرأى فخطبوا فيهم بالتأنى وترك الشهود[٥١] ، وحذروهم شر عاقبة ذلك . وظهرت الحركة فى هذا اليوم فى مدرسة (رأس التين) وغيرها وقالوا أن سائر طلبة المدارس البعيدة ستحذو حزو[٥٢] مدارس القاهرة . فكان لهذا النبأ أثرا مؤلما فى نفوس العقلاء . وباتوا وأصبحوا وقد اجتمعوا جميعا فى (دار التمثيل العربى) لسماع جواب المستشار القضائى والمستر (إيمونس) . فوقف أحد المندوبين وبسط لهم الحالة وقال إنه قابل مع زملائه المستشار القضائى فوعدهم بالنظر فى مطالبهم عما يختص بالتدريس بشرط عودتهم إلى مدارسهم يوم السبت وأنه سيكلم ناظر مدرستهم فيما يختص بالشكاوى الإدارية . ووقف آخر ممن قابلوا (المستر إيمونس) فقال أن الرجل قال له إنه لم يكلم أحدا من التلامذة قبل الآن ، وأنه يؤكد له أن ولاة الأمور ينظرون إلى شكاويهم إذا عادوا إلى المدرسة فى صباح السبت . وتكلم آخر فقال إن كبار قضاة المحاكم سيحثون الطلبة على العودة إلى مدرستهم . ثم تعاقب الخطباء يبينون حسن عملهم ويمتدحون الروح الشريفة التى حركتهم إلى هذا العمل وإلى هذا الاتحاد والتساند . وقالوا أن وزارة المعارف أرادت التفريق بين الطلبة إذ أنذرت طلبة مدرسة الزراعة بعزلهم إذا لم يعودوا إلى مدرستهم فى صبح الخميس مع إن الموعد المضروب لمدرسة الحقوق هو صبح السبت . قالوا فالواجب على تلامذة الحقوق إذا نالوا مطالبهم أن يعضدوا زملائهم من المدارس الأخرى حتى لا ينالهم أذى بسببهم لأن طلبة المدارس الأخرى وأخصها الطب لم يضربوا عن العمل إلا تعضيدا لإخوانهم طلبة الحقوق . وبطل الكلام لحظة لطيفة ، ثم عاد بعضهم إلى اللجاج . فقام بينهم (لطفى بك السيد) المحامى وقال إنى مع زملائى (عبد العزيز بك فهمى) (وحسن أفندى عبدالرازق) (ومحمود بك أبو النصر) أتينا لنشارك الطلبة فى عملهم هذا الشريف وهم رجال قلم ولسان لا رجال سيف وعصاء ، فهم ينالون مطالبهم بالإحتجاج لا بالقوة والعسف ولا بارتكاب شىء مخل بالنظام . ثم امتدح الحاضرين وبالغ فى إطراء شمايلهم .

وتقدم أحدهم وقال جاءنا اليوم من طلبة مدرسة رأس التين بالأسكندرية وطلبة مدرسة الناصرية بالقاهرة بما يفيد بأنهم مستعدون للانقطاع عن الدروس تعضيدا

(٥١) الشهود = التهور قراءة ترجيحية .
(٥٢) حزو = حذو قراءة تصحيحية .

لزملائهم ، فصفق الحاضرون تصفيقا حادا ثم جلسوا جميعا وتكلموا فى ما بينهم طويلا وختموا جلستهم بالموافقة على اعتبار وعد المستشار القضائى بالنظر شخصيا فى مطالبهم من الوجهة العلمية الفنية وبمساعدتهم لدى وزارة المعارف فيما يختص بتلك المطالب من الوجهة الإدارية ضمانة كافية لتحقيق رغايبهم ، وأنهم يعودون إلى دورسهم غدا صباحا . وانصرفوا على هذا .

أقول وفى خلال هذا الحادث كنت ترى فى صباح ومساء كل يوم العدد العديد من طلبة تلك المدارس وغيرها على أبواب مكان تحرير (جريدة اللواء) يدخلون ويخرجون وهم فى جلبة وهرج ونداء بعضهم لبعض ورجال الشرطة يراقبونهم(٥٣) على كثب ولا يخاشنونهم . حتى مل العامة من هرجهم وتأفف العقلاء من خروجهم وأنحوا باللائمة على أصحاب الحزب الوطنى ولعنوا تلك الروح الخبيثة فى صدور تلك الناشئة التى يرجون أنها تكون رجال المستقبل . أقول وقد زج بعض طلبة الجامع الأزهر ومجاوريه بأنفسهم فى هذا المأزق . فاجتمع نفر منهم فى حديقة الأزبكية عند اجتماع تلامذة مدرسة الصناعة وبينهم جماعة من المعممين وأصحاب العكاكيز وجعلوا يطرؤن ويصيحون بملء أفواههم (العدل العدل) . ووقف أحد أولئك المعممين وتلا قصيدة لا أول لها ولا آخر ، وتبعه آخر وآخر . فقام (إسماعيل بك عاصم) المحامى وجعل يحث الطلبة على الطاعة وترك الهرج وهذا الخروج المعيب . فما هو أن قال ذلك حتى أخذوا يقاطعونه ويردون كلامه وجعلوا جماعة المعممين يتعوزون(٥٤) بالله من الوسواس الخناس الذى يوسوس فى صدور الناس . وناداهم أصحاب العكاكيز انه(٥٥) انزل (يا خواجه إسماعيل كربالو) إنزل فقد أفسدت على القوم عملهم وأضعت أملهم فيك والله حسبنا ونعم الوكيل ، وقال آخرون منهم غير ذلك كثيرا .

وبعد انفضاض أمر هذا الهرج أنشأ طلبة سائر المدارس العليا لهم ناد يجتمعون فيه على مثال (نادى رعمسيس) الخاص بالناشئة القبطية المتعلمة ، وقنوا له قانونا يحظر على غيرهم من تلامذة المدارس الأخرى دخوله ، وأقاموا له الكتاب والمتكلمين

(٥٣) على = عن قراءة تصحيحية .
(٥٤) يتعوزون = يتعوذون قراء تصحيحية .
(٥٥) أنه = أن قراءة تصحيحية .

والخطباء وحفظة السجلات ومحاضر الجلسات وسموه (نادى المدارس العليا) . فما هى إلا أيام من إنشائه حتى بان ما خفى من سر اجتماعهم . يقال اشتغلوا بالسياسات فى هذا النادى عن غيرها ، وبدرس مرامى الأحزاب والأخذ بأقوال الإشتراكيين وتعاليمهم فى قلب الحكومات ، والغدر بأهل السياسات حتى لقد كانوا لا يسمحون لأحد من غير المشتركين معهم حضور اجتماعاتهم أو سماع خطاباتهم . وكان الناس يقولون أن بينهم المنغمس فى سفاسف الأخلاق والمستهتر بمواضع الريب والمستصحب لأهل البطالة والمجون والمبتذل فى اللعب واللهو والمجون الإعلان بالفسوق ، كما أن بينهم من العقلاء العاملين جدهم لبلوغ كنة أمانيهم . جماعة قد حفظوا آدابهم ومروأتهم وتماسكوا عن الإنهماك فى المحظورات وملابسة المحرمات . فكان الجمع بين النقيضين عمل متعنت شاق على أصحاب الكلمة بينهم ، وكان ذلك وصمة على النادى داعية إلى النشأ القبيح ، حتى قال لى أحد أصحاب الرأى يوما إن ذلك المكان لا يلبث حتى يصير كوكر الخنافس لا يعجبهم إلا أكل العذورات[٥٦] ولا يألفوا إلا روائح النجاسات . وقد كتب الله عليه العمر القصير والزمان اليسير والأيام المعدودة . ثم تضربهم يد الهيئة الحاكمة ضربة تذريهم إذراء الريح الهشيم[٥٧] أ . هـ

ولما كان سادس عشر أبريل من السنة ثانى عشرة صفر الخير سنة أربعة وعشرين ، جاء الخبر من محافظ دمياط إلى قصر الإمارة وديوان الوزارة بوفاة (الأمير محمد) أحد كبار أمراء الدراويش المعتقلين فى ثغر دمياط ، والرجل من أشهر قواد (الثورة المهدوية) . مات بعد مرض انتابه فشعيت جنازته هناك وسار فى مشهده جماعة كثيرة وبعض الجنود . قلت والرجل قاتل الحملة المصرية فى (الدخيلة) على نهر العطبرة وأسر هناك .

---

(٥٦) العذورات = القاذورات   قراءة اجتهادية .

(٥٧) لا يخفى أن (شاروبيم) يهاجم نادى المدارس العليا لأنه أحد إنجازات (مصطفى كامل) الذى كان (شاروبيم) يكن له ودا مفقودا . غير أن الواقع يقول أن هذا النادى كان هو المعهد الذى تخرج معه ذلك النفر من المصريين الذين قادوا ثورة سنة ١٩١٩ .

ـ فتحى رضوان (مصطفى كامل رائدا وطنيا) ـ مجموعة البحوث التى ألقيت فى ندوة (الجمعية المصرية للدراسات التاريخية بمناسبة مرور مائة عام على مولد مصطفى كامل ١٨٧٤ - ١٩٠٨) الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ـ القاهرة ـ ١٩٧١ ص ٤٣ .

قالوا وكان فى وقت المعركة مختبئا تحت (عنقريب)[٥٨] . وكان قد غرر به (عثمان[٥٩] دقنه) إذ تخلف عنه وفر بأصحابه عند نشوب القتال . وهو من أمراء الدراويش الذين استباحوا فى السودان كل مال ونفس وظنوا فى أنفسهم أنهم فوق كل سلطة وقوة فذهب عزهم وجندهم وخربت بلادهم بجهلهم فصارت دولتهم أثرا بعد عين ، رحمه الله وغفر له ذنوبه .

وانتشر[٦٠] فى الحسيب النسيب خاتمة بيت السادات الوفائية فى الديار المصرية صديقى المغفور له السيد (أحمد عبدالخالق السادات) آخر سليلة[٦١] ذلك البيت الكريم الذى ظل ستمائة وخمسين عاما عنوان المجد والشرف . توفى إلى رحمة خالقه ظهر يوم ثالث عشرى أبريل من السنة تاسع عشر صفر سنة أربعة وعشرين فى داره بدرب الجماميز وهو فى نحو الخامسة والخمسين من عمره أثر داء دفين استكن فيه منذ بضع سنوات ، وكان يعاوده بين حين وآخر حتى اشتد عليه ليلة ثانى عشرى الشهر فلم يزر جفنه الكرى . وفى صبح الثالث والعشرين زاد اشتداد المرض عليه وشاع خبر ذلك وتفشى بين أصدقائه وأصدقاء بيته الكريم . فتوافدوا عليه يعودونه ولكنهم رأوه يلفظ النفس الأخير وتنقرض بوفاته السلالة . ولقد أحزننى ويعلم الله نعيه كما أحزن كل مصرى إذ يرى بيتا كبيرا قد أقفلت أبوابه وانمحت معالمه فلم يبق غير الآثار التى تدل على مجد من سكن تلك الديار ممن كتب (السلطان سليم) بعد فتحه لمصر على ضريح أحدهم (عبيد ولكن الملوك عبيدهم) . أقول وفى القاعة الكبرى التى كان يقصدها الزوار وعظماء القوم ويلقبها الوفائيون ـ أيام الأفراح ـ سيقام اليوم المأتم الكبير على ذلك الرجل العظيم وعلى عظمة ذلك البيت الكريم .

---

(٥٨) عنقريب = أى السرير ، وينطق عنجريب .
ـ البكباشى حسن قنديل (فتح دارفور سنة ١٩١٦ ونبذة عن تاريخ سلطانها (على دينار) . مطبعة العدل بشارع كنيسة الأمريكان نمرة (١) بالإسكندرية ـ الاسكندرية ١٩٣٧ ـ ص ٣٣ حاشية ١ .
(٥٩) عن (عثمان دقنة) انظر الكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث ـ جـ ٥ ـ القسم الأول ـ ص ٥٧ حاشية ٤١ .
(٦٠) وانتشر فى = وانتشر نبأ وفاة عدلت العبارة لتتفق مع السياق .
(٦١) سليلة = سلالة قراءة تصحيحية .

واحتفل احتفالا مخيما[٦٢] جدا بتشييع الجنازة من دار الفقيد . فسار المشهد يتقدمه أرباب الطرق والأشاير وفرقة من فرسان صاحب الشرطة ومشاته ومندوب قصر الإمارة والرئيس (مصطفى فهمى باشا) وجماعة الوزراء ومفتى الديار وجمهور العلماء ورئيس الشورى وأعضاء الجمعية العمومية ومحافظ المدينة وقنصل جنرال دولة إيران ومندوبو قنصلاتات الدول والجم الغفير من الوجهاء والأعيان وأهل المناصب وأصحاب الخطط . فصلى عليه فى مسجد السيدة زينب ودفن فى مدفن السادة الوفائية بسفح المقطم ، فرحمه الله وألف رحمة على تلك الشمائل .

أقول ـ ومع ما تقدم بيانه عن تفاصيل (حادث العقبه) وما كان من ورائه من المشادة بين الحكومة (والمابين الهمايونى) وصاحب سياسة الإنجليز ثم ما قلناه من وقوف الأمر عند ذلك الحد ، فقد عادت الأمور فى هذه الآونة إلى ما كانت عليه من التحكك والمشادة واتهام (المابين) بسوء النية والعمل على ضياع حقوق وامتيازات الديار المصرية ، وتنصل (المابين) من هذه التبعية وإصراره على بقاء جنده فى ذلك الصقع رغم كل مكابرة ومحاججة . ومما زاد فى الأمر تعقيدا وصول الخبر إلى (الرئيس مصطفى فهمى باشا) وقصر الإمارة بأن قد اجتازت الجنود السلطانية التخوم المصرية وأنهم العمودين[٦٣] المنقوش على كل منهما اسم (الأمير عباس) إشارة أنهما[٦٤] الحد الفاصل بين الأملاك المصرية والأملاك العثمانية . فسير الرئيس إلى محافظ (العريش) يسأله عن ذلك وعن سبب إغضائه عن هذا الجرم العظيم الذى لم يعرف إلا من العربان القادمين إلى مدينة السويس . قيل فأجاب بأنه سمع بخبر نقل العمودين ولكنه لم يتحققه . فجاءه الأمر على الأثر بالتخلى عن منصبه والعودة إلى القاهرة . ثم برز الأمر بفصل إدارة (شبه جزيرة سينا) عن وزارة الداخلية وإلحاقها بوزارة الحرب . وما هى ألا عشية أو ضحاها حتى أبحرت إلى خليج العقبة بارجة من بوارج الحرب الإنجليزية . وشاع خبر وصول جماعة كثيرة من عواطل الألمان إلى الجزيرة يستعمروها باسم الخاصة السلطانية وأن لديهم من معدات الاستعمار شيئا كثيرا . وأنزل ربان البارجة الإنجليزية إلى الجزيرة نفرا من أصحاب الوظائف المصرية ليكلموا العساكر السلطانية فيما هم فيه فلم يفلحوا . وامتنع

(٦٢) مخيما = فخيما قراءة ترجيحية .

(٦٣) العمودين = نقلوا العمودين أضيفت الكلمة لتصويب الواقعة التاريخية .

(٦٤) أنهما = إلى أنهما أضيفت الكلمة ليستقيم المعنى .

الترك من مقابلة ربان الدراعة . وجاء خبر ذلك إلى الرئيس وأن العسكر العثمانى ضارب خيامه فى رفح . واهتم صاحب السياسة الإنجليزية بالأمر اهتماما عظيما وتكلم فيه أصحاب الشورى فى دار ندوتهم وأرسل صاحب سياستهم إلى الباب العالى بلاغا بطلب فض هذا النزاع بالتى هى . وبرز الأمر إلى وزارة الحرب بإرسال قوة إلى قلعة النخل .(٦٥) فقامت قوة مؤلفة منماية وستين جنديا من جند غفر السواحل وأربعين من الأورطة الثالثة ومن ثلث البطارية الخامسة لأصحاب المدافع ومعهم جماعة من الضباط المصريين وعلى رأسهم كبير من الإنجليز . وبرز الأمر أيضا بجعل أصحاب المدافع على أهبة السفر عند الطلب ، وأرسلوا شيئا كثيرا من القنابل والخرطوش والمدافع الرشاشة ومدفع من مدافع (كروب) الكبيرة . وقد تحقق للناس طرا أن يد إمبراطور الألمان قد لعبت بحل هذه المحنة وأنه يريد بالإنكليز شرا وتنكيلا فى ديار احتلالهم . ونقلت الصحف أن الباب العالى عقد النية على أن يجاوب صاحب السياسة الإنجليزية على مذكرته التى وضعها فى قالب إنذار ينتهى أجله فى ثالث عشر مايو من السنة ، تاسع عشر ربيع أول سنة أربع وعشرين . ورسم إلى الباب العالى بأن يعمل خريطة شبه جزيرة سينا ويجمع الأوراق الرسمية والمراسلات السياسية المتعلقة بهذا الحادث وأن ترسل إلى سائر الدول وأن لا يلتفت الباب العالى إلى ما يفعله صاحب السياسة الإنجليزية ولا ما يأتيه الأسطول الإنجليزى ، بل هو يطلب من الدول بعد اطلاعها على الخريطة ونص الفرامين برأيها . أقول ـ وكان مما فعله سفير الألمان بدار السلطنة وكلم السلطان به على ما جاءت به الأنباء الصادقة أنه قال للسلطان وأكد له أن دولة (المانيا) تعضد الدولة فى سياستها وكل مطالبها وأنه لا يجب للباب العالى فى هذه الآونة أن يعير مطالب الإنجليز جانب الإهتمام ، بل يصر على إبقاء العساكر السلطانية فى (طابه) وما والاها . قال فإذا عمدت انجلترا إلى القوة فإن (ألمانيا) ستتخذ كل الوسائل الفعالة لصدها ونصرة الدولة . قالوا وأكد السفير الألمانى للسلطان أن من وراء ألمانيا دولة أخرى أوربية من الدول الكبرى تقول قول الألمان . ولكن سرعان ما تبدلت الأحوال وانقلبت سياسة ألمانيا سياسة انقلابة(٦٦) أخرى ، وأشار ذلك السفير على السلطان باسترضاء الإنجليز وترك

---

(٦٥) قلعة النخل = قلعة نخل قراءة ترجيحية .

(٦٦) انقلابه = استبعدت الكلمة .

المشادة معهم والتنازل لهم عما يطلبون فإن ألمانيا لا تستطيع معاونة[٦٧] الدول بشىء . قال لأن الحالة الدولية قد تغيرت فى أوربا تغيرا تاما فى هذه الأيام الأخيرة . قال الراوى فلما سمع السلطان هذا القول من السفير لم يفه بكلمة وانتصب قائما إشارة إلى السفير بأن انصرف فانصرف غير مرتاح لهذه المقابلة . وشاع على أثر تفشى هذه الرواية أن (المابين) قد استدعى (الغازى مختار باشا) وأنه على أهبة السفر إلى دار السلطنة فى القريب العاجل .

وقامت ضجة أصحاب الصحف الإنجليزية وعلت ضوضتهم[٦٨] وأكثروا من الوعيد وبالغوا فى التهديد ، حتى قال بعضها إن صاحب السياسة الإنجليز[٦٩] بل الإنجليز كافة لا تسمح بوجه من الوجوه إلى الترك أو غيرها من الدول بأن تحتل شبه جزيرة سينا ، فتقبض بذلك على ناصية قناة السويس وطريق الهند فتصبح أملاكنا فى خطر ما بعده خطر ، ولذا فإن المسألة مسألة حيوية لنا وفيها تجتمع كرامتنا ومرافقنا على درجة واحدة . وقالت مراجع الدولة العليا إن السلطان هو سيد مصر بحق الفرمانات من عام واحد وأربعين وثمانمائة وألف أى من عهد محمد على باشا الكبير . إذ جعلت إدارة مصر مستقلة وضربت لمصر حدود (بمعاهدة لوندره) عام أربعين وثمانمائة وألف ، وهى المعاهدة التى وقعت عليها روسيا وانجلترا والنمسا وبروسيا لذلك العهد . وقد ألحق بتلك المعاهدة خريطة تبين التخوم . قالوا وهذه الخريطة سلمت يومئذ إلى محمد على باشا مع فرمان ولايته . ولا جدال فى أن تلك الخريطة قد وافقت عليها سائر الدول الموقعات على تلك المعاهدة .

وعندى أنه لما ضعفت الدولة العثمانية بسبب الإرهاصات الداخلية والاضطرابات الخارجية على عهد (السلطان محمود) وعجزت عن حفظ أطرافها ، فخرجت عليها الخوارج من كل ناحية – على ما هو مذكور فى كتابنا هذا فى محله – برز أمر (السلطان محمود) بتسليم (محمد على باشا) أمر تأمين طريق الحج إلى البيت الحرام وتصرفه فى تلك الأنحاء فى جباتها[٧٠] ورجالاتها وسائر نقضها وإبرامها . وظل الحال على هذا فكان

(٦٧) الدول = الدولة قراءة اجتهادية .
(٦٨) ضوضتهم = ضوضائهم قراءة اجتهادية .
(٦٩) الإنجليز = الإنجليزية قراءة ترجيحية .
(٧٠) فى جباتها = من الجباية قراءة ترجيحية .

أمر الجزيرة وما حولها فى يد آل البيت العلوى يتوارثونه صاغرا عن كابر نيفا وتسعين سنة ، حتى احتل الإنجليز الديار وكفلوا لسائر الدول حراسة قناة السويس ومنع كل تعد على منطقتها ، والمحافظة على سلامة الأملاك المصرية مع بقاء القديم على قدمه . فوافقتها الدول على ذلك . ومضى على الاحتلال إثنين وثلاثين سنة والباب العالى لم يكن لينظر إلى شبه جزيرة سينا نظر المالك الحريص على ملكه العامل على استثماره ، ولا هو سير جنده ليتجاوز حدود التخوم قبل الآن . فلما أمكنت دولة الألمان صلتها بالسلطان ونال إمبراطورها الحظوة والمكانة السامية وأخذ لقومه الإمتياز تلو الإمتياز فى أملاك السلطنة (بالأناضول) وغيرها ، أحس صاحب سياسة الإنجليز بما وراء ذلك من عجز دولته عن القيام بتعهداتها ، وأن هذا الميل من السلطان والتشيع إلى قيصر الألمان غطاء على عين بصيرتها لا تأمن معه الزلل بل الفشل والوقوع فى مهاوى الخطل والخلل . فجعل ينظر إلى مرامى سياسة الألمان ومناحى أغراضهم فإذا كلها ترمى إلى قتل السلطنة الإنجليزية فى طريق هندها وإلقاء العثرات فى سبيل فلاحها فى مصر ، وقطع كل صلة للإنجليز (بشبه جزيرة العرب) . فقام يطلب من الباب العالى الرجوع عن هذا القصد وترك القديم على قدمه وأن لا يحدث حدثا غير مأمونا يخرجه عن قصده فينقطع حبل المودة بين الدولتين وتسوء العاقبة . وخاف الألمان فلاح الإنجليز فى سعيهم فأعانوا السلطان على عزمه وبالغوا فى تحريضه حتى بلغت المحنة أشدها على ما مر بك بيانه وتوترت العلايق جملة أو كادت . ولا قصد للإنجليز من كل هذه الضوضاء سوى بقاء القديم على قدمه وعدم الانتقال من حال إلى حال وسد هذه الفرجة المخيفة من جهة الألمان الذين بات فلاح الإنجليز فى مصر قذى فى أعين كبارهم وأصحاب سياستهم لا يطيقون عليه صبرا .

وجاءت إلى الأسكندرية سفن من سفن الحرب الإنجليزية وعليه[٧١] المقاتلة ومعدات الحروب الكثيرة ، فهال الناس حضورها وأخذتهم الطيرة . فأقامت أياما ثم سارت إلى بور سعيد ثم عادت ثانية . وبرز الأمر إلى إحدى الأورط السودانية بالقيام إلى بور سودان وأن تعسكر هناك حتى يأتيه[٧٢] الأمر . وانبثت سفن الحرب من الأسكندرية إلى

(٧١) وعليه = وعليها قراءة تصحيحية .
(٧٢) يأته = يأتيها قراءة تصحيحية .

العريش على طول الساحل . وتضاربت الأقوال والظنون فيما سيكون من وراء ذلك التأهب الخطير . وجاء الخبر بأن الباب العالى عرض[٧٣] صاحب سياسة الإنجليز أن يقدم الخلاف بين الطرفين إلى مجلس تحكيم ، فلم يقبل وأصر على طلبه وعدم الرجوع على[٧٤] شيء منه . فلبث قومندان (نور البحر) فى القلزم ينظر[٧٥] ما يرد إليه من الأوامر الأخيرة قبل مبارحة القلزم حتى يحملها إلى البارجه (ديانه) الحربية الراسية فى خليج العقبة . واستبدلوا صاحب شرطة العريش بآخر من جماعة الإنجليز ، وظهر الهرج بمدينة الأسكندرية ، فبرز الأمر إلى محافظ المدينة بالسهر على الراحة ومنع كل اضطراب . وأصبحوا يوم الإثنين رابع عشر مايو من السنة عشرى ربيع أول سنة أربع وعشرين وقد نزلت فرقة من الجيوش الإنجليزية المعسكرة فى (مصطفى باشا) وسارت بموسيقاتها وآلات حربها فى شوارع المدينة وطافت (بميدان محمد على) رافعة أعلامها . فخاف الناس خوفا عظيما وجعل أصحاب الشرطة يفرقون العامة والسوقة وزعانف القوم الذين اجتمعوا فى الطرق والشوارع يرقبون العساكر المارة ويرشقونهم بفحش القول . ومما زاد الخوف وألقى الرعب فى القلوب هو ما شوهد من حركة سفن الحرب فى بور سعيد واتخاذها الأهبة للضرب والقتال . فقد أنزلت تلك السفن صواريها ورتبت مدافعها ونقلت إلى ظهرها خمسين وقيل خمسة آلاف قنبلة جاءت بها إحدى البواخر الإنجليزية . واجتازت إحدى تلك السفن قناة السويس قاصدة البحر الأحمر فالعقبة . ووصلت الأسكندرية طائفة كبيرة من مشاة وفرسان الجنود الإنجليزية وتفرقت بين الأسكندرية والقاهرة . فزاد التشاؤم واشتد الخوف بالناس وطالت أيام المشادة بين الفريقين . وكانت كتب السلطان تأتى فى خلالها تباعا إلى قصر الإمارة وديوان الوزارة برغبة فى فض هذا الخلاف بين التابع ومتبوعه بغير وساطة الإنجليز ، والإنجليز لا يتنازلون عن شيء من طلباتهم ولا يتساهلون فى أمر حتى كادت الحرب تكون واقعة لا محالة .

وبينما الحال على هذا إذ جاء الخبر من السلطنة العثمانية بأن الباب العالى أرسل مذكرة إلى سفير الإنجليز يجيب فيها على مطالب الدولة الإنجليزية بأن تخرج العساكر الشاهانية من (طابه) ومن سائر الأراضى المختلف عليها ، وأنه يرضى بتسوية التخوم

(٧٣) عرض = عرض على أضيفت الكلمة لتنقيح النص
(٧٤) على = عن قراءة تصحيحية .
(٧٥) ينظر = ينتظر قراءة تصحيحية .

بواسطة لجنة مختلطة . قال لكنه مع ذلك لا يتنازل عن حق السلطان الشرعى على تلك الأراضى ولا يسمح بإقامة المعاقل والحصون على ذلك التخوم فى مستقبل الأيام . فلم يوافق السفير على ما فيها وطلب غير ذلك ، وأبلغ هذا الخبر (الغازى مختار باشا) إلى الصحف المحلية واخص[٧٦] (جريدة اللواء) منها بغاية الشرح والتأويل لأنها لسان الحزب الوطنى صاحب الدور المهم بين أدوار هذا الحادث ، حتى لقد أخبرنى أحد كبار الإنجليز أنه لم يبق عند أحد من أصحاب السياسة الإنجليزية شك فى اتحاد كبار هذا الحزب بحزب الحرب فى دار السلطنة واتفاقهم معا على خلق هذه المحنة وتعظيمها ما استطاعوا لتقضى على نفوذ الإنجليز فى مصر وتذريه إذراء الريح الهشيم . قال ولا يخفى علينا أيضا خافية من أفاعيل (الأمير) وبطانته فى هذه الأزمة ولا ما كانوا يفعلونه مع أصحاب الصحف المعادية للإنجليز من الحض على إثارة خواطر العامة والخاصة وزج الباب العالى وسائر رجال السلطنة العثمانية فى هذا المأزق الحرج وهذا الشر الجسيم . أى نعم كل هذا لم يخف على قومنا ولا أصحاب سياستنا أ . هـ

وبرز الأمر بتشكيل لجنة من رجال مصر مؤلفة من الفريق (إبراهيم فتحى باشا) أمير الحج (وداوين[٧٧] بك) وكيل حكومة السودان (ونعوم شقير بك) واثنين من مهندسى المساحة الجيولوجية لإقامة الحدود بين (متصرفية العقبة) وشبه جزيرة سينا ، وقد تم الإتفاق على ذلك بين الباب ودولة الإنجليز . وبرز الأمر إلى رجال هذه البعثة بالقيام من السويس إلى خليج العقبة حيث تلتقى برجال اللجنة العثمانية . ومن العقبة يركبون الجمال إلى العريش وبقاء القديم على قدمه كما ورد فى فرمان تولية الأمير الصادر فى ثانى أبريل عام اثنين وتسعين وثمانمائة وألف . وكانت لما وصلت مذكرة الباب العالى إلى صاحب سياسة الإنجليز وفيها شرط احتفاظ الباب بحقوق السلطان الشرعية على تلك الأراضى صمن[٧٨] صاحب سياسة الإنجليز على قبول طلباته بغير شرط ولا قيد . فلم ير الباب مندوحة من إجابة الطلب . وتم لجماعة الإنجليز ما أرادوه وقضى على

---

(٧٦) واخص = واختص قراءة اجتهادية .

(٧٧) وداوين بك = وأوين بك Owen

- يونان لبيب رزق (طابا قضية العصر) - الطبعة الأولى - مركز الأهرام للترجمة والنشر - القاهرة - ١٩٨٩ - ص ٧٠ .

(٧٨) صمن = صمم قراءة ترجيحية .

دسايس الدساسين قضاء لا رد له . أقول وتحديد ذلك التخوم على ما وقع عليه هو جعله على ثلاثة أميال ونصف غربى العقبة أى على مسافة سبعة أميال شرقى (طابه) . قالوا وبعد تخطيط الحدود على هذا الوجه وضعت الحكومة المصرية إدارة طور سينا كلها فى يد وزارة الحرب المصرية لكى تتم فيها مشاريعها من إقامة المعاقل والحصون وبناء الثكنات والمخازن وكل ما يستلزمه التحصين ، وهذا ما كان يخشاه السلطان ويطلب الباب العالى منع إحداثه جملة . قلت قال بونابارته الكبير بعد أن ظفر بجماعة المماليك فى (واقعة الأهرام) قد استوليت على مصر فاستوليت على أزمة العالم أجمع ، فما دامت مصر فى قبضتى فالعالم كله ملكى - وقال رنان(٧٩) على دى لبس(٨٠) فاتح قناة السويس بعد ما فتح القناة (لقد ضرب هذا الفاتح الإنجليز ضربة إما أن تكون هدامة لملكهم أو دعامة) . وكتب أحد كتاب الألمان يقول أن من مَلكَ مصر لا يثبت له فيها عرش إلا إذا كان غالبا منصورا . وأقول أيضا ولقد شهد التاريخ على أنه ما استقام لدولة ملك فى مصر ولا استقامت لمصر دولة فى بلاد ، وفى هذا كله دليل على أن هذه البلاد عرضة لكل غزوة وهجمة ، فهى طريق الشرق إلى الغرب وطريق الغرب إلى الشرق ومنها تدفق العرب إلى أفريقيا وأوروبا ومنها زحف الرومان إلى آسيا حتى اكتسحوا أطرافها ، وما احتلها الإنجليز إلا لتكون سياجا لملكهم فى قارتى آسيا وأفريقية كما تقدم القول ، فإذا استضعفوا واستكانوا ذهبت من يدهم وذهب بذهابها ملكهم واختبط سلطانهم كما يقولون وينادون به على رؤوس الأشهاد ، ولا سيما وقد تحقق وصول سكة حديد بغداد الألمانية إلى (حلب) ، وخط (حلب) قد كاد يوصل بخط (بغداد) ، وخط السكة الحجازية موصولا بخط (حلب) (وبيروت) ، فلا يمضى إلا سنوات ثلاث حتى يركب

---

(٧٩) رنان = ارنست رينان Ernest Renan (٢٨ فبراير ١٨٢٣ - ٢ أكتوبر ١٨٩٢) ، مفكر فرنسى ، ولّدَ عمله Life of Jesus جدا لا كبيرا فى الأوساط الثقافية لتصويره المسيح فى شكل إنسانى خالص . بدأ تدريبه للعمل كقسيس . لكنه فقد عقيدته واتجه إلى الدراسات الحرة التوراتية . كتب Life of Jesus بينما كان فى رحلة فى فلسطين منقبا عن الآثار . فقد وظيفته كأستاذ للعبرية فى (كوليج دى فرانس) College de France بعد نشر كتابه ، لكنه عاد إليها فى ١٨٧٠ وانتخب للأكاديمية الفرنسية فى ١٨٧٨ . كان (حياة يسوع) هو المجلد الأول من عمله (History of the Origins of christianity) . تتضمن أعمال رينان الأخرى
Recollections of My Youth و The History of the People of Israel
- Lexicon Universal Encyclopedia - Vol., 16 - p., 157

(٨٠) لبس = ليسبس قراءة تصحيحية .

الجندى العثمانى خط السكة الحديد من دار السلطنة إلى (العقبة) فيجتاز ألف وأربعمائة ميلا فى منطقة سلطانية لا يصيبها صائب من البحر الأبيض المتوسط كما يقولون . فإذا كان ذلك كذلك فما الذى يصيب القوم الإنجليز فى مصر ، ومن وراء السلطنة العثمانية دولة الألمان عدوتهم ، ومن وراء الألمان دولة رومانيا فى البلقان . فلا لوم إذن ولا تثريب على صاحب سياسة الإنجليز فيما فعله فى أدوار هذه الأزمة الحالكة .

وقد أظهر حادث العقبة(٨١) ما خفى من نيات جماعة الإنجليز وعزمهم على اتخاذ

(٨١) ترجع قضية (طابا) الوقعة على بعد أميال قليلة من غرب العقبة إلى عام ١٨٤١ عندما سويت قضية تمرد (محمد على) بمقتضى فرمان الوراثة الشهير . فى ذلك الوقت كان طريق الحج المصرى إلى (مكة) يتبع طريقا بريا . ومن أجل ضمان سلامة قافلة الحج هذه سمحت الدولة لمصر بإدارة شبه جزيرة سيناء ، وإقامة حاميات فى مواقع محددة بما فيها (العقبة) على الشاطئ الحجازى من البحر الأحمر .

عند تولى (الخديو عباس حلمى الثانى) فى عام ١٨٩٢ ثارت أزمة بين مصر والدولة (أزمة الفرمان) عندما رغبت الدولة العثمانية فى استعادة مواقع الحاميات على طريق الحج ، فصدر فرمان التولية دون إشارة إلى شبه (جزيرة سيناء) بالمخالفة لفرمان تولية (الخديو محمد توفيق) فى عام ١٨٧٩ . مع التدخل البريطانى تم حل الأزمة ببرقية (جواد باشا) الصدر الأعظم التى تضمنت بعد قرار استعادة مواقع (الوجه) و(العقبة) وضمها إلى (ولاية الحجاز) (إستمرار الوضع الحالى لشبه جزيرة سيناء وإدارتها بواسطة الخديوية المصرية على نفس أسلوب إدارتها فى وقت إسماعيل باشا ومحمد باشا توفيق) . وفى المراسلات المتبادلة بين الباب العالى والسفارة البريطانية فى الآستانة تحدد الوضع الراهن Status Quo لسيناء بإنه (إعطاء الحكومة المصرية الإدارة المطلقة لشبه الجزيرة إلى الغرب من خط يمر بين (العريش) على البحر المتوسط ، (والعقبة) على البحر الأحمر) . ولما كانت (طابا) تقع غرب هذا الخط فقد كان وقوعها تحت الإدارة المصرية غير محتاج إلى مناقشة .

فى يناير ١٩٠٦ ـ وتبعا لإرادة السلطة الفعلية (الإحتلال البريطانى) ـ أرسلت قوة مصرية برأسة مستر (جننجز براملى بك) Gennings - Bramly إلى مكان ملاصق (للعقبة) على طريق (غزة) لإقامة معسكر حراسة ، الأمر الذى احتجت عليه الحكومة التركية إلى السفير البريطانى في (القسطنطينية) ، وادعت فى احتجاجها أن هذا العمل انتهاك للحدود التركية بحسبان أن المواقع التى احتلها المستر (براملى) تقع فى نطاق السيادة العثمانية .

عندما طلب (الصدر الأعظم) إلى الحكومة المصرية تفسير ما أقدمت عليه ، طلبت الحكومة المصرية تعيين (قوميسير) تركى ليناقش قضية إعادة تخطيط الحدود المصرية ـ التركية وتسوية الأمر مع مفوض تعينه الحكومة المصرية . وفى رده على الحكومة المصرية رفض (الصدر الأعظم) الاقتراح المصرى واعتبر الأمر تحرشا لا يمكن التسامح فيه . وتبعا لمشورة سلطات الاحتلال بعثت الحكومة المصرية بقوة صغيرة (٥٠ رجل تحت قيادة ضابط مصرى) لمقابلة (مستر براملى) على الحدود قرب (العقبة) ولاحتلال (طابا) ، وهى نقطة تقع على الشاطئ الغربى للخليج على مسافة ١٥ ميل من قلعة (العقبة) بطريق الماء ، وثمانية أميال بالبر ، كما أرسلت تعليمات إلى (براملى) باحتلال (نقب العقبة) و(الجطر) اللتان تحكمان الممرات الجبلية الصعبة التى يمر خلالها الطريق فى الساحل إلى داخلية شبة جزيرة سيناء عند (مراشيش) Marashesh . أُنذِرَ (براملى) بواسطة القائد التركى هناك للتراجع ، فعاد إلى (نخل) ليتلقى تعليمات احتلال (نقب العقبة) و(الجطر) و(طابا) . لكنه ما كاد يصل إلى الأخيرة حتى وجد القوة المصرية الصغيرة التي كانت قد أرسلت لهذا الغرض على سفينة خفر السواحل (نور البحر) تواجه قوة تركية سبقتها إلى احتلال (طابا) ، وأعلن قائد القوة التركية أن لديه تعليمات محددة لمقابلة أى عملية إنزال بحرى بالقوة . انسحبت القوة المصرية إلى (جزيرة فارون) الملاصقة للساحل الغربى للخليج وعلى بعد أميال قليلة جنوب (طابا) حيث كانت توجد هناك قوة مصرية صغيرة من (٢٥ جندى) .

=

كل حيطة واستعداد لحفظ التخوم المصرية شرقا وغربا ومنع كل تعدى يقع عليها . فقامت صحفهم الكبرى تحض صاحب سياستهم على الاحتفاظ بالتخوم بين مصر (وطرابلس الغرب) وتشير عليه بتكليف اللجنة التى نيط بها فصل التخوم فى شبه جزيرة سينا بفصل هذه الحدود أيضا . وما هى عشية أو ضحاها حتى جاء الخبر بأن سفير الإنجليز فاتح الباب العالى فى ذلك وطلب المصادقة على اختصاص تلك اللجنة

= فى الحوادث والمراسلات التالية بدا واضحا نية الدولة العثمانية فى تجاهل الترتيبات المؤسسة على برقية الصدر الأعظم (جواد باشا) فى ١٨٩٢/٤/٨ والخاصة بحق مصر فى إدارة سيناء حتى الخط من رفح إلى العقبة .

دخلت الأزمة فى مرحلة دبلوماسية مصحوبة بتهديدات عسكرية ، انتهت فى ١٥ فبراير ١٩٠٦ إلى التحول إلى إجراءات عسكرية عندما كلفت السفينة الحربية (ديانا) الراسية فى السويس بالتوجه إلى (جزيرة فارون) . وعلى الجانب التركى زيدت التعزيزات العسكرية في (طابا) و(العقبة) عن طريق دمشق .

لم تنجح تركيا فى حل القضية مع مصر مباشرة ، إذ كانت الأخيرة تعمل فى هذا الصدد وفق تعليمات بريطانيا - الدولة المحتلة ، وتمسكت مصر بالتفسير البريطانى للحدود والذى حدد الحد الشرقى لشبه جزيرة سيناء بالخط الذى يجرى فى الإتجاه جنوب الشرقى من نقطة على مسافة قصيرة إلى الشرق من العريش إلى رأس خليج العقبة .

تفاقمت الأوضاع مع إنشاء الدولة العثمانية (لمتصرفية العقبة) وعاصمتها (العقبة) مع احتلال مدينة رفح فى ٢٥ أبريل ١٩٠٦ ، وإزالة عامودين من الرخام يحددان من قديم الحدود المصرية التركية . زادت التعزيزات التركية بين العريش وغزة إلى ٥٠٠٠ رجل وألف جواد ، وتلقت الحامية التركية فى العقبة تعزيزات كبيرة ومدافع ، وتواترت أنباء عن عزم الدولة العثمانية التقدم بقواتها إلى (نخل) ، وفى نفس الوقت فإن سفينة حربية بريطانية أخرى (مينرفا) دفعت إلى المنطقة . خلال الفترة ٥/٣ - ١٩٠٦/٥/١٤ دخلت الدولة العثمانية وبريطانيا التي أعطت الأولى مهلة عشرة أيام لإعادة تخطيط الحدود المصرية التركية من (رفح إلى رأس خليج العقبة) فى مباحثات انتهت إلى رضوخ الدولة العثمانية فى ١٩٠٦/٥/١٤ لطلبات الحكومة البريطانية واعترفت بمحتويات برقية ١٨٩٢/٤/٨ وقررت الجلاء عن (طابا) ، ووافقت على تشكيل لجنة تركية - مصرية لتخطيط الحدود وفقا للبرقية سالفة الذكر على أساس رسم الخط الحدودى بدءا من رفح قرب العريش متجها إلى الجنوب الشرقى فى شكل خط مستقيم حتى نقطة على خليج العقبة تبعد ثلاثة أميال على الأقل من العقبة . وفى ١٩٠٦/١٠/١ تم توقيع اتفاقية رفح بين الجانبين التركى والمصرى لتحديد الخط الفاصل بين ولاية الحجاز ومحافظة القدس الشريف وشبه جزيرة سيناء .

- The Times, Tuesday, April 17, 1906

- الوقائع المصرية (ملحق) ١٤ أبريل ١٨٩٢ .

- Egypt No.2 (1906) Correspondence Respecting the Turco - Egyptian Frontier in the Sinai penisula (with a Map).

- F. O. 141/ 397 - 110 Confidential

- The Times, May 16, 1906

- The Times, Sep. 29, 1906

- Major C, S, Jarvis (Yester day and Today in Sinai) London, 1938

- يونان لبيب رزق (طابا قضية العصر) - الطبعة الأولى - مركز الأهرام للترجمة والنشر - القاهرة ١٩٨٩ - ص ٦٦ - ٨٢ .

بتحديد التخوم بين مصر (وطرابلس الغرب) أيضا . وبرز وتفشى الخبر بين الناس وتحدثوا به ، فلم يعجب أذيال الحزب الوطنى وعدوه حيفا وكيدا للسلطان ورجال دولته . وزادهم تشاؤما قيام المدرعات والمدمرات والنسافات وبعض سفن النقل الإنجليزية من ميناء بور سعيد إلى ميناء الأسكندرية . قالوا لتكون على أهبة القيام إلى مياه (طرابلس[٨٢] الغرب) إذا مست الحاجة إليها .

أقول ولأجل أن يعرف الإنجليز والفرنسيس ما (لطرابلس الغرب) من الأهمية السياسية فى نظر السلطان ورجال دولته برز أمر السلطان فى ثالث عشر مايو من السنة ثامن عشرة ربيع الأول سنة أربعة وعشرين وثلثمائة وألف بإعداد حملة قوية فى (طرابلس) تتكون من أربعمائة من المقاتلة لاحتلال (جنت) أو هى (جانت الچاهى) حول واحة (غات) . فأعدوها وجعلوها على قدم الرحيل فأعوزها المال للنفقة فبقيت أياما حتى جمعوا لها أربعة آلاف ذهبا . وما شاع خبرها حتى قامت صيحة أصحاب الصحف الإنجليزية والإفرنسية وأخذت الباب العالى من كل جانب ، وقالوا أن السلطان إنما يريد بهذه الحملة التحكك بالفرنسيس والمشادة مع الإنجليز فى كل أمر تقصده وغرض تطلبه من الباب والعالى . وعندى أن من أمعن النظر بخريطة أفريقيا أدرك عكس ذلك لأن واحة (غات) تلك الواقعة وراء فزان داخلة فى حدود (طرابلس الغرب) حسب الاتفاق الذى أبرمه أصحاب سياسة الإنجليز والفرنسيس . وعلى هذا لا يكون عمل الباب العالى فيه

(٨٢) تكشف وثيقة بريطانية مؤرخة ١٨ أكتوبر ١٩٠٤ عن قيام نزاع حدودى بين مصر والدولة العثمانية باتجاه الغرب فيما تضمنته من خطاب من مدير إدارة خفر السواحل المصرية (ج . ف . ف . بورفيس) G. F. F. Purvis إلى القائمقام (شيهان بك) Sheehan Bey بالتقدم بسفينة إلى (السلوم) للتحقق من الأنباء التى تواترت عن قيام الأتراك بالبناء فى منطقة كانت تعتبر حتى ذلك الوقت مصرية . ويشير الخطاب إلى أن الحكومة المصرية تعتبر خط الحدود بين مصر وطرابلس يبدأ من رأس جبل السلوم ، اللسان head land الواقع إلى الشمال من ميناء السلوم ، ثم يتبع خط الحدود قمة الجبل ثم يجرى جنوب غرب عبر الصحراء إلى غرب واحتى (جغبوب) Jerh-boub و(سيوة) متضمنا بذلك هاتين الواحتين فى الأرض المصرية .

ويتضمن الخطاب بعض التعليمات فى شأن كيفية التعامل مع القوات التركية فى موقع البناء المشار إليه ، وإبلاغه بأن المطالب المصرية ستوجه إلى (القسطنطينية) . . إلخ .

كذلك فإن وثيقة أخرى محررة فى ١٤/٤/١٩٠٦ من لورد كرومر إلى سير ادوارد جراى وزير الخارجية (١٩٠٥ - ١٩١٦) تشير إلى تطورات ذلك النزاع على الحدود بين مصر وطرابلس .

- F. O 141 - 397 (Cromer to Grey) No. 55 Confidential - 14/4/1906

- F. O. 141/ 381 (Ministry of Finace - Coast Guard Administration - Cairo, 18th, OCt., 1904 - Private & Confidential - From G. F, F, Purvis Acting Director - General to El Kaimakam Sheehan Bey.

شيء من العداء . وبين (طرابلس) و(واحة غات) ستمائة ميل ويزيد ، ومن (مرزوق الجاهى) محطة عثمانية معروفة إلى (غات) مائة وخمسين ميلا . وكل أهمية تلك الواحة أنها محطة للقوافل وطريق (بحيرة تشاد) والوصلة الكبرى بين (الجزائر) (وتونس) وما ورائها من الصحراء حتى بلاد (الدارفور) . وكثر تكهن أصحاب الصحف الأجنبية فى هذه الأونة وحسبانهم لما سيقع بين الباب والإنجليز وأصدقائهم الفرنسيس بسبب هذه الأزمة الأخيرة وهم بين تشاؤم وتفاؤل ، ولو وجهوا نظرهم إلى ما جاءت به الأخبار عن عاصمة الإنجليز من قرب زوال العالم ونهايته لما أركنوا إلى تلك الظنون والأوهام ولتركوا الأمور تجرى فى أعنتها غير حاسبين لمغامز السياسة حسابا . فقد رأى أنبياء هذا الزمان ـ ولكل زمان أنبياء حتى زماننا ـ إن كل طائفة تعقد مؤتمرا فلم لا يعقدون هم كذلك مؤتمرا . فعقدوا فى أخريات مايو مؤتمرا فى (لندن) عاصمة الإنجليز وكان عددهم كثيرا وموضوع بحثهم خطيرا . فتنبأ جماعة منهم عن خراب العالم وزواله . فقالوا إن ذلك يكون فى الثانى من مثل هذا الشهر يعنى شهر مايو عام تسعة وعشرين وتسعمائة فلا يبقى له أثرا ولا عين . وقال آخرون منهم بل يتم زواله وخرابه فى تاسع أبريل عام ثلاثين وتسعمائة وألف . واتفقوا جميعا على القول بأن بعد سبع سنوات من تاريخ اجتماع مؤتمرهم تنقسم قارة أوروبا بين عشر ممالك متحالفة ثم يظهر (المسيخ الدجال) ويسمى نفسه (مابوليون بونابارته) ويظهر فى العالم بلقب (ملك سوريا والشامات) . وأول بلاد يزورها هى بلاد الفرنسيس ، ثم لا يلبث حتى يمد سلطانه على التسع ممالك الأخرى فيعبده الناس عبادة الإله ويسجدون له ويؤسس له دينا جديدا . ثم تكلم أصحاب هذا المؤتمر فى ذلك مما لم يصل إلى معرفته . ثم انحل عقد اجتماعهم رضى الله عنهم أجمعين . أقول وقد ظهر قبل هؤلاء الكرام نبيا فى مدينة (شيكاغو) من أعمال أمريكا سمى نفسه (إيليا النبى) . فأقام على دعوته زهاء خمسة عشر عاما وكان يزعم أن روح الله تعالى حالة فيه كحلولها فى سيد الخلاص (يسوع الناصرى) وأنه يشفى المرضى ويبرئ الصم والبكم ويقيم الموتى . فتبعه ناس كثيرين جدا . فبنى مدينة سماها (صهيون) وقد ذاع خبره وملأ الأقطار ذكره . وظل على هذا خمسة عشر عاما عظمت فى خلالها سلطته واتسعت شهرته فتكبر وتجبر وانتفخت أدراجه[٨٣] وقصد غزو (نيويورك) (وبرلين)

(٨٣) إدراجه = أوداجه قراءة ترجيحية .

(واستراليا) فأخفق وخاب قصده . وعاد فبنى صهيون أخرى فى (المكسيك) أنفق عليها أموالا طائلة . واتفق أنه غاب عن قومه أياما فاجتمع مجلس الصهيونيين وتناجوا فى أمر بينهم[٨٤] هذا ، ثم حكموا بسقوطه . وكان بين الذين حكموا ابن النبى . فلما برز الحكم بذلك وظهر النبى من مخبأه أرعد وأبرق وجعل يصب اللعنات على (صهيون المدينة) وهو يعتقد أنها ستبيد كما ذات[٨٥] سدوم[٨٦] وعمورة ، فلم تصب بمكروه وظلت (صهيون) كما هى وعاد الناس يذكرون ذلك النبى باسمه القديم (الكسندر) وسلبوا منه اسم (إيليا) النبى عليه السلام فتأمل .

وجاء الصائح إلى قسم مصر القديمة بوقوع أحد المنازل على من كان بها ، فهرع أصحاب الشرطة إلى المكان وتحقق أن الحادث كان عظيما جدا . ذلك أنه مات لأحدى العائلات الساكنين على التل المعروف (بكوم غراب) عميدا فى صباح حادى عشرى يونيه من السنة ، عشرة ربيع الثانى ، فجلس[٨٧] النساء للندب والبكاء ونصبوا لذلك صوانا كبيرا . فاجتمع[٨٨] المعزيات من حل[٨٩] حارة ودرب وجعلن يندبن ويصحن ويولولن على عادتهم[٩٠] فى المأتم . فما هو أن صار الظهر حتى قامت ريح شديدة جدا فاقتلعت الصوان ورمت به بعيدا وكان أحد حباله مشدودا فى إحد جدران البيت فشده الريح شدة قوية فسقط الجدار والبيت كله على أولئك النسوة وصرن جميعا تحت الأنقاض . فاهتم

---

(٨٤) أمر بينهم هذا = أمره هذا بينهم قراءة اجتهادية .

(٨٥) ذات = بادت قراءة ترجيحية .

(٨٦) سدوم وعموره = وفقا للإصحاح التاسع عشر من سفر التكوين Genesis كانت (سدوم) Sodom و(عموره) Gommorah مدينتان دمرهما الرب بمطر من الكبريت والنار (brimstone and Fire) كعقاب لهما على طرقهما الشريرة . قبل التدمير أنذر الرب (لوطا) Lot بأن يترك (صدوم) وأن لا ينظر خلفه . تحولت زوجة (لوط) التي نظرت إلى الخلف إلى المدينة المحترقة إلى عامود من الملح . يحتمل أن تكون المدينتان فى النهاية الجنوبية من البحر الميت وأنهما قد دمرتا بواسطة زلزال فى حوالى ١٩٠٠ قبل الميلاد ﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ * فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ * مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾هود ٨٠ - ٨٣ .

- Lexicon Universal Encyclopedia - Vol. 18 - p., 34

(٨٧) فجلس = فجلست قراءة ترجيحية .

(٨٨) فاجتمع = فاجتمعت قراءة ترجيحية .

(٨٩) حل = كل قراءة ترجيحية .

(٩٠) عادتهم = عادتهن قراءة ترجيحية .

أصحاب الشرطة وأهل تلك الخطة بأخراجهن فأخرجوا منهن ست أموات وخمسة مهشمين[٩١] بكسور ، وعشرين بجراح خفيفة . وكثر الصياح والعويل وأقبل الرجال والنساء والأولاد يقبلون ذويهم وقد ارتفعت أصواتهم بالبكاء فكان المنظر مريعا والخطب عظيما . ونقلوا المصابين جملة إلى مستشفى القصر العينى والناس يسألون الرحمة للمائتات والعزاء لأهلهن .

واتفق أن خرج جماعة من ضباط جند الاحتلال إلى الصيد فى بلدة يقال لها (دنشواى) إحدى قرى إقليم المنوفية فى ثالث عشر يونية من السنة حادى عشرة ربيع الثانى ، فقام عليهم أهل تلك القرية رجالا ونساء بالهراوات والفؤس فأصابوا من أحدهم مقتلا . وجاء الخبر بما وقع إلى ديوان الوزارة وقصر الإمارة ووزارة الحرب . وتحريره أن خمسة من ضباط جند الاحتلال ومعهم طبيب من أطباء الجيش ذهبوا لصيد الحمام بقرية دنشواى إحدى قرى مركز شبين بإقليم المنوفية ، وبينما هم يصطادون اعترضهم فى سبيلهم إحدى نساء القرية وابنتها تمنعهم من الصيد ، وجاء شيخ غفر القرية يمنع الصيادون كذلك من الصيد . وحدث أن أصاب المرأة وابنتها بعض رشات من رشاش الصيد وقيل أنه أصاب غفير القرية شيئا من ذلك الرشاش ، فاجتمع على الأثر أهل القرية كلها نساء ورجالا وأحاطوا بجماعة الضباط إحاطة السوار بالمعصم وأوسعوهم ضربا ودخرا ورفسا فمات أحدهم وأصيب الباقين بجراح . فلما بلغ الخبر إلى مقدم ضباط جيش الإحتلال سير من فوره فصيلة من الفرسان الرماحة وجماعة من الضباط إلى (دنشواى) . وقام وكيل مديرية المنوفية ووكيل نيابتها ومقدم الشرطة وكثير من عمد ومشائخ القرى والبلاد المجاورة وتبعهم المدير إلى محل الحادث ، ونقلوا جثة القتيل تخفرها الرماحة وهى مغطاة بالراية الإنجليزية من محطة السكة الحديد إلى منازل الجند . وجاؤا بجثة امرأة من نساء القرية ماتت فى وسط الحادثة ليشرحوها ويعرف أسباب الموت فقد كانوا يشكون فى الأسباب . وباتوا وأصبحوا وقد أعدوا (المحكمة المخصوصة) التى يحاكم أمامها كل معتدى على أفراد جيش الاحتلال . وقد شيعوا جثة الضابط المقتول فى مشهد حافل مهيب مشى فيه الجند بسلاحهم ومقدمى الجند بملابسهم العسكرية

(٩١) مهشمين = مهشمات قراءة ترجيحية .

والموسيقى . وكانوا قد أدخلوا الجرحى من أولئك الضباط إلى مستشفى (طنطا) الأميرى فجاء الخبر فى ثانى يوم بأن حالة اثنين منهم تنذر بالخطر . وأهاج هذا الحادث العساكر الإنجليزية فظهر الهرج فى كل مكان ، وبرز أمر القائد العام إلى سائر الضباط بأخذ الحيطة ومنع كل خطر يحدث من العسكر ، واشتدت مراقبتهم . وقد أخذ أصحاب الحل والعقد يحققون مع الجناة والأخبار تأتى تباعا إلى وزارة الحرب وديوان الوزارة وقصر الإمارة ، وحضر بعض التحقيق مستشار وزارة الداخلية وكان التحقيق سريا .

وبان الخبر وتحدث الناس بتشكيل هيئة المحكمة المخصوصة من (المستر هينز) نائبا عن وزارة الحقانية (وفتحى زغلول بك) رئيس محكمة مصر الأهلية (والمستر بوند) رئيس محكمة الاستئناف الأهلية وقائمقام الأحكام العسكرية فى جيش الاحتلال برياسة الوزير (بطرس باشا غالى) النائب عن وزير الحقانية لغيابه فى ديار الفرنجة . وكان فى نية أصحاب الحل والعقد أن يصدر حكم هذه المحكمة قبل سفر (اللورد كرومر) إلى مصيفه فى ديار الإنجليز فلم يتمكنوا من إنجاز التحقيق فى الوقت المعين . وهم اللورد كرومر بالسفر فاجتمع لوداعه جماعة الأمراء والوزراء وأصحاب الوظائف على اختلافها وكان بين المودعين (فتحى زغلول بك) . قيل فمال إليه (لورد كرومر) وأخذ بيده ناحيته وجعل يكلمه همسا لحظة . فكان (فتحى) يظهر غاية الاستعداد لسماع خمس[٩٢] اللورد كرومر ويشير برأسه ويده إشارات الطاعة والقبول واللورد يشدد فى كلامه . فتطير بعض المودعين من هذا الحادث وظنوا أن وراء الأكمة ما ورائها .

وعلت صيحة كبار الحزب الوطنى وجعلوا ينادون بالويل والثبور وعظائم الأمور حتى كادت تخفى الحقيقة على الناس وكادوا يهتمون[٩٣] جماعة الإنجليز بالتعدى على أهل قرية دنشواى وقتل نساءهم ورجالهم . وكثر التحدث فى ذلك والمجاهرة به فى كل مكان . فأرسلت وزارة الداخلية إلى أصحاب سائر الصحف على اختلافها تقول قولها فى ذلك الحادث وأدواره ونصه (يوم الأربعاء فى ثالث عشر يونيه الجارى الساعة الأولى بعد الظهر ذهب ضباط البيادة الراكبة ما عدا اللفتننت هارجريفس الذى بقى نوبتجيا ، من

(٩٢) خمس = همس قراءة ترجيحية .
(٩٣) يهتمون = يتهمون قراءة ترجيحية .

معسكرهم الكائن على الضفة اليمنى (لترعة الباجورية) على الخيل والعربات التى أرسلها لهم حضرة (عبدالمجيد بك سلطان) من أعيان منوف قاصدين (دنشواى) وهى تبعد عن المعسكر ستة أميال بقصد صيد الحمام . ولدى مرورهم بمنوف وعلم (عبدالمجيد بك سلطان) بأنهم ينوون صيد الحمام بتلك البلدة حيث كان الماجور (بين كوفين) قد اصطاد فيها السنة الماضية من غير أن يلقى معارضة ، فقد وعدهم (حضرة عبدالمجيد بك سلطان) أن يعمل لهم كل التسهيلات . ولذلك لما رأوا العربات منتظرة قرب (سرسنا) إفتكروا أن كل شىء قد أعد لهم وأنهم سيقابلون بالترحاب . وكان الضباط جميعهم بالملابس العسكرية وكان يرافقهم أحد أومباشية البوليس ودليل . ولما وصلوا البلد ذهب الماجور (بين كوفين) والكبتن (بول) واللفتننت (سمث وبك) إلى بحرى السكة الزراعية واستعدوا هناك للصيد على مسافة نصف ميل من البلد ، وذهب الكبتن (بوستك) واللفتننت (بورثر) إلى قبلى السكة الزراعية ، وكانت المسافة مائة وخمسين مترا بين كل واحد والآخر وكلاهما على بعد ماية وخمسين متر من البلد ، وكانت المسافة بين اللفتننت (بورثر) وأقرب جرن نحو ماية متر وكذلك المسافة بين الجرن - يريدون جرن البلد - والكبتن (بوستاك) . وذهب أومباشى البوليس إلى غرب البلد لإخبار العمدة بوصول الضباط . غير أنه اتفق أن العمدة كان غايبا فى (أشمون الكوم) . وفى غضون ذلك ابتدأ الضباط بالصيد ورأى الكابتن (بوستك) واللفتننت (بورثر) أن أهالى الناحية ابتدؤا يتجمعون قريبا منهم ويحيطون بهم وأن تصرفهم يشتم منه رائحة التهديد . واجتمع الأهالى حول الكبتن (بوستك) من كل ناحية وأخذوا يتعرضون له . فلما رأى اللفتننت (بورثر) ذلك ذهب إلى زميله ولكنه لم يقطع مسافة قصيرة حتى أحاط به الأهالى وشرعوا فى نزع سلاحه منه . ورأى الماجور (بين كوفين) والكبتن (بول) الأهالى متجمهرين حول رفيقهما فى المكان الذى كانا يصطادان فيه فأتيا إليهما وأشار الوكيل إلى اللفتننت (سمث وبك) بالعودة .

وقد قرر اللفتننت (بورثر) أنه لما لم يتمكن من إخراج الخرطوش من بندقيته أوقف حركة الزناد والآلة المعدة لذلك منعا لخروج الطلق .

وبعد ذلك نزع الأهالى منه البندقية بعنف فسمع فى الحال صوت طلق عميق وانطلق العيار من البندقية . وقرر اللفتننت (سمث وبك) أنه سمع صوت الطلق العميق ورأى الجمهور متفرقا ، ثم شاهد (اللفتننت بورثر) المكان[٩٤] الذى كانوا متجمهرين فيه بعد تفرقهم وبندقية[٩٥] فى يد رجل على مسافة ثلاثة أمتار منه ، واتضح بعد ذلك أن خروج العيار من بندقية اللفتننت (بورثر) كان قضاءً وقدرا بعد نزعها منه وأنه نشأ عن إطلاقها إصابة ثلاثة رجال وامرأة .

وقبل أن تتعرض الأهالى للكبتن (بوستك) شبت نار خفيفة فى الجرن على مسافة مائة متر إلى الشمال الشرقى من المحل الذى كان واقفا فيه فاطفئت فى الحال ولكن يظهر أن إشعالها زاد هياج الأهالى كثيرا لأنهم ادعوا أن الصيادين كانوا السبب فى اشتعالها . غير أنه ثبت من معاينة محل اشتعالها أن دعواهم ضرب من المحال وأن الأقرب إلى العقل أنهم أشعلوها عمدا إشارة للابتداء بالهجوم العمومى .

ولما رأى الماجور (بين كوفين) شدة هياج الأهالى أعطاهم بندقيته وطلب إلى بقية الضباط أن يفعلوا كذلك . ثم سار الضباط إلى جهة السكة الزراعية وتبعهم الأهالى وهم يحثون التراب عليهم ويضربونهم بالنبابيت والعصى . وكان الضباط بعد أن تركوا أسلحتهم كما تقدم منها[٩٦] للمشاكل قد صاروا عزلا من أدوات الدفاع ولم يعد بإمكانهم المدافعة عن أنفسهم ضد الضربات التى كانت تصب عليهم وخصوصا من خلفهم . ثم ركبوا عرباتهم غير أن سائقيها لم يتمكنوا من السير إذ لم يشأوا[٩٧] أن يسيروا . وبعد أن رماهم الأهالى بالتراب وغيره أنزلوهم من عرباتهم وجعلوا يضربونهم ، فعزم الضباط على الإسراع عدوا إلى المعسكر على مسافة ستة أميال ، وكان الماجور (بين كوفين) متأخرا عن البقية ، فمسكه الأهالى ورموه إلى الأرض . ولما رأى ذلك اللفتننت (بورثر) سمث[٩٨] وبك عادا إليه لمساعدته .

---

(٩٤) المكان = فى المكان قراءة اجتهادية .
(٩٥) وبندقية = بندقيته قراءة ترجيحية .
(٩٦) منها = منعا قراءة اجتهادية .
(٩٧) يشأوا = يستطيعوا قراءة اجتهادية .
(٩٨) سمث وبك = واللفتنانت سمث وبك أضيفت الكلمة ليستقيم النص .

وكان (الكبتن بوستك) (والكبتن بول) متقدمين عن رفاقهما ، فركضا إلى جهة المعسكر . فوصل الكبتن (بوستك) الساعة الرابعة ونصف مساء وأبلغ الخبر . فقامت حالا دورية من البيادة الراكبه ورأت الكبتن (بول) ملقيا على الأرض وفاقد الشعور على بعد أربعين ياردة من (سوق سرسنا) بحرى الطريق على بعد ميل ونصف من العسكر ، فحملوه إلى داخل السوق ثم نقلوه فى عربة إلى المعسكر حيث توفى فيه الساعة السابعة مساء .

أما الماجور (كوفين) والضابطان الآخران فبعد أن أوسعهما الأهالى ضربا أرجعوهما إلى بلدة (دنشواى) إلى المحل الذى كانت فيه المرأة المصابة ، وكانوا يشيرون إليها ويؤمون[٩٩] إليهما بإشارة تدل على الرغبة فى ذبحهما . وفى هذه الأثناء تمكن الشيخ وبعض الغفراء والأهالى من عمل كوردون حول الضباط لمنع الناس من الاقتراب منهم ، ثم أخذوهم إلى محل يبعد مسافة قصيرة عن هذا الموضع وأجلسوهم وأحضروا لهم ماء . وفى هذا الوقت وصل ضابط البوليس قادما من الشهداء فأركب الضباط العربات فسارت بهم إلى المعسكر وقد تلاقوا فى طريقهم مع داورية البيادة الراكبة فأمروها بالعودة . وقد أحضر الشاويش الذى كان يقود إحدى الدوريات الراكبة أربعة رجال مقبوضا عليهم من سوق (سرسنا) قائلا بأنهم اتحدوا من[١٠٠] خمسة آخرين وأطلقوا عيارين ناريين على الداورية فأجابتهم الدورية بعيارين مثلهما ولكن لم يصب أحد من الفريقين . وقرر هذا الشاويش أيضا أنه وجد جثة رجل فى نقرة فى إحدى زوايا السوق . وقد قرر الكبتن (بوستك) وطبيب المركز اللذان عاينا الجثة بعد هذه الحادثة بعشرين ساعة أن الوفاة ناشئة عن ضرب القتيل بآلة حادة وآلة غير حادة وسيصير تحقيق هذه المسألة بعد ظهر اليوم .

ثم وجد شخص آخر من الأهالى مصابا بعيار نارى فى ساقه ويقال إن الإصابة ناتجة من رصاصة أكبر من رصاص البنادق المعروفة ببنادق (أنفلد) ، وهذه النقطة جارى تحقيقها اليوم . ويقول المصاب إن الذى أحدث به هذه الإصابة ليس أحد العساكر بل أحد أعدائه . وقد اتهم لغاية الآن خمسة وأربعين شخصا ضبط منهم خمسة وثلاثين

(٩٩) ويؤمون = ويومئون قراءة ترجيحية .
(١٠٠) من = مع قراءة ترجيحية .

نفسا وأرسلوا إلى سجن شبين الكوم بمديرية المنوفية حيث تصير محاكمتهم فى أواخر هذا الأسبوع على الأكثر . والتحقيق جار بهمة عظيمة وينتظر ضبط متهمين آخرين وتقديمهم للمحاكمة . وأهم الشهادات هى طبعا أقوال الضباط أنفسهم الذين دلوا على بعض ضاربيهم . وقد شهد الغفراء على الكثيرين من هؤلاء الضاربين وكذلك الدليل وسائقو العربات . ولا يزال الماجور (بين كوفين) يعالج فى مسشفى طنطا الأميرية وحالته هو ويقية الجرحى من الضباط أخذت فى التحسن . أما إصابتهم فقد كانت جسيمة ، وقد كسرت ذراع (الماجور بين كوفين) وأصيب بعدة ضربات شديدة على رأسه وجسمه ، ولما رماه الضاربون على الأرض داسوا عليه بأرجلهم ورفسوه . وقد أصيب الكابتن (بوستك) واللفتننت (سمث وبك) واللفتننت بورثر بضربات شديدة من النبابيت والأشياء التى رماها الأهالى بهم . أما الكبتن (بول) الذى توفى فى مساء يوم الحادثة كما تقدم فقد أصيب بضربتين قويتين على الرأس وقد سلب من جميع الضباط كل ما كان فى جيوبهم من النقود وغيرها . انتهى نصه .

أقول هذه مفصلات الحادث كما دل عليه تحقيق المحققون وكما شهد ببعضه شهود الحال . وكثر ترداد كبار وزارة الداخلية والحقانية إلى محل الحادث فى الليل والنهار ، ووقع الهرج فى (دنشواى) وجعل الخصوم فيها ينمون بعضهم على بعض ويتهم كل واحد منهم خصمه فى هذه الجناية . فاختلط الحابل بالنابل وتعدد المتهمين . وكان ممن جعل يرشد على الجانين وقت ضبط الحادث رجل من أهالى البلد أظهر مهارة فى الإرشاد فايقة . واتفق أن المحققين أخذوا بعض الجانين إلى مستشفى طنطا لعرضهم على الماجور (كوفين) الذى كسرت ذراعه وبينهم ذلك المرشد . فلما نظر إليهم الماجور دل على بعضهم وأشار بتوجع إلى ذلك المرشد وقال وهذا هو مقدم العصابة ، فقبضوا عليه وفتشوا بيته فإذا فيه بندقيتان للضباط مطمورتان تحت التراب فزج به فى السجن مع زملائه . وأتموا التحقيق فثبت أن الجانيين هم واحد وخمسين كلهم مسجون . فبرز الأمر بالإفراج عمن لم يتهم فأفرجوا عنهم وأخلوا سبيلهم . ثم رسم الرئيس مصطفى باشا بطبع سائر أوراق ذلك الحادث وإرسال صورة منها إلى كل عضو من أعضاء المحكمة المخصوصة . وبرز الأمر إلى مدير المنوفية بإطلاع من يتطوع من جماعة المحامين للدفاع عن أولئك المتهمين ففعل . ولكى أن يتحققوا عما إذا كانت النار التى شبت فى أحد

أجران البلد فى وقت الحادثة هى من نار بنادق جماعة الضباط سيروا نفرا من الجند ببنادق الضباط ، وبحضور بعض المأمورين أطلقوا تلك البنادق على تبن أحد الأجران على بعد ستين مترا فلم يلتهب فيها شىء البتة . وسير صاحب شرطة القاهرة اثنين وعشرين غفيرا لخفارة (دنشواى) وتطويقها فى الليل والنهار ، فاشتد الخوف بأهلها وظنوا أنهم مأخوذون جميعا إلى حيث لا يعلمون . وكثر البكاء والعويل فى كل ناحية وصوب فى البلد . وامتنع خروج الرجال من بيوتهم خوفا من الشبهات . وتابع رجال الحزب الوطنى صيحاتهم وزعقاتهم يختصمون المحكمة المخصوصة قبل أن تقول قولها فى تهمة المتهمين . وقد نشرت جريدة الوقائع الرسمية الأمر القاضى بتشكيل تلك المحكمة ممن ذكرنا أسماءهم وصدر الأمر بانعقادها فى يوم الأحد رابع عشرى يونيه من السنة ثانى عشره ربيع الثانى سنة أربع وعشرين وثلثمائة فى الساعة العاشرة صباحا فى شبين الكوم . وجاء إلى القاهرة أحد المأمورين ومعه قائمة بأسماء المتهمين وعددهم واحد وخمسين متهما للتحقيق فى صحف سوابقهم إن كان لأحدهم إجرام قديم خلاف الفارين وعددهم ثمانية .

وأقاموا سرادقا كبيرا بحوش ديوان المديرية ، وسارت طايفة من رجال جيش الإحتلال مشاة وركبانا على قطار خاص ونزلوا بالبلد وعسكروا فى البر الشرقى مع فرقة أخرى كانت نازلة هناك . فلما كان اليوم المعهود أقبل قضاة المحكمة ومعهم جماعة كثيرة من المحامين وكتاب الصحف ، وكانت المدينة قد غصت بالقادمين من سائر البلاد والأقاليم . وكان بانتظار القضاة على المحطة مدير المنوفية وجماعة من جند الاحتلال . وكان المدير قد أعد تذاكر شخصية للزائرين . واصطف الجند حول المكان بسلاحهم . ولما صارت الساعة التاسعة والنصف أحضروا المتهمين من قشلاق الديوان يخفرهم العساكر والضباط وفى عنق كل واحد منهم نمرته . وفى الساعة العاشرة أقبلت فرقة من الجنود الأنجليزية فأحاطت بالمكان تخفره ، ودخل القضاة فجلسوا . وكانوا قد أكتروا (هلباوى بك) أحد المحامين الأهليين ليرفع الدعوى ضد المتهمين بدلا من رجال النائب العمومى . يقال دفعوا له أجرة قدرها أربعمائة ذهبا . وبعد أن استوى بالجمع المقام نادوا على المتهمين واحدا فواحدا باسمه ، ثم قام كاتب المحكمة وتلا أولا القرار القاضى بتشكيل المحكمة المخصوصة المؤرخ خامس عشرى نوفمبر عام خمسة

وتسعين وثمنمائة وألف ثم ودقت(١٠١) الاهتمام الموضوعة باسم مدير إقليم المنوفية . ثم عاد الهلباوى وشرح التهمة بإيجاز وطلب الحكم على جميع الإثنين وخمسين الحاضرين والسبعة الغائبين (وقد كانوا عثروا قبل الجلسة بيوم على ثامنهم) بأشد العقوبة لأنهم تجمهروا وأوسعوا الضباط ضربا حتى مات أحدهم . قال فالجرم هو من الجرايم الكبيرة ، ووعد بنتيجة الكلام بعد سماع شهادة الشهود .

ونادى رئيس الجلسة على المتهمين واحدا فواحدا وكان قد حضر (إسماعيل بك عاصم) للدفاع عن ثلاثة عشر منهم ، (ومحمد بك يوسف) عن ثلاثين ومعه (عثمان أفندى شاكر) (وأحمد بك لطفى السيد) و(محمد بك توفيق) عن الباقين بعد سؤال المتهمين وإنكارهم .

وقام الهلباوى وقال إن أحد المهتمين وهو (محمد مصطفى محفوظ) يدعى أنه مجنون ولذا فإنه يطلب الطبيب الشرعى ليفحصه ويبدى رأيه فى شأنه . ثم نودى على الشهود وبينهم الماجور (بين كوفين) الذى كسرت ذراعه اليسرى كما تقدم القول فى محله فسمعت شهادتهم واحدا فواحدا . وقد قام المحامون يسألون كل واحد من الشهود أسئلة مافعه(١٠٢) للدماغ . وكانوا كل(١٠٣) ما سمعوا شهادة شاهد عرضوا عليه المتهمين فيدل على من يشكو منهم ويقرر كيفية إجرامه وشكل تعديه على الضباط . وكان ممن سمعت شهادتهم الطبيب الشرعى الذى كشف على الكبتن (بول) الذى مات ، فقال لما سئل عن سبب الوفاة أنها احتقان بالدماغ وضربة شمس وأن ضربة الشمس كانت تالية لتأثير المخ من الجروح والضربات . وباتوا بعد سماع بعض الشهود وأصبحوا يوم الإثنين وقد جلس القضاة والمدعى والمحامون . فعادوا إلى سماع شهادة من بقى من الشهود ثم أرفضت الجلسة . وباتوا وأصبحوا وقد اجتمع القضاة لسماع من بقى من الشهود وهى الجلسة الثالثة . وبعد إتمام شهادات الشهود الذين هم شهود إثبات الجناية على المتهمين تنازل المحامون عن سماع شهادات شهود النفى . ولم يعجب المجتمعون ما بدا من (المستر بوند) وكيل محكمة الاستئناف مقاطعته على بعض الشهود الوطنيين

(١٠١) ودقت الإهتمام = ورقة الإتهام قراءة ترجيحية .
(١٠٢) ما فعه للدماغ = نافعة للدفاع قراءة اجتهادية .
(١٠٣) كل ما = كلما قراءة ترجيحية .

وتهديده للبعض الآخر . فقد نقل عنه أنه قال لأحدهم (نحن نعرف جيدا كذب المصريين) فضلا عن تسرعه فى سائر أسئلته للشهود والمتهمين . وأوقفت الجلسة نصف ساعة للإستراحة ولكى يستعد المدعى العمومى للمرافعة . ولما عاد القضاة إلى كراسيهم قام المدعى العمومى . وابتدأ يطلب عقاب المتهمين بأشد عقاب ثم قال (اطلعت[١٠٤] حضراتكم على أوراق القضية وأشغلتم أنفسكم بها يومين ، فلهذه القضية وجهان تقدروهما لتروا من هم رؤساء العصابة ، فإنى لم أملك نفسى من شدة التأثر لهذا الجرم الفظيع الذى يؤثر على مصالح المصريين لا لذهاب روح ضابط ظلما وعدوانا فقط ، بل أنا أتأثر لهؤلاء الأشخاص المتهمين الذين هم من المصريين . على أنى أفتكر أيضا فى روح هذا الضابط البرىء . فأرجو أن تنزعوا من قلوبكم الرحمة على هؤلاء المتهمين حتى ترفع عنا هذه الوصمة الوحشية لأنه لا يمكن أن أقدر لكم جرم هذه الحادثة الفظيعة علينا . فمنذ عدة سنين افتكر رجال الاحتلال بإنقاص قوتهم من القطر المصرى حتى لا يبقى إلا بضع نفر كرمز للإحتلال ، وهذه الحادثة وجسامتها تحمل على الاعتقاد بأن فى المصريين إناسا وحشيين ، وقد يمكن أن تتذكروا أن جناب (اللورد كرومر) أشار فى تقريره سنة خمس وتسعمائة أن مديرية المنوفية هى أحسن المديريات ، وكنا نحن المصريين نفتخر بها ولكن ترون أن عصابة كهذه تشوش الأفكار وتضر بسمعة البلاد ، وقد أول الكتاب الحادثة فلم يتصوروا إن كانت[١٠٥] حدوثها كما حدثت ، حتى إن (جريدة اللواء) ذكرت أنه لا يبعد أن يكون الاعتداء قد وقع والضباط ليسوا بملابسهم الرسمية ، ولا يعلمون أنه فى سنة خمس وتسعين صدر ديكريتو يقضى بالدفاع عن رجال جيش الاحتلال منعا للتعدى عليهم ، حتى أنه فى سنة سبع وتسعين حصل تعدى من بعض غلمان وهو تعد بسيط فحكمت فيه المحكمة المخصوصة فظللنا من عهدها فى اطمئنان للآن . ولكن حادثة قليوب جعلت رجال الإحتلال يتخذون الوسائل التحفظية حتى باتت جنودهم تمشى فى طول البر وعرضه بدون أن تخشى شيئا . وقال من سوء الحظ أن ضباط وعساكر الجيش البريطانى متعودون على الصيد ، وهذه البلاد على غناها ضيقة على الصياد .

---

(١٠٤) اطلعت = اطلعتم قراءة ترجيحية .
(١٠٥) كانت = كان قراءة اجتهادية .

فمنذ أيام والضباط والجنود الإنجليز يأتون دنشواى التى اصطادوا فيها سابقا بدون حدوث أمر يكدر ، فحسبوا أنهم يفعلون فى هذا العام ما فعلوه فى العام الماضى . على أن مأمورى شبين ومنوف أرسلا لجميع البلاد فى عشرة الجارى بأن هذه الفرقة ستمر على تلك البلاد وإن الواجب المحافظة عليها . وفى يوم ١٣ الجارى أظهر الميجر (بن كوفين) رغبته لمأمور منوف فى الصيد ، فرأى المأمور أنه لا مانع ، ولذلك أرسل المأمور (لعائلة سلطان) لتعد له ولرفاقه العربات فى محل نزول الفرقة التى وصلت الساعة تسعة صباحا ونصبت الخيام فى نقطة الباجورية على الضفة اليمنى أمام السكة الزراعية أى طريق البتانون الموصل لسرسمون . فيكون بينها وبين دنشواى سبعة كليو مترات والناس يواصلون سيرهم ذهابا وإيابا إلى جميع البلاد ، فمن اللازم أن تكون بلدة دنشواى قد عرفت خبر المعسكر وخصوصا لأن نقطة بوليس الشهداء عرفت خبر قدوم الجنود منذ يوم الثلاثاء السابق للحادثة . فلابد إذن من أن يكون الخبر قد انتشر وخصوصا بعد ما ركب ضباط جيش الاحتلال ، فبالطبع إن الأهالى تعرفهم وتعرف مقاصدهم لأن من طبعهم حب الإستطلاع عن كل شىء حتى إنهم لما وصلوا دنوشاوى[١٠٦] قابلهم (حسن محفوظ) ومن معهم بما سمعتموه اليوم من الشهود وهددوهم بالأقوال وقالوا لهم إنهم إذا اصطادوا يضربون . ومن الأسف إنه لن[١٠٧] تترجم هذه الجملة إلى الميجر (بن كوفين) لأنهم[١٠٨] لو ترجم له كلامهم لرجع ولو كان الحمام من الياقوت ، ولكنه افتكر أنهم أتون للترحاب بهم ولذلك تفرقوا ثلاثة أقسام) .

قال (وإنى متأثر أن أبين لكم سوء قصد الأهالى ، من[١٠٩] شهادة (أحمد بك حبيب) أنه لا شك فى سوء نيتهم وقصدهم . فإذا سرنا مع المتهمين من أن ما حصل كان لسببين أولهما إصابة المرأة والثانى احتراق الجرن فالمشاهدة الحسية تكذبهم ، فإنى زرت البلد أول أمس ورأيت هيئة أبراج الحمام فوجدت أنه حمام برى غير مملوك والدليل على ذلك أن المدير سأل أحد الأهالى هل لك برج فقال لى ولكنه خربان أى ليس له

(١٠٦) دنوشاى = دنشواى قراءة ترجيحية .
(١٠٧) لن = لم قراءة ترجيحية .
(١٠٨) لأنهم = لأنه قراءة ترجيحية .
(١٠٩) فن = فمن قراءة ترجيحية .

رزق ولا يأتيه الحمام فكأن الحمام برانى لا مملوك ، فهو يذهب إلى البرج الذى يختاره . هذا هو الحمام الذى يصطاده الضباط . ولما عزم المعتدون على ارتكاب جريمتهم رأوا وسيلة لذلك وهى إحراق الجرن ، فإحراق الجرن اصطناعى لا من نار بنادق الضباط . فإذا أخذنا برأى الأهالى من أن النار وصلت إلى الجرن من نار الضابطين الموجودين فى الجهة القبلية فهذا من المستحيل لأنه لا يمكن(١١٠) سلاح الضباط تصل للأجران . وقد أجريت التجربة أمام المدير ومستشار الداخلية فأعطوا معاون البوليس بندقية وخرطوشا ليضرب فى جرن كالجرن المحترق على بعد اثنين وعشرين خطوة فضرب ولم يحصل حريق ، وهكذا(١١١) أطلق النار على بعد عشرة أمتار فلم يصب الجرن بشىء . فالإحتراق كان عمدا لأنه لم يحصل من الضباط ما يتخذ حجة على تهييج عواطف المتهمين فاخترعوا لذلك سببا . أما (المستر بول) فإنه كان واقفا بعيدا عن الجرن فأتاه أحد الأهالى وأشار إلى النار وهى مشتعلة فى جرن بعيد عنه ولم تستمر سوى أربع دقائق . ويوجد دليل آخر لاصطناع الحريق ولو أن المعاينة عملت حالا لظهرت . ومن الأسف إن الميجر (بين كوفين) كان مشتغلا بمصاب الضباط فلم يمكنه معاينه الحريق فى ذلك الحين . ثم أن النورج المحروق محروق من أعلاه لا من أسفله فهذا يدل أيضا على أن الحريق اصطناعى إذ لو كان غير ذلك لمسكت النار فيه من أسفله بالتدريج . فلهذه الأسباب يظهر جليا أنهم اتخذوا الحريق سلما لمقاومة الضباط . وبعد ذلك تقدموا من الكبتن لسلب سلاحه ، ومن أكبر العار على الضابط أن يسلم سلاحه . ولذلك قد اجتمع عليه جمهور كبير حتى أعيته الحيل وخشى أن تنطلق البندقية على الأهالى فأراد أن يفصل الخرطوش من البندقية فلم يتمكن . إلى أن جاء الميجر (بين كوفين) فأمره بتسليم السلاح . وفى أثناء ذلك انطلقت العيارات النارية أى فى أثناء التماسك ، وانهزم الميجر (بين كوفين) أمام هؤلاء الأهالى وهو الذى نال شرف الشجاعة فى (حرب الترنسفال) وأظهر من الإقدام ما توج رأسه بالفخار . ولكن هذا الإنهزام الذى حصل منه كان من طيبة نفسه فلم يقدروه الأهالى بل استلوا نبابيتهم فضربوهم والنسوة تناولت الطوب فرشقتهم ثم سلبوا ما معهم من الساعات وغيره .

---

(١١٠) لايمكن سلاح الضباط تصل للأجران = لايمكن لنيران أسلحة الضباط أن تصل للأجران - قراءة تصحيحية .

(١١١) وهكذا = وكذلك قراءة ترجيحية .

هنا أقفلت الجلسة للاجتماع فى الساعة الثامنة ونصف من صباح الغد . وأصبحوا وقد فتحت الجلسة فى الساعة المضروبة ، وجلس القضاة على منصتهم . فجعل (الهلباوى بك) يتكلم فى سوء قصد الأهالى ويجد فى نفى أمر حريق الجرن عن الضباط إثر إطلاقهم البنادق وقت الصيد ، وتكلم كثيرا عن أصحاب الشرطة حتى قال إن بينهم الخونة والأفاكين ولا يصلحون لخدمة الأمن كالأمباشى الذى رافق الضباط لاختلاف شهادته التى لفقها حتى ظهر للرأى العام جليا كذب ظنه وآماله برجال الشرطة . وقد توسع فى هذا الكلام كثيرا حتى مل السامعون أو كادوا . ثم أنحى على المتهمين باللوم والتقريع وجعل ينفى عن الضباط ضرب الأهالى ، ويقول انهم افتعلوا دعوى الحريق ، قال لأنهم ضربوا الضباط بغير سبب فاخترعوا للاعتذار عن عملهم سببا ، إلى أن قال أما وفاة الكبتن (بول) فإنها لم تكن من العدو والركض بل هى نتيجة الضرب فقط . ثم قدم شهادة من الرضخانة[١١٢] وعرض بعض الصحف التى نشرت تلغراف الطبيب الشرعى وأولته على وجوه لا يحتملها . إلى أن قال (وقد أثبت التحقيق والقرائن كلها على أن زعماء المتهمين هم (حسن محفوظ) (وأحمد محمد السيسى) (ويوسف حسين سليم) (ومحمد عبدالنبى) المؤذن (وأحمد عبدالعال محفوظ) (والسيد عيسى سالم) (ومحمد درويش زهران) . وطلب فى ختام أقوالهم[١١٣] الحكم بإعدامهم من الهيئة الاجتماعية لأنهم جيلوا[١١٤] على الأمة مصائب وتحريك فتنة شديدة ، وطلب عدم الرحمة بهم للقراين التى أثبتها والدلائل التى أوردها . وبين أشخاص وأسماء المشتركين فى فعل هذه الجريمة واحدا فواحدا ، وطلب فى الوقت نفسه تطبيق القانون الإنجليزى على المتهمين لأن المحكمة غير مقيدة بقانون . وقال إن الشريعتين الإسلامية والإنجليزية قضتا بالإعدام ولو لم يكن هناك سبق إصرار ، وانتهت على ذلك أقواله . فاستراح القضاة لحظة لطيفة ثم عادوا إلى كراسيهم فقام المحامون عن المتهمين يتكلمون واحدا بعد الآخر ويفندون أقوال المدعى وشهادات الشهود . وبعد كلام كثير أقفلت الجلسة . وأصبحوا وقد أعيدت المرافعة . فأخذ كل من المحامين دوره فى الدفاع . ثم قام (أحمد بك لطفى) المحامى فقال إنى سأترافع عن المتهمين وورائى أناس ربما يتأثرون من كلمة

(١١٢) الرضخانة = الرصدخانه دار الرصد ـ الأرصاد الجوية قراءة اجتهادية . ويحتمل أن يكون فى شهادة الرصدخانة ما يفيد أن درجة الحرارة فى يوم الحادث كانت أقل من أن تسبب ضربة الشمس التى قيل بأنها كانت سبب وفاة الضابط الجريح (الكابتن بول) .

(١١٣) أقوالهم = أقواله قراءة ترجيحية .

(١١٤) جيلوا = جلبوا قراءة ترجيحية .

الحق التى أقولها . فللدفاع ثلاثة وجوه أولها سبب الجريمة ، تطبيق القانون ، العقوبة والطلبات وتقدير المسؤلية .

فأما عن سبب الجرايم فأقول بأن هذه الجريمة المسلسلة إنما كان سببها ظروف ساقها القدر ولم يكن للمتهمين شيء فيها سوى التهييج الوقتى ، فلم يكن هناك سابقة أو إصرار بل السبب أن الجرن احترق وسواء كان احترق قضاء وقدرا أو من الصيد فالفعل واحد والبديهى يصدق عندما يقال به دون توقف للنظر والاستدلال . (محمد عبدالنبى) أكد بأنه لا يمكن أن تطلق[١١٥] على تبن ولا يحترق ، فكان يجب أن يوجد ملك على رأس (محمد عبدالنبى) ـ وهو صاحب الجرن ـ حتى يعلمه أن الحريق كان قضاءً وقدرا ، فالظروف السيئة التى سببت هذه الحادثة المشئومة هى التى كانت السبب فى الجريمة . ومن الظروف السيئة كان المحافظ على الضباط أونباشى بوليس مصرى عديم الذمة والنخوة ، ومن الظروف السيئة أن يكون دليلهم رجلا عديم المروءة ، ومن الظروف السيئة شدة حرارة الشمس فى ذلك اليوم ، والتليفون لم يرسل إلى البلد فى وقت مناسب يمكنهم من الإستعداد ، وحرارة الشمس كانت سببا للمساعدة فى حريق الجرن . ولا استحى أن أقول أن الأهالى أظهروا النذالة وعدم المروءة لأنهم بعد أن استلموا البنادق كان يجب أن لا يبو[١١٦] شيئا ، فكل هذه الظروف تدل على أن الواقعة حصلت بدون قصد أو سبق إصرار . فمن الضرورى أن تكون الحادثة مسبوقة بترتيب ما حتى تكون العقوبة شديدة ، والعقوبة ليست موقوفة على الترتيب . على أن شهادة الضباط تجعلنا نفهم إن أول ما أمسكت البندقية من الضابط (بورثر) شبت النار ، بمعنى أن النار شبت أولا وذهب صاحب الجرن (عبدالنبى) ليطفئها ، فهذا يدل على أنه لم يكن هناك ترتيب سابق ، ويؤخذ ذلك مما ذكره حضرة المدعى العمومى من مجئ[١١٧] (عبدالعال) بأنهم رأوا الدخان . قال

(أما العقوبة فمسلمة لرأى المحكمة المخصوصة من غير القانون ، وأما طلب تطبيق الشريعة الإسلامية أو القانون الإنجليزى فللمحكمة حق التصرف بعدلها إذ أن الشريعة الإسلامية لا تعاقب بالقتل ضاربا أفضى ضربه إلى موت ، وتقييد القاضى بالقانون جعل لمصلحة المتهم ، والمتهمون يقولون أن القانون مرتبط بقواعد عامة قد تتأتى من بعض الطبقات . فنحن نريد أن تطبق المحكمة المخصوصة قانوها الخاص بلا قيد .

(١١٥) تطلق = تطلق النار قراءة اجتهادية ـ أضيفت الكلمة ليستقيم المعنى .

(١١٦) يبو = يبدوا قراءة اجتهادية .

(١١٧) مجىء = قول قراءة اجتهادية .

قال وأما طلباتنا بالنسبة للمتهمين الذين أنا منتدب عنهم فهى ثلاثة أنواع منها نوع خاص وهو (عبدالمنعم محفوظ) وهو معتوه أترك أمره للمحكمة والثانى القباشى[١١٨] والثالث تاجبالى[١١٩] على سليم ونمرة ٤١ و٤٢ ونمرة ٤٣ و ٣٦ و٤٧ و ٤٩ فكلهم من نوع واحد دل[١٢٠] الشهود . والثالث محمد درويش زهران نمرة ٤٨ يتبرأ بلسانى للمحكمة من مسألة الجاموسة . ولكنى أطلب الرحمة به وكذلك نمرة ١٤ يوسف حسين سليم . ولى كلمة عامة بالنسبة للمهتمين جميعا هى أن المسئولية على تعداد طاقة المكلف . وهؤلاء قد نشئوا فى وسط أقل بكثير من وسط الإنسان العاقل ، فخذوهم بعد لكم ولكن ارحموهم فالرحمة فوق العدل . إلى أن قال (إن هذه القضية تنطبق على المواد ٢٠٥ وما بعدها و٢٧١ ، ٢٠٤ . واستند فى ذلك على ما جاء فى شرح شرحارد[١٢١] ورالوز . إلى أن قال انتهى . وأقفلت الجلسة على أن تعود ثانى يوم صباحا .

وعاد القضاة فى صبح اليوم الثالث إلى كراسيهم وغص المكان بالناس وكأن على رؤوسهم الطير . فما هى إلا لحظة حتى صدر حكم غير قابل للطعن وهو مشمول بالنفاذ المؤقت

أولا ـ بالإعدام شنقا فى دنشواى فى محل الحادثة على (حسن على محفوظ) (ويوسف حسين سليم) (والسيد عيسى سالم) (ومحمد درويش زهران) .

ثانيا ـ بالأشغال الشاقة المؤبدة على محمد عبدالنبى المؤذن وأحمد عبدالعال محفوظ .

ثالثا ـ بالأشغال الشاقة خمس عشرة سنة على أحمد محمد السيسى .

رابعا ـ بالأشغال الشاقة سبع سنوات على محمد على سمك وعبده البقلى وعلى شعلان ومحمد مصطفى محفوظ ورسلان السيد وعلى السيسى والعيسوى محمد محفوظ .

---

(١١٨) القباشى = السيسى قراءة اجتهادية ـ أخذتها من استعراض أسماء المتهمين .
(١١٩) تاجبالى لى سليم = يوسف حسين سليم قراءة اجتهادية أخذتها من استعراض أسماء المتهمين .
(١٢٠) دل = كما دل أضيفت الكلمة ليستقيم المعنى .
(١٢١) شرحارد ورالوز = جارد ودالوز قراءة اجتهادية .

خامسا ـ بالحبس سنة مع التشغيل ويجلد كل واحد واحد وخمسين جلدة وأن ينفذ حكم الجلد فى دنشواى ذاتها على حسن إسماعيل السيسى وإبراهيم حسنين الليسى ومحمد السيد على .

سادسا ـ بالجلد خمسين جلدة على السيد البيومى وعزب عمر محفوظ والسيد سليمان خير الله وعبدالهادى حسن شاهين ومحمد أحمد السيسى وينفذ هذا الحكم بدنشواى .

سابعا ـ حكم ببراءة سائر المتهمين الآخرين والإفراج عنهم فورا وعددهم ثلاثين شخصا .

وبعد تلاوة الحكم قام القضاة والمحامين وسافروا من فورهم إلى القاهرة . وخرج الناس وكأن على رؤوسهم الطير من شدة ما ألم بهم من وقع الحكم . وتفشى الخبر فى القرية فارتفع الصياح وعلت أصوات النساء والصبيان بالعويل من كل صوب ودرب . وطافوا القرية وهم على هذا كما يفعلون فى الجنايز . وشاع خبر قيام (عشماوى الجلاد) بالمشنقة إلى دنشواى . وفى رواية أن (عشماوى) صحب القضاة عند قيامهم إلى شبين الكوم ومعه (المستر متشل) مستشار وزارة الداخلية . فلما كان ثامن عشرة يونية سابع جماد الأول وهو الأجل المضروب لتنفيذ الحكم تحركت جميع العساكر الإنجليزية التى كانت مرابطة على مقربة من دنشواى وقامت فجرا وأحاطت بالقرية إحاطة السوار بالمعصم ، ونصب الجلاد المشنقة . وأصبحوا وقد أخرجوا المحكوم عليهم من السجون وأتوا بهم إلى حيث المشنقة خارج القرية ومعهم أربعة من أصحاب المطافىء المكلفون بالجلد . ووقف الجند على صفين بسلاحهم بطول الطريق وقد كبلوا المتهمين بالحديد وحولهم الجند . وكانوا قد نصبوا بساحة الإعدام ثلاث خيم ، واحده لوضع جثث الذين يعدمون وخيمة لوضع جميع المتهمين فيها قبل تنفيذ الأحكام ، والثالثة إلى جانبها لوضع المتهمين المراد جلدهم بعد إنفاذ الجلد . فأدخلوا المتهمين كل فريق منهم إلى الخيمة التى أعدت له . وكان السكوت شاملا والحزن باديا على سائر الوجوه بلا فرق ولا تمييز ، ونساء القرية جميعا خارج القرية وعلى أسطحة البيوت يولولن ويذرفن الدمع بكل تحفظ وخوف . فكان المنظر مريعا جدا تتفطر منه المرائر . ولما كانت الواحدة وخمس عشرة دقيقة أخرجوا المتهمين إلى ساحة الإعدام وقد اصطف حول الساحة جيش من

المشاة الراكبين وهم شاهرون السلاح وورائهم نطاق من الفرسان المصريين ووراءهم الناس من كل طبقة وصنف . وكان مستشار الداخلية ومدير المنوفية فى وسعة الساحة وقوفا ومعهما الطبيب الشرعى وطبيب مركز شبين الكوم . وأحضروا فى هذه اللحظة جماعة من مغسلى الأموات ومعهم قرب الماء وقماش للكفن ودكة للنعش . ولما صارت الساعة الواحدة والخمس وثلاثين دقيقة سكنت الحركة وعم السكون وأحدقت الأبصار . فنودى على أول المتهمين وهو (حسن على محفوظ) فخرج من الخيمة بين جماعة من الجند وهو فى نحو الخامسة والستين من عمره ، فتلا المدير عليه الحكم بالإعدام شنقا فكان الرجل يقول لا إله إلا الله محمد رسول الله الله يخرب بيتك يا (حسن يا شاذلى) ويا (محمد يا عمر) ويا (أحمد يا زايد) . وظل على هذا حتى أصعد إلى المشنقة وسقط لا روح فيه ، فسمع تأوه الناس من كل صوب . ثم أخرجوا ثانيهم (حسن إسماعيل السيسى) وتلى عليه الحكم القاضى بجلده فأخذه أصحاب المطافىء الموكلون بالجلد وربطوه على خشبة ووجهه قبالة المشنقة المعلق عليها (حسن محفوظ) وخلعوا عنه قميصه وجعل الجلاد يضربه بالسوط وهو يستغيث ويتململ حتى الجلدة الثلاثين فسكت وانقطع صوته حتى أتموا جلده وحلوه وأخذوه إلى المكان المعد لهم . وأتوا بعده (بعلى إبراهيم السيسى) فسمع الحكم عليه بالجلد وأخذوه إلى تلك الخشبة ونزعوا عنه قميصه ، وشدوا وثاقه وجلدوه وهو يستغيث ويصرخ حتى أتمو عقوبته وفكوا وثاقه فسقط مغشيا عليه فحملوه إلى المكان المعد له . ثم برز الأمر بإنزال جثة المشنوق ثم جاءوا (بيوسف حسين سليم) فتلا عليه المدير حكم الإعدام شنقا واستلمه الجلاد وشد وثاقه وهو يجاهر بالشهادتين ، ولما وضع الجلاد الحبل فى عنقه صاح اللهم انتقم لى من الظالمين . ثم هوى من المشنقة وفارقت روحه . وجاؤا بعده (بمحمد الغباشى السيد) وتلى عليه حكم الجلد ثم جلدوه حتى أتموا عقوبته وحملوه إلى مكانه . وفى هذه اللحظة أنزلت جثة (حسين محفوظ) فغسلها المغسلون وكفن بكفن أعده له ولده ووضعوه فى نعش . وجاؤا بعده (بالسيد العوفى) وتلى عليه حكم الجلد وأخذوه وجلدوه حتى النهاية فكان يقول أنا فى عرض الأفندى إلى نهاية العقوبة . وجاؤا بعده (بالسيد عيسى سالم) وكان الجلاد قد غير حبل المشنقة . فتلى عليه حكم الإعدام شنقا وتسلمه العشماوى وشد وثاقه فهوى وذهبت روحه . ثم جاؤا (بعزب عمر محفوظ) وتلى عليه الحكم بالجلد

فأخذوه وشدوا وثاقه وجلدوه . وجاؤا بعده (بالسيد سليمان خير الله) وتلى عليه حكم الجلد وشدوا وثاقه وجلدوه حتى أتموا جلده . وبرز الأمر بإنزال جثة المشنوق فأنزلت ثم جاؤا (بمحمد درويش ظهران) الذى رأس هذه الحادثة المحزنة فتلى عليه الحكم بالإعدام فجعل يتألم ويتأوه ويستشهد ، وأخذه الجلاد فشد وثاقه وأصعده إلى المشنقة وهو لا يقدر على الحركة وأظهر من الجبن وخوار العزيمة ما لم يكن يظن فيه . قيل لأنه كان يسمع الحكم عليه بالإعدام فى المحكمة وهو يفتل شاربيه . وأخذه الجلاد فاستشهد وهوى وذهبت روحه ، ثم جلدوا بعده باقى المحكوم عليهم بالجلد . ونفخ فى البوق فسار الجند تباعا وانفض الجمع ولم يبق فى تلك الساحة إلا المشنقة وخيامها .

أقول ـ أشغلت هذه الحادثة البلاد ستة عشر يوما ونال أذاها ثمانية وعشرين نفسا بين قتيل ومشنوق وجريح ومجلود ، وحل مصابها الأليم بأرامل ويتامى وعيال وأطفال وشبان وكهول وشيوخ وعجايز وفتيات . وليس لنا أن ننازع القضاة فى عدالة الحكم لأنهم قد حكموا بوحى ضمائرهم ومن ظروف وأحوال بدت لهم بعد التأمل والروية . ومع ذلك فإنه لم يختلف اثنان فى ذلك الجمع المحتشد فى ذلك الموقف الرهيب فى شدة الحكم وفى تجسيم التهمة وطلب العقوبة بصراحة متناهية ليس بعدها صراحة بلسان محامى مسلم متوطع[١٢٢] فى ذلك أو هو مأجور . على أن الناس قبل الحكم كانوا ينتظرون الرأفة بأولئك التعساء حتى يكون الحكم محاسبة أولئك الجهال على قدر عقولهم أو كذبهم ليس إلا . فلما نفذ القضاء واستحكم البلاء كان له وقع شديد من النفوس . فقالوا إن العدل فى هذا الخطب لم يمزج بالرأفة ولو أن للقاضى العمل بأحدهما دون الآخر أو بالإثنين معا . كانوا يقولون ذلك وأشباهه وأمامهم وخلفهم أصحاب الحزب الوطنى يصيحون وينادون بالويل والثبور والحرب ويرمون كل يد عملت فى تلك العقوبة بالجور والعسف والغرض الممقوت ، حتى لقد كذبوا الشهود وسفهوا شهادتهم ولا سيما شهادة الترجمان وصاحب الشرطة اللذان أنبهما رئيس المحكمة وتأفف من قولهما فامتنع من قبول شهادتهما جملة ، واتخذوا كل ما وقع حجة ودليلا على أن خصوم البلاد يعزون إلى عمل كل فرد من أفرادها حتى المقيمين بمجاهل الأقاليم فعزى[١٢٣] بعيدا وأغراضا سيئة

(١٢٢) متوطع = متنطع أو متواطئ ـ وأميل إلى الأخيرة لإلحاقها بكلمة (فى ذلك) . قراءة اجتهادية .

(١٢٣) فعزى = معزى قراءة اجتهادية .

نحو أصحاب الاحتلال ، ويزعمون أن دليلهم[١٢٤] على روح الأمة كلها لينالوا فى[١٢٥] عرضها واسمها وآدابها وأمانيها فوق ما نالته المشنقة من أعناق القاتلين والسوط من ظهور المعتدين . وعلت صيحة القوم وارتفعت أصواتهم بهذا وأشباهه ، وبلغ الخبر عاصمة الإنجليز فجاءت صحفهم ملأى بحديث (دنشواى) وما حل بجماعة الإنجليز وما أصاب المتهمين من العقوبات وبعضها مصوب لعمل المحكمة المخصوصة وبعضها يقول إن فى الحكم شدة ليست من بعد النظر وحسن السياسة فى شىء . واشتد أصحاب الحزب الوطنى فى حملاتهم المنكرة على لورد كرومر ومستشار الداخلية ، وسير (مصطفى كامل) كتبه فى ذلك إلى أصحابه فى ديار الألمان وإلى الأمير فى مصيفه فى ديار النمساويين وإلى جماعة فى عاصمة الفرنسيس . وتسرب الهرج إلى أصحاب الصحف الوطنية فحذوا حذو أصحاب الحزب الوطنى ودقوا على نغمة واحدة وطلبوا تعيين لجنة مخصوصة تبحث فى محاضر تحقيق الجناية وأدواره وأنحوا باللائمة على مدير إقليم المنوفية ورموه بفساد النيه وسوء الطوية وقالوا أنه صنيعة من شر صنائع أصحاب الإحتلال الذين باعوا الآجلة بالعاجلة وأوقعوا البلاد وأهلها فى هاوية لا قرار لها .

أقول وحدثنى عظيم ممن شيعوا اللورد كرومر يوم سفره إلى عاصمة بلاده قال (رأيت اللورد يشاور (فتحى بك زغلول) ويكلمه همسا (وفتحى) يظهر له الخنوع ويشير بالطاعة وزيادة) ، فترامت بى الظنون إلى أبعد المرامى وقلت فى نفسى (تالله إن وراء هذا ما وراءه إذا لم يحف الله بلطفه (دنشواى) وأهلها ويهدى القضاة سواء السبيل) قال (قلت ذلك وكلنا يعرف (فتحى) أديبا فاضلا رقيق الشمايل ولكنه غفر الله له فخورا طامحا إلى المعالى وارتقاء الخطط والمناصب العالية كثير التقرب لأصحاب المراتب بالثناء والمدح واستحسان كل قول لهم أو عمل) . قال (ولا خفاك أن من كان هذا شأنه التوى عليه الغرض فى الغالب وأقعده الأمل عن أن يسلك النهج الامم[١٢٦] وزهل[١٢٧] عن قصد

(١٢٤) ويزعمون أن دليلهم على روح الأمة كلها = ولو أننى لم أفهم معنى العبارة إلا أنها تدور حول اتهام بريطانيا للشعب المصرى بسوء القصد والكيد ـ قراءة اجتهادية .

(١٢٥) فى = من قراءة ترجيحية .

(١٢٦) الأمم = القويم قراءة اجتهادية .

(١٢٧) وزهل = وحاد قراءة اجتهادية .

السبيل فلا يأمن الميل والافن[١٢٨] والذهاب مع الأغراض . ولقد وطأه لذلك (لورد كرومر) توطئة بما أبداه له يوم الوداع من حسن اللقاء والميزة ، فإنا ما رأيناه يحيى فى ذلك اليوم مودعا كما حيا (فتحى) ولا سلم هاشا كما سلم على (فتحى) فأصاب بعمله هذا مقتلا من مجرمى دنشواى والله على ما أقول شهيد) .

قال (يعرضون تعريض الحد بالتظنن فى رئيس محكمة[١٢٩] ذلك القضاء أنه من أصفياء الإنجليز ، فما أبعدهم وما أضلهم . أما يعلمون أن لا صوت للرئيس إلا مرجحا عند انقسام الآراء متساوية وأن لا صوت له إذا اتحدت الآراء ؛ ومن أين أتى لأولئك الطاغون العلم بتساوى القضاة فى ذلك الحكم الرهيب وكلهم كما تعلم من أهل الإحتلال وبينهم (فتحى) غفر الله له وقد ذهب مع الأغراض واصطبغ بصبغتهم فى ذلك اليوم العصيب . فكان ما كان وبات الأمر فى حكم الماضى وما فات مات والباقى لنا من ذلك العظات) أ هـ

قلت مضى على الإنجليز فى هذه الديار أربع وعشرين سنة وهم يدفعون عنهم كل مظنة الباطل والبغى والظلم وسلوك سبله ، فكانوا يتحببون إلى الناس بالبشر ولين الجانب وتسهيل الحجاب[١٣٠] ، وكانوا إذا رضيوا عن أمر لا يدخلهم رضاهم فى باطل وإذا غضبوا من أمر لا يخرجهم غضبهم عن الحق ، وقد وقعت الفرقة بين الأمير ولورد كرومر وعظم الخلاف وهاج القصر بسماسرة البغى والباطل والتعسف وعظمت المشادة بين الفريقين ، وعاث أصحاب الحزب الوطنى فى البلاد وبثوا دعاتهم يحضون أعيانها وكبارها على الهرج ومناهضة لورد كرومر فى السر والعلن ، فكان إذا وقع شجار بين نفر من زعانف النزلاء وزعر الوطنيين فى إحدى البلاد لسبب من الأسباب التافهة الضئيلة جسم لورد (كرومر) الحادث وأكبره ، وقال إنه فتنة دبرها أهل القصر بإيعاز من الأمير لأمر يريده . وإذا أشار الأمير على جماعة الوزراء فى مجلسهم لإبطال قصد من مقاصد الاحتلال هاج اللورد وأوعد وتهدد حتى لقد قيل إن الأمير موافق على ما بدا من كبار الحزب والملتفين حولهم فى هذه الآونة من الجد فى استنساخ محاضر تحقيق (جناية دنشواى) وترجمتها إلى

(١٢٨) الإفن = استبعدت الكلمة .
(١٢٩) يقصد بطرس غالى .
(١٣٠) الحجاب = الحاجات . قراءة اجتهادية .

الفرنسية وعرضها لنظر رجال دار الندوة الإنجليزية ليعلم أهل النصفة منهم كيف ذهبت تلك الأرواح ضحية أغراض لورد (كرومر)، وكيف بلغ به التعسف والشدة فى الأخذ بتلابيب الحكام وأهل المناصب.

وسافر مصطفى كامل إلى ديار الفرنجة وجعل يطوف عواصمها ويخطب فى أنديتها ومحافلها طاعنا فى سياسة الإنجليز شاكيا من عسف (كرومر) وجوره مفصلا للملأ حادثة(١٣١) وما أريق بسببها من الدماء البرية لغير جناية ثابتة، واستمال جماعة الصحف(١٣٢) فأعانوه على قصده وأزاعوا(١٣٣) شكايته وعابوا على صاحب سياسة الإنجليز عمله. وجاء خبر ذلك إلى القاهرة فلرح(١٣٤) أصحاب الحزب وأزنابهم(١٣٥) وقالوا إن خلع اللورد (كرومر) واقع لا محالة وأن مجرمى دنشواى لغالبون. وعلت صيحة صحفهم وكثرت اجتماعاتهم وظهرت حركتهم وجاءتهم كتب التهانى من كل صوب وبلد فكانوا ينشرونها فى صحفهم تباعا.

وكان لما صدر حكم المحكمة المخصوصة على ما به من تلك الشدة وقد غلب رئيسها على بعد همِّته وعظم إبائه لاتحاد رأى القضاة على ما ثبت وتحقق، كلم الرئيس الأمير فى أمر الفارين من أولئك المجرمين وفى إطلاق سراح المسجونين وكتب محضرا بكل ما جرى فى هذا الحادث الأليم وسير به إلى صاحب السياسة الإنجليزية وسأله ترك محاكمة الفارين وإطلاق سراح المسجونين. فما هى إلا أيام حتى جاء الخبر بإجابة الطلب، فبرز الأمر بتأمين الفارين وعدم التعرض لهم بمكروه والإفراج عن المسجونين. وشاع خبر ذلك وتناقله الناس وتحدثوا به، فزعم أصحاب الحزب وأذنابه إنه من عمل (مصطفى كامل) وأن ما ورائه إلى خلع اللورد (كرومر). واشتد سعيهم فى تنفير القلوب وإيغار الصدور على أصحاب الاحتلال فى السر والعلن، وأهل القصر يعلمون بالأمر

---

(١٣١) حادثة = حادثة دنشواي قراءة ترجيحية.

(١٣٢) الصحف = الصحف الأجنبية قراءة ترجيحية.

(١٣٣) وأزاعوا = وأذاعوا قراءة تصحيحية.

(١٣٤) فلرح = ففرح قراءة ترجيحية.

(١٣٥) وأزنابهم = وأذنابهم قراءة تصحيحية.

ويحبذونه حتى بلغ الجفاء أشده وانقطع حبل الرجاء جملة ، وكان من وراء ذلك ما سيتلى عليك فى محله إن شاء الله[١٣٦] .

لم تكن لتهدأ الخواطر من هول (حادث دنشواى) وتطمئن القلوب الواجفة حتى جاء الخبر من محافظ مدينة الأسكندرية بخروج جماعة من زعر (المكس) على جندى من جيش الاحتلال فى ليلة رابع يوليو من السنة حادى عشر جمادى الأولى سنة أربع وعشرين فى طريقه فضربوه ضربا مبرحا حتى كادت روحه تفارقه . قال وتحرير الخبر أن ذلك الجندى خرج فى منتصف تلك الليلة قاصدا معسكره فى جهة الدخيلة راكبا حمارا . فبينما هو فى طريق المكس خرج عليه سته من الأهلين بين محطة (المكس) (والدخيله) فأوقفوه ثم أنزلوه عن حماره وطرحوه على الأرض عنوة وفتشوا جيوبه . فلم يعثروا على شىء فيها ، فمالوا عليه بالضرب والرفس واللكم ، وقبضوا على عنقه ليقضوا عليه وجرحوه جرحا شديدا تحت السرة وكانوا يريدون القضاء عليه بأن انتزعوا أحد أعضائه وقطعوه إربا . وفيما هم على هذا سمع أحدهم وقع أقدام قادم فنبههم إلى هذا . فتركوا ذلك الجندى وفروا هاربين ، وظل الجندى مطروحا حتى أفاق من غشيته وجعل يزحف حتى وصل إلى معسكره . فنقلوه على الأثر إلى المستشفى العسكرى وخبروا

---

(١٣٦) تعد محاكمة دنشواى فى ١٩٠٦/٦/١٣ والأحكام الصادرة فيها بحق المتهمين ، والقسوة المتناهية التى أخذوا بها على يد قضاة مصريين ، من أقبح وأسوأ الأحكام فى تاريخ القضاء وتاريخ القضاة الذين أصدروا هذه الأحكام .
ولا يفيد (شاروبيم) شيئا مما قاله لإبعاد اللوم عن (بطرس غالى) فقد كان رئيس المحكمة التى أصدرت هذه الأحكام . ولا ينقص شيئا من لومه أن يكون أعضاء فى المحكمة من الإنجليز أو أن (فتحى زغلول) كان قد تم تلقينه الحكم قبل أن يشارك فى إصداره .
ولقد ثبت أن آلة المشنقة قد أحضرت إلى القرية قبل صدور الحكم ، مما يعنى أنه كان معروفا . وقد يجادل مجادل فيقول أن الوجود البريطانى فى مصر كان له من الهيمنة والنفوذ ما يخرس قدرة القضاة المشاركين من المصريين عن إصدار ما تقتضيه الأحوال . وهذا القول مردود ، فقد كان يمكن (لبطرس غالى وفتحى زغلول) أن يرفضا المشاركة ، بل ويستقيلا من هيئة المحكمة ، بل ومن منصبيهما الحكوميين لو أرادا ، وكانا بهذا يتوجان حياتهما بعمل لا ينساه التاريخ لهما . لكنهما لم يفعلا ، وبقى حكم دنشواى نيرا فى رقبة بطرس غالى وعملا لم ينسه له الناس ، وتذكره له (إبراهيم ناصف الوردانى) ، فكان أحد حيثيات حكمه الذى أصدره عليه يوم ١٩١٠/٢/٢٠ .
ويشترك (إبراهيم الهلباوى) محامى الإنجليز فى هذا العمل الفظيع بمرافعته التى أدان فيها المتهمين المصريين وطلب رؤوسهم .
لقد كانت إجراءات المحاكمة وحكمها هذا (مثار سخط عميق فى مصر والخارج . وأذكى هذا السخط ما قام به (مصطفى كامل) من الحملات فى منتديات أوروبا وصحفها منوها بفظاعة الأحكام التي صدرت وشذوذ الإجراءات التى اتبعت وكونها تتنافى وأبسط قواعد المدنية والعدالة والإنسانية) .
ـ أحمد شفيق باشا (مذكراتى فى نصف قرن) ـ الجزء الثانى ـ حوادث سنة ١٩٠٦ - ص ١٠٠ - ١٠١ .

الخبر بما جرى إلى محافظ المدينة وصاحب الشرطة . فأكبر الأمر وقبضوا على صاحب الحمار الذى كان الجندى يركبه وعلى جماعة من المتشردين الذين لا مأوى لهم إلا مصاطب القهاوى ومكامن الفجور ، وبرز الأمر بتسليمهم إلى محكمة الجنايات . وما هى إلا عشية وضحاها حتى قبضوا على المجرمين الأصليين وحاكموهم بأشد العقوبات . وشاع خبر ذلك فاطمأن الناس وذهبت عنهم تلك المخاوف .

وجاءت بعد ذلك صحف الإنجليز ملأى بآيات الطعن والتهديد وكلها يقول إن التعصب الدينى ضد الاحتلال وأصحابه قد بدا بسائر معانيه ، وأن اليد التى تحرك هذا الشر الجسيم قادرة قوية إذا تركت وشأنها لا تلبث أن تقلب كل نظام أحدثه الإنجليز فى مدى الأربعة وعشرين سنة رأسا على عقب . وقام صاحب سياتهم فى دار ندوتهم يقول إن ذلك التعصب أصبح عاما شره مستطيرا فلابد من إيقافه عند حده ، ولابد من مراقبة أصحاب الصحف الداعية إلى الجامعة الإسلامية العاملة على إعلاء منار الإسلام بكل وسائل التخريب والدمار . ثم برز الأمر إلى حامية (جزيرة مالطة) وحامية (جبل طارق) بأن يكونوا على أهبة السفر إلى مصر . قالوا لأن الطبقة المتعلمة من المصريين تميل ميلا أكيدا إلى جعل مصر تابعة لدار السلطنة العثمانية بمعنى التابعية الصحيحة ، أو أن تكون للمصريين أنفسهم لا لغيرهم .

وجعل لورد كرومر يتحدث بهذا وأشباهه مع وكلاء الدول وكل زائر ومقيم ، ويتعرض بذكر الأمير وحاشيته وبطانته واللاصقين بالقصر من أصحاب السعايات وأهل الوشايات ولا سيما مصطفى كامل وأذنابه . حتى لقد شاع أن جماعة الإنجليز إنما يريدون بهذه الصيحة العالية تسليم مقاليد المديريات والمحافظات إلى أصحاب المناصب منهم وإضعاف نفوذ المصريين جملة .

وشاع الخبر أن قد اتفق جماعة من وجهاء وأعيان البلاد على تعضيد سياسة المحتلين بإصدار جريدة يومية تدعو الناس إلى الحق والنصفة وتقدير أعمال الإنجليز حق قدرها منذ احتلالهم ، وأن يقلعوا عن الإلتفات إلى ترهات أصحاب النيات الفاسدة والغايات السافلة ، ويعرضوا عن دعاة الباطل الذين لا يريدون بالبلاد إلا كل شر مقيم . يقال أشار بذلك لورد (كرومر) ورسم به إلى (فتحى زغلول) وقيل إلى آخرين من أعضاء

شورى البلاد . فشكلوا منهم مساهمين وفرضوا على أنفسهم قدرا من المال لا ينقص عن الخمسة وعشرين ألفا ذهبا وقننوا لهم قانونا وأقاموا منهم أعضاء مجلس إدارة ثم سموا الصحيفة باسم (الجريدة) . وأقاموا (أحمد لطفى بك السيد) المحامى مديرا لها ، وجعلوا يسعون فى جمع ذلك القدر من المال بالاكتتاب . فكان الاكتتاب بطيئا والمتحصل قليلا والرغبة فى هذا الأمر ضعيفة حتى كادوا يفشلون . وتأخر ظهور الجريدة أياما كثيرة كان خصوم القوم يذيعون فى خلالها روايات وأقاصيص لا(١٣٧) أنزل الله بها من سلطان . وانصرفت همة القوم إلى جمع ذلك القدر من المال فأفلحوا قليلا ، وظهرت الجريدة فى عالم الصحافة ، فكانت تستقى أخبارها من موارد دار الوكالة الإنجليزية ، ولذلك نهجت النهج القويم وسلكت مسالك التعقل والرزانة وقامت تنصح للناس بالخلود إلى السكينة وترك كامن الحقود التى بعثتها فيهم صغائر الأمور وكبائر المخالفة ، وكشفت للمحتلين عجز وجوه المنافسة والحسد . فأكبر أصحاب صحف الحزب الوطنى أمرها وأعظموا سعايتها وسلطوا عليها بأس انتقامهم ولكنهم لم ينالوا منها مأربا وظلت على شأنها ما أراد أصحابها والقائمون بنفقتها .

وجاء الخبر فى أخريات يوليو من السنة إلى وزارة الحرب وديوان الوزارة بوقوع القتال بين جماعة السود ونفر من قبيلة (الهدندوه) . قالوا وتحرير الخبر إن السودانيين بنوا لهم قرية على بعد فرسخين من ميناء السودان وحفروا آبارا وأقاموا بها ، فجاء يوما نفر من (الهدندوة) يستقون فمنعهم غفير القرية ورشقهم بالحجارة ، فذهبوا وأخبروا قومهم بما حل بهم . فاجتمعوا جمعا كبيرا وجاءوا إلى القرية ومعهم السيوف والهراوات ، فخرج عليهم السود واشتبك القتال ووقع الضرب والطعن . وجاءت النساء من كل صوب وحدب وعلا الصياح واشتد القتال وحمى وطيسه ونساء كل طرف يدفعن رجالهن إلى اقتحام القتال والضرب والنزال . وظلوا على هذا ساعة حتى جاء الصايح إلى محافظ البلد ، فقام من فوره ومعه صاحب الشرطة وفرق الجماهير ومنع الاقتتال . وكان قد جرح خمسة وعشرون من السود وستة من الهدندوه . فقبضوا على اثنين وخمسين(١٣٨) الهدندويين وثلاثة وعشرين من السودانيين وساقوهم للمحاكمة ، ونقلوا المصابين إلى المستشفى

(١٣٧) لا = ما قراءة ترجيحية .

(١٣٨) اثنين وخمسين = اثنين وخمسين من أضيفت الكلمة ليستقيم المعنى .

وبعضهم على شفا جرف الموت . ثم حكموا على ثلاثة وعشرين من المتشاجرين بالحبس مع التشغيل . وقد كان أصحاب الحل والعقد يخشون تفشى الهرج فى القبائل ونزوعهم إلى الثورة . وجاء الخبر بما جرى فزال الخوف بزوال أسبابه .

وشاع خبر عزم وزارة الحرب على توسيع قناة (اشتوم الجميل) وجعلها صالحة لمرور السفن الكبيرة . وقال أصحاب الصحف المحازبة للحزب الوطنى إن هذا من عمل الإنجليز حتى لا يعيقهم عن أغراضهم فى جوف البلاد عائق ، وتكلموا فى ذلك كثيرا وترامو فى أمره إلى أقصى المرامى وأعصاها والأمر على خلاف ما يتوقعون . ذلك إن القناة التى يشتغلون بحفرها فى هذه الأونة هى واقعة فى منتصف الطريق بين العريش ومدينة بور سعيد فى بقعة يقال لها (القلس) وتعرف (ببوغاز البردويل) وتبعد عن العريش مسيرة يوم للمُجِد الراكب ، وتلك النقطة معدة لصيد السمك ، والقناة التى يشيعون خبر حفرها ويبنون عليه العلالى ليست بالشىء الجديد بل هم يحرفونها[١٣٩] فى كل عام وعرضها لا يتجاوز الماية متر ، وحفرها إنما هو لإيصال مياه البحر الأبيض إلى بحيرة بغاز استيم[١٤٠] البرداويل وتوالد الأسماك فيها . على أنها إذا تركت سنة بغير حفر انقطع وصول مياه البحر إلى البحيرة فتهلك أسماكها وتجف ماؤها ويهجر شواطئها الصيادون . فهم لذلك يتعهدونها بالحفر والتطهير فى كل عام فى يوم معهود ، وليس فى حفرها شىء من المقاصد السياسية والغايات الحربية كما يشيعون . وما كادت القلوب تطمئن من حادثة تعدى أهل دنشواى على جماعة الضباط من جيش الاحتلال وما جرته على البلاد من عظائم الأمور حتى قام ثلاثة من زعانف السوريين المحتمين بالحماية اليونانية فى ليلة ثالث سبتمبر من السنة رابع عشر رجب سنة ثلاث وعشرين على ضابطين من ضباط الجيش الإنجليزى وأوسعاهما ضربا مبرحا فى الميدان المعروف (بميدان التياترو) . فجاء أصحاب الشرطة مسرعين وأرادوا القبض على أولئك الزعانف . فمالوا على أصحاب الشرطة بالضرب واللكم والرفس ، فقبضوا عليهم وساقوهم عنوة إلى القسم . فأخذ ضابط القسم بكتابة المحضر بما وقع . فمال عليه أحدهم وأخذ المحضر ومزقه

---

(١٣٩) يحرفونها = يحفرونها قراءة ترجيحية .

(١٤٠) استيم البرداويل = اشتوم البردويل قراءة اجتهادية .

وانحنى عليه بالسب والشتم وفحش القول ، وهجم ثانيهم على مكتبة الضابط فقلبها وأمسك ثالثهم بتلابيب أحد الشرطة وأوسعه لكما . واشتدت الحركة داخل القسم واجتمعت العامة وكثير من السوقة واقتحموا القسم يريدون الفتك بأولئك الزعر لتعديهم على ضابط القسم وجماعة الشرطة وعلت أصواتهم بالشتم والتقبيح . فمنعهم الضابط من عمل شىء وأمر الجند بإدخال أولئك الزعر إلى السجن فأدخلوهم قهرا . فما هم أن أغلقوا الباب دونهم حتى قام أحدهم إلى أنبوبة الغاز التى تنير السجن فكسرها فالتهب الغاز داخل السجن وكادت النار تعلق بسائر غرف السجن . وجاء أصحاب المطافىء فتداركوا الخطر واحتشد الناس خارج القسم ينادون بالويل والحرب وكثر صياحهم واشتد هرجهم . وجاء صاحب الشرطة ومحافظ المدينة واهتموا بالحادث اهتماما عظيما . وظن الناس قيام الثورة وخروج العامة فأغلق أصحاب الحوانيت حوانيتهم وهرع الناس إلى بيوتهم يريدون الاختفاء من وجه العامة . وخرج صاحب الشرطة يطيب خواطر المجتمعين ويصرفهم بالتى هى أحسن فانصرفوا بعد عناء كثير . وأصبحوا وقد سلموا اثنين من أولئك الزعانف إلى قنصل (دولة اليونان) لثبوت حمايتها ، وثالثهم إلى القضاء حيث ظهر أنه من رعايا الحكومة . ولما كان الخطب عظيما ونتيجته سيئة للغاية حاكم القنصل الإثنان فى محكمة مخصوصة . فحكم بسجنهما فى (قلعة الجبل) عشرين يوما ثم ينفيان من القطر المصرى مكبلين بالحديد . وقد أخذت منهما الحماية اليونانية . وأشاعوا خبر هذا الحكم فهدأت الخواطر وسكن غيظ العامة بعد أن كان قد بلغ أشده . وقابل قنصل جنرال اليونان (الرئيس مصطفى فهمى باشا) معتذرا عما كان ، وكذلك قابل قائد جيش الاحتلال والنائب عن لورد كرومر معتذرا . واتفق أن وصلت إلى القاهرة فرقة من العساكر الإنجليزية قادمة من الأسكندرية مشيا على الأقدام . وعلم العامة بخبر مقدمها فأخذتهم الطيرة وتولاهم الذعر وظنوا أنهم آتون للانتقام من الأهلين بسبب ما وقع من أولئك الجهلاء . وكثر تساؤلهم حتى علموا بالحقيقة وزال عنهم ذلك الذعر العظيم . يقال وهذه الورطة هى التى كانت سببا فى وقوع (حادثة دنشواى) .

وحدث أن جاء إلى ميناء بور سعيد سفينة عثمانية نقالة وعليها جماعة من العساكر السلطانية وجهتهم (اليمن) لقتال الخوارج من الشقة اليمانية على السلطنة العثمانية . فلما ألقت مرساها باتت ليلتها تلك وأصبحت وقد أمر قبطانها بالمسير . فوقف فى وجهه نفر من العسكر وقالوا لا نريد السفر إلى (اليمن) ولا بد من العودة إلى بلادنا أو أن ننزل هنا . فوبخهم الضباط وعذروهم ، فقام سائر من بالمركب من العسكر قومة رجل واحد ووقع بينهم وبين ضباطهم من اللكم والضرب ثم الوخز والطعن فقتل ستة من الضباط وجرح مائة من الجنود ، وألقى جماعة من الضباط بأنفسهم إلى البحر وقتل قبطان الباخرة طعنا بالحراب . وكان كل ما فى تلك الباخرة من العساكر لا يتجاوز الألف وهم خليط من الترك والشوام . وهؤلاء قد كانوا بين العساكر الذين يقاتلون الخوارج (باليمن) فهربوا من الجيش فقبضوا عليهم واستاقوهم ثانية إلى حومة الوغى . فلما وصلت بهم الباخرة إلى بور سعيد تمردوا وأبوا الذهاب إلى (اليمن) . وسير مقدمهم إلى محافظ البلد فى طلب النجدة ، فجاءه صاحب الشرطة فى نفر من رجاله وأحاطوا بالمتمردين ، وجعل صاحب الشرطة ينصحهم ويستميلهم إلى طاعة سلطانهم ، فشكوا له من سوء معاملة العساكر الترك لهم وعدم عناية الضباط الترك بهم فى المأكل والمشرب والملبس كما يعتنون بالعساكر الترك ، وأقسموا أنهم يموتون عن آخرهم ولا يرافقون تلك الطغمه القاسية . وأرسل مقدم أولئك الجند خبر ما جرى إلى دار السلطنة العثمانية ولبث ينتظر الأمر . فبينما هو على هذا إذ ظهرت الحمى التيفودية بين الجنود بشدة بالغة فمات منهم جماعة كثيرة . فجاء الأمر إلى محافظ البلد بضرب الحجر الصحى عليها وعدم اقتراب أحد منها . فضرب حولها نطاقا شديدا ومنعوا من دنو أحد منها والموات يفعل بهم فعله الذريع . وجاءت من الأسكندرية سفينة من سفن الحرب الإنجليزية ووقفت فى مدخل البوغاز تخفر الباخرة العثمانية وتهدد من بها من الجنود إذا عادوا إلى الهرج . وجاء أيضا من القاهرة ثلاث مئة من العساكر المصرية ، واهتم جماعة الإنجليز لهذا الحادث اهتماما عظيما . فلما كان ثانى عشرة سبتمبر من السنة رابع شعبان سنة أربع وعشرين وصلت إلى الميناء باخرة أخرى عثمانية تحمل الأوامر من من السر عسكرية بنقل العساكر الشامية إلى الحديدة وإبقاء العساكر التركية بالباخرة التى هم بها والتفريق بين الباخرتين . فقام (قدرى بك) وكيل إدارة السوقيات الشاهانية وقابل محافظ المدينة وأبلغه خبر ما ورد به

الأمر وأنه يطلب المساعدة على نقل العساكر الشامية إلى الباخرة التى جاءت لهذا الغرض . فسير المحافظ قوة من الجند المصرى أحاطت بالباخرة وأنزلت السفينة الإنجليزية طائفة من عسكرها فأحاطت كذلك بالباخرتين وبرز الأمر للشامين بالنزول إلى الباخرة التى قدمت لركوبهم . فلما رأوا ما حولهم من الجنود لم يقاوموا نزلوا إلى ظهر تلك الباخرة وهم يتوعدون ويهددون . وكان على ظهرها ضابط من كبار الشاميين قد جاء ليرافقهم إلى الحديدة . ثم سارت الباخرة بهم إلى السويس كما سارت الباخرة الأولى بالترك أيضا . ولا يعلم ماذا جرى بينهما بعد ذلك . حدثنى صديق ممن يخالطون جماعة الإنجليز قال (دخلت الباخرة (عسير) التى كانت تقل الجنود العثمانية القنال ولم يكن الإنجليز يحسبون لدخولها حسابا وكانوا يظنون أن شأنها شأن كل باخرة ونقالة تجتاز القناة . فلما بلغهم خبر قيام الفتنة بين جندها واقتتالهم ظنوا أنهم إنما يريدون بالقناة شرا أو أنهم مرسلين لغرض آخر بعد أن فاز وتغلب صاحب سياستهم على رجال (المابين) فى (حادثة العقبة) . فاهتموا للأمر اهتماما عظيما جدا وسيروا إحدى سفنهم إلى رأس القناة . وطيروا الخبر إلى الآفاق فبرز أمر صاحب سياستهم إلى (جزيرة مالطة) بجعل بعض سفن الحرب الكبار على أهبة السفر إلى بور سعيد عند أول إشارة ترد عليهم . وجاء جماعة من مقدمى جندهم من الأسكندرية والقاهرة يراقبون عن كثب حتى أقلعت الباخرتان إلى السويس وزال بزوالهما ما كانوا يتوقعونه من الخطر على القناة أ . هـ .

أقول وإلى هذا الحين كانت قد انقضت (حادثة العقبة) وتم تحديد التخوم بين السلطنة العثمانية والحكومة المصرية وذللت السياسة الإنجليزية كل ما يتخلل حل هذه الأزمة من المصاعب . فما هى إلا أيام بعد هذا الفوز العظيم حتى رأى جماعة الإنجليز أن الفرصة سانحة إلى احتلال (الحجرية) . فزحفت طائفة من عسكرهم من (لحج) إلى (الحجرية) وهى (قايمامية)[١٤١] تابعة (لولاية اليمن) واحتلتها وبسطت النفوذ الإنجليزى عليها من أقصاها إلى أقصاها . وأنشأوا خمسة مراصد ما بين (لحج) وبينها ، وأقاموا فى

(١٤١) قايمامية = قائمقامية ـ وحدة إدارية فى التقسيمات الإدارية العثمانية خلال القرنين التاسع عشر والعشرين (قائمقامية ـ سنجق ـ ولاية ـ متصرفية) .. إلخ .
ـ جيمس ردحاوص الإنكليزى (لغت كتابى ـ معانى لهجة) ـ مرجع سبق ذكره ـ مواضع متفرقة .

كل منها حامية من العرب ورتبوا لهم الجماكى والمرتبات ، وأقاموا (صالح بن أحمد) أحد أقرباء الوالى المعين من قبل السلطان أميرا عليها . وقد كان (القائمقام)[١٤٢] مات بصنعاء . ثم رأوا أن يعززوا احتلالهم (للحجرية) فمدوا فيها بعض الخطوط الحديدية وخطوط التلغراف وعينوا (لأمير الحجرية) راتبا يقبضه من (حاكم عدن) . واشتد قلق الأهالى وخوفهم من فعال الإنجليز وظهرت بينهم بوادر الحركة فمنعهم (فيضى باشا) مندوب الباب العالى هناك من ذلك وأمرهم بالتزام السكينة ، وقال لهم إن أمر ما وقع من الإنجليز يتعلق (بالباب العالى) وكل أمر يقع منكم يعد تهديدا للإنجليز ولا قبل لنا على مقاومة القوم وأنتم ترون منهم فى كل يوم حولا وقوة جديدة ، فالخلود إلى السكينة فيه السلامة . قال الراوى فسكن جأش القوم وتثلجت قلوبهم ومدح الإنجليز (فيضى باشا) وأثنوا عليه وهو من الميالين للإنجليز والمحبذين لسياستهم . أقول وإذا تتبعنا أعمال الإنجليز فى ذلك الصقع البعيد نرى أنهم قد فعلوا فى احتلال (الحجرية) ما فعلوه فى احتلال غيرها من بلاد الشقة اليمانية . فإنهم لما بدا لهم احتلال (الظالع) جعلوا يتقدمون إليها خطوة فخطوة حتى احتلوها ونادوا بتابعيتها لسلطنتهم ، فلم ينتبه (الباب العالى) من غفلته إلا وقد قضى الأمر وباتت تلك الأنحاء الشاسعة فى حيازتهم وشقة من أملاك سلطنتهم المترامية فتأمل كيف تكون السياسات الحكيمة .

ومن غرايب ما وقع فى هذه الآونة أنه جاء من عاصمة (اليونان) على جناح البرق خبر إلى محافظ الأسكندرية بأن قد قام على إحدى السفن الشراعية ثلاثة من اليونانيين ومعهم أربعة أطفال ممن تعلموا من (الكربة)[١٤٣] والشحاتة على أيدى أولئك العلوج[١٤٤] . فبرز أمر المحافظ بمراقبة سائر السفن القادمة وتفتيشها ففعلوا أياما . ثم عاد الخبر ثانية بأنهم قبضوا فى عاصمة اليونان على أولئك العلوج الثلاثة والأطفال الذين معهم وأن (حكومة اليونان) كانت تعلم منذ زمن بعيد أن أولئك القوم يديرون مدرسة لتعليم الشحاتة ولكنها لم تهتد إلى مكانها حتى علمت بعزمهم على السفر إلى

(١٤٢) أى حاكم الوحدة الإدارية (القائمقامية) .

(١٤٣) الكربة = استبعدت الكلمة لإمكان فهم الأمر من سياق الكلام .

(١٤٤) العلوج = العِلج كل جاف شديد من الرجال ، وجمعها علوج
ـ المعجم الوجيز ـ مرجع سبق ذكره . ص ٤٣٠ .

الأسكندرية بأولئك الأربعة أطفال فاهتمت لذلك كثيرا ، فسعوا فى طلبهم حتى أدركوهم وقبضوا عليهم . قلت والكدية[١٤٥] وخطف الأطفال لتعليمهم هذه المهنة الشائنة المعيبة فتفشى[١٤٦] فى ديار مصر إذ لا يمر يوما حتى ترى رجال الشرطة دائبين على مطاردة الشحاذين أو تعقب الخاطفين منهم لأولاد الناس واقتفاء آثارهم فى شاسع البلاد . وإذا ساروا فى الشوارع يتسولون ذكورا وإناثا تراهم يحملون الأطفال الصغار ويتسولون باسمهم ولأجلهم كأن هؤلاء الأطفال لا يكبرون ولا ينمون . وما أذكره أنى اعتدت أن أرى فى ساعة معينة فى مكان معروف رجلا فى أطمار رثة يحمل طفلا على ذراعه ويقود طفلا بيده ، وقد مرت ثلاث سنوات والرجل على شأنه والطفلين على حالهما ، فخطر لى يوما أن انهدر[١٤٧] الرجل بصاحب الشرطة وأن أتهمه باستئجار الأطفال للشحاذة . فذعر الرجل وخاف وجعل يتوسل إلى حتى لا يفتضح أمره وأقسم أنه لا يعود إلى هذه الخطة ما دام حيا فتركته . ولقد باتت هذه الحرفة الشاملة[١٤٨] حرفة كثيرين من الناس على طرق وأشكال مختلفة حتى إن أصحاب العاهات لا يرضون الإقامة فى التكايا التى أنشأتها وزارة الأوقاف العمومية ويخرجون للشحاذة فى عرض الطرق والحارات . ولا أدرى لماذا يهمل صاحب الشرطة منع الشحاذة دون رخصة منه كما هو الحال فى بعض البلاد الأجنبية فيستريح الناس من مزاحمة هؤلاء القوم لهم فى كل زمان ومكان .

ومرت فى هذا الحين بقناة السويس عائلة من عيال أشراف المجوس فى ديار الهند وهى مؤلفة من خمسة عشر نفسا وكاهنها وطبيبتها وخدمها . ورب هذه العائلة حائز للقب - سير - الذى هو من ألقاب الشرف عند الإنجليز ويقال له (السير دنشومبتى) . فاهتم لمرور هذه العائلة بالقناة كبار الإنجليز واحتفلوا بها احتفالا عظيما وأرسلوا رسائل التهانى لعميدها . وقابله محافظ السويس باسم الحكومة المصرية ورفع إليه مراسيم التحية والتكريم . أقول تسمى هذه الطائفة عند الفرنجة باسم (باريس) لأنها من أصل فارسى والفرس يهرفون[١٤٩] عندهم (ببرس) . وتاريخ هؤلاء القوم أنهم هاجروا من (إيران) عند

---

(١٤٥) الكدية = لم أجد للكلمة معنى يتفق والرواية فاستبعدتها .

(١٤٦) فتفشى = متفشى قراءة ترجيحية .

(١٤٧) انهدر = أنذر قراءة اجتهادية .

(١٤٨) الشاملة = الشائنة قراءة اجتهادية .

(١٤٩) يهرفون = يعرفون قراءة اجتهادية .

دخول الإسلام فى ديار الفرس وانتشاره على ربوعها ونزلوا غرب (بلاد الهند) حيث أخذوا التجارة والصناعة مهنة لهم . فهم الآن أشهر تجار تلك الأطراف وأبرع الصناع فيها ونبيهم (زرادشت)[١٥٠] من (أذربيجان) وله كتاب سماه (بزندا فستا) والعامة يسمونه (الزمزمه) والمجوس يسمونه (نسياه) ومعناها (الكلمة الحية) . وقد أظهر كتابه هذا بعد انقطاعه فى كهوف الجبال حينا من الدهر . ويقول جماعة الفرس أنه شاهد الله (هرمز) وكلمه وجها لوجه فأنزل عليه دينه الذى يلقبه لأحد ملوكهم (كشناسب) فى (بلخ) . يقال وأساس تعاليمه أن الله مبدأ الخير (وأهرمن) مبدأ الشر ، وأن الزمان غير المحدود فوق المعبودين السابقين فى القدرة والمنزلة . ودعا الناس لعبادة النار ووضع لعبادتهم قوانين فى واحد وعشرين مجلدا فقد بعضها الآن ، وقال بالثواب والعقاب . ويقول أتباعه وأشياعه أنه أتى العجائب الخارقات واستمل[١٥١] فى كتبه ستين حرفا لا يمكن لأحد إدراك كنهها ولكنه أورد لها تفسيرا وعلق على التفسير شرحا وكانت نبوته زهاء خمس وثلاثين سنة .

يقال أن عدد أتباعه فى الهند تسعين ألفا منهم نحو عشرة آلاف فى (يزد) (وكرمان) من أعمال (إيران) وهم منتشرون فى سواحل (الصين) (واليابان) (وزنجبار) (وعمان) وفى (ليفربول) (ولوندره) . وقد امتازوا بالتجارة كما امتازوا بالمحافظة من أهل دينهم على

(١٥٠) الزرادشتية Zoroastrianism هى الديانة التى نسبت إلى النبى (زورواستر) Zoroaster ، والتى حلت محل ديانة الشرك الإيرانية خلال القرنين السابع والسادس قبل الميلاد . تذكر التواريخ أن (زورواستر) قد وجد حوالى ٦٢٨ - ٥٥١ ق . م . وإن كانت هناك آراء تقول بوجوده قبل تلك الفترة . وتقول الشواهد اللغوية أنه ولد فى شمال شرق إيران ثم انتشرت رسالته عبر الإمبراطورية الفارسية . اعتنق ملوك الفرس هذه الديانة الجديدة (الزرادشتية) ثم اتخذت منها الإمبراطورية الأخمينية Achamenid (٥٤٩ - ٣٣٠ ق . م) ديانة رسمية لها ثم ازدهرت فى العهود التالية (البارثيين) Parthians ، (والساسانيين) . وتقول بعض المصادر أن فكر الزرادشتية اللاهوتى وعالميتها كان لهما أثر فى تطور الفكر اليونانى واليهودى فيما بعد ، والمسيحى ، والإسلامى . كان الفتح الإسلامى فى عام ٦٤٢م وهزيمة الساسانيين فى (نهاوند) هو نهاية الزرادشتية التى اضطر اتباعها ـ نتيجة للاضطهاد إلى الهجرة فى حوالى القرن العاشر إلى الهند حيث أسسوا مجتمعهم (البارسى) Parsis فى (بومباى) ومجاوراتها . حافظ (البارسيون) على كل معتقدات وعادات أسلافهم الزرادشتيون ، ومن أهمها تحريم العناصر المقدسة فى نظرهم (كالنار) (الماء) و(التربة) ، ولذلك فأنهم يتعرضون للأمراض بسبب عدم استخدامهم للماء فى النظافة . يحكم حياة (الباريسيين) شعائر وتضحيات تتصل بكل مظاهر الحياة من الميلاد إلى الموت ويمارسون تعاليم (زورواستر) الأخلاقية بكل دقة . ينظر الباريسيون إلى الموت باعتباره التلوث النهائى ويرفضون أن يدنسوا الأرض بالدفن . وبدلا من ذلك فإنهم يتركون الجسد معرضا فوق برج غير مغطى يسمى دخمه (dokhma) حتى تلتهمه الطيور الجارحة .

الباريسيون Parsis مجتمع مغلق ولا يسمح بالزواج المختلط أو الإهتداء بعقائد أخرى ، ويعرفون بثرائهم وكرمهم ـ ويبلغ تعدادهم وفق هذا المصدر ١٣٠,٠٠٠ .

- Lexicon Universal Encyclopedia - Vol. 15 - p., 98; 17 - p., 83; Vol 20 - pp., 379 - 380

(١٥١) واستمل = واستعمل قراءة ترجيحية .

عبادة الحقيقة وعلى الفقه وحب العيال والعمل بالماء والنار فظهر عندهم كل الأدران والأوساخ . وعندهم أن المرأة كالرجل فى عمل كل شىء فمنهم الكاتبات المشهورات والطبيبات والعالمات . ومن هذه الطائفة قد انتخبوا النائب عنهم فى دار الندوة الإنجليزية .

ومن عاداتهم أنه إذا أخطأ أحدهم فلا يتعاطى عملا حتى يطهر من خطيئته إما بغسل اليدين والرجلين والوجه وإما بغسل ساير الجسم بماء مشوب ببول البقر ، وإما بالغسل والتطهير ليالى متوالية إذا كان الجرم كبيرا . وإذا ولد له طفلا غسلوه بمزيج معروف عندهم . وإذا بلغ الثالثة من عمره قدموه للإله وأعلنوا رشده فى الرابعة عشرة . والزواج عندهم إجبارى ويحق للفتاة أن تطلب الزواج . وعندهم الزواج على خمسة أشكال ، ولا يحل للرجل أن يتزوج بامرأتين كما لا يحل له الطلاق بعد الزواج ، وإذا كانت الزوجة عاقرا صح له أن يتزوج بأخرى بشرط رضاء الأولى واختيارها . وإذا مات الواحد منهم أتوا بعد موته بكلب ينظر إلى الجثة لاعتقادهم أن هذا يطرد الشيطان والفساد ، ثم يلقون على الجثة أخلق ثوب ويضعونها عرضة للنسور لتأكلها فإذا لم يبق منها إلا العظم جمعوه وألقوه فى إحدى الآبار . فتأمل كيف تكون العقائد والأديان .

وكان إلى هذا الحين لم ينحسم الخلاف القائم ما بين الإنجليز والفرنسيس والألمان بشأن سلطنة (بورنو)[١٥٢] الواقعة فى أواسط أفريقية ، وكان كل منهم يدعى حق السلطة

---

(١٥٢) يطلق اسم (كانم بورنو) Kanem - Bornu على الأقاليم المحيطة ببحيرة (تشاد) (يدخل فى ذلك نيجيريا الحديثة ، النيجر ، تشاد ، والكاميرون) . حكمت الكانم بورنو فى الفترة ٨٠٠ - ١٨٤٦ بمعرفة ملوك السيفوا Se-fuwa الذين كانوا من الرعاة المحاربين أصلا والقادمين من الصحراء ، لكنهم حكموا شعوبا كثيرة من المزارعين . فى القرن الحادى عشر تحول أحد ملوك (بورنو) المسمى (حوماى) إلى الإسلام ، واعتمد خلفاؤه من بعده على الموظفين المسلمين لتنظيم تجارة دولتهم ذات المسافات البعيدة عبر الصحراء .
أقيمت الدولة وتمركزت فى الأصل على الأرض الزراعية (للكانم) وهى المنطقة الواقعة شمال شرقى (بحيرة تشاد) ، لكن هجمات الرعاة الصحراويين أدت إلى هجرة (السيفوا) إلى (بورنو) حيث أقاموا عاصمتهم على الشاطئ الجنوبى الغربى للبحيرة فى القرن الرابع عشر . وظهرت اللغة (الكانورية) وثقافتها فى موقعهم الجديد . فى القرن السادس عشر شهدت (كانم بورنو) حركة إحياء للقوة وامتدت أراضيها إلى مدن (الهوسا) فى اتجاه الغرب . هددت ثورات (الفولانى) الإسلامية (العرش السيفوى) لكن الوزير (الكانمى) المتوفى ١٨٣٥ أنقذ هذا العرش حتى انتهت هذه الأسرة فى ١٨٤٦ ، ثم سقطت الدولة كلها فى يد الفاتح السودانى (رابح الزبير) . فى ١٨٩٨ قسمت (كانم - بورنو) بين بريطانيا وفرنسا وألمانيا فى إطار التوسع الاستعمارى .
- Lexicon Universal Encyclopedia - Vol., 12 - pp., 14 - 15
وعن رابح الزبير (١٨٤٦ - ١٩٠٠) انظر القسم الثانى من الجزء الخامس من (الكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث) لميخائيل شاروبيم ـ تحقيق عبدالوهاب بكر ـ ص ٦٢٤ - حاشية ٥٧ .

على تلك السلطنة الواسعة . فظل الحال بينهم على هذا حينا حتى شهر أكتوبر من السنة شهر رمضان سنة أربع وعشرين ثم[١٥٣] الاتفاق بينهم على تقسيمها إلى ثلاثة أقسام الأول منهم للإنجليز وجعلوا عاصمته (كوكا) وولوا عليه (حورانى أبو بكر بن إبراهيم الشيخ) وأقعدوا به حامية من السود عددها أربعين وعلى رأسها ضابطا من المصريين ، والثانى للألمان وولوا عليه ملكا (عمر ابن أبى بكر) وجعلوا حاميته من أبناء البلاد المنظمين جدا ، والثالث وهو أكبر الأقسام الثلاثة ويمتد من (دامجرام) حتى (أندر) وولوا عليه (أحمد ابن تميموا ملكا) ، وسيدخل الفرنسيس (يلما) عاجلا . وعلى (يلما) هذه عامل من قبل والى (طرابلس الغرب) ومعه طائفة قليلة من العساكر الوطنية . ويقول السودانيين أن (يلما) تابعة لسلطان (والدركيك) (سيدى عبدالقادر السنوسى) ، (والسيد السنوسى) يعترف لدار السلطنة بالسيادة على بلاده ويحمل للخزينة السلطانية مالا شبه خراج لعامل (واحة يلما) وهذا بمثابة اعتراف منه بتابعية بلاده إلى ولاية طرابلس الغرب .

ولما جاء الفرنسيس إلى (واحة جانيت) فى مايتين من المقاتله والحمالين وجدوا العلم العثمانى مرفوعا فوق الواحة ولكنهم لم يجدوا فيها أحدا من الجند الشاهانى كما كانوا يظنون ، ووجدوا أن الأهالى مسلحون لقتالهم . قالوا وكان مع الفرنسيس ترجمان من أهل الجزائر يقال له (عبدالبنى الجزيرلى) . فقابل هذا الترجمان رؤساء العشائر وكبار القبائل وأعلمهم بأن السلطان قد تنازل عن الواحة إلى جماعة الفرنسيس وقد جاءوا لاحتلالها ، فأنزلوا العلم العثمانى ورفعوا مكانه العلم الفرنسى . وبعد أيام انصرف الفرنسيس عن الواحة ، فما هم إن رحلوا عنها حتى أنزل الأهالى العلم الفرنسى ورفعوا مكانه العلم العثمانى ثانية ، ولكن الأحوال قد عادت فتبدلت على ما يرضاه جماعة الفرنسيس . وانحلت أزمة هذه المشادة بين الدول الثلاثة فى ذلك الصقع البعيد .

وكان (الشيخ محمد عبده) مفتى الديار فى حياته كثير التحرش للسياسة كثير التقرب من أصحاب السياسات ، كثير التردد على دار الوكالة البريطانية ، وكأنه كان يرى من أصحاب الحل والعقد من جماعة الإنجليز أنه لا يمكن إطفاء جذوة نار الحزب الوطنى المتقدة لعهده والتغلب على عواطف العامة وتلامذة المدارس على اختلافها

(١٥٣) تم = عندما تم قراءة اجتهادية أضيفت الكلمة ليستقيم المعنى .

الذين قبض أصحاب الحزب الوطنى على أيديهم وتملكوا أعناقهم ، فكانوا يطوحون بهم إلى الهرج والخروج لأقل سبب ، لا يمكن إخماد نارهم إلا بتشكيل حزب آخر قوى العزيمة يقف فى طريقهم وقفة الجبار العنيد . فاهتم الشيخ بتأسيس هذا الحزب فى الخفاء على قاعدة ومع الإنفاق[١٥٤] عليها إذ ذاك . وكان ممن انتظم فى سلك هذا الحزب (سعد بك زغلول) . فجعل هذا الحزب يعمل فى الخفاء حينا والناس لا يعرفون من أمره إلا ما عرفه العقلاء من مقاصد أصحاب الحزب الوطنى وأغراضه البعيدة حتى لم يكن ليعرف له اسما ولا محلا إلا فى دار الشيخ أو دار (سعد زغلول بك) . ومات الشيخ والأمر على هذا . فما هى إلا عشية وضحاها حتى تناسى الناس ذلك الحزب وعفت بعد موت الشيخ آثاره أو كادت ولم يبق من مسمياته إلا الرئاسة لاصقة (بسعد بك زغلول) أو هو لاصق بها . وفكر أصحاب الحل والعقد من جماعة الإنجليز فى إحياء هذا الحزب المحب للإصلاح من وجوهه المقبولة تبعا لتعاليم (الشيخ محمد عبده) . فكلم (لورد كرومر) (الرئيس مصطفى فهمى باشا) فى تقليد (سعد بك زغلول) زعيم ذلك الحزب وزارة المعارف ، وجاءت من ورائه أصحاب الصحف الإنجليزية يحبذون هذا العمل ويقولون أن توزير هذا الزعيم سيكون عونا لجماعة الإنجليز على إصلاح المعارف وتثبت[١٥٥] دعاتها فى سائر البلاد .

فلما كانت أخريات أكتوبر من السنة أواسط رمضان سنة أربعة وعشرين برز الأمر بتقليده . فكان ذلك داعيا للدهش والاستغراب والأخذ والرد بين أصحاب بعض الصحف . وتفرقت الآراء فى أمره تفريقا . ولم يقع فى تقليده غيره من الوزراء أو أهل المناصب . وقام أصحاب الحزب الوطنى ينادون بالويل والحرب وهم على كراسيهم ، ويرمون (لورد كرومر) و(الرئيس مصطفى فهمى باشا) بقارص الكلام وفحش القول . ويطعنون على الشيخ محمد عبده فى قبره سياسته تلك الخرقاء ، ويقولون أن الرجل كان ملحدا فاسد الإعتقاد فى دينه ودنياه وسياسته ، وأنه كان يقول أن البلاد - يعنى مصر - لا تقدر أن تحكم نفسها ، وهب أنها استطاعت ذلك فليس باستطاعتها بلوغ هذه الغاية بالتخلص من الاحتلال الإنجليزى ، وأنه كان يقول بضرورة مسالمة الإنجليز ليطمئنوا إلى

(١٥٤) ومع الإنفاق عليها إذ ذاك = تم الإتفاق عليها إذ ذاك - قراءة اجتهادية .
(١٥٥) وتثبت دعاتها = وتثبيت دعائمها قراءة اجتهادية .

المصريين ويثقوا بإخلاصهم فلا يناهضوهم فى نهوضهم ولا يعرقلوا طريقهم فى طلب العلم وتعلم العمل . وكانوا يروون عنه كثيرا من هذه الأقوال وأشباهها . وظهرت الحركة حول تقليد (سعد بك زغلول) ظهورا واضحا حتى خيل للناس أنه موعز بها من جانب القصر .

حدثنى كبير من أقطاب الحزب الوطنى قال (أو ظننت أن فى تقليد (سعد زغلول) لوزارة المعارف قصدا من مقاصد النفع للتعليم أو غرض من أغراض الإصلاح الذى يزعمه جماعة الإنجليز فى هذا الأيام؟) . قلت ولم لا يكون ذلك . قال (جاءت صحفهم الكبرى ملأى بالكلام عن هذا التعيين محبذة له ، ولكنها لم تقدر أن تكتم عنا أنها إنما أرادت به إحياء حزب كان (الشيخ محمد عبده) غفر الله له علمه ومعلمه وبانيه وواضع دعامته برأسة (سعد زغلول بك) . أرادوا بتقليد (سعد بك) ليكون عونا لهم على الأعمال التى يريدونها كما كان ذلك الشيخ غفر الله له) . قال (وإنا نعلم والناس طرا يعلمون أن الشيخ رجل قائم بنفسه لا حزب له ، دفعه إلى الالتصاق بأعتاب الوكالة البريطانية جرح سياسى لا يخفى على أحد ، وما الذين حوله إلا مريدين لا شغل لهم بالسياسة ولا يد لهم معه فى آرائه وتعالميه ، فلما مات تفرقوا . فإن كان جماعة الإنجليز يظنون أنهم بتعيين (سعد زغلول) وزيرا قد أحيوا حزبا أو اكتسبوا حزبا فإنهم فى خطأ مبين . إن الحزب الوطنى قوى الوجود فى البلاد ، هو حزب الناشأت[١٥٦] الممثلة بطلبة المدارس جملة وغيرهم من الطبقات الأخرى ، وكلهم لا يعرفون الشيخ ولا يهتمون بتعاليمه ولا يميلون إلى (سعد زغلول) وآرائه ، ولهم المستقبل ولغيرهم الماضى وأهل البلاد كافة من ورائهم ، وإن زعم الإنجليز أنهم فعلوا ما فعلوه طلبا للإصلاح لأن تعاليم الشيخ فى الإصلاح تروق فى عيونهم ويمكن تطبيقها على الأحوال الحاضرة فقد أخطأوا . يقولون كان الشيخ يحض أشياعه على عدم مخادعة الإنجليز وأن يخلصوا لهم فى السر والعلن ، فلا يفضلون أحدا عليهم لأنهم أفضل دولة أجنبية لحكم البلاد ، والنشأت[١٥٧] الحديثة ومن معها يقولون قولا أشرف وأجمل وهو معروف ومشهور ولا فرق عندهم بين أن يكون (سعد بك) وزيرا للمعارف أو مقدما لجيش الاحتلال ، وأن الأمة كلها من وراء الحزب

---

(١٥٦) الناشأت = الناشئة قراءة ترجيحية .

(١٥٧) النشأت = الناشئة قراءة ترجيحية .

الوطنى وكلها على هذا الرأى . فخليق بأصحاب الاحتلال أن لا يتعمدوا أخذ فئة ليجدوا منها حزبا يكافحون به حزبا فيخطئون فى وضع الأساس ويكون كل بنيانهم واهنا . أما إذا كانوا قد أقاموا (سعد بك) عينا لهم على ما يجرى بين جدران مجلس الوزراء فجزاء الوزارة خيرا .

قلنا فيما تقدم إن (مصطفى كامل) طاف فى عواصم أوروبا وجعل يخطب على منابرها ويشكو من فعال الإنجليز فى مصر وأنه استمال إلى مذهبه بعض أهل السياسات فى عاصمة الألمان وغيرها حتى خيل لكبار الحزب أن نعرته ناجحة وأن الإنجليز مغلوبين على أمرهم فى القريب العاجل لا محالة ، وجعلوا يراقبون الحوادث ويستطلعون طلع الأخبار حتى جاءت صحف الألمان بخبر ما فاه به صاحب سياستهم بعد الذى قاله (مصطفى كامل) من(١٥٨) كبار القوم هناك . ذلك أنه لما تحدث أصحاب صحفهم بحديث (مصطفى كامل) عن (حادث دنشواى) وعن أعمال الإنكليز فى مصر وأنحى بعضهم باللائمة على صاحب سياسة الإنجليز ارتقى البرتسيس(١٥٩) (دى بيلوف) المستشار الإمبراطورى منبر الخطابة فى دار ندوتهم وقال (يا قوم إنا لا ننكر على الإنجليز مركزهم الذى شغلوه فى أقطار العالم منذ زمن بعيد والدليل على ذلك الخطة الحميدة التى اتبعناها معهم فى ديار مصر . وقد كان فقيدنا (البرنس بسمرك) يقول إنا نمساويين وروسيون فى بلغاريا وإنجليز فى مصر . ولا نزال نحذو حذو (بسمارك) لأنا لم نضع حجرا فى طريق القوم فى تلك الديار إلى هذا الحين ، حتى إنه لما كان يحق لنا عمل ذلك لم نفعل) أ . هـ أقول وعندى أن سياسة الألمان تجاه الاحتلال كانت منذ عام أربعة وثمانين مدعاة لكل إشكال وخبال ، لأنهم هم الذين حسنوا للإنجليز كل عمل يكيد الفرنسيس ، وهم الذين اضطروا الفرنسيس إلى أتباع سياسة التبادل مع الإنجليز والتنازل عن حقهم فى هذه الديار لعجزهم عن مناوأة الإنجليز . والألمان على أكتافهم تتهددهم فى بلادهم وتسمعهم فى كل يوم نغمة جديدة من آيات الوعد والوعيد . وشاع خبر ذلك وتناقله أصحاب الصحف الحزبية وعلقوا عليه وقالوا أقوالا كثيرة حتى ظن بعضهم أن يد الإنجليز قد أخذت بتلابيب صاحب السياسة الألمانية فعدل عن النهج الأمين ، وضرب

(١٥٨) من كبار = لكبار قراءة اجتهادية .
(١٥٩) البرتسيس = البرنس قراءة ترجيحية .

بخطابات (مصطفى كامل) عرض الحائط ، وما دروا أن أحوال أصحاب سياسات الممالك لا تقوم على وتيرة واحدة ولا منهاج مستمر ، وإنما هم يتقلبون مع الأيام والأزمنة وينتقلون من حال إلى حال . وهى وصمة لاصقة بمقاعد الرؤساء تلحق بالخلف منهم عن السلف أبد الدهر .

من ذلك أنه كانت عادة الجنود الإنجليزية عند مقابلة الأمير فى عودته إلى مقر إمارته أن تقف على الرصيف القبلى لمحطة سكة حديد القاهرة لأداء مراسم التعظيم . وقد بدل القوم عادتهم هذه وغيروا موقف جندهم فأوقفوهم عند عودته من مصيفه فى أخريات نوفمبر من السنة على الرصيف الذى ينزل عليه الأمير . فلما نزل من العربة وصافح الحاضرين مر أمام أولئك الجنود وهم حاملون لعلمهم ، فحيا الأمير العلم كما هو المألوف عند الملوك والأمراء . فأطلقوا المدافع إيذانا بوصوله ، فانقبضت عند ذلك صدور الحاضرين وجعلوا يتساءلون عن سبب هذا التغيير والغرض الذى يرمون إليه حتى لقد قال بعضهم أنهم يريدون بذلك إكراه الأمير على إظهار الخضوع والتجلة للعلم الإنجليزى رغما من كل ما يبديه هو وأصحاب الحزب الوطنى من التأفف والكره الشديد للإحتلال ، وقد كانوا قبل الآن لا يدخرون وسعا فى استرضائه وتعظيم شأنه . فهكذا الحال مع أصحاب السياسات لا يستقرون على منهاج واحد ويتقلبون مع الظروف والأحوال .

ورأى (مصطفى كامل) ورجال حزبه بعد الذى سمعوه من أقوال مستشار الإمبراطورية الألمانية من أنه لا يعارض الإنجليز فى ما يفعلوه بديار مصر آخذا بتعاليم أستاذهم (بسمارك) وتقاليده ، رأوا أنهم ينشئون لهم جريدة يومية إفرنسية إنجليزية باسم (اللواء) . فأعدوا لذلك اكتتابا وطاف أذنابهم يدعون الناس إلى الاكتتاب وتقدير هذا المشروع العظيم حق قدره . قالوا لأنه سيكون قذى فى عيون أعداء الأمير وشبحى(١٦٠) من حلوق خصوم البلاد . وطالت أيام دعوتهم فلم يقبل على الاكتتاب إلا نفر قليل ممن استهوتهم خطابات (مصطفى كامل) واستحكم فى نفوسهم حب النياشين وألقاب الشرف ، وكادوا ينفشلون . قيل فأمدهم الأمير بما شاءوا . وظهرت تلك الصحيفة الجديدة وسيروا بها إلى ديار الألمان والإنجليز والفرنسيس تباعا . فلم يقبل القوم عليها ولم يظهر

(١٦٠) وشبحى من حلوق خصوم البلاد = وقرحة فى حلوق خصوم البلاد ـ قراءة اجتهادية .

لها من الأثر المحمود ما كانوا يتوقعون . وانقلبت عليهم أصحاب الصحف فى القاهرة والأسكندرية بالهزؤ والسخرية . وقام صاحب جريدة (البروجرية الفرنسية) يعيب على الأمير التصاقه بذلك الحزب الممقوت ويقول فى كل مقال أن كرسى الإمارة يجب أن يكون بعيدا عن سائر كراسى الأحزاب وإلا اختلط الحابل بالنابل وكانت العاقبة شرا . وطالت أيام هذه المحنة وصحف الإنجليز تظهر من الجفاء للأمير والشدة على بطانته ما لم يسبق له مثيل حتى خيل للناس أن وراء ذلك شرا مستطيرا وحادثا خطيرا[١٦١] . وكان (مصطفى كامل) فى خلال هذا يغدو ويروح ما بين القاهرة والأسكندرية ويدعو الناس إلى سماع خطبه فيجتمع إليه تلامذة المدارس ومن لا عمل له من أواسط الناس وباعة الصحف من زعانف القوم . فإذا ارتقى منبر الخطابة وافتتح خطابه ببعض كلمات الدين صاحوا وضجوا وصفروا وقالوا (يحيا مصطفى كامل باشا) يحيا (الحزب الوطنى) يسقط أعداء المصريين ، فإذا قال كلمتين أو ثلاث عادوا إلى الهرج والصياح والتصفيق . فكان ينقبض عن القول برهة حتى ينكفون فيعود إلى الكلام . وهكذا كان شأنهم معه فى كل مجتمعاته وأماكن خطاباته .

وكان الأمير قد بان له حرج الموقف من سعايات الساعين ضده وأن عقارب سعاياتهم قد دبت فى مهاد دولته . فسير إلى صحف الإنجليز فى عاصمة ديارهم يقول أنه براء من كل ما يقول الوشاة وأهل الإفك والنميمة ، وأنه يؤمل ألا يحدثوا أنفسهم بمثل هذه الريبة ولا يلتفتوا إلى سماع قول الكاشحين . فلم يعجب هذا القول أصحاب الصحف الكبرى ولا سيما (التيمس) فإنها ردت ردا غير محمود .

وحدث أن مستأجرا لأطيان (وقف عبيد) بزمام ميت البرج[١٦٢] إحدى ضواحى

---

(١٦١) عاد الوئام بين (الخديو عباس) و(مصطفى كامل) بعد (حادث دنشواى) . بعد عودة الخديو من أوروبا وعودة مصطفى كامل فى أكتوبر ١٩٠٦ توسط بعض الأصدقاء لعقد مقابلة بين الأمير ومصطفى كامل . فى اللقاء الذى تم بعد ذلك اتفق الجميع على تأسيس (الحزب الوطنى) وجريدتى (ليتاندار الفرنسية) و(الإستاندارد الإنجليزية) وكلاهما تعنى اللواء) . وطلب الخديو من أثرياء البلاد أمثال (البرنس جميل طوسون وأحمد مدحت يكن باشا وعمر سلطان بك ومحمد بك فريد) أن يساعدوا فى إنشاء هذه الجرائد ، كما وعد الخديو بالمساعدة .
التقى كرومر بالخديو فى نوفمبر ١٩٠٦ وسأله عن حقيقة المساعدة التى يقدمها الخديو لمصطفى كامل فى هذا الصدد فأنكر الخديو ذلك . فى عام ١٩٠٧ صدرت النسخة الفرنسية من اللواء باسم L' Etendard egyptien .
ـ أحمد شفيق باشا (مذكراتى فى نصف قرن) الجزء الثانى ـ القسم الثانى ١٩٠٣ = ١٩١٤ ـ حوادث سنة ١٩٠٦ ـ ص ١٠٣ .

(١٦٢) ميت البرج = منية السيرج قراءة اجتهادية .

القاهرة ليلة [١٦٣] ٢٠ ديسمبر من السنة بزفاف إحدى قريباته . فلما انتصف الليل تفرق المدعوين إلى منازلهم . فما هى إلا ساعة بعد ذلك حتى أحاط بدار العروس ثلاثين من الأشقاء مدججين بالسلاح والعدة الكاملة ، ودخل بعضهم على العروس فى فراشها وطلبوا منها حليها وهددوها بالقتل فسلمتهم ما طلبوا . وأحس بهم أحد إخوتها فأقبل يمانع اللصوص فقتلوه بطلق نارى ، ووقع الصراخ من كل مكان فى الدار وترامح من كانوا يستصرخون الناس ، فأقبل الغفراء وأهل البلد ووقع الترامى بالبنادق بين الفريقين واشتد بعضهم على بعض وتماسك بعضهم بخناق البعض الآخر يتصارعون وارتفع الصوات فى أنحاء البلد وجاءهم بعض الشرطة مسرعين ، فكانت ملحمة شديدة للغاية قتل فيها أخى العروس الثانى وجرح ثلاثة عشر من اللصوص بينهم اثنان فى خطر الموت ، وقبضوا على جماعة من أهل القرية وآخرين من المجاورين وساقوهم إلى الحبوس . يقال وقد عثروا على شىء من حلى العروس ومصاغها ، فكان لانتشار خبر هذا الحادث الأليم دهشة وحيرة لقرب هذه القرية من مركز أصحاب الشرطة فضلا عن أنها من ضاحية المدينة .

(١٦٣) ليلة = احتفل ليلة أضيفت ليستقيم المعنى .

عام ١٩٠٧

مدرسة القضاء الشرعى - تعلية خزان أسوان - سقوط كرومر - الدون جورست معتمدا بريطانيا فى مصر - حفل وداع اللورد كرومر - مياه الشرب فى القاهرة - تأليف حزب الأمة - المؤتمر الإسلامى - الدعوة للجامعة الإسلامية - تأليف الحزب الوطنى - تتابع قيام الأحزاب المصرية - مظاهرات طلبة مدرسة الحقوق الخديوية .

ثم دخلت سنة سبع وتسعمائة وألف للميلاد

استهلت سنة سبع وتسعمائة وألف للميلاد بيوم الأربعاء سادس عشر ذى القعدة سنة أربع وعشرين وثلثمائة وألف للهجرة وثالث عشرة كيهك سنة ثلاث وعشرين وستمائة وألف للشهداء .

فصل
فى ذكر ما وقع فيها من الأحداث

بينا فى ما تقدم بيانه من حوادث سنة ستة وتسعمائة ما كان من وراء حادث العقبة وما وقع الاتفاق عليه بين الباب العالى والحكومة المصرية بشأن التخوم بين أملاك (السلطنة العثمانية) والأملاك المصرية ، وكان الناس يظنون أنه لم يبق بعد ذلك من سبب للرجوع إلى المأزق الضيق بعد انفراج الأزمة وزوال أسابها . غير أنه ما استهلت سنتنا هذه حتى كثر اللغط فى القاهرة وجاءت الأخبار من دار السلطنة أيضا بقيام الحركة فى (الباب العالى) (والمابين السلطانى) والتطير مما وقع من جماعة الإنجليز من إلحاق (إدارة محافظة العريش) بوزارة الحرب المصرية وجعل شبه جزيرة سينا كلها تابعة لتلك الوزارة . حتى لقد كلم (الغازى مختار باشا) (الرئيس مصطفى فهمى) فى ذلك وسأله بناء على إشارة المابين عن سبب استبدال (جماعة[١] الباشبوزق) القاعدون بمراصد العريش بآخرين من (الشايقية)[٢] ، وقد كان الباب العالى يرى فى أولئك (الباشبوزق)

---

(١) جماعة الباشبوزوق = قوات غير نظامية ملحقة بالقوات العسكرية .
ـ جيمس ردحاوص الانكليزى (توركچة ـ انكليزچه لغت كتابى) ـ مرجع سبق ذكره ص ٣٢٥ .

(٢) لم يترك البريطانيون (قضية العقبة) فى عام ١٩٠٦ تمر دون الوعى بالدروس المستفادة من هذا الحادث ، كانت ببساطة احتمالات تهديد الحدود المصرية من جانب الدولة العثمانية والاقتراب من (قناة السويس) . وتفيد المراسلات المتبادلة بين (لورد كرومر) (وسير ادوارد جراى) في أغسطس ١٩٠٦ إلى أن ملاحظات حول المباحثات الخاصة بتعليم الحدود المصرية ـ التركية كانت ترسل من قبل (كابتن أوين) Owen ، وأن أغلب هذه الملاحظات كانت تتعلق بضرورة أن يكون لمصر القدرة على بناء مراكز حراسة guard - houses فى النقاط الهامة من الحدود .
وقد أجرى (كرومر) حوارا مع (الماچور هوسكنز) Hoskins من البحرية البريطانية حول قضية الدفاع عن شبه جزيرة سيناء ـ اقترح (هوسكنز) تحذير الأتراك ـ بعد تسوية موضوع الحدود ـ من أنه لن يسمح بأى انتهاك من جانب القوات التركية . واقترح ـ وهذا هو لب الموضوع ـ استخدام (بوليس هجانة راكب) بجمال سريعة
=

ركنا قويا يمكن الاعتماد عليهم عند الحاجة . فرد عليه الرئيس ردا حسنا ولكن لا يحسن الوقوف عنده . وطالت أيام الأخذ والرد بين الفريقين ، وجاءت صحف الديار الأوروبية ملأى بمعنى ما فى ذلك الإنقلاب الحديث من مرامى السياسة ومقاصد الانجليز فى تلك الجزيرة التى يعنون بسلخها عن الأملاك المصرية وجعلها تابعة لما هو فى أيديهم من الإمارات العربية . وكثر تردد (مختار باشا) على القصر واجتماعه بالأمير تارة وبالرئيس (مصطفى فهمى) (وبطرس باشا غالى) تارة أخرى ، وقامت صحف الحزب الوطنى تبدى وتعيد وتجسم النقل والرواية وتعزو إلى الإنجليز مقاصد وأغراضا لا تدل على شيء منها شواهد الأحوال . واتفق أن مرض (لورد كرومر) واحتجب عن الناس أياما فقال أصحاب الحزب أنه يتمارض ليخفى عن الناس سر عمله وما يدبره قومه لسلخ الجزيرة عن مصر ، وجعلوا ينادون بالويل والحرب من صاحب سياسة الإنجليز ، ويشيعون فى كل يوم خبرا جديدا وقصدا من مقاصد الشر ، حتى كاد الناس يفتنون وغشيهم الوهم حتى تناسوا ما سمعوه فى تلك الضجة بالاحتفال بعيد جلوس الأمير ، وإعداد معدات الزينة فى القاهرة ومصر القديمة وأكثر المدن والبلدان فى الإقليمين البحرى والقبلى . فكان الاحتفال عظيما ومظاهر السرور واضحة فى كل صوب وناحية . وجاء إلى القاهرة وفود المهنئين وعملوا التشريفة الكبرى . فدخلنا قاعة التشريف على النسق والترتيب المعتاد ، فرأينا الأمير مشغول البال تلوح على وجهه لوائح التفكير والاضطراب . ولم يبد التفاته لبعض المهنئين كما يفعل عادة فى مثل هذه المقابلات .

يقولون كان الأمير فى هذه الآونة كثير التفكير كثير التساؤل عما يقال فى المجتمعات الخصوصية . فقد كان جماعة من أعضاء شورى القوانين وآخرون من عمد

= "Hagana" Policemounted on fast Camels على طول الحدود . واقترح (هوسكنز) فى هذا الشأن أن تكون هذه القوة أجنبية خالصة ، فيكون الضباط بريطانيون ـ وتكون القوة المؤلفة من مائتى رجل من السود من السودان إلى جانب مائة عسكرى بريطانى .

واقترح (كرومر) على (جراى) أن ينفذ مشروع الدفاع عن سيناء بأسرع ما يمكن إن لم يكن فى الحال (as soon as possibleif not atonce) . يأتى ما ذكره (شاروبيم) فى هذا الصدد فى إطار خطة (هوسكنز) التى تضمنها خطاب كرومر إلى جراى . (فالشايقية) اللذين أشار إليهم (شاروبيم) هم عناصر سودانية من إقليم (دنقلة) السودانى ، وهو ما يعنى أن خطة الاستعانة بالهجانة كان قد تم تنفيذها .

- F. O 141 - 397 - No. 148 Confidential - From Cromer to Grey - Alexandria Augsut 18, 1906 .

البلاد يجتمعون فى بعض الأندية الخصوصية ويتكلمون فى ما هو واقع من الفرقة بين قصر الإمارة ودار الوكالة الإنجليزية وفى المشادة التى اتخذها الأمير غرضا منذ (حادثة دنشواى) . قالوا وكان المحازبون (لسعد باشا زغلول) أو هم الحزب الذى أسسه (الشيخ محمد عبده) لمصلحة الاحتلال قد بدت دلايل فلاحه بارتقاء (سعد باشا) منصب وزارة المعارف وظهر للخصوم شأنه . وحدث أن اجتمع جماعة من هذا الحزب وآخرون من الحزب الوطنى وبينهم نفر من المتشدقين بحديث الوطنية النافخين فى أبواق السياسات على غير علم أو هدى وفى وسطهم (مستشار وزارة الداخلية) من جماعة الإنجليز ، وكان اجتماعهم فى ذلك اليوم لغرض من الأغراض الكمالية . فما هم أن كادوا ينصرفون حتى قام فيهم أحد أعضاء شورى القوانين يقال له (مفتاح بك معبد) خطيبا . فقال مقالة ثم أخذته نشوة الطرب[٣] قالوا بجمال مقاله فقال بملء فيه (وإنى والله لمعجب بفعال (لورد كرومر) ذلك الحاكم الكبير حاكم الديار المصرية من أقصاها إلى أقصاها) . فقاطع عليه بعض الحاضرين مدمدما ، فلم يسكت وقال (نعم هو هو الحاكم الكفؤ) . ثم سكت وانصرف الحاضرون . وشاع خبر ما قاله الرجل وبلغ صداه قصر الإمارة وتحدث به الناس . فقامت ضجة أصحاب صحف الحزب الوطنى وأخذت الرجل من كل جانب واشتدوا فى تعذيره شدة بالغة . وبرز (حسن موسى العقاد) أحد الوطنيين المتطرفين فى كل غرض وقصد يقارع الرجل ويعيب عليه قوله ويرميه بالتحيز إلى جماعة الإنجليز ، ويلفت نظر أولى الحل والعقد إلى اعتداء الرجل على حقوق الإمارة وشخص الأمير ، ويقول أن معاقبته أمر تستلزمه مصلحة البلاد من الوقوع فى مهاوى الفوضى ، وقال غير ذلك كثيرا . أقول وقد أخبرنى من حضر مجلسهم فى ذلك اليوم أن هذه النعرة لم ترق لمن كان بينهم من جماعة الإنجليز وظهرت على وجوههم دلايل الاضطراب والكدر ، حتى لقد وبخه بعضهم وعاب عليه قوله وحذره من سوء العاقبة .

وظهر للناس أن هذا الحزب ينشط إلى معاكسة الحزب الوطنى فى سائر مناحيه ويعمل على معاداة أهل القصر فى السر والعلن ، ويجهر بمؤاساة الإنجليز فى سائر تصرفاتهم . وعندى أنهم ليسوا فى حاجة إلى هذا أو ذاك ، فإن سياستهم سياسة حكمة

(٣) الطرب = الطرب لما أضيفت الكلمة ليستقيم النص

وتأنى ورفق بأهل البلاد ، ولا يثنيهم عن مقاصدهم حزب من الأحزاب ، وقد تنزهوا عن التعسف واللين إلا ما كان من المشادة بين (لورد كرومر) وقصر الإمارة ، والتصاق أهل القصر بأصحاب الحزب الوطنى حتى ماج القصر بسماسرة الباطل ونفق[٤] فيه الهرج والزائف والله بالعقابه[٥] عليم .

وبينما الناس يفكرون فيما سيكون من وراء ارتقاء (سعد باشا زغلول) منصب الوزارة ، وقد أجمع السواد الأعظم على أن تعيينه فى هذا المنصب لحاجة فى نفس (لورد كرومر) . وقد بدت بوادرها منذ تولاه إذ كثرت الاجتماعات الخصوصية وظهرت الإرهاصات الداخلية وجعل بعض رجال الأحزاب يترامون بقارص الكلام ويتراشقون بفحش القول ، بينما هم على هذا إذ برز الأمر بتعيين (فتحى[٦] بك زغلول) أيضا فى منصب وكالة وزارة الحقانية . فقام أصحاب الحزب الوطنى وقعدوا وصاحوا بالويل والثبور وعظائم الأمور وقالوا أو ما كفى الإنجليز أن عينوا فى وقت واحد (سعد باشا) للمعارف ومحمود[٧] بك محمد لمديرية الفيوم (ويحيى بك) لرياسة محكمة الاستئناف حتى

(٤) ونفق = وتفشى قراءة اجتهادية .

(٥) بالعقابة = بالعاقبة قراءة ترجيحية .

ولا يستطيع المرء أن يوافق (شارويم) على رأيه فى الإحتلال البريطانى لمصر ، ولايمكن قبول ما قال به من أن (سياستهم سياسة حكمة وتأنى ورفق بأهل البلاد ...... وقد تنزهوا عن التعسف واللين ...) ، فالتاريخ ووقائعه على مدى الفترة ١٨٨٢ - ١٩٠٧ يقول بغير ما قال به (شارويم) تماما . وفى تقديرى أن هذه الآراء هى التى دفعت (شارويم) إلى الإحجام عن نشر عمله هذا أثناء حياته . ذلك أن نشر مثل هذه الأفكار المتعارضة مع رأى غالبية الشعب كانت تؤدى إلى رفض الرجل على الأقل باعتباره أحدى مؤيدى الاحتلال الذى قاومه الشعب ، وثار ضده فى عام ١٩١٩ و١٩٣٥ وما أعقب ذلك من السنوات .

(٦) أحمد فتحى زغلول (٢٠ فبراير ١٨٦٣ - ٢٧ مارس ١٩١٤) . كاتب ، مترجم ، وقاض . ولد فى (إبيانه) التى كان والده عمدة لها ، أخ أصغر (لسعد زغلول) الزعيم الوطنى الأشهر . اسمه الحقيقى (فتح الله صبرى) وغيره عندما كان فى المدرسة . درس لفترة قصيرة فى مدرسة اللغات وحصل على درجة الليسانس License endroit فى (باريس) فى سنة ١٨٨٧ . بدأ حياته العملية فى الإدارة القضائية بوزارة الداخلية . وعمل لفترة كرئيس للنيابة فى أسيوط والإسكندرية . كان رئيسا لمحكمة مصر (القاهرة) لعشر سنوات . عند وفاته كان وكيلا لنظارة الحقانية ، ترجم عددا من الكتب من أهمها أعمال جوستاف لوبون Gustave Le Bon وعمل لادموند ديمولان Edmond Desmoulin بعنوان ?Aquoi tient la superiorite des Anglo- Saxons . أعيد طبع بعض مقالاته بعنوان (الآثار الفتحية) . مقالات فى الأدب والاجتماع) .

- آرثر جولد شميت (قاموس تراجم مصر الحديثة) ترجمة وتحقيق عبدالوهاب بكر - المجلس الأعلى للثقافة - المشروع القومى للترجمة - القاهرة ٢٠٠٣ - ص ٢٣٣ .

(٧) محمود بك محمد = محمد بك محمود قراءة ترجيحية .

- عبدالعظيم رمضان (مذكرات سعد زغلول) - الجزء الثانى - مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة - ١٩٨٨ - ص ٨٣٠ وما بعدها .

عينوا (فتحى زغلول) لوكالة وزارة الحقانية وسيعينون غيرهم أيضا فى غير هذه المناصب . فعلوا ذلك ليؤلفوا لهم حزبا من هؤلاء ومن انصبغ بصبغتهم ليكيدوا للأمير ومن حوله ويقلبوا الأحوال انقلابة أخرى . وكثرت رسائل دعاة الوطنية والمتبجحين بها إلى أصحاب الصحف على اختلافها بالطعن الشديد فى صاحب الحكم على أهل دنشواى وجلادها[٨] ، وكانوا يرسلون إليه بأبيات الهجاء والذم الفظيع تباعا حتى لقد الصقوا على جدار بيته بيتين من الشعر غاية من الفحش والسماجة . وكتب بعضهم بيتين إلى (لورد كرومر) يقول فيهما :

يا لورد كم من معانى فى سياستكم ... بات الخلائق منها فى أضاليل
هل من محاسنها أو خير ما عملت ... قتل الحمام وإحياء الزغاليل[٩]

وبلغ من سعى (مصطفى كامل) فى استمالة كبار الإنجليز إلى مذهبه وصبره على كيد (لورد كرومر) أن ارتقى منبر الخطابة بين مسلمى ديار الإنجليز فى عيد الأضحى (كاتم[١٠] أسرار الجامعة الإسلامية) وألقى خطابا تكلم فيه عن الجامعة الإسلامية وغرضها الوحيد . فقال أنها تمثل فى عيون الجميع كأنها خطب مدلهم وخطر هائل حتى أن جماعة الوزراء عندنا ـ يعنى فى ديار الإنجليز ـ ينظرون إليها بهذا المنظر المريع ، ولقد أسمعنا (السر جراى) صاحب سياسة البلاد رأيه فيها عند كلامه على (حادثة دنشواى) ، مع أن تعاليم تلك الجامعة هى تعاليم تستند إلى الفعل والعمل ولا يمكن فلاحها إلا تحت ظل السلام وغايتها أن تظهر للعالم طرا حقيقة الإسلام . وعلى هذا فهى ليست بعدوة للحماية الإنجليزية فى ديار مصر ولكنها لا تستطيع أن تمنع نفسها من التألم مع

---

(٨) يقصد أحمد فتحى زغلول الذى كان عضوا فى المحكمة المخصوصة التى حاكمت متهمى دنشواى برأسة بطرس غالى .

ولست أدرى لماذا لم ينعت (شاروبيم) رئيس هذه المحكمة بنفس الصفات التى نعت بها عضوها (زغلول)؟ .

(٩) يقصد مؤلف الشعر بالشطر الثانى من قصيدته تذكير المعتمد البريطانى (بمذبحة دنشواى) فى إشارة إلى (الحمام) الذى كان ضباط جيش الاحتلال يصيدونه يوم وقعت هذه الحادثة والتى أعدم بسببها بعض أهالى القرية ، أما (الزغاليل) بالمقصود بها (أحمد فتحى زغلول) الذى كوفئ بتعيينه وكيلا لنظارة الحقانية مقابل مشاركته فى إصدار الأحكام القاسية على المتهمين فى هذه الحادثة ، ويحتمل أنه يقصد أيضًا (سعد زغلول الذى عين ناظرا للمعارف فى ١٩٠٦/١٠/٢٨ ، ذلك أن الشاعر يذكر كلمة (الزغاليل) وليس زغلولا واحدا .

ـ فؤاد كرم (النظارات والوزارات المصرية) ـ الجزء الأول ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر ـ القاهرة ـ ١٩٩٤ ـ ص ١٦٠ .

(١٠) كاتم أسرار الجامعة الإسلامية = استبعدت العبارة لعدم انسجامها مع السياق .

إخوانها الذين يتأوهون تحت نير سلطة (اللورد كرومر) . إلى أن قال (ولقد كان لأمير البلاد أن يسهر على مرافق رعيته لأنه لا ينقص شيء عن أى ملك من الملوك أو حاكم من حكام الأرض من العلم والتربية ، وله أن يطلق يده فى حكومته وبلاده) . ثم قال (إن محاولة أصحاب سياسات الدول قتل روح الجامعة الإسلامية لا ينجح) أ . هـ . وكان (مصطفى كامل) إذ ذاك فى ديار الإنجليز يعمل على تغيير القلوب من سياسة (لورد كرومر) ومشادته مع الأمير . فما وصلت هذه المقالة إلى القاهرة وتناقلها أصحاب صحف الأحزاب حتى طيروا إليه رسائل الثناء والمديح على جناح البرق وعلت صيحة صحفهم متوعدة (لورد كرومر) والملتفين حوله من أهل البلاد وأصحاب الوظائف والخطط بعظائم الأمور . ووصلت كتب (مصطفى كامل) إلى نفر من أصحابه بفلاحه فى مهمته ولا سيما فى استمالة جماعة من كبار الإنجليز وأصحاب المناصب العالية منهم إلى إعانة الأمير على قصده وإطلاق يده فى حكم بلاده وتدبير شؤون رعيته ككل حاكم أو ملك ، وشاع خبر ما فى تلك الكتب وتناقله الناس ، وأطنبوا كثيرا فى تلك المغالطة من غير بحث ولا روية .

وبينما كان (مصطفى كامل) يسعى ويجد فى العمل على الحط من كرامة (لورد كرومر) وتنفير قلوب قومه منه واشتغاله برد المُلْك والسلطان إلى قصر الإمارة ، كانت صنائع (لورد كرومر) وأركان الحزب الجديد تلامذة (الشيخ محمد عبده) يعملون على قطع كل صلة بين القصر ودواوين الحكومة ومعاهد العلم على اختلافها . قالوا ونظروا يمنة ويسرى[11] فرأوا أنه لم يبق لاصق بالقصر من سائر تلك الدواوين والمعاهد سوى (ديوان الأوقاف العمومية) والجامعة الأزهرية . ولما كان تنصيب القضاة الشرعيين فى كل قضاء وولاية لا يكون إلا من تلامذة الجامعة الأزهرية كما أنه لا يكون إلا بموافقة الأمير واختياره ، كانت لذلك تترامى بأصحاب العمايم وساوس الهم إلى هذه المناصب ، يحسبون أن خطة القضاء لهذا العهد على ما كان[12] عليه من قبل ، وكانوا يعتقدون أن الأمر كل الأمر فى تقليدهم تلك المرتبة لإرادة الأمير أو شفاعة حاشيته أو المقربين من مجلسه ، فكانوا لذلك أكثر الناس التصاقا برجال الحاشية وأشدهم ولاء لصاحب القصر .

(١١) ويسرى = ويسرة قراءة ترجيحية .
(١٢) كان = كانت قراءة اجتهادية .

وكان الأمير يرى أيضا ويسمع أن أصحاب الاحتلال لن يقدروا على نزع هذه السلطة الشرعية منه فهى بقية الباقية التى لا يزاحمه فيها مزاحم . عرف أولئك الجماعة هذا كله فوقع اتفاقهم مع (سعد باشا زغلول) والمستر (دنلوب) مستشار وزارة المعارف على إنشاء مدرسة جامعة لتدريس القضاء الشرعى وجعلها تابعة مباشرة إلى وزارة المعارف لها ما لبقية المدارس الأخرى ما لها وعليها ما عليها ، وأن يكون[١٣] لها علاقة ما بالجامعة الأزهرية ولا مشائخ تلك الجامعة ، وقدموا بذلك مشروعا إلى مجلس الوزراء . فما هو أن شاع خبر ذلك علت[١٤] صيحة جماعة الأزهر وقاموا كلهم قومة رجل واحد طالبين إبطال هذا المشروع ورفض كل حدث يكون من ورائه إضاعة بهجة مدرستهم الجامعة وتهديد أوقافها وجرايتها . وهب أصحاب صحف الحزب الوطنى ينادون بالويل والثبور وعظائم الأمور ويقولون أن هذه المحنة الشائنة كانت من بنات أفكار (الشيخ محمد عبده) لعهد ولايته منصب الافتاء ولكن الله لم ينجح له قصدا ولا أناله غرضا ، لخروجه عن الصراط السوى . واهتم رجال القصر لهذا الحادث اهتماما عظيما وأكبر الأمير وقوعه فى هذه الآونة ولا سيما على يدى (سعد زغلول باشا) . وعظمت الحركة فى الأزهر وتعددت بعوثهم إلى القصر ، وكلم شيخ الجامع الأمير فى ما هو صائر من الهرج والخروج عن طاعة المشائخ ووقوف التدريس جملة . وطال الأخذ والرد بين الأمير وجماعة الوزراء . واشتد الأمير على الرئيس (وسعد زغلول باشا) شدة بالغة ، وتكلم صاحب (الجريدة)[١٥] فحبذ العمل وبالغ فى إطرائه وقال إن الجمود ينافى الحركة ، فإذا لم يسر جماعة الأزهر على الطرق الحديثة فى التعليم وإذا لم يتقدم الأزهر آل أمره إلى ما يحبه الأزهريون لأنفسهم وإلى ما لا يحب إنسان لتلك الجامعة . فرد عليه (اللواء) وغيره من صحف الحزب ردا شائنا وقالوا (نعرة إحتلالية يراد منها إذهاب ما للأمير من حق اختيار القضاة الشرعيين وتنصيبهم وسيبعث الله على أصحاب هذا الأمر صيحة من السماء عاجلة) . واشتد شيخ الجامع الأزهر فى طلبه وهدد باستعفائه والتخلى عن منصبه إن مست حقوق الجامع .

---

(١٣) يكون = لايكون قراءة ترجيحية .

(١٤) علت = حتى علت قراءة ترجيحية .

(١٥) يقصد جريدة (الجريدة) التى كان يحررها (أحمد لطفى السيد) والتى ستصبح لسان حال (حزب الأمة) فيما بعد .

وأبلغ ذلك للأمير ثم (للرئيس مصطفى باشا) تنفيذ[١٦] المشروع ومن ورائه (المستر دنلوب) المستشار، وأصرا كلاهما على ما فيه، فلم يتسن لجماعة الوزارة تعديله إلا قليلا .

فلما كان أمس عشر فبراير من السنة حادى عشر المحرم سنة أربعة وعشرين برز الأمر بالتصديق على قانون تلك المدرسة، ففرح (سعد باشا) وأنصاره وأعدوا للمدرسة عدتها وأصلحوا لها دارا رحبة فى الخطة المعروفة (برحبة عابدين) . ونشرت وزارة المعارف قانونا لها على الملأ، وكأنها رأت أن تجامل الأزهريين وتطمن خواطر مشايخ الأزهر فألحقت نشر القانون بهذه الأوجه وهى : أن جميع تلاميذ هذه المدرسة[١٧] من أول أمرهم بين (التربية الدينية الصحيحة) (ومبادئ العلوم العصرية) (والمعارف القضائية) التى تؤهلهم لتولى الوظائف المختلفة فى المحاكم الشرعية . وجعل المتخرجين منعا[١٨] موثوقا بهم فى دينهم وكفاءتهم بواسطة ارتباطهم بالأزهر الشريف وأهليتهم بعد إتمام دروسهم للتدريس . ثم قالوا وقد صار تقسيم المدرسة إلى قسمين بحسب احتياجات الوظائف فى المحاكم الشرعية وجعل أول القسمين مع كونه كافيا لتخريج كتبة ذوى كفاءة تامة معدا ومجهزا للقسم الثانى أ . هـ

يقال كان شيخ الأزهر يقول بحضرة الأمير وبين جماعة الوزراء فى مجلسهم إنا نطلب والإسلام يطلب قضاة موثوقا بهم فى دينهم وكفاءتهم ودنياهم وأهليتهم لهذا المنصب الخطير، فإن أنتم أبيتم علينا ذلك ولا نخالكم فاعلون أبطلنا التدريس حتى يقضى الله بيننا . أقول وفى ذلك مغالاة وتخريج بعيدان عن الشيخ، والشيخ كما معلوم من صنائع الأمير المقربين من القصر، وهو يتورع عن هذا وأمثاله ولا سيما فى هذه الآونة المحفوفة بكل قصد ممقوت[١٩] .

(١٦) تنفيذ = الذى أصر على تنفيذ أضيفت الكلمات حتى تتفق مع المعنى الذى أراده المؤلف .

(١٧) المدرسة = المدرسة يجمعون أضيفت الكلمة لتتفق العبارة مع السياق .

(١٨) منعا = استبعدت الكلمة لإخلالها بالسياق .

(١٩) كان (سعد زغلول) منحازا إلى مسألة إنشاء (مدرسة القضاء الشرعى) التي وافق عليها مجلس شورى القوانين في ديسمبر سنة ١٩٠٧، أما الخديو فقد كان غير راغب فى إنشاء هذه المدرسة . وفى جلسة ١٩٠٧/١/٢٨ التي نوقش فيها مشروع المدرسة تبين له أن جميع النظار وعلى رأسهم (سعد زغلول) يوافقون على المشروع باستثناء (حسين فخرى) ناظر الأشغال، ولم يسع الخديو إلا أن يوقع على مشروع القانون مكرها .
- مذكرات سعد زغلول - الجزء الثانى - مرجع سبق ذكره - ص ٦٨٧ وما بعدها .
- أحمد شفيق باشا (مذكراتى فى نصف قرن) حوادث سنة ١٩٠٧ - ص ١١١ - ١١٢ .

ومن عجائب الله سبحانه وتعالى فى خلقه ما أخبرنى به مدير إقليم البحيرة قال (حدثنى عمدة بلدة شبراخيت أنه وقع نزاع بين قروى وزوجته من أهل ذلك البلد ، فجاءتنى الزوجة شاكية تبكى وقالت (رزقنى الله من زوجى (عبدالمقصود) ثلاث بنات كلهن أحياء يرزقن ، وكان فى كل ولادة يعنفنى ويعايرنى بخلفة البنات ، وقد أحسست بالحمل فى هذا الشهر ، فكتمت الخبر عنه خوفا مما ألاقيه ، وكنت أبكى كلما خلوت بنفسى . واتفق أن دخل يوما وأنا على شأنى فى البكاء فقال ما بالك ، قلت أحس بالحمل فقال أنت طالق ثلاثا إذا وضعت بنتا . فقلت وما حيلتى قال الله على ما أقول شهيد) قالت (فكنت أضرع إلى الله وأبتهل إليه أن يميتنى ولا يرينى يوما أضع فيه ، فلما جاءنى المخاض بكيت بكاءً مرا وجاءنى الجيران يعزوننى ويسألون الله لى السلامة . فما هى ألا ساعة حتى ولدت غلاما . ففرح الجيران وبشرونى بمولودى فلم أصدق حتى رأيته بعينى ، وهممت بالقيام فأمسكتنى الداية وقالت اهدأى فإنى أحس أن بك آخر . واشتد بى المخاض فوضعت غلاما آخر . فزاد صياح من حولى من النسوة وتضاعف سرورى . فأردت القيام وناديت زوجى بأعلى صوتى فجاء مسرعا وقال علمت بما فعل الله بك . فقالت الداية إسكتى فإنى والله أحس أن بك آخر فقلت الأمر لله وحده . وما هى إلا ساعة أخرى حتى وضعت غلاما ثالثاً وها هم الثلاثة أحياء يرزقون فهل يمين زوجى واقع على الآن؟) قال العمدة فقلت لها يا عبدة الله إن الله سبحانه قد نظر إلى ضعفك واستجاب دعائك فرزقك عوض الغلام ثلاثة فاذهبى فذهبت فرحة مسروة . وصار خبر طلاقها وولادتها حكاية فى أفواه أهل البلد . قلت فليتبارك الله أحسن الخالقين إنه على كل شىء قدير) .

وحدث فى يوم الجمعة تاسع مارس من السنة عشرة المحرم افتتاح سنة أربعة وعشرين ومايتين وألف للهجرة أن قام رجل فى جامع الجيزة بعد صلاة الجمعة وجعل يرعد ويزبد وينادى الناس بأعلا صوته أيها الناس أنا المهدى المنتظر أنا المسيح إبن (مريم) أنا الذى سيقتل راضيا طائعا ، فهاج الناس عليه وماجوا وهموا بضربه . فمنعهم أحد الأدباء من ذلك وأخذ يباحثه ليرى ما عنده من العلم والمعرفة ، فوجده أفرغ من قلب أم موسى ، وأنه ضعيف العقل ، فقال للناس دعوه فإنه مختل الشعور فتركوه . وخرج الرجل يطوف الشوارع والحارات وينادى بدعوته والصبية من ورائه يرشقونه بالحصى

ويهزأون به . قلت ولعله لا يجد من ضعاف العقول من يعد جنونه رشدا وسخافة عقله حكمة وهذيانه وهزره وحيا من السماء . وظل الرجل على هذا أياما فقبض عليه الشرطة[٢٠] وأدخله مستشفى المجاذيب . وبرز الأمر على الأثر بالقبض على كل معتوه وشحاذ .فقبضوا على تسعة وخمسين منهم بالقاهرة ومصر القديمة وأدخلوهم المستشفى وأنذروا خمسة وثلاثين منهم باعتبارهم متشردين إذا عادوا إلى الإستعطاء ومضايقة الناس فى طريقهم .

وظهر لأصحاب الرأى من جماعة الإنجليز بعد البحث والتنقيب وما دلت عليه التجربة أن (خزان أصوان) لم يكن ارتفاعه يكفى لحجز المياه فى أعاليه لرى ما كانوا يظنون ريه من أراضى الإقليمين القبلى والبحرى . وأن الحاجة ماسة إلى إعلائه كما أشار عليهم بذلك (السير ويلكوكس)[٢١] أحد كبار المهندسين من جماعة الإنجليز ولم يسمعوا لقوله إذ ذاك . فاجتمعوا كثيرا وتناجوا بينهم فتقررت القاعدة على إعلائه ستة أمتار أخرى حتى يخزن من الماء ما أُنشِىءَ الخزان لأجله . وجاءهم كثير من مهندسى الإنجليز وبحثوا ودققوا ووافقوا على لزوم ارتفاعه ، وقرروا أنه قبل العمل يجب أن تعزز دعائم الخزان وأن يزاد فى الركايز التى بنيت لدعمه . ولما كان تمام هذا العمل الكبير سيفضى إلى غمر المياه لهيكل (أنس الوجود) الذى هو من أفخر آثار أجدادنا وأوسعها شهرة ، فمن المرجح نقل ذلك الهيكل إلى مكان آخر . واهتم بالأمر أصحاب الرى

(٢٠) الشرطة = صاحب الشرطة قراءة ترجيحية .

(٢١) السير ويليام ويلكوكس Willcocks, William (١٨٥٢ – ١٩٣٢) . مهندس ومبشر ومثقف فى اللغة العربية . ولد فى الهند لمهندس عمل لشركة الهند الشرقية . فقد أمه فى ثورة الهند عام ١٨٥٧ وقامت علي تربيته مجموعة من المربيات . تخرج من كلية توماسون للهندسة فى روركى Roorkee بالهند ، وبدأ حياته العملية فى الهند كمهندس للرى . دعى إلى مصر بمعرفة (السير كولين سكوت ـ مونكريف) Colin Scott- Moncrief (الذى كان قد عمل لحسابه فى الهند) فى سنة ١٨٨٣ ، وسرعان ما أصبح مفتشا للرى لمديريات وسط الدلتا حيث قام بسلسلة من التجارب التي أدت إلى إلغاء (السخرة) Corvée . فى عام ١٨٨٩ أصدر دراسة فى مجلدين بعنوان (Egyptian Irrigation) . قاد سلسلة من الأبحاث انتهت إلى إقامة مشروع خزان أسوان الأول وقناطر أسيوط ، مما أدى إلى زيادة إنتاجية وادى النيل وبداية إدخال نظام الرى الدائم Perennial irrigation فى الوجه القبلى . ترك خدمة الحكومة المصرية فى عام ١٨٩٧ وأدار شركة مياه القاهرة لمدة سنتين ، ثم أراضى (الدائرة السنية) حتى عام ١٩٠٥ . قام بدراسات عن أعالى النيل . تعرض لمشكلة بسبب نقده لمشروع للرى فى الوجه القبلى وأدين أمام المحكمة القنصلية فى ١٩٢١ . اعتقد بإمكانية تحويل كثير من المصريين إلى المسيحية لو أن (الإنجيل) ترجم إلى العامية ، وهى نظرة رفعت من درجة الجدل بين أنصار العربية الكلاسيكية وبين مؤيدى نشر العامية بالحروف اللاتينية .

ـ أرثر جولد شميت (قاموس تراجم مصر الحديثة) ـ ترجمة وتحقيق عبدالوهاب بكر ـ ص ٢٢٥ .

اهتماما عظيما وأرسلو فى طلب النحاتين والصناع من ديار الفرنجة . وجاؤا بمعدات البناء وسيروا كل ذلك إلى مدينة (أصوان) . فعادت إلى ما كانت عليه من العمار والحركة العظيمة ، ونزل عليها التجار وأهل المهن والصناعات . وازدحمت مساكنها بالساكنين وحوانيتها بالبياعين ومكامنها بأهل الدعارات . وأخذت الحركة تكثر يوما عن يوم والعمل يعظم والعناية به تشتد . وأصحاب الرى من جماعة الإنجليز فى روحات وجيات حتى تم ما أرادوه وظهر الخزان على أحسن ما يكون من الهندسة والبنيان ونفع البلاد نفعا ليس بعده من مزيد .

واهتمت وزارة الحرب وديوان الوزارة بإعداد حملة من جند (غفر السواحل) لترسلها إلى التخوم بين طرابلس الغرب والديار المصرية . واهتمت لذلك اهتماما عظيما كى تمنع تعدى عربان الغرب على عربان (الشهيبات) الضاربين وراء التخوم المصرية . على أنه فى أوائل مارس من السنة انحدر جماعة من (عربان العقاقير) نزلاء (طرابلس الغرب) إلى التخوم وأغاروا على جماعة (الشهيبات) . فوقع القتال بين الفريقين واشتد بعضهم على بعض شدة بالغة ، فلم يقدر (عربان الشهيبات) على رد غارة (العقاقير) ، فاستاق العقاقير جميع ماشية (الشهيبات) وهى مائة من النوق وثلاثة آلاف من الغنم وتخطوا إلى تخومهم . وجاء الصايح إلى مدير إقليم البحيرة فسير فى أثر (العقاقير) طايفة من الجند فلم يدركوهم . وكبر الأمر على (الشهيبات) وأعظموه جدا . فبثوا على (العقاقير) العيون وقعدوا لهم بالمراصد . وعلم (العقاقير) بذلك فامتنعوا وراء تخومهم ، وانحدر مشائخ (الشهيبات) إلى القاهرة ورفعوا ظلامتهم (للرئيس مصطفى باشا) ، ووقفوا على بابه أياما حتى برز الأمر إلى مدير إقليم البحيرة باختيار اثنين من أهل الوجاهة من جماعة العربان ، وأن يرسلهما إلى والى (طرابلس الغرب) موفدين من قبل الحكومة المصرية ليتفقا مع (مشائخ العقاقير) على الصلح مع (الشهيبات) ورد الغنائم . فسير المدير اثنان أحدهما يقال له (على بك الجزار) والثانى عين من أعيان العرب . فسارا إلى (مرسى مطروح) ومنها إلى (بنى غازى) وقابلا (مصطفى باشا حلمى) (متصرف طرابلس الغرب) وكلماه بكل ما وقع بين (العقاقير والشهيبات) وتعدى (العقاقير) وتحطيمها التخوم للغزو والسلب . وطلبا إلزام (العقاقير) إما برد ما سلبوه وأما بدفع ألفين ومايتين ذهبا عينا ثمنا لما أخذوه . فسير الوالى فى طلب بعض القوم . فجاؤا فطالبهم إما برد الماشية كلها وإما بإعطاء (الشهيبات) ألفين ومايتين ذهبا عينا . فوعدوا بدفع البدل وطلبوا المهلة أياما

معدودة ، فأجيبوا إلى ما طلبوه وتفرقوا على هذا . وظل الجزار ورفيقه ينتظرون القوم ، وبينما هما على هذا إذ جاء أمر السلطان إلى الوالى بالتخلى عن منصبه ، فقام من يومه إلى دار السلطنة . وشاع خبر ذلك فى أنحاء الولاية . فما هى عشية أو ضحاها حتى انحدر (العقاقير) إلى التخوم وأغاروا ثانية على (الشهيبات) على غرة واستاقوا مائة جمل ومايتين من الغنم وعادوا إلى البيوت . وجاء الصائح إلى مدير إقليم البحيرة بما جرى فأبلغه إلى (الرئيس مصطفى باشا) وكان قد وصل الوالى الجديد (على عمر باشا) إلى طرابلس وعلم بوجود وفد الحكومة المصرية . فسألهما عن سبب مجيئهما فأخبراه بكل ما حدث وطلبا إما برد الماشية كلها وإما دفع البدل وقدره ثلاثة آلاف ذهبا عينا . فقال إنى لا أعمل عملا قبل أن يأتى إذن السلطان . فلبثا ينتظران أياما أخرى وهو يطاولهم ويحاولهم وقد أعياهما الانتظار وأورثهما الملل ورأيا أن لا قبل لهما على البقاء ، فاستأذنا بالسفر فأذن لهما فعادا وأخبرا بإخفاقهما . فأكبر الرئيس الأمر ووقع الإتفاق مع (لورد كرومر) على تيسيير تلك الحملة إلى التخوم وعلى رأسها جماعة من الضباط الإنجليز وزودوهم بما لم تصل إلينا معرفته إلى هذا اليوم . وظن الناس رجوع المشادة بين الباب العالى والحكومة المصرية فى هذه التخوم الغربية كما كان الحال فى أمر التخوم الشرقية على ما مر بك بيانه . وكان (الغازى مختار باشا) يود لو أن (الرئيس مصطفى فهمى باشا) يحادثه فى الأمر لعل مياه الصلح بينهما ترجع إلى مجاريها بعد أن عاد الغازى مدحورا فى كل ما تعمده من التحرش بالرئيس وجماعة الوزراء فيما مضى من حوادث العام الغابر .

وحدث أن غرق غلام وطنى فى الثانية والنصف من عمره فى بحيرة المنزلة عند بور سعيد وكان ذلك قرب عيد الفصح للإسرائيليين . فطاف المنادى يسأل عن الغلام وخلفه النساء يصرخن ويولولن ، وظل المنادى على ذلك حتى جاءته عجوز وقالت لأم الغلام مسكينة أنت يابنية لا خفاك أن عيد اليهود أقبل فعسى أن لا يكون فريسة هذا العيد . قالت ذلك وكانت كمن قمس فى الماء أو عرج به إلى عنان السماء ، فعند ذلك صاحت الأم باعلا صوتها (يا قتيل اليهود يا ولدى يا قتيل اليهود) . فصحن جميع من كان معها من النسوة (يا قتيل اليهود) وجعلن يطفن الشوارع وهم على هذا الحال . واتفق أن شرطيا كان يطوف حول شاطىء (المنزلة) فعثر على جثة الغلام ملقاة على شاطىء البحيرة عند السلخانة فجىء بها إلى المستشفى فشرحت وتحقق أن الوفاة كانت (بإسفكسيا الغرق) . وبلغ أهل الغلام خبر العثور على الجثة ووجودها فى المستشفى فتزاحموا على بابه وهن

فى صياح وعويل يردن رؤية الجثة . وتناقل العامة أن اليهود هم الذين قتلوا الغلام واستنزفوا دمه ، فساروا جماهيرا فى الشوارع يحملون العصى والهراوات وينادون بالويل والحرب . وكان منذ بضع سنوات اتهم الإسرائيليون فى هذه المدينة بأنهم خطفوا غلاما يونانيا قبل عيدهم هذا بأيام ووجدت جثته على سطح كنيستهم . فقام العامة من (الروم) وزعر الوطنيين على اليهود قومة رجل واحد وأساؤا إليهم كثيرا وخربوا حوانيتهم وبعض دورهم ، وأفحشوا فى الإساءة إليهم جدا ، حتى تمكن صاحب شرطة المدينة ومن جاءه من الجند يومئذ من القاهرة من إخماد نار الفتنة وإيقاف تيارها بعد العناء الشديد . وارتفع صراخ أهل الغلام إلى عنان السماء وجاءت رسائل البرق تباعا إلى ديوان الوزارة وقصر الإمارة ، فبرز الأمر إلى محافظ المدينة باتخاذ الحيطة ومنع كل تعدى يقع على جماعة اليهود . وكان جماعة من زعانف الوطنيين وزعر (قرية العرب) قد لحقوا (بكنيس اليهود) يريدون تخريبه ، وسار أرخون[٢٢] وقدرهم أربعة آلاف ويزيدون فى الشوارع ينادون (أقتلوا اليهود أعداء المسلمين) . فكانت ساعة يا لها من ساعة واختبأ اليهود جملة ولاذ بعضهم بالفرار . واشتد أصحاب الشرطة على الغوغاء وعاملوهم بالقوة وجرحوا منهم نفرا ، وجاءت الأوامر من ديوان الوزارة إلى محافظ المدينة بأن يتخذ كل حيطة وتوقى ولو باستعمال القوة . وفر بعض كبار اليهود إلى السويس والقاهرة والأسكندرية . وظل الحال على ذلك إلى منتصف الليلة التالية للعثور على جثة الغلام حتى تمكنوا من تفريق المجتمعين وتشتيت شمل المتظاهرين وقد دفنوا جثة الغلام خلسة ، وظل العسس يطوف ليلا والجند نهارا ثلاثة أيام حتى اطمأنت القلوب وعادت السكينة إلى نصابها . أقول ولا أدرى كيف التصقت هذه التهمة الشائنة المعيبة بهذه الطائفة الراقية ، ولعل ذلك ناجم عما فى (تلمودهم) من الأحاجى والمعميات والإشارات الخفية إلى سنن ربانيهم وأئمة دينهم . فقد قرأت فى (تلمودهم) ذلك فصولا لا يدرك معناها إلا من أوتى الحكمة وفصل الخطاب ، وكلها رموز وأحاجى غريبة فى بابها فلعل ذلك هو سبب اعتقاد العامة فى أولئك القوم ذلك الاعتقاد المعيب .

ولم تكد لتطمئن القلوب من حادثة الغلام واطهاد[٢٣] الإسرائيليين بسببه حتى وقع الهرج بين جماعة الفحامين فى بور سعيد وعددهم ستة آلاف ويزيدون وخروجهم على

(٢٢) أرخون = آخرون قراءة ترجيحية

(٢٣) واطهاد = واضطهاد قراءة تصحيحية .

مقدميهم ومشايخهم يطلبون الزيادة فى أجورهم ومنع حيف الشيوخ عنهم . وامتد الإعتصاب والإضراب عن العمل إلى (فعلة) ورشة قناة السويس أيضا ، فبطلت الحركة بالقناة وتعطل مرور السفن والبواخر ، فامتلأت القناة بها من الإسماعيلية إلى بور سعيد وخيف عليها من شر البقاء هكذا . وقد تطرق هذا الاعتصاب إلى جماعة تنظيف الطرق فذهبوا زمرا إلى مصلحة التنظيم يطالبون بزيادة أجورهم أيضا . ومن المضحك المبكى أن باعة البيض والكعك قد اعتصبوا أيضا وامتنعوا من البيع وطلبوا من المخابز زيادة أربعة كعكات زيادة عن المقرر لبيع كل (فرنك) ، وامتنعوا من أخذ ما خبزه الخبازون لبيعه . وكلم محافظ المدينة أصحاب الشركات المتعهدين بتوريد الفحم إلى السفن فى أمر ذلك ، فلم يرضوا بزيادة الأجور لأولئك الفحامين . وجاء خبر ذلك إلى ديوان الوزارة وقصر الإمارة . فبرز الأمر إلى المحافظ بشدة المراقبة والسهر على حفظ الأمن ومنع تعدى المعتصبين على الناس ، فطاف الجند والعسس فى أحياء المدينة ، وشدد صاحب الشرطة فى مراقبة المعتصبين ومنع اختلاط العامة وزعر النزلاء بهم . واستدعى محافظ المدينة جماعة من كبار المعتصبين وكلمهم فى العدول عن الإعتصاب وأنه سينظر فى أمرهم مع أصحاب البنوك فلم يقبلوا كما لم يقبل أصحاب البنوك زيادة الأجور . وظل الحال على هذا بين أخذ ورد حتى ليلة عاشر أبريل من السنة سابع عشرى صفر سنة خمس وعشرين فتقررت القاعدة بين الفريقين على زيادة الأجور وتعهد أصحاب البنوك بإعطائها فى أوقاتها وضمن محافظ المدينة للفحامين السير على هذا النهج . فعادوا إلى العمل وبارحت السفن الراسية بور سعيد إلى وجهتها وزال الخوف عن الناس جملة .

عاد (لورد كرومر) من رحلته فى السودان وما هى إلا أيام بعد ذلك حتى تبدلت الأحوال وانقلبت انقلابا فجائيا وظهرت الحركة بين أهل الوظائف وأصحاب الخطط من جماعة الإنجليز ، وكثر تكلم أصحاب الحزب الوطنى بقرب تخلى اللورد عن منصبه فى ديار مصر . فكان الناس بين مصدق ومكذب لما يعلمونه من ميله إلى البقاء فى منصبه حتى اليوم الأخير من حياته وما اشتهر عنه من الأنانية وحب الذات ، فكان أهل الدواوين إذا تكلموا فى ذلك تكلموا همسا وحسبوا كل مجاهرة به إجراما ، وكان أصحاب الصحف المحازبة له تشير إلى الخبر من طرف خفى وتقول أنه إن كان هذا الأمر واقع فإنما هو لضعف الرجل وعدم ملائمة بقائه لحالته الصحية ، وأصحاب الحزب الوطنى يقولون غير ذلك وأن الرجل مغلوبا على أمره وأكثروا من القدح فيه بهتانا .

وظل الحال على هذا أياما لا ترى فيها إلا وجوها فرحة ونفوسا مقبوضة تتلمس الأخبار من قريب المصادر وبعيدها وقديمها وجديدها ، وقل خروج الرجل وكثر احتجابه عن الناس إلا القليل من صنائعه المقربين .

فلما كان حادى عشر أبريل من السنة ثامن عشرى صفر جاء الخبر من عاصمة الإنجليز بعزم الرجل على التخلى عن منصبه وأنه أرسل كتبه فى ذلك إلى صاحب سياستهم ، فوقف فى وسط دار ندوتهم متكلما فقال (رأى اللورد كرومر بناء على مشورة الأطباء ومراعاة لحالته الصحية تقديم استعفائه وأرى أن الأفضل أن أتلو على المجلس التلغراف الذى أرسله إلى جناب اللورد كرومر منذ أيام قال .

(إنى وصلت إلى الإستنتاج بأنه يجب على أن أسألكم قبول استعفائى . وقد عقدت النية على ذلك بعد إمعان النظر الطويل واستشارة طبيبى السير (ستفان ماكينزى) الموجود الآن هنا ، وإنه يهمنى جدا أن يفهم أن الأسباب التى حملتنى على ذلك هى صحية فقط وأنه لا يوجد سبب سياسى على الإطلاق له علاقة بعزمى هذا . وإنى أعلن بنوع خاص أنه لم يكن أنفع وأكرم من الطريقة التى اتبعتها معى الوزارة الحاضرة (يعنى الوزارة الإنجليزية) فى تعضيدها لى فى الظروف الخصوصية وأنه كان من حظى الكبير أن أخدم تحت رئاستكم . ومع الأسف الشديد أرانى مضطرا إلى قطع علاقاتى الرسمية بكم . على أنى بعد خدمة تسع وأربعين سنة أرى نفسى قد تعبت جدا الآن حتى أنى أشعر بأنى بت غير قادر المقدرة اللازمة على تحمل أعباء ومتاعب وظيفتى الموقره ، وأشعر أيضا أنى لا أملك الصحة ولا القوة اللازمين لإجابة مصاعب المرافق التى بدأنا بها . وقد اتفق طبيباى كل الاتفاق على أنه يجب على اعتزال الأعمال) انتهى . قال الراوى - ثم سكت السير جراى لحظة وقال إن هذا الخبر سبب لنا كدرا لا حد له وأنا على ثقة بأن المجلس يشاطرنا هذه العواطف بهذا الشأن . أما أنا شخصيا فإنى متأثر تأثيرا لا يحيط به كلامى لأننا دائما كنا نعتمد على (اللورد كرومر) ونضع ثقتنا فيه كما كان شأن الوزارات التى تتابعت منذ سنوات بعيدة ، وقد تبودلت رسائل عديدة على أمل أن يتمكن (اللورد كرومر) من العود عن عزمه لكن نظرا لأن عود صحته الذى أمل بإمكانه يتوقف على اعتزال الأعمال رأت الحكومة نفسها مضطرة إلى الموافقة على قراره وستسنح لنا بلا شك فرص أخرى أبسط فيها عمل (اللورد كرومر) فى مصر . ولكن إسمحوا لى أن

أعلن الآن إن حكومة جلالة الملك عاقدة النية على تأييد هذا العمل وعلى متابعة السياسة التى وضع (اللورد كرومر) خطتها والتى يصورها تقريره الأخير المعروض على المجلس أحسن تصوير . وإنى لا أرتاب أقل ارتياب بصعوبة إتمام عمله دون معاونته . أى[٢٤] ذلك العمل الذى كان قائما به وحده وسفره من القطر أعظم خسارة يمكن أن تحل بالمصالح العمومية فى تلك البلاد ، والنجاح الذى نجحه (اللورد كرومر) فى القطر المصرى فى السنوات الأولى من الاحتلال رغم الصعاب الداخلية والخارجية التى تغلب عليها .

لقد كنا لا نصدق به لولا أن رأيناه تاما على يديه . وإذا كان النجاح بعد ذلك قد سهل بفضل الاحتلال والثقة به فإن (اللورد كرومر) هو الذى أوجد تلك الهيبة وتلك الثقة) ـ قال ـ وقد وافق جلالة الملك على تعيين . (السير الدن غورست) فى المنصب الذى خلا فى القاهرة . وقبل هذا التعيين قد استشرنا (اللورد كرومر) فوافق عليه) . قال (وللسير غورست) معرفة تامة بالقطر المصرى ولم يحز أحدا مثله ثقة (اللورد كرومر) ولم يشارك (لورد كرومر) فى إتمام عمله أحد مثله) . قال (فلى الثقة بأن يكون هذا الاختيار أحسن اختيار تم لتأدية عمله ومتابعته)ـ إنتهى بنصه .

أقول وكان الرئيس ساعة مجىء هذا الخبر الكبير على جناح البرق فى قصره بالمنتزه بالأسكندرية ، فأرسل إليه اللورد يخبره بتخليه عن المنصب ويطلب مقابلته . فقام من يومه إلى القاهرة ومعه (بطرس باشا غالى) وزير الخارجية . وبات الأمير وأصبح وقد ذهب إلى قصر الإمارة ومعه وزيره . فأقبل عليهما اللورد ولبث بحضرة الأمير وقتا طويلا يقال تعاتبا فيه وتناقشا الحساب فيما لم تصل إلينا معرفته . قالوا ومع ذلك فقد كان الإمبراطور[٢٥] (اللورد كرومر) كل عطف وحنان . وعندى أن الأمير وجماعة الوزراء كانوا على علم بعزم اللورد على ترك منصبه أو أنه سيأتيه الأمر بالتخلى عنه ، وكانت لذلك الأمور بين الرئيس وصاحب القصر كل يوم فى شأن حتى تحرجت أحوال الرئيس وتبدلت أخلاقه وقل صبره . فكان إذا كلموه فى أمر من أمور الدولة هاج وتجافى فى الرد أو غضب وانقبض عن الكلام . قالوا واتفق أن ذهب لزيارته جماعة من أعضاء شورى

(٢٤) أى = إن قراءة اجتهادية

(٢٥) الإمبراطور = الأمير يظهر قراءة ترجيحية .

البلاد فكلموه فى شىء مما هم فيه فى مجلس شوراهم ، فغضب واحتد ولم يحسن معاملتهم . وشاع خبر ذلك أو هم أشاعوه فتناقله أصحاب الصحف على اختلافها وتكلموا عنه حتى لقد قالت إحداهن يوما تحت عنوان (رئيسنا يزعل) كلاما كله غمز ولمز وهجاء معيب . واندفع أصحاب الحزب الوطنى وأذنابهم يبدون ويعيدون ويقولون أن خلع (اللورد كرومر) عمل من أعمال (مصطفى كامل) بعد أن أوقف الرأى العام فى ديار الإنجليز وندوتهم على ما فى (حادث دنشواى) من المكائد والظلم والحيف الشديد ، ورجال القصر لا يقرون لهم بذلك .

واجتمع جماعة المعجبين (بلورد كرومر) فى القاهرة واتفق رأيهم على إقامة تمثال له وعمل مظاهرة تعرب عن شعورهم فلم يرض القيام بتلك المظاهرة . فتحولت عناية القوم إلى عمل آخر . وكذلك هم جماعة الماليين فى الأسكندرية بعمل من مثل هذا ، والقول شائع بأن الرجل مريض بسرطان المعدة وقيل غير ذلك . واختلفت الأقوال وتفرقت المذاهب فى سبب خلع اللورد أو تخليه عن منصبه والرجل عريق فى حب الظهور وله فى البلاد أعمالا تشهد باقتداره وعلو همته ، حتى لقد كان كلما هم أصحاب سياستهم بنقله إلى منصب أسمى من منصبه هذا تبرم وأكثر البقاء وشدد فى ذلك كثيرا ، فمن قائل أنه من عمل (الوزير بطرس غالى) لتجاوز الرجل حدود العوائد واستهتاره بالمكائد واستنكاره على الأمير كل عمل يأتيه بحق الإمارة وتطاوله على مقامها إلى حد طلب خلع الأمير وتنزيله عن عرشه . قالوا ولما كان الوزير أشد المقربين إخلاصا لمولاه وأعلاهم همة وأكبرهم نفسا ، سعى سعيه هنا وهناك حتى نال رضا صاحب السياسة الإنجليزية وعطفه على مولاه وحبب كبير وزراء الإنجليز فيه ، فذهبت مساعى (لورد كرومر) هباءاً وزالت وشايات أنصاره وذهبت مثلا للأخرين . قالوا ومن تأمل أخبار اللورد واستقصى سيره فى أخريات أيامه وجد ذلك محقق الأثر ممهد الأسباب . وقال آخرون بل إن خلع الرجل ناجم عما كان بينه وبين (غورست) من العناد والمحاسدة عندما كان (غورست) فى منصب استشارة وزارة الخزينة المصرية وسعى اللورد سعيه حتى خلعه وأقصاه . فجعل غورست من ذلك الحين يكيد له ويدس الدسائس حتى نال منه وأسقطه من عالى مجده مقهورا . قلت فإن كان هذا أو ذاك أو ما بين القولين ، فالرجل كان فى مجال لظنون كبار قومه به وعظماء دولته ، حتى لقد بثوا حوله العيون وقعدوا له

بالمراصد . ونقل عنه كتاب صحفهم وصحف الفرنسيس حكايات لم تعجب قومه ولم ترق لعظمائهم ، وهو مع ذلك لم يهتم بسد تلك الفرجة من ناحيتهم ولم يلوه الشمم والكبرياء عن قصده . قالوا فكانت لذلك سيئاته ترجح حسناته ، وزادها رجحانا تسرع فى كل قصد وإقدام على جسام الأمور بالقول والفعل كما وقع فى (حادث دنشواى) ذلك الحادث الأليم . وفوق ذلك فقد رأوا فى كتبه لصاحب سياستهم زيفا عن الحق وعدولا عما كانوا يعهدونه فيه من الصراحة . فلما طفح الإناء ولم يبق فى قوس صبر كبير وزرائهم منزعا جاءه الأمر على جناح البرق بالتخلى عن المنصب فتخلى عنه صاغرا .

أقول وزارنى صديق من موظفى شورى البلاد فسألنى رأيى فى سبب تخلى اللورد عن منصبه فقلت له ما حضرنى من ذلك . فقال (ذلك ما خطر ببال الكثيرين من أهل المناصب وأصحاب الخطط فى كل صوب ، ولكنى مطلعك على خبر جاء على جناح البرق من عاصمة الإنجليز تتفق بعض أسبابه ببعض ما خطر ببالك فنظر[٢٦] فيه) . وإذا بصاحب (الأتاندار) إحدى صحفهم الكبرى يقول أنه وقف على سر تخلى (كرومر) عن منصبه وأنهم (يعنى كبار قومه) قالوا له أن هذا التخلى سببه السير (كامبل باترمان) كبير وزراؤهم ، فإن هذا الوزير الكبير كان ناقما على اللورد مسالكه منذ (حادث دنشواى) ، وأنه لما عرضوا عليه مطالب الجمعية العمومية لمجلس شورى البلاد (يعنى شورى مصر) سير كتبه إلى (لورد كرومر) بالعناية بأمر الإطلاع المطلوب وشدد عليه فى ذلك مرارا ، فكان اللورد يجيب على كل طلب من ذلك بلزوم الانتظار حتى ترد عليهم تقاريره . وظل على ذلك حينا حتى جاءهم تقريره ذلك . وكان كبير الوزراء عند وصول ذلك التقرير فى مصيفه بعيدا عن عاصمتهم . فلما اطلع عليه تولاه الغضب وعاد مسرعا إلى كرسيه واجتمع بالسير (إدوارد غراى) صاحب السياسة الإنجليزية وقال له بلهجة الغضب (بلغ (لورد كرومر) حالا إما أن يتخلى منصبه بغير معادوة ، وإما أن يقلع عن هذه الخطة التى لا نرضاها) . وطال الأخذ والرد بين كبير الوزراء (والسير إدوار جراى) ووقعت المشادة بين الإثنين حتى صمم كبير الوزراء على التخلى عن منصبه إذا ظل (لورد كرومر) فى القاهرة . فعاد (السير جراى) إلى رأى كبير الوزراء وقال (إذن فليكن (لورد ملنر) خلفا له) . فقال

(٢٦) فنظر = فانظر قراءة اجتهادية .

كبير الوزراء (هذا ما يجب أخذ قول جميع الوزراء بشأنه) . وجمع فى الحال جماعة الوزراء فتناجوا فى الأمر طويلا ثم اتفقت الآراء على اختيار (السير غورست) خلفا (للورد كرومر) . ونال (السير جراى) الإذن بأن يعلن فى دار ندوتهم أن حكومة جلالة الملك تتابع سير السياسة الإنجليزية فى القطر المصرى كما هى ، فوافق كبير الوزراء على ذلك . قال لأن أساس هذه السياسة الذى هو (الإحتلال العسكرى) (ومراقبة الخزينة المصرية) يجب أن يظلا على حالهما ، وأن تنفذ الإصلاحات التى تطلبها البلاد تدريجيا . قال الراوى (وهذا الخبر قد تلقيته من أوثق المصادر وألصقها بكبير وزراء الإنجليز) ـ انتهى بنصه .

أقول وعاد جماعة النزلاء الأجانب إلى الإجتماع للبحث فيما يجب عمله تكريما (للورد كرومر) قبل مبارحته هذه الديار . فقالوا يعمل وليمة لألف مدعو ، ثم عدلوا عن هذا القصد وجعلوا يفكرون فى غيره . وأدب الأمير إلى الراحل الكبير مأدبة فى القصر شائقة جدا حضرها ستة وعشرين مدعوا من الأمراء وأهل المناصب العالية ، فلم يحدث فى خلالها قال ولا قيل كما يقع عادة فى مثلها من المآدب .

وجاء الخبر إلى ديوان الوزارة وقصر الإمارة بوقوع الحريق فى بلدة (مطرية المنزلة) إحدى بلاد إقليم الدقهلية ، شبت النار بها بعد ظهر سادس عشر أبريل من السنة ثالث ربيع أول سنة خمس وعشرين وسرت فى سائر دورها ومخازنها وطبقاتها سريانها فى الهشيم . وظلت النار عالقة بكل ما فيها من بناء ومتاع . وجاء أصحاب المطافى من بور سعيد والمنصورة والزقازيق على عجل وجعلوا يكافحون النار وهى لا تزداد إلا اضطراما ولم تترك شيئا حتى دواوين الحكومة وسجلاتها وأوراقها ، وأهلكت كثيرين من الرجال والنساء والأطفال ، والنار محيطة بالبلد من أربع جهاته . وكان الرعب شديدا والمنظر مخيفا جدا والصراخ من كل ناحية والرجال يحملون النساء والأطفال وينزلون بهم إلى مياه البحيرة فرارا من الحريق . وامتدت النار إلى خمس سفن كانت راسية هناك فأكلتها وأكلت بعض عربات السكة الحديد والبضاعة التى تحملها . ولم يمكن لأصحاب المطافى إطفائها إلا فى اليوم الثالث من ظهورها . وهاجر الناس إلى (بحيرة المنزلة) وبور سعيد وبلاد (البحر الصغير) ، وأرسلت الحكومة لمن بقى وهم كثيرون الخيام والمؤن وكذلك جاءهم الخبز والدقيق والجبن والزيتون من المنصورة ودمياط وغيرها . وساعدهم أهل البر والإحسان بما قدروا عليه فكانت شدة بالغة جدا .

ورأى جماعة الوزراء وقناصل الدول أن الاقتراحات المقدمة لإكرام (اللورد كرومر) ربما أفضت إلى الخلط والتشويش ، واتفقوا جميعا على توحيد العمل . فقامت لذلك لجنة برئاسة (الرئيس مصطفى فهمى باشا) وجعلوا أعضائها اثنين من كل طايفة أو جماعة . فناب عن المصريين فيها (الشواربى باشا) (ومحمود باشا سليمان) وشرعوا فى جمع التبرعات . وكانوا قد علموا من اللورد أنه يفضل صرف ما يجمع من المال فى تعزيز (مستشفى اللقطاء) الذى أنشأته زوجته قبل وفاتها ففعلوا ما أراد ، وصرفت اللجنة همتها فى تكبير ذلك المستشفى وتحسينه . وكان أول اجتماع عقدوه لذلك برئاسة (بطرس باشا غالى) وزير الخارجية . وتقررت القاعدة بينهم على أن يكون الإحتفال بوداع اللورد فى (الملعب الخديوى) أو فى (ملعب عباس) فيتلو (الرئيس مصطفى فهمى باشا) خطابا باسم الحكومة والمصريين ويتلو (الكونت دى صربون) رئيس شركة قناة السويس خطابا باسم جميع النزلاء ، ويرد اللورد بخطاب .

واجتمع أيضا أعضاء المجلس البلدى بالأسكندرية واتفقوا على أن يطلقوا اسم اللورد على إحدى الحدائق وأن ينشأوا مستشفى للسل تذكارا له . وما شاع خبر ذلك وتناقله أصحاب الصحف حتى هب جماعة من الشبان الذين تخمرت عقولهم بسموم الحزب الوطنى وأذنابه وأرسلوا كتبهم إلى أصحاب تلك الصحف يعيبون عليهم نشر هذا الخبر ويسألونهم أن يذيعوا عنهم هذا الرأى وينشروا خطابا لهم مفتوح وهو :

(نحن الموقعين على هذا من الشبان المصريين المتعلمين نخبر عطوفتكم (يعنى الرئيس مصطفى فهمى باشا) أننا اطلعنا فى (جريدة الأهرام) الغراء على خبر أدهشنا كثيرا وهم أن عطوفتكم ستلقون خطابا فى الإحتفال الذى ستقومون بعمله لوداع جناب اللورد كرومر بالنيابة عن الحكومة المصرية والمصريين . فلذلك نوجه بكل أدب واحترام لعطوفتكم السؤالين الآتيين :

أولا ـ من الذى أناب عطوفتكم عن الحكومة المصرية مع إنكم تشخصونها ، وأن هذا الحق مختص بالحضرة الفخيمة الخديوية وحدها . فهل أنابكم سمو أمير البلاد لتتكلموا عن الحكومة المصرية ؟

ثانيا ـ من الذى أنابكم عن المصريين مع أن هذا الحق هو من اختصاص أغلبية الأمة ، والجميع يعلم أن أغلبية الأمة التى تقرب من الإجماع راضية عن استقالة اللورد

كرومر مؤملة أن ترى على يدى خلفه خيرا ، وأن يعمل لترقيتها أدبيا وأن يساعد على منحها استقلالا إداريا ننتظره من مبدأ زمن الاحتلال إلى الآن ، وآراء الأغلبية مشخصة تقريبا فى مجلس شورى القوانين الذى رفض بالإجماع عدا شخصين معلومين (يعنون شواربى باشا ومحمود باشا) ذكر موضوع الإحتفال بجناب اللورد كرومر فى محضر الجلسة . فإذا كان هذا رأى مجلس شورى القوانين للأمة المصرية فمن من الأمة إذن أناب عطوفتكم عنه فى الكلام فى هذا الاحتفال الذى تريدونه ؟ أرأيتم أن الجرائد المصرية الوطنية أظهرت ميلا للقيام بهذا الاحتفال حتى اعتبرتم أن ميلها مشعرا برضاء الرأى العام المصرى ، مع أن الجرايد المصرية الوطنية نددت بهذا العمل واستهجنته واعتبرته مضادا لإحساس الرأى العام المصرى بالمرة؟ ونرى أن تكون الخطابة قاصرة على شخصكم وبالنيابة عمن يشيرون فى هذا الاحتفال لا عن المصريين أجمعين وتقبلوا فائق احترامنا) انتهى بنصه .

وطاف بعض رجال الوزارات وأهل الخطط أحياء مصر والقاهرة لأخذ الناس حياءً للإكتتاب فى تلك الحفلة وكذلك فعل بعض رجال ديوان محافظ المدينة ، فكان عملهم هذا سلاحا جديدا فى أيدى المعارضين وتلك الجماعة من الشبان . واندفعوا يبدون ويعيدون ويسلقون القوم بألسنة حِداد .

ولما كان ثالث عشر أبريل من السنة عاشر ربيع الأول وصل (السير غورست) إلى بور سعيد . فقابله محافظ البلد وقنصل الإنجليز بها ورافقوه حتى المحطة ومن هناك ركب قطارا خاصا إلى القاهرة . وكان فى انتظاره جماعة الوزراء والأمراء والمستشارين من جماعة الإنجليز وياور الأمير بالنيابة عنه وقرينة لورد كرومر وولده وكثير من أهل المناصب وأصحاب الخطط . فنزل وسلم على الجميع وقد بدت عليه بعد غيبته عن دياره سنتان علامات الكهولة إن لم تكن الشيخوخة . وسار توا إلى دار الوكالة البريطانية . وبات وأصبح وقد زار الأمير فى قصره زيارة خصوصية ، وزار الوزراء والأمراء وأصحاب الحل والعقد من جماعة الإنجليز . أخبرنى صديق أن جماعة من عمد البلاد جاؤا من بلادهم للسلام على (السير غورست) ، فلما وصلوا إلى باب دار الوكالة البريطانية وسألوا عنه قيل لهم أنه لم يستلم الأعمال بعد ، فقالوا نحن جئنا مسلمين لا محدثين بأشغال ، فقالوا لهم أنه غير موجود فى دار الوكالة إنصرفوا . فانصرفوا ووجوههم تقطر عرقا باردا فتأمل .

فلما كان بعد ظهر اليوم الرابع من مايو من السنة غصت (الأوبرا الخديوى) بجماهير المودعين للورد كرومر من كل رتبة ودرجة . وقد زينوا المكان بأجمل صنوف الزينة . فقام أولا (الكونت دوسربون) رئيس القناة (وقال يا جناب اللورد أن اللجنة التى شكلت فى اليوم التالى لليوم الذى أعلن فيه خبر سفركم تمثل جميع الذين جمعتهم حالة الأسف الشديد والامتنان المزيد بلا تمييز بين الجنس والدين والمذهب ، وهم يرغبون فى أن يعلنوا على رؤوس الأشهاد الإستياء الذى يشعرون به لانقطاعكم لأسباب صحية عن عمل مجيد مرتبط كل الارتباط مدة ثلاثين سنة بالبحث عن التقدم والنجاح من أى نوع كان ، والسعى فى تحقيقه كما تشهد به الآن سعادة القطر المصرى - تصفيق -

إن عطوفة (مصطفى باشا فهمى) سيخاطبكم الآن باسم الوطنيين موظفى الحكومة ، أما أنا فأقول لكم نيابة عن اللجنة التى أشكرها من صميم فؤادى لأنها عهدت إلى أن أعرب عن عواطف أولئك الذين يهمهم أن يظهروا لكم أسفهم وامتنانهم وإن كانوا غير مرتبطين بهذه البلاد برابطة الجنسية أو الوظائف العمومية .

إنكم لا تتوقعون منى يا سادتى أن أعدد لكم هنا الخدامات العديدة التى قام بها جناب (اللورد كرومر) لهذه البلاد من حين ما دعى للمساعدة فى إدارتها وعين عضوا فى (صندوق الدين) إلى هذه الساعة التى عزم على مفارقتكم فيها مزودا بإعجابنا واحترامنا اللذين يفوق معناهما جميع الألفاظ التى أستطيع استعمالها لوصف هذه الأعمال المجيدة التى صارت الآن من حقائق التاريخ) تصفيق طويل .

قال (ولا أخشى أن أخرج عن الدائرة التى رسمت لى بتجديد ذكر الأعمال العظيمة التى امتازت بهمة (اللورد كرومر) فى مصر . لأن جميع الذين أتكلم باسمهم استفادوا كما استفاد الرعايا المحليون من أعمال الإصلاح والتقدم التى لا تحصى والتى جعلت هذه البلاد من أسعد بلدان العالم ومن أكثرها تأهيلا بقاصديها . - تصفيق - وعليه فيحق لهم بل يجب عليهم أن يشتركوا مع الذين يذكرون أعمال ذلك الرجل التى هى عجيبة بوحدتها وفاعليتها وقوتها ، وما بذل فيها من الهمة حتى يكون الشكر على قدر النفع . هذا وإننى لا أقصد الدخول فى تفاصيل الأعمال المختلفة الأنواع التى الفضل فيها لنصائح (اللورد كرومر) الرشيدة ، والتى سمحت على ما نعلم جميعا للأجانب المقيمين فى هذه البلاد بأن يشتركوا فى خيراتها وسعادتها ، فى كنف الأمن والتسامح اللذين ليس هناك ما

يعادلهما فى جهات العالم الأخرى ، ولكن ليسمح لى أن أشير إلى النظام الجديد الذى ولدته فكرة (اللورد كرومر) وتركه قبل أن يخرج إلى حيز العمل . هذا وإن جميع نزلاء مصر على اختلاف أجناسهم يؤملون تحقيق أمانيهم فى هذا الموضوع . أقول ذلك يا حضرة (اللورد كرومر) ولكن لا أستطيع أن أوكد تأكيد أقوالى السابقة ولا لى صفة رسمية لذلك .

إن الأمر الذى أشعر أنى مفوض تمام التفويض بقوله هو أنهم جميعا بلا استثناء سروا أعظم سرور من الاهتمام الذى أبديتموه فى إعداد هذا المشروع للوقوف على آراء عدد عظيم من أصحاب الآراء ، فكان تأثير ذلك فى الأوروبيين أنهم أيقنوا بأنكم تريدون أن تساعدوهم على تحسين حالتهم المادية والأدبية زيادة عما تحسنت .

ولا تخافوا يا سادتى فإننى لا أطيل الكلام فى هذا الموضوع المتصل بالسياسة العليا رضيت بذلك أو لم ترض(٢٧) . ولم أنس أننا لم نجتمع هنا إلا لنظهر لك حفلة جمعت جميع الأصناف والطبقات والطوايف فى ساعة مفارقتك لأرض مصر الجميلة التى تفيض على الإنسان فضل كنوزها . إن الشكر الصادر عن الإدراك وشرف النفس ينمو فى هذه الأرض تحت شمسها النافعة كثمار تربتها ، فنقدم لك فى هذا الساعة الجامعة بين الحزن والبهجة أجمل الثمار التى تسر بها نفسك - تصفيق -

ألا فاسمح لى يا حضرة اللورد أن أضم إلى إسمكم فى إظهار أسفنا وميلنا واحترامنا اسم تلك التى ساعدت كثيرا بلطفها وفضائلها الكثيرة ما فيك من صفات الحزم والعزم التى رفعت شأن مهمتك . أعنى بها المساعدة اللطيفة التى تعملونها كل يوم لخير البلاد وسعادتها وهى (لادى كرومر) التى ستبقى صورتها حية فى ذاكرتنا ممثلا للإصلاح وجانحة على الدوام إلى مساعدة الفقراء وتعزيتهم وتخفيف آلامهم - تصفيق -

وعليه فإننا نوجه إليها كما نوجه إليك الدعوات الصادرة من صميم أفئدتنا جميعا طالبين من الله سبحانه وتعالى أن يمن عليكم بالشفاء حتى إذا أجيبت دعواتنا تمتعتم زمانا طويلا بأحسن جزاء يجازى به الإنسان فى هذا العالم وهو السرور الذى يخامر فؤاد من يرى فى اعتزاله أن البذور التى زرعها تنتج ثمرا نافعا - تصفيق -

---

(٢٧) ترض = أرض قراءة اجتهادية .

يا سادتى إننى انتهيت من خطبتى ولكن يسمح لى جناب اللورد أن أزيد كلمتين على ما قلته . كلمتين فقط ولو كان فى ذلك إخلال بنظام البيان المرسوم لهذه الحفلة . فقد تكلمت باسم اللجنة العمومية التى تألفت كما أشرت إلى ذلك قبلا فانتهت مهمتى ، ولكن يلوح لى يا حضرة اللورد أننى لم أنجزها كلها إذ لم أقدم لك إكرام واحترام لجنة أخرى عينتنى رئيسا وهى تؤلف من أعيان الأوروبيين فى هذه العاصمة الذين لا يشغلون وظائف رسمية ، ولكنها اعتمدت[٢٨] أن لا تظهر بل تقدم عليها هذه اللجنة التى هى أعلم من سواها وبالتالى أقدر على إظهار الإكرام الواجب لك . وعليه فإننى لا أخطب ثانية باسم تلك اللجنة أكرر فيها الأقوال التى قلتها فى خطبتى لأن الحقيقة واحدة وجميع أنواع البيان التى استعملتها للتفنن فى أساليب التعبير عن عواطفنا لا تزيد شيئا عن الكلمتين المهمتين اللتين نطلب منك أن تحفظهما فى ذاكرتك كما نحفظهما نحن أيضا فى ذاكرتنا وهما الأسف والشكر ـ تصفيق طويل ـ

وإذا كنت قد تذرعت بصفتى خطيبا رسميا لأرفع إليك هذه الأمنية الخصوصية فما ذلك إلا ظنا منى بأنها لربما تزيد فى جزية الشكر الواجب الذى كلفت أن أرفعه إليك .

قال ثم إن كلمتى الثانية تتعلق بشخصى خاصة يا حضرة اللورد ، فإنه يستحيل على أن أعود إلى مقعدى بعد أن تكلمت باسم الذين كلفونى أن أترجم لكم عن عواطفهم بدون أن أعلن سرورى من إناطة هذه المهمة التى انتدبت لها برجل فرنسوى . ويظهر لى أننى أكون ناكرا للجميل إذا لم أعلن على رؤوس الملأ لزملائى أعضاء اللجنة التى أمثلها امتنانى وشكرى لهم على العناية التى حملتهم على اختيارى مندوبا لمخاطبة رجل حكومة مركزه فى المقام الأول بين الذين ساعدوا على ما اتفقوا أن يسموه بهذا الاسم اللطيف وهو (الاتفاق الودادى) (بين إنجلترا وفرنسا) أعظم مساعدة) . انتهى بنصه .

فلما أتم الخطيب كلامه وقف (اللورد كرومر) وشكر الخطيب شكرا جزيلا وأثنى عليه ثناءً مستطاب ثم انى[٢٩] أعتذر لكم على عدم مقدرتى على إبداء كل عواطفى بالإفرنسية لضعفى فى معرفتها ولكنى سأقول قولى بالإنجليزية بعد هذا إن شاء الله إلى أن[٣٠] قال :

(٢٨) اعتمد = تعمدت قراءة اجتهادية .

(٢٩) ثم أنى = ثم قال إنى قراءة ترجيحية .

(٣٠) إلى أن قال = استبعدت العبارة لعدم انسجامها مع النص .

ثم وقف (مصطفى باشا فهمى) فقال (يا جناب اللورد ، بلسان الحكومة وبلسان السواد الأعظم من الأمة المصرية أبدى لك شعائر الأسف الأكيد على مفارقتكم هذه الديار . أسف تتزايد شدته على الخصوص لعلمنا أن الباعث الذى أوجب هذا الرحيل هو اعتلال صحتكم التى ضحيتموها باحتمال المشاق ومواصلة الأتعاب فى سبيل القيام بما فرضه عليكم حبكم لهذه البلاد وتفانيكم فى المساعدة على توطيد قواعد الثروة فيها بلا ملل ولا انقطاع عن العمل ، ولم تنس مصر أن أحسن الحال الذى وصلت إليه والذى استوجب الإعجاب العام هو نتيجة إرشاداتكم السديدة ومؤازرتكم الأكيدة . نعم إن التاريخ خير كفيل بتسجيل ما أحرزته من أسباب التقدم والإرتقاء بتقدير هذه المآثر قدرها من الإكرام والإجلال . ولكن لى كلمة أقولها الآن بوجه الإجمال وهى أن الفَلاَّح المصرى قد جنى ثمرات هذا الإصلاح وأحس بنعمة هذا الإسعاد ماديا وأدبيا بأكثر من كل إنسان سواه ـ تصفيق حاد .

هذا العمل المجيد سيخلد إسمكم الكريم ويدعو مصر اليوم كما يدعوها فى مستقبل الأيام إلى الاعتراف لكم بهذا الجميل . وفى هذا المقام أعرب أيضا عن أسفنا لمفارقة (اللادى كرومر) التى استأثرت بقلوب البائسين بحنانها وإحسانها وخففت مصابهم بحسن مواساتها واستحقت بهذا الصنيع شكر الخاص والعام ـ تصفيق شديد ـ إنكم يا جناب اللورد قد أخصلتم[٣١] لمصر الود وجعلتم أجمل سنى حياتكم وقفا على خدماتها فصرنا على يقين بأنكم ستوالونا بعنايتكم على الدوام بما لنا على ذلك من الشواهد العديدة . ولا غرو إذا اغتنمنا هذه الفرصة لنعرب لكم فيها عن شدة تعلقنا بكم ولنقول أننا لا نزال نعتبركم كواحد منا ـ استحسان ـ انتهى بنصه ـ

وعند ذلك قام (لورد كرومر) وارتقى منصة الخطابة وقال بالإنجليزية ما تعريبه :

(حضرات أصحاب السعادة والسادة الكرام ـ أرجو أن تقابلوا أقوالى بالحلم والإغضاء . إن خطابى هذا يكلفنى جهدا عظيما جسديا وأدبيا . أما جسديا فلأنه يلزمنى أن أجمع قوتى كلها لأخطب عليكم . وأما أدبيا فلأن اللطف الذى غمرنى به الناس على اختلاف طبقاتهم فى الأسبوع الذى فات غلبنى وحملنى جميلا كثيرا ، ولأنى أشعر بألم

(٣١) أخلصتهم = أخلصتم قراءة ترجيحية .

الحزن الشديد فى نفسى على فراق هذه البلاد التى لى فيها أصدقاء كثيرين وبها تقترن كل الحوادث التى حدثت فى خدمتى العمومية وكذلك الأفراح والأتراح التى أصابتنى فى حياتى المنزلية ومعيشتى العائلية مدة جيل تقريبا .

إنى لا أفارق هذا القطر أيها السادة لأسباب سياسية ـ تصفيق طويل حاد جدا ـ وإنما أفارقه لأن يد الدهر ابتدأت تعضل على ، ولأنى بعد ما قضيت فى الخدمة العمومية نحو نصف قرن كنت فى أكثره أكد كدا وأعدو عدوا ، يحق لى الآن أن أنال نصيبى من الراحة ـ استحسان ـ ولأنى أشعر أيضا أن المهام والمصالح العظيمة التى تطلب من وكيل الدولة البريطانية السهر عليها فى هذا القطر يكون السهر عليها الآن أوفى وأتم إذا عين لها من هو أصغر سنا وفى إبان قوته ونشاطه عقلا وجسدا . إسمعوا إسمعوا . أرى قبل التكلم فى أمور أخرى أن أقول كلاما قليلا عن الإرشادات اللطيفة والعبارات الرقيقة التى فاه بها جناب (الكونت دى صوربون) وعطوفة رئيس النظار عن السيدة التى هى معينتى فى حياتى ، فقد وقعت أقوالهما وقعا شديدا فى نفسى ولا شك أنها وقعت كذلك فى نفسها أيضا وهذا موضوع لو أطلقت لنفسى العنان فيه لعدوت فى ميدان الفصاحة شوطا بعيدا ـ ضحك ـ لكنى أملك عواطفى لأسباب ظاهرة وأكتفى بقولى أنى لما كنت أصغى إلى الخطبتين اللتين سمعناهما كنت أتمنى أن أكون مكان الخطيبين الكريمين وأطرى (اللادى كرومر) عوضا عن أن أرد على الثناء والإطراء ـ تصفيق وضحك ـ وربما جاز لى فى هذا المقام أن أقول أنه كان من أقرب الأمور إلى قلب (اللادى) الإشتراك مع غيرها من السيدات المحسنات فى تقليل الوفيات من الأطفال وتخفيف فتك الآفات بهم فتكا ذريعا . فعسى أن هذا العمل الذى ابتدأ ابتداءً حسنا لا يهمل فى المستقبل ـ تصفيق ـ

ولست أطيل الشرح أيها السادة فى تاريخ ما مضى ولا أستطيع أن أشير إلى جميع الذين أسعدنى الحظ بأن أكون شريكا لهم فى إنشاء (مصر الجديدة) ، وإنما أقول أنى كنت دائما أنال كثيرا من نصيبى من مديح الناس على كل أمر حسن تم فى هذه البلاد حديثا . والحال أنى لولا مؤازرة غيرى من المصريين والأوروبيين أبناء أمتى وأبناء الأمم الأخرى ما استطعت أن أعمل شيئا مما عملناه ، وأقول أنه لم يعمل عملا أنفع مما عمله (المستر فندلى) الذى كان ينوب عنى فى ظروف وأحوال لا تخلو من صعوبة خصوصية مدة غيابى فى السودان الأخيرة ـ تصفيق ـ

لا ريب عندى أن فى أربع وعشرين سنة التى قضيتها فى وظيفتى هنا ارتكبت أخطاءً كثيرة ويحتمل أن يكون قد عادانى الناس أيضا ولكنى أومل أن يكون وجودكم اليوم دليلا على أنى ربيت لى أصدقاء كثيرين أيضا ـ تصفيق شديد وهتاف ـ وقد أثر فى حضور كثيرين من رصفائى الأجانب الذين كانت العلاقات الشخصية بينى وبينهم على غاية الوداد كما كانت بينى وبين الذين سبقوهم أيضا .

قلت أنى لا أستطيع أن أتكلم عن جميع الذين كانوا شركائى فى العمل ، لكن ذكر واحد أو اثنين من أكابرهم يخطر الآن على بالى ، وترد صورتهما بجلاء وقوة أمام ذهنى حتى لا يسعنى إلا أن أذكر اسميهما فى هذا المقام ، فأقول كلمة أو كلمتين عن شخص أرى أن الناس لم يعطوه حقه ولا أنصفوه وأريد به المغفور له سمو الخديوى (توفيق باشا) ـ تصفيق ـ على أنى لا أقصد أن أسرد ألفاظ المدح الفارغ أو أورد الأقوال والعبارات المصطلح عليها بلا نظر إلى صحة معانيها بل إنى أعنى ما أقول . (فتوفيق باشا) كان يعرف بلاده ويعرف أهل بلاده أيضا حق المعرفة ، وكان شبه حلقة الاتصال بين المصلحين والشعب المصرى . يلطف من شدة غيرة الأولين أحيانا ويبذل نفوذه مع الآخرين لنفى خوفهم من الإصلاح الذى كان حينئذ يفوق خوف المحافظين المتطرفين ، فالتاريخ يكون ظالما لا عادلا إن لم يجعل (لتوفيق باشا) مقاما ذا شأن بين الفائزين من الملوك والأمراء الشرقيين . وهو لم يكن يشترك بنفسه كثيرا فى إصلاح مصر وتجديدها ولكنه كان لحكمته وحسن فطنته ينشط ويؤيد الساعين فى تجديدها وإصلاحها ـ تصفيق) .

قال (وهناك شخص آخر من عظماء الزمن الماضى يخطر الآن على بالى وتتردد صورته فى هذا المقام أمام ذهنى ، فالذين يعرفون منكم أيها السادة تاريخ العهد الماضى فى مصر والذين قرأوا تقريرى السنوى الحديث يعلمون أن ما اقترحته لتعديل نظام الإمتيازات الأجنبية إنما هو بمثابة تتمة للعمل العظيم الذى يحكى أعمال أرباب السياسات والذى خصه (المرحوم نوبار باشا) خطته الأصلية ـ تصفيق كثير ـ

وأذكر أيضا اسم رجل آخر من أرباب السياسة وأنا مسرور بمشاهدته الآن بيننا ، ألا إنه صديقى القديم المؤتمن (دولة رياض باشا) ـ تصفيق شديد ـ إننا أيها السادة فى زمان لا يحتاج فيه الشاب المصرى الذى يتظاهر بمظهر المصلحين إلى شجاعة تذكر . ولكن

ما هو كائن الآن لم يكن كذلك طول الزمان ، بل كان (لإسماعيل باشا) رحمه الله طرق عنيفة فى معاملة الذين لا يطأطئون الرؤيا أمامه ولا يعنون لهيبته ـ ضحك . ومع ذلك وقف (رياض باشا) منذ ثلاثين سنة واعترض بكل جرأة على سوء الإدارة وأقام الحجة على فساد الأحكام الذى كان متغلبا على مصر فى تلك الأيام وعلق الجرس بعنق الهر . فأعجبت بشجاعته هذه حينئذ وكثيرا لم أنكف قط عن النظر إليه بعين الاعتبار بل بعين المحبة التى تستحقها صفاته العبقرية ـ تصفيق ـ

وماذا أقول عن صديقى العزيز على ، السامى المقام فى عينى (عطوفة مصطفى باشا فهمى) ـ تصفيق حاد وطويل ـ فقد قضينا السنين الطوال ونحن كلانا على أعظم صداقة شخصية .

فأولا أقول أنه من أعظم الذين التقيت بهم فى حياتى لطفا وأكرمهم أخلاقا وأحسنهم مناقب ـ تصفيق حاد ـ إمتاز بتمام الإخلاص والاستقامة والحرية والصدق فى كل عمل من أعمال حياته . ـ ثانيا أقول أنه خدم أهل بلاده أجل الخدَم ولكن بطريقته المعهودة من السكينة والهدوء والإبتعاد عن التعرض لغيره والدخول فيما لا يعنيه ، وأنا أعلم أن هذه الأقوال القليلة لا توفى صفاته الجليلة بعض حقها ـ تصفيق ـ ولكن لا يزال لدى قول كثير والوقت يقضى على أن اختصر فى ما أقول . ومما أوجب لى السرور والتعظيم أنى عاشرت ناظر الخارجية المصرية سعادة (بطرس باشا غالى) معاشرة طويلة ـ تصفيق كثير جدا ـ وكان يؤدى أعظم منفعة وأجَّل خدمة بما أوتى من ثاقب البصيرة وسعة الحيلة العقلية فى حل المشكلات التى تنجم عن حالة البلاد السياسية الخصوصية ـ تصفيق ـ وأذكر أخيرا أيها السادة اسم رجل لم اشتغل معه إلا من عهد قريب ، ومدة معاشرتى القصيرة له قد علمتنى أن أحترمه إحتراما عظيما وإن أصاب ظنى أو لم يخطىء كثيرا فسيكون أمام ناظر المعارف الجديد سعادة (سعد باشا زغلول) مستقبل عظيم للمنفعة العمومية لأنه حائز لجميع الصفات اللازمة لخدمة بلاده ، فهو صادق مستقيم كفء مقتدر شجاع فيما هو مقتنع به ، وقد احتمل الطعن والذم من كثيرين دونه فضلا بمراحل من مواطنيه ، فهذه صفات سامية والواجب أن صاحبها يتقدم كثرا ـ تصفيق ـ

أما شركائى فى العمل من الأوروبيين فغاية ما أقوله عنهم أنى أشكرهم من صميم فؤادى على مساعدتهم التى لا تثمن ، وعلى شدهم أزرى فى أحوال محفوفة بمصاعب عظيمة . ولا يسع المقام ذكرهم الآن كلهم بأسمائهم ولكن انه(٣٢) كان فيهم من يجب على أهل هذه البلاد أن يعرفوا اسمه خصوصا ضلعه(٣٣) السير كوان(٣٤) منكريت والمستر وليم(٣٥) جارستين وأعوانهما الذين أعطوا المصريين أعظم ما يحتاجون إليه وهو ماء الرى . وأضيف إلى اسميهما اسم رجل فرنسوى شهير جليل هو (المسيو كسبرو)(٣٦) الذى أكسبته أبحاثه العلمية فى تاريخ مصر القديم ما هو حقيق به من الصيت الطائر فى الآفاق .

أخيرا أيها السادة أقول إنه لم يكن يهمنى ويلذ لى من كل واجباتى المختصة(٣٧) بالسودان . وساعد اشتراكى مع (السير ونجت) وأعوانه الغيورين الأكفاء فى الإصلاح العظيم الجارى فى تلك البلاد من أعوام مصدرا استمد من(٣٨) الفخر والسرور كل ايام حياتى - تصفيق كثير - حسن ظنه بالمصريين(٣٩) حسن اعتذاره عنهم . فبمساعدة الذين ذكرتهم ومساعدة كثيرين عندهم أظن أننا عملنا عملا غير ردىء فى ربع قرن من الزمن ، وإن يكن فيه ما فيه من القصور والتقصير . ولكن يقول لى قوم كثيرين أن المصريين بوجه الإجمال لا يعترفون كثيرا بالجميل والمنافع والفوائد التى لا شك فى أنها منحت لهم . على ذلك إنى لا أعرف ما يشعر به المصريون من هذا القبيل ولكن فيلسوفا فرنساويا قال قولا أورد معناه ولست أجزم باقتباس مبناه - قال إذا قاسع(٤٠) شبع الألم الظلم . . .

(٣٢) إنه = إن قراءة اجتهادية .

(٣٣) ضلعه = فلعله قراءة اجتهادية .

(٣٤) السيركوان منكريت = السيركولن سكوت مونكريف Sir Colin Scott-Moncrief - قراءة اجتهادية - انظر ترجمته فى القسم الأول من (الكافى) - الجزء الخامس - ص ٢٤ - حاشية ١٠١ .

(٣٥) وليم جارستين = راجع ترجمته فى القسم الثالث من (الكافى) - الجزء الخامس - ص ٩٠٢ - حاشية ١١ .

(٣٦) يحتمل أن يكون الإسم هو (ماسبيرو) - سير جاستون كاميل شارلز Maspero, Sir Gaston Camille Charles (١٨٤٦/٦/٢٣ - ١٩١٦/٦/٣٠) .

- انظر ترجمته فى القسم الثالث من (الكافى) - الجزء الخامس - ص ٧٨٨ - حاشية ٢٢١ .

(٣٧) المختصة = أكثر من تلك المختصة - أعدت قراءة العبارة على هذا الشكل ليستقيم المعنى .

(٣٨) من = منه قراءة اجتهادية .

(٣٩) حسن ظنه بالمصريين حسن اعتذاره عنهم = لاتنسجم العبارة مع باقى النص سواء قبله أو بعده ، وإن كان من المحتمل أن تكون عائدة على (وينجت) ، لكن المؤلف أو الناسخ لم يستطع أن يقدمها فى الصياغة الملائمة .

(٤٠) إذا قاسع شبع الألم الظلم = إذا قاسى شعب الألم والظلم . . . . قراءة اجتهادية عدلت العبارة على هذا النحو لأن الفقرة التالية تتحدث عن معاناة المصريين فى الماضى .

ولا ريب أن أهل مصر قاسوا كثيرا فى ماضى زمانهم ، ومهما كان شعور المصريين وكانت حسياتهم ومهما برهن لى المبرهنون وأقاموا على الحجة والدليل فلست بتاركهم يحجبونى ليخرجونى من الوهم الشريف الذى أنا فيه إن صح أنه وهم لا حقيقة . وأعنى بذلك أنه لا يمكن أن أصدق أن المصريين أو أحسنهم على كل حال ينكرون أن يد التمدن الغربى التى كانت تستعملها إنجلترا لعمل عملها فى الخمس والعشرين سنة الماضية هى التى نشلتهم[٤١] من بالوعة اليأس بعد ما ألقاهم دهرهم فيها . وهب أنى اقتنعت ـ وما أنا بمشنع[٤٢] مطلقا ـ أن أبناء الجيل الحاضر لا يعترفون بهذه الحقيقة الجليلة فإنى لا أزال أدل[٤٣] مع ذلك أن نسلهم يعترف بها . إذ المعتاد أن أولاد العميان يكونون من المبصرين) ـ ضحك ـ

قال (أيها السادة لما أتيت لأتقلد وظيفتى الحالية فى هذه الديار وضعت نصب عينى غرضين وجعلت أسعى إليهما دواما مدة أعوام سابقة أحدهما سياسى والآخر إدارى .

فالغرض السياسى الذى وضعته نصب عينى هو أن أكون من جملة المساعدين على ذلك الاتفاق الذى قضت الأحوال بمسته[٤٤] بين فرنسا وإنجلترا ولم تقض ذلك مقاصد حكامها وأهاليها ولا مطامعهم ـ قال السياسى الطائر الصيت (المسيو[٤٥] غابشا) ـ الذى

(٤١) انشلتهم = انتشلتهم قراءة اجتهادية .

(٤٢) يمشنع = بمقتنع قراءة اجتهادية .

(٤٣) أدل = أمل قراءة اجتهادية .

(٤٤) بمسه = به قراءة اجتهادية .

(٤٥) المسيوغابشا = المسيوغامبتا Gambetta, Leon قراءة اجتهادية .

ـ وهو سياسى فرنسى ولد فى ١٨٣٨/٤/٢ وتوفى ١٨٨٢/١٢/٣١ . ساعد فى إقامة الجمهورية الثالثة . اكتسب شهرته عندما دافع كمحام عن مهيج ثورى فى ١٨٦٨ وانتخب للمجلس النيابى فى ١٨٦٩ . عمل وزيرا للحرب أثناء الحرب الفرانكو ـ بروسية (١٨٧٠ - ١٨٧١) . بعد استسلام (نابليون الثالث) فى (سيدان) اسهم (غامبتا) فى خلق حكومة للدفاع الوطنى وعمل كوزير للداخلية فيها . حقق هروبا دراميا بواسطة (المنطاد) من (باريس) المحاصرة وأدار (الحرب الشعبية) ضد الألمان من جنوب غرب فرنسا . أصبح رئيسا للوزراء فى ١٨٨١ لكن وزارته لم تستمر طويلا . سعى لإقامة أصلاحات إنتخابية ، حريات صحفية ، وقوانين لفصل الكنيسة والدولة . كان يمكن له لو نجح ، أن يغير نظام الجمهورية الثالثة ليماثل حكومة بريطانيا البرلمانية ، لكنه لم يستطع البقاء فى السلطة لينفذ إصلاحاته .

- Lexicon Universal Encyclopedia - Vol., 9 - pp., 24 - 25.

كانت إرادته المتسلطة على العقول مدة تقلده منصبه تؤثر فى سير تاريخ مصر تأثيرا دائما - يوصى أهل بلاده (إياكم وأن تقطعوا حبل المحالفة الإنجليزية) . ومذهبى فى السياسة الدولية الذى يشاركنى عدد عظيم من أهل بلادى فيه يمكن يعير[٤٦] عنه بهذه العبارة (إياكم وأن تقطعوا حبل الاتفاق الفرنسوى) - تصفيق - فإن هذا الاتفاق الذى أشار إليه الكونت[٤٧] ويضربون[٤٨] بعباراته الطليقة مبنى على اشتراك الفريقين فى المصلحة وعلى قرب الجوار وتشابه النظامات السياسية واحترام كل فريق للآخر احتراما ناتجا عن تلاقيهما فى ساحة الوغى كثيرا واقتتالهما فيها شديدا[٤٩] ، وعلى كون خصايص كل منهما وصفاته مكملة لخصايص الآخر وصفاته . وزد على ذلك كله أنه ليس فى هذا الاتفاق تهديد لأحد وإنما هو صادر عن رغبة الفريقين فى حفظ السلام فى العالم . فإن كان فى العالم أمتان تقضى عليهما الأحوال والظروف بأن تتصادقا وتتحابا فإنما هما أمة فرنسا وإنجلترا - تصفيق - . فلا يخفى على أقل مبتدىء فى السياسة أنه ما دامت هذه الفرصة[٥٠] المصرية تنز[٥١] بصداقة تينك الأمتين لابد وأن تمس[٥٢] . ولذلك لما أتيت مصر سنة ثلاث وثمانين وثمانمائة وألف عقدت نيتى على أن أسعى فى سد هذه الثغرة بقدر ما تمكننى وظيفتى ، وكان ذلك سعيا شاقا كسعى الطالع جبلا حاملا ثقلا . فإن الأمتين قضيتا الأعوام وكل منهما ينظر للأخرى شزرا ، وقد دارت بينهما المضاربة والملاكمة القاسية ولكنها لم تتعد والحمد لله حد الكلام . ونلت أنا نصيبى منها فقد ظللت زمنا والجرائد الفرنساوية تذكر اسمى منعوتا بنعوت الذم إلا نادرا ، وأظن أن أكثرها كان يلقبنى بكرومر الوحش - قهقهة - وقد شبهتنى مرة على ما أتذكر بأعظم آلهة الوثنيين حبا لشرب الدماء حيث لقبتنى بجولوك . ولكن مداعبات الجرائد هذه هى فى

(*) كان المفروض أن يكون رقم هذه الصفحة ٩٨٣ .

(٤٦) يعير = أن يُعبر قراءة ترجيحية .

(٤٧) يقصد كونت دوسربون ممثل لجنة الأجانب فى الاحتفال بتكريمه (كرومر) .

(٤٨) ويضربون بعباراته الطليقة = استبعدت العبارة لعدم تأثيرها على السياق .

(٤٩) شديدا = قتالا شديدا قراءة اجتهادية .

(٥٠) الفرصة = الأمة قراءة اجتهادية .

(٥١) تنز = تعتز قراءة اجتهادية .

(٥٢) تمس = تنجح قراءة اجتهادية .

المناقشات السياسية كالقوية[٥٣] والتوابل فى الطعام تكسبها حياتا[٥٤] وتزيدها نكهة ورونقا . فلا يحسن بالإنسان أن يحفل بها كثيرا ولا سيما وأن زمانها قد مضى لحسن الحظ وانقضى وتغيرت لهجة الجرايد الفرنساوية حتى مرة[٥٥] فى هذه الأيام بهذا الشيخ الجليل ـ قهقهة ـ على أنى أفرغت الجهد مدة أعوام كثيرة فى المساعدة على عقد الاتفاق بين الأمتين ـ وأقول الآن أن أسعد يوم من أيام خدمتى فى مصر كان يوم ستة أبريل سنة أربع وتسعمائة وألف الذى وقع فيه الاتفاق الإنجليزى الفرنساوى . ولست أدعى أنى كنت من أشهر واضعى هذا الاتفاق بل أعترف أن الفضل فى عقده كان لأرباب السياسة المتولين زمام الأمور الخارجية يومئذ فى باريز ولندن . وربما جاز لى من غير أن أمس واجب الإكرام والإحترام أن أضيف إليهم مليكنا السامى النهى العظيم المواهب العقلية الذى نلت الفخر والامتياز بخدمته السنية ـ تصفيق ـ ولكن يصوغ[٥٦] لى أن أقول أن الجهد المتواصل الذى بذله أولى الشأن فى مصر مدة أعوام طويلة لاجتناب كل ما يمكن اجتنابه من المنازعات وأفضى[٥٧] كل الدعاوى والشكاوى العظيمة التى نتجت عن احتلال بريطانيا لمصر ـ هذا كله مهد طريق الاتفاق وسهل الأمر على المتعاقدين فيه) .

ثم تكلم عن الغرض الإدارى وهو المقصد الثانى ، ثم عن الارتقاء الأدبى والعقلى ، ثم عن تعليم البنات وفائدته وفعله فى نفوس أبناء المستقبل ، والتعليم الابتدائى والتعليم العالى وافتقار البلاد إلى كثير منه واهتمام أمير البلاد بأمر الناشئة الحديثة . ثم عطف على بيان مميزات (السير غورست) وجريه على سياسته وقال (إنى لا أمدح تغييرا سياسيا فى السياسة ولا أشير بكل خروج عنيف عن المناهج الحالية إلى منهاج جديد ، وإذا اقتضى الأمر فإنى سأطلب وألح خصوصا بأن هذه الحركة الكاذبة المفتعلة لإنشاء مجالس نيابية سريعا ـ يريد حركة أعضاء الجمعية العمومية والحزب الوطنى ـ لا تعامل

(٥٣) كالقوية = استبعدت الكلمة لعدم فهمها ـ على أنها لا تؤثر فى السياق إذا استبعدت ، فالمقصود هو مداعبات الصحف فى المناقشات السياسية ، وعلى أى حال فإن وصف هذه المداعبات (بالتوابل بعد ذلك قد فسر المعنى المقصود .

(٥٤) حياتا = حياة قراءة اجتهادية .

(٥٥) مرة فى = مرت قراءة اجتهادية .

(٥٦) يصوغ = يسوغ قراءة ترجيحية .

(٥٧) وأفضى = وفض قراءة ترجيحية .

إلا بقدر ما تستحق . وإن سألتمونى أيها السادة عما تستحق قلت لكم أنها لا تستحق شيئا لأنها لا تعبر فى الحقيقة عن رأى المتنورين من سكان القطر المصرى أوروبيين كانوا أو مصريين . بل إنه متى زال كل ما يقال الآن من الهذيان والمبالغة كان الإختلاف فى الرأى بينى وبين خصومى وخصوصا الذين فى بلاد الإنجليز منهم إختلافا فى الدرجة لا فى المبدأ . فهم يريدون أن يعدوا عدوا سريعا جدا وأرى أن الحب(٥٨) أحسن سير يوافق مصلحة البلاد) إلى أن قال (وأن ما أقوله هنا ليس ورائه مزايا سياسية ، كلا بل لأنى أومل أن ما أقوله لكم الآن يترجم إلى لغة أهل البلاد ويبلغ مسامع الملايين الذين لا يسمع لهم صوت . أولئك الفلاحين اللابسين الجلابيات الزرقاء الذين توثق تقدم البلاد فى الثروة واليسر على تبعتهم) . قال (فأنا أحبهم وأعد نفسى دائما صديقهم الحقيقى ولذا فإنى أحذرهم من أن يغتروا ويضللوا بأقوال الذين يدعون كذبا بأنهم ينوبون عنهم وينطقون بلسانهم وينقلون عنهم بلا أذن ولا توكيل منهم آراء يرونها بل لا يفهمونها ولا يدركونها ، ولا يطلبون أمورا سياسية لو أجيبوا لها حالا لعادت بالضرر على مصالح الناس عموما وعلى مصالح أفقر أهالى القطر خصوصا) . إلى أن قال (والذين يهمهم إدخال التمدن الحقيقى لهذه البلاد والذين يريدون أن تكون الحكومة حكومة عقل وأن يكون تقدم البلاد مستمرا دائما يتحدون جميعهم معا سواء كانوا مسلمين أو مسيحيين أو أوروبيين أو أفريقيين أو أسيويين ويقاومون القوات المجاهدة فى سبيل التأخر والتقهقر حقيقة ، سواء كان جهادها عن جهل أو عن عمد وقصد) . إلى أن قال (ولا شك عندى أن الصعوبات لا تزال كثيرة فى سبيل الصالح(٥٩) المصرى وخصوصا (السير غورست) ولكن آخر كلمة أقولها له ولكم كلكم هى كلمة كان عباد (الآلهة إيزيس) فى هذه البلاد كثيرا ما ينقشونها على قبورهم بلغة القوم الذين هم أهل التمدن الأوربى ، والذين استوطن أناس كثيرون من ذريتهم هذه البلاد لخيرها والذين أعد منهم أصدقاء كثيرين لى ـ وأعنى(٦٠) لها لغة اليونان . ومعنى تلك اللفظة اليونانية (تشجعوا) ـ تصفيق ـ ثم قال

---

(٥٨) الحب = الخَبّ قراءة ترجيحية .

ـ والخب هو نقل الفرس أيا منه وأيا سره جميعا فى العدو ـ وخب فلان فى الأمر : أسرع ، والخبب ضرب من العدو . ويحتمل أن يكون قصد (كرومر) هو السير السريع دون السرعة المفرطة .

ـ المعجم الوجيز ـ ص ١٨٣ .

(٥٩) الصالح = المُصلح قراءة اجتهادية .

(٦٠) لها = بها قراءة اجتهادية .

(فأودعكم سادتى وأنا واثق ثقة تامة بمستقبل هذه البلاد التى كانت موطنا لى سنين هذا عددها ، والتى كانت جراثيم التمدن الحقيقى فيها على ما أرجو حتى صار يعسر استئصالها . أودعكم على الكره منى وأستودعكم الله) أ . هـ فجعل القوم يصفقون تصفيقا طويلا شديدا ويهتفون هتافا مكررا . ثم صدحت الموسيقى بالنشيد الأميرى فانصرفوا جميعا .

أقول وكانوا قد نظموا ذلك التياترو على طريقة مخصوصة لقبول ألف ومايتين مدعو . فالملعب حُوِلَ إلى قاعة نصب فى صدرها منبر . ومن وراء المنبر صُفَّت أربع كراسى على شكل نصف دائرة ومن ورائها صف آخر من الكراسى على شكل نصف دائرة أيضا ، ومن ورائها أيضا الكراسى مصفوفة لجلوس المدعوين . فلما دخل (اللورد كرومر) صدحت الموسيقى بسلام الملك وهتف (الجنرال بللوك) أحد مقدمى جيش الاحتلال (هورا) ثلاثا فردد الحاضرون الصوت . وجلس اللورد فى الكرسى الأوسط من الدائرة الأولى وعن يمينه (الرئيس مصطفى فهمى باشا) (والكونت دو صربون) وعن يساره (السير غورست) ، وفى الدائرة الأخرى (رياض باشا) والوزراء ووكلاء الوزراء عدا جماعة الإنجليز ، (وونجت باشا السردار) (والجنرال بللوك) ومن ورائهم لجنة الاحتفال والوجوه والأعيان . وفى لوج الأمير (اللادى كرومر) و(اللادى غورست) وصويجاتهما[٦١] . وإلى جانبه لوج قرينات قناصل الدول ، وإلى شمال الملعب لوج أمراء البيت العلوى . وكان لكل هيئة مكان مخصوص . فلما وقف اللورد وتكلم حتى بلغ ذكر الاتفاق بين الإنجليز والفرنسيس شخصت الإبصار إلى قنصل جنرال (ألمانيا) وهو جامد لا يتحرك . ولما تكلم عن الأمير نشط من سكونه وأبرقت عيناه وضرب المنبر بيده ورفع صوته . فتردد الجمهور فى التصفيق له لو لم يكن أحد كبار الأهلين وهو (الشيخ عبدالكريم[٦٢] سلمان)

---

(٦١) وصويجاتها = وصويحباتهما قراءة ترجيحية .

(٦٢) الشيخ عبدالكريم سلمان (٢٣ يونيو ١٨٤٩ - ١٧ مايو ١٩١٨) . مصلح إسلامى وكاتب وقاضى شرعى . ولد في جمباواى من أعمال (أيتاى البارود - بحيرة) والتحق بكتاب قريته ودرس فى الأزهر حيث عرف (الأفغانى) و(محمد عبده) . خلف (عبده) بعد هزيمة الثورة العرابية فى تحرير جريدة (الوقائع المصرية) فى الوقت الذى احتوت فيه أدبا وأبحاثا ثقافية . كان مفتشا فى جهاز القضاء الشرعى وأصبح عضوا فى المحكمة الشرعية العليا فى سنة ١٨٩٧ . عمل مع (محمد عبده) فى مجلس إدارة الأزهر واحتفظ بمجلدات من محاضر جلساته . كان داعية قويا للإصلاح .

- أرثر جولد شميت (قاموس تراجم مصر الحديثة) - ترجمة وتحقيق عبدالوهاب بكر - مرجع سبق ذكره - ص ١٨٠ .

أول المصفقين لما صفق أحد . وكان كل قليل يمسح نظارته بطرف سترته وكان صوته ضعيفا وفيه نبرة من صوت الأطفال ويؤخذ منه أن أسنانه صناعية . وبعد أن أتم خطبته تقدم من (الأمير حسين) عم (الأمير عباس) وصافحه كما صافح الوزراء جميعهم ، فارتفعت أصوات الحاضرين بالدعاء فخرج من الباب الشرقى .

ولما كان سادس مايو من السنة ثالث عشرة ربيع أول سنة ألف وثلثمائة وخمسة وعشرون ، وثامن عشرى برموده سنة ثلاثة وعشرين فى نحو الساعة العاشرة صباحا أوقفت الجنود الإنجليزية صفين من المحطة من (شارع باب الحديد) (فشارع كامل) (فشارع المغربى) حتى (دوران سوارس) بسلاحهم ، ووقفت الموسيقى الإنجليزية فى (دوران سوارس) . واصطف أصحاب الشرطة وتلامذة مدرسة الحربية من (دوران سوارس) حتى دار الوكالة البريطانية . فخرج (لورد كرومر) من تلك الديار التى تولى فيها الأمر والنهى أربع وعشرين سنة وعن يمينه قرينته وأمامه ولده وأمام عربته فارسان من الإنجليز وحولها كوكبة من هؤلاء الفرسان وورائها عربة موظفى الوكالة . وكان (غورست) قد تقدم إلى المحطة كما تقدمه جماعة الوزراء وأهل المناصب وأصحاب الخطط . فعند (دوران سوارس) عزفت الموسيقى بالنشيد الملكى وعند منل[٦٣] (الكونتننتال) صفق له جماعة من الإنجليز اجتمعوا هناك وكذلك عند نزل شبرد .

أخبرنى من كان عند (باب الحديد) عند مرور موكب اللورد كرومر أنه سمع أحد العامة يقول عندما شاهد اللورد فى عربته (الدوام لله وحده) . ولما وصل المحطة حيته الجنود وجعل يصافح الحاضرين ، ثم ركب القطار فقدم بعضهم الأزهار إلى قرينته . يقال وكان عند الوداع شديد الإنفعال باد عليه التأثر والتعب . ولما تحرك القطار أطلقوا من القلعة خمسة عشر مدفعا . وكانت المديريات قد تلقت الأمر من وزارة الداخلية بحشد الخفراء والعمد على المحطات التى يمر بها القطار ففعلت . ولما وصل إلى بور سعيد احتفلوا بوداعه هناك أيضا أيضا إحتفالا باهرا للغاية .

أقول اختلفت الناس كثيرا فى قصد اللورد من خطابه هذا وما فيه من المغامز والمقاصد الخفية والحجج التى كان يدافع بها عن أعماله فى مصر ، ففريق النزلاء

(٦٣) منل = فندق أونُزُل قراءة ترجيحية .

استحسنوا قوله وحبذوه وصفقوا له استحسانا ، وفريق المصريين استهجن قوله وعاب عليه قصده وقال أن وصفه لمطالبهم بالمطالب الصبيانية ونقده لأمير البلاد نقدا مرا وعقده النية على أن لا ينفك فى عاصمة دياره عن مناهضة آمالهم وأمانيهم ضرب من العسف ، فإنه لم يرتق منبر الخطابة إلا والغضب يقعده ويقيمه . فلم يتمالك نفسه ولم يقو على كبح هواه . وارتفعت صيحة أصحاب الحزب الوطنى ينادون بالويل والثبور وعظائم الأمور ويقولون أن الرجل عدو للمصريين وقد خابت فيه آمالهم . يقول أن مصلحة بلاده ومصر مصلحة واحدة ، وهم يقولون بل مصلحتان متباينتان . يقول أنه أبطل الجور والظلم واستعمال الكرباج . وهم يقولون وبماذا كان جلد منكوبى دنشواى؟ يقول أنه بسط العدل ونصر الحق وهم يقولون أنه ظلمنا بتوغير صدور الأجانب علينا وبتغبغبهم[٦٤] فينا بما يحيكه عنا من حكايات البهت والباطل . وعندى أنه وإن كان الرجل لم يفعل كل الحسنات التى كان يطلبها خصومه فإنه لم يأت كل السيئات التى هم يتهمونه بها ، وإذا هو فخر ففخره صحيح لأنه لم يقف فى سبيل التقدم ولم يخطىء فى الغالب قصدا . أى نعم وقد بدل من سياسته مرارا مع المصريين فكان يسترضيهم ويستميلهم بعزل الأجانب من وظائف الحكومة وخططها . فكان من وراء عمله هذا أن وقعت الفرقة بين المسلمين والنصارى وبلغت حدا ليس له مثيل فى تاريخ الأمة قبل الاحتلال حتى انخمرت[٦٥] عقول الكافة بسموم البغضاء وكادت الحزمة تتصرم ونار الفتنة بين العنصرين تضطرم . كان الرجل كبير الإقناع قوى الشكيمة قبض على الإمارة بيد من حديد حتى شارك أميرها فى أمره وحتى زاحمه فى سلطانه ، وطاوع فى غلبته وساوس النفس . كان إذا قصد أمرا بالغ فى الندب عنه والحماية له وتعظيم من عظمه وإهانة من استهان به وخالفه غير مفرق بين الأمير والوزير والكبير والصغير حتى صنائعه والملتفين حوله . كان إذا خاطب الأمير فى غرض فبلمحة دالة وإشارة خفيفة ترفعا واستكبارا . وهو مع ذلك لا يتحجب[٦٦] عن الناس ولا ينكر على الخاصة ما يقولونه من أن الله تعالى تفضل به على المصريين ليبسط فيهم يده ونشر[٦٧] فى مصالح أحوالهم كلمته . يقولون أنه عجولا[٦٨]

(٦٤) وبتغبغهم = وبتحكمهم قراءة اجتهادية .

(٦٥) انخمرت = اختمرت قراءة اجتهادية .

(٦٦) يتحجب = يحتجب قراءة اجتهادية .

(٦٧) ونشر = وينشر قراءة اجتهادية .

(٦٨) عجولا ملولا = عجولٌ ملولٌ قراءة تصحيحية .

ملولا كثير الحركة ولذلك فخطره كان عظيما وبليته كانت عامة . مع أنه لم يكن ليأنف من أن يخالف عند الضرورة أمره ويركب من أجل خصومه نهيه ويقتحم كل مسلك وعر على بصيرة فيهم . ومع هذا تجدهم له قائلين وعنه غير راضين . وعندى أنه حق على هؤلاء الناس أن ينصفوه ولكن هيهات فقد جبل الإنسان على حب الانتصاف وعدم الإنصاف .

قالوا أنه أدل على الأمير وامتن عليه وجاهر بأنه يستشيره فضرب بينه وبين رعيته سياجا من حديد . قلت إذا كان ذلك كذلك فلا جناح على الأمير إذا استشغله وعاداه وباعده . وفى الأمثال (لا تدل فتمل) (ولا توجف فتعجف) . ويروى أن (القول الغليظ يستمع لفضل عاقبته) كما (يتكاره شرب الدواء المر لفضل منفعته) . وفى معنى هذا ما حكى أنه كان لبعض الملوك وزيرا إذا صبحه كل يوم يسلم عليه ثم يقول بعد السلام سيجدى[٦٩] المحسن بإحسانه وسيكفيك شر المسىء إساءته ، لا يترك هذا القول كل يوم . وكان مقربا عند الملك فحسده حاسد فسعى فى هلاكه بأن أضافه وأطعمه طعاما فيه ثوم كثير . ثم جاء ذلك الحاسد إلى الملك فقال له إن هذا الوزير الذى قدمته على كل أصحابك قد فضحك بين الناس وأشاع عنك البخر[٧٠] . فلما أصبح الصباح جاء الوزير على عادته للسلام على الملك فلما اقترب من الملك غطى فمه لئلا يشم الملك منه رائحة الثوم ، فظن الملك أنه غطى فمه لأجل البخر الذى أشاعه عنه فغضب وكتب رقعة إلى بعض نوابه وقال فيها إذا وصل حامل الرقعة فاقطع رأسه واسلخه وأملأ جلده تبنا ، ثم ختم الرقعة . وكانت عادة الملك أن لا يكتب بيده إلا رقعة الجوايز العظيمة . وأعطاها للوزير وأوهمه أنها جائزة صلة فخرج بها الوزير فوجد الحاسد الذى وشى عليه عند الملك واقفا بالباب فقال للوزير ما هذه الرقعة فقال جائزة كتبها لى الملك ، فقال ادفعها إلى حتى أذهب فأحصلها وأحملها إليك . فدفعها إليه فذهب بها ففعل به ما كان مكتوبا فيها . وجاء الوزير فى اليوم الثانى على عادته للسلام على الملك فتعجب الملك وسأله عن القصة فذكرها له فقال هل كان بينك وبينه شىء قال لا إلا أنه أضافنى وأطعمنى طعاما فيه ثوم كثير فلذلك غطيت فمى عند الملك بعد السلام عليه ، لا أعلم

(٦٩) سيجدى = سيُجزَيك قراءة اجتهادية .
(٧٠) الرائحة الكريهة من الفم
ـ المعجم الوجيد ص ٣٨ .

بينى وبينه غير هذا . فقال له الملك صدقت فى قولك كل يوم إن المحسن سيجزيك بإحسانه وسيكفيك شر المسىء إساءته .

كانت حكومة السودان قد سيرت حملة إلى الجنوب بقصد وضع أعمدة من الحديد للدلالة على الطريق للمسافر من شمال صحراء السودان إلى جنوبيها ، وكانت هذه الحملة مؤلفة من تسعة وعشرين جنديا وثلاثة خبراء وعيال الجند . قامت الحملة من (دبه) الواقعة على بعد مايتين وخمسين ميلا جنوبى (حلفا) لتحل[٧١] (بئر النطرون) التى تبعد عن (دبة) ثلاثمائة ميلا غربا ، وبين (الدبه) (وبئر النطرون) (بئر أبى طبارى) وهى تبعد عن (بئر النطرون) مسيرة أربعة أو خمسة أيام للمجد . ورمال هذه الصحراء متحركة متنقلة تحت رحمة الرياح . (وأبو طبارى) محطة من مراصد الحكومة فيها المخازن والمؤن والذخيرة خلافا (لبئر النطرون) . وليس بين المحطتين طريق قويمة . قالوا وكانت الخطة التى اختطها أصحاب الحل والعقد لسير تلك الحملة هى أنها تسافر من (دبه) إلى (أبى طبارى) فتحمل من هناك ما تحتاجه من الميده[٧٢] والذخيرة والماء ، ثم تسافر إلى (بئر النطرون) حيث تتم مهمتها وتعود إلى (أبى طبارى) حيث تجد كل ما تحتاج إليه . فلما سارت الحملة فى طريقها سيرت الحكومة ورائها حملة أخرى بالزاد والماء لتنتظرها فى (أبى طبارى) . فوصلت الحملة الثانية إلى أبى طبارى ولبثت تنتظر وصول الحملة الأولى خمسة أيام فلم تصل . وكانت العواصف تهب شديدة للغاية . فقلق رجال تلك الحملة على الحملة الأولى ، فشدوا رحالهم وساروا غربا يبحثون عنها فلم يجدوا لها أثرا ونفذ زادهم وماءهم فعادوا مسرعين إلى (دبه) وأخبروا بما جرى . فسير جماعة الإنجليز هناك كشافة من (دبه) إلى (أبى طبارى) . فسار الكشافة إلى كل وجه وصوب فلم يعثروا على أثر لها . وبينما هم عائدون إلى (دابه) عثروا على تسعة أشخاص فى الجهة الجنوبية الغربية ثم وجدوا تسعة عشر قد تخلفوا فى وسط الطريق ثم وجدوا ثلاثة آخرين فكان جملة ما عثروا عليه ستة وعشرين نفسا من خمسين الذين هم رجال تلك الحملة . فجعلوا يبحثون هنا وهناك فوجدوا جثتين على مسافة ثلاثمائة ميل غرب (الدبه) ووجدوا شخصا مدفونا تحت الرمال ، ولم يهتدوا على باقى رجال الحملة . ويقال أن مقدم الحملة

---

(٧١) لتحل = لتصل قراءة تجيحية

(٧٢) الميده = الميرة قراءة ترجيحية .

قد أصابته ضربة الشمس فأضاعت صوابه فسار بالحملة جنوبا فكان نصيبها ما حدث .

وكثرت شكوى الناس جميعا فى القاهرة ومصر القديمة من رداءة مياة الشرب التى تستخرج[٧٣] شركة مياه القاهر من آبارها الإرتوازية ، وعلت صيحتهم واستعانوا ببعض أصحاب الصحف يعيبون على أصحاب الحل والعقد تغافلهم عن فعال تلك الشركة وتركها تتصرف فى الخلق حيث هوى أصحابها وجريا راء ربحهم . قالوا ولقد أجمع جماعة من الأطباء المشهورين بعذ فحص الماء على عدم صلاحيتها للشرب فضلا عما لها من الرائحة الكريهة التى تعافها النفوس ، ورفعوا بذلك قصتهم إلى ديوان الصحة . ووقف جماعة على بابه ينادون بعظائم الأمور ووقف آخرون على باب (الرئيس مصطفى فهمى باشا) . وقد بلغ من رداة ماء تلك الآبار أن كان لونه يضرب إلى الحمرة ، وكان إذا ترك فى إناء ساعة كسى الإناء لونا حديديا ضاربا إلى السمرة ، وإذا غسلت بها الثياب البيضاء تحولت فى الحال إلى اللون الأصفر القاتم ولها فعلا رديئا جدا فى شعور النساء والبنات وفى أجسام الأطفال إذا اغتسلوا بها . واشتد غضب العامة والخاصة على شركة المياه وحقهم أن يغضبوا ، فقد كانت إذا تركت إحدى الحنفيات الآخذة من مواسير الشركة يوما بدون فتح ثم فتحت خرج ماؤها أسود واللون كالقطران بلا فرق وانبعث منه رائحة لا تطاق من النتن وانتشرت انتشارا غريبا . وظلت الشكوى قائمة فى القاهرة ومصر والوفود من الأهالى تطرق كل باب يرجى حتى قام أصحاب الأمر من رجال الصحة يناقشون الشركة الحساب ويهددونها بعظائم الأمور إن هى لم تبادر إلى تلافى هذا الضرر المقيم وتصلح ما أفسدته الأنابيب . واستأجرت الشركة جماعة من الأطباء أو هى اشترت ذممهم رخيصة فمالوا عن قصد السبيل ولم يتنزهوا عن الميل والأمن[٧٤] فذهبوا مع الأغراض . فرد عليهم جماعة آخرين ودفعوهم بالحجة والبرهان وسفهوا أحلامهم حتى قالوا إن كثرة الوفيات الواقعة بين الأطفال فى ذلك الحين هى نتيجة من نتائج ذلك الماء المسمم . وقد علل بعضهم تسمم الماء بأنه يمر على مقابر الإمام الشافعى ولذلك فإن الأمير وأصحاب القصر كلهم لا يستقون منه وأنهم عاكفون على ماء النيل لا سواه .

وعاد أهل الحل والعقد إلى التفكير فى تسكين خواطر الناس وتطمين قلوبهم بتعيين

---

(٧٣) تستخرج = تستخرجها قراءة تصحيحية .

(٧٤) والأمن = والهوى قراءة ترجيحية .

لجنة من الأطباء الأجانب تبحث مياه الآبار وتحليلها تحليلا كيماويا لمعرفة ما فيها من الأجسام الغريبة الضارة وترى فى الطرق والأسباب الواقية ، وأشاعت خبر ذلك وكلفت أصحاب الصحف بنقله ونشره بين الكافة . فسكنت الضجة وأقام الناس ينتظرون ما سيكون من وراء عمل تلك اللجنة .

وتحدث الناس كثيرا بعدم بلوغ النيل فى هذا العام حد زيادته المقررة لرى سائر حياض الأقاليم القبلية ، فقد تعذر لذلك رى إلا القليل من الشراقى لقلة المياه . قالوا ولا عبرة بمقياس الروضة وبقية المقاييس بعد ما أقاموا السد الكبير وراء القناطر الخيرية ، وإنما العبرة فى حالة المياه بما هو موجود منها فى (الرياح المنوفى) (والرياح التوفيقى) . قالوا وأما (قناطر زفتى) فإن الأموال التى أنفقت عليها وقدرها أربعمائة ألف ذهبا قد ذهبت ضياعا لأنه لا نفع منها فى أيام التحاريق لعلو (الرياح المنوفى) (والرياح التوفيقى) عنها ، ولا نفع منها فى زمن الفيضان لضعفها وعدم الحاجة إليها . قلت وهذه مذكرات وتقارير أصحاب الرى تذكر فائدة كل قنطرة من القناطر التى أحدثوها أو التى كانت من قبلهم وكذلك كل سد إلا (قنطرة زفتى) . واشتد الخوف بالناس وكثر تطيرهم وتساءل أصحاب الصحف ديوان المساحة ووزارة الأشغال عما سيحل بالبلاد من جراء عجز النيل وقد قارب ميعاد الجبر . فنشروا مذكرة قالوا فيها إن شهرى يوليو وأغسطس الذى نحن فيه هما الشهران اللذان يقع فيهما معظم مطر بلاد الحبشان ويهطل فى كل منهما ثلاثون فى المائة من كل الغيث السنوى ، ويكون من وراء ذلك ارتفاع سريع فى منسوب (النيل الأزرق) أثناء يوليو وأغسطس . وفى العشرة الأولى من سبتمبر يتماوج النهر عند (الرصيرص) تموجا قرب منسوبه الأعلى . ويبلغ الإرتفاع المتوسط عند هذه المحطة فى شهرى يوليو أربعة أمتار . أما فى أول أغسطس فيزيد سبعة أو ثمانية فى المائة . غير أن الآمال بالفيضان كانت ضعيفة لغاية شهر يونيه لأن موجة فيضان (النيل الأزرق) التى حدثت فى شهر أبريل أثرت فى النيل فى مصر أثناء شهر مايو ، ولكنها زالت فى أوائل يونيه ، أما أمواج الفيضان من الارتفاع الغير[٧٥] القانونى فلم تحدث تأثيرا عظيما لأنها استمدت من المطر القليل الذى وقع فى بلاد الحبشان ولم يكن بقدر خمس فى المائة من مقدار المطر المألوف فى (أديس أبابا) عاصمة الحبشة . أما الغيوث التى هطلت فى

(٧٥) الغير = غير قراءة لغوية .

يوليو فكانت ضعيفة جدا وقطعتها فى بعض الأحايين فترات الطقس الناشف التى أثرت فى الأنهار تأثيرا جسيما . وقد قسموا معدل منسوب (النيل الأزرق) إلى فترتين ، الأولى فى النصف الأول من يوليو والثانية فى النصف الثانى منه ، وكان النهر فى غضونهما يتموج تموجا ولكنه لم يرتفع ارتفاعا كبيرا . وكان معدل الارتفاع فى الشهر مترين وأربعة أعشار المتر بدلا من أربعة أمتار . وكان سقوط المطر فى (العطبرة) متقطعا أيضا . أما ضغط الهواء الكروى فى ديار مصر والشامات فقد كان فى خلال ذلك الشهر مليمترين فوق العادة وبقى على ذلك حتى آخره ثم هبط إلى درجة أقل من المعتاد . وجاءت الأخبار تفيد أنه حدث تحسين فى (جزيرة العرب) وفى (ديار الهند الغربية الشمالية) . ومع ذلك فلا يمكن أن يقال بحدوث علامة تدل على تحسين سقوط المطر فى (بلاد الحبشان) . إلى أن قال (ويظهر مما تقدم أن هذا الضعف فى سقوط المطر كان يجب أن ينتشر فى كل هضاب الحبشة . ولما تكون أمطار الحبشة فى شهر أغسطس على معظمها فمعرفتنا عن أحوال الجو فى مصر والسودان وتأثيره فى سقوط المطر ليست كافية لأن نتخذها دليلا أمينا على الفيضان ، وغاية ما يمكن الآن فعله هو البحث فى تقارير السنوات الماضية وكلها تدل على أن الضغط العادى الهوائى فى مصر كان دائما علامة شؤم . ولم يزل الفيضان حتى الآن ناقصا نقصا كبيرا . وتدل التقارير الماضية على أن النقص فى سنة ثلاث وتسعمائة وألف بلغ مترا واحدا فى (وادى حلفا) من أول أغسطس لغاية خمسة منه ، ثم أعقبه منسوبات فوق معدل منسوب سبتمبر . وكان سقوط المطر فى يوليو ثلاثين فى المائة مع أنه فى هذين الشهرين يقع جزءا كبيرا من المطر الذى يجهز الفيضان . فالشهر الأول يجهز ثلاثة عشر فى المائة والثانى ثلاثين فى المائة . والراجح أن هذا النقص يزيد فى أغسطس .

قلت ـ فإذا كان[٧٦] كذلك فلم يبق أمل فى الزيادة وبلوغ الفيضان حده المعتاد أو أقل قليلا إلا فى العواصف المطرية التى قد تحدث بين شهور نوفمبر ومارس ليس إلا . أقول وبينما الحال على هذا إذ جاء الخبر من السودان بسقوط الأمطار بكثرة فى سابع أغسطس من السنة أول رجب سنة خمس وعشرين من مركز (العطبرة) حتى طغت المياه على البلد طغيانا كبيرا ، وأحاطت بدار حاكم البلاد وهدمت مائة بيت ويزيد ، وغمرتماية وثلاثين بيتا . فبذل مدير (بربر) الهمة بحفر خليج لصرف تلك المياه إلى (نهر العطبرة) .

(٧٦) كان = كان ذلك قراءة ترجيحية .

واهتمت الحكومة بمصاب القوم إهتماما كبيرا . ففرح أهل مصر والقاهرة وسائر الأقاليم بهذا الخبر وحمدوا الله كثيرا على من[٧٧] به .

فلما كان صبح يوم السبت رابع عشرى أغسطس من السنة خامس عشر رجب سنة خمس وعشرين ثامن عشرى مسرى سنة ثلاث وعشرين وستمائة وألف طاف المبشرون (بوفاء النيل) على عادتهم المألوفة ، ففرح الناس وتفاءلوا . وقامت (العقبة) فى الساعة الثالثة بعد الظهر من ترسانة بولاق مصر ناشرة زينتها بين إطلاق المدافع وعزف الموسيقى حتى صارت أمام السد . وتواردت الذهبيات بجماعات المتفرجين وجعلت تمخر فى النيل صعدا وهبوطا وفيها المغنيين والمغنيات . ولما أقبل الليل أطلقوا الألعاب النارية . وأصبحوا وقد قطعوا السد على الطريقة المعتادة فأطلقت المدافع وبرزت حجة (قاضى القضاة) بالوفاء ووجوب جمع الخراج على العادة المعروفة .

وأصبحوا وقد سئل أصحاب الرى من جماعة الإنجليز عن حالة الإنقاص وما ربما أن يلحق بالبلاد من رشه[٧٨] ، فقالوا أن الأنباء التى جاءت أخيرا من أنحاء أعالى النيل لا تزال غير مرضية ولا هى سارة . على أنه فضلا عن حصول علو طفيف فى هذه الأيام فى درجات بعض المقاييس فالنيل لا يزال منحطا عن الدرجة التى يجب أن يكون عليها فى مثل هذا الفصل فى جميع الجهات . وبناء على القواعد المقررة يعتبر الفيضان شحيحا حينما لا يبلغ المقاس بأصوان ثلاثة عشر ذراعا فى يوم خمسة عشر أغسطس . وبما أن القياس لم يكن فى هذا التاريخ من هذه السنة ـ يعنى السنة التى نحن فيها ـ إلا تسعة أذرع فقط فيطلب من وزارة الداخلية التشديد على سائر مديرى الأقاليم القبلى والجيزة بمساعدة موظفى الرى فى تنفيذ الإحتياطات التى يرون ضرورة اتخاذها فى هذه الحال . ومع الجزم بأن الحالة فى الأقاليم الوسطى والأقاليم البحرية لا توجب القلق فإن المزروعات فيها حسنة ووسائل الرى فيها مضمونة بواسطة قناطر أسيوط والدلتا وزفتى ، فإنه ستبقى مع ذلك مساحة واسعة فى[٧٩] الأراضى الشراقى فى الأقاليم القبلية وربما كان مقدارها مقدار الذى تخلف شراقى فى عام خمسة وتسعمائة وألف . أقول وقد كان ما حسبوه فى هذا العام صحيحا .

---

(٧٧) من به = ما انعم به قراءة اجتهادية .
(٧٨) من رشه = من شره قراءة اجتهادية .
(٧٩) فى = من قراءة ترجيحية .

واجتمع فى ليلة السبت رابع عشر سبتمبر من السنة سادس شعبان سنة خمس وعشرين خلق كثير بدعوة من (محمد[٨٠] فريد) أحد أقيال الحزب الوطنى فى قاعة فى نزل الكونتيننتال بالقاهرة . قالوا لسماع خطابات الخطباء والمتكلمين احتجاجا على احتلال الإنجليز لديار مصر . فلما تم الاجتماع قام (محمد فريد) ودعا (على كامل) أخى (مصطفى كامل) صاحب (جريدة اللواء) للخطابة . فوقف يخطب قائلا أن الإنجليز جاءوا مصر ليسلبوا سلطة أمير البلاد ويضمنوا لأصحاب الديون ديونهم ، وقد أقسمت ملكة الإنجليز يومئذ بشرفها أن جندها يخرجون من الديار عند بلوغ هذين الغرضين ، والآن فالأمة المصرية تحتج على بقاء الاحتلال للآن لأن بقائه حنث بالوعد وتحتج على وجوده لأنه يسلب المصريين حقوقهم فى وظائف بلادهم ولا يرحمهم ولا يعدل فيهم . ثم قام غيره وكلهم يغنى على هذه النغمة . ثم قام (على كامل) يطلب من المجتمعين الموافقة على الاحتجاج فوافقوه على ذلك . وفى الحال أرسل إلى كبير وزراء الإنجليز على جناح البرق يقول .

(نحن ستمائة من صفوة المصريين اجتمعنا فى القاعة الكبرى بفندق الكونتيننتال وخطب فينا الخطباء مظهرين بكل وضوح أن الغرض الذى دخل الإنجليز مصر من أجله هو توطيد سلطة أمير البلاد ونشر ألوية الأمن . وقد تم من زمن بعيد وأن الجلاء قد حان منذ أعوام وأنه حفظا لكرامة انجلترا وحرصا على عهودها وقسم (الملكة ڤيكتوريا) يجب على الحكومة الإنجليزية الحاضرة أن تبرر هذه الإيمان بالجلاء . وقد انتهينا من حفلتنا بالموافقة احتجاجا على استمرار الاحتلال . فإننا نرى الخير لإنجلترا فى اتخاذ مصر صديقة لها بالوفاء بعهودها عوضا من اتخاذها عدوتها بهذا العناد والحنث بيمينها أ . هـ .

وتفشى خبر هذا الاجتماع وما قيل فيه من مليح القول وقارص الكلام ، وتناقله أصحاب الصحف المحلية وكلهم مجمع على استحسانه وإعظامه لا فرق بين النصارى منهم والمسلمين ، فقد كانت طوالع سياسة (غورست) بعد ارتقائه منصبه التفريق بين العنصرين الوطنيين ، فكان لا مندوحة لأصحاب الصحف النصرانية عن مجاملة إخوانهم أصحاب الصحف الإسلامية والنسج على منوالهم فى كل ما يختص بالإحتلال . وقد

(٨٠) انظر ترجمته فى القسم الثانى من الجزء الخامس من (الكافى) ـ ص ٣٤٤ ـ حاشية ٣٨١ .

تقمصت هذه الروح التفريقية فى الأجسام وتسربت إلى أهل المناصب وأصحاب الخطط والقضاة والمأمورين وماجت سائر دواوين الحكومة بسماسرة هذا الشر المقيم وتفق[٨١] فيها العسف ، وذهبوا جميعا إلى الأغراض والحقود . واتصل هذا بالعامة والسوقة وسرى فيهم سريان النار فى الهشيم . فكان الخطر باديا للعيان والفرقة تكاد تنقلب انقلابة أخرى وتتكيف بكيفية كبرى ومحنة خسرى . وشكا العنصرين بعضهما بعضا فكان الحق ضائعا بغلبة تلك المحنة على عواطف الحاكمين وتمكن الوحشة من نفوس المتقاضين . وتفشى خبر ذلك بين النزلاء وصحفهم وكلهم بالعاقبة عليم . فهب أصحاب صحفهم ينادون بالويل والحرب ويحذرون الناس من عاقبة هذا الخطب ويقولون أن الفتنة مخبوءة تحت طى المواربة والتضليل وأن دعاة الحزب الوطنى قد أفسدوا حتى اقتلعوا الطمأنينة من أصولها وقلبوا الراحة عاليها سافلها . وظلوا على هذا القول وأشباهه أياما حتى بلغت أسماع أصحاب سياسات الدول ، وكانت موضوع خطابة خطباؤهم ومناقشة أحزابهم وصروا عليها آذانهم واعتدوها ذريعة إلى النيل من البلاد فى ماليتها وكرامتها تشفيا من الإنجليز وانتقاما من عميدهم (غورست) . وبلغ الخوف من جماعة التجار النزلاء وأصحاب الأموال منهم أن قبضوا أيديهم مع[٨٢] أهل البلاد وامتنعوا عن مداخلة أهل الريف منهم ، وأنزلوا[٨٣] من أسواقها فى البيع والشراء ، وحادوا عن مناحى العامة خوف الإيذاء والتعدى .

أقول ـ وانفسحت هذه الدعوى فى البلاد من أقصاها إلى أقصاها وكلها ترمى إلى التفريق بين العنصرين الأخويين وقطع الصلة التى تربطهما منذ الفتح إلى هذا العهد .

ومع قيام عقلاء العنصرين وكبارهم للسعى على أهل هذا البغى وتكذيبهم فى جميع مدعياتهم فى ذلك حتى فيما يزعم المتقاضون وأصحاب الشكايات حدوثه من جماعة القضاة وأهل المناصب والخطط على اختلافها ، فلم يقووا على الفريقين فى العناد وارتكاب ذلك اللجاج والبهت والقول المكذوب ، حتى لقد أخذت الحيرة أصحاب الصحف الأجنبية فاتهموا الأمير ورجال القصر بنصرة تلك الحركة تشيعا لقومهم وحربا

---

(٨١) وتفق = وتفشى قراءة اجتهادية .

(٨٢) مع = عن قراءة ترجيحية .

(٨٣) وأنزلوا = وانزووا قراءة اجتهادية .

لعدوهم . وكان (غورست) يؤنس[٨٤] من الأمير تجلة وكرامة لم يرها (لورد كرومر) فى كل أيام رئاسته . فجعل يساير الأمير على قدره فى قومه وحربه ويحبذ عمله ولم يناصبه تشيعا لحق أو دفعا لمنحدر حتى تطورت الأحوال تطورا غير محمود العاقبة . وجرى فى منصبه على ما يخالف جرى (لورد كرومر) وبدل من سياسة دولته تبديلا كبيرا ، وأقصى جماعة من المقربين لعهد (كرومر) وأشار على آخرين بالتخلى عن مناصبهم والعودة إلى ديارهم . قال لأن الهيئة الحاكمة الآن فى ديار الإنجليز تريد أن يكون العنصر الملكى هو صاحب الغالبية فى مناصب الحكم ولأن أكثر الذين تولوا المناصب لعهد (لورد كرومر) هم من العسكريين وهم قد ألفوا سياسته وشبوا على ما عودهم من الغلظة والمشادة وتحقير أهل البلاد . فترك جماعة منهم مناصبهم ورحلوا إلى أوطانهم . فظن صغار الأحلام أن هذا الانقلاب مطلب من مطالب الحزب الوطنى وصيحة من صيحات دعاته فى ديار الإنجليز ، وانبرت صحفهم تقول (لقد زال بزوال كرومر ما كان من الغلب والتحكم وتصرف أصحاب الاحتلال فى سائر الأمور ، ولم يبق مجال لتقليد الخطط والمراتب لذويهم وصنائعهم . وقد أصبحنا ولله الحمد وكأننا خلق جديد ونشأة مستنافة وعالم محدث) . هذا (غورست) قد نادى قومه والملتفين حولهم بالخمول والإنقباض فبادروا بالإجابة ونادى أهل البلاد بالخروج من دائرة ذلك الحصر بعد طول الصبر على تلك المكاره إلى حظيرة الظفر والغلبة والسؤدد المقيم ، فبادروا بالأجابة وسيقيمون فيها أبد الدهر . ولم يتفطنوا الأسباب ولا عرفوا أن أصحاب السياسات لا يتأتى لهم البقاء على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر وأنهم إنما هم يتقلبون مع الأيام والأزمنة وينتقلون من حال إلى حال ، وأن (غورست) وإن خالف السلف فى التافه الضئيل من الأمور والتظاهر بمناهضة سياسته فإنما كان نقلا عن صاحب سياستهم بعد الذى كاده (كرومر) للأمير وأحرج به موقف البلاد فى نظر الممالك والدول ، وبعد جهاد وزير الأمير (بطرس باشا غالى) وحربه مع صاحب السياسة الإنجليزية حينا حتى علت كلمة الأمير على تلك الكلمات وأصبح وهو متبوع الرأى مسموع القول . فحقت على (غورست) تجلته والعمل على مرضاته كارها . أقول كارها لأن سياسة الاحتلال واحدة لا تنقض ولا تتغير ما دام

---

(٨٤) يؤنس = يأنس قراءة ترجيحية .

الاحتلال وجنوده ، فإن تغيرت يوما فلقصد من المقاصد حتى إذا تم لهم ما أرادوه عادوا وتقربوا بالثناء والمدح وتحسين الأحوال دفعة[٨٥] .

وبينما السواد الأعظم من عقلاء الناس يتطيرون من أعمال الحزب الوطنى ويضربون أخماسا فى أسداس عما سيكون من وراء طفرته هذه العظيمة فى هذا الحين الذى اختمرت فيه العقول بسموم التحزبات الشائنة والغضب الممقوت ، إذ بدت صيحة عالية من جانب أصحاب شركة (الجديدة)[٨٦] بأنهم قد قاموا بتألف حزب منهم باسم (حزب الأمة) . قال مقدمهم المدعو (حسن باشا عبدالرزاق) (وخطة حزبنا هذا تنحصر فى الأوجه الآتية ـ إن نعضد بسعينا وأموالنا ونصائحنا حركة التعليم العام والمشروعات التى تساعد على تحقيق رغائبنا العامة من التقدم فى المدنية ، أن نوجه همتنا ونصرف قوانا للحصول على حقنا الطبيعى وهو الاشتراك مع الحكومة فى وضع القوانين والمشروعات العامة وذلك بالسعى فى توسيع اختصاصات مجالس المديريات ومجلس شورى القوانين والجمعية العمومية ، حتى يكون لنا رأى معدود فى القوانين التى نعامل بها كقوانين المحاكم الأهلية والإدارة والرى ونحوهما حتى نصل بالتدريج إلى المجلس النيابى الذى يوافق حالتنا السياسية ، وأن نواصل السعى ولا ندع فرصة تفوتنا فى مساعدة نهضة التعليم حتى يصبح موافقا لرغائبنا وموصلا لمقاصدنا فيكون فى مدارس الحكومة الإبتدائية مجانيا وإجباريا . أن نسعى ما استطعنا فى توسيع نظام الجمعية الزراعية توصلا إلى تقدم زراعة البلاد وإنماء حاصلاتها وتنويع مزروعاتها وأن لا نهمل الصناعة بل ندأب على رقيها وتقدمها بفتح المدارس الحرة والأميرية . أن نسهر على المصالح التجارية

---

(٨٥) مع تولى حكومة جديدة من حزب الأحرار Liberal Party ، أرسل (جورست) للحلول محل (كرومر) بتعليمات بإعطاء المصريين مسئولية أعظم لإدارة شئونهم الداخلة . وكوكيل بريطانى فإنه حَسَّن سريعا ـ عن طريق سياسته المسماة (Politique d'entente) ـ من علاقاته مع (الخديو عباس حلمى الثانى) وأدخل الكثير من المصريين فى مناصب حكومية مسئولة ، وأضعف الحزب الوطنى . ومع هذا فإن سياسته هذه نفرت منه رجال (كرومر) الذين لم يعتادوا على مثل هذا السلوك فى عهد سلفه .

تسمى هذه السياسة الجديدة فى العلاقات الأنجلو ـ مصرية بسياسة (الوفاق الجديد) .

ـ آرثر جولد سميث (قاموس تراجم مصر الحديثة) ـ ترجمة وتحقيق عبدالوهاب بكر ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ٦٥ .

ـ أحمد شفيق باشا (مذكراتى فى نصف قرن) الجزء الثانى ١٩٠٣ - ١٩١٤ ـ حوادث سنة ١٩٠٧ - ص ١٢١ - ١٢٣ .

(٨٦) الجديدة = الجريدة قراءة تصحيحية .

العامة حتى تتمتع الأمة حقيقة بثمرات أتعابها فى زراعتها وصناعتها) . قال (أما وسائلنا فى عملنا هذا فهى كل الوسائل الشريفة من كتابة ومشافهة وإيفاد وفود وتفهيم وتفاهم وإقناع بكل الطرق التى توصلنا إلى مقاصدنا) أ . هـ .

قلت ـ كانت (الجريدة) وأصحابها فئة من أعيان أهل البلاد يمثلون أنفسهم وجريدتهم أمام (اللورد كرومر) بعد (حادث دنشواى) ، وينقلون من أخبار الاحتلال أقوالا كالإبريز الخالص واللجين المصفى ، يتقربون بالمدح والثناء ويركبون أعناق الأخطار فى الإنتصار لهم ضد حملات (مصطفى كامل) وجماعة الحزب الوطنى حتى علت كلمتهم أو كادت على سائر الأحزاب . وظلوا على هذا وهم على أتم ما يكون من الطاعة لهم والحب فيهم حتى تأذن الله سبحانه بتخلى (كرومر) عن منصبه وقام (غورست) مكانه . فظن هؤلاء الجماعة أنهم ما زالوا فى حصنهم ذلك وفى معتصمهم ما شاؤا لرأيهم ونحلتهم وأعمالهم ومساعيهم وغير ذلك فما[٨٧] اعتادوه لعهد (كرومر) . وذهب وفد منهم إلى دار الوكالة على عادتهم تلك يريدون استقاء الأخبار من موردها ونقل الواقع منها والمنتظر فى جريدتهم ولا سيما ما يتعلق بصاحب القصر وأغراضه بعد هذا الانقلاب الجديد وفوزه على ذلك الخصم العنيد . ذهبوا وهم يؤملون كل تجلة وتكريم على ما عودهم اللورد ، فما هم أن وطئوا أرض (قصر الدبارة) حتى جاءهم نائب صاحب القصر يقول ما حاجتكم . قالوا أنت تعرفنا وقد جئنا نريد لقاء العميد فى هذا الصباح السعيد . فقال (إنى أقول لكم الحق ليس الآتى أشبه بالماضى ولا يومكم هذا أشبه بيومكم الأمس . فقالوا جئنا نسلم لا لنكلم . قال ولا هذا أيضا فإن صاحبنا يبغض الأحزاب ورسم بأن يغلق دون وصولهم كل باب ، ثم تركهم وانصرف . قال الراوى فنظر القوم بعضهم إلى بعض وأبوا يجرون أذيال الخجل ، وجعلوا من ذلك الحين يدبرون الحيلة ويشترون لهو الحديث ليضللوا بالناس ويدافعوا عنهم ما لحق بهم من معرة هذا الحادث الكبير عند جماعة الحزب الوطنى وبقية الأحزاب ، وقد كان هؤلاء يتمنون (للجريدة) وأصحابها كل شر مقيم ويسعون فى تنكيلهم جهد المستطيع بعد أن علت صيحة (جريدتهم) على صيحة سائر صحفهم ونالت من أفراد الحزب الوطنى طعنا ووخزا

(٨٧) فما = مما قراءة اجتهادية .

وتذليلا وإرهاقا بما كان لها من المكانة عند أصحاب الإحتلال . قالوا وبعد بحث وتأمل طويل أجمعوا على تشكيل حزبهم ذلك وسموه (حزب الأمة) ، والأمة لا تعرف من أمره شيئا كما لا تعرف من أمر (الحزب الوطنى) (والحزب الوطنى الحر) (وحزب الوسط) شيئا أيضا . وغرض هؤلاء القوم على ما نظن من إنشاء حزبهم هذا طفرة أخرى يقضون بها على أصحاب الحزب الوطنى أولا وأغراض صاحب القصر ثانيا ، ويشوهون سمعة (غورست) ثالثا ويفسدون عليه عمله بما يستطيعون من لوم وتقريع ، حتى يوجدوا السبيل إلى ترك عرشه وإذهاب سلطانه . فيسقط من عالى مجده ويكونون قد أثاروا(٨٨) (للورد كرومر) وأيدوه فيما كان ينتحله لنفسه أيام رئاسته ، وفى الوصاية على الأمير والإشراف على سائر مصالح الحكومة ودواوين الحكومة ، حتى وفى طلبه خلعه وأبعاده عن عرش أجداده ، ولكنهم لم يفلحوا ولم يرتفع لحزبهم ذلك ولا ظهر له عمل مذكور بين الناس حتى الساعة . وقد أخذت أصحابه صيحة أصحاب الصحف من كل جانب واستكانوا وكأنهم لم يكونوا . وهكذا حال الأحزاب كحبات الكأس . تطفو إذا تحركت وتزول سريعا إذا هى تركت فسبحان الله .

وبينما الناس فى حساب ما سيكون من (السير غورست) بعد ارتقائه هذا المنصب الخطير وإقصائه عنه ضجة الأحزاب ومزاحمة أصحاب المناصب وعمد البلاد ، إذ نقل أصحاب الصحف خبر مقدم رجل يقال له (إسماعيل بك غصير نسكى) . جاء من مدينة (باغجه سراى) من أعمال (بلاد الروس) يريد عقد مؤتمر إسلامى فى القاهرة فى العام القادم للبحث فى الإصلاحات التى تستلزمها (الجامعة الإسلامية) . قالوا وقد نزل الرجل فى أحد فنادق القاهرة وما برح منذ حضوره يدعو الناس إلى مذهبه ويستميلهم إلى دعوته ، ويقول أنه درس أدواء المسلمين فى الأرض كلها فعلم أنه لابد لهذه الأدواء إلا الدواء . ويرى أن هذا الدواء لا ينجح بالمعالجة السياسية لأن السياسة لا أصل ولا وجود لها بين المسلمين وليس بينهم إلى(٨٩) الحالة الاجتماعية . وفى هذه يجب أن تنحصر كل المساعى ، وإلى هذا الغرض يجب أن تتجه كل القوات . قال فإن كان إمبراطور الألمان قد قال فى (دمشق) فوق قبر صلاح الدين أنه يحيى ثلثمائة مليون من

---

(٨٨) أثاروا = ثأروا قراءة اجتهادية .

(٨٩) إلى = إلا قراءة ترجيحية .

المسلمين ، فإن ثلاثين ألفا منهم يكفون لتعليم الناس وإرشادهم إلى القصد والنهج . قال وليس لى من غرض فى عقد هذا المؤتمر فى القاهرة إلا توحيد عمل الثلاثين ألفا لتكون أقلامهم وألسنتهم سلاحا ماضيا لقطع عروق الجهل والتعصب والخرافات الممقوتة . ولا دخل لذلك قط فى السياسة التى ليس للإسلام والمسلمين فيها نصيب لتسلط الجهل والضعف والفقر والاستسلام للأقدار على عقولهم . والواجب أن نصلح تلك العقول بالعلم والتهذيب . قال وربما أن المسلمين هم المقصودون بالإصلاح فلذلك قد سمينا هذا المؤتمر (بالمؤتمر الإسلامى) ، وسأنشر بذلك رسالة بالتركية والفارسية والعربية على جميع المسلمين فى سائر الأقطار إلى آخر ما قاله . وبات الرجل وأصبح وقد أرسل دعوته إلى سائر الصحف وكانت ترجمتها إلى العربية هكذا . . . (إذا نظر الإنسان إلى المسلمين أينما كانوا وتحت أى إدارة وجدوا يراهم والأسف ملء فؤاده متأخرين جدا بالنسبة إلى مجاوريهم من سائر الشعوب . فيجدهم مثلا فى (الجزائر) متأخرين عن (اليهود) وفى (جريت) على[٩٠] الأروام وفى (بلغاريا) عن البلغاريين وفى البلاد الروسية عن (الروسيين) وفى (الهند) عن الهنود . وهذه حقيقة لا يمكن إنكارها .

إن المسلمين فى أكثر الأصقاع مدوسون من الحكم الإستبدادى من غير أن يرفعوا أصواتهم محتجين ، وأكثرهم يتركون الفرص تفوتهم من غير أن يستفيدوا من الحكم الدستورى والحرية المتمتعين بها ، فيجب والحالة هذه أن نكشف القناع عن أسباب الداء السيىء الشائع بينهم إذا صرفنا النظر عن تفوق يهود الجزائر المشهورين بالجد والنشاط على العرب هناك . فما إذن نقول عن تفوق (البوذيين) الكسالى والمتعصبين لدينهم على المسلمين الأحياء المشهورين بالغيرة ، وسبقهم للمسلمين بأشواط عظيمة فى مضمار الحضارة والعمران . إن هذا الأمر يستوجب الحيرة والدهشة ، على أنه قد ظهر فى المدة الأخيرة بين المسلمين الذين أخذوا يتناقشون فى مسائل مهمة حيوية مثل مسألة النساء التى قامت بين مسلمى الهند ومصر وروسيا ، وهذه فتحت السبيل إلى حدوث مناقشات ومجادلات جمة ، وقد حدثت بعض أمور ومسائل لها علاقة بالمدنية الغربية والمدنية الإسلامية وكيفية امتزاجهما ببعضهما مما يوجب على المسلمين أن يتأنوا ويتصوروا فى

(٩٠) على = عن قراءة ترجيحية .

حلها حيث يلزم كل قطر من الأقطار أن يباشر ذلك الحل بنفسه على شرط أن يكون هذا العمل عموميا بدلا من أن يعمل كل بمفرده . لأن هذه المسائل على جانب عظيم من الخطورة والأهمية خصوصا وأنها تتعلق بتجديد المعيشة الإسلامية لحياتها العمرانية وقلبها من طراز إلى طراز آخر .

وقد كانت للندوة الإسلامية الأولى التى اجتمعت عام خمس وتسعمائة وألف للميلاد تأثير كبير فى تحريك الأفكار وتوسيعها . وأظن أنه لو اجتمعت الآن ندوة عمومية وبحثت عن حقائق أحوال المسلمين وأظهرتها على رؤوس الأشهاد يكون من ورائها نفع عميم للمسلمين . وهذه الندوة التى ستؤلف من علمائنا وأدبائنا وحملة أقلامنا لا تستوجب أبدا خوف (أوروبا) بناء على المسألة التى يعبرون عنها (بالجامعة الإسلامية) . وربما أفادت الندوة المومى إليها (أوروبا) فائدة كبيرة لأن مناقشات المندوبين فى المسائل المدنية والاجتماعية تفضى إلى كشف حقائق كان الناس يزعمون أنها مستورة تحت حجب كثيفة . وربما جر ذلك إلى فتح باب الاجتهاد حسبما يقتضيه الزمان فنتمكن من النجاح فى شؤوننا العمرانية وتطبيق الحضارة على الشرع الشريف . ولا يخفى أن الآراء والأفكار التى تتناقش بها الندوة وتقررها ثم تذيعها بين المسلمين تستوجب من الناس أن يقفوا على المسائل المهمة ، وبذلك ينهض ذلك الجسم العظيم نهضة واحدة من سباته العميق ويتقدم فى مضمار الحياة الاجتماعية .

كان الإسلام حاكما فى زمن الإجماع ، وأما الآن فإن ثلاثة أرباعه محكومة من سائر الملل . وقد تغيرت الأحوال تغييرا مدهشا عن أحوال ذلك الزمان حيث هى تجرى مسرعة فى طريق الترقى وستتركنا ورائها بعيدين عنها فراسخ . وكانت (الآستانة) أولى بأن تكون محلا لاجتماع الندوة وإنما لا يتأتى ذلك نظرا لبعض أسباب ليس هنا محل لذكرها . ولذلك أرى أن تجتمع الندوة فى القاهرة عاصمة القطر المصرى التى هى العاصمة الثانية للإسلام) . قال (فلذلك أتقدم إلى جميع صحف المسلمين وأطلب إليهم أن يؤازرونى برأيهم فى ما يختص ببرنامج الندوة والمواضيع الواجب المناقشة فيها وفيما إذا كان من الممكن أن يكون اجتماعها فى شهر سبتمبر من العام الآتى) إنتهى بنصه .

فلما شاعت هذه الدعوة وتناقلها أصحاب الصحف انقسموا فى شأنها إلى قسمين . قسم تلقاها بالمدح والثناء الكثير بغير بحث ولا روية وهؤلاء هم أصحاب صحف الأحزاب ولا سيما منها صحف الحزب الوطنى . وقسم وفاها حقها من التمحيص والبحث فى اختلاف الأمم والبقاع والأمصار فى السير والأخلاق والعوائد وحكم بفسادها فضلا عن تصدى أصحاب الملك والسلطات لفشلها والقضاء عليها لا سيما حكومات هذا العصر . وقد علمنا من أمر هذا الداعية أنه مسلم روسى (قازانى) . اشتغل بالصحافة حينا فى بلاده فكثر مريدوه انشاء[٩١] ندوة من أهل الرأى والقول المتبوع قاموا بإظهار حقيقة المرأة فى الإسلام ووجوب الجزم بتعليمها وألحوا فى ذلك كثيرا . فظهر أمره بين مسلمى الروس وجمع إليه كلمة المسلمين وتوحيد رأيهم . فاضطرت حكومة الروس إلى قبول أعضاء من المسلمين فى (مجلس الدوما[٩٢]) . وبلغ خبر هذا إلى دار السلطنة العثمانية فجاء مطابقا لما فى نفوسهم ، وعظم شأن الرجل فى أعين أصحاب سياستهم ومالت إليه قلوبهم . فاستقدموه على الرحب والسعة وأنزلوه ضيفا كريما وأجرى عليه السلطان الأرزاق ورتب له الجماكى الواسعة . وظل على شأنه هذا حينا ثم أصدر جريدة باسم (ترجمان حقيقة) فأقبل عليها العظماء والوزراء ، فخافه الشيخ (أبو الهدى[٩٣])

---

(٩١) إنشاء = وأنشأوا قراءة اجتهادية .

(٩٢) هو المجلس النيابى فى روسيا أثناء الفترة موضوع الدراسة . كانت روسيا القيصرية تعانى خلال القرن التاسع عشر من ثورات ضد هذه الحكومة القيصرية المستبدة . كانت هناك ثورات الطلبة فى تسعينيات القرن ، وفتن الفلاحين فى ١٩٠٢ ، وكان هناك هزيمة الجيش الروسى أمام اليابان فى ١٩٠٥ ، وكان هناك عصيان سنة ١٩٠٥ الذى اقترن باعتصاب عام فى هذه الإمبراطورية المترامية الأطراف . كان المطلب الرئيسى للمتذمرين فى هذه الإمبراطورية هو إحداث تغييرات دستورية ، إلى جانب مطالب أخرى . مع تراجع قوة الأتوقراطية التى كانت تحكم فى أوائل القرن العشرين فإنها وجدت نفسها مضطرة لتقديم تنازلات للثائرين لعل الفتنة تهدأ ، فدعت الحكومة إلى اجتماع لجنة مركزية تنتخبها المجالس المحلية فى العاصمة الروسية فى عام ١٩٠٥ ، ثم اتبعت هذه الخطوة بدعوة برلمان منتخب (Duma) فى نفس العام . ومع هذا فإن هذا البرلمان لم يكن الأول من نوعه فى تاريخ الحياة الدستورية ، فقد كانت الثقة منعدمة بين (الدوما) والحكومة وبين الحكومة والدوما .

- هربرت فيشر (تاريخ أوروبا فى العصر الحديث ١٧٨٩ - ١٩٥٠) - تعريب أحمد نجيب هاشم ووديع الضبع - الطبعة السادسة - دار المعارف بمصر - القاهرة - ١٩٧٢ - ص ٤٧٨ - ٤٧٩ .

(٩٣) فى إطار محاولات السلطان عبدالحميد الثانى (١٨٤٢ - ١٩١٨) تأكيد ثقة الدولة العثمانية فى رعاياها العرب ، أكثر من الاستعانة بهم فى المناصب الكبرى والحساسة فى الدولة وجعل منهم مستشاريه المدنيين والعسكريين . فكان هناك (عزت باشا العابد) الدمشقى ، و(نسيم باشا ملحمة) اللبنانى ، و(سعيد باشا الكردى) ، و(الشيخ أبو الهدى الصيادى) . ولد فى حلب فى عام ١٨٤٨ واشتغل بالعلوم الدينية وأصبح من أشهر علماء (حلب) وتولى منصب نقيب أشراف عموم (حلب) وهو سن الخامسة والعشرين (١٨٧٣) . قربه (السلطان عبدالحميد) وقلده (مشيخة المشايخ) فى دار الخلافة ، وأصبح يلقب بمستشار الملك ، لعب (الصيادى) دورا =

الصيادى) وخشى عاقبة ظهوره وساءه منه أن تكون الدعوة (للجامعة الإسلامية) لغيره من العاملين ، فتقدم إلى السلطان (عبدالحميد) فى أن يأذن للرجل بنشر دعوته فى بعيد الأقطار . ففعل وأمده بشىء من المال ونشر دعوته وقال مقالته التى تقدم بيانها . ومما يؤخذ على الشيخ فى هذا الباب أيضا دعوته إلى فتح باب الاجتهاد . فقد علمنا التاريخ أنه ما فتح هذا الباب يوما إلا ووقعت الفرقة بين المسلمين وابتلى الإسلام ببلائها جملة . وعندى أن التقليد والمحافظة عليه أقرب إلى الدعوة إلى الجامعة إذ يكون القياد واحدا ويسهل التوفيق بين مذاهب المقلدين فيتمنع المحظور وتحمد العاقبة ولله الأمر من قبل ومن بعد .

أقول رأى (مصطفى كامل) معما[٩٤] خصه الله به من بعد النظر أنه إذا ظل الشيخ على شأنه اجتمعت إليه القلوب والتف حوله متهوسى الوطنية وانفض الناس من حول أصحاب الحزب الوطنى وهو لم يكن قد دعا الناس بعد للانضمام إلى ذلك الحزب دعوة ظاهرة صريحة . فسافر إلى الأسكندرية وقد سبقته (جريدة اللواء) وأذنابها إلى دعوة الناس لسماع خطابه فى ملعب سيزينا[٩٥] عن مقاصد الحزب وقاعدة أعماله الأساسية . فازدحم المكان بالمجتمعين ازدحاما شديدا وصار الناس فيه كالبنيان المرصوص وكلهم ممن لا يعرفون للخطابة طعما ولا للكلام معنى . خليط من العامة والسوقة وزعر المكارية وباعة الصحف . فلما ظهر (مصطفى كامل) على مرسح الخطابة ماج المكان بأصوات التهليل والتكبير واشتد التصفيق شدة صمت لها الآذان واختلف النداء والصياح ، فمن قائل (يا سعادة الباشا) ومن مناد (يا سعادة الحزب) ومن مصفق ومن مصفر . فارتبك الخطيب واختلط عليه المقال ثم عاد فتغلب على كل هذه الضوضاء . وكان قد أقبل جماعة من علية القوم ومكاتبى الصحف ، فتكلم بكلام مليح خلب به عقول الخصوم واستمالهم

= هاما فى تنظيم أمور حركة (الجامعة الإسلامية) ورأس اللجنة المركزية لها ، وألف كتابا فى أهميتها أسماه (داعى الرشاد لسبيل الإتحاد والانقياد) . تعرض هو ورجال (عبدالحميد) من المسئولين العرب لعمليات اضطهاد بعد ثورة (جمعية الاتحاد والترقى) ونجاحها فى إسقاط (عبدالحميد) واختفى من الحياة العامة .

ـ محمد حرب عبدالحميد (السلطان عبدالحميد الثانى آخر السلاطين العثمانيين لكبار) ـ الطبعة الأولى ـ دار القلم ـ دمشق ـ ١٩٩٠ – ص ١٨٨ – ١٩١ .

ـ توفيق على برو (العرب والترك) فى العهد الدستورى العثمانى ١٩٠٨ – ١٩١٤) ـ معهد الدراسات العربية العالية ـ القاهرة ١٩٦٠ ـ مواضع متفرقة .

(٩٤) معما = مع ما قراءة تصحيحية .

(٩٥) سيزينا = زيزينيا قراءة ترجيحية .

إليه ، ودعا الناس إلى الانضمام والعمل على خلاص البلاد من كل شر مقيم وأن لا يقبلوا القول لكل قائل ولا السمع لكل ناعق لأن الدعاة الغرباء وأصحاب الزعامات الموهومة الكاذبة قد عاثوا فى البلاد وكثر عديدهم . وأوصى بالحذر منهم والابتعاد عنهم بعد السليم عن الأجرب . ثم عاد إلى سابق أقواله وكلما[٩٦] هو يكتبه فى (اللواء) فى كل يوم (كالوطنية) (مصر للمصريين) (الراية) (حب الوطن) (وعود الإنجليز) - (الإستقلال) - (الحرية) - (الظلم) (الإستعباد) - (اللورد كرومر) - (دنشواى) - وغير ذلك كثير . وكان القوم يزأطون ويصيحون بأعلى أصواتهم عند ذكر كل كلمة من هذه الكلمات . وشدد النكير على أصحاب الصحف الوطنية الذين هم على شيء من الخلاف معه فى سياسته فسماهم بالخونة المارقين . وقد أجهد نفسه كثيرا فى تفهيم القوم متى يصفقون ومتى لا يصفقون . ثم تلا خطة حزبه وهى عشرة بنود وخلاصتها استقلال مصر حسب (معاهدة لوندره) الموضوعة عام أربعين وثمانمئة وألف للميلاد ، وتأليف مجلس نيابى . وقيام حكومة دستورية ، وإنهاض البلاد وإنماء ثروتها[٩٧] الخ الخ . ثم قال (ويخطيء من يقول

---

(٩٦) وكلما = وكل ما قراءة ترجيحية .

(٩٧) كان قيام الأحزاب السياسية فى مصر بدأ من عام ١٩٠٧ نتاجا وتعبيرا عن تطورات اجتماعية وتغييرات فكرية وأوضاع سياسية استلزمت أن يعبر عنها بواسطة التكوينات السياسية . ويرصد (يونان لبيب رزق) فى عمله (العمدة) التطورات الاجتماعية التى أدت إلى قيام الأحزاب السياسية فيقول أن العمل السياسى كان مقصورا فى البداية علي الأعيان وكبار الملاك وعلى طبقة (الانتلجنتسيا) بحكم أوضاعهم الاجتماعية وتطلعهم إلى المساهمة فى الحكم نتيجة لزيادة نفوذهم ورغبتهم فى حماية مصالحهم الاقتصادية . وشارك هؤلاء طبقة المثقفين الذين تزايدت أعدادهم ، وزادت مع ثقافتهم التى اكتسبوها من التعليم بالخارج وبالداخل نظرتهم إلي واقع بلادهم بما يعنيه ذلك من المطالبة بحياة دستورية ورفض الإحتلال ، والمطالبة بنصيب فى حكم بلادهم أو إدارة مؤسساتهم الى حرموا منها . ومن هؤلاء وهؤلاء قام نوع من التحالف المصلحى نستطيع أن نفهم أسبابه .
وكانت المدينة وتطورها هى الخميرة لقيام تجمعات سياسية تضم المثقفين المهتمين بالقضايا السياسية وكذلك العناصر العديدة من أهلها الذين يشكلون (الرأى العام) . ومن هؤلاء جميعا ظهرت الفئات المتذمرة التى يمكن أن تشكل القوة الضاغطة المطالبة بتعديل الأوضاع السياسية أو المعبرة عن السخط الشعبى .
وفيما يتعلق بالتغييرات الفكرية فقد ساد البلاد فى الفترة ١٨٨٢ - ١٩١٤ تياران فكريان أحدهما سلفى إصلاحى يتزعمه (الشيخ محمد عبده) ومن بعده (رشيد رضا) ، والآخر هو التيار الليبرالى الداعى إلى مجاراة التطورات العصرية واستيعاب الحياة الأوروبية بمظاهرها المتفوقة وقد مثل هذا التيار (أحمد لطفى السيد) و(مصطفى كامل) و(سعد زغلول) و(أحمد فتحى زغلول) ، بنسب مختلفة .
وظهرت إلى جانب هذه التيارات صحافة اعتنت بنشر الفكر الأوروبى وتوعية العقل الجمعى ، وواكب ذلك قيام حركة محمومة لترجمة المؤلفات الأوروبية .
وتأتى فى النهاية (الأوضاع السياسية) والأحداث الجسام التى شهدتها البلاد فى العقد الأول من القرن العشرين (كحادثة طابا) (وحادث دنشواى) وكلاهما وقع فى عام ١٩٠٦ ، ثم خطاب الوداع (لكرومر) فى مايو ١٩٠٧ . =

أن الحزب الوطنى يعمل على إخراج الإنجليز من مصر ليسلمها إلى الترك) . وأنكر اعتماده على دولة الألمان ودعا الناس إلى السكينة والعمل بالتأنى والحزم وظل يخطب ساعة ويزيد . وعندى أنه لو لم يخالط كلامه شيئا من الحشو والمغالاة لبلغت منتهى الجودة والسبك .

وكان الناس يظنون أنه لم يبق مساغ بعد الذى دعا إليه (مصطفى كامل) من وجوب الإمتناع عن قبول القول من كل قائل والسمع لكل ناعق والتحذر من دعاة الباطل وإن ملئوا البلاد ، إلى قيام (الشيخ على يوسف) (صاحب المؤيد) ومقدم (حزب الإصلاح على المبادىء الدستورية) إلى نصرة (إسماعيل بك غصير نسكى) صاحب دعوة (الجامعة الإسلامية) وإعلان دعوته وبثها بين الناس . وكأنه فعل ذلك ليكيد إلى (مصطفى كامل) وحزبه . فاهتم بأمر(٩٨) ذلك الداعية ودعا الناس لسماع خطبته فى النزل المعروف (بالكونتيننتال) . فلما كان يوم الجمعة أول نوفمبر من السنة خامس عشرى رمضان سنة خمس وعشرين اجتمع القوم فى قاعة النزل الكبرى وبينهم من المشايخ (السيد توفيق البكرى) (والشيخ سليم البشرى) (والشيخ محمد بخيت) (وسيد عبدالحميد البكرى) (والسيد رشيد رضا) (والشيخ محمد المهدى) (والشيخ حسين والى) (والشيخ حسن العدوى) (والشيخ أحمد إبراهيم) (والشيخ عبدالوهاب النجار) وغيرهم ممن لم يحضرنا أسماؤهم وكثيرين من علية القوم وأهل المناصب وأصحاب الخطط . فلما عقد الاجتماع قام (الشيخ على يوسف) وافتتح الحفلة بأن قدم الخطيب للناس وقال إنه سيتكلم عن مشروع يهم كل مسلم بل كل شرقى يعنيه ارتقاء الشرق .

= ترتب على (حادثة طابا) اختلاف أولويات الولاء بين المشتغلين بالسياسة ، بين الولاء لمصر ، والولاء للخلافة ، وظهرت دعوة (المصلحة المصرية) التى حمل لواءها تلاميذ (محمد عبده) . كما أثارت خطبة (كرومر) وما تضمنته من نية الاحتلال فى البقاء في مصر دون أجل مسمى ، واستمساك بريطانيا بمسئوليتها عن إدارة مصر ، أقول أثارت هذه الخطبة حماس المشتغلين بالسياسة ودفعتهم إلى التفكير في إقامة تنظيمات سياسية .

ومن هذا وذاك وغيرهما بدأت فكرة قيام الأحزاب السياسية التى بدأت (بحزب الأمة سبتمبر ١٩٠٧) ، و(الإصلاح على المبادئ الدستورية . ٩ ديسمبر ١٩٠٧) و(الحزب الوطنى ـ ٢٧ ديسمبر ١٩٠٧) ، ثم تتالت باقى الأحزاب .

- يونان لبيب رزق (الحياة الحزبية فى مصر فى عهد الاحتلال البريطانى ١٨٨٢ - ١٩١٤) ـ مكتبة الأنجلو المصرية ـ القاهرة ـ ١٩٧٠ ـ ص ٢ وما بعدها .

- (الجذور التاريخية للتجربة الحزبية) ـ فى (الأحزاب المصرية ١٩٢٢ ـ ١٩٥٣) ـ مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية بالأهرام ـ أغسطس ١٩٩٥ ـ ص ٩ - ٣٦ .

(٩٨) يقصد الشيخ على يوسف .

والموضوع ـ الدعوة إلى عقد مؤتمر إسلامى يبحث فى أحوال المسلمين الاجتماعية وفى أسباب تأخرهم تجاه الارتقاء المصرى[٩٩] الذى شمل أكثر الأمم شرقا وغربا . قال والرجل أهمل[١٠٠] لأن يدعو المسلمين هذه الدعوة لأنه جليل القدر من طبقة الأشراف فى (القريم) ، نشأ نشأة علمية وكان رئيسا لبلدية (بغچه سراى) ووقف نفسه لإصلاح التعليم فى (روسيا) . فاستعفى من البلدية وأصدر جريدة (ترجمان) فانتشرت انتشارا كبيرا . قال

وخطبته فتاة كريمة لنفسها وهى (زهرة هانم) بنت أحد كبار الأغنياء فتزوج بها فكان أكثر نجاحه بواسطتها . وأول ما شرع بإصلاح التعليم أسس كتابا وضع له أصولا للتهجئة يتعلم معها الطفل القراءة والكتابة فى خمسين يوما ، فانتشرت طريقته حتى يعلم بها الآن نيف وألف (كُتَّاب) . ووضع قاموسا للغة أدبية جمع شتات اللغات المتباينة ، وأسس ناديا إسلاميا مهمته البحث فى شؤون مسلمى (روسيا) السياسية والاجتماعية ، ويهتم الآن بتأسيس حزب وطنى وتأليف فرقة مخصوصة تشتغل بأمور المسلمين فى (الدوما) . وله شقيقتان انشتا[١٠١] مدرستين لتعليم البنات المسلمات ، وله بنت أنشأت جريدة نسائية سمتها (عالم نسيان) وله مطبعة كبرى بالكهرباء وتطبع الكتب الدينية والأدبية . فترون أن ضيفنا الكريم الذى أقدمه لكم ممن وقفوا حياتهم على خدمة أمتهم خدمة عالية لا عيب فيها أ . هـ .

ثم وقف الخطيب وقال السلام عليكم ورحمة الله فقال الحاضرون وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ، فقال بالروسية إنى أسألكم أن تغضوا الطرف عما يقع فى كلامى من القصور .

حضرت إلى مصر فرأيت أن أعرض مشروعى على سعادة صاحب (جريدة المؤيد) وأرباب الغيرة الملية فوقع لديهم موقع القبول ، وتفضل (الشيخ على يوسف) بدعوة حضراتكم لهذا المحفل فأشكره وأشكر كل واحد منكم . ثم ألقى خطابه كله

---

(٩٩) المصرى = استبعدت الكلمة لعدم انسجامها مع النص .
(١٠٠) أهمل = اهتم قراءة ترجيحية .
(١٠١) انشتا = أسستا قراءة ترجيحية .

بالرومية[١٠٢] . ولما انتهى منه قام (الشيخ عبدالوهاب النجار) وقاله بالعربية على ما تقدم بك بيانه بهذا . ثم وقف (الشيخ على يوسف صاحب المؤيد) فقال :

ان[١٠٣] ارجى دعوة بين الناس للقبول . دعوة قابلت استعداد تاما من النفوس ومكانا واعيا من القلوب . ولا أظن أنه يوجد مسلم يفكر فى أحوال المسلمين العمومية إلا ويسأل نفسه هذه الأسئلة التى ألقاها الليلة الخطيب صاحب الدعوة فى هذه الليلة ولا يكاد يحير لها جوابا شافيا . قال :

وكثيرين من فضلاء المسلمين فكروا من مشروع هذا المؤتمر حتى أن المرحوم (الشيخ عبدالرحمن الكواكبى) أوجده خيالا وحشد له فى ذاكرة ذهنه مندوبين من كل الممالك الإسلامية ألقوا خطبا سامية ومفيدة تُرىَ مجموعة فى كتاب خاص مشهور فى مصر وغيرها . وسيكون كتابه هذا خير دليل للناظرين فى أحوال المسلمين الفلسفية والاجتماعية .

قال ولسماحة (السيد البكرى) كلام مفيد بشأن هذا المؤتمر فى كتاب سماه (المستقبل للإسلام) ، وغيرهما كثيرون عنوا بالبحث فى هذا الموضوع بحثا نظريا . ففكرة المؤتمر الإسلامى العام ثمرة ناضجة لغرس عقول كثيرين من عقلاء المسلمين المفكرين . ولكنهم لم يوفقوا حتى اليوم إلى رجل نافذ العظيمة[١٠٤] يقطع سفرا طويلا ليسمع المسلمين أجمع صوته العالى من مكان جدير بأن يسمع منه صوت الحقيقة فى كل مكان وزمان . أما الآن فقد وفق الله خطيبنا المفضال إلى هذه الدعوة المباركة فى بلد قال عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم (مصر كنانة الله فى أرضه) . هذه البلدة التى أصبحت كعبة الإسلام العلمية منذ ألف سنة وأكثر ، فقد أجيبت دعوته .

ويسرنى أن أجيب حضرة الخطيب المفضال على خطبته وعلى دعوته فى هذا المقام بإعلان أسماء حضرات العلماء الأعلام والفضلاء والأعيان الذين قبلوا أن يكونوا اللجنة التحضيرية الأولى التى ستنظر فى هذا الاقتراح ، وليس من حقى أن أحدد من الآن

(١٠٢) بالرومية = بالروسية قراءة ترجيحية .
(١٠٣) أن أرجى = إننى أرجو قراءة اجتهادية .
(١٠٤) العظيمة = العزيمة قراءة ترجيحية .

وظيفة هذه اللجنة فهى ستجتمع قريبا وتحدد عملها من مقدمات هذا المشروع الجليل وتعلنه للناس وتدعو من تريد أن ينضم إليها فيما تراه لازما لتكوينه . قال وهذه أسماء حضرات من أذنت منهم بإعلان أسمائهم ختاما لهذا الاحتفال المبارك إن شاء الله .

حضرات العلماء الأعلام ـ فضيلة الشيخ سليم البشرى شيخ الجامع الأزهر الأسبق ، سماحة السيد البكرى نقيب الأشراف بالديار المصرية وشيخ مشائخ الطرق الصوفية ، الشيخ محمد شاكر شيخ علماء الأسكندرية ـ الشيخ محمد بخيت من أكابر علماء الأزهر الشريف ـ الشيخ محمد حسنين والى من علماء الأزهر الشريف .

وذكر أسماء جماعة من الكبراء وأهل المناصب وليس بينهم اسم (مصطفى كامل) مقدم الحزب الوطنى وهو وسط المحتفلين فى تلك الليلة .

أقول أبان الرجل للناس فى مقالته تلك لزوم الدعوة إلى الجامعة الإسلامية ووجوب استنهاض المسلمين فى كل قطر من أقطار المعمور لتلبية هذه الدعوة المباركة وعدم الإغضاء عنها . وقال أن قد انعقدت ندوة عمومية عام خمسة وتسعمائة وألف للميلاد للدعوة إلى تلك الجامعة فكان لها تأثير عظيم فى الحركة الفكرية وتفشيها بين الخلايق . قلت والله يعلم وكل الناس يعلمون أنه لم يكن لتلك الندوة أثر ولا تأثير فى تحريك الأفكار لأنها كانت خيالية أكثر منها حقيقة بنلك[١٠٥] على ما جاء فى كتاب (أم القرى) لصاحبه موسى[١٠٦] تلك الندوة وصاحب الدعوة إليها (السيد عبدالرحمن الكواكبى) . قام الرجل بهذه الدعوة بإيعاز (الشيخ أبى الهدى الصيادى الرفاعى) إمام (السلطان عبدالحميد) ، واجتمع له فيها ثمانية من نزلاء دار السلطنة العثمانية فسماهم الدعاة ، فزعموا أنهم مختارون من جميع مسلمى الأقطار شرقا وغربا ، وكلهم كان يخافهم (الشيخ أبو الهدى) فسعى سعيه لدى السلطان حتى أقصاهم عنه بحجة أنهم أقدر على الدعوة إلى تلك الجامعة فى أرض الله الواسعة وأدلى[١٠٧] بها فنال منهم مناله .

أما إذا كان الرجل يريد بالندوة الإسلامية الكبرى (مؤتمر قزان الإسلامى) فيكون قوله هذا من قبيل إطلاق الخاص على العام . على أن ذلك المؤتمر لم يجتمع فى تلك

(١٠٥) بنلك = استبعدت الكلمة لعدم لزومها .
(١٠٦) موسى = مؤسس قراءة ترجيحية .
(١٠٧) وادلى = وأولى قراءة اجتهادية .

الآونة إلا لغرض واحد وقصد محدود هو البحث عن شؤون مسلمى الروس لا غير ، ويكون تسميته إذن بالمؤتمر الإسلامى أو بالندوة الإسلامية الكبرى من المغالطة الشائنة . ومما يؤخذ على الرجل فى مقاله ذلك دعوته إلى فتح باب الاجتهاد وحض القوم على ولوجه . فقد علمنا التاريخ أنه ما فتح هذا الباب للمجتهدين إلا وقامت ضجتهم وعلت صيحتهم ووقعت الفرقة بين المسلمين وابتلى الإسلام ببلائها جملة . وكأنى بهؤلاء القوم يعدون الدعوة إلى تلك الجامعة فى هذا الزمن الأخير من الممكنات لهم أو الهيئات الهينات . فذهبت بهم وساوس المطامع إلى هذا الحد وهم لا يعلمون استحالتها عليهم كما استحالت على غيرهم من قبل . يقول التاريخ أنه منذ ظهور السلام[١٠٨] وفى إبان بدايته وغضاضته ما اجتمعت قط كلمته ولا توحدت أمور المسلمين ولا ارتبطت دولهم برابط العصبية فى مواطنهم ، فكيف بهم وقد فقدت صبيتهم وضاعت أنسابهم العربية وصاروا من جملة الرعايا الذين تعبدهم القهر واستكانوا للغلبة وكأنما نادى لسان الحال فى عالمهم بالخمول والإنقباض فبادروا بالإجابة .

قام صاحب الشريعة الإسلامية صلى الله عليه وسلم بالدعوة إلى الله تعالى فاجتمع إليه من المجتمع[١٠٩] ودانوا بدينه وأتوه طاعتهم عن رضاء وخاضوا دونه بحار المنايا فى حروبه وغزواته ونصروه على المشركين والكفار . فما هو أن قبضه الله إليه حتى ارتد بعضهم عن دينه وخالفوا سلطانه لولا ما بدا من حزم (أبى بكر) فى إخراج جيش أمامه ، ومع ذلك فقد خالف كثيرون من المنافقين على[١١٠] صاحب الشريعة (كعبدالله بن أبى بن سلول) وغيره ممن اعتنقوا الإسلام كرها .

تولى الخلافة (أبو بكر) وكانت المردة[١١١] قد تفشت بين العرب فاشتد عليهم وأرجعهم إلى الدين وفعل مع أصحاب (الأسود الغفى) (ومسيلمه الكذاب) مما هو مذكور فى تاريخه .

(١٠٨) السلام = الإسلام قراءة ترجيحية .
(١٠٩) من المجتمع = المجتمع العربى قراءة اجتهادية .
(١١٠) على = استبعدت الكلمة لعدم انسجامها مع النص .
(١١١) المردة = الردة قراءة ترجيحية .

تولى الخلافة بعده (عمر بن الخطاب) والناس كارهون لولايته مشغفون[١١٢] من شدته . وكان لذلك يقول اللهم حببنى إلى الناس وحببهم إلى . فتح الفتوحات الكبار وأفسح تلك[١١٣] الإسلام على يدى جماعة من الصحابة . كخالد بن الوليد وأبى عبيدة عامر بن الجراح وسعد بن أبى وقاص وعمرو بن العاص وغيرهم . وللا[١١٤] ما كان لهؤلاء القوم من متانة الدين والتعمق فى الإسلام لخرجوا عليه واستقل كل بما فتح من المدن والأمصار ولا سيما منهم عمرو بن العاص ، فقد هم بالخروج والاستقلال بملك مصر ثلاثا .

كان الأمر على هذا أيضا فى خلافة عثمان بن عفان ووقعت الفرقة واشتد الخلاف وانشق أهل المدينة عليه لتوليته أهله وذويه أمور المسلمين . وكان ما كان من قتله على ما هو مذكور فى تاريخه .

ثم قام بالأمر بعده على بن أبى طالب فلم يستقر له الأمر حتى خالف معاوية ، وخرج طلحة والزبير وقامت أم المؤمنين عائشة ، وكان ما كان بينهم مما هو مذكور فى تاريخهم من هذا الكتاب . ثم كيف تمت البعثة[١١٥] بعده إلى معاويه وقد تخلى عنها الحسن بن على وكيف استقر الملك والسلطان بعده فى بنى أمية ملكا عضودا كما قال صاحب الشريعة .

وانظر كيف كتم العلويين أحقادهم حتى تأذن الله بزوال ملك بنى أمية بخروج أبو مسلم الخراسانى وقام[١١٦] دعوته لبنى العباس وتنسم[١١٧] العباسيون تخت الخلافة ، وكيف دانت لهم الأمم وخضعت لسلطانهم الممالك وتخطت[١١٨] إليهم هدايا الملوك وتحفهم من أطراف المعمور . ومع ذلك فقد كان الأمويون لعهدهم بالأندلس ينكرون خلافتهم ويزعمون أنهم أولى وأحق بها منهم . وليس ذلك فقط فقد استقل أحمد بن

---

(١١٢) مشغفون = مشفقون قراءة ترجيحية .
(١١٣)تلك = بلاد قراءة اجتهادية .
(١١٤) وللا - ولولا قراءة اجتهادية .
(١١٥)البعثة = البيعة قراءة ترجيحية .
(١١٦) وقام دعوته = ودعوته قراءة ترجيحية .
(١١٧) وتنسم = وتسنم قراءة ترجيحية .
(١١٨) وتخطت = ووصلت قراءة اجتهادية

طولون لعهدهم بملك مصر فكانت الدولة الطولونية فالإخشيدية . وفى عهدهم ظهرت الدعوة لأبى عبيدالله المهدى بالمغرب فكانت الدولة العلوية الفاطمية وعلت وظهرت كلمتها فتمت لها البيعة العامة وخطب لهم على المنابر فى الشامات وسائر بلاد المسلمين . ومعما[١١٩] كان لهذه الدولة من الهيبة وبسطة الكلمة كان الأيوبيين يعملون على توطيد أركان ملكهم فى الشامات ، وقد تم لهم ملك مصر ، وكان العبيديون بالمغرب والأغالبة فى تونس ، هكذا كان الإسلام وكانت دوله كما يقول الشاعر :

تفرقوا شيعا فكل جزيرة فيها أمير للمؤمنين ومنبر

هذا ملخص تاريخ الفرقة من الوجهة السياسية ، وأما الوجهة المذهبية فمع أنها كانت سبب هذه الانقلابات وأصلها فإنها ما زالت باقية فى العناصر الإسلامية ناشبة فيهم جملة لا يمكن معها لم شعثهم ودعوتهم إلى (الجامعة الإسلامية) ما دام هذا الشقاق . قالوا ما فيه[١٢٠] ينكرون الإمامية ، والزيدية يجحدون غيرهم ويوجبون عليهم القول المقول عن صاحب الشريعة (افترقت أمتى إلى ثلاث وسبعين فرقة إحداهن فى الجنة والباقية فى النار وكل فرقة تظن أنها الناجية) .

ومع ما تقدم بك بيانه من الدليل على الانشقاق المستحكم بين المسلمين منذ القدم رغما مما كانت عليه دولتهم الأولى من قوة السلطان وبسطة النفوذ ، لم يسمعنا تاريخهم فى كل زمان ومكان صوت داع إلى الجامعة . أى نعم إن الدعوة إلى تلك الجامعة لم نسمع بها إلا لعهد (السلطان عبدالحميد الثانى) ، فإنه ما أن تولى الملك حتى حدت به المطامع إلى الظهور بمظاهر الخلافة التى اندرست معالمها . فجعل يتقرب من أشراف العرب زلفى ويتحبب إلى شيوخهم وعلمائهم ويقربهم إليه ، فكان الذى ولد فى نفسه هذه الوساوس (الشيخ أبى الهدى الصيادى الرفاعى) . فكانت فى أول الأمر فكرة ثم تجسمت حتى خرجت إلى عالم الفعل ، ثم فشلت لعدم توفر دلائل الإقناع وما هم عليه المسلمون من القهر وتغلب الغرباء على مواطنهم بالملك والسلطان .

(١١٩) ومعما = ومع ما قراءة ترجيحية .
(١٢٠) ما فيه = فيه من قراءة اجتهادية

ثم أقول :

وما[١٢١] عاز الله أن يظن بى عدم الرغبة فى تكوين (جامعة إسلامية) ، وإنى والله على ما أقول شهيد لست بالكاره للجامعة ولا المشوه لسمعتها ، ولكننى أسأل الداعين إليها أن يبينوا للناس ما هى معداتها وكيف يكون الطريق إليها سهلا وميسورا ، وحبذا لو دعوا الناس إلى جامعة أدبية إسلامية تولد فى نفوس المسلمين بالاحتكاك حب الاحتفاظ بدينهم وتدينهم من الانصراف إلى الخير وترك الأوهام التى تفشت بينهم ففككت عراهم . ومن العجب أن أولئك الذين أقاموا أنفسهم أو أقامهم آخرون للدعوة إلى تلك الجامعة مع وثوقهم بفشل دعوتهم وخيبة مسعاهم وتأكدهم من عجزهم عن إدراكها فإنهم يقدمون على ولوج سبيلها طمعا فى الشهرة والذكر الحسن أو هم يحسبونها من الحرف أو الصناعات التى يرتزق منها ولله فى خلقه شؤون وهو حسبى وكفى .

ولما كان ثانى عشر نوفمبر من السنة سادس شوال سنة خمس وعشرين سافر (إسماعيل غصير نسكى) صاحب تلك الدعوة يريد دار السلطنة العثمانية ثم يقوم منها إلى (القرم) . وكان القوم قد أصلحوا بينه وبين (مصطفى كامل) مقدم الحزب الوطنى أو هما تفاهما ، فأولم له (مصطفى كامل) وليمة فى نزل (سميراميس) على شاطىء النيل جمعت جماعة من أنصار (إسماعيل) وآخرون من رجال الحزب . فتبودلت فيها الخطب والدعوات بنجاح الدعوة إلى الجامعة وغير ذلك كثير مما لا معنى له عند العارفين .

وبينما الخاصة فى حساب ما سيكون من وراء ضجة هذه (الجامعة الإسلامية) والعامة يظنون أن هذه الجامعة شركة من الشركات التجارية التى سيعمهم خيرها ويكفيهم الله شرها وضرها إذ جاء الخبر من الأسكندرية بوصول عالم كبير من علماء الفلك الروسيين يريد الذهاب إلى مدينة أصوان بالصعيد الأعلى لرصد الشمس فى أفقها حيث علم له من حسابه الفلكى أن (عطارد) سيمر أمام قرص الشمس . قال وقد ثبت له بالحساب أن (عطارد) سيمر فى الساعة الثانية عشرة ونصف إلى الساعة الرابعة بعد الظهر ويكون كأنه نكتة[١٢٢] سوداء فى وسط قرص الشمس . وأثبت الرجل أن هذا الحادث

(١٢١) وما عاز = ومعاذ الله قراءة تصحيحية .
(١٢٢) نكتة = نقطة قراءة ترجيحية .

الكبير يحدث فى كل مائة عام مرة . ووصل الرجل إلى القاهرة فقابله جماعة من أعضاء (الجمعية الجغرافية) واحتفلوا به احتفالا كبيرا . وما عتم أن سافر إلى أصوان فشاهد مرور (عطارد) وعاد إلى القاهرة ، وعاد مسرعا إلى عاصمة الروس بما جمعه من الأدلة التى كان يرجوها من مرور ذلك الكوكب على قرص الشمس .

أقول أيضا وقد كان من وراء اجتماع القوم إلى حفلة الدعوة إلى (الجامعة الإسلامية) أن وقع الهرج فى صفوف تلاميذ المدارس الأميرية ، وعلى الخصوص منها (مدرسة الحقوق) التى تخمرت عقول أبنائها بسموم التحزب الممقوت ، واستعاضوا عن كراريسهم وكتبهم العلمية بحصف(١٢٣) الأحزاب وتفضيل بعضها على بعض ، وقتل ساعات تدريسهم فى الجدل والأخذ والرد فى عمل الأحزاب ، وبحثهم فى أقوال السياسات وغير ذلك . فأقلق عملهم رؤساء التدريس وشكوا أمرهم إلى وزارة المعارف . وشاع خبر ذلك وتحدث الناس به ، وانقسم أصحاب الصحف فى شأنهم إلى قسمين . (فالمؤيد) (والجريدة) (والمنبر) فى جانب ، (واللواء) فى جانب . وكل من الفريقين . يشدد النكير على خصمه وينعته بنعوت شائنة معيبة . وعظمت المشادة وتضخمت المعاندة والمكابرة .

أقول وطلبة المدارس فى العالم كله قد يستوهبهم(١٢٤) ميل أو يقتادهم هوس سياسى إلى جهة دون أخرى . ولكنهم لا يكونون مع هذا الاستهواء الطبيعى فى كل نفس حزبا أو بعض حزب ، ولا يجوز فى حال من الأحوال أن يُدعَو من حزب لأن(١٢٥) يكونوا منه ، لأن الأحزاب لا تستطيع التعويل على حماس الشبان والفتيان . لأنهم فى سن الوهم دون الحقيقة ، وفى عمر الانقياد للتصور دون المنفعة . قال الحكماء . (ومع العمر والإختبار يأتى التعقل والرصانة وحسبان المزالق قبل الخطى) .

ويقول أهل الحصافة وحسن الرأى أنه لا يصح لأصحاب الأحزاب أن يستمدوا(١٢٦) حماس الطلبة وأوهامهم حتى لا يصرفونهم عن العلم والتدريس اللذين وجدوا فى

---

(١٢٣) بحصف = بفحص قراءة اجتهادية .

(١٢٤) يستوهبهم = يستهويهم قراءة ترجيحية .

(١٢٥) لأن = لكى قراءة ترجيحية .

(١٢٦) يستمدوا = يستغلوا قراءة ترجيحية .

المدارس لأجلهما ، وهذا ما يحمل حكومات الممالك الأوروبية المتمدنة على إقفال كل مدرسة إلى أجل محدود إذا كبر انصراف تلاميذها إلى السياسة ومعاونة الأحزاب . ومال لتلامذة مدارسنا والسياسة والبلاد ليس فيها سياسة مقررة ثابتة على منهاج مستقر . على أن كل صوت عندهم غير صوت العلم ذاهب عبثا ، وكل حركة منهم تعد هرجا وخروجا ، حتى لقد جاءهم الأمر تلو الأمر من وزير المعارف بالإقلاع عما هم فيه والانصراف عن هوسهم المعيب فلم يرجعوا ولم يثوبوا إلى نفوسهم ، وأصحاب (الحزب الوطنى) يحضونهم على الجهر بأفكارهم وإظهار أصواتهم عالية فى محافلهم واجتماعهم[١٢٧] التى كانوا يعدونها فى بيوت بعضهم كل قليل من الأيام . أقول وكان[١٢٨] قد تقررت القاعدة بين أعضاء اللجنة التحضيرية لمؤتمر (الجامعة الاسلام)[١٢٩] عن اجتماعهم فى دار (حسين باشا واصف) أحد الأعضاء فى يوم معين ، ثم عادوا فقالوا باجتماعهم فى دار (السيد توفيق البكرى) . فلما جاء الأجل المضروب اجتمعوا فكانوا خمسة وأربعين للبحث فى ماهية المؤتمر والخطة التى تخطتها[١٣٠] اللجنة لسيره . اجتمع (الشيخ على يوسف) (صاحب المؤيد) بأعضاء اللجنة وأعلمهم بأنه هو (وحافظ أفندى عوض) ينسحبان من عضوية اللجنة التحضرية حتى تخلو من صفة الأحزاب ، وأن عدد الأعضاء ينقص حتى تقل وتقل الآراء فى العمل فيسهل التنفيذ . قلت والذى دعا إلى هذا قيام (مصطفى كامل) وأصحابه النكير[١٣١] على تأليف تلك اللجنة من (الشيخ على يوسف) والملتفين حوله . فلما علم جماعة الحاضرين بمقالة (الشيخ على) عابها بعضهم واستهجنها البعض الآخر وطلب بعضهم إفتتاح الجلسة ، فقام (الشيخ على) وافتتح الجلسة بما كان بسطه لأعضاء الجمعية التحضرية . وبدأت المناقشة فقال أحدهم أنه يرى وجوب حصر عمل المؤتمر فى القطر المصرى لا خلافه ، وطلب آخر فض اللجنة التحضيرية وتأليف خلافها ، فوقعت الفرقة بينهم وعلت الأصوات وظهرت المشادة . وظلوا على هذا ساعة ثم تفرقوا وكأنهم فى مغاضبة .

---

(١٢٧) واجتماعهم = واجتماعاتهم قراءة ترجيحية .
(١٢٨) وكان = وكانت قراءة ترجيحية .
(١٢٩) الإسلام = الإسلامية قراءة تصحيحية .
(١٣٠) تخطتها = تخططها قراءة تصحيحية .
(١٣١) النكير = بتشديد النكير أضيفت الكلمة لتصحيح المعنى .

فلما كان تاسع عشر نوفمبر من السنة رابع عشر شوال سنة خمس وعشرين اجتمعت اللجنة التأسيسية لمشروع ذلك المؤتمر فى دار (السيد توفيق البكرى) وانتخبت رئيسا ووكيلين للمؤتمر وأمين صندوق وكاتب سر . واختاروا منهم جماعة أيضا لتحضير مشروع المؤتمر وبيان موضوعه ووسائل تنفيذه حتى إذا أتموا عملهم هذا استدعوا اللجنة التأسيسية لتنظر فيه . ولما كان الموضوع الذى تبحث فيه اللجنة خطيرا جدا ، تقررت القاعدة بينهم على أن يستدعوا من العلماء والأدباء وأصحاب العقول الراجحة جماعة ينظرون فى العلة والأسباب المؤدية إلى الغرض .

وما هو أن شاع خبر ذلك حتى ظهر بخطة العباسية رجل يقال له (محمود أنيس بك) من متقاعدى الحكومة وأذاع فى الصحف رأيا فى اختيار رئيس اللجنة ووكيلاها ، ويقول بأن الإلزام لترتيب ونظام اللجنة التحضيرية تلك هو أن يكون (الرئيس مصطفى رياض باشا) بدلا من (الشيخ البشرى) وأن الشيخ يتولى الوكالة ، وأن تتعين لجان متعددة بعدد الممالك التى يسكنها المسلمين ، وأن يرأس كل لجنة فتى من أفاضل المصريين ووكيلان له من علماء المسلمين ، ويكون رؤساء هذه اللجان كمستشارين للرئيس (مصطفى رياض باشا) . قال وقبل أن تبدأ هذه اللجان بعملها يجب طلب الإذن به من جانب الأمير ثم يختارون وفدا ليطلب من السلطان جعل هذا المؤتمر الإسلامى تحت رعايته إلى آخر ما قاله . فلم يعجب أعضاء اللجنة رأيه ولا أحله الناس محلا وقالوا أنه من الخلق القديم عاش فى وسط تغلبت فيه الوظائف والرتب العالية على العواطف والوجدان الصحيح . وقال آخرون أنه إنما يريد بصيحة[١٣٢] هذا التشويش على دعاة هذه الجامعة وإيقاع الفرقة بينهم . فما هو أن تفشت مقالته وتحدث أعضاء لجنة المؤتمر بها حتى اجتمع فى ليلة ثانى عشره نوفمبر فى دار (جريدة المؤيد) جماعة ممن مالوا إلى عقد ذلك المؤتمر وألفوا حزبا سياسيا سموه (بالحزب المعتدل) واختاروا للرئاسة الشيخ (على يوسف) ولوكالته (حشمت باشا) (وحسين واصف باشا) وانضم إلى عضويته ثلاثين . قالوا وكان الشيخ على والملتفين حوله قد جعلوا يتباحثون بعد ظهور دعوة الجامعة فى أمر تأسيس هذا الحزب بعد أن انصرفت عنه الوجوه وزاحموه فى رئاسة اللجنة بالمناكب ودفعوه عنها بالراح ، وهو أول من أعان صاحب الدعوة على قصده . وطاف الشيخ على

(١٣٢) بصيحة هذا = بصيحته هذه قراءة اجتهادية .

أصحاب الوجاهة يدعوهم إلى الانضمام إلى حزبه ويحبب إليهم مقاصد الحزب وما سيكون من وراء عمله للبلاد وأهلها . فلم يفلح وامتنع الكثير من أهل الرأى من الانضمام إليه . وأعقب ذلك ضجة عظيمة قامت من جانب أصحاب الصحف العربية وجماعة من الكتاب وكلهم مجمع على عدم لياقة تأليف هذا الحزب فى هذه الآونة القائمة فيها ضجة دعاة (الجامعة الإسلامية) . وقد صرح بعضهم أن تأليفه له علاقة أدبية بامتناع لجنة المؤتمر التحضيرية من عدم استمداد رضاء السلطان لمشروع الدعوة . وهذا أمر مفضى إلى الريبة فى أصل الدعوة وحلها ومآلها ، وأنه لا يصح إدخال الخصومات السياسية والحزبية فى مثل هذه الدعوة الخطيرة فى بابها ، وأن الواجب أن لا يعقد المؤتمر إلا بإذن السلطان وموافقته وإلا كان انعقاده دافعا إلى الشقاق ووقوع الفرقة بين المسلمين وسائر الأقطار وأصحاب هذه الدعوة . قال صاحب المقالة وإنى أحذر إخوانى من الوقوع فى مهواة هذه المحنة التى قد تكون دسيسة من جانب الروس يريدون بها إضعاف السلطنة العثمانية بمثل ذلك الشقاق لمآرب لهم فى دار السلطنة (والبسفور) ينم بها ويدل عليها محالفة أولئك القوم الروس للإمارات البلقانية أ . هـ .

أقول ومما أدخل الريب فى قلوب القوم وأفسد الظنون الحسنة ووسع المجال للخلاف على امتناع اللجنة التحضيرية من طلب الإجازة من (المابين) بعقد المؤتمر ، وتصميمها على الامتناع رغما من إلحاح بعضهم بطلبه وتعجيل (غصير نسكى) صاحب دعوة المؤتمر بالعودة إلى بلاده قبل أن يتم معه الاتفاق على أمر يحسن الوقوف عنده . وإذا كانت الدعوة إلى (الجامعة الإسلامية) لم تفلح والسلام[١٣٣] فى بدايته وغضاضته على ما بينا للمستبصرين . فكيف بها[١٣٤] . وقد يكون المنتحل لهذا الأمر دعيا كاذبا أو مأجورا من قوم يريدون للإسلام والمسلمين الشر والاقتتال . فهى من الاستحالة بمكان وعظيم التعذر حمل جمهور المسلمين فى بعيد الأقطار وقريبها على منهاج واحد يكون فيه حفظ الإسلام وبقائه عزيزا قويا . على أنى إلى هذا اليوم لم أقف على كلام أو رأى فى منحاء[١٣٥] الدعوى لأحد من الخليقة ، وهم ما أغفلوه إلا لأنه عريق فى الصعوبة بعيد عن طاقة المفكرين لما مر بك بيانه فليتفطن إلى الأمر أصحاب هذه الصيحة .

(١٣٣) والسلام = والإسلام قراءة ترجيحية .
(١٣٤) بها = بها الآن أضيفت الكلمة ليستقيم المعنى .
(١٣٥) منحاء الدعوة لأحد من الخليقة = منهج الدعوة قراءة اجتهادية .

وجاء الخبر من الخرطوم إلى وزارة الحرب وقصر الإمارة بقدوم سلطان (طميره) صاحب بلاد (بحر الغزال) فأنزلوه ضيفا على الحكومة فى (أم درمان) ومعه حاشية مؤلفة من ابنه وأخويه وإثنى عشر من الخدم والأتباع وسبع من النساء . فاحتفلوا بلقائه فأقام على الرحب والسعة عشرين يوما زار فى خلالها كل أماكن الحكومة ودواوينها . فلما هم بالعودة إلى دياره أولموا له وليمة حافلة فى (دار[١٣٦] الضابطة) فى (أم درمان) وكان معها[١٣٧] على المائدة السلطان (موسى حامد) وابن السلطان (زنغمبيا) ، وكانا قد حضرا إلى (أم درمان) زائران بدعوة من حاكم السودان . يقال كان سرور الرجل عظيما بما خصوه به من العناية والتكريم . وكان فى زى الأوروبيين وعلى رأسه قبعة وهو أقرب إلى الحضارة من الهمجية . فلما كان ثانى ديسمبر من السنة قام من (أم درمان) بلاده[١٣٨] ومعه حاشيته وبطانته ونسائه وقابل الحاكم صبح يوم السفر . فأكرمه وأهداه شيئا من الملابس والتحف اللطيفة وأهدى رجال حاشيته بعض الهدايا أيضا . فشكر الحاكم على ما لقيه من يوم قيامه من بلاده إلى ساعة سفره ، وقال أنه عاقد النية على إدارة الأحكام فى بلاده على ما تريده حكومة السودان من العدل والرأفة بالرعية وأنه سيرسل أربعة من أولاده إلى (الخرطوم) ليتلقوا العلوم فى (كلية غردون) ويدخلوا نور التمدن فى بلاده ، فودعه الحاكم وسير معه جماعة من مقدمى العسكر ليشيعوه قدر مرحلته من الخرطوم .

(١٣٦) دار الضابطة = إدارة الأمن العام أو الشرطة .
(١٣٧) معها = معه قراءة تصحيحية .
(١٣٨) بلاده = إلى بلاده قراءة ترجيحية .

عام ١٩٠٨

الصراعات الحزبية ـ سياسة جورست الجديدة ـ بدايات العنف السياسى ـ وفاة مصطفى كامل ـ محمد فريد ـ احتجاج طلبة المدارس على سياسة دنلوب ـ كتاب اللورد كرومر Modern Egypt ـ نشاط الشيخ عبد العزيز جاويش ـ الدستور ـ حادثة الكاملين ـ بوادر فتنة طائفية ـ محاكمة الشيخ عبد العزيز جاويش ـ الانقلاب العثمانى وعودة الدستور ـ الحزب المصرى ـ تطور الصحافة السياسية ـ نشاط الحزب الوطنى ـ مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية ـ نظارة بطرس غالى ـ تطور الحركة الوطنية والرأى العام ـ التنظيم الجديد للمحاكم الشرعية ـ افتتاح الجامعة المصرية .

ثم دخلت سنة ثمان وتسعمائة وألف للميلاد

استهلت سنة ثمان وتسعمائة وألف للميلاد بيوم الأربعاء سابع عشرى ذى القعدة سنة خمسة وعشرين وثلثمائة وألف للهجرة ورابع عشرى كيهك سنة أربعة وعشرين وستمائة وألف للشهداء

فصل
فى ذكر ما وقع فيها من حوادث

اشتدت فى هذه الآونة نزعة الخلاف بين الأحزاب وتضخمت وكبرت الأسباب وعظمت ، فقعد بعض لبعض بالمراصد وصار بعضهم لبعض عدوا ، وقامت حرب الأقلام بين صحفهم فكشف بعضهم للناس عما خفى من أسرار البعض الآخر . وكان أصحاب الحزب الوطنى أعلاهم صوتا وأشدهم عزيمة وألصقهم بقصر الامارة ، فكانوا يفخرون بطروق المنازل وغشيان السمر يدعون الناس الى دعوتهم ويحضونهم على مقاومة من يخالفها بكل وسائل الحض والتبغيض . هذا ونقلة الأخبار من النزلاء ينقلون عن أولئك النفر من التهم الشائنة والأخبار المخيفة المقلقة ما دل على أن الفوضى والإرهاصات ضاربة اطنابها وأن سلامة الأجانب أصبحت وقد خرجت من الحظر الى الإباحة ومن الطمأنينة الى الخوف . وتفشت هذه الأقوال بينهم وعرضت على رجال شوراهم فى دور ندوتهم . فجاء جماعة منهم الى مصر يتجسسون ويسترقون سمع الحوادث ، وتبعهم آخرون من أصحاب الصحف ومكاتبيها ووقفوا بأبواب القصر يطلبون الدخول على الأمير ليسألونه عن رأيه فى حالة البلاد العمرانية والإقتصادية وفى سلامة النزلاء تجاه ضجة الاحزاب وصيحتهم التى قد بلغت مبلغها ، فكان الامير يحدثهم بما يدفع عنهم تلك الريبة ويقول أن للأحزاب ضجة فى كل أمة ومملكة وهكذا تكون الاحزاب فى كل زمان ومكان .

وكان ممن جاء من أولئك الرواد الى القاهرة عظيم من ندوة الإنجليز يقال له (روتر فورد) ، يقولون والرجل وكيل اللجنة المصرية فى ندوة الإنجليز . فاهتم أصحاب (حزب الاصلاح) لمقدمه وأدبوا له مأدبة فاخرة فى فندق (سافواى) حضرها خمسة وسبعين

مدعوا . فقام بينهم (الشيخ على يوسف) وتلا خطابا بعد شرب نخب أمير البلاد فشكر للضيف مساعيه فى دار الندوة الإنجليزية للعفو عن مسجونى (دنشواى) ومطالبه لإصلاح التعليم فى ديار مصر ، ووجوب مساعدة مشروع الجامعة العلمية بأموال الخزينة وتعليم العلوم باللغة العربية وجعل حكومة البلاد نيابية . ثم انتقل إلى الكلام على مشاريع الحكومة الكبرى ومال فى سردها باللائمة على (اللورد كرومر) ، وقال أنه كان كثير القول قليل العمل . قال وليس غريبا أن يقوم فريق من أعيان البلاد فيؤلفون حزبا سياسيا فيتبعون فيه طريقة (اللورد كرومر) مع صاحبهم بالتبرؤ منها . فهذا الحزب جرى فى تيار الحكومة فوضع مشروعا لتوسيع اختصاص المديريات ، ولم يفعل ذلك إلا بعد قراءته اقتراح (اللورد كرومر) . كأنهم يقطعون الطريق على أنفسهم إذا قام غدا أحد أعضاء الشورى وطلب تعديل القانون النظامى تعديلا يشمل الهيئات الثلاث مجالس المديريات والشورى والجمعية العمومية .

فقام الضيف الكريم فشكر وأعرب عن مسرته بمقابلة قوم كرام يمثلون الأمة المصرية على اختلاف عناصرها وأجناسها إذ دله هذا الاجتماع على وجود الإتحاد ، وإذا كان رئيس الحزب قد شكرنى على الخدمات التى أديتها فانها ستكون قليلة فى جانب ما أقدمه من الخدمات لبلادى وبلادكم فى المستقبل القريب . ثم بسط العقبات التى تقوم عادة فى وجه الندوة الانجليزية دون الإشتغال بأمور وأعمال كل سفير (يعنى لورد كرومر) ، لأنها (يعنى الندوة) تشتغل بمصالح أربعين مليونا من الشعب . قال وهذا دليل على أن المصريين بحاجة شديدة الى تعجيل الوقت الذى يتولون فيه أمورهم . ثم قال زرت بلادكم لتوثيق عرى التآلف والوداد بين ديارنا ودياركم ، ولقيت من اميركم كل إكرام وكذلك من جميع الوزراء والمستشارين وأهل المناصب والأحزاب . وأثربى جمال النيل وخصب الأرض ورواء الجو وآثار المدينة القديمة ، وأعظم من هذا كله ما فطر عليه المصريون من السكينة والإعتدال ومكارم الاخلاق والترفه وحسن المعاشرة . ولكننى آسف من أنى أرى النزلاء فى دياركم لم يحتكروا الفضائل وأن المصريين لم يأخذوا من النزلاء فضائلهم فقط ، وأنه يجب عليهم أخذ الحسن ومحاربة الفاسد . الى أن قال وأرى أن بلادكم فى حاجة الى إصلاحات ضرورية جملة أخصها التعليم والصحة والآداب العمومية وإصلاح المستشفيات والحقانية والحكومة الوطنية والمجالس البلدية ، ولكننى

أرى ترك البحث فى هذا كله الى وقت عرضه على ندوتنا . ثم قال إنكم تطلبون التعليم المجانى وفى ديار الانجليز التعليم مجانى إجبارى ، فما كان حسنا عندنا فهو حسن عندكم ، فالتربية والتعليم أساس ترقية اخلاقكم ونمو حياتكم ونجاحكم . إلى أن قال والتنبيه الوطنى الجديد بينكم يسرنى لأن حب الوطن وحب الحرية هما أشرف آمال الحياة يحسنان حال الفرد والأمة وبدونهما تكون نعمة الحياة نقمة ، فربوا هذه العاطفة فى نفوسكم . . الى أن قال وإنى موافق لكم على مطالبكم الوطنية . فلتتفق أحزابكم على السعى وراءها بالحكمة والتروى لأن طرق الإكراه والتهييج تعود على صاحبها بالضرر ، ولا تجدون وسيلة لتحرير بلادكم إلا بإزالة الاحقاد الدينية وإصلاح العادات والأخلاق القديمة الحائلة دون الحرية والإنصاف . فساووا بين الجميع أفرادا وأمة . هذا هو سبيل النجاة .

إتهمتم بأنكم أمة خاضعة مستعبدة . فامحوا هذا العار منكم وطالبوا بمالكم من الحق وهو تولى أحكام بلادكم بأنفسكم ، واعلموا أن وظيفة الإنجليز فى دياركم هى أن تمكن المصريين من تولى امورهم بيدهم وأن تحميهم من كل اعتداء خارجى إذا هم تولوا أمورهم ا . هـ

وقام آخرون وتكلموا بما يناسب المقام ثم انصرفوا .

أقول ولم يعجب (مصطفى كامل) صاحب (الحزب الوطنى) وأعوانه حديث ما جرى فى ذلك اليوم وأنكره على اصحاب (حزب الاصلاح) وعاب عليهم خنوعهم وتعظيمهم لرواد الإنجليز ، وقال إن كل ما يقوله أولئك القوم الإنجليز ختل ورياء وإفك قد دلت عليه الأيام والسنون . وهم قط لا يخلصون لنا فى أمر ولا يحفظون لنا عهدا ولا ذمة . وظل يكتب هذا وأشباهه فى جريدته (اللواء) أياما حتى عاد الرجل الى دياره بعد مكثه اياما بين القاهرة والصعيد الأعلا والإسكندرية . وليس ذلك فقط بل أرسل الى الرئيس (مصطفى فهمى باشا) يقول (أتشرف بصفتى رئيسا للحزب الوطنى ان ارفع لعطوفتكم ما يأتى .

إنه لما كانت حياة مصر مرتبطة بحياة السودان ، وكان عقد الشركة بين مصر وإنجلتراعقدا مضرا بصالح كل فرد من أفراد الأمة المصرية فضلا عن مخالفته للفرامانات

السلطانية والمعاهدات الدولية وأقواها (معاهدة[1] طرابيا) الصادرة فى خمسة وعشرين يونيه عام اثنين وثمانين وثمنمائة . فقد اجتمعت اللجنة الإدارية للحزب الوطنى وقررت رفع الاحتجاج لعطوفتكم فى هذا اليوم الذى هو تذكار لتاريخ تلك الشركة فى تاسع عشر يناير عام واحد[2] وتسعين وثمنمائة والف .

وأرسل فى هذا اليوم أيضا وهو تاسع عشر يناير من السنة الى كبير وزراء الإنجليز (تعلمون يا جناب الرئيس انه فى مثل هذا اليوم من سنة تسعة وتسعين وثمنمائة وألف وقع كل من سعادة (بطرس باشا غالى) بصفته وزيرا لخارجية مصر وجناب (اللورد كرومر) بصفته قنصلا جنرالا لدولة بريطانيا فى مصر على عقد شركة السودان باسم الحكومتين المصرية والإنجليزية ـ ولما كان هذا العمل مخالفا لنصوص المعاهدات الدولية وأخصها (معاهدة طرابيا) المؤرخة فى خامس[3] عشرى يناير سنة إثنين وثمانين وثمنمائة وألف والتى كانت الحكومة الإنجليزية أول من وقعت عليها ، فقد اجتمعت اللجنة الإدارية الممثلة للحزب الوطنى وقررت تبليغ جنابكم هذا احتجاجا منا على ذلك العقد الباطل) .

وأرسل على جناح البرق إلى صدر الدولة العثمانية أيضا يقول (لى سامى الشرف أن أبلغ فخامتكم بصفتى رئيسا (للحزب الوطنى) أن اللجنة الإدارية للحزب الوطنى رفعت اليوم احتجاجين باسم الحزب ، أحدهما لعطوفة رئيس الوزارة المصرية والثانى لجناب رئيس الوزارة الإنجليزية بشأن مسألة عقد (شركة السودان) بين الحكومة المصرية

---

(١) المقصود هو مؤتمر الآستانة الذى عقد بين فرنسا وروسيا وألمانيا والنمسا وايطاليا وبريطانيا لبحث الأزمة المصرية (الثورة العرابية ـ سبتمبر ١٨٨١) وتطوراتها . وقد اتفق المندوبون فى ٢٥ يونيو عام ١٨٨٢ على البروتوكول الآتى : تتعهد الحكومات التى يمضى مندوبوها على هذا القرار بأنها فى كل اتفاق يقع بشأن تسوية المسألة المصرية لا تبحث على احتلال أى جزء من أراضى مصر ولا على الحصول على امتياز خاص بها ولا على نيل امتياز تجارى لرعاياها يكون غير ممكن لرعايا الحكومات الأخرى نيله .

عقد هذا المؤتمر بدار السفارة الايطالية بضواحى الآستانة يوم ٢٣ يولية ١٨٨٢ ، وتم توقيع البروتوكول فى ٢٥ يولية ١٨٨٢ وسمى (ميثاق النزاهة)

ـ مصطفى كامل (المسألة الشرقية) تحقيق عبد الرازق عيسى وعبير حسن ـ العربى للنشر والتوزيع ـ القاهرة ـ ٢٠٠٠ ـ ص٣٠٨ .

ـ جورجى زيدان (كتاب تاريخ مصر الحديث من الفتح الإسلامى الى الآن) ـ الجزء الثانى ـ الطبعة الثانية ـ مطبعة الهلال بالفجالة بمصر ـ القاهرة ـ ١٩١١ ـ ص٢٥٧ .

(٢) واحد وتسعين وثمنمائة وألف = صحة التاريخ هو ١٩ يناير ١٨٩٩ وهو تاريخ توقيع اتفاقية الحكم الثنائى فى السودان .

ـ جورجى زيدان ـ المصدر نفسه ـ ص٣٤٠ .

(٣) خامس عشرى يناير = ٢٥ يونيو قراءة تصحيحية .

والحكومة الإنجليزية الذى تم فى تاسع عشر يناير سنة تسعة وتسعين وثمنمائة وألف ، لأنه عقد مخالف للفرامانات الشاهانية والمعاهدات الدولية) ا . هـ

وبينما كان (مصطفى كامل) على شأنه من الاحتجاج على عمل أصحاب سياسة الإنجليز فى مصر كلما سنحت له فرصة ، كان أعيان ووجوه الأقاليم القبلية يقابلون (السير غورست) عميد الإحتلال الجديد فى طريقه الى السودان وفى عودته منه ، بالإحتفال العظيم والحفاوة التى ليس بعدها تعظيم ، ويسألونه قضاء بعض المطالب الهامة والمشاريع الجسام التى يتعذر على أصحاب الحل والعقد إخراجها الى حيز العمل ، حتى قال (السير غورست) الى بعضهم (إنى غريب عن الحكومة المصرية) . وتفشى خبر ذلك وتناقله أصحاب الصحف المحلية واتخذه بعضهم دليلا على فساد زعامة (مصطفى كامل) عن الوطن وأن احتجاجاته واهية مدخولة . وهى ولو كانت صحيحة لما قام أعيان البلاد ووجهائها بما قاموا به من مظاهر الحفاوة والتعظيم لعميد الاحتلال ولا أحلوه محل أمير البلاد فى ملتمسهم وهم يعلمون أن حكومتهم هى الموكلة بكل شؤونهم كبيرة وصغيرة ، ما[٤] بها وحدها يجب اللؤ فى كل امر ومهمة ، وكأن هذه الحال ، تبدلت وتحولت على عهد (لورد كرومر) عن وجهتها بما كان له من الهيبة وبسطة الكلمة .

أقول ما أدرى إذا كان (السير غورست) يعيد الأمر الى نصابه والسلطة إلى أصحابها ، بعد ان كان قد سلبها (اللورد كرومر) من (الرئيس مصطفى فهمى باشا) ، وحمله على الإستسلام وعلى غلق أبواب الوزارة ، ليطرق اصحاب الشكايات أبواب الوكالة البريطانية . وقد عرفنا الرجل لعهد مناصبه الصغرى فى دواوين الحكومة كثير التحجب شديد التعصب ملبس الأمور ملقح الشرور . له فى كل محنة أثر وفى كل مصيبة خبر ، ولا خفى أن من كان هذا شأنه عسير عليه العمل إلا لنفسه ولمصلحة امته ودولته ، وسفينة السياسة الانجليزية فى هذه الديار واحدة يدير دفتها (غورست) هذا كما كان (لورد كرومر) يسير بها ما شاء صاحب سياستهم . أما وان[٥] قال (غورست) لأهل البلاد إنى بعيد عن الحكومة ، يعنى أنه بعيد عن التشيع لرأى او نحلة ، فهو قول تكذبه شواهد

---

(٤) ما بها وحدها يجب اللوء فى كل أمر ومهمة = وأنها المسئولة وحدها فى كل أمر ومهمة ـ عدلت العبارة لتتفق مع المعنى المقصود .

(٥) وان = وقد قراءة ترجيحية .

الحال . فقد جعل الرجل يطوف البلاد شمالا وجنوبا ويلتقى بأهل الوجاهة من أهلها ويلقى عليهم بآخر سهم من كنانته حتى لا يصيب الإحتلال وهن ولا ضعف لعهده ، ولا يرميه قومه من المحازبين لسلفه بالعجز والتقصير ، وهو الذى قامت حوله[٦] ولايته ضجة أصحاب الندوة الانجليزية وجماعة الوزراء وكبار أصحاب الصحف . وكلهم يرجون أن تعظم دالته على الأمير وينبسط جاهه فى بلاطه ويزيل ما احدثته شدة (اللورد كرومر) من سوء التفاهم وسوء المصير .

وأعقب هذا الحادث قيام ضجة عالية بين اصحاب الصحف وانقسام بعضهم على بعض وقيام فريق منهم الى نبش القبور وذكر مثالب الأموات ومساوئ أهل الأبدية ، حتى ترامت اقوال (الشيخ على يوسف صاحب المؤيد) إلى ذكر ما كان بين (الشيخ محمد عبده) مفتى الديار فى حياته وبين (المستر[٧] بلانت) المستشرق الإنجليزى من الأسرار الخفية فى شأن الإمارة المصرية ، ونشر كتابين من الشيخ الى ذلك الرجل كل ما فيهما غمز ولمز مفضيان الى إذهاب سلطة الامير حتى فيما هو مقرر للأمراء والملوك الدستوريين . وفيهما حض على جعل الهيئة الحاكمة مزيج من المصريين والإنجليز وغير ذلك . وقال (الشيخ على يوسف) أنه يعرف من سياسة (الشيخ محمد عبده) فوق هذا مما يسود صحيفة تاريخه السياسى ، وأشار الى قصص محفوظة عنده (غفر الله له) وقد بعث بها الى (عزت باشا العابد) أحد كبار (المابين الهمايونى) ، وإلى كتب ورسائل اخرى لا يبتهج لنشرها تلاميذ الشيخ ومحبوه . قال وإن ذلك منع صاحب المؤيد عن تسطير تاريخ الشيخ بعد وفاته حتى لا يضطر الى قول الحقيقة التى تجرح فتؤلم .

وتفشت هذه الأقوال وشاع خبرها بين الناس ، فأكبرها العقلاء وأصحاب الرأى . وتحدث بها أهل القصر ، وأنزلوها منازل الصدق لما لصاحب المؤيد من المكانة والمنزلة عند أهل القصر . فانبرى اثنان من (الجريدة) للرد على (الشيخ على يوسف) أحدهما يقال له (السيد رشيد رضا) صاحب (مجلة المنار) . فجعل يعجز صاحب المؤيد ويهدده بنشر كتبه ورسائله التى عنده (للشيخ على يوسف) إذا هو نشر كتب ورسائل (الشيخ محمد عبده) .

---

(٦) حوله = حول قراءة ترجيحية .

(٧) انظر ترجمته فى القسم الأول من الجزء الخامس من (الكافى) ـ ص٢٣١ ـ حاشية ٢٢٥ .

وطال الأخذ والرد بين الشيخين أياما والناس فى أمرهما فريقان ، فريق يود لو أن العزة تأخذ صاحب المؤيد فينشر للملأ ما فى تلك الكتب والرسائل لتعلم حقيقة امر الشيخ المفتى وما كان يريده بالبلاد وأهلها وأمرها من وراء تلك الكتب والرسائل الخطرة من نوعها ، وفريق كان يتأسى بالقائلين (اذكروا محاسن موتاكم) وكان يرى أن فى نشر كتب ورسائل صاحب المؤيد أيضا مؤاخذة للأمير وبطانته ورجوع عن سياسة اللين التى جاء (غورست) من أجلها كما يزعمون .

وعندى أنه كان أولى بصاحب المؤيد ألا يقول بهذه المعميات والألفاظ المشوهة والأحاجى البعيدة ، كما ان صاحب (المنار) كان فى غنى عن السلوك فى هذا السبيل أيضا ، لأن أفضل الأعمال فى نظر التاريخ والجدل أن يقول كل واحد مقالته ويقيم دليله ويترك للجمهور الحكم فإما له وإما عليه وإلا وجب السكوت ، أما وهما لم يفعلا فقد أوجبا فطنة[٨] السوء بينهما وحقت عليهما تهمة الاشتراك . والعجيب أن الشيخان المتناظران لم يسمعا الناس جدالهما بالأسباب ومهاتره لأن شر الجدال بين جماعة الكتاب فى هذه الأيام أن المناظر يعد للغلبة سلاح الغمز واللمز أو الطعن والتجريح . وما أدرى ما الذى منع الشيخ (على يوسف) عن كشف الغطاء عن التاريخ الصحيح (للشيخ محمد عبده) . على أن الذى أعرفه ويعرفه الناس طرا ان (الشيخ محمد عبده) كان نابغة فى العلم وتقويم بعض المعوج من العادات فى الإسلام ، ولكنه كان غير ثابت كثير التقلب فى سياسته . فقد كان عرابيا مع (العرابيين) ثم انقلب عليهم ، ثم كان ضد أصحاب الإحتلال ثم كان معهم ، ثم غير فى أخريات أيامه ما كان اتبعه فى أوائل عهده . وهذا شأن الرجل حتى قبضه الله اليه محمود السيرة عند قوم مذمومها عند آخرين . فسبحان من أودع كل قلب ما أشغله .

وبينما الحال على هذا إذ جاء الصائح الى محافظ المدينة بأن جماعة من عسكر الدريسة فى خط السكة الحديد عثروا فى صبح حادى ثلاثين يناير من السنة على قنبلة من قنابل المدافع محشوة بالبارود والديناميت سليمة الكبسول الى جانب خط السكة الحديد بين (محطة كوبرى القبة) ومحطة (القبة) التى هى (محطة قصر القبة) . فحمل أولئك العساكر القنبلة الى (مخفر قسم الوايلى) فبادر فى الحال أصحاب الحل والعقد

(٨) فطنة = مظنة قراءة ترجيحية .

إلى محل وجودها واهتم محافظ المدينة بالأمر اهتماما عظيما . والقنبلة من قنابل المدافع التى تتفجر لأقل احتكاك . قال قوم أن القنبلة وضعت على الخط منذ بضعة أيام وأن عساكر الدريسة أهملوا المرور على ذلك الخط فى أيام الشتاء فظلت ملقاة هناك الى أن مروا فوجدوها . ومما ادهش ولاة الأمر كيفية وصول تلك القنبلة الى ذلك المكان وهى ليست من القنابل التى تصطنع بالأيدى بل هى من قنابل المدافع . يقال وهى من قنابل مدافع جيش الاحتلال . وتفشى خبر هذا الحادث وتحدث به الناس كثيرا . وبالغ العامة فى وصف تلك القنبلة حتى جعلها بعضهم فى حجم مرجل وابور السكة الحديد وآخرون قالوا أنها اقرب لحجم (قبة الفداوية) الكائنة بطريق العباسية والجبل الأحمر . واشتد اللغط وبث صاحب الشرطة العيون وأزكاها وكثر البحث والتنقيب وكبس بعض دور العباسية البحرية . وظلوا على هذا أياما ولم يهتدوا الى معرفة شئ من أمر تلك القنبلة او هم عرفوه ، فكتموه عن الناس حتى صار فى خبر كان[٩] .

(٩) يسجل هذا الحادث ارهاصات التحول فى العمل الوطنى فى مصر فى العقد الأول من القرن العشرين ، وتطور الرأى العام فيها ، ودخول مظاهر جديدة من مظاهر الإحتجاج الى الساحة السياسية المصرية . ويمكن ان نرصد هذا التطور بداية من مظاهرات الطلاب وخاصة ذلك الإضراب الشهير الذى نظمه طلبة مدرسة الحقوق فى فبراير سنة ١٩٠٦ ، مرورا بالكتابة الصحفية والخطابة والإقناع ، وهو ذلك الدور الذى قاده (مصطفى كامل) فى ذلك الوقت والذى واكبه قيام (نادى المدارس العليا) فى ابريل ١٩٠٦ . كانت طبقة (الإنتلجنتسيا) هى جوهر (جماعة مصطفى كامل) الذين قام على عاتقهم العمل الوطنى (المتطور) الذى أعنيه .

كان هذا التطور متمثلا فى ازدياد حدة النقد للنظام الحاكم المتخاذل وارتفاع نبرة النقد فى الصحف الموالية للحزب الوطنى فى عام ١٩٠٨ ، وقيام جماعات أدبية تجتمع فى الأماكن العامة لتناقش الأحداث ويخطب فيها الخطباء وتلقى فيها الأشعار والأزجال المحتوية على نقد للإحتلال والمتعاونين معه . وتأتى حادثة العثور على القنبلة التى أشار اليها (شاروبيم) فى اطار ذلك التطور ، وهى تشير فى نفس الوقت الى تطور آخر له دلالته ، هو تسلل العنف الى العمل السياسى منذ ذلك الوقت من ناحية ، والوجهة التى كان يتوجه اليها هذا العنف (الخديو عباس الثانى ورؤوس النظام الحاكم)

ـ عبد الوهاب بكر (البوليس المصرى ١٨٠٥ ـ ١٩٢٢) رسالة ماجستير غير منشورة ـ كلية الآداب ـ جامعة عين شمس ـ ١٩٧٧ ـ ص٥١٤ ـ ٥١٨ .

ـ دار الوثائق ـ محفظة ديوان خديوى ـ داخلية بدون رقم ـ يوليو سنة ١٨٩٦ ـ ١٩١٧ (بشأن عثور أحد عمال السكة الحديد فى ١٩٠٨/١/٣١ على قنبلة حديد معمرة وموضوعة على بعد ٤٠سم من خط السكة الحديد من الجانب الأيسر ما بين محطتى كوبرى القبة والحمامات .

ـ دار الوثائق ـ دوسيه تقارير داخلية ـ محفظة ٤ ـ تقرير قسم الضبط فى ١٩٠٩/٣/٢٨ بشأن اجتماع (جمعية الرقى الإسلامى) مساء الأحد ١٩٠٩/٣/٢٨ ، واجتماع النشأة الحديثة فى المدرسة التحضيرية بقسم السيدة زينب .

ـ أحمد شفيق باشا (مذكراتى فى نصف قرن) مرجع سبق ذكره ـ حوادث ١٩٠٨ ـ ص١٦٥ ـ ويذكر (شفيق) فى هذا المقام وصول رسالة تهديد للخديو فى ١٩٠٨/١١/١٤ جاء فيها (يا أيها الأمير ، إن المفرقعات الجهنمية التى تنسف الأرض قد أعدت لنسفك بعربتك وخيولها ومن يكون معك فيها اثناء مرورك رغم أنف جواسيسك وحرسك . فاعزل بطرس رئيس المحكمة المخصوصة واحذر حيث لا يغنى الحذر والمدة خمسة عشر يوما من تاريخه ـ الإمضاء أحد رجال جمعية الانتقام المصرى)

وكان جماعة المهندسين من اصحاب الرى من الانجليز قد ارتأوا عام ثلاثة وتسعمائة وألف للميلاد ضرورة زيادة وسائل المواصلات التى كانت لذلك العهد بين شاطيئ النيل وتحسين حالة مصر القديمة وجعلها بحيث لا تقل فى الإصلاح والتنظيم عن القاهرة وضواحيها ، وأن أول خطوة إلى ذلك انما هى إقامة ثلاثة كبارى للمرور . وقد وافق أهل الحل والعقد على ذلك فأقاموا على العمل بجهد من ذلك الحين حتى أتموها . فلما كان يوم الخميس سادس فبراير من السنة رابع المحرم افتتاح سنة ستة وعشرين وثلثمائة وألف ثامن عشرى طوبه سنة اربع وعشرين وستمائة والف للشهداء احتفل بفتح الكبارى الثلاثة فى حفلة باهرة جدا . فركب الامير فى موكبه ومعه الوزراء والأمراء وأهل المناصب وأصحاب الخطط . فلما كمل الاجتماع قام وزير الاشغال ورحب بالأمير وتلى بين يديه خطابا ذكر فيه الفوائد الجمة التى تنجم عن انشاء تلك الكبارى وعلى سهولة المواصلات بين القاهرة ومصر القديمة وضواحيها . وقال أما تسمية الكبارى الثلاثة فقد صادفت استحسان الأمير وأكبرها . فسمى[١٠] (كبرى عباس الثانى) والثانى باسم (كوبرى الملك الصالح) والثالث باسم (كوبرى محمد على) . ثم طلب من الأمير أن يأذن بفتحها لأبناء السبيل ، فأظهر الأمير سروره بالعمل الجسيم الذى قام به المكلفون ، وقال إن هذه الكبارى تدل على نشاط وعناية جماعة المهندسين وعلى الاهتمام أيضا بمصالح البلاد ، وأنها كما أنها تزيد فى تحسين وتسهيل طرق المواصلات فكذلك تزيد فى عمران (مدينة الجيزة) وما والاها من القرى وتكثر حاصلاتها الزراعية . ثم اشار بفتحها ففتحت فى لحظة واحدة وطرقها الناس والعربات والخيل والحمير والجمال صعدا وهبوطا . فكان المشهد جميلا والعمل من أجَلّ الأعمال وأنفعها للبلاد وأعظمها لتقريب المواصلات وتأييد الأمن العام .

أقول فالكوبرى الكبير منها واقع على ميلين من الجهة الأمامية (الكوبرى قصر النيل) ، وطوله بين الكتفين ثلاثة وخمسين مترا ويشتمل على ثمانية أقسام ، طول الواحد واحد وأربعين مترا وسبعة وستين سنتيمترا ، وقسمين طول الواحد منهما ثلاثة وأربعين مترا وثلاثة وأربعين سنتى مترا ، وقسمين آخرين طول الواحد منهما عشرين مترا وسبعة وخمسين سنتى مترا . وللكوبرى قسم يتحرك حركة رحوية طوله خمسة وستين

(١٠) فسمى = فسمى الأول قراءة ترجيحية .

مترا وستين سنتى مترا يفتح لمرور المراكب ، مجازين[١١] سعة كل منهما عشرين مترا ، ولكل دعامة من دعائم هذا الكوبرى اسطوانتان تربطهما من الاعلى كمرة معترضة ترتكز عليها الخمس كمرات الكبرى الحاملة للأرضية الكبرى للإسطوانتان المذكورتان من فولاذ يختلف سمكه بين ثمانية وإثنى عشر ملليمترا وسبعة من كسور الملليمتر . والإسطوانات محشوة تماما بخرسانة الأسمنت والقسم القائم منها فوق قاع النيل مصنوع من الحديد الظهر سمكه اثنين وثلاثين ملليمتر عوضا عن صاج الفولاذ لأن الظهر اقل تألسدا[١٢] منه .

أما القسم الاعلى من الكبرى فكله من الفولاذ المرن وهو مصنوع فى ديار الإنجليز ويبلغ مجموع ثقله نحو أربعة آلاف طن وقد تم جميعه[١٣] فى مكان تشغيله وركب مرفوعا على صقالة محمولة على قوائم من الخشب مغروزة فى قاع النيل . ويبلغ عرض هذا الكوبرى فى ما بين الدورتين عشرين مترا ، وفيه رصيفان عرض كل منهما متران ونصف المتر . وأما أرضيته فسعتها خمسة عشر مترا يمر فى جانب منها عرضه خمسة امتار خط ترام كهربائى مزدوج سعته متر . وأما الباقى من تلك الارضية وقدره عشرة امتار فقد جعل كله لمرور العربات . وكل الأرضية مفروشة بالأسفلت على خرسانة من الأسمنت . وعندى أنه من أجمل ما أنشئ من الجسور فى القاهرة ومصر القديمة لهذا العهد .

إشتدت العلة (بمصطفى كامل باشا) كبير الحزب الوطنى وصاحب الدعوة الكبرى الى اخراج الإنجليز من ديار مصر . فانزعج أهله وذويه وتولى أصحاب[١٤] الزعر واشتد بهم الخوف ، فلازم فريق منهم داره ليلا ونهارا يسألون له السلامة . وتفشى خبر ذلك وتحدث الناس به فكان له وقع أليم فى نفوس عارفيه . ولما كانت علته الرئة كان الخوف عليه شديدا وأقوال الأطباء تنذر بالخطر . ظل الحال على هذا ثلاثة أشهر وأهله طورا على أمل بشفائه وتارة على يأس من ذلك الشفاء إلى الساعة الرابعة بعد ظهر يوم الإثنين عاشر فبراير من السنة ثامن المحرم افتتاح سنة ستة وعشرين فوافاه القدر المحتوم . فتطايرت

(١١) مجازين = ومجازين قراءة ترجيحية .
(١٢) تالسدا = تأكسدا قراءة اجتهادية .
(١٣) جميعه = تجميعه .
(١٤) اصحاب الزعر = اصحابه الذعر قراءة اجتهادية .

مناعيه فى القاهرة ومصر وسائر البلاد . فهرع الناس أفواجا الى داره (بشارع الدواوين) ، وجاء المعزون من كل صوب وبلد ، وكثرت الحركة حول داره تلك . وباتوا وأصبحوا وقد جهزوه للدفن فى الساعة الثالثة بعد ظهر الثلاثاء حادى عشر فبراير . فلما أزفت الساعة خرج النعش ملفوفا بالراية المصرية وعلى مشهده طربوش الفقيد محمولا على أعناق الرجال يتقدمه[١٥] . وكان لما تفشى خبر موته بين تلامذة المدارس كلها اجتمع كبارهم فى مساء يوم الوفاة وتناجوا طويلا . وتقررت القاعدة بينهم على أن يسيروا جميعا فى مشهده تلاميذ كل مدرسة على حدتها على ترتيب ونظام وقع الاتفاق عليه . وأصبحوا وقد طلب تلاميذ كل مدرسة الإجازة بالسير فى الجنازة من رؤسائهم فلم يجيزوهم وحظروا عليهم الخروج ، فلم يذعنوا وخرجوا جميعا رغم كل مكابر . وبلغ خبر ذلك وزارة المعارف فأرسلت الى نظار المدارس بالتشديد ومنع خروج التلاميذ بكل طرق المنع ، ولكن قد جاءهم الأمر متأخرا وسبق السيف العزل .

سارت الجنازة من دار الفقيد فى (شارع الدواوين) الى (شارع المدابغ) فشارع (قصر النيل) (فميدان سوارس) (فشارع المناخ) (فالتياترو) فشارع (البوسطة) (فالعتبة الخضراء) فشارع (محمد على) ، وصلى عليه فى (جامع قيسون) . ثم ساروا الى قرافة الإمام الشافعى . وكان المشهد جدا[١٦] يتقدمه جماعة فرسان ومشاة صاحب الشرطة ، ثم حملة المباخر ولجان الحزب الوطنى بخطط القاهرة وبولاق مصر ومصر القديمة ، وأمام كل لجنة منها راية ، ثم تلاميذ المدارس الأميرية وسائر المدارس القبطية وأعضاء بعض الجمعيات العلمية والخيرية ، ثم جماعة الكبراء والوجوه والأعيان ، ثم النعش وخلفه الخلق الكثير من العامة . وكان تلاميذ المدارس الأميرية الكبرى يحملون إشارات الحداد السوداء وكثير منهم يبكون ويولولون ولولة ظاهرة مسموعة . وكانت الشوارع التى مرت بها الجنازة غاصة بالجمع الكثير من الرجال والنساء والصبيان وكلهم أسف حزين يردد عبارات التأوه وطلب الرحمة للفقيد . ولما بلغوا قرافة الامام الشافعى واروا الخشبة التراب بين بكاء التلاميذ ونحيبهم وأصوات نساء العامة اللاتى سبقن الجنازة الى القرافة . ثم تفرقت تلك الجموع وعادت أدراجها .

(١٥) يتقدمه = لم يكمل شاروبيم العبارة ـ ويستحسن ان أضيف جملة (باقات الزهور) .
(١٦) جدا = مهيب ـ مؤثرا قراءة اجتهادية .

اقول واختلفت آراء القوم فيما يجب عمله لبقاء ذكر الفقيد خالدا وعمله مذكورا ، فقام اصحاب (الجريده) بعمل اكتتاب لإقامة تمثال للفقيد ، وقالوا ان الإكتتاب هذا بلغ خمسمائة وثلاثين ذهبا ، وعمل آخرون غير ذلك . وكلها نقوش على ورق .

ولما كان ظهر يوم الجمعة رابع عشر فبراير من السنة اجتمع جماعة الحزب الوطنى لانتخاب رئيس له . فقام احدهم وألقى خطابا فى تأبين (مصطفى كامل) وتلاه آخر بخطاب ذكر فيه صفات الفقيد ، وآخر فقال ان الفقيد قد أوصى بالرئاسة الى (محمد بك فريد) ، وزكّى هذه الشهادة (على بك فهمى كامل) أخو الفقيد . فوافق الجميع على ذلك ، ثم اختاروا (على بك فهمى) هذا لوكالة الحزب ولخطابته ، (وأحمد بك لطفى) المحامى عضوا فى اللجنة بدلا من (على بك) . ولم يشغل هؤلاء الجماعة ما هم فيه من الحزن الأليم على فقد عميدهم ولا انشغالهم تنظيم شؤون الحزب بعد نكبته هذه عن طلب جلاء القوم الإنجليز عن مصر ، فقد كتبوا وهم فى هذه الحال احتجاجا وسيروا به على جناح البرق الى صاحب السياسة الإنجليزية بالنص الذى اعتادوه واللغة المألوفة عندهم منذ ظهور الحزب فى هذه الديار .

أقول سمعنا وقد سمعت خلائق الأرض والسماء ضجة هذه الاحتجاجات أعواما ، ومع ذلك ما أغنى عنهم الله شيئا وقد مضى على الاحتلال ربع قرن ويزيد وأصحابه يغصون بمكانهم من مناصب الدولة وخططها ويصرفون أحكاها طوع أغراضهم فى رجالها وجبايتها وسائر نقضها وإبرامها . أى نعم إنا لا ننكر عليهم هذه الصيحة ولا نبحثهم(١٧) اشياءهم ولا نكذبهم فى انتحال الأمة(١٨) . ولكننا إذا نظرنا إلى هذه الصيحات المتتابعات من وجهة نفعها وضررها لظهر أن ضررها أكثر من نفعها ، لان الإلحاح فى الطلب والسؤال آفة الحرمان كما يقول الحكماء ، وقالوا لا تتكلف ما كفيت ، وقالوا كثرة الصياح من الفشل .

سمعناهم يحتجون المرة بعد المرة ويزفون احتجاجاتهم تلك إلى (باشكاتب المابين) تارة والى السلطان تارة ، ومع ذلك لم نسمع من أحدهما ردا جميلا أو رأيا مقبولا سوى أنهم اتحفوا مصطفى كامل برتبة الباشوية ونيشانا قد زين به صدره . فوقع خبر ذلك

(١٧) ولا نبحثهم = ولا نبخسهم قراءة ترجيحية .
(١٨) الأمة = النيابة عن الأمة قراءة اجتهادية .

من أفراد حزبه أحسن المواقع لما رجوه من الشهرة لرئيسهم وقطع أسباب الدعوة لغيره من الأحزاب . وقد سمعنا أن القوم الانجليز كانوا إذا جاءهم الإحتجاج تلو الإحتجاج سخروا وقامت صحفهم الكبرى تقول كلا ولا ، وقام صاحب سياستهم يقول للحزب إعمل فلن أغنى عنك من الله شيئا .

واجتمع جميع طلبة المدارس فى رابع عشر فبراير من السنة فى دار المدرسة التحضيرية فى خطة (السيدة زينب) لتأبين (مصطفى باشا كامل) وكلهم يحملون إشارات الحداد . فأبنوه نثرا ونظما وعددوا مناقبه وذكروا محاسن اعماله وقالوا شيئا كثيرا من خطبة ونفثات قلمه فى السياسة ومقارعة ابطالها ، وذكروا شيئا من حججه ومناهضته لخصوم مصر من جماعة السياسيين . وكانت حماسة أولئك الطلبة خارجة جارحة وهتافهم مزعج يتخلله شئ من الهتر والمجازفة . وقد كان (السير غورست) منذ تولى منصبه قد رفع عنهم رقابة (المستر دنلوب) مستشار وزارة المعارف وترك حبلهم على غاربهم ، فنشطوا من ذلك العقال وخرجوا من تلك الضائقة التى زايلتهم كل أيام ولاية (اللورد كرومر) . فلم يبق من ممانع لهم فى صيحاتهم ونداآتهم (يسقط ويحيى) (ويعيش) وما تعلموه من هذه الكلمات الشائنة المعيبة .

قلت ولد الفقيد فى مدينة القاهرة فى رابع عشر أغسطس عام أربعة وسبعين وثمنمائة ألف للميلاد ، فرباه والده (على أفندى محمد) باشمهندس (إقليم الدقهلية) تربية حسنة ، ودخل مدرسة (أم عباس) ثم مدرسة (القربية) حيث تلقى العلوم الإبتدائية ، ثم الى (المدرسة الخديوية) فتلقى العلوم الثانوية وعلم الحقوق فى مدرسة القاهرة ، ونال شهادة الحقوق من مدرسة (طولوز) الإفرنسية . يقال وهناك بدأت حياته السياسية أن قدم فى سنة خمس وتسعين وثمنمائة وألف ميلاديه إلى دار الندوة الإفرنسية صورة تمثل مصر مقيدة بيد الإحتلال الانجليزى وصور الأمم والشعوب التى ساعدها الفرنسيس على الإستقلال والحرية ، وأشفع ذلك بخطاب ألقاه فى (طولون) من أعمال فرنسا كان له تأثير كبير وشجعه فى ذلك أمير البلاد . وعاد إلى مصر فجعل يخطب ويكتب ويلقى المحاضرات ووهبه الله لسانا فصيحا وذهنا متقدا وبداهة حاضرة ، فشاع ذكره وكبر أمره وهو بمكانه من زعامة الحزب الوطنى ، وأنعم عليه السلطان برتبة المتمايز وبالنيشان المجيدى الثانى سنة ستة وتسعين ثم بالرتبة الأولى من الصنف

الثانى ، ثم استبدلت برتبة الباشوية . وفى أول يناير افتتاح سنة تسعمائة وألف أصدر (جريدة اللواء) ثم مجلة اسبوعية باسم (العلم الإسلامى) . وفى سنة سبع وتسعمائة جريدة إنجليزيه وأخرى فرنسية وأسس مدرسة باسمه سنة تسع وتسعين .

أقول أيضا كان رحمه الله حلو الكلام شديد التحمس لمبدأه . فكان إذا تحدث عن مذهبه تخال قلبه على لسانه وكل قوته فى كل كلمة من كلماته . وإذا كتب تمثلت عباراته ملتهبة بغيرته ، وكانت غيرته بالغة حد الإفراط وحبه لأمته عظيما . قال رحمه الله كثيرا وعمل كثيرا وبذل كثيرا وساجل أصحاب السياسات وجادل أهل الرياسات فكان لعقله فضلا على لسانه ، ومع ذلك فقد كان سعيه خائبا وصفقته خاسرة فلم يعمل لبلاده عملا يشكر ، ولم يقض لأمته غرضا يذكر حتى قال أهل النصفة أنه لم يترك للتاريخ من آثار أعمال سوى أنه سمم صبية المدارس وغلمان الكتاتيب بسموم الخروج وشق عصا الطاعة لسبب ولغير سبب . والسوقه والعامه بسموم التعصب والهرج الممقوت والله يقول الحق وهو يهدى السبيل[١٩] .

ولما[٢٠] انقضت ايام العزاء حتى ظهرت فى البلاد حركة كبرى ونغمة أخرى . ذلك أنه تراكمت على قصر الامارة كتب أهل البلاد ورسائل أعيانها وأذناب (الحزب الوطنى) منها يطلب منح الأمة مجلس نيابى كالذى أنشأه (الخديوى توفيق) عام واحد وثمانين وثمنمائة وألف ، وتفشت هذه الروح الجديدة فى طول البلاد وكثرت رسائل الوعيد على جماعة الوزراء وأهل المناصب .

وحدث أن ظهر فى هذه الاثناء كتاب اللورد كرومر فى مجلدين ذكر فى الأول منهما عدة فصول الذها فصل يتعلق بحوادث (غوردون) فى (السودان) ، وقد شهد فيه (لغوردون) بمزاياه العسكرية ولكنه عاب عليه جدا اندفاعه وحدته وتأثره السريع . وهو يقول أن (غوردون) كان يرسل إليه فى كل يوم عشرين أو ثلاثين رسالة برقية وكلها يناقض بعضها البعض ، وأنحى عليه باللائمة لأنه لم يعجل فى ترك (الخرطوم) كما برز الأمر بذلك . وعندى أن (غردون) كان فى عدم التخلى عن (الخرطوم) وتركها الى مدعى المهدوية حسن النية شريف الغاية طالما حاول استمالة أهل الحل والعقد إلى سحق قوة (المهدى)

(١٩) يكشف استمرار (شارويبم بك) فى نقد (مصطفى كامل) إلى ما بعد وفاته عن الضيق الشديد الذى كان يكنه له .
(٢٠) ولما = وبما أنّ غيرت الكلمة الى ذلك التعديل لتتفق مع النص لغويا .

واستخلاص البلاد منه ، فلم يمكنه لورد كرومر من ذلك كما بيناه فيما تقدم من كتابنا هذا . والمجلد الثانى أتبع فيه القول عن مصر الحديثة وضعف أمله فى تقدم المصريين ما دامت المرأة المصرية على حالها من الإنحطاط فى التربية وعدم التعلم وأن المصرى بعيد جدا عن إدراك مقام نفسه ، وقال أنه ليعيش كذلك منحطا حتى يقلع عن التزوج بأكثر من زوجة . فما شاع خبر الكتاب حتى أخذت اللورد صيحة أصحاب صحف الأحزاب من كل جانب وقالوا أن الرجل لم يتمالك نفسه فنطق بما يكنه ضميره للإسلام والمسلمين بل لسائر المصريين من أقباط ومسلمين . وأرسل اليه جماعة على جناح البرق يقولون (قابلت الأمة المصرية ما ورد فى كتابك من المطاعن والمقلب(٢١) على الإسلام والمسلمين وإخواننا القبط بكل ازدراء واحتقار) ونشروا هذا القول فى سائر الصحف على اختلافها . فكان ما فى ذلك الكتاب حديث الناس فى نهارهم وسمرهم فى ليلهم . وطالت أيام هذه المحنة بتتابع نشر ما فى الكتاب بالصحف على اختلافها والرد على الرد الجارح المعيب . ولم يصرف عما فى كتاب اللورد وعما أعدوه له من العدة إلا ما قام به تلاميذ المدارس الثانوية من المظاهرات ضد بقاء (دنلوب) مستشار المعارف فى منصبه .

ذلك أنه اجتمع منهم بدار التمثيل العربى في القاهرة ثمانمائة وعشرين تلميذا ووقعوا على عريضة رفعوها الى صاحب القصر يقولون : (يا أبانا الشفيق يا عماد الأمة يا كعبة الآمال يا أميرنا المحبوب ، نحن أولادكم المطيعين وجندك الخاضعين ويدك اليمين . نحن الشبيبة المصرية ، نحن تلاميذ المدارس الثانوية ، جئناكم يا سمو الأمير بعد أن طفح الكيل مما نقاسى من الآلام بعد ان ساقتنا النظارة من العذاب وسقتنا حنظل المعاملة ، جئناكم يا من نلتف حول عرشه المقدس التفاف الهالة بالقمر والأكمام بالثمر .

جئناكم يا من نتمسك بأريكته السنية تمسك الغريق بشىء متين بعد أن شربنا من العناء أشكالا وألوانا .

جئناكم يا سمو الأمير بعد أن تركنا أولياء الأمور ظهريا رغبة فى إغاثتنا من بعد الجبروت والقسوة .

---

(٢١) والمقلب = والمثالب قراءة ترجيحية .

جئناكم يا عزيز العليا يا وحيد العليا بعد أن ضاقت بنا الأرض بما رحبت ولم يبق أمامنا الا وجه الكريم وساحتكم السنية .

جئناكم يا سمو الأمير وقد أخذ منا البؤس جانبا وخيم علينا الشقاء وضربت علينا الذلة والمسكنة وبئنا بغضب السياسة الدنلوبية ونحن لا حول لنا ولا قوة .

جئناكم يا مغيث الملهوف وكلنا آمال فى مراحمكم العلية ان تنشلوا شبيبة ليس لها إلا شفقتكم وحنانكم من أنياب (المستر دنلوب) الذى أثقل كواهلنا بشديد سياسته التى ترمى لإماتة الشعور الذى لن يموت بعد ما بذرتم فينا غراسه الكريمة بأقوالكم المأثورة وأعمالكم الشكورة .

جئناكم يا أعدل من حكم لتنقذونا من السياسات المضلة أسوة (بالدنشوانيين) ، فإن سمعتم أجبتم شبيبة تتقلب على أحر من الجمر وإن شئتم كنا فى عداد المثبيين[٢٢] .

فيا أمير البلاد أئتنا من لدنك رحمة واعدد لنا مستقبلا حسنا وارفع عنا يد (المستر دنلوب) ذلك ما نرجوه من الله ومن عدالتكم جزاكم الله عنا خير الجزاء) ــ انتهى ــ

واختلف الناس فى مغزى هذه الظلامة والدافع اليها وقد نال التلاميذ من (دنلوب) ما نالوه على يدى (غورست) فلم تعد للرجل كلمة مسموعة ولا رأيا متبوعا وحل لهم ولوج مكامن السياسة والإنصراف من التعلم إلى الخطابة على رؤوس الملأ وتحبير المقالات الشائنة بالتعريض والقدح المعيب .

والقول من كل قائل والسمع لكل ناعق . ولم يزل هذا دأبهم حتى الساعة ، ومن قائل أنها نزعة من نزعات الحزب الوطنى يتذرع بها إلى حفظ كرامة الحزب فى عيون التلاميذ كى لا تصرفهم الأحداثات التى تقع بعد موت (مصطفى كامل) عن اتباع الحزب والإنقياد إليه وإلى عصاباته حتى يتم لهم أمر الله فى دعوتهم وما ينتحلونه .

ولما كان سابع مارس من السنة دخل أحد مدرسى (المدرسة السعيدية) الى صفه للتدريس . فما هو أن جلس على كرسيه حتى جعل التلاميذ يزأطون ويشوشون ويضحكون

(٢٢) المثبيين = المسبيين قراءة اجتهادية .

لغير سبب ، فدعا ناظر المدرسة لتسكين هياجهم ، فما هم أن رأوه حتى علت أصواتهم وكثرت جلبتهم وأبلغ امرهم الى وزير المعارف فجاء المدرسة على الأثر ووقف بين صفوف التلاميذ وخطب فيهم حاثا على الطاعة وحسن السلوك ، واستدعى طالبا كان قد طرد من مدرسة رأس التين بتهمة إحراقه فراش أحد رفاقه وسأله وهل أنت خاضع لقانون المدرسة فقال نعم فكرر عليه السؤال فامتعض التلميذ وجاوب الوزير جوابا غليظا . فأشار اليه بان إسكت فلم يسكت ورفع صوته عاليا بحضرة الوزير . فبرز الأمر فى الحال بطرده فعلت اصوات التلاميذ وارتفعت ضوضاءهم فى وجه الوزير وفاهوا بكلمات السباب ولوحوا بأيديهم تحقيرا وتصفيرا وصاحوا لا يحل لك طرد الأبرياء ولا إطلاق يد الناظر فينا يسومنا الخسف والهوان تحت رعايتك . فتركهم وجاء الى قصر الامارة وشكا للأمير حال التلاميذ جملة وما تخمرت به أفكارهم من سموم تعاليم (الحزب الوطنى) ودسائس أصحابه . وما هو أن عاد الى داره حتى جاءه وفد من التلاميذ يريد لقائه فأبى عليهم ذلك وأمر باخراجهم فخرجوا يلوون[٢٣] على شئ . ثم اجتمعوا اجتماعا خصوصيا واتفقوا على الإعتصاب ، وأكرهوا من لم يقبل الإعتصاب منهم على قبوله ليكونوا يدا واحدة عاملة لنفعهم جميعا . وكثر من هذا الحين توارد كتب الوعيد على الوزير (سعد باشا) ورسائل الطعن والتعريض . وجعل ذلك التلميذ المطرود واسمه (إمام واكد) من إقليم الشرقية يكتب المقالات الطوال طاعنا فى وزارة المعارف ورجالها وأساتذة المدارس جملة غير هياب ولا وجل ومن ورائه أصحاب الحزب الوطنى ولا سيما منهم (محمد فريد) خليفة الرئيس المتوفى ومقدم الحزب اليوم .

واشتغل الناس عن هرج تلاميذ المدارس وضوضاءهم بخبر ما حل بركب المحمل من العربان النازلين فى مفارق الدروب فى طريق الحج . ذلك أنه لما غادر الركب فى غرة المحرم سار فى الطريق السلطانى ، وبعد مسيرة يومين نزل على (بئر اروش) . وقبل مطلع الفجر قام لمواصلة السير . فما هم أن ساروا مسافة نصف ساعة حتى فاجأهم العربان بنار بنادقهم فى محل يقال له (بوزة الدرب) ، وكان أمير الحج الى ذلك اليوم لم يرسل الى العربان مرتباتهم وعاداتهم السنوية . فأرسل فى الحال مقدم المحمل ومعه ستمائة ريال دفعها إليهم وسألهم ان ينكفوا عما هم فيه . فانكفوا لحظة لطيفة ثم عادوا إلى مهاجمة

---

(٢٣) يلوون = لا يلوون قراءة تصحيحية .

الركب وأصلوه نارا حامية . فتسلق جند المحمل الجبل من ناحيتين وجعلوا يقاتلون القوم قتالا شديدا فلم يتمكنوا من دحرهم وإرجاعهم . واشتد القوم على العساكر فدحروهم وردوهم على أعقابهم ونالوا منهم قتلا وجرحا بعد قتال دام يوما وليلة . وعاد المحمل القهقرى وقد قتل من خيله ودواب حمله عدد ليس بقليل وقتل أحد ضباطه وجماعة من الحجاج . وجاء الخبر الى وزارة الحرب وديوان الوزارة وقصر الامارة بما حل بالركب وعجز المحمل عن القيام بالحجاج من المدينة وأنه لا يتحرك منها إلا اذا جاء الأمر بما وقع الإتفاق عليه مع الحكومة ومشائخ القبائل . قال امير الحج وقد رأينا من تعنت العربان وافتياتهم وعسفهم شيئا كثيرا حتى لقد أخذوا دية من قتل منهم عام أربعة وعشرين وثلثمائة (وبخاشيش) لم يسبق لها نظير . واستمر إطلاق الرصاص من جانبهم خمس ساعات متتابعة ويزيد مات فيها عسكرى وأحد الحجاج وجرح ستة من العساكر وماتت أربعة من الخيل وبغلان وجرحت أربعة اخرى . قال وقد فعلت كل ما يمكن لترضية القوم حتى إننى صرفت الأربعة آلاف ريال فى ثلاث محطات ، ومع هذا كله لم نحصل على رضائهم فعدنا أدراجنا إلى المدينة المنورة .

وسير أهل الحل والعقد الكتب فى معنى ذلك إلى الباب العال وأمير مكة على جناح البرق وطلبوا إطلاق سبيل المحمل وتأمين الطريق لركبه ، وظلوا على هذا حتى برز أمر السلطان إلى والى الحجاز بتأمين الطريق وقيام المحمل إلى طريقه المعتاد فى كل عام . فوصل الحجاج تباعا إلى (الطور) ، وجاء المحمل ومن معه فقضوا أيام الحجر ووصلوا الى بلادهم يحدثون بما جرى لهم من الضنك والعذاب الشديد .

يقال سأل الامير (السير غورست) أن يطلب من كبير وزرائهم أن يقلل عدد جيش الإحتلال إذ لم يبق من موجب لكثرته فى حين أن البلاد هادية مطمئنة والوئام بين العناصر فيها مستحكما ولا سيما العنصرين الاسلامى والقبطى . وتفشى خبر ذلك وتحدث به الناس ففرحوا وعده بعضهم حسنة من حسنات العميد وعده آخرون عملا من أعمال الحزب الوطنى وثمرة من ثمار نهضته الحديثة ، وكان صغار العقول من أذناب الحزب بل من كبار العقول فيهم يتوقعون جلاء الجانب الأكبر من جيش الإحتلال من يوم الى آخر . فما هى إلا عشية أو ضحاها حتى جاءت صحف الإنجليز تحمل كلاما من كلام وزير حربهم فاه به فى وسط دار ندوتهم . يقول بعد كلام (وعندى أن صاحب سياستنا

لا يسلم بإنقاص عدد جيش الاحتلال فى ديار مصر بسبب الخطر المستكن فى تلك الديار أى خطر اختلاف العناصر والأديان . فاذا كانت حكومتنا لا تخشى حدوث فتنة بسبب المخاصمات السياسية القائمة بينها وبين جيراننا (يعنى الفرنسيس) فإنها تخشى حدوث هذه الفتنة بسبب اختلاف العناصر والأديان فى الديار المصرية ، وها هى الأنباء تأتينا تباعا منذرة بما هنالك من الشر المستطير . فليفقه العاملون على إنقاص عدد جيوشنا وينظروا الى المستقبل بعين الحذر والتشاؤم) ا . هـ

قلت . وكلام الوزير الإنجليزى قد أفصح اليوم عما كان غامضا بالامس . فقد كان قد شاع أن (السير غورست) وعد الأمير بإنقاص عدد جيش الإحتلال وصرح بما هنالك من حسن الصلات ما بين القصر وصاحب السياسة الانجليزية ، فدل بذلك على إستتاب الأمن فى أنحاء البلاد طولا وعرضا . ولكن من يتأمل فى كلام ذلك الوزير يرى ان (السير غورست) هو الذى طلب إبقاء عدد جيش الاحتلال كما هو لأن صاحب سياسة الإنجليز لا يستند فى حجته الى كلام جماعة الضباط ومقدمى الجيوش بل الى كلام معتمدهم السياسى وآرائه فى أحوال مقر منصبه . يقولون عن (السير غورست) أنه قليل الحركة هادئ الخاطر لا يحذو حذو (لورد كرومر) ببطشه وصلفه وتسرعه فى سائر الأمور . وأنا أقول أن هذا النائم الهادئ فى داره هو الذى قال لعمد البلاد وأعيانها إننى بعيد عن مشاركة أهل الحل والعقد فى وظائفهم فلا يعنينى ما أنتم فيه من الضائقة ، وهو الذى أعطى لحكومة السودان من مال الخزينة المصرية ألف ألف ذهبا نقرة ، وبخل أن يعطى من مال الأوقاف خمسة آلاف ذهبا الى الجامعة المصرية . وهو الذى سلم نظارة مدرسة الحقوق لجماعة[٢٤] وكانت فى يد الفرنسيس الذين أحدثوها فى هذه الديار . والذى[٢٥] رسم بشراء القمح وسائر أصناف المأكول للجيش المصرى وتلامذة المدارس من (استراليا) وقت أن كانت محصولات البلاد تباع بأبخس الأثمان ، وهو الذى رفض اعطاء النفقة لوزارة المعارف لتزيد عدد صفوف المكاتب وعدد المدرسين ، وهو الذى أعطى خمسمائة ألف ذهبا لبناء منازل لجند الإحتلال فى العباسية رغما من كثرة المنازل الصالحة لأولئك الجنود ، وهو الذى شكوا له من غلظة بعض أهل المناصب وأصحاب

---

(٢٤) لجماعة = لجماعته قراءة ترجيحية .

(٢٥) والذى = وهو الذى قراءة ترجيحية .

الخطط من قومه فضرب بشكواهم عرض الحائط واطلق لقومه العنان فيما يفعلون ، وهو الذى أبطل مصلحة المعادن وقال أن مصر بلاد زراعية فلا يصح للمصرى ان يتعلم شيئا غير الزراعة . فعل كل هذه الأمور الجسام فى خلال أيامه القليلة ، وهو الذى شهد اليوم الى صاحب سياستهم بأن اختلال العناصر فى هذه الديار وما هو قائم بينها من الأخذ والرد قد يؤدى الى فتنة .

أقول أيضا وإذا عدنا الى سياسته وهو مستشار وزارة الخزينة نرى أنه هو القائل أن المدارس الاميرية هى مدارس لصوغ المستخدمين وتخريج الموظفين ، فاذا أراد المصريون أن يتعلموا فليدفعوا نفقة التعليم من جيوبهم لا من جيب الخزينة . كأن الخزينة مالا موروثا عن غير الأمة فى نظره . فهذا كل (غورست) الذى ظن الأمير وبطانته وأهل المناصب واصحاب الخطط أنه لين هين ، وهو الذى لما نادى[٢٦] الى الأمير فى مصيفه فى ديار الفرنسيس خبر عرسه سافر الى عاصمة الإنجليز متنكرا فحضر أفراحه وأهدى عروسه عقدا من الماس وشيئا من التحف والأعلاق النفيسة سرورا بزواجه . وعندى أنه أشد على البلاد فى سياسته اللينة الناعمة من سياسة (لورد كرومر) الغليظة وان ضر لعظيم[٢٧] وشره اعظم فتأمل .

وهب جماعة من أعضاء الجمعية العمومية لمجلس شورى البلاد ومقدمه (إسماعيل أباظة باشا) يردون على كتاب لورد كرومر الذى صنفه فى حوادث مصر الداخلية والإقتصادية لعهد ولايته الوكالة وسيروا به الى سائر الجرائد المحلية ، وقد أبانوا فى ردهم الفارق بين ما يقوله اللورد عن البلاد ومجلس شوراها وجمعيتها العمومية وما يشير به من بقاء الإحتلال وتدعيمه بلا شرط ولا قيد ، وبين ما صرح به كبير وزراء الإنجليز وصاحب سياستهم كلما دعت الحالة الى ذلك ، حتى لقد وصفوا الرجل بوهن العزيمة ورموه بالعجز عن القيام بالمهمة العالية التى أخذتها أمته على عهدتها أمام شعوب الأمم الأخرى ، حتى كان من وراء ذلك أن جعل حكومته وسلطانه عرضة للوم المنصفين واعتراض العادلين ، وأنه أضاع على مصر وأهلها ربع قرن من حياتها فقدت فيه كثيرا من آمالها وأبنائها وأموالها فضلا عما تلطخت به سمعتها من التهم التى لم تلبث

---

(٢٦) نادى = تناهى قراءة اجتهادية .

(٢٧) وان ضر لعظيم وشره اعظم = وإن ضرره لعظيم وشره أعظم قراءة اجتهادية .

حتى ظهر فسادها . الى ان قالوا ا . هـ . وشاع خبر هذا الإحتجاج وتفشى ما فيه من المغامز بين الناس فاستحسنه قوم واستهجنه آخرون ، وأجمع الكل على عدم نفعه فى هذه الآونة التى امتلأت فيها القلوب خوفا من مهاترة الأحزاب وظهور العداء من أذنابها الى جميع النصارى من وطنيين ونزلاء لغير سبب مشروع أو علة بادية .

ظهرت دلائل العداء بكامل معانيها ، وقام تلاميذ مدرسة الحقوق كلهم إلا من هداه الله وعصمه من التدهور فى هذه المهواة ، قاموا يكتبون الرسائل الشائنة المعيبة فى صحف الأحزاب ولا سيما منها صحف (الحزب الوطنى) بالطعن وفحش القول فى النصارى والنصرانية وفى ما يجب ان يعاملوا به مما هو مذكور فى تاريخ (دولة المماليك الثانية) وكلهم يفاخرون بعملهم ويجاهرون بقولهم . وقد ابتلى الله البلاد بشيخهم (عبد العزيز جاويش)[٢٨] المغربى . كان كلما هدأت الاحوال وتصومت الرابطة بين أهل الإفك أو كادت أوقد نار الفتنة وأزكاها ثانية ، وشجع أولئك الغلمان فيعيدون الكرة على أشدها ويضرمون نار الوحشة بوقود بين العنصرين فى طول البلاد وعرضها . أقول وقد عملت الصحف القبطية ما عملته صحف (الحزب الوطنى) ونهجت النهج المعوج المذموم وقابلت السيئة بشنتين[٢٩] ، وصاحت واشتبكت مدفوعة من طغمة الدساسين وأصحاب السعايات من صنائع (السير غورست) ، حتى قامت جماعة من إحدى الجمعيات الخيرية القبطية ودعت (محمد زكى باشا) كاتب سر مجلس الوزراء إلى دعوة الناس الى

(٢٨) الشيخ عبد العزيز جاويش (١٨٧٢/٦/٢١ ــ ١٩٢٩/١/٢٥) صحفى وخطيب ومعلم ومعارض إسلامى . ولد بالأسكندرية لأب تونسى وأم تركية . درس فى (الأزهر) و (دار العلوم) و (كلية بروورود للمعلمين بلندن) Borough Road Teachers Training College .عَلّمَ اللغة العربية فى جامعة أوكسفورد كمساعد للبروفيسور (مارجوليوث) Rev. D. S. Margoliouth . لدى عودته الى مصر فى ١٩٠٦ عمل مفتشا للغة العربية بنظارة المعارف لكنه استقال فى ١٩٠٨ ليعمل محررا بجريدة الحزب الوطنى (اللواء) . اكتسب (جاويش) شهرته من مقالاته ضد الاحتلال البريطانى ومحررى جريدة (الوطن) من الأقباط والتى كانت تنافس (اللواء) فى الشهرة ، الأمر الذى أدى الى ظن الكثيرين من المصريين والأجانب انه يكره (الأقباط) بصفة عامة . حوكم أربعة مرات لمقالاته المعادية للوجود البريطانى فى مصر ، وقضى عقوبتان فى السجن ، وفى النهاية ذهب الى المنفى . استقر فى (استانبول) واشتغل فى صحافة (جمعية الإتحاد والترقى) ، وحرر جريدة (العالم الإسلامى) التى كانت تصدر هناك أثناء الحرب العالمية الأولى . فى أواخر عام ١٩٢٣ عاد (جاويش) سرا الى القاهرة حيث استأنف العمل فى وزارة المعارف . انتخب قبل وفاته بفترة قصيرة نائبا لرئيس (جمعية الشبان المسلمين) . ألف إعمالا فى مناهج التعليم ، والاسلام . رغم انه كان محل اعجاب الشباب المصرى كمهيج ثورى وكاتب ، إلا أنه لم يفز برضاء المسيحيين والمحافظين بالحزب الوطنى .

ــ أرثر جولد شميث (قاموس تراجم مصر الحديثة) ترجمة وتحقيق عبد الوهاب بكر ــ مرجع سبق ذكره .ص٩٦ ــ ٩٧ .

(٢٩) بشنتين = بسيئتين قراءة ترجيحية .

ترك الخصام والعودة إلى ما كان بينهم من الوئام ، وأعدوا لذلك حفلة بمرسح (الشيخ سلامة حجازي) جمعت كثيرا من المسلمين والمسيحيين وعددا من علية الفريقين . فلما انتظم عقد الإجتماع وقف الخطيب وقال : (مصريون قبل كل شئ) ثم قال (اليوم أحمد الله إليكم يا بنى مصر فقد أراد بكم إذ وفقكم الى سبيل الاتفاق . اليوم بدأنا نطرح الأهواء التى جعلتنا شعبا متفرقا . اليوم بدأنا نخالف ما ألفينا من تلك الإختلافات التى علمتنا افانين العداوات وعبثت بكيان الأمة) الى أن قال (ليس لهما المسلم والقبطى إلا أم واحدة هى مصر وأب واحد هو النيل ، فهما أخوان بل شقيقان قد فرق بينهما حينا . فسدت الاخلاق وتنكرت المعارف فى هذه البلاد) الى ان قال (بل تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نقول غير الوطن وأن لا نفزع لغير الجامعة القومية) . ثم أبان الخطيب ما وقع بين الفريقين من الجفاء والمشادة وألقى كل التبعة على أصحاب الحل والعقد من الحكام الظالمين لا على الدين الحنيفى ، قال (لأن الظالم لا دين له) ، ثم أورد شيئاً من حديث صاحب الشريعه المحمديه وشيئاً من أخبار الماضيين وكلها تشير إلى مسالمة الأقباط ووجوب الإرتباط بهم ، ثم تتبع التاريخ خطوة فخطوة فذكر الآيات البينات من صدر الإسلام إلى هذا العهد ، وأيد حسن ظن المسلمين بإخوانهم النصارى جمعاً ونصارى مصر على الخصوص ، واختلاط الفريقين وتعاونهم وتضافرهم على درس كتب العلم والفلسفة ونقلها إلى لغة العرب . قال (وكان أكابر علماء المسلمين يتلقون العلم من أفاضل النصارى وغيرهم عملاً بحديث صاحب الشريعة ، كما كان النصارى واليهود يتلقون العلوم الفلسفية وغيرها من علماء الإسلام . فكان لقوله شيء من التأثير فى النفوس الكريمة والميل إلى ترك المشاده والجفاء المستحكم .

ولا احظى[٣٠] إذا قلت ان هذه الضجة المزعجة قامت من وراء أمرين ، الأول نشر كتاب (اللورد كرومر) المملوء بالطعن على الإسلام فى هذه الآونة عمدا ليظهر لقومه خاصة ولشعوب إوروبا عامة ان المصريين لا يكونون شعبا يصح أن يوخذ برأيه ، وإنما هم خليط متباين متنابذ متفرق أخلاقا ودينا وطبعا وعوائد ، وأن السواد الأعظم منهم زراع وفلاحون لا يدرون من أمورهم شيئا ، وأن الأقلية هى من شاء ذين[٣١] أفاق وطلاب رزق وعناصر عديدة لا يهمهم من أمر مصر شئ ، وكلهم متباين بالأديان ويتعادى بالمذاهب ،

(٣٠) أحظى = أخطئ قراءة اجتهادية .

(٣١) شاء ذين = شاذين قراءة اجتهادية .

والثانى تناعس السير (غورست) وتحريكه للفتنة من وراء الستار كلما رقدت أو ذهبت اسبابها . فهذان السببان وبهما ثارت الأحقاد وقامت المنازعات بين العنصرين ، ونال (غورست) من القوم مناله وحول وجوه كبار الأحزاب عن السياسة وطلب الجلاء والإحتجاج على بقاء الاحتلال وأعمال أهل المناصب وأصحاب الخطط من قومه ، الى المشادة فى أمر الأديان والمحاجة فى تفضيل دين على دين وعقيدة على أخرى ، وهم لا يفقهون . وقد ذهبوا مع الاغراض والحقود وماجوا بسماسرة البغى والباطل وخفى عنهم ما فى عمل (السير غورست) من الامن(٣٢) والسفسفة ، كما خفى على الأمير ورجال قصره والملتفين حول عرشه ، ولله سبحانه الأمر من قبل ومن بعد . وبلغت ملاطفة (السير غورست) للأمير ومجاملته مبلغها . فكان إذا زاره فبغير كلفة وإذا حادثه فلصديق أو رفيق ، وكان يرافقه فى بعض أسفاره الى مزارعه وفى سمره ، وصغار الأحلام يظنون أن قد قضى على الاحتلال وجبروته وعادت للأمير حقوقه وحقوق أجداده الأولين فلم يبق للقوم فى أمور البلاد كلمة ولا فى مصالحها عمل . قالوا وقد جاء من وراء ذلك أن درت الأرزاق وتوفرت اسباب العيش وتوافد الأغراب على البلاد من كل فج وصوب وامتلأت بأهل الصنائع وأصحاب الحرف من الغربيين والشرقيين . قالوا وكل هذا يدل على أنهم لما علموا بأن سلطة الإحتلال قد تلاشت أو كادت نزحوا اليها خفافا وثقالا . أقول وما هى الا عشية أو ضحاها بعد تفشى هذه الظنون والأحلام حتى انقبضت النفوس وتحرجت الأمور وظهرت (الضايقة المالية) جملة وبارت التجارات وكسدت الصناعات وتهرأت الغلال أهراء وليس من يشترى ، وضاقت أسباب العيش على كل محترف وصانع من الأهلين والأجانب . وخاف الناس مما سيكون من وراء هذه الضائقة إذا لم تنفرج فقد ذهب المال والعمل ولم يبق إلا الغلاء حتى علا الضجيج وكثر الصياح ، وكأن القابضين على زمام الأمور فى واد والصائحين فى واد . وعندى أنه لو أعرض السير غورست ذلك الساكت الراقد فى عقر داره عن مقاصد السوء بالبلاد والنازحين إليها من أطراف المعمور حتى من القارة الأمريكية وعمل على تفريج هذه الازمة أو أشار بتفريجها على أهل الحل والعقد لهان الامر وعادت الطمأنينة الى نصابها . ولكن الرجل لا يريد بالبلاد خيرا أو هو يريد ان يلقى تبعة كل حادث وكل عمل غير محمود المغبة على رأس (لورد كرومر) تفننا فى الشماتة .

---

(٣٢) الأمن = السوء ـ الكلمة تناسب المقام قراءة اجتهادية .

جاءت الكتب تترى على قصر الامارة من أعضاء شورى البلاد والجمعية العمومية ومقدمى الأحزاب وعمد وأعيان البلاد ممن لا يعرفون فى أمر البلاد شيئا وكلهم يسألون الأمير أن يمنح البلاد نعمة الدستور ويهبها نظام المجلس النيابى تأسيا بالأمم الراقية . فقام احصاب[٣٣] بعض الصحف الرزينة المعتدلة يقولون (حولوا يا قوم وجوهكم شطر عاصمة الإنجليز فإن صاحب سياستهم المشرف على شؤون البلاد وسلطانها يقول أن المصريين كافة خلو من صفات الحكم الذاتى . فاملأوا غرفته وداره برسائل السؤال وأسمعوه ضجة التألم فإن ملأ قصر الإمارة بعرايض المطالبين لا يأتى بجدوى إلا إذا أراده أولئك القوم الإنجليز) . فعارضهم أصحاب صحف الأحزاب وصاحوا فى وجههم يقولون (إنا لا نعرف للإنجليز فى ديارنا صفة حتى نطلب منهم ذلك . وإذا طلبنا منهم الدستور فكأنا اعترفنا لهم بحق الإعطاء والمنع وهم أعداؤنا حتى ينجلوا . وعلت صيحاتهم بهذا وأشباهه وتناقله أصحاب الصحف الأجنبية ومكاتبو الصحف الإنجليزية . فما هى الا ايام حتى سمعنا أن أحد أعضاء دار ندوتهم يقال له المستر (كتل) سأل صاحب السياسة الإنجليزية هذا السؤال (هل فى قدرة أمير مصر ان يمنح الدستور لشعبه من تلقاء نفسه ؟) فأجابه الوزير بكلا ، فإنه لا قدرة له على ذلك البتة إلا بعد استشارة حكومة جلالة الملك . وتفشى خبر ذلك وتحدث الناس به ، فأخذت الاحزاب حدة الغضب وأنحوا باللائمة على صاحب سياسة الإنجليز وقالوا إنا لا نكف عن طلب الدستور من امير البلاد ولا شأن لنا مع جماعة الإنجليز ، جملة . وكثر الأخذ والرد بين أصحاب تلك الصحف أياما والناس لا يدرون ما سيكون من وراء هذه الجلبة . وعندى أنه قل ان يفلح عامل لا يفهم مغبة عمله ، ونحن لا نفلح فى مساعينا السياسية إلا اذا عرفنا حق المعرفة كل جديد من الأمور يدخل على سياسة البلاد وكل مبرم ينقض من شؤونها وكل منقوض يبرم من تلك الشؤون ، وإلا كنا كناطح الصخر والمستصغر لكل أمر . وإذا حق لنا أن نصف الإنجليز بالمغتصبين ونلقبهم بالسالبين وأن نطلق عليهم كلمة الحانشين[٣٤] كما يقول أصحاب الحزب الوطنى وأذنابهم ، فلا يحق لنا أن نقول أنهم لا شأن لهم فى الإشراف على إدارة أمور البلاد وأن الشأن كله انما هو بيد أمير البلاد ورجال دولته . على أن للمعاملات والعلاقات الدولية قوانين وحقوقا لا يختلف فيها اثنان ، وقد قضت تلك القوانين بأن يكون للممثل أى المحتل حق الإشراف على كل امر لأن[٣٥] المسئول عنه

(٣٣) أحصاب = أصحاب قراءة تصحيحية .
(٣٤) الحانشين = الحانثين قراءة ترجيحية .
(٣٥) لأن = لأنه قراءة اجتهادية .

وسببه حجته بأنه المكلف بإصلاح المختل وتقويم المعتل وتأييد الأمن أو ما شاكل ذلك من الاسباب . فهو إذن صاحب الرأى المتبوع والكلمة المسموعة والقول المرجح عند سائر الدول التى لها جاليات فى البلاد . فإذا نحن أنكرنا عليه شأنه فإن الدول لا تنكره ، فلم يبق إلا أن نعرف له صفة فنطالبه بما أخذ على عهدته وحمل على عاتقه من التبعة ونطالبه بعهده صوتا واحدا وكلمة واحدة وحزبا واحدا لا أيادى متنازعة ولا كلمات متباينة متضاربة ولا أحزابا متنابذة متنافرة كما هو حال الأحزاب فى هذه الأونة الحرجة العصيبة التى فرقت بين اهل البلاد تفريقا فخيفت العاقبة والله سبحانه يجب[٣٦] الحق . وبينما الناس على هذا الرجاء من[٣٧] الخرطوم بظهور دعى اسمه (أحمد ابو هوار) من (المسيريه) بكرد فان يقول أنه هو المسيح ابن الله تعالى وأنه أتى ثانية لخلاص العالم وغفران الخطايا ، فلبى دعوته كثيرون وصار خبره إلى دار الحكومة (بالخرطوم) . فسير الحاكم من قبضوا عليه وأتوا به الى (الخرظوم) لمحاكمته . فهاج عند ذلك رجال قبيلته وماجوا وشقوا عصا الطاعة . فاهتمت لذلك حكومة السودان اهتماما عظيما وسيرت لتأديبهم طائفة من العسكر فقاتلتهم حتى أخضعتهم وقبضت على كل من كان له ضلع مع ذلك الشيخ الكذاب وهددت القبيلة بالقتل والتشريد إن هى عادت الى الهرج أو سمعت لقول كل قائل ، وأخذت على المشايخ العهود والمواثيق . فعادت السكينة الى نصابها وزال خبر ذلك المدعى . فياسبحان الله ما أكثر الأنبياء الكذبة ومدعيى المهدوية فى تلك القارة السوداء ، وكم قتل منهم لهذا العهد بمرأى ومسمع من الكافة ومع ذلك فان شيطانهم شديد العناد .

واحتفلوا فى ليلة حادى عشر ربيع الأول من السنة أى سنة ستة وعشرين وثلثمائة وألف هجرية حادى عشر ابريل من السنة بالمولد النبوى على العادة المالوفة فى ميدان العباسية ونصبت السرادقات على نظامها المعتاد . فتقدم وفد من تلاميذ المدارس الثانوية الى محافظ المدينة فى طلب قطعة من الأرض وسط ذلك الميدان ليقيموا لهم سرادقا تأسيا بالمحتفلين من أرباب الطرق والأشاير ولفيف العامة فلم يجب طلبهم . يقال ونهاهم عن ذلك بتاتا فلم يذعنوا . وكان لأحد الأجانب قطعة ارض مجاورة لذلك

(٣٦) يجب = يحب قراءة اجتهادية .
(٣٧) من = إذ جاء من قراءة اجتهادية .

الميدان فأرسلوا إليه من يطلب لهم تلك القطعة أيام المولد فأجابهم إلى ما طلبوا ، فضربوا بها سرادقا فخيما وزينوه بالرايات والأزهار وزعف النخل وعلقوا على مدخله (سرادق الشبيبة المصرية) وقد فرشوه بالبسط والطنافس والكراسى وأناروه بالنجف والشموع الكثيرة وأوقفوا على بابه جماعة منهم فى أحسن الأزياء يحمل كل واحد منهم إشارة مخصوصة ، فأقبل الناس افواجا على سرادقهم يتفرجون لأنه لم يسبق لهذا الحادث مثيل منذ القدم ولم يسمع بأن تلاميذ المدارس فعلوا فعل مشائخ الطرق وأصحاب العكاكيز فى هذا الموسم الكبير ، حتى ذهب الناس فى شأنهم هذا مذاهب ، فمن قائل أنهم فعلوا هذا بإيعاز (الشيخ جاويش) شيخ (الحزب الوطنى) (ومحمد بك فريد) مقدم الحزب تعريضا باستفحال أمرهم وتهويلا باشتداد شوكتهم وتعظيما لما دفعوا اليه من المطالب الوطنية كالدستور والمجلس النيابى ، وتهديدا بقلب الأمر إن ألجأوا إليه . ومن قائل أنها نعرة من نعرات جماعة شورى البلاد الذين أتعبهم التفكير فى تقليل سلطة الإحتلال فى البلاد وإعادة نفوذ الأمير وسلطانه إلى نصابه ، والذين سافروا الى عاصمة الانجليز ليردوا كيد (لورد كرومر) فى نحره ويقضون على أكاذيبه التى رمى بها البلاد وأهلها جملة . وآخرون قالوا بل كان عملهم هذا بإشارة خفية من جانب القصر إيهاما بأنه وإن كان بعض أهل المناصب العالية وأصحاب الخطط والسواد الاعظم من مأمورى الحكومة قد تلطخوا برجس الطاعة لأصحاب الاحتلال والصنيعة لأهل الحل والعقد منهم ، فإن الطلبة الذين هم رجال المستقبل ملتفون حول عرش الإمارة عاملون بما كمن فى نفوسهم من حب الأمير والرغبة فى إعلاء شأنه والمحافظة على قدره وكرامته فى قومه . ترامت ظنون القوم فى ما فعله أولئك الغلمان الى أبعد المرامى وأصلها ، أنها نزعة من نزعات شيخ الحزب لا محالة لم تكن مرتبة ولا عليها مسحة من الرزانة والكمال . فإنه ما وصل ركب الامير الى الميدان حتى خرج أولئك التلاميذ الى الطريق ووقفوا وصاحوا صياحا عظيما عاليا (ليحيى الامير ـ لتحيى مصر ـ لتحيى الشبيبة) . فصاح جماعة منهم من وراء الزحام (ليحيى الحزب الوطنى ليحيى الشيخ عبد العزيز) ـ (ليسقط الانجليز) . ودخل الأمير سرادق (السيد البكرى) فقابله الأمراء والوزراء والكبراء (والغازى مختار باشا) . فتليت القصة النبوية . ثم انتقل الأمير إلى سرادق الخاصة فأطلقوا الألعاب النارية . ثم عاد بعد منتصف الليل إلى قصر القبة . وزار (الغازى مختار باشا) سرادق أولئك التلاميذ فقابلوه بهتاف عظيم وألقوا بعض الخطب الحماسية فى حضرته وكلها تطرف غير محمود

العاقبة . أخبرنى صديق بأن الخطر كان باديا بكامل معانيه فى تلك الليلة من تكوف العامة وزعر العطوف وأرباب السوابق حول سرادق التلاميذ وضجيجهم وصياحهم المتتابع (بيحيى محمد فريد) (يعيش شيخنا الشيخ جاويش) (يحيا الحزب الوطنى) وأهل الحزب الوطنى وأصحابه وغير ذلك من القهقهة والمزاح الثقيل ،لولا عناية أصحاب الشرطة وأحاطتهم بأولئك القوم ونزع ما كان بأيديهم من العصى والمساوق وملاحظة كل حركه تبدو من أحدهم . فكان عملهم مشكورا .

وأصبحوا ثالث عشر ابريل من السنة حادى عشرى ربيع الأول وقد دخل على الأمير فى قصره شيخ الجامع الأزهر وأعضاء المجلس العالى للازهر وشيخ علماء الاسكندرية وشيخ الجامع الاحمدى وأعضاء مجلس ادارة الجهات الثلاث ليشكروا للأمير وضع قانون الإصلاح الجديد للمعاهد الدينية وتعيين أعضاء المجالس الثلاثة وإصلاح التعليم بالجامع الازهر والمدارس العلمية الاسلامية الدينيه . وألقى شيخ الجامع الأزهر بين يدى الأمير خطبة شكر وثناء فأجابه الامير قائلا

(إنى بكل سرور وارتياح اعرب اليكم ولحضرات العلماء جميعهم عن الممنوية الكبرى التى ارانى مملوءا بها من هذه النهضة العظيمة التى قمتم بها لترقية العلوم الدينية الإسلامية . وكلما زدتم نشاطا فى هذا الشأن زدت سرورا وارتياحا ، فإنى أرانى والله مهتما دائما بأمر العلوم الدينية ورجال الدين ساهرا على ما يفيد فى تقدمهما ونجاحهما مؤملا فى وجه الله الكريم أن يساعدنى على تحقيق آمالى فيهم . وكثيرا ما قضيت ليالى طويله أفكر فى أمركم وفى الأسباب الموصلة لرقى رجال الدين الإسلامى . وها أنا الآن أحمد الله تعالى على هذه الخطوة التى أصبحت أرقب من ورائها نجاح العلوم الإسلامية وأهلها يتجلى لنا فى اجمل صورة وأرقى مظاهرة ، وعلى تذليل العقبات الكثيرة التى كانت تعترضنا فى سبيل الوصول الى النجاح وأتوسم فيكم جميعا مداومة الجد والإجتهاد والسعى وراء الغاية المقصودة . حقق الله الآمال) . فرد عليه شيخ الازهر بالشكر والثناء . وكان قد برز الأمر بتبعيد بعض العلماء عن الجامع لأمور كثيرة لنقمهم عليهم ، فتقدم اليه الشيخ فى طلب العفو عنهم فأجابه الى طلبه وقال عفوت عنهم إلا واحدا خصوصا وأنهم كانوا فيما فعلوه مقلدين له وإنى لذلك لا أحب ان أراه بينهم ثانية ولا يحسن بهم ان يتبعوه بعد أن عفوت عنهم ، فخرجوا من حضرته . وكثر اللغط بين

الناس بأن حياة الأمير مهددة بين آونة وأخرى وأنه فى خطر شديد . فإنه بعد أن خلص من حادث اصطدام وابوره (الكشك)[٣٨] بإحدى عربات السكة الحديد فى طريقه من مريوط إلى قصر المنتزه[٣٩] . وقد كان اهتمام الأمير بهذا الحادث عظيما جدا ، فإنه بينما كان عائدا من الإسكندرية الى القاهرة ألقى شاب حجرا بحجم البرتقالة بين محطتى طوخ وسندنهور فأصاب زجاج نافذة العربة الخصوصية فكسره ومر من أمام الامير فكسر مرآة كانت معلقه فى العربة . فاهتم موظفو السكة الحديد بالأمر جدا ، وبرز الأمر من ديوان الوزارة إلى ديوان المديرية . وظل البحث والتفتيش حتى ظهر أن الذى ألقى الحجر هو شاب كان يرمى به بومة على عمود من أعمدة السلك التلغرافى ، فقبضوا عليه وساقوه الى المحكمة لينال جزاءه ونشر قلم المطبوعات خبر ذلك فبطل اللغط جملة .

وطاف باعة اللواء وصحف الحزب الوطنى ينادون بعزم محمد فريد مقدم الحزب الوطنى على القاء خطبة سياسية فى ملعب دار التمثيل العربى ، وجعلوا يصيحون صياحا مزعجا ويلوحون بالجرايد وشاشات عمايمهم ، وظلوا على هذا الصياح والجلبه يومين . فلما كانت الساعة الخامسة من يوم السبت ثامن عشر أبريل من السنة تسابق الناس لسماع الخطبة وتكوفوا حوله بعضهم فوق بعض حتى أن الذين كانوا خارج الملعب كانوا أكثر ممن دخلوه وممن عادرا أدراجهم لشدة الازدحام وفقدان النظام بسبب دخول الغوغاء والسوقة وأرباب الحرف من أهالى بولاق مصر . وضعوا فى صدر المكان صورة (مصطفى باشا كامل) مسنوده الى طاولة نثرت عليها الزهور ومن وراء الطاولة كرسى الخطيب . فما هو أن وقف يتلو خطابه حتى أخذه التصفيق من كل جانب وعلا صياح أولئك القوم (بيحيى محمد فريد) (يحيى الحزب الوطنى) حتى صمت الآذان ، فجعل المكلفون بحفظ النظام بسكوتهم[٤٠] تارة بالزجر وأخرى بالتهديد حتى أقلعوا عن ضوضائهم . وأخذ الخطيب يتلو خطابه فى ورقة بيده وفيها (وصلنا بفضل مجهودات فقيدنا المرحوم الى النقطة التى كنا موقنين بالوصول اليها ، وكان الكل يائسا من فائدة عملنا لاعتقادهم بأن

---

(٣٨) الكشك = يحتمل أن يكون المقصود هو (كوچك) أى الصغير بالتركية . وهو ما يعنى الوابور الصغير قراءة اجتهادية .

(٣٩) المنتزه = المنتزه ، تعرض لحادث آخر ـ اضيفت العبارة لتتفق مع الرواية التالية .

(٤٠) بسكوتهم = يسكتونهم ـ قراءة ترجيحية .

الأمة فى سبات عميق . ولكن قام نفر منا فنزعوا جلباب الخمول وازداد عددهم رويدا رويدا حتى كاد يشمل الأمة كلها ، ومن بقى على يأسه القديم لا يسمى عمله يأسا بل اعتدالا . ولكنهم على رأينا نفر قليل لا يزال يعتبر المال وبعده[٤١] غاية الغايات .

لما توفى الرئيس قام الأعداء يقولون أن الحزب قائم عليه فقد مات بموته ، فخاب فألهم وبرهن الحزب على ثباته وخذل الأعداء الذين سعوا ليلة المأتم لترشيح من هم خارجون عنه لرئاسته توحيدا للأحزاب المختلفة المأرب . على أن الخزلان لم يقعدهم فأخذوا يشيعون أخبار النفرة بين الحزب وجريدة (اللواء) . فرد الله كيدهم فلم يقعدوا بل عادوا الى الطريقة التى استعملوها فى العام الماضى ضد الرئيس رحمه الله وهى الخطابة فى (لوندره) والكتابة فى جرايدها . وبعد أن كانوا يقولون إنا نريد الجرى قبل ان نتعلم المشى وأنهم هم معتدلون يقبلون الإحتلال مؤقتا ، فكانوا اليوم يستخدمون صغار الكتاب فى (لوندره) ضد (الحزب الوطنى) بواسطة مستشارهم الإنجليزى هنا ويصفوننا بالتهور ويتكلمون ضد (حزب الأمة) الذى اتهموه بمعاداة الأمير ، واتهموا مدير الجريدة بأنه جمهورى . وقد استأجروا لهذه الغاية أحد اعضاء بلديات اقسام (لوندره) ليوهموا انه من أصحاب النفوذ فلنقابل كل هذه المساعى بالإحتقار .

إن وجود حكومة الفرد دليل على تأخر الأمة . ومتى عرفت الأمة حقها طالبت بمشاركة الحاكم بسن الشرائع ومراقبة تنفيذها . ومتى أنس الحاكم من الأمة قوة فإما أن يشاركها بالحكم ويكون حاكما لا أميرا ، وإما أن يغاضبها فتأخذ حقها منه بالقوة . فإنجلترا اعتبرت (شارل الأول) خائنا ، وفرنسا اعتبرت (لويس السادس عشر) خائنا وأعدمته مع زوجته وأخته وأخرجت (لويس فيليب) ، وحصل مثل ذلك فى (ڤينا) (وبرلين) وفتح[٤٢] السلطان عبد الحميد الثانى دستورا وكذلك فعل شاه ايران . ولما اراد الشاه الحالى الإنصياع لمجئ حكومة الفرد قامت الأمة فى وجهه .

وإمبراطور اليابان هو الأمير الوحيد الذى يستحق إعجاب الأمم . أما فى مصر فإن الشعب طالب المرحوم (توفيق باشا) بالدستور فمنح المجلس النيابى ولكن الدساسين وأخصهم الإنجليز دخلوا بين الخديوى وأمته ، لأنهم رأوا اقتناص الفريسة ، وأعطونا بدلا

---

(٤١) وبعده = استبعدت الكلمة ليستقيم النص والمعنى .

(٤٢) وفتح = ومنح قراءة اجتهادية .

من[٤٣] مجلس الشورى ، وأنتم تعلمون ما هو . ولا يزول هذا الدرس المؤلم إلا بزوال الإحتلال الذى وضع يده على البلاد وأخذ يديرها باسم نظارنا سامحهم الله . أما الأمة فقد قامت تطلب الدستور بواسطة (الحزب الوطنى) من أميرها . ولنا الثقة التامة بانه يجيب مطالبنا نظرا لوعده ولتربيته العالية . ولا يحزنكم تصريح (المستر غراى) فإنه أراد تثبيط الهمم . ولكن الانجليز ذاتهم يقولون أنه لو منح الخديوى الدستور لما عارض الانجليز حتى لا يظهروا بمظهر المستبد ، خصوصا بعد ما برهنت الأمة على احترام النزيل والمحافظة على المعاهدات . فنحن نطلب الدستور من أميرنا لا من انجلترا ، (والسير غراى) أراد من تصريحه أن يستشيره الجناب العالى عندما يمنح الدستور ، فيكون قبول إنجلترا شرطا كما كان فى العفو عن مسجونى (دنشواى) وحينئذ تعد مصر مستعمرة انجليزية . على أن ثقتنا بالجناب العالى تحملنا على اليقين بأنه لا يستخدع بشراك إنجلترا ولا يغتر بملاطفة (السير غورست) له وتودده اليه والإكثار من زياراته . فاذا كان لا يمكن منحنا الدستور إلا بعد قبول انجلترا لا يقعدنا عن السعى وإعلان اضطهادها لأميرنا . واذا سألتمونى عن سياسة الوزارة وهل هى تظل متسلمة[٤٤] أو تصير عونا للأمير ، فأنا اجيبكم أنه لا أمل مطلقا بهؤلاء النظار الذين يكتفون بقبض رواتبهم وهم لا يؤدون شيئا فى دواوينهم . نعم إن بينهم المجتهد والراغب فى العمل ولكن اجتهاده يقف عند إرادة المستشار . وفاتهم أن الوزير فى أوروبا يستقيل إذا وجد ادارته غير نافذة ، وأنى لنا ذلك وناظر حربيتنا لا يعرف عدد أورط الجيش ومحل وجودها ، وناظر المالية الذى استحق المعاش الكامل لم يدر كيف تصرف المستشار بالمال الإحتياطى وخسر سبعين ألف جنيه ، وهؤلاء النظار قد استصدروا امرا عاليا بأن يكون معاش الواحد منهم ألف جنيه ، وأن المستقيل لا يحرم المعاش كسائر المستخدمين . وهم يعرفون سخط الأمة عليهم ولا يستعفون . والدواء لكل أدوائنا هو الإتحاد .

قد كنا قلبا واحدا ويدا واحدة فنلنا المجلس النيابى وأخرجنا الانجليز من مصر لا بالهور والثورة ، لأن ثورة سنة ١٨٨٢ عادت علينا بالبلاء ، فبرهنوا على أننا متفقون ووقعوا على طلب المجلس النيابى فإن مائة ألف غير كافية ونحن إثنا عشر مليونا ، فأهالى (فنلندا) وهم مليونان ونصف جمعوا لطلب المجلس النيابى من القيصر فى عشرة أيام نصف مليون توقيع . فلو أننا جمعنا مليونى إسم لما أمكن الإنجليز من رفض طلبنا لأن الأمة الإنجليزية دستورية) .

(٤٣) من = منه قراءة اجتهادية .

(٤٤) متسلمة = مستسلمة قراءة ترجيحية .

وبعد هذا الكلام انتقل إلى الكلام على الجامعة ومما قاله (إن الهيئة الحاكمة تريد إحباط هذا المشروع أو لاشتغال[٤٥] الأمة بانشاء الكتاتيب ، ثم لإدخالها أجناسا اخرى فى المشروع . ثم أن اللجنة التى عينت لاختبار المعلمين مؤلفة من ثلاثة بينهم مصرى واحد هو (رشدى باشا)[٤٦] والثانى (ارتين باشا)[٤٧] عدو اللغة العربية بالمدارس والثالث المسيو (ماسبيرو) . ثم ختم كلامه بأن نادى (فلتحيى مصر فليحيى الدستور) ، فماج القوم وصاحوا بأعلى أصواتهم (فلتحيى مصر يحيى الدستور) . واشتد الصياح والتصفيق والصفير وهم يضربون الارض بأرجلهم ساعة وخرجوا يهرولون . إنتهى بنصه .

(٤٥) أو لاشتغال = اولا لاشتغال قراءة اجتهادية .

(٤٦) رشدى باشا = حسين رشدى باشا (١٨٦٧ ـ ١٤ مارس ١٩٢٨) محام ووزير ورئيس وزارة لأربعة مرات . ولد فى القاهرة لأسرة تركية تدعى (طبوز زاده) Topuz - Zadeh . درس القانون فى (چنيف) ، القاهرة ، و (باريس) . عين محاميا للحكومة بنظارة المالية ، وفيما بعد أصبح مفتشا بنظارة المعارف ثم قاضيا بعد ذلك . كان له نشاط خيرى فى (الجمعية الخيرية الإسلامية) . تزوج من (إيوچينى لوبرون) Eugenie Le Brun الفرنسية والتى كان لها نشاط أدبى وجهود فى مجال الحركة النسائية وتوفيت فى عام ١٩٠٨ . تزوج بعدها بأخت زوجة (الشريف حسين) شريف (مكة) . عمل ناظرا للحقانية (العدل) فى نظارة (بطرس باشا غالى ١٩٠٨ ـ ١٩١٠) . وناظرا للخارجية فى نظارة (محمد سعيد باشا ١٩١٠/٢/٢٣ ـ ٥ أبريل ١٩١٤) وقام باعمال نظارة الحقانية بدلا من (سعد زغلول) فى ١٩١٢/٤/١ ثم ترك نظارة الخارجية ليوسف وهبه بك المستشار بمحكمة الاستئناف المختلطة ليصبح ناظرا للحقانية فى ١٩١٢/٤/١٥ . اصبح رئيسا للنظارة/الوزارة أربعة مرات متوالية (١٩١٤/٤/٥ ـ ١٩١٤/١٢/١٩) (١٩١٤/١٢/١٩ ـــ ١٩١٧/١٠/٩) (١٩١٧/١٠/١٠ ـــ ١٩١٩/٤/٩) (١٩١٩/٤/٩ ـــ ١٩١٩/٤/٢٢) . عمل قائمقاما خديويا عندما كان (عباس) فى (استانبول) اثناء الحرب العالمية الأولى . وافق (رشدى) بعد اعلان الحماية على مصر فى ١٩١٤/١٢/١٩ على البقاء كرئيس للنظار ولكن على أساس انتهاء الحماية بعد انتهاء الحرب . شجع (سعد زغلول) وآخرين للتحدث الى (المندوب السامى) (وينجت) فى شأن إرسال وفد مصرى الى وزارة الخارجية البريطانية لمناقشة مستقبل مصر ، وعندما رفض البريطانيون استقبال الوفد استقال (رشدى) رغم أنه بقى وزيرا للمعارف حتى نوفمبر ١٩١٩ . رافق (عدلى يكن) فى مباحثاته مع (كيرزون) Curzon فى سنة ١٩٢١ . عين فيما بعد فى مجلس الشيوخ فى عهد (الملك فؤاد) ورأس المجلس حتى وفاته .
ـ أرثر جولد شميت (قاموس تراجم مصر الحديثة) ـ ترجمة وتحقيق عبد الوهاب بكر ـ مرجع سبق ذكره ـ ص١٦٩ .

(٤٧) يعقوب أرتين (١٥ ابريل ١٨٤٢ ـ ٢١ يناير ١٩١٩) . موظف أرمنى كبير فى الحكومة المصرية . ابن (آرتين بك) أحد كبار رجال (محمد على) والمسئول عن الشئون الخارجية فى عهده . ولد فى القاهرة وتعلم فى (استنبول) وأوروبا . عمل مدرسا لأطفال (اسماعيل) . أصبح سكرتيرا للشئون الخارجية فى عهده فى عام ١٨٧٩ . فى عام ١٨٨٤ عين وكيلا لنظارة المعارف . كان عضوا فى (المعهد المصرى) Institut Egyptien وأصبح رئيسه الفخرى بعد ذلك . مثل مصر فى مجلس ادارة شركة قناة السويس . كتب مقالات لـ Bulletin del' Institut Egypti-en) وألف (L'instruction Publique en Egypte التعليم العام فى مصر) و La Propriete' Fonciere en Egypte) الملكية العقارية فى مصر) اللذان نشرا فى ١٨٩٠ و ١٩٠٨ على التوالى .
ـ أرثر جولد شميث ـ المصدر نفسه ـ ص٢٥ .

أقول واخبرنى من حضر ذلك الاجتماع أنه وجماعة من أهل الرأى لم يعرفوا لخطاب ذلك اليوم معنى ولا رأوا فى تلك الحفلة من النظام أو مسحة من الأدب . فقد كان جل الذين احتشدوا فى ذلك المأزق خليط من السوقة وأرباب الحرف والصنائع كالحدادين والنجارين والحلاقين والخياطين من سكان (بولاق مصر) وغيرهم . وكانوا كلما سمعوا الخطيب يذكر الإنجليز هاجوا وماجوا وصاحوا (أى نعم الإنجليز اعداؤنا) (الإنجليز يخرجون يخرجون) ، وإذا سمعوه يقول الوزراء تأففوا وصاحوا (الوزراء الوزراء ما ينفعوش) ، وقاطعوا عليه مرارا كثيرة حتى أحرجوه وأضاعوا على غيرهم إدراك معنى ما فى خطابه من المغامز والمطاعن التى ما انزل الله بها من سلطان ولا هى من حسن السياسة فى شئ . وخرج المتجمعون يتزاحمون بالمناكب ويتدافعون بالراح ويتمازحون ويتشاتمون بأفحش الشتائم وينادى بعضهم بعضا بيا ابن كذا وابن كذا . حتى خجل العقلاء ومن حضر من بعض اصحاب الوجاهة من هذه المعائب الفاضحة وخرجوا لا يلوون على شىء .

أقول كان الناس يظنون ان (محمد بك فريد) هذا يبدأ حياته السياسية بعمل كبير يلفت الأنظار أو بقول حكيم يدفع عنه سوء الظن ويكفيه مقارعة الخصوم . ولكنه ذهب فى خطابه هذا مع الأغراض والحقود وأنحى باللائمة على من خالفه من الأحزاب ورماهم بالبهت والميل والإفن وغير ذلك من عبارات التهديد وآيات الوعد والوعيد ، ولم يفطن الى ما وراء ذلك من الفشل والهزم . وما هى إلا عشية أو ضحاها حتى احتدم الجدال بين (الشيخ على يوسف) صاحب (المؤيد) (وعلى بك فهمى كامل) صاحب (اللواء) لسان حال الحزب الوطنى ، واشتد الأخذ والرد بينهما ثم المهاترة والمكابرة ثم السباب والشتم المعيب ، وكل من الإثنين يتهم خصمه بدس الدسائس والكيد لغير حزبه فى السر والعلن حتى التوى على الناقدين منهم الحقيقه وإدراك الغرض . وعندى أنه رغما من هذه الصيحات المتتابعات من (الحزب الوطنى) تارة (وحزب الإصلاح) (والحزب الحر) تارة أخرى فإن خطة كل منهم حتى الساعة فى إبهام وغموض . تلبس لباس الوطنية فتستهوى الناس كالحسناء التى تتضمخ بالعطور وتتعطر بالرياحين والزهور فتستأثر قلوب الناظرين وقلبها لايعرف الهوى ولا هو من الغرام فى شىء . ولقد شاب المتناظرون جدلهم وخصامهم بشوائب المثالب والتحقير والسباب المعيب ، حتى

انصرف الناس عن الغرض المقصود من تأسيس الأحزاب إلى التلهى بألفاظ العيب وكلمات الشين ، وانفض بعضهم من حول (الحزب الوطنى) فرارا من الانغماس فى حمة هذه المطاعن الشديدة ، وصار كل من أصحاب الحزبين يتوقع للآخر الفشل والهزم العاجل . وظل الفريقان على هذا النكير وأصحاب الصحف الأجنبية تنقل عنهم المضحك والمبكى اياما كثيرة . حتى صارت أسماء الاحزاب مضغة تلوكها الأفواه فى مجالس النهار وسمر الليل ، والله يقول الحق ويهدى السبيل .

وكان الى هذا الحين قد أتم اصحاب الرأى من جماعة الانجليز أعمال تحويل حياض الأقاليم الوسطى الى رى مستديم وهى من مشاريع الرياضى (إسماعيل باشا سرى)[٤٨] الكبرى . وكان الحوض الكبير المعروف (بحوض قشيشه) هو أكثر تلك الإحواض إذ تبلغ مساحته خمسة وأربعين الف فدان ويزيد ، وفيه أهم تلك الأعمال وأوسعها . قصد الأمير مشاهدتها فقام من القاهرة فى يوم الأحد سادس عشرى ابريل من السنة فى قطاره المخصوص ومعه بعض أهل المناصب العالية وجماعة من الكبراء والموظفين وبعض كبار الرى من جماعة الانجليز . فلما بلغ القطار كوبرى (المجنونة) . الذى يبعد عن بلدة (أشمنت) نحو الكيلو مترين وكان فى انتظاره أصحاب الوظائف والمديرين والعمد والأعيان من أهل البلاد ، فنزل من القطار فنحروا له الجاموس والأبقار وصدحت الموسيقى بالنشيد الأميرى ، ونزل بالسرادق الذى الذى أعدوه له وقابل العمد والأعيان والموظفين . وبعد لحظة لطيفة ركب مركبته والى يساره (فخرى باشا وزير الأشغال) وخلفه الجمع الكثير . واجتاز من حوض قشيشة مارا من امام قنطرة حجز (أشمنت) على الجسر الأيسر لترعة المجنونة فالجسر الايمن لمصرف الهريدى فالجسر

---

(٤٨) اسماعيل سرى (يناير ١٨٦٠ ـ ٢٢ يناير ١٩٣٧) . مهندس ووزير ومالك أراض . يحتمل ان تكون اصوله حجازية او مغربية . ولد فى (المنيا) وتعلم فى مدرسة (الفرير) College Des Freres . ارسل فى بعثة حكومية الى فرنسا للدراسة فى مدرسة السنترال (Ecole Central Polytechnique Des Arts et Metiers) التى تخرج منها فى سنة ١٨٨٣ . اشرف على شبكة الرى والصرف فى الصعيد الأعلى ، وأسهم فى أعمال استشارية هيدروليكية فى فرنسا وإيطاليا . تدرج فى الوظائف المصرية كمساعد مهندس فى (قناطر الدلتا) ثم مفتشا مساعدا للرى فى (المنيا) سنة ١٨٨٨ ، مديرا لرى (الجيزة) ثم (الغربية) ثم (المنوفية) سنة ١٨٩٢ . عمل وزيرا للاشغال العمومية لمدة سبعة عشر عاما . كان عضوا فى مجلس الشيوخ وانتخب رئيسا للجمعية العلمية المصرية . نشرت له العديد من الكتب الفنية وترجم كتابا أوروبيا فى الكيمياء .

ـ المصدر نفسه ـ ص٢٠٠ .

الأيمن لمصرف المحيط بالجسر الفاصل الواقع فى نهاية حوض قشيشة من بحرى حتى مصرف قشيشة الكبير على جسر النيل الى بلدة الواسطى ، فاستقبله العمد والأعيان وأصحاب الوظائف . وكان (إسماعيل باشا سرى) قد عنى بتزيين طريق الأمير هذه على طولها بالرايات والأعلام . فلما بلغ ركب الأمير محطة الواسطى حيا المودعين وركب قطاره عائدا الى القاهرة .

وجاء الخبر الى وزارة الحرب بالقاهرة وديوان الوزارة بظهور نبى جديد (بجبل الكاملين) من أعمال (مديرية ود مدنى) . فتبعه خلق عظيم وجعلوا يعيثون فى الأرض ويبطشون بمن لم يصدق نبوته ، ونمى خبرهم الى مأمور (المسلمية) (اليوزباشى محمد أفندى شريف) فذهب للقبض على ذلك الكذاب فى جماعة من العسكر ، وذهب معهم المستر (سكوت منكريف) نائب مفتش النيل الأزرق ، فما هم أن اقتربوا من مكانه حتى خرج عليهم فى جمع من دراويشه وأحاطوا بهم إحاطة السوار بالمعصم وقتلوا (المأمور) ونائب المفتش الإنجليزى وجرحوا الضابط الذى كان مع جماعة العسكر ، وكذلك أصابوا سائر العسكر بجروح مميتة . ولم يعرف احد بما جرى لبعد الشقة وعدم وجود محطة للتلغراف فى ذلك الصقع . ووصل الخبر متأخرا فقام على الأثر مدير الموقع القريب الى محل الواقعة ومعه قوة عسكرية . فوصلوا الى محلة قريبة من محل الواقعة مساء أول مايو من السنة ففكوا أحمالهم وأناخوا نوقهم . فما انتصف الليل حتى كبسهم العدو وأعمل سيوفه فقاتلهم الجند واشتدوا فى قتالهم . وأطبق العدو على المدير وجنوده ومن معهم وكادوا يفنونهم بحد السيف لولا استبسال الجنود فى دحر العدو ورده . وقد قتلوا منهم خمسة وثلاثين قتيلا وجرحوا كثيرين ، وقتل من الجنود عشرة بينهم (الصاغ عبدالعزيز افندى مجدى) (واليوزباشى محمد افندى فهمى ياقوت) وجرح أربعة وعشرون بينهم (البكباشى لوجان الإنجليز) (واليوزباشى حسين أفندى صفوت) بجراح بالغة . وجرح كذلك (ذبكنسن بك) الإنجليزى مدير ذلك الموقع والمستر (بيكوك) بجراح خفيفة . وجاء خبر ما حل بالجند الى (الخوطوم) فبرز الأمر الى أورطة سودانية وأورطة الفرسان فى (شندى) بالقيام الى (الكمالات) . وبرز الأمر ايضا الى اورطة الفرسان المعسكرة بالقاهرة بالاستعداد للسفر عند اول طلب . يقال وعولت حكومة السودان على التنكيل بالثوار أينما ساروا وحيثما صاروا ، والأخذ بثأر من قتلوا فى تلك الموقع . وجاء

أنهم عثروا على جثتى اليوزباشى (محمد افندى) والمستر (سكوت منكريف) حيث كان المتنبئ ودراويشه يختفون ، وأنهم قبضوا على جماعة من أتباعه فى القرى المجاورة . أما هو فقعدوا له بالمراصد وأزكوا عليه العيون فلم يظفروا به وخلص الى الجبال والجند يوالون البحث ويهددون من يخفيه . فلما كان أحد الأيام قبضوا عليه وأتوا به مكبلا فى الحديد فألقوه فى غياهب السجن مع النبى الذى سبقه فى الظهور . وأنبياء السودان فى هذا الزمان قط ما أفلحوا فى بدعتهم وسرعان ما تسوء عاقبتهم ويذوقون وبال أمرهم وتتفرق أتباعهم وكفى الله السودان والسودانيين شره .

ومن غريب ما سمعناه بعد تفشى خبر موت من ماتوا من الضباط والجند فى حادثة هذا المسيح الكذاب الذى يقال له (عبد القادر) أن أصحاب (الحزب الوطنى) أرسلوا الى سردار الجيوش المصرية على جناح البرق يطلبون نشر التحقيق الذى جرى فى حادثة ظهور ذلك الكذاب ويلقون تبعة ذلك على فساد النظام العسكرى فى السودان الذى يمنح كل مدير هناك سلطة أكثر مما ينبغى له ، فينشأ عن استقلاله بالسلطة خطأ جسيم تذهب فيه الدماء هدرا . قالوا وقد كان يمكن حقنها بشئ من الإحتياط وحسن الإدارة . وتفشى خبر هذا بين الناس فى القاهرة ومصر وتحدثوا به كثيرا وعدوه افتياتا وتعرضا لسلطة عسكرية ونظامها المخصوص بها من الأحزاب ولا سيما من (حزب الاصلاح) الذى لم يسمع الناس له صوتا إلا فى هذه الآونة ولم يعرف بخبره الا نُذُر من أهل المناصب وأصحاب الخطط المحتكين بمشيخة (الشيخ على يوسف) . قيل فلم يرد عليهم السردار جوابا ولا أحلهم محلا فى هذا الطلب .

اقول ــ وإلى هذا الحين كانت الهيئة الحاكمة قد أتمت عمل (لائحة معاشات الموظفين) فى دوائرها بعد أن قضوا اعواما فى عملهم . وما هم أن نشروا على الناس بنودها حتى كرهوا ما فيها ، وقامت صيحة القوم من كل ديوان وشاركهم الناس فى التذمر والشكوى من هذا القانون الصارم الشديد الى أعضاء شورى البلاد . وأجمعوا على القول بأنه سيئة من سيئات (السير غورست) ورفعوا الى مجلس الشورى طلباتهم وهى تتلخص فيما يلى . فهم يطلبون .

اولا ــ حساب ربع المعاش بعد مضى خمسة عشر سنة .

ثانيا ــ إعطاء جزء من خمسة وأربعين من راتبهم بعد المعاش .

ثالثا ــ استقطاع اثنين ونصف فى المائة بدلا من خمسة فى المائة .

رابعا ــ يعطى الذين تسوى معاشاتهم على هذه اللائحة الجديدة سنة فى كل ستة سنوات صرفوها تضم الى مدة خدمتهم .

خامسا ــ يربط المعاش على آخر راتب يأخذه المستخدم لأن للرواتب الآن نظاما مقررا درجاته معلومه .

سادسا ــ يعطى المعاش بالجملة للورثة حتى سن معين ولا تأخذ الحكومة منه النصف .

سابعا ــ إذا استعفى المستخدم بعد ان يكون قد صرف فى الخدمة عشرين سنة يعطى معاشا .

ثامنا ــ من لا وارث له إذا أحيل على المعاش تضم له سنة خدمة عن كل ستة سنوات مقابل أخذ الحكومة معاشه بعد وفاته حتى تتساوى بينه وبين من لهم ورثاء .

وعندى ــ أنه ليس فى هذه الطلبات شئ من المغالاة وهى مطالب عادلة يجب إحترامها إذا تنزه أصحاب الكلمة عن الاغراض ونالت من (السير غورست) قبولا او تسامحا .

وكثر الخطباء والكلامون فى هذه الأيام كثرة لم يسبق لها مثيل . ففى كل يوم يقوم خطيب من هنا ومن هناك . فمن متكلم عن (أصحاب الوظائف) من جماعة الانكليز وكثرتهم ، ومن خارج فى نظام الجندية وعدم تفضيل المصرى على غيره ، ومن طاعن فى تسليم مقاليد الأمور للأغرار من الأجانب النزلاء ، ومن متكلم عن زراعة الدخان وقفل ابواب تجارة السودان على غير الإنجليز ، ومن ومن حتى أدهش العقلاء سريان هذه الروح فى جسم الأمة كلها وحسبوا حسابا كبيرا لما سيكون من وراء هذه الضجة المزعجة . واتسعت حركة (الحزب الوطنى) بعد وفاة عميده (مصطفى باشا كامل) اتساعا لم يكن لأصحابه فى حسبان ، وتعددت خطباؤه وكثر كتابه ودعاته وتفشت لجانه فى سائر أخطاط القاهرة ومصر ، وجاءت الى خزائنه الأموال تترى من كل صوب وحدب وناحية ، وتنافس القوم ولا سيما أهل البلاد وتفاخروا بالتصاقهم بأصحابه ، وقام أيضا اصحاب (حزب الامة) بحركة أخرى وضجة كبرى . فخطب خطيبهم وتكلم عن أخلاق الأمة

وعن تربيتها وتعليمها ونظامها ووجوب حصر السلطة الإدارية والمعنوية فى شخص الأمير ووزرائه بقواعدها المعقولة أى بأن لايكون للإحتلال سلطة على جماعة الوزراء ، وأن كل سلطة تؤخذ من الحاكم الإدارى وتعطى للحاكم القضائى هى كسب للأمة ، وأن كل ضمان يعطى للحاكم القضائى هو تقدم نحو الحرية ، وأن كل توسع فى الإنتخابات النيابية ظفر للحكومة الذاتية . فلو نفذ ذلك لتوصلت البلاد الى الحكم الذاتى ، وأن ذلك عسير ما دام كل وزير قد رمى بمستشار له الأمر ، وعلى الوزير الطاعة . قال وليس ذلك فقط بل وذهبت ضمانة القضاة الإبتدائيين بسبب كونهم هدفا للعزل ، وضربت على القضاء المراقبة ، وجعل لوزارة الحقانية حق نقل مستشارى الإستئناف وجعل انتخاب عمد البلاد بواسطة لجنة إدارية . فنجم عن هذا كله أن سار التشريع الى الوراء واختلط الحابل بالنابل وذهبت آمال الأمة أو كادت إذا لم ترفع صوتها عاليا فى هذه الاونة الملائمة التى تحرج فيها موقف أصحاب الاحتلال . وختم المتكلم كلامه باعتقاده أن كل يوم يقال فيه (مصر للمصريين) . أقول وختم[٤٩] كلامه حتى ارتفعت اصوات جمهور التلاميذ وكأنهم لم يرضوا عن كثير من أقوال المتكلم ، فصاحوا عاليا (لتحيى مصر وأميرها عنوان استقلالها) . فقال بعض الحاضرين إن هذا النداء جواب على بعض ما فى خطاب الخطيب . وعاد المتظاهرون فنادوا (فليسقط المؤيد) (ليسقط حزب الإصلاح) (ليسقط الهلباوى) (ليحيى الحزب الوطنى) (واللواء) . وكان (الشيخ على يوسف) مقدم حزب الإصلاح ورفيقه هلباوى بك وسط المتظاهرين فهما بالانسحاب فلم يتمكنا من ذلك وأخذتهم أيدى التلاميذ ، فهما بالدخول الى إحدى غرف محل الإجتماع فمنعوهم . وأطار جماعة التلاميذ (حمامات) ذكرا (لحمام دنشواى) ومن قتل من أهل (دنشواى) بطلب (هلباوى بك) . فسقطت إحدى الحمامات فى حجر (هلباوى) وعلا الصياح واشتدت الجلبة . وهجم التلاميذ وأصحاب (الحزب الوطنى) على المكان الذى اختفى فيه (الشيخ على يوسف) ورفيقه يريدون البطش بهما . فقام بعض القوم فى وجههم ومنعوهم بالحسنى . وظل الحال على هذا ساعة أو يزيد ثم انصرف الأكثرون وبقى التلاميذ ينتظرون خروج (صاحب المؤيد) (والهلباوى) . فما هما أن خرجا حتى أخذوهما من كل جانب وأوسعوهما لكما ودحرا وصفعا ورجما بالأحجار . ولم يخلصا من تلك الأيدى الا بعد العناء الشديد ، وذهب قول الخطيب فى ليلتهم تلك ادراج

(٤٩) وختم = وما أن ختم قراءة ترجيحية .

الرياح . وأخبرنى من لا أشك فى صدق خبره أنه لما تفشى خبر ما فعله أولئك التلاميذ فى تلك الليلة ، وتأدى الى (المستر دنلوب) وهو لم يقدر على عمل شىء معهم لرده عن كل شىء من (السير غورست) ، كاد يتميز غيظا ورفع الى مجلس الوزراء طلبا بإقالته وتخليه عن منصبه . فلم يوافق الوزراء على طلبه وردوه عن قصده . فاستكان وترك الأمر الى فرصة اخرى إذا ظل (السير غورست) على عناده .

أقول أى نعم وكثر فى هذه الأيام أيضا أدعياء السياسة الكذابون فى انتحال الأمر ومن لا ناقة لهم فيها ولا جمل . فلا تظهر صحيفة من صحف الأخبار يوما إلا وفيها رسالة او اثنتين تحت امضاء (مصرى صميم) أو (طالب إصلاح) أو (متبرم) أو (حسن موسى العقاد) أو (من اصحاب المصالح) . أو (من أعيان الرحمانية) . أو (حقوقى) أو (محمود انيس) أو غيرهم ممن ابتلوا بحب الظهور والسمع لكل ناعق ، وكلها تعريض باستفحال أمر أصحاب الاحتلال وتهويل باشتداد شوكتهم ، وتعظيم للأحزاب واستحسان لعمل تلاميذ المدارس وتحبيذ لما يسمونه النهضة الحديثة او الشبيبة المصرية ، حتى تحرجت الصدور وتبرمت الأمور ووقع المحظور . قيل وكان كلما هم أهل الحل والعقد بإيقاف هؤلاء الناس عند حدهم والضرب على أيديهم منعهم (السير غورست) تغريرا بهؤلاء الأدعياء . فيظنون أنه عاجز عن أن ينال منهم فيرجعون الى العناد وارتكاب اللجاج والبهت بمثل ذلك الطعن والقول المكذوب .

وأعقب هذه الضجة صيحة اخرى ومحنه كبرى . ذلك ان جماعة من (الشبيبة القبطية المتعلمة) رأت ان تبحث على صفحات الصحف القبطية فى الفارق المانع من نوالهم قسطهم فى مناصب الدولة وخططها إسوة بإخوانهم المسلمين ، وقاموا يطلبون من ولاة الامر أن لا يكون الدين مانعا من وصول إخوانهم المسيحيين إلى المناصب العالية وأن يراعى فى التوظيف كفاءة الرجل لا دينه . وقالوا أن حرمانهم من مناصب المديرين والمحافظين والوكلاء والمأمورين ضرب من الغبن والحيف الثقيل ، فى حين أن هذا المبدأ قد وافق عليه أمير البلاد بأمر أصدره يوم تولى (الأريكة المصرية) ووافقت على هذ المبدأ ايضا جميع الصحف على اختلاف نزعاتها ومذاهبها ولغاتها ، لأن الوطنية التى جعلتها عنوانا لها لا تأبى ذلك ولا هى تخالف الفعل بالقول وإلا رماها أهل النصفة بالتعصب الممقوت . وما هى إلا أيام على ذلك حتى قام شيخ الحزب الوطنى (عبد العزيز جاويش) يرعد ويملأ الفضاء صياحا ويقول إن الأقباط عبيد المسلمين لا يحل لهم

تولى المناصب ولا تسلم الخطط ولا الدخول فى مصاف المأمورين والحكام . واتخذ آيات الله هزاء[٥٠] واشترى لهو الحديث ليضل الناس فيدفعون فى صدر الدعوى الأقباط ، ولم يحاسب نفسه على خطأ ولا عمد ولا طالبها فى الخير بتوسط ولا عدالة ، ولا راجعها إلى بحث أو تفتيش ، واسترسل فى عناده وسام مراتع الطعن والسباب لسانه ، واستحلف أصحاب الصحف المحلية أن يشدوا أزره ويعاونوه على أمره تخفيفا من لسان الأقباط وردا لهم عن هذه الطفرة المخيفة . فاعتدى عليه أصحاب صحف الأقباط بمثل ما اعتدى عليهم حتى كبرت الوحشة بين العنصرين ، وجعلت الصحف الإسلامية تحاسب الأقباط على عدد المناصب التى يتولونها ، وأخذت صحف الاقباط تنازع الصحف الاسلامية فى نسبة عدد الوظائف إلى عدد الاقباط وفى أهمية تلك الوظائف ، وفى وجوب اتباع الحق والنصفة وعدم تقليد الوظائف إلا بالكفاءة والاستحقاق لا بالدين والمحسوبية . وانتقل هذا الخصام وهذه المشادة من الصحف الى الموظفين ، ومن هؤلاء الى تلاميذ المدارس فابناء الكتاتيب وأهل الحرف والصنائع فالسوقة . وتقمصت فى كل فرد من هذا المجموع روح ذلك المغربى[٥١] الجسيم ، حتى استحكم النفور وتحرجت الصدور وذكرتنا بما وقع بين العنصرين الأخويين من الفرقة ، وخروج بعضهما على بعض واقتتالهما بالحديد والنار فضلا عن تخريب المساجد وإحراق المعابد وسبى النساء وبيع الاطفال لعهد (السلطان خليل بن قلاوون) ، بتحريض المغربى الذى جاء الى القاهرة فى طلب الرزق ، فرأى من تآخى العنصرين وتزييها بزى واحد ، فحسدهما على شأنهما وأغضبه ما آنسه من نعمة الأقباط وما هم عليه من الترف فى لباسهم وزينتهم وسائر متناولاتهم . فصعد الى السلطان فى قلعة الجبل ووشى بهم وخوفه شرهم . وما زال به حتى برز أمره الى العامة بنهبهم وسبى ذراريهم . فكانت فتنة من أشر الفتن وأضرها بالبلاد كما هو مذكور فى محله من كتابنا هذا . وعندى أنه وإن كان الواجب بل القاعدة فى أعمال كل دولة وحكومة هى الكفاءة وعدم التفريق بين العناصر المكونه لكل أمة فى شئ من أشيائهم العمرانيه ، إلا أنه يجب ايضا مراعاة أميال الغالبية أو عواطفها ، لأننا لم نبلغ من الوطنية درجة تمكننا من العمل بها والأخذ بأصولها دون مراعاة الأديان . فبوطنيتنا هذه التافهة الضئيلة يريد القوم ان يتشبهوا بوطنية الغربيين الراقيين ، ولكن التشبه بأولئك القوم شئ واختمار المدنية الصحيحة أو التعاليم الوطنية شئ آخر . على أن المنازع الدينية لا تزال

(٥٠) هزاء = هزؤا قراءة اجتهادية .

(٥١) يقصد عبد العزيز جاويش .

فى نفوسنا فوق المنازع الوطنية . ولذلك ترى أن أشد الوطنيين تشبثا بالوطنية يغلب عليه حتى الساعة العمل بعاطفة الدين لا بوازع الوطنية . وها هى الصحف وأصحابها وأولئك الكتاب ومناظراتهم على تباحثهم فى هذا الأمر ونداثهم بالوطنية التى من شروطها المساواة والإخاء والحرية تتمسك بذلك الفارق وهو الدين . واحتجاج إخواننا الأقباط ذاته ناجم عن العصبية ، وجواب مناظريهم ناجم عن تلك العصبية أيضا .

أقول والراقون من جماعة الأقباط والعارفون بمناحى السياسات يعلمون أن من حسن سياسة الأقلية فى كل أمة أن لا تغتصب المساواة من الأكثرية اغتصابا . ولذلك فإنهم لم يقدموا على طلبها إلا بعد ان بذلوا الجهد فى سبيل توثيق روابط الإخاء وتدعيم أسس الرضاء مع الأكثرية ونالوا عطفهم عن رضاء وإتفاق . حتى كاد يتم لهم الأمر لولا تلك النزعة المعيبة والضجة المزعجة التى صاحها (عبد العزيز جاويش) شيخ (اللواء) ، لا لقصد سوى ما قصده ذلك المغربى لعهد (السلطان خليل) . والتفريق فى اقتسام وظائف الدولة ومناصبها دليل من الدلائل الكبرى على تقهقر الأمة وضعف وطنيتها ، وحرى بالأقباط الإحتمال والسعى وراء بث روح الإخاء والحرية بين إخوانهم أبناء الوطن الواحد ، والزمن يفعل فعله ويضم الجميع الى محبة أب واحد هو النيل وأم واحدة هى مصر . ولا حول ولا قوة الا بالله .

وأشاع ذلك المغربى يقول أنه عزم على ان يلقى خطبة سياسية فى (مرسح عباس) ، فحسب العقلاء من العنصرين حسابا كبيرا لحدة الرجل وتهوره فى قوله ، وعجزه عن ضبط لسانه وودوا لو أن صاحب الشرطة يقف فى وجهه ويفسد عليه اجتماعه . فما هو ان تفشى خبر ذلك حتى شاع أنهم ساقوا الرجل الى موقف التحقيق معه والسؤال منه عما كتبه فى (جريدة اللواء) عن حكومة السودان ، وأنها قتلت سبعين رجلا من دراويش المسيح الكذاب رميا بالرصاص . أوقفه القضاء موقف المسئول وجعل يشدد فى سؤاله بناء على طلب سردار الجيوش وحاكم السودان . وظل على هذا أياما والناس يرجون أن تطول أيام محنته حتى يلهوه بها عن إزكاء نار الفتنة بين المسلمين والأقباط ويرجع عن غيه ، حتى تتلاشى دعوته الكاذبة ويعود الوئام بين العنصرين إلى ما كان عليه . كان العقلاء يرجون ذلك فى السر والعلن ويكلمون أصحاب (الحزب الوطنى) فى شأنه

ويحضونهم على رده ويقولون أن أمره أصبح معلوما لأصحاب الحل والعقد ، فإن هو ظل على شأنه هذا من التحريض ودأب على تعظيم الفتنة ساءت عاقبته وحاق به وبال أمره ، وطاف هؤلاء العقلاء على بيوت بعض كبار الاقباط يسألونهم الكف عن هذا اللجاج والرجوع الى محبة إخوانهم المسلمين ، فأجابوهم الى ما طلبوا وشددوا على أصحاب صحفهم بالعدول عن تلك الضجة والكف عن مقابلة العداء بمثله ففعلوا . وما هى إلا عشية وضحاها حتى تحركت حفايظ الشيخ ووخزه واخز الشر ، فنشر فى (جريدة اللواء) مقالة تحت عنوان (الإسلام غريب فى بلاده) ملأها بالشتم والسب والطعن واللعن والقدح والذم وكل قول قبيح فى النصارى والنصرانية عموما والأقباط خصوصا ، وكال لهم بالكيل الوافى فلم يترك لهم جلودهم إلا ومزقها وشعورهم إلا وقطعها ولحومهم إلا واشار على اخوانه المسلمين بجعلها طعمة لطيور السماء ووحوش القفر ، ولم يترك من آيات الحض والتحريض على تخريب دورهم وسبى ذراريهم وفعل كل شائن معيب شيئا حتى أجفل العقلاء وأخاف الأصدقاء وأشمت الجهلاء ، وظهرت دلائل العداء بأجلى معانيها . وحار وسطاء الصلح فى أمرهم وأخذتهم الطيرة وهو فرح جزل يمشى الخيلاء وحوله صبية المدارس يعظمونه ويثنون عليه بكل شفة ولسان .

وقامت ضجة الاقباط من كل صوب وناحية وتألفت وفودهم من أنحاء البلاد وطافوا على دواوين الدولة وبيوت الوزراء وطرقوا قصر الامارة وأبواب (غورست) وصاحوا لا نريد إلا عدلا ولا نطلب إلا نصفة ولا نسأل إلا عقاب المعتدى والضرب على يد كل خناس يوسوس فى الصدور . وطفقوا يقولون لاصاحب[٥٢] الحل والعقد (إقصونا الى وطننا إن كنتم تعرفون لنا وطنا غير هذا البلد أنى شئتم فقد ضاق بنا الخناق واستفحل الشقاق ولم يبق سبيل الى الآفاق إذا ظل هذا الشيخ على حاله وظل أصحاب الحل والعقد على إغضائهم ، أى نعم إن وزارة الداخلية التى يتولاها (محمد سعيد باشا) لم تحكم النظر والبصيرة فى مصير هذه الأحوال ولم توقف المعتدى عند حده والآتى أشبه بالماضى ، وكأن الوزير المسئول عن سلامة البلاد ومن فيها من الأهلين والنزلاء لم يكبر عليه هذا الخطر المحيط بها من أقصاها الى أقصاها ، وقد صم أذنيه عن سماع هذه الضجة التى سجلها علينا العالم المتدين وهو يتهددنا بسببها فى سائر مرافقنا الحيوية والإقتصادية .

(٥٢) لاصاحب = لأصحاب قراءة ترجيحية .

يقولون لم يكبر على (محمد سعيد باشا) ما يأتيه شيخ (الحزب الوطنى) فى كل يوم من آيات الوعد والوعيد والإرهاب والتهديد لأفراد الأمة القبطية عموما وكبارها خصوصا ، لأن الباشا من قادة الحزب أصحاب الكلمة المسموعة والرأى المتبوع ، ولأنه كان يأنس القوة والمكانة فى منصبه كلما ارتفعت أصوات أصحابه وكثرت جلبتهم ، وأبانوا للأمير وأصحاب الإحتلال أنهم قوة قد انصرفت نحوها الوجوه وخضعت لها الرقاب وقصرت عليها الآمال . كان إذا أحس بمكروه يتسرب الى مكامن الفدائيين من الحزب أو شعر بمحظور يمثل على كبارة عرشهم ويلقى عليهم سماؤهم بادر الى نجدتهم غير هياب ، وصحفهم من ورائه تكيل له المدح والثناء الكثير . وعندى أنه ما بلغ هذا العناد واللجاج بين العنصرين إلا بسبب التسلح بالدين والترامى والتراشق بمعتقد النصارى أو معتقد المسلمين . فلا والله ما دين النصارى بمضطهد ولا دين المسلمين بممسوس فى هذه الديار ولكن فى رأس الشيخ جاويش نزوة الى هذا التصور المعيب وفى تقاليده نزوع الى التذرع فى كل أمر باسم الدين . فما اشد إضرار هذا العمل بعناصر الأمة كلها ، وما افسده للضمائر والقلوب السليمة فلعلها سحابة ثم تنقشع(٥٣) .

---

(٥٣) مع تصاعد المد الوطنى فى العقد الأول من القرن العشرين ، ذلك المد الناتج عن ما شهدته البلاد من أحداث جسام (كحادث دنشواى) ، وظهور الأحزاب السياسية باتجاهاتها المتباينة ، بدأ يظهر نوع من اصطناع الخلاف بين المسلمين والأقباط . تصدر هذا التيار من جانب المسلمين (صحيفة المؤيد) التى يصدرها (الشيخ على يوسف) وبعض كتاب صحف الحزب الوطنى (كاللواء) وعلى رأسهم (الشيخ عبد العزيز جاويش) . وقاد هذا التيار من جانب المسيحيين صحيفتى (مصر) و (الوطن) . تزايدت حدة الكتابة بين الجانبين على المستوى الصحفى ، وتناولت كل من صحف الجانبين قضايا تزيد من اشتعال حدة الخلاف . فقد هاجمت (مصر) (الجامعة الإسلامية) التى كان يروج لها فى ذلك الوقت بعض المفكرين على أساس أنه لا وطن مع الدين ولا دين مع الوطن ، وحملت (الوطن) على التاريخ الإسلامى . أما (جاويش) فقد نشر (فى اللواء) مجموعة من المقالات تحت عنوان (الإسلام غريب فى وطنه) حمل فيها على المسيحيين حملة كانت من أعنف وأقسى ما يمكن احتماله ، وكان لها تأثير فى غاية السوء بين أوساط المسيحيين . ورغم ان اللجنة الإدارية للحزب الوطنى اصدرت بيانا تستنكر فيه مقالات الشيخ وتتبرأ منها إلا أن الأثر على النفوس كان شديدا ، وكان رد الفعل من جانب الصحف المسيحية طبيعيا إزاء العمل غير المبرر من جانب الرجل .

وترتب على هذه الأفعال وردود الأفعال ظهور اتجاهات مسيحية غير مستحبة تتحدث عن مظاهر التفرقة فى الحقوق بين المسلمين والمسيحيين (كالحق فى التوظف فى وظائف معينة) . وأدلى (اخنوخ فانوس) ـ رغم انه لا يحسب على طائفة الأقباط الأرثوذكس) ـ بدلو غير مقبول فى ذلك النزاع تطرق فيه الى تحبيذ الصداقة المصرية البريطانية ، وتشكيل مجالس نيابية ذات تمثيل طائفى وأجنبى يمكن للأجانب من الدخول دستوريا فى نسيج مؤسسات الحكم فى مصر ، وظهرت نزعات تعارض المطالب الديموقراطية الداعية للدستور والحكم النيابى =

والعجب انه لما اشتد القضاء فى التحقيق مع شيخ الحزب وكاد أن يلهيه عن سفسطته ، قام أذناب الحزب الملتفون حوله يرسلون الرسائل بالبرق ومع البريد الى أصحاب الصحف المحايدة ، ومنهم من يطلب منع القضاء من سؤال الشيخ مراعاة لشعور الأمة ، ومنهم من يقول ان الشيخ لسان حال المسلمين كلهم فلا يصح سؤاله ولا إيقافه موقف المسئول ، وأنه يسوءها ما يسوءه ، ومنهم من يتوعد ويتهدد إذا ظل الشيخ فى ذلك الموقف . وبينما هم على هذا وامثاله كان وكيل الحزب الوطنى يبرء من الله من تهوس شيخهم ويستعطف إخوانهم الاقباط ويدعوهم الى الكف عن المغامرة مع المغامرين . وما هى إلا ايام قلايل حتى برز أمر القضاء بمحاكمة الشيخ جاريش أمام (محكمة عابدين) بعقوبة المهيجين على الهيئة الحاكمة المزورين عليها . وشاع خبر ذلك وتحدث به الناس فكانوا فى أمره على رأيين . أحدهما ناقم على القضاء عائب عليه . وثانيهما مادح له مصوب لعمله .

فلما كان سابع يوليو من السنة تاسع جمادى الثانى سنة ستة وعشرين وثلثمائة أوقفوا (الشيخ عبد العزيز جاويش) موقف المحاكمة ، وكان معه من المحامين ثلاثة . فلما سئل عن جنايته تقدم احد المحامين الثلاثة وطلب تأجيل النظر فى التهمة إلى ما بعد فصل الأجازات لأسباب منها لزوم طلب أوراق وأحكام من المحكمة المختلطة تثبت ان الشيخ حماية الدولة الأفرنسية ـ كذا ـ ومنها أن هناك أوراقا تثبت رفع شكوى إلى صاحب سياسة الفرنسيين لعدم اعتراف القنصلية الإفرنسية فى مصر بحمايته .

= باعتبارها تضر بالمصالح القبطية ، وتقدم للإحتلال بذلك الذريعه لمعارضة المطالب الشعبية الديمقراطية ، كما أن هذه النزعات كشفت عن هوية أصحابها السياسية الموالية للإنجليز ، وموقفهم (أى اصحاب هذه النزعات) المعادى للحركة الوطنية الديمقراطية .

وقد استمر هذا التيار غير الصحى يحدث تأثيره ويمارس نشاطه خلال الفترة ١٩٠٨ ـ ١٩١١ ، وتمادى خلاله أنصار (القومية القبطية) وهذا الإتجاه الانفصالى الذميم . وان كانوا قلة . ومع هذا فقد كان فى المعسكرين من العقلاء والوطنيين ـ وهم الاغلبية ـ من رفض هذا التمادى فى النزاع وتمسك بالإخاء باعتباره طبيعة فى الأمة ، وبالدم الواحد والجنسية الواحدة . كذلك فإن نطاق الشقاق لم يتناول الطعن فى الدين او التعرض له . ولقد ظهر هذا فيما صدر فى ذلك الوقت من الأعمال الشعرية التى مجدت الوحدة الوطنية ورفضت تصرفات الحمقى . فكتب عوض واصف :

ابناؤها عبد السميع وأحمد   والموسوى وليس ثم دخيل
لا فرق بين العالمين وأرضهم   وطن وحيد والجميع سليل

ـ طارق البشرى (المسلمون والأقباط فى إطار الجماعة الوطنية) ـ الطبعة الثانية ـ دار الشروق ـ القاهرة ـ ١٩٩٨ـ٥٥ـ٦٤ .

ومنها إحضار شهود نفى تثبت عدم كذب الخبر الذى نشره الشيخ فى حادثة الكفاليين[٥٤] . فلم يوافق القضاء على التاجيل إلا إلى يوم ثامن عشرى الشهر . وبعد الأخذ والرد بينه وبين المحامين ساعات . أقول وازدحم فضاء دار المحكمة فى الداخل والخارج بتلاميذ مدرستى الطب والحقوق ، وظهر ضوضاؤهم وتبعهم خلق كثير من العامة والسوقة وباعة الصحف . ووقفوا على أبواب المحكمة ينادون بعضهم بفحش القول وهزر الكلام ، وتعذر على المارة (بشارع عبد العزيز) قضاء حاجاتهم بسبب ذلك الزحام العظيم . وانبث أصحاب الشرطة هنا وهناك يراقبون تلك الحركة . فلما خرج الشيخ ومن معه من قاعة الحكمة صاح التلاميذ عاليا جدا (ليحى شيخنا الشيخ جاويش) فردد نداءهم السوقة وباعة الجرائد ، وأحاط اولئك التلاميذ بالشيخ وترامح السوقة خلفهم يهللون ويزأطون ويترامون بفحش القول والهزر المعيب . وما زالوا حتى أوصلوه الى غرفته بدار مطبعة اللواء وأعادوا صياحهم بيحيى ويعيش وغير ذلك ثانية وانصرفوا .

وعاد (محمد فريد بك) مقدم الحزب الوطنى من ديار الغربيين فى سادس عشر يوليو من السنة ، فاهتم لحضوره أصحاب الحزب الوطنى وتلاميذ المدارس اهتماما عظيما وأعدوا له عربه خصيصة من عربات السكة الحديد . وسافر بعضهم إلى لقائه بالإسكندريه . فلما بلغ القاهرة وصار على رصيف المحطة تكوف حوله أصحاب الحزب وتلاميذ المدارس والجمع الكثير من العامة ، وصاح التلاميذ بأعلا أصواتهم (ليسقط الإحتلال الإنجليزى) (ليحيى الإسلام) (ليحيى الحزب الوطنى) (ليحيى محمد بك فريد) . واشتد الصياح والنداء فخرج وركب سيارته وركب الشيخ (عبد العزيز جاويش) . فتكوف التلاميذ حول سيارته ومنعوا سايقها من سوقها وجروها وهم على صياحهم وندائهم بيحيى ويسقط ويعيش . وكان (الشيخ جاويش) ومقدم الحزب واقفين على أقدامهما بالسيارة ومادين أيديهما لمصافحة المارة أو المسلمين ، وخلف السيارة بعض المركبات تحمل جماعة المستقبلين . وساروا على هذا من ميدان السكة الحديد الى شارع كامل فشارع عابدين ، والعجب آخذ من جماعة النزلاء والمتفرجين مأخذه . وكأن القوم أحسوا بما سيكون أو هو كائن من وراء صياحهم وندائهم بيعيش ويحيى ويسقط ،

---

(٥٤) الكفاليين = الكاملين قراءة ترجيحية .

فقام واحد منهم يقال له (السيد عارف) وأرسل الى بعض المحايده[٥٥] (ذكرت بعض الجرائد أمس أن حضرات المتظاهرين بعودة سعادة الفاضل رئيس الحزب الوطنى هتفوا بسقوط جيش الإحتلال وإحياء الإسلام ، ولما كانت مثل هذه الاقوال لم تحصل اصلا جئت بهذا راجيا تكذيب ذلك فى جريدتكم الغراء ولكم الشكر) ا . هـ

وحل الأجل المضروب لمحاكمة الشيخ (عبد العزيز جاويش) فأوقفوه موقف المحاكمة وأخذ الدفاع حقه اليوم بطوله حتى قال القاضى إن سماع الحكم بعد اسبوع . فلما خرج الشيخ من قاعة المحكمة قابله القوم بالتصفيق والصياح والنداء المعروف عند تلاميذ المكاتب وباعة الصحف ، وأركبه جماعة من أصحاب الحزب حتى نادى الحزب وانضم اليه كثيرين من الرعاع والسوقة وجعلوا يصيحون صياحا عاليا لا معنى له ، واعتدوا على الكثير من المارة وأبناء السبيل ، وتخطفوا شيئا من حوانيت الباعة وكسروا بعض الكراسى وغيرها من المنتديات والقهاوى . وجاء الصائح الى أصحاب الشرطة فأسرعوا خلف أولئك الرعاع فقبضوا على اثنين وثلاثين منهم وساقوهم الى الحبوس مع رئيسهم المدعو (احمد محيى الدين) . والرجل من الفدائيين صنيعة شيخ الحزب ، ومل الناس وضجروا من هذه الأحوال وأخذتهم الطيرة من مصيرها وظنوا (بغورست) السوء ورموا أهل الحل والعقد بالعجز عن قصد السبيل ، وكلم بعض قناصل الدول (الوزير بطرس باشا غالى) فى ذلك ، وكلموا كذلك (الرئيس مصطفى فهمى باشا) . فلما كان رابع أغسطس من السنة سادس رجب سنة ستة وعشرين برز أمر القضاء بالحكم على (الشيخ جاويش) بتغريمه عشرين جنيها والزامه بكافة المصاريف . وقد نطق القاضى بحكمه هذا والشيخ فى موقف المجرمين . فسمعه باشًا وخرج وحوله جماعة كثيرة من تلاميذ مدرسة الحقوق ومدرسة الطب وأعضاء الحزب . وكان خارج المحكمة الخلق الكثير من العامة والسوقة وأعضاء لجان الحزب على اختلافهم . فما هم أن سمعوا بخبر الحكم بالغرامة وقد كانوا يتوقعون سجنه حتى صاحوا صياحا عاليا (يحيى الشيخ عبد العزيز جاويش) (يحيى محمد بك فريد) (يحيى الحزب الوطنى) . وركب الشيخ عربة قد أعدوها له وجرها الطلبة على أكتافهم وأمامها الموسيقى تصدح . فترامح القوم خلف العربة وهم فى صياح ونداء وجلبة أجفلت المارة وأخافت أصحاب الحوانيت ، فأغلق بعضهم حوانيتهم .

(٥٥) المحايدة = الصحف المحايدة يقول ـ اضيفت الكلمات لتتفق مع السياق .

وانبث أصحاب الشرطة هنا وهناك يمنعون تعدى القوم وتحككهم بالمارة حتى نادى الحزب الوطنى . فوقف القوم لحظة على شأنهم هذا ثم تفرقوا وأصحاب الشرطة يتبعون خطواتهم حتى تفرقوا جملة .

أقول ، وأصبحوا وقد اجتمع فى حديقة الازبكية جماعة من أولئك التلاميذ بدعوة نشرت باسم (حزب مصر الفتاة) ووقف رجل يقال له (الشيخ صادق عمران) وبجانبه وريقة معلقة مكتوب عليها بالخط الثلث (الوطنى المتطرف) . وأخذ يتكلم محتجا على ما أخذ أصحاب الشرطة من الحيطة والمراقبة الشديدة للزحام الذى كان داخل وخارج دار المحكمة ، وتبعه آخر فضرب على نغمته وآخر لم يقل غير ما قاله الأولان . ثم وقف صاحب وريقة يقال لها (جريدة الإقدام) وتكلم كلاما لم يخرج معناه عما قاله من سبقه . ثم أخبر القوم بأنه ستطوف قبل حضور الأمير من مصيفه عربات فى الشوارع والأزقة حاملة عرائض تتضمن طلب المجلس النيابى من الأمير يوقعها من أراد من الاهلين . ثم تفرقوا بعد صياحهم لحظة بيحيى ويسقط وغير ذلك من ألفاظهم المحبوبة عندهم .

وبينما الناس على هذا من صياح أصحاب (الحزب الوطنى) وما كان من وراء محاكمة شيخه وضجة صبية المدارس وفعال الغوغاء والسوقة ، إذ جاء الخبر الى قصر الإمارة وديوان الوزارة وسائر الصحف بمنح (السلطان عبد الحميد) نعمة الدستور لشعبه وسائر سكان مملكته . وطاف أتباع (الغازى مختار باشا) معتمد الباب العالى يبشرون بذلك . وكان الأمير بعيدا عن قصره فى مصيفه فى ديار الفرنجة . فسير (الرئيس مصطفى باشا فهمى) الى (المابين الهمايونى) والباب العالى كتب التهانى والتبريك ، وجعلت صحف الأحزاب تهلل وتكبر وتصيغ قلائد المديح والدعاء للسلطان أمير المؤمنين (السلطان عبد الحميد) وتساله أن يمنح رعاياه المصريين المخلصين لعرشه هذه النعمة أيضا . واشتغلت عن كل شىء يختص بالأحزاب وتفرغت للكلام على الممالك الدستورية ونعمة الدستور ونظام الممالك الراقية بسبب الدستور . وكانت تارة تنقش كلمة (دستور) بالأحرف المكبرة المعظمة للغاية وتارة تنقشها بالمداد الأحمر أو بماء الذهب ، والناس يحبذون عملهم وجلهم لا يدرى ما هو ذلك الدستور أو ما هى نعمته التى أنعم بها السلطان على شعبه . وأقسم أن السواد الاعظم من العامة كان يظن ان الدستور حجر من الأحجار الضخمة الكبيرة المعروف عند جماعة الحجارين والبنائين بهذا الاسم فتأمل .

أقول ــ ولم يتأكد للقوم فى دار السلطنة العثمانية خبر منح الدستور والقانون الأساسى إلا فى الساعة العاشرة من صباح خامس عشرى يوليو من السنة أى سنة ثمان وتسعماية وألف ميلادية سادس عشرى جمادى الثانى سنة ستة وعشرين وثلثمائة وألف للهجرة وعشرى أبيب سنة أربعة وعشرين وستمائة وألف للشهداء ، حيث ظهرت صحف دار السلطنة معظمة الخبر حاثة الشعب على الإهتمام بالانتخابات العمومية ، مشيرة بالعفو عن المجرمين السياسيين ، وبرفع المراقبة عن الصحف والمطبوعات ، وإقصاء جماعة المراقبين عن مكاتب الصحف ، وبإلغاء الجاسوسية من البلاد وإعطاء الشعب حريته . فأخذ الناس يزينون دورهم وحوانيتهم ولكن مع بعض الحذر والسكون ، خوفا من أن تكون هذه الضجة غير ناضجة . ثم فتحوا أبواب حوانيتهم وأخذوا يقدمون الحلوى والمشروبات للناس . ووقفت الموسيقات تعزف فى الشوارع والحارات ، وخرج أصحاب الوظائف والخطط فى الدواوين ، وجاء مقدمو الجند وضباطهم من ثكناتهم بلباس الزينة ، وخرج الناس على اختلاف طبقاتهم من دورهم ، وقامت الأفراح فى كل مكان وتألفت المواكب وطافت الشوارع والحارات . واتفق ان (سعيد باشا) الصدر الاعظم الجديد كان فى طريقه الى (المابين الهمايونى) فالتقى بموكب من تلك المواكب فهتفوا له هتاف الفرح واندفع الناس على عربته ليحلوا خيلها ويجروها هم ، فجعل يلاطفهم حتى أرجعهم عن قصدهم . وأحاط بمحله (الباب العالى) موكب من تلاميذ (مكتب الحقوق) (والمكتب الملكى) فألقى أحدهم خطابا وجه فيه الكلام الى (الصدر الاعظم) وزير الداخلية ، فوعدهم (الصدر) بإبلاغ ذلك للسلطان . وما أن انصرف هذا الموكب حتى جاء موكب من عشرين الفا أو يزيد وعلى رأسه إحدى السيدات التركيات ، وكانت كل واحدة منهن تحمل علما مكتوب عليه (الحرية ــ الإخاء ــ المساواة) . وكان كل واحد يربط ذراعه بشريطة عليها العلم العثمانى . فخرج (الصدر الاعظم) وعمال (الباب العالى) للقائهم وتبادل معهم الخطب والتهانى . وما كادوا ينصرفون حتى جاء موكب آخر من ثلاثين ألفا من التجار المسلمين والنصارى واليهود وعلى رأس هذا الموكب (سرى بك) ياوران السلطان ، فخرج الصدر للقائهم فهتفوا له هتافا عظيما جدا . يقال ولم يستطع الصدر إخماد جذوة حماستهم إلا بقسمه اليمين أنه لا يموت الدستور ما دام هو حيا وأن لا يعود الحكم المطلق أبد الدهر . وما كاد يتم يمينه هذا حتى أجهش القوم لشدة فرحهم بالبكاء بعد الضحك والسرور وأخذ كل منهم منديله يمسح دموعه .

وسار الموكبان من (الباب العالى) الى وزارة الخارجية ووزارة الحربية ومشيخة الإسلام ، فقابلهم الوزراء وشيخ الإسلام وهنأوهم ، فطلبوا منهم أن يقسموا أمام الشعب يمينا لا حنث فيه بأن الدستور لا يسلب من الأمة بعد هذا اليوم وأن كل واحد منهم يضحى حياته فى هذا السبيل ، فأذعنوا وحلف كل واحد منهم علانية بأن يحافظ بدمه وروحه حتى النفس الاخير . وألف (حزب الأحرار) بزعامة (فؤاد بك) ابن المشير (فؤاد باشا) المنفى فى (دمشق الشام) موكبا فى (بيرا) ، فطاف هذا الموكب الشوارع والناس تتكوف حوله . وكان كلما وصل الى ساحة أو ميدان وقف لسماع الخطباء والصياح الشديد بالتركية والفرنسوية (عاشت الحرية) (عاش الدستور) (عاشت الأمة) (عاش الجيش) (عاش السلطان) (فليسقط الجواسيس) (أغرقوا الوشاة) . وما زالوا على هذا من التطواف وإلقاء الخطب حتى مطلع الفجر . وانقضى يوم السبت وليلته على هذا من الأفراح والسرور ، وكان نصف هتاف المتظاهرين لضباط ومقدمى الجنود الشاهانية الذين هدموا ذلك البناء القديم ليشيدوا بناءً جديدا . وكان كلما التقى الجمهور بضابط اندفعوا اليه يقبلونه . يقال ألف الضباط تقبيل الناس لهم وتقبيلهم للناس حتى أنهم صاروا لا يفرقون بين رجل أو امرأة غريب أو قريب .

بزغ فجر الأحد فخرج الناس كلهم الى الشوارع للإحتفاء بالدستور وقد باعوا العقل والرزانة فى سبيل أفراحهم وسرورهم بذلك الدستور . فكان الشيخ المسلم والقسيس النصرانى والحاخام اليهودى يعانق بعضهم بعضا وكلهم يطوف الشوارع منشدا مغنيا صائحا هاتفا . وبعد ظهر ذلك اليوم اجتمع زهاء عشرة آلاف فى حديقة يقال لها (حديقة بتى شان) ، وأخذوا بإقامة الافراح ، وجاءت الموسيقى لتعزف حسب عادتها فى تلك الحديقة . فظلت ساعتين لا يسمح لها بغير العزف بالنشيد الوطنى فكلما انتهت استعادوها ، ثم أنزلوها من الكشك ووقف الخطباء يخطبون فألقوا نحو مائة خطاب وكلها بالتركية والفرنسية ، ولم يسمح لباعة الأعلام ان يكتبوا على الأعلام بغير هاتين اللغتين لاعتقاد القوم بأن فرنسا منبع الحرية . وما عزفت الموسيقى فى مكان بغير النشيد الوطنى والنشيد الفرنسوى . وبعد ظهر الأحد ذهب مائة ألف نفس الى ميدان وزارة الحرب ووقف الخطباء يدعون للجيش وجماعة الضباط . وقالوا للمجتمعين كونوا مع الجيش يدا

واحدة ، ثم اتفقوا على أن يرفعوا الى السلطان عريضة يحتجون فيها كل الإحتجاج ضد الذين يتهمون الجيش بالخروج وشق عصا طاعته ويؤكدون له أن الجيش والأمة جسد واحد مخلص لسلطانه ، وسيروا بها على جناح البرق . قالوا فما هى أن وصلته حتى برز الأمر بالإجابة عليها سريعا بان الحضرة الشاهانية راضية كل الرضى عن إظهار هذا الشعور الوطنى الشريف والإخلاص لسدتها وهى تهديكم تحيتها الشاهانية وأقصى أمانيها ان ترى شعبها ناجحا ناميا ولهذا السبب أمر جلالته بإنفاذ الدستور وجمع (مجلس المبعوثان) حالا . فلما تلى الجواب ضج الحاضرون بالدعاء .

وتحول هذا الجمع الكثير الى قصر السلطان وجعلوا يهتفون هتافا عاليا وصاحوا ليخرج الينا سلطاننا لنراه وألحوا فى ذلك فلم يخرج ، وأرسل اليهم من يحييهم باسمه حاجبه الأول (نورى باشا) (والمشير شوكت باشا) والفريق (أحمد باشا) ، فلم يقنع القوم وظلوا يلحون ويصيحون فكتب إليهم رسالة حملها (المشير عبد الله) يقول لهم فيها

(لقد أنطت بدولة (المشير عبد الله باشا) ياورانى الأكرم أن يهديكم تحيتى ورضاى الشاهانى ، وأنا أؤكد لكم أنى مرتاح كل الإرتياح وشاكر لكم كل الشكر إخلاصكم لسدتى الملوكانية . وأقصى أمانى ان تعيشوا بكل وئام وراحة ، ووصيتى إليكم أن تعودوا بكل سكون الى أعمالكم . فهتفوا بالدعاء وانصرفوا .

ومن أعظم هذه المواكب وأجلها قدرا الموكب الذى ألفه اعيان المسلمين وكبارهم وساروا به على أحسن نظام وأجمل ترتيب الى (بطريكية الفنار) وطلبوا أن يروا البطريرك (يواكيم الثالث) فجاءهم مع كبار ديوانه إلى فناء الدار . فقابلوه بالهتاف الشديد وتقدم أحد الأشراف ووجه اليه الخطاب الآتى

إن غبطتكم شهود على الفرح والسرور المتوليين على قلب الأمة منذ ثلاثة ايام ، فنحن قد أتينا لنعرب عن فرحنا وسرورنا لرئيس أختنا الطائفة اليونانية . فمن الآن وصاعدا لا نؤلف إلا من أمة واحدة وطائفة واحدة لأن لنا وطنا واحدا يجب علينا ان نشتغل كلنا جميعا لصيانته ورفعة شأنه بتمام الإتفاق والوئام . فأجابهم البطريرك شاكرا معربا عن أمله بنيل هذه الأمنية . وبعد ذلك تقدم الوفد من البطريرك ولثم يده فعانق البطريرك ورجال ديوانه أفراد الوفد واحدا واحدا وهو حادث لم يذكر له مثيل فى تاريخ أمة من الأمم وفى تاريخ العثمانيين .

وأصبح يوم الاثنين وقد اجتمع تلاميذ المكاتب الطبية العسكرية وتلاميذ المكتب الملكى وساروا فى وسط المدينة وبأيديهم الأعلام مكتوب عليها بالإفرنسية (العلم أبو الحرية) (الحرية ــ الأخاء ــ المساواة) . وكان على رأس هذا الموكب ضابط من مقدمى الجند وقد كان حكم عليه بالسجن المؤبد ثم شمله عفو السلطان . وظل الموكب سائرا حتى القصر السلطانى ، وهتفوا له بالدعاء ثم عادوا وتفرقوا . فكان هذا الموكب آخر المواكب وخاتمها .

أقول وقع كل هذا فرحا بحصول القوم على نعمة الدستور وسقوط دولة الإستبداد التى عاشت تحت أثقالها الأمة العثمانية على اختلاف مذاهبها اجيالا طوالا . تولى (السلطان عبد الحميد) السلطة والأمور على أشدها من الخلل وارتباك وانقسام الأمة على ذاتها أحزابا بعضها (للسلطان عبد العزيز) المقتول وأسرته ، وبعضها الى (السلطان مراد) المخلوع ، وبعضها الى (السلطان عبد الحميد) وقد تولاها غاصبا مكروها . فكان لذلك كثير الخوف شديد الطيرة متحجبا له أحوال خاصة به تخرجه مع الذهول والغفلة عن قصده وتعرج به عن كل عمل محمود . واشتد بغضه للناس ومناهضته للكبراء والأمراء ومنازعته إخوته وأخواته وأبناء عمومته حتى استعبدهم بالقهر والمذلة وسامهم الخسف . ومال على الرعية وجار وأخذ بالشبهات وأزكى العيون والجواسيس لكشف عورات الناس . وماجت دولته بسماسرة السوء والبغى فضج الناس وضجروا ، وهاجر جماعة كبيرة الى ديار الفرنجة من الكتاب وأصحاب الرأى فرارا من بطشه وجبروته ، وألفوا فيها الجمعيات وأنشأوا المنتديات وكاتبوا أصحاب الصحف بما يعلمونه من أحوال السلطنة وبيان ما تقاسيه الرعية من الظلم والحيف الثقيل ، وحضوا الأمة على الخروج وشق عصا الطاعة طلبا للعدالة والدستور وسموا أنفسهم (بالناشئة التركية) (وتركيا الفتاة) . وأنشأوا لهم صحفا بأسماء مختلفة وملأوها بذكر مثالب السلطان ومعائب بطانته ومساوئ رجال دولته والمقربين اليه ، وظلوا على هذا حولا طويلا وعصا التهديد تلحقهم أينما صاروا وحيثما ساروا . فكانوا إذا نزلوا على ديار الفرنسيس جاءهم الفدائيون تباعا ليفتكوا بمن قدروا عليه ، وإذا رحلوا عنها إلى ديار الإنجليز تبعوهم ليذيقوهم وبال أمرهم . وإذا جاؤا إلى مصر البلد الأمين أزكوا عليهم العيون وقعدوا لهم بالمراصد ، وربما قبضوا على بعضهم وأرجعوهم قهرا إلى دار السلطنة فيموتون خنقا أو تغريقا . ومع هذا كله لم يتحولوا عن

بدعتهم ولم يقصروا فى الدعوة الى خلع نير ذلك الإستبداد وقطع شأفة أعوان السوء . ثم اتخذوا (مونستير) (وسلانيك) دارا لدعوتهم والتصقوا بمن بها من مقدمى العسكر . وجعلوا يبثون الدعوه بينهم بطلب الدستور والخروج عن طاعة أولى الامر . فنمت دعوتهم وأفلحت فلاحا عظيما لما كان عليه القوم من القهر والذل المقيم . وظلوا على شأنهم ثلاثة وثلاثين عاما قالوا هى سنى ملك (السلطان عبد الحميد) تفانت فيها النفوس وزهقت فيها الأرواح . يقال ــ كانوا كلما هموا بالعمل ورأوا أن ثمرته لم تنضج بعد وأن وقتهم لم يحن يسكتون وقتا ما ويطأطئون الرؤوس ويتربصون الوثبة . وكان السلطان ورجال دولته كلما بدت لهم بارقة من التهديد استكانوا وانكفوا عن المناداة[٥٦] الظاهرة وأعرضوا عن إعداد العدة وبث العيون ليقال أنهم سكتوا ، فلا تصوب اليهم أنظار أولئك القوم ولكنهم يحاربونهم حربا خفية ، فيدسون لهم ويبذرون بذور الفرقة بينهم ويتتبعونهم أينما صاروا . ومع هذا كله فقد كانت أعمالهم فى الأربع سنين الأخيرة فى (سلانيك) (قوصوه) (ومونستير) عظيمة ناجحة ونشاطهم كبيرا أوقع الذعر فى (المابين الهمايونى) وأخاف السلطان كثيرا . فبرز أمره الى (ناظم بك) مقدم جند ذلك الموقع بتعقبهم وكشف ما بقى خافيا من سرهم . فبث حولهم طوائف الجواسيس وشدد فى كبس مكامنهم فلم يتمكن من شىء . واتفق أن سافر (ناظم بك) الى دار السلطنة على عادته . فبينما هو فى طريقه أصابه طلق نارى فجرحه جرحا خطيرا . ووسل[٥٧] الى دار السلطنة وعلم السلطان بما أصابه فأمر بقيام جماعة من كبار الجواسيس الى (سلانيك) . قالوا وبينهم (صادق باشا) (وماهر باشا) (ويوسف باشا) ولاحقوا القوم وتتبعوهم واشتدوا عليهم شدة بالغة وكتبوا قائمة بالمرتاب بهم من أعيان البلاد وأصحاب البيوتات الكبيرة ، وأخرى باسماء الكثيرين من ضباط الجند ومقدمى العسكر ، فبرز أمر السلطان بنفى جماعة وإلقاء جماعة فى الحبوس . فكانت شدة بالغة جدا لم يسبق معها للقوم صبر وكانوا يسمون أيام هذه الشدة بأيام الرعب والهول الجسيم .

---

(٥٦) المناداة = المعاداة قراءة ترجيحية .

(٥٧) ووسل = ووصل الخبر قراءة اجتهادية .

ولما تحقق القوم أن فتنتهم صارت ممهدة الأسباب وأن الهرج وشق عصا الطاعة دب دبيبه فى منازل جند (مونستير) أو كاد ، وقد نصرهم جماعة من يهود (سلانيك) هم أصحاب (الجمعية الصهيونية) وأمدوهم بالأموال بشروط وتعهدات خفية ، جعلوا يتحينون الفرصة ويتوقعون ساعة الوثبة . ثم نادى مناديهم فجاء الى (رسته) ضابط من الملتفين حولهم اسمه (صلاح الدين بك) وآخر اسمه (نيازى بك) وجعلوا ينظمون جندرمة وطنية . فما هما أن أتما نظمها حتى قدم إلى (سلانيك) بيكباشى اسمه (أنور بك) وانضم الى صفوف تلك الجندرمة . فظهرت عند ذلك الحركه وبدت دلائل الوثبة ، وقتول[٥٨] أحد كبار الجواسيس والمفتش العسكرى المدعو (مصطفى افندى) ، قتل على عتبة داره فى رابعة النهار بمرأى من الكافة . ومع ذلك لم يشهد أحد على القاتل ولم يقر أحد باسمه .

واشتد الهرج وعظم أمره وازداد جماعة الأحرار همة وإقداما . وباتت تلك الجندرمة وأصبحت وهى قوة عظيمة لا يستهان بها وحسب لها رجال الدولة حسابا كبيرا . وبرز الأمر إلى (شمسى باشا) مقدم جند موقع (ميترو فيزه) بالزحف على تلك الجندرمة وسحقها . فوصل الى (مونستير) بعسكره واحتل على الفور مكتب التلغراف وجعل يخابر الباب العالى فيما هم فيه . وبينما هو خارج انقض عليه جماعة وقتلوه . وجاء الصائح الى الضباط الذين معه فنادوا فى العسكر بالزحف على رجال الجندرمة وسحقهم . فامتنع العسكر وانضموا من فورهم الى صفوف الجندرمة وتفرقوا يطاردون جماعة الجواسيس فقتلوا منهم خلقا كثيرا . وأصبحوا وهم أصحاب الكلمة المسموعة والرأى المتبوع . وفرح الناس بما جرى فرحا عظيما وزال عنهم ما كانوا عليه من الخوف المقيم وباتوا يأملون حلول الفرج القريب ويقولون أن ساعة الانتقام قد دنت .

ولما تأدى خبر ما جرى الى السلطان تولاه الغضب وكبر عليه الأمر ورسم بتسيير خمسين ألفا من جند (الأناضول) لقطع شأفة الخوارج . فجاء الى (سلانيك) منهم ثلاثة طوابير كاملى العدة . فما هم أن وطأت اقدامهم أرضها حتى انضموا إلى إخوانهم وأدوا الطاعة الى (نيازى بك) صاحب جند الجندرمة . وكان الناس لا يظنون أن جند

(٥٨) وقتول = وقتلوا قراءة اجتهادية .

(الأناضول) ينضمون الى أهل الثورة ، وتحققوا من تلك الساعة أن (جمعية الإتحاد) أصبحت مهيبة مخيفة وبثت نفوذها ودعوتها فى سائر أقسام الجيش . واشتد ظهر (نيازى) واتسعت سلطته فجعل يتتبع جماعة الجواسيس وأعمل فيهم القتل والتفريق جهادا وقبض على (عثمان باشا) المندوب السامى فى (مونستير) وقيل خطفه واعتقله . ولما تم لهم ما دبروه قام (أنور ونيازى) وأرسلا الى (المابين) إنذار الجيوش العثمانية للسلطان بطلب الدستور وتأليف المجلس النيابى . وقالوا أنهم جميعا على قدم الإستعداد لإعطاء الأمة حقها وإيقاف كل معارض عند حده . وعلم السلطان بخطورة الأنباء وما يكون من ورائها فتولاه الذعر وأخذ منه الخوف مأخذه وسير فى الحال فى طلب (فريد باشا) الصدر الأعظم وسأله رأيه على انفراد . فقال الرأى عندى ان نقوم لحرب (البلغار) فنخلص من هذه الفتنة وتتحول الأنظار الى تلك الحرب . أقول وكانت الدول الكبرى قد اجتمعت على فض ما هو قائم من النزاع بين الدولة (وولاية البلغار) بسبب أمورها الاقتصادية والعمرانية . فوقعت المشادة بين (الباب العالى) والدول ، وأظهر السلطان استعداده لرد (البلغار) الى حدها . قيل ورأى اصحاب[٥٩] السياسة الإنجليزية أن يلوى السلطان عن قصده ويعرج به عن أغراضه . فعمل على استنهاض جماعة الاحرار وكبار (جمعية الاتحاد) إلى الخروج فى هذه الآونة المناسبة ، وأن ينتهزوا هذه الفرصة السانحة فقاموا قومتهم هذه فكان فوزهم مضمون العاقبة .

لم يعجب السلطان ما قاله (الصدر الاعظم) من إعلان الحرب على (البلغار) لتخلص الدولة من أخطار هذه الفتنة . فرسم بجمع مجلس الزكلا[٦٠] ليلا وتناجوا فى الأمر طويلا ، ثم برز الامر بتعيين (سعيد باشا) مستشارا للسلطنة وأن ترفع اليه جميع قرارات الوزراء لينظر فيها . وبينما هم على هذا إذ جاء الخبر إلى (الباب العالى) من امبراطور الألمان على جناح البرق بأنه قد اهدى الى (فريد باشا) الصدر الأعظم (نيشان النسر الاحمر) . فما تأدى خبر ذلك إلى السلطان تأفف[٦١] واشتد غيظه وبرز امره فى الحال بخلعه من المنصب وتولية (سعيد باشا) بدلا منه ، وجمع اليه أعضاء المجلس وجعلوا يتناجون فى

(٥٩) اصحاب = صاحب قراءة ترجيحية .

(٦٠) الزكلا = الوكلاء قراءة ترجيحية ـ ومجلس الوكلاء فى الدولة العثمانية فى ذلك الوقت كان هو مجلس الوزراء فى الدول الأخرى ، وهو أحد المستحدثات التى ادخلها السلطان محمود الثانى (١٨٠٨ ـ ١٨٣٩) على نظم الحكم والإدارة فى السلطنة فى عهده . عن مجلس الوكلاء انظر
ـ القسم الثانى من الجزء الخامس من (الكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث) تأليف ميخائيل بك شاروبيم وتحقيق عبد الوهاب بكر ـ ص٥٣٩ ـ حاشية ٤٥٠ .

(٦١) تأفف = حتى تأفف ـ قراءة لغوية .

أمر الفتنة . وطال الأخذ والرد بينهم واشتدت المجادلة حتى جاهر بعضهم بوجوب منح الدستور للأمة واتقاء خطر الفتنة . قيل فامتقع لون السلطان وجعل يفرك يديه . وسير للحال فى طلب (الشيخ ابى الهدى الصيادى) إمامه وكان مريضا ، فجاؤا به محمولا على تخت . فسأله السلطان عن رأيه فى طلب لازب لسلامة الدولة وحفظ كرامة العرش فوافق اثنان من الوزراء على قوله ، ومع ذلك لم يستقر لهم رأى فى تلك الليلة حتى أصبح الخميس .

ولما كان مساء الخميس عادوا فاجتمعوا . وفيما هم على هذا إذ جاءهم الخبر بأن القوم أعلنوا الدستور فى (مونستير) وأن المواكب تطوف أنحاء البلد وأن الامور قد تحرجت فى سائر انحاء السلطنة ، فقر قرارهم حينئذ على المبادرة بإعلان(٦٢) الدستور ، فبرز الأمر

(٦٢) عندما اعلن السلطان (عبد الحميد) المشروطية (الدستور) فى ١٨٧٦/١٢/٢٣ استبشر دعاة الإصلاح خيرا وعدوا ذلك بادرة عهد جديد . لكن (عبد الحميد) عاد وعلق الدستور وحل البرلمان فى ١٨٧٨/٢/١٣ وبدأ عهد جديدا من الحكم الفردى استمر قرابة ٣٠ عاما . أوجد هذا المسلك من (عبد الحميد) رد فعل من جانب المثقفين الذين درسوا بالخارج وتعلموا الفكر الغربى واستوعبوا مبادئ الديموقراطية والحرية ، فنشأت التنظيمات السرية بأشكالها المتعددة وتعاونت مع القوى الأوروبية التى ساهمت فى تعاظم المعارضة التركية خارج الدولة ، وبدأت أسماء حركات (تركيا الفتاة) و (الإتحاد والترقى) تظهر الى الوجود . نجحت هذه التنظيمات فى استقطاب قوى عديدة كان أهمها الضباط الشبان فى الجيش العثمانى فى البلقان . بمضى الوقت وتزايد مساوئ (عبد الحميد) الذى امعن فى سياسته الفردية القمعية بدأ الكثيرون من رجاله ينفضون من حوله ، وكان خير مثال على ذلك (الداماد محمود جلال الدين باشا) زوج اخته (سنيحة سلطانة) وولديه (البرنس صباح الدين والبرنس لطف الله) . فى المرحلة الأخيرة من الثورة ضد (عبد الحميد) ظهرت أسماء (طلعت) كاتب البريد فى (أدرنه) (وأنور) و (نيازى) فى (سالونيك) .

كانت ثورة ١٩٠٨ الحلقة الأخيرة من سلسلة من الانتفاضات الصغيرة التى كانت قد بدأت منذ ١٩٠٧ نتيجة لأسباب مالية اكثر منها فكرية (سوء المحصول فى الأناضول ــ نقص موارد الدولة من الضرائب ــ تأخر صرف المرتبات نتيجة لنقص موارد الدولة ــ تعليق الترقيات ــ هجر الموظفين لوظائفهم) . فى مقدونيا كان الجيش يتعرض للمصاعب الناجمة عن اضطرابات الأرهابيين المسيحيين المدعومين بالكنائس اليونانية . بدأ اعضاء (جمعية الاتحاد والترقى) فى (سالونيكا) يحاولون استخدام الوضع فى (مقدونيا) لإبلاغ (القوى) بوجودهم وقدرتهم على اعادة الهدوء فى (مقدونيا) اذا اعطيت لهم الصلاحيات (مايو ١٩٠٨) ، وابلغوا (القوى) بأن دعوة البرلمان المعلق قد تحل المشكلة . لم تستجب القوى لهذا العرض وبدأ العدد التنازلى للثورة .

ارسل (عبد الحميد) عملاء له الى (مقدونيا) للتحرى لكنهم تعرضوا للإغتيال (١١ يونيو ١٩٠٨) . ثم ارسل قومسيونا كاملا للتحقيق ، ظاهريا للتفتيش على الجيش الثالث وجهوده ضد ثوار مقدونيا وفعليا لكشف قادة الثوار فى الجيش . عندما انكشفت خلية (جمعية الاتحاد والترقى) التى يرأسها (الأدجونانت ماجور أحمد نيازى بك) هرب الى الجبال (٣ يوليو ١٩٠٨) وبدأ نوعا من مقاومة العصابات ضد السلطات المحلية فى (موناستير) ، وأمر الأهالى بدفع الضرائب له بدلا من الحكومة حتى يعود الدستور . حذا حذو (نيازى) ضباط صغار آخرون ومنهم (انور بك) . لم تنجح محاولات السلطان فى القبض على الثوار (٧ يوليو ١٩٠٨) . انضمت القوات المرسلة من الأناضول لقمع الثوار فى (مقدونيا) إلى ثوار الجيش بينما قتل عملاء السلطان (عبد الحميد) . قامت اضطرابات مدنية وعسكرية مشتركة فى (موناستير) (فيرزوفيك) (سيريز) و (اسكوب) تطالب بالدستورونظمت اجتماعات لهذا المطلب ايضا (٢٠ ــ ٢٣ يوليو) . لكى ينقذ (عبد الحميد) نظامه ، فإنه أعلن فى ١٩٠٨/٧/٢٣ أنه كان قد علق الدستور من أجل الإصلاحات ، وأنه الآن يعيده . لكن هذا كان يعنى فى الواقع انتصار ثوار (جمعية الاتحاد والترقى) ونهاية عهد (عبد الحميد)

-Stan ford shaw (History of the ottoman Empire and Modern Turkey) Vol. II - cambridge University Press - 1977 - PP.,263 - 267

بإعلانه وبانتخاب مجلس النواب وإلى جميع الولايات بأن لا ترسل اعمالها من الآن إلا الى (ديوان الصدارة) لا الى (المابين) كما كان الحال من قبل إعلان الدستور . وطيروا الخبر بذلك الى الآفاق ، فكان ما كان من مظاهر الأفراح ومواكب السرور على ما تقدم بك بيانه . وأصبحوا وقد اجتمع جماعة من مقدمى الجند وكبار العسكر وأعيان الأهلين فى ميدان وزارة الحربية وألقى بعضهم الخطب يطلبون خلع وزير البحر ومعاقبة عمال هاته الوزارة . فقابلهم (الصدر الأعظم سعيد باشا) ولاطفهم وأعلمهم بأن القانون الأساسى يمنع محاكمتهم دون التحقيق معهم وأن امر ذلك سيكون من شأن مجلس النواب فانفض جمعهم . وأصبحوا وقد برز أمر السلطان بخلع (رامى باشا) الوزير المذكور وتولية (خليل باشا) الأميرال بدلا منه .

وكان السلطان قد وعد عند صدور أمره بإعلان الدستور أن يطلق سراح المسجونين السياسيين فلم يطلقوهم حتى صبح سابع عشرى الشهر . فذهب موكب حافل إلى (الباب العالى) يطلب إطلاق سراحهم فقيل لهم أن ذلك لا يتم إلا بعد معرفة أشخاصهم والتفريق بينهم وبين المسجونين الآخرين . على أن آراء رجال السلطنة تضاربت فى من يجب إطلاق سراحهم . يقال وكان أكثر الوزراء يرون أن العفو لا يشمل سوى جماعة الأحرار ولكن المقامات الأخرى كانت ترى أنه يشمل الجميع حتى الفارين الى الديار الأجنبية . وما زال اصحاب هذا الرأى دائبين حتى تغلبوا وتم الاتفاق على ذلك . وجاء الخبر من (ولاية مقدونيا) إلى الصدر الاعظم بأن جميع المتهمين من النصارى خرجوا من حبوسهم قبل ان تطلق الحكومة سراحهم . وخرج بعد ظهر ذلك اليوم الجمع الكثير من العامه والسوقة ونفر من التجار ووقفوا امام سراى السلطان يصيحون وينادون بخلع رجال (المابين) وبعض رجال القصر . وظلوا على هذا ساعة ثم أحاطوا بمنزل (عزت باشا العابد) وجعلوا ينادون بالويل والثبور وعظايم الامور . فبرز اليهم (الصدر الاعظم) (وتحسين باشا) ولاطفهم كثيرا ، وما زال بهم حتى استكن هياجهم . فساروا الى سراى وزارة الحرب وحاولوا كسر الأبواب وتحطيم المنافذ والقضاء على (اسماعيل باشا) مفتش المدرسة الحربية لشهرته بالجاسوسية ، ثم الى إدارات الصحف المعتدلة ونادوا بسقوطها .

وعلى اثر ذلك برز أمر السلطان بانتخاب النواب عن (الآستانه) لعل السكينة تعود الى نصابها . وجاء فى الأمر أن السلطان مرتاح كل الارتياح إلى مظاهرة الشعب وأنه لا يسمح بأن يمس الدستور بل يحافظ على إنفاذه بكل دقة . أقول وكان لما اجتمع المتمردون من جند (موقع الأناضول) وبعض مقدمى العسكر والأحرار والأهالى فى (قوصوة) وأقسموا الأيمان المغلظة أنهم لا يلقون السلاح حتى ينالوا الدستور ، وجاء الخبر بذلك الى السلطان ، سير فى طلب (شيخ الإسلام) وطلب منه أن يفتى باعتبارهم متمردين خارجين عن طاعة سلطانهم . فأجاب أنهم ليسوا كذلك حسب الشريعة الغراء لأن ما يطلبونه يقضى به الشرع الشريف والدين الحنيف .

فصل

فيما كان من وراء اعلان الدستور

فى دار السلطنة والقاهرة

لم تقف مظارهات[٦٣] القوم عند حد فى سائر أنحاء السلطنة ، ولم تبطل مواكب المتظاهرين أياما اخرى رغما من سعى أهل الحل والعقد وراء ذلك . فقد جرت مظاهرة أخرى خيف جدا من عواقبها . ذلك أن ضباط الصف من جند البحرية وعددهم مئات قصدوا (الباب العالى) ونادوا بأصوات (نريد صرف جماكينا ومرتباتنا المتأخرة ، نريد صرفها الساعة) ، ثم نادوا نريد (الصدر الاعظم نريد لقائه) . فذعر عمال (الباب العالى) وأجفل الموظفون وخاف أهل المناصب وأقفلوا الابواب كلها وأعدوا معدات الحصار فى ديوانهم . ولكن (الصدر الأعظم) خرج إليهم ولاطفهم ووعدهم خيرا فاستحلفوه فحلف . فقفلوا راجعين راضين بوعده . وجاء الخبر إلى الصدر الأعظم بعزم خمسين ألفا من الأهالى على اختلاف طبقاتهم على المظاهرة بطلب خلع سائر عمال المابين ورجال السراى السلطانية . فسير (الصدر) إلى كبارهم يسألهم الكف عن المظاهرات والرجوع الى السكينة وهو يكفل لهم قضاء كل ما يطلبوه .

وأصبحوا وقد نشرت (جمعية الإتحاد) إعلانا تقول فيه (الحمد لله لقد جمعت الجمعية تحت لوائها جميع أبناء الوطن الذين أحبوها لأنها فكت القيود عنهم ، فمن الآن فصاعدا صرنا نحن كلنا أحرارا وسعداء مسرورين ، ولكن لا ترى الجمعية بدا من أن

(٦٣) مظارهات = مظاهرات ـ قراءة ترجيحية .

توجه اليكم النصائح الآتية : كونوا نزهاء معتدلين وحافظوا على النظام ولا تقوموا بمظاهرات مقلقة تفضى الى الإضطراب ، فلا يجب أن يمد أحد يده إلى مال سواه أو شرفه أو حياته بل يجب علينا ان يحترم بعضنا بعضا ولا سيما ما يختص بالشرف والمال والعرض والحياة .

ولنحم أموال الاجانب الذين يعيشون بيننا وكرامتهم وشرفهم ، ولا نشتغل إلا لخلاص الوطن . ولنتخذ لنا فى التاريخ إسما مجيدا وذكرا حميدا ولا تغفلوا أبدا عن الوقوف على منشورات الجمعية وتعليقاتها التى تنشر على طرق خصوصية وتبين فيها كيفية العمل . والذين يعملون عكس تعليمات الجمعية يتحملون مسئولية عملهم . ولا نستطيع أن نحفظ حسن سمعتنا إلا إذا مكثنا نزهاء ووطنيين صادقين . هذا ما ينتظره الوطن منكم . ا . هـ بنصه .

قالوا فما هى إلا عشية أو ضحاها حتى عادت السكينة إلى نصابها وانكف الناس عن المظاهرات . وعاد كل ذى حرفة وصناعة الى عمله وتمكن كبار الأحرار من مزاولة مهمتهم مع أهل المناصب وأصحاب الخطط .

وعندى ـ أن القوم لم يصلوا الى النهاية وما هم إلا فى البداية . فإنه وإن كان السلطان قد أبدى لأصحاب هذه الطفرة وجه الإستحسان ، ولكنه قد أسرها فى نفسه وجعل منذ ذلك اليوم يدبر الأمور على ما فيه النكبة بهم وثل عرشهم . وما هى إلا أيام حتى خلع جماعة الوزراء وظهر فى الآستانة حزب باسم (حزب المحافظين) ليقاوم (حزب الأحرار) أصحاب طلب الدستور . وكان (رضا باشا) وزير المالية من أعضائه وقد خلع نفسه من منصبه بكتاب الى السلطان يقول فيه (إنى لا أوافق على أن تحكم بلاد الدولة بما يسمونه (الدستور) . ونشر كتابه هذا فى أكبر صحف (الآستانة) . فكان لنشره وقع شديد فى نفوس الترك . واهتم جماعة الأحرار بأمره اهتماما كبيرا وسيروا كتبهم على جناح البرق الى لجانهم الفرعية فى أنحاء البلاد وإلى القاهرة بالشخوص الى دار السلطنة ليتفقوا على ما يجب الإتفاق عليه بينهم . واشتدوا فى مراقبة خصومهم وأزكوا عليهم العيون . وعلموا بأن (عزت باشا العابد) أعد باخرة انجليزية لهروبه من دار السلطنة وأن تلك الباخرة راسية عند (البوسفور) ، فأرسلوا الى (الدردنيل) أمرا بإيقافها وأنزلوا الى البحر ثلثمائة زورق فأحاطوا بالباخرة إحاطة السوار بالمعصم وأوقفوها وطلبوا من ربانها أن يسلم

(عزت باشا) . واحتشد العامة على الشاطئ والتم حولهم الحمالون والمكارية وجعلوا ينادون بالويل والثبور وعظائم الامور ويكثرون من الشتم والسب والقول الهراء . فسير الربان بخبر ما جرى الى السفارة الإنجليزية وهى كتبت بواقعة الحال إلى صاحب سياستهم . ولبثت الباخرة حتى جاء الأمر من صاحب السياسة الإنجليزية بإقلاع الباخرة الى حيث تريد تحمل (عزت باشا) . فقامت الباخرة وسارت تمخر فى عرض البحر ولم ينل الأحرار من الرجل منالا ، وانفضت الزوارق والجند من حولها . وسير أصحاب (جمعية الإتحاد والترقى) الى سائر الموانئ العثمانية وغيرها رسلا للقبض على (عزت العابد) وجعلوا جائزة عشرة آلاف ذهبا لمن يقبض عليه أو يقتله .

سقطت (وزارة سعيد باشا) لأنها لم ترض جماعة الأحرار ولم تنلهم قصدا من عزل سائر المأمورين وأهل المناصب وأصحاب الخطط ، ولم تقض على أهل الجاسوسية ومأمورى الخفية الذين كان معتمد السلطان عليهم ، وطلبوا تعيين (كامل باشا) بدله ، فبرز أمر السلطان بولايته . ثم عادوا يرشحون للصدارة (حسين حلمى باشا) مفتش أقاليم مقدونية لينيلهم ما يطلبوه من القضاء على العنصر القديم جملة . وعندى أنه ستسقط وتقوم وزارات عديدة قبل أن يجتمع مجلس الأعيان عملا بسنة الإنقلاب وتبدل الأحوال وضرورة وضع المشاريع الإصلاحية وتنظيم الميزانية وتعديل القانون الأساسى وغير ذلك مما يرجع الى المجلس للتصديق عليه .

ورأى أحرار اقباط مصر أن يجاملوا أحرار إخوانهم أحرار العثمانيين ، فأقاموا فى ليلة سابع أغسطس من السنة حفلة فى ملعب عباس فرحا بإعلان الدستور ، فغص المكان على سعته بالمدعوين من روم وعرب وبينهم كثير من تلاميذ المدارس . فقام (أخنوخ أفندى ميخائيل) المحامي وخطب فى القوم متكلما عن الحرية وكيف وجدت مع وجود الأحياء على الأرض وكيف سلبها أصحاب السلطة من الشعوب . ثم انتقل الى الكلام عن الأمم التى تستحق الحرية والدستور والى غير ذلك من المواضيع الاخرى ، ووجوب التأسى فى الأعمال الخطيرة بالأمم الراقية . ثم قام بعده (حافظ افندى عوض) فألقى كلاما طيبا فى الوطنية قابله القوم بالاستحسان ، ثم قام بعده (سعاد بك) ثم آخر اسمه (أحمد بك أمين الطيب) وألقى كلاما طويلا فى معايب المصريين وقال أنهم لا يعرفون التسامح ويتمسكون بالفروقات الدينية . وتمنى لهم ان يكون لهم ما كان للأحرار

العثمانيين الذين لجأ بعضهم الى مصر ، فكان المصريين يدعونهم خونة وخوارج . وقام غيره وتلا خطابا (لجلال الدين بك عارف) شكر فيه المصريين باسم العثمانيين الذين لقوا أحسن ضيافه هنا ، ثم تمنى لمصر زوال الفرقة من بينهم كما وقع للعثمانيين . ثم وقف (صاحب المقطم) وتكلم فى معنى الحرية فى ديار الترك وما تلاها من العسف والحيف الثقيل . وأراد ان يتكلم عن (جريدة المقطم) فصاح بعضهم (فليسقط المقطم) وصاح الأكثرون (فليسقط اللواء) . فسكت الخطيب ولم يعد الى الكلام . وعلت الضوضاء فقام آخر وتلى برقية من (أحمد بك زكى) كاتب مجلس الوزراء يتمنى فيها للمصريين نوال ما ناله جماعة الأحرار . ثم ارفض الجمع وعاد كل ادراجه . فلما شاع خبر هذا الاجتماع لم يعجب اصحاب (الحزب الوطنى) وأهاج غيرة (محمد بك فريد) مقدم الحزب فأعلن فى صحفهم أنه سيلقى خطبه سياسية هامة فى (مرسح عباس) . فأقام تلاميذ المدارس ينتظرون سماعه أياما وكأنه قد تشاغل عن إلقاء خطابه ذلك بمجريات الأحوال بعد اعلان الدستور أو أشغلته أخبار دار السلطنه وما يفعله جماعة الأحرار فى كل يوم ، فقد جاء أنهم جعلوا يعقدون جلسات سرية فى دار ندوتهم التى اتخذوها فى (الآستانة) . ورغما من عناية أصحاب الحل والعقد بمعرفة رؤساء الجمعية فلم يتمكنوا من ذلك . قالوا ولكثرة اعمالها واتساع نطاق حركاتها ورقابتها على دواوين الدولة وسائر مصالحها قد استقدمت كثيرين من رجالها فى (سلانيك) ، فجاء من كبارهم الميرالاى (جمال بك) (وجاويد بك) (وحلمى بك) (وحسين بك) وكلهم من أركان الجمعية . فلما وصلوا (الآستانة) قابلهم الجمع الكثير وهتفوا لهم هتافا عاليا وألقيت الخطب فى حضرتهم . ثم ذهبوا الى ديوان الصدارة ولبثوا فى حضرة (الصدر الأعظم) ساعة حادثوه فيها بما هم عليه وعن حالة (مقدونية) . وبعد أيام قلايل جاء من (سلانيك) جماعة آخرين من رجال الجمعية بحجة النزهة والتفرج على دار السلطنة ، فكان لخبر مجيئهم دهشة عند العقلاء وأهل المناصب وحسبوا له حسابا كبيرا .

أقول ـ وزادت الأحوال فى هذه الأيام القلايل تحرجا وظهرت كلمة الاحرار ظهورا واضحا جليا وبدأت تتصاغر الهيئة الحاكمة أمامها وتتضائل فى جميع دواوين الدولة ، فصار لا يتم عمل من الأعمال ولا يتولى موظف من الموظفين الكبار دون رضاء لجنة الأحرار التى أقيمت لهذا الغرض . وقامت المشادة بين المحافظين وجماعة الأحرار ووقع الخلاف على ما ذكروه فى الخط الهمايونى من جعل تعيين (الصدر الاعظم) (وشيخ

الإسـلام) ووزير البحـر ووزير الحـرب حـقـا من حـقـوق السلطان لا من حـقـوق (الصـدر الاعظم) . وبهـذا الشـرط قـد ظلت القـوة المـعنوية كلهـا في يد السلطان ، وظل الحكم المطلق على حاله . وقد فعل ذلك (الصدر الأعظم سعيد باشا) لأنه يبغض الأحرار ويكره مبادئهم ولذلك قاموا عليه قومة شديدة وهددوه بالويل والحرب إن هو لم يتخلى عن الصدارة ففعل ، فلم يقبل السلطان استعفاءه ولم يقبله الا بعد الإرهاب الشديد بقلب الخلافة . وجعل حزب المحافظين من ذلك الحين يدس الدسائس ويحدث الفتن ليسوء صفحة الاحرار .

وانقلب القوم إلى تهديد السلطان وإرهابه حتى تمكنوا من القبض على (تحسين باشا باشكاتب المابين) (وراغب باشا الحاجب) (وفايق بك الحاجب الثانى) وطردوهم من القصر وأوقفوهم موقف التحقيق والمحاكمة . وحاول (ممدوح باشا) وزير الداخلية الهروب إلى ديار الفرنجة على إحدى البواخر الألمانية فقبضوا عليه وأعادوه الى داره ليحاكم ، وقبضوا أيضا على (رشيد باشا) رئيس البلدية وعلى (رامى باشا) ناظر البحر وأعادوه وكانوا يتهمونهم بأشد الجنايات وأفظعها .

أقول وقد كان بعض افراد البيت العلوى ضالعا مع جماعة الأحرار ومعينا لهم على طلب الدستور وبث روح الحرية . فإذا كان اولئك القوم يفاخرون (بمدحت)[٦٤] لأنه وضع

---

(٦٤) مدحت = مدحت باشا (١٨٢٢ ــ ١٨٨٥) . سياسى وإدارى عثمانى . عمل واليا على (نيش ١٨٦٠) و (الطونة ١٨٦٤) . عاد الى استنابول بعد ثلاثة سنوات ليعمل رئيسا لشورى الدولة لمدة عام . نقل بعد ذلك الى بغداد ، لكنه اختلف مع (الصدر الأعظم نديم باشا) وترك بغداد ليعمل واليا (لأدرنه) . عين (صدرا أعظما) فى عام ١٨٧٢ لمدة شهرين ونصف . شارك فى مؤامرة لعزل (السلطان عبد العزيز) وتعيين (السلطان مراد الخامس) . لدى مرض (مراد) بالجنون عزله (مدحت باشا) وتم تعيين (عبد الحميد الثانى) . كان (مدحت) هو القائد الحقيقى للعثمانيون الجدد . مع تولى (عبد الحميد) السلطنة عين (مدحت) (صدرا أعظم) وحاز رضاء وتشجيع بريطانيا لتبنيه افكارهم وسياساتهم فى الإصلاح الداخلى التى تمثلت فى تقليص نفوذ السلطان العثمانى عن طريق اصدار الدستور (القانون الأساسى أو المشروطية) والذى صدر فى اكتوبر عام ١٨٧٦ . فشل (مدحت) فى اكتساب رضاء (عبد الحميد) عنه ، وتعرض لمؤمرات فى القصر السلطانى أدت الى ازاحته فى فبراير ١٨٧٧ ونفيه . عاد (مدحت) من المنفى فى ١٨٧٨ وعمل واليا (لسوريا) لمدة عامين (١٨٧٨ ــ ١٨٨٠) ثم واليا لأزمير (١٨٨٠ ــ ١٨٨١) . أمر (عبد الحميد) بمحاكمته فى (١٨٨١) بتهمة قتل السلطان (عبد العزيز) . أدين وحكم عليه بالسجن المؤبد ، وتوفى بعد ذلك بثلاثة سنوات فى (قلعة الطائف) خنقا .

- Stan ford J. Shaw (History Of the Ottoman Empire and Modern Turkey) - Vol. II - Cambridge University Press - 1977 - PP., 66, 180, 184, 182, 216.

ــ مذكرات السلطان عبد الحميد ــ ترجمة وتقديم وتحقيق وتعليق محمد حرب عبد الحميد ــ دار الأنصار ــ القاهرة ــ ١٩٧٨ ــ ص١٩ ــ ٣٤ .

اساس الدستور ، (وكمال)[٦٥] لأنه سنى[٦٦] بالحرية ، (ونيازى) ومن معه لأنهم قاموا ببسط الدستور ، فحرى بهم أن يجلوا (الأمير مصطفى فاضل) ابن (الأمير إبراهيم) ابن (محمد على باشا) الكبير لأنه أول من قام بطلب الدستور لعهد (السلطان عبد العزيز) ، وأنفق فى سبيله الأموال الكثيرة ، ولا يزال كتابه الذى رفعه الى السلطان معروفا ومشهورا . وقد سار ولده (محمد على فاضل) على أثره فكان من اكبر العاملين فى جمعيتهم . وكذلك يقال عن الأمير (سعيد حليم) وأخيه الأمير (محمد على حليم) فقد أنفقا على أولئك القوم بسخاء عظيم . وقد أعانهم الأمير على قصدهم قولا وعملا وأدخل فى خدمته كثيرين ممن جاؤا مصر فارين من وجه السلطان وآوى بعضهم ورتب لهم الجماكى والمرتبات . ولا يزال بعضهم حتى الساعة يرتزقون من ماله مثل (حقى بك) (ومحمود باشا) (وصباح الدين) (ولطف الله) وغيرهم كثير . فلما فاز القوم وكتب لهم النصر والغلبة على سلطانهم ورجال دولته وأهل مابينه كان الأمير فى مصيفه فى ديار الفرنجة على ما تقدم بيانه فى محله . فاختلف القوم فى أمر ذهابه الى دار السلطنة فى عامه ذلك على عادته وانقسموا فى ذلك الى قسمين ، قسم كان يرى أنه لانهماك السلطان بالشؤون الخاصة بالأمة وأحوالها الحاضرة فليس له متسع من الوقت لمقابلة الأمير وليس من اللياقة فى شىء أن يزور الأمير دار السلطنة ولا يتمثل بين يدى متبوعه ، وقسم كان يرى أن الأمير لا يزور (الآستانة) لأن جماعة الأحرار لا يحبونه ولا يميلون إلى تكريمه ويذكرون أنه ناهضهم فى مصر وأصاب منهم مقتلا فى ظروف وأحوال كثيرة (كحادثة[٦٧] المطبعة العثمانية) وغيرها . وقالوا أقاويل اخرى كثيرة تعود الى هذين الأصلين من التعليل . وظلت

(٦٥) كمال = ربما كان يقصد (نامق كمال ١٨٤٠ ــ ١٨٨٨) المعروف باسم شاعر الحرية . كاتب وشاعر . عين فى عام ١٨٦٣ فى قلم الترجمة . كتب فى جريدة (تصوير أفكار) التى كان يصدرها الكاتب التركى (إبراهيم شناسى) رائد التجديد فى الأدب التركى والإتجاه نحو الأخذ بالآداب الغربية . رأس (كمال بك) تحرير (تصوير افكار) بعد سفر (شناسى) الى أوروبا . التحق بجماعة (تركيا الفتاة) (العثمانيون الجدد) Young Ottomans . هرب مع (ضيا باشا) الى اوروبا واشترك فى ادارة جريدة (حريت) فى (لندن) عام ١٨٦٨ . عاد الى استانبول وأصدر جريدة (عبرت) . عين (متصرفا) (لغاليبولى) ثم عزل ثم عاد الى استانبول فأصدر مسرحيته (الوطن) Watan Yahut Silistria ثم ابعد الى قبرص عام ١٨٧٣ وعاد الى استانبول بعد (المشروطية الأولى) .

-Stanford J. Shaw - OP. Cit., PP., 129, 131, 154, 157, 165, 212, 251 - 254, 259.

– محمد حرب (مذكرات السلطان عبد الحميد) ــ داز الانصار ــ القاهرة ــ ١٩٧٨ ــ ص١٣٧ ــ ١٣٨ .

(٦٦) سنى = نادى قراءة اجتهادية .

(٦٧) انظر صفحة ٧٦٠ ــ حاشية ٩٧ .

الظنون تترامى إلى أبعد المرامى حتى جاء الخبر إلى القصر بعزمه على القيام من (ڤينا) عاصمة النمسا الى دار السلطنة . فلما كان خامس عشر اغسطس من السنة وصل اليها مع حاشيته وبطانته ، فقابلوه مع التجلة والتريم[٦٨] وأحسنوا لقائه كثيرا . فانتهز اصحاب (الحزب الوطنى) فرصة ذهابه ليندوا به ويقرعوه تقريعا معيبا ، فكتبوا فى إحدى الصحف الأجنبية عنه مقالا شائنا مفعما بهتر القول وفحشه حتى قالوا أنه ما زال حتى الساعة تركى عثمانى ولم يصر ولن يصير مصريا عربيا ما دامت الأرض أرضا والسماء سماءً . وسير أصحاب الحزب الى وكلاء اللواء بالأقاليم القبلية والبحرية بأن يحضوا الناس على إرسال الرسائل البرقية الى دار السلطنة يطلبون من السلطان أن يأمر الأمير بمنح المصريين أيضا نعمة الدستور وأن يشكل مجلس النواب تأسيا بمتبوعه ففعلوا . ووصلت رسائلهم تترى الى (الصدر الأعظم) فى معنى ذلك ، وتكلم أصحاب الصحف فى ذلك كثيرا وعابوه وعدوه عملا ساقطا وصفقة خاسرة ما بقى الإحتلال فى البلاد على شأنه .

وعندى أنه لو صح الأمر وجاز الطلب فمن يا ترى يضمن كيان الدستور وحياة مجلس النواب وإنفاذ قراراته والبلاد لا جيش لها ولا جند ولا سلطة لها ولا قوة ، وهل نحن فى مأمن من وفوق[٦٩] أهل الاحتلال فى وجه كل قصد وهم أصحاب الحول والطول والكلمة المتبوعة . إستبسل اصحاب الحزب وأكثروا من الصياح والجلبة والحض والتحريض وملأوا فضاء البلاد بأخبار المظاهرات وتأليف الجمعيات واقتراب ساعة العمل لبلوغ الأمل . وهم مع كل هذا ما زالوا فى دائرة ضيقة لا يتعدوها إلى يومنا هذا ، وقد استسلموا الى التعليل دون الواقع فباطل كل ما يفعلون .

أقول ـ ورغما من بسطة يد اعضاء (جمعية الإتحاد والترقى) بعد منح الدستور على سائر مرافق الدوله وامتطائهم صهوة التغلب عليها وتصريفهم احكامها طوع أغراضهم فى رجالها وجبايتها وأهل خططها وسائر نقضها وإبرامها ، فإنهم لم يقدروا على ضبط الأمن فى عاصمتها ولا رفعوا ايذاء[٧٠] عن اهلها . فقد تفشى الحريق فى دورها ومساكنها وزاد

(٦٨) والتريم = والتكريم قراءة اجتهادية .

(٦٩) وفوق = وقوف قراءة اجتهادية .

(٧٠) ايذاء = الأذى قراءة اجتهادية .

التعدى بيد أصحاب الجرائم الذين اطلق (سعيد باشا) (الصدر الأعظم) سراحهم مع المجرمين السياسيين لهذه الغاية ، فاحترق الحى المعروف عندهم بحى (نفا) ، جهة (قرين الذهب) وكان حريقه مخيفا جدا لم تر (الآستانة) له نظيرا منذ أربعين عاما ويزيد . قالوا كان مبدأ اللهيب فى منزل جاويش من جند البحر ، وكانت الريح عاصفة فامتد اللهيب وتناول منازل جميع الأحياء المجاورة ، وعجز أصحاب المطافىء عن تدارك الأمر لاتساع نطاق الحريق على مسافة أربعين الف متر مربع . وكان الماء غزيرا والمطافىء كثيرة ولكن هذا كله عجز عن ايقاف تيار النار ، وضاع رشد أصحاب المطافىء وخرج أصحاب البيوت والحوانيت على وجوههم لا يلوون على شىء حتى ذويهم وذراريهم . ودخل الليل فطيروا الخبر إلى جميع الأحياء بطلب الجند والحمالين والسقايين والزوارق والعربات لنقل الجرحى والأموات الى المستشفيات . وظلت النيران على شدتها حتى الساعة الثالثة بعد منتصف الليل . قالوا وأكلت النيران فرقة من أصحاب المطافىء المتطوعين واثنين من الذين تطوعوا لنجدة النساء والأطفال ، واحترق آخرون غيرهم كثيرين وبات ثلاثين الف بلا مأوى ، فقد بلغ ما احترق من البيوت والحوانيت ثلاثة آلاف وخمسمائة . وجاءتهم التبرعات تباعا من كل صوب وناحية فكان الخطب شديد والبلاء عميم .

وبينما الحال على هذا فى دار السلطنة والظنون تترامى إلى ما عساه ان يكون بعد انقلاب الأحوال هذه الإنقلابة الخطرة إذ أعلن اصحاب (الحزب الوطنى) أنهم ينوون تسيير موكبا حافلا فى مساء يوم الثلاثاء أول شهر سبتمبر من السنة من تحت قلعة الجبل الى مركز ادارة (جريدة اللواء) . وقالوا أن على من يريد الإشتراك بهذه المظاهرة أن ينضم الى الموكب ، فلما تفشى خبر ذلك ظهرت الحركة بين العامة وزعانف بولاق مصر وخطة الحسينية وباب الشعرية . فرفع صاحب الشرطة الأمر الى وزارة الداخلية وديوان الوزارة ، فبرز القرار بمنع القوم من المظاهرة لأن مظاهرتهم بحكم براءة (عبد العزيز جاويش) وسحب مركبته أوقع الزعانف زعر العطوف إلى ايذاء السابلة وتحطيم كراسى وأدوات بعض القهاوى وحوانيت التجار . فسير فى الحال صاحب الشرطة فى طلب شخص يقال له (ابراهيم منجد) مؤلف ذلك الموكب وطلب منه ان يمتنع عن تأليف الموكب فلم يقبل ، فطلب منه أن يكتب تعهدا بأنه مسئول عن الأمن وعما يحدث من الغوغاء فأبى فهدده بتفريق موكبه فقال أنه لن يحجم عن تأليف الموكب وليفعل أصحاب

الشرطة ما يشاءون . فلما كان صبح يوم الثلاثاء وهو اليوم المعهود برز أمر صاحب الشرطة بالقبض على كل من يجتمع للسير فى الموكب . فوقفوا لهم بالمراصد فى كل صوب وناحية وجعلوا يلتقطونهم ويرسلون بهم الى الحبوس . واشتدوا عليهم شدة بالغة فخافوا وتولاهم الذعر وتفرق من لم يقع فى قبضة الشرطة . وقام اربعة من أذناب الحزب وبينهم قبطى متهوس لا ناقة له بينهم ولا جمل ، وأرسلوا رسائل الإحتجاج الى سائر الصحف يقولون (نحتج بشدة على أعمال وكيل الحكمدار الخارقة لسياج القانون والعدالة ، فإنه قبض حتى الآن ــ يعنى حتى ساعة إرسال إحتجاجهم ــ على أربعمائة نفس تقريبا وصادرهم فى حريتهم بدعوى التشرد وزجهم فى سجن المحافظة ليمنعهم من إظهار شعورهم وإخلاصهم فى العيد السعيد ــ يعنون عيد الجلوس السلطانى ــ فنلفت انظاركم الى هؤلاء الضعفاء) ا . هـ

أقول وسير أصحاب الحزب الوطنى الكتب الى لجانهم الفرعية بالأقاليم بعمل الزينات وإقامة الأفراح والإحتفالات بعيد جلوس (السلطان عبد الحميد) وأن يبالغوا فى ذلك ما استطاعوا . فجاءت الأخبار من كل صوب وناحية باهتمام القوم بأمر هذا العيد وبالإكثار من الزينة وإقامة الحفلات وغير ذلك من المعالم ، وألقيت الخطب الكثيرة وكلها ترمى الى طلب الدستور من امير البلاد وتشكيل مجلس النواب والحض على نصرة الحزب الوطنى وتعضيده بكل وسائل الفضيلة فى السر والعلن ، حتى لقد ظن بعضهم أن ما كانوا يقولون فى زفتى أو ميت غمر كانوا يقولونه فى افراح قنا ومظاهرات رشيد كأنها صورة مطابقة للأصل .

وكأننا بالشبيبة القبطية وقد استفزهم القوم الى خرق حجاب الهيبة وما ألفوه منذ القدم من المسالمة والإبتعاد عن الهرج وكل ما هو مفض الى الشكوك والإسترابة ، فأجمعوا كلمتهم على انشاء حزب لهم باسم (الحزب المصرى)[٧١] . قالوا قد دعت الى

---

(٧١) ظهرت فكرة هذا الحزب فى أواخر سنة ١٩٠٨ كترجمة للفكر السياسى القبطى فى العقد الأول من القرن العشرين الذى كان يموج بالأحداث المؤثرة فى مجرى العمل السياسى فى مصر . لكن هذا الفكر لم يستطع أن يتحول ــ كما يقول يونان لبيب رزق ــ الى واقع لأسباب عديدة أهمها أن منطق العصر فى ذلك الوقت كان يرفض قيام حزب طائفى ، كذلك فإن بعض الأقباط أدركو جسامة ردود الأفعال التى يمكن أن تترتب على قيام حزب بهذه الصفة ، وأن ردود الأفعال ـ وهى اسلامية ـ لن تفيد أصحاب الفكرة بصفة خاصة ، والوطن بصفة عامة .

كان ارتفاع المد الإسلامى فى الفترة ودور (الحزب الوطنى) فى هذا المد وأعمال التهييج غير المسئولة التى قام بها بعض كتاب صحف الحزب قد أثارت مخاوف الأقلية القبطية من ان تتحول مع استمرار هذا التهييج الى =

انشائه الظروف الحالية والأحوال البادية من الأحزاب الاخرى ولا سيما منها (الحزب الوطنى) وأذنابه . وحصروا أغراض حزبهم هذا الجديد فيما يلى - اعتبار مصر والسودان التابع لها قسما واحدا لا ينفصل بعضه عن بعض لكون السودان بسبب مجرى النيل فيه الى مصر أصبح جزءاً متمما لحياة مصر - استقلال مصر - إلغاء الإمتيازات الأجنبية الدولية - سعادة وفلاح سكان مصر - إعتبار كلمة مصر(٧٢) مطلقة على الأصيل والتجنس(٧٣) بالجنسية المصرية ووجوب تسهيل شروط التجنس - الوسايط والإجراءات اللازمة للوصول إلى هذه الاغراض - الإجتهاد فى إيجاد صداقة وإخلاص حقيقى بين مصر وديار الانجليز - ان تحافظ على علاقات المحاسنة والمسالمة مع الأجانب القاطنين مصر وتأمين مصالحهم وحقوقهم بتشريع صحيح ثابت - فصل الدين عن السياسة فصلا تاما والمساواة فى الحقوق العمومية بين سكان مصر وفى الحقوق الوطنية بين المصريين الوطنيين بلا تمييز مطلقا بسبب الجنس او الدين - ربط ضرائب عامة عن الإيراد على جميع ساكنى مصر أجانب ووطنيين من ذوى الأموال والأشغال فيها - عقد معاهدة مع

= (مواطنين من الدرجة الثانية) . ولقد كانت دعوة (الجامعة الإسلامية) التى ارتفعت نغمتها فى ذلك الوقت من أهم الأسباب التى زادت من مخاوف الأقباط وظهور اتجاهات غير وطنية لدى البعض منهم . كتلك التى ظهرت فى آراء البعض منهم من انه اذا كان الاتجاه السائد هو الدعوة الى جامعة اسلامية تؤيد الحقوق التركية فى مصر مع ما هو معروف من ان الاتراك ليسوا مصريين ، فإن للمسيحيين الحق فى الإتجاه نحو جامعة مسيحية يدعمها الإحتلال البريطانى .

وكان الأقباط قد فقدوا الأمل فى الأحزاب التى ظهرت على الساحة فى ذلك الوقت وخاصة حزب (الأمة) بسبب ميله الى ما يمكن تسميته (التقرب من الحزب الوطنى)

لهذه الأسباب ولأسباب أخرى غيرها بدأ يظهر الاتجاه القبطى نحو اقامة حزب يمثل الاتجاه المصرى العلمانى كبديل عن الاتجاه الدينى للحزب الوطنى ، ويقيم نوعا من الرابطة مع انجلترا تضمن لها حرية التجارة فى مصر وتسهيل طريق الهند لها فى أوقات السلم والحرب فى مقابل وعد انجلترا بالمحافظة على استقلال مصر وصد العدوان الأجنبى عنها .

وهكذا فإنه فى اوائل سبتمبر ١٩٠٨ طرح (أخنوخ فانوس) مشروع تأسيس (الحزب المصرى) . الذى تضمن برنامجه الى جانب ما سبق الإشارة اليه التمثيل العنصرى فى المجالس النيابية ، الى جانب اشراك أجانب فى هذه المجالس .

ويقول (يونان لبيب رزق) ان برنامج هذا الحزب كان نابعا من ضرورات دينية أكثر من اقتناع فكرى ، وهو ما كان يسلبه أى مضمون تقدمى .

- يونان لبيب رزق (الحياة الحزبية فى مصر فى عهد الإحتلال البريطانى ١٨٨٢ - ١٩١٤) - مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة - ١٩٧٠ - ص٣٨ - ٤١ .

(٧٢) مصر = مصرى قراءة ترجيحية .

(٧٣) التجنس = المتجنس قراءة ترجيحية .

انجلترا ومصر مقتضاها من الجهة الواحدة ضمان حرية تجارة انجلترا فى مصر وتسهيل الهند لها فى وقت السلم والحرب فى دائرة حدود مصر ، ومن الجهة الأخرى تعد إنجلترا بالمحافظة على استقلال مصر وصد الغارات الاجنبية عنها بالمساعدة ـ تشكيل أودتين نيابيتين فى مصر للاختصاصات الآتية ـ أى اقامة الدستور (الأودة الاولى) الأودة التشريعية وهى تتألف من أعضاء نصفهم من الأجانب الذين أقاموا فى مصر مدة لا تقل عن خمسين سنة والنصف الآخر من الوطنيين جميعهم ينتخبون على كيفية تمثل حقيقة كل عنصر وهم ينتخبون الرئيس منهم ويكون صاحب صوتين فى حالة المساواة عند التصويت ـ إذا تساوت الاصوات فى شأن انتخاب الرئيس بين اثنين يرجح بينهما بالقرعة . (الأودة الثانية) تدعى مجلس النواب وهى تتألف من نواب وطنيين ينتخبهم المصريون الوطنيون على كيفية تمثل كل عنصر ـ جعل التعليم الإبتدائى الضرورى إجباريا للأولاد والبنات ـ توحيد القضاء المصرى .

قالوا أما اختصاص الأودتين النيابيتين المذكورتين فهو فيما يلى :

تختص الأودة التشريعية بالأمور الآتية : سن الشرائع إما بناء على طلب الأودة الثانية او الحكومة او من محض إنشاء (الأودة الأولى) المذكورة ، وعلى كل حال يجب طرحها قبل التصديق عليها من هذه الاونة[٧٤] على الأودة الثانية للمناقشة فيها وأخذ ملحوظاتها الإستشارية ـ مراقبة المحاكم القضائية عامة وانتخاب قضاتها الأجانب ـ الفصل فى الخلاف الذى يقع بين الأودتين . قالوا وتختص (الاودة الثانية) ـ بمراقبة جميع اعمال الحكومة ـ بمراقبة التعليم العام والمصادقة على نظامه ـ ضرب الضرائب أو تعديلها أو إلغائها . قالوا ولتوحيد النظام القضائى ـ يجب ان يكون للقضاء المدنى والجنائى قوانين عمومية واحدة تنفذ على جميع ساكنى مصر من وطنيين وأجانب ـ فى حالة وجود منازعات مختلطة بين أجانب ووطنيين تنظر أمام جلسات يزيد فيها عدد القضاة الأجانب عن الوطنيين ـ تنظر قضايا الأحوال الشخصية ما عدا الزواج والطلاق مختلطة[٧٥] واهية أمام المحاكم المدنية ويحكم فيها على مقتضى قوانين خصوصية تقرها السلطات الدينية للوطنيين كل سلطة لتابعيها ، وللأجانب تقرها سلطاتهم المختصة

(٧٤) الأونة = الأودة قراءة ترجيحية .

(٧٥) مختلطة واهية = المختلط ـ قراءة اجتهادية ـ استبعدت الجملة واستبدلتها بالكلمة .

بذلك ـ لا تحكم المجالس التأديبية بأكثر من الغرامة أو التنزيل درجة واحدة ، وما سوى ذلك يرفع امام المحاكم النظامية ــ الغاء المحاكم الإدارية وإحالة اختصاصها على المحاكم العادية ا . هـ بنصه .

أقول فلم يعجب أصحاب الأحزاب الأخرى هذا البرنامج وعدوه كثير التعقيد والإختلاط . وعندى أنه غاية من الصراحة وحسن النية ، وهو دليل آخر على ابتعاد هؤلاء المفكرين عن خلط المقاصد بالدين ، ومزج الغايات بروح التعصب الممقوت ، وأنهم لا يجعلون بينهم وبين إخوانهم فى المصرية والوطنية فارقا ، ولا يناهضونهم متسلحين بسلاح الدين وغير ذلك مما تحرمه الجامعه القومية على أبناء الوطن الواحد . ولكنى أرجع فأقول أنهم جاءوا متأخرين بعملهم هذا . فكان مثلهم كمثل الديك الذى استنجد بالحيلة على رد كيد الثعلب ، وقد جاء الثعلب يغرر به ليوقعه فى مخالبه . إذ قال له كاذبا إنى أتيت بفرمان الأمان من جانب مولانا السلطان بأن تعيش الوحوش معا كعائلة واحدة لا يتعدى أحدهم على الآخر . وقد جئت اليك أبشرك بهذه البشرى السارة فانزل نتعانق ونضرب الصفح عن كل العداء القديم . فقال الديك إنى اشكرك ياصاحبى شكر الصديق الحميم ، وحيث الأمر كما تقول فادعو جارى الرابض خلف تلك الشجرة يسمع بشراك ونتعانق كلنا . فالتفت الثعلب وإذا خلف الشجرة كلب ضخم الجثة كبير الرأس كأنه الأسد فى عرينه . فذعر وانقلب يهرول ، فناداه الديك ما بالك جعلت نداك[٧٦] أو لم تقرأ فرمان السلطان . فقال الثعلب (ويحك يا أبا الحصين من يقرأ ومن يسمع) .

أى نعم سمعنا أصحاب (الحزب الوطنى) وأصحاب صحفه ينادون عاليا فى هذه الأونة بطلب الدستور ويرسلون الإحتجاج تلو الإحتجاج إلى (الباب العالى) تارة (وجمعية الإتحاد والترقى) تارة أخرى . وهم يظنون أن صيحاتهم بلغت من أسماع القوم مبلغها . حتى أشاعوا أن قد برز الأمر الى الأمير بوجوب اعطاء مصر الدستور وطلب جلاء أصحاب الإحتلال عنها . وأشاعوا غير ذلك كثيرا . حدثنى صديق ممن كان فى دار السلطنة لعهد مظاهرات الدستور وضجة أصحابه قال (كنت وإخواننا المصريون الذين لاقيتهم فى دار السلطنة فى أيام مظاهرات الدستور نتوقع وصول أمير مصر الى الآستانة من مصيفه فى بلاد النمسا . وكنا نرى أنه سوف لا يقابل فى هذه الآونة بمثل ما كان يقابل به قبل هذا

(٧٦) نداك = فداك قراءة اجتهادية .

الإنقلاب الجسيم . فلما قدم (الآستانة) قوبل من أصحاب (جمعية الاتحاد والترقى) بشئ من الفتور ولم يحتفل بمقدمه الإحتفال المعتاد ، وظل اياما لم يتمكن فيها من المثول بين يدى متبوعه ولا ترددت رسل السلام بين القصرين . وكانت رسائل (الحزب الوطنى) وكتب رئيسه بعضها على جناح البرق وبعضها مع البريد تأتى تباعا إلى (الباب العالى) (والصدر الاعظم) (ورئيس جمعية الإتحاد والترقى) بطلب تكليف الأمير بمنح الدستور للمصريين وإلا كان امتناعهم داعيا للسخط وباعثا على القلق . فلم يعجب (جماعة الإتحاد والترقى) هذه الحركة ولم يرضهم تلك اللهجة القاسية ، وتناولت صحفهم أصحاب الحزب فسفهت أحلامهم وعابت عليهم لهجتهم وأنحت عليهم باللائمة . فتأفف أصحاب الحزب وغضبوا واحتجوا كعادتهم عند كل حادث على أصحاب تلك الصحف ، وأرسلوا الإحتجاج تلو الإحتجاج الى رئيس (الاتحاد والترقى) . قال فأكبر القوم هذه الجراءة وأعظموا عمل المصريين . وبرز الأمر الى أصحاب صحفهم بمنع الكلام فى المسائل الخارجية عن المصالح الداخلية ، وأعلنوا فى صحفهم يقولون انا نرجو من عقلاء المصريين أن يعاونونا على السكوت عن أمور لا نفع من إثارتها الآن . قال محدثى (وأخبرنى أحد كبار الإتحاد من أنهم سيروا كتبهم فى ذلك إلى (محمد بك فريد) وطلبوا منه العدول عن هذه الخطة الشائنة) . قال (وسيروا إلى الأمير من يعلمه بأن جميع المباحثات الثنائية باتت من الآن من اختصاص (الصدر الاعظم) (ومجلس الوكلاء) ، وأن كل امر أراده وجب مخابرة الصداره عنه) . قال وقد زار الأمير (أحمد مختار باشا) وحادثه فى أمور مصر وشؤونها فكان من حديثه ان أشار عليه بمنح المصريين الدستور بعد إعلانه فى دار السلطنة . ومن الآراء التى بسطها للأمير ووافق عليها ووعد بإنفاذها بعد عودته الى عرش امارته هى أن يقول لصاحب السياسة الإنجليزية ان الإمارة المصرية أرث والتزام لأسرة (محمد على) من الدولة العلية تدفع عنها هذه الأسرة جزية قدرا معلوما فى كل عام . فبحق هذا الالتزام يجب على رأس هذه الأسرة تولى إدارة شؤون البلاد بنفسه ، ولهذا السبب يطلب أمير البلاد منح شعبه نعمة الدستور بعد إعلانه فى دار السلطنة . قال محدثى فأعجب الأمير قوله ووعد بالعمل به عند عودته من بلاده . قال محدثى سمعنا ذلك وتحققنا وقوعه ولكننا أكبرنا الأمر على الأمير وأنكرنا عليه قبوله فى جانب ما لأصحاب الإحتلال من الحول والطول وبسطة الكلمة ا . هـ

أقول ومن مضحكات الخطب والكذب على الأنبياء ما قام يحتج عليه جماعة من إخواننا المسلمين على أحدهم المدعو (على كامل المصرى) وهو أخو (مصطفى كامل). ذلك انه لما برز الأمر بالإحتفال بفتح خط سكة الحديد الحجازية وقاموا فى (المدينة) بإقامة معالم الزينة ذهب جماعة من أذناب (الحزب الوطنى) الى (المدينة) لحضور ذلك الإحتفال وبينهم (على كامل) ذلك. فلما اجتمع للإحتفال وقف (على كامل) وخطب طويلا فيما هم فيه، إلى أن قال لا يأذن النبى صلى الله عليه وسلم بوصول هذه السكة الحديدية الى هذه الأراضى المقدسه إلا بعد ان منح الخليفة لأمته نعمة الدستور. يقال فانقبضت لكلامه صدور ولاة الامور الحجازيين. قال إخواننا الذين قاموا يحتجون على أقوال الخطيب ويسفهونه ما نصه (وحيث أننا جميعا نعلم يقينا أن هذه السكة قد وصلت الى الأراضى لعهد الاستبداد أى قبل يوم رابع عشرى يوليو الماضى الذى نالت فيه الأمة العثمانية ذلك الدستور الجليل فقد كتبنا هذه السطور الى صاحب (الاهرام) البهية راجين بها من حضرة (على كامل المصرى) أن يبين لنا صدق قوله وأن يدلنا أيضا على قصده منه وهل النبى صلى الله عليه وسلم قال له ذلك ام لا ؟) ا. هـ قلت وقد بلغ الكذب على الكبراء والأمراء وولاة الأمور فى هذه الايام ما لم يسبق معه لكاذب من مزيد، فقلنا ربما كان للقوم فى ذلك عذرا ولكنا ما كنا نظن أنهم يتطرفون إلى القول المكذوب على الأنبياء حتى سمعنا خطبة (على كامل) هذه. فإذا ضاقت الحيل بأولئك القوم وأعياهم فشل دعوتهم ولم يغن عنهم جهدهم شيئا كذبوا على الله أيضا ولفقوا ما شاءوا ليضللوا الناس. قلت ولم تكن خطبة (على كامل) لترضى أهل الحل والعقد الحجازيين ولا التباهى بمنح الدستور ليخفف عن تأففهم. فقد كان لإعلان الدستور عند (راتب باشا) والى الحجاز (وعلى باشا) الشريف أمير مكة وقع سىء جدا. قالوا ومع ذلك فإنهما لم يستطيعا فى هذه المرة خداع الحكومة الدستورية كما كانا يخدعان الحكومة الإستبدادية، إذ كانا يهملان الأوامر ويعطلان تنفيذها بدعوى أن تنفيذها يهيج العربان ويدفعهم الى الخروج وشق عصا الطاعة. وعلى هذا الزعم لم يأذنا بإعلان الدستور وطرحا الأمر أياما كثيرة، فجاءهما الأمر ثانية بالمبادرة الى اعلانه فلم يفعلا. وتفشى خبر صدوره فى (مكة) (والمدينة) (والطائف)، فتألفت فى الطائفة[٧٧] جمعية وطلبت من

(٧٧) الطائفة = الطائف قراءة ترجيحية.

وكيل الوالى المدعو (على باشا) ومن الشريف إعلان الدستور فأبيا ، فتألب ضباط العسكر ومقدمو الجند ، وبرز الأمر الى أصحاب المدافع فاطلقوا مدافعهم وأعلنوا الدستور وأكرهوا الشريف على حلف اليمين فحلفها كاذبا وفعلوا هذا ايضا فى (مكة) و (جدة) . وفرح الناس فرحا عظيما وأقاموا الأفراح فى كل صوب وحدب وزينوا الدور والحوانيت على كره من الوالى ، ووقع الذعر فى قلوب المأمورين وأصحاب الوظائف . واشتد الخوف بالوالى إذ رأى من العامة ما رابه وأزعجه ومن الجند فى (جده) ما أقلقه حتى ضاقت الدنيا فى وجهه . قالوا فذهب إلى دار قنصل الانجليز ودار قنصل الفرنسيس فى البلد يطلب حمايتهما فامتنعا من ذلك . وبلغ أمره الى جماعة الضباط فجاء جماعة منهم وقبضوا عليه وعلى أتباعه وقادوهم الى ثكنة العسكر ، وسألوه عن الذى دعاه الى محاولة الفرار . فأنكر وأقسم الايمان المغلظة وأراهم امرا ورد اليه على جناح البرق من جانب الصدارة بان يقيم وكيلا للولاية ويسافر هو الى دار السلطنة . فلم يصدقوه وخرجوا عليه ومنعوا عنه كل شئ .

قال الراوى ذاقت البلاد لعهد ولاية هذا الرجل وإمارة (الشريف على) الأمرين ، إذ ساماهم الخسف وعاملاهم بالجور والعسف وتسلطا عليهم بكل حيف ثقيل ، فكانا يضربان الأعشار على علف البهائم وعلى الفاكهة والأثمار والأزهار فى (جده) (ومكة) (والطائف) ، والشريف يسخر جمال الناس لنقل أحماله كلما قام بركبه الى جهة ، وفى أشغاله الخصوصية . حتى لقد سخر فى هذه الأيام سبعة آلاف جمل لحمل أتباعه وخدمه وأمواله التى كانت فى سبعين صندوقا . وكان إذا هرب جمال بجمله يكره شيخ قبيلته على إعادته او على دفع ليرة انجليزية عن كل جمل أو سجنه هو ومن عنده . قال ومن أعمال الوالى والشريف الشائنة أنهما متواطئان على أن ياخذا عن كل أردب غلة مما ترسله الدولة او الحكومة المصرية لإعانة أهل الحجاز فى كل عام نصف ليرة ومن لا يدفع لا يعطى شيئا ، فكان ذلك من أسباب الفتن ووقوع الهرج بين القبايل . قال وللشريف سجن يسجن فيه من أراد وكذلك الوالى ووكيل الشريف (وداود أبو الفرج) رئيس بلدية (مكة) وأولادهم . وعند مجىء الحجاج من (نجد) (والقصيم) (والكويت) يختار الوالى والشريف ورجاله أحسن مما هو مع القوم من الخيل والجمال ، فمن لم يبع خيله أو جماله بثمن بخس ألقوه فى الحبوس . قال ولهما على أرزاق التجار وأموالهم التى تصدر من (مكة) (والطائف) من شهر محرم الى رجب فى كل عام ثلاثة آلاف ذهبا فى

كل يوم ، وعلى كل خارج ليرة إنجليزية باسم (ضيافه) . ولهما على تقرير كل مطوف مبلغا من ألفين الى خمسة آلاف ذهبا ، وعلى كل مطوفى حجاج (الهند) أربعون ألفا ذهبا ومطوفى حجاج (جاوه) ثلاثون ألفا . وقس على هذا مطوفى حجاج الترك والمصريين وغيرهم ، وللوالى دخل قدره خمسة وعشرون فى المائة من أرزاق الجند وثلاثون فى المائة من أثمان الدقيق وغير ذلك كثير . قال الراوى ولذلك فقد كان لخبر إعلان الدستور عندهما وقع مخيف للغاية ، وحاولا كتمانه أياما ليتمكنا من تضليل جماعة الإتحاديين وانتحال الأخبار الكاذبة والحكايات الواهية عن هرج القبائل والخوف من شقهم عصا الطاعة ، فكان من أمراء الجند وضباطهم وما فعلوه بهما من الإرهاب والتهديد ما كان . وما هى إلا أيام حتى جاء الأمر من الصدارة العظمى بعزل الوالى وخلع الشريف من منصب الإمارة ففرح الناس بزوال سلطانهما فرحا عظيما .

أقول ولم يتم شهران على اعلان الدستور والقانون الأساسى حتى ظهرت طوالع الاشراكية[٧٨] فى أكثر أنحاء السلطنة ومدنها الكبرى . مع أن بلاد الدولة هى أقل أصقاع العالم صناعة وليس فيها نقابات ولا جمعيات للعمال كديار الفرنجة التى تنتشر فى جسمها تلك المبادئ النازعة الى سحق الحكم الفردى . ومع ذلك فقد ظهرت فى البلاد بأجلى مظاهرها ووجدت تربة صالحه فى نفوس مستخدمى (سكك حديد الأناضول) (وبغداد) (وأزمير) (وأيدين) . فقاموا يطالبون بشىء من الحقوق وتوعدوا وتهددوا وأصبحت الحالة فى سكة الاناضول حرجة للغاية مزعجة لا يمكن الاعفاء[٧٩] عنها . قالوا ومما زاد الأمر حرجا انضمام الكثير من أصحاب الوظائف والخطط إلى أولئك القوم وتطوحهم فى مطالبهم وانقيادهم الى الدساسين والداعين إلى الثورة من أعداء الدستور . وقام رجل يقال له (محمد افندى مهجدت) وهو زعيم تلك الحركة فى بلاد الدولة ونال الإذن باصدار جريدة سماها (ارغاث) ومعناها العامل . والرجل طلق اللسان خطيب مغلق[٨٠] متمكن من التركية والعربية والفارسية والفرنسية والإنجليزية والألمانية والأسبانية ، شديد الإشتراكية . قالوا وهو منذ عشر سنوات قائم على بث مبادئه ونشر

(٧٨) الإشراكية = الإشتراكية قراءة اجتهادية .

(٧٩) الإعفاء = الإغضاء قراءة اجتهادية .

(٨٠) مغلق = مفوه قراءة اجتهادية .

تعاليمه وله إطلاع تام على كل ما يجرى ويحدث فى ديار الغربيين . وظل حينا طويلا رئيس لجنة الأحرار العثمانيين فى (أزمير) حيث كان يشغل منصب مدير الأمور السياسية ، ومنذ أشهر وشى به الواشون فاستدعى الى دار السلطنة وبقى فى (يلدز) تحت المراقبة أياما ، وكبسوا بيته وفتشوا أوراقه فلم يجدوا فيها شيئا يتعلق بالاتشاركيه[٨١] ولكنهم وجدوا كتابات تتعلق (بحزب تركيا الفتاة) . وقدموه الى المحاكم لمحاكمته فتكلم أمام القضاة وعرض أفكاره وشرح مبادئه بكل صراحة مندداً بأيام (السلطان عبد الحميد) ومعيبا استبداده وغلظة كبده ، واشتد فى اللوم والطعن حتى أخذته الحدة فأنحى باللائمة على المدعى العمومى وأوسعه سبا وشتما . فأدهشت القوم جرأته فحكم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة وقادوه من ساعته الى السجن وهو على ما هو عليه من الشمم والكبرياء .

وجعل كتاب وأصحاب صحف كل أمة وخطباؤها يجاملون العثمانيين ويتقربون اليهم ما استطاعوا فى هذه الآونة لأن الوقت وقت تسابق الى اكتساب ميل جماعة الأحرار ، إلا اصحاب (الحزب الوطنى) وبعض الأحزاب الأخرى فإنهم سرعان ما انقلبوا الى الوخز والجرح والتهديد بقلب الدعوة وقطع كل صلة بهم وكأن سياستهم بلا قلب فهى تتقلب مع المنفعة العمومية والمقاصد الذاتية خصوصا بعد الدستور . قالوا إن الذى أثار غضب أصحاب الأحزاب وهيج حفايظهم حديث (أنور بك) أحد اقطاب (جمعية الإتحاد والترقى) اذ قال لمكاتب (التيمس) الإنجليزية ـ أنه ليس للجامعة الإسلامية محل فى خطة لجنة الإتحاد والترقى وإن ديار مصر خارجة عن نطاق أعمالها ومراميها ، وأن (حزب تركيا الفتاة) يأبى التعرض لعمل الحكومة الإنجليزية فى وادى النيل ولا يعير الأدعياء الذين ينتحلون الأمر جزافا ، ويدعون الى الفرقة اقل النفقات[٨٢] او مساعدة . قال وإن هم اللجنة كله الى إصلاح تركيا وترقيتها على المبادئ الدستورية . فلما تفشى هذا القول ونقله أصحاب صحف الأحزاب أغضبهم جملة وعدوه تواطؤا مع أصحاب سياسة الإنجليز . وجعلوا من ذلك الحين يقلبون لأصحاب الاتحاد ظهر المجن ويشيعون عنهم أخبار السوء وأنباء الشر ، وعادوا الى مديح أيام الحكم المفرد وإطراء سياسة السلطان

---

(٨١) بالاتشاركيه = بالإشتراكية قراءة ترجيحية .

(٨٢) اقل النفقات = أقل التفات قراءة اجتهادية .

وتحبيذ كل عمل يؤول الى قلب تلك الدعوة الحديثة . وحدث ان إمام الفيلق الثانى ويقال له (الحاج محمود افندى) قام يمرد جند ذلك الفيلق على ضباطه ويحضهم على الزحف على دار السلطنة لتخليص السلطان من معتقله فى قصره . فقام بعض الجند على ضباطهم وقاتلوهم فقتل من الفريقين جماعة ، وجاء الى دار السلطنة طائفة من ذلك الفيلق . فاشتد القلق واستولى الخوف على الناس وكادت الفتنة تقوم . فبرز الأمر بخلع (الإمام محمود) من منصبه وجاءوا به الى الآستانة محجورا عليه . فأخذوه جماعة من أتباع السراى وأسكنوه فى دار من املاك الخاصة السلطانية . فما هو أن تفشى خبر ذلك حتى قام أصحاب صحف جمعية الإتحاد ينادون بالويل والحرب ويتهددون بعظائم الأمور . فبرز الأمر بإخراجه من ذلك البيت واختفى خبره . فهب اصحاب صحف الحزب الوطنى إلى نصرة الرجل وتقبيح عمل جمعية الإتحاد وتشويه سمعتها . وكثرت كتب أذناب الحزب من هنا وهناك وكلها طعن وتجريح وتفنن فى الشمات . قيل وأحس امير مكة الشريف بدنو ساعة خلعه وتبعيده عن منصب الإمارة فكاتب نفرا من أصحاب (الحزب الوطنى) فى شأنه واستنصرهم فلم يمدوا اليه يدا ولم يرفعوا من نحوه صوتا . وقد جاء الخبر بأن أهالى (مكة) نزلاء دار السلطنة تجمعوا وذهبوا الى مقر الصدر الأعظم وطلبوا عزل (الشريف على باشا) وتولية الشريف (عبد الإله باشا) بدلا منه . فوعدهم (الصدر الأعظم) وعدا صادقا . ووصل خبر ما جرى الى (الشريف على باشا) فأخذ من يومه يدبر أمر فراره الى مصر . فجمع أمواله الكثيرة وتحفه وأعلاقه الثمينة وأخفاها فى حرز مكين . ثم جعل يتحين الفرص ويتبين أنفعها ليفر من وجه الناقمين عليه الطامعين فى خزائنه . يقال جاءه الخبر سرا من دار السلطنة بعزم رجال (جمعية الإتحاد والترقى) على مصادرته فى أمواله واملاكه وكل ثمين عنده وفى نفسه إذا تمكنوا من ذلك . وما هى إلا أيام حتى وصل الى (مكة) الشريف الجديد ومعه الأمر بالحجر على (الشريف على) فحجر عليه أياما . ثم جاءه الأمر بإرساله الى دار السلطنة فسيره الى (جده) . فتحايل حتى تمكن من ركوب باخرة إنجليزية وقصد بها السويس فارا ومنها الى القاهرة . وطار خبر ذلك الى أصحاب جمعية الإتحاد فأكبروه جدا ولم يقدروا على طلبه الى (الآستانة) كما كان خصومه يرجون .

ولما كان مساء يوم الاثنين رابع عشر سبتمبر من السنة وهو اليوم الذى دخلت فيه فرسان الانجليز مدينة القاهرة بعد كسر العرابيين وتشتيت شمل أصحاب الثورة ، نادى اصحاب صحف (الحزب الوطنى) إلى الاجتماع فى (ملعب عباس) لسماع خطبة عميدهم (محمد بك فريد) محتجا على الإحتلال وطالبا جلاء الإنجليز عن مصر . فلبى الجمع الكثير من الشبيبة نداءهم والخلق الكثير من صبية المدارس وغلمان الكتاتيب ممن لا يبلغون العاشرة ، وجلسوا بين الكهول والشيوخ ممن أجابوا الدعوة . واتفق أنى كنت مارا بجوار الملعب فلقينى صديق ممن لا ينكرون على الحزب جهاده ، فأقسم ان ندخل معا الى حيث الخطبة . فدخلت وقد ازدحم المكان بذلك الخلق الكثير ورأيت تلاميذ المدارس وصبية الكتاتيب وهم يعدون أيديهم للتصفيق وأفواهم للصياح بيحيى ويسقط ويعيش وغير ذلك . وكنت أرى على جباههم كلهم صورة الموافقة والرضاء والتأمين على قول رئيس الحزب قبل ان ينطق ببنت شفة . فلما برز الخطيب ومن خلفه أعضاء لجنة إدارة الحزب ضج المكان بالتصفيق وعلت الأصوات بالدعاء واختلفت الألسنة فى النداء وتشابكت بأسماء (فريد بك) والشيخ (عبد العزيز جاويش) ولأفراد الحزب الوطنى .

وقف مقدم الحزب مستندا الى صورة مصطفى باشا كامل وسط الملعب وإلى جانبيه علمان مصريان منكسان وعليهما اشارة الحداد وعلى صدر كل عضو من اعضاء لجنة الحزب نرد أسود . فبدأ الخطيب خطبته بذكرى هذا اليوم المشؤوم الذى دخل فيه القوم الإنجليز ديار مصر قال (لا بقوة الجند بل بقوة الذهب فادعوا أنهم جاءوا لتعزيز عرش الخديوى وعرش الخديوى أثبت عروش الملوك والأمراء) . قال (فمصر لا ترى بعد احتلالهم إلا تذكرات سوداء . فبينما العثمانيون يحتفلون بالدستور تبكى مصر لحلول الإنجليز فى أرضها ، وبفضل الإحتلال صارت مصر تذكر فى شهر يناير (إتفاق السودان) وفى فبراير تأليف (المحكمة المخصوصة) وفى يونيه (مذبحة الاسكندرية) وفى سبتمبر (إحتلال القاهرة) ، بينما (امريكا) تعيد فى يوليو خلاصها ، (وفرنسا) حريتها (وتركيا) دستورها . وفى سبنمبر تعيد (ايطاليا) وحدتها) . إلى ان قال (اعترف غلادستون وهو كبير وزراء الإنجليز عام خمسة وتسعين بأن زمن الإحتلال قد انقضى ، ولكن هذا الإحتلال مكث حتى اليوم ، وهو يقول أن زمن الجلاء لم يحل ولم يحن ، وأوقع الإحتلال الإرتباك فى جميع مصالح الحكومة بفضل شبان من الإنجليز يتسلمون إدارة الاعمال حتى أنهم

يفترون علينا بأنا لا نستحق التعليم كما جاء فى تقرير (السير غورست) . وهنا تلا بالإنجليزية عبارة التقرير . قال ومع ذلك يوجد منا من يقول بمسالمتهم لننال منهم بغيتنا . ولا يسلم (زكى بك)[٨٣] ـ (أحمد زكى بك ثانى كاتب سر مجلس الوزراء) بأن يشتغل المتعلمون منا بالسياسة بحجة أن العلم لا وطن له . على ان يستور[٨٤] صاحب علم ميكروب الأمراض الحديث لما رفض نيشان إمبراطور الألمان الذى قال له عند الإنعام عليه به أنه ينعم عليه كعالم لا كفرنسوى وليس للعلم وطن ، فرفض النيشان وأجاب إذا لم يكن للعلم وطن فللعالم وطن . وأنحى باللائمة والتقريع الثقيل (على زكى بك) وأشبعه تسفيها . فعند ذلك علت أصوات أولئك الغلمان (فليسقط زكى بك) (فليسقط ذلك الخائن) (ليسقط عدو الإصلاح) ، وقامت ، الضجة من كل جانب . على أن نسبة الخيانة الى (زكى بك) آلمت النفوس وجرحت القلوب . فجعل الخطيب يومئ الى أولئك الصائحين بالسكوت . قال الخطيب (إن احد اعضاء الحزب وهو (أحمد بك

---

(٨٣) زكى بك = احمد زكى (٢٦ مايو ١٨٦٧ ـ ٥ يوليو ١٩٣٤) . فقيه لغوى يدعى أحيانا (شيخ العروبة) . سكرتير مجلس الوزراء لفترة طويلة . ولد فى (الإسكندرية) لأم كردية وأب من (مراكش) . التحق بمدرسة (القربية) والمدرسة (التجهيزية) بالقاهرة ، ثم التحق (بمدرسة الإدارة) . عمل بالمكتب الصحفى بوزارة الداخلية نظرا لإتقانه اللغة الفرنسية . اشتغل محررا فى (الوقائع المصرية) وعمل مدرسا للترجمة فى (المدرسة الخديوية) ومعلما للغة العربية فى (المعهد الفرنسى للآثار الشرقية) . تقاعد فى سنة ١٩٢١ . أعاد تصنيف (الإجراءات الادارية) المصرية اثناء الحرب العالمية الأولى لتتفق مع وضعها (كمحمية بريطانية) . كان زميلا فى (المعهد المصرى) Institut d' Egypte ، (الجمعية الجغرافية الملكية) . Royal Geographic Society و (الجمعية الأسيوية الملكية) بلندن Royal Asiatic Society . كان عضوا فى مجالس ادارة (الأزهر) و(الجامعة المصرية) ، وتولى رأسة كرسى (الحضارة الإسلامية) فى الأخيرة . أخرج المقابلات العربية للكلمات الأوروبية المستعارة ، ونبه الصحافة الى الأصول العربية لكثير من أسماء الأماكن الأسبانية والبرتغالية التى كانت تنقل الى العربية بغير دقة . شارك فى (المؤتمر الدولى للمستشرقين) International Congress of Orientalists وكان موضع تقدير الأوروبيين لاتساع معارفه . كان وطنيا ومخلصا ومصرى منذ شبابه ، ومناصر للعروبة فيما بعد ، وأصبح لذلك من المؤسسين (للرابطة الشرقية) وأول سكرتير لها . كان بيته فى (الجيزة) هو (بيت العروبة) حيث كان ملتقى الزوار من البلاد العربية ، وشهد حدوث الصلح بين المتنازعين من الأمراء العرب ، ومستودعا للأثاث العربى القديم ، المجوهرات ، الكتب والمخطوطات . كان كاتبا فريدا للمقالات والكتب القصيرة . مات قبل أن يستكمل القاموس العربى على غرار (لاروس) Larousse الفرنسى . اهدى مكتبته ومخطوطاته لدار الكتب المصرية .

ـ أرثر جولد شميث (قاموس تراجم مصر الحديثة) ـ ترجمة وتحقيق عبد الوهاب بكر ـ مرجع سبق ذكره ـ ص٢٣٦ .

(٨٤) يستور = باستور قراءة ترجيحية . لويس باستور Pasteur, Louis (٢٧ ديسمبر ١٨٢٢ ـ ٢٨ سبتمبر ١٨٩٥) العالم الفرنسى الذى يعتبر مؤسس علم الميكروبات Microbiology . كان اكتشافه ان الكثير من الأمراض تتسبب عن جراثيم واحد من اعظم الخطوات فى تطور الطب الحديث . أصبح باستير أستاذا للكيمياء فى ١٨٥٤ ثم عميدا لكلية العلوم (بليل) Lille حيث بدأ فى الإهتمام بنشاط التخمر FERMENTATION وانتهى الى وضع أساس (نظرية الجرثوم) للأمراض .

-Lexicon Universal Encyclopedia - Vol. 15 - P., 107.

لطفى) لما سمع كلام (زكى بك) فى حفلة وداع الإرسالية (إرسالية الجامعة الى ديار الفرنجة) خرج من الجلسة احتجاجا) . فلما قال ذلك صاح القوم صياحا عاليا (ليحيى لطفى بك) (ليحيى لطفى بك) . ثم تحول الخطيب قائلا فليتركوا[٨٥] فإنا لا نناهض إلا مبادئهم وأعمالهم . فعند ذلك صاح التلاميذ ليسقط (إسماعيل أباظة)[٨٦] ومن معه ، ليسقط الخائن الدجال المارق صنيعة الانجليز . وعلت الاصوات بذلك وأشباهه حتى أومئ اليهم الخطيب بالسكوت فسكتوا . فتلا على الحاضرين صورة كتاب الإحتجاج

(٨٥) فليتركوا = فليتركونا قراءة اجتهادية .

(٨٦) من رجال مجلس شورى القوانين وعميد الأسرة الأباظية . شجعه (الخديو عباس حلمى الثانى) للسفر الى لندن فى عام ١٩٠٨ مع وفد من اعضاء مجلس شورى القوانين وشخصيات أخرى لمقابلة وزير خارجية بريطانيا وشرح أحوال مصر وطلب المزيد من الاشتراك الشعبى فى تصريف شئون البلاد دون طلب (دستور) . تألف الوفد المذكور من اسماعيل باشا اباظة رئيسا وعضوية محمد الشريعى باشا ــ السيد حسين القصى ــ محمد عثمان اباظه بك ــ عبد اللطيف الصوفانى بك ــ ناشد حنا بك . اوصى (جورست) الوفد قبل سفره بأن يحصر حديثه فى مسألة توسيع نطاق اختصاص مجلس شورى القوانين دون الحديث عن الجلاء . ولم يحقق سفر هذا الوفد شيئا ذا قيمة فيما يتعلق بمطلب منح البلاد الدستور . وكانت قد بدأت فى العقد الأول من القرن العشرين مطالبات بتوسعة اختصاصات (مجلس شورى القوانين) الذى كان محروما من حق مناقشة الميزانية أو المناقشة فى المسائل السياسية أو أن يبدى رغبة ما فى شأن (الجزية) المقررة على مصر للدولة العثمانية أو الدين العمومى وكل ما التزمت به الحكومة (بقانون التصفية لسنة ١٨٨٠) أو المعاهدات الدولية . كان من بين هذه المطالبات تلك التى ابداها (الشيخ على يوسف) عضو (الجمعية العمومية) فى ١٩٠٤/٢/٢٣ بطلب انشاء مجلس نيابى جديد (اسوة بالمجالس النيابية الحقيقية الموجودة فى كل مملكة سائرة فى طريق الإرتقاء والنظام) . وعندما تقدمت (الجمعية العمومية) بهذا الإقتراح إلى الحكومة ردته الأخيرة فى ١٩٠٥/٤/٣ بحجة خروجه عن اختصاصات (الجمعية العمومية) . فى جلسة ١٩٠٧/٢/٢ أعاد (على يوسف) تقديم اقتراحه بإنشاء (مجلس نيابى) مع توسيع اختصاصات مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية ومجالس المديريات . كان التوسيع المطلوب يشمل (النظر فى كل ما يتعلق بالثروة العمومية والأمور الإدارية العامة ــ بما فى ذلك التشريع) ، لكن المطالب لم تتحقق لأسباب تتعلق بانتهاء عضوية (الشيخ على يوسف) .

فى عام ١٩٠٨ جرت محاولة أخرى عندما وافق مجلس شورى القوانين على تشكيل لجنة من ٩ أعضاء للنظر فى مواد (القانون النظامى) الصادر فى ١٨٨٣ . وفى ١٩٠٨/٦/٢٥ نوقش هذا الأمر فى إطار مشروع قانون توسيع اختصاصات مجالس المديريات . وفى إطار هذه المنظومة سافر وفد (اسماعيل اباظه) لرفع صوت (مجلس الشورى) فى انجلترا . وفى ١٩٠٨/١٠/٣١ نوقش فى مجلس الشورى موضوع توسيع اختصاصات المجلس النيابى لكن القرار كان تأجيل هذا الأمر حتى جلسة أول ديسمبر ١٩٠٨ .

كان الهدف من سفر (الوفد الأباظى) هو ابلاغ بريطانيا بالإستياء المصرى الجمعى من ممانعة الحكومة البريطانية فى اجابة المطالب المصرية الخاصة بتوسيع اختصاصات مجلسها النيابى ، ومن سياسة بريطانيا فى شأن طرائق التعليم ، وتأخير الصناعة ، وحفظ الأمن ، وتصرفات الموظفين البريطانيين فى الإدارة المصرية ، وحرمان الموظفين المصريين من المناصب والوظائف العمومية ، والمسائل المالية إلخ . . . وفى خطابه فى (فندق الكونتيننتال) فى ١٩٠٨/٧/١٣ برر (أباظة) سفره ووفده الى انجلترا بأن مخاطبة بريطانيا نفسها أجدى من مخاطبة الخديو المقيد بالتزامات اقتضتها ظروف معينة فى علاقته بدولة الإحتلال ، وأجدى من مخاطبة الوزراء المصريين (الذين لا إدارة لهم ولا وجود ، وأنهم مسيرون فى اعمالهم ــ حتى وفى اقوالهم ــ لا مخيرون . لا ينطقون إلا إذا شاء الانكليز ان ينطقوا . . .)

ــ عبد العظيم رمضان (مذكرات سعد زغلول) ــ الجزء الثانى ــ مرجع سبق ذكره ــ ص ٧٨٤ ــ ٧٩٥ ــ حاشية ٢٢٠ .
ــ احمد شفيق باشا (مذكراتى فى نصف قرن) ص١٥٢ وما بعدها .

الذى يرسله الحزب وسائر فروعه الى صاحب سياسة الإنجليز فصاحوا جميعا (موافقين موافقين) . وعزفت الموسيقى نغم الحزب الوطنى فسمعه الحاضرون وقوفا وهذه اول مرة سمعت فيها نغمهم . ثم تقدم بعض الحاضرين فهنأوا (فريد بك) وأثنوا على فصاحته وحسن تعبيره . وتفرق القوم وجلهم آسف على ما نال (زكى بك) من السب والقول الثقيل .

أقول وأصبحوا وقد سير (احمد زكى بك) الى اصحاب الصحف يقول :

ان الزرازير لما قام قايمها تصورت أنها صارت شواهينا
فأخذت تنعق فليحى فلان فليسقط فلان وهو كلام فى كلام
ألا يفقه معناه صغار الاحلام الذين اذا دعاهم الداعى لنشر كتاب او لفتح كتاب

قالوا هذا خارج عن مامورية الأحزاب ، وإذا قيل لهم الحق فى وجوههم ركنوا للسعاية والسباب ـ وانا اقول للجميع الشتيمة سلاح العاجز والغمز واللمز سلاح الأنذال .

لى حيلة فى من ينم وليس فى الكذاب حيلة
من كان يخلق ما يقو ل فحيلتى فيه قليلة

أقول وبينما الناس على هذا من سماع خطب الحزب الوطنى وضوضاء تلاميذ المدارس وغوغاء الهاتفين بيسقط ويحيى ويعيش وغير ذلك من هوس المهوسين ، إذ جاء الخبر من الإسكندرية بوصول يخت الأمير من دار السلطنة . وكان الوزراء والأمراء وأهل المناصب وأصحاب الوظائف قد سافروا الى اسكندريه ينتظرون وصوله . فنزلوا والأمير على الرصيف ، وصفت الجند للترحيب به فصعد الى سراى راس التين . وبات وأصبح وقد عملوا التشريف فدخل عليه المهنئون ورفعوا إليه مراسيم التهانى بسلامة الوصول فرأيناه على غير ما اعتدناه من طلاقة الوجه وملاطفة المُسلِّمين ، وكانت دلائل القلق بادية على وجهه كأن به هما مقيما . وشاع بعد وصوله بأيام ان (الغازى مختار باشا) عائد الى منصبه فى مصر ، وكان قد رفع الى السلطان عريضة يطلب فيها إقالته من هذا المنصب لأسباب قالها للسلطان فلم يوافق السلطان على طلبه وشدد عليه فى العودة الى مصر نظرا للأحوال الحاضرة . فكثر تحدث الناس فى ذلك وترامت ظنونهم الي المرمى البعيد وقالوا إن رجوع الغازى الى منصبه هو ليؤيد الأمير ويعينه على إعطاء الدستور للمصريين والجهاد مع أصحاب الاحتلال فى سبيله ، وقال آخرون بل هو عين من عيون

جماعة الإتحاد والترقى على الأمير فى حله وترحاله . وآخرون قالوا غير ذلك كثيرا . وكان لما شاع خبر قيام الأمير من دار السلطنة يريد مقر إمارته قد أشاع اصحاب صحف الحزب الوطنى أنهم سيقومون بعمل مظاهرة سياسية كبيرة فى طلب الدستور وتشكيل المجلس النيابى . فحسب العقلاء لهذه المظاهرة حسابا كبيرا وكانوا يتوقعون أنه متى وطأت أقدام الأمير مقر كرسيه أرغمه كبار الحزب على فعل كذا وكذا وقول كيت وكيت مما يلذ سماعه عند أصحاب الحزب . ومضت الأيام والاسابيع والأمير ورجال دولته وكبار وزرائه على جمود وسكون لا ينظرون أمرا جديدا ولا يعملون عملا مرجوا . وكأن صيحات القوم التى بلغت عنان الباب العالى وأسماع أصحاب شورى الانجليز فى دار ندوتهم وما عزوه للأمير من أنه حادث ملك الانجليز او صاحب سياستهم فى أمر الدستور ، كل هذا اخفاق[٨٧] أحلام أو ضرب من التخيلات الفاسدة . اى نعم تحقق أهل الحل والعقد ان أصحاب الحزب عازمون على المظاهرة والجهر بطلب الدستور من الأمير فسيروا فى طلبهم . فلما وقفوا أمام صاحب الشرطة شدد عليهم فى الإمتناع وإلا كانوا مسئولين عن كل ما سيكون من وراء عملهم . فخافوا وتولاهم الذعر وهم يعلمون ما كان من وراء مظاهراتهم التى تقدمت من تحطيم مقاعد القهاوى ومنافذ الحوانيت والصياح الذى ملأ فضاء مصر والقاهرة . وبينما هم على هذا إذ جاءت صحف الإنجليز الكبرى تقول اصحابها أنه لما جاءت احتجاجات المصريين على الإحتلال طائرة على جناح البرق إلى صاحب السياسة الإنجليزية وهى مئات من آلاف مؤلفة لم يحفل بها . قالوا لأنه لم تذكر فيها صفته الرسمية فاعتبرها رسائل شخصية له لا تعنى منصبه الرسمى . قلت وقد كانوا أرسلوها باسم الرجل فقط دون منصبه تحقيرا له وتصغيرا من منصبه كما كان كتاب المحاكم الشرعية يفعلون لعهدهم القديم فى صيغة العقود الشرعية . وتفشى خبر ما جرى لكتب اصحاب الحزب ورسائلهم فطار خصومهم فرحا وتفننوا فى الشمات بهم والحط من قدرهم . فقام أصحاب صحفهم ينادون بالويل والحرب وعدم وقوف رجال الحزب عند هذا الحد من الإحتجاج . ظل الحال على هذا أياما ظهر فيها حزبا جديدا باسم (الحزب الخيرى)[٨٨] لم نسمع بخبره من قبل ، وجعل يصيح وينادى بانه إنما قد قام يدعو الناس

(٨٧) اخفاق = أضغاث قراءة ترجيحية .

(٨٨) لم يرد ذكر لهذا الحزب فى المصادر الموثوق بها فى شأن الحياة الحزبية فى مصر فى الفترة ١٩٠٧ ــ ١٩١٤ . ويحتمل أن يكون عملا قد جاش بصدر صاحبه ثم لم يستكمله او لم ينضم اليه أحد فمات .
ــ يونان لبيب رزق (الحياة الحزبية فى مصر) ــ مرجع سبق ذكره ــ مواضع متفرقة .

الى الخير ويدعو الأمير إلى منح قومه الدستور ومجلس الشورى ، وقام رئيسه واسمه (احمد على المليجى) الكتبى يدعو الناس الى الانضمام لحزبه وسير الى قصر الامارة ابياتا وهى :

عباسنا مصر السعيده أشرقت ... بقدوم دولتكم من الأسفار
وحزت تضئ على البلاد كأنها ... شمس الضحى فى بهجة الاسفار
وجميع أهليها يهنئ بعضهم ... بعضا بعودك وهو فى استبشار
ورجاؤهم ان يمنحوا الدستور من ... إحسانكم ليروا من الأحرار
فتقبلوا اخلاصهم وتفضلوا ... بالمنح لوحظتم بعين البارى

انتهى

فما تفشى خبر أبياته هذه وتحدث بها الناس حتى أخذته ألسنة النقد والتقبيح من كل جانب ، وهب جماعة من أصحاب صحف الاحزاب الى تشويه سمعته ، فقالوا أن الرجل من بائعى الكتب والوراقين الذين لا يعلمون من أمر الاحزاب شيئا ولا يدركون من مناحى السياسات غرضا ، وما هو إلا متطفل يقترح ويبغض القطط ويقسم انه لا ينام إلا فى الوسط . قالوا ومع ذلك فهو شديد الخطر على الهيئة القومية والجامعة الوطنية . كتب مقالا طعنا فى النصرانية وصليبها وحشاه بفحش القول وهذر الكلام فقبضوا عليه وحاكموه وصادروا ما فى حانوته من الكتب الساقطة تلك ثم اطلقوا سراحه . وظلوا على شأنهم هذا أياما حتى اغفله الناس . وأخبرنى صديق أن غرض هذا الحزب الجديد إنما هو جمع صدقات أهل البر الى فقراء المسلمين ، وأن اعضاؤه جماعة من الكتبة والوراقين (بخطة الحلوجى) عند الأزهر وأن نائب رئيسه رجل قصاب يقال له (الحاج سيد عبد الله الجزار) . قال (والشيخ المليجى) ذلك رجل ابتلى بحب الظهور ولكن بطرق غير مشروعة ولا هى من العقل فى شىء ، فكان يكتب رسائل التهديد والوعيد لأهل الصليب تحت عنوانات مختلفة كقوله (السهم المصيب فى نحر أهل الصليب) أو (الرد العجيب على أقوال أصحاب الصليب) وغير ذلك من السخافات والسخائم . وكانت رسائله رائجة متناقلة بين السوقة والوراقين وجهلاء القوم . قال فاشتدت عزيمته وعمد الى اغراء مجاورى الازهر وطلبة كتاتيبه على اللحوق بحزبه . وبث بينهم جماعة من دعاته فاستهوى بعضهم . وعلم شيخ الجامع بخبر ذلك فكتب منشورا يحذر المجاورين من

الإلتصاق بالرجل وحزبه ويحرم عليهم الإختلاط بالأحزاب أو الإقتراب من محافلهم ومجتمعاتهم ، وأن جزاء من يخالف هو التبعيد والحرمان من الدخول الى الجامع . فخاف المجاورون وامتنعوا عن شراء رسائل الرجل جملة . وظل على شأنه حينا والغلمان بائعو الصحف لا يكفون عن النعق باسمه وأسماء رسائله حتى جاءه الوعيد من صاحب الشرطة فأقلع وكأنه لم يكن شيئا مذكورا .

أقول وظهرت فى هذه الآونة ضجة لمجلة اسبوعيه اسمها (مجلة القطر المصرى) لصاحبها (أحمد افندى حلمى) . جعلت هذه المجلة خطتها نقد حالة الجيش المصرى والكلام على جيش الإحتلال وما هو عليه . فلم يعجب جماعة الانجليز ذلك قيل وأقلقهم جدا ، وذهب (المستر جراهم) القائم بأعمال لورد كرومر الى الأمير بمصيفه بالإسكندرية وكلمه فى أمر ذلك . وقال أن الإنجليز جملة فى استياء شديد مما نشره صاحب (مجلة القطر المصرى) عن الجيشين المصرى والاحتلالى ، حتى لقد قال له ان كل كلام جائز إلا الكلام فى الجيش والتحكك بالسلطة العسكرية . فقال الأمير أن الأمر فى هذه المسائل يرجع الى أحكام القانون . فإذا كان صاحب تلك المجلة قد خرج عن طائلة القانون فباستطاعة المحاكم محاكمته وإلا فلا سبيل لإسكاته . وباتوا وأصبحوا وقد أوقفوا صاحب تلك المجلة موقف المسئول عما كتبه فى مجلته وشددوا عليه فى الرجوع عن هذه الخطة الشائنة التى لا يصح السكوت عليها ، والإقلاع عن هذه النزعة المعيبة . قيل فوعد بالاعتدال والكف عن كل وخز ولمز ، ولكنه كان يفعل يوما ويعود الى قصده أياما والناس يتساءلون عما سيكون من وراء ذلك .

ولما كان ثالث اكتوبر من السنة وصل الى (ميناء القلزم) باخرة عثمانية إسمها (انقرة) تحمل سبعمائة وخمسين جنديا عثمانيا انتهت مدة خدمتهم العسكريه وهم راجعون إلى بلادهم ومعهم (راتب باشا) والى (الحجاز) المعزول بحكم الدستور يحرسه إثنى عشر جنديا برئاسة ضابطين . وأقامت الباخره بالميناء بعض ذلك اليوم والناس يتسابقون الى رؤية (راتب باشا) ذلك لما هو شائع ومعلوم عندهم من عسف الرجل وجوره وظلمه لأهل (الحجاز) ومصادرتهم فى أموال وأرزاقهم ، فلم يتمكنوا من رؤيته عن كثب . وأخبرنى من رآه وحادثه أن الرجل ضعيف جدا شارد الفكر كبير القلق لا ينام ليلة ولا يهدأ له خاطر . قال وعلمت أنه طلب يوما موسى ليحلق لحيته فأحسوا أنه إنما يريد

الإنتحار فلم يلبوا طلبه . قال ورأيت المحافظة عليه شديدة جدا والجنود تحرسه مشهرة سلاحها ومحيطة بمجلسه . وجرت بينه وبين أحد الضباط القائم على حراسته محادثة قال فيها أنه لم يعمل عملا من عنده بل كل ما عمله هو موحى له به من (المابين الهمايونى) ومن (الصدر الاعظم((وعزت باشا العابد) اللذين كانا سبب كل هاتيك المصائب . قال وأخبرنى أحد الضباط أن أهل (جدة) كانوا يريدون الفتك به وأخذوا أهبتهم لذلك ، فلم يتمكنوا من قصدهم لسفره على غفلة من الكافة ولا يعلم ما سيكون من أمره فى دار السلطنة إذا بلغها كما يقولون .

واجتمع اعضاء مجلس شورى البلاد فى قاعتهم فى رابع عشر اكتوبر من السنة على عادتهم فى كل عام . وكانوا قبل هذا الاجتماع بيوم أو بعضه اجتمع بعضهم وتناجوا فى أمر الدستور وتقرير الخطة التى يتبعونها فى طلبه من طريقه المشروع . فاختلفوا فيما بينهم واشتد الأخذ والرد وطال اللجاج ، ثم انصرفوا على غير ما يحبون . فلما كان ذلك اليوم لم يتم اجتماعهم إذ تغيب منهم من لم يكن على رأى المجتمعين فى الجلسة السابقة وأرسلوا يعتذرون على جناح البرق . فأقلق امتناعهم من الحضور بال إخوانهم وأحسوا بشىء من الفشل فى مشروعهم . وبان للناس ان السواد الاعظم من الأعضاء الممتنع من الإجتماع يرى أن الوقت الذى يصح فيه طلب الدستور لم يحن بعد ، وأن طلب المجلس النيابى ضرب من العجلة التى لاسلامة معها فى هذه الاونة . وباتوا وأصبحوا وقد علت ضجة أصحاب صحف الأحزاب وجعل كل يبدى ويعيد فى سبب امتناع الممتنعين عن الإجتماع ، وفى الإختلاف القائم بين الفريقين ، وفى تفضيل مذهب بعضهم على البعض الآخر حتى اختلط الحابل بالنابل أو كاد . وسعى بعضهم فى الجمع بين الفريقين وإزالة ما فى النفوس من ألم الجدال ووخز النقاد فلم يفلحوا الفلاح المطلوب . وقام المتصدرون فى مجالس السياسات يكتبون الى الصحف من هنا وهناك طاعنين فى الفئة الخارجة عن طالبى الدستور وقد ذهبوا مع الأغراض والحقود . وبينما هم على هذا إذ جاءت الأنباء من دار السلطنة وبينها نبأ اتفاق أصحاب (جمعية الاتحاد والترقى) مع الدولة الانجليزية على أن السلطان يتنازل لملك الانجليز عن إيالة مصر جملة وأن الإنجليز يعضدون الدولة العثمانية ضد دولة الألمان بعد أن اضاعت الدولة العلية (بلغاريا)(والبوسنة والهرسك) ، وتدفع عنها خطر (البلقان) وشر ممالكه المقيم . وتفشى

خبر ذلك وتحدث الناس به كثيرا وتناولته صحف الأحزاب ، فكان شغلها الشاغل عن كل حدث وكل امر خطير . وعندى أنه وإن كان أصحاب الكلمة المسموعة من (جمعية الاتحاد والترقى) قد اشترطوا على أنفسهم أن لا يثيروا ثائرة المسائل الخارجية التى منها مسألة إحتلال الانجليز لديار مصر لينصرفوا إلى الإصلاحات الداخلية التى عليها عماد الدولة وتوطيد أركان السلطنة ، إلا أن ما بدا فى هذه الآونه من تسامحهم مع (ولاية البلغار) وتقاعدهم عن الإحتفاظ بولاية (بوسنا والهرسك) قد جعلهم فى مجال لظنون الناس بهم ، وطمع أصحاب سياسات الدول فيهم . لا سيما وقد توفرت شيعتهم وانتشرت فى القاصية بدعوتهم وظهرت نواياهم وماخفى من سرهم وأصبح سلطانهم (عبد الحميد) وهو لا يملك من أمره شيئا ولا يرى للخلاص من اشراكهم سبيلا . ومما زاد موقف الدولة العثمانية تحرجا إزاء الدول عزمهم على عقد مؤتمر دولى يبحث فى حالة الدولة العلية عموما وممالك البلقان خصوصا ، ورجال السلطنة وكبار اهل المناصب فيها يعلمون أنه ما دخلت دولتهم فى مؤتمر دولى مرة إلا وخرجت منه خاسرة ماديا وادبيا . ولهذا كان إذا أجمع أصحاب سياسات الدول الكبرى على عقد مؤتمر دولى للبت فى أمر من مختلف أمور الدولة والحكومات التابعة لها حسب السلطان له حسابا كبيرا وتطير من مداولاته وبذل الجهد فى حصرها فى دائرة محدودة لعله يفوز من الغنيمة بالإياب . ومع ذلك ما كان على شيء من الحظ أو النصفة مرة فى سائر مؤتمراتهم . يعلم السلطان ورجال دولته كل هذا فهم لذلك يجتنبون كل قول وكل عمل يفضى إلى طرح أمر احتلال الإنجليز للديار المصرية على بساط البحث الدولى ، ويسدون تلك الفرجة من ناحيتهم كلما استطاعوا ولايعرقلون للإنجليز عملا أو يثيرون عليهم حربا سياسية دفعا لذلك المكروه . وعندى ان القائلون بتلك المقالة ، أعنى تنازل أصحاب (الإتحاد والترقى) عن مصر للدولة الإنجليزية رجاء انها تعضد الدولة العليه ضد خصومها قد تعجلوا فى القول وحَمَّلوا الأحوال على غير ماهى . فكان من أمر ذلك ما كان .

وجاء الخبر إلى اصحاب الرى وديوان الوزارة فى ثامن عشر اكتوبر من السنة بأن جسر (بحر الفرعونيه) انقطع امام بلدة (فيشا) فى صبح ذلك اليوم ، فانحدر الماء بشدة بالغة على البلد فأغرق ثلثمائة دار وطمرها ونيفا ومائة فدان فصيرها لجة تسبح فيها السفن الصغار ، فمات بعض النساء والأولاد غرقا وعم الصياح والولولة . وجاء الصائح الى ديوان المركز ومهندسه فقام جماعة من الشرطة الى البلد ، وجاء الكثير من القرى

المجاورة فعاونوا القوم على مصابهم وخففوا عنهم ما قدروا عليه . وسيرت وزارة الداخلية الخيام والمؤن لإيواء وإطعام الذين أصابهم الضرر ، وتسابق أهل الخير إلى إمدادهم أيضا . وجاء الأمر مشددا على المدير ببذل العناية فى التخفيف عنهم .

أقول ومن أغرب ما قرأنا وسمعنا كلام [٨٩] الى (محمد فريد رئيس الحزب الوطنى) شرطه[٩٠] فى (جريدة اللواء) تحت عنوان (ماذا يقولون) . تناول فيه غرض رجال قصر الإمارة ومقام الأمير ورماهم بفحش القول والطعن المعيب . فقام بعض الكتاب من حزبه يقولون أن (محمد فريد) هو المسئول وحده عن هذه السخافات الشائنة وأن الحزب برىء من كل ما قيل أو يقال فى أصحاب القصر ، وأن السواد الاعظم من رجال الحزب يبرأ الى الله من تبعة هذه الفتنة . فما هو أن تفشى قولهم هذا وتحدث به الناس فى سمرهم حتى اجتمع اعضاء لجنة ادارة الحزب وقرروا ليلة تاسع اكتوبر من السنة بأن ماكتبه (اللواء) عن مقال (محمد فريد) هو رأى الحزب واللجنة أيضا لا رأى (محمد فريد) وحده . وأشاعوا ذلك ونقله أصحاب الصحف فأوجب الدهشة والإستغراب . وقال الناس إن القوم قد تمادى بهم الغرور فاختلط عندهم المرعى بالهمل واللباب بالقشر والصادق بالكاذب ، وقد طوح بهم غرورهم الى المأزق الوخيم وإلى الله عاقبة الامور . وعندى ـ أنهم بعملهم هذا قد جعلوا سياسة حزبهم ذلك على هذه القاعدة (قاعدة التشهير) بأصحاب القصر والتفنن فى الشمات بهم ، وهذا ما كنا لنظنه بعد ان رمى (اللورد كرومر) القصر وأصحابه بالتشيع الى أصحاب الحزب والإنتصار لهم فى السر والجهر ، وإمداد رئيس الحزب بالمال الوفير من خزاين الأوقاف ومنابع الخيرات ، حتى جعل اللورد يجاهد جهاده المعلوم عند الكافة فى ضم ديوان الأوقاف الى هيئة الحكومة وجعله وزارة يسأل وزيرها عن كل أمر يقع فى دائرته ، ولم يفز بقصده حتى تخلى عن منصبه وفى قلبه من جراء ذلك جمرة لا تطفأ . وجاء (غورست) وقد تفهم من الأمير قصده وما يرمى اليه فخلى له السبيل وأغمض عنه العين ، فزاد فى أعطية دعاتهم ومكنهم من قصدهم ، فسمعنا أصواتهم عالية فى ديار الإنجليز وديار الألمان والفرنسيس ، وقرأنا لهم أقوالا فى بعض صحف الغربيين . وظهر التصاقهم ببعض اهل (المابين الهمايونى) وجماعة من أهل(الإتحاد والترقى) . كل هذا وقع كما تقدم بك بيانه حتى انقلبوا على أصحاب القصر هذه

(٨٩) كلام الى = من كلام قراءة اجتهادية .
(٩٠) شرطه = حديثه قراءة اجتهادية .

الإنقلابة وأقاموا عليهم هذه الغارة الشعواء . وقد ظن البعض أنه ربما كانت هذه الضجة ضربا من المواربة والتضليل بأهل الاحتلال ودفعا فى صدر القائلين بأن الحزب من عمل صاحب القصر . وظلت صحف الحزب على مؤاخذة أهل القصر (ومحمد فريد) ينادى بالويل والحرب كلما بدا من (غورست) توددا إلى الامير أو تسامحا ، حتى جاء الخبر من محافظ الاسكندرية إلى ديوان الوزارة بما كاد يودى بحياة الأمير . ذلك انه بينما كان قطاره الخصيص سائرا فى (محطة سيدى جابر) قاصدا (قصر رأس التين) إذ تحول بغتة إلى خط احد مخازن البضائع ، وكان بالمخزن إذ ذاك قطارا كبيرا من قطارات البضاعة ، فالتفت الأمير وسايق قطاره فرأيا ذلك الخطر الداهم فأوقفوا القاطرة بعد جهد جهيد على قيد شبر من قطار البضاعة . فانزعج الأمير وكاد سواق قطاره ان يقع مغشيا عليه ، وهرع عمال المحطة الى مكان الحادث . وقام الصياح من كل صوب ، وطيروا الخبر الى مدير السكك الحديدية فقام من فوره إلى الاسكندرية ومعه بعض أصحاب الوظائف ، وسافر جماعة من رجال القصر . وتفشى الخبر وتحدث الناس به وقال بعضهم أنه من عمل الحزب وأن العامل الذى حوَّلَ قطار الأمير الى خط البضاعة فجأة مشترك من كبار الحزب وهو من مشتركى لجنة الحزب ببولاق مصر ، وقال آخرون غير ذلك . وقام أصحاب الأحزاب المعادية الى(محمد فريد) وشيعته ينادون بالويل والثبور وعظائم الأمور . وكلم الأمير مدير السكك الحديد فى شأن ذلك غاضبا ، وألقى عليه تبعة إهمال أولئك العمال الصغار وعاتبه على تكرار حدوث هذا الحوادث الخطيرة . يقال وأوقف بين يديه ناظر تلك المحطة وأنبه ووبخه توبيخا شديدا . وأهتم مدير السكك الحديد لهذا الحادث اهتماما عظيما جدا ، ومازال حتى ظهر الحق كما يقولون وبان أن سايق قطار الأمير أو هو الأمير الذى كان يسوق قطاره لم يلتفت الى الإشارات المرفوعه والنصب المبسوطه للدلالة على إغلاق الخط والوقوف عند حدها . قالوا فزالت الظنون وبطلت التحرجات وأخبار السوء وزال ما كان يتوهمه الأمير جملة .

أقول وعاد رجال الحزب الوطنى ثانية الى ضجتهم الأولى ونقلت صحفهم قولا عن (السيد توفيق البكرى) شيخ مشايخ الصوفيه يشير فيه على (المابين) بجعل مصر إيالة تابعة تماما لدار السلطنة أو مملكة تتحد (بتركيا) كما يقولون ، ونادى مناديهم أن هذا من عمل صاحب القصر أيضا ، ثم عادوا فقالوا أنه أى صاحب القصر غاضب السلطان وأن قد وقعت بينهما وحشة واشتد بينهما الجفاء الى حد أن جعل الامير يحرض عرب

(الجزيرة) (والحجاز) على الدعوة له بالخلافة والخروج عن طاعة السلطان . قالوا وقد بعث البعوث والدعاة الى الاشراف والأمراء والكبار من أهل العصبية وزودهم بالهدايا والتحف الغاليه للنكاية بالخصوم . فقد نالوا من إسمه وكرامته وأعدوا له عدة المغالبة والقهر وهو مع ذلك لا يبدل من عزمه ولا يتحول عن قصده . ولم يشغل أصحاب هذه الصحف عن الإسترسال فى هذه المطاعن المعيبة إلا ضجة عاليه قامت فى مدينة دمياط وصيحة ممن يدعى (مصطفى الدرس) إلى ديوان الوزارة بأن (الحزب الوطنى) فى ذلك البلد قرر الفتك به وأنه سيلصق على جدران البيوت إعلانات بذلك ولمحافظ البلد يد فى ذلك . قال ومع أنه ضبط تلك الإعلانات وسلمها مع لاصقيها الى اصحاب الشرطة فإنهم أطلقوا سراحهم . وتقدم وكيل (اللواء) أمام المحققين مدعيا فأعانوه على قصده وضربوا بأقوال (مصطفى الدرس) وحكايته عرض الحائط . وجاء (الدرس) الى القاهرة ووقف بباب القصر وديوان الوزارة وطلب قيام احد مفتشى وزارة الداخلية من جماعة الإنجليز ليحقق ظلامته ويعرف مبلغ ما وصلت اليه قدرة أصحاب الحزب فى ذلك البلد الأمين . وقام لنصرته جماعة من أصحاب الصحف المعاديه ، فوقعت بين الفريقين حرب الأقلام بين شتم وسب وغمز ولمز ، وتحولت الخواطر عن القصر وأصحابه الى تتبع أدوار هذه الضجة القائمه بين الخصوم . وظل هذا حالهم وهذا شأنهم أياما كثيرة حتى فصل القضاء فى الأمر فعاد السكون إلى نصابه وبطلت تلك الضجة جملة .

ومن بديع أعمال اصحاب (الحزب الوطنى) فى هذه الآونة انه لما نودى بالدستور فى دار السلطنة وتحركت حفائظ (البلقان) وقام (البلغار) يطلبون الاستقلال والخروج من تابعية السلطنة العثمانية المعنوية ، جعلت (دولة النمسا) تحرض من بقى على الولاء من دول (البلقان) على الخروج وشق عصا الطاعة ، فاستهوت (اليونان) وغيرها فاختلط الحابل بالنابل . ووقعت بين الدولة العلية وتلك الممالك الصغرى وقام النزاع مما لا محل لذكره هنا . وتحققت الدولة العلية من فساد نية أصحاب سياسة النمساويين وسوء قصدهم بها فجعلت تناقشها وطال الأخذ والرد بين اصحاب الكلمة فى الدولتين . واستفحل الخطب واشتد الكرب . وأهاج الأمر غضب الترك على النمساويين فتحالفوا على مقاطعة التجارة النمساوية وغلق كل باب دونها ، وطيروا الخبر بذلك الى الآفاق . فما هو أن جاء الى مصر حتى رأينا (محمد فريد) رئيس الحزب الوطنى وعلى رأسه طربوش أبيض بشرابة زرقاء . قال هو الدليل على مقاطعة التجارة النمساوية لأن النمسا كانت أول دولة

اخترقت حرمة المعاهدات مع الدولة العلية وجرأت (بلغاريا واليونان) على فعل ما فعلتاه . قلت وما هى إلا عشية وضحاها حتى تسابق العامة والسوقة وأهل الحرف والصنايع إلى لبس ذلك الطربوش وسموه بطربوش الدستور العثمانى وهم يعتقدون أنه من صنع معامل طرابيش دار السلطنة ، وفاتهم أنه من مصانع النمسا ولكنهم لم يصبغوه ليخدعوا المتهوسين ويغرروا بضعفاء العقول ويوهمون الناس بفلاح تلك المقاطعة ، وتجارتهم في الخفية رائجة رابحة ، وصادراتهم إلى مصر فضلا عن سائر بلاد السلطنة العثمانية متتابعة متلاصقة . وبلغ إعجاب العامة وأهل الحرف الدنيئة بطرابيشهم تلك الجديدة مبلغا عظيما مضحكا ، وكان بعضهم يعلق لطربوشه الأبيض زرا أحمر وبعضهم زرا أصفرا وآخرون زرا أخضرا وغيرهم زرا أزرقا ، وقد زادوا فى طوله إلى شبر وربما شبرين وبعض أصابع . وكانوا إذا رأوا أحدهم بطربوشه الأحمر عنفوه وصاحوا فى وجهه وقالوا له أنت (نمساوى) يعنون (نمساوى الجنس) أو التبعة . ثم يقولون له أو ما ترى (فريد بك) رئيس حزبنا لا يلبس إلا الطربوش الأبيض السلطانى شعار الوطنية فألقى عنك هذا ، وربما ألقوه هم عنه قهرا .

أقول وكان لى سايق عربة عرفته فى كل أيام خدمته لى عاقلا رزينا كثير التأدب قليل الكلام ، وكان يسكن دارا تقرب من بيت العربة بالشارع المعروف (بشارع الدورة) من (خطة عابدين) . واتفق أن وقعت مشادة بينه وبين زوجته ثم مغاضبة أدت إلى ذهاب الزوجة إلى بيت أبيها فى (بولاق مصر) . فتركها أياما ثم ارسل إليها من يرجعها إلى معاشرته فلم ترض إلا بشرط إقامته معها فى دار أبيها ففعل ، وقد سألنى فى ذلك فلم أمنعه من قصده . وما هى إلا أيام حتى رأيته وقد كسر كلامه وعظمت عنايته بسماع حديث السياسات وأخبار الأحزاب ، وكنت إذا ركبت العربة أسمعه يهين كل من يراه فى طريقه من النزلاء والأجانب ويرعد ويزبد إذا رد عليه . فرابنى أمره وأشفقت من أن يكون أصابه مس من معاشرة زعانف (بولاق مصر) وسكان عطوفها لتغررهم بإتيان كل أمر معيب وكل عمل ممقوت ، فكتمت له هذا فى نفسى وجعلت أسايره كارها . فلما كان أحد الأيام جاءنى وعلى رأسه طربوش أبيض بزر أحمر فأضحكنى مسخته وتحققت أنه من رجال (الجزب الوطنى) المشبعين بتعاليمه وتقاليده وعاداته ، وأنه ربما كان من دعاته . فقلت له ما هذا يا (إبراهيم) وعهدى بطربوشك البارحة غيرها اليوم ، قال نعم هو

شارة الوطنية ودليل مقاطعة التجارة النمساوية . فقلت ومن علمك هذا؟ قال اجتمعنا الليلة البارحة برئيس لجنتنا للحزب الوطنى فى (خطة أبى العلاء) ﷺ فحدثنا الرئيس بخبر ما وقع بين سلطاننا نصره الله وبين النمسا من المشاحنة ، وأنه برز الأمر بمنع دخول البضاعة النمساوية فى بلاد الدولة كلها وأن يستبدلوا طرابيشهم الحمراء بهذه الطرابيش البيضاء من صنع معامل (اسطنبول) ، وأن رئيسنا (محمد بك فريد) جاءه الأمر من كبار جمعية الإتحاد بلبس هذا الطربوش الأبيض الذى صار من الآن شعارهم بعد إعلان الدستور وشعار الحزب الوطنى . فرسم (محمد) إلى سائر رجال الحزب وجميع اللجان الفرعية بوضع هذا الطربوش المبارك وقد لبسه هو قبل كل واحد منا فلبسناه نحن أيضًا واتخذناه شعار الوطنية التى نحيا ونموت من أجلها . فقلت وما هى الوطنية التى تحيون وتموتون من أجلها يا (إبراهيم) . قال سبحان الله ظننتك يا سيدى من كبار الحزب وأنت ولله الحمد معروف بين الناس فكيف لاتكون رئيسا من رؤساء اللجان الفرعية الكبرى كلجنة أبو العلا التى أنا من رجالها . وأما الوطنية فقد تلقيناها وتلقناها عن رئيسنا (الحاج عثمان السمكرى) فهى وفقنا الله وإياك إلى الشعور الحى ، الوجدان الصحيح ، الإحساس الشريف ، الوطنية الصادقة ، بغض الغريب ، الطاعة العمياء للرئيس الأكبر . قلت وما دخل الطاعة للرئيس فى الشعور والوجدان والإحساس وبغض الغريب ، قال هذا شىء تعلمناه ويتعلمونه مند حين فى (مدارس الشعب الليلية) التى أنشأها الحزب فى سائر أنحاء القطر وقد أفلحت ولله الحمد كثيرا حتى لقد سمعت أنه فى عزم الحزب أن يزيد درسا جديدا فى دروس تلاميذها هو تعليم استعمال السلاح الأبيض والنارى . قلت يا سبحان الله ولم ذلك يا (إبراهيم) وفى تعلم هذا الفن ما يشغلكم عن غيره من الآداب والدين ومصلحة الوطن والمسلمين . قال صدقت ولكننى سمعت أن الناجحين فى هذا العلم بين كبار الحزب كثيرون وقصدهم معلون عندنا ومعروف . ثم أخذه السعال فسعل ومخط وعاد يقول (ولسوف ترى يا سيدى وتسمع عجبا فى (رجب) وأن الألف لا شك تفتك بالباء فتنقضى أيام الصفاء وتتكدر ليالى الهناء والأمر يومئذ لله . فقلت أنى أقول لك يا (إبراهيم) أنى لا أحب الجفر ولا الرمل ولا (الزايرجة) وألفك وباءك هذان رمز معقد لا يفهمه إلا الراسخون فى (تخت الرمل) (وخاتم الزايرجة) . قال هذا والله ما تعلمته أنقله إليك لعلك تفقه ما فيه . فصرفته من يومه وقد استبدلنى الله خيرا منه .

فتأمل كيف يكون التأثير على عقول الناس والتغرير بهم إلى أشد المرامى خطرا وأضرها بالهيئة الاجتماعية .

أقول وقام من يدعى (محمود بك أنيس) وقرينه (حسن موسى العقاد) وغيرهما من المتصدرين فى مجالس السياسات يدعون الناس إلى التطوع فى الدفاع عن الدولة العلية ونصرة السلطان على أعدائه الخارجين عن طاعته ، ويحضون المسلمين عموما والمصريين خصوصا على الإلتصاق بعرش الخلافة وإلا ساءت العاقبة وزالت هيبة الإسلام والمسلمين . فقام أصحاب الصحف الضالعة مع أصحاب الإحتلال يسفهون أحلامهم ويعيبون عليهم قولهم ويقولون كيف لهؤلاء الأغرار العدول عن التطفل على موائد أهل السياسات والتورك فى مجالس أصحاب الكلمة المسموعة والرأى المتبوع ، وما بالهم يدعون الناس إلى دعوتهم تلك العاطلة والخلافة المزعومة باتت وأصبحت وقد تولاها الوهن والهزم وتغلب الإتحاديون عليها وتصرفوا فى أحكامها طوع أغراضهم ، فإن كانت حبا فى الدستور الذى دفع باليهودى إلى تقبيل المسلم وبالنصرانى إلى تقبيل الإثنين ، وقالوا أن شعارهم المساواة والأخاء والحرية ، فقد كذبوا فيما يقولون وها هى الفرقة بين العناصر فى مقر كرسى الخلافة واقعة ، والبغض يغلى فى الصدور على القدور والوثبة بادية لا يعلم عاقبتها إلا علام الغيوب .

قلت قالوا ذلك والأخبار تأتى تباعا من دار السلطنة برجوع الأمور إلى مجراها القديم وتغلب أصحاب حزب التأخر يعنى أنصار السلطان ورجال دولته القديمة على جماعة الإتحاديين ، وأنهم أوشكوا أن يكونوا أصحاب الكلمة المسموعة حتى بات الإتحاديون وهم لا يملكون من أمرهم شيئا وظهر عجزهم للناس أو كاد . وظهرت الفتنة بين العنصرين المسلم والنصرانى بأجلى مظاهرها بعد قتل العامة والسوقة لشاب يونانى وعشيقته المسلمة فى وسط اسطنبول . وتحرير الخبر أن شابا يونانيا ابن بستانى فى ضاحية (بشكطاش) افتتن بحب امرأة مسلمة مطلقة إسمها (بدرية) ، وكان يغازلها وتغازله كلما تمكنا من ذلك ، وكان أبوه ينهاه عنها ويحذره عاقبة أمرها ، فكان إذا تأخر الشاب عنها جاءته شاكية مدللة فيرجع إلى شأنه معها . فلما كان فى أحد الأيام وقد أتعب أباه النصح نظره مع تلك المطلقة يتبادلان الحب على عادتهما ، فأشبع ابنه تعزيرا وذهب من فوره إلى والد المرأة وأخبره بما بين ابنته وولده وسأله أن يرجع الإبنة عن هذا السلوك المعيب . فقام الرجل من ساعته واستغاث بصاحب الشرطة وجعل يصيح ويستغيث ويقول أمان إن النصرانى سطا على عرضه ، وأمسك بالشاب وعشيقته وقادهما

إلى بيت الشرطة والناس من خلفهم كثيرون . وما هى إلا ساعة أو بعضها حتى تجمهر الناس وهاجوا وماجو وطلبوا قتل الشاب وخليلته . وتدافعوا وتماسكوا وعلت الأصوات من كل جانب ، فبرز أحد المشائخ ينهى الناس ويدعوهم إلى السكنة فلم يسمعوا له . فطلب صاحب الشرطة النجدة من المراكز القريبة ومن (غلطه سراى) فجاءت نجدة قوية ولكنها لم ترض عن تفريق شمل المتجمهرين ولا أبدت إشارة . وامتنع ضابطها الذى يقال له (عثمان أفندى) عن مقاومة المجتمعين .

وظل الحال على هذا الهرج والهياج سبع ساعات حتى تمكنوا من الوصول إلي العشيقين وانهالوا عليهما بالضرب والعصى والهراوات وعذبوهما عذابا مميتا حتى قضى الشاب بين أيديهم وماتت (بدرية) فى مساء ذلك اليوم قبل أن تفيق من غشيتها . وتفشى خبر ما جرى فى أنحاء دار السلطنة فحسب عقلاء القوم لما سيكون من ورائه حسابا كبيرا . وخرج (الروم) بقتيلهم فى مشهد حافل للغاية فى (بيرا) وكان عددهم كثيرا جدا وهم على أشد هياج . وقد أوقفوا النعش أمام دار القنصلية!!!! وأخذوا رسم الجثة المشوهة . وشاع الخبر وتفشى بين الناس أن أولئك (الروم) تحالفوا على أن يذهبوا إلى (قراقول بشكطاش) ويشنقوا الضباط الذين مكنوا الشعب من فعلتهم تلك . وتسلحوا كلهم وخرجوا ، فسير (البطريرك المسكونى) بإرجاعهم وتلطف معهم كثير لعلهم يعدلون عن عزمهم . وباتوا وأصبحوا وقد ظهرت دلايل الفتنة والخروج فبرز الأمر بالقبض على أبى (بدرية) وعلى خمسة من الذين كانت لهم اليد فى تهييج العامة ، وقد وجدوا معهم مبالغ من المال وفيرة دلت على أن أعداء الدستور وأعوان السلطان كانوا قد اشتروا أولئك القوم ليكدروا بعملهم صفو الراحة ، فزاد الهرج وأخذت (المابين) وقصر السلطان صيحة أنصار الدستور من كل جانب ، وبلغت الحدة من القوم مبلغا . فشاع الخبر بأن برز أمر السلطان بعزل صاحب الشرطة وتجريد الضابط الذى شهد الحادثة ولم يقم بحق وظيفته من سائر رتبه ، وأنه سيعطى غرامه[٩١] كبيرة لأهل المقتول . وهب أصحاب الصحف على اختلافها إلى نصرة الروم وتقبيح ما وقع من العامة ولاسيما قتل ذلك الشاب ضربا بالهراوات . واستحلفهم[٩٢] باسم الوطن أن يخلدوا إلى السكينة فلا يأتوا بما يبلبل

(٩١) غرامة = دية قراءة ترجيحية .

(٩٢) واستحلفهم = واستحلفهم المسئولون أضيفت الكلمة ليستقيم النص .

الأحوال ، ومع ذلك فلم يسكن الهياج ولم ينكف (الروم) عن التسليح والإستعداد للأخذ بالثأر ، وقرروا أن يعاملوا المسلمين بالمثل فيقتلوا كل من يرونه منهم فى بيوت النصرانية . يقال ورضى بذلك المسلمون من أعداء الدستور واشتروا شيئا كثيرا من السلاح والبارود ، وبات الفريقان يترصدان بعضهما بعضا ويضمران الشر للإيقاع والفتك ، ورجال الحزبين يطوفان الشوارع مسلحين .

وعلقوا على جدار دار السلطنة منشورات تدعو المسلمين الصادقين إلى العمل على التخلص من الحكم الجديد بعنوان (حكم الدستور) ، ومن جماعات النصارى ويستفزونهم إلى القتل والذبح وهتك الأعراض . واشتد قلق الناس اشتدادا عظيما وقد كسدت سوق التجارة بسبب مقاطعة البضائع النمساوية وعزم أصحاب (الإتحاد والترقى) على الإيقاع بأصحاب هذه الفتنة ، وهؤلاء يتربص بعضهم لبعض للإقتتال وإراقة الدماء . وظهر لجماعة الإتحاد أن حامية الآستانة ضالعة من[٩٣] أعداء الدستور وأن السواد الأعظم منها بات فى جانبهم ، فعزموا على استحضار فيالق (مقدونية) المعروفة بتفانيها فى حب الدستور وقرروا توزيعها على أحياء العاصمة لتسهر على الأرواح والأموال . وتطرقت الفتنة وتفشت فى سائر أنحاء السلطنة وخصوصا (أرمينيا) . وجاءت الأخبار إلى كبار الأرمن من الآستانة بحدوث مذبحة كبيرة فى (ويران شهر) ، فتولى القوم الذعر وأخذتهم الطيرة وتحققوا أن الأمور باقية على حالها وأن النداء بالدستور ضرب من التضليل بالرعية ، وخاف أصحاب (الإتحاد والترقى) شر العاقبة وجعلوا يراقبون الحوادث وقد عرفوا أن (إبراهيم باشا الكردى) السفاح المشهور وهو سيف نقمة (السلطان عبدالحميد) لم يمت كما كانوا يشيعون وأنه فى (ويران شهر) حى يرزق . وهو الذى أباح للمسلمين قتل الأرمن ، فذبحوا ما بلغ عدة آلاف ولم يعفوا عن الأولاد الذين هم دون السابعة فأدخلوهم حظيرة الدين الإسلامى . ومما زاد فى خوف الناس طرا ما تحققوا من أن الجنود كانوا يعاونون الأكراد على الذبح والقتل وكل أنواع التعذيب . وكذلك فى (ديار بكر) يخشون حدوث مذبحة لأن الأكراد صاروا مع الجند يدا واحدة . وجاءت الأخبار متتابعة من والى (ماردين) ووالى (معان) بعبث الأكراد وأعمالهم فى كل صوب وناحية حتى أصبحت الأحوال فى خطر كبير . قال الراوى وكثر السخط على الهيئة الحاكمة

(٩٣) من = مع قراءة ترجيحية .

ووسموها بالعجز والقعود عن كبح أولئك لأكراد والرجوع فى معاملتهم إلى عهد (عبدالحميد) عهد الإفك والرياء . قال وقد يمكن إهلاك النصارى عن بكرة أبيهم قبل أن تأتيهم النجدة من جانب الحكومة . وبلغ الخلل والإضطراب فى أعمال جماعة الوزراء مبلغا ، وكل أعمالهم تخالف روح الدستور كتعطيل الصحف والقبض علي الناس بدون أمر ولا حكم بل بمجرد إشارة (الصدر الأعظم) وحده . وفقدت لجنة الإتحاد المركزية كل نفوذ وزالت صفتها أو كادت فأصبحت وهى لا تدرى على أية خطة تعول تجاه تعدى (النمسا) (وبلغاريا) وخصوصا إزاء هذه الحوادث المدلهمة وحزب كارهى الدستور . وقام كبار أعضاء لجنة (الاتحاد والترقى) وبينهم (الأمير صباح[٩٤] الدين) وأحمد رضا بك

(٩٤) البرنس صباح الدين (١٨٨٧ - ١٩٤٨) إبن الداماد محمود جلال الدين باشا و(سنيحة سلطانة) أخت (السلطان عبدالحميد) . أحد الذين انشقوا عن السطان عبدالحميد) وفر إلى خارج البلاد مع والده (الداماد محمود وأخيه (البرنس لطف الله) . ألف فى المنفى جميعة باسم (تشبث شخص وعلمى مركز يت جمعيتى) . تبنى إصلاحات اجتماعية أساسية فى الدولة ، وحبذ خلع السلطان (رغم أنه خاله) ، ولم يكن يمانع فى الاستعانة بالقوى الأجنبية عند قيام ثورة ضد الدولة بقصد إنجاحها . لم يستطع الوصول إلى تسوية لخلافاته مع باقى الفرق العثمانية المعارضة بما فيها (الاتحاد والترقى (وتركيا الفتاة) رغم أنه دعا إلى حل هذه الخلافات وشارك فى مؤتمرات من أجل توحيد القوى المعارضة ضد الدولة (باريس ٤ - ٩ فبراير ١٩٠٢) و(باريس ٢٧ -٢٩ ديسمبر ١٩٠٧) . كان من بين مبادئه المساواة بين كل شعوب وأجناس الإمبراطورية . أثرت فيه أفكار الفيلسوف الاجتماعى دى مولان Des Moulin التى كانت تدعو إلى تخريج المدارس لأجيال تعتمد على أنفسها ولا يطلبون السعادة إلا من كدهم واجتهادهم . ومن أجل نشر أفكاره المتأثرة بديمولان فقد أسس فى عام ١٩٠٦ فى باريس جريدة تحمل إسم (ترقى) . جذب (صباح الدين) بأفكاره فى شأن القوميات غير التركية ، الطوائف غير الإسلامية وغير الأتراك من رعايا الدولة . مع نجاح الاتحاديين فى يوليو ١٩٠٨ تراجع دور (صباح الدين) ، لكنه لم يفقد مكانته الشعبية . عاد (صباح الدين) إلى الدولة بعد إعلان الدستور وواصل عمله النضالى ، فألف ناديا فى الآستانة باسم (نادى النسل الجديد) ، وألقى محاضرات اجتماعية عن معنى اللامركزية ومبادئها ، وأصدر منشورات يشرح بها فكرته ، وبيانات تحمل عنوان (إيضاحات حول عقيدتنا) . ومع هذا فقد كان يؤمن بوحدة السلطنة العثمانية وأن قضيته فى هذا الشأن قضية إدارية بحتة . شعر الإتحاديون بخطورة أفكار (صباح الدين) المعاكسة ، والتى كانت تتعارض مع برنامجها فى الصهر والدمج والمركزية ، ومن ثم فقد شرعوا فى محاربته متهمين إياه بتشجيع العناصر غير التركية ومساعدتها فى الحصول على الاستقلال المحلى ، والتعاون مع الدول الأجنبية والاستعانة بها على بلاده . مع تزايد الضغط عليه قبل مكرها على دمج جمعيته (تشبث شخصى) فى (جمعية الإتحاد والترقى) فى نوفمبر ١٩٠٨ . بقى (صباح الدين) فى الآستانة حتى حدثت (ثورة ١٣ أبريل) المضادة للاتحاديين والتى اتهم بالمشاركة فيها واعتقل للاستجواب . إطلق الاتحاديون سراحه ، لكن الإهانات والملاحقة دفعته إلى ترك البلاد ثانية ملتجئًا إلى أوروبا حيث أخذ يبعث للإتحاديين الذين كانوا قد سيطروا على البلاد بعد (١٣ أبريل ١٩٠٩) رسائل تحمل عنوان (رسائل مفتوحة إلى جمعية الإتحاد والترقى) . فى المحاولة الانقلابية التي جرت ضد الاتحاديين فى يونيو ١٩١٣ حوكم (صباح الدين) غيابيا وحكم عليه بالإعدام مع آخرين .

- توفيق على برو (العرب والترك فى العهد الدستورى العثمانى ١٩٠٨ - ١٩١٤) مرجع سبق ذكره - ص ٨٠ - ٩٠ .

- مذكرات جمال باشا - تعريب على أحمد شكرى - مكتبة الهلال - القاهرة - ١٩٢٣ - ص ١٤ - ٢٦ .

- Stanford J. Shaw - op. cit., - pp., 258 - 262, 265, 776, 296

وغيرهما إلى (سلانيك) حيث يجتمع أعضاء الجمعية كلهم ويعقدون اجتماعا عموميا تؤخذ فيه قرارات عما يجب عمله فى تلك الآونة التى ضاقت حتى صارت كثم الخياط .

ارتبكت أعمال لجنة (الاتحاد والترقى) وكادت تقع فى الهزم والضلالة ، إذ انقسمت جمعيتهم على ذاتها واختلفوا فى ما بينهم أولا على خلع (السلطان عبدالحميد) . فجمعية (مونستر) ترى أن خلع السلطان أمر لا بد منه ولا مندوحة عنه وغيرها يرى غير ذلك ، ثم على مركز الجمعية هل يبقى كما هو (سلانيك) أو أنه ينقل إلى دار السلطنة . وفى ما إذا كانت الجمعية تبقى عاملة بعد تجديد مجلس المبعوثان ، (فجمعية سلانيك) (والآستانة) تريان إبقاء الجمعية عاملة مشرفة على عمل المجلس وعلى جماعة الوزراء إلى أن يثبت الدستور ، وجمعية (مونستر) وباريز تريان حل جميع الجمعيات السياسية حالما يعقد (مجلس المبعوثان[٩٥]) وتحويل تلك الجمعيات إلى خيرية أو اقتصادية أو ما شاكل ذلك فلايكون لها أقل شأن فى السياسة . والخلاف على هذه المسألة شديد جدا وغير ذلك ، فإنهم لما طلبوا من مقدمى جنود الحرس السلطانى والجنود أيضًا أن يقسموا يمين الأمانة للدستور امتنعوا جملة وكان ذلك باعثا على القلق والخوف من انضمام (حامية الآستانة) إليه فتكون الآخرة شرا من الأولى .

أقول وبينما الحال علي هذا وقد تناسى أهل الآستانة وغيرها ضجة مقاطعة التجارة النمساوية وشغلهم الشاغل إنما هو الخلاف القايم بين الروم والترك والكرد والأرمن والقلق المتحوز[٩٦] على أعضاء (جمعية الاتحاد والترقى) وانقسامهم على ذاتهم . بينما الحال على هذا إذ اجتمع تلاميذ المدارس العليا والثانوية والإبتدائية فى حديقة الأزبكية وهم فى ضجة وجلبة وأصحاب الشرطة حول الحديقة يحرسونها . فلما سكتت حركتهم وأمسك خطباؤهم عن الكلام قرروا مقاطعة البضائع النمساوية واستبدال الطربوش الأحمر بالطربوش الأبيض وتعيين لجنة لتنظر فى ما يجب على التلاميذ عمله لمساعدة الدولة العلية إذا نشبت الحرب بينها وبين دول النمسا أو بلغاريا مساعدة[٩٧] مالية . ثم قرروا أن

(٩٥) أى البرلمان .

- توفيق على برو - المصدر نفسه - ص ٢٩ وما بعدها .

(٩٦) المتحوز = المستحوذ قراءة ترجيحية .

(٩٧) مساعدة مالية = وتقديم مساعدة مالية للدولة العلية قراءة اجتهادية .

يرسلوا احتجاجا إلى وزير المعارف ضد ما وقع من حكمدار مديرية الجيزة مع تلاميذ مدرسة الزراعة . ولم ينفض اجتماعهم فى هذه الآونة أيضًا بغير صياح ولا نداء بيسقط ويحيى ، فقد صاحوا (ليسقط حكمدار الجيزة ليسقط الخائن) . ثم انصرفوا وهم على شأنهم من الضوضاء .

واتفق أن نشر فى هذه الآونة (السير غورست) تقريره السنوى عن أحوال مصر فى سياستها وأحكامها وجبايتها وسائر نقضها وإبرامها ، وفيه أن دولته لاتبدل ولا تغير من مركز مصر لأن صاحب سياستهم أعطى السلطان ورجال دولته والدول جملة عهدا باحترام سيادة السلطان عليها فلا السلطنة الإنجليزية[٩٨] ولا الأمة الإنجليزية تقدران على النكوص عن عهدهما ما شاءت الأقدار ، ولا أن تسأل مصر شيئا جديدا غير ما هو مقرر بالفرامانات السلطانية من عهد (محمد على باشا) . فلما تفشى هذا القول وتناقله أصحاب الصحف على اختلافها هب أصحاب صحف (الحزب الوطنى) إلى تسفيهه ، وردوا عليه ردا جافيا منكرا وأنحوا باللائمة على السلطان ورجال دولته وأصحاب (جمعية الاتحاد والترقى) ، ورموا العنصر التركى جملة . وقالوا أن بعضهم عيون لأصحاب الإحتلال فى مصر . فقام لردهم أصحاب صحف الأحزاب الأخرى وأرسل جماعة من أتراك الإسكندرية احتجاجا على جناح البرق ضد أصحاب تحرير (اللواء) يرمونهم بالتعدى والإفك المعيب ، ويسألونهم الكف عن هذا الكلام الشائن . وقام (الشيخ على يوسف) شيخ (حزب الإصلاح) يحبذ رأى (السير غورست) ويطرىء عبارته ويمجد أقواله ، وسير إلى أصحاب الصحف الأخرى يقول أن لجنة إدارة الحزب اجتمعت فى ليلة ثالث عشرى أكتوبر من السنة وتلى عليها تقرير رئيس الحزب فيما يتعلق بمركز مصر بإزاء حالة (تركيا) الجديدة وما هى الإمتيازات المصرية ولمن هذه الامتيازات ، وهل للمصريين حق الإشتراك فى (مجلس نواب السلطنة) ، وهل اشتراكهم فيه يؤثر على الإمتيازات المعلقة بإدارة مصر . قال وبعد المناقشة فى ذلك تقرر بينهم شكر دولة الإنجليز والأمة الإنجليزية على موقفهما الحالى نصيرتين للدولة العثمانية تجاه مطامع بعض الدول ، وشكرها على تصريحاتها بلسان (السير غورست) معتمدها فى ديار مصر

(٩٨) الإنجليزية = العثمانية قراءة ترجيحية .

المتعلقة بحفظ مركزها السياسى على ما هو عليه بدون تغيير سياسى فيه ، وأن سيادة الدولة العلية على مصر لا يطرأ عليها طارئ طبقا للعهود والمواثيق التى عاهدت بها الدولة الإنجليزية . قال رئيس الحزب ورجال لجنة إداراته (وإن ما نحس به ونشاهده من عواطف الإرتياح والتشجيع من قبل الأمة الإنجليزية لحكومة الدستور العثمانية يجعلنا نطلب بحق من هذه الأمة المحترمة أن تشجع طلاب الدستور النيابى فى مصر ولا تقف حجر عثرة فى طريقهم مهما كان رأى جنابكم (يعنون السير غورست) أو رأى صاحب السياسة الإنجليزية) . إلى أن قال . . . فلم يعجب قولهم أصحاب (الحزب الوطنى) وأخذتهم الصيحة من كل جانب وقامت بينهم حربهم التى اعتادوها عند كل حركة تبدو من أحدهم . ولم يردهم عن هذه الغارة أيضًا إلا وصول الخبر إلى قصر الإمارة وديوان الوزارة بظهور الحركة فى دار السلطنة ، وقيام أصحاب الاتحاد والترقى ومقدمى جند حرس الآستانة بطلب محاكمة (كور على) ورفيقه (بدشناق) اللذين قاما بالدعوة إلى الثورة . وتحرير الخبر أن (كور على) (وبدشناق إسماعيل) ذهبا معا إلى جامع الفاتح وخلفهما الخلق الكثير ، فخطبا فى ذلك الجمع بأن الدستور والمجلس النيابى مخالفان للشرع الشريف ، وأن الحرية والمساواة ألفاظ لا معنى لها وأن لابد للقطيع من راع يرعاه بما أنزل فى القرآن الحكيم . وأطالا الكلام فى معنى ذلك حتى التهبت صدور القوم حقدا وتولاهم الغضب . فاختاروا جماعة منهم وإلبسوهم العمايم وقلدوهم السلاح وساروا إلى (قصر يلدز) حيث يقيم السلطان (عبدالحميد) . ووقف صاحب الشرطة فى طريقهم يمنعهم من هذه المظاهرة فقال له (كور على) إنا فاعلون بوحى من الله لحفظ الإسلام والمسلمين وإنا نبغض ما يسمونه الدستور ولا نريد إلا العمل بالشريعة ولا نبتغى غير الخليفة أحدا . واتفق أن مرت عربة (شيخ الإسلام) وبعده عربة (الصدر الأعظم) فأوقفوهما وأطلقوا العيارات النارية فى الفضاء . وأمسك بعضهم بفراجية شيخ الإسلام وبعضهم بقفطانه وسبوه سبا معيبا وكذلك فعلوا بالصدر الأعظم . فأسرع أصحاب الشرطة وقبضوا على (كور على) ورفيقه وبعض أولئك المعممين وألقوهم فى الحبوس . ووقع الذعر وعم الخوف فتراكض الناس إلى دورهم وأغلق أصحاب الحوانيت حوانيتهم ، وبرز الأمر فأخذ أصحاب الشرطة الحيطة وشددوا الرقابة وبثوا الجند فى كل صوب وناحية ، ومنعوا من اجتماع العامة وجماعة الشيالين الذين هم مفاتيح مغالق الجرايم . وشدد

أصحاب الكلمة المسموعة من جماعة الاتحاديين على الصدر الأعظم فى طلب معاقبة (كور على) ورفيقه (بدشناق إسماعيل) . وقامت صحفهم تنادى بالويل والثبور وعظائم الأمور . وارتجت دار السلطنة من أقصاها إلى أقصاها وكثر الأخذ بالشبهات وتتبعوا كل من فى قلبه مرض من أعوان السوء وبطانة الشر . وقبضوا على أصحاب الجرايم الذين خرجوا يعيثون فى المدينة ، واهتم (الأمير صباح الدين أفندى) ومن معه من كبار جمعية الاتحاد والترقى بالأمر اهتماما عظيما جدا ووالوا اجتماعاتهم (بسلانيك) يدبرون خطتهم بعد أن تحقق للإتحاديين ما وصلت إليه جراءة كارهى الدستور وما يدبره أعوان السلطان . وبرز الأمر بتجريد ثلاث أورط من الجيش ليعاونوا أصحاب الشرطة فى المحافظة على الأرواح . وقدم من الآستانة إلى القاهرة الشريف سعد الدين باشا أحد أشراف مكة . يقال جاء فى مأمورية خصوصية ومكالمة مع الأمير ، وكان الأمير بمصيفه (كوله) مسقط رأس جده الأعلى ، فلبث ينتظر رجوعه . وكثر تحدث الناس بخبره . يقال وزاره (الشيخ على يوسف) رئيس (حزب الإصلاح) وزاره بعض عارفيه . ولم يعرف من سر مجيئه فى هذه الآونة شيء . فلما كان تاسع عشرى أكتوبر وصل الأمير إلى الإسكندرية فعملوا لوصوله التشريفة الكبرى بالإسكندرية أياما .

أقول وما كاد يستقر بالأمير المقام حتى اجتمع مجلس أعضاء شورى البلاد اجتماعهم المعتاد بعد العطلة الصيفية وقامت ضجتهم وعلت صيحتهم بالاحتجاج والرد على ما رمى به (السير غورست) المصريين من عدم استعدادهم للحكم النيابى ، وكانوا قد أعدوا العدة لذلك فى أيام العيد وأخذ كل منهم أهبته للجدال . فقام أحدهم وسط الجلسة يقول أن حالة الرى وعدم اهتمام أصحابه من الإنجليز بأمره لاسيما وتأخير رى الشراقى للآن حتى كاد الفلاح لايجد مأكلا لأنه لا يجد محصولا ، أمر لابد من الإلتفات إليه . وهذا القطن كادت أنواعه تتدنى وكميته تقل ، وذلك لأنه يحرم من الرى خمسة وعشرين يوما ويزيد ، فلا إصلاح لهذه الحال إلا باشتراك الأمة مع الإنجليز فى الأعمال ، لأن المصرى يعرف موضع الضعف والقوة من بلاده ، ونحن لانطلب دار ندوة كدار الإنجليز أو الفرنسيس كما يزعمون بل نحن نطلب ندوة تشارك الحكومة فى الأعمال الداخلية مع احترام العهود والمواثيق ، وترك جيش الاحتلال دون التعرض له . وإذا كانت هذه الأمة لا تهتم بشؤونها وأعمالها وإدارتها فلتنقل خزان أسوان إلى حافة

الإسكندرية وتملأ هذا الوادى بماء النيل ليظهر من هم الخاملون والكسالى ، ولعل من يأتى بعدنا يكون أحسن عملا وأصدق همة .

وقام بعده آخر وآخر وتكلم كل بما شاء فيما شاء . ووقعت المشادة وزاد الأخذ والرد ، وانقسم القوم إلى شطرين فى القول وطلب بعضهم الإقالة من عمل بعض اللجان ، وهب أحدهم يطلب من المجلس أن يرفع طلبه إلى الهيئة الحاكمة بإعطاء البلاد مجلسا نيابيا . فاجمعوا على عدم المناقشة فى هذا الأمر إلى حين . وانفضوا على هذا وفى خواطر بعضهم ما فيها .

أقول وكانت أخبار دار السلطنة تأتى فى كل يوم إلى القصر مجسمة منذرة بكل شر وبيل وقلق مقيم ، والناس فى حساب ما سيكون من وراء ذلك . فلما كان ثانى نوفمبر من السنة ثامن شوال سنة ستة وعشرين جاء الخبر وشاع بأن الأحرار عزموا عزما أكيدا على خلع السلطان (عبدالحميد) وتولية (محمد رشاد أفندى)[٩٩] بدله . فتحدث الناس فيه كثيرا حتى العامة والزعانف . وكثر التساؤل ، وأرسل جماعة من سكان الجلبة تحت اسم (الجمعية المصرية للإعانة الحربية العثمانية) على جناح البرق إلى شيخ الإسلام والصدر الأعظم ولجنة (الإتحاد والترقي) (بسلانيك) يقولون مس كرامة الخليفة الأعظم يسىء العالم الإسلامى أجمع فاتقوا شر الفتن . ا . هـ .

وظن القوم أن سعيهم هذا مشكورا فسيروا برسالتهم هذه إلى أصحاب الصحف ، فكانوا فى أمرها على طرفى نقيض ولا سيما أصحاب صحف الحزب الوطنى .

وكأن الأمير رأى أن العودة إلى القاهرة فى هذه الآونة الحرجة ومراقبة الحوادث عن كثب أمر تستلزمه الحكمة ، ولاسيما بعد أن ظهرت الحركة بين أعضاء شورى البلاد على ما تقدم بيانه . فقام من الإسكندرية فى خامس نوفمبر من السنة حادى عشر شوال يريد القاهرة ، وكان فى انتظاره على رصيف المحطة جماعة الأمراء والوزراء وأهل المناصب والعلماء والمشايخ ومقدمى الجند على اختلاف درجاتهم ورجال الدين . فلما وقف القطار نزل الأمير وسلم على الجمع المحتشد وحيته الجنود بالهتاف وركب عربته

(٩٩) السلطان محمد رشاد (محمد الخامس ١٨٤٤ - ١٩١٨) . السلطان الخامس والثلاثون من سلاطين الدولة العثمانية . تولى السلطنة عام ١٩٠٩ عقب عزل السلطان عبدالحميد . لم يتمتع بأى نفوذ حقيقى حيث سيطر الإتحاديون على مقاليد الحكم .

- محمد حرب (مذكرات السلطان عبدالحميد) - مرجع سبق ذكره - ص ١٣٣ .

الخصوصية وعلى يساره (الرئيس مصطفى فهمى باشا) وخلفه عربات الوزراء وأهل المناصب العالية . وكان قد وقف على رأس ميدان عابدين جماعة من تلاميذ مدرسة الحقوق وآخرون من المدارس الأخرى وعدد ليس بقليل من زعانف الحزب الوطنى وزعر بولاق مصر . فلما أقبل موكب الأمير صاحوا بأعلى أصواتهم (الدستور . . الدستور) . ولما مرت عربات الوزراء خلفه صاحوا عاليا جدا (استعفوا . . إستعفوا) . يقال فظهر الكدر على وجه الأمير وأضحك الوزراء سفاهة أولئك الصبية ولم يلتفت إليهم أحد . فظلوا على صياحهم هذا لحظة ثم تفرقوا . قيل وكانوا ينتظرون أن يأتيهم أصحاب الشرطة يفرقونهم فلم يفعلوا . وأصبحوا وقد أرسلوا إلى صاحب (جريدة الأهرام) يقولون أن هتافنا بالأمس كان للإستقلال فقط ، كذا للأمير ، وأنهم أرادوا بهذه المظاهره إظهار قصدهم لأصحاب الاحتلال ، قالوا لتفقد المعنى(١٠٠) المطلوب منها إذا كان الهتاف ليحيى الدستور ، إننا أردنا أن نقول للمتظاهرين السالبين حقوقنا إن تظاهركم هذا لايؤثر فى قلوبنا الحية وأننا لانزال نطالب بالاستقلال ونهتف له ، أما الهتاف الذى نسب إلينا (يعنون الصياح للوزراء بالاستعفاء) فلم يكن له موضوع اليوم ، وكان إذا حصل يكون بمثابة مطالبتهم بالدستور الأمر الذى لا نطلبه منهم أبدا حتى أننا لا نقبله إذا كان من عندهم . ا . هـ . قلت فتأمل .

بينما الناس على هذا القلق والقلوب فى وجل من جراء هذه الإرهاصات التى عمت البلاد من أقصاها إلى أقصاها إذ جعل الناس يتحدثون في مجالسهم الخصوصية بقرب سقوط الوزارة وتخلى (الرئيس مصطفى فهمى باشا) عن منصبه ، ثم تفشى هذا القول بين الكافة فعدوه حقيقة راجحة لا شك فيها . فلما كان عاشر نوفمبر من السنة زار السير (الدن غورست) الأمير فى قصره ومضى فى حضرته ساعة ثم انصرف ، فجاء (الرئيس مصطفى فهمى باشا) إلى القصر ولبث بحضرة الأمير لحظة أيضا . وبعد انصرافه عاد (السير غورست) ثم انصرف . وبعد انصرافه وصل (الوزير بطرس غالى باشا) ولبث بحضرة الأمير ساعتين ويزيد ثم خرج مع (الأمير محمد على) وسار توا إلى زيارة (فخرى باشا) وزير العمومية(١٠١) . وركب الخديوى من قصر عابدين غروبا إلى قصر القبة . وما

(١٠٠) لتفقد المعنى المطلوب منها = والمعنى المطلوب من المظاهرة قراءة اجتهادية .

(١٠١) وزير العمومية = وزير الأشغال العمومية .

ـ فؤاد كرم (النظارات والوزارات المصرية) ـ الجزء الأول ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ١٥٤ – ١٦٢ .

هى إلا لحظة بعد ذهاب الأمير حتى شاع الخبر وتفشى القول بين الناس أن الرئيس وإن كان يطلب إقالته من منصب[١٠٢] الوزراء بالكتابة ولكنه أعرب للأمير عن عزمه على الإستعفاء والتخلى عن منصبه ، وأن الأمير استدعى (الوزير بطرس غالى باشا) ليوليه منصب الرئاسة ، وأن الوزير زار سائر قناصل الدول وأبلغهم خبر استعفاء الرئيس ، ثم عاد بعد ذلك وأبلغ الأمير خبر ما فعل ، ولبث بحضرته ساعة أخرى وخرج من القصر إلى حيث (السير الدن غورست) .

وبات الناس وأصبحوا وهم يتوقعون التغيير المرجو . وما جاءت الساعة العاشرة صباحا حتى سقطت الوزارة جملة . وقبل الظهر استدعى الأمير (الوزير بطرس باشا غالى) لتناول الطعام على مائدته وقد ولاه الرئاسة وكلفه باختيار جماعة الوزراء الذين تتألف منهم وزارته الجديدة . ويقال أن الوزير سأل الأمير مرارا وبشدة أن يعافيه من تشكيل وزارة يكون ضمن أعضائها (الوزير فخرى باشا) . قال لأنه يجله ويعظم قدره ويرى أنه أحق بالرياسة منه فلم يرض ورسم إليه بالتعجيل ففعل كارها ، وطلب من الأمير أن يؤلف وزارته من (فخرى باشا) لوزارة المالية (وسعد زغلول باشا) للمعارف (وإسماعيل[١٠٣] باشا) للأشغال العمومية ووزارة الحرب (ومحمود[١٠٤] سعيد بك) للداخلية ورشدى باشا للحقانية ، وحفظ لنفسه منصبه الأول وهو وزارة الخارجية مع منصب الرياسة . واجتمع الوزراء وساروا مع الوزير (بطرس باشا) إلى القصر فتمثلوا بين يدى الأمير ولبثوا فى حضرته لحظة لطيفة ثم انصرفوا . وقد بقى (الوزير بطرس باشا) فى القصر وقتا طويلا . ثم برز الأمر بهذا التعيين . وجاءت الأوامر من صاحب سياسة الإنجليز مشددة على المستشارين من جماعة الإنجليز فى دواوين الدولة بأن يكونوا عونا للوزراء في أعمالهم وأن يكونوا كسائر الموظفين يأتمرون بأوامرهم بل أن يكونوا مستشارين فقط .

أقول : وفرحت الناس وانقبضت أخرى بولاية (الوزير بطرس غالى باشا) . وجاءته رسائل التهانى من كل صوب وناحية ، وأطرته الصحف الأجنبية وعددت محاسن أعماله

---

(١٠٢) منصب الوزراء = منصب رئيس الوزراء قراءة تصحيحية .

(١٠٣) وإسماعيل باشا = وإسماعيل باشا سرى قراءة تكميلية .
- المرجع السابق - ص ١٦٦ .

(١٠٤) ومحمود سعيد بك = ومحمد سعيد بك
- المصدر نفسه - ص ١٦٦ .

السياسية وقدرته على التوفيق بين مصالح بلاده ومصالح الدول صاحبات الشأن فى ديار مصر . وجاءته كتب التهانى من أصحاب سياسات الدول كلها ، ووقف على بابه الشعراء وهو على ما به من تواضع وكرها للظهور ، ورأيت أبياتا لعظيم من الشعراء فى سقوط وزارة (الرئيس مصطفى فهمى باشا) وفى ولاية الوزير بطرس باشا ، يقول على لسان الوزارة الساقطة :

عجبت لهم قالوا سقطت ومن يكن ... مكانك يأمن من سقوط ويسلم
فأنت امرؤ الصقت أنفك بالثرى ... وحرمت خوف الذل ما لم يحرم
فلو أسقطوا من حيث أنت زجاجة ... على الصخر لم تصدع ولم تتحطم

(لاقطة)

يقول بطرس

أصبحت فى حيرة وهم ... ما بين مصر وبين فهمى
هذى تنادى نداء عان ... تلاق امرى ووداو[١٠٥] سقمى
وذاك يرجو رجاء خل ... له أياد على تهمى
دعها تنادى بما تنادى ... وكن على خطتى ورسمى
فالسلم درس وقد علمنا ... مغبة السلم كيف يحمى

* * * *

يا ربى بابن البتول حطنى ... وزن مقامى وطهر اسمى
فإنى أن يرث خلى ... عقفت لاشك خير أم

(المنجم)

وقبل أن يبرز الأمر باعتماد تشكيل الوزارة على ما تقدم بك بيانه وعلم (السير غورست) ذلك الساكت القاعد فى مقر داره بولاية (فخرى باشا) وزارة الخزينة ، سير بخبر ذلك على جناح البرق إلى صاحب السياسة الإنجليزية . فما هى إلا عشية حتى جاءه الأمر بتخليه عنها واختيار (حشمت باشا) بدلا منه ، فخلع (فخرى باشا) نفسه

(١٠٥) ووداود = ودواء قراءة اجتهادية .

وتولاها (حشمت باشا) وقد كان الناس يتوقعون ذلك لما بين (فخرى باشا) وجماعة الإنجليز لعهد الأمير توفيق باشا .

أقول وما هى إلا أيام بعد أن تولى الوزراء مناصبهم حتى ظهرت ضجة من حول نادى (الحزب الوطنى) تفيد أن أصحاب الحزب غير راضون عن الوزراء الجديدة لأن رئيسها نصرانيا . ثم قام أحدهم مدفوعا وجعل يبدى ويعيد بين مستحسنا ومستقبحا ومصوبا ومخطئا وناكرا[١٠٦] فضل الرجل وكفاءته ووطنيته ومعرفته ، شاهدا له بسلامة النية وعلو الهمة والقدرة على حل المشكلات وتقليل الملمات ، وكان فى كل هذه الأطوار يدعى التأدب حتى قال إنَّا إذن أعضاء (الحزب الوطنى) إذا[١٠٧] أعلنا عدم ثقتنا بالرئيس الجديد فإنا نترجم عن العاطفة (الوطنية ، وإننا مستعدون أن ننسى الماضى وأن نرحب سلفا برئاسة ذلك الوزير إذا قام بخدمة البلاد بما تقتضيه النزاهة والوطنية الصحيحة والمستقبل خير رقيب فلننتظر[١٠٨] . ا . هـ .

أقول ولقد تعب الناس فى معرفة رأى ذلك الحزب المبارك الميمون إذ تعددت آراء أصحابه وتضاربت أغراضهم واختلطت أغراض رئيسهم (محمد فريد) أيما اختلاط ،

(١٠٦) وناكرا = وشاكرا قراءة اجتهادية .

(١٠٧) إذا = إذ قراءة اجتهادية .

(١٠٨) اختلفت الآراء فى عام ١٩٠٨ حول تعيين (بطرس باشا غالي) لرآسة النظارة . فالرجل كان صاحب تاريخ غير مقبول من جانب بعض القوى الوطنية على الساحة . فهو الذى وقع اتفاقية السودان (١٨٩٩) والتى أصبحت بريطانيا بمقتضاها شريكة لمصر فى تلك البلاد ، بل ومسيطرة عليها بعد ذلك . وهو الذى رأس المحكمة المخصوصة التي حاكمت متهمى حادث دنشواى (يونيو ١٩٠٦) والتى نسب إليها أنها أصدرت حكمها القاسى الذى كان معدا مسبقا بالاتفاق مع الاحتلال البريطانى .

وكانت البلاد تموج منذ عام ١٩٠٧ بحركة الأحزاب السياسية الجديدة ، ودعاوى الجامعة الإسلامية ، وعمليات التهييج الثورى المستمر ، وكان (جورست) يزكى نار الفتنة الطائفية فى البلاد . وظهرت بعض مظاهر هذه الفتنة فى ذلك الوقت ، وتعالت في عام ١٩٠٨ الصيحات للمطالبة بالدستور أسوة بالدستور الذى أعيد فى تركيا بعد نجاح ثورة الإتحاديين . وكان تعيين (غالي) فى ذلك الوقت يعنى ـ حسبما تصور الكثيرون ـ استخدام الإحتلال له لقمع الحركة الوطنية التي كانت فى حالة غليان وفوران ، والرجل كان معروفا عنه أنه استرضائى النزعة ومجامل بما يعنيه ذلك من بذل كل جهد لإرضاء الوجود البريطانى فى البلاد . فى وقت كانت البلاد تغلى ضد الاحتلال ووجوده . من هنا فإنى أقول أن (بطرس باشا) لم يكن الرجل المناسب لهذا المنصب ـ ولقد قتله (عباس حلمى) (وجورست) عندما رشحاه لهذه المهمة الثقيلة .

ـ محمد عبدالرحمن برج (دراسة فى الحركة الوطنية المصرية ـ وزارة بطرس غالى ١٩٠٨ - ١٩١٠) ـ الطبعة الثانية ـ مكتبة الأنجلو المصرية ـ القاهرة ١٩٨٠ ـ مواضع متفرقة .

ـ آرثر جولد شميت (قاموس تراجم مصر الحديثة) ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ٦١ - ٦٢ .

ـ مذكرات سعد زغلول ـ الجزء الثانى ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ٧٣٥ وما بعدها .

حتى بلغ بهم الخلط والهتر إلى أن نقل عن رئيس تحرير لوائهم أنه سعى سعيا حثيثا ضد ولاية الوزير بطرس باشا لأسباب يزعمونها ، كأن (محمد فريد) ورئيس تحرير صحيفتهم تلك قد امتطيا صهوة التغلب على دست الإمارة فتصرفا فى أحكامها طوع أغراضهما فى رجالها وأهل خططها وسائر نقضها وإبرامها ، والله يعلم والناس طرا يعلمون أن القوم لم يكونوا ليملكوا من أمرهم شيئا ولا هم من وحدة الكلمة والرأى فى شيء ، وكلهم مجازف فى استحال[١٠٩] الأمر فخاطر[١١٠] فى القول والعمل ، لايملك نفعا ولا ضرا سوى ما يشوه فى نفوس تلاميذ المدارس والسوقة وزعانف القوم من بغض الهيئة الحاكمة والهرج لسبب ولغير سبب . ولقد تسحب فى حادى عشر نوفمبر من السنة أولئك التلاميذ من كل صوب وحدب ومعهم جماعة السوقة وزعر العطوف ممن اعتادوا النداء بيسقط ويحيى ويعيش إلى (شارع محمد على) وهم فى حركة تزاحم بالمناكب ، وكان الأمير على عزم المرور بموكبه فى ذلك الشارع . فلما أقبل الموكب صاح التلاميذ من كل جانب (فليعش الأمير) (فليعش الدستور) (فليسقط الخونة أعداء الوطن) . فصاح العامة واختلط النداء . فمن قائل (فليعيش أفندينا) ومن قائل (فليمت الكفار) ، وعلت الأصوات بهذا وأشباهه واشتدت الجلبة وترامح الصبيان وهو يصيحون بكلمات لا معنى بها . يقال شوهد (محمد بك فريد) رئيس الحزب فى أحد حوانيت (باب الخلق) يحث القوم على طلب الدستور ويشجعهم على اللجاج فى ذلك . فلما انتهى موكب الأمير جعل أصحاب الشرطة يفرقون الجمع ويخوفون العامة والصبية بالقبض عليهم إذا لم ينصرفوا . فتفرقوا وعاد التلاميذ أدراجهم وكأنهم قد أتوا عملا مشكورا .

وحل الأجل المضروب لخروج ركب المحمل على طريقته المعتادة في كل عام ليلة كانت ليلة السبت . أقاموا سرادقا فخيما بجانب المسطبة زينوه بالرايات والمصابيح والثريات . وأعدوا فيه المقاعد للمدعويين من الأمراء والكبراء والعلماء والمشايخ والأعيان . وباتوا وأصبحوا وقد احتفلوا بتسيير موكب المحمل . فركب الأمير فى موكبه مع جماعة الوزراء وعلى يمينه (الوزير بطرس باشا غالى) فأطلقوا المدافع إجلالا لقدومه ، فقابل الأمراء والكبراء والعلماء . ودار جمل المحمل دورته المعتادة ، فتناول الأمير زمام

(١٠٩) استحال = استفحال قراءة اجتهادية .
(١١٠) فخاطر = مخاطر قراءة اجتهادية .

الجمل وقبله وسلمه إلى من حوله فقبلوه واحد واحدا . قيل والتفت الأمير فلم ير في ركب المحمل جماعة الصوفية وأرباب الأشاير والطرق والمعممين الذين يحتفلون بتشييع الركب في كل طلعة بطبولهم وزمورهم وراياتهم وصيحاتهم المألوفة من القدم ، وعلم أن (السيد توفيق الكبرى شيخ مشايخ الصوفية) منع أولئك القوم من الحضور فى ذلك اليوم على غير سبب . فالتفت إليه ووبنه وأشبعه بقارص الكلام . فخرج السيد غاضبا ورد على الأمير ردا غير جميل . فلما انقضى الاحتفال وعاد الأمير إلى قصره سير إلى السيد من يعيب عليه عمله ويكلفه بالتخلى عن منصبه . وقيل أن السيد لم يطق الصبر على ذلك المكروه فعجل بتنزيل نفسه من منصب المشيخة وأصر على عزمه فأجيب إلى طلبه . وشاع خبر ما جرى فى ذلك اليوم وتحدث به الخاصة والعامة وكلهم مجمع على أنه عمل غير صالح . قالوا ولم يكن منع أرباب الطرق والأشاير من السير فى ركب المحمل من الأمور التى تقضى بمثل هذا . قالوا وربما كانت هناك أمورا أخرى . وعندى أن الدافع على هذه المغاضبة والمشادة أنه لما نادى أصحاب الإتحاد والترقى بالدستور وبلغ صدى ندائهم القاهرة كتب (السيد توفيق) فصلا إرتأى فيه جعل ديار مصر مملكة وجعلها متحدة بالسلطة العثمانية كاتحاد بلغاريا بالنمسا . ولما تفشى خبر هذا الكتاب وتناقلته الألسنة ظن الراصدون لحركات الأفكار من أهل الاحتلال وغيرهم أن الأمير يميل إلى هذا الرأى أو أنه يبثه فى الخفاء ليهيىء الأمة لقبوله والعمل به . وبلغ خبر ذلك مشوها مقلوبا ديار الغربيين ، فقامت صيحة أصحاب صحفهم جملة وجعلوا يقولون أن الأمير سيعلن إستقلال بلاده كما فعلت بلغاريا . فأخذت الأمير ثورة الغضب وحسب لذلك حسابا كبيرا . وأحس (السيد توفيق) بما وراء ذلك فحاول التخفيف من الأمر وأن يهون على الأمير ، فكتب فصلا مطولا فى إحدى الصحف الوطنية عن الحركة القائمة فى البلاد وشفعها بإطراء مقاصد الأمير ، ولكن الأمير لم يغتفر الأولى بالثانية ، ولما وقع نظره على (السيد توفيق) فى حفلة المحمل ، وما كان من أمره فى منع أرباب الطرق وجه إليه كلاما مرا ونقدا شائنا فند[١١١] بالسيد على ترك المجلس غاضبا وتنزيل نفسه من منصب المشيخة . وظلت الوحشة بينهما والمشادة واقعة حتى مرض السيد عصبيا وسافر إلى الشامات طلبا للعافية .

(١١١) فند = مما حدا قراءة اجتهادية .

أقول وسئمت نفوس الخلق من تعدد تلك المظاهرات الصبيانية وصياح العامة والسوقة وزعر بولاق مصر بيحيى ويسقط ويعيش ويموت ، ورأى أصحاب الاحتلال أن ما كان من تسامح الأمير ومنعه لأصحاب الشرطة من مؤاخذة أولئك الصبية والضرب على أيديهم قد شجعهم على هذا الطيش الممقوت . وكأن الأمير قد عاد يفكر فى أمرهم ووجوب ردعهم أو أن أصحاب الاحتلال رأوا فى ذلك ، فأخذوا الحيطة وأقعدوا لأولئك الصبية بالمراصد . واتفق أن ذهب الأمير لصلاة الجمعة (بالمسجد الزينبى) فاهتم أصحاب الشرطة فى ذلك اليوم براحة الأمير فى طريقه وصلاته ، فأوقفوا الجند صفا من القصر إلى المسجد على جانبى الطريق ، وأوقفوا جماعة أخرى صفوفا أمام المسجد ، وأقفلوا بعض القهاوى وأدخلوا الجالسين على الأرصفة إلى البيوت والمخازن ومنعوهم من رؤية ركب الأمير ، وطوقوا مصلى الأمير فى وسط المسجد بجماعة من العسكر أيضًا وأرسلوا قوة إلى (مدرسة فيكتوريا) الكائنة بشارع مصر القديمة وهى إحدى المدارس الأجنبية التى يؤمها ساقطو امتحان المدارس الأميرية على اختلافها . وطاف محافظ المدينة الشوارع بعربته يمنع من اجتماع العامة . وركب وزير الداخلية على يسار الأمير . قيل وفيما هم على هذا إذ جاء الخبر إلى محافظ المدينة بتأهب تلاميذ بعض المدارس ومنها (مدرسة فيكتوريا) تلك بالتظاهر أمام الأمير وطلب بعض المطالب البعيدة ، ولعل خبر ذلك كان معروفا عند صاحب الشرطة من قبل . ولما اقترب موكب الأمير من رأس شارع المسجد برز صبى من أولئك الصبية وصاح بأعلا صوته (ليحيى الدستور) فقبضوا عليه وأخذوا بخناقه إلى بيت الشرطة وسجونه[١١٢] وقبضوا على آخر فى ساحة قصر عابدين كان يذكر أخبار الثورة العرابية جهارا ويحبذ ما فعله (عرابى) وأصحابه ويقول أنه كان نبيا أو ملكا كريما ويتمنى لو أن الله سبحانه يرجعه إلى أهله وبلده . وانكمش التلاميذ فى ذلك اليوم فلم يتظاهروا ولا عملوا بهولهم[١١٣] وما فى نفوسهم بعد تلك الحيطة الكبرى . وأصبحوا وقد سيروا[١١٤] وزير المعارف فى طلب جماعة من تلاميذ مدرسة الحقوق الذين أشرأبت نفوسهم بحب الإنتصار لأصحاب الحزب الوطنى والميل

(١١٢) وسجونه = وسجنوه قراءة ترجيحية .

(١١٣) بهولهم = اجتماعهم وتداعيهم باستنزال اللعنة على الظالم منهم - (باهل) بعضهم بعضا) أى فعلوا ما شرحناه فى الكلمات السابقة .

- المعجم الوجيز - مرجع سبق ذكره - ص ٦٥ .

(١١٤) سيروا = سير قراءة ترجيحية .

إلى السياسات والاشتغال بها عن العلم ، وشدد عليهم فى أن ينصرفوا عن ذلك إلى العلم وأن يقلعوا عن هذه الأعمال الشائنة المعيبة وأن لا يجعلوا لأهل الحل والعقد سبيلا إلى مؤاخدتهم . وحذرهم من سوء العاقبة وذلك العقاب الرهيب .

حدثنى صاحب من أهل المناصب قال ما اتخذ صاحب الشرطة تلك الحيطة الشديدة محافظة على سلامة الأمير إلا مكرها مسوقا . فإنه بينما الأمير لاينكر على الرعية إخلاصها وتفانيها فى محبته والإلتفاف حول عرشه وهو يجاهر بذلك عن كل حادث يقع إذ جاءه قبل الجمعة الذى صلى به (بالمسجد الزينبى) كتاب تهديد ووعيد باسم تلاميذ المدارس . وعلم رجال القصر من مصادر حقيقية أن قد تألفت فى القاهرة عصابة قوية تريد الفتك بصاحب القصر ، فأخبر الأمير بخبر ذلك ، فكبر عليه وأعظمه وكلم جماعة الوزراء فى ذلك وعاب على صاحب الشرطة تراخيه وإغضائه . وكان صاحب الشرطة كلماهم بمطاردة أولئة الصبية والضرب على أيديهم جاءه الأمر من باب النصر[١١٥] بأن لا يتعرض لهم بسوء وأن لا يحرمهم من حريتهم الشخصية ، فرجع غاضبا وهو يرى الخطر يتفاقم والبلاء يتعاظم . فلما عاب عليه الأمير تغاضيه رد على الأمير ردا جافيا فأثبت براءته وقال إن الشر كل الشر فى إغضاء أصحاب القصر أنفسهم وفى حيلولتهم بين الشرطة وهؤلاء التلاميذ وقد خرجو من الحظر إلى الإباحة وعن الحلية إلى الحرمة ، ولسوف يواقعون محرما من أكبر الكباير إذا ظلوا على شأنهم هذا . قال وأحس الأمير بأن حاله مع أولئك الصبية على[١١٦] تخفى على أحد وأن بقاء الأمير[١١٧] على هذا ضرب من التغرير وأن الفتنة واقعة لا محالة ، فاعرض عنهم وشاع[١١٨] بوجهه عن رسلهم . فانقبضوا عنه وهبت صحفهم إلى التهديد والوعيد وكثرت كتبهم ورسائلهم إلى الصحف المحازبة وغيرها بالطعن والوقيعة إلى أصحاب القصر ، بعضها تحت امضاء (حجة الإسلام) ، وبعضها باسم (الناقد الخبير) وبعضها باسم (سيف الحق الباتر) ، وغير ذلك كثير حتى أسفوا البطانة وأحقدوا الخاصة والله عليهم[١١٩] بما وراء ما يفعلون .

---

(١١٥) باب النصر - أصحاب القصر قراءة ترجيحية .
(١١٦)على = لا قراءة ترجيحية .
(١١٧) الأمير = الأمر قراءة ترجيحية .
(١١٨) وشاع = وأشاح قراءة اجتهادية .
(١١٩) والله عليهم بما وراء ما يفعلون = والله بما وراء ما يفعلون عليم قراءة ترجيحية .
-راجع - ص ١٠٢ حاشية ٩ (جمعية الانتقام المصرى) .

قلت وما هى إلا عشية أو ضحاها حتى برز الأمر إلى صاحب الشرطة بالعدول عن الحيطة التى تقرر اتخاذها عند صلاة الأمير يوم الجمعة . قالوا لأنه لايريد الحيلولة بينه وبين أمته في روحاته وجياته[١٢٠] ليحيد[١٢١] لها . وسرعان ما تبدلت الأحوال وانقلبت انقلابة أخرى ورسم الأمير بمجيء تلاميذ المدارس الأميرية على تعدد طبقاتها إلى القصر عند عمل التشريفات الكبرى وعينوا لهم ساعة مخصوصة يدخلون فيها قاعة التشريف صفوفا خلف بعض . فكان ذلك أول حادث تاريخى وقع فى نظام الإمارة الداخلى منذ عهد (محمد على باشا الكبير) .

أقول وكما كان قبول تلاميذ المدارس فى قاعة التشريف حادثا تاريخيا جديدا فى نظام مصر فقد كان لذلك[١٢٢] حضور جماعة الوراء فى جلسة مجلس شورى البلاد وسؤالهم كل فيما يختص بوزارته ومناقشتهم الحساب . ذلك أنه لما كان قانون الشورى يحتم على جماعة الوزراء حضور جلسات الشورى بحكم المادتين ٢٧ و ٢٨ ، وكانت هيئات الوزارات السابقة تستنكر حكمها ولا تعمل به تعاظما واستكبارا ، فقد قام أصحاب الشورى يطلبون من (الوزير بطرس باشا غالى) الرجوع إلى حكم تينك المادتين والعمل بهما . فلم يأباه عليهم وعمل جهد المستطاع على التوفيق بين مطالب الأمة وأغراض أصحاب الاحتلال وقد كان عميدهم يرى أنه[١٢٣] ساعة العمل بهذا القانون لم تأت بعد وأن حالة أصحاب الشورى تستلزم التأنى والمطاولة . وظل (الوزير بطرس باشا غالى) على سعيه حتى نال قصده وفاز بأمنية أصحاب الشورى . فلما كان ثالث ديسمبر من السنة تاسع القعدة سنة ستة وعشرين وثلثمائة وألف ، اجتمع أصحاب الشورى في دارهم . وفيما هم مجتمعون إذ دخل (الوزير بطرس غالى) ومعه جماعة الوزراء . فلما استقر به المقام قام وتلا خطابا وجيزا ذكر فيه حقوق جماعة الوزراء وما عليهم من الواجبات نحو القانون النظامى والمباحثة فى شؤون الأمة مع رجال شوراها ، وقال إن رغبة الحكومة فى الاشتراك من[١٢٤] هيئة الشورى فى نظر المشروعات عظيمة جدا . رجاء[١٢٥]

---

(١٢٠) جياته = غدواته (يروح ويغدو) قراءة تصحيحية .

(١٢١) ليحيد لها = استبعدت الكلمة لعدم تأثيرها على النص قراءة ترجيحية .

(١٢٢) لذلك = كذلك قراءة ترجيحية .

(١٢٣) أنه = أن قراءة ترجيحية .

(١٢٤) من = مع قراءة ترجيحية .

(١٢٥) رجاء = ورجا قراءة اجتهادية .

أن يبقى الوفاق سايرا بين الفريقين ، ولهذا قد عزم على أن يحضر جلسات المجلس كل وزير يختص بوزارته بالمشروعات المعروضة على الشورى . فأعجب القوم كلامه وفرحوا به فرحا عظيما . وقام (إسماعيل باشا أباظة) وامتدح الوزير وأثنى عليه ثناء جميلا ، وقال أنها لخطوة واسعة في سبيل تقدم البلاد وفلاحها ، ثم تلاه (حسن بكرى بك) فقال مخاطبا (الوزير بطرس باشا) وجماعة الوزراء .

يا صاحب العطوفة ويا صاحب السعادة . إسمحوا لى إن أقول أن هذا الاجتماع سيكون فاتحة عصر جديد فى حياة هذا المجلس ، لأننا جميعا بلاشك نعتبر أن وجودكم بيننا اليوم هو مقدمة للتضامن الذى يجب أن يكون بين نواب الأمة وبين رجال حكومتها ، ليكون التفاهم فى جميع المسائل التى تعرض من الحكومة أو تعرض منا سائدا ، لأن من القضايا المقررة كثيرا من الأمور التى تختلف العقول فى وجه النظر إليها يسهل حلها والتفاهم فيها إذا عرضت من أحد الجانبين البيانات والأسباب الداعية إلى وضعها بالصورة التى عرضت بها . وفى ذلك من توفير الوقت وإحكام العمل ما لايخفى على أحد .

وإن وزارة تكون فاتحة أعمالها هذا التقرب وهذه الرغبة في التوفيق والخير العام لهى وزارة جديرة بما قوبلت به من جميع طبقات الأمة المصرية من الرضاء والثناء ، فإنه فضلا عما نعرفه من قبل فى أفراد أصحاب السعادة الوزراء من الكفاءة والرغبة الصحيحة فى خير البلاد ومثابرة العمل فى خدمة المصلحة العمومية ، فلا نزاع فى أن هذه الخطة خطة الإشتراك والحضور فى جلسات المجلس من أول الأعمال على سياسة وزارتنا الجديدة . وإنا لنرجو أن يكون من وراء هذه الخطة تقدير رغبات الذين يمثلون الأمة فى جميع مصالحها ومطالبها الإصلاحية . فكل سعى من هذا القبل يعود فخره على الأمة بأسرها وفى مقدمتها وزراء البلاد أنفسهم ، وعلينا بعد ذلك أن ندعو بطول بقاء سمو مولانا (الخديوى عباس حلمى الثانى) الذى له الفضل الأول فى اختيار هذه الوزارة العاملة المجدة الآخذة في أسباب ترقية هذه البلاد .

فنسأله سبحانه تعالى أن يوفقنا جميعا لما فيه خير الأمة وسعادتها بالنجاح والإفلاح أنه على كل شىء قدير . ا . هـ .

وقام أصحاب صحف الأحزاب يحبذون هذه النهضة الجديدة ويطرونها . وكان بعضهم يعزوها إلى قومية الوزير الكبير (بطرس غالى) وقوة عارضته ومكانته من الرياسة عند أصحاب الاحتلال ، وبعضهم وهم أصحاب (الحزب الوطنى) وأذنابهم يعزونها إلى أنفسهم ويقولون أنها من صنع أيديهم وغرسهم الذى أثبته تهديدهم ووعيدهم للأمير ووزرائه والحق من وراء ما يدعون . وباتو وأصبحوا وقد اجتمع أعضاء الشورى فى دار ندوتهم وبينهم (رشدى باشا وزير الحقانية) . فأتموا البحث فى لائحة رسوم المحاكم الشرعية ، فكان أهم ما أدخلوه عليها من التعديل أن تكون رسوم الأيلولة والرجوع بالوصية ربعا بالماية ، ونظروا فى لائحة الجزاءات وكان أهم ما أدخلوه فيها من التعديل أيضًا أن لا يقبل فى (وظيفة خبير) أحد من موظفى الحكومة وأصحاب خططها وهم فى مناصبهم . فكان عملهم هذا الخطوة الأولى فى توسيع اختصاص الشورى وتأييد حق سؤالها جماعة الوزراء كل فيما يختص بوزارته .

ووافق خروج ركب المحمل على عادته فى كل عام يوم خامس عشر القعدة من السنة أى سنة ستة وعشرين وثلثمائة وألف . فلما كان صبح ذلك اليوم توافد الأمراء والعظماء والأعيان وجماعة المشائخ والعلماء إلى مصطبة ميدان قلعة الجبل ، فاصطف أصحاب الشرطة على جانبى الطريق فى شارع محمد على ، ثم (تلاميذ مدرسة الشرطة) من ميدان منصور باشا إلى (جامع السلطان حسن) وأقفلت القهوات ومنع الزحام وأخذوا من الحيطة أشدها . واصطف (بلوك الغفر) وشرطة الأقسام من (جامع السلطان حسن) حتى مصطبة الاحتفال ، ومن المصطبة إلى (المسجد الزينبى) فشارع خيرت فميدان عابدين ، وكان السكون سايرا[١٢٦] فى تلك الشوارع والزحام قليلا على خلاف المعتاد فى كل عام . ومرت حرم الأمير ومعها ولى العهد وبقية أولادها تحيط بهم كوكبة من الفرسان ، ثم أقبل الأمير فى موكبه وعلى يساره (الوزير الكبير بطرس باشا غالى) وأمامه (إسماعيل سرى باشا) (وسعد زغلول باشا) وخلفهم جماعة الوزراء . فلما وصل ركبه المصطبة أطلقت المدافع من قلعة الجبل ، ثم دار المحمل دورته المعتادة واستلم خطام الجمل وقبله وسلمه لمن حوله ففعلوا كذلك ، وسار الجمل فى طريقه إلى العباسية .

(١٢٦) سايرا = سائدا قراءة ترجيحية .

وكانت حيطة جماعة الشرطة فى ذلك اليوم شديدة جدا وعيونهم منبثة فى سائر أنحاء القاهرة وحيث سار موكب الأمير إلى المصطبة ، حتى تعذر على الناس رؤية شخصه لتكاثف الحرس والجند حول عربته ومنع الناس من الاقتراب من عربته . وباتوا وأصبحوا وقد أخذ أصحاب صحف الحزب الوطنى يبدون فى دواعى هذه اليقظة وأسباب هذه الحيطة ويعيدون ، ويقبحون إعمال صاحب الشرطة ويرمونه بكل قول معيب . فكتب أحدهم أبياتا تحت عنوان (نحن والجند يوم طلعت[١٢٧] المحمل) قال فيها :

حجبوا الأمير عن العيون ... الله فيما يدعون
ماذا يكون إذا تهلـ ... ـل شعبه ماذا يكون
عباس أرحم وانـد ... هشت لطلعته البنون
لاتنكروا ذاك الولاء ... ولاتخوضوا فى الظنون
إن النسيم إذا سرى ... فى الروض حبته الغصون
لك فى النفوس محبة ... نطقت بها تلك الجفون
ما صنت ملك[١٢٨] بالسيوف ... ولا بمن يتجبرون
ما للجنود وما لنا ... إنا لعرشك مخلصون

انتهى .

وظل[١٢٩] فى ضجة أصحاب تلك الصحف حول الشرطة ورجال القصر أياما والناس فى تساؤل عما سيكون من وراء ذلك ، وقد بلغت قحة أولئك القوم غايتها وهم كل يوم فى شأن جديد .

وانصرف الناس عن ضجة (الحزب الوطنى) وصيحاتهم المتتابعة إلى ما قام من الخلاف بين أعضاء الشورى وجماعة الوزراء من جهة ، وقاضى القضاة من جهة أخرى فى تعيين اختصاصه وتحديد سلطته ومنع إشرافه على سائر الأحكام الشرعية الذى يدعيه ويقول أنه من الحقوق التى يملكها دون أمير البلاد ، وهى محنة وقعت فى سنة تسع وتسعين وثمنمائة وألف للميلاد عند ما هم أولى الأمر بترتيب المحاكم الشرعية

(١٢٧) طلعت = طلعة قراءة لغوية .
(١٢٨) ملك = ملكك قراءة اجتهادية .
(١٢٩) وظل = وظلوا قراءة اجتهادية .

وترتيبها على نسق يكفل راحة المتاقضين[١٣٠] ومنع الحيف عن المتخاصمين ، وقد رأوا يومئذ أن نظامهم ذلك يستلزم تعيين قاضيين من قضاة محكمة الإستئناف الأهلية عضوين في محكمة مصر الشرعية الكبرى ، فأفضى ذلك إلى مباحثات ومناقشات عنيفة جدا كان من ورائها رفض أصحاب دار الشورى للمشروع وعزل شيخ الأزهر ومفتى الديار من أجل إصدار فتواه المشهورة . ا . وهى

(من المعلوم أن أشغال المحكمة العليا على حسب المدون فى لائحة المحاكم الشرعية إنما هو فتوى عن كافة ما يرد إليها وسماع مرافعة وإصدار حكم فيها فى بعض المواد . فعلى هذا يجب أن يكون كل واحد من أعضاء المحكمة المذكورة من الذين يوثق بعلمهم فى معرفة الأحكام الشرعية بمعنى أن يكون من القادرين على معرفة قول الراجح من المرجوح والضعيف من الصحيح من مذهب الإمام الأعظم ، لأن من يتولى الأحكام الشرعية مأمور فى الحكم والفتوى بالقول الصحيح من مذهب (أبى حنيفة النعمان) ويكون من الممارسين للمرافعات بالأحكام الشرعية حتى تكون له قدرة على معرفة صحيحها من فاسدها .

فحينئذ لايجوز تولية من لم يكن موصوفا بهذه الصفات ولا الإذن ممن يملكه وهو القاضى المولى من قبل الخليفة . فقد صرح أئمتنا بأن القاضى إذا كان المولى من قبل الخليفة فى مصر من الأمصار فليس للأمير أن يولى فيها قاضيا ولا أن يحكم فيها بين الخصمين بنفسه .

فقد قال[١٣١] فى الفتاوى الهندية (إذا كان القاضى من قبل الخليفة لا من قبل الأمير فليس للأمير أن يقضى ، ولو قضى لا ينفذ قضاؤه ، ولذا إن ولى هذا الأمير قاضيا من قبله لم يجز حكمه . ومثله فى (حواشى الدر المختار) . ومما ذكر نرى عدم الموافقة على هذا المشروع . ومن[١٣٢] إذا كانت الحكومة ترى هناك ما يوجب زيادة الإيضاح[١٣٣] المتعلقة بالإدارة فعليها بيانه للنظر فيه باتحادنا)[١٣٤] انتهى بنصه .

(١٣٠) المناقضين = المتقاضين قراءة ترجيحية .
(١٣١) قال = قيل قراءة اجتهادية .
(١٣٢) ومن = . ومع ذلك قراءة اجتهادية .
(١٣٣) الإيضاح = الإيضاحات قراءة ترجيحية .
(١٣٤) راجع ص ٥٦١ ـ حاشية ١١٨ من القسم الثانى من الجزء الخامس من (الكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث) .

أقول وما وصلت هذه الفتوى إلى ديوان الوزارة حتى هب أصحاب الصحف يحبذونها ويطرون الفتى[١٣٥] ، وأرسل قاضى القضاة إلى وزارة الحقانية يقول (حيث أنى منصوب من لدن الخلافة العظمى ، فاشتراك أحد قضاة الإستئناف معى فى الأحكام لايسوغ شرعا ولا يسعنى الإذن له كما يستفاد ذلك من النصوص المتقدمة) . ا . هـ . فلم يعجب هذا أصحاب الحل والعقد وسيروا إلى المفتى بالتخلى عن منصبه فتخلى عنه غاضبا وكأنهم قد تركوا الأمر إلى فرصة ، فلما سنحت عادوا إلى ما كانوا عليه وقد بدلوا فى مشروعهم ذلك تعيين[١٣٦] القاضيين من محكمة الاستئناف الأهلية بأن يكون قاضى القضاة مختصا بقضاء القاهرة ومصر وأن تكون ولايته من أمير البلاد الذى له أن يولى جميع القضاة الشرعيين . وقيدوا ذلك فى مادتين فى الباب الثانى من اللائحة الأولى منها وهى : تشكيل المحكمة العليا من قاضى مصر وأربعة قضاة يكون أحدهم عضوا أول بانتخاب القاضى وموافقة نظارة الحقانية . والثانية منهما : تشكيل محكمة المحروسة الشرعية الإبتدائية من قاضى مصر وسبعة أعضاء يكون أحدهم عضوا أول بانتخاب القاضى وموافقة نظارة الحقانية .

وتشكل محكمة الاسكندرية من قاضى بصفته رئيس ونائب وإثنى عشر قاصيا بصفة أعضاء .

وتشكل محكمة طنطا من قاضى بصفته رئيس ونائب وثمانية عشر قاضيا بصفة أعضاء .

وتشكل محكمة بنى سويف من قاض بصفته رئيس ونائب وخمسة عشر قاضيا بصفة أعضاء . إلى أن قال وتشكل كل محكمة جزئية من قاض واحد . انتهى .

أقول هذا ما جاء فى تشكيل المحاكم ولا رأى فيها لقاضى القضاة إلا فى انتخاب العضو الأول لمحكمة القاهرة . أما سائر الأعضاء فيعينون بإرادة وزارة الحقانية ويستمدون سلطة القضاء من أمير البلاد لا من قاضى دار السلطنة المستمد سلطته كما يقولون من الخليفة كما جاء فى نص فتوى المفتى . وأنكر قاضى القضاة هذا الحق على الأمير وقال

---

(١٣٥) الفتى = المفتى قراءة ترجيحية .

(١٣٦) تعيين = الذى كان يقضى بتعيين قراءة ترجيحية .

أن صاحب (حاشية الدر المختار) يحرم على أمير البلد أن ينصب معه قاضيا للقضاء ولا يحيزه جملة وهو لذلك لا يقر ولا يوافق على شيء مما ينهى عنه الشرع ولا يأذن به الخليفة .

أقول وقد جاء فى (حاشية الدر المختار) ما نصه أن السلطان إذا نصب فى البلد أميرا وفوض إليه أمر الدين والدنيا صح قضاؤه ، وأما إذا نصب معه قاضيا فلا لأنه جعل الأحكام الشرعية للقاضى لا للأمير وهذا هو الجارى فى زماننا ، ولذا قال فى (البحر) وهو أول كتاب للقضاء (سُئِلْتُ عن تولية الباشا بالقاهرة قاضيا ليحكم فى حادثة خاصة مع وجود قاضيها المولى من السلطان فأجيب بعدم الصحة لأنه لم يفوض إليه تقليد القضاء ولذا لو حكم بنفسه لا سصلح(١٣٧) . ا . هـ .

واشتد الخلاف بين القاضى ووزارة الحقانية ، وطالت أيام هذه المحنة ، وهب أصحاب الأحزاب لينصرون(١٣٨) القاضى ويشدون(١٣٩) أزره ، فقومت(١٤٠) ضجته وامتنع عن الذهاب إلى دار المحكمة ورسم بتعطيل سائر أعمالها حتى ينال غرضه ، وسعى بعض أصحاب المناصب فى الصلح بين الفريقين فلم يفلحوا والقاضى يقسم الأيمان المغلظة أنه لا يتنازل عن شيء مما قضاه الشرع . وعندى أن أمير البلاد كان يولى القضاة فى كافة الأقاليم المصرية بأمر منه إلا قاضى مصر والقاهرة فإنه كان يُرسَلُ إليها من دار السلطنة على رأس كل سنة بموجب فرمان سلطانى . وظل الحال على هذا دهرا ، فلما تولى الخديوى (إسماعيل باشا ابن إبراهيم) سعى سعيه المعلوم فى إبطال بعض الرسوم والعادات القديمة التى تلصق الإمارة المصرية بدار السلطنة العثمانية ومنها إرسال قاضى مصر والقاهرة من (باب المشيخة) فى (الآستانة) ، فانقطع إرسال ذلك القاضى وبطلت عادته ، وتشكلت لجنة من كبار علماء مصر وانتخبت هذه اللجنة قاضيا لمصر . وبرز أمر (إسماعيل باشا) بلا تردد ولا مشاورة الباب العالى بولايته وأذن له بالفصل فى سائر الأحكام الشرعية بما له من الولاية العامة . ووقع هذا التعيين يومئذ على (الشيخ عبدالرحمن نافذ أفندى) الذى كان قاضيا لذلك العهد لمصر والقاهرة . فظل على شأنه

(١٣٧) سصلح = يصح قراءة ترجيحية .
(١٣٨) لينصرون = لينصروا قراءة ترجيحية .
(١٣٩) ويشدون = ويشدوا قراءة ترجيحية .
(١٤٠) فقومت = فقويت قراءة ترجيحية .

يحكم هو ومن معه زهاء خمس عشرة وكانت أحكامه صحيحة فى نظر كبار العلماء والمشائخ ، فلو كانت ولايته غير صحيحة أو فيها شىء من الريب لما وسع جماعة العلماء اعتبارها والتصديق عليها . (والباب العالى) وأهل (المابين) يعلمون ذلك ولا يستنكرونه فضلا عن اعترافهم به عند ما جاء الفرمان بولايته (قضاء مكة) . ولو لم يكن (الخديوى إسماعيل) مالكا إذ ذاك حق هذا التعيين لما اعتمد جماعة العلماء والمشايخ أحكام (الشيخ عبدالرحمن) صحيحة .

ولما مات (الشيخ عبدالرحمن) نحت هيئة الحكومة نحو (الخديوى إسماعيل) بتنصيب خلفا له ، وسير (الأمير توفيق باشا) إلى (الباب العالى) فى طلب ولد (الشيخ عبدالرحمن) ليتولى القضاء بدلا من أبيه . فجاء الخبر بولاية (الشيخ جمال الدين أفندى) بدله ، ولم يكن فيما جاء من (الباب العالي) نقدا ولا نقضا ولا تصريحا بشىء من الألفاظ الصريحة التى يقتضيها تولى القضاء ، لأن كتب الفقه نصت بأنه يجب أن تكون الولاية صريحة لولايتك[١٤١] وعينتك قاضيا ، أو كتابية لعهدت[١٤٢] ، وهذا ما تعلله أصحاب الباب العالى فى جوابهم الذى بعثوه على جناح البرق . زد على هذا ما جاء به فرمان ولاية (الخديوى توفيق) حيث قال (وإن الخديوية المصرية ملزومة بإدارة أمور المملكة الملكية والعدلية والمالية . فكلمة (العدلية) تشمل القضاء . وفضلا عن هذا وهذا فقد كانت القاعدة المتبعة والتقاليد المرعية عند (الباب العالى) لغاية سنة ثمان وثلثمائة وألف هجرية أنه عند تعيين قناصل الدول المتحابة في مصر يرسل فرمان الولاية من نسختين إحداهما للديوان الخديوى والثانى لقاضى القضاة . فلما تولى القضاء (الشيخ عبدالرحمن نافذ) فى تلك السنة بطل إرسال نسخة من تلك الفرامانات إلى القاضى بتاتا . وبعد فإن دعوى الخلافة فى آل عثمان والإعتراف بها أو إنكارها موضع بحث ونظر كثير من العلماء والفقهاء المتقدمين والمتأخرين . لاسيما وقد ورد فى حديث صاحب الشريعة ما نصه .

الخلافة من بعدى ثلاثين سنة ثم تكون ملكا عضودا) رواه (مالك ابن أبى صفصع) وقال أيضًا (الخلافة فى قريش ما بقى الإثنان) رواه (أبى بن لقب) .

---

(١٤١) لولايتك وعينتك = كوليتك وعينتك قراءة ترجيحية .

(١٤٢) لعهدت إليك = كعهدت إليك قراءة ترجيحية .

وبينما الناس فى قال وقيل من جراء ما هو قائم بين قاضى قضاة مصر المحروسة والهيئة الحاكمة وإصرار القاضى على ما فى نفسه من إنكار ولاية الأمير العامة وعدم صحة إجازة القضاء منه بالحكم فى القضايا ، إذ جاء الخبر إلى ديوان الوزارة وقصر الإمارة وإلى (الغازى أحمد مختار باشا) مندوب السلطان فى مصر من جانب (المابين) الهمايونى بافتتاح (مجلس المبعوثان) . وتحرير الخبر أنه عند ظهر يوم سابع عشر ديسمبر من السنة ثالث عشرى القعدة عام ستة وعشرين وثلثمائة وألف هجرية وثامن كيهك عام أربعة وعشرين وستمائة وألف للشهداء ، ركب (السلطان عبدالحميد) فى عربة من (قصر يالدز) بين صفوف الجند ووراءه جماعة الأمراء والكبراء وأصحاب المناصب والخطط إلى قصر (ضلمة بغجة) حيث قابله الوزراء والنواب والأعيان . فدخل قاعة العرش بين أصوات المدافع وعزف الموسيقى . فلما استقر به المقام وقف كاتم سره وتلا خطاب فتح المجلس بحضور جميع النواب والوزراء وسفراء الدول . فكان ما فيه أنه يبدى سروره بتلك النهضة المباركة ويشكر الأمة على رزانتها ويعرب عن أمله بحكمة النواب والأعيان وعن أسفه لوجود مشكلة (البوسنة والبلغار) . ثم ذكر الدول الكبرى بكل خير . ولما ختم القارئ خطابه أطلقت المدافع وعاد السلطان بموكبه إلى دار النواب فزارها ووعد بحضور أكثر جلسات المجلس . أقول وهذا القصر هو ذات القصر الذى فتح فيه مجلس النواب على عهد (السلطان عبدالعزيز) في صدارة (مدحت باشا) . فلما بلغ موكب السلطان قصره هتفوا له هتافا عظيما جدا .

ولم يكن الإحتفال بهذا العيد الكبير فى دار السلطنة بأقل منه فى القاهرة . فإنه ما جاء خبر ذلك على جناح البرق حتى أقام جماعة المصريين والأتراك المحازبين (لجمعية الإتحاد والترقي) وأصحاب (الحزب الوطنى) وأذنابه الزينات والأفراح ونشروا الرايات والأعلام على الأبواب وشرفات المنازل ، وزينت الشوارع والطرقات وازدحمت الشوارع بالمتفرجين والمتفرجات والخيل والعربات ، وأخذ جماعة العثمانيين الفارين من وجه السلطان إلى ديار مصر يتزاورون ويهنئون بعضهم بعضا بهذا الفوز المبين ويتقبلون تهانى النزلاء . وعند الساعة الرابعة أخذت الجماهير تتوافد على حديقة الأزبكية حيث امتلأت جنباتها بالقادمين وهم حاملون على صدورهم الشارة العثمانية من الأطلس الأبيض والأحمر محبوكة بنجمة ذهبية اللون . ثم قام الخطباء والمتكلمون فخطبوا وتكلموا وقالوا فى وصف ابتهاجهم وسرورهم بذلك اليوم نظما ونثرا . وتلا أحدهم

(رفيق بك العظم) برقية بعث بها إلى مجلس المبعوثان يقول فيها (إن ألوف العثمانيين الذين اجتمعوا فى هذا اليوم للإحتفاء بافتتاح المبعوثان يقدمون لكم تهانيهم من صميم الفؤاد) ، ثم ذكر أعمال الجيش العثمانى الباهرة وقال (إن من الصدف السعيدة وجود حضرة شقيق (نيازى بك) بطل الحرية بيننا . وبعد ذلك تألف موكبان تتقدم أحدهما الموسيقى والأعلام وبصدر الثانى لوحة مكتوب عليها بالعربية والتركية والإفرنسية .

(فلنقاطع النمسا)

ولما تلاقى الموكبان فى سيرهما أمام إحدى قهوات الأزبكية أشار إليهما أحدهم بالوقوف فتقدم (الجميل) أحد محررى (الأهرام) وألقى خطابا شعريا فى الحرية ، فكان الجمهور يهتف لها هتافا عظيما ، وعباراته طويله ضربنا بها[١٤٣] إيرادها صفحا . وقام غيره وغيره والهتاف متواصل والدعاء للحرية متتابع ، وظلوا على هذا حتى مغيب الشمس . فلما أقبل الليل أنيرت المخازن الكبرى وحوانيت التجار وسائر المنتديات والمراسح والقهوات بأنوار الكهرباء . وأعدوا في (نزل الكونتيننتال) مأدبة فاخره ألقيت فيها الخطب والأبيات الحماسية والدعاء للدستور والعاملين على حفظه . وطير رؤساء الأحزاب رسائل التهانى والتبريك إلى رئيسى المجلسين (والباب العالى) و(المابين) . وقامت أفراح على هذا النحو فى سائر القطر شرقا وغربا وشمالا وجنوبا . وقال جماعة الشعراء فى ذلك أبياتا ومنها قصيدة عامرة الأبيات لشاعر القصر قال فى مطلعها :

بشرى البرية قاصيها ودانيها حاط الخلافة بالدستور حاميها

وقال فى الختام يخاطب الشعب العثمانى .

نلت الذى لم ينله بالغنا[١٤٤] أحد فاهتف لأنورها[١٤٥] واحمد نيازيها
ما بين أملاك[١٤٦] اللاتى ظفرت بها وبين (مصر) منعان أنت تدريها

ا . هـ .

(١٤٣) بها = عن قراءة ترجيحية .
(١٤٤) بالغنا = بالقنا ـ القنا : الرماح ، جمع قناة .
ـ الشوقيات ـ لأمير الشعراء أحمد شوقى ـ الجزء الأول ـ فى التاريخ والسياسة والاجتماع ـ مكتبة مصر ـ القاهرة ـ دون تاريخ ـ ص ٢٨٠ .
(١٤٥) يقصد(أنور بك) و(نيازى بك) بطلا الدستور العثمانى الذي أعيد العمل به بعد الثورة التي قاما بها فى الأناضول فى يوليو ١٩٠٨ .
(١٤٦) أملاك = أمالك .
ـ المصدر نفسه ـ ص ٢٨٠ .

أقول ولم تنقض[١٤٧] سويعات الفرح بفتح مجلسى الأعيان والمبعوثان في مدينة القاهرة ، حتى نادى منادى الإحتفال بفتح الجامعة المصرية التى قامت حولها ضجة أصحاب الأقلام ومحبى المعارف حينا طويلا ، وظل (الأمير أحمد فؤاد) يعمل على تأسيسها حتى بلغ أمنيته ونال قصده ، واشترى لها دارا فسيحة أمام (قصر الإسماعيلية) بثمن قدره خمسة وعشرين ألف ذهبا ، وأعدها بالعدة الكافية وجملها بأجمل ما تزدان به الجامعات . وجاءتها الهبات والتبرعات من كل صوب . فلما كان حادى عشرى ديسمبر من السنة سابع عشرى القعدة عام ستة وعشرين وثانى عشر كيهك عام أربعة وعشرين اصطف تلاميذ (مدرسة خليل أغا) وتلامذة (مدرسة الحسينية) فى ميدان عابدين أمام القصر صفوفا يحملون أعلام المدرسة . فما هى إلا لحظة لطيفة حتى أقبل الأمير فى موكبه فهتفوا هتافا عاليا . فلما دخل القصر سار أولئك التلاميذ إلى وزارة الأشغال العمومية حيث تقام الحفلة وانضم إلى صفوفهم تلامذة (مدرسة أم عباس الأول) . وكان مدخل تلك الوزارة مزدانا بالزهور والرياحين ومفروشة أرضه بالبساط والطنافس ، وفى داخل قاعة الإحتفال أعضاء إدارة الجامعة وتلاميذ المدارس فى أعلى القاعة يشرفون علي الإحتفال ، وأفردوا مكانا فى يمين القاعة للسيدات . وكان عرش الإمارة إلى الجهة الشرقية من القاعة وصف حوله على شكل نصف دائرة كراسى الوزراء ورجال إدارة الجامعة . وجاء معتمدو الدول فجلسوا على الكراسى الأمامية تجاه العرش إلى الجانب الغربى . وجلس قبالة عرش الأمير شيخ الإسلام والمفتى ثم قبالتهم رجال الشورى والقضاء وأهل المناصب وأصحاب الخطط . فلما أقبل الأمير قابله على الباب الخارجى (الأمير أحمد فؤاد باشا) وأعضاء مجلس الإدارة ومحافظ المدينة . وكان جماعة الوزراء حول الأمير فى دخوله . ولما استقر به المقام ألقى (الأمير فؤاد) خطابا فى الموضوع فرد عليه الأمير ردا جميلا . ثم قام آخر وآخر ثم (المسيو بونفليه[١٤٨]) المدرس الفرنسوى وتلا خطابا بالإفرنسية . ثم صاح (زكى بك) كاتم سر مجلس الوزراء (ليحيى الأمير) فكرر الحاضرون دعاءه ثلاثا . فقام الأمير وصافح المقربين وخرج وخلفه جماعة الوزراء .

(١٤٧) تنقضى = تكد تنقضى قراءة لغوية .

(١٤٨) بونفليه = البرت بوفيليه Albert Pauphilet أستاذ الأدب الفرنسى

- Donald Malcolm Reid (Cairo University and the making of Modern Egypt) The American University in Cairo Press - 1990 - p., 38.

فصاح التلاميذ وضجوا بالدعاء . وكان التلاميذ قد انتشروا من سلم وزارة الأشغال إلى سلم قصر عابدين . فسار الأمير بموكبه بين هاتيك الصفوف وهتاف التلاميذ وعزف الموسيقى حتى بلغ القصر . وعندى أن هذا اليوم من أشرف الأيام قدرا إذ فيه تأسست جامعة علمية على نظام وترتيب جامعات الأمم الراقية المتعلمة وجدير بأن يسمى - يوم العلم بفتح الجامعة[١٤٩] - والله سبحانه خير مسئول أن يوطد أركانها ويعزز بأهل العلم شأنها .

(١٤٩) كان جورجى زيدان هو أول من دعا إلى إنشاء كلية لتثقيف الشباب المصرى كبديل عن إرسالهم إلى أوروبا . وفى ١٩٠٤ دعا (مصطفى كامل) فى جريدته (اللواء) إلى مثل ما دعا إليه (زيدان) . وفى ١٩٠٥ دعا إلى إنشاء كلية باسم (محمد على) وبدأت الإكتتابات لهذا الغرض ، لكن المشروع توقف لعدم تأييد الخديو (عباس) له كنوع من العداء لمصطفى كامل الذى كان الخلاف بينهما قد أخذ مكانه . قامت فى البلاد حركة قومية لإنشاء الجامعة بناء على دعوة (مصطفى كامل) وتبرع بعض الأغنياء بالأموال من أجل تحقيق الفكرة ، لكن وفاة كبار المؤيدين (المنشاوى باشا والإمام الشيخ محمد عبده) تسببت في توقف المشروع . تزعم سعد زغلول فى عام ١٩٠٦ دعوة تأسيس الجامعة المصرية وعقد أول اجتماع تأسيسى لها فى داره فى ١٢/١٠/١٩٠٦ ، وانتهى الاجتماع بتأليف لجنة مؤقتة تضم (سعد زغلول) و(قاسم أمين) وآخرين ، وتسمية الجامعة باسم (الجامعة المصرية) ، وفيما بعد رأس (قاسم أمين) اللجنة بعد إعتذار (سعد زغلول) . توالت الاجتماعات بعد ذلك وفازت الفكرة بتأييد (عباس) الذى اسند الرآسة الفعلية للجنة للأمير (أحمد فؤاد) في ديسمبر ١٩٠٧ . مع تشجيع (عباس) تزايدت الاكتتابات وأوقفت الأوقاف ، وتقرر أن تبدأ الدراسة فى الجامعة الجديدة بدروس فى (الآداب) والتاريخ العام) ، كما تقرر إرسال عشرة من طلبة المدارس العليا كل عام إلى أوروبا لتلقى العلوم والآداب من أجل توفير هيئة للتدريس بعد العودة إلى مصر .

ومع أن لغة التدريس كانت قد تقررت باللغة العربية ، إلا أن لائحة الجامعة وافقت على إلقاء بعض الدروس بإحدى اللغتين الإنجليزية والفرنسية حتى عودة المبعوثين من أوروبا .

وفى يوم ٢١/١٢/١٩٠٨ افتتحت الجامعة (كما ذكر شاروبيم) . وفى مساء ذلك اليوم بدأت الدراسة فى شكل محاضرات تلقى بعد الظهر يوميا .

كان مقر الجامعة فى مبنى كان مملوكا للخواجة نستور جانا كليس Nestor Gianaclis تاجر السجائر اليونانى (يقع به الآن القسم الإدارى من الجامعة الأمريكية بالقاهرة) ، ثم انتقل فيما بعد إلى سراى (محمد صدقى) بشارع الفلكى سنة ١٩١٥ .

بدأت الدراسة فى الجامعة فى كلية الآداب بشكل محدد ثم أصبحت تقدم فى شكل درسين يوميا من الساعة الخامسة بعد الظهر ، وكان من أعضاء هيئة التدريس فى ذلك الوقت (حفنى ناصف - الشيخ محمد الخضرى - الشيخ محمد المهدى - الأستاذ أينوليتمان Enno Littmann الألمانى أستاذ اللغات السامية - الأستاذ چيراردو ميلونى Gerrardo Meloni الإيطالى وغيرهم .

كانت الدراسة لطلبة منتسبين وهم خريجى المدارس العالية والأزهر ، ومستمعين متطوعين غير مشترط توافر أى مؤهلات لديهم .

وأرسلت الجامعة طلبة مصريين إلى جامعات لندن وباريس وليون وإنجلترا . واستمرت الجامعة فى طريقها بين تقدم وتعثر حتى تسلمتها الحكومة فى مايو ١٩٢٥ لتكون الجامعة المصرية الحكومية .

- Donald Reid - op. cit., - passim

- عبدالمنعم الجميعى (الجامعة المصرية (القديمة) نشأتها ودورها فى المجتمع ١٩٠٨ - ١٩٢٥) - الطبعة الأولى - دار الكتاب الجامعى - القاهرة - ١٩٨٠ .

عام١٩٠٩

مجلس الشورى والمال الإحتياطى ـ نشاط الحزب الوطنى وثورة الطلبة ـ أزمة قاضى القضاة التركى ـ أزمة القومسيير العثمانى وأوراقه ـ رآسة الأمير حسين كامل لمجلس شورى القوانين ـ مطالب طلبة الأزهر ـ افتتاح قناطر إسنا ـ إحياء قانون المطبوعات ـ تزايد النزاع بين الحكومة والمعارضة الشعبية ـ الإضطرابات فى الآستانة ـ الثورة المضادة فى الآستانة ـ خلع السلطان عبد الحميد وتولية أخيه السلطان محمد الخامس ـ تعطيل الصحف المعارضة ـ مؤتمر الشبيبة المصرية فى جنيف ـ أزمة مد امتياز شركة قناة السويس ـ مظاهرة طلبة مدرسة الحقوق ـ الطيران فى مصر ـ الخلاف بين الحكومة ومجلس شورى القوانين .

ثم دخلت سنة تسع وتسعمائه
وألف للميلاد

استهلت سنة تسع وتسعمائةوألف للميلاد بيوم الجمعة ثامن ذى الحجة سنة ستة وعشرين وثلثمائة وألف للهجرة وثالث عشرى كيهك سنة خمس وعشرين وستمائة وألف للشهداء .

فصل
فى ذكر ما وقع فيها من الأحداث

لم تكن إلى هذا الحين لتبطل إرهاصات تلاميذ المدارس ولا ليقف هرجهم عند حد . فقد كان دعاة (الحزب الوطنى) إذا آنسوا منهم جنوحا الى السكينة أو رجوعا عن خطتهم الشائنة أو انقلابا الى المسالك المحمودة دسوا اليهم الشيخ (عبد العزيز جاويش) شيخ اللواء ، فيهيج حفايظهم ويوقد جذوتهم فيعودون الى اشد مما كانوا عليه ، ويتخبطون فى إساءتهم ويقيمون غاراتهم الشعواء على من يخالفهم . غير مفرقين بين أمير ووزير وكبير وصغير ، وقد جعلوا (نادى المدارس العليا) مكمنا لتدبير المكائد وتهيئة أسباب الخصومات فى السر والعلن . وحدث ان قام الشيخ (على يوسف) صاحب (المؤيد) ينصر الحق ويدعو أولئك التلاميذ الى نبذ وساوس المفسدين والإقلاع عن هذه المشاغبات الشائنة المعيبة ، وإلا ساءت العاقبة وكانوا سببا فى ابتلاء البلاد بأشد ما هى فيه من الشر المقيم ويوجدوا السبيل بذلك على أنفسهم وقومهم . فما هى أن ذاعت مقالته حتى تجمهروا وساروا الى دار طباعة(المؤيد) ورجموها بالأحجار وطلبوا الشيخ . فكان كمن قمس فى الماء أو عرج به إلى عنان السماء . فقام (حافظ افندى عوض) صاحب (المنبر) ينصر صاحب (المؤيد) ويطعن على نادى المدارس ويقبح فعال من به من أولئك التلاميذ ، فقاموا فى وجهه هو أيضا وطلبوا منه أن يستقيل من عضوية النادى فلم يقبل ، فشطبوا أسمه وهو الذى جاهد فى سبيل إحداث هذا النادى بما خطه قلمه من المقالات الشايقة . وعاد (الشيخ على يوسف) ينتقم لنفسه من أولئك التلاميذ ، فجعل يحذر صاحب الشرطة ويعدد له ماضى وحاضر أولئك التلاميذ ، ويقول أنهم

جميعهم من دعاة وغلاة (الحزب الوطنى) ، وأن مجتمعهم ذلك سياسى بحت لا غرض له الا قلب الأحوال الى أشر منقلب . وظلت هذه الضجة أياما متتابعة حتى بدت صيحة جديدة من جانب مجلس شورى البلاد بأن الهيئة الحاكمة أقدمت على صرف مليونين ذهبا من المال الإحتياطى بدون رأى صاحب الشورى . فاستبدل الخصوم هذا بذاك وهب اصحاب الصحف جملة يسألون الهيئة الحاكمة أن تبدى حجتها فى ذلك ، فأبدى (المستشار المالى) رأيه وأقام حجته فكانت قوية راجحة لا تقبل التكذيب .

وسكنت هذه النعرة أيضا بقيام جماعة كثيرة من كبراء وأعيان وتجار مصر والقاهرة إلى استنهاض أصحاب الحل والعقد الى إيقاف تيار (الحزب الوطنى) والضرب على أيدى دعاته . قالوا لأن لهجة العداء التى تصيح بها تلك الزمرة تارة ضد الإحتلال وتارة ضد أمير البلاد خالية من روح العقل والحكمة ، والمظاهرات التى يقومون بها لسبب ولغير سبب قد جرت على البلاد المضار الجسيمة والشر المقيم . فقد حملت أصحاب الأموال من الأجانب على الريب فى أميال المصريين وتمثيلهم أعداء لكل أجنبى ونزيل ، وأضعفت ثقتهم بالأمة المصرية وضاعفت مضار الأزمة المالية التى أصبحت البلاد وأهلها ترزح تحت أثقالها ، وكادت تؤدى برأس مال التاجر والفلاح معا . قال : رأس هذه الجماعة (الأميرالاى ابراهيم راجى بك) ، لهذا كله نرفع صوتنا عاليا ضد سياسة هذه الزمرة الطائشة ونعلن جماعة الفرنجة عموما أننا نبرأ الى الله من تبعة هذه الأمور الصبيانية ، ونعلمهم جمعا بأن لا تأثير لعملهم على نفوس الأمة المصرية المشهورة بمكارم الأخلاق ، ونطلب من هذه الفئة الطائشة أن تفض من نعرتها المزعجة وأن تتوخى الرشد فى طريق العمل ، وأن تكون يدا واحدة مع العاملين لخير البلاد بالبصيرة والسداد ، حتى يكون النجاح فى مطالبها الوطنية مضمونا ، وتعود لمصر الثقة المالية التى أطارها ذلك النعيق وتلك الضجة ، فيعود الى الأمةِ ما فقدته من اليسر والرخاء ، والله من وراء ما يفعلون . فقام أصحاب صحفهم يرعدون ويبرقون ويرمون القوم بالخيانة والمروق عن الوطنية الصحيحة ويقولون انهم صنائع أصحاب الإحتلال بل هم خونة مضللون . ولم يقووا على رد الحجة بالحجة ولا دفع البرهان بالبرهان شأنهم فى مجالاتهم وسائر مناظراتهم مع أهل الحصافة والرأى .

وعاد الخلاف بين اصحاب الحل والعقد (وقاضى القضاة) إلى أشده ، وامتنع القاضى من الحكم بتاتا إذا لم ترجع وزارة الحقانيه عن قصدها . ولم يمتنع الأمير عن إجازة القضاء بالحكم الشرعى . وسير وزير الداخلية كتبه فى ذلك إلى الباب العالى ، وكذلك جاءت كتب الأمير الى (المابين) فى معنى ذلك . وألح سفير الإنجليز فى دار السلطنة على (الصدر الأعظم) برد القاضى عن قصده وإقلاعه عن تلك المشاغبة ، وقامت صحف دار السلطنه العثمانية تنصر القاضى وتعينه على قصده وتقلب لصاحب القصر ظهر المجن . وعاد المتصدرون فى مجالس (الحزب الوطنى) القوالون بغير حساب مثل المدعو (محمود انيس وحسن موسى العقاد) ، (ووطنى صميم) (ومحمد حسب المهندس) (ومانونى فاضل) (ومطلع) وغيرهم من اصحاب الكنى والمخلص[1] المتعددة إلى حشو صفحات الصحف برسائل الشتم والسباب المعيب ، انتصارا القاضى القضاة ضد وزارة الحقانية خصوصا وجماعة الوزراء عموما . وأنحوا باللائمة على أصحاب القصر ، واشاروا على القاضى بمنع كل تعد يقع على حقوقه العملية أو يمس بكرامته الذاتيه . وجاءت صحف دار السلطنة مفعمة بالتهديد والوعيد جملة وقالت احداها (صباح) (لقد ذاعت إشاعات غريبة عن أمير مصر منذ نشر (الدستور العثمانى) ، فقد قالوا أن ذلك الامير الذى كان فى عهد الإستبداد والسلطة المطلقة فى جانب الدولة العلية ضد جماعة الانجليز ، أخذ بعد بسط الدستور يتحول عن خطته السياسية ويتقرب الى السادة الإنجليز الذين ما كان ليتفق معهم قبل اليوم ، ويشاع أنه غير راض عن الحكم الدستورى فى الديار العثمانية ، وأنه قد اتفق مع (عزت بك العابد) على إنشاء جريدة فى عاصمة السلطنة ليدافع عن الحكم المطلق بحيث تكون لاصقة بصاحب (المؤيد) ، وأنه اعطى صاحب (المؤيد) ألفى جنيه ذهبا من أموال الأوقاف المصرية لهذا الغرض الشائن) . قالت (ومن المعلوم أن أوقاف مصر لا رقابة عليها وهى تدار حسب الأميال والأهواء ويحتكم الامير فى إدارتها كما يشاء . ولقد ثبت أن الأمير يتأفف جدا من أن يستمد القاضى الشرعى سلطته من (الباب العالى) ، ويرى أن ذلك من الغبن الفاحش ومن شر السياسات على البلاد ، ولذلك فهو يعمل ليل نهار على سلب السلطنة هذا

(١) المخلص = والصفات   قراءة اجتهادية .

الحق وإذهاب هيبتها المكتسبة منذ القدم من قلوب المصريين) . إلى أن قالت (تلك هى الأقوال التى تدور فى المقامات العثمانية فلا تستطيع الصحافة العثمانية السكوت عنها ، فإذا كانت صحيحة ولانخالها إلا كذلك فقد تحتم على الباب العالى أن يقوم بالواجب عليه ، وإن كانت باطلة فعلى صاحب قصر الإمارة ان يكذبها تكذيبا باتا) ا . هـ .

وتوترت العلاقات السياسية بين التابع والمتبوع ، وأعرض الأمير عن مجاملة (الغازى مختار باشا) وإعطائه حقه من التجلة والتكريم ، وأوقفوا تدريس اللغة التركية فى سائر المدارس الأميرية ، وأبطلوا من وزارة الدخلية المخابرات بالتركيه مع (الباب العالى) (والمابين) (والإ يالات) التابعة للسلطنه العثمانية أوكادوا . وبرز الأمر من وزارة الخزينة بإخلاء (قصر الإسماعيلية) المشهور الذى يسكنه (الغازى مختار باشا) بصفته مندوب الدولة السامى وإرجاعه إلى حيازة وتصرف دائرة أملاك الحكومه . فأقلق ذلك (الغازى) ورجال ديوانه وكتب فى ذلك إلى ديوان الوزارة وقصر الإمارة . وترددت رسله على القصر ، وسير كتبه بما جرى الى (الباب العالى) فازداد هياج صحفهم ، وجاءت كتب (المابين) الى قصر الإمارة فيما هم فيه فلم يلتفتوا إليها ، وشددت وزارة الخزينة فى طلبها وقالت أن بناء ذلك القصر على جرف السقوط وأن بقاء الغازى وحاشيته ورجال ديوانه فيه خطر على حياتهم .

وجاء من (الصدر الأعظم) إلى ديوان الوزارة أن(مجلس وكلاء السلطنة) قرر بعد إمعان النظر فى الخلاف القائم بين الخديوية المصرية وقاضى القضاة أن القاضى قد فعل حسنا بدفاعه عن حقوق السلطنة فى ديار مصر . وأنه على كل من كان فى منصبه ان يدافع دفاعه لأن المسالة المصرية شرعية وسياسية معا ، ومنصب القاضى منصب شرعى وسياسى أيضا ويستحسن النقل فيه ولا يظل القاضى طول حياته قاضيا فى مصر . قالوا وبما أن قاضى قضاة مصر من العلماء الأجلاء ، فالمجلس يضع نصب عينيه منذ الآن مكافأته عن خدمته السابقه بترقيته عند سنوح الفرصة ، وأن يوصى خلفه أيا كان بالسير على منهجه فى المحافظه والدفاع عن حقوق السلطنة . قيل فلم يفلح [٢] جماعة الوزراء بقرار المجلس ، وأصروا على خلع القاضى إن لم يبادر (الباب العالى)

---

(٢) يفلح = يهتم قراءة اجتهادية .

باستدعائه . وأشاع اصحاب صحف (الحزب الوطنى) والملتفون حولهم أنهم سيولونه أمانة الإفتاء فى الآستانة . وقال آخرون انه سيتولى مشيخة الإسلام بدلا من شيخها الحالى .

وحل فصل الصيف فقام (الغازى مختار باشا) من الإسكندرية إلى ديار الفرنجة ترويحا للنفس ، وقد كان محجورا عليه منذ مجيئه إلى مصر الى ظهور الدستور . فأقام هناك أياما ثم سافر الى دار السلطنة يريد البقاء فيها وعدم العودة إلى ديار مصر . وكتب الى (نورى بك) كاتم أسراره يأذنه بأن يرسل إليه جميع أوراقه الرسمية والغير[٣] الرسمية وأن لايحفظ عنده من الأوراق الرسميه إلا ما كتب على عهده (يعنى عهد نورى بك) منذ ثمان سنوات فقط . فأجابه بأن قد جاءه الأمر من جانب الصدارة بحفظ جميع الأوراق الرسمية القديمة والحديثة فهو لذلك لايستطيع إرسالها إلا بأمر من (الصدر الأعظم) . فأغضب الغازى هذا الجواب وأرسل اليه على جناح البرق يقول عَجل بإرسال الأوراق جميعها ولا تحدث حدثا مقلقا . وماهى إلا عشية أو ضحاها حتى قدم من دار السلطنةّ ابن اخت الغازى واسمه (رفيق بك) ومعه بعض جوارى خاله لزوم أثاث مقر الغازى وأوراق وسائر ما يتعلق به وإرساله الى (الآستانة) . يقال بلغت صناديق أثاث الغازى وأوراقه مابة صندوق كبير . وأمتنع (نورى بك) من تسليمهم ثلاث صناديق كبيرة ملأى بالأوراق والسجلات الرسمية والسياسية ، وأخصها أوراق وسجلات المفاوضات التى دارت بينه وبين مندوب صاحب السياسة الإنجليزيه ودار السلطنة العثمانية فى الجلاء[٤] عن مصر . فكان ما كان بين الغازى (مختار باشا) وبين (الصدر الاعظم كامل باشا) فى الآستانة ما لم تصل الينا معرفته .

فلما كان رابع عشرى يناير من السنة أول المحرم افتتاح عام سبعة وعشرين وثلثمائة وألف وصل الى القاهرة (الميرالاى خالد بك) أحد ياوران (الصدارة) لاستلام تلك الصناديق وحملها الى دار السلطنة . وما هو أن وصل الاسكندرية حتى جاء من (الغازى مختار باشا) رسالة على جناح البرق إلى النائب العمومى وأخرى إلى وزير الداخلية وأخرى إلى محافظ القاهره بمنع تسليم تلك الصناديق لأحد ما ، وإلى احد المحامين

---

(٣) والغير = وغير قراءة تصويبية .

(٤) يقصد مفاوضات السير هنرى درومند وولف مع الدولة العثمانية فى عام ١٨٨٧ .

لتوقيع الحجز عليها . ففعل المحامى وبرز أمر القضاء بالحجز على الصناديق الثلاثة تحت يد (نورى بك) . فلما جاء الأمر بذلك الى (نورى بك) عارض فيه معارضة شدية فأعلمه المحضر أنه اذا لم يذعن لحكم القضاء أكرهوه على قبوله بالقوة . فترك المحضر يفعل ما أراد ، وطير الخبر بذلك الى باب (الصدر الأعظم) على جناح البرق .

أقول شدد جماعة الأحرار الذين هم اصحاب (جمعية الإتحاد والترقى) فى طلب أوراق وسجلات سفارة الدولة فى (باريز) (والقوميسارية العثمانية) فى القاهرة من باب الصدارة . قالوا ليستخلصوا منها تاريخهم فى ديار الفرنجة ومصر ، لأن (باريز) والقاهرة كانتا مركزين لهم . فلم تر الصدارة بدا من إجابة هذا الطلب ورسمت إلى (سفارة باريز) بتسليم ما عندها ففعلت ، ولبثوا ينتظرون وصول أوراق القاهرة فوقع فى أمرها ما وقع بين (الغازى مختار باشا) (والصدر الأعظم) . ويقال بأنهم احسوا بأن فى تلك الأوراق والسجلات شيئا يستوجب المؤاخذة بل المحاكمة الشديدة . وعندى أن هذا الشىء هو ما يتعلق ببيع سراى نمرة ٣ الكائنة على شاطىء المحمودية بالإسكندرية ، وقد اشتراها (الباب العالى) باسم بيت مال المسلمين ودفع ثمنها من خزينة الدولة . فما بدت ضجة الدستور وعلت صيحة أولئك الأحرار الصهيونيين حتى عمد (الغازى) إلى بيع تلك السراى الفخمة بثمن قدرهماية وخمسة وسبعين ألفا ذهبا وقبض من الثمن سبعة عشر ألفا . فعاد الشارون يقولون بفساد البيع وبطلانه . فطالبوا بما قبضه أو إثبات ملكيته للعقار فلم يقدر على ذلك ، وامتنع قاضى القضاة من توقيع المسوغ الشرعى بالبيع وإجابة كتب (الصدر الأعظم) فى معنى ذلك .فبات (الغازى مختار باشا) وهو بين منتطح عنزتين ، لايرى للخلاص من هذه الورطة سبيلا .

أقول ومن العجب العجاب أن نفرا من اولئك المتصدرين فى المجالس والمنتديات الذين يدعون بأنهم من أصحاب المصالح الخصوصية فى سياسة البلاد والله يعلم ماهى ، قاموا ينصرون (الغازى مختار باشا) على سلطانه وصدره الأعظم وبيت مال المسلمين ، ويرسلون كتب الوعد ورسائل التهديد إلى اصحاب الصحف المتطرفة لينشروها على الناس ، وكلها افتراء على (الصدر الاعظم) وعلى مبعوثه (نورى بك) وسب وهتر ثقيل ، حتى لقد أرسل احدهم على جناح البرق الى صاحب (الأهرام) يقول بعد كلام أن (نورى بك) يعنى مبعوث الصدر الأعظم قد أساء للعالم الاسلامى ، وما أدرى ما

دخل العالم الاسلامى فى بيع عقار حكم قاضى قضاة مصر بفساده وبطلانه ، وألقى تبعته على رأس (الغازى) ، لا سيما وأن الشئ المباع إنما هو ملك لبيت مال المسلمين . فأحرى بأن يقال ان (الغازى مختار باشا) أساء إلى خليفته وسلطانه وبيت مال المسلمين والإسلام جملة .

ولبث (نورى بك) مبعوث (الصدر الأعظم) ينتظر الأمر من الباب العالى بما يراه من حجز تلك الاوراق . فمضت ايام والناس يتساءلون عما سيكون من وراء هذه الضجة . وإذا بالجواب قد وصل وفيه أن قد برز الأمر الشاهانى بخلع (الغازى مختار باشا) من منصب القوميسارية فى القطر المصرى ، وأن الأمر قد أبلغ إلى أمير البلاد وللمقامات الرسمية ايضا ، وأن ينيط (بنورى بك) إدارة أمور القوميسارية . أما الحجز القضائى فلم يرد عنه شيء جديد . وشاع خبر ذلك فانقبضت نفوس وسرت نفوس وكان له وقع حسن فى قصر الإمارة ، اذ كانت المشادة بين الغازى والأمير وجماعة الوزراء قد بلغت حدها ، وبلغ من تحقير الناس له فى روحاته وجياته[٥] أن كانوا إذا سَلَّمَ لا يلتفتون اليه ولايردون عليه سلامه .

وإلى هذا الحين كانت قد انصرفت غاية (الوزير بطرس باشا غالى) الى توسيع نطاق اختصاص الشورى وتخويل الأعضاء حق الاشتراك مع الهيئة الحاكمة فى تدبير شئون البلاد ، والإشراف على كل عمل خطير تستلزمه حالتها الإقتصادية والعمرانية أسوة بالممالك الدستورية . فبذل الجهد الجهيد وأعمل الفكرة حينا ، حتى استمال الأمير إلى رأيه ونال رضاء صاحب السياسة الانجليزيه بعد موافقة الملك . وأشاروا عليه بعمل مشروع لذلك ففعل ، وسير به إلى صاحب سياسة الإنجليز ولا يعلم به إلا الخاصة والمقربين من قصر الإمارة . ثم رأى أن فى تقليد رئاسة الشورى لذى مقام من أهل العصبية والملك فلاحا وحرمة ليس من ورائها استحالة أحوالها بمرور الايام . وكان يرى أن الأمير (حسين كامل) عم (الأمير عباس) هو الذى يجب أن يسند إليه هذا المنصب لعلمه الجم وخبرته الواسعة بأحوال البلاد جملة وأخلاق أهلها على اختلاف طبقاتهم ، ومكانه من تلك العصبية معلوم . فكلم الامير فى شأنه وحبب إليه إسناد هذا المنصب إليه . ومازال به حتى استدعى الأمير عمه إلى قصر عابدين وبسط له امنية (الوزير بطرس

(٥) وجيانه = وغدواته قراءة تصحيحية .

باشا غالى) وسأله قبول هذا المنصب خدمة للوطن . فطلب المهلة فأمهله ساعة ثم برز الأمر فى مساء الجمعة تاسع عشرى يناير من السنة سابع المحرم افتتاح عام سبعة وعشرين وثلثمائة وألف للهجره بتوليه الرئاسة على (مجلس الشورى) (والجمعية العمومية) . وشاع خبر ذلك وتحدث الناس به فى مجالسهم الخصوصية وأنديتهم العمومية ، فلم يقع من نفوس دعاة (الحزب الوطنى) وأذنا به موقعا حسنا لأسباب يقولونها وينقلها بعضهم عن بعض .

وعندى أن الأمير له خبرةٌ واسعه بشؤون البلاد عظيمها ودقيقها كبيرها وصغيرها ، وله آثار فى الجمعيه الزراعية تشهد له بذلك ، وهو كبير المعرفة بالأمور الاقتصادية . تولى المناصب وهو فى الثامنة عشرة فعرف أدوارها وعرف مواقع الإصابة ومواضع النفع للبلاد وهو خير من تولاها .

وعاد طلبة الجامع الأزهر الى الهرج والخروج عن طاعة القانون . وقالوا أن لهم مطالب حقة لا غبار عليها يطلبونها بكل الوسائل الممكنة ، وقد دفعهم إلى اتخاذ هذه الشدة نفر من دعاة (حزب الاصلاح) لينالوا بهم غرضا ، كما طوح أصحاب (الحزب الوطنى) بتلاميذ المدارس وصبية المكاتب ، وكما يسعى الآن (حزب الامة) فى استهواء فريق من صبية المدارس لغرض فى نفسه . قالوا رأى كبار حزب الإصلاح أن الفرصة سانحة فاندسوا بين أولئك الأزهريين واختاروا لهذا العمل خمسين طالبا ، وقد أضربوا عن تلقى الدروس وكتبوا العرائض يطلبون فيها مساواتهم او تقديمهم عن طلبة مدرسة القضاء الشرعى ، ومساواتهم ومساواة مشايخهم بزملائهم فى الاسكندرية ومدرسى المعاهد الدينية فى المرتبات والمأكل والمشرب واختيار معلمين للعلوم الحديثة وغير ذلك كثير ، كطلبهم جعل باب الوظائف الديوانية مفتوحا لهم مادامو يطلبون العلم لهذه الغاية . وكثرت اجتماعاتهم تارة فى صحن الجامع وتارة فى بعض الأنديه العمومية . واشتد الهرج من ناحيتهم وشكا شيخ الجامع أمرهم إلى الأمير . وتكلموا فى ذلك كثيرا حتى برز الأمر بتشكيل لجنة من وكيل المشيخة (والشيخ أحمد نصر العدوى) وكيل (رواق الصعايدة) بالأزهر (والشيخ الباجورى) شيخ (رواق المغاربة) (والشيخ عبد الغنى محمود) (وحسن بك جلال) المستشار بمحكمة الاستئناف الأهلية عن وزارة الحقانية (وابراهيم بك ممتاز) عن وزارة الداخلية . واجتمعت هذه اللجنة فرفع اليها الأزهريون إثنى عشر

طلبا تتضمن ترتيب درجات التدريس والإمتحانات وتعيين المدرسين ووجوب احترام ذوى السلطة الداخلية والخارجية طلبة العلم بالمعاهد الدينية ، وانتخاب شيخ الأزهر ووكيله والمفتش ومساعدى التفتيش وأعضاء الأدارة ومشايخ الأروقة والحارات والسنيين ومشائخ المذاهب بأمر من الأمير بعد أخذ رأى العلماء ، وتجديد انتخاب أعضاء مجلس الإدارة كل سنة ، وأن يعافى كل طالب يقيد إسمه بسجل الازهر من القرعة العسكرية ، إلى آخر ماطلبوه من تغيير أسلوب الإمتحانات ونيل الشهادات وصرف الأدوات للطلبة مجانا ومعافاة القسم العالى من الإمتحان فى العلوم الحديثة .

وأرسل جماعة من تلاميذ المدارس إلى قصر الامارة على جناح البرق يقولون نحن طلبة المدارس المصرية نعلن ارتياحنا للخطة التى أتبعها إخواننا طلبة الازهر الشريف وموافقتنا على مطالبهم العادلة . ونرى أن فى تقاعد أولى الأمر فى مسألتهم الى هذا الحد مساسا بكرامة جميع طلبة العلم فى مصر ، لأننا طلبة العلم متضامنون متآزرون ، فنحن جريا على قاعدة التضامن المتبعة من طلبة جميع الأقطار وتعضيدا لإخواننا الأزهريين الذين نعتبرهم فى مقدمتنا احتراما وإكبارا لشرف العلوم التى يتلقونها ولمكانتهم فى قلوب الامة نطلب من أولى الامر إجابة مطالبهم الحقة أ . هـ .

وعلم الأزهريون بما تريد الهيئة الحاكمة أن تعدله فى مطالبهم التى قدموها ، فعادوا وامتنعوا من مباحثة اللجنة التى اختارتها الحكومة ، واتفقوا فى ما بينهم على اختيار لجنة أخرى باسمهم تباحث ولاة الأمور بشؤونهم ، واختاروا لها قاضى قضاة مصر (والشيخ عبد الكريم سليمان)(والشيخ محمد الإبيارى) (وعمر بك لطفى) (ومحمود بك أبو النصر) (ومحمود بك سالم) (ومحمود بك فهمى حسين) مستشار (الحزب الوطنى) (ومحمود بك عبد الغفار) (وسيد حسن موسى العقاد) . وقرروا ضم خمسة من إخوانهم الطلبة إلى تلك اللجنة يحضرون مباحثاتها . قالوا حتى إذا رأوا أن أحد مندوبيهم يتساهل أو يتنازل عن مطالبهم أبطلوا اختياره وانتدابه . وأما الهيئة الأزهرية التى تدير هذه الحركة فهى مؤلفة من خمسين طالبا .

وباتوا وأصبحوا وقد وقعت الفرقة بينهم لتعدد المحرضين وتباين أغراضهم واندساس الدساسين بينهم بما أوتوا من ختل وحيلة . وظهرت الفرقة بأجلى مظاهرها وكتبوا الى الصحف يفضلون حزبا على حزب ويعضدون فريقا على فريق . وخشى

أصحاب (الحزب الوطنى) أن تقوم هيئات من الطلبة تقلب الهيئة التى يتحصن بها ويهدد بصيحاتها الهيئة الحاكمة ، والأزهريون أكثر عددا وأشد مراسا وهم خليط من أجناس عديدة ويسند بعضهم ظهره على حمايات أجنبيه ورعوية اجنبية كدول الروس والفرنسيس والأنجليز وغيرهم . وسعى أصحاب حزب (الإصلاح) وشيخه(الشيخ على يوسف) سعيهم وأكدوا للطلبة أنهم يؤيدونهم ، وأقسم (الشيخ على يوسف) أن يوقف (جريدة المؤيد) لخدمتهم وجعلها لسان حالهم . فلبثوا ينتظرون منه الحماسة والتنشيط وأن يقوم بنصرتهم فتخاذل ، فسبقه أصحاب (الحزب الوطنى) بلوائهم[٦] . ولكنه لم يلبث على ذلك إلا عشية حتى غلبه (حزب الإصلاح) الى تلك النغمة وانعكست آية (الشيخ المؤيد) . وقام تلاميذ المدارس يعضدون الأزهريين واجتمعوا فى حديقة الكوبرى ، وانضم بعضهم إلى بعض وألفوا موكبا يقال أن عدده لا يقل عن العشرة آلاف نسمة والحق من وراء ما يقولون . وساروا من حديقة الكبرى مارين بالشوارع الكبرى . فاهتم صاحب الشرطة بأمرهم وقام مأمور قسم عابدين ومعه عشرون جنديا وبعض المخبرين السريين واندسوا بين المتظاهرين . وكانوا لما كمل عددهم وهموا بالخروج من الحديقة إرتقى احد الشيوخ كرسيا فأصغوا له فقرأ بعض الآيات القرآنية . فأخذ خطباؤهم يتناوبون فخطب سبعة من المشايخ واثنان من طلبة مدرسة الحقوق . ثم سار الموكب الى شارع الدواوين حيث هتفوا لمكتب (اللواء) ، ثم قادهم بعض طلبة مدرسة الحقوق الى شارع محمد على أمام ادارة (جريدة المؤيد) فصاحوا (ليسقط المؤيد) (ليسقط الخونة) (ليسقط الشيخ على يوسف) . فخرج جماعة من عمال (المؤيد) وصاحوا فى وجه الطلبة وسبوهم . فوقع الشجار وتماسك بعضهم ببعض واشتد اللكم والضرب والرفس بالأرجل ، وهجم جماعة كبيرة على باب (دار المؤيد) . فأقبل فرسان الشرطة يحاولون تفريق المتجمهرين فقاوموهم وضربوا أحد الفرسان . وعلا الصياح ووقع الهرج وترامح العامة وكثر صياح الصبيان واشتد الضرب واللكم والتماسك بالأطواق . وجاء (بلوك الغفر) من المحافظة وقسم الموسكى وأطبقوا على المتشاجرين وقبضوا على ثلاثة من الطلبة واثنين من عمال (دار المؤيد) وفرقوا الجمع . وحضر صاحب الشرطة ومحافظ المدينة وجعلوا يستنطقون المقبوض عليهم الى الساعة الثانية بعد نصف الليل ، وقد أتوا بكثيرين من

---

(٦) بلوائهم = يقصد جريدة اللواء .

الأزهريين وطلبة المدارس فى تلك الليلة . ونقلوا خبر ماجرى الى الأمير وكان فى حضرته إذ ذاك جماعة الوزراء وشيخ الأزهر والمفتى وجماعة من العلماء . فتناجوا فى الأمر طويلا ثم برزت نشرة من باب (مشيخة الازهر) يقولون فيها بعد كلام (وحيث ان المشيخة مهتمة بأمر الطلبة ولم تهمل طلباتهم لا فى المرة الأولى ولا فى المرة الثانية . ومن المعلوم بالضروة أن بحث هذه الطلبات والنظر فيها لابد وأن يستدعى انعقاد اللجنة جملة مرات حتى يمكنها أن تصدر قرارها ، فلا معنى إذن لاستمرار الطلبة على هذه الحالة التى لا عذر لهم فى البقاء عليها . فالمشيخه تنصح الطلبه الخ) .

واجتمع الازهريون عقب ذلك فى صحن الجامع وقرأ أحدهم تعهدا كتبه المندوبون للدفاع عن مطالبهم فى لجنة التحكيم يقولون (نحن المنتخبين عن عموم طلبة الازهر المعمور قد انتدبنا للدفاع عنهم فى إجابة مطالبهم بالهدوء والسكينة ، كما اننا براء إلى الله من كل مشاغبة أو ما شابهها ، وعلى هذا نضع أسماءنا والله الموفق) . فوافقوا جميعا عليه وأصبحوا وقد اجتمع مشائخ الجهات من سائر الجوامع ، وجعلوا يتناجون فى الأمر . ثم ألصقوا على جدار واجهة الجامع منشورا قالوا فيه (حيث أن مشيخة الأزهر قد استعملت مع الطلبة كل انواع اللين والتعطف ولم تقدم حتى الآن على شىء يكدرهم ، ومع ذلك فقد اهتمت بأمرهم أعظم اهتمام وأخذت فى استعمال الطرق التى توصلهم الى مقصودهم ، فسعت فى تشكيل لجنة لفحص مطالبهم بغاية الدقة والإعتدال ونشرت عليهم منشورات تتضمن ما فيه الصالح لهم من الرجوع عن الحالة المتلبسين بها وعودتهم الى الإشتغال بدروسهم وترك التشويش . وكل هذا محافظة على عماد الجامع الأزهر ومحافظة على ناموس أهل العلم ورجال الدين وحذرا من حلول القوة محل الكرامة وبلوغ الأمر الى مالا تحمد عقباه . كل هذا ولم تر منهم عدولا عما هم عليه . فقد رأت نشر ما يأتى عليهم :

أولا ـ على المدرسين والطلبة أن يحضروا إلى دروسهم فى مواعيدها فى الجامع الأزهر وغيره من المساجد المختصة للدراسة ابتداء من يوم السبت ثامن المحرم (يعنى الشهر الجارى) ومن لم يحضر الى درسه فى هذا اليوم تجرى عليه أحكام القوانين الأزهرية من قطع مرتبات وجرايات ومحو إسم من السجلات سواء كان ذلك المتأخر طالبا أو عالما .

ثانيا ـ أن من يتعرض للطلبة والمدرسين فى أى مسجد كان تكون الحكومة مضطرة إلى استعمال القوة معه وإجراء أحكامها عليه .

ثالثا ـ أن المشيخة تأمل من العلماء أن يستيقظوا ويحذروا من كل ما يوصل الى تداخل الحكومة من التعرض للدروس وإلقاء الخطب وكل مايوجب التشويش ، لأن الجامع الأزهر لا يليق به مثل ذلك بل اللائق به سلوك طريقة التقوى كما قال الله تعالى (واتقوا فتنة لا تعين[٧] اللذين ظلموا منكم خاصة) ـ تنبيه ـ وهذا اخر منشور تصدره المشيخة) إنتهى بنصه .

وجاءت رسل الأحزاب بعد ذلك اليوم يحذرون الأزهريين من بطش الحكومة بهم والقبض على مقدمى العصابة منهم . وكان أولئك الدساسين قد استأجروا بعض البيوت ليأوى اليها من لا سكن له من الأزهريين ودلوهم عليها . فلما كان ما بعد نصف ليلة ذلك اليوم خرج جميع الطلبه من الجامع وسائر الأروقة ولاذوا بالإختفاء . وأصبحوا وقد وصل الى الجامع جماعة الشرطة فى عددهم وعدتهم وأمسكوا الأبواب كلها وأطبقوا على الجامع من كل جانب ، ثم اقتحم جماعة منهم صحن الجامع وسائر الأروقة فلم يجدوا فيها أحدا . ودخل المشايخ للتدريس فلم يحضر أحد إلى الظهر . وجاء محافظ المدينة ومعه شيخ الجامع ولبثوا ساعة ينتظرون ما سيكون فلم يحضر أحد من الطلبة .

وحسَّنَ الدساسون إلى زعماء الازهريين أن يصدروا نشرة يشرحون فيها مطالبهم ويعلنون تظلمهم أو هم كانوا ينشرونها باسم الأزهريين ، وجمعوا لإعانتهم شيئا من المال . ثم برز أمر المشيخة بإعادة إنذار المعتصبين فإن لم يذعنوا ويرجعوا عن هواهم لبينما [٨] تقرر اللجان قرارها فى شأنهم وإلا حرموا من مرتباتهم وجراياتهم وامتيازاتهم ومنعوا من دخول الجامع فلم يذعنوا ، وشجعهم الدساسون وأصحاب المقاصد السافلة على ماهم عليه حتى نفذ الحكم فيهم وحرموا من كل ميزة لهم . وعندى أن أولئك الدساسين الذين يديرون هذه الحركة فإنهم يرتكبون جريمة إلى اولئك الطلبة إذا ظلوا ينفخون رؤوسهم بالأوهام ويعلمونهم بأن مطالبهم من أقدس المطالب وأنها ستجاب ولو بإسقاط الهيئة الحاكمة ، وأن عناد أولئك القوم وإ صرارهم الممقوت لهو أكبر جريمة أيضا وأدعى إلى عدم العطف عليهم بل هو ضرب من التورط الغير[٩] محمود العاقبة ، فلقد

---

(٧) تعين = تصيبن قراءة تصحيحية .
(٨) لبينما = لحين ما قراءة اجتهادية .
(٩) الغير = غير قراءة لغوية .

سرت روح هذا الاعتصاب إلى بقية المعاهد الأخرى كطنطا والإسكندرية ودسوق . إذ اندس بينهم أيضا اولئك الدساسون واستغووهم . وظل الحال على هذا أياما حتى وقعت الفرقة ثانية بين زعماء تلك الطغمة وأعوز المعتصبين المال واشتدت حاجتهم . فلان عودهم وسهل على أولى الأمر إرجاعهم الى أقوم الطرق وأقربها الى السلامة .

ولم تبطل هذه الضجه وما كان من ورائها حتى جاء الخبر من دار السلطنة العثمانية الى ديوان الوزارة وقصر الامارة بمقاضاة (الغازى مختار باشا)(للصدر الاعظم) أمام محكمة(الآستانة) لمنعه إياه من أخذ أوراقه الخصوصية والغير[10] الخصوصية من محفوظات القوميسارية بالقاهرة ، ورفع قضية بذلك يقول فيها (لما أردت أن آتى بجميع أوراقى الشخصية وغير الشخصية مما يتعلق بمهمتى فى القطر المصرى بوظيفة مندوب فوق العادة منعنى (فخامة الصدر الاعظم كامل باشا) ، وأمس علمت بأن فخامته أرسل إلى القطر المصرى (الميرالاى خالد بك) ليأتى بتلك الاوراق . فالقانون والتقاليد تمنع ذلك . وإذا كان الموظف قد عزل من وظيفته يعلن ليسلم الأوراق إلى خلفه أو إلى من يناط به عمله . فليس إذن بجايز أن تؤخذ أوراقى الشخصية وغير الشخصية وأنا غائب وبدون إذنى وسماحى مع أنى لم أعزل . فخطة (الصدر الاعظم) الشك[11] فى نفسى والريبة بإمكان ضياع بعض الأوراق التى هى بيدى . فأنا أطلب إصدار الأمر الى العامل الذى سافر إلى القطر المصرى بألا يضع يده على تلك الأوراق . فاذا كانت غايتهم من الحصول على الأوراق غير أخذ الأوراق الشخصية وترتيب السجلات الرسمية فان عملهم لا يؤول إلا برغبة الحصول على أوراقى الشخصية . واما اخشى[12] ذلك ولكنى أطلب أن توضع كل الأوراق بحضور مندوبى الذى أرسله الى القاهرة تحت الختم وترسل من هناك إلى هنا مختومة فتفتح وتفرز بحضورى . وإلا فانى أوقع كل تبعة قانونية تنجم عن ذلك على (الصدر الاعظم) إنتهى بنصه .

وماتفشى خبر ذلك ونقله أصحاب الصحف المحازبة حتى جاء الخبر من جانب (الصدارة) الى قصر الإمارة والوزير الكبير (بطرس باشا غالى) بأن (الصدارة العظمى) تعتبر أن الحجز الذى توقع على أوراق القوميساريه العثمانية عمل غير شرعى . وأن

(١٠) الغير = غير قراءة لغوية .
(١١) الشك = أوجدت الشك أضيفت الكلمة ليستقيم السياق .
(١٢) وأما اخشى = وأنا لا أخشى قراءة ترجيحية .

الواجب على الحكومة أن تبادر بفك ذلك الحجز وإلا لزم أن يتخذ (الباب العالى) الطرق الأخرى التى تلزم . فلم يلتفتوا لقوله ولم يأذن القضاء بفك الحجز . وظل الحال على هذا أياما وأصحاب الصحف المحازبة تضرب على نغمة واحدة وتنصر (الغازى مختار باشا) على سلطانه . وكان (مختار باشا) قد أقام وكيلا عنه بالقاهرة أحد المحامين . فأقام ذلك المحامى دعوى بطلب الأوراق فحكمت المحكمة بتسليمها اليه . وجاء محضر المحكمة بالحكم الى مقر (نورى بك) وطلب استلام الصناديق التى بها تلك الأوراق فلم يقوى (نورى بك) على منعه وسأله أن يختم عليها بخاتمه ويبقيها فى حراسته حتى يأتيه الأمر من (الباب العالى)ففعل المحضر . وسير (نورى بك) الخبر بذلك الى (الصدر الأعظم) . ولقد أظهرت أدوار هذه المسألة كثيرا من الخفايا السياسية والأمور التى أذهبت بسلطة (الباب) أو كادت ، وكشفت عما كان يصدره الفريقين بعضهما الى بعض من العداء والسخط . والله عليم بما سيكون من وراء ذلك الشر المقيم .

ولما كان اليوم التاسع من شهر فبراير من السنة ثامن عشر المحرم إفتتاح عام سبعة وعشرين إستلمت وزارة الأشغال العمومية وأصحاب الرى من جماعة الإنجليز من مقاولى بناء (قناطر إسنا) فى ميعاد[١٣] لتسليمها . وكانوا قد أعدوا الزينات الباهرة ومعالم الأفراح العظيمة لاستلامها . وسافر الأمير مع حاشيته وبطانته وجماعة من الوزراء والأمراء وأهل المناصب إلى إسنا للاحتفال بتلك القناطر . وباتوا وأصبحوا وقد توافد المدعوون من كل صوب وحدب . ثم اطلقت المدافع فأقبل الأمير[١٤] من موكبه وحوله جماعة الوزراء ورجال القصر (والسير غورست) عميد الاحتلال . وكانوا قد أقفلوا مرور السفن والمراكب من أبواب القناطر ، فاقترب الأمير من الباب المقفل وأدار مفتاحا كهربائيا فانفتح الباب ، فعلا هتاف الجموع ودعائهم . فسار الى حيث الحجر الأخير الذى يختم به الخزان فوقف هناك حتى سمع خطاب (سرى باشا) وزير الأشغال وأجابه على خطابه . ثم تناول مطرقة من الفضة ودهن بها حجر الختام ثم طرق الحجر بالمطرقة ثلاثا . وعاد فرسم بتوزيع بعض النياشين على عمال الرى من جماعة الإنجليز والوطنيين . وبعد ذلك ركب مع حاشيته عربه زاحفة ومر على القناطر ، ثم ركب يخته

---

(١٣) فى ميعاد لتسليمها = القناطر فى ميعاد تسليمها قراءة ترجيحية .
(١٤) من = فى قراءة تصحيحية .

عائدا إلى قصره . فأطلقت المدافع لوداعه وعزفت الموسيقى وهتفت له الجموع من كل صوب وناحية .

أقول جاءت هذه القناطر بفوائد لأراضى الأقاليم القبلية لاينكرها الا المكابرون ، وهى من آيات الهندسة ، واقعة على بعد ماية اثنين وستين كيلوا مترا من خزان أسوان إلى شماليه ، وترتفع تسعة أمتار ونصف فوق تسوية التحريق ، وبلغ طولها تسعمائة متر على مائة وعشرين عينا عرض كل عين منها جملة أمتار ، وفى طرفها الغربى هويس للملاحة طوله ثمانين مترا وعرضه ستة عشر ، وبظهرها طريق عمومى للمارة عرضه ستة أمتار يوصل بين ضفتى النيل . أما نفقاتها فقد بلغت عشرة آلاف الف ذهبا ، وقد عهد ببنائها الى الخواجات (أير) وشركاه ، وبمقاولة الأعمال الحديدية الى الخواجات (رنسوم وزيبه) . وكان الشروع فى إعمالها عقب فيضان عام ستة وتسعمائة وألف للميلاد وتمت قبل الموعد الذى كان تحدد لها بثمانية عشر شهرا .

وقد أخبرنى أحد كبار المهندسين من أصحاب الرى أن هذه القناطر تضمن لمديرية قنا الرى حتى فى الفيضان القليل ، فهى ترفع المياه فى سائر الأراضى المرتفعة من زمام تلك المديرية التى لا تقل مساحتها عن اربعين أو خمسين الف فدان . قال وقد كانت هذه الأراضى منذ عشرة سنوات أوسع من ذلك كثيرا أى كانت الى عام تسعة وثمانين وثمنمائة وألف زهاء مائة خمسة وثلاثين ألف فدان . قلت إذا كان ذلك كذلك ، وكان متوسط ماتربحه الخزينة من زيادة ضريبة تلك الأطيار بمعدل ثمانين قرشا كل فدان مائة ألفا ذهبا فى كل عام ، وكان ما يربحه المزارع من غلة أرضه إذا تم ريها على مايريد بمعدل خمسة جنيهات فى كل فدان ستمائة خمسة وسبعين ألفا ذهبا ، فيعادل مجموع هذين الربحين نصف ما أنفق على بناء تلك القناطر وهو عمل جليل من أكبر الاعمال قدرا وأنفعها لحالة البلاد .

ووافق اليوم الثانى عشر من غرار[١٥] يوم وفاة (مصطفى باشا كامل) صاحب (الحزب الوطنى) ومؤسسه . فسارت جميع تلاميذ المدارس الأميرية والمدارس الأهلية وأعضاء لجان الحزب من أهل بولاق والحطابة وباب الوزير ولجان السيدة زينب والخليفة .

(١٥) غراء = فبراير قراءة ترجيحية .

فلما وصلوا إلى حيث قبر الفقيد نثروا عليه الزهور وقرأوا الفاتحة ووقف (حافظ افندى ابراهيم) على مرتفع قد أعدوه وتلا قصيده قال فيها :

طوفوا بأركان هذا البيت واستلموا واقضوا ما تقضى به الذمم
هنا جنان تعالى الله بارئه ضاقت بآماله الأقطار والهمم

ومنها

يا أيها النائم الهانئ بمضجعه ليهنك النوم لا هم ولا سقم
باتت تسائلنا فى كل نازلة عنك المنابر والقرطاس والقلم

إلى أن قال . . . . وبعد نهاية القصيدة انصرف الجمع وتفرق فى كل صوب وناحية .

وجاء الخبر من دار السلطنة العثمانية بوقوع الفرقة والخلاف بين (الصدر الأعظم) وجماعة الوزراء وأصحاب (جمعية الاتحاد والترقى) ، واتخاذ أولئك الاتحاديين كل حيطة واستعداد لقلب هيئة الوزارة وخلى(١٦) السلطان عبد الحميد وتولية الشاهزاده(١٧) (يوسف افندى عز الدين) بدله . وتتابعت الكتب الخصوصية والأنباء الرسمية باستفحال الخطب واشتداد الكرب وقيام (الصدر الأعظم) مع أولئك القوم وإكراهه لوزيرى الحرب والبحر على التخلى عن منصبيهما لأنهما من كبار أنصار حزب التقهقهر وضنائع (المابين) . وظهرت الحركة على اشدها بين (حزب الأحرار) الذى تألف حديثا وبين (الاتحاديين) بأجلى مظاهرها . وأحس (السلطان عبد الحميد) بما وراء تلك الحركة المقلقة من الخطر الداهم ، وأبلغته جواسيسه وعيونه خبر ما ينويه جماعة الإتحاديين من قلب الأحوال وتبديلها تبديلا . فبرز أمره الى وزير الحرب بأن يرسل الى (سراى يلدز) أربعة مدافع من المدافع الرشاشة وإلى وزير البحر بإبعاد الدارعة (مسعودية) عن مياه القصر ، فلم يجيبا الطلب ولم يحفلا بالأمر . وظهرت الحركة فى امهات المدن العثمانية ، وبدأ الهرج بين أهلها وتحرجت الأحوال بين المسلميين والنصارى فى (قيصريه)(وديار

(١٦) خلى = خلع قراءة تصحيحية .
(١٧) ابن الملك أو السلطان
- جيمس ردحاوص الإنكليزى (توركجه - انكليز جه لغت كتابى) - مرجع سبق ذكره - ص١١٢ .

بكر) (وزيتون) وغيرها من قرى (آسيا الصغرى) لانباث[١٨] دعاة الرجعيين الذين هم أنصار السلطان بها . وتحقق خبر توزيع الأسلحة والمعدات على مسلمى الولايات المقدونية . وانقلب(كامل باشا) (الصدر الاعظم) عن منصبه وتبعه جماعة الوزراء . وتولى الصدارة (حسين حلمى باشا) فزالت[١٩] بزوال هيبته(حزب الاتحاد العثمانى الحر) الذى أنشأه (الأمير [٢٠] صباح الدين افندى) ابن أخت السلطان أو كاد . وهذا الحزب هو الشوكة فى حلق الاتحاديين منذ ظهور الدستور ، العامل جهده على اعادة الحكم المطلق القديم . وتحولت سائر صحف دار السلطنة عن نظرت[٢١] (كامل باشا) بعد أن كانت كلها معه تطريه بكل لسان . واجتمع زهاء ألف وخمسمائة ضابط فى(ميدان السر عسكريه) وتناجوا طويلا فى الأحوال الحاضرة ثم قر رأيهم على أمور لم يقولوا بها لأحد . وشاع أن (الصدر الاعظم) قال أنه ضعيف الثقة بالتوابير الثلاثة يعنى الجنود الذين أتوا بهم من (سلانيك) إلى دار السلطنة ، فبلغ قوله أولئك الجند فأبوا أن يحضروا (حفلة السلاملك) السلطانية وتمرد بعض جنود البر وجنود البحر على أثر ذلك وتجاهروا بمطالبهم ورغايبهم ، فطلبوا عزل بعض الضباط ثم عادوا فطلبوا صرف جماكيهم ومرتباتهم ثم طلبوا نقلهم من مساكنهم الحالية أو تسريحهم إلى أوطانهم . وبلغت قحة الجنود البحرية أن تهددوا بإطلاق مدافعهم على سراى السلطان وفعلوا غير ذلك . قالوا وقد تمكن أصحاب (جمعية الاتحاد والترقى) من جعل جند الفيلق الثانى والفيلق الثالث طوع أمرهم إذا حدث حادث من جانب (حزب التقهقر) ، وانضم إلى (حزب الأحرار) جند وضباط فيالق أفريقيا وآسيا الصغرى ووضعوا سيوفهم فى خدمة (الأحرار) .

(١٨) لانبات = لتسلل قراءة اجتهادية .

(١٩) فزالت = فزال قراءة ترجيحية .

(٢٠) راجع حاشية ٩٤ ص١٠٩٦ . والواقع أن (صباح الدين) لم يرتبط بأى حزب سياسى بعد عودته إلى (الأستانة) بعد عودة الدستور فى سنة ١٩٠٨ . ولم يعترف الرجل (بحزب الأحرار) وأعلن إنكاره له رغم أن مبادىء الحزب مأخوذة عن مبادىء (صباح الدين) . ولقد كانت مشكلة الرجل هى أن (الاتحاديين) (أعنى أنصار جمعية الاتحاد والترقى الذين استولوا على السلطة فى ٢٣ يوليو ١٩٠٨) ضاقوا ذرعا بنشاط (صباح الدين) بعد وصوله من المنفى ، وأفزعهم الاستقبال الهائل والضجة التى صاحبت عودته من (باريس) إلى الأستانة ، فاعتبروا جمعيته (التشبث الشخصى وعدم مركزية) هى الخطر على وجودهم . ولما كان (حزب الأحرار) المنافس ينتهج مبادىء وأفكار (صباح الدين) وجمعيته ، فقد نسب خطأ إلى الرجل أنه زعيم هذا الحزب (الأحرار) .

- توفيق على برو ـ المصدر نفسه ـ ٨٥ ـ ٩٥ .

(٢١) نصرت = نصرة قراءة لغوية .

فأصبح الجيش العثمانى بذلك مشطورا الى شطرين متنابذين . وقلت حيلة كبار الضباط وجماعة القواد فى إيقافه عند حد القوانين العسكرية . وقام جماعة الأحرار بعد ذلك يتهمون الصدر الاعظم بالمروق عن خطة الحياد ، والإنضمام بعد أن تولى الصدارة الى (الإتحاديين) . وانفض السلطان من ناحيته ، فلم يقدر على إزالة ما فى نفس السلطان ولاعلى الدخول عليه للتوقيع على الأوامر والأوراق الهامة ، وتفشى الخبر بقرب سقوطه وتولية (فريد باشا) الصدر الأسبق بدلا منه .

وبينما الناس فى حساب ما سيكون من وراء هذه الحركة الشديدة التى تفشت فى السلطنة العثمانية فكادت تقلبها رأسا على عقب إذ قامت فى مصر ضجة اخرى وضجة كبرى . ذلك أنه لما كبرت قحة صحف الأحزاب وتمادت على التهييج ودس الدسائس والدعوة الى الهرج وشق عصا الطاعة وقد كبرت مشادتها لكل حاكم ورئيس . فلما كانت أخريات شهر مارس من السنة نشرت (الجريدة الرسمية) قرار مجلس الوزراء بإعادة العمل بمقتضى قراره الصادر يوم خامس عشرى مارس عام تسعة وتسعمائة وألف بتحديد عمل الصحافة ووظيفة الصحافيين والجبات[٢٢] المفروضة على كل صاحب صحيفة ونصه (عملا بقرار مجلس النظار الصادر فى خامس عشرى مارس سنة تسع وتسعماية وألف المعلن بالجريدة الرسمية نمرة ٣٢ بتاريخ سابع عشرى منه ، تذكر نظارة الداخليه ذوى الشأن بالنصوص الآتى بيانها المدونة (بقانون المطبوعات) الصادر فى سادس عشرة نوفمبر سنة إحدى وثمانين وثمنمائة وألف وهى :

اولا - يلزم أن يتوضح إسم ومحل سكن صاحب المطبعة الحقيقيين فى كل نسخة من أى جريدة تنشر بالقطر المصرى .

ثانيا - ترسل بالبوسطة الى (قلم المطبوعات) بنظارة الداخليه بمصر خمس نسخ من كل عدد من أى جريدة فى وقت نشرتها[٢٣] وتكون هذه النسخ معفاة من أجرة البريد

ثالثا - يلزم إبلاغ قلم المطبوعات عن كل تغيير فى صاحب إمتياز أو رئيس تحرير

---

(٢٢) والجبات = والواجبات قراءة ترجيحية .
(٢٣) نشرتها = نشرها » »

(أى مدير) أى جريدة تشتغل بمواد سياسية أو إداريه إو دينية للحصول على اذن من المحكمة

رابعا ـ من يريد أن ينشر فى القطر المصرى جريدة تشتغل بالمواد السالفة الذكر يجب عليه الحصول مقدما على (رخصة) من الحكومة بذلك ، بأن يقدم طلبا الى (قلم المطبوعات) على الإستمارة الموجودة بالقلم المذكور وعليه ايضا أن يودع التأمين المقرر بالقانون .

خامسا ـ كل صاحب مطبعة يريد الاشتغال بطبع جريدة يلزمه أن يقدم طلبا (للقلم المطبوعات) للحصول على رخصة من الحكومة بذلك . قال وقد أرفق كشف بيان كافة الجرائد المعروفة الجارى نشرها فى القطر المصرى لغاية تاريخه . وأصحاب هذه الجرايد معفون من الحصول على الرخص المقررة لأجلها .

وقد تحدد ميعاد ينتهى فى خامس عشر أبريل القادم لأصحاب باقى الجرائد الأخرى التى تنشر بصفة مطردة لغاية تاريخه لكى يطلبوا فى خلال هذا الميعاد درجها فى كشف الجرايد المعروفة .

والجرائد المعروفة الجارى نشرها فى القطر المصرى بصفة مطردة لغاية هذا التاريخ هى :

بالقاهرة باللغة العربية

الأهرام ـ المقطم ـ المؤيد ـ الوطن ـ اللواء ـ مصر ـ الجريدة ـ الأخبار ـ الدستور ـ المنبر ـ الأفكار ـ العمران ـ الصاعقة ـ الإستقامه ـ المرشد ـ القطر المصرى ـ الأحرار ـ مصر الفتاة ـ النظام ـ المحروسة ـ المنار ـ المقتطف ـ الهلال المحيط .

باللغات الأجنبية

تابروجريه[٢٤] ـ جورنال دوكير ـ البراميد ـ لابورص اجيبسيان ـ ليجيبت ـ إجيبشيان مورننج نيوز ـ أخبار سياليه ـ كايرون ـ كردنس ـ إجيبشيان ديلى بوست ـ

(٢٤) تاروجريه = البروجريه قراءة ترجيحية .

لوساير أريف ـ ادرينت[٢٥] ـ انداوشيدنت ـ فيودوس ـ كوريه ديجبت

بالأسكندرية باللغة العربية

ألبصير ـ وادى النيل ـ الإتحاد المصرى ـ الإكسبريس ـ أنيس الجليس ـ لسان العرب ـ مجلة الملاجئ العباسية .

باللغة الاجنبية

اجبسيان غازت ـ لاريفوم[٢٦] ـ فادو اللسندرى ـ لى نوفل ـ تلفراموس ـ اومينا ـ نيلوس ـ ماساجيرى اجيزيانو

طنطا بالعربية

الحرية ـ وفى بور سعيد باللغة الاجنبية لافرينيه أ . هـ .

أقول وما هو ان أذاعت الجريدة الرسميه نص هذا المقدار[٢٧] حتى قام أصحاب هذه الصحف وقعدوا وهاجوا وماجوا ونادوا بالويل والثبور وعظائم الامور . وتزاحموا على أبواب ديوان الوزارة وقابلوا الوزراء جماعات وفرادي فلم ينالوا صرفا ولا عدلا . ورفع بعضهم قصتهم الى الأمير يستعطفوه وبعضهم يشهدونه ، ثم لاذوا الى وكلائهم فى البلاد فجعلوا يستكتبون الناس رسائل الإحتجاج على جناح البرق وكتب الإستياء مع البريد موقعا عليها بأسماء الله يعلم من هم اصحابها . فكانت تأتى ركاما الى باب القصر من كل صوب وناحية . وأذاعت بعض الصحف خبرا مؤداه انه قد تألفت هيئة من أصحاب المصالح الحقة ـ وما أدرى ماهى تلك المصالح ـ للإحتجاج على (قانون المطبوعات) بعمل مظاهرة سياسية كبرى باسم الأمة المصرية ، ونشروا لهم رسالة يقولون فيها (لما كان قانون الصحافة الذى صدر اخيرا اعدادا [٢٨] نهائيا للحرية الشخصيةوقضاءً مبرا [٢٩] على تقدم الأمة المصرية وصحافتها ، فلذلك تألفت لجنة للقيام بمظاهرة كبرى سياسية

(٢٥) ادرنيت = اورنيت	قراءة ترجيحية
(٢٦) لاريفوم = لاريفورم	» »
(٢٧) المقدار = القرار	» »
(٢٨) إعدادا = اعداما	» »
(٢٩) مبرا = مبرما	» »

الصبغة سليمة المعنى احتجاجا على هذا العمل الجائر الذى جاء فى إبان المطالبة بالدستور المصرى وعقب حصول الأمة العثمانية على حريتها بعد طول تقييدها ، وإظهارا للإستياء العام من هذه المعاملة الشنيعة التى لا معنى لها إلا اعتبار الأمة قطيعا من الغنم يريد الظالمون ابتزاز خيراتها وربحها وهى ساكنة ساكتة . وحيث ان اللجنة فرضت على نفسها جعل هذه المظاهرة شاملة جميع طبقات الأمة المصرية بلا اختلاف ولا تمييز ، فنحن ندعو كل مستاء من إصدار هذا القانون الجائر الذى يخالف روح هذا العصر فى جميع انحاء العالم إلى الإجتماع بحديقة الجزيرة عند كوبرى قصر النيل الساعة الرابعة بعد الظهر من يوم الاربعاء حادى ثلاثين مارس الجارى) . قالوا (وأما المظاهرة فستبدأ بالجزيرة بإلقاء الخطب والإحتجاج ثم تسير المظاهرات من كوبرى قصر النيل الى ميدان عابدين فشارع باب الخلق فشارع محمد على فالعتبة الخضرة فشارع كلوت بك فميدان باب الحديد فشارع نوبار فشارع كامل فميدان الأوبرا وهناك تنتهى [٣٠] عمل المتظاهرين) . قالوا (فالمرجو من حضرات الذين يريدون الإشتراك فى هذه المظاهرة إتباع الإشارات والتعليمات التى يلقيها عليهم منظمو المظاهرة حسب البرنامج الذى وضعته اللجنة وعدم الإخلال بالنظام العام) ـ انتهى بنصه .

أقول واتصلت هزة الإحتجاج على ذلك القانون سائر طبقات الأمة حتى بأرباب الحرف والصنائع كالحدادين والنجارين والحلاقين والسنكرية وغيرهم من أصحاب المهن الضئيلة ، وحتى جماعة الأزهريين . وكلهم مستاء حزين متحفز للوثبة على من كان السبب فى إعادة ذلك القانون من رمسه بعد أن مضت عليه السنون الطوال .

أحدث هذا القانون (بورلى بك) مستشار قضائى الحكومة عام واحد وثمانين وثمنمائة وألف إبان الثورة العرابية ، وظل معمولا به فى الخفاء إلى عام خمسة وتسعين حيث قام (مصطفى رياض باشا) فى رياسته يضرب به أعناق الأقلام بغير حساب ، ثم أُبطِلَ العمل به فى ذلك العام وصار الإغضاء عنه جملة . فلما قامت ضجة صحف الأحزاب ولا سيما أصحاب صحف (الحزب الوطنى) وخرجت عن طورها تضرب بسيف وعدها ووعيدها شكا (غورست) أمرها الى صاحب سياستهم ، وخوفه من عاقبة السكوت

---

(٣٠) تنتهى = ينتهى قراءة ترجيحية .

والإغضاء عن هذا التحريض المقيم ، واستفزه الى طلب اعادة العمل بقانون المطبوعات ، وأشار بالتعجيل تلافيا للخطر البادى من وراء الحركة المخيفة المتفشية فى مشرق البلاد ومغربها بعد منح الدستور العثمانى . أشار على صاحب سياستهم بالتعجيل وقال ان دعاة(الحزب الوطنى) وزعانفه منبثون فى الأطراف يحضون الناس على طلب الدستور بسائر الوسائل والأسباب الغير[٣١] المشروعة حتى كثرت الإحتجاجات وتتابعت المظاهرات . فجاء الأمر الى (الوزير بطرس باشا غالى) بإرجاع العمل بحكم ذلك القانون وشدد عليه بذلك تشديدا كبيرا . فكلم الأمير فى ذلك وتحادثا فى شأنه اياما حتى تقررت القاعدة بينهما على ما رأيا فيه المصلحة . ثم اجتمع الوزير بجماعة الوزراء وكلمهم فى أمر إرجاع العمل بحكم ذلك القانون ولم يعلمهم بخبر ماجاء من صاحب السياسة الإنجليزية . فاختلفوا فى ما بينهم وامتنع بعضهم عن الموافقة على ذلك ، ووقعت المشادة إلا واحدا منهم ظل مع الوزير يعضده ويحبذ رأيه . وتفشى خبر ذلك ونقله أصحاب الصحف مشوبا بالهتر والقول المعيب . وجعل (السير غورست) يأتى الى ديوان الوزير تارة وإلى القصر تارة أخرى وهو يزبد ويرعد ويتوعد بعظائم الامور . وطلب الوزير (بطرس باشا) من الأمير إقالته من منصب الرئاسة وهدد فى ذلك كثيرا فلم يقبل الأمير طلبه . فانقطع عن الذهاب إلى ديوانه أياما ورسل الأمير تأتيه فى الصباح والمساء . وكان الوزراء قد ثابوا إلى رشدهم أو هم عرفوا بخبر ماجاءهم من صاحب السياسة الإنجليزية وأن الدول الأوربية قد طلبت لجم أفواه أصحاب الصحف المتطرفة بحكم ذلك القانون . وكان الأمير قد استقدمهم إلى قصره بالقبة ولبثوا بحضرته وقتا طويلا . يقال كان رسول (السير غورست) يروح ويجىء الى القصر كل لحظة من الزمان ومخبرو الصحف من ورائه يسترقون السمع . فباتوا وأصبحوا وقد اجتمعوا جميعا فى حضرة الأمير فى قصر عابدين وقرروا بالإتفاق إنفاذ العمل بذلك القانون ، وتفشى خبر ذلك . فباتوا وأصبحوا وقد تجمهر بعد ظهر حادى وثلاثين مارس من السنة جماعة كثيرة جدا فى حديقة الجزيرة . قالوا لكى يحتجوا احتجاجهم الشديد على إعادة العمل بذلك القانون . وعلم صاحب الشرطة بعزم القوم وما هم عليه من التحمس ، فاتخذ الحيطة لذلك وأوقف جنده على يمين

(٣١) الغير = غير قراءة لغوية .

كوبرى قصر النيل إلى جهة (فندق سميراميس) حتى تمنع موكب القوم عن الذهاب الى دور الوزراء فى طريق (قصر الدوبارة) . وأوقف قوة اخرى من المشاة فى ساحة عابدين لمنعهم من الدنو من قصر الإمارة . وبرز الأمر إلى الجند المرابطين فى ثكنة عابدين بأن يكونوا على أهبة الخروج عند صدور أول اشارة ، وأوقف (بولك الغفر) عند باب كوبرى النيل[٣٢] . وجاء الامر الى قائد جيش الإحتلال بأن يمد صاحب الشرطة بمائة وستين من فرسانه المسلحين ، وإلى قواد الجيش الإنجليزى فى (قلعة الجبل)(وثكنة قصر النيل) بأن يكونوا على استعداد تام عند الطلب . وركب صاحب الشرطة فى جماعة من الفرسان استعدادا لمراقبةالموكب . وكان قد جاءه الخبر بأن جميع طوائف الفعلة والعمال وأصحاب الحرف الدنيئة سيشتركون فى هذه المظاهره .

وأحس زعماء ومقدمو هذه الحركه بما وراء ذلك من الخطر ، فتحققوا[٣٣] من غلوائهم ومنعوا الكثير من أرباب الحرف والصنائع من الإنضمام الى المتظاهرين ، وقالوا لهم أنهم سيقسمون المظاهرات أقساما على أيام عديده حتى لا تتخذ شكلا ضخما مخيفا ، وما زالوا بهم حتى اقنعوهم . ولما كمل الإجتماع فى الساعة الرابعة نفخ تلميذ من تلاميذ مدرسة الحقوق فى نفير كان معه فاجتمع الناس وصاحوا بصوت شق الفضاء (لتحيى الصحافة)(ليسقط قانون المطبوعات) (لتحيى الأمة)(ليسقط الإستبداد) (ليحيى الوطن) . ثم وقف صاحب (جريدة القطر المصرى) وخطب مبينا الخطر على الحرية الشخصية وأن الحكومة الآمرة المؤلفة من خمسة مستشارين يخضعون لرجل واحد إذا استطاعت أن تكمم الأفواه وتحبس الأقلام فإنها لا تستطيع أن تقتل الحرية . ثم ذكر حادثة الأزهر وقال إن هذه الحرب شاده[٣٤] على الإسلام وقد وبدأوا بلجم الصحافة وغدا يشنون[٣٥] بمنع الإجتماعات . وتلاه تلميذ يقال له(محمد مختار) من تلاميذ المدارس الخرة وأعلن تألم الأمة من القانون ، وتلاه آخر فقال إن الوزارة الجديدة ألفت لإيذاء الشعب . فحرمت صيادى بحيرة المنزلة رزقهم وأوجدت حادثة الأزهر ،

(٣٢) النيل = قصر النيل قراءة ترجيحية
(٣٣) فتحققوا = فتخففوا قراءة اجتهادية
(٣٤) شاده = قائمة قراءة اجتهادية
(٣٥) يشنون = يسنون قانونا قراءة اجتهادية عدلت الكلمة إلى هذه العبارة ليستقيم السياق .

وفرقت بين الأمير وشعبه واليوم قيدت الصحافة ، ثم أعقب خطبته بقصيدة طويلة ، وتلاه تلميذ آخر فقرأ قصيدة كثيرة الأبيات . وما هو أن أتم قصيدته حتى صاح الجمع عاليا (لتحيى الحرية)(ليحيى الشعب) (لتحيى الصحافة) . ونفخ صاحب النفير نفيره فسارت الجماهير وبعضهم يحمل بعض الأعلام وهم ينادون ويضجون ويزأطون ، والصبيان من خلفهم فى عدد عديد ، والتقوا (بالأمير حسين) عم (الأمير عباس) عند كوبرى قصر النيل فصاحوا (عاش الأمير حسين باشا) عاشت الشورى .

فلما أراد المتظاهرون الإتجاه الى قصر الدبارة حيث يقيم (السرغورست) عميد الإحتلال منعهم (بولك الغفر) من ذلك فاتجهوا إلى ميدان عابدين . فلما اقتربوا من بيت (البارون أوبنهايم) وكيل دولة الالمان السياسى صاحوا (عاشت المانيا) فليحى الأسطول الالمانى . ووصلوا الى الميدان ووقفوا هناك ساعة ويزيد . فبرز الأمر بتفريقهم فهجم فرسان صاحب الشرطة ليفرقوهم ونفخ صاحب النفير فى نفيره فجفل جواد صاحب الشرطة ، فقدم احد الفرسان يريد القبض على صاحب تلك النفخة فاعترضه آخر من تلاميذ المدرسة الخديوية فقبض عليهما معا وسيقا الى قسم عابدين . وانشطر المركب شطرين . سار الشطر الأكبر الى باب الخلق ووراؤه الفرسان وسوارى جيش الإحتلال ، فنزل فى شارع محمد على إلى ميدان الأوبرا ، واتجه من هناك الى (وجه البركة) . ومن هناك برز أمر صاحب الشرطة بتفريقهم فصاح بهم الجند ان يتفرقوا لم يتفرقوا ، فهاجموهم بصدور الخيل عند القهوة المعروفة (بقهوة نيوبار) . فتدفق المتظاهرون كالبحر الزاخر على المكان المذكور . فلحق بهم اصحاب الشرطة بخيلهم ورجلهم ، فتحطمت الكراسى والطاولات كلها والشبابيك ، وقام من بالقهوة من الأجانب والأهلين يدفعون أصحاب الشرطة بالراح ويردون عن أنفسهم بالكراسى . وتسابق الناس للخروج من المكان فكانت شدة بالغة ، وتقدم أحد تلاميذ المدارس الى حيث صاحب الشرطة وكلمه . يقال وسبه فلم يلتفت اليه وأشار عليه بالإنصراف . فلم ينصرف وصاح بأعلى صوته (ليسقط الاستبداد)(ليسقط صاحب الشرطة) فردد المتجهرون صياحه وزادوا . فأمر صاحب الشرطة بالقبض عليهم جميعا فطاردهم الجند . ووصل (بولك الغفر) بسلاحه فاحتل الميدان ، وجاء قائد جيش الاحتلال مع أركان حربه فوقفوا أمام تمثال (ابراهيم باشا) . وعلى أثر وصولهم وصلت مضخات المطافئ فأرسلت على المتجمهرين ميازيب

من المياه ، وهكذا ظل اصحاب الشرطة يطاردون القوم والمضخات ترسل عليهم مياهها حتى غروب الشمس فلم يبق منهم أحد فى ذلك الميدان . وانصرفت تلك القوات وكفى الله المؤمنين القتال[٣٦] .

أقول وما هى الا ايام بعد ذلك حتى تفشت أشاعة أخرى . ذلك أن (السير غورست) كلم الأمير فى ضرورة (سن قانونا للإجتماعات العمومية والمظاهرات السياسية) وغيرها . قال لترتاح البلاد من جلبة المتهوسين وطيش الطائشين الذين قاموا يدسون الدسائس فى طول البلاد وعرضها ويدفعون البسطاء الى الهرج وشق عصا الطاعة . فكلم الأمير وزيره فى ذلك وأشار عليه بسن ذلك القانون والعمل به . فجعل الوزير يطاول ويشير بالتأنى وعدم العجلة (والسير غورست) يكثر من مقابلة الأمير ويعيب على الوزير (بطرس باشا) مطاولته وتغاضيه عن فعل الأحزاب ولاسيما منها (الحزب الوطنى) الذى منى البلاد بكل شر مقيم . وفيما هم على هذا إذ جاء الخبر الى محافظ المدينة بأن جماعة البنايين

(٣٦) كان إحياء العمل بقانون المطبوعات الصادر فى نوفمبر ١٨٨١ هو رد الفعل الحكومى إزاء تطور الحركة الوطنية الذى شهدته البلاد فى السنوات السابقة على إعادة العمل به . فقد كان النظام الحاكم ضائقا بالروح الثورية السائدة فى البلاد ، ومظاهرات الطلبة والشكل الذى اتخذته ، وتحريض الصحافة الحزبية - وخاصة صحافة الحزب الوطنى وعلى رأسها الشيخ عبدالعزيز جاويش - للطلبة والرأى العام على نقد الحكومة ، والحركة المطالبة بالدستور أسوة بما جرى فى السلطنة فى ١٩٠٨ .

ولقد كان مسلك الحكومة فى مارس ١٩٠٩ بإعادة العمل بهذا القانون محاولة منها للقضاء على الروح الوطنية وللحد من نشاط الحزب الوطنى ، الذى لم يترك الأمر واحتج على إعادة القانون بكل شدة ، فسارت المظاهرات رافضة تكميم أفواه الوطنيين ، وأرسلت برقيات الإحتجاج إلى الخديو والوزراء دون جدوى .

وسرعان من طبق القانون على (الشيخ عبدالعزيز جاويش) عندما نشر مقالا فى (اللواء) ذكر فيه الشعب (بحادثة دنشواى) وتلك المحاكمة الظالمة التى رأسها (رئيس النظار) مما اعتبرته السلطات القضائية تعريضا وطعنا فى حق (بطرس غالى) رئيس تلك المحكمة التى قضت بإعدام (زهران) ورفاقه فى سنة ١٩٠٦ . كما أنذرت (اللواء) لنشرها مقالا تمجد فيه الشاب الهندى (دنجرا) لقتله (السير كيزرون ويلى) الموظف البريطانى بالهند . والخلاصة أن إحياء قانون المطبوعات الصادر فى عام ١٨٨١ والعمل به فى عام ١٩٠٩ لم يكن يعنى سوى محاولة الحكومة خنق الحريات وتكميم الأفواه ومنع معارضة الحكومة فى تصرفاتها الموحى بها من المعتمد البريطانى . كما أن هذا القانون كان يحسب على حكومة بطرس غالى باشا ولا يحسب لها .

- محمد عبدالرحمن برج (دراسة فى الحركة الوطنية المصرية - وزارة بطرس غالى ١٩٠٨ - ١٩١٠) - مرجع سبق ذكره ص ٦٧ - ٩٤
- مذكرات سعد زغلول - ج٢ - تحقيق عبدالعظيم رمضان - مرجع سبق ذكره - ٩٤٢ وما بعدها .
- عبدالمنعم الجميعى (مصر فى التاريخ الحديث والمعاصر) ١٧٩٨ - ١٩٧٣) - الطبعة الأولى - ١٩٩٢ - ص١٩٢ وما بعدها .
- أحمد شفيق باشا (مذكراتى فى نصف قرن) - الجزء الثالث - مرجع سبق ذكره - ص١٧٣ - ١٧٩ .

والنجارين والحدادين والمبيضين والنقاشين سيجتمعون فى حديقة الجزيرة ويتكلمون فى الضائقة المالية التى لم تبق لهم عملا يرتزقون منه ويعولون عيالهم . فبرز الأمر الى صاحب الشرطة بأخذ الحيطة لذلك . فساروا الى تلك الحديقة وهم فى ضجة وجلبة ووقف فى وسطهم رجل يقال له(الأسطى عبد الرحمن النجار) وخطب فيهم خطبة لا أول لها يعرف ولا آخر يوصف . ثم وقف بعده (محمد أفندى حبيب المهندس) صاحب الكتابات المشهورة والإحتجاجات الكثيرة ضد كل عمل تريده الهيئة الحاكمة ، وجعل يحض القوم على الإتحاد والتماسك والوقوف فى وجه أصحاب الحل والعقد كالبنيان المرصوص . ثم خرج المتظاهرون فطافوا على مكاتب أصحاب الصحف شاكين حالهم وما هم فيه من الضائقة الشديدة ، فقام بعضهم ينصرهم ويحبذ عملهم ويحذر أصحاب الحل والعقد من التهاون والإغضاء . وظل الحال على هذا أياما والأقوال شائقة بتتابع المظاهرات .

وكان إلى هذا الحين قد تمت الأعمال التى اقاموها لبناء ميناء جديد بالبحر الاحمر بدلا من ميناء سواكن التى قالوا أنها لا تصلح لتجارة الأقطار السودانية . فلما كان يوم أول ابريل من السنة يوم عاشر ربيع أول عام سبعة وعشرين وثلثمائة وألف للهجرة وثالث عشرة برمهات عام خمسة وعشرين وستمائة وألف للشهداء أعدوا المآدب والزينات العظيمة . وكان الأمير قد سافر على يخته (المحروسة) مع حاشيته ورجال ديوانه وخاصته من القلزم إلى تلك الميناء . فطاف ذلك البلد الجديد مع جماعة المدعويين من الأمراء والكبراء والأعيان والعلماء ، وجعلت الموسيقات تصدح والسرادقات تملؤها الأنوار . وظلوا تلك الليلة على ما هم فيه من أنس وطرب . وكان السردار وحاكم السودان قد خطب خطبة شائقة فى الموضوع . وبعد تلاوتها قدمها فى علبة من الذهب الخالص الى الأمير فتقبلها ، ورد على خطاب الحاكم العام ردا حسنا للغاية ثم أهدى جماعة الموظفين وأصحاب المناصب شيئا من النياشين ورتب الإفتخار فى ذلك اليوم على العادة المتبعة فى مثل هذه الاحتفالات . وأطلقوا على تلك الميناء اسم (بور سودان) يعنى ميناء السودان .

أقول ــ إختاروا هذه النقطة من البحر الأحمر لتكون ميناء السودان ومنتهى سكة حديد البحر الأحمر لتفضيلها عن سواكن الميناء القديمة التاريخية . على أن هذه النقطة

لم تكن يوم اختيارها والشروع فى عملها إلا شاطئا صخريا قاحلا ، فشرعوا فى البناء عام خمسة وتسعماية وألف . فما حال الحول حتى أتموا البناء كله أعنى فى أخريات عام تسعة وتسعمائة . وأنشأوا غربى الميناء دورا للحكومة مختلفة وثكنات للجند وأبنية للمدارس ومكانا للسجن وبناء فخما للمرضى ومكاتب للبريد والتلغراف ودواوين للحكومة وأهل المناصب وأحياء للسكن ونقطة للحجر الصحى ، وكملوا الأرصفة وأماكن تفريغ البضائع وشحنها بمعدات الرفع والحط والسحب وغير ذلك من الآلات الميكانيكية على أحدث طراز من طرازات الكهرباء . وقد بلغت نفقة ذلك كله تسعمائة ألف وأربعة عشر ألفا ذهبا ، فباتت سواكن بعد انشاء بور سودان هذه كأنها لم تكن شيئا مذكورا .

وعاد الأمير ومن معه إلى (الطور) فأقام بها يوما وبعض اليوم . ثم وصل الى السويس وانحدر منها الى قصره . وقد حسب له فتح هذا الميناء عملا تاريخيا تعيد ذكره الأيام .

أقول وبينما أصحاب الصحف الأهلية يكثرون من اجتماعاتهم ويرسلون رسلهم الى أصحاب الصحف الأجنبية فى طلب نصرتهم والإحتجاج على (قانون المطبوعات) بشدة علهًم ينالون غرضا . يقال فلم يوافقهم من أولئك القوم أحد . وبات هذا القانون معمولا به بلا فرق ولا تمييز . وكان فى القاهرة جماعة من الترك أصحاب الأقلام ومحررى الصحف العثمانية جاءوها فارين من وجه الإتحاديين . فأقاموا على الرحب والسعة لا يعارضهم فى حريتهم الذاتية معارض ، وقد اختلطوا بالأحزاب وأمتزجوا بأصحاب الصحف على اختلافها ، فكانوا يحملون بأقلامهم على جماعة الإتحاديين حملات منكرة ويرسلون إلى صحفهم فى دار السلطنة بأخبار ما وصلت اليه الصحف المصرية من الرقى والحرية فى القول والعمل . فلما أعادت الهيئة الحاكمة العمل بقانون المطبوعات ذلك وشددت المراقبة على المتطرفين من أصحاب الصحف المحلية ساءهم ذلك ، فجعلوا يجاملونهم برسائل العطف وعبارات التشجيع على لسان جريدة لهم تطبع فى دار السلطنة باسم (سربستى)[٣٧] ، وتنبه الحكومة المصرية الى تبدل الأحوال وتطور الاخلاق بعد ظهور الدستور العثمانى . وبينما هم على هذا إذ جاءهم الخبر من الاستانة بمقتل (حسن بك

(٣٧) أى الحرية باللغة التركية .

فهمى) محرر (سربستى) إحدى صحفهم الناطقة بالعداء لجماعة (الإتحاد والترقى) . قتل غيلة فاتهموا بقتله جماعة الفدائيين الذين اتخذهم الاتحاديون درعا لهم فى مناهضة الرجعيين الذين هم أعوان (السلطان عبد الحميد) . فازعجهم هذا الحادث وأشغلهم عن كل عمل ، واجتمعوا بالنزل المعروف بنزل (الكونتيننتال) وتناجوا فى الأمر طويلا ، ثم احتجوا على هذا العمل الفظيع احتجاجا شديدا لقلة المتطرفين من اصحاب صحف الأحزاب وهو منتهى مافى قدرتهم أو هو حيلة المغلوب .

أقول ومن نكد الدهر انه كلما قرب عيد الفطر عند الاسرائيليين شاع بين العامة أنهم أى الإسرائيليون ينوون خطف الأولاد واستنزاف دمائهم لعمل الفطير ، وقد تعب الناس وأهل الأدب جدا فى ازالة هذه السخافات من رؤوس العامة ولم يفلحوا وكأن مدينة بور سعيد قد اختصت بهذا الوهم الفاسد اكثر من غيرها . ففى العام الماضى ضاع فيها فتى فقامت قيامة العامة على جماعة اليهود فيها وبلغت من الخطورة مبلغا عظيما للغاية . ولما قرب عيد فطر اليهود فى هذا العام تفشت الإشاعة ذاتها فى أنحاء القطر وقالوا أنهم خطفوا فتى شاميا ضاع ولم يعد إلى منزل أهله . واشتد الهرج وخرجت العامة تنادى بالويل والثبور وعظائم الأمور . فبرز الأمر من ديوان الوزارة الى محافظ المدينة بأخذ الحيطة الشديدة قبل يوم العيد ومنع كل تظاهر وهرج من العامة . فشدد صاحب الشرطة فى مراقبة العامة وأوقف نفرا من اصحابه عند كنيس اليهود ، وطاف الجند يفرقون المجتمعين بضرب العصى . وحدث أن رجلا سوريا أضاع امرأته فأراد ضبطها ، فدخل منزلا الى جانب الكنيس وتزيا بزى امرأة ولبس خلخالا فى رجليه ونزل إلى الشارع . فاشتبه[٣٨] أصحاب الشرطة وقبضوا عليه . وما هى إلا ساعة حتى شاع الخبر فى طول المدينة وعرضها بأن الشرطة قد قبضوا على متزى بزى امرأة ليخطف الأولاد . فتألب الناس جماهير[٣٩] وقامت ضجتهم واشتدت صيحاتهم وترامحوا من كل صوب وناحية . فقام أصحاب الشرطة بتفريق جمعهم . وما هم أن تمكنوا من ذلك حتى عاد الألوف منهم يترامحون من حدب [٤٠] لأن امرأة من حى العرب فقدت ولدها فخرجت إلى

(٣٨) فاشتبه = فاشتبه فيه   قراءة اجتهادية .

(٣٩) الناس جماهير = جماهير الناس   قراءة ترجيحية .

(٤٠) من حدب = من كل صوب وحدب   قراءة ترجيحية .

السوق تناديه وتصيح وتولول وتقول (ذبحوك اليهود ياولدى) (قتلوك اليهود يابنى) . فتجمهرت الألوف من العامة وغيرهم وهموا بالهجوم على كنيس اليهود وحيهم .فجاء أصحاب الشرطة مسرعين ووقفوا فى وجه القوم بسلاحهم وصدوهم بعد جهاد عنيف من الأذى والشر ، وبثوا نفرا منهم فى الأزقة والحارات فى حى العرب يطوفون حتى مطلع الفجر حتى عادت السكينة الى نصابها . وامتنع اليهود من الاحتفال بعيدهم ولم يكن ليوم عيد شم النسيم من البهجة والفرح بسبب هذا الحادث ما هو مشهور به .

إشتغلت المحاكم الجنائية بحادث المظاهرات والمتظاهرين وتعدى أولئك التلاميذ على صاحب الشرطة وأعوانه بالقول والفعل وعلى جماعة الوزراء بالقول المعيب وعلى مقام الإمارة وشخص الامير بالهراء وفحش القول ، وساقت جماعة من أولئك الصبية الى الحبوس . فما هو أن تفشى خبر ذلك حتى قام أصحاب صحف الحزب الوطنى ينكرون على القضاة حقهم ويتهمون (الوزير بطرس باشا) بالعسف والجور ويتزلفون إلى نفر من جماعة الوزراء بالمدح والإطراء . قالوا لأنهم على غير رأى الامير ووزيره (بطرس باشا) . وجاء الى الوزير كتابا خاليا من التوقع كله وعد ووعيد وإرهاب وتهديد فلم يهتم له وعده عملا صبيانيا . وعلم الأمير بخبره من بعض رجال ديوانه فسير فى طلب وزير الداخلية وكلمه فى التشديد على محافظ المدينة وصاحب الشرطة فى الإحتياط والمحافظة على حياة وزيره . فأقاما على بابه الحراس وأزكوا حوله العيون وتبعه فى روحاته وجياته[٤١] إثنان من فرسان صاحب الشرطة . فلم يعجب الوزير ولم ترضه هذه الأبهة والرجل لا يحب الظهور ولا الخروج عن المألوف عاداته[٤٢] الخالية من كل فخفخة وأبهة المنصب . يقال وكلم وزير الداخلية فى ترك الأمور تجرى فى أعنتها فإنه خالى البال مما يتهدده فأجابه الوزير الى ذلك . فكان يغدو ويروح فريدا على عادته ، ويقضى الساعة والساعتين بعد ظهر كل يوم ماشيا فى شوارع الضاحية منفردا ترويحا للنفس والإمير ينهيه عن ذلك إشفاقا .

وكانت أخبار الهرج القائم فى دار السلطنة وقتل الأمراء والكبراء وأهل المناصب تأتى تباعا فينقلها أصحاب الصحف المتطرفة مشفوعة بالإطراء والمدح لأولئك القتلة

(٤١) جياته = غدواته قراءة لغوية .
(٤٢) عاداته = من عاداته قراءة اجتهادية

والدساسين . والقوم فى مصر ولاسيما الناشئة الحديثة منهم مدفوعون بحكم التربية الجديدة إلى (حب التقليد والتشبه بكل مجازف فخور بمحبة الوطن) . حتى لقد قام جماعة منهم وعلى رأسهم (الشيخ عبد العزيز جاويش) شيخ اللواء وسيف الحزب الوطنى البتار كما يسمونه يلتصقون بدعاة (جمعية الاتحاد والترقى) الذين نزحوا إلى هذه الديار وانبثوا فى مجتمعاتها ومجالسها الخصوصية والعمومية وخلطوهم بأنفسهم وتلقنوا تعاليمهم . فازدادوا جراءة على جراءتهم وقحة على قحتهم . فكانت تأتيهم الأنباء المخيفة والأخبار المقلقة بما هنالك من حوادث القتل والحريق والتخريب وشيخ اللواء ينشرها مدبجة ومنمقة . حتى كان ثالث عشر أبريل من السنة جاء الخبر بحدوث هياج عسكرى فى صباح اليوم . قالوا خرجت الجنود من مساكنها بسلاحها وعدتها وأحاطوا بمقر مجلس المبعوثان وطلبوا عزل (الصدر الاعظم) ورئيس المبعوثان ووزير الحرب ، وقد كانت العلائق الى ذلك اليوم قد توترت جدا بين أصحاب (الإتحاد والترقى) وجماعة (الأحرار) الناقمين على أصحاب (الإتحاد والترقى) بسبب تداخل هؤلاء القوم فى الأمور السياسية واغتيالهم لصاحب (جريدة سربستى) . فاستولى الرعب على الناس وتولاهم الذعر فترامحوا إلى دورهم وأغلق أصحاب الحوانيت حوانيتهم وطاف الجند يحضون الناس على الهرج وشق عطا الطاعة . وما هو أن تفشى خبر ذلك فى مصر والقاهرة حتى جاء الخبر بمقتل وزير العدلية وجرح وزير البحر وأن قد قامت الثورة على أشدها فقتل من أصحاب المناصب وأهل الخطط ثلاثة عشر وجرح خمسون . وتحصن المتمردون بدار مجلس المبعوثان ولم يسكن هياجهم وفتكهم بالخلق حتى قرىء فى قاعة المجلس فرمان السلطان بخلع جماعة الوزراء وتشكيل وزارة أخرى والعفو عن أولئك المتمردين والوعد بحفظ الشريعة الغراء من العبث والإفساد والإذن للجنود بالرجوع الى مساكنهم ، وحث الأهالى على معاودة أعمالهم . ومع ذلك فلم تطمئن القلوب ولاسكنت الخواطر . وقدم من دار السلطنة الى القاهرة رجل يقال له (نور الدين بك فروح) كاتم سر حزب أحرارهم فى الآستانة . قالوا ليتم تأليف لجنة لذلك الحزب فى القاهرة كطلب أصحاب(الحزب الوطنى) ، ووصل معه (عثمان بك وسند لى) أخى (نيازى بك) الذى يسمونه بطل الحرية . فنزلا ضيفان على (عماد الدين بك) وكيل دائرة (الأمير حليم) . وتفشى خبر وصولهما فهم للقائهما أصحاب (الحزب الوطنى) وشيخ (اللواء) والمتطرفين

من تلاميذ سائر المدارس وبالغوا فى إكرامهما . فأقاما على شأنهما أياما وأصحاب الحل والعقد لا يعلمون من أمرهما سوى أنهما جاءا فارين من وجه الفدائيين لأصحاب (الإتحاد والترقى) . وقد تلاحقت بوصولهما الأنباء بما هو واقع فى دار السلطنة من تحرج الأمور واشتداد الحركة وخروج طوائف الجند وشقهم عصا الطاعة ، وقيام رجال الدين وكبار المشايخ مع أصحاب الفتنة حتى قلبوا كل شكل الحركة السياسية فألبسوها حلة دينيه . ونبض الدين حساس وعلى نعرته تجتمع الألوف بل الأمة بأسرها فتفعل ما تشاء ، وحسبك أن تقول للعامة ان دينكم قد مس حتى يهبوا هبة واحدة ويفعلون ما لايحملهم على فعله أكبر المحرجات وأعظمها خطورة .

أقول أعلن الدستور فقام أصحاب (الحزب الوطنى) يطلبون من الأمير منحه للمصريين ايضا . وقال السواد الأعظم من العثمانيين أن دينهم الحنيف فى خطر وأن أهل (الإتحاد والترقى) لا يحترمون دينا ولا مذهبا ولا يتأدون بحكم من أحكام الشرع . فلبى الناس هذه الدعوة وتألفت منهم فرقها سموها (الفرقة المحمدية) فبلغ عدد اعضاؤها مائة ألف فى الآستانة وآلاف وآلاف فى أكثر مدن السلطنة وعواصمها ، حتى لقد بلغ عدد اعضائها فى مدينة (دمشق) وحدها أربعين ألفا كما يقولون . قالوا ألّفَ هذه الفرقة فى دار السلطنة(مراد بك[٤٣] الداغستانى) نكاية (بالحزب الحر) . قالوا لأن كبار الحزب من

(٤٣) مراد بك الداغستانى = هو محمد مراد أفندى (١٨٥٥ - ١٩١٢) تركى قوقازى من داغستان على بحر قزوين . بعد حصوله على تعليم فى (مدرسة الليسيه) فى روسيا القيصرية هرب إلى الإمبراطورية العثمانية فى ١٨٧١ بسبب الإحساس بأنه كمسلم قد يجد مجالا لتحقيق آمال وفرص أكبر هناك . سرعان ما وجد وظيفة فى استانبول (فى صندوق الدين ١٨٧٤) ثم بعد ذلك كمدرس فى مدارس الخدمة المدنية (١٨٧٨) . اتصل بالعديد من الكتاب الليبراليين وبدأ فى نشر أعماله ومنها مجلد من ستة أجزاء فى التاريخ العام (تاريخى عمومى) ثم اتبعه برواية كسيرة ذاتية له بعنوان (طرفنده مى يوكسا طرفه مى = الفاكهة الأولى أو الفاكهة المحرمة؟) والتى تضمنت العديد من المقترحات الإصلاحية للسلطان . لكنه أصيب باليأس فترك البلاد وجاء إلى مصر فى سنة ١٨٩٥ . بتشجيع من القوميسير السامى العثمانى (١٨٩٥ - ١٩٠٦) مختار باشا ، بدأ (مراد) فى نشر جريدته الخاصة (ميزان) . ذهب بعد ذلك إلى أوروبا وكون مجموعته الخاصة من الأتباع . كذلك فإن (ميزان) وجدت طريقها إلى داخل الإمبراطورية عبر مكاتب البريد الفرنسية والبريطانية وأثارت رد فعل ضخم . كانت جمعية الاتحاد والترقى تنمو داخل السلطنة وضمت مؤيدين من كافة الطبقات . فى جنيف كون (إسحاق سيكيتى Ishak Sukut) مع (مراد) الذى أصبح شهيرا بـ (ميزانجى مراد) (وعبدالله چودت) فرعا جديدا (لجمعية الاتحاد والترقى) . فى نشاطه السياسى اختلف (مراد) مع زعماء آخرين للجمعية (كأحمد رضا) المعتدل ، فقد أكد (مراد) على الحاجة إلى إصلاحات كبرى فى كل المجالات من أجل انقاذ السلطنة من العدوان المسيحى ، ولوم (عبدالحميد) لعجز الحكومة فى مواجهة الإرهاب ، لكنه كان مع هذا لا يزال يدعو إلى التغيير السلمى من خلال الاستشارة بدلا من =

صفهم لأنه خانهم فى يوم الجهاد وكسر قلوبهم بعد هجرته الى ديار مصر هجرة لم يطل عهدها ، وعاد إلى دار السلطنة وأفشى بعض أسراراهم فحل بوحدتهم الفشل وبصفوفهم فى تلك الآونة الحرجة الخلل . ألفها (أى الفرقة المحمدية) وسار بالألوف من رجالها الى قصر السلطان على ذلك . وخاف (الصدر الأعظم) وزعماء الإتحاديين عاقبة هذا الأمر فسعوا سعيهم حتى قبضوا عليه وأقصوه إلى التخوم الروسية . فظل على شأنه هناك

= الثورة . كما أيد وحدة وتكامل السلطنة والاتحاد ضد إدعاءات الجماعات الوطنية من الأقلية التى كان لها نشاطها أيضا فى أوروبا . فى إطار مساعى (عبدالحميد) لقمع الحركات المناهضة له فى الخارج ، كان يرسل البعض من رجاله الموثوق بهم لحث المعارضين على العودة إلى تركيا والحصول على مناصب مغرية . وبينما لم تنجح هذه المحاولات مع البعض فإن الإغراء أثر فى (مراد) الذى استجاب وأقنع الكثير من أصدقائه على العودة بما فى ذلك صديقين قديمين له (عبدالله جودت وإسحاق سكيتى) . وهكذا فإن حركة الأتراك الشبان Young Turks تبعثرت فى نهاية سنة ١٨٩٧ ولم يبق من قادتها سوى (أحمد رضا) الذى بقى فى أوروبا . أعيد إحياء الحركة فى ١٩٠١ عندما ترك (الداماد محمود باشا ١٨٥٣ - ١٩٠٢) جانب السلطان وفر إلى أوروبا على سفينة شحن فرنسية مع ولديه (البرنس صباح الدين والبرنس لطف الله) وأسسو لأنفسهم جماعة معارضة جديدة رأسها (صباح الدين) (جمعية التشبث الشخصى وعدم المركزية) . اختلفت آراء (مراد) و(أحمد رضا) عن (صباح الدين) حيث استنكرا التدخل الأوروبى فضلا عن العمل الثورى بعكس (صباح الدين) الذى كان يرى استعمال كل الوسائل المتاحة بما فى ذلك الثورة وضغط القوى الأوروبية .

فى أكتوبر ١٩٠٨ انتهزت الدول الأوروبية وجود فراغ فى القوة داخل السلطنة والصراع الذى أعقب إعلان الدستور ، فضمت النمسا (البوسنة والهرسك) ، وأعلنت بلغاريا استقلالها ، ورفضت الدولتان أى سيادة للسلطان وأوقفتا دفع الجزية لخزينته . فى اليوم التالى استغلت (اليونان) فرصة إخلاء القوى الكبرى (لكريت) والذى تم فى ١٩٠٨/٧/٢٧ فضمتها إليها . ولم تستجب أى دولة لاحتجاج الدولة على هذا الخرق لمقررات مؤتمر برلين ١٨٧٨ . ولما لم تجد الدولة وسيلة لتسوية هذه المشاكل فإنها اضطرت إلى تسويتها بمعرفتها . فأعلنت اتخاذ إجراءات لمنع أى تحرشات داخلية بالأقليات ، وفى اتفاقية موقعة فى ١٩٠٩/٢/٢٦ مع النمسا كان على الأخيرة أن تخلى (سنجق نوفى بازار) Novi pazar فى مقابل الاعتراف العثمانى بالوجود النمساوى فى البوسنة والهرسك مع دفع تعويض قدره ٢٠٠,٥ مليون قرش الخ اتفاقات أخرى .

لم تنجح التسويات الدبلوماسية فى إرضاء الشعور العثمانى العام ، وفى وقت قصير فقد (الاتحاديون) أراضى كثيرة أكثر مما فقد (عبدالحميد) منذ ١٨٨٢ .

بدأ الأتراك من غير المؤيدين (للاتحاد والترقى) يفقدون الأمل فى الدستور كوسيلة لإنهاء الوسائل الأوروبية لكسر السلطنة ، وفقدت الأقليات غير المسلمة الأمل فى الحصول على استقلال ذاتى كما وعد ثوار ١٩٠٨ ، وظهرت العناصر الإسلامية المعارضة بشدة للاتجاهات العلمانية عند ثوار الدستور الاتحاديين . بدأ هؤلاء جميعا ينظرون إلى (عبدالحميد) باعتباره الحل الأمثل لتماسك الإمبراطورية والوقوف فى وجه أعداءها فى الداخل والخارج .

فى هذا الوقت بالذات (بين نوفمبر وديسمبر ١٩٠٨) بدأ (ميزانجى مراد) الذى كان قد خرج من السجن يؤيد جماعة (الاتحاد الحر) ، وتحول المسلمون إلى اتجاه تركى إسلامى . ورغم فوز الاتحاديين فى انتخابات ديسمبر ١٩٠٨ بأغلبية كبيرة فإن ميزان القوى بدأ يتجه لصالح الجماعات المعارضة التى جعلت تطبيق (الشريعة الإسلامية) هو الراية التى يقفون تحتها فى مواجهة حكم الاتحاديين .

- Stanford J. Show (History of the Ottoman Empire) Ibid., pp., 206 - 257, 558, 263 , 27

حتى آنس الاتحاديون من القوم ميلا الى مناجزتهم وآنسوا من انفسهم الغلبة على خصومهم فأرجعوه إلى دار السلطنة . فما هو أن استقر بها مقامه حتى اصدر جريدة يومية سماها (ميزان) . واتخذ لرواجها أعوانا وأنصارا من طلبة العلم المجاورين واسترجع اليه حزبه القديم وظل على هذا حينا .

فلما كره الناس أعمال دعاة الاتحاديين فى دار السلطنة وتحققوا من سوء نواياهم بالإسلام والمسلمين قام هو(٤٤) ومشايعوه بمظاهرة كبرى حول مقر مجلس المبعوثان يطلبون إنفاذ الشريعة ، فقيل لهم أن الشريعه هى اساس كل القوانين المعمول بها فى سائر بلاد الدولة والملة ، فانقلبوا راجعين واندسوا بين طوائف الجند واستمالوهم باسم الإسلام والمسلمين وسألوهم الندب عن بيضة الدين ، فأصابوا منهم غرضا . قالوا وأحس اصحاب (الإتحاد والترقى) ببغض العسكر لهم فاستقدموا أربعة توابير من جند الفيلق الثالث ليكونوا عونا لهم عند الحاجة ، وقد كان فى دار السلطنة الى ذلك الحين إثنين وثلاثين تابورا هم حاميتها لم يُلتَفتَ اليهم ولم يعطوا من التكريم وصرف الجماكى والمرتبات ماكان للأربعة توابير تلك . وزادوا الطين بلة بإخراج أولئك الجنود عنوة من سراى السلطان كما أخرجوا الجند الزواف والعرب والأرناؤوط ، وكانوا قد أبوا الخروج من مساكنهم فنصبوا عليهم المدافع . ووصل خبر ذلك الى السلطان فى مجلسه فاضطرب وتولاه الذعر وسير فى طلب (الصدر الاعظم) وكلمه فى ذلك ورأى أن لا مندوحة من خروج أولئك العساكر والأجناد من مساكنهم . فبرز أمره فى الحال بلزوم الطاعة والخروج من تلك المساكن فخرجوا . ولم يسر جماعة الإتحاديين فى إدارة شئون السلطنة بالحكمة الواجبة والرزانة اللازمة فى ذلك الوقت العصيب ، بل كانت الضربة منهم لخصومهم تلو الضربة والصدمة لاحقة بالصدمة . واشتد (جماعة المحمدية) على جماعة الإتحاديين شدة بالغة فضربوا (نادى النساء) الذى انشأه الاتحاديون وهدموا مكاتب صحفهم وساموهم الخسف حتى اختلط الحابل بالنابل وكادت تذهب تدابيرهم أدراج الرياح . ظل الحال على هذا أياما وأهل (الآستانة) فى خوف ما عليه من مزيد ، حتى برز أمر السلطان بعد أن آنس فى نفسه القوة بعزل جميع الوزراء الذين هم من

(٤٤) يقصد (ميزانچى مراد) أو مراد بك الداغستانى .

الإتحاديين وإقصاء جميع الضباط المحازبين لأصحاب الاتحاد والترقى والعمل بالشريعة فى سائر قوانين الدولة . فلما تفشى خبر هذا كله هب اصحاب (الجمعية المحمدية)(٤٥) يفتشون على دعاة الإتحاديين وأركان عصابتهم فلم يعثروا عليهم فقد لاذوا بالفرار والإختفاء ولم يكادوا يعرفون . وتم فيهم القول ــ (فلا تسأل الأيام ما اسمى مادرت ــ وأين مكانيا ما عرفن مكانيا) .

ومع هذا كله لم تكن ثورة الجند لتخمد ولا ارهاصاتهم هنا وهناك تبطل حتى وقفت حركة الأعمال وبطلت أعمال الدواوين أو كادت . وسير السلطان فى طلب جنود الإيالات القريبة من دار السلطنة وهم الزواف والعرب والأناووط الذين أخرجوهم من قصر السلطان

---

(٤٥) فى ١٩٠٨/١٢/١٧ افتتح (عبدالحميد) البرلمان الجديد . وفى ذلك الوقت كانت الانقسامات بين كل طوائف السلطنة على أشدها ، فلا الاتحاديون قادرون بحكومتهم الجديدة على إعادة هيبة الدولة ، ولا كان البرلمان قادرا على إعادة الحياة الدستورية والديموقراطية الموعود بها فى يوليو ١٩٠٨ ، والرأى العام منقسم بين تأييد (جمعية الاتحاد والترقى) أو (السلطان) أو اتخاذ سياسة مستقلة . فى ظل هذا التوتر بدأت الجماعات الإسلامية فى العمل علنا ـ بدعم محتمل من السلطان الذى كان قد قرر التدخل . وشهدت العاصمة التركية مظاهرات الاحتجاج الإسلامية ضد الدستور والعلمانية التى تفشت فى عهد الاتحاد والترقى .

بدأت التطورات عندما أراد (كامل باشا) الصدر الأعظم أن يغتنم فرصة الفوضى السائدة فى البلاد ويكون قوته على حساب باقى القوة على الساحة ، فعين رجاله وزراء للحربية والبحرية (١٠ فبراير ١٩٠٩) . وفى رد فعل سريع سحب الإتحاديون الثقة من (الصدر الأعظم) ، فاستقال ليحل محله (حسين حلمى) كصدر أعظم . أعقب هذا تجمع طلبة الدراسات الإسلامية مطالبين بإنهاء العمل بالدستور ، وانضم إليهم جنود الجيش فى (استانبول) والعمال والحرفيين وكلهم يطلبون حماية الشريعة الإسلامية من الهيمنة المسيحية . عَدَّلَ من يدعى (حافظ درويش وحدتى) هذا السخط إلى (ثورة مضادة) ، فشكل فى وقت قصير جمعية (الاتحاد المحمدى) بغرض إحلال الشريعة الإسلامية بالدستور واستخدام الإسلام لتحديث وإنقاذ الإمبراطورية بالحفاظ على سلطة السلطان عبدالحميد . ايد (الأمير برهان الدين) أفندى ابن السلطان هذه الجمعية ماليا وبدأ (وحدتى) و(الجمعية المحمدية) حربا على الحكومة .

فى ٣ أبريل ١٩٠٩ عقدت (الجمعية المحمدية) أول اجتماعاتها الحاشدة فى (مسجد أيا صوفيا) مستخدمة الاحتفال بالمولد النبوى الشريف لكسب تأييد شعبى أكثر ، وطالبوا بتطبيق الشريعة الإسلامية . فى نفس الوقت كانت (الجمعية) قد أصبح لها مؤيدين فى (الجيش الأول) فى (استانبول) الذى يستطيع أن يسيطر على العاصمة ، وتعاونت مع جماعة (الاتحاد الليبرالى) .

فى ليلة ١٣/١٢ أبريل انضم جنود الجيش الأول إلى طلبة الدراسات الدينية أمام (مسجد السلطان أحمد) وزحفوا إلى البرلمان وأحاطوا به وطلبوا إسقاط الحكومة ونفى الكثير من النواب ، تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية بالكامل ، إعادة الضباط المفصولين إلى الخدمة ، وإنهاء النفوذ (الاتحادى) داخل الجيش ، إقالة (أحمد رضا) من رأسة مجلس النواب وتعيين مسلم حقيقى بدلا منه . لم يكتف (عبدالحميد) بقبول استقالة (الصدر الأعظم) الذى أصبح فاقدا لكل قواه بعد رفض وزير الحربية فض المتظاهرين ، بل وبعث سكرتيره الأول إلى مسجد أيا صوفيا) بأمر بقبول كل مطالب الثوار .

- Show - Ibid., pp., 278 - 281

عنوة وقبضوا على (محمود مختار باشا) مقدم الفيلق الأول وسجنوه . وظهرت الحركة بشدة فى بلاد الأرناؤوط انتصارا لخصوم الاتحاديين . وجاء الأمر سرا الى قصر الإمارة بالقبض على من يوجد فى مصر والاسكندرية من أذناب ودعاة الاتحاديين . يقال فاهتم الأمير بهذا الأمر اهتماما كبيرا فكانت له فيه أعمال مذكورة آخذه عليها عميد الاحتلال وعابها فى محادثاته وثبت للناس طرا أن يد السلطان مع اولئك القوم .

وماهى إلا عشية أوضحاها حتى تأكد خبر اجتماع زعماء الاتحاديين فى (سلانيك) التى هى دار هجرتهم وأنهم لموا شعثهم وقرروا القاعدة بينهم على إبطال كل ما حدث وكان من ورائه سقوط هيبتهم وزوال حكومتهم ، وجعلوا يعملون على استمالة ضباط وجند الفيلق الثانى ليكونوا وجند الفيلق الثالث عونا لهم على أغراضهم ، وجعلوا يشيعون أنهم اختطوا لأنفسهم خطة مثلى كاملة بنوا لهم كل مايقصدون . وما هى إلا ايام حتى سيروا من (سلانيك) الى الآستانه طابورا من الجند بقيادة ضباط من الإتحاديين ، وعلم بأن (نيازى بك) قام على رأس الف متطوع وأنه يقصد (الآستانة) . وأحس (توفيق باشا الصدر الاعظم) بما وراء ذلك فأنزل نفسه من منصبه وتخلى عنه وسير جماعة من اعضاء المبعوثان الى (المابين) يسألون السلطان رأيه فى الدستور بعد هذه الحركة المزعجة ، فرد عليهم أنه يحافظ على الدستور بكل قوته وأنه يعتقد كما يعتقد أعضاء المبعوثان بأن لا حياة للسلطنة بغير الدستور ، ويقول أن بعض الدول تدس الدسائس وتريد قلب تخت السلطنة . قالوا وأبدت الدول العظمى ميلا الى المحافظة على بقاء الدستور ـ وقالت أنها لا تسمح بهدمه ولا بإلغاء النظام الجديد وسحب السلطة التشريعية من نواب الامة رغما من حرج المركز .

وخرج مشاة البحرية من سفنهم فى سادس عشر من ابريل من السنة وطافوا فى أحياء المدينة ينادون بالويل والحرب على وزير الحرب الجديد وقبضوا على قومندان باخرة كان قد برز إليه الأمر من الإتحاديين بتصويب مدافع باخرته الى السراى السلطانية انتصارا للاتحاديين وساقوه الى (يلدز) وهناك مزقوه تمزيقا . وأصبحوا وقد وصل الآستانة من (سلانيك) طابورا من الجنود الموالية للإتحاديين ، ووصل غيره بعده حتى باتت البلاد من أقصاها إلى اقصاها كأنها على قيد شبر من الحرب الأهلية .

وظهرت الفتنة فى (أدنه) وقام (الأكراد) على الأرمن فقتلوا منهم ستين أو يزيد وجرحوا ترجمان قنصلاتو الإنجليز وآخر ألمانى . وبلغت الفتنة (بغداد) فسير عمال السكة الحديد الألمانية بها يطلبون حمايتهم ، وبرز الأمر الى البوارج الحربية فى (مالطا) بالتأهب للسفر . وحسب عقلاء القوم لكل ذلك حسابا كبيرا فألفوا منهم فى الآستانة جمعية سموها (جمعية الإتحاد العثمانى) من كل الاحزاب ، وسيروا الكتب والبرقيات إلى الولايات والعمالات بِحَثِّ العلماء والعقلاء والوجهاء على تدارك الأمر وحفظ الأمن وروابط الإخاء والتوادد بين الطوائف والعناصر وعدم الإتكال على الحكومة فى ذلك . ووصلت الى ميناء (أطنه) طرادة إنجليزية فأنزل قنصل الإنجليز بها جندها الى البر لحماية دار القنصليات التى امتلأت باللاجئين اليها من النساء والأطفال والشيوخ . وظهرت الحركة فى الشامات أيضا وخرج جماعة الاشقياء يعيثون فسادا ويتحفزون للوثبة على خصومهم من النصارى .

تحول كل جهد الإتحايين إلى معاداة السلطان والعمل على محاكمته ويقولون أنه هو الذى حض العلماء والمعممين على تحريض الجنود ، ويستدلون على صحة ذلك بالرسالة السلطانية التى سيربها الى مجلس المبعوثان وبالعفو على الثائرين وبخلع الوزراء السريع ، ويتهمونه فوق ذلك بتوزيع الأموال على الجند والسفط (٤٦) ، ويتمسكون برواية بعض أصحاب الصحف من أنه أخذ من بنوكة أوروبا منذ نيف وشهر مليونى جنيه كانت له فيها . وقد أعدوا عدتهم وأخذوا أهبتهم ونقلوا مركزهم من (سلانيك) وجاءوا جميعا مع الجند الذين وصلوا لمحاصرة الآستانة . وسيروا الى السلطان من (شاطلجه) على جناح البرق يقولون له إنك أنت الذى حرضت على الثورة وأنت الذى لم تبر بقسمك للدستور وأنت سبب كل هذه البلاء المقيم . وما وصل اليه هذا الخطاب إلا وقد صارت ثمانية طوابير من جند الفيلق الثالث على قيد عشرة فراسخ من دار السلطنة . وجاءهم

---

(٤٦) السفط = صوفته Softa هو طالب العلوم الدينية فى كلية محمدية أو جامعة ـ والكلمة تعنى هنا طلبة المدارس والمعاهد الدينية الذين شاركوا فى الثورة المضادة ضد الاتحاديين .

- The concise Oxford Turkish Dictionary. op. cit., p., 302

ـ جيمس رد حاوص الانكليزى (تركجه ـ انكليز جه لغت كتابى) ـ مرجع سبق ذكره ـ ص١١٩٢

المدد من جند(أدرنه) فقويت عزيمتهم واشتدت ظهورهم وتغالوا فى طلباتهم وجاهروا بخلع السلطان عن كرسيه وإقصائه ، وطلبوا معاقبة الجند الذين ثاروا . وباتوا وأصبحوا وقد سيروا جندهم الى قصر السلطان فحاصروه وأحاطوا به إحاطه السوار بالمعصم .

واشتد القلق بالسلطان وتولاه الخوف وكاد يسقط فى يده ، وسير إلى سفير الإنكليز يسأله الوساطة فى الأمر والسعى فى استرضاء الإتحاديين . فاجاب بأنه لا يستطيع عمل شيء لأن حكومته لا تسمح له بهذه الوساطة . فأوفد رسلا الى سفارة الروس فأجابته باستعدادها للوساطة بينه وبين الجيش ، وجعل السفير يفاوض زعماء الجند الذين احتلوا (الآستانة) فأصر الزعماء على طلباتهم وأبوا إلا خلع السلطان وتنزيله عن عرشه . فسير السفير بخبر ما جرى إلى السلطان وقال بأن لا سبيل الى غير ذلك وأنهم يعطونه مهلة تمكنه من خلع نفسه والتنازل عن عرشه وأن آخر موعد يضربونه له هو الساعة العاشرة من ليلة أمس تاسع عشر أبريل من السنة ثامن عشرة ربيع الأول سنة سبعة وعشرين . أبلغ السفير كل هذا إلى السلطان بنفسه وعاد الى دار السفارة . فما هو أن وصل حتى تقدمت الباخرة البحريه الروسية الراسية فى مياه الآستانة من القصر السلطانى فشاع الخبر فى الحال بأن السلطان ركب تلك الباخره ليكون فى ذمة قيصر الروس ، ثم أشاعوا أنه فر من(٤٧) دار السفارة الانجليزية . فاجتمعت الجماهير العديدة حول دار السفارة ليتحققوا صدق الخبر .

وأصبحوا وقد أحاط (حسنى باشا) بجيشه نطاق الآستانة ونشر بينهم كتابا يقول لهم فيه أن الغرض من عملهم اليوم إنما هو استعادة حرية الدستور وعقاب الثائرين مع الإبتعاد عن أموال الناس والأجانب وراحتهم ، فإياكم وشمات الأجانب فينا . وسير السلطان فى طلب سفيرى الفرنسيس والإنجليز ليلا وطلب منهما المساعدة فى هذه الآونة المحفوفه بالمكاره وقد أخذ الحوف من حاشية السلطان ورجال القصر مأخذه ، ففر جماعة منهم هاربين . وسير سفير الإنجليز إلى السلطان يقول أنه أنزل فى مكانين معرفوين(٤٨) زهاء ثمنمائة جندى انجليزى ، وأن قد غادرت مالطة ثلاث بوارج حربية . واشتد الهياج فى (أطنة) شدة بالغه وتفشى القتل فيها فى كل صوب وحدب ، فبسط

(٤٧) من = إلى قراءة ترجيحية

(٤٨) معرفوين = معروفين قراءة تصحيحية

الإتحاديين فيها الأحكام العرفية . وجاء بعد ظهر اليوم الخبر بتخلى (الصدر الأعظم) عن منصبه وكذلك وزير الحرب (ابراهيم باشا) وقومندان الجيش ناظم باشا . فاستدعى السلطان (حلمى باشا) وولاه الصدارة وأقسم له الأيمان أن يحافظ على سلامة الدولة وكلفه بمنع كل شغب وهرج . فقال الناس أن فى تولية هذا الصدر دليل على بدء عودة الأمور إلى ما كانت عليه قبل الفتنة . ولم تقف المذابح فى مدينة (اطنه) (ومرعش) عند حد ، ففى كل يوم تأتى الاخبار الى سفراء الدول فى دار السلطنة بفظاعة الأمر وغلظة كبار الأكراد وتمثيلهم بالأرمن تمثيلا تنفطر له القلوب .

ورفع زعماء الجنود المحاصرة (للآستانة) قائمة بأسماء من يجب معاقبتهم من العسكر السلطانى وبينهم جماعة من النواب وأصحاب الصحف (والسفطا) وأهل المناصب وأصحاب الخطط . ووصلت بعض السفن الحربية الإنجليزية والألمانية والإفرنسية إلى (مارسين) وقد كانت الثورة قد دبت فيها أيضا . وأصدر وزير الداخلية منشورا يقول فيه (كنا قد نشرنا أن الجنود الذين قاموا بالمظاهرة فى (ميدان السلطان أحمد) قد شملهم العفو الشاهانى ، والظاهر أن بعض الجنود لا يزالون يطوفون الشوارع ببنادقهم ويطلقون الرصاص فى الفضاء فيصيبون بعض الناس ، وهذه الاعمال مغايرة للشريعة الغراء . وفوق ذلك فإن العفو لا يتناول هؤلاء ، فالذين يخالفون الشريعة وأحكام الدستور على هذا النحو يعاقبون بالشريعة والدستور عقابا شديدا . فعلى الجمهور أن ينصرف لأعماله وكل من وجد حاملا سلاحا يقبض عليه ويعاقب وعلى الجميع مراعاة القانون) . انتهى بنصه ـ فلم يلتفت الثائرون إليه وزادوا فى شرورهم . واتفق أن شرذمة منهم كانت مارة قبالة نظارة الضابط(٤٩) فاذا (بالشريف صادق باشا) يغدو بجواده . فأوقفوه وانتهروه فأعلمهم بأنه (الشريف صادق باشا) وأنه أول الناس العاملين بالشريعة المحمدية لأنه بنسبه وعلمه ومنصبه أكثرهم محافظة على الدين فخلوا عنه .ولكنه لم يسر إلا قليلا حتى قبضوا عليه ثانية وقام بينهم وبينه الحجاج واللجاج ، ثم فتكوا به . وعلى أثر ذلك نزح الكثير من علية القوم عن (الأستانة) إلى (آسيا الصغرى) .

---

(٤٩) الضابط = يحتمل أن يكون المقصود هو نظارة الداخلية أو نظارة الأمن العام وفى هذه الحالة فإن الكلمة تكون (الظابطة) zabita ، وتعنى جهاز الشرطة أو ما يتعلق بالشرطة .
- The Concise Oxford Turkish Dictionary - op. cit.- p., 376.

أقول ولقد أكثروا فى هذه الأيام أيام الفتنة من ذكر الشريعة والعمل بها وإسناد كل أمر إلى الشريعة وإراقة الدماء باسم الشريعة وذبح الأطفال أخذا بثأر الشريعة . فكتب أحد علماء الشريعة الكبار يقول أن كل شىء قابل للتغيير والتبديل إلا كلام نبينا عليه الصلاة والسلام ، فقد قال لنا فى (اصحاب الكتاب) ـ (لكم ما لهم وعليكم ماعليهم) . قال فمن يجسر أن يقول غير ذلك ويكون مسلما مؤمنا ؛ قال ولقد جمع الفقهاء والأئمة الكبار مايجب على غير المسلم للمسلم فى ستة أوجه : الأول أن لا يتكلم عن القرآن بعبارات غير لائقة ، الثانى ـ أن لا يذكر اسم النبى صلى الله عليه وسلم بغير الاحترام ـ الثالث ـ أن لا يذكر الدين الإسلامى بالإزدراء ـ الرابع ـ أن لا يمس جمرة المسلمات الخامس ـ أن لا يرد المسلم عن دينه ولا يمس أملاكه وحياته . السادس ألا يعاون أعداء المسلمين على قهرهم . وعندى انها شروط للتأدب فى المعاملة والمجاملة لا بأس بها .

أقول واشتدت ضجة الإتحاديون حول خلع السلطان وطافت رسلهم على دور السفارات وأبلغوهم خبر اجتماع كلمة الجند والأمة على اختلاف طبقاتها على خلعه ، وأقسموا لهم الأيمان على المحافظة على سلامة النزلاء والندب عن أرواحهم وأموالهم . وما أدرى كيف يكون خلع السلطان وهو أمر لا يتم إلا بفتوى من مشيخة الرسلام بناء على أسباب شرعية ، فاذا امتنع المفتى عن الإفتاء تعسر اكراهه وإذا تخلى عن منصبه طائعا أوكارها لا يتولى المشيخة بدله إلا باذن الخليفة ، فمن كل هذه الظروف يقف العاملون عن خلع السلطان فى أحرج المواقف . فالبقاء على هذا الحال لا يتفق مع بقاء الدستور بل يشل أيدى نواب السلطنة عن إتيان أى عمل ما دامت الجنود وأصحاب تلك الجمعيات على ما هى عليه من المشادة وقوة المعارضة والعمل على محو نفوذ كل هيئة وسلطة .

عمل دعاة الاتحاديين عملهم حتى استمالوا فريقا من انصار السلطان وجماعة من المشائخ والمعممين . فقويت عزيمتهم واشتد ساعدهم ورجعوا الى المقارعة والمجادلة مع نواب السلطنة وشيخ الاسلام وقروا القاعدة بينهم على عدم اراقة الدماء هدرا . وجاءهم الخبر بأن جند (أرضروم) قد تمردوا وهم يطلبون العمل بالشريعة والسنة لا بأحكام الدستور . فلجأ من بها من أصحاب (الاتحاد والترقى) الى دور القناصل . فلما كان أخريات ابريل من السنة وصل الى (شاطلجة) أربعة قطورات من سلانيك تحمل

الفى جندى ، يقال وقد كان جماعة الإتحاديين ينتظرون وصول خمسة آلاف أثناء ذلك اليوم عدا حامية (شاطلجه) من أصحاب المدافع وقدرها ألف ألفا لتعد مع الإتحاديين . فلما استقر بهم المقام أرسل قوادهم الى الوزراء انذارا بمطالبهم فلم يجب الوزراء على ذلك الإنذار وجعلوا يتناجون فيما يجب عمله حتى أشار بعضهم بارسال قوة لتقف فى وجه تلك القوة . ولكن (أدهم باشا) لم يوافقهم على ذلك وقال أنه يذهب وحده الى (شاطلجه) ويكلم الضباط والقواد فيما هم فيه ويحث الجند على الطاعة والإذعان . وطال الأخذ والرد فى ذلك حتى تقررت القاعدة بينهم على أن يرسلوا إلى مقابلة تلك القوة وفدا يؤكد لها أن الدستور فى ضمان وحرز حريز . فلما وصل ذلك الوفد الى (شاطلجه) عوقوه ومنعوه من العودة الى (الآستانة) . فاهتم جماعة الوزراء لذلك اهتماما كبيرا ورسموا بعمل تحقيق دقيق عن قتل الجنود المنادين بالعمل بمقتضى الشريعة لضباطهم علهم يسترضون إخوانهم فظهر أن عددهمماية وخمسين ضابطا قتلوا فى مساكن العسكر جبرا . قالوا ولو لم يفر الآخرون من مساكن الجند لكان الخطب اعظم . ورأوا أن يولفوا لجنة من العلماء وكبار المشائخ ، وطافت تلك اللجنة جميع مساكن الجند وخطبت فيهم وأكثرت من الحض على الطاعة والسكون وأبانت لهم عن حاجة الوطن والجيش الى الضباط المتعلمين والمتخرجين من المدارس . وقالوا لهم إن الجنود المؤمنين يجب عليهم بحكم الشرع والقرأن الطاعة لضباطهم وأنهم إن عصوهم يعصون الرسول صلى الله عليه وسلم ويغضبون الله لأنهم يخالفون احكام الشريعة الغراء . وباتوا وأصبحوا وقد جاء الصايح بأن الفا من الجنود لبسوا سلاحهم وركبوا قطارا خاصا قادمين الى (الآستانة) فى الساعة الثالثة بعد الظهر . فخاف الوزراء العاقبة . ولما بلغ قطارهم الآستانة سيروا اليهم من يسألهم عن سبب مجيئهم ، فقالوا نحن آتون لنرى هل الدستور باق أولا . فساروا من المحطة تتقدمهم الموسيقى الى (الباب العالى) ومن هناك الى وزارة الحرب ومنها الى دار (مجلس المبعوثان) . فلما سمع النواب صوت الموسيقى وضجة الجند تولاهم الذعر وأخذ منهم الخوف مأخذه وصاح بعضهم إنا نريد مقابلة الجنود . فأوفد الرئيس نائبين من العلماء هما (طاهر افندى) (وفهيم افندى) ومعهما (يوسف كمال بك) وذهب معهم قائمقام (خادم كوى) الملكى وصاحب الشرطة . فاصطف الجند حلقة وطلبوا مقابلة الوفد فالتقى وفد الجند ووفد المجلس على السلم . يقال فقال واحد منهما للآخر إنا أتينا

لتحييكم . ثم وقف وفد المجلس فى وسط الجنود وقالوا لهم ان المجلس يشكركم على مجيئكم إليه وإن الدستور لا خوف عليه وإن نواب الامة يحافظون بأرواحهم على الشريعة والدستور . وبعد هذا الكلام قال الجند أنهم ينوون الذهاب الى قصر السلطان قبل أن يعودوا إلى مساكنهم ، فجعل صاحب الشرطة يلاطفهم ويقول إن هذه الزيارة فى هذه الآونة من الليل لا تحب . وما زال بهم حتى اقلعوا عن قصدهم .

واجتمع فريق من أعضاء مجلس الأعيان والمبعوثان فى ضاحية (الآستانه) وتناجوا فى أمر هذا الخطر الداهم والشر المقيم طويلا . فاتفقوا على قرار دعوا فيه الناس إلى الطاعة والخضوع للجيش المحاصر . فلبثوا فى تلك الضاحية يوالون الاجتماعات باسم (الجمعية الاهلية العمومية) ويتناجون فيما بينهم فيما يطلبونه جماعة (الاتحاد والترقى) وما هم مصممون عليه من خلع السلطان وقلب عرش السلطنة رأسا على عقب . وكان إلى ذلك اليوم قد خرج الأسطول من (الآستانه) فعاد اليها فجأة وأظهر ولاءه لأعضاء الشورى وصار ضالعا مع الاتحاديين بعد أن كان فى جانب السلطان وطاعته . فاشتدت عزيمة الإتحاديين وشمخوا بأنوفهم وعادوا إلى شانهم الأول يوم الدستور ، بعد أن تفرقوا شذرا وكادوا يختفون ، وعاد الى (الآستانة) من كان فارا منهم واتخذوا (سانستفانو) إحدى ضواحى (الآستانة) مقرا لهم . قيل واجتمعوا فى مقرهم ذلك اجتماعا سريا طويلا . وما ارفض اجتماعهم حتى جاءت الأخبار إلى (المابين الهمايونى) ودور السفارات بأنهم قرروا وجوب خلع السلطان ومبايعة (الأمير رشاد افندى) البيعة العامة فى أجل ضربوه . فوقع الهرج فى المدينة واشتد الخوف بالناس وانسل كثير منهم الى الضاحية خوف الثورة . وشاع أن فريقا من الجنود امتنع من حلف يمين الطاعة للضباط ، ما لم يحلف الضباط يمين الأمانة للسلطان . وحسب (شوكت باشا) لامتناع الجنود من حلف اليمين حسابا كبيرا ، وعُلِم أن السواد الاعظم من آهالى (الآستانة) وضواحيها ينصرون السلطان جهدهم . وخرج السلطان بعد صلاة الجمعة الى (حفلة السلاملك) فى أبهة وكبكبة فائقة المعتاد ، فحيته الجماهير وهتفوا له هتافا شديدا . وكان الفرسان الموالين للسلطان قد خرجوا من مساكنهم لحراسته فى الجامع وتلك الحفلة . فما هم أن خرجوا حتى احتلت مساكنهم الفرسان القايمين خلف أسوار (استانبول) . فلما عاد الفرسان الموالون الى مساكنهم منعهم الغاصبون من دخولها . فقام بينهم النزاع واشتد اللجاج والمهاترة

وتراموا بالبنادق فجرح كثير وقتل آخرين . واشتد الخوف بالناس فترامحوا الى بيوتهم وأغلق اصحاب الحوانيت حوانيتهم . وباتوا وأصبحوا وقد جاء الصائح من (بيرا) بأن القوم يسمعون منذ الساعة الخامسة من صباح ذلك اليوم إطلاق النار بشدة ويتخلل ذلك من حين الى آخر اطلاق المدافع من الروابى والآكام المحدقة (بيلدز) . وثبت ان جنود (سلانيك) جعلت تهاجم جنود (يلدز) . وأعقب ذلك أن سير (شوكت باشا) رأس هذه الحركة إلى السلطان يقول أن (تخلى عن الملك لأخيك وولى عهدك رشاد أفندى وقد ضربنا لك أجلا ينتهى مساء اليوم فإن أنت لم تفعل أدخلنا الجيش لاحتلال المدينة فى منتصف الليل وأعلنا الأحكام العرفية وزحفت المسيرة على يلدز وقبضت عليك) . فلما بلغه هذا القول تولاه إلاضطراب العصبى واشتد قلقه . قالوا وهجر النوم بتاتا فكان يقضى يومه قليله متنقلا من حجرة إلى أخرى ومن كرسى الى كرسى .

وعادت تلك الجمعية الوطنية إلى المباحثة فى خلع السلطان . وطال الأخذ والرد بين أعضائها حتى أقر مابة ست وثلاثين عضوا منها ضد ستة وخمسين على خلعه ، وأقر الجيش على تولية ولى العهد (رشاد افندى) . وبرز الأمر إلى جند (شوكت باشا) وإلى سفن الحرب بالمحافظة على السراى السلطانية ومنع السلطان من الخروج منها وأن يقاتلوا (قلعة اسكودارى) فى الشاطئ الثانى من الآستانة قبالة القصر السلطانى . وبسطوا الأحكام العرفيه فى (الآستانه) وقبضوا على كثيرين ليحاكموا أمام مجلس عسكرى . وسلمت الحاميه سلاحها إلى[٥٠] جند (ثكنة طاش قشله) فقد امتنعوا وقاوموا مقاومة شديدة فكانت قتلاهم وجرحاهم كثيرين .

وسير السلطان الى أصحاب (الإتحاد والترقى) يطلب منهم الضمانة القوية على نفسه وأمواله وعياله وقد كانت الى تلك الساعة قد سقطت عدة قنابل من مدافع جيش الإتحاديين على مقربة من القصر السلطانى . وشاع أن السلطان يريد الفرار إلى (اسكودارى)لأنه لم يبق الى ذلك اليوم من الجنود الموالية له سوى جند (اسكودارى) . فبرز الأمر الى بعض المدمرات والسفن[٥١] التربودية ، فجعلت تغدو وتروح فى (البوسفور)

(٥٠) إلى = إلا   قراءة ترجيحية
(٥١) السفن التربودية = سفن الطوربيد   قراءة ترجيحية

لتحول دون هربه الى (اسكودارى) . وعلم السلطان بما فعلوه فأرسل يقول أنه لا يفارق قصره أبدا وأنه يبرأ الى الله تعالى مما يتهمونه من إحداث الفتنة وأن لايد له فى كل ماوقع وأنه من فعال (السفطاء) وأنهم هم أصحاب الشأن الاول فى كل ما جرى . وشهد ضباط الجنود الذين سلموا الى الدستوريين أن السلطان أمرهم أن لايقاوموا ، وقال أن الإتحاديين إنما هم أولاده وأنه لا يريد أن يراق الدم من أجله فلذلك امتنعوا من المقاومة وسلموا سلاحهم .

واشتد القوم [٥٢] على جماعة (السفطاء) شدة بالغة جدا فجعلوا يتتبعونهم ويقبضون عليهم فى كل صوب وحدب ، فأمسكوا أربعة آلاف منهم فى يوم وليلة . وكان مما أحزن المسلمين فى دار السلطنه وأكبروه جدا وجود عددا كبيرا من نصارى (مقدونيا) وطوايف من اليهود متطوعين للقتال مع جنود (سلانيك) وقد قاتلو المسلمين فى جانب ذلك الجيش قتالا مرا ، وقد كبر هذا الأمر جدا على العساكر ايضا . وماهى إلا عشية أوضحاها بعد ذلك حتى استعفى جماعة الوزراء وعادت (الجمعية الوطنية العمومية) من مقرها (بسان استيفانو) وجعلت توالى إجتماعها . والأخبار تأتى إلى القصر تباعا حتى اشتد إلاضطراب العصبى على السلطان وتوالت عليه نوباته فكان يبكى وينتحب ويرجو الوزراء أن يتدبروا الحالة ويعملوا على إبقائه فى دست السلطنة . وكان يقول لحاشيته إن خلعه سيئول إلى قتله . وكان كل قليل يرسل إلى أحد السفراء ويطلب منه أن يتداخل مع اللجنة الوطنية للإبقاء عليه . فكان سفير الروس أقرب السفراء إلى مودته وأحبهم الى معاونته ، فسعى سعيا متواصلا فى تبديل الأحوال فلم يتمكن من ذلك . وكانت رسائل البرق ترسل إلى ملوك الدول الكبرى من القصر السلطانى ركاما فى معنى ذلك .

واتفق أن شاع وتفشى الخبر بان الإتحاديين سيبقون السلطان فى كرسيه ولا يمسونه بضرر . فاجتمع الناس ألوفا واحتشدوا حول (يلدز) وهم يصيحون (خيانه ـ خيانه ـ يخلع يخلع) وظلوا على هذا ساعة ثم تفرقوا .

أقول ــ وأصبحنا يوم الثلاثاء سابع عشرى أبريل من السنة سابع ربيع الثانى عام سبعة وعشرين وثلثمائة وألف وقد جاءت رسائل البرق تباعا إلى قصر الإمارة وديوان

(٥٢) يقصد الإتحاديين .

الوزارة وبعض الأندية الخصوصية باشتداد الازمة واستفحال الخطب وأن أعوان اصحاب (الإتحاد والترقى) قد أفحشوا فى القبض على الناس وسوقهم الى الحبوس مئات وألوف مكبلين بالأغلال والقيود ، حتى لقد قبضوا على(الأمير صباح الدين) إبن اخت السلطان (عبد الحميد) وعلى غيره من الكبراء وأصحاب المناصب العالية وأهل الخطط حتى تجاوز عددهم الإثنى عشر الفا . وكان الناس يتقدمون للشهادة على مثيرى الفتنة ويدلون عليهم ويعاونون الجند على اعتقالهم . قالوا وبلغ الخوف من السلطان أشده فسير الى (شوكت باشا) قائمة باسماء كثيرين من المحرضين على الثورة وهم (المشير شاكر باشا) والأميرال (سعيد باشا) ابن الصدر الاعظم (كامل باشا) (وأمين باشا) حاجب السلطان والأثوابچى[٥٣] (الياس بك) (وخالص أفندى) مستشار الخاصة (ونادر اغا) المصاحب الثالث (واسماعيل كمال بك) نائب براءت (ومراد[٥٤] بك) مدير (ميزان)[٥٥] (وبولان زاده) مدير (سربستى[٥٦])(ونظيف سرورى) (وعلى كمال) رئيس تحرير (إقدام) (ودرويش[٥٧] وحداقى) مدير (ڤولكان)[٥٨] (ونور الدين باشا) طبيب السلطان . وسيروا الى شيخ الإسلام فى طلب الإفتاء بخلع السلطان فامتنع من ذلك أولا وثانيا وقال أن المجلس الذى حكم بالخلع يعنى (مجلس الجمعية الوطنية) ليس مجلسا شرعيا يصح التعويل على حكمه فى إصدار الفتوى لأنه مؤلف من مسلمين وغير مسلمين وأصر على قوله . فلم ير أعضاء تلك اللجنة الوطنية بدا من تأليف لجنة من الشيوخ وكبار رجال الدين ضمن هيئة اللجنة الوطنية لتحكم بالخلع بأسباب شرعية ، فحكموا بخلعه . قالوا لما طرأ على عقله من الخبل . ورفعوا حكمهم بذلك الى جماعة الوزراء فامتنعوا من قبوله

(٥٣) أثوابچى = أثوابجى باشى أحد موظفى القصر السلطانى المسئول عن ملابس السلطان .

(٥٤) يقصد ميزانچى مراد أو مراد الداغستانى ـ راجع
ـ حاشية ٤٣ ص١١٤٧ .

(٥٥) أى جريدة ميزان التى يصدرها ميزانچى مراد .

(٥٦) أى صحيفة سربستى (الحرية) التى كان يرأسها حسين فهمى الذى اغتاله الاتحاديون لمعارضته لهم فى صحيفته .

(٥٧) درويش وحداقى = حافظ درويش وحدتى ـ راجع
ـ حاشية ٤٥ ص١١٤٩ .

(٥٨) الجريدة التى أصدرها (حافظ درويش وحدتى) فى ١٩٠٨/١١/١٠ للترويج لأفكاره فى شأن الثورة الإسلامية المضادة التى جرت فى أبريل ١٩٠٩ .

- Stanford Show - Ibid., p., 280

وتنازلوا فى الحال عن مناصبهم . فأفتى شيخ الاسلام بالخلع ونودى(بالسلطان محمد الخامس) سلطانا وخليفة ، وطير الصدر الأعظم فى الهزيع الأول من ليلة الأربعاء الخبر بذلك إلى سائر الإيالات والولايات والسفارات والوكالات السياسية بخلع (السلطان عبد الحميد) وتولية السلطان (محمد الخامس) . وورد على الأمير عباس فى تلك الليلة من الصدر الأعظم برقية يقول فيها يوم الثلاثاء الساعة السادسه ونصف زواليه اجتمع مجلس ملى عمومى من المبعوثان والأعيان فتليت فيه الفتيا الشرعيه الممضية من شيخ الإسلام (محمد ضيا أفندى) المرجح فيها أحد الشقين القتل أو الخلع وهو شق الخلع وإسقاط (السلطان عبد الحميد الثانى) من الخلافه الإسلاميه والسلطة العثمانية ، وأصعد الى مقام الخلافة والسلطنة ولى العهد المشروع وهو (محمد رشاد أفندى حضر تلرى) بعنوان (السلطان محمد خان الخامس) وأطلق مائة مدفع من المدافع المعتادة وأعلن بذلك جلوسه الهمايونى فلزم التبليغ . فبرز الأمر فى الحال إلى سائر الطوابى والقلاع بإطلاق مائة مدفع تبشيرا بارتقائه عرش السلطنه فى جميع انحاء القطر(٥٩) .

---

(٥٩) عاد عبدالحميد إلى سلطنة فى ١٣ أبريل ١٩٠٩ وتحطمت سلطة (جمعية الاتحاد والترقى) فى استانبول ، فقد كانت فاقدة للسيطرة على (الفيلق الأول) من الجيش فى استانبول والذى كان قد أعلن ولاءه للسلطان وانضم إلى (الجمعية المحمدية) . كانت قوة الاتحاديين فى (مقدونيا) . وعلى ذلك فقد قرر الفيلق الثالث أن يتحرك بقيادة قائده (محمود شوكت باشا) ورئيس أركانه (مصطفى كمال) . نظم (مصطفى كمال) الجيش التركى فى (مقدونيا) للزحف على العاصمة وحمل رجاله على قطارات وسمى هذا (بجيش الحركة) Operation Army (حركت اوردوسو) . تحرك الجيش نحو استانبول بقيادة (حسين حسنى) . لدى وصول الجيش إلى (يشيل كوى) San Stefano انضم إليه النواب وأعضاء مجلس الأعيان وأعضاء الوزارة السابقة والحالية ، بأمل الحصول على اتفاق بالحفاظ على البرلمان والدفاع عن الدستور دون نزاع . فى ١٩٠٩/٤/٢٢ اجتمع النواب والمؤيدين وأبلغوا الجيش الزاحف أنهم قرروا خلع (عبدالحميد) . وفى ١٩٠٩/٤/٢٤ وصل الجيش الزاحف إلى استانبول واحتل العاصمة . أمر (عبدالحميد) بعدم إبداء أى مقاومة لكن بعض قوات استانبول حاربت بشراسة قرب (الباب العالى) وفى ثكناتهم فى حى (تقسيم) و(اسكدار) ولكنهم سحقوا فى نهاية اليوم . أعلن (محمود شوكت) الأحكام العرفية وقامت المحاكم العسكرية بمحاكمة وإعدام أو نفى الذي تبين مسئوليتهم عن أحداث ١٣ أبريل ١٩٠٩ (الثورة المضادة) أو الذين شاركوا فى المقاومة التى أعقبت وصول (جيش الحركة) إلى استانبول .

جاءت الخطوة النهائية بعد ثلاثة أيام . ففى ١٩٠٩/٧/٢٧ اجتمع البرلمان على شكل (جمعية وطنية عمومية) فى (مسجد أيا صوفيا) تحت رآسة (سعيد باشا) وحصل على فتوى بررت خلع السلطان بتهمة المشاركة فى الثورة المضادة والوفيات التى نتجت عنها ، بالإضافة إلى سرقة أموال الدولة . وتقرر إسناد العرش إلى أخيه (محمد رشاد) باسم (رشاد الخامس) . وُضعَ (عبدالحميد) وأسرته فى قطار أقلهم إلى (سالونيك) فى نفس الليلة . وانتهى عهد (عبدالحميد)

- Stanford Shaw - op. cit., pp., 181 - 282.

اقول وقد كان من المعتاد أنه عند ارتقاء السلطان عرش السلطنة أن يعمل فى (قلعة المقطم) تشريف عام . فيدخل المهنئون على أمير البلاد ويهنئونه بهذا العيد ، ثم يخرجون من حضرته فيطوف أهل المناصب على دور بعضهم بعضا . وكان المعتاد أن السلطان الجديد متى تربع فى دسته يرسل فرمانا جديدا إلى الأمير فى مصر بتوليته فلم يحصل شيء من ذلك سوى أن الأمير أمر بتعطيل الدواوين يوم الأربعاء فتعطلت بعد أن بدأ العمال عملهم .

أقول ومن الاسباب التى بنوا عليها الحكم بخلع (السلطان عبد الحميد) قول شيخ الاسلام فى فتواه أنه تلاعب بالكتب المقدسة وأحرقها وهدر الدماء البريئة وبذر أموال الأمة واخترق حرمة الشريعة المطهرة . قالوا فكان لابد من خلعه بعد ذلك وبعد أن ثبت عليه ثبوتا شرعيا أنه كان يحض على الثورة ويشترى أرواح الخلق بالمال . فلما اتفقت الكلمة على خلعه وأفتى شيخ الاسلام بذلك اختار مجلس الامة ستة من أعضائه لإبلاغ السلطان هذا الحكم الصادر من مجلس الأمة بإسقاطه عن عرش السلطنه ومن شيخ الإسلام باسقاطه عن عرش الخلافة . فذهبوا إلى القصر وطلبوا مقابلته فقيل لهم أنه فى (بيت النساء) فذهبوا إليه وطلبوا مقابلته هناك فتولاه الخبال وأخذ منه الخوف مأخذه وظن أنهم آتون للفتك به . يقال فلما دخلوا عليه جعل يستغيث بهم ويستعطفهم ويستحلفهم أن يبقوا على حياته وهو يقسم أنه يفرق على الرعية إثنين مليار فرنك هبة فطيبوا خاطره وهدأوا روعه وسكن ما به قليلا ، فأبلغوه خبر الخلع وقالوا أن الأمة بأسرها ضامنة لحياته وراحة اسرته وأنه قد خصص (قصر بيلربك) لإقامته لأنهم لا يأمنون عليه ، فى (قصر يلدز) . فلم يرق له ذلك وقال ان (قصر بيلربك) معرض لدخول كل من يريد الدخول فيه وأنه يحب الموت فى القصر الذى ولد فيه وهو (قصر قراغان) . فقالوا لا سبيل الى ذلك لأن مجلس الأمة الذى ضمن حياته هو الذى قال بذلك وأنهم يخبرونه فيمن يريد استصحابه معه . فعين أسماء بعض نسائه وجواريه وولديه الصغيرين . ولما نقلوه الى القصر الجديد ظهرت عليه دلايل الجزع الشديد واحتبس لسانه حتى عجز عن الكلام مع رسل المجلس ولكنه كان يردد بين لحظة وأخرى هذه الكليمات

قدر محتوم   لا مفر مما قدره الله

وبات ليلته تلك وأصبح وقد رأى اعضاء المجلس أن ينقلوه الى (سلانيك) من يومه . فلما أخبروه بذلك انتفض انتفاض العصفور بليلة المطر وصاح هذا كله نصيبى ،

ولكنى أرجو أن تحفظوا حياتى وحياة من معى وأن تأذنوا باقامتى فى (قصر قراغان) ، فلم يلتفتوا الى قوله ونقلوه الى (سلانيك) وأنزلوه ومن معه وهم إحدى عشر من نسائه وولديه الصغيرين فى (قصر اللاتينى) الذى كان يسكنه(الجنرال روبيلان قومندان الجاندرمة المقدونية) . فتأمل صنع ملك الملوك ورب أرباب[٦٠] ومن بيده كل تغيير وانقلاب وهو صاحب الملك والملوك والقدرة والجبروت سبحانه يعز ويذل ويهدى ويضل وهو العليم الحكيم .

أقول قام (مدحت باشا) بين أهل (الآستانة) يوم حادى ثلاثين شهر اغسطس عام ستة وسبعين وثمنمائة وألف للميلاد عاشر شعبان عام ثلاثة وتسعين ومائتين وألف للهجرة سادس عشرى مسرى عام اثنين وتسعين وخمسمائة وألف للشهداء يتلو فتوى (خير الله افندى شيخ الإسلام) لذلك العهد بخلع السلطان (عبد العزيز) . وكانت فتواه تلك (إذا كان زيد الذى هو أمير المؤمنين مختل الشعور وليس له إلمام فى الأمور السياسية ومابرح ينفق الأموال الأميرية فى ملذاته وشهواته إلى حد لا قبل للملك على طاقته والملة على تحمله وقد أخل بالامور الدينيه والدنياويه وخرب الملك والملة وكان بقاؤه مضرا فهل يحل عزله أ . هـ .

الجواب ـ يصح ـ كتبه الفقير (حسن خير الله) عفى عنه أ . هـ بنصه

وقام (سعيد باشا) فى تاسع عشرى ابريل من هذه السنة أى سنة تسع وتسعماية وألف للميلاد سابع ربيع الثانى سنة سبع وعشرين وثلثمائة وألف للهجرة ثامن عشر برموده سنة خمسة وعشرين وستمائة وألف للشهداء يتلو على أهل الآستانة فتوى (ضياء أفندى) شيخ الإسلام بخلع السلطان عبد الحميد . قالوا لأنه بدد أموال الدولة والمملكة وحرق الكتب المقدسة واخترق حرمة الشريعة المطهرة وارتكب جريمة سفك الدماء البريئة . فما أشبه اليوم بالأمس وما اصدق قول القائل (إذا عدل السلطان ملك قلوب الرعية ، وإذا قدرت الرعيه أن تقول قدرت أن تفعل ، فاجتهد أن لا تقول تسلم من إن تفعل) . قال (أبو جعفر المنصور) مازال أمر (بنى أمية) مستقيما حتى أفضى امرهم الى أبناؤهم المترفين . فكانت همتهم من عظيم شأن الملك وجلال قدره قصد الشهوات

(٦٠) أرباب = الأرباب قراءة ترجيحية

وإيثار الملذات والدخول فى معاصى الله ومساخطه جهلا منهم باستدراج الله تعالى وأمنا لمكره فسلبهم الله العز ونقل عنهم النعمة .

وقال (عبد الله بن مروان) ومروان هذا هو المعروف (بمروان الحمار) وهو من ملوك (بنى أمية) قتل فى أرض مصر فى كورة (بوصير) (لما زال ملكنا وهربت الى أرض النوبة فيمن اتبعنى من أصحابى . فسمع ملك النوبة بخبرى فجاءنى فقعد على الأرض ولم يقعد على فراش افترشته . فقلت له ألا تقعد على ثيابنا . قال لا قلت ولم . قال لأنى ملك وحق على كل ملك أن يتواضع لأمر الله سبحانه اذ رفعه قال عبيد الله[٦١] . ثم قال لى لِمَ تشربون الخمر وهو محرم عليكم ولم تضرون الزرع بدوابكم والفساد محرم عليكم؟ فقلت زال عنا الملك فقل أنصارنا وانتصرنا بقوم من الأعاجم وحلوا ديننا ولنا عبيد وأتباع فولوا ذلك على كره منا . وأطرق مليا يقلب كفيه وينكت فى الأرض ثم قال (ليس كما ذكرت بل أنتم قوم استحللتم ماحرم الله وظلمتم فى ما ملكتم فسلبكم الله العز بذنوبكم ولله فيكم نقمة لم تبلغ غايتها وأخاف أن يحل بكم العذاب وأنتم ببلدى فيصيبنى منكم . وإنما الضيافه ثلاثة أيامٍ فتزودوا ما احتجتم إليه وارتحلوا عن بلدى) قال فتزودنا ورحلنا أ . هـ .

وقيل لملك بعد ذهاب ملكه ما الذى أذهب ملككم قال ثقتى بنفسى واستبدادى بمعرفتى واعتزال استشارتى وإعجابى بشدتى وإضاعتى الحيلة وقت حاجتى والتأنى عند العجلة .

روى عن (بونابارته الكبير) أنه مل العمل يوما فجلس الى حاشيته يحدثهم ويداعبهم . ثم التفت الى احدهم وقال قل لى بحقك ماذا يقول العالم إذا أنا مت . فقال إنهم يقولون يامولاى انك كنت أكبر قائد منيع على وجه البسيطة فقال دع عنك هذا . فقال الرجل انهم سيقولون فيك أنك كنت واضع القوانين ومنشىء النظامات التى لا مثيل لها فى العالم ، فتنهد (بونابارته) وقال للرجل مداهن أنت يارجل فإن العالم سيقولون بعدى (لقد ذهب ولا يزيد على ذلك شيئا) . قلت وهكذا السلطان (عبدالحميد) الذى ملأ الكون بالكلام فيه مدحا وذما قد لا يقول القائلون فيه بعد اليوم إلا ماقاله (بونابارته) رحمه الله .

---

(٦١) عبيدالله = إنى عبدالله قراءة اجتهادية .

الفصل السادس[٦٢] والعشرون
فى سلطنة السلطان محمد رشاد الخامس ابن السلطان عبد المجيد خان

ثم قام بالأمر بعد السلطان (عبد الحميد الثانى) أخوه السلطان (محمد رشاد الخامس) ابن السلطان (عبد المجيد خان) . بديع[٦٣] بالملك يوم الثلاثاء سابع ربيع الثانى عام سبعة وعشرين وثلثمائة وألف للهجرة سابع عشر ابريل سنة تسعة وتسعمائة وألف للميلاد وتاسع عشر برموده عام خمسة وعشرين وستمائة وألف للشهداء . تولى الملك والسلطنة من أقصاها إلى أقصاها تموج موج البحر الزاخر بأفراح حصولها على حكم الدستور ، والرعية على اختلاف عناصرها ونحلها تمد لبعضها ايدى المصافحة ويتبادلون قبلات الإخلاص ومصادقة الإخاء . ولما تم جلوسه على عرش السلطنة فرحوا به فرحا عظيما وأوفدت اليه الجمعية العموميه للإتحاديين وفدا ليبث له ولائهم وإخلاصهم لسلطنته . فلما تمثلوا بين يديه قال لهم (إنى سعيد بأن أكون أول ملك دستورى فى مملكتنا العثمانية ، على أنىَ قد تألمت أنا ايضا من ذلك الضغط الشديد ، ولذلك فأنا أفهم عواطف كل الذين تألموا مما نالهم من الضغط ، فلنسع جهدنا لنعمل معا على خير البلاد . فَقبَّلوا أثوابه وانصرفوا) .

وكان الناس إلى يوم ولايته يسمعون عنه الأخبار الواهية والأكاذيب الملفقة لاحتجابه عنهم ، حيث كان مسجونا محجورا عليه فى جميع تصرفاته ثلاثة وثلاثين عاما لا يرى فى خلالها إلا جواريه وأمناء داره من الخصيان ، وكلهم عيون تنقل أخباره فى صباح كل يوم ومسائه الى أخيه (عبد الحميد) ، حتى كان الناس يخافون الدنو من قصره ونسوه جملة . . أخبرنى صديق وأقسم أنه لما زار دار السلطنةعام سبعة وتسعمائة وألف للميلاد اكترى يوما عربة يطوف بها الأحياء الوطنية وغيرها بين استانبول (وغلطة) (وبيوغلى) . واتفق أن مر بإحدى الشوارع وبه قصر عظيم ، فَهَمَّ بسؤال سائق العربة عن صاحب ذلك القصر . فما بدت أول كلمة منه حتى ألهب السائق الخيل بضرب السوط

---

(٦٢) لا أجد فى المخطوط أى إشارة إلى فصول ما ، ولم أفهم قصد المؤلف من ذكر الفصل السادس والعشرون) .
(٦٣) بديع = بويع قراءة ترجيحية .

وجعل يقول بصوت عال والله يابيم (يعنى يابك) إن هذه الخيل كلفتنى ثمنا كبيرا وهى مع ذلك لم تأت فى يومها بثمن مؤونتها وكأن النحس معقود بنواصيها . أى نعم وهى لا . . . قال صديقى (قال الرجل ما قاله وهو يشتد على ظهور الخيل بالسوط حتى خرج بى من ذلك الشارع إلى منعطف . فأدهشنى أمره وأمسكت بثوبه من خلاف وقلت ويحك ما هذا الهتر وما دهاك وأين سؤالى من جوابك وإعمال السوط فى خاصرة خيلك الضعفاء . فخفف من سرعته والتفت إلى وقال إنا لله وإنا اليه راجعون أو ما تدرى ياسيدى ان ذلك القصر هو قصر (الشاه زاده محمد رشاد أفندى) الممبوز [٦٤] وأن من نظر إليه أو أومأ اليه بأصبعه أو أقترب منه أخِذَ من ساعته إلى حيث لا يعلم إلا الله . ولولا ما أبديته من سماحة الرد عليك وما فعلته بالخيل من ضرب السوط لأخذتنا عيون الجواسيس وساقنا (جند الخفية [٦٥]) الى حتفنا . فقلت أو هذا كل ما خصكم الله به من نعيم السلطان وجلال الملك . قال هو هذا . فأعرضت عن عزله وأقسمت أن لا أعود الى مثل هذه المجازفة ما دمت فى دارهم أ . هـ .

أقول وبينما الأفراح قائمة فى دار السلطنة بولاية (السلطان محمد رشاد) ورسائل التهانى والتبريك تأتى إلى قصره من الملوك والأمراء والكبراء ، كانت المذابح فى ولاية (أطنه) قائمة على قدم وساق وكان التخريب وحرق النساء وذبح الأطفال على صدور الأمهات على أشده . قالوا لقد أحرقوا مئة من المبشرين فى إحدى كنائس الضاحية وأن مدينة (القصبة) قد دمرت عن آخرها فلم يبق فيها حجر على حجر ، وقامت الدول الكبرى كلها تطالب (الصدر)[٦٦] بإيقاف هذه الفظائع عند حدها . وكان الصدر يكتب الكتب إلى العمال ويرسل الأوامر الى الحكام تباعا والزجر يتلو الزجر وهم مع ذلك على شأنهم ، حتى لقد كان من وراء ظهور الدستور والنداء به فى مشرق السلطنة ومغربها أن أحرقت (أطنه) ونهبت (طرسوس) وخربت (أنطاكية) ودمرت (مرعش) . ولم تبطىء الإرهاصات ولا الأخذ بالشبهات ولا تتبع الأمراء والكبراء من اصحاب البيوتات ، فقد أهمل الإتحاديون أو هم أصحاب ذلك الدستور كل شىء ، وأغضوا عن كل أمر إلا القبض

---

(٦٤) الممبوز = المنبوذ قراءة ترجيحية .
(٦٥) جند الخفية = أى رجال المباحث السرية .
(٦٦) أى الصدر الأعظم رئيس الوزراء .

على خصومهم وأعدائهم وزجهم فى الحبوس حتى امتلأت بعلية القوم وأصحاب المناصب العالية وأهل الخطط لعهد السلطان المخلوع ، حتى خرج من بقى منهم على وجهه إلى ديار الفرنجة وديار مصر . وكانت هذه الأزمة باعثة على عدم تحديد أجل حفلة تقليد السيف وهى ما يسمونه (بالبيعة العامة) . قلت وهذا السيف الذى يقلد لسلاطين (بنى عثمان) هو سيف أحدهم (عثمان الأعلى) لا سيف خليفة من خلفاء العرب . لأن الترك لما بلغوا حدود الأناضول بماشيتهم وجدوا إبنى (علاء الدين السلجوقى) فى اقتتال كما مر بك بيان ذلك فى محله من هذا الكتاب . فتألبوا لنصرة الضعيف منهما وهو الصغير الذى ولاه أبوه الملك دون الكبير الذى قام يحاربه . واشتدوا فى قتال الكبير حتى قهروه وفاز الصغير فأقطعهم أرضا واسعة وأهداهم طبلا وعلمًا ونجمة وريشة يضعونها على عمائمهم .

واختص خلفاء (المولى جلال(٦٧) الدين الرومى) صاحب الطريقة التى تلقاها عن (شمس الدين التبريزى) ويسمون اتباعه (بالمولوية) بتقليد كل سلطان من (بيت عثمان) بسيف جده الأعلى لإرث (بيت عثمان) المُلْك عن السلجوقيين لا لأخذهم الخلافة عن (العباسيين) كما يتوهم البعض . يقال أن (لجلال الدين الرومى) ذلك (٦٨) الكتاب من أحسن الكتب وأقواها حجة لولا القرآن . وخليفته الشيخ فى (قونية) لاينتقل منها إلا زائرا أو بدعوة . وحفلة تقليد السيف عندهم هى أن يضعوا الدكك فى ذلك اليوم بميدان (السلطان أيوب) فيجلس عليها الناس ثم تمر صفوف الجند والعسكر صفا صفا ، ثم يأتى

---

(٦٧) جلال الدين الرومى = مؤسس الطريقة الصوفية المعروفة باسم (الدراويش الدوارين) فى المصادر الغربية Whirling Dervishes . كان جلال الدين المعروف (بالمولوى) ١٢٠٧ - ١٢٧٣ صوفى فارسى وشاعر اكتسب احتراما لتعليمه الروحى وابتداعاته الشعرية . بدأ فى عام ١٢٣١ يعلم مبادئه الصوفية ، وفى عام ١٢٤٤ وقع تحت تأثير شمس الدين تبريزى ، الصوفى المتجول . اشتهر الرومى بعمله الضخم (مثنوى) الذى ظهر حوالى ١٢٤٦ - ٧٣ ، وهو عمل من الشعر فى ستة كتب تتألف من الخرافات والقصص النادرة تصف مطلب الروح للتوحد مع الله . يتميز أسلوب (الرومى) الشعرى بعمق فى الشعور وثروة فى الصور والتخيل المستمد من الحياة اليومية ، مع إهمال كثير من القواعد الصارمة للنثر الفارسى

- Lexicon Universal Encyclopedia - vol., 16 - p., 345.

- مولانا جلال الدين الرومى (مثنوى) - ترجمه وشرحه وقدم له (إبراهيم الدسوقى شتا) - المشروع القومى للترجمة - ٢٥ - القاهرة - ١٩٩٦ ص٨ - ٣٠ .

(٦٨) ذلك الكتاب = كتابا ، وذلك الكتاب - عدلت الصياغة ليستقيم النص - وربما كان (شارويم) يقصد كتاب (المثنوى) الذى وضعه (جلال الدين الرومى) .

بعدهم (شيخ الإسلام) على جواد السلطان الجديد ، فإذا صار فى وسط الميدان نادى أيها الناس قفوا إجلالا للسلطان ، فيقفون فيدخل السلطان جامع (أيوب الأنصارى) الذى قتل أمام (الآستانة) لعهد الخلفاء الراشدين ـ وقد بنى له ملوك (بنى عثمان) ذلك المسجد ـ ثم يأتى شيخ (الطريقة المولوية) واسمه (حميد الدين افندى) لهذا العهد فيقلد السلطان السيف وإلباس السيف توريثا لملك السلجوقيين .

وزادت شدة الإتحاديين بالناس وأكثروا من المحاكم العرفية فى كل صوب وناحية . فكانوا يأتون لها بكل عميد وكبير مقيدين بالأغلال والجند من خلفهم يسوقونهم سوق الأنعام . يقال جاءوا فى اليوم الاول من تشكيل تلك المحاكم بمائتين من حاشية السلطان (عبد الحميد) من التفكشية والياوران وبينهم (التفكشى[٦٩] الأول لطيف بك) والصاحب [٧٠] (خليل بك) والفريق(طاهر باشا) الفريق (رشيد باشا) (وعزيز بك) كاتم سر(تحسين باشا) (وأغيا باشا) (وزكى باشا) (وعربانى زاده جميل مللا) شقيق والى بغداد وابن شيخ الإسلام سابق وضابط كان يلبس ذى العلماء عثروا عليه وفى جيبه اربعمائة ذهبا . قالوا وقد ثبت أن بعض هؤلاء القوم اشتروا فى (أدرنه) فى يوم واحد ستة آلاف عمامة ليلبسوها إلى العامة والسوقة الذين اعدوهم لتهييج الشعب والجند باسم الدين ، وأن ضباط الجيش خلعوا عنهم ملابسهم ولبسوا ملابس الجند وقابلوا أولئك الدعاة وعرفوا منهم أسرار الثورة وسمعوا آيات الحض والإغراء . ووجدوا مع جماعة

---

(٦٩) التفكشى ـ أصلها التفكچى . فى التركية (تفنك) أو توفنك أى البندقية أو السلاح الذى يستخدم فى القتال . التفنكچى هو صانع البندقية ومصلحها ، وربما استخدمت للإشارة إلى الجنود من حملة البنادق . وكان أوجاق التوفنكچيان أحد الأوجاقات العثمانية السبعة Tufenk cyan وكان أفراده من حملة البنادق راكبى الخيول الذين اشتركوا مع السلطان سليم الأول فى فتح مصر سنة ١٥١٧ ، ثم شاركوا بعد ذلك كأحد عناصر الحامية العثمانية فى البلاد .

تحولت الكلمة إلى تفكشى وفقا لقانون السهولة والتيسير فى فقه اللغة . ويقول رد هاوس Red House أن التفكچى أو التفنكچى هو قائد قوات الشرطة عند الباشا . والعبارة فى مجموعها (التفكشى الأول) أو التفكچى باشى تعنى الموظف المسئول عن أمن القصر السلطانى .

– جيمس ردحاوص الإنكليزى (توركجه ـ انكليز جه لغت كتابى) ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ٥٧٤ .

– أحمد السعيد سليمان (تأصيل ما ورد فى تاريخ الجبرتى من الدخيل) ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ٥٥ .

– عبدالكريم رافق (بلاد الشام ومصر من الفتح العثمانى إلى حملة نابليون بونابرت (١٥١٦ـ ١٧٩٨) ـ الطبعة الثانية ـ دمشق ١٩٦٨ ـ ص ١٤٥ .

(٧٠) أى المرافق للسلطان من الحاشية .

السفطا[٧١]شيئا كثيرا من الذهب والاسلحة والمكاتبيه[٧٢] الداعية إلى شق عصا الطاعة . يقال وعثروا أيضا على شىء كثير من القبعات والمسدسات فى منازل بعضهم ، وعثروا فى (أزمير)[٧٣] ستة قنابل شديدة الخطر وعلى إثنى عشر إنسانا بعضهم جاء من (الآستانه) بقصد التهاب تلك القنابل ليقال أن النصارى هدموا مساجد المسلمين فتقوم الثورة ويقع الطعن والضرب بين العنصرين . وعثروا فى بيت (عبد الرحمن بك) مستشار الخزينة السلطانية على كمية كبيرة من أزياء الجنود وأوراقا تدل على المؤامرة ضد الدستور . وكان ممن اعتقل (الأمير صباح الدين) ابن اخت(السلطان محمد رشاد) فلبث فى محبسه أياما ثم افرجوا عنه . يقولون كان قصر يلدز الذى يسكنه (السلطان عبد الحميد) كأنه مدينة كبيرة يحتوى على أربعة آلاف وخمسمائة نفس وفيه الملاعب والمتاحف والحدائق ومساكن الجند والإصطبلات وكل ما يمكن أن يكون فى مدينة كبيرة . فلما خرج منه (السلطان عبد الحميد) أبقوا كل ما فيه فى مكانه إلى اجل معين ، فسبحان الدائم بلا زوال صاحب الملك والملكوت .

أقول ولم يهتم سكان مصر والقاهرة بالاحتفال بيوم تقليد (السلطان محمد رشاد) سيف جده الأعلى ولا أقاموا الزينات والولائم كما كان صنائع الاتحاديين ومطرودى الأحرار فى مصر يرجون ، وكما كان اصحاب بعض الصحف المازبه[٧٤] يحضون الناس على ذلك ، ولم يقدم على ذلك سوى نادى (الحزب الوطنى) . فقد زين أبوابه بالأنوار واجتمع حوله كثير من زعانفه وهم فى ضجيج وهتاف ونداء بما اعتادوه من الألفاظ . وباتوا وأصبحوا وليس لأصحاب (الإتحاب والترقى) فى ديار مصر صديق بعد الذى تفشى من أخبارهم . وقام بعض أصحاب الصحف الكبرى يرميهم بفحش القول ويجرح أعمالهم ويقول أنهم أعداء الدولة والدين . ووصل خبر ذلك الى القوم[٧٥] فأزعجهم وأساء ظنهم بأصحاب تلك الصحف ، وأوقعوا تبعة عملهم على أهل القصر لزعمهم أن الصحافة المتحاملة عليهم والطاعنة فى حقهم منذ هجرتهم الى مصر لا تنطق بلسان أصحابها ولا

---

(٧١) راجع الحاشية ٤٦ ـ ص ١١٥٠ .

(٧٢) المكاتبيه = المكاتيب قراءة ترجيحية .

(٧٣) ستة = على ستة قراءة تصويبية .

(٧٤) الماذبة = المحازبة قراءة ترجيحية .

(٧٥) يقصد جمعية الاتحاد والترقى المسيطرة فى الأستانة .

تكتب بأقلامهم وإنما هى تكتب بلسان صاحب القصر وإشارته . قالوا حدث الإنقلاب الكبير وخلع (عبد الحميد) فلم يكن لمن يحب دولته أن يهجو ويهجر ويفجر إلا إلاتحاديين ليؤيد(٧٦) شخصا وآخرين معه كانوا بلاء الدولة وعثرة فى سبيل الإسلام ، ولا هو من النصفة فى شىء أن يبرز الأحرار الذين خاطروا بالنهج فى سبيل الدستور أعداء للأمة أعداء للدين أعداء لوطنهم . قالوا وما ضر أولئك الشتامين أن يروا أن الترك الذين صبغت بلادهم بدمائهم ودماء أجدادهم هو(٧٧) الذين غيروا شكل الحكم فى بلادهم وساروا فى الشكل الجديد على مناهج الأمم الراقية المتمدنة . فهل يجوز للغريب أو النزيل أن يكون وطنيا أكثر منهم وأن يحب وطنهم أكثر منهم ، ذلك ما لا يكون ابدا . قالوا هذا أو مايقرب منه ، وهم يرمون الى صاحب القصر والواقفين ببابه من أصحاب الصحف (كصاحب المؤيد) وغيره . وظل الحال على هذا حينا والفارون من المشانق والحبوس والنفى إلى آسيا الوسطى يأتون إلى الإسكندرية والقاهرة من كل صوب وناحية . بعضهم خفافا وبعضهم ثقالا بعيالهم وأموالهم ، وبينهم نفر من أهل المناصب وأصحاب الخطط وكبار (الما بين) وأصحاب الأقلام . فكانوا ينزلون على الرحب والسعة وهم فى حذر من أن تصل اليهم أيدى الاتحاديين أو ينالوا منهم منالا .

واشتد أصحاب الإتحاد والترقى فى تفتيش قصر (عبد الحميد) وإخراج ما فيه من الكنوز التى لا تقدير لها من الذهب والجواهر والأعلاق الثمينة . يقال عثروا على بضع مئات من الألوف من التقارير السرية التى كان يرفعها الى السلطان جواسيسه وخفيته حتى لقد وجدوا بين هذه التقارير رسائل سرية من (غليوم) إمبراطور الألمان يفضى نشرها الى افتضاح أمور غريبة وتورط أناس كثيرين . قالوا وعثروا على تقارير كثيرة كان يرفعها (على كمال بك) .(وعلى كمال) هذا من أصدق الاحرار وأثبت الوطنيين ولكنه فى حقيقه أمره كان جاسوسا للسلطان يتجسس على الأحرار وهم يظنونه أخا لهم فى جهادهم . وكان يراقب أعمالهم فى مصر وديار الفرنجة ، حتى لقد بلغت منه القحة أن وشى بأمير مصر وبطانته (والغارى مختار باشا) ورجال ديوانه وقال انهم يعملون على هلاك (عبد الحميد) . ومما قاله فى ذلك فى احد تقاريره مانصه :

---

(٧٦) ليؤيد = ليؤيدوا قراءة اجتهادية .

(٧٧) هو = هم قراءة ترجيحية .

(طبقا للفرمان الصادر عدت اليوم من باريز الى الآستانة وأنا أصدق وأخلص عند جلالتكم . ومنذ خمس عشر سنة وأنا محافظ فى أوروبا على هذا الاخلاص والصدق ومعلق آمالى على جلالتكم وانا الذى اشتغل أكثر من كل انسان لإثناء (مراد بك[٧٨]) عن خطته ضد جلالتكم ، وأقنعته بالعودة الى حظيرة الطاعة والإخلاص . واتباعا لأوامر جلالتكم تمكنت من تبديد عدة مؤامرات فى باريز ومصر . وساءنى جدا إذ رأيت فى الأيام الاخيرة تشريدات ومظاهرات محكمة ضد جلالتكم وضد السلطنة عقب الفوضى المستحكمة ، ولكنى لم أتأخر عن إيقاف هذا التيار سواء كان بالكتابة أو سواها . وقد أرسلت إلى جلالتكم تلك المنشورات التى وزعت فى مارسيليا وجنيفا والولايات قبل توزيعها . والآن قد استمال أعداء السلطنة الصحف المهمة فى فرنسا وانجلترا والذين يطالعون هذه الصحف فى أوروبا يعتقدون أن الدماء تجرى أنهارا فى السلطنة وهذه هى الآن حال الأراجيف التى يختلقونها . قال (وأرى أنه لو اتبع اليوم ذلك المنهج الذى اتبعته جلالتكم سابقا لإعادة (مراد بك) لبطلت إذاعة تلك الاراجيف والمنشورات . أما إذا ظلت الأمور على الفوضى التى نراها فان (الخديوى عباس باشا)(ومختار باشا) وغيرهما سيزدادون جرأة ولا يحجمون عن مساعدة أعداء جلالتكم) أ . هـ فتأمل . أقول وإلى هذا الحين كانت الصلة السياسية بين حكومة مصر ودار السلطنة ، العثمانية على شيء من التراخى والفتور بأسباب تلك الإرهاصات والمحن ، ولم تكن جماعة الإتحاديين لترضى عن (الأمير عباس) ورجال قصره ولا لتغض الطرف عما سلف من فعال الأمير مع بعض افراد أولئك القوم . وحدث أن خرج (الامير طوسون) إبن (الأمير طوسن باشا) ابن(الخديوى محمد سعيد باشا) فى حملة مؤلفة من ثمانين هجينا للركوب ، وثمانين جملا لحمل الأمتعة وطائفة من الخدم والأتباع والخيام ومعدات الصيد يريد (طرابلس الغرب) . وقام ركبه هذا من (الفردان) . فلما بلغ مديرية (طبرق) رأى مديرها من عدده وعدته ما أخافه . فسير بخبر ذلك الى الباب العالى على جناح البرق ، وقال أن الركب هو حملة عسكرية كاملة العدة قادمة من ديار مصر بقصد (طرابلس) . فسير الباب على جناح البرق يسأل صاحب قصر الإمارة عن تلك الحملة والغرض من سفرها على ذلك الوجه . فأجابه الأمير بأنه لايعلم شيئا البتة عن تلك

(٧٨) يقصد ميزانچى مراد

- راجع حاشية ٤٣ ـ ص١١٤٧ .

الحملة ، وأبلغ خبر ذلك إلى جماعة الوزراء . فبرز الأمر فى الحال الى ضابط نقطة السلوم بأن يقوم الى (طبرق) ويعيد حملة (الأمير طوسن) . فسار الضابط وقبل أن يصل كان قد قام قومندان (درنه) ووصل الى (طبرق) واجتمع بالأمير وحادثة ، وكأنه عرف قصد الأمير فلم يمنعه من السير بحملته فسار من يومه . ووصل رسول الحكومة المصرية (طبرق) فلم ير (الأمير طوسن) حيث علم أنه صار على بعد مسيرة أربعة أيام للمُجد ، فأراد اللحاق به فمنعه قومندان الموقع فعاد إلى (السلوم) وسير بخبر ماجرى الى ديوان الوزارة .

يقولون كانت حملة الامير طوسن سياسية بحتة ، ذلك لأنه كان لايرتاح إلى أن يرى دولة الإيطاليان آخذة (لولاية طرابلس الغرب) وما معها ولا هى متسلطة عليها من طريق الإستعمار ، فكان شديد الإهتمام بالأمر كثير الحركة كثير البعوث والوفود الى (الشيخ السنوسى الكبير) وكبار ومشائخ القوم فى (طرابلس) (ودرنه) وغيرهما . وكان كثير البذل والعطاء للعيون على الإيطاليان ونقلة اخبارهم ، وقد ذهب الى كثير من بلاد العرب والعراقيين لجمع كلمة القوم على ما فى نفسه وبلوغ غايته ، حتى لقد قال بعضهم أن للأمير يدا فى هذا الأمر وأنه أعلم الناس بما فى صدر (الامير طوسن) وهو لا يستنكره . وغاب (الأمير طوسن) فى رحلته غيبة طولة ثم عاد بركبه وخيامه ومعداته وكأنه قد توفق إلى مايريده من حملته أو كاد . وقام أصحاب بعض الصحف المحلية يسألون عن سبب الحمله الى ذلك الصقع البعيد ويرمونه بشىء من التهم التى لا قبل له على تحمل تبعتها حتى لقد قال بعضهم أنه يريد تأسيس خلافة عربية تنزع شعارها من ملوك آل عثمان . وتحقق القوم أن وراء الأكمة ما وراها .

ولما كان حادى عشر جماد الاولى من السنة ، سنة سبع وعشرين وثلثمائة وألف ، حادى ثلاثين مايو أبحر الأمير مع حاشيته وبطانته على ظهر باخرته (المحروسة) إلى دار السلطنة يريد قضاء أياما فى مصيفه على البوسفور فى دار السلطنة . فحسب الناس لسفره هذا حسابا كبيرا لما هو قائم بينه وبين كبار الإتحاديين من الخلف وسوء التفاهم الشديد . لا سيما وهم يتهمونه بتحريض (صاحب المؤيد) على تكذيب دعوتهم الى الإصلاح وحض (صاحب الصاعقة) على رميهم بالتهم الشائنة ، حتى صدر الأمر من جانب (الصدارة) بمنع دخول هاتين الجريدتين الى دار السلطنة بتاتا . وجاء الخبر بأن الإتحاديين يعملون على استرجاع (قصر چبوغلى) الذى كان السلطان المخلوع أهداه إلى

والدة الأمير ، وأنهم عاملون ايضا على قطع كل صلة بين الباب العالى وقصر الإمارة ، حيث ثبت لهم صحة ما كان يلاقيه جماعة الأحرار العثمانيين الذين جاءوا مصر هاربين من الحيف وعظائم الأمور ، من رجال القصر ليكرهوهم على مغادرة مصر والرجوع الى حث لايجدون مأوى ولا نصير . أقول ولم يشغل الناس عن التحدث بهذا وأشباهه إلا تفشى خبر عزم الأمير على فتح دار الشورى بعد ما ترأسه (الأمير حسين) ابن(الخديوى إسماعيل) عم(الأمير عباس) وبعد أن صارت اجتماعاته علنية بعد ذلك الخفاء والتكتم الطويل . إفتتحوا جلسة المجلس فى يوم الثلاثاء ثانى عشر جمادى الأولى من السنة وأول شهر يونيه وقد جملوا قاعته بأجمل الزينات ورتبوها ترتيبا حسنا للغاية ، ووقف (الأمير حسين) فى وسط رجاله خطيبا فقال (أيها الساده إنى أهنىء نفسى وأهنىء حضراتكم بهذا اليوم السعيد الذى على ما وصل اليه بحثى فى التاريخ هو أول يوم عقد فيه مجلس استشارى جلساته علنية فى هذه الديار . ولا خفى على حضراتكم ما فى علنية جلسات المجلس من الفوائد العظيمة التى أقلها إطلاع الأمة على أعمال المجلس ومناقشات حضرات أعضائه فى أوقاتها ، فيلزمنا أن نتحد باطنا وظاهرا وأن نكون يدا واحدة وأن نشتغل بما يعود على البلاد بالسعادة والرفاهية وأن لا نألو جهدا فى هذا السبيل ، فإن من جد وجد . ولا يثنى عزيمتنا كون رأى المجلس الآن استشارى فانه باتحاده مع الحكومة فى المسائل الإقتصادية التى ترجع الى الزراعة والصناعه والتربية والتعليم يقدم الأمة أدبيا وماديا ويخدم البلاد خدامات جليلة . وأملى وطيد ان الحكومة تنفذ ما وعدت به بلسان رئيس مجلس نظارها لأن وعد الحردين عليه . ولعل حضراتكم تذكرون ما قاله عطوفته (يعنى بطرس باشا غالى) فى جلسة الجمعية العموميه فى سادس فبراير عام ثمانية وتسعمائة وألف .

ونرحب بأرباب الصحف فإنهم بإخلاصهم يمكنهم أن يفيدوا الأمة فائدة عظيمة ويثقفون عقولها ويرقون آدابها وأفكارها ولغتها ، ويقومون المعوج من فاسد الأخلاق ويدلون الهيئة الحاكمة على محل النقص لتداركه ، فهم بهذا يؤدون لها خدمة عظمى يشكرون عليها . وكذلك نرحب بمن تفضل بالحضور من الجمهور . وفى الختام نسأل الله سبحانه وتعالى أن يطيل بقاء سمو الخديوى المعظم وأن يديم توفيقه لما فيه خير البلاد) أ . هـ بنصـــه

ونشط رجال الشورى الى العمل فقاموا يطالبون الهيئة الحاكمة بإصلاح الرى والإدارة والتعليم وانتقاد الحكام ، وتوسعوا فى ذلك كثيرا والهيئة الحاكمة لا تبخل بعمل ما تقدر عليه من وجوه الإصلاح . وظلوا على شأنهم هذا حتى تخطى بعضهم الى الطعن والسباب لسبب ولغير سبب عملا بإشارة أصحاب (الحزب الوطنى) وانتصارا لصحفه التى لم يكن لها ديدنا سوى التهويل والإرجاف وتوَعُدِ الهيئة الحاكمة بالثبور وعظائم الأمور . وكانت هذه الصحف إذا رأت من الهيئة الحاكمة تحفزا للوثبة عليها وإيقافها عند حدها اتخذت الإحتماء بالدول الاجنبية درعا لرد الهيئة الحاكمة وإحباط عملها . وكان لما كبرت قحة محررى (جريدة اللواء) وتطاير شرهم فى شرق البلاد ومغربها بحضهم الناس على الهرج وتقبيح كل عمل للهيئة الحاكمة همت الهيئة فى هذه الآونة بتعطيل تلك الجريدة وإقصاء مدير تحريرها المدعو (منصور افندى رفعت) عن الديار المصرية . والرجل طبيب متهوس متجنس بالجنسية الأمريكية ولذلك كان شديد المقاومة للهيئة الحاكمة كبير البغض لها آمن جانبها تمسكا بتلك الجنسبة . ولما كانت المادة السادسة من قانون عام تسعة وسبعين العثمانى تقضى بانه يجوز للحكومة العثمانية إبعاد كل عثمانى تجنس بالجنسية الامريكية دون مصادقة الباب العالى إذا ظل متمسكا بهذه الجنسية ، كلم الوزير (بطرس باشا) قنصل أمريكا فى أمر الرجل وفى شأنه ذلك . فلم يظهر القنصل معارضة ولكنه أبلغ (منصورا) خبر ذلك وأعلن له عجزه على حمايته ، فلاذ الرجل إلى الإختفاء . وبرز الأمر إلى محافظ الإسكندرية بالقبض عليه . فبثوا عليه العيون وأقعدوا له بالمراصد وفتشوا داره وصيدليته وإدارة (الحزب الوطنى) فلم يعثروا عليه . وتحقق خبر فراره إلى ديار الأميريكان . وتفشى الخبر بعد ذلك بعزم أولى الأمر على إبطال (جريدة اللواء) . وباتوا وأصبحوا وقد سير أخ (منصور رفعت) ذلك إلى قنصل (دولة امريكا) على جناح البرق خبر سعى أصحاب الشرطة وراء القبض على أخيه وتبعيده ، وجاءت كتب محمد فريد رئيس الحزب الوطنى من الإسكندرية بأن القنصل لايعلم أمر[79] تبعيد (منصور رفعت) شيئا وأن الأمر الذى برز بالقبض على (منصور) لم يكن من وزارة الداخلية بل من قصر الإمارة بعد اختلاف جماعة الوزراء فيما بينهم ، وكاد بعضهم

(٧٩) أمر = من أمر   قراءة ترجيحية .

يتخلى عن منصبه لمخالفة أصحاب القصر . وعلت ضجة اصحاب صحف الأحزاب بعضها ساخرة وبعضها هازئة ولكنها ساخطة مهددة منادية بالويل والحرب أياما كثيرة .

أقول واهتم جماعة من أهالى القاهرة المتعددين فى مجالس السياسات بدعوة المصريين كافة الى إرسال وفد منهم الى دار السلطنة العثمانية لينوبوا عن الأمة فى تقديم فروض التهانى والتبريك الى (السلطان محمد رشاد) بارتقائه عرش أجداده ، وألحوا فى الدعوة وأكثروا من كتب الحض والاستنهاض . فصادفت دعوتهم فلاحا ومكانا من هوى بعض محبى الظهور . وكان الأمير قد سافر بحاشيته ورجال قصره إلى الآستانه بدعوة من السلطان ، فظن بعضهم أن سفر المصريين الى دار السلطنة إنما هو بإيعاز من الأمير وغرض فى نفسه . وما هى إلا ايام على تلك الدعوة حتى سافر ألفا وتسعمائة وخمسة وثمانين إنسانا وبينهم كثير من المتظاهرين بأثوابهم الفاخرة وهم فى حاجة الى نفقة السفر والإقامه ، فقابلوا (جماعة الاتحاديين) ونالوا حظوة المثول بين يدى السلطان ، وعادوا بما كسبوا . ولم يستقر بهم المقام حتى أخذتهم صيحة دعاة الإحتفال بعيد الدستور العثمانى . وكان قد اجتمع جماعة من أذناب (الحزب الوطنى) وآخرون من أنصار (الإتحاديين) وعشاق الترك فى القاهرة ومصر يدعون الناس إلى الإشتراك فى الإحتفال بذلك العيد الكبير ، والتبرع بالأموال لإقامة المآدب والزينات وإرسال كتب التهانى الى السلطان ورجال الدولة ، فكانت هذه الدعوة ضغثا على إبالة اضطر المدعوين اليها إلى استدانة الدرهم بدينار والإستسلام الى ما تسوقه اليهم الأقدار ، وانهالت تبرعاتهم على صندوق لجنة الاحتفال . فكانت صحف الأحزاب تكيل للمتبرعين الثناء والمدح كيلا وتطيرهم [٨٠] بأجمل عبارات الإطراء . حتى أصابت هذه المحنة السواد الأعظم من أهل المدن والبلدان والقرى فلم يفلت منها الا من عصمه الفقر وأرداه .

فلما كان يوم الجمعة سادس رجب من السنة أى سنة سبع وعشرين وثلثمائة وألف ثالث عشرى يوليو نشروا الأعلام فى كل مكان وعملت الزينات ودقت الطبول فى كل صوب ومكان . وأقبل الناس من كل درجة ورتبة على حديقة الازبكية حيث نصبوا السرادقات وزانوها بالأنوار الكثيرة والرياحين المختلفة . وما اذنت العشاء الثانية حتى

(٨٠) وتطيرهم = وتطريهم قراءة ترجيحية .

أطلقوا الألعاب والمحرقات النارية وتزاحمت فى الشوارع والطرقات عربات المتفرجين والمتفرجات ، وزار رؤساء الطوائف والعلماء والكبراء والأعيان دار (القوميسارية العثمانية) . وركب أعضاء لجنة الإحتفال فى موكب من نزل (الكونتيننتال) إلى دار القوميسارية أيضا . وعلى أثرهم وفدت وفود بطريكات الطوائف النصرانية من الإسكندرية والقاهرة . وسير أعضاء اللجنة كتب التهانى إلى (صدر الدولة) على جناح البرق وإلى رئيس (مجلس المبعوثان) .

وزينت جميع الأحزاب دورها وكذلك سائر مراكز فروعها . وقام فيهم الخطباء والقوالين يخطبون فى تحية الأحرار الذين فازوا بخلع السلطان (عبد الحميد) ونوال الدستور . فكانت حركة بالغة أشدها . وجاءت كتب الأمير من (الآستانه) الى (الوزير بطرس باشا غالى) (قائمقام الغيبة) يثنى فيها على الوزير ثناءاً كثيرا ويظهر ارتياحه إلى سير أحوال القطر على مايرام ، ويشكر للوزير والذين قاموا بالاحتفال بذلك العيد وأن ما جرى وقع لديه موقع القبول . أقول وما أنقضت ايام الافراح وكادت تنصرف عنها الأذهان حتى هب أصحاب (اللواء) صحيفة الحزب الوطنى الى تقبيح عمل لجنة ذلك الإحتفال ورميهم بالعجز والتقصير والخلط فى كل عمل عملوه ، واتهموا أعضاء اللجنة بأنهم دعوا الى وليمتهم تلك ثلاثين من الضباط المصريين وسبعين من الإنجليز وفى ذلك حيف ومروق عن الوطنية التى لايرضاها الحزب . فكأن القوم يرون أن عدم جلاء الإنجليز عن مصر مقرون بدعوة اولئك النفر من ضباطهم إلى تلك الحفلة ، وقد كان يجب أن لا يُدْعَون فيغضبون ويأخذون فى الجلاء العاجل فتأمل . وما لهجة [٨١] الألسن بالدستور ونعمته على رعايا الدولة العثمانية ، وتألب العناصر المكونة لسلطنة آل عثمان حتى قام (صاحب المؤيد) يكتب فى معنى اختلاف العناصر وفى تباين أديانها والفارق بينها فى الأقلية والأكثرية وتمييز الأكثرية على الأقلية فى كل ما له علاقة بمناصب الدولة وخططها . فقام فى وجهه صاحبى (الوطن) (ومصر) القبطيتين وردا قوله ردا جميلا فلم يرد ذلك .

واندفع الى السباب والطعن المعيب ، فكالا له بكيله ووزنا له بميزانه ، وعلت ضجتهم حتى أزعجت أهل الحل والعقد . ودخل أصحاب الصحف الأجنبية فى معمعان

---

(٨١) لهجة = لهجت قراءة لغوية .

هذا القتال ، وانتصرا لصاحبى(الوطن)(ومصر) لتطرف الشيخ (المؤيد) فى الطعن فى الأديان ونهش الأعراض . وظل الحال على هذا أياما ثم برز الأمر الى المتخاصمين بالكف عما هم فيه وإلا أخذتهم عصا قانون المطبوعات من أمامهم ومن خلفهم فانكفوا صاغرين .

واتفق بعد ذلك بقليل أن وردت الأخبار من عاصمة الانجليز بتنفيذ حكم الإعدام على الهندى المسمى (دنجرا) قاتل السير (كروزن ويلى) كاتم أسرار والى (الهند الإنجليزية) بطلق نارى لغرض سياسى . وكأنه شق على الشيخ (عبد العزيز شاويش) قتله . فكتب فى (اللواء) مقالة عنوانها (اليوم يقتل دنجرا) بلهجة شديدة للغاية . فاهتمت الهيئة الحاكمة لهذا الأمر اهتماما عظيما وصدرت الجريدة الرسميه للحكومة وفيها ما نصه :

(ناظر الداخليه ، بعد الاطلاع على الماده ١٣ من قانون المطبوعات الصادر فى سادس عشرى نوفمبر عام واحد وثمانين وثمنمائة وألف وعلى القرار الصادر من مجلس النظار بتاريخ رابع عشرى أغسطس عام تسعة وتسعمائة وألف بالتطبيق للقرارين الصادرين من هذا المجلس بتاريخ خامس عشرى مارس عام تسعة وتسعمائة وألف .

حيث أن جريدة (اللواء) قد نشرت بعددها الصادر فى سابع عشر أغسطس سنة ١٩٠٩ مقالة عنوانها (اليوم يقتل دنجرا) متعلقة بحكم الإعدام الصادر بإنجلترا على الطالب الهندى الذى اتهم بقتل (السير كروزن ويلى) . وحيث أن هذه المقالة التى نشرت فى يوم التنفيذ وكتبت بلهجة حماسية تعتبر إطراءاً حقيقيا للمحكوم عليه . وحيث أن هذا التصويب لعمل جانٍ وامتداحه مع تكرره فى عدة مقالات نشرتها هذه الجريدة وخصوصا بأعدادها الصادره فى ٢٠،١١،١٠ وفى ٧ ، ١٩ اغسطس سنة ١٩٠٩ من شأنه التحريض والتشجيع على ارتكاب الجرائم الأمر الذى يترتب عليه الإخلال بالامن وبالنظام العام .

قـرر ما هو آت

المادة الأولى ـ إنذار جريدة اللواء التى تصدر بالقاهرة للمرة الأولى

المادة الثانية ـ على مدير الجريدة المذكورة نشر هذا الانذار فى صدر العدد الآتى

المادة الثالثة ــ (على محافظ القاهرة تنفيذ هذا القرار)

أقول ومن غريب الإتفاق أنه فى اليوم الذى برز فيه إنذار المطبوعات لمدير تلك الجريدة برز أمر النيابه بالقبض على الشيخ (عبد العزيز شاويش) مدير تحريرها تنفيذا للحكم الذى اصدرته محكمة الإستئناف العليا بحسبه لتهديده وطعنه الشديد على أمير البلاد وسائر الحكام وكل من يخالف آراؤه التى تفرد بها دون سائر الخلق . واشتد محافظ المدينة فى البحث عنه هنا وهناك وأقعد له بالمراصد وقد كان مختفيا فى أحد المكامن . فلما تحقق أنه مأخوذ لا محالة سار ومعه (محمد فريد) رئيس الحزب الوطنى وأحمد بك لطفى الى مقر النائب العمومى وسلم نفسه فساقه الى السجن . وتفشى خبر ذلك ونقله أصحاب الصحف المحلية والأجنبية فلم نر فى إحداها تقبيحا لعمل الهيئة الحاكمة ولا استهجانا لحكم المحكمة إلا صحف (الحزب الوطنى) ، فإنها أكثرت من الإرجافات والتهويل وخلطت بين الجد والهزل . وظلت على شأنها هذا أياما حتى لقد قالت أن رجال الحزب سيقومون بعقد اجتماع فى حديقة الازبكية فى الساعة الخامسة بعد ظهر الإثنين رابع عشر شعبان من السنة للقيام بمظاهرة كبرى احتجاجا على الحكم الذى حكم به على شيخ (اللواء) .

فما هو أن تفشى خبر ذلك حتى برز الأمر بالتشديد وأخذ الحيطة القوية لمنع كل مايكدر صفو الراحة ومراقبة الذين يندفعون فى هذا الإجتماع الى إلقاء الخطب الحماسية المهيجة وتنفيذ القانون عليهم بكل صرامة . فلما كان الأجل المضروب أقبل القوم على الحديقة وكثر زحامهم . وكان بالحديقة فرقة من أصحاب الشرطة وجماعة من المخبرين السريين ، وكان قد برز الأمر الى سائر نظار وضباط المدارس بالذهاب الى الحديقة لمراقبة التلاميذ الذين يخطبون وتدوين أسمائهم . فلما رأى القوم عزم أصحاب الشرطة خافوا وأطاعوا صوت العقل والإعتدال ، وقام ثلاثة منهم وخطبوا باعتدال وتحذر . ثم اكتتب الحاضرون بمبلغ من المال لايتجاوز الثلاثين ذهبا ليقدموا به الى شيخهم ذلك مدالية ذهبيه (نوط) عند خروجه من السجن ، واتفقوا أن ينقشوا عليها هذه الكلمات . (الشعور المصرى المجيد) . وجاء الخبر من الإسكندرية بأنه قد اجتمع فى ذلك اليوم جمهور من الشبان (بالشطبى) أمام (مدرسة محمد على) محتجين على الحكم على(الشيخ شاويش) . وقام خطيبهم يحثهم على الهدوء والسكينة واقترح أن يطلبوا على

جناح البرق من قصر الإمارة العفو عن الشيخ ، وجمعوا لذلك ثلاث مئة قرش أجرة الرسالة . ثم انفضت المظاهرة وتفرق الجمع وأصحاب الشرطة من أمامهم ومن خلفهم يراقبون . واتفق أن هم (محمد بك فريد) رئيس الحزب الوطنى بالسفر الى (جنيف) إحدى بلاد (إلسويس[٨٢]) . قالوا لحضور (مؤتمر الشبيبة المصرية) المزمع انعقاده بذلك البلد للبحث فى شؤون مصر السياسية والاقتصادية وما يجب من الإنتصار للحزب والعمل على ترقية شؤونه . فسافر ولم يقع له شيء من مظاهر الإحتفاء والإحتفال ولا سُمعَ لأعوانه عند وداعه صوتا ولا ضجة ولا نداء (بيعيش ويسقط) على عاداتهم المألوفة عندهم عند ذهابه وإيابه ، لاشتغالهم عن هذه السخافات بسجن شيخهم (الشيخ شاويش) . فما هو أن وصل (جنيف) حتى شاع أنه قابل (البرنس دى بولوف) مستشار الإمبراطوريه الالمانيه كان ، (وفريد باشا) وزير الداخلية للدولة العثمانية كان وأنهم تباحثوا طويلا بشأن (مؤتمر الشبيبه المصرية) المزمع إنعقاده فى ثانى عشر سبتمبر من السنة ثامن عشر شعبان من السنة أيضا . ولما كان الأمير بمصيفه فى دار السلطنة ، قام من هناك إلى (جنيف) وأخذ كل التعليمات اللازمة عن هذا المؤتمر . يقال وقابل(البرنس دى بيلوف) وحادثه طويلا - يقال والرقباء وعيون أهل الحل والعقد من جماعة الانجليز حارثه[٨٣] - فيما يجب على دولة الألمان اتخاذه من الطرق والأسباب السياسية المعينة على إخراج الإنجليز من ديار مصر وخلاصها من سيطرة الإحتلال . حتى لقد قالوا أنه تعاقد مع (دى بولوف) ذلك على عمل معين وغرض محدد ، وتعاهدا على الكتمان حتى تأتى الساعة . وتكلم أصحاب الإنجليز فى ذلك كثيرا بعضهم بالتصريح وبعضهم بالتلبيخ[٨٤] ، وأشار الى ذلك أصحاب صحف الحزب الوطنى وتفاخروا به وعدوه من آيات الفوز والغلبة ، ولم يأنفوا من زج أمير البلاد فى هذا المأزق المخيف .

يقولون لم يكن ذهاب الأمير الى جنيف رمية غير مقصودة ولا هى بنت يومها . بل كانت على عهد سابق بينه وبين (دى بولوف) (وفريد باشا) وزير الداخلية . وأن قيام (دى بولوف) الى جنيف فى ذلك الحين كان بأمر من الإمبراطور تنفيذا لخطة مرسومة ومقررة

---

(٨٢) أى سويسرا .
(٨٣) حارثة = لم أفهم المقصود من الكلمة ويمكن أن تحل كلمة (مراقبة) محل الكلمة الواردة بالنص .
(٨٤) بالتلبيخ = بالتلميح   قراءة اجتهادية .

ضد الإحتلال الإنجليزى ، وما يقصده إمبراطور الالمان فى مستقبل الايام . فقد اشتهر عنه أنه إنما هو يعمل على اضعاف السلطنة الإنجليزيه وتمزيق ملكها والقضاء على سلطانها فى سائر المعمور من الارض ، وأنه بث الدعاة فى القاصية من المستعمرات الإنجليزية حتى لا يتركوا أميرا ولا كبيرا إلا وحادثوه فى ذلك ، واستمالوه الى دعوتهم ومنوه بالأمانى الكثيرة ، حتى وعدوا اصحاب (جمعية الإتحاد والترقى) التى خلعت السلطان (عبد الحميد) من عرشه بأن تعيد الى سلطتهم مصر القاهرة إيالة تابعة كما كانت على عهد (على بك الكبير) (وابراهيم بك) (والبرديسى) وغيرهم . ووعدت (الأمير عباس) بغير ذلك استهوته[٨٥] وخلط أصحاب هذه الدعوة بنفسه ، ولم يحسب لما سيكون من وراء ذلك حسابا . أقول ومن هذا الحين توترت العلايق بين الأمير وأصحاب الإحتلال واشتدت عن ذى قبل كثيرا ، وجعل عميد الإحتلال يظهر للأمير خلاف مايبطن . فأنه بينما كان يطلق له العنان فى فعل ما يشاء ويصرفه فيما يشاء من الشؤون ، كان يبعث كتب الإستغاثة الى صاحب السياسة الانجليزية ويحذره من فعال الأمير وتقرب الخصوم من مجلسه لاسيما (معتمد الألمان) ، حتى عيل صبر صاحب السياسة الانجليزية وأظهر شيئا من نواياه على صفحات بعض صحفهم الكبرى ، ولم يحجم عن التهديد والوعيد إن ظل الامير على شأنه ، والأمير لا يلوى على شىء ولا يأتيه الخوف ولا الحذر من جانب العميد لحسن ظنه به واعتقاده بأنه صنيعته وابن نعمته . وبينما الناس فى تفكير فيما سيكون من وراء هذه الحركة الجديدة وهم يرقبون عودة الأمير من سفرته هذه التى أوجبت كل هذا القال والقيل والهرج الثقيل ، إذ جاء الخبر الى ديوان الوزارة وقصر الإمارة من دار السلطنة العثمانية بأنه بينما كان الأمير عائدا من جنيف الى دار السلطنة فى قطار السكة الحديد الشرقية إذ رماه أحد القوم بحجر فأخطأه وأصاب نافذة العربة . وتفشى خبر ذلك فأكبره الناس وأعظموه حتى أوله بعضهم الى أنه فعلة من فعال أصحاب (الاتحاد والترقى) لما بينهم وبين الأمير من البغض والشحناء . وأرسل (بطرس باشا غالى)(نائب الغيبة) الى دار السلطنة يستعلم عن صحة الأمير وما ربما يكون حدث بعد ذلك . فجاءه الرد على جناح البرق بأن ذلك الحادث لم يكن ذا اهمية وأن صحة الأمير على مايرام وأنه على وشك العودة الى قصره قريبا . ومع

(٨٥) استهونه = حتى استهوته قراءة اجتهادية .

ذلك لم يقف الإرجاف عند حد ولا بطلت أقاويل الناس ولا أقلعوا على ظنون السوء فى ذلك الحادث ، حتى جاء الخبر بقيامه من دار السلطنة على ظهر يخته(المحروسة) . فلما كان ثامن عشرى شعبان من السنة أى سنة سبع وعشرين وثلثمائة وألف ، ثالث عشر سبتمبر سنة تسع وتسعمائة وألف وصل ركب الأمير إلى مدينة الاسكندرية . فأطلقت المدافع من سائر الطوابى لقدومه . وبات وأصبح وقد عملوا التشريفة الكبرى ، فدخل عليه الأمراء والوزراء والكبراء وأرباب المناصب وأصحاب الخطط والعلماء والقضاة وقناصل الدول وكبار العسكر وغيرهم كثير . وكان بعض العامة وبسطاء العقول يظنون أن القادم على ظهر المحروسة ليس هو الأمير وأن الامير قد قضى نحبه فى دار السلطنة بعد أن ثبت للسلطان ورجال دولته أنه كان يعمل على نزع ثوب الخلاقه من آل عثمان وحفظه لنفسه باتفاق مع الشرفاء والأشراف فى (مكة) (وجزيرة العرب) .

وأصبحوا يوم الأربعاء أول شهر رمضان من السنة صايمون حيث ثبتت رؤية (الهلال) فى مدينة الاسكندرية على يدى قاضيها ، وقد طاف المنادون ليلة الأربعاء ينادون بأن (صيام صيام) . فبرز الناس على عادتهم يتزاورون ويهنىء بعضهم بعضا ، وأطلقت المدافع من قلعة الجبل إيذانا بالصيام .

أقول وبينما كانت مواكب الاحتفال برؤية الهلال قائمة على قدم وساق ، وأرباب الأشاير وأصحاب العكاكيز ومشائخ الحارات يطوفون بطبولهم وزمورهم وضجيجهم ونجيجهم ، كان أصحاب (الحزب الوطنى) والملتفين حولهم يحتجون على إلاحتلال إلانجليزى للبلاد بمناسبة مضى سبعة وعشرين عاما على وجوده . فقد اجتمع العدد العديد من مختلف الأصناف فى (دار اللواء) ووضعوا فى صدر فناء الدار منبرا كبيرا جعلوا على جانبيه علمين عثمانيين منكسان مجللان بالسواد ، وقد جلس عليه فريق من أعضاء ذلك الحزب المبارك وبينهم فرقتان من طلبة وطالبات المدرسة التحضيرية . ورفعوا فى أعلى المكان صورة (مصطفى باشا كامل) . ولما استقر بهم المقام قام (على فهمى كامل) رئيس شركة (اللواء) ووكيل الحزب وخطب خطبة سياسية إحتج فيها باسم الأمة المصرية على بقاء إلاحتلال رغما من الوعود والمواثيق ، وجاء على ذكر أعمال الانجليز فى ديار مصر واغتصابهم لاستقلالها باستمرار احتلالهم لها . ودعا الأمة كلها الى عدم القنوط مهما لاقت من المصاعب ثم حرض على التمسك بالأمل بقرب الفرج .

ثم تلا (سيد افندى محمد) أحد خوجات المدرسة التحضيريه فتكلم بكلام من معنى ما هو فيه وقال أن الأمة المصرية فى حاجة إلى نشيد وطنى يتمثل به شعورها وتلى عليهم نشيدا كان قد أعده .

ثم سيروا الى مقام (الصدارة) (ومؤتمر چنيف) وصاحب السياسة الإنجليزية على جناح البرق . فأرسلوا يقولون إلى الصدر (لما كانت الأمة المصرية تتعلق بكل جوارحها بالدولة العلية صاحبة السياده عليها ، وكان اليوم هو تذكار إحتلال الإنجليز لمصر بعد بقائهم بيننا سبعة وعشرون عاما ، فقد اجتمع اليوم نحو ستة آلاف مصرى وأظهروا استياءهم من الاحتلال وأبلغوا احتجاجهم على وجوده إلى اليوم لجناب رئيس الوزارة الانجليزية (ولمؤتمر الشبيه المصرية) (بجنيف) ، فنتشرف برفعه اليكم مؤكدين إخلاص المصريين للدولة العلية التى نفديها بكل جوارحنا) .

وأرسلوا الى جنيف يقولون (اجتمع اليوم بدار اللواء ستة آلاف مصرى من وجهاء وكبراء باسم المؤتمر الوطنى المصرى واحتجوا على بقاء الاحتلال الإنليزى[٨٦] الى اليوم ، وأبلغوا الإحتجاج لجناب رئيس الوزارة الانجليزية ودولة الصدر الأعظم طالبين الجلاء) .

وإلى رئيس وزراء الإنجليز ايضا يقولون (إجتمع اليوم ستة آلاف مصرى وكلفونى بتبليغ جنابكم باسم الأمة المصرية عن بكرة أبيها استياءنا الشديد واحتجاجنا بكل قوة وحق على بقاء الإحتلال فى مصر إلى اليوم لمخالفة ذلك لوعود الحكومة الانجليزية الصريحة ولقسمها بالتاج والبرلمان . ولقد أصبح من صالح الإحتلال الإنجليزى أن ينجلى ليكتسب مودتنا عوضا عن اشتداد بغضنا له واستياءنا مما لا ينفع الدولة البريطانية أبدا) انتهى . وما خرجوا من ذلك المكان حتى تبعهم العامة وأحاطوا بهم من كل جانب ، وتحكك الزعانف والحرافيش بالتلميذات اللواتى كن فى صدر المنبر وهم يترامحون ويقهقهون وينادونهن بأسمج النداءات وأفحشها . ولم يبالوا بأصحاب الشرطة الذين كانوا يدفعونهم بالأكف ويضربونهم بالعصى ليفرقوا جموعهم .

وباتوا وأصبحوا وقد جاء الخبر ثانى رمضان من السنة باجتماع مؤتمرهم فى

(٨٦) الإنليزى = الإنجليزى قراءة ترجيحية .

(جنيف) تحت رئاسة (محمد فريد) ثم تحت رئاسة مدير الجريدة . قالوا فخطب فيهم (المستر كيرهاردى) زعيم (حزب العمال) فى مجلس النواب الإنجليزى وأظهر انعطافه إلى الحركة الوطنية المصرية ، ولكنه قال إن الحركة الوطنية والحكومة الإنجليزية ستسيران فى آخر الأمر يدا بيد . قالوا وخطب (لطفى افندى) وتكلم بشىء مما هم فيه ، ثم تكلم (المستر كتل) من زعماء (الحزب الوطنى الأيرلندى) فى مجلس النواب الإنجليزى أيضا فدافع عن المصريين وأيد مطالبهم . قالوا وبعد الظهر قصد اعضاء المؤتمر الساحل الفرنسوى للنزهة والإنشراح . وتحقق أنه كان بين من حضر ذلك المؤتمر (شيشينى بك)(ومحمود بك أبو النصر) (وعثمان محمد) (وحمد صالح) (وخالد الفوال) (ومحمد نجيب[٨٧] والهلباوى) وكلهم من المتطرفين فى الوطنية المتحمسين فى الإحتجاج والمستائين من الإحتلال . يقال وأهم المواضيع التى قدمت لهيئة ذلك المؤتمر فى أيامه الثلاثة هى (مركز مصر الدولى بقلم لجنة المؤتمر)(نهضة الشرق ومصر بقلم لطفى افندى جمعة)(السودان لعلى افندى الشيمى) (التعليم العام فى مصر لباحث مستتر) . وغير ذلك كثيرا ضربنا عن إيراده صفحا .

وماهى إلا عشية أو ضحاها حتى انهالت على مصر صحف الألمان كبرى وصغرى وكلها تقبح عمل المؤتمر وترمى أصحابه بالهوس والخبال ، وتظهر إلى صاحب سياسة الإنجليز من التودد أجمله ومن الكلام أحلاه وأطيبه ، وتنصح أولئك الشبان المفتونين بالرضاء بالإحتلال والإخلاد إلى السكينة ، وكأنها تقول للإنجليز الذين اتهموا الألمان حينا طويلا بدس الدسائس ضدهم وراء البحار - انظروا كيف أعامل المصريين واسمعوا ما أتلوه عليهم من آيات النصح والإرشاد والتهديد ، وتأملوا كيف أبرأ منهم ومن حركتهم الشائنة المعيبة القائمة ضد الاحتلال . . وعندى أن دولة الألمان لم تعمد الى هذا الضرب من التغرير إلا بعد أن علم جواسيس الإنجليز وعيونهم بحقيقة ما صار بين الأمير

(٨٧) ومحمد نجيب والهلباوى = ومحمد نجيب الهلباوى قراءة ترجيحية . ومحمد نجيب الهلباوى هذا هو الذى اتهم فى عام ١٩١٥ بمحاولة اغتيال السلطان حسين كامل . وقد حكم عليه بالسجن مع الأشغال الشاقة المؤبدة ، وجنده جهاز الأمن المصرى فى أواخر ١٩٢٤ بعد اغتيال السردار لى ستاك Lee Stack وبعد أن كان قد قضى تسعة سنوات فى السجن ، وقام بكشف مجموعة المتورطين فى حادث اغتيال (ستاك) والذين تم شنقهم بعد أن أدانتهم المحكمة .

- عبدالوهاب بكر (البوليس المصرى ١٩٢٢ - ١٩٥٢) - الطبعة الثانية - دار الزهراء للنشر - القاهرة - ١٩٩٣ - ص٤٥ - ٥٤ .

ومستشار السلطنة الألمانية المعزول وجماعة من أصحاب (مؤتمر جنيف) وافتضاح ما تعاهدوا على كتمانه ، ولا سيما بعد أن ثبت ايضا ظهور الحركة بين جماعة من ضباط الجند المصرى وإرسالهم احتجاجا على الإحتلال إلى صاحب سياسة الإنجليز ، حتى جاء الخبر بعد هذا كله بعزم كبير وزراء الانجليز على إرسال قوة كبيرة من الجنود لتعزيز الجيش المحتل لمصر ، وتفشى خبر ذلك وتناقله أصحاب الحزب الوطنى مشوها مقلوبا حتى خيل للناس أن القتال على الأبواب .

وظهرت الحركة أيضا فى دار السلطنة العثمانية وقام أصحاب صحفهم ينادون بالويل والثبور وعظائم الامور ويحضون أصحاب الحل والعقد على الضرب على يد الأمير وقطع كل صلة بينه وبين دولة الألمان وكانت سببا لاستخفافه بما للسلطنة من الحقوق والسيادة على (عرب اليمن)(والحجاز) وسائر سكان الجزيرة ، حتى طمع فى استخلاصهم لنفسه وتحريضهم على شق عصا الطاعة للسلطان بدس الدسائس وبث الدعاة شمالا وجنوبا . وأحس الأمير بما وراء ذلك فبعث بعوثه الى (الصدر الأعظم) وسير الكتب تلو الكتب الى الباب العالى يبرأ فيها من مغبة هذه التهم ويقسم بالله ورسوله أنه على ولائه المقيم وإخلاصه العظيم لعرش العثمانية . وظل على هذا حتى نشر قلم المطبوعات فى الآستانة بلاغا الى الصحف يقول (نشرت إحدى صحف الإنجليز خبرا تقول أنه وارد عليها من الآستانة وفيه أن الباب العالى داخله الريب والشك من مسلك أمير مصر فى مسائل اليمن والحجاز فأصدر أوامره الى عماله فى مصر وبلاد العربية لرقابة وملاحظة ذلك المسلك . فالباب العالى لم يداخله الريب بمسلك خديوى مصر ولم يصدر الأوامر الى عماله فالخبر مختلق بجملته) أ . هـ . قلت وبينما كانت رسل الأمير فى دار السلطنة تبرأ الى الله من تبعة الفتنة القائمة فى اليمن والبلاد العربية كانت القبايل والعسكر السلطانى تتطاحن فى كل صوب وحدب والمدد يمر بقناة السويس إلى بحر القلزم تباعا ، وأخبار السوء عما يلاقيه الجنود العثمانية من مضض الجوع ونار الحرب متفشية شائعة بين الناس ، كالشائع عن غضب الأمير على (مصطفى ماهر باشا) ناظر الأوقاف العمومية وبغضه له وعزمه على خلعه من منصبه لأمور نقمها عليه .

وتحرير الخبر أنهم يتهمون (مصطفى ماهر باشا) بأنه بينما كان الأمير فى مصيفه

فى دار السلطنة قصد (ماهر باشا) ذلك (السير غورست) وأسر اليه أن مصلحة الأوقاف كادت تكون كبنك الإسقاط ، وأن أعمالها بلغت من الخلل والفوضى مبلغا عظيما حتى أنه لا يوجد فى حزانتها درهم من الودائع المسلمة اليها وقدره خمسمائة ألف ذهبا ، وأن مديرها السابق أكثر من فتح الإعتمادات للأمور الخيرية حتى استنفذ مال الخيرات فى أبعة اشهر من السنة (يعنى سنة سبع وعشرين وثلثمائة والف هجرية) . قالوا فأكبر (السير غورست) هذا الخبر وكلم (الوزير بطرس باشا) فى أن يلفت نظر الأمير الى هذا الأمر قبل أن تقع التبعة على أحد . فغضب الأمير غضبا شديدا وبرز الأمر الى (شفيق باشا) أن يطلب من (ماهر باشا) حساب الاوقاف . قالوا فأبى (ماهر باشا) إعطاء الحساب . فأخذه (شفيق باشا) من مدير الحسابات . وعلم الأمير بما كان فاشتد غيظه وعظم سخطه . ولما عاد الى الإسكندرية أبى أن يقابل مدير الأوقاف ، قالوا وأرسل إليه من يأمره بالسفر إلى القاهرة فقام صاغرا وهو على عزم التخلى عن منصبه .

أخبرنى أحد الاصدقاء قال (سمعت من حديث النفور والفتنة القائمة فى القصر من جراء معاندة (مصطفى ماهر باشا) مدير الاوقاف لأميره ومكابرته فى تصرفاته ـ أنه لما اختلطت احوال (الشيخ على يوسف)(صاحب المؤيد) وتعقدت أموره وتولاه العسر مع تراكم الديون واشتداد المرابين فى طلباتهم ، كان الأمير يمد له يد المساعده من حين إلى حين ويدفع عنه بعض تلك الديون . . واتفق أن طلب أحد الدائنين من القضاء الحكم ببيع دار للشيخ على كائنة خلف مدرسة المبتديان . فبرز الحكم ببيعها نظير مبلغ قدره أربعة آلاف ذهبا . فدخل (الشيخ على) على الأمير وشكا له حاله . فبرز الأمر سرا إلى وكيل الاوقاف بأن إصرفوا مبلغ أربعة آلاف ذهبا الى عائلة قد أخنى عليها الدهر . فكتب الوكيل ورقة الصرف وأرسلها الى مدير الاوقاف ليختمها بخاتمه فقال (أريد أن أعرف من هى تلك العائله التى يستلزم التصدق عليها صرف أربعة آلاف ذهبا) ، وامتنع عن التوقيع . وعلم الأمير بذلك . فبرز الامر الى وكيل الديوان بأن يوقع هو على إذن الصرف ولا يلتفت الى امتناع المدير ففعل ، وأخذ الشيخ الذهب واستخلص داره . فأكبر (مصطفى باشا) هذا الأمر جدا وأخذ استمارة الصرف وقصد (السير غورست) وأخبره بخبر ما جرى وطلب منه الدفاع عنه وإخلائه من كل مسئولية تترتب على هذه المجازفة . وعلم الأمير بخبر ذلك فأخذ الغضب منه مأخذه وسير الى (مصطفى باشا)

من يعلمه بسرعة التخلى عن منصبه وإلا عزل حالا ففعل ولازم داره ، فبطل القيل والقال فى هذا الحادث جملة) . وكان منذ عامين قد حضر جماعة من أغنياء الانجليز وكلموا أهل الحل والعقد فى إعطائهم أرضا فى (جبل الزيت)عند خليج (جمسه) من (جزيرة العرب) لاستخراج البترول منها . فوقع الإتفاق بينهم على ذلك وشاع خبرهم ففرح الناس به لحاجة البلاد الى البترول واستجلابه من جهات مختلفه . وماهى إلا أيام حتى استحضروا الآلات والمعدات وجعلوا يعالجون الأرض ويحفرون . وظلوا على هذا حينا طويلا فلم يعثروا إلا على كميات قليلة جدا لا تفى بالقليل من النفقة . وحلت شركة محل شركة والعمل واحد والخسارة رابية حتى أفلست الشركات وأقلعت عن المجازفة . وبطل العمل حينا ثم أرسلت إحدى تلك الشركات مهندسا أمريكيا فقام يبحث فى المنطقة التى أخذت تلك الشركة امتيازها ، فلم يعثر على شىء وأشار على أصحاب الشركة بأن يأذنوا له بالبحث فى منطقة أخرى خلاف الأولى . فأبوا عليه ذلك وتركوا العمل وقطعوا كل أمل فى هذا المشروع . وسافر الرجل إلى امريكا واتفق مع ثلاثة من كبار المهندسين فى هذا الفن وجاؤا معا إلى (جبل الزيت) وجعلوا يبحثون وينقبون ، فتوفقوا إلى اكتشاف منبع . فانقلبوا إلى القاهرة وتناجوا مع أصحاب الحل والعقد حتى نالوا الإذن باستخراج الزيت من ذلك المنبع . ثم ألفوا شركتين إنجليزيتين لهذا الغرض وجلبوا الآلات والمعدات وفتحوا فى الجبل أحد عشر منبعا منها غزير ومنها قليل الغزارة ، ودقوا الطلمبات فى المنابع وأقفلوها . وسافروا الى اوروبا للإستزاده من المعدات والآلات اللازمة لهذا العمل الكبير . وتفشى خبر ذلك ففرح الناس به فرحا عظيما وما كان بالأمس حلما لا يظن تحقيقه صار اليوم حقيقة لاُ يمارَى فيها ولا يُجَادَل ، وقد لا يمضى وقت طويل حتى يروج البترول المصرى إلى أسواق مصر وربما فى الشامات وديار الهند أيضا وتكون تجارته من أهم الأسباب الإقتصادية للبلاد وأهلها . وإلى هذا الحين كانت قد تطورت الأحوال وتفرقت الأهواء بين جماعة الوزراء ووقعت المشادة بينهم ولا سيما بين (الوزير بطرس باشا) و(سعد زغلول باشا) (ومحمد سعيد باشا) لأسباب بعضها قوى وبعضها ضئيل تافه . واتفق أن (الوزير بطرس باشا) سافر الى مصيفه فى أوروبا على عادته فى كل عام ، فشاع أن الأمير أرسل يستقدمه على عجل لأمر هام جدا .

فتحدث الناس فى ذلك وذهبوا فى تأويله كل مذهب حتى قالوا أنه سافر غاضبا من (سعد زغلول باشا)(وسعيد باشا) لما ثبت لهم[٨٨] سعيهما وراء التفريق بين الأمير ورعيته تارة وبينه وبين (السيرغورست) تارة أخرى ، حتى قالوا بأن قد بلغت القحة (بسعد زغلول باشا) وعدم الإكتراث بمقام الأمير أنه كان يحتد فى مخاطبة الأمير فى جلسات مجلسهم ويشوش عليه بالقول والإشارة حتى أحرج صدر الأمير وملأه غيظا وحقدا عليه . وقالوا أن (سعدا) (وسعيدا) سيخليان من منصب الوزارة ، وأن (سعدا) على عزم مغادرة ديار مصر والسكنى فى بلاد النمسا ، وقالوا غير ذلك كثير . وعندى أن ما رموا به (سعد باشا) من الغلظة فى مخاطبة الأمير والتشويش عليه فى مجلسهم الرسمى لا جدال فيه ، فقد تعدد وقوعه وبلغت شهرته بين الناس مبلغها . يقال وكان (سعد باشا) يفتخر بذلك فى مجالسه الخصوصية ويعده من آيات الحزم والكياسة الواجبة على كل وزير . وكان (بطرس باشا) يرى أنه ليس من الحزم ولا من الكياسة فى شىء أن لايتأدب الوزير أو الأمير فى حضرة سيده . فضلا عن أنه كان يرى أن ليس فى كل جدال (سعد باشا) أو آرائه قصدا حسنا أو غرضا محمودا ، وأن كل أقواله أحاجى تنم عن المكابرة بحضرة الأمير بحق وبغير حق . وساءت الحال فعاد (بطرس باشا) من مصيفه وجعل يعالج ما أفسدته المهاترة وسوء القصد ، فكان إذا رضى الأمير عن (سعد باشا) يوما أعرض عنه أيام ، وأقصاه عن قصده وتوعده بالويل والثبور . وكانت صحف الحزب الوطنى وبعض أصحاب الصحف الأخرى تحبذ هذه الفرقة وتعدها من آيات الوطنية الحقة التى اختص بها (سعد باشا زغلول) . وكأنهم كانوا يتوقعون أن تطول أيامها وتسوء عاقبتها . وطالت أيام هذه المحنة وتحدث الناس بها كثيرا وشاع خبر حج الأمير الى البيت الحرام وهو على حقده وبغضه (لسعد باشا) . وبرز أمره بابتياع مايلزم لهذه السفرة من التحف والهدايا والمعدات التى تحتاجها قوة الحرس والجند القائمين بخدمة ركابه .

وقام الأمير الى الإسكندرية وكأنه حانق . واتفق حلول يوم عيد الفطر فبرز الأمر بعمل التشريفة الكبرى بقصر رأس التين . وجاءت كتب كبير التشريفات الى الأمراء والكبراء وأهل المناصب وأصحاب الخطط فسافروا الى الإسكندرية . فلما دخلنا عليه لأداء مراسيم التبريك المعتادة فى مثل هذه الأعياد رأيناه مقط الجبين كاسف البال ليس

(٨٨) لهم = له قراءة ترجيحية .

فى شيء من النشاط والحركة فى مثل هذه التشريف ولم يكلم أحدا كعادته . وقد سمعت فى ذلك اليوم من بعض رجال ديوانه أنه مضى ثلاثة ايام لم يكلم فيها أحدهم إلا اللازم القليل ، وأنه كان يكثر فيها من الإنفراد بالوزير (بطرس باشا) فإذا انفرد بنفسه أكثر من التأفف والتفكير . وبينما الأهبة لسفره جارية مجراها جاء الخبر من (شريف مكة) الى ديوان الوزارة بأنه ورد على الشريف الأمر من جانب الصدر الاعظم بمنع الإتجار بالرقيق فى سائر بلاد الحجاز وما والاها عملا بأحكام الدستور العثمانى الجديد . فبرز أمر الشريف إلى جميع مشائخ القبايل بالإمتناع عن الإتجار فى ذلك النوع وبعتق الأرقاء القايمين بالخدمة البيتية وغيرها فى أماكن مواليهم . فلما تفشى خبر ذلك وشاع بين القبايل نفروا منه وغضبوا غضبا شديدا لأن اعتمادهم فى كل اعمالهم على الأرقاء . ووقع بينهم الهرج وبدت علامات الخروج وشق عصا الطاعة . يقال وقام أعداء الدستور يشيعون بين العرب أن منع تجارة الرقيق مخالف للشرع والدين وأن الواجب الجهاد فى الذين يمنعونه . ووقعت تهمة هذا التحريض على نفر من أهل الوظائف . وكبر الأمر على أهل تلك البوادى وأعظموه جدا . واتفق أن قامت قافلة من (جده) ومعها جماعة من العسكر يخفرونها . فما هى أن خرجت حتى هاجمها العرب وأحدقوا بها من كل جانب ووقع الطعن والضرب . واشتد الجند فى قتال العرب واختلت القافلة وكادت تتفرق شذرا من أصوات البندقيات وزعقات العرب . قالوا وظل الحال على هذا ساعتين ويزيد ثم انكشفت المعمعة على قتلى كثير وجرحى من الفريقين . وترفع العرب الى الجبال . قالوا وكان هؤلاء المغيرين كلهم من قبيلة (مطير) التى مزق شملها الشريف وهدم دورها وجعلها أثرا بعد عين .

ولما شاع هذا وتحدث به الناس ظنوا عدول الأمير عن الحج فى هذا العام وتوقعوا من وراء عدوله حادثا جديدا بين جماعة الوزراء وأمرا هاما فى منصبى (سعد باشا) (وسعيد باشا) . فلما كان سادس شوال من السنة عشرى شهر أكتوبر ، ركب الأمير يخته (المحروسة) من مرسى رأس التين وأقلع فى الساعة السابعة صباحا قاصدا سواحل الأناضول للإشراف على مزارعه بها . وكان قبل قيامه قد وصل (الوزير بطرس باشا) من مصيفه فدخل على الأمير مسلما . فلبث بحضرته وقتا طويلا حامت حوله الظنون والأوهام وكلها ترمى الى ما هو واقع من كره الامير لبقاء(سعد باشا وسعيد باشا) فى

مصاف الوزراء . وماهى إلا أيام من سفر الأمير حتى قدم إلى القاهرة الشيخ (سليمان باشا ابن رفاده) شيخ مشائخ عرب باى(٨٩) (بالوجه) ومعه حاشية كبيرة وخدم وأتباع . فأكرموا مقدمه وأنزلوه على الرحب والسعة ، وجعل يفاوض الوزير فى أمور الحاج والطريق المثلى الى (مكة) مفضلا (طريق الوجه) إلى محطة (العلاء) التى مر بها (المحمل المصرى) عامهم الماضى . قالوا وكان الأمير قد كاتبه فى ذلك حينا واستقدمه لهذا الغرض .

واتفق أن عاد (حاكم السودان وسردار الجيوش) من (الخرطوم) الى القاهرة ليقضى بها أياما على عادته إبان الصيف . فظهرت عند وصوله حركة بين ضباط الجند وأصحاب الوظائف بالمعسكر المصرى ، وشاع ان الهرج واقع فى بيوت العسكر . وجعل أصحاب صحف (الحزب الوطنى) وذيلوهم(٩٠) يتكهنون بما سيكون من وراء ذلك فى غيبة الأمير وعجز وزير الداخلية عن ضبط الأمور ورفع المحظور مع ما هو عليه من الخلاف مع الأمير ووزيره . وتحدث الناس فى ذلك كثيرا وعدوه من الصدق بمكان . فما هى إلا عشية وضحاها حتى تلقى (السردار) عريضة موقعا عليها بعبارة (لفيف من الضباط الوطنيين يطلبون فيها أولا تحسين حالة المدرسة الحربيه وقبول حملة الشهادة الثانوية فيها ثانيا ـ تحسين قانون المعاشات ورواتب الضباط ، ثالثا ـ زيادة عدد قومندانى (الأورط) من الضباط الوطنيين رابعا ـ تشجيع الشبان المصريين على الخدمة فى الجيش خامسا ـ توصية الضباط الإنجليز بحسن معاملة الضباط المصريين) . فاهتم السردار بهذا الحادث اهتماما كبيرا وجعل يمحصه تمحيصا . قالوا فثبت له أنها فرية على جماعة الضباط ما أنزل الله بها من سلطان ، وأن جماعة من الدساسين الذين يريدون السوء بأصحاب الإحتلال هم أصحابها ومروجى اخبارها . حتى قالوا ان (محمد سعيد باشا) وكبار(الحزب الوطنى) هم أصحاب هذه الفتنه وأنهم يريدون من وراء تفشيها وتحدث الناس بها غرضا فى النفس فى هذه الآونة الصالحة . وعندى أن ما قام به اصحاب صحف (الحزب الوطنى) من الجلبة وما ظهر من ضوضائهم عن تفشى الخبر لم يبق معها موضع للشك بأنها من عمل رجال الحزب وانها توطئة لغرض يريدونه .

---

(٨٩) باى = بلى ـ أحمد شفيق باشا (مذكراتى فى نصف قرن) ـ مرجع سبق ذكره ـ ج٢ـ حوادث سنة ١٩١٠ ـ ص١٩٨ .

(٩٠) وذيلوهم = وذيولهم قراءة ترجيحية .

وبينما الناس والصحف على اخلافهما [٩١] يتحدثون بخبر ذلك الحادث إذ ظهرت محنة اخرى وفتنة كبرى وقامت ضجة عظيمة حول (الوزير بطرس باشا) ومستشارى الحكومة القضائيين . وبرز (عبد العزيز شاويش) إمام الحزب الوطنى وأذنا به ينادون بالويل والثبور وعظائم الأمور . وذلك أن أصحاب (شركة قناة السويس) كانوا قد رفعوا إلى أهل الحل والعقد طلبا يريدون به تمديد أجل التزام القناة خمسة واربعون سنة أخرى وهى المدة التى مضت من الإلتزام الى ذلك التاريخ ليعود أجل الإلتزام الى أصله وهو تسعون سنة . واشترطوا أن يقوموا

بدفع خمسة آلاف الف ذهبا الى الخزينة من غير تأجيل ولا إبطاء . ولما كانت هذه الصفة[٩٢] رابحه لا غدر فيها ولا حيف على خزينة البلاد ، وهى تمكن أصحاب الشركة من توسيع القناة وتطهيرها وتقوية جسورها ومرافيها والإستزادة من فوائدها الإقتصادية ، رأى أهل الحل والعقد بعد البحث التنقيب واستشارة مستشارى الحكومة الشرعيين أن تناقش أصحاب الشركة فى هذا الأمر وتساومهم فيما تتقاضاه من المال . وكان إلى هذا الحين لم يتجاوز الأخذ والرد ديوان الإمارة ورجال الحكومة ومندوبى الشركة . وكان الوفاق بين الفريقين فى الرأى ثابت مرضيا ولاسيما بين (السير غورست) والهيئة الحاكمة ، حتى لقد كان إذا أوقفت المخابرات بين الفريقين أياما لسبب من الأسباب سير (السير غورست) إلى ديوان الوزارة من يستطلع الخبر ويتحرى الحقيقة . وظل الحال على هذا أياما حتى أوشك الامر أن يتم . ثم انفجر الخبر وتفشى فتناقله أصحاب الصحف ولا سيما صحف (الحزب الوطنى) . وقبل أن يبحثوا فى مضار هذا المشروع ومنافعه وقبل أن يتبينوا غرض أصحاب الحل والعقد وما يرمون اليه من الحصول على هذه الصفقه قامت ضجتهم وعلت صيحتهم وجعلوا يهرفون بما لايعرفون ، وساعدهم على ذلك جماعة ممن يدعون على[٩٣] الجبر والحساب واستثمار الاموال . فكتبوا اليهم وحسبوا وأظهروا للناس مضار هذا المشروع بشىء من الأمثلة والفروض الطويلة العريضة التى لايدركها الا الرساحون[٩٤] فى العلم . وأيقظت هذه الضجة أعضاء الجمعية

(٩١) أخلافها = اختلافها قراءة ترجيحية .
(٩٢) الصفة = الصفقة « «
(٩٣) على = علِم قراءة اجتهادية .
(٩٤) الرسا حون = الراسخون قراءة ترجيحية .

التشريعية فهبوا يسألون أهل الحل والعقد عما هم فاعلوه . وجعلوا يجتمعون بأصحاب (الحزب الوطنى) والناقمون على الهيئة الحاكمة لسبب ولغير سبب فى مجتمعاتهم الخصوصية ويتناجون فى الأمر وكلهم ماشط[٩٥] متحمس . يقال كان أشدهم تحمسا وأصلبهم عودا (الصوفانى) أحد أعيان الغربيه (واسماعيل السيد أباظة) أحد رجال الشرقية (وأحمد عبد الغفار) أحد أعيان المنوفية . وقام أصحاب صحف الأحزاب يقولون بلزوم عرض الأمر على الجمعية التشريعيه وعدم البت فيه قبل أن يقره نواب الأمة بعد تخميصه[٩٦] . وسيروا كتب التهديد ورسائل الوعيد الى شخص الوزير (بطرس باشا غالى) وإلى قصر الإمارة ووزارة الداخلية . وكتبوا الى(السير غورست) يحضونه على الوقوف فى وجه الهيئة الحاكمة ومنعها من عمل ما تريده لما فيه من الحيف بمصالح البلاد . وما هى إلا ايام بعد ذلك حتى انقلب الأمير على جماعة الوزراء ولم يعجبه عملهم وأظهر (السير غورست) للناس خلاف ما يبطن وأثنى على حسابهم وتقديرهم وحسبه عملا صالحا .

وكان الوزير (بطرس باشا) قد تقدم بالبلاد رغم الإحتلال وعميده الجبار (اللورد كرومر) خطوة واسعة نالها من صاحب السياسه الإنجليزية لمنزلته عندهم ، وهى حضور جماعة الوزراء الى هيئة الجمعية التشريعية عند طلب سؤالهم فى شىء من شؤون وظائفهم كل وما يخصه . فكان إذا قضت الحالة الى سؤال وزير الداخلية عن أمر ترى الجمعية التشريعيه أنها فى حاجة الى سؤاله عنه استدعته وسألته وهو يجيبها واقفا حتى تفرغ من سؤاله وهكذا بقية الجماعة حتى (الوزير بطرس باشا) نفسه . فلما أن بلغت هذه المحنة مبلغها وتعددت[٩٧] اصحاب المحليه الى غيرها ، وجاءت صحف دار السلطنة العثمانيه طافحة بحديث القناة وما للسلطنة عليها من الحقوق الشرعيه والمعاهدات الدولية وغير ذلك من الوخز والتونيب ، عمد (الوزير بطرس باشا) الى إرضاء أصحاب هذه الضجة ورسم برفع مفصلات هذا المشروع الى هيئة الجمعيه التشريعيه ، وأباح للناس وأصحاب الصحف ومكاتبوها ونقلة الأخبار من كل صنف ورتبة حضور جلسات الجمعية

---

(٩٥) ماشط = ناشط قراءة اجتهادية .

(٩٦) تخميصه = تمحيصه قراءة ترجيحية .

(٩٧) وتعددت أصحاب المحلية = وتعددت كتابات أصحاب الصحف المحلية قراءة اجتهادية .

وسماع مناقشات الوزراء كافة وأعضاء الجمعية ، وهذا الأمر لم يسبق وقوعه منذ إنشاء الجمعية الى ذلك اليوم . واتفق ان كان فى مصر فى هذه الآونة (سعيد باشا) (رئيس مجلس الأعيان) فى دار السلطنة العثمانية تبديلا للهواء ومعه ولده وطبيبه . فظن بسطاء العقول أن للرجل يد فى هذه الحركة لأنه مشهور بالدهاء والخبرة بالسياسة . وكان نفر من أعضاء الجمعية التشريعيه يتبجحون كثيرا بتقربهم من مجلسه وتعرفهم بولده وطبيبه والإكثار من التحدث بأقواله والتفاؤل برواياته ، حتى لقد كانوا يسمونه معجم السياسات ومفتاح المعميات . وانتظم عقد الجمعية وحضر الوزراء وكبيرهم (بطرس باشا) وغص المكان بالمتفرجين من كل طبقة وصنف . وجلس صبية المدارس الأميرية فى مقاعد الكبراء وأصحاب الوجاهة بلا اكتراث ولا وقار وبينهم السواد الأعظم من أذناب (الحزب الوطنى) وغوغائه ، وجلهم ملتف حول شاب من الحلقة الثانية من العمر يقال له (إبراهيم الوردانى) . وبعد لحظة لطيفة قام الرئيس فافتتح الجلسة وبسط الموضوع فوقفت[٩٨] المناقشة وقام المتكلمون وطال سؤال (الوزير بطرس باشا) وهو بضحض[٩٩] الحجة بالحجة ويفند البرهان بالبرهان . وكان أكثر الأعضاء كلاما وتقريعا (الصوفانى بك) وأشدهم حماسة وتطيرا (اسماعيل باشا أباظة) والوزير رابض الجأش قوى الشكيمة مع التأدب ورقة الجانب ، وهو مع كل هذا يقول للقوم إبحثوا ونقبوا ما شئتم فمصلحة البلاد رائدى ورائدكم . وكان صبية المدارس وغلمان(الحزب الوطنى) إذا رأوا حجة الوزير راجحة وبرهانه قوى امتعضوا وكادوا يخرجون عن حدهم . وظهر بينهم الهرج حتى هم أحدهم (الوردانى) برفع صوته بالسب والشتم وتقبيح عمل الوزير لولا حيطة حجاب المكان وهيبته . واجتمعوا ثانية وثالثة ورابعة ، وفى كل اجتماع يشتد اللجاج ويعظم الحجاج بين وزير الخزينة والمجمعون على إبطال هذا المشروع ومن ورائهم أصحاب (الحزب الوطنى) وضجة رئيسه(محمد فريد) وإمامه(عبد العزيز شاويش المغربى) . ووقف العمل عند هذا الحد (والسير غورست) عميد الاحتلال يتغلب[١٠٠] على آرائه بين

---

(٩٨) فوقفت = فوقعت قراءة ترجيحية .
(٩٩) بضحض = يدحض قراءة تصحيحية .
(١٠٠) يتغلب = يتقلب قراءة ترجيحية .

الفريقين كمن لا ناقة له فيها ولا جمل . قالوا ومع ذلك فقد كان يشير على نفر من أعضاء الجميعة التشريعية الملتفين حوله بأخذ الأمور بالعزم والشدة حتى لا تبلغ دولة الفرنسيس مأربها ولا تنال من إطالة أجل التزام القناة وطرها . وكان إذا اجتمع بجماعة الوزراء امتدح عملهم وأثنى على غيرتهم وحبذ المشروع وأطرى نتائجه من سائر الوجوه . أقول وقد أهدانى صديقى (صابر باشا صبرى) كبير مهندسى الأوقاف العمومية رسالة فى عدم صلاحية هذا المشروع وأضراره بالبلاد من الوجهه الاقتصادية ، وعزز رأيه بالأرقام والمثالات الجبرية والهندسية فألفيتها وافية بالغرض من وجهها الإقتصادى ولكنها بعيدة عن الصواب من وجهيها الإدارى والتاريخى لأسباب لاتغرب عن الباحث الملم بأطراف المشروع(١٠١) .

اقول ومن ذلك الحين إتخذ أصحاب (الحزب الوطنى) ومروجى آرائهم هذه المحنة معينا لهم على محاربة الهيئة الحاكمة ومناوأة (الوزير الكبير بطرس باشا) ما استطاعوا . وأعانهم على ذلك ما كان بين الوزير (ومحمد سعيد باشا)(وسعد باشا زغلول) من الوحشة والنفور ، فجعلوا ينادون بالويل والثبور وعظائم الامور . وظلوا على هذا أياما فظهرت فيها الفتنة بكامل معانيها أو كادت . يقال وكلم (السير غورست)(الوزير بطرس باشا) فى ذلك وحذره من العاقبة ، وكلم الأمير ايضا من أن المشروع كان قد وقف عند ذلك الحد . وكان أصحابه من جماعة الفرنسيس كمن قمسوا فى الماء أو عُرِجَ بهم إلى عنان السماء . وجاءت الى (بطرس باشا) كتب التهديد ورسائل الوعيد ركاما وكلها أيمان مغلظة بالله ورسوله بانه سيقتل شر قتلة ، حتى لقد أخبره يوما (محمد سعيد باشا) أنه

(١٠١) انتهزت شركة قناة السويس فرصة احتياج الحكومة إلى المال فى ذلك الوقت ، فعرضت على الحكومة أن تصرح لها بمد امتياز قناة السويس ٤٠ عاما أخرى مقابل أربعة ملايين من الجنيهات . كان (بطرس باشا غالى) و(السير الدون جورست) والمستشار المالى يميلون إلى الأخذ بهذا العرض ، لكن الرأى العام كان يعارض وبعض النظار (سعد زغلول - حسين رشدى - محمد سعيد) ، وطلب الكثير من الشخصيات العامة وقتئذ عرض المشروع على (الجمعية العمومية) ، وكذلك طلب (حزب الإصلاح على المبادىء الدستورية) . كان الخديو يخشى أن يؤدى هذا المشروع إلى تفاقم الأوضاع بالنسبة (لبطرس باشا غالى) وبعث إليه يحذره من أن الرأى العام لم ينس (حادثة دنشواى) بعد . لكن (بطرس باشا) كان مصرا فيما يبدو على تحقيق هذا المطلب بحسبان أن (جورست) قد طلب تنفيذه ، لكنه وافق - مع هذا - على عرضه على الجمعية العمومية التى دافع أمامها (سعد زغلول) عن المشروع وفقا لاتفاق كان قد تم فى مجلس النظار ، لكن (الجمعية العمومية) رفضته بأغلبية كبيرة .
- أحمد شفيق باشا (مذكراتى فى نصف قرن) - مرجع سبق ذكره - ج٢ - ص ١٨٦ - ١٨٨ .

عول على اقامة جماعة من (أصحاب الخفية) المعروفين (بالبوليس السرى) على خفارته وحراسة داره وعربته أينما صار . وقال (إن كتب الوعيد تأتينى فى كل يوم بغير خوف ولا مبالاة) فلم يلتفت الوزير لقوله ولم يسمح لأحد بحراسته ولا الوقوف ببابه . وشاع خبر ذلك وتحدث الناس به فى السر والعلن وهو لايرعوى ولا تأخذه أخذة من الخوف . وقامت رسل الحزب الوطنى ودعاته الى البلاد شرقا وغربا وشمالا وجنوبا تستحث الناس على إرسال الرسائل على جناح البرق الى قصر الإمارة وديوان الوزارة بترك ذلك المشروع وعدم العمل به جملة لما فيه من الضرر بمصلحة البلاد وهم لا يعرفون من أمره شيئا ، حتى جات كتب تلاميذ المدارس الاميرية على اختلافها إلى ديوان الإمارة فى معنى ذلك ايضا ، وكتب غيرهم من أهل البلاد . واستهوت صحف الحزب الوطنى بعض الصحف الأجنبية ولا سيما بعض الصحف الإنجليزية المعادية للسياسة الفرنسية فقامت صيحتهم وأخذت (الوزير بطرس باشا) من كل جانب وهو ساكن القلب هادىء اللب . والعجب من (الباب العالى) الذى لم نره يوما يهتم بأمرٍ ما من أمور البلاد قد جاءت كتب (صدره الأعظم) الى قصر الإمارة فى طلب تفصيل المشروع ليكون موضوع البحث والأخذ والرد . فأجابه وزير الخزينة بأن المنوى عمله هو عقد قرض يقدم دخل القناة ضمانة عنه بعد انقضاء أجل الإمتياز ويكون مضمونا للشركة ربح صاف قدره خمسين الف الف فرنك وهو الربح الذى توزعه الشركة الآن على حاملى سنداتها . فلما جاء الرد الى (الصدر الأعظم) ارسل يقول أن سيرفع الامر إلى المرجع الأعلى .

ووافق عيد ملك الانجليز (إدوارد السابع) اليوم السادس والعشرين من شوال سنة سبعة وعشرين وثلمثائة وألف تاسع نوفمبر من السنة أى سنة تسعة وتسعمائة وألف للميلاد ، فاحتفل جماعة الإنجليز وعميدهم وجندهم بذلك اليوم إحتفالا عظيما ورفع سائر قناصل الدول أعلامهم وخرج جيش الإحتلال من منازله الى ميدان قصر الإمارة حيث استعرضه (السير غورست) . وكان (الجنرال مكسويل) يقود الجند فى ذلك اليوم . ولما وصل (السير غورست) بعربته وقف تحت العلم الإنجليزى المنصوب جنوبى ساحة القصر فحيته الموسيقات وأدت له الجند التحية العسكرية وأطلقت المدافع من قلعة الجبل .

وأطل الأمير وحوله جماعة الوزراء والكبراء من شرفة القصر فحيته الموسيقات بنشيد الإمارة وشهرت الجند السلاح . ثم جعلوا يسيرون صفوفا تتقدمها الموسيقات والفرسان وأصحاب المدافع ثم المشاة ، وبعد أن داروا دورتهم عادوا الى مواقفهم فمر (السير غورست) (والجنرال مكسويل) على تلك الصفوف ، فصاح الجند بالدعاء للملك ثم ساروا إلى منازلهم . وكان صاحب الشرطة ومحافظ البلد قد اتخذا الحيطة لمنع وقوع ما يكدر صفو الراحة وقد عرفا أن (صبية مدرسة[١٠٢] الحقوق الأميرية) قد عولوا على إحداث حدث ساعة الإستعراض . فبرز الأمر يوضع حواجز من الحديد فى وسط حديقة المدرسة لتمنع أولئك الصبية من الاجتماع خارج المدرسة قبالة ميدان القصر ، ولكن ذلك لم يمنع اولئك الغلمان من الاجتماع خارج المدرسة قبالة القصر ومعهم الغوغاء وأهل البطالة . فلما أن صاح جند الإنجليز ثلاثا بالدعاء للملك صاح التلاميذ عاليا جدا (ليحيا السلطان) (ليحيا الخديوى)(ليحيا الإستقلال) ، فتبعهم العامة والغوغاء ينادون (ليحيا الحزب الوطنى) (ليحيا محمد بك فريد) (ليحيا الشيخ عبد العزيز شاوريش) . ثم طفقوا يزأطون ويترامحون بعضهم خلف بعض وهم يتغنون بشىء من أغانيهم السمجة الخارجة عن الأدب . وكانوا اذا صادفوا فى طريقهم أحدا من نساء النزلاء الأجانب هزوا لها رؤوسهم وتضاحكوا كأنهم يضمرون لها السوء . وبرز الأمر إلى أصحاب الشرطة ففرقوا تلك الجموع وأمروا تلاميذ المدرسة بالإنصراف . فتباطأوا وأغلظ بعضهم فى القول الى أصحاب الشرطة ثم تفرقوا وراحوا أدراجهم .

وظهرت الحركة بين أفراد (الأمة القبطية) بسبب عدم موافقة بطريركها على تحقيق بعض التهم الموجهة الى رئيس (دير المحرق) بالصعيد الأعلى ووكيله وضبط حساب الدير ومعرفة مابدده الرئيس فى البذخ والترف واقتناء التحف وبناء القصور وغير ذلك من الأمور التى لا تنطبق على كرامة الوظيفة ولا أوامر الدين . وطال الأخذ والرد بين البطريرك وأصحاب الجمعيات والمنتديات الأدبية أياما لم يقف فيها الفريقان عند حد ، حتى لقد

---

(١٠٢) يلاحظ أن ضيق (شارويبم) من الحزب الوطنى (وأذنابه) و(زعانفه) كما اعتاد أن يسميهم فى تاريخه ، قد امتد إلى طلبة (مدرسة الحقوق الخديوية) الذين كان لهم دور كبير فى المظاهرات السياسية التى كانت تحدث خلال سنوات العقد الأول من القرن والتى يسجلها هذا العمل . ويبدو هذا الضيق من وصفه لطلبة هذه المدرسة (بصبية مدرسة الحقوق الأميرية) ، (والغلمان) .

اهتم لها أهل الحل والعقد اهتماما كبيرا . وكان بعض القوم يحنون[١٠٣] على الوزير الكبير (بطرس باشا) باللائمة لتركه الأمور تجرى فى أعنتها وهو خلى البال منها جملة . فلما كان سابع ذى القعدة من السنة عشرى نوفمبر سنة تسع وتسعمائة وألف اجتمع جمهور كبير من الأقباط فى حديقة الأزبكية وقاموا بمظاهرة كبرى خطب فيها الخطباء وتكلم المتكلمون وصاحوا صياحا كثيرا . ثم ساروا منها الى الدار البطريركية وورائهم العامة . ووقف خطباؤهم تحت مقر البطريرك ونادوا بالويل والثبور وعظائم الأمور ، وتكلموا كثيرا فى ما آلت إليه حالة الطائفة من جراء عناد البطريرك ووقوفه فى طريق كل عمل مفيد وقفة الجبار العنيد . ثم سار وفد منهم إلى مكتب الإشارات البرقية وأرسلوا الى أهل الحل والعقد يقولون أن جمهور الاقباط المجتمعين اليوم بما لهم من حق النظر فى أمورهم الطائفية والدينية يطلبون إيقاف(باخوميوس) أسقف (دير المحرق) وكيله (إيزوروس) عن مباشرة شؤون الدير وتحقيق التهم المنسوبة إليهما بمعرفة النيابة العمومية(كذا) ، ويطلبون حل إدارة أوقاف (الديارات) تحت مراقبة (المجلس الملى) العام ووضع اللازمة[١٠٤] سنويا عن أحوالها ونشرها على الجمهور ، ويطلبون تعيين لجنة للنظر فى حالة الرهبان وما يمكن عمله لتحسينها من كل وجه ، وتوسيع دائرة العلوم الدينية والأدبية التى يجب أن تدرس لهم بواسطة رجال أكفاء . ثم خرجوا من (الدار البطريركية) وقد ألفوا موكبا ساروا به من الدار البطريركية الى (شارع الفجالة) تتقدمه راية سوداء كتبوا عليها بحروف عريضة (ليمح العار) (ولتسقط الاشرار) . وسار خلف تلك الراية ثلاثة من رهبان (دير المحرق) الذين نالهم أشد الإيذاء من رئيسهم ولم ينصفهم البطريرك بل طردهم طردا معيبا . فلما وصل الموكب الى الأزبكية اجتمع جمهور كبير للغاية فخطبوا . وكان ممن خطب فيهم (الراهب إيليا) أحد اولئك الثلاثة معرضا برؤساء الدين[١٠٥]وخطب غيره . يقال ولما ذهبوا الى الدار البطريركية برز الأمر بقفل الأبواب جميعها فقفلت ، ولكن ذلك لم يمنعهم من الوقوف تحت نوافذ مقر البطريريك وقالوا ما قالوه ، وعينوا وفدا لمقابلة البطريرك مع أحد رجال الشرطة فلم يرض بمقابلتهم ، فسيروا وفدا الى دار (الوزير

(١٠٣) يحنون = ينحون قراءة لغوية .
(١٠٤) اللازمة = البيانات اللازمة أعدت الصياغة هكذا ليفهم المعنى .
(١٠٥) الدين = الدير قراءة اجتهادية .

بطرس باشا) فلم يجدوه . وكانت المظاهره غاية من الشدة مع النظام . فلم ير صاحب الشرطة مساغا للوقوف فى سبيلها ولا منع اصحابها من إظهار ما فى نفوسهم من الكمد الدائم والحزن الملازم . والحق يقال أن ما عرف به البطريرك من الزهد والتقوى فى ايام شيخوخته لم يكن شيئا مذكورا فى جانب ما هو عليه من العناد والإنتصار لحرقة[١٠٦] الإكليروس بحق وبغيرحق ، فضلا عن انقياده لدسائسهم والأخذ باقوالهم بغير بحث ، ولا تدرى حتى صار بينه وبين ابناء طائفته هوة سحيقة لا يمكن اجتناب مخاطرها كما يقول العارفون .

حدثنى أحد شيوخ الطائفة يومئذ قال (لست أكتم عنك حديث ما يعانيه أبناء طائفتى من الكمد والحزن الملازم بسبب تصرفات بطريركهم وعناده وسعيه المتواصل وراء فساد كل عمل صالح وسرعة محمودة لخير الطائفة وفلاحها وتقدم مدارسها ورقى مدارك أبنائها والاحتفاظ بما لها من المنزله السامية الموروثة عن آبائهم الأولين . وليس ذلك فقط فقد ابتلى بنكران كل جميل والإحتجاب عن الناس وعدم المبالاة بما آلت اليه حالة تلامة[١٠٧] من التدهور السحيق) . قال (ولقد سمعته يوما يقول إلى شاك من تلك الحالة ، لست بأقل صبرا ممن سبقونا ولا أكثر اهتماما بشؤونكم الطائفية حتى ولو لم يبق منكم غير عجوز فانية لكفتنى بخبزة من عجنتها ، فقل لى بحقك ما الذى ترجوه من هذا الشيخ الفانى بعد ما أن رسخت فى صدره هذه الملكة الشائنه المعيبة) أ . هـ . وبلغت الأزمة أشدها وعلم الأمير بخبرها فسير فى طلب البطريرك إلى قصره . فأرسل الى تشريفاتى القصر يقول أنه لم يجسر الخروج من صومعته خوفا من الشبان الذين يخشى تطاولهم عليه ، فبرز الامر بأن تخفر عربته أربعة من فرسان صاحب الشرطة فى القصر[١٠٨] . فى [١٠٩] حادى عشر ذى القعدة من السنة فلبث بحضرة الأمير ساعة كلمه فيها عن نبذ الشقاق والعدول عن تلك المشاغبات الشائنة والرجوع الى عادات السلف الصالح فوعد وانصرف وهو وشأنه أو يريد[١١٠] .

(١٠٦) لحرقة = لحرفة قراءة اجتهادية
(١٠٧) تلامة = الأمة « «
(١٠٨) فى القصر = فى طريقه إلى القصر أعدت الصياغة كذلك ليستقيم المعنى .
(١٠٩) فى = وذهب فى أعدت الصياغة هكذا ليستقيم المعنى .
(١١٠) أو يريد = أو ما يريد قراءة ترجيحية .

بلغت غطرسة أصحاب (الحزب الوطنى) وشيخه الشيخ (عبد العزيز شاويش) فى هذه الآونة الملأى بالقلاقل والإضطرابات الداخلية ومنازعات اعضاء شورى القوانين للهيئة الحاكمة فى السر والعلن وتقلب أمير البلاد وتطوره من حال الى حال ، بلغت حدا لا نظير له فيما مضى . فكانوا لا ينفكون عن الحركة والتطواف على سوت اعضاء شورى البلاد ولا يتركون أصحاب الحل والعقد يصرفون الأمور كما تقتضيه الحال . بل كانوا إذا رأوا منهم حركة قاموا وقامت صحفهم تبدى وتعيد وأخذت جماعة الوزراء من كل جانب . فلم يكن يشغلهم عن هذا كله إلا ما كانوا يعدونه من المآدب والولائم بعضهم لبعض وما كان يعده لهم أو لبعضهم المحازبين والأنصار . من ذلك أنهم أقام بعضهم حفلة عظيمة الى شيخهم (عبد العزيز شاويش) فى الفندق الإنجليزى المعروف (بفندق شبرد) سموها (بالحفله الوطنية) ولا أدرى ما غرضهم من عمل هذه (الحفلة الوطنية) فى ذلك النزل الإنجليزى إلا اذا كانوا يقصدون بذلك إعلاء منزلة الشيخ فى أعين جماعة الإنجليز النزلاء فى ذلك النزل ، أو ربما كان لغرض اخر لا يعلمه إلا المقربون من شيخهم ذلك . فلما كان اليوم الموعود ألفت (جمعية الإتحاد الازهرى) وهى جمعية من مجاورى الأزهر ، موكبا سار من (ميدان باب الخلق) إلى عابدين فشارع الدواوين يتقدمه علم أزرق كتب عليه (جمعة الإتحاد الأزهرى) ولم يكن عددهم يقل عن ألفين من المعممين

ولما وصلوا إلى دار طباعة (اللواء) صاحوا عاليا بالدعاء للشيخ(عبد العزيز جاويش) ولرئيس (الحزب الوطنى) وللاستقلال ولمصر ، ثم واصلوا السير إلى ميدان (ملعب الأوبرا) إلى أن وصلوا أمام (فندق شبرد) فأركزوا علمهم فى الجهة الغربية ووقفوا صفين على جانبى الطريق وأصحاب الشرطة من أمامهم ومن خلفهم . وما هى إلا برهة حتى أقبل (الشيخ جاويش) فى سيارة ومعه ثلاثة من كبار الحزب فصاح القوم له الدعاء وتهافتوا عليه يريدون تقبيل يديه ، وأقبل جماعة كثيرة من (تلاميذ مدرسة الحقوق) فالتفوا حوله وهم يزأطون ويتراطنون بالفرنسية والإنجليزية وغير ذلك مما لا هو من هذا ولا من هذا ، فأفلت الشيخ منهم وأسرع حتى استلم درج النزل . وأخذ أصحاب الشرطة يمنعون الناس عن التدفق الى باب النزل ، ووقف الموكلون بحراسة الباب يمنعون من دخول أحد إلا إذا كان بيده تذكرة دعوة . ودخل مائتى مدعوا ملأوا القاعة وبينهم بعض

السياح والسايحات من الإنجليز . وفى هذه الاثناء أقبل صاحب الشرطة فى ملابسه العسكرية ودخل النزل فخلعها ولبس لباسه الملكى واختلط بالناس . وفيما هم على هذا إذ أقبل الأمير بموكبه فصاحوا (لتحيا مصر ليحيا الاستقلال) . وكان لما دخل المدعوين قاعة الاحتماع قدموا لهم الشاى والحلوى . ثم وقف (أحمد بك لطفى) المحامى وبين غرض الإجتماع وشكر الحاضرين وقدم المحتفل به . ثم قام (محمد بك فريد) رئيس الحزب فتلا خطابا ذكر فيه فضل المجاهدين فى الوطنية الذين لا يميت الحبس والإضطهاد ثمرة عملهم بل يحييها ، وذكر فضل الشيخ المحتفل به الذى لا يقول إلا ما يعتقد . إلى أن يقول[١١١] (إنا مستعدون لتضحية ذواتنا فى سبيل الجهاد إذا أكرهونا على ذلك فى جهادنا السلمى) . ثم تطرق إلى ذكر الدستور . وجاء يحيى باشا [١١٢] وأباظة باشا المجاهدين فى مجلس الشورى الآن جهاد الوطنيين الصادقين مع كبير الوزراء . ثم أنحى على كبير الوزراء باللائمة وأشبعه وخزا وطعنا وتسفيها ورماه بالاشرة[١١٣] والإستبداد . وتلاه (اسماعيل الشيمى) فقال إن سجن قائل الحق يعنى(الشيخ عبد العزيز جاويش) دليل على قوته وعلى ضعف القول فيهم [١١٤] ذلك القول . ثم تطرق إلى المدنية الإسلامية التى ستكون سبب حياة الشرق ونهوضه ، ومدح تلك المدنية التى تجعل الإنسانية تعسة كتعاسة [١١٥] شخص واحد لا كالمدنية الأوروباوية الشقية التى تجعل سعادة الإنسان قائمة على تعاسة أخيه . قال ومدنية الإسلام لا تعرف وطنا ولا

---

(١١١) يقول = قال قراءة لغوية .

(١١٢) وجاء يحيى باشا وأباظه باشا المجاهدين فى مجلس الشورى الآن جهاد الوطنيين الصادقين مع كبير الوزراء = وحيا يحيى باشا وأباظة باشا المجاهدين فى مجلس الشورى الآن جهاد الوطنيين الصادقين ضد كبير الوزراء .
أعدت الصياغة على هذا الشكل لتتفق مع أحداث الفترة التى يسجلها المؤلف . فإسماعيل أباظه باشا وأحمد يحيى باشا (الذى ذكره شارويبم) كانا - إلى جانب حسن عبدالرازق باشا ومحمود سليمان باشا وعلى شعراوى باشا ، وجميعهم من أعضاء مجلس شورى القوانين - كانا يعملان بأقصى جهد لتتمتع مصر بدستور يشرك الأمة مع الحكومة فى إدارة البلاد . وكان (أحمد يحيى باشا) يسعى إلى جانب ذلك ، لجمع كلمة أعضاء مجلس شورى القوانين فى شأن القضايا التى كانت تشغل بال الرأى العام والمجلس ، كما كان من بين الأعضاء الذين طالبوا بطرح موضوع مد امتياز شركة قناة السويس على مجلس شورى القوانين للتعرف على رأى الأمة فيه . لذلك فإنه كان طبيعيا أن يحيى (محمد فريد) فى خطبته جهود (إسماعيل أباظه) و (أحمد يحيى) .
- أحمد شفيق باشا (مذكراتى فى نصف قرن) الجزء الثانى - ص١٥٢ - ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٨٦ ، ١٨٧ .

(١١٣) بالأشرة = بالأثرة قراءة ترجيحية .

(١١٤) القول فيهم ذلك القول = خصومه أعدت صياغة العبار لكى يستقيم المعنى .

(١١٥) كتعاسة = لتعاسة قراءة اجتهادية .

حدا فهى تتناول الإنسانية كلها خلافا لمدنية أوروبا التى تشقى بها أمم وتسعد أخرى كما يشقى المصريون بالإحتلال . ثم وجه نظر السيدات الحاضرات ليكن خير واسطة بين مصر وما فى ديار اوروبا من الراحمين العادلين .

ثم تلاه (على فهمى كامل) فقال أنه لم يستعد للخطابة ولكن هذا المنظر استفزه ليقول أنهم سجنوا الشيخ ليتألم فتعلم إذ خالط الطبقة الدنيا فى الحبوس بعد ما خالط الطبقة العليا فى قضاء الحرية فعرف طرفى الأمة وعاد أقدر على خدمتها وأرشد للمطالبة بحقها . قال (وإذا كنا نقدم له هذا النشان التى تهديها الأمم قليلة[١١٦] عزيزة جدا ، أما النياشين التى تهديها الحكومات فهى تملأ الشوارع ونعرف لها ثمنا[١١٧] الخ . ثم قال للشيخ قم والبس نيشانك الشريف السامى . وعند هذا القول وقف (أحمد لطفى المحامى) وقدم النيشان للشيخ وهو عبارة عن صفيحة من الذهب كتب عليها نيشان الشعب المقدم (للأستاذ الشيخ عبد العزيز جاويش) جزاء جهاده ، وفى أعلا هذه الصفيحة أزهار من الماس وهلال من الذهب معلقة على شريطة زرقاء وبيضاء تتدلى من العنق الى الصدر .

وبعد ذلك وقف (الشيخ جاويش) والدمع يجوز[١١٨] فى عينيه واستهل كلامه بقوله

بلادى وإن جارت على عزيزة وأهلى وإن ضنوا على كرام

ثم جعل يسرد خطابا طويلا . وكان وقت الإنصراف قد حان قبل أن يتم خطابه . وكان قد قال بلهجة الغاضب أنه لدينه ووطنه وشعبه وأمته يقدم نفسه فداء . وهو لم

---

(١١٦) قليلة = فهى قليلة قراءة اجتهادية .

(١١٧) يُعَرِّض (على فهمى كامل) هنا بفضائح الرتب والنياشين التى كان (الخديوى عباس) يمنحها للراغبين بمقابل والتى أشار إليها (أحمد شفيق) فى حولياته أكثر من مرة تحت مسمى (فضائح فوضى الرتب) ، والتى قرر فيها أن وسطاء الخديو فى هذه المسألة كانوا الشيخ على يوسف وحسين بك زكى وأحمد بك العريس وإبراهيم بك المويلحى والشاعر أحمد شوقى بك . كما ذكر أنه كان لكل رتبة سعر يدفعه الطالب ، فالرتبة الثالثة يدفع عنها ٢٥٠ جنيه ، والثالثة مع لقب بك ٣٠٠ جنيه ، والثانية ٤٠٠ جنيه ، ورتبة المتمايز ٥٠٠ جنيه .
– أحمد شفيق باشا (حوليات مصر السياسية) ج٢ ـ ص٨٠٧ فى حوادث سنة ١٩٠٣ ، ٤٣ فى حوادث سنة ١٩٠٤ ، ١٤١ فى حوادث سنة ١٩٠٨ .

(١١٨) يجوز = يحور قراءة ترجيحية ينحدر (حار الماء فى الغدير) .
– المعجم الوجيز ـ مرجع سبق ذكره ـ ص١٧٧ .

يطمع بالدنيا وما فيها ، ولو انه كان طامعا لقبل الأموال التى قدمت اليه كما يعرف ذلك أصحابه العديدين ، ولكنه طالب بالحق لايرده عن الهجربه(١١٩) راد ، وإذا كانوا قد قالوا له أنه حكم عليه ظلما فهو يرى حكم الشعب الآن فوق كل حكم . ولقد كان فى سجنه كما كان فى حريته ببحث وينقب ويكتب فلم يضره السجن . إلى ان قال . . . ثم تكلم بالإنجليزية فشكر السياح . ثم انصرف المدعويين وتبعهم الشيخ وأصحابه . فقابله جمهور الأزهريين بصياحهم وضجيجهم ساعة ثم انصرفوا جميعا .

ولما كان تاسع عشر ذى القعدة من السنة ثانى ديسمبر سنة تسع وتسعمائة وألف إحتفلوا بطلعة المحمل احتفالهم المعتاد . فهرع الناس فى صبح ذلك اليوم الى (ميدان قراميدان) حيث (مصطبة الحج) وكذلك الأمراء والعلماء وأصحاب العكاكيز . وعند الساعة العاشرة صباحا أقبل الأمير فى موكب حافل بالجند وعلى يساره (الوزير الكبير بطرس باشا غالى) وأمامه وزير المعارف ووزير الحقانية وخلفه جماعة الوزراء . وعند وصوله الى الميدان هتف له الجند بالدعاء وصدحت الموسيقى بالنشيد الأميرى وأطلقت المدافع من قلعة الجبل . ثم دار المحمل دوراته الثلاث فى وسط الميدان ، ثم وقف الجمل أمام الأمير فتناول خطامه وقبله ثم سلمه الى الأمراء والوزراء والعلماء فقبلوه ، وبعد ذلك تسلمه أمير الحاج . وانقضى الإحتفال وعاد الأمير بموكبه الى قصر الإمارة وسار المحمل من الميدان الى العباسية تحرسه جماعة الجند وأصحاب الشرطة . وجعل أصحاب القصر من ذلك اليوم يعدون معدات السفر والحج للأمير وبطانته . وأصبحوا وقد سيروا بما أعدوه قطارا خاصا الى مدينة السويس . وكانت الباخره (أصوان) راسية فى القلزم فأنزلوا بها متاع الأمير مع المحمل فقامت بما عليها الى (جده) .

فلما كان يوم ثلاثين ذى القعدة من السنة ثانى عشر ديسمبر عام تسعة وتسعمائة وألف قام الأمير صباحا الى مدينة السويس ، ومعه حاشيته وبطانته ورجال ديوانه وجماعة كثيرة من الخدم والأتباع ، وقامت معه والدته وبنته (عطيه هانم)(وفتحية هانم) وابن عمه (كمال الدين باشا) وعمته (فاطمه هانم) . وكانوا قد أعدوا لركوبه اليخت (محروسة) فى ميناء السويس . لوداعه(١٢٠) بالسويس أعضاء الجمعية التشريعية ورئيسها

(١١٩) الهجربه = الجهر به   قراءة اجتهادية .
(١٢٠) لوداعه = ووقف لوداعه   أعيدت الصياغة لتتفق والمعنى .

(الأمير حسين) ابن (الخديوى اسماعيل) ووفود الأقاليم والمديريات والمحافظات . ثم ركب الباخرة فسارت بهم أجمع الى (جدة) حوالى الساعة الثالثة بعد ظهر ذلك اليوم . وكان قد برز الأمر الى الوزير الكبير (بطرس باشا) بولاية الغيبة فتولاها . فكانت تأتيه فى صبح كل يوم أخبار ركب الامير وسيره فينشرها على الناس تباعا .

أقول لقد قرأنا كثيرا ما كانت تأتينا به صحف الغرب الكبرى من اخبار ذلك الحلم الذى طالما حلمت به الانسانية وهو طيران الإنسان فى الهواء ومجاراته لملوك الجو ، فكنا بين مصدق ومكذب ولكنا الى التصديق اقرب لما نعلمه من بلوغ العلم والإختراع فى ديار الفرنجة ما وراء الغاية . ولكننا كنا نقول ما راء [١٢١] كمن سمع ، حتى جاءت فى هذه الآونة صحف أولئك القوم منبئة بعزم (البارون ده كاتريتس) أحد نوابغ البلجيكيين الذين أدهشوا العالم طرا بفنونهم الغريبة واختراعاتهم العجيبة على الحضور الى مصر ليرى اهلها كيف هو يطير بطيارته ويحلق فى الجو كما يحلق الباشق[١٢٢] . وتفشى خبر ذلك بين الناس ففرحوا به فرحا عظيما وصاروا يرقبون وصوله ويتحدثون بأمره فى مجتمعاتهم ويرجون قرب حلوله ضيفا فى ديارهم . فلما كان سادس ذى الحجة من السنة تاسع عشر ديسمبر شاع خبر وصول الرجل الى القاهرة وأنه على عزم يطير[١٢٣] بطيارته فى العباسية بعد ظهر ذلك اليوم . فهرع الناس من كل صنف ورتبة الى ذلك المكان واحتشدوا فى نواحى العباسية لمشاهدة ذلك الطيار ، وكانوا قد أعدوا له مكانا مزينا بالأعلام والموسيقات تصدح والزحام على أشده وكلهم متجه الأبصار الى مضرب قام فى صدر المكان وفيه تلك الآلة المدهشة . أقول وقد تمكنا من فحص تلك الطيارة وفهمنا حركة آلاتها المختلفه كما قاله لنا البارون نفسه . وهى أشبه بالطائر لا تختلف عنه إلا بتضاعف الجناحين فإنهما بسطحين الواحد فوق الثانى ولذلك يسمونها عندهم باسم (ذات السطحين) تمييزا لها عن الطائرة ذات السطح الواحد ، ولها قوائم من خشب المران

(١٢١) ما راء كمن سمع = ليس من رأى كمن سمع   قراءة ترجيحية .

(١٢٢) نوع من جنس (البازى) ، من فصيلة العقاب النسرية . يشبه الصقر ويتميز بجسم طويل ومنقار قصير متقوس . جمعه (بواشق) .
- المعجم الوجيز ـ نفسه ـ ص٥٢ .

(١٢٣) يطير = أن يطير   قراءة لغوية .

الذى يمتاز عن سواه بالخفه والصلابة ، وهو مغلف بنوع من القماش . وفى وسط الطيارة بين الجناحين المحرك تتصل قوته بفراش يديره بسرعة ألف وأربعمائة دورة فى الدقيقة فتتولد بذلك قوة فى الطيارة تعادل قوة ثمانون حصانا . ولخفة الطيارة العظيمة فهى تندفع على عجلاتها الخلفية اندفاعا شديدا لا ينقص عن ستين أو سبعين كيلو مترا فى الساعة ومقابلتها مجرى الهواء ومصادمته تكفى لرفعها عن الأرض كما هو الحال فى الطيارات الورق التى يطيرها الصبيان . ومع ما نظن من بساطة أمر هذه الطيارة فقد قضى الإنسان ستة الاف سنة يبحث وينقب حتى وجده .

أما طول هذه الطيارة فعشرون متر وثقلها أربعمائة ثمانية وعشرين كيلو جرام منها ثمانية كيلو جرام ثقل الفراش وحده ، وهى من طراز طيارات (فوزان) الفرنسى واسمه مكتوب على مؤخرها . هذه حالة الطيارة على قدر ما وصلنا اليه من المعرفة . وأما صاحبها (البارون دى كاتيرس) فهو من أشراف البلجيك ذو ثروة طائلة وولع شديد بالإختراعات الحديثة وهو فى الرابعة والثلاثين طويل القامه وعلى جانب عظيم من البساطة .

وكان الهواء فى ذلك اليوم شديدا فقد بلغت سرعته إثنى عشر مترا فى الثانية فتعذر على الطيار الطيران لأنه كان يخشى على طيارته من العطب . وقد كان قد مضى على الجمع المحتشد ساعتان وهو ينتظر حتى استولى عليه الضجر . وكاد السواد الأعظم ينصرف . فلما صارت الساعة الرابعة بعد الظهر خرجت الطيارة ليشاهدها الناس ، وبعد هنيهة ارتفعت من ناحية كما يرتفع العصفور وأخذت ترتفع شيئا فشيئا حتى صارت على ارتفاع عشرين مترا ومخرت فى الهواء ذهابا وأيابا طوع إرادة راكبها . وظلت على هذا ساعة ثم هبطت هبوط الطائر فهتف لها الجمع المحتشد وصفقوا تصفيقا حادا جدا . وأقام ذلك البارون فى القاهرة أياما وهو يُرى الناس طيارته كل قليل من الأيام ويحمل بعضهم فيها بأجرة معينة ، ثم عاد إلى بلاده . ولقد نظرنا بأعيننا ولمسنا بأيدينا ما كنا فى ريب من الحصول عليه منذ بدء العالم إلى هذه الايام التى بلغ فيها العلم مبلغه فياسبحان الله . وشاع الخبر بسقوط (الرياح المنوفى) فتحدث الناس به كثيرا وحسبوا لسقوطه حسابا كبيرا . وهذا الرياح هو قنطرة ذات سبع عيون تتصل بالقناطر الخيرية من الجانبين ، وفى غرب هذ الرياح هويس للسفن والملاحة فمنزل السكن لمفتش الرى وعدة منازل للخدمة

وحديقة . ومهمة هذا الرياح رفع ماء النيل الى مناسيب ليجرى فى الترع ويروى إقليم المنوفية وإقليم الدقهلية . وكان الماء يرفع فى هذا الرياح وأمثاله من (القناطر الخيرية) الى منسوب إثنى عشر مترا . ومنذ أعوام أخذ اصحاب الرى من جماعة الانجليز برفع هذا المنسوب حتى بلغ ثلاثة عشر مترا ، ثم رأت متانة القناطر قوتها فظنت أنها تتحمل الزيادة الى خمسة عشر مترا . فلما كان ثالث عشر ذى الحجة من السنة سادس عشرى ديسمبر والماء متعال أمام هذا الرياح ومنسوبه يتجاوز مثله من الخلف بقدر ثلاثة أمتار ونصف إذ تعاظم الضغط عليه وظهر تحته فى الطبقة الأرضية بتبيت[١٢٤] شديد من الأمام . وماهى إلا برهة قليلة حتى انتشر فوران على وجه الماء من وراء الرياح كانت تنبعث منه رمال بيضاء هى رمال القاع ، حتى صار الرياح بسائر بنائه معلقا فى الفضاء لانحراف أساسه . قالوا ولم يكن بين ظهور (البتبيت) وفوران الماء من تحت الأساس وسقوط الجوار[١٢٥] سوى خمس عشرة دقيقة . ففى الساعة السادسة مساء من تلك الليلة سمع فى (القناطر الخيرية) دوى كقصف الرعود . فتراكض أصحاب الخدمة والناس فإذا بجدارى الرياح قد هبطا من الجانبين وانطبقا على الأبواب فحطماها ورقدا فى موضعهما ولم يبق منهما فوق الماء غير نصف متر . قالوا وكان الدوى يسمع ناتجا من تضارب العيون السبعة بعضها ببعض عند الهبوط دفعة واحدة وقد تشققت الأرض على مسافة أربعة امتار وتناول هذا التشقق الجدران السفلى .

أقول ولما جاء الخبر بما حدث إلى أصحاب الرى قاموا جميعا الى مكان الحادث ووجهوا عنايتهم إلى موازنة المياه فى ما وراء القناطر المتهدمة شمالا ، وفتحوا قناطر (النعناعية) (والقرنين) لذلك فتحول منها الماء إلى (الباجورية) فالنيل . وأقاموا سدا من الحجر والدبش قبلى القناطر ليخففوا عنها ضغط الماء . وجعلت السفن تمخر بنقل الحجر والمهندسون يراقبون تصرف المياه . وقد لطف الله بعباده فقد كان ذلك اليوم يوم سوق القناطر الخيريه ويتوافد إليه المئات والألوف من أهل القرى والمدن بدوابهم وأحمالهم وهم على ذلك من الصباح الى المساء وطريقهم ذلك الرياح . ومن العجب أنه

---

(١٢٤) بتبيت = لم أفهم معنى الكلمة ـ لكنها على أى حال تتصل بالخلل الذى جرى لهذا البناء الهيدروليكى ، ويحتمل أن يكون شيئا من أساسات القاع الذى يرتكز عليه الرياح المذكور .

(١٢٥) الجوار = الجدار قراءة اجتهادية .

تهدم ولم يكن فوقه فى تلك الساعة أحد قط فتأمل . ومما هو جدير بالذكر هنا والثناء المستطاب ما قام به جماعة من الشبيبة القبطية فى هذه الآونة المحفوفة بالمشاكل والمشاغبات الملية من إنشاء مستشفى خيرى مجانى مختص بالأمراض الباطنية والجراحة والرمد وأمراض النساء والولادة . واتخذوا دارا فسيحة (بحى القللى) أمام الدرب المعروف (بدرب الواسع) وقد زينوها بالأسرة الفاخرة والفرش والمقاعد المتقنة ومعدات التطبيب الكاملة ووسائل الراحة والعناية بالمرضى ، وأقاموا فى جوارها غرفة واسعة للعاقير والأدواء المختلفة . وتقدم لمعالجة المرضى نخبة من خير الأطباء خدمة حبية لوجه الله تعالى . فلما كان سابع عشر ذى الحجة من السنة أعلنت (الجمعية الخيرية) صاحبة هذا المشروع العظيم أن مستشفاها هذا الخيرى سيفتح منذ الغد للمرضى الفقراء من سائر الأجناس والعناصر وسيداويهم مجانا . فما تفشى خبره حتى أمَّهُ خلق كثير من الرجال والنساء والأطفال . فأدخلوا من كانت علته داعية إلى بقائه بالمستشفى . وقام أطباؤه بمهمتهم غير ناظرين إلا إلى وجه الله تعالى . فأفلحوا ومدحهم الناس وأثنوا على أعضاء الجمعيه وهى باقية زاهية عامرة بكل فقير وفقيرة إلى يومنا الذى نحن فيه .

وجاء الخبر على جناح البرق فى حادى عشرى الحجة من السنه أى سنة سبع وعشرين وثلثمائة وألف بأن النار قد شبت فى مخازن التبغ بجمرك الاسكندرية وتفشت فى جميع مخازن القسم القبلى منها تفشيا سريعا جدا ، فأحرقت كل ما كان مخزونا فيها من تبغ وتنباك ودمرت البناء . فجمعوا لإطفائها عشرات من المطافى ونصبوها حول المكان وجعلوا يكافحون النيران وهى تزداد اضطراما ويتطاير شررها الى كل ناحية وصوب . حدثنى صديق بما رآه من هول هذا الحريق بمكانه قال (كان المنظر هائلا مخيفا فكنت ترى الناس محتشدين مئات حول المكان وكأن على رؤوسهم الطير . وأقبل بحارة جميع السفن والمدرعات الأجنبية الراسية بالميناء يساعدون على أخماد النار ، فكانوا يكافحونها بكل شدة وعزم غير مبالين بلهبها المندلعة من نوافذ المكان . وظلوا على شأنهم هذا حتى الساعة الرابعة بعد نصف ليل ذلك اليوم حتى اخذت النار تهدأ شيئا فشيئا . وأصبحوا وقد خمدت تماما ، وبلغت خسارة الحريق زهاء الخمسمائة ألف جنيها ويزيد وما احترق من الطرود ستين ألفا عدا طرود أخرى من غير التبغ والتنباك .

وظهر الجفاء وسوء التفاهم بين الهيئة الحاكمة وجماعة المتطرفين من أعضاء مجلس شورى البلاد وهم نفر يدعون الوطنية والغيرة على مصالح البلاد أكثر من غيرهم . فقاموا يقّرعون الهيئة الحاكمة ويرمون بعض أعضائها بالخروج عن حدود وظائفهم ويتهمونهم بسوء النية وغير ذلك من الاعمال الشائنة . ففزعت الهيئة الحاكمة الى إيقاف هذه الجماعة عند حدهم بإبطال اجتماع المجلس وتعطيله إلى أجل . وتفشى خبر ذلك وتحدث به الناس وتحقق أولئك المتطرفين أنهم مغلوبين لا محالة . فاستصرخوا أصحاب صحف الحزب الوطنى واستأجروا أصحاب الصحف الأخرى الذين لا هم فى العير ولا النفير فهبوا إلى نصرتهم وصاحوا صيحتهم . وسعى أهل السعايات بين الفريقين وكثر ذهاب (الأمير حسين) رئيس المجلس الى كبير الوزراء بديوانه تارة وإلى داره أخرى ، وجلبة أصحاب (الحزب الوطنى) متواصلة لا تقف عند حد واجتماعاتهم بأولئك المتطرفين من أعضاء المجلس متتابعة . وظل الحال على هذا أياما (والأمير حسين) يسعى سعيه المحمود حتى زالت الوحشة أو كادت . وعلم جماعة المتطرفين أن لاغبار على الهيئة الحاكمة فى عملها الذى كانوا يعيبونه بعد إذ قام جماعة من المعتدلين وزيفوا (١٢٦) مدعياتهم وعابوا عليهم خطتهم تك جهارا . وظهر عقيب ذلك أن لنفر من جماعة الوزراء ضلع مع اولئك المتذرفين(١٢٧) ويد فى إقامة فتنتهم تلك لغاية يترصدونها . وعاد (الوزير الكبير بطرس باشا) الى ديوان الوزارة بعد انقطاعه أياما قلايل . وماهى إلا أيام بعد هذا حتى أعلن اصحاب (الحزب الوطنى) عزمهم على عقد مؤتمر من أعضاء الحزب وأتباعه ومريديه لتبسط فيه شؤون البلاد على بساط البحث والمفاوضة .

---

(١٢٦) وزيفوا = وكشفو زيف أعلت الصياغة ليستقيم السياق .
(١٢٧) المتذرفين = المتطرفين قراءة اجتهادية

عام ١٩١٠

مؤتمر الحزب الوطنى ـ تعطيل الصحف المعارضة ـ مشروع مد امتياز قناة السويس فى مجلس الشورى ـ المظاهرات المعارضة لمشروع امتياز قناة السويس ـ مصرع بطرس غالى رئيس النظار ـ تشكيل نظارة (محمد سعيد) ـ محاكمة ابراهيم ناصف الوردانى

أقول فذكرنى عمل هذا الحزب بعمل (الأفريكان) من أهل جنوب افريقيا ، وهم الإفرنج الذين هاجروا الى (جنوب أفريقيا) فاستعمروا (الكاب والناتال والأورنج والترنسفال) . وكانوا فى كل قليل يعقدون مؤتمرا يحضره مندوبوهم فيبحثون ويتفاوضون . ويظلون على هذا أياما طوالا حتى ينتهون من البحث والمكالمة فى شؤون عنصرهم وحكوماتهم وتأييد مطالبهم ونفوذهم وغير ذلك من أغراضهم ، حتى أصبحوا وهم قوة عظيمة فى القارة الأفريقية . فحاربهم الإنجليز أعواما كثيرة وقاتلوهم قتالا عظيما حتى تمكنوا من إخضاعهم بشروط لا محل لها هنا . وكأن أصحاب الحزب يريدون التشبه بأولئك القوم والنهج على منهاجهم . فلما كان صبح يوم الجمعة خامس عشرى الحجة من السنة وسابع يناير إفتتاح سنة عشرة وتسعمائة وألف للميلاد اجتمع المؤتمر فى دار (جريدة اللواء) . وكان صحن الدار مزدانا بالأشجار والأزهار ، وفى صدر المكان وضعوا صورة (مصطفى كامل) مؤسس الحزب . فقام (محمد بك فريد) رئيس الحزب وافتتح الجلسة بكلمة كعادتهم ، ثم تلوا خطابا من المستر (ويلفرد بلنت) المستشرق الانجليزى الذى كان مستشار أصحاب (الثورة العرابية) وسبب نكبة البلاد وانقلابتها ، وهذا الخطاب تضمن الثناء على أصحاب الحزب لوطنيتهم والتهانى الى رجال الشورى والحث على طلب حكومة مسئولة ومجلس نيابى . ثم قام الرئيس وتلا خطبة طويلة قال فيها إن الحزب يزداد تقدما وانتشارا وأنه يأمل أن تتحد الأمة كلها رغم دسائس الدساسين . ثم ذكر (قانون المطبوعات) الذى تقدم الكلام عليه فى غير هذا المكان ومظاهرة الشعب ضده ، ثم قال (إن اصحاب الشحنة شتتوا المتظاهرين الذين رأوا من الحكمة أن لايقاوموا لأن جيش الاحتلال كان مستعدا للمداخلة فى الأمر) ، ثم ذكر الأحكام التى حكم بها على بعضهم وأخصها الحكم الذى صدر على (أحمد افندى[1] حلمى) صاحب (جريدة

---

(١) كان (أحمد حلمى) هو الشخصية الثانية بعد (مصطفى كامل) فى (جريدة اللواء) ، ثم انفصل عنها وأصدر (القطر المصرى) اعتبارا من ١٩٠٨/٤/٢٤ . التزمت الجريدة بمبادئ الجزب الوطنى ، لكن الحزب فضل الإبتعاد عنها نظرا للمواقف المتطرفة من جانب صاحبها والتى خشى معها (الحزب) أن تسبب له ما لا طاقة له به . كانت (القطر المصرى) تتخذ من مهاجمة الاحتلال وإثارة الجيش المصرى ضده سياسة ثابتة ، كما تطرفت فى اتجاهاتها الإسلامية ، ودأبت علي مهاجمة (الخديو عباس) وتناوله سياسيا وشخصيا . ثم هاجمت الأسرة الخديوية بأكملها . قدم (أحمد حلمى) للمحكمة بتهمة (العيب فى حق ذات ولى الأمر والتطاول على مسند الخديوية المصرية والطعن فى نظام حقوق الوراثة فيها) . وفى ١٩٠٩/٤/١٥ حكمت محكمة السيدة زينب الجزئية على المتهم بالحبس لمدة عشرة شهور حبسا بسيطا وتعطيل جريدته مدة ستة شهور . وأمام محكمة الاستئناف (محكمة مصر الإبتدائية الأهلية عُدِلَ الحكم إلى الحبس سنة مع الشغل فى ١٩٠٩/٤/٢٩ . =

القطر المصرى) والحكم الذى حكم به على (الشيخ عبد العزيز جاويش) . . ثم ذكر وفود الحزب إلى دار السلطنة العثمانية وما لقوه هناك من الحفاوة والإكرام . وقال إن ما نالته الأمة من مجهودات الحزب فى هذا العام (علانية الشورى والجمعية العمومية) (وتعديل نظام محالس المديريات) وهى وإن كانت أمور طفيفة ولكنه يمكن الإنتفاع بها . قال، ونفذ العمل بسؤال الوزراء من اعضاء الشورى ، وأنحى باللائمة على جماعة الوزراء وقال أن مسألة (قنال السويس) أصبحت الأن بين يدى رجال السلطنة العثمانية ، والحزب يرجو ألا يوافقوا على المشروع . قال وقد تحقق اليوم أن الإنكليز يبذلون جهدهم لتغيير القلوب على (دولة آل عثمان)وشطر الدولة الى شطرين أحدهما تركى فى الشمال والثانى غربى فى الجنوب تحت حماية الراية الإنجليزية . قال ولكن تولية (حقى بك) مسند الصدارة مما يحول دون مساعيهم لإن وزراء الدولة باتوا من الشبان الأذكياء . ثم أشار بإرسال رسالة برقية الى الأمير (بالمدينة المنورة) تهنئة بعيد جلوسه وأخرى الى صدر الدولة احتجاجا على بقاء العساكر الإنجليزية فى ديار مصر ، وأخرى الى صاحب السياسة الانجليزية بالإحتجاج . فوافقوا على ذلك وارفض اجتماعهم .

وكان (حزب الاصلاح) الذى يرأسه (الشيخ على يوسف)(صاحب المؤيد) رأى فى سكوته عارا وشنارا . فاجتمع فى ثانى يوم اجتماع (الحزب الوطنى) فى ناديه وخطب رئيسه خطبة طويله عريضه أعرب فيها عن مسرته بجمع كلمة الاحزاب واتفاقهم على طلب الدستور . ثم ذكر تقدم شورى البلاد وفلاح مجالس المديريات ، وقانون المطبوعات واستنكره . وعرض بعض تاريخ مصر على عهد الأمير وذكر سفره إلى الحجاز وكيف

= وقد حوكم أحمد حلمى أيضًا فى قضية اشتهرت باسم (مظاهرة الحرية) فى ١٩٠٩/٤/٢٨ ، مع آخرين وحكم بحبسه ستة شهور حبسا بسيطا مع إيقاف التنفيذ ، لكن الحكم عُدِل فيما بعد بالحبس أربعة شهور حبسًا بسيطا .

ولقد كان لقضية أحمد حلمى رد فعل شديد فى الرأى العام المصرى ، وتابع المصريون تطورات موقف الرجل أمام القضاء باعتبار أن القضية هى قضية حرية الرأى . عادت (القطر المصرى) إلى الظهور بعد فترة التعطيل (١٩٠٩/١٠/٢٣) واستمرت تندد بالحكم الفردى وبحكم حكومة (بطرس غالى) .

وفى يناير ١٩١٠ عطلت المعتمدية البريطانية الجريدة عندما قرر مجلس النظار ـ مدفوعا بنصيحة البريطانيين بالطبع ـ الغاء الجريدة بتهمة (التعريض بالجناب العالى الخديوى والتعرض لكرامة الناس والطعن فى شرفهم) .

ـ سيد عشماوى (العيب فى الذات الملكية ، انهيار هيبة حكم الفرد المطلق ، الخديو ـ السلطان ـ الملك (١٨٨٢ ـ ١٩٥٢) ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ تاريخ المصريين ـ ٢١٧ ـ القاهرة ٢٠٠٢ ـ ص ١١٣ ، ٢٧١ ٢٧٥ .

هطلت الامطار فى ذلك الصعيد عند وصوله فتفاءل أهل الحجاز بمقدمه خيرا . وقال غير ذلك من الأقوال ثم تفرق جمعهم .

وظهرت فى هذه الآونه حركة لم يسبق لها مثيل فى الاعوام التى مضت . ذلك أنه لما اقترب يوم رأس السنه الهجرية أى سنة ثمانى وعشرين وثلثمائة وألف كثر لغط الناس وضجة الصحف المحلية وعلى الخصوص منها صحف الأحزاب بعزم الجمعيات الإسلامية على اختلافها والمعاهد الدينيه والأحزاب السياسيةعلى الاحتفال بذلك اليوم احتفالا يفوق الوصف . وأرسل اصحاب (نادى المدارس العليا) ترتيب احتفالهم بذكرى ذلك اليوم الى الصحف فنشرته ، وكذلك فعل (نادى النهضة النوبية) وهم (جماعة البرابرة الطهاة والفراشين والعربجية وغلمان البيوت) المقيمين بمصر ، (وجمعية الأزهر العلمية)(ونادى مدينة المنصوره)(ونادى مدينة بور سعيد) وغيرهم وكلهم يبالغون فى وصف حفلاتهم وفى حسن ترتيبها وإتقان نظامها . فظن العامة أن فى ذلك العمل سرا لا يعلمه إلا أصحابه . فكانوا إذا رأى بعضهم جماعة الفراشين يهيئون السرادق أمام أماكن تلك النوادى والمجتمعات ويرفعون الرايات ويعدون المقاعد والمصابيح وقفوا يضحكون أو يتهامسون ، وتكوفوا زمرا فيقع بينهم وبين الفراشين السباب وفحش القول ولا ينصرفون حتى يأتى أصحاب الشحنة ويفرقونهم ، وظلت الحركة على هذا حتى يوم الخميس أول المحرم .

ثم دخلت سنة ثمان وعشرين وثلثمائة وألف للهجرة

استهلت سنة ثمان وعشرين وثلثمائة وألف للهجرة بيوم الخميس ثالث عشر يناير سنة عشرة وتسعمائة وألف للميلاد وخامس عشر طوبة سنة احدى وعشرين وستمائة وألف للشهداء .

فصل

فى ذكر ما وقع فيها من الحوادث

كانت فاتحة حوادث هذا العام أن جاء جماعة من كبار ومشائخ عربان (سيوه) الى مدينة دمنهور وعددهم خمسة عشر ليجددوا عهد الطاعة والولاء للحكومة بعد الذى وقع

من احدهم المدعو (عثمان حبون) وحكم عليه بسببه بالإعدام شنقا وعلى آله وذويه ومن شاركه من العربان فى مقتل (متولى أفندى)(مأمور سيوه) بالاشغال الشاقة لمدد مختلفة . وكان قد قام الى سيوه من أجل ذلك صاحب الشرطة الغربية ومعه حملة عسكريه فأنفذ على (عثمان حبون) حكم الإعدام فى(سيوه) وأتى بباقى المتهمين إلى سجن دمنهور . فأقام اولئك المشايخ بدمنهور يوما وبعض يوم وجاءوا الى القاهرة فدخلوا على وزير الداخلية وأظهروا خضوعهم وحسن طباعهم للحكومه ، وطلبوا أن لا يؤاخذوا بذنب (عثمان حبون) ومن كانوا معه . فوعدهم الوزير خيرا ورسم (الوزير الكبير بطرس باشا) ببقائهم بالقاهرة حتى يرجع الأمير من حجه . وأراد بعض زعانف (الحزب الوطنى) الإجتماع ببعضهم ليتخذوا من أقوالهم علة للحمل على الهيئة الحاكمة بفحش القول ، فلم يمكنهم صاحب الشرطة بالقاهرة من ذلك وشدد على أولئك العربان بالتزام السكينة وعدم الإختلاط بالناس .

وجاءت الأخبار مبشرة بعودة الأمير من حجه فتسارع الكثيرين من سكان القاهرة ومصر الى عمل الزينات ورفع الرايات الكثيرة على أسطحة الدور والأماكن العامة وأماكن الحكومة والشوارع والميادين . وبالغوا فى ذلك كثيرا . وكان مما زينته اللجنة التى أقيمت لهذا العمل الطريق من (باب الحديد) إلى قصر الإمارة . فأقاموا فى طوله أشكالا جميلة من الأعمدة وأقواس النصر المنقوشة بأبدع الألوان وأتقن الصناعة ، وبينها ثلاثة أقواس (بميدان التياترو الأميريه) وعلى رأس كل منها رايات الدول المتحابة وبينها الراية الإيطالية ذات الالوان الفنيه وفى وسطها صليب من الحرير الابيض . فلما بدت هاته الصلبان للناظرين اجتمع زعانف الحزب حولها وأنضم اليهم السوقة وزعر العطوف يحولقون ويذكرون الشهادة مظهرين الغيظ والسخط على أعضاء لجنة الزينة فكيف أنهم يقابلون عودة الأمير من حجه المبارك بالصلبان . قالوا حتى لم يبق إلا ان يقابلوه بالأناجيل والشموع والقساوسة . وكثر كلامهم بهذا وأمثاله حتى كتب بعضهم إلى أصحاب الحصف[٢] المحلية يقول ان القوم وضعوا على رأس أقواس الزينة التى بميدان التياتروالأميرى (صليبا) وسيمر من تحته أمير البلاد عند عودته من (الأقطار الحجازية) .

(٢) الحصف = الصحف قراء ترجيحية .

قال (وحيث أنه لا يليق فى مثل هذا الإحتفال أن يعلق الصليب على رأس الأقواس فنلفت نظر لجنة الإحتفال لهذا العمل الخطير) . وتكلمت صحف الحزب الوطنى فى ذلك أيضا وعدته عملا شائنا وتغافلت عن أن ذلك الصليب إنما هو اشارة الراية الإيطالية الموضوعة إلى جانب الراية المصرية ورايات الدول المتحابة . وقالت إن وضعه على رأس تلك الأقواس رجس من عمل الصناع الأجانب الذين اختيروا لعمل تلك الأقواس . وظل حال القوم على هذا أياما ثم بطل اللغط وتناسوا أمر ذلك الصليب .

وكانت شركة قناة السويس قد كاشفت هيئة الحكومة ومستشار وزارة الماليه على ما رأته من إطالة اجل إمتياز الشركة أربعين عاما أخر . وظل الفريقين فى أخذ ورد وتمحيص لهذا المشروع من سائر الوجوه حتى تقررت القاعده بينهم أو كادت على أن الربح الذى ينتج من ذلك المشروع وقدره مليونى جنيه فى السنة هو وباقى الإيراد يقسم صافيهما بين الحكومة والشركة مدة الأربعين سنة التى هى أجل الإمتياز الجديد ، وأن تعدل المعاشات المطلوبة لموظفى الشركة بعد انقضاء مدتها على شروط تختلف عن شروطها الأولى من عدة وجود ولا تغبن فيها خزينة الحكومة . ووقع الاتفاق بين الطرفين على بقاء البت فى المشروع حتى يرجع الأمير من حجه وحتى توافق (الجمعية العمومية لمجلس الشورى) عليه .

وجاء الخبر إلى ديوان الوزارة بتحرك ركب الأمير وقيامه إلى (محجر بنوك) لقضاء أيام معدودات تحت المراقبة الصحية ثم قيامه إلى مصر على ظهر (اليخت محروسة) فيصل يوم الأحد أو صباح الإثنين حادى عشرة أو ثانى عشرة المحرم إفتتاح السنة . وقد قرروا أن تكون مقابلته عند وصول يخته إلى الإسكندرية لمقابلة[٣] الخديوى محمد سعيد باشا يوم رجوعه من حجه لعهد ولايته . وما تفشى هذا الخبر حتى انحدر العمد والأعيان وأصحاب الوظائف من كل ناحية الى القاهره ينتظرون مقدم الأمير ، وسافر بعضهم إلى الإسكندرية . وأكثر أهل الاسكندرية من عمل الزينات وتوسعوا فى نفقتها بسخاء لم يسبق له مثيل . وبينما الناس على هذا من التأهب والإستعداد للقاء الاميركان

(٣) لمقابلة = كمقابلة ـ أى مثل المقابلة التى لقيها (محمد سعيد والى مصر ١٨٥٤ - ١٨٦٣) لدى عودته من الحج . قراءة ترجيحية .

أصحاب (الحزب الوطنى) يتناجون فيما بينهم على عمل يتصدونه . وكانت صحفهم تشير إليه من طرف خفى . فلما كان يوم الأربعاء تاسع عشر يناير من السنة سابع المحرم ظهر ما كانوا يخفونه . ذلك أنهم سيروا كتب الإحتجاج على جناح البرق على مشاركة الإنجليز للحكومة المصرية فى احتلال السودان إلى صاحب السياسة الانجليزية (والوزير الكبير بطرس باشا) والى (الباب العالى) . قالوا وهذا اليوم هو اليوم الذى تم فيه عقد تلك الشركة المجحفة بحقوق المصريين . واندفع أصحاب صحفهم بعد ذلك يقِّرعون الهيئة الحاكمة ويخاطبونها بفحش القول ويتوعدونها بالويل والثبور وعظائم الأمور عند ما يجتمع أعضاء مجلس الشورى ويحاسبونه على الذرة والبرة ولا سيما العهد الذى عاهدت به (شركة قناة السويس) على تمديد أجل امتيازها أربعين سنة أخرى . فحرك هذا الهتر ساكنا من صحف الأحزاب الأخرى . ففزعوا الى المشاتمة وذكروا معايب بعضهم وأنحوا باللائمة على نفر من رجال الشورى ، وقالوا فيهم كل كلمة سوء وأنهم هم علة انقسام الشورى الى شطرين ، وقالوا أن هؤلاء النفر كثيرى السعاية والوشاية فى حق إخوانهم عند (السير غورست) ، وحذروا الهيئة الحاكمة من التراخى والإغضاء وإلا ساءت العاقبة . وجعل الناس يتكهنون ما سيكون من وراء انعقاد (الجمعية العموميه لشورى القوانين) وعودة الأمير من حجه . وظل الحال على هذا أياما عمدت الهيئة الحاكمة فى غضونها إلى تعطيل بعض صحف الحزب الوطنى كثيرة التطرف مثل (جريدة القطر المصرى) الأسبوعية وأنذرت (جريدة اللواء) إنذارا نهائيا . وسيرت الى محافظ المدينة فى منع الإجتماعات التى لا غرض منها سوى الشغب واستفزاز العامه الى الهرج لسبب ولغير سبب .

فلما كانت الساعة الرابعة من يوم الإثنين ثانى عشر المحرم ورابع عشرى يناير من السنة أى سنة عشرة وتسعمائة وألف جاء الخبر على جناح البرق الى القاهرة بوصول يخت (المحروسة) الى ميناء الإسكندرية يقل الأمير ووالدته وكريمتاه ، وابن عمه وعمته وحاشيته ، وألقى مرساه أمام (قصر رأس التين) . فاكتظت قاعات القصر بالأمراء والعظماء والسراة والأعيان من سائر أنحاء القطر ، والوزراء وأصحاب المناصب والخطط وأعضاء شورى القوانين . واصطف العساكر والأجناد المصرية والإنجليزية فى فناء القصر . فنزل جماعة الوزراء إلى رصيف القصر ، فأقبل الأمير فصافح الوزراء فهتف له الجند بالدعاء

وصدحت الموسيقى بالنشيد ، ثم صعد إلى قاعة التشريفة الكبرى فدخل عليه المهنئون طايفة بعد الأخرى على الترتيب المعتاد .

وما غربت الشمس حتى ركب الأمير عربة التشريفة وطاف فى شوارع المدينة وكلها تتلألأ بالأنوار . وكانت (بلدية الاسكندرية) قد أقامت ثلاثة أقواس أحدهم فى اول (ميدان محمد على) بقرب (مخفر المنشية) والثانى بين (نادى محمد على)(والمخفر الإنجليزى) والثالث فى آخر بناء البلدية وقد كتبت على الاول

تبارك الله ما اولاك من نعم دين ودنيا وحج البيت والحرم

وكتبت على الثانى

مليك البلاد كسبت الثواب وعـــدت فعـم المنى والمآب

وكتبت على الثالث

هنــاء الحياة وعـــز النعيم وأجـــــر التقاة وذكـــر مقيم

يقال فَسُرَّ الأمير لما قرأ هذه الأبيات . وظل فى طريقه يتنقل من شارع إلى آخر ومن زينة الى زينة وعاد الى قصر رأس التين وبات ليلته تلك . وأصبح وقد أعدوا له قطاره المخصوص فركبه مع جماعة الوزراء فى الساعة السابعة والنصف قاصدا القاهره فوصلها عند الظهر تماما ، فأطلقت المدافع لوصوله من ضفة الاسماعيلية وقلعة الجبل ، فنزل ومر بين صفوف الجند وهتافهم له بالدعاء وركب عربة التشريفة وعلى يساره (بطرس باشا كبير الوزراء) . وسارت بهما والدعاء من كل ناحية متواصل حتى بلغ قصر الإمارة فاستقبل وفود المهنئين ، وقد كانت الزينات فى القاهرة ومصر القديمه بالغة حد الوصف كما تقدم . ولم يأذن بعمل التشريفة الكبرى إلا ثالث يوم وصوله ، وسير على جناح البرق رسالة الشكر والدعاء للسلطان على ما لقيه من رجال الدولة من الحفاوة وحسن الإستقبال أيام الحجة .

فلما كان يوم الخميس خامس عشر المحرم من السنه سابع عشره يناير عقد الوزراء مجلسهم تحت رئاسة الأمير . وتناجوا فى مشروع الإتفاق مع شركة القناة على تمديد أجل الإمتياز أربعين سنة أخرى فوافقوا عليه وقرروا إحالته على (الجمعية العمومية لشورى القوانين) التى ستجتمع فى تاسع فبراير المقبل . أقول وقد علمت من أوثق المصادر هو أن

شرط الضمان الذى كان مدرجا بورقة الإتفاق الأول بان يكون للشركه الحق بأخذ خمسين مليون فرنك من الدخل لشؤون مخصوصة قد أبطل ووقع الإتفاق من جديد على أن الخزينة تتناول من سنة ١٩٩٨[٤] الى سنة ٢٠٠٨ نصف الدخل مهما كان ، وللشركة النصف الاخر ، وأن الشركة تقبل رفع معاشات الموظفين بعد انقضاء مدة الإمتياز ، وأن هناك بعض مسائل أخرى تفصيلية لم يوافق جماعة الوزراء عليها وأرجأوها إلى وقت آخر . قالوا وهى مع ذلك لم تحول دون الإتفاق النهائى مع أنه تم الإتفاق على المسائل الرئيسيه . وشاع خبر ذلك وتناقله أصحاب الصحف المحلية والأجنبية ، وجعل أصحاب صحف (الحزب الوطنى) يفاخرون ببلوغ أعضاء شورى البلاد أمنيتهم من الإشراف على سائر أعمال الحكومة الصغيرة منها والكبيرة ، وعجز الهيئة الحاكمة من الإفلات مما نصبه لها أصحاب (الحزب الوطنى) من الشباك . وطاف بعضهم على بيوت أعضاء الشورى يهنئوهم ويستحلفونهم بالأيمان المغلظة على نبذ هذا المشروع والجهر بفساده لضرره أولا بالخزينة وثانيا باستقلال البلاد فى أعمالها وشؤونها الداخليه . ووسوسوا لهم أن يختاروا منهم لجنة من فلان وفلان المتطرفين لتفنيد المشروع بكل سبب مشروع . وعندى أن السواد الاعظم من أصحاب هذا الحزب لم يعرفوا شيئا من شروط ذلك المشروع ولا ماهيته وفائدته أو ضرره ، ولكنهم كانوا مسوقين الى ما هم فيه من الضوضاء والهرج بدافع التقليد لزعماء الحزب والطاعة لشيخها (عبد العزيز جاويش المغربى) .

ولما كان البحث فى ذلك المشروع بين الهيئة الحاكمة وأصحاب شركة القنال سببا فى قيام أصحاب (الحزب الوطنى) ومناهضتهم للهيئة الحاكمة . وقد اتخذوه سلاحا يقاتلونها به فى السر والعلن ، كان لابد من إبرازه هنا ليعلم الخلف مافعله السلف ، ويشهد إما له وإما عليه ، وهى كما بعث بها مجلس الوزراء الى الجمعية العموميه حرفيا : (طلبت شركة قناة السويس من الحكومة امتداد امتيازها . وبعد المخابرات الطويلة إنتهى الأمر بتحضير مشروع الاتفاق المرفق بهذه المذكرة . وقد عرض هذا المشرع على مجلس النظار فى جلسته المنعقدة فى يوم الخميس سابع عشرة يناير الجارى تحت رئاسة

---

(٤) ١٩٩٨ = ١٩٦٩

- محمد عبدالرحمن برج (دراسة فى الحركة الوطنية المصرية ، وزارة بطرس غالى ١٩٠٨ - ١٩١٠) .
- مرجع سبق ذكره ص ٣٦ .

الحضرة الخديوية الفخيمة فقرر بإجماع الآراء وجوب رفضه ما دام بشكله الحالى ولكنه يرى جواز قبوله إذا أدخلت عليه التعديلات الآتية وهى :

اولا

إلغاء ضمانة الخمسين مليون فرنك الممنوحة للشركة بمقتضى المادة الثانية عن كل سنة من سنى الإمتداد ، وبعبارة اخرى جعل قسمة الارباح من سنة ١٩٦٩ الى سنة ٢٠٠٨ بالمناصفه الكاملة بدون خصم شىء مما تمتاز به الشركة .

ثانيا

حفظ الحق للحكومة فى نصف الارباح لا يكون من أول يناير سنة ١٩٦٩ بل يبتدى من ١٧ نوفمبر سنة ١٩٦٨ الذى هو تاريخ الامتداد

ثالثا

حذف الماده الثانيه التى تلزم الحكومة بان تدفع من أول سنة الفين وتسعة الذى تاريخ نهاية الإمتياز معاشات مستخدمى الشركه ومرتبات تقاعدهم وإعاناتهم . وبما أن السبب الوحيد الذى حمل الشركه على قبول التسعين الف جنيه للحكومة حسب نص المادة التاسعة من مشروع الإتفاق هو تكفل الحكومة بصرف معاشات التقاعد . فمجلس النظار يميل الى التجاوز عن مبلغ التسعين ألف جنيه المذكورة ما دامت الحكومة لم تعد مكلفة بهذه النفقات ، ومجلس النظار يميل أيضا بهذه المناسبة لتسوية المسألة المختصه بطلب الشركة امتلاك الأراضى التى ستتخلف من البحر فى بور سعيد بسبب الأعمال التى ستجريها على نفقتها ، وهو لا يوافق على استئثار الشركه بها بل يقبل الإتفاق على تسليم هذه الاراضى الى الاملاك المشتركه أ . هـ . أما مشروع الاتفاق ذلك فهو

الماده الاولى

امتياز شركة قناة السويس الذى كان ميعاد انتهاه فى سابع عشر نوفمبر سنة ثمان وستين وتسعمائة وألف إذا لم تتفق الحكومة المصرية والشركة على إطالة مدته قد صار امتداده الى ٣١ ديسمبر سنة تسع وألفين .

الماده الثانية

تكون قسمة صافى الإيراد والأرباح السنوية باعتبار خمسين لسنة[٥] ١٠٠ للحكومة المصرية وخمسين سنة للشركة فى المدة التى تبتدى من اول يناير سنة تسع وستين وتسعمائة والف وتنتهى فى ٣١ ديسمبر سنة ثمان وألفين وذلك بمراعاة الشروط الاتيه :

أولا - إذا نقص صافى الإيراد والأرباح السنوية فى سنة من السنين عن مائة مليون فرنك فتمتاز الشركة بأخذ خمسين مليون فرنك وتأخذ الحكومة المصريه ماتبقى بعد هذا المبلغ .

ثانيا - إذا حدث فى إحدى السنين أن صافى الإيراد والأرباح السنوية يكون معادلا لخمسين مليون فرنك أو ناقصا عن هذا المبلغ فيكون كامل هذا الإيراد الصافى أو الأرباح حقا للشركة ومقاسمة الحكومة المصريه للشركة فى الأرباح تقضى على الحكومة بأن تتجاوز من أول يناير سنة تسع وستين وتسعمائة وألف عن الخمسة عشر فى المائة المقررة لها بمقتضى الماه ٦٣ من نظامنامة الشركة

المادة الثالثة

فى مقابل امتداد أجل الإمتياز تتعهد الشركه بأن تدفع الى الحكومة المصرية فى القاهرة مبلغ اربعة ملايين جنيه مصرى على اربعة اقساط متساوية القيمة فى ١٥ ديسمبر سنة ١٩١٠ و ١٥ ديسمبر سنة ١٩١١ و ١٥ديسمبر سنة ١٩١٢ و ١٥ ديسمبر سنة ١٩١٣

الماده الرابعه

وزيادة على ذلك تتعهد الشركه بأن تدفع من اول سنة ١٩٢١ للحكومة المصرية حصة من صافى الإيراد والارباح على السنين الآتية : أربعة فى المابة من سنة ١٩٢١ الى سنة ١٩٣٠ . ستة فى المائة من سنة ١٩٣١ إلى سنة ١٩٤٠ ـ ثمانية فى المائة من سنة ١٩٤١ إلى سنة ١٩٥٠ ـ عشرة فى المائة من سنة ١٩٥١ إلى سنة ١٩٦٠ ـ إثنى عشر فى المائة من سنة ١٩٦١ إلى سنة ١٩٦٨ ـ ويكون تقدير حصة الحكومة فى

(٥) خمسين لسنة ١٠٠ للحكومة المصرية وخمسين سنة = خمسين فى المائة للحكومة المصرية وخمسين بالمائة قراءة تصحيحية .

الأرباح حسب القواعد المتبعة فى تقدير ربح المساهمين بدون أى تمييز ، ويكون دفعها إليها فى ذات المواعيد المحدده لدفع ربح المساهمين . أما الشركة المدينه المنتفعة لغاية سبعة نوفمبر سنة ١٩٦٨ بالخمسة عشر فى المائة التى كانت من حقوق الحكومة بمقتضى المادة الثامنة عشرة من عقد الامتياز المؤرخ فى تسعة يناير سنة ١٨٥٦ فلا تكون ملزمة بشىء مما تتحمله شركة القنال من المنصوص عليه فى المادة الثالثة الآنفة الذكر وفى هذه المادة .

المادة الخامسة

عند تسوية حساب السنين التالية لسنة ١٩٦٨ لأجل تقدير حصة الحكومة فى الأرباح على مقتضى المادة الثانية من هذا الاتفاق لا يدخل فى هذا الحساب إلا فائدة واستهلاك القروش[٦] التى تعقد بعد سنة ١٩١٠ لاستعمالها فى أعمال تحسين حال القنال والموانى الموصلة إليه التى يشرع فيها من ابتداء سنة ١٩١١ . ويشترط أن يكون توزيع الفوائد والإستهلاك على أقساط سنوية متساوية عن كامل مدة هذه القروض ، ويكون تقدير حصة الحكومة حسب القواعد المتبعة فى تقدير نصيب المساهمين من الأرباح ما لم تدع الحال لتطبيق القيود المدونة فى الفقرة السالفة الذكر ـ ويكون دفعها على كل حال فى ذات المواعيد المحدده لذلك .

المادة السادسة

حساب الخمسين فى المائة التى تخص الحكومة بعد انتهاء مدة الامتياز يكون على الباقى من رأس مال الشركة بعد رجوع القنال الى الحكومة طبقا للشروط المدونة فى عقد الامتياز المؤرخ فى خمسة يناير سنة ١٨٥٦ .

المادة السابعة

تعترف الشركة بلزوم وجود نائبين عن الحكومة المصرية فى مجلس إدارتها من إبتداء سنة ١٩٦٩ نظرا لأهمية حصة الحكومة فى أرباح القنال . وعلى ذلك تقرر من الآن

---

(٦) القروش = القروض قراءة ترجيحية .

بأن يكون للحكومة المصريه بناء على طلبها ثلاثة اعضاء على الأكثر تنتخبهم هى ويقدمهم مجلس الادارة وتعينهم الجمعية العمومية حسب القواعد المتبعة .

المادة الثامنه

بناء على طلب الشركة تتكفل الحكومة بعد انتهاء مدة الإمتياز بدفع المعاشات والاعلانات(٧) ومرتبات التقاعد التى يقتضيها تنفيذ اللوائح المتبعة الآن الخاصة بالمستخدمين ورؤساء البوغاز والعمال وقد سلمت الشركة للحكومة صورة من هذه اللوائح

المادة التاسعة

تتعهد الشركة بأن تجرى فى المستقبل على نفقتها أعمال الحفظ والصيانة والتحسينات التى تراها لازمة لجعل مداخل القنال من جهة السويس فى حالة مرضية وتقبل أيضا أن تتكفل بنفقات أعمال التطهير التى تباشرها الحكومة المصرية فى ميناء السويس لتعميق الممر الموصل للقنال بشرط أن لا تتجاوز هذه النفقات تسعين الف جنيه مصرى .

المادة العاشرة

قد صار الاتفاق على أن جميع العقود والإتفاقات التى أبرمت قبل الآن بين الحكومة والشركة تعتبر نصوصها المتعلقة بمدة الامتياز ونهايته سواء كانت هذه النصوص تشير الى ذلك صريحا أو ضمنا كأنها منطبقة على مدة الامتياز أو نهايته حسب امتداده فى الإتفاق الحالى .

المادة الحادية عشره

لا يعتبر هذا الاتفاق نهائيا ولا يكون نافذ المفعول الى(٨) بعد مصادقة الجمعية العموميه لمساهمى الشركه ـ إنتهى بنصه .

---

(٧) والإعلانات = والإعانات قراءة اجتهادية .
(٨) الى = إلا قراءة ترجيحية .

وما برزت مواد هذه الشروط الى عالم الظهور حتى تناولتها أقلام الكتاب وأفواه المتكلمين بمعرفة وبغير معرفة . وقامت حولها ضجة أعضاء شورى القوانين وجعلوا يمحصونها وينقدون موادها ، وانقسموا فى أسباب طلب الشركة تمديد أجل الامتياز ، فمنهم من كانوا يقولون أن الأسباب سياسية يراد منها حرمان البلاد من استرجاع ملكية القناة بعد انقضاء أجل الإمتياز الأول الذى لم يبق له إلا سنوات معدودات ، ومنهم من كان يقول بل هى مالية بحتة يراد بها الكسب والربح من أموال المصريين . وجعل جماعة المتطرفين منهم يتأهبونُ لمقارعة الهيئة الحاكمة ويعدون لذلك عدتهم ، ولم يمنعهم ما هم عليه من الفرقة والإنقسام على ذواتهم بسبب تعيير صحف (الحزب الوطنى) لجماعة منهم ورميهم بالجبن وضعف العزيمة ومسايرة الهيئة الحاكمة ، حتى كانت هذه الحادثة شغلهم الشاغل أياما كثيرة . وأدرك (الأمير حسين) رئيس شورى القوانين ماوراء هذه الطفرة الغير(٩) المحمودة فجعل يحادث أصحاب الصحف الاجنبية ويبين لهم مواطن الربح من تمديد أجل ذلك الإمتياز وحسن نية الهيئة الحاكمة ، حتى استدعاه الأمير يوما إلى قصر الامارة وحادثه فى الأمر . قالوا وشجعه على عزمه ، وقال آخرون وهم أصحاب (الحزب الوطنى) ونفر من متطرفى شورى القوانين بل عاب على رأيه ونصح إليه بالعدول عن هذه الخطة فى هذه الآونة المزعجة . وظهرت الحركة بين اصحاب شورى القوانين وكثر اجتماع المتطرفين منهم بأصحاب الحزب الوطنى ، وتفشى خبر ذلك فى مدن الإقليمين القبلية والبحرية . فقام نفر ممن يدعون النصفة والغيرة على الوطن وكلهم من أذناب الحزب الوطنى يرسلون رسائل الإحتجاج على رضاء الهيئة الحاكمة بتمديد أجل امتياز القناة ، ويقولون أنه ضار بالبلاد وأهلها ويسألون اصحاب الشورى والجمعية العمومية أن لا يوافقوا على ذلك الامر الخطير . وأصبح كلهم عالم بأسرار السياسة وأحكام المعاهدات الدولية حتى معلمين الكتاتيب ، فقد رأيت رسالة برقية مرسلة من معلم مدرسة من المدارس الصغرى ببنى سويف إلى قصر الإمارة يطلب فيها من الأمير عدم الموافقة على تمديد أجل امتياز القناة ورفض ذلك الطلب بتاتا ، ورأيت آخرا من كفر الزيات بتوقيع من يدعى (حسن محجوب) وآخر من تلامذة (مدرسة جمعية المساعى المشكورة) فى شبين القناطر وكلها صورة طبق الأصل .

---

(٩) الغير = غير قراءة لغوية .

فلما كان يوم الأربعاء ثامن عشرة المحرم من السنة تاسع فبراير سنة عشرة وتسعمائة وألف للميلاد ركب الأمير فى موكبه من قصر الإمارة الى قاعة (مجلس شورى القوانين) ومعه الوزير الكبير (بطرس باشا) وخلفه رجال ديوانه . فقابله عند باب المكان (الأمير حسين) وبعض أصحاب الوظائف العالية ، فدخل الى قاعة الجلسة فوقف الأعضاء إجلالا فخطب فيهم يقول (أيها الساده ــ نهديكم تحياتنا ونبدى لكم سرورنا من اجتماعكم فى هذا اليوم . دعوناكم لأخذ رأيكم فى اتفاق يراد عقده مع شركة قنال السويس فإن هذه[10] قد عرضت على حكومتنا منذ سنة امتداد أجل امتيازها . وبعد المخابرة الطويلة أمكن الوصول الى المشروع المطروح أمامكم . وقد علمتم أن حكومتنا مجمعة الرأى على قبوله إذا رضيت الشركة بالتعديلات التى سبق تبليغها لحضراتكم ، فالغرض إذن من اجتماعكم إنما هو البحث فيما إن[11] من مصلحتنا مد أجل الامتياز الى اربعين سنة مع شركة[12] اقتسام الارباح فى هذه المدة بين الحكومة والشركة مناصفة ؛ وفى مقابل إعطاء الشركة نصف الأرباح عن المدة الجديدة تدفع للخزينة مبالغ موزعة على الستين سنة الباقية من مدة الإمتياز الحالى . وقد قدر هذه القيمة بعد البحث الدقيق اشخاص من ذوى الخبرة الواسعه فى الشؤون المالية ، وهم يرون أنه إذا حصلت الموافقة على التعديلات المذكورة تكون الفائدة التى تنالها مصر موجبة لتمام الرضاء وأن ذلك غاية مايصح طلبه من الشركة .

ولا يخفاكم أن هذه المسألة ليست من المسائل التى يقضى القانون النظامى بأخذ رأى الجمعيه العموميه فيها ، ولكن نظرا لأهميتها الإستثنائية بالنسبة الى الجيل الحاضر والأجيال الآتية ، قرر مجلس النظار أن لايبت فيها رأيا قبل أن يعلم إن كانت الجمعية العمومية توافق على امتداد الإمتياز . ونظار حكومتنا مستعدون لإعطائكم كل ما ترونه لازما فى هذه المسألة من البيانات والإيضاحات ، ونحن واثقون أن كل واحد منكم يشعر

---

(١٠) هذه = هذه الشركة
ـ أحمد شفيق (مذكراتى فى نصف قرن) ـ ج ٢ سنة ٩١٠ ص ٢٠٥ .
(١١) إن = إذا كان .
ـ المصدر نفسه ـ ص ٢٠٥ .
(١٢) مع شركة اقتسام الأرباح = مع اقتسام الأرباح
ـ المصدر نفسه ـ ص ٢٠٥ .

بالمسئولية التى يتحملها أمام بلاده عند نظره هذا المشروع المهم . والله نسأل أن يوفقنا جميعا لما فيه خير البلاد . انتهى بنصه

فلما انتهى من خطبته دعا له رئيس الجمعيه الدعاء المعتاد فكرره جماعة النواب ، وعاد الأمير الى قصره فى ركبه كما حضر . وما استقر به المقام حتى زاره رئيس الجمعية وجميع أعضائها فحدثهم الأمير الى التأنى وعدم التسرع فى البت فى أمر مشروع القناة ، وقال لهم إن هذه المسألة هى من المسائل الدولية التى لم يسبق للجمعية النظر فى نظائرها بمقتضى النظام ، فجميعها إذن هو عناية من حكومته بالجمعية وبمصالح الوطن ، وأنه يأمل من الأعضاء ألا يتأثروا بالتأثيرات والأقاويل ولا يجعلوا نصب أعينهم غير مصلحة البلاد . قال وإن الآراء التى ستبدونها فى هذه المسألة ستعرض بطبيعة الحال على الرأى العام فى ديار الفرنجة الذى يحكم حينئذ حكمه فى الجمعية التى هى هيئة البلاد النيابية وعنوان كفاءتها وتعقلها فى الأمور الجسيمة ، فدعوا له بخير وانصرفوا .

وكان رئيس (حزب الإصلاح) (الشيخ على يوسف صاحب المؤيد) قد نشر فى المؤيد أنه على عزم أن يخطب فى موضوع قناة السويس هذه ، وضرب لذلك ظهر يوم الأربعاء ثامن عشره المحرم من السنه وتاسع فبراير سنة عشرة وتسعمائة وألف للميلاد[١٣] . فلما كان اليوم الموعود قد حضر إلى مكان الحزب جماعة ممن يحبذون قول الشيخ من أعضاء مجلس شورى البلاد والجمعية العموميه . فوقف الشيخ واستهل كلامه بالإشارة الى ميل الحكومة الى مشاركة الشعب فى هذا الموضوع ، ثم ذكر اقتراح الشركة وتعديل الهيئة الحاكمة له ثم انتقل الى موضوع البحث فقال

(بقى علينا بعد هذه المقدمة أن نعلم إن كان هذا المشروع بعد تعديل الحكومة له أصبح فى صالح مصر تماما أو هو يحتاج لتعديله أو رفضه بتاتا) قال (أما الجواب على هذه الأسئلة فلا يكون اقتضابا بل يجب أن يكون نتيجة لازمة لمقدمات صحيحة . فالحكم فى مشروعنا هذا يحتاج إلى بحثه بحثا دقيقا من عدة جهات) . ثم تكلم طويلا عن المشروع من الوجهة الماليه حتى وصل إلى نتيجة مؤداها أن إيراد القناة يكون فى

(١٣) للميلاد = للميلاد موعدا قراءة لغوية .

سنة ١٩٦٨ ميلادية حوالى ثلثمائة مليون فرنك وإيراده فى سنة ٢٠٠٨ ميلادية حوالى إربعمائة وعشرين مليون فرنك . وضرب على مساومة شركة القناة المثل الآتى (إنما مثل الشركة فى اشتراط الضمانه المذكوره مثل جار لك يساومك فى شراء منزل لم تعرضه للبيع عليه ليشترط لأول وهلة أن تبيعه اياه على شرط أن تجدد بناءه كلما تهدم . فأنت تطرح مساومة ظهريا لما اشتملت عليه من القحة والغطرسة وتطلب منه للدخول معه فى المساومة إزالة هذا الشرط الشاذ ، فإذا هو تخلى عنه فليس معناه أنك ملزم بقبول سومه على كل حال) . قال(نحن أنكرنا على الشركة هذا الشرط الشاذ وهو ضمانة الخمسين مليونا نصيبا لها وأنكرنا على (المستشار المالى) ترويجه له وقوله فى مذكرته الأولى (ويستنتج ايضا أن الحكومة لا تخسر بداعى الضمانة التى تؤديها الشركة بأن يكون قسطها فى السنة خمسين مليون فرنك لأن المبلغ الذى تأخذه الحكومة وهو أربعة ملايين جنيه يكون له مقابل بنفسه يعادل ٣٣ مليونا ٩٣٩ الف فرنك إذا اعتبرت الفائدة ثلاثة ونصف فى المائة ويكون ٢٨ مليون فرنك إذا اعتبرت ثلاثة وربعا فى المائة) أ . هـ . ولكن حذف هذا الشرط لا يقضى بقبول بقية الشروط) . ثم تكلم عن المسألة من الوجهتين الاقتصادية والمالية والإجتماعية إلى أن قال . . .

وما جاء ظهر ذلك اليوم حتى اجتمع فى حديقة الأزبكية جمهور من شبان المدارس وأصحاب الحزب الوطنى ، وقام بينهم شاب يقال له (محمد على زكى) خطيبا . وتعاقب الخطباء فتكلموا فى موضوع القناة أيضا وقامت بينهم ضجة وجلبة ، ثم صاحوا جميعا طالبين رفض المشروع . واشتد صياحهم وصيحتهم فقام (محمد على زكى) ذلك وعرض على المجتمعين نص رسالة برقية إلى الجمعية العمومية وهى (نحن عدد عظيم من الأمة المصرية قد اجتمعنا اليوم بحديقة الازبكيه للبحث فى مسألة قناة السويس ، فقررنا أن صالح مصر السياسى يقضى برفض المشروع رفضا باتا . وكلنا أمل فى أن توافقوا رجاء الأمة فيكم برفضه . فوافق القوم على إرسالها ثم انصرفوا .

وأصبحوا ثانى يوم وقد اجتمع فى (ميدان الازهار) خليط من صبيان المدارس وعمال المطابع ومستخدمى بعض المحلات الصغيرة للقيام بمظاهرة . فسير صاحب الشرطة جماعةمن الجند إلى ذلك الميدان فملؤا الشارع وأحاطوا بالميدان فى كل جانب

ووضعوا خمس عربات مطافىء امام باب الجمعية العمومية إستعدادا لتفريق المتجمهرين وتمزيق جمعهم إذا أقدموا على دخول دار الجمعية كما هم يقصدون . ثم وقف فى وسطهم ضباط[١٤] الشرطة وقال لهم أن انصرفوا ولا تحدثوا حدثا ، فلم يلتفتوا إلى قوله وذهب ثلاثة منهم الى حيث صاحب الشرطة وأظهروا الغلظة فى كلامهم . فاشار إليهم بأن انصرفوا ولا تقفوا هنا . فعادوا وساروا فى (شارع المناخ) وهم يصيحون (فليسقط مشروع القناة ليسقط الإستبداد) . ولما مروا بدار (جريدة الأهرام) صاح واحد منهم (ليسقط الاهرام المأجور) . وداروا حتى (شارع محمد على)(فميدان عابدين) حيث صاحوا جميعا (ليحيى الخديوى) (ليحيى محمد فريد) (ليحيى أصحاب وكبار الحزب الوطنى) . وكان المنادى الأول منهم بهذه النداءات السمجة رجل يقال له (ابراهيم منجد) السمسار وآخر اسمه (محمود حمدى السخاوى)وكلاهما لا هما فى العير ولا فى النفير .

وتواردت كتب التهديد ورسائل الوعد والوعيد على رجال الجمعية العموميه . فكان إذا أصبح الرجل منهم جاءه حامل البريد بكتاب أو كتابين وربما ثلاثة كتب بدون إمضاء ولكها[١٥] شتم وتهديد بالقتل أو إحراق الدار أو غير ذلك من أنواع الرزايا إن هو وافق على مشروع القناة . فعم القلق والإضطراب وخاف الناس بعضهم من بعض وثقل على أسماعهم اسم (الحزب الوطنى)(وقناة السويس) ومشروعها . وكانت هذه المحنة سببا فى استخفاف أهل الكباير بأصحاب الحل والعقد وارتكابهم للجرائم والآثام بغير مبالاة ، ووقوع الهرج بين أهل البلاد ، وهم لايعرفون من مشروع القناة إلا أن جماعة (الحزب الوطنى) لا يرضونه ولا يمكنون الهيئة الحاكمة من قبوله . وعندى أنه لو شاء أصحاب الإحتلال لقبلوه ورسموا لصاحب سياستهم بإنفاذه ولم يقو حزب من الأحزاب على معارضته ولا سُمعَ لأحدهم صوتا ولا جلبه ، لولا ما هو قائم من الخلاف والتفرقة بين دولتى الإنجليز والفرنسيس فى كثير من المسائل الاقتصادية والأمور السياسية . وهذا ما

---

(١٤) ضباط = أحد ضباط قراءة تصحيحية .
(١٥) ولكلها = وكلها قراءة تصحيحية .

حدا برجال الجمعية العمومية إلى الأخذ والرد وشجع أصحاب (الحزب الوطنى) وغيرهم على هذه الضجة المزعجة التى عمت البلاد من أقصاها الى أقصاها . ومع كل هذا فقد قررت الجمعية العمومية تشكيل لجنة من أعضائها تقوم بالبحث فى ذلك المشروع . فجعلت تلك اللجنة تبحث وتنقب وتطلب من الحكومة العقود والوثائق الرسمية وتسأل وزير المالية ومستشارها الأسئلة الكثيرة . وظلت على هذا أياما وأصحاب صحف (الحزب الوطنى) من ورائهم يطلبون التعجيل . واتفق أن خرج الأمير يوما فى موكبه على عادته ، فبينما هو فى طريقه إذ اندفع الى عربته قروى ومد يده الى جيبه يريد إخراج شىء منه فهجم حراس عربة الأمير على الرجل وقبضوا عليه وأخذوا بتلابيبه وفتشوه وهو يصيح (أنا فى عرضك يا افندينا أنا فى عرضك) فوجدوا معه ورقة يشكو فيها من حكم صدر ببيع داره من المحكمة المختلطة لصالح يونانى من تجار الريف . فسيروا بالرجل وقصته الى صاحب الشرطة حيث ظهر أنه لم يكن يريد شرا بالأمير . وشاع خبر ما وقع وتناقله أصحاب صحف (الحزب الوطنى) مقلوبا مشوها . وزادوا بأن الرجل رسول الموت ويريد الهلاك إذا ظل الأمير ورجال حكومته على اتفاق قناة السويس . وكثر الإرجاف واشتد التهديد وبلغت القحة بصغار العقول مبلغا ، وكثر مرور المتهوسين ومدعين الوطنية والغيرة على الوطن ومصالحه بدار (بطرس باشا) كبير الوزراء ليلا ونهارا . وسأله يوما (محمد سعيد باشا) وزير الداخلية أن يأذن لبعض أصحاب الشرطة بحراسته وحراسة داره وأن يشدد على صاحب الشرطة بمراقبة أولئك المتهوسين كى لا يتمكنوا من عمل يريدونه ، فلم يقبل وقال الأمر لله وحده . ولم ينكف أصحاب الحزب الوطنى وأذنا بهم عن الإجتماعات والمظاهرات وإلقاء الخطب والحض على الوقوف فى وجه الهيئة الحاكمة وعدم تنفيذ مشروع القناة . وكانوا إذا اجتمع أعضاء الجمعية العموميه لمناقشة الوزراء فى المشروع ذهبوا عشرات إلى قاعة الجلسة وملؤا كراسيها يسمعون ما يدور من الأخذ والرد بين الأعضاء وجماعة الوزراء . فإذا سمعوا من أحد الوزراء قولا سديدا أو أبدى كبيرهم رأيا صايبا تأففوا . وكثرت بينهم الحركة وربما ارتفعت اصوات بعضهم بكلا ولا . وكان ممن استهواه(الشيخ عبد العزيز جاويش) وكبار الحزب الوطنى وبعض المتطرفين من اعضاء الجمعيه العموميه شاب يقال له (ابراهيم الوردانى) من سُمال[١٦] التلاميذ

(١٦) سمال = السمل هو الخَلَقُ من الثياب - سمل الثوب أى صار باليا . والسمال هنا تعنى الوضعاء من الناس ذوى الملابس السملة .
- مختار الصحاح - مرجع سبق ذكره - ص ١٣٢ .

العاطلين قد أتعبه الفقر وأضناه خلو ذات اليد . فكانوا يحضونه على الذهاب الى قاعة جلسة الجمعيه العموميه كلما اجتمع أعضاؤها وبينهم (الوزير بطرس باشا) وجماعة الوزراء . وكانوا إذا سمعوا الوزير يتكلم نبهوا ذلك الشاب لسماع كلامه وأنحوا باللائمة على الوزير واتهموه بالخيانه والمكر والخديعة والهتر ، والشاب يلتهب غضبا ويتقد قلبه غيظا وهو لا يردى(١٧) من مشروع القناة قلامة ظفر . وظل الحال على هذا أياما والإرجاف بقرب وقوع حادث من أفظع الحوادث كثير

فلما كان يوم الأحد تاسع صفر من السنة وعشرى(١٨) فبراير سنة عشر وتسعمائة وألف للميلاد نزل (الوزير الكبير بطرس باشا) من ديوانه إلى نحو الساعة الأولى بعد الظهر على عادته ومعه (رشدى باشا) (وعبد الخالق ثروت باشا وأحمد فتحى باشا) وهم يحادثونه فى بعض الأمور . فلما وصلوا الى السلم القبلى كانت عربة الوزير واقفة هناك وهذا الشاب واقف خلفها ناحية السلم . فوقف الوزير وودع (فتحى باشا)(وثروت باشا) عند رأس السلم ، أما (حسين رشدى باشا) فإنه نزل مع الوزير حتى أسفل الدرج ثم هم بالرجوع . وما كاد الوزير يصل الى باب عربته ويضع رجله على سلمها حتى دنا منه الشاب قليلا وأطلق عليه رصاصتين أصابته واحدة فى خاصرته والأخرى فى صدره ، وما كاد يلتفت حتى أطلق عليه ذلك الجانى ثلاث رصاصات أخرى أصابت أحداها عنقه من خلف والثانية كتفه والثالثه ثيابه . فسقط الوزير لساعته أمام باب العربه وتراكض القوم فقبض بعضهم على ذلك الأثيم وحمل بعضهم الوزير الى إحدى غرف وزارة الحقانية . وكان ذلك (١٩) الطبيب يقال له (سعد بك الخادم) فى إحدى غرف الوزارة لاسبب لوجوده فى هذه الآونة ، فدخل على الوزير وجعل يخرج الرصاصات من العنق والكتف . فتنبه الوزير وقال أحس بدوار شديد وألم فى الخاصرة . فبحثوا المكان فوجدوا الدم يتدفق من خاصرته وتحققوا أنه مصاب فى تجويف البطن والصدر . وجاءت مركبة صحية

---

(١٧) يردى = يعرف قراءة اجتهادية .

(١٨) وعشرى = وعشرين قراءة تصحيحية .

(١٩) ذلك الطبيب = هناك طبيب قراءة اجتهادية ـ عدلت الصياغة لتتفق مع السياق .

فحملوه فيها إلى اسبتالية (الدكتور ميلتون) . وطير (فتحى باشا) الخبر الى الأمير بقصر القبة على أسلاك التليفون فجاءه الأمر على الأثر بأن اقبضوا على زعماء الحزب الوطنى حالا . وكان قد اجتمع بالإسبتالية جماعة الأمراء والكبراء والوزراء ووكلاء الدول وكل وجيه وعظيم وبينهم (السير غورست) ، فأخبره (أحمد فتحى زغلول باشا) بما قاله الأمير من القبض على زعماء (الحزب الوطنى) فلم يوافق على ذلك وقال اتركوا الأمر لحكم القانون ولاتحدثوا حدثا آخر . فظهرت على وجوه السامعين علامات الدهش والإستغراب ، وجعل بعضهم يهمس فى أذن البعض الآخر حتى سمعت بعضهم يقول إذا تم ما رسم به الأمير تجلت الحقيقة وظهر ما خفى . وأقبل الأمير فى ركبه من قصر القبه فى قلة لأنه لم يطق الصبر حتى يأتيه الحرس ، ودخل إلى حيث الوزير ووقف بجانب سريره يقول له لا بأس عليك إنك بخير إن شاء الله ، ثم انحنى عليه وقبل جبهته والدموع تنحدر على خديه . فقبض الوزير بكلتا يديه على يد الأمير وجعل يقبلها ويقول بخير يامولاى فى سماحة رضائك وعطفك . ثم ودعه الأمير وخرج والحزن باد على وجهه . ووقف لحظة لطيفة بين الجمع المحتشد ثم قام بركبه إلى قصر الإمارة بعابدين .

وفتشوا الجانى بعد أن أوثقوه فوجدوا فى جيوبه أربعة وعشرين رصاصة من رصاص المسدس الذى ضرب به الوزير ، ووجدوا خمسة وسبعين قرشا وساعة فضة وأوراق سلموها إلى صاحب الشرطة . والتفت إليه احد كبار الموظفين وقال له ما سبب هذا العمل الفظيع وما حملك على ما فعلته بالوزير ، فأجاب على الفور (لأنه خائن الوطن) . فقال ذلك الموظف وهو يولى وجهه (ويلاك يامسكين لو أنك عرفت أنه أكبر وطنى وأصدق من خدم وطنه فى هذه الأيام ما فعلت فعلتك هذه) . ثم نقلوه الى (مخفر عابدين) وأخذوا فى التحقيق معه وكبسوا داره وضبطوا ما وجدوه من الأوراق .

واجتمع جمع من الأطباء الجراحين وعددهم خمسة عشر طبيبا وبحثوا جرح الوزير فأقروا على عمل عملية جراحية لإخراج الرصاص من أسفل البطن وأنهم يشرعون فى ذلك حوالى الساعة السادسة مساء . ودخل عليه أولاده فقبلوا يده فابتسم لهم وشجعهم على مصابهم ، ثم دخل عليه (الأمير حسين باشا) وجعل يشجعه ويخفف عنه . فأجاب

(والله يا أمير إنى ما فعلت شيئا يضر ببلادى وقد قضيت ما يجب على وطنى)[٢٠] . فتنهد الأمير حسين وأنصرف . فلما حانت الساعة السادسة غصت الشوارع بالجماهير وغص المستشفى بالأمراء والعظماء ورؤساء الطوائف والعلماء منتظرين نتيجة العملية الجراحية . فلما انتهت خرج أحد الأطباء وتلا على المجتمعين أن الجريح بصق الدم فدل ذلك على جرح آخر داخلى ولكنه لم يحدث نزيف ولم تظهر عليه حمى ، وأن (الدكتور ميلتون) أجرى العملية الجراحية بمعاونة جماعة من الجراحين فنجحت والحالة شديدة ولكن الأمل كبير . ثم أخذ الأطباء بالإنصراف وسار (فتحى باشا) (وعبد الخالق باشا) إلى قصر الامارة وقصا عليه[٢١] ما عرفاه من الأخبار ثم عادا الى مقر وزارة الحقانيه لفحص ما ضبطوه من الأوراق فى دار المجرم الجانى . وظل الأمير جالسا مع جماعة الوزراء فى قصر الإمارة وأخبار التحقيق مع الجانى تأتى إليه تباعا حتى الساعة التاسعة مساء . فقام بركبه وعلامات الحزن بادية على وجهه . وقد دل التحقيق مع الجانى باعترافه بأنه كاتم أسرار (لجنة الحزب الوطنى) فى العباسية وأنه كان ينوى قتل الوزير منذ أيام وأنه بعد أن جاء الى موقفه ذلك يوما ومعه مسدسه خانته قواه ، وهو ينكر أن له شركاء . ومن مراجعة الأوراق التى ضبطت فى بيته ظهر أن بينه وبين كثيرين من أهالى الإقليمين القبلى والبحرى علاقات ولا سيما فى المنوفية وأسيوط . فطيروا الخبر الى بعض المديريات والمحافظات بالقبض عليهم فقبضوا عليهم وزجوهم فى الحبوس وجعلوا يستنطقونهم والكل يبرأون إلى الله من هذا الإجرام الفظيع .

قضى الجريح ليلته فى ألم النزع وعائلته حول سريره . وأصبحوا وقد غص المستشفى بالعديد من الأمراء والوزراء ووكلاء الدول ، فإذا الأبواب مقفلة وقد علق على واجهة الدار باللغتين الإنجليزية والعربية لوحة وفيها (عطوفة بطرس باشا غالى توفى إلى رحمة الله اليوم فى الساعة الثامنة والدقيقة خمس عشرة) . حدث الطبيب (حبيب خياط) زميل الدكتور مليتون قال (كان الفقيد الى الساعة الثامنة وعشر دقائق مالكا عافيته ، فأخذت انواله[٢٢] أنبوبا يتغذى منه . فنظر إلى وشهق ثلاثا وفاضت روحه) أ . هـ

---

(٢٠) وطنى = نحو وطنى قراءة ترجيحية

(٢١) أى على الأمير عباس .

(٢٢) انواله = أناوله قراءة تصحيحية .

فطيروا الخبر بذلك إلى الآفاق وكلموا الأمير فى قصره فنزل فى قلة إلى قصر الإمارة بعابدين فقصوا عليه مفصلات ما وقع للفقيد فى تلك الليلة وكيف فاضت روحه . ولما صارت الساعة العاشرة ونصف من ذلك اليوم العصيب خرج مشهد الفقيد من (مستشفى ملتون) ، وكان نعشه موضوعا على عربة مدفع وحوله حجاب الوزارات يحملون نياشينه وهى نيفا وثلاثون نيشانا من أكبر الدول وأعظمها ، وعلى مقدمة العربة إكليل من جماعة الوزراء ، ويتقدم العربة أبسطة الرحمه بأيدى جماعة الوزراء (والسر غورست) ومعتمد دولة الفرنسيس ومعتمد الروس ومعتمد الألمان ومعتمد اليونان ومعتمد النمسا ومعتمد الإيطاليان وأعضاء صندوق الدين . ووراء العربة أنجال الفقيد وشقيقه والأمير (محمد على) نائبا عن أمير البلاد والأمير (حسين كامل) رئيس الشورى والجمعية العمومية (ورؤوف باشا المعتمد العثمانى السامى) وجميع قناصل الدول وأعضاء صندوق الدين وجميع وكلاء الوزارات ومستشاريها ، ورؤساء وقضاة المحاكم ، ومندوبو بلدية الاسكندرية ومحكمة الإستئناف المختلطة والجمارك والمصالح الآخرى الرسمية وغير الرسمية ، ومديرو الأقاليم البحرية وأعضاء الشورى والجمعية العموميه وأصحاب الرى وجماعات التجار . ولا نستطيع عد ذلك الزحام العظيم فحسبنا أن نقول أن كل كبير عظيم وذى شأن كان فى هذا المشهد المهيب وكأن على رؤوسهم الطير . وسار امام المشهد فرقة كبيرة من المشاة من جند الإحتلال وأخرى من الفرسان تتقدمها الموسييقى ، وتبعتها قوة أخرى من العساكر والأجناد المصرية مشاة وركبانا وبطارية من مدافع مكسيم وأخرى من مدافع الميدان وموسيقى المشاة وموسيقى الركبان ، ثم مدرسة الطب وتلاميذ مدرسة الحقوق ومدرسة الأقباط الكبرى ومدرسة الهندسة والزراعة وجميع المدارس العالية والمدارس الخصوصية يتقدم كل مدرسة علم اسود ويحمل طلابها صورة الفقيد مكللة بالازهار . وكان طلبة الحقوق بالوشاحات السوداء . وكانت هيئة كبيرة وجلال عظيم لم تر عينى مثله ولم يذكر التاريخ العام والخاص له شبه فيما مضى . وسار المشهد على هذا الترتيب والنظام المحزن المهيب بين الجمع المحتشد الذى لا يمكن وصفه ولا يمكن لمكاتب أن يصوره لقارىء حتى تعذر على رجال الشرطه وصاحبها ضبط النظام كما يجب . وكانت جميع شرفات المنازل ملأى بالناس وكلهم يذرف الدموع . ولما تحرك المشهد أخذوا يطلقون المدافع من قلعة الجبل كل دقيقة وأخرى ، ونكست أعلام جميع المصالح

ودواوين الحكومه ، وعطلت وأقفلت البنوكه والبورصة والمصالح العمومية وجميع المخازن وبيوت التجارات التى مر بها المشهد . وظل سائرا الى (شارع كلوت بك) حيث صلى عليه فى الكنيسة الكبرى القبطية . ثم عاد المشهد سائرا من شارع كلوت بك الى (شارع عباس) فالمقبرة (بذير القديس رويس) بيس صفيس من الجند منكسى سلاحهم وأمامهم عربات الوزراء وقائد جيش الإحتلال وأركان حربه فالنعش وبقية المركبات المملؤة بالأكاليل والورد وهى زهاء ثلاثين مركبة . وبين تلك الأكاليل ماهو مهدى من أصحاب سياسات دول أوروبا وأصحاب المناصب العالية بها . فلما وصلوا بالنعش الى جوار القبر أنزلوه الى مثواه الخالد وأودعت تلك النفس الكبيرة مقرها الدائم الضيق فإلى رحمة الله .

وجاءت رسائل التعازى تباعا من كل صوب وناحية على قصر الإمارة ودار الفقيد من ملك الانكليز وإمبراطور الهند ، ورئيس مجلس اللوردات وصاحب السياسة الإنجليزية وملك ايطاليا وغيرهم من أقطاب السياسات الأجنبيه مما لا يدخل تحت عد أو حصر . وقامت أصحاب صحف الأخبار على اختلاف نزعاتهم حتى صحف الحزب الوطنى تعدد مناقب الفقيد وتذكر حسنات سياسته وتقول أنه كان الوطنى الصميم المحب لقومه ووطنه وأن أيام رياسته كانت كلها خيرا وبركة . ويعجبنى ما قالته (جريدة الأهرام) بعد كلام كثير يستنزف الدمع ويبكى الجلمود (سلام على بطرس فى نفسه وسلام على بطرس فى ضريحه وسلام على ذكره المعطر بأعظم الأعمال وأجل الخدمات) ، ورثاه الشعراء بأحسن ما قيل فى عظيم أو يقال . وابت[٢٣] من الأدباء من يقدرون الرجال حق قدرهم بأفصح ما سمعته أذن . وجاء من جماعة الأقباط بمدينة المنصورة إلى انجال الفقيد هذه الأبيات :

لقد قذفوا الرصاص على زعما	بأنى خـــائن أهلى وقطرى
وقد جادوا بها خمسا شدادا	تمزق مهجتى وتشق صدرى
وما فطنوا وقد سلبوا حياتى	الى ما فيه سر نجاح مصر
أضاعونى وأى فتى أضاعوا	ليـــوم كـــريهـــة أو يوم غـــدر

(٢٣) وابت = وأبنه قراءة ترجيحية .

ويلى هذه الأبيات العبارات الآتية (وهذه كلمات تكاد كل عين بصيرة تقرأها مرسومة مستبينة على لوحة مستقبل البلاد بيد المرحوم عطوفة بطرس باشا غالى رئيس الوزارة المصرية . ألا فليذكر المصريون هذا اليوم العصيب الذى احتشدت فيه جموعهم وقد طفت على أمواجها المتلاطمه جثة ذلك الفقيد الذى ذهب السعود بذهابه . ألا فليذكر المصريون ثالث عشر[٢٤] فبراير سنة عشرة وتسعمائة وألف . ذلك اليوم الذى ما طلعت فيه شمس إلا ليستعين الأحياء بنورها على رؤية مجد أمة بأسرها يوارى التراب ، وما عصف له هواء الا لينقل بين طياته إلى العالمين صدى الحسرات والزفرات والأنين) أ . هـ أقول وأمثال هذه الأقوال وتلك المراثى والقصائد كثير جدا يملأ مجلد صخم ولذلك أضربنا على إيراده هنا فسبحان الحى الأزلى الذى لا يموت ، سبحان مالك الملك والملكوت الذى لا راد لقضاءه ولا دافع لقدره ، سبحانه جل شأنه وهو أحكم الحاكمين . وبعد الفراغ من مشهد الوزير الفقيد جمع الأمير جماعة الوزراء فى قصر الإمارة وحادثهم ساعة فيما هم فيه ، وجاء (السير غورست) فكان بينه وبين الأمير من الحديث ما لم تصل إلينا معرفته . ثم شاع الخبر وتناقله أصحاب الصحف بأن قد جاء الأمر من صاحب السياسة الإنجليزيه بتشكيل هيئة الوزراء على الصورة الآتية (محمد[٢٥] سعيد باشا) للداخليه ورئاسة الوزراء (وسعد باشا) للحقانية (وسابا باشا) للماليه (وحشمت باشا) للمعارف(ورشدى باشا) للخارجية (وسرى باشا) للأشغال والحربية . وتحدث الناس به واختلفوا فى اختيار الأمير لرئاسة الوزراء (محمد سعيد باشا) والرجل قريب العهد بتلك المناصب العالية . فمن قائل أنه اختاره ليكون له عونا على قضاء ما

(٢٤) ثالث عشر = المفروض أن يكون التاريخ هو العشرون وليس ثالث عشر .

(٢٥) محمد سعيد باشا = محمد سعيد (١٨ يناير ١٨٦٣ - ٢٠ يوليو ١٩٢٨) . ولد فى الإسكندرية لأسرة ذات أصول تركية . تعلم فى مدرسة الحقوق الخديوية ، وتزوج ابنة شقيقة (أحمد مظلوم باشا ١٨٥٨ - ١٩٢٨) . عمل فى النيابة والقضاء المختلط والأهلى . تولى نظارة الداخلية فى وزارة (بطرس غالى ١٩٠٨ - ١٩١٠) وخلفه فى رئاسة الحكومة بعد اغتياله (١٩١٠/٢/٢٠) . عارض (الحزب الوطنى) عندما كان فى السلطة . استقال فى ١٩١٤ ولم يتقلد أى وظائف حكومية أثناء الحرب العالمية الأولى ، لكنه رأس الحكومة أثناء ثورة ١٩١٩ وتولى وزارة الداخلية . انتخب للهيئتين التشريعيتين الأولى والثانية فى مجلس النواب ، وعمل وزيرا للمعارف العمومية فى وزارة (سعد زغلول ـ ١/٢٨/ - ١٩٢٤/١١/٢٤) ، وتولى منصب وزير الزراعة لفترة قصيرة بعد استقالته (أى سعد زغلول) فى ٢٤ نوفمبر ١٩٢٤ . أدخل بعض التنظيمات فى وزارة المعارف أثناء وزارته فيها . جد (الملكة فريدة لأمها ، ووالد (محمود سعيد) الرسام الشهير .

- آرثر جولد شميت (قاموس تراجم مصر الحديثة) ترجمة وتحقيق عبدالوهاب بكر ـ مرجع سبق ذكره ، ص ١٧٨ .

فى نفسه من التصرف فى أموال الأوقاف ، ومن قائل بل ليحول بينه وبين نزعات أصحاب (الحزب الوطنى) ومؤامراته المنظمه التى منها قتل كبير الوزرا ، فقد علم بأن للرجل[٢٦] يدا فى هذه الكارثه وعلما سابقا لوقوعها . فقد سافر فى يومها يريد الإسكندرية ولم يصل[٢٧] إلى طنطا حتى وافاه خبرها فقفل راجعا ، حتى إذا سأله أحد مكاتبى الجرائد الأجنبيه عن رأيه فى ضجة أصحاب ذلك الحزب وعما إذا كان هو واحد من أقطابه فلم يستعظم الجهر بما فى نفسه من الميل إلى ذلك الحزب وامتدح مبادئه . قالوا فلم يسمع[٢٨] الأمير إلا اختياره كارها . ومن قائل غير ذلك مما لا محل لإيراده هنا فانه من سقط القول وفحش الكلام والله عليم بما فى الصدور [٢٩] .

يقولون فى كثير من المجتماعات[٣٠] الخصوصيه كان التحقيق مع الجانى الى ساعة ولاية (محمد سعيد باشا) كاشفا لكثير من الأمور الهامة الخطيرة جاريا مجراه القانونى ، وقد دل على أن الجناية مدبرة منظمه اشتغلت فى تدبيرها أيدى كثيرة ورؤوس كبيرة وليست فردية كما كانوا يقولون . فلما تولى الوزارة (محمد سعيد باشا) تبدلت الأحوال وكثر القيل والقال واشتد ساعد اصحاب صحف الحزب ، فقامت ضجتهم وأخذت المحققين من كل جانب ، فتولاهم الضعف وفارقتهم تلك العزيمة وصاروا يتخبطون فى عملهم تحت المراقبة والإشراف المعيب بدعوى المحافظة على سلامة البلاد وحفظ مقامها فى نظر الممالك الأوروبية ورفع تهمة الإختلال والفوضى عنها . وكانوا إذا قبضوا على إناس دل على تهمتهم التحقيق عادوا فأخلوا سبيلهم ، فلا يكادون يصلوا إلى دورهم حتى يعودون فيقبضون عليهم ثم لا يلبثون حتى يطلقون سراحهم وهكذا . فخاف الناس العاقبة وأخذتهم الطيره . وكانوا قد لبثوا[٣١] بيوت (الشيخ عبد العزيز جاويش) شيخ الحزب الوطنى (ومحمد فريد) رئيسه (وعلى كامل) نائبه وغيرهم من كبار الحزب وضبطوا أوراقا وسجلات ورسائل مختلفة وكلها من محفوظات الحزب . ثم عادوا فردوها

(٢٦) يقصد محمد سعيد باشا الرئيس الجديد .
(٢٧) يصل = يكد يصل قراءة اجتهادية .
(٢٨) يسمع = يَسَع قراءة ترجيحية .
(٢٩) وجه شاروبيم الإتهام إلى (محمد سعيد) بضلوعه فى حادث الاغتيال وعلمه المسبق لوقوعه ، وهو اتهام لاينهض شىء مما قدمه المؤلف دليلا على صحته .
(٣٠) المجتماعات = الإجتماعات قراءة ترجيحية .
(٣١) لبثوا = فتشوا قراءة اجتهادية .

ثم استعادوا بعضها ثم ردوها حتى قالوا أن فى تلك الاوراق والرسائل شيئا من بعض المقامات وشيئا من بعض أعضاء الجمعية العموميه وشورى البلاد .

وقامت ضجة أصحاب الصحف القبطية والصحف الأجنبية حول التحقيق مع الجانى ، ورفع بعضهم الشكاوى الطويله الى قصر الإمارة (والسير الدن غورست) . قيل وإلى صاحب السياسة الانجليزية يرجون إشارته الى (السير غورست) بأخذ الحيطة ورفع المخاوف المنتظرة من جراء سير التحقيق على هذا النمط من التردد والتخبط المعيب . وانفع[٣٢] أصحاب الصحف الساقطة يمجدون الجانى ويمتدحون عمله ويرسمون صورته على صفحات صحفهم بأشكال مختلفة مذيلة بالأبيات من الشعر الركيك والقول السخيف وهى ويعلم الله صورة كصورة زنوج أمريكا الجنوبية . فكان العامه والسوقة إذا طاف بائعو تلك الصحف ينادون بها تخاطفوها والتم حولها العاطلون وزعر العطوف يقهقهون ويزأطون ويقولون (أيوا ياعم أيوا ياعم أيوا ياصبوه) وغير ذلك كثيرا مما لا معنى له ، حتى يأتى أصحاب الشرطة ويفرقونهم وربما قبضوا على بعضهم وقادوهم إلى الحبوس . وظهر من استجواب المتهم ساعة بعد ساعة أنه عضو من أعضاء جمعية سرية من التلاميذ المصريين الذين يتعلمون ببلاد (السويس) وتلاميذ مدرسة رأس التين الأميرية (وجمعية تشجيع الإرساليات فى أوروبا) . وقد كان الجانى ألفها بعد عودته من دار السلطنه العثمانية . واتضح أن (الشيخ عبد العزيز جاويش) كان شديد العناية بالجانى أينما سار وحيثما صار . لاسيما عند سفره إلى الديار الأوروبية ، إذ كان يدعوه (مُكاتِب اللواء) ليمكنه من ولوج ابواب المنتديات العالية والمجالس النيابية والمحادثة مع أهل الوظائف وأصحاب المناصب كما كان يزعم . واتضحت تهم أخرى عظيمة ولكنها أغفلت وكأنها لم تكن لأسباب وعلل لم يصل أحد من الناس إلى معرفتها الا بعد فوات الوقت الطويل . ولما نقلوا الجانى إلى سجن محافظة المدينة اختصت كل صحيفة من صحف (الحزب الوطن) بالكلام عن شيء من أشيائه كنومه وقيامه وغسله ومطالعته فى بعض الكتب التاريخية والأدبيه وطعامه وشرابه . فكانت (جريدة اللواء) تقول قد نعس ونام (إبراهيم الوردانى أفندى) ليلته التى مضت على اسحن[٣٣] ما يكون من الراحة

---

(٣٢) وانفع = واندفع قراءة ترجيحية .

(٣٣) أسحن = أحسن قراءة ترجيحية .

والطمأنينة . وتقول (مصر الفتاة) كان غذاء (الوردانى افندى) اليوم قطعتين من (الكوتليت الضأن) وطبق من (المكرونى) فأكل هنيا مريا . ويقول غيرهما طلب (الوردانى أفندى) من النيابة العمومية أن تأتى إليه ببعض كتبه من مكتبته الخاصة فلم ترد له طلبا وهو يصرف أكثر أوقاته فى المطالعة . ويقول غيرهم سأل (البطل الوردانى) النائب العمومى أن يستحضروا إليه سترته (الريد نجوت) ليلبسها عند ذهابه الى قاعة التحقيق وأن يكلفوا أحد الحلاقين بحلق لحيته وهندام شعره ، ويقول غيرهم غير هذا كثير . وكانت لا تخلو صحفهم يوما من هذه العبارات الشاذة الجارحة ، وكان العقلاء يعدونها من سقط القول والهتر المعيب ، والجهلاء والعامة يهرفون بها ويتخيلون أنها حقائق تدل على مبلغ ما للجانى من الحرمة والإعتبار عند أولى الأمر ، وأن إقدامه على قتل الوزير إنما هو عمل يثاب عليه ومشكور . أقول حدثنى صاحب من المقربين فى قصر الإمارة قال (لا أخطئ اذا قلت لك انه لم تخف على الأمير خافية من التآمر على قتل الوزير وهو يرى أن الخطب عظيم والعاقبه وخيمة والمطل فى استنطاق المسئولين ضرب من المواربة والتغرير ، حتى أنه قال إلى أولاد القتيل يوم ذهب للعزاء فى دارهم إنى ناظر الى هذا الحادث الذى أحزننى ويعلم الله بعين ساهرة حتى تأخذ العداله حقها من كل جانى أثيم ، فخففوا عنكم والله مع الصابرين) . قال محدثى (ثم أرجع فأقول كيف أن وزير الداخليه يطلق العنان لأصحاب تلك الصحف المعادية لراحة البلاد إلى هذا الحد من الإستهتار والدعوة إلى الهرج وتشجيع أهل الشقاوة والمتهوسين من أذناب وزعانف ذلك الحزب على فعل ما فعله(الوردانى) ، وأى عذر له فى عدم إيقافهم عند حدهم (وقانون المطبوعات) حجر عثرة فى سبيلهم هذا . ثم ما الذى أعده سامحه الله لاسترجاع الطمانينة والسلام إلى داخل البلاد وقد حل محلها الذعر الشديد والشقاق الذى ما عليه من مزيد حتى صار العنصران اللذان عليهما وبهما عماد البلاد خصمان عنيدان وعدوان لدودان ، وعظمت بينهما الفرقة فانمحى عهد ذلك الأخاء القديم وصار كل واحد منهما ينظر إلى الآخر نظرة الغاضب المتحين للفرص المتبين لانتفاعها فلا حول ولا) . . فرح أصحاب الحزب الوطنى ومتطرفيه بكلمة قالها[٣٤] أو هم يقولون بأنه قالها إلى مكاتب جريدة إفرنسية

(٣٤) يقصد (محمد سعيد) رئيس النظار .

(الحرية حق طبيعي وأحرى إن كان برنامج الحزب الوطنى الدفاع عن مصالح البلاد فأنا من مقدمى أصحاب الحزب) . فأقدموا على كل عمل غير مشروع وأقاموا العصابات فى كل صوب وناحية تدبر الخلاص لذلك الجانى من حكم الشريعة وعقاب القانون . وجمعوا الأموال الطائلة لهذا الغرض بسخاء ، واستقدموا احد كبار المتشرعين من ديار الفرنسيس ليستفتونه فيما هم فيه بل وتطوع جماعة من المحامين للدفاع عن الجانى لا حبًّا فى العدل وإحقاقا للحق بل لإزهاقهما وإفلات الجانى بجنايته . تولى الوزارة الكبرى والأيام دول فدلت مبادئ ولايته على مستقبل للبلاد عصيب ويوم لأبنائها عظيم الشدائد . تراعبت والله من وراء ما يفعلون) . فقلت يارعاك الله لقد أكبرت ما استصغره القوم من عاقبة هذه الجناية ، وتشاءمت وهم يتفاءلون بقرب انقشاع سحابتها عن سماء البلاد ، فيروق لهم الحال وتزول تلك الغطوب والخطوب التى كانوا يدعون أنها علة اغتيال الوزير الفقيد وسببا فى انقلاب الأحوال إلى هذا الحد المريع . فقال (كان إذا قالوا له وللسير غورست أن الجناية ليست فردية وأن الجانى أضعف من أن يقوى على ارتكابها بغير معين ولا محرض أخذتهما رجفة الغضب وقالا كلا ولا) . حتى لقد كتب (السير غورست) إلى صاحب السياسة الإنجليزية يقول إن البلاد هادئة مطمئنة فى ظل الإحتلال وأن ما وقع من قتل (الوزير بطرس باشا) كان نتيجة تهوس شاب ممن يدعون الوطنية الصادقه وأن ليس فى الأمر ما يدعو الى التشاؤم . فانخدع صاحبه وانخدع غيره ممن لا يعرفون شيئا عن أخلاق العامة والعاطلين من أهل البلاد ولا سيما إذا آنسوا من أهل الحل والعقد تراخيا أو إغضاء ، ولم يؤخذوا بالشدة الواجبة عدلا ونظاما . تلك الشدة التى نصت عليها الشريعة وصرح بها القانون . فما بالك وقد أباحوا إلى أصحاب تلك الصحف البحث فى أدلة الجنايه وفى حالة الجانى الصحية وفى أسباب وعلل الجناية وفى مايعترى ذلك الأثيم من الرجفات العصبية إذا سمع بأمر يضر على زعمه بالوطن أو يحدث فيه تفضيل للعنصر النصرانى على العنصر الإسلامى . كل هذا يقولونه مقصرا ويذكورنه منمقا مفخما ويذيعونه بين السوقة وضعاف الأحلام ، فيتخمر فى رؤوسهم ويتحول إلى سم زعاف يجرى فى شرايينهم . فلا تلبث أن تتبدل أخلاقهم الإنسانية وحشية وطباعهم الآدمية حيوانية . وهناك الخوف المقيم والأمر لله وحده من قبل ومن بعده) ثم ودعنى وانصرف .

وكان (الأمير حسين) رئيس الجمعيه العمومية ومجلس شورى القوانين) كثير التتبع لمجرى التحقيق واكتشاف أسرار هذا الحادث الخطير . يقال فكانت تأتيه الأخبار حافلة بالحقائق والمغامز السرية . وكان يحب الوزير حبا جما حتى أنه لم يفارق سريره ساعة إجراء العملية الجراحية . فما هي إلا أيام حتى سير إلى قصر الإمارة استقالته من رياسة (الجمعية العمومية ومجلس الشورى) . فأكبر (الأمير عباس) ذلك وسير الى عمه يسأله العدول عن هذا العزم فى هذه الآونة المضطربة ، وأرسل اليه وفدا من الوزراء وآخر من أعضاء الجمعية العمومية ومجلس الشورى . وأكثروا من الإلحاح عليه بالعدول ورد استقالته فلم يقبل وأصر على عزمه وانزوى فى قصره واحتجب عن الناس أياما حتى برز الأمر بتقليد (محمود فهمى باشا) منصب هذه الرياسه فتولاه مكرما مشكورا بكل لسان . وسافر (الأمير حسين) الى مزارعه (بجبارس) مأسوفا عليه .

وإلى يوم الخميس عشرى صفر من السنة وثالث مارس سنة عشرة وتسعمائة وألف قالوا أن التحقيق مع الجانى ومن اتهم معه قد كان ينقسم إلى قسمين . الأول عن الجناية وهو محصور فى شخص القاتل لأنهم لم يعثروا على شريك له فى جنايته حتى الآن . والثانى عن (الجمعية السرية) وغايتها التى هى قلب الهيئة الحاكمة رأسا على عقب . وثبت للملأ أن فى البلاد جمعيات أو جمعية سريه مقيدة برموز وإشارات واصطلاحات مخصوصة لقصد مخصوص خلافا لما كان يظنه أصحاب الحل والعقد وعلى رأسهم (السير غورست) .

ووصلت صحف الديار الأوروبيه مفعمة بعبارات العزاء لأهل الفقيد والإطراء والثناء الكثير على شمائله وماخدم به وطنه أيام رئاسته من الغيرة والصداقه المتناهية . ووقف (اللورد كرومر) خطيبا فى دار الندوة الانجليزية فى مقتل الفقيد فقال (هناك حادثة محزنة كثيرا متعلقة بالأمور الخارجيه لا أرى بدا من الإشارة اليها ، فقد علمتم أيها السادة أن قد اعتدى على (بطرس باشا غالى) رئيس وزراء مصر ، وهذا الإعتداء جريمة سياسيه ألِفنَا مشاهدة أمثالها فى الأنحاء المختلفه ، ولكنى مع الأسف العظيم أقول أن (بطرس باشا) قد مات غدرا وأن مصر قد فقدت بموته سياسيا عاملا قادرا شريفا ممتازا (صوت استحسان عام) . وقد أسرع ناظر خارجيتنا فى الحال فأرسل إلى الحكومة المصرية وإلى عائلة الفقيد تعزيتنا الأكيدة واشتراكنا معهم بتقدير هذه الخسارة التى يقدرها قدرها الحقيقى كل من يهتم بمصالح مصر) (صوت استحسان عام)أ . هـ

وكتب هذا اللورد الى جريدة التيمس يقول (إننى أثناء إقامتى فى مصر عاشرت بطرس باشا واشتركت معه فى الأعمال وكنت أقدر كفاءته ومقدرته كثيرا وأعجب به غاية الإعجاب ، وقد نكبت ديار مصر فى موته بخسارة عظيمة لأنه بدون ريب كان أعظم كفاءة من جميع الوزراء المصريين الأحياء فضلا عن أنه كان مصريا صادق الوطنية ، فكان يعمل بإخلاص وأمانة وصدق عزيمة لما فيه مصلحة وطنه الحقيقية . وهذه الجريمه التى قطعت حياة ذلك العظيم قبل أوانها هى افظع جريمة عرفتها حتى الآن) أ . هـ .

وقال مثل ذلك صاحب جريدة (طنين) العثمانية وغيره من أصحاب الصحف الكبرى الأجنبية . وقام جماعة من عقلاء المسلمين وأصحاب الرأى فيهم يدعون اخوانهم القبط الى الوئام وترك الفرقة والخصام وتناسى ذلك الحادث الأليم فإن البلاد فى حاجة إلى إتحاد العنصرين وارتباط الأخين فى هذا الوقت العصيب . وكانوا يكتبون الأبيات والرسائل الطافحة بأرق عبارات العطف والمجاملة . وظلوا على هذا أياما حتى سكنت الخواطر أو كادت . فما هى إلا أيام حتى عاد الإرجاف بأن جماعة من زعانف (الحزب الوطنى) تمكنوا من نقب سجن (الوردانى) من ناحية (درب سعاده) ولكنهم لم يتمكنوا من إخراجه ، وتحدث الناس بهذا . قيل وذهب الموكلون بحراسة ذلك السجن الى صاحب الشرطة وطلبوا إقالتهم من هذه الحراسه أو أنهم يعطون سلطة تعينهم على دفع كل خطر . وعاد أصحاب الصحف المعتدلة إلى تحذير أهل الحل والعقد من الإغضاء والتراخى المفضيان إلى أوخم العواقب . وبرز الامر بتوقيف (سالم عبد النبى) مأمور ذلك السجن وتأديبه لثبوت إهماله فى تعهد السجن مما أعاد اضطراب الخواطر بعد سكونها . وفى ظهر ذلك اليوم دخل (جامع المردانى) رجل يقال له (الشيخ محمد المكاوى) وهو يَدَّعى أنه من أهل (مكة) وقد وفد على مصر منذ شهر أو يزيد ، فلما صار فى صحن الجامع أخذته رجفة وجعل يزبد ويرعد ويتفتف ويصيح بملء شفتيه (ألله اكبر الله أكبر) (نصر الله الإسلام نصر الله دين محمد بن عبد الله) . وكان المدرسون يلقون الدروس على الطلبة فوقف فى وسطهم وجعل يسبهم ويشتمهم بأقبح الشتم والسب ويقول لهم مابالكم ياخونة لا تطردون الكفار من هذه الديار وتمنعون طغمة النصارى من دخول مساجد المسلمين وقد أمركم بذلك الشرع والدين . وما بالكم لا تخرجون الإنجليز من هذا البلد الأمين بلد سيد الأنبياء والمرسلين الله أكبر الله أكبر يالطيف يالطيف .

وجعل يضرب الأرض برجليه ويصيح بأعلى صوته بيالطيف . فقام نفر من الطلبة وقبضوا عليه وهو يضرب بيديه ورجليه . وأسرع نفر من الشرطه وأوثقوا كتافه وقادوه الى دار الشرطة والناس من خلفه مختلفون فى أمره ، فمن قائل أنه ولى من أولياء الله ومن قائل هو نذير بما سيحل بهذا البلد من غضب الله ، ومن قائل دعونا ياقوم من هذه الحال فقد غلب علينا الجهل حتى صرنا لا نفرق بين الولى والشيطان والأدمى والحيوان ، فلا حول ولا . يقال ولما أدخلوا الرجل الى السجن وفتشوا ملابسه عثروا على مشرط وعلبة سعوط ومبسم للتدخين . فسألوه عن ذلك فقال أما المشرط فهو لى وهو الذى استعمله فى نشل ما فى جيوب المارة فى الشوارع والحارات ، وأما علبة السعوط والمبسم فهما للشيخ الذى قام بضربى هو وتلاميذه عند دخولى الى صحن الجامع فإنه بينما كان يصفعنى كنت ألتصق به وآخذ بتلابيبه حتى نشلت ما وجدتموه . وأثبت صاحب الشرطة أن الرجل أفاق لا مأوى له ولا صناعة وأنه أمهر النشالين كثيرى الحوادث فى سائر أقسام القاهرة ومصر القديمة .

وإلى هذا الحين كانت جناية قتل (الوزير بطرس باشا) قد ثبتت على الجانى وتهمة الإشتراك معه فى جمعية سرية على آخرين من تلاميذ المدارس وهم (عبد الخالق عطيه) (وحبيب حسين) (ومحمد كامل) (ومحمود أنيس) (وعبده البرقوقى) (وشفيق منصور)(وعبد العزيز رفعت) (وعلى مراد) . وقد تولى الدفاع عنهم جماعة من المحامين بعضهم تطوع وبعضهم بأجور باهظة . وأما القاتل فقد اختار للدفاع عنه (محمود بك أبو النصر) (وأحمد بك لطفى) وقال أن الذى اختار هؤلاء للدفاع عنه أصحاب (الحزب الوطنى) بعد أخذ ورد . وتحولت أنظار المتشائمين من سوء عاقبة الحركة البادية فى هذه الآونة إلى تغاضى وزارة الداخلية عن واجبها وهى صاحبة القول المسموع والكلمة المتبوعة فى المحافظه على الأموال والأرواح والضرب على أيدى العابثين وأصحاب المؤامرات . وعابوا على الرئيس (محمد سعيد باشا) ممالئته لأصحاب الحزب الوطنى وتقريبهم من مجلسه حتى اتهمه بعضهم بأنه لم ينكر عليهم عملهم ولم يطلق يد صاحب الشرطة فى الحيلولة بينهم وبين مايريدون من إزعاج الناس وإذهاب راحتهم بكتب التهديد ورسائل الوعيد لغرض فى نفسه يريد قضاءه ، حتى لقد شاع الخبر وتناقله أصحاب الصحف بأنه قد تلقى الأمير وهو فى قصره كتاب تهديد ووعيد إذا لم يفعل كذا

وكذا . قالوا فاهتم الأمير لذلك وسير فى طلب محافظ المدينة ولامه وعنفه . فشكا مما يلاقيه من الرئيس وما يسمعه من (السير غورست) من حين الى حين . وطلب من وزارة الداخلية أن لا تغفل التحوط والسهر على شخص الأمير فى غدواته وروحاته وأن تجعل نفرا من الشحنة الملكى[٣٥] حوله عند مايحف به الجند والحرس ، قيل وأسر شيئا للأمير لم يصل أحدا إلى معرفته بعد ، فتبدلت عند ذلك أحوال الأمير فكان ينظر إلى وزيره بعين الريبة والحذر ويوجس خوفا من ذلك الشر المقيم . وشاع أنه جمع اليه جماعة الوزراء وكلمهم طويلا فى سن قانون للنفى السياسى عساه يستأصل تلك الروح الشريرة التى قد تملكت من النشأة الحديثة . فتكلم فى ذلك أصحاب الصحف فكانوا فى أمره بين مستحسن ومستهجن . وكانت الهيئة الحاكمة قد رسمت بإلغاء وإبطال (جريدة اللواء) ، التى هى لسان (الحزب الوطنى) وأداته العاملة فى نفوس ضعاف العقول والدافعة لهم على كل أمر خطير ، فاستصدروا بدلا منها أخرى باسم (العلم) فكانت أكثر شرا من (اللواء) لا سيما وقد كان ظهورها فى وقت لا يصح لوزارة الداخلية ان تأذن بظهورها وهى تعلم أن كل جريدة لذلك الحزب أو كل صوت يسمع من جانبه إنما هو للحض على الهرج وشق عصا الطاعة فضلا عن الإرهاب والتهديد والكذب المعيب . أقول وسمعت حديثا فى أحد المجالس الخاصه بأن الأمير عثر يوما على ورقة تحت وسادة سريره مكتوب فيها بقلم عريض (كما قتل بطرس فكذلك أنت تقتل) . وهم ينسبون هذا العمل إلى إغضاء (الرئيس محمد سعيد باشا) . فاستكبرت هذا الأمر واستعظمته إلا اذا كان من بعض نساء قصره الغاضبه عليه غيرة كما يقولون .

ولما كان يوم الثلاثاء حادى عشرة ربيع الأول من السنة وثانى عشر مارس سنة عشرة وتسعمائة وألف رفعوا الى قاضى الإحالة (بمحكمة مصر) قضية (الوردانى قاتل بطرس باشا) الوزير والثمانية المتهمين بمشاركته فى جرمه ، وتولى النائب العمومى تفصيل التهمة وطلب من القضاء إحالة (الوردانى) على محكمة الجنايات بصفته قاتلا متعمدا يستحق عقوبة القتل ، وحسبان الثمانية المحبوسين شركاء فى الجريمة . فوقف المحامون ودافعوا أولا عن (الوردانى) وطلبوا تحقيقا تكميليا أولا فيما يختص بحالته

(٣٥) الشحنة الملكى = الشرطة السرية .

العصبيه . وثانيا فيما يختص بتقرير (الدكتور ملتون) عن وفاة المجنى عليه لأن هذا التقرير لا يعد دليلا قانونيا على ذلك السبب وأنه نتيجة اطلاق الرصاص ، بل إنه دليل على أن الوفاة نتجت عن العملية الجراحية ، ويكون الجرم شروعا فى القتل . وبعد قليل أصدر قاضى الإحالة حكمه بإحالة (الوردانى) على محكمة الجنايات فى دورها فى ثالث شهر إبريل من السنه وبأن لا وجه لإقامة الدعوى على الباقين . فما أتم القاضى قراءة قراره حتى ارتفعت أصوات الحاضرين إلى عنان السماء (بيحيى العدل يحيى العدل) . فصاح لصياحهم من كانوا فى صحن دار المحكمة من أهل المتهمين وأقربائهم وأصدقائهم . واشتد الضجيج شدة بالغة ، فترامح المارة فى الشوارع يزأطون أيضا . ثم خرج المتهمون الذين حكم القاضى ببرائتهم بين أهلهم وذويهم والناس لا يصدقون نجاتهم .

وبينما (الوردانى) واقفا أمام قاضى الإحالة دخل رجل يقال له (حسن مرعى) فى زى فراش وبيده فنجان قهوة ودس الى (الوردانى) خطابا وخرج ولم يشعر به أحد . فلما أعادوا الجانى إلى محبسه فتشوه فعثروا على الخطاب فسألوه فقال أنه دس اليه من (حسن مرعى) فاستدعوه وسألوه وشددوا فى سؤاله . فاعترف بأن جماعة من (الحزب الوطنى) وأكثرهم من تلاميذ المدارس اجتمعوا فى منزل لأحدهم وصنعوا تمثالا للوزير الكبير (بطرس باشا) من الشمع ومثلوا به تمثيلا مضحكا فكبسهم أصحاب الشرطة وقبضوا عليهم . وقبل أن يقبض عليهم استدعوه وسلموه ذلك المكتوب وكلفوه بتوصيله الى (الوردانى) نظير شيء من المال دفعوه اليه ففعل ما فعله ودس الكتاب الى (الوردانى) ولايعرف مافيه فزجوه فى السجن[٣٦] .

---

(٣٦) سجل مقتل (بطرس غالى باشا) رئيس النظار يوم ١٩١٠/٢/٢٠ أكثر من نتيجة :

- كان هذا العمل هو أول مؤشر على دخول عناصر جديدة فى العمل السياسى المصرى لم تكن واردة من قبل ، وأعنى بها (العنف السياسى) . ولقد كان هذ فى حد ذاته فكرا جديدا على الشارع السياسى المصرى ، استورده ذلك النفر من المصريين الذين تعلموا فى الخارج وعايشوا أو عاصروا الأفكار المتطرفة للجماعات الثوروية (كالفوضوية) Anarchism التى يؤمن أصحابها بأن جميع أشكال السلطة الحكومية غير مرغوب فيها ولا ضرورة لها ، إلى جانب الدعوة إلى المبادئ الفوضوية أو العمل وفقا لها .

ومن المعلوم أن (إبراهيم ناصف الوردانى) التحق فى عام ١٩٠٦ بكلية الصيدلة (بلوزان) بسويسرا ، حيث كان الوسط الذى يحيط به يعج بأفكار الفوضويين والثوزيين والتيارات الاشتراكية ، كما أنها كانت ملجأً رئيسيا لجماعات المنفيين واللاجئين الذين استقروا بها مستغلين مناخ الحرية النسبية الذى كانت توفره لهم هذه البلاد .

=

. . . .

= وتكشف التحقيقات التى أجريت مع (الوردانى) أنه تأثر بالوسط الذى شاهده فى أوروبا ، واشترك مع بعض زملائه فى تكوين جمعية فى (لوزان) تسمى (جمعية مصر) كان من أهدافها مناقشة المسائل العلمية ومساعدة الطلبة المصريين الذين يأتون إلى (سويسرا) للدراسة ، كما كانت تناقش السياسات الحكومية والمسائل الحزبية . وقد شهد بعد شهود القضية أن(الوردانى) كان شديد الحماس شديد التأثر فى المناقشات المتعلقة ببلاده .

- كانت البلاد عندما عاد (الوردانى) إلى مصر تعج بالعمل السياسى وتفور بالرأى العام الثائر على السياسات البريطانية الغاشمة التي وضع أساسها (كرومر) في مصر ، وعلى الحكومات المصرية الخائفة والخاضعة للسياسات البريطانية فى إدارة البلادو دون أن يكون لهذه الحكومات أى رأى أو معارضة على هذه السياسات .

- وكان طبيعيا أن تصطدم أفكار الرأى العام الثائر بنظم الحكم التابعة ، وأن ينتج هذا ردود أفعال متباينة تراوحت بين الكتابات الصحفية الثائرة ، والفكر الثورى المتهيج الذى مثلته المظاهرات العنيفة والهتافات الغاضبة ، وخطابات التهديد للقيادات السياسية ، وتشكيل الجمعيات السرية .

وكان الرأى العام المصرى قد شهد تطورا فى الفكر السياسى على الساحة ، كان من أهم مظاهره المطالبة بالدستور تمثلا بثورة (جمعية الإتحاد والترقى) في يوليو ١٩٠٨ ، وما انتهى إليه الأمر من الإطاحة بالسلطان (عبدالحميد) رمز الحكم الفردى والقمع والاستبداد فى أبريل ١٩٠٩ .

- فى ظل هذا المناخ السياسى المتوهج عاد (الوردانى) إلى مصر فى أوائل ١٩٠٩ ،لينضم إلى الفصيل الذى كان يقود كل هذا الزخم من الحركة الوطنية (الحزب الوطنى) ، وليصبح وكيلا للجنة الحزب عن (العباسية) ، وعضوا بنقابة العمال ، ثم لينضم إلى (جمعية التضامن الأخوى) التى كانت قد تحولت إلى هذا الاسم بعد ما كانت تسمى (جمعية الإتحاد الإسلامى) .

- وأنه وإن كان أعضاء الجمعية قد أنكروا لدى استجوابهم فى أثناء تحقيق القضية ما ثار بشأن المصطلحات الكودية لمراسلات الجمعية وضرورة كتابة عضو الجمعية لوصيته ، وهو ما يمكن الإستنتاج منه أن الجمعية كانت تتضمن من بين برنامجها أعمالا تتعارض والقانون - فإن قضية أن تكون (الجمعية) جمعية سرية للعمل السياسى الثورى أمر يمكن قبوله .

- وكان (بطرس غالى) عندما تولى النظارة فى ١٩٠٨ يحمل سجلا أقل ما يقال فيه أنه سجل لا ترضى به الحركة الوطنية الثائرة ، فقد كان رئيس المحكمة المخصوصة التي أزهقت أروح مصريين أبرياء فى دنشواى (زهران وزملاءه) ، وقبلت بجلد أهل القرية المنكوبة أمام النساء والأطفال إمعانا فى إذلال المصريين ، وكان هو الذى أعاد العمل (بقانون المطبوعات لعام ١٨٨١) بما يحمله ذلك من ضيق بنشاط الحركة الوطنية وإتخاذ الخطوات الملائمة لإيقافها ، ثم عمد بالفعل إلى التضييق على تلك الحركة بتعطيل صحفها وإلغائها والزج بالصحفيين فى السجون ، ثم قدم فى وقت غير مناسب مشروع مد امتياز قناة السويس والشعب كله رافض له ، وكان ضائقا بمطلب الدستور ويعتبر المطالبة به من جانب الشعب (جريمة ضد البلاد) ، كما كان هو الذى وقع اتفاقية الحكم الثنائى للسودان(١٨٩٩) .

- ولقدكان يمكن لبطرس غالى أن يبدى شيئا من السلوك الإسترضائى الذى كان معروفا عنه ، والذى اختص به المعتمد البريطانى دون الشعب ، أقول كان يمكنه أن يسترضى الشعب بالتخفيف من التصرفات والإجراءات المتعارضة مع المطالب الشعبية فى الحرية والدستور ، لكنه أمعن فى سياسته المعادية للشعور الوطنى إلى حد جعل (الخديو عباس) يحذره على لسان رئيس ديوانه (أحمد شفيق) فى مذكراته عن عام ١٩٠٩ عندما قال له (إننا نجتهد يا باشا فى إزالة ما علق بالنفوس من حادثة دنشواى بدلا من أن نضيف إليها أمرا جديدا تقع مسئوليته عليك) (يقصد إثارة مسألة مد امتياز قناة السويس) .

وقد وقر فى الضمير الجمعى فى ذلك الوقت أن (بطرس غالى) كان يعمل فى غير صالح الحركة الوطنية ، وأن

ومن غرائب الإتفاق حضور (المستر روزفلت) الذى كان رئيسا (للولايات المتحدة الأمريكية) الى مصر تبديلا للهواء ولمشاهدة السودان وما فيها . فلما وصل القاهرة جعل يزور معاهدها العلمية ومتاحفها ومحال آثارها . وزار الجامعة على حداثة عهدها ، فألقى فيها خطبة طويلة جمعت فأوعت من أساليب السياسة والعلم والأدب والحض على السكون والعمل بالتأنى والحكمة وعدم التسرع فى طلب ما لا قدرة على طلبه الآن مثل الدستور ، أو إخراج الإنجليز من ديار مصر أو غير ذلك مما لا سبيل اليه إلا بارتقاء العلم

= كل همه كان إرضاء الإحتلال البريطانى . ونحن لانستطيع أن نسلم بهذا على إطلاقه ، فالرجل مهما كان وصفه كان يفعل ما يتصور أنه لمصلحة الوطن ، لكن مشكلة (بطرس غالى) أنه فهم جيدا أن أوراق مصر كلها فى يد الإحتلال البريطانى وليست فى يد الحكومة المصرية ، لذلك فإنه كان يتصرف من منظور عملى بحت ، فيباحث ويعرض ويسلم بأوامر الاحتلال المتمثلة فى نصائح المعتمد البريطانى .

- ويقتضى واجب الإنصاف ، القول بأن (بطرس غالى) فى هذا المسلك لم يكن نسيج وحده ، فقد كان (مصطفى فهمى) رئيس النظار (١٨٩٥ - ١٩٠٨) يمارس فى هذا المقام ما يفوق ما كان يفعله (بطرس غالى) . كذلك فإن الوزراء جميعا - بما فيهم (سعد زغلول) كانوا يقبلون بلا معارضة بتعليمات وأوامر الاحتلال ونواهيه .

- ولقد فجر هذا الحادث إتجاهات طائفية مقيتة عند الكثيرين من الأقباط والمسلمين ، وتبادل الطرفان مظاهر الكراهية والعداء ، وحاول البعض صبغ الحادث بدوافع طائفية ، وأدى الحادث إلى تفشى هذا الفكر بين غالبية المسيحيين فى مصر وأصاب حلوقهم بمرارة شديدة .

ومع أن (الوردانى) برر فعلته غير المبررة بأن رئيس النظار خائن لوطنه لتبنيه مشروع مد امتياز شركة قناة السويس ، وقبوله رأسة المحكمة المخصوصة فى (دنشواى) ، وتوقيعه اتفاقية السودان ، وإخراجه قانون المطبوعات من قبره ، وإهانته مجلس الشورى والجمعية العمومية . مع هذا كله إلا أن قطاعا غير قليل من المسيحيين ظنوا أن (بطرس غالى) قد قُتل لأنه قبطى ، وهو ما يخالف الحقيقة جملة وتفصيلا . فالدافع الوحيد لارتكاب الجريمة كان هو ثبوت خيانة (بطرس غالى) عند قاتله ، وهو دافع سياسى بحت . وهو ما انتهت إليه المحكمة ؛ لكن الحادث فجر - مع ذلك - (فتنة طائفية) فى مصر بشكل موسع .

- كذلك فقد كشف التحقيق فى القضية خلو قانون العقوبات المصرى من نص يعاقب على (الاتفاق الجنائى) الذى يمكن أن يطال المشاركين فى الجريمة الأمر الذى أدى إلى إفلات المتهمين التسعة الذين اعتبروا شركاء للجانى فى الجريمة .

- ولم يقتصر الحادث على تفجير مسألة الفتنة الطائفية فقط ، لكنه كان بداية سلسلة من الإجراءات القمعية التى تعرض لها (الحزب الوطنى) الذى كان يقود باقتدار الحركة الوطنية المصرية فى ذلك الوقت ، وهى إجراءات أدت فى النهاية إلى هجرة قيادات الحزب إلى الخارج وبالتالى انفصال قيادة الحزب عن قاعدته ، وهو ما كان له أسوء العواقب على المسيرة الوطنية .

- سيد عشماوى (العيب فى الذات الملكية) - مرجع سبق ذكره - ص ٢٦٧ .

- أحمد شفيق باشا (مذكراتى فى نصف قرن) - مرجع سبق ذكره جـ ٢ - ص ١٨٧ .

- شفيق منصور المحامى (تاريخ الجمعيات السرية بمصر) . مذكرة بخط اليد تتناول العمل السرى فى مصر من عام ١٩٠٥ حتى عام ١٩٢٥ - ضمن أوراق القضية ١١٠ جنايات السيدة زينب سنة ١٩٢٥ (مقتل السردار لى ستاك فى ١٩٢٤/١١/١٩ .

- محمد عبدالرحمن برج (دراسة فى الحركة الوطنية المصرية - وزارة بطرس غالى) ، مرجع سبق ذكره - مواضع متفرقة .

أولا واتحاد العناصر ثانيا والإعتصام بالحكمة ثالثا . ونصح بترك التشبه بالغربيين ومحاكاتهم فى ما لاينطبق مع العادات والآداب والأخلاق والشرائع المشرقية . وكانت حركاته كلها وهو على المنبر تشف عن إخلاص فى النية وسلامة فى القول وحماسة لا يشوبها ملل . فلم ير من الحاضرين إصغاءاً ولا قبولا حتى لقد كان بعضهم يشوش عليه وكلهم من سمال المدارس الأميرية . ومع ذلك لم يمنعه هذا من إلقاء خطبته كلها ولم يوقفه عند حد من حسن النصيحة والتحذير ، والحض على استعمال الحكمة والتأنى فى كل غرض حتى تنال البلاد ما هى أهله من الكرامه والمجد القديم .

لم يرضى قول (روزفلت) هذا جماعة (الحزب الوطنى) وأذنابه ولا المتطرفين من أعضاء مجلس الشورى والجمعية العموميه واجتمعوا على إنكاره وتفنيده . فلما كان بعد ظهر يوم الثلاثاء سابع عشر ربيع الأول من السنة وتاسع عشر مارس سنةعشرة وتسعمائة وألف عقدوا اجتماعا كبيرا فى قاعة (البيلوت باسك) رأسه (محمد فريد) رئيس الحزب ، فجلس على منبر نصب خصيصا وعلى جانبى المنبر لوحتان كتب على إحداهما (ليحيى الدستور ، وعلى الثانية (حياتنا الدستور) . وكان أمام ذلك المنبر زهاء الأربعمائة من تلاميذ المدارس وجمهور كبير من الناس . ووقف خطيبهم بين الأصوات المرتفعة الى عنان الفضاء بالدعاء الى (محمد فريد) ومصر وإلاستقلال والدستور وغير ذلك من الهتر الذى لا معنى له . فألقى خطبته بصوت يصم الاسماع ، وظل على هذا ساعة أو يزيد ثم دعا الحاضرون لأن يذهبوا الى فندق شبرد حيث يقيم (روزفلت) ليعلنوا احتجاجهم على مسمع منه . فقامت عند ذلك ضجتهم وعلت صيحاتهم وخرجوا وأمامهم العلم المصرى ، ووقفوا امام الفندق وجعلوا ينادون (ليسقط المنافقون)(ليحيى الدستور)(لتحيى مصر) (ليسقط الاحتلال)(ليسقط روزفلت) . ثم ساروا من هناك الى ميدان التياتروهم على هذا الحال من الصياح والنداء . ومروا بنادى (الحزب الوطنى) الى (فندق انجلترا) ثم تفرقوا ولم يرهم (روزفلت) ولا سمع صياحهم لأنه لم يكن بالفندق ساعة حضورهم .

وعادوا فى مساء ذلك اليوم الى الإجتماع ثانية فخطب فيهم (أحمد افندى لطفى السيد) (مدير الجريده) خطبة طويلة كلها إحتجاج على أقوال (المستر روزفلت) وبيان لمعنى الدستور وأسباب طلبه ولكنها كانت اكثر اعتدالا من سابقتها ، ومع ذلك لم يعجب الناس ماوقع من أولئك الصبية وساءهم ما نال الضيف العظيم ، وعابوا على

صاحب الشرطة إغضائه وعلى وزير الداخليه المسئول عن الأمن العام سكوته على هذه الشوائن المخزية . ولبث (المستر روزفلت) بالقاهرة أياما مكرما من سائر وكلاء الدول وكبار الأجانب معظما حتى اليوم الثامن عشر من ربيع الأول من السنة آخر شهر مارس ، فقام الى الإسكندرية يريد العودة إلى دياره . فأعدوا له عربة مخصوصة فى القطار المستعجل الخاص . فاجتمع لمشاهدته خلق كثير من الأجانب والأهلين . واصطف أمام عربته جماعة من أصحاب الشرطة ، وودعه فى المحطة أحد رجال القصر باسم الأمير وجماعة كثيرة من كبار الأجانب وعظماء الأقباط وصاحوا له جميعا بالدعاء . فلما كان عصر ذلك اليوم نزل من الاسكندرية إلى البحر وسافر الى (مدينة نابولى) . ولم يصل[٣٧] الى ظهر الباخرة التى تقله حتى جاءت رسالة برقية من جماعةمن (الحزب الوطنى) بالإسكندرية يقولون له فيها (الأمة المصرية كانت تنتظر من عظيم مثلك أن يحكم فى قضيتها حكما عادلا صحيحا ولكنك تسرعت فى الحكم واتبعت قول المغرضين فأسأتها بتصريحاتك وأنت القائل لا أترك قويا يتسلط على ضعيف ــ أنت عظيم وتكون أعظم يوم تقول إنى أخطأت فى حكمى على المصريين ، ومع كل ذلك نطلب لك ولعائلتك السلامة) أ . هـ . وعندى أن هذا الاحتجاج غاية من التلطف والتأدب .

أقول لقى ذلك العظيم فى سفره وداعين ، وسمع والباخرة تقوم به صوتين . فأرسلت اليه (جمعية الرابطة القبطية المسيحيه) على جناح البرق تقول (بلسان الشبيبة نقدم لكم واجب الشكر للنصائح الذهبية التى ألقيتموها علينا ونسألكم أن تذكر مصر فى بلادكم النائية) أ . هـ

وأرسل إليه الطلبة الأقباط تلاميذ مدرسة الحقوق والطب والهندسة على جناح البرق أيضًا يقولون : نحن الطلبة الأقباط بالمدارس العالية نتشرف بأن نرفع إلي مقامكم العظيم تشكراتنا القلبية بما زودتمونا به فى خطابكم النفيس بالجامعة المصرية من النصائح الغالية والتصريحات الصادقة الحرة . وكما قوبلت أقوالكم من جميع عقلاء المصريين بالإجلال والإعظام ، فقد رأوا مقاصدكم الشريفة ومبادئكم العالية حق قدرها . نرجو أن تظل مصر العاقلة نصب عينكم ، فتذكروها بالخير فى بلادكم العزيزة ، ثم أننا

(٣٧) ولم يصل = ولم يكد يصل أعدت الصياغة ليستقيم المعنى .

باسم الحق والعدل والمساواة نسألكم أن ترفعوا صوتكم على الدوام بالإنتصار للضعفاء والدفاع عن حقوق الأقلية فى مصر أين وجدت . مايتين ستة وخمسين طالبًا .

وأرسل طلبة المدرسة القبطيه الكبرى إليه يقولون أيضا (بالأصالة عن أنفسنا وبالنيابة عن سائر أفراد الناشئة القبطية فى القطر المصرى نقدم لجنابكم واجب الحمد على ذلك الخطاب الثمين الصادر من فم رجل عظيم برهن على أنه أخلص ناصح وأصدق مشير للشعوب) أ . هـ

وأرسل اليه جماعة من المحاميين الملتفين حول أصحاب (الحزب الوطنى) كتابا بالإفرنسيه أبدوا فيه أسفهم من خطبته ويثبتون أن الأمة المصرية ليست على تلك الصورة المشوهة التى دسها أليه المأجورون وبنى عليها آراءه فى جدارة الأمة بالدستور . وكان لما وصل القطار الذى يقله الى محطة الاسكندرية وقف جماعة من أذناب (الحزب الوطنى) ونادوا بأعلى أصواتهم (فليسقط روزفلت ليسقط النفاق ليحيى الاستقلال) ثم أرسلوا إليه اشارة برقيه وهو على ظهر باخرته بهذا القول ومثله . يقال ولما وصل الرجل إلى ظهر الباخرة وجد كثيرا من الرسائل البرقية بالعربية فترجمها له ترجمان الوكالة الأمريكية وكلها هتر وقول معيب . فلما علم ما فيها قال الحمد لله كلها كلام فى كلام فى كلام والتفت إلى مودعيه وجعل يلاطفهم . وكأن روح الشر قد سرت من جسم (الوردانى) إلى أجسام كثيرين من الأهلين والأجانب فى هذا البلد الأسيف . فقد اتفق أن صاحب الشرطة كان خارجا من مكتبه فى ديوان المحافظة يريد الذهاب الى وزارة الداخلية فى أمر يخص مجلس (الوردانى) . فما هو أن برز من الباب حتى أطلق عليه رجل المانى الجنس من المخبرين السريين مسدسا فأخطأه . وتحرير الخبر أن الرجل كان يطمع فى منصب أرقى . فكلم صاحب الشرطه فى ذلك فوعده ولم ينجز وعده ، فذهب الرجل فى صبح ثالث عشر ربيع الأول من السنة رابع أبريل سنة عشرة وتسعمائة وألف إلى إحدى الحانات وشرب من المسكر أرداه حتى سكر . وجاء إلى ديوان صاحب الشرطة وجلس مع الجالسين من العسكر ، وكان بجانبه جندى قد قضى خدمته فى الجيش وجاء يطلب عملا عند صاحب الشرطة ، فسمع ذلك الألمانى يدمدم بالألمانية وهو لا يعرف لكلامه معنى ولم يجسر على الكلام معه . فلما خرج صاحب الشرطة من مكتبه أخرج فى الحال ذلك الألمانى مسدسه وصوبه إلى رأس صاحب الشرطة . فقام

خلفه ذلك الجندى وقبض على ذراع الألمانى ورفعه إلى فوق فأخطأ المسدس المرمى ودوى صوت الطلق . فترامح الناس واندفعوا على الجانى ، فكان ذلك الجندى المصرى قد قبض عليه بيد من حديد وانتزع منه المسدس وألقاه على الأرض ، فحملوه الى السجن وسار صاحب الشرطة فى طريقه الى حيث يريد . وقد وجدوا مع الجانى مذكرة بالألمانية تدل على تصميمه على ارتكاب هاته الجناية . وشاع خبر ذلك وتناقله أصحاب الصحف وتحدث الناس به فى مجالسهم ، وهم يحسبون لانتشار هذه الروح الخبيثة حسابا كبيرا ، لا سيما وصحف (الحزب الوطنى) قد ملأت جو البلاد بتمجيد عمل الوردانى وامتداح وطنيته والثناء على رباطة جأشه ، وغير ذلك من هتر الكلام يزعانف[٣٨] القوم وصغار العقول إلى ارتكاب أفظع الجرائم وأضرها بسمعة هذا البلد الأمين .

ولما كان سادس عشرى ربيع أول من السنة سابع أبريل سنة عشر وتسعمائة برح الخفاء وظهر قرار الجمعيه العمومية برفض (مشروع قناة السويس) رفضا باتا بحكم ما أجازه الأمير من اعتبار رأيها فى ذلك رأيا قاطعا غير قابل للنقض والابرام . وبرز الأمر بذلك فعلت ضجة أصحاب الصحف المحازبة وظهرت الحركة فى مجالس أصحاب (الحزب الوطنى) وتزاوروا مع أعضاء مجلس الشورى والجمعية العمومية يهنئون بعضهم بهذا النصر الباهر . وعند كل عارف بمجريات السياسات أنه لو كان بين دولتى الإنجليز والفرنسيس مسحة من المودة والتفاهم فى مناحى سياستهما الخارجية ما نالت الجمعية العمومية منالا ولا بلغت الأحزاب قصدا ولا صح للأمير أن يجيز للجمعية تلك الإجازة التى هدمت ما بناه الإحتلال فى ثمان وعشرين عاما . وقد تقرر فض الجمعية وانصراف أعضائها إلى مواطنهم .

ومابزغت شمس يوم الخميس عاشر ربيع الثانى من السنة حادى عشر ابريل سنة عشرة وتسعمائة حتى أخذت جماهير الخلق تتوارد الى ميدان باب الخلق . وكان قد اصطفت هناك قوة من رجال الشرطة على طول الشارع ، فوقف الناس بعيدين عن جوار المحكمة ، وظلت الأبواب مقفلة حتى الساعه الثامنة صباحا ففتحت ، وأذن لمن بيده تذكرة دخول وقد كانوا وزعوا شيئا منها على الوجهاء وعلية القوم . وأدخلوا أصحاب

(٣٨) يزعانف القوم = الذى يحض زعانف القوم أعدت الصياغة ليستقيم المعنى .

الصحف أيضا على اختلافها ، ولم أر فى كل ما رأيته شيئا يستوجب كل هذه التحوطات التى قد اتخذوها فى الخارج والداخل إلا إذا كان اهل الحل والعقد لهم فى ذلك قصدا وغرضا يرجع إلى إفهام الأمير وحاشيته وآل بيته أن فى البلاد قوة شديدة عاملة فى الخفاء على اغتياله وسلب الملك من بيت أبيه وجده كما كانوا يشيعون ، حتى بات وأصبح بعد قتل وزيره الكبير لا يرى السلامة إلا فى ممالئة وزيره الجديد والإعتماد عليه .

وعند الساعة الثامنه ونصف أخذ المحامون يفدون فجلسوا فى محل المحاماة . وبعد لحظة لطيفة دخل (هارفى باشا) صاحب الشرطة ومعه عشرة من جنده فوقفوا وراء المقاعد . وقد لاحظت بين الحاضرين (محمد فريد بك) رئيس الحزب الوطنى (وفتح الله بك بركات) العضو فى مجلس الشورى وآخرين ممن هم عاطفون على الجانى . وما وافت الساعه التاسعة حتى سار السكون بغتة فى القاعة ثم فتح الباب الكبير ودخل القضاة . وافتتح الرئيس الجلسة بهذه الكليمات (أريد أن أنبه حضرات الحاضرين أننا نريد ان القضاء[٣٩] محفوفا بالهدوء التام والسكينة الكاملة . فعند حصول تشويش أو أية مظاهرة أو أى شيء كان تقفل الجلسة حالا وتؤجل إلى دور ثانى ، ومن لم يفهم ما قلته بالعربيه أردده عليه بالإفرنسية ثم كرر عبارته هذه بالإفرنسية .

دخل (ابراهيم الوردانى) فاتجهت إليه الأنظار واشرأبت الأعناق وسرى فى القاعة شيء من الإضطراب ، وكان أصفر اللون شاخص العينين وحوله نفر من الجند . فوقف واتكأ على درابزين مكان المجرمين وهو ينظر من حين إلى حين الى الحاضرين حتى رأى(محمد فريد) رئيس الحزب الوطنى المبارك ، فلما التقت العين العين تبسم له (محمد فريد) وجعل يعبث بشاربيه ولعل له فى ذلك غرض أو معنى . فنظر إليه القاضى وسأله عن إسمه وسكنه وغير ذلك من الأسئلة المعتاده فأجاب بصوت متلجلج . ثم سأله عن التهمة المسنده إليه فقال أجيب بعد كلام المحامين .

القاضى ــ أسألك عن الجريمه التى قد ارتكبتها ــ الوردانى ــ أتكلم بعد المحاماه . القاضى للكاتب إثبت انه لم يجاوب . ثم أخذ القاضى يستدعى الشهود واحدا فواحدا .

---

(٣٩) أن القضاء = أن يكون القضاء قراءة اجتهادية .

وكان (الوردانى) فى هذه الأثناء ينظر الى الحاضرين يمنة ويسرة ويفتل شاربيه وينظر الى القضاة وهو على هذه الحال . وشهد جميع الأطباء الذين كانوا حول الوزير وأجروا العملية الجراحيه بأن سبب الوفاة كانت صدمة رصاص المسدس الذى خرق الكبد خرقين وخرق المعدة ومسح الأمعاء مسحا فقطع الشرايين . ثم رفعت الجلسة وعادت لسماع بقية الشهود وهم شهود النفى . فكان أولهم (الدكتور سرج فورونوف ، فهذا الطبيب جعل يشرح العمليات الجراحية وأسبابها وعللها وما يجب على الأطباء الملكيين والأطباء العسكريين فى العمليات الجراحية التى هى من نوع إصابة (الوزير بطرس باشا) . وكان كلما سأله القضاة عن جروح المعدة مثلا أحال ذلك على الإحصائيات وعلى العلل والأسباب حتى أعيا القضاة وأعيا السامعين . وكان بجانبى وجيه تظهر عليه الهيبة والوقار ، فلما سمع أقوال ذلك الطبيب صار يتململ ثم تنهد وقال بصوت ضعيف دعوه فإن الخمسين الذهب التى تناولها قد ألجمت لسانه عن قول الحق . وبعد أخذ ورد مع ذلك الطبيب وهو يريد أن يثبت أن الوفاة كانت بسبب صدمة العملية الجراحية قام المحامى عن (الوردانى) وجعل يسأله أسئلة عن طول زمن العملية وعن ما اذا كان بعدد[٤٠] الأطباء سببا من الأسبا ب المعجلة للوفاة ، وغير ذلك مما أظهرت الأجابة عليه إنه كان متفق عليه لا محالة . وكان (الدكتور ملتون) فى هذه الأثناء يتبرم ويتقلى غيظا وهو سامط[٤١] ، فالتفت إليه القاضى وقال هلا تريد المناقشة مع الطبيب (فورونوف) فأجاب (ملتون) (لا لا أريد ذلك فأنا وحدى رأيت حالة المريض وأنا وحدى شاهدت كل الحادثة وفحصتها تماما من البداية إلى النهاية وليس لأحد أن يناقشنى فى شىء تحققته دون سواى) . ورفعت الجلسة الى ما بعد ظهر اليوم ، وعادت وعاد (الوردانى) إلى موقفه وكان كبير العناية فى هذه الجلسة بسماع اقوال الشهود . وكان إذا دخل الشاهد أخذ يشيعه بنظره إلى أمام القضاة ويصغى بانتباه إلى كل ما يقوله . ودخل احد شهود النفى وهو (سعد بك الخادم) وأدى شهادة كلها أحاجى كشهادة (فورونوف) واستنتاجات من عمليات ومشاهدات جراحية وكلها ترمى الى أن صدمة العملية الجراحية هى التى سبب موت الوزير لا صدمة رصاص الجانى . وقد سأله المدعى العمومى عما إذا كان

(٤٠) بعدد = تعدد قراءة اجتهادية .
(٤١) سامط = صامت قراءة ترجيحية .

شاهد بعينه مجريات العملية الجراحية تماما وكان بين الجراحين إذ ذاك . فأجاب بأنه كان يرى العملية من خلف الجراحين ولم يكن بينهم . فتبسم عند ذلك المدعى العمومى وبعض السامعين لأن الرجل قصير القامة لدرجة لا تمكنه أن يرى شيئا من خلف الجراحين وكلهم طوال القامة .

وانتقل القضاة من سماع شهود النفى إلى سماع أقوال بعض الأطباء وغيرهم عن حالة (الوردانى) العصبية . فشهد الطبيب (عيسى باشا حمدى) بأن (الوردانى) عصبى المزاج وأن العصبى يقدر أن يقدم على كل شىء وهو يفعل كل شىء فى حالة النوبة وأن صاحب هذا المزاج يكون عنده استعداد لاضطرابات وقتية لا تقاوم . قال وقد يستمر التأثير العصبى بحالة تسمى (موتومانى) ولا تزول إلا بعد الإقدام على ما يتصور العصبى أن يفعله . قال ولا يمكننى أن أحكم تماما على (الوردانى) بأنه من أصحاب هذا المزاج لأن الحكم البات يقضى بمعاينات عديدة وأنا لم أشاهده إلا مرة واحدة فى ثانى عشر شهر ديسمبر عام تسعة وتسعمائة وألف . وشهد غيره من خوجات المدارس التى دخلها (الوردانى) ولم يتناول من علومها شيئا حتى أرسله عمه الى مدارس بلاد (السويس) ليتلقى الطب فلم يفلح . وكان اشتغاله بالسياسة فى أيام الدراسة أكثر من اشتغاله بالعلم حتى رجع الى أهله صفر اليدين من كل شىء . وشهد آخر بأن جد (الوردانى) مات مجنونا وأنه يعرف (الوردانى) وهو صغير يلعب مع أولاد الحارة ، فكانت حالته إذ ذاك غير طبيعية . وشهد كثيرون بجنون جد (الوردانى) . وكان ممن استدعاه جماعة المتطوعين فى الدفاع عن الجانى الطبيب الكبير (محمد طلعت بك) ليشهد بأنه عالج الجانى من علته التى كانت تنتابه من حين إلى حين .

فلما وقف أمام منصة القضاء سئل (هل عالجت (ابراهيم الوردانى) فأجاب (لم أعرف هذا الشخص) ، فظهرت الحركه عند ذلك بين جماعة المحامين ووقف (الوردانى) وقال (لطلعت بك) تذكر يادكتور فقال الدكتور لا أعرفك . فاستحسن السواد الأعظم من الحاضرين قول الطبيب (طلعت بك) . وانفضت الجلسة وقد أصر كل من المدعى العمومى وجماعة المحامين على التمسك بأقوال شهوده .

ولما انفضت الجلسة تحول المحامون إلى موقف الجانى وجعلوا يحادثون الجانى

والناس ينظرون اليهم . وبعد برهة لطيفة عاد القضاة إلى الجلسة وأصدرت قرارا بعرض مسألة الخلاف فنيا بين شهود الإثبات وشهود النفى على لجنة طبية فنية لتقرر تلك اللجنة كيفية الإصابة وأسباب الموت وعلله إن كانت من صدمة برصاص المسدس أو بصدمة العملية الجراحية كما يزعم المحامون ، وانتدبت المحكمة للفصل فى ذلك الطبيب (مادن) والطبيب (هاملتون) والطبيب (بهجت وهبى) والطبيب(على بك لبيب) ، ولكنه بعد حلف اليمين استعفى . وقد كان يوم السبت موعد النظر فى إفلاس (الوردانى) امام (محكمة مصر المختلطة) فطلب المحامى عنه شطب القضية لأن نفرا من (الحزب الوطنى) دفعوا ما عليه من الدين لأحد تجار الأدوية من اليونان ، وتنازل(عيسى باشا حمدى) عن أجرة المكان الذى كان الوردانى قد استأجره منه . يقال كان مبلغ الدين ماية وخمسين جنيها . وكان (الوردانى) قبل إقدامه على تلك الجناية بيوم واحد قد أرسل إلى أهله على جناح البرق وأقاربه فى الفيوم والوجه البحرى ليطلب منهم بعض المال ليدفع دينه أو بعضه فلم يجيبوا له طلبا . وكانت الصحف القبطية فى هذه الأثناء تشرح لقرائها أدوار الحادث العظيم وتشير إلى أقوال الأطباء وجماعة المحامين والفرق الواقع بينهما ، وتصف الجانى ببعض نعوت التحقير والتسفيه ، فعز ذلك على بعض أصحاب الحل والعقد . فبرز أمر وزارة الداخلية الى محافظ المدينة بإنذار أصحاب تلك

---

(٤٢) توقف (ميخائيل شاروبيم) عند هذا الحد فى الجزء الخامس من (الكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث) دون أن يبرر هذا التوقف ـ ومن المعلوم أنه توفى عام ١٩٢٠ ، أى بعد عشر سنوات من تسجيله آخر ما سجله من تاريخ مصر (اغتيال المرحوم بطرس غالى) . لا يعلم إذن أسباب توقف العمل عند جزئية فى غاية الأهمية . فلقد كان المتوقع أن يتكلم (شاروبيم بك) عن سير إجراءات المحاكمة ، والجدل الذى دار حول أسباب وفاة (بطرس باشا) رئيس النظار ، وهل كانت الوفاة ناجمة عن صدمة العملية الجراحية كما ادعى الدفاع أم عن صدمة الجروح التى سببتها طلقات الرصاص التى أصيب بها المجنى عليه . كان المتوقع أن يناقش (شاروبيم بك) مسألة رفض المفتى إصدار فتواه بشرعية إعدام الجانى ، وهى مسألة هامة للغاية . كان المتوقع أن يحدثنا عن وقع الحكم الصادر فى القضية ١٤٠ لسنة ١٩١٠ قسم عابدين (٨٠ لسنة ١٩١٠) على الجانى ، والحزب الوطنى ، والصحافة المسيحية وغير المسيحية ، وأخيرا على المسيحيين فى مصر . كان المتوقع أن يسخو (شاروبيم بك) فى شرح ردود الأفعال الصادرة عن المسيحيين ، والمؤتمر القبطى فى أبريل ١٩١١ والثغرة التى أحدثها فى نسيج الأمة ، وبالمثل ما أحدثه المؤتمر المصرى (أبريل ١٩١١) برآسة (مصطفى رياض باشا) من آثار تتعلق بإنهاء آثار (٢٠ فبراير ١٩١٠) ومدى نجاحه أو فشله . ولقد كان من بين الدراسات التى طرحت فى المؤتمر المصرى بحث (لمحمد حافظ رمضان بك) بعنوان (العوامل الإجتماعية للحركة القبطية) . وليت (شاروبيم بك) كان قد أنهى تاريخه بمناقشة هذه الدراسة ، لكنه لم يفعل . ثغرات كثيرة تركها (ميخائيل بك شاروبيم) بتوقفه على هذه الصورة المفاجئة فى تاريخه الهام عن العقد الأول من القرن العشرين ، وهو عقد لا أتصور أبدا أن يكون قد فاته أهميته ، وهو ذلك المحقق الثَبت والمؤرخ المدقق .

فهل كان توقف (شاروبيم بك) عند هذه الجزئية من تاريخ مصر عن عمد؟ . أعتقد أن أحدا لا يستطيع الإجابة على هذا السؤال سوى ميخائيل شاروبيم نفسه . . . ولكنه مات وحمل سر توقفه معه .

مصادر الدراسة

أ - الوثائق :

١ - غير المنشورة

- دار الوثائق القومية (محفظة ديوان خديوى ـ داخلية بدون رقم ـ يوليو ١٨٩٦ - ١٩١٧)
- ــــــــــ (دوسيه تقارير داخلية ـ محفظة ٤) مارس ١٩٠٩ .
- المتحف القضائى (أوراق القضية ١١٠ ج السيدة زينب سنة ١٩٢٥ ـ (مقتل السردار) .
- F. O 141 - 381 - oct., 1904.
- F. O 141 - 397 - No. 55 - April,1906.
- F. O 141 - 397 - No. 148 - August, 1906.
- F. O 141 - 397 - No. 110 - May, 1906.
- Scrivener Papers - Middle East center - St. Antony's College - Oxford University. U K.

٢ - المنشورة :

- Egypt No. (5) - 1887 (Report by Sir Henry Drummond Wolff on the Administration of Egypt) Feb., 2 - 1887.
- Egypt No. (2) - 1906 (Correspondence Respecting the Turco - Egyptian Frontier in the Sinai Peninsula.
- القوانين العقارية فى الديار المصرية - نشر بمعرفة مراقبة الأموال المقررة ـ - طبع بالمطبعة الكبرى الأميرية ببولاق مصر المحمية ـ سنة ١٩٠١ إفرنجية .
- تقويم الدولة المصرية لسنة ١٩٣٣ ميلادية ـ وزارة المالية ـ المطبعة الأميرية ـ القاهرة - ١٩٣٣ .
- تقويم الدولة المصرية لسنة ١٩٣٥ ميلادية ـ وزارة المالية ـ المطبعة الأميرية ـ القاهرة - ١٩٣٥ .
- تعداد سكان القطر المصرى ـ الجزء الأول ـ الوجه البحرى ـ المطبعة الأميرية ببولاق ـ ١٨٩٨ .

ب - المؤلفات

باللغة العربية :

- أحمد السعيد سليمان (تأصيل ما ورد فى تاريخ الجبرتى من الدخيل) ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ ١٩٧٩ .
- أحمد شفيق باشا (مذكراتى فى نصف قرن) ثلاثة أجزاء ـ مطبعة مصر ـ ١٩٣٦ .
- أحمد عبدالرحيم مصطفى (علاقات مصر بتركيا فى عهد الخديو إسماعيل ١٨٦٣ - ١٨٧٩ دار المعارف ـ القاهرة ، ١٩٦٧ .
- أحمد عرابى باشا (كشف الستار عن سر الأسرار) ـ دار الهلال ـ القاهرة ـ ١٩٧٨ .

- آرثر جولد شميت (قاموس تراجم مصر الحديثة) - ترجمة وتحقيق عبدالوهاب بكر - وزارة الثقافة - المشروع القومى للترجمة - القاهرة - ٢٠٠٣ .
- أوقطان أصلان آبا (فنون الترك وعمائرهم) - ترجمة أحمد محمد عيسى - مركز أبحاث التاريخ والفنون والثقافة الإسلامية - استانبول - ١٩٨٧ .
- توفيق على برو (العرب والترك فى العهد الدستورى العثمانى ١٩٠٨ - ١٩١٤ - معهد الدراسات العربية العالية - القاهرة - ١٩٦٠ .
- جرانت أ . ج . وهارولد تمبرلى (أوروبا فى القرنين التاسع عشر والعشرين) الجزء الأول - ترجمة محمد على أبودرة ولويس اسكندر - مراجعة أحمد عزت عبدالكريم - وزارة التعليم العالى - الإدارة العامة للثقافة - مؤسسة سجل العرب - القاهرة - ١٩٦٧ .
- جورجى زيدان (كتاب تاريخ مصر الحديث من الفتح الإسلامى إلى الآن) الجزء الثانى - الطبعة الثانية - مطبعة الهلال بالفجالة بمصر - القاهرة - ١٩١١ .
- چوزيف ويليام مكفرسون (الموالد فى مصر) - ترجمة وتحقيق عبدالوهاب بكر - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة - ١٩٩٨ .
- حسن قنديل (البكباشى) (فتح دار فور سنة ١٩١٧ ونبذة عن تاريخ سلطانها على دينار) - مطبعة العدل - الإسكندرية - ١٩٣٧ .
- سيد عشماوى (العيب فى الذات الملكية ، إنهيار هيبة حكم الفرد المطلق ، الخديو - السلطان - الملك (١٨٨٢ - ١٩٦٢) - الهيئة العامة للكتاب - تاريخ المصريين (٢١٧) - القاهرة ٢٠٠٢ .
- الشوقيات - لأمير الشعراء أحمد شوقى بك - الجزء الأول (فى التاريخ والسياسة والاجتماع) . مكتبة مصر - د . ت .
- طارق البشرى (المسلمون والأقباط فى إطار الجماعة الوطنية) دار الشروق - القاهرة - ١٩٩٨ .
- عبدالرحمن الرافعى (الثورة العرابية والإحتلال الإنجليزى) - الطبعة الثالثة - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة - ١٩٦٦ .
- ———— (الزعيم أحمد عرابى) - الهلال - العدد ١٠ مارس ١٩٥٢ .
- ———— (عصر إسماعيل) الجزء الأول - الطبعة الثانية - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة - ١٩٤٨ .
- عبدالعظيم محمد رمضان (مذكرات سعد زغلول) - الجزء الثانى - الهيئة المصرية العامة للكتاب - مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر - القاهرة - ١٩٨٨ .
- عبدالعليم خلاف (جهود مصر الكشفية فى أفريقيا فى عهد الخديو إسماعيل ، ١٨٦٣ - ١٨٧٩) رسالة ماجستير غير منشورة - جامعة عين شمس - ١٩٨١ .
- عبدالكريم رافق (بلاد الشام ومصر من الفتح العثمانى إلى حملة نابليون بونابرت ١٥١٦ - ١٧٩٨) - الطبعة الثانية - دمشق - ١٩٦٨ .

- عبدالمنعم جميعى (الجامعة المصرية [القديمة]، نشأتها ودورها فى المجتمع ١٩٠٨ - ١٩٢٥) الطبعة الأولى - دار الكتاب الجامعى - القاهرة - ١٩٨٠.
- ———— (مصر فى التاريخ الحديث والمعاصر ١٧٩٨ - ١٩٧٣) - الطبعة الأولى - القاهرة ١٩٩٢.
- عبدالوهاب بكر (البوليس المصرى ١٨٠٥ - ١٩٢٢) رسالة ماجستير غير منشورة - جامعة عين شمس ١٩٧٧.
- ———— (أضواء على النشاط الشيوعى فى مصر ١٩٢٠ - ١٩٥١) - دار المعارف - القاهرة - ١٩٨٣.
- فتحى رضوان (مصطفى كامل رائدا وطنيًا) - الجمعية المصرية للدراسات التاريخية - ١٩٧٦.
- فؤاد كرم (النظارات والوزارات المصرية) الجزء الأول - الهيئة المصرية العامة للكتاب - مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر - القاهرة - ١٩٩٤.
- لويس عوض (تاريخ الفكر المصرى الحديث من الحملة الفرنسية إلى عصر إسماعيل) - الطبعة الأولى - مكتبة مدبولى - القاهرة - ١٩٨٧.
- محمد حرب عبدالحميد (السلطان عبدالحميد الثانى آخر السلاطين العثمانيين الكبار) - الطبعة الأولى - أعلام المسلمين (٣٠) - دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع - دمشق ١٩٩٠.
- ———— (مذكرات السلطان عبدالحميد) - دار الأنصار - القاهرة - ١٩٧٨.
- محمد رمزى بك (القاموس الجغرافى للبلاد المصرية من عهد قدماء المصريين إلى سنة ١٩٤٥ - الجزء الأول - الهيئة المصرية العامة للكتاب - مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر - القاهرة - ١٩٩٤.
- محمد عبدالرحمن برج (دراسة فى الحركة الوطنية المصرية - وزارة بطرس غالى ١٩٠٨ - ١٩١٠) الطبعة الثانية - مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة - ١٩٨٠.
- محمد قاسم وحسين حسنى (تاريخ القرن التاسع عشر) - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة - ١٩٣٨.
- محمد محمود السروجى (الجيش المصرى فى القرن التاسع عشر) - دار المعارف - القاهرة - ١٩٦٧.
- مصطفى كامل (المسألة الشرقية) - تحقيق عبدالرازق عيسى وعبير حسن - العربى للنشر والتوزيع - القاهرة - ٢٠٠٠.
- مولانا جلال الدين الرومى (مثنوى) - ترجمه وشرحه وقدم له (إبراهيم الدسوقى شتا) - وزارة الثقافة - المشروع القومى للترجمة (٢٥) - القاهرة - ١٩٩٦.
- ميخائيل شاروبيم (الكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث) الجزء الخامس - تحقيق عبدالوهاب بكر - دار الكتب والوثائق القومية - القاهرة ١٩٩٨.
- نيللى حنا (بيوت القاهرة فى القرنين السابع عشر والثامن عشر - دراسة معمارية) - العربى للنشر والتوزيع - القاهرة - ١٩٩٣.

- هربرت فيشر (أصول التاريخ الأوروبى الحديث) ترجمة زينب عصمت راشد وأحمد عبدالرحيم مصطفى - مراجعة أحمد عزت عبدالكريم ـ الطبعة الثالثة ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ ١٩٧٠ .
- ______ (تاريخ أوروبا فى العصر الحديث ١٧٨٩ - ١٩٥٠) تعريب أحمد نجيب هاشم ووديع الضبع - الطبعة السادسة ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ ١٩٧٢ .
- يونان لبيب رزق (الأهرام ديوان الحياة المعاصرة) الجزء الأول (١٨٧٦ - ١٨٨٢) ـ مركز تاريخ الأهرام ـ الأهرام ـ ١٩٩٥ .
- ______ (الجذور التاريخية للتجربة الحزبية) ـ فى(الأحزاب المصرية ١٩٢٢- ١٩٥٣) ـ مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام ـ الأهرام ـ أغسطس ١٩٩٥ .
- ______ (الحياة الحزبية فى مصر فى عهد الاحتلال البريطانى ١٨٨٢ - ١٩١٤) ـ مكتبة الأنجلو المصرية ـ القاهرة ـ ١٩٧٠ .
- ______ (طابا قضية العصر) الطبعة الأولى ـ مركز الأهرام للترجمة والنشر ـ القاهرة ـ ١٨٩ .

ج - الدوريات

١ - العربية :

ـ الأهرام - ١٩٥٢/١/٢٧ .
- الوقائع المصرية (ملحق) ١٨٩٢/٤/١٤ .
ـ المصور ـ ١٩٣٧/٧/٢٩ .

٢ - الأجنبية :

- The Times, Tuesday, April 17, 1906
- __________, May 16, 1906.
- __________, Sept., 29, 1906.

د - القواميس والمعاجم والموسوعات والمراجع العامة :

ـ (القاموس الفريد ـ إيطالى عربى) ـ تأليف رياض جيد ـ دار إلياس العصرية ـ القاهرة ـ ١٩٨٠ .
ـ مختار الصحاح لمحمد بن أبى بكر عبدالقادر الرازى ـ مكتبة لبنان ـ بيروت ـ ١٩٨٧ .
ـ المعجم الوجيز ـ مجمع اللغة العربية ـ القاهرة ـ ١٩٩٦ .
ـ المورد ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ١٩٨٢ .
ـ چيمس ردحاوص الإنكليزى (تركچة - انكليزجه ـ يانه مكمل ـ لغت كتابى) ـ استانبول ـ ١٨٩٠ .
ـ الهيئة العامة للاستعلامات (تاريخ وآثار مصر الإسلامية) ـ القاهرة ـ ١٩٧٧ .
- Dictionary of Foreign Words and phrases - Philosopical Library- Maxim new Mark - New York - 1986.
- The Columbia History of the World - Harper & Row- USA - 1987.
- The Concise Columbia Encyclopedia - Columbia University Press- New

York - 1983.
- Larousse Universel - 2 Vol umes- Librairie Larousse- Paris 1921.
- Leo Ger shoy (A Survey of European Civilisation) 4th ed. New York University press - 1906.
- Lexicon Universal Encyclopedia - 21 Vols. Lexicon Publications - New York - 1983.
- Jere L. Bacharach (A Near East studies Handbook, 570 - 1974), University of Washington press - 1974.
- The Concise Turkish Dictionary - Clarendon press- Oxford - UK, 1959.
- Webster's new Universal Unabridged Dictionary 2nd. ed.- Dorset & Baber - USA. 1983.

هـ - مؤلفات بلغات أوروبية :

- Bernard Lewis (Istanbul and the Civilization if the Ottoman Empire) London - 1938.
- C. S. Jarvis (Yesterday and Today in Sinai) - London - 1038.
- Daniel Crecelius & Abd al-Wahhab Bakr (al -Damurdasih's Chronicle of Egypt, 1688 - 1755 - Al - Durra al-Musana Fi Akhbar al-Kinana) E. J. Brill - Leiden, 1991.
- Donald Malcolm Reid (Cairo Universaity and the Making of Modern Egypt) The American University in Cairo Press - 1990.
- Henry Kissing er (Diplomacy) Simon & Schuster- USA - 1994.
- Joel Beinin & Zakhary Lockman (Workers on the Nile - Nationalism, Communism, Islam and the Egyptian Working Class, 1882 - 1914) Princeton University Press - Princeton, Newjersy - 1987.
- Lois Aroian & Richard Mitchell (The Modern Middle East and North Africa) Macmilan Publishing Company - USA - 1984.
- Michael Machlagan (The city of Constantinople) New York, 1968.
- Stanford Shaw & Jezel kural shaw (History of the Ottoman Empire and Modern Turkey) Vol. II- Cambridge Universaity Press - UK - 1977
- Thomas Russell (Sir) (Egyptian Service, 1902 - 1946 - John Murray - London, 1949.
- Wallace K. Ferguson & Geoffry Brunn (A Sur vey of European Civilizotion) 4 th ed. Houghton Mifflin Company - Boston - 1969.


